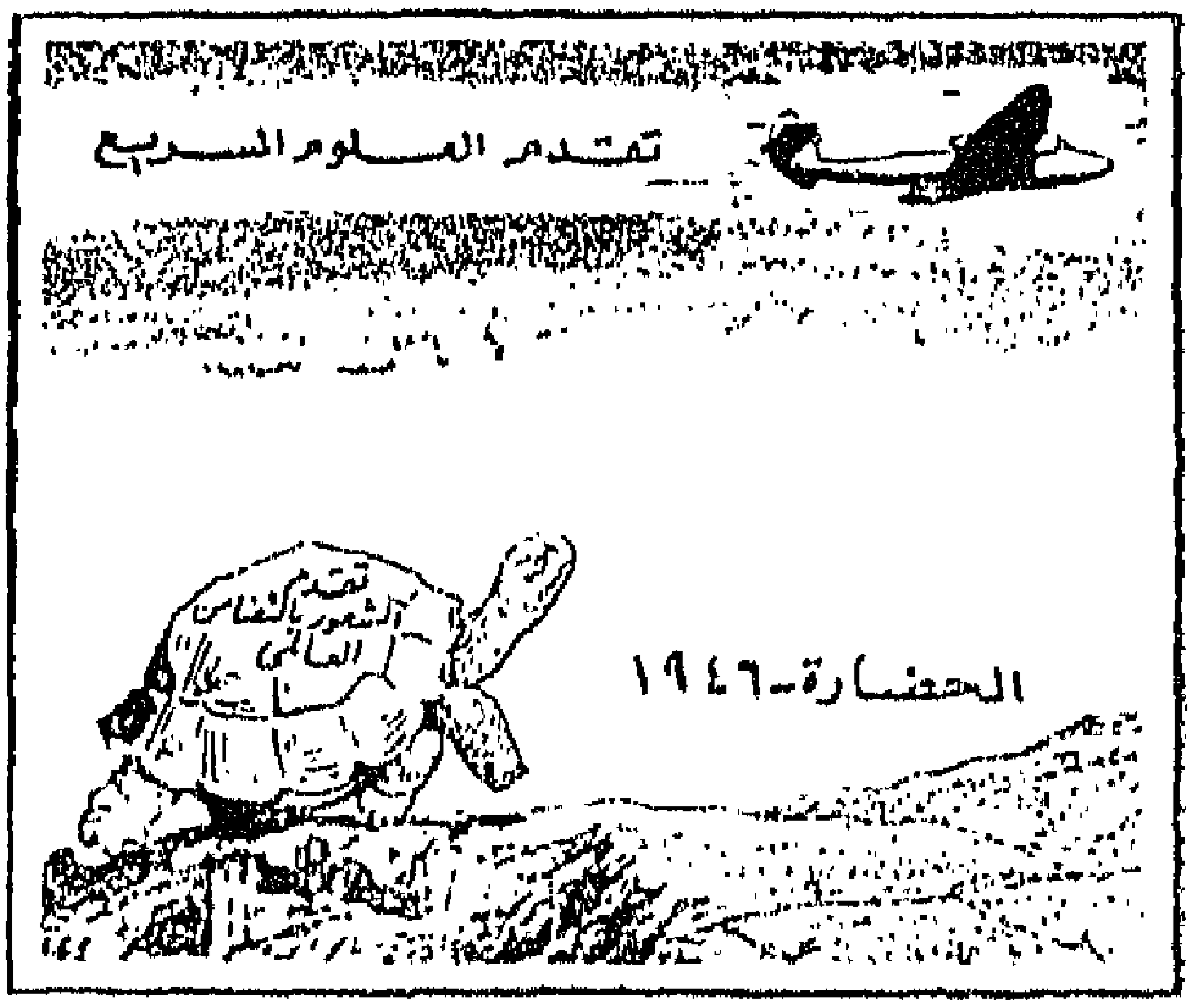
قضية السلام

امري ريفز



آراء في هذا الكتاب المثير

الأسوشييتد بريس : قلّ بين الكتب عن أخطار الحرب ما هو أشدّ تحريكا للنفس من هذا الكتاب عن احتمالات السلام .

النيويورك تيمس : إنه بارع بليغ يعالج الواقع كما هو .

سان فرنسسكو كرونيكل : جدير بالكتاب أن يعنى به ويفكر فيه كل إنسان .

نيويورك هيرالد تريبيون : القضية من حيث خطوطها الرئيسية لا تنقض .

توليدو بليد : هذا الكتاب هو كتاب المبادىء والقواعد لجميع الذين يريدون أن يبنوا عالماً منظماً يسوده السلام .

منيا بوليس سندى تريبون: ربما استطاع

بعضهم أن يثبت أن ريفز مخطىء ، ولكننى أشك فى هذا .

روبرتس القاضى السابق فى المحكمة العليا للولايات المتحدة : إنه دعوة مدوية إلى التفكير الرشيد فى سلام العالم . ونحن جميعاً مدينون بالشكر لإمرى ريفز .

مارك فان دورين المؤرخ : « إن القضية التى يعرضها ريفز تبدو مقنعة كل الإقناع ، وهى مقنعة بقدر ما هى ملحة . وكل ما أرجو ، هو أن يطلع على كتابه الملايين من القراء » .

كريستوفر مورلى الروائى : لو أمكن وقف كل الصحف والراديو مسافة يوم واحد ، لكان خير ما يقضى الناس فيه الوقت أن يقرأوا كتاب « قضية السلام » .

ستردى ريفيو الأدبية : من أحكم الكتب التى كتبت إلى الآن على القواعد الحقيقية التى لا بد منها لجعل السلام حقيقة واقعة .

قضية السلام

نظام الإقطاع فى القرن العشرين

إن الأحوال السائدة اليوم فى المجتمع الإنسانى ، فيها مشابه تلفت النظر من أحوال المدة الواقعة بين القرنين العاشر والثالث عشر ، حين ازدهر فى أوربا نظام الإقطاع .

لما تداعى الحكم المركزى فى العالم الغربى المعروف يومئذ ، وذلك حين سقطت الدولة الرومانية ، فقدت أرواح الناس وأموالهم ما يحميها من اللصوص فى الداخل ، ومن الغزاة فى الخارج . وفى هذه المرحلة المضطربة من مراحل التطور الغربى برز نظام الإقطاع ، وهو نظام سياسى أوحدته رغبة الجماهير فى الأمن ، فقصد الرجل الحر الذى لا أرض له ، والمالك الصغير أيضاً ، إلى أقوى سيد فى المنطقة ينشدان الملاذ والمعونة ، ويعرضان خدمتهما فى مقابلة ذلك .

وجعل الرعايا أنفسهم وأرضهم — إذا كان لهم أرض — رهن مشيئة الأمير ، وتلقوا منه الطعام والمأوى فى السلم ، والسلاح فى الحرب ، وفى مقابلة ذلك زرعوا الأرض وأدوا الضرائب وخاضوا المعارك . وكانت السلطة العليا فى الواقع فى أيدى الأمراء كل على حدته .

وقد تقررت العلاقات بين الأشراف

ورعاياهم بالعرف، ونظمت بالقانون، ولـكن العلاقات بين الأشراف المتجاورين لم يكن ينظمها سوى أواصر الأسرة ، والصداقات والاتفاقات فيما بينهم . وكان من الطبيعى أن تلهب الغـيرة والتنافس بين الأشراف الذين صاروا يكثرون دعوة رعاياهم مرة بعد أخرى إلى قتال الأمير المجاور

ولما كثرت المواصلات الداخلية وازداد عدد السكان ، ازدادت الحروب بين هذه الوحدات فى العـدد والعنف . وكان كل أمير إقطاعى ينظر إلى قوة جيرانه ونفوذهم نظرة الخوف والارتياب . ولم تكن ثم وسيلة للأمن من الهجوم إلا أن يهزم الواحد منهم جاره ، ويفتتح أرضه ، ويستلحق رعاياه ، وبذلك يوسع مجال نفوذه .

وقد أفضى هـذا التطور إلى الفوضى التامة والحروب الدائمـة تقريباً . وقد احتاج الرعايا إلى وقت طويل حتى يدركوا أن الاتفاقات التى عقدوها مع الأشراف الإقطاعيين للحصول على الأمن والحمـاية ، لم تجنهم إلا بالحروب الدائمة، وانعدام الأمن، والشقاء ، والموت .

على أنهم وجـدوا أخيراً أن خلاصهم لا يمكن أن يتحقق إلا بإقامة حكومة تكون فوق منازعات الأشراف المتحاربين . وكان من الضرورى لإدراك هذا الغرض أن يتم القضاء على قوة سادة الأرض الإقطاعيين ، وإقامة علاقات مباشرة بين الرعايا والحكومة المركزية . وهكذا التف الناس حول الملوك الذين بلغوا من القوة مبلغاً يسمح لهم بأن يفرضوا نظاماً شرعيا أقوى، وتفكك النظام الإقطاعى الذى سيطر على العالم خمسة قرون طويلة ، بعد أن تحسنت وسائل المواصلات، ونمت الآراء المشتركة ، فتيسر بهذا وذاك قيام حكومة أوسع نطاقاً .

ما علاقة هـذا التاريخ الطويل الأليم للإنسـانية فى القرون الوسطى بقضيتنا فى القرن العشرين ؟ لقد ظل الجنس البشرى يجاهد على الدوام فى سـبيل صور أرقى ووسائل أجود، لإيجاد نظام اجتماعى يستطيع الإنسان أن يفوز فى ظـله بالحرية والأمن جميعا . ويثبت التطور التاريخى للمجتمع أن هذه المثل الإنسانية العليـا إنما تتحقق على خير وجه ، إذا كان الفرد من الناس متصلا اتصالا مباشراً بسـلطة عليا مركزية تسن القانون للنـاس كافة . وقد وجدت هـذه الحقيقة معبراً عنها مرتين فى تاريخ الحضارة الغربية : فى أديان التوحيد وفى الديمقراطية .

إن المبدأ الأول ، فى اليهودية والمسيحية والإسلام هو التوحيد ، أى وحدانية الله ، وأن الناس سـواء عند الله . وهو عندهم المصدر الأعلى للشريعة . وهـذا المبدأ هو

الصخرة التي تقوم على قاعدتها الحضارة الغربية الحديثة. وذلك أن عقيدة التوحيد حين استقرت وتمكنت أصولها، على أن الله واحد، ليس فوقه شيء، وأنه هو رب الناس جميعاً، وأنه هو وحده صاحب السلطان على البشر — كانت هي أول شيء كشف للناس عن النظام الوحيد للتشريع الذي يمكن أن يقام عليه مجتمع إنساني يعيش في ظلال السلم.

وفي الوقت الذي أعلنت فيه هذه النظرية الخاصة بالمجتمع، كانت الأحوال بدائية إلى حد لا يسمح بتطبيقها كمبدأ سياسي. ولهذا ظلت فكرة المساواة في ظل قانون عام زمناً طويلا غير شائعة إلا من حيث هي عقيدة دينية. على أنه في القرن الثامن عشر دفعت الأحوال آباء الديمقراطية الحديثة إلى شن حرب شعواء للقضاء على سلطان الملوك والحكام الكثيرين الذين ظلموا الشعب واسترقوه، وأدى ذلك إلى إعلان المبدأ الأساسي القائل بأن السلطة مصدرها الجماعة أي الأمة.

وهذا المبدأ الذي هو أساس الديمقراطية يعد تفرعا سياسيا على عقيدة التوحيد. والنظرية التي يقوم عليها هي أن إرادة الجماعة هي المصدر الوحيد للقانون، وأنه في ظل القانون يتساوى الناس جميعا. وإنها لمن مآسي التاريخ الكبرى أن إدراك هذا المبدأ وإعلانه جاء قبل أوانه بقرن.

فإنه لما صار هو المبدأ السائد، كان من غير الممكن عمليا أن يكون القانون عالميا. فقد كان العالم لا يزال كبيراً جداً، ولم يكن من الميسور أن تكون هناك سيطرة مركزية عليه، وكان لا يزال كوكبا زراعيا محضا، لا تكاد أحواله الاقتصادية تختلف عن أحواله في الأزمنة الموغلة في القدم. وهكذا ظهر بديل من الوحدة العالمية يسَّر لمبدأ السيادة الديمقراطية أن يتخذ على الفور صورة جديدة يتجلى فيها.

وهذا البديل هو الأمة. ففي القرن الثامن عشر، لم يكن من الممكن أن تنظم الجماعة الإنسانية تنظيما عالميا. ولهذا لم يكن في الوسع تنظيم الديمقراطية وفق مبادئها العالمية الأساسية. ولم يكن ثم بدٌّ من تنظيمها تنظيما قومياً.

وظلت المسألة زمنا طويلا وكأنها حلت حلا مرضياً، ونعم مواطنو الدول القومية الديمقراطية الحديثة ورعاياها بقدر لم يكن معروفا من قبل في الحرية والأمن والرغد.

ولكن الوحدات القومية المختلفة، ذات السيادة، ما لبثت بفضل التقدم العظيم في المواصلات فيما بينها، أن اتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقاً. فكان هذا الاتصال بين

الدول المستقلة سبباً فى الاحتكاك والاصطدام، على نحو ما حدث فى العصور الوسطى .

واليوم صار المواطنون معرّضين للظلم والعنف ، وأبعد ما يكونون عن الفوز بالأمن والحماية المنشودين من دولهم ، وأصبح تعدد الوحدات المستقلة المتصادمة فى الجماعة الإنسانية يعفّى على كل أثر للحرية والحماية والأمن التى منحتها الدول القومية لشعوبها فى الأصل .

ونحن فى منتصف القرن العشرين نعيش فى عهد من النظم الإقطاعية السياسية المطلقة، حلت فيه الدول القومية محل أمراء الإقطاع . فإن التقسيم العرفى المصطنع للجماعة الإنسانية يضطر الدول القومية أن تسلك نحو رعاياها وجيرانها نفس سلوك الأمراء الإقطاعيين .

ونحن فى ظل نظام الدول القومية ، لا نستطيع أن نشترك فى سن القوانين فى أية رقعة من رقع الجماعة الإنسانية تجاوز حدود بلادنا ، فمن مغالطة النفس إذن أن يقال إن الأمريكيين والبريطانيين أو الفرنسيين « أمة حرة » ، فإن أمماً أخرى تستطيع أن تهاجمهم وتكرههم على الحرب فى أى وقت، وهم يعيشون فى خوف وقلق عظيمين ، كما كان يمكن أن يعيشوا تحت حكم ظالمة غاشمين يعتدون على حرياتهم حين يشاءون .

وقد طوح نظام الإقطاع القومى بالعالم إلى وحشية لم يسبق لها نظير ، وكاد يقضى على جميع الحقوق الفردية والحريات الإنسانية التى اكتسبها أجدادنا بالكدّ والدم .

ولا يوجد أقل أمل فى أن نستطيع تغيير النهج الذى تدفعنا إليه الدول القومية المتنازعة بسرعة ، ما دمنا نعدها المظهر الأسمى والنهائى لسيادة الشعوب. وسيقذف بنا بسرعة يطرد ازديادها ، على قلق أشد ، وتخريب أعظم ، وبغضاء أشد تسعراً ، ووحشية أفظع ، إلى أن يصح منا العزم على محو النظام السياسى القائم على الدول القومية، وإقامة نظام اجتماعى قاعدته سيادة الجماعة الإنسانية ، كما تصورها مؤسسو الديمقراطية، وعلى النحو الذى تنطبق به على حقائق اليوم .

السبب الوحيد الحقيقى للحرب

من المسلم به عادة أن للحرب أسباباً يخطئها الحصر، وأن محاولة إزالة كل هذه الأسباب مهمة ميئوس منها .

ويجب علينا أن نرفض أن نتقبل مثل هذا القول الخادع فى أساسه ، وإن كان يبدو صحيحاً ، إذا أردنا أن نتجنب أن نصبح ضحايا للخرافة ، لا حول لها ولا حيلة .

ويبدو لكل من لا يتعمق فى التدبر ، كأن الحروب قامت لأسباب شتى عديدة . فبين الشعوب البدائية ، كانت الأسر والعشائر

والقبائل تحترب ، ويستعبد بعضها بعضا أو يستأصل شأفته فى سبيل الطعام والمأوى والنساء وأرض الصيد . ثم فيما بعد ، وفى مستوى من المدنية أعلى من هذا ، نرى جماعات أكبر، ومدناً تقتتل ويحارب بعضها بعضاً — نينوى ، وبابل ، وطراودة ، وأثينا ، وإسبرطة ، وروميـة ، وقرطاجنة . وعلى أثر انهيار النظام الإقطاعى تغيّر ميدان الصراع مرة أخرى ، وخاضت الحروب مراكز تجارية عظيمة : البندقية، وفلورنسة وهامبورج ، ودانتزج ، وغيرها من المدن التى كانت وحدات قائمة بذاتها. ثم تلت ذلك سلسلة أخرى من الحروب شنها الملوك المطلقو السلطة لمصلحة أسَرهم ، ثم سلسلة أخرى أضرمت نارها الأديان المنظمة ، وأخـيراً جرّ قيام الدول القومية سلسلة من الحروب الهائلة بين أمم مجندة على بكرة أبيها .

فإذا كررنا الطرف إلى التاريخ فإن الحرب تبدو كأنهـا وحش له مئة رأس ، فلا يكاد بُنَاة الصلح يقطعون رأساً حتى تنمو رءوس أخرى بين كتفى الوحش . غير أننا إذا حللنا ما يبدو أنه الأسـباب المتعددة للحروب السالفة ، لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن هناك خيطا واحداً متصلا ينتظمها جميعاً ، وأن السبب الحقيقى للحروب كلها كان واحداً دائماً :

● إن الحروب بين جماعات من النـاس تؤلف وحدات اجتماعية ، تنشب دائما ، حين تمارس هذه الوحـدات سلطاناً غير محدود من السـيادة — سواء أكانت هـذه الوحدات قبائل أم أسراً ملكية ، أم كنائس ، أم مدناً أم أمماً .

● والحروب بين هـذه الوحدات الاجتماعية تنقطع عندما تنتقل سلطة السيادة منها إلى وحدة أكبر وأعلى.

إن الأسباب التى يعزو إليها التاريخ هذه الحروب ، لا اعتداد بها ، لأنها ظلت باقية مستمرة بعد أن انقطعت الحروب بزمان طويل . وما تزال المدن والأقاليم تتنافس، وما انفكت العقائد الدينية مختلفة اليوم كما كانت فى أيام الحروب الدينية .

ومتى أدرك الناس السبب الأساسى للحروب — لكل الحروب — فإن العبث والصبيانية اللذين تنطـوى عليهما المناقشات الحاميـة فى التسلح ونزع السلاح لا بد أن يظهرا .

ولو أن الجماعة الإنسانية كانت منظمة بحيث تكون العلاقات بين الوحدات قائمة على مقتضى منشآت قانونيـة تسيطر عليها الروح الديمقراطية ، إذن لاستطاع العـلم الحديث أن يبتكر أشـد الأسلحة تدميراً

وسحقا دون أن تنشب حرب . ولكنا إذا تركنا حقوق السيادة للوحدات المنفصلة ، دون أن تنظم علاقاتها بالقانون ، فقد نستطيع أن نحظر كل سلاح ، حتى ولو كان مبراة ، ومع ذلك تتقاتل الشعوب ويهشم بعضها رءوس بعض بالعصى .

ومن المآسى أن يرى الإنسان عمى حكوماتنا وجهالها، وعمى الزعماء السياسيين أيضا، فيما يتعلق بهذه المسألة الحيوية البالغة الخطر .

بعد سنة ١٩١٩ تسلطت على بناة السلام فكرة مؤداها أن التسلح يؤدى إلى الحرب، وأن الشرط الأساسى لسلام العالم هو التحديد العام للتسلح وخفضه ، وظل نزع السلاح يسيطر أتم سيطرة على الآراء الدولية خمسة عشر عاماً ، وصُبّت دعاية هائلة فى آذان الجماهير ، فحواها أنه لا ينبغى لأمة أن تبنى بوارج حمولتها أكثر من ٣٥٠٠٠ طن، وأن عيار المدافع ينبغى أن ينقص ، وأن تحظر الغواصات وحرب الغازات إلى آخر ذلك .

والآن يدعو زعماؤنا إلى نقيض ذلك على خط مستقيم ، واليوم يقال لنا : إن التسليح القوى هو وحده الذى يصون السلام ، وإن كل أمة ديمقراطية يجب أن تحتفظ بأساطيل وقوات جوية وجيوش ميكانيكية ، قوية لا تقهر ، وإن علينا أن نسيطر على قواعد حربية منتشرة حول الكرة الأرضية .

وهذه الفكرة — فكرة الاحتفاظ بالسلام بواسطة التسلح — ليست أقل خطأ من فكرة صون السلام بنزع السلاح . وللأسلحة من الشأن فى استتباب السلام ، مثل ما للضفادع فى تعيين حالة الجو ، والتجنيد والجيوش الجرارة عاجزة عن صون السلام كعدم التجنيد ونزع السلاح . إن قضية السلام قضية اجتماعية وسياسية، وليست بقضية فنية .

المعنى الحقيقى للسيادة

أما مسألة السلام الأساسية فهى مسألة السيادة ، ويتوقف الرخاء والسعادة بل مجرد الوجود، للمعدّن فى بنسلفانيا ، وويلز واللورين ، أو حوض الدون ، وللفلاح فى أوكرانيا ، والأرجنتين ، ووسط أمريكا ، أو فى حقول الأرز الصينية — على التفسير الصحيح لمعنى السيادة . وليست هذه مناقشة نظرية ، وإنما هى مسألة حيوية أعظم من مسائل الأجور والأسعار والضرائب ، لأن حل المسائل اليومية جميعاً لألفى مليون من البشر ، رهن بحل مسألة الحرب التى هى قطب الرحى .

وإن فى كثرة الحديث اليوم عن

السيادة — وهى لفظة كانت لا تكاد ترد فى المناقشات السياسية قبل عقد أو عقدين — لدليلا على وجود قرحة فى الكيان السياسى ، لا يدع شكا فى أن ثم شيئاً غير مرضى فيما يتعلق بالسيادة ، وأن تفسيرنا اليوم لهذه الفكرة يجتاز أزمة ، وأن الإيضاح لازم .

فما معنى « السيادة ؟ »

تبين فى مرحلة مبكرة جداً من حياة الإنسان ، أنه قبل أن نستطيع العيش معاً فى أسرة أو قبيلة ، ينبغى أن نفرض بعض القيود على نزعاتنا الطبيعية ، وأن نحظر أشياء نحب أن نصنعها ، وأن نرغم على فعل أشياء لا نحب أن نصنعها .

والطبيعة الإنسانية من خصائصها أنها تجعل الإنسان لا يتقبل القواعد إلا إذا فرضتها عليه سلطة مقررة ، وقد كان الإله هو أول سلطة مطلقة .

وهكذا صار من الضرورى أن يحمل الناس على الاعتقاد أن القواعد والنظم المطلوبة هى من أمر الله . وكان الكهنة يذيعونها ويحيطونها بكل ما يملكون من السحر ، وكانوا هم المتصلين مباشرة بالإله ، والذين يعرفون كيف يعلنون إلى الناس إرادته بين الرعد والبرق ، فيذعن الناس ويقبلونها .

وهـذه هى السلطة الأولى المطلقة — المصدر الأول للقانون — ورمز لقوة من وراء الطبيعة . وقد احتاج الملوك والأمراء الأوربيون للاحتفاظ بسلطتهم وبما يخولهم سن القوانين وحمل الناس على الإقرار لهم بأنهم المصدر الأعلى للقانون — احتاجوا أن يجعلوا علاقتهم أوثق ما يمكن بالدين ، وزعموا أنهم استمدوا سلطتهم من الله .

وفيما بين عصر النهضة والقرن الثامن عشر ظهر مبدأ اجتماعى أحدث انقلابا — هذا المبدأ هو أنه ما من فرد أو أسرة ملكية أو غير ملكية ، يمكن أن تعد مصدر للسلطات ، وأن الشعب هو مصدر السلطات والتشريع . وقد أدى هذا المبدأ الانقلابى إلى إقامة الجمهورية فى أمريكا وفرنسا وإلى النظام البرلمانى القائم ، فى إنجلترا وبلاد أخرى كثيرة ، على أن « الملك يتولى ولكنه لا يحكم » .

إن المبدأ المثالى القائل بسيادة الأمة كان فى بدايته خطوة عظيمة فى سبيل التقدم وحافزا إلى رقىّ الإنسانية . وجاء إعلان الاستقلال الأمريكى ، والثورة الفرنسية ، على أثر قيام النظم النيابية فى إنجلترا ، مشجعاً قوياً للشعوب الأخرى على الجهاد فى سبيل سيادتها واستقلالها . وبلغ هـذا التطور ذروته فى معاهدات الصلح التى عقدت فى عام ١٩١٩ ، حين كثرت الأمم التى صارت

تامة الاستقلال والسيادة كثرة لم يسبق لها نظير . وبعد عشرين عاما ديست هذه الأمم العزيزة ذات السيادة فى التراب ، وكثرت اليوم الأمم التى أصبحت مسترقة شقية كثرة لم يسبق لها أيضاً نظير .

فلماذا حدث هذا ؟

حدث لأن النظام السياسى الذى أقيم فى سنة ١٩١٩ وقدس المثل العليا للقرن الثامن عشر ، كان عتيقاً ، وبعد أوانه ، ومناقضاً مناقضة تامة للأحوال كما هى فى القرن العشرين . فقد كانت المثل العظيمة الخاصة بسيادة الأمة ، والاستقلال ، والقومية ، باعتبارها أساساً للدول ـ كانت نجاحاً معجبا فى القرن الثامن عشر ، فى عالم كان واسعاً جداً قبل أن تبدأ الثورة الصناعية .

أما تصورنا الحالى للسيادة القومية فيرينا كيف أن مثلا أعلى متى حصل إدراكه ، يمكن أن يشوه فى مسافة قرن واحد . إن التصور الديمقراطى للسيادة مؤداه أن تنتقل حقوق السيادة من يد رجل واحد ، ملك مثلا ، إلى الناس جميعا أى الأمة ، فالسيادة بالمعنى الديمقراطى هى للجماعة . ويجب أن نحاول أن نتمثل صورة العالم كما كان فى القرن الثامن عشر ، ففى ذلك القرن لم تكن الثورة الصناعية قد بدأت ، وكانت مركبة الخيل أسرع أداة للمواصلات . ففى هذه الأحوال كانت الأمة أوسع الآفاق فى نظر آباء الديمقراطية ، وهم إنما عنوا سيادة الجماعة حين أعلنوا سيادة الأمة ، وأرادوا أن تكون للسيادة أوسع قاعدة ممكنة .

أما فى النظام الحالى للعالم فإن السيادة ليست للجماعة ، وإنما تستعملها على صورة مطلقة طوائف نسميها الأمم ، وهذا مناقض على خط مستقيم لمعنى الديمقراطية الأصلى للسيادة . فقاعدة السيادة اليوم أضيق ما تكون ، وليست لها السلطة التى أريدت لها . وما زال اللفظ كما كان ، وما انفك ما يؤديه من المعنى واحداً ، ولكن ما يحيط به تغير ، لأن أحوال العالم تغيرت .

لقد بدأت بذور أزمة القرن العشرين تنبت على الفور تقريبا بعد قيام الدول القومية الديمقراطية الحديثة ، وحدث بمعزل عن هذا شىء آخر ، قسم له أن يكون حركة قوية أخرى وعاملا فعالا آخر فى التقدم الإنسانى ، وهذا الشىء هو الحركة الصناعية

وهذان التياران المسيطران على عصرنا وهما القومية والحركة الصناعية ، فى صراع دائم لا مفر منه .

فالحركة الصناعية تحاول أن تدخل الكرة الأرضية كلها فى نطاق نشاطها ، والإنتاج الصناعى الحديث بالجملة يحتاج إلى

خامات من كل أقطار العـــالم ، ويتطلب أسواقا فى كل ركن من الأرض وهو يسعى لتحقيق أغراضه بغض النظر عن الحوائل السياسية والجغرافيـــة والدينية والعصرية واللغوية والقومية .

أما القوميـــة ، فإنها على نقيض ذلك ، تحاول أن تقسم هذا العـــالم إلى جماعات صغيرة مستقلة .

وقد أمكن مدّة قرن أن يتحدّر هذان التياران معاً جنباً إلى جنب ، فقد كان فى عالم الدول القوميـــة ، بعض جهات سعتها كافية للتطور الصناعى داخلها . ولـكن هاتين القوتين تصادمتا بعنف هائل منذ بداية هذا القرن . وهذا التصادم بين حياتنا السياسية وحياتنا الاقتصادية والصناعية . هو السبب فى أزمة القرن العشرين التى ما زلنا نعانيها منذ سنة ١٩١٤ وليس لنا من الحول أكثر مما للأرانب فى التجارب العلمية .

ومعنى هـــذه الانتفاضة واضح ، فإن الإطار السياسى لعالمنا ، بما فيه من الدول القومية التى تبلغ نحو ثمانين . عقبة كؤود فى سبيل التقدم الصناعى الحر ، والحرية الفردية ، والأمن الاجتماعى .

فإذا نحن أبينا أن ندرك هذه المسألة ، وأن نعترف بأن التطور الصناعى قد حطم كياننا السياسى عتيقا ، فإننا لا نستطيع ان نرجو أن نخلق إطاراً سياسياً فى هذا العالم يتسنى أن يوجد فيه التطور الصناعى والحريات الفردية والعلاقات الإنسانية السلمية .

إن الخطوة الأولى للقضاء على هـــذه الفوضى هى التغلب على العقبة العاطفية الهائلة التى تمنع أن ندرك ونسلم أن مبدأ الدول القوميـــة ، بكل ما سجل له من نجاح فى القرن التاسع عشر ، هو اليوم علة ما يعانيه هذا العالم من شقاء وآلام لا تقدر . ونحن نعيش فى فوضى تامة ، لأننا فى عالم صغير متصل بعضه ببعض من كل وجه آخر ، ولـكن فيه نحو ثمانين مصدراً منفصلا للقانون، وثمانين دولة ذات سيادة .

والأمر الذى له دلالة فيما يتعلق بالأزمة الحاضرة هو أن الدول القوميـــة ، حتى أقواهن ، وحتى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتى ، ليس لها من القوة ولا من « السيادة » ما يكفى لتحقيق الغرض الذى أنشئت له . فهى لا تستطيع أن تحول دون كوارث كالحربين العالميتين الأولى والثانية ، ولا تستطيع أن تحمى شعوبها من الخراب الذى تؤدى إليه حرب دولية . وإذا كانت سيادة هذه الأمم العظيمة لا تكفى لحماية مواطنيها ، فلا حاجة بنا حتى

إلى الكلام على السيادة الوهمية لبلد مثل لاتفيا أو رومانيا .

وإذا آثرنا الصراحة قلنا إن فكرة الدولة القومية قد منيت بالإفلاس ، فإن الدولة القومية عاجزة عن منع العدوان الأجنبي ، ولم يعد لها غناء باعتبارها النظام الاسمى القادر على حماية شعبها من الويلات والبلايا التي تجرها الحرب . وجاءت الحرب العالمية الثانية فأثبتت على وجه حاسم أنه ما من أمة بمفردها ، ولو كانت أقوى مثيلاتها ، تكفى نفسها اقتصادياً .

ومن شأن الحقائق الاقتصادية والفنية التي لا مهرب منها في عصرنا ، أن تحتم علينا إعادة النظر في فكرة السيادة ، وأن نوجد منشآت ذات سيادة قائمة على الجماعة ، طبقاً للتصور الأصلي للديمقراطية . فسيادة الشعب العالمي يجب أن تكون « فوق » الأمم بحيث تكون الأمم أمامها متساوية ، كما يتساوى الأفراد أمام القانون في دولة متحضرة .

● وليست المسألة مسألة « نزول » عن السيادة القومية ، فإنها لا تستوجب أن نتخلى عن شيء هو في أيدينا الآن ، وإنما المسألة أن نوجد شيئاً لم يكن عندنا قط ، ولكن حاجتنا إليه بالغة .

وليس إيجاد منشآت ذات سيادة وسلطة عالميتين إلا طوراً آخر في التاريخ الإنساني ، مؤداه امتداد القانون والنظام إلى ميدان ظل إلى الآن بغير تنظيم وغارقا في الفوضى .

منذ بضعة قرون كان لكثير من المدن حقوق سيادة تامة ، ثم بعد ذلك انتقلت أجزاء من السيادة المحلية إلى الولايات ، ثم إلى وحدات أكبر وأخيراً إلى الدول القومية .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية اليوم تخضع الأمور الخاصة بمكافحة الحريق ، وتزويد الأهالي بالماء ، وتنظيف الشوارع وما أشبه ذلك ، للسلطة المحلية . أما إنشاء الطرق ، والتربية ، والتشريع فيما يتعلق بالأعمال الصناعية والتجارية ومسائل أخرى لا آخر لها ، فخاضعة لسيادة الولاية . وأما المسائل المتعلقة بجيش الولايات المتحدة وأسطولها وسياستها الخارجية وغير ذلك من الشئون ، فمن اختصاص السلطة الاتحادية .

وكلما استمر التقدم الإنساني تطلبت الأحوال قاعدة للسيادة تزداد اتساعا ، ولوجود سلطة مطلقة تحقق الغاية منها : وهي حماية الناس .

وأهالي نيويورك هم مواطنون في مدينة نيويورك ، وفي ولاية نيويورك ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكنهم أيضاً مواطنون في العالم . وحياتهم ، وأمنهم ، وحرياتهم ، تحميها في نطاق واسع جداً ،

السلطة العليا المستقرة فى الشعب الذى أناب عنه فى استعمالها مدينة نيويورك إلى حد ما، وولاية نيويورك إلى حد آخر ، والحكومة الاتحادية للولايات المتحدة الأمريكية .

فإذا حدث أن وضعت ولاية نيويورك تشريعاً اقتصادياً أو اجتماعياً كان له أثر سيء فى أحوال العمل والاقتصاد فى ولاية أخرى ، ولم تكن هناك سلطة أعلى ، فإن هذا العمل من جانب ولاية نيويورك لا يمكن أن تمنعه الولاية الأخرى ، بمقتضى سلطتها ، إلا بالحرب . ولكن هناك سلطة عليا قائمة هى السلطة الاتحادية . وجميع ولايات ، الولايات المتحدة الأمريكية متساوية أمامها، وهذه السلطة العليا هى وحدها التى تحمى الناس من مثل هذا الخطر .

إن السلطة الديمقراطية للشعب لا يمكن أن تظفر بالإعراب الصحيح عنها والتنفيذ الفعال لها ، إلا إذا تولت الحكومة المحلية الشئون المحلية. والحكومة القومية الشئون القومية، والحكومة العالمية الشئون الدولية العالمية . وبهذا الفصل وحده بين السلطات نستطيع أن يكون لنا نظام اجتماعى يعيش الناس فى ظله فى سلام فيما بينهم ، ولهم حقوق متساوية وواجبات متعادلة أمام القانون. ولا يمكن أن تكون الحرية الفردية حقيقية ، إلا فى نظام عالمى قائم على مثل هذا الفصل بين السلطات .

إن السيادة تجد التعبير عنها فى المنشئات، ولكنها ليست متطابقة، ولا يمكن أن تكون متطابقة مع أى منشأة، فافتراض أن حقوق السيادة لا بد أن تكون مستقرة أبداً فى أية منشأة معينة ، كالدولة القوميـة فى هذه الأيام ، والاعتقاد بأن الدولة القوميـة هى المظهر المعبر عن السلطة والسيادة ، ليس إلا مظهر نزعة جامعـة بحت ، وتلك ألد أعداء الديمقراطية .

لقد تلقت الدول القوميـة سلطتها من شعوبها للقيام بمهمات معينة . وفى اللحظة التى تعجز فيها المنشئات المقررة عن مسايرة الأحوال فى الجماعة، وعن الاحتفاظ بالسلام، فى هذه اللحظة ، تصبح مصدر خطر عظيم ويجب إصلاحها إذا أريد اجتناب الحروب والاضطرابات الاجتماعية العنيفة .

ولا يتطلب الإصلاح اللازم فى هـــذا الميدان إلغاء الأمم والحدود القوميـة . ففى داخل كل دولة قومية لا تزال عندنا حدود للولايات والأقاليم والمدن والبيوت والمساكن، وللأسر أسماؤها الخاصة المتميزة من أسماء الأسر الأخرى . ونحن نحب ونحمى أسرنا وندافع عنها أكثر مما نحب أو نحمى الأسر الأخرى ، ونحب بيوتنا ونبـــدى ولاءنا

لجماعاتنا الخاصة ولأرضنا وإقليمنا ، ولكن السلطات العليا ليست مستقرة فى هذه الوحدات التى تقسمنا وتفصلنا ، وإنما هى مستقرة فى الدولة التى تجمعنا وتضم متفرقنا .

فإذا رأى الشعب، الذى هو المصدر الحقيقى للسلطات ، أنه فى الميدان الدولى يستطيع أن يفوز بحماية أوفى إذا هو وكل جانباً من سلطته إلى هيئات غير الدول القومية ، فإنه فى هذه الحالة « لا ينزل » أو « يتخلى » عن شىء ، بل لعله يربح شيئاً ، أعنى القانون والنظام فى ميدان لم يكن فيه قط مثل هذا القانون ، وحماية الأرواح والحريات للأمم جميعاً . ويا له من ربح إذا نحن حولنا بعض وجوه سلطاتنا من الهيئات التشريعية القومية والهيئات التنفيذية والقضائية ، إلى هيئات عالمية منتخبة انتخاباً ديمقراطياً ، ومسيرة على نهج ديمقراطى . وذلك لنوجد ونطبق وننفذ قانوناً لتنظيم العلاقات الإنسانية فى المجال الدولى !

أكذوبة معاهدات الصلح

إذا كانت البلبلة قد سادت هذا العالم فى أى وقت منذ برج بابل فإنها تسوده اليوم ، وقد نشرت آلاف من الكتب والمقالات عن المسألة الكبرى التى تواجهنا : كيف نقيم نظاماً عالمياً يحول دون حرب عالمية ؟ وكل أصحاب مشروعات السلام الدائم يعتقدون أن اقتراحهم هو الدواء الناجع ، وأن فى وسعهم أن يُنجحوا ما لم ينجح قط ، وأنهم بعد أن أخفقت آلاف من معاهدات الصلح يستطيعون أن يصوغوا معاهدة تمنع الحروب .

إن السلام فى جماعة معناه أن العلاقات بين أعضاء الجماعة ينظمها القانون ، وأن هناك أداة ديمقراطية النهج للتشريع وللسلطة القضائية ، وأنه يحق للجماعة أن تستخدم القوة لتنفيذ هذه القوانين، وهو حق محظور على أعضاء الجماعة الأفراد .

إن السلام هو النظام على أساس القانون. وليس ثم تعريف آخر يمكن أن نتصوره ، وكل تصور آخر لمعنى السلام ليس إلا خيالا محضاً .

وفى كل مرة تنشب فيها حرب ، يتلو ذلك جدال لا ينتهى فى نوع المعاهدة التى توضع ، فتعرض مئات من المقترحات ، ولكنه مهما يكن نوع المعاهدة التى توقع ، فإن الحرب التالية لا مفر منها .

فلماذا ؟

لأن محتويات المعاهدة لا تقدم ولا تؤخر — إذ كانت فكرة المعاهدة نفسها خطأ . وقد جربنا آلافاً وآلافاً من معاهدات

الصلح فى تاريخ الإنسانيـة ، فلم يطل عمر واحدة منها أكثر من أعوام قليـلة ، ولم تستطع واحدة منها أن تمنع الحرب ، لسبب بسيط هو أن الطبيعة الإنسانية التى لا يمكن تغييرها، تجعل الحروب حتما لا مهرب منه ، ما دامت السلطة العليا فى أيدى طوائف أفراد فى الجماعة لا فى الجماعة نفسها .

وإذا نحن نشـدنا سلاماً بين عدد من الوحدات المستقلة ذات السـيادة ، قائماً على اتفاقات بمقتضى معاهدات ، فإن السـلام يكون مستحيلا ، ويكون عملا صبيانيا منا حتى أن نفكر فى ذلك . غير أنا إذا تصورنا السلام على نحو قويم ، باعتباره نظاماً قوامه القانون، فإن السلام حينئذ يصبح مشروعاً عملياً يمكن تحقيقه بين الدول القومية ، كما أمكن تحقيقه كثيراً فى الماضى بين الولايات والمدن والوحدات الأخرى ، بعد أن صارت جزءاً من حكومة أكبر منها جميعاً .

ويتوقف فوزنا بالســلام ، أو تعرضنا باستمرار لحرب متكررة على مسألة فى غاية البساطة . يتوقف على هـذا : أنبنى إقامة العلاقات الدولية على المعاهدات ، وهى فى جوهرها أداة جامدة ، أم على القانون وهو فى جوهره أداة حية ؟

ولا سبيل إلى ضبط أمر الجماعة الإنسانية بأداة جامدة ، لأنها هى ظاهرة مفعمة بالحياة إلى أقصى حد ، وجوهر الحياة هو التغـير الدائم والتطور المستمر . وقد كان السلام بين الأمم إلى الآن فكرة جامدة ، وكنا نحـاول دائماً أن نعين حالة راهنـة ما ، ونصها بعناية فى معاهدة . ونجعل أى تغيير فى هذه الحالة الراهنة مستحيلا إلا بالحرب ، وهذا تصور سخيف للسلام .

فإذا أدركنا أن السلام ليس حالة راهنة ، وأنه لا يمكن أن يكون فكرة غير مجدية أو جامدة، وإنما هو نهج ووسيلة لتناول الشئون الإنسانية ، فإن مسألة السلاح فى هذه الحالة تكون واضحـة التعريف وقابلة للحل قبولا تاماً ، بل إنهـا قد حلت مرات عديدة فى ميادين كثيرة ، ولكن بأداة القانون دائماً لا بالمعاهـدات . والطريقتان مختلفتان من حيث الكيف ، ولا يمكن أن يلتقيا ، إذ ليس فى وسعنا أن نصل إلى نظام قانونى بالمعاهدات . وإذا كانت غايتنـا أن يكون المجتمع قائماً على القانون ، فإن من المحتم أن نبدأ من جديد

ومن النقائض العجيبة المغروسة فى عقول ساسـتنا ومفكرينا السياسيين الجـامدة ، ذلك الاعتقاد التقليدى الموروث من الماضى والذى يتحكم تحـكما تاماً فى آرائهم وعملهم، وهو أن هناك طريـقتين مختلفتين للاحتفاظ بالسلام بين الناس .

الأولى — التي اعترف بها العالم وطبّقها داخل الوحدات القومية ذات السيادة : هي القانون ، والنظام ، والحكومة .

والثانية — التي استخدمت إلى الآن فيما بين الوحدات القومية ذات السيادة، وهي: السياسة والدبلوماسية والمعاهدات .

وهذا خطل وفيه تشويه تام لوجه المسألة .

فإن السلام لا يمكن تحقيقه بوسيلتين كهاتين متناقضتين تماماً ، لسبب بسيط هو أن السلام متطابق في معناه مع إحدى هاتين الوسيلتين دون الأخرى .

والسلام هو القانون ، وهو النظام ، وهو الحكومة .

أما « السياسة » و « الدبلوماسية » فإنهما لا تفضيان فقط إلى الحرب ، بل لا سبيل إلا أن تفضيا إليها ، لأنهما في الواقع متطابقتان مع الحرب

وقد صقلت عدة آلاف من السنين من التطور الاجتماعي هذه البديهية فيما يتعلق بأية جماعة إنسانية ، وهي :

أن السلام بين الناس إنما يتحقق بنظام قانوني ، وبمصدر أعلى للقانون ، وبحكومة ديمقراطية ذات هيئات تنفيذية ، وتشريعية وقضائية مستقلة . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أثبتت أنها قادرة على إحداث التغيير وإنفاذه في العلاقات الإنسانية بغير عنف . أما الطريقة الأخرى ، طريقة الدبلوماسية ، تلك الطريقة التي جُربت مرة بعد مرة لصون السلام بين وحدات مستقلة ذات سيادة ، من أي نوع ، وأي حجم ، تلك الطريقة التي أبت ، حكوماتنا القومية ، إلا أن تجري عليها بعناد وتحكم ، فقد أخفقت في كل وقت بلا استثناء ، وفي كل مكان ، وفي كل الأحوال . وإنه لحلم ليس إلا ، أن نعتقد أن في وسعنا أن نحتفظ بالسلام بين أقوام يعيشون في وحدات منفصلة مستقلة ذات سيادة ، بوساطة الدبلوماسية والسياسة ، وبدون حكومة ، ومن غير أن توجد منشئات للتشريع .

إن محاولة منع الحرب باستخدام السياسة تُشبه محاولة إخماد نار بقاذفة لهب .

إن الاتفاقات والمعاهدات بين الحكومات القومية المتكافئة في السيادة والاستقلال ، لا يمكن أن تدوم ، لأن مثل هذه الاتفاقات والحكومات ليست إلا ثمرة سوء الظن والخوف ، وليست في أية حال من الأحوال ثمرة المبادىء والقانون هو الأساس الوحيد الذي يمكن أن تقوم عليه الحياة الاجتماعية ، وليس يسعنا أن نعتمد على وعود الناس أن لا يقتلوا ، ولا على عهودهم أن لا يسرقوا ، ولا على مواثيقهم أن لا يغشّوا . وهذا هو

الذى يحوجنا إلى القوانين والمحاكم والشرطة ، وإلى تحديد المهام والواجبات سلفاً على وجه جلى .

وما زلنا نتكلم فى العلاقات الدولية عن « استقلال » الأمم فى صورة مطلقة ، معتقدين أن الأمة إنما تكون مستقلة إذا كان لها حق مطلق فى أن تصنع ما تشاء ، وأن توقع المعاهدات مع الدول المستقلة الأخرى ، وأن « تقرر » ما تريد فى أمر الحرب والسلم . ونحن نرفض رفضاً باتاً أى تنظيم لهذه السيادة القومية بحجة أن هذا التنظيم يهدم الاستقلال القومى ، غير أن مثل هذا الاستقلال وهم . مثال ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية التى لا تقبل أن تنزل عن ذرة من سيادتها القومية ، والتى ترفض رفضاً باتاً أن تخول أية هيئة عالمية أن تتدخل فى حق الكونجرس أن يقرر أمر الحرب أو السلم ، قد أكرهت فى سنة ١٩٤١ على الدخول فى الحرب بقرار وضعه بمفرده مجلس الحرب الإمبراطورى فى طوكيو . فهل هذا استقلال ؟

إن استقلال أمة ، مثل استقلال الفرد ، ليس رهناً بحريتها فى العمل فحسب ، بل هو كذلك رهن بالمدى الذى يمكن أن تذهب إليه فى حرية العمل أمم أخرى للافتئات على استقلالها . فلا سبيل إلى الأمل فى أن يحدث التطور المستمر الذى لا بدّ منه ، والذى هو جوهرى للحياة ، بالوسائل السلمية ، إلا إذا أقمنا العلاقات الدولية على القانون، كما نقيم على القانون علاقات الأفراد والهيئات داخل الجماعة المنظمة .

ولا قيمة فى هذا الشأن لمبدأ « السيادة القومية » التى تروعنا ، فإن السيادة فى كلتا الحالتين — سواء أبقينا على قاعدة المعاهدات أم أقمنا نظاماً قانونياً — مستقرة فى الشعب . وكل ما هنالك من الفرق ، هو أنه فى حالة الأخذ بنظام المعاهدات ، لا تستعمل سيادة الشعب فى صورة فعالة إلى حد كافٍ ، لأن كل دولة قومية لها سلطة على رقعة محدودة ليس إلا ، وليس لها سيطرة على الأمم القومية الأخرى التى تبغى إحداث تغيير فى الحالة الراهنة القائمة . أما فى عالم يقوم على القانون ، فإن التغيير فى العلاقات الدولية يمكن للمرة الأولى أن يحدث بدون عنف — بإجراءات قانونية .

الدولة العليا والفرد

فى هذا العهد الوافر الإنتاج للكلمات والقوالب السياسية ، ابتكر أعداء التقدم كلمة جديدة ستكون موضوع جدال حادّ ، والكلمة هى : « الدولة العليا » . وهى فى السمع مفزعة ، والمفروض أن كل الأصحاء

الغرائز سيكون رد الفعل عندهم واحداً فيقولون جميعاً : لن نرضى بها ! وكل محاولة لتقرير نظام يتجاوز حدود الدول القومية الحالية ، سيشوه ، ويحبط بهذا السؤال الخطابي : « هل تريد أن تعيش في دولة عليا ؟ » .

على أن إقامة نظام قانونى فى منطقة أوسع ، ليس مؤداه خلق دولة عليا ، ومحك الدولة العليا هو مبلغ تدخلها فى حريات الفرد . وقد كانت إيطاليا على عهد موسولينى أشبه بالدولة العليا من الولايات المتحدة ، وإن كانت هذه أكبر منها خمساً وعشرين مرة .

إن مثالنا الأعلى هو الدولة الديمقراطية ، والدولة التى نبغى أن نحيي فيها دولة تستطيع أن تضمن لنا أقصى حد من الحرية الفردية . ولكن لما بدأ التقدم الصناعى فى هذا القرن يقوض فكرة الدولة القومية القديمة ، لجأت كل من الدول القومية إلى وسائل مصطنعة لتقوية كيانها ، فنتج عن ذلك أن قضى على الحرية الفردية قضاء تاماً فى معظم العالم . وقد حدث هذا التغير فى بعض البلاد مثل ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا ، علناً وعمداً بخنق الحرية الفردية ، وإعلان المبدأ القائل إن الخلاص رهن بالدولة القومية الجامعة ، وهى فوق كل شيء ، ومن حقها أن تتصرف حتى فى أرواح مواطنيها . أما فى بلاد أخرى كالولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا ، فإن التطور كان بطيئاً وتدريجاً وعلى خلاف إرادتنا ، فقد ظللنا نؤيد المبادئ الديمقراطية ، ولكننا تخلينا شيئاً فشيئاً عن حريتنا الفردية لنشد أزر دولنا القومية الخاصة .

ومن الشطط أن يلام أى فريق أو حزب سياسى معين ، فقد كان الاتجاه مما لا سبيل إلى مقاومته . فخيال التهديد المزدوج بحرب موشكة الوقوع ولا مهرب منها ، وهو ضغط من الخارج ، وحيال الأزمات الاقتصادية والبطالة ، وذاك ضغط من الداخل ، كان من المحتم على كل أمة أن تعزز دولتها بإنشاء الخدمة العسكرية أو توسيعها ، وبقبول ضرائب تزداد ارتفاعاً ، وبالسماح بازدياد التدخل من جانب الدولة فى الحياة اليومية للفرد .

ومن النقائض العجيبة أنه كلما عرض أى اقتراح لإقامة نظام قانونى عالمى يضمن للبشر التحرر من الحرب خلال أجيال كثيرة ، ويكفل الحرية الفردية ، صاح عباد الدول القومية الحاضرة : « الدولة العليا » !

ذلك أن الحقيقة أن الدولة القومية الحاضرة قد أصبحت دولة عليا ، فهى ليست كابوساً نخشى مجيئه ، أو اقتراحاً نستطيع أن نقبله أو نرفضه بحرية ، لأننا نحيي فيها الآن فعلا ، وسنزداد خضوعاً لهذه الدولة العليا ذات السلطة الكبرى إذا كانت غايتنا القصوى

هى الاحتفاظ بالكيان العالمى القائم على الدولة القومية. ونحن مضطرون أن نتخلى عن حرياتنا واحدة بعد واحدة تحت التهديد الدائم بالحرب الأجنبية، وتحت الضغط الشديد للمسائل الاقتصـادية التى لا يمكن أن تحل على قاعدة قومية . وفى المرحلة الحاضرة للحركة الصناعية، لا تستطيع الدول القومية أن تحتفظ بكيانها إلا بطريقة واحدة : هى أن تصبح دولا عليا .

ولاسبيل إلى الحرية فى ظل نظام كهذا ، إذ من المحقق أننا لا نستطيع أن نزعم أن حريتنا الفردية مكفولة، إذا كنا كل عشرين سنة نضطر أن نكف عن إنتاج سلع الاستهلاك ، ونبدد كل نشاطنا ومواردنا فى صنع آلات الحرب .

ولا يسعنا أن نزعم أننا ننعم بحرية الرأى والصحافة ، إذا كانت الأحوال كل عشرين سنة تفرض الرقابة علينا .

ولا نستطيع أن نقول إن الملكية الخاصة مكفولة محترمة ، إذا كانت الديون العامة الهائلة والتضخم تأتى كل عشرين سـنة على ما ادخرنا .

وسيقول المدافعون عن السيادة القومية: إن كل هذا الحظر والتقييد للحرية الفردية ليس إلا من تدابير الطوارىء التى استلزمتها ضرورات الحرب ، ولا يمكن أن تعدّ عادية.

ولا شك أنهـا من تدابير الطوارىء ، ولكن لما كان كيان الدولة القومية ، وهو أعجز ما يكون عن منع الحروب ، هو السبب الوحيـد والأخير للحروب الدولية المتكررة ، ولما كان ما يتلو كل حرب من هـذه الحروب الدولية هو فى الوقت نفسه تمهيـد للصراع التالى العنيف بين الأمم ، فإن ٨٠ أو ٩٠ فى المئة من حياتنا تقضى فى أوقات « الطوارىء » .

ومما يجعل الاعتراف بالحاجة الملحّة إلى نظام قانونى وسياسى عالمى على أعظم جانب من خطر الشأن، أنه ليس ثم أقل احتمال لقدرتنا على حل أية مسألة من مسائلنـا الاجتماعية او الاقتصادية فى عالم منقسم إلى عشرات من الأقسام القومية التامة الانفصال .

وإنه لما يدعو إلى المرثية أن يرى المرء الجماعات العاملة من أوساط الناس يتطلعون إلى أحوال أحسن من أحوالهم ، وأجور أعلى ، وتربيـة أقوم ، وفراغ أكثر ، ومساكن أصلح ، وعناية طبية أوفى ، وأمن اجتماعى أوفر ، غـير أن كل هذه الآمال الاجتماعية للشعب ، ترجأ إلى أجل غـير مسمى من جراء التهديد الذى لا شك فيه بالحروب المتكررة . وحتى إذا سن تشريع

لهذه الغاية فى دولة من الدول ، فإنه يقضى عليه ويدفن فى الحرب العالمية التالية ، كما يجرف السيل الدافق الأكواخ .

إن العمل للتجميع فى نطاق الكيان السياسى المقسّم دولاً قومية ذات سيادة، لا يكون إلا أسطورة أو ثمرة نظام فاشى . ذلك أن الحياة الاقتصادية لا تستطيع أن تنمو على نطاق يكفل العمل والمواد للجميع، إلا فى ظل نظام عالمى امتنع بفضله التهديد الدائم بالحرب بين الدول القومية ، وحل الأمن المستفاد من قيام نظام قانونى محل الخوف المستمر من العدوان والمحق ، وهو الذى يدفع إلى تعزيز كيان الدول القومية .

ومهما يبلغ من ألمنا للتخلى عن آرائنا التى كنا نحرص عليها ونعتز بها ، فإن علينا أن ندرك أن أعظم خطر على الحرية الفردية فى عالمنا الذى اصطبغ بالصبغة الصناعية ، هو هذه القوة المتزايدة للدولة القومية العليا، وأن حقوق الفرد والحرية الإنسانية التى ظفرنا بها بتضحية جسيمة فى آخر القرن الثامن عشر بفضل القضاء على الحكم الفردى المطلق ، يوشك أن ينتزعها منا الطاغية الجديد ، أى الدولة القومية .

أما القول بأن الاختلافات العديدة الموجودة بين الجنس الإنسانى، تحول دون قيام قانون عالمى ونظام دولى ، فمناقض على خط مستقيم للواقع .

فإن البولنديين والروسيين ، والمجريين والرومانيين ، والصربيين والبلغاريين ، قد تباغضوا واستراب بعضهم ببعض، وتقاتلوا فى أوربا قروناً عديدة ،ولكن جميع هؤلاء بعد أن رحلوا عن بلادهم واستقروا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كفوا عن الاحتراب، وأصبحوا على أتم ما يكونون قدرة على الحياة جنباً إلى جنب دون أن يقتتلوا .

فلماذا كان هذا ؟ إن التغيير الذى طرأ على عامل واحد هو الذى أثمر المعجزة .

ففى أوربا ، تستقر السلطة العليا فى هذه القوميات ودولها القومية . وأما فى الولايات المتحدة فإن السلطة العليا غير مستقرة فى أية قومية من هذه القوميات ، بل هى فوقها جميعاً ، أى فى الاتحاد . والأفراد فى ظله ، بغض النظر عما بينهم من الاختلافات ، متساوون أمام القانون .

وقد تباغض الألمانيون والفرنسيون وأساء بعضهم الظن ببعض ، وتحاربوا عدة قرون ، ولكن فى سويسرا ، القائمة بين هاتين الدولتين المتعاديتين ـ ألمانيا وفرنسا ـ يوجد نحو مليون من الفرنسيين الغاليين كأبناء الجمهورية الفرنسية نفسها ، ونحو ثلاثة ملايين من الألمانيين الذين لا يقلون

« ألمانية » عن أى واحد فى الريخ ، وقد عاشوا جميعاً فى ســـلام قروناً طويلة . والاختلافات البيولوجية والعنصرية والدينية والثقافية والعقلية ، هى نفس الاختـلافات الموجودة بين أقوامهم الذين لا ينفـكون يتحاربون فى بلادهم ، ولم يتغير إلا عامل واحد.

فالأمة الفرنسية فى فرنسا ، والأمة الألمانية فى ألمانيا ، تعيشان فى دولتـين قوميتين اسـتقرت السلطة فيهما فى الأمة الفرنسية والأمة الألمانية . أما فى سويسرا فالسلطة ليست مستقرة فى القوميـة الفرنسية ، أو القومية الألمانية ، بل فى الاتحـاد الذى يجمع بينهما .

فمن الجلى إذن أن الاحتكاك والصراع والحروب بين الشـعوب ليست مما تجره الاختلافات القومية أو العنصرية أو الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية ، وإنما سببها أمر واحد ، هو أن هذه الاختلافات قد تجمّعت فى دول مستقلة منفصلة ، لا تعرف وسيلة لتسوية المنازعات الناتجة عن هذه الاختلافات غير المصادمات العنيفة .

ويتفق التفكير المنطقى وعبرة التـاريخ على أنه توجد وسيلة لمنع الحروب بين الأمم منعاً نهائياً ، ولـكنهما يبينان أيضاً بوضوح تام أنه ليس ثم سوى وسـيلة واحدة ليس إلا ، لإدراك هذه الغاية : وهى إدماج هذه القوميات المستقلة المبعثرة المتنازعة فى وحدة عليا قادرة على إيجـاد نظام قانونى تنعم فى ظله كل الشـعوب بالتساوى فى الأمن والواجبات والحقوق أمام القانون .

من هنا وهناك

طراد : دخلت شابة حسناء مركز الشرطة فى مدينة بتسبرج ، وذكرت للضابط الموكل وصفاً مفصلا لرجل زعمت أنه أخذها بشعرها وجرها على سلالم ثلاثة أدوار ، وهددها بأن يخنقها ، ثم ضربها ضرباً مبرحاً .

فقال الضابط : أما وقد أتيتنا بهذا الوصف المفصل الدقيق ، فإننـا سنلقى القبض عليه حالا ، ونرمى به فى غيابة السجن .

فقالت الفتـاة : ولـكننى لا أريد أن تقبضوا عليه ، وحسبكم أن تجدوه ، فقد وعد أن يتزوجنى .

شهادة : عينت لجنة « الإصلاح والتجميل » فى مدينـة « سولت ليك » هيئة من الخـبراء وجعلت أجر كل عضو ٢٥٠٠ ريال ، وطلبت منها أن تقترح على الحـكومة ما تراه من وجوه إصلاح المدينة ، فـكان فى رأس مقترحات الخبراء « إلغاء اللجنة » !

غذاء : فى كليـة ولاية كولورادو ، قضى علمـاء التجارب على طائفة من الأرانب البيض بإعطائها الطعام الذى يعطى للطالبات .

قومٌ لا غالبَ لهم

مختصر كتاب يصدر قريباً

اللواء ت . بور – كوموروفسكى

القائد العام للقوات البولندية المسلحة التى قامت بالثورة فى وارسو فى أغسطس – سبتمبر ١٩٤٤

إن القتال الذي خاضه الجيش البولندي الداخلي من أجل وارسو يوم كانت القوات الأمريكية تتدفق مجتازة فرنسا فى سنة ١٩٤٤ ، كان من أهول معارك الحرب . وإليك أول وصف لتفاصيل هذا الصراع الذى لا رجاء فيه برغم ما تجلى فيه من بطولة وروعة ، يكتبه قائد الجيش نفسه .

وقد عبأ الجيش البولندى الداخلى وسلح ٣٠٠ر٠٠٠ من الجنود العاملين بين سمع الألمان وبصرهم . ولما بدأ الجيش الأحمر الظافر يطوى بولندة ، ألقى الجيش البولندي الداخلى بهذه القوات ضد الألمانيين، لتقوم بالأعمال المدبرة من قبل ، والتى كان يرمز لها بلفظ « العاصفة » . وكان حجر الزاوية فى هذه الأعمال هو الاستيلاء على وارسو . ففى أول أغسطس بدأ جنود الجيش الداخلى فى وارسو ثورتهم ، وكانوا ٤٠ر٠٠٠ ، وقد دامت هذه الثورة ٦٣ يوماً فهلك ٢٥٠ر٠٠٠ من المدنيين والجنود فى قتال مر دار فيها من بيت إلى بيت . وهذه هى قصة مأساة الأيام الثلاثة والستين ، كما يرويها القائد العام للجيش الداخلى — الجنرال بور .



قوم لا غالب لهم

الناصفة تثور

« أيها البولنديون، لقد دنا يوم التحرير؛ إلى السلاح أيها البولنديون! اجعلوا من كل بيت حصناً في القتال مع الغزاة! ليس هناك وقت يضيع! »

وقد أذاع السوفيت حوالى آخر يوليه سنة ١٩٤٤ هذا النداء إلى القتال، وعليه توقيع مولوتوف، وتوقيع أوزبكا — موراوسكى الذى عينته موسكو رئيساً للجنة التحرير الوطنية. ولا شك أن هذا النداء كان مؤدّاه أن هجوم الجيش الأحمر على وارسو قريب، وإلا لما كان ثمة فائدة من إثارة الشعب إلى عمل إذا لم يتلق تأييداً، فإنه يؤدى إلى مذبحة دون أن يستفيد الروس شيئاً.

فى ٣٠ يوليه التقى أحد رجال مخابراتنا فى رادوسك على مسافة عشرة أميال من وارسو بدبابات سوفيتية كان من الواضح أنها دورية قوية. فحادث الضباط الروسيين فألفاهم يتوقعون أن يصلوا إلى وارسو فى أى وقت. ومن ضفافى براجا — ضاحية وارسو على شاطىء فستولا الشرقى — بعثت مراكز استخباراتنا سلسلة من الأنباء عن التقائها بالروس على أطراف المدينة.

وفى إحدى الضواحى ترك الجنود الألمان معسكراتهم وهم فى فزع.

وفى ٣١ يوليه أعلن بلاغ سوفيتى أن الروس أسروا قائد الفرقة الألمانية ٧٣، التى كانت تتولى الدفاع عن براجا. وعلمنا فى نفس ذلك اليوم من الراديو أن ميكولايجك رئيس وزارتنا بلندن، قد غادرها إلى موسكو. وكانت الحكومة السوفيتية قد قطعت العلاقات السياسية مع الحكومة البولندية فى إبريل ١٩٤٣. فلم نستطع منذ ذلك الوقت أن نصل ما انقطع من هذه العلاقات، أو أن ننسق أعمالنا العسكرية مع حركات الجيش الأحمر. فالآن يستطيع ولا شك رئيس الوزارة فى موسكو، أن يوجد لنا التنسيق العسكرى بين الجيش الأحمر وجيشنا الداخلى، وفى الوقت نفسه تساعده أعمالنا العسكرية فى وارسو على إعادة العلاقات السياسية بين الحكومتين.

وفى عصر ذلك اليوم علمنا أن الجيش الأحمر يطوّق لوارسو من الشمال، وفى الشمال الشرقى كان يقاتل الجيش الألمانى الثانى الذى يتلقى المدد عن طريق وارسو، وفى براجا لم يكن يقاوم سوى الفرقة الألمانية ٧٣. وكانت فرقه جورنج فى طريقها

لنجدتها ، ولكن الجانب الرئيسى من هذه الفرقة كان عليه أن يمر بوارسو . فدعوت على الفور مندوب الحكومة يانكوفسكى نائب رئيس الوزارة ، وبسطت له الموقف فى إيجاز .

وكان عمل الجيش الداخلى عندئذ خليقاً أن يحول هزيمة الألمان كارثة تامة ، لأنه يمنعهم من نجدة الفرقة ٧٣ ، ويقطع خطوط مواصلاتهم مع جنودهم على الجبهة كلها أمام وارسو ، ويكفل نجاحاً سهلا لحركة التطويق الروسية التى بدأت فى الشرق والشمال الشرقى والشمال .

وكان كل هذا يوحى بأن نشرع الآن فى العمل ، ولكن بينما كانت الدعاية السوفيتية تدل بلا أدنى شك على أن موسكو تريد القيام بعمل حربى داخل وارسو على الفور ، لم يتسن لنا أن ننسق حركتنا مع خطة القيادة الروسية ، ولم يتصل بنا شىء عن مهمة ميكولايتشك ونتيجتها فى موسكو .

وإذا فرضنا أن هجومنا الأول سينجح فى انتزاع السيطرة على المدينة من أيدى الألمان ، فإنه لم يكن عندنا من السلاح والطعام ما يلزم للاحتفاظ بها أكثر من أربعة أيام أو خمسة ، أو سبعة على أكثر تقدير . ولا شك أن حلفاءنا سيرسلون إلينا المؤن والذخائر بالطائرات ، ولكنا لم نكن نستطيع أن نتكهن بمقاديرها . وكان نجاحنا ، على قدر ما استطعنا أن نتبين ، رهناً بأن نجتنب الضرب قبل الأوان ، إذ يجب أن يدخل الجيش الأحمر وارسو فى خلال أسبوع بعد أن نضرب الضربة الأولى .

وقد أصغى إلىّ يانكوفسكى ، ثم ألقى أسئلة على عدة رجال من أركان الحرب . وبعد أن أتم تصوير الموقف ، التفت إلىّ وقال : « حسن جداً ، إذن ابدأ بالعمل » .

فالتفت إلى الكولونل مونتر قائد الجيش الداخلى فى وارسو وقلت : « غداً فى الخامسة تماماً ، يبدأ الهجوم فى وارسو » .

وفى اليوم التالى وأنا فى طريقى إلى اجتماع سرى لهيئة أركان الحرب ، اجتزت شوارع غاصة بآلاف من الشبان والفتيات يسرعون إلى المراكز المعينة لهم ، وكان كل واحد تقريباً يحمل حقيبة ، كبيرة أو صغيرة ، أو لفافة ضخمة . وكانت جيوب المعاطف منتفخة بما فيها من القنابل اليدوية ، ولا تكاد تحجب عن عينى بندقية أو مدفعاً من مدافع تومى . ومع أنى كنت أعرف أنه لا يمكن أن يفطن إلى هذه الأشياء إلا من يعلم السر ، إلا أنى لم أستطع أن أمنع ما ساورنى من قلق لامسوّغ له . وكنت أمر بدوريات الألمان ، وأرى السيارات المصفحة تقطع الشوارع بلا انقطاع .

وكانت مراكز الجيش الداخلى قد اختيرت بعناية ، وكان أكثرها مساكن على زوايا الطرق ، لتسيطر على المهم من مفارقها ، ومحطات السكة الحـديدية ، والثكنات الألمـانية ومراكز التموين ، والمنشئات العـامة ، أى على جميع النقط التى يجب الاستيلاء عليها فى أول هجوم .

وكان التدبير أن يقرع الجندى جرس الشقة ، ثم يسلم للسكان أمراً بالاستيلاء ، موقعاً من الضابط المختص . وقد أبدى الأهالى اهتماماً ، ولكنهم لم يبدوا أدنى اعتراض . وكانوا فى كل حال متلهفين على المعاونة بكل وسيلة ، وكان الجنود يتخذون مراكزهم عند النوافذ،وفى الغرف العليـا وفوق السطوح . ووضع فى الفناء حارس لايسمح لأحد بالخروج، حتى لاتفضى قلة التحرز إلى كشف الاستعدادات للعدو.

ووضع الجنود أشرطة الجيش وهى بيضاء وحمراء ، وتلك كانت أول علامة علنيـة لجيش بولنـدى على أرض بولندية مذ بدأ الاحتلال. وقد لبثوا خمسة أعوام ينتظرون هـذه اللحظة ، فالآن عليهم أن ينتظروا انقضاء اللحظات القليلة الأخيرة . ففى الساعة الخامسـة يكفّون عن أن يكونوا رجال حركة سرية للمقاومة ،ويعودون مرة أخرى جنوداً فى جيش نظامى يقاتل جهرة .



اللواء بور
قائد الجيش
الداخلى البولندى

وفى الخامسـ
تماماً فتحت آلاف
النـوافذ، وصب
الرصاص من كل
ناحية على مراكز
الألمان والجنـود
السائرة فى الطرق
واختفى المدنيون
من الشوارع
وتدفق الجـيش
الداخلى خارجاً من مراكزه ليقوم بالهجوم. وما هى إلا ١٥ دقيقـة حتى كانت المدينـة التى يسكنها مليون نسمة ساحةً للقتال ، ووقفت كل حركة ، ولم يعد لوارسو وجود باعتبارها مركزاً حيوياً للمواصلات مع الجبهة الألمانية. فقد بدأت المعركة من أجل وارسو.

على أنه حدث فى ضاحية فولا،حيث كانت هيئة أركان حربنا فى مصنع كاملر ، أن بدأ القتال عفواً قبل موعده بثلاثة أرباع ساعة . وكانت هذه الضاحية التى تكثر فيها المصانع والمساكن والدكاكين الصـغيرة ، من أهم مراكز أعمالنا ، لأنها تسيطر على الطريق الغربى وعلى الطرق الحديدية من وارسو وإليها.

وكنت قد وصلت إلى فولا قبل الرابعة بقليل ، ولم أرَ شـيئاً غير عادى وأنا أشق طريقى إلى مصنع كاملر ، وكانت سيارات

النقل الألمانية تسير على الطرق المبلطة ، والنساء يستبضعن من الدكاكين ، وكانت مراكز المراقبة الألمانية والمدافع الرشاشة والأسلاك الشائكة كثيرة ، والدوريات لاتنقطع ، كما هو الحال فى كل مكان فى المدينة.

وأدخلنى فى المصنع حارس مسلح، فأبلغنى الضابط كامار، صاحب المصنع ، أن ٣٣ من سرية الحرس موجودون الآن فى المبنى، وأن ٩٥ آخرين سيصلون ، وكان هؤلاء جميعاً عمالا فى المصنع ، فصاروا اليوم جنوداً ، وكان سلاحنا ١٥ بندقية و٤٠ قنبلة يدوية ، وست قنابل يدوية قوية الانفجار ، وهى من إنتاج مصانعنا السرية .

وما كدت أصعد إلى الطبقة الثانية حيث أركان حربى ، حتى سمعت انطلاق بنادق ، وتلتها طلقات مدفع رشاش من مركز مراقبة قريب . فأسرعت هابطاً ، وأخبرنى كامار أن الألمان كانوا قد نقلوا من المصنع حمولة من الثياب الألمانية ، ثم عادت السيارة لحمولة أخرى، فوجدت الحارس، فلما رأى الحارس الألمانى الجالس إلى جانب السائق بولندياً مسلحاً ، أطلق النار عليه، ولكن الحارس البولندى كان أسرع منه .

ولكن أمرنا انكشف ، فلم يبق إلا أن نقيم المتاريس فى المصنع وندافع عن أنفسنا ما استطعنا حتى يبدأ القتال العام .

وقد تنبه البوليس الألمان على أصوات النيران ، فهاجمنا بالمدافع الرشاشة والبنادق والقنابل اليدوية ، وسلطوا على جانبى المصنع ناراً حامية ، وراح مدفع رشاش يطلق النار على نوافذنا من مسافة ١٥ ياردة من بناء مواجه ، فأسكته أحد جنودنا بقنبلة يدوية ، بل لقد حاول الألمان أن يصلوا إلينا عن طريق السطح ، فصددنا هذا الهجوم بمشقة .

وفى الخامسة أبلغنى كامار أن قوة ألمانية كبيرة تطبق علينا من وراء خرائب حى اليهود. ولما كان عدونا قوياً وسلاحنا يسيراً ، فقد كان صد هذا الهجوم فوق طاقتنا ، ولكن أصوات النيران فى المدينة مالبثت أن صاخت سمعنا ، فعلمنا أن المعركة بدأت فى وارسو كلها ، وقد كف الألمان عن محاولة الاستيلاء على مصنعنا ، وعسى أن يكون قد أقلقهم صوت القتال العام .

وحوالى الثامنة سمعت صيحات سرور عالية من فوق السطح، وهبط جندى وسألنى بصوت شديد التأثر أن أصعد إلى رأس المدخنة ، وهناك حيانى المراقب بصيحة :

« الراية يا سيدى ! الراية البولندية ! » . وأشار إلى قلب المدينة .

هذا علم أبيض وأحمر يخفق مرة أخرى بعد خمس سنوات فوق مدينتنا .

وخطر لى أن الروس الزاحفين سيرون ولا بد ذلك الوهج والدخان الصاعد من الأبنية المحترقة فى المدينة ، بل لعلهم يرون أيضاً هذا العلم الخفاق . وقد كنا نسمع بوضوح طلقات مدفعياتهم المتواصلة، تجاوبها أصوات المدفعية الألمانية الثقيلة على هذا الجانب من نهر الفستولا . فهبطت لأكتب رسالتين إلى لندن . وكانت الأولى : «بدأنا القتال من أجل وارسو فى الخامسة من صباح أول أغسطس . دبروا فوراً أسلحة وذخائر لإلقائها إلينا فى الميادين الآتية (وسردتها)»

وكان نص الثانية : « لما كان القتال من أجل وارسو قد بدأ ، فإنا نرجو أن يقدم لنا السوفيت معونتهم بالهجوم على الفور من الخارج » .

ثم كتبت أول رسالة إلى جنود الجيش الداخلى الذى يقاتل جهرة فى العاصمة وهذا نصها :

« يا جنود وارسو :

« اليوم أصدرت الأمر الذى طال انتظاره بالقتال جهرة ضد عدو بولندة القديم — الألمان الغزاة . فبعد خمسة أعوام تقريباً ، من قتال مُرّ مستمر تحت الأرض ، تقفون اليوم علانية ، وسلاحكم فى يدكم لتستردوا الحرية لبلادكم .

بور — قائد الجيش البولندى الداخلى »

وفى اليوم التالى بدأت التقارير ترد ، ويستفاد منها أننا على العموم قد أخذنا الألمان على غرة ، وربحنا بأعمالنا المنسقة ربع ساعة ، فاكتسبنا هذا مزية الهجوم . وصارت المسألة هى : هل تستطيع وحداتنا أن تحتفظ بهذه المزية فى معارك هذا اليوم الثانى ؟

وقد وجدنا بعد معاركنا الأولى مع الدبابات الألمانية أنها ليست من البأس بحيث كنا نظن ، وقد كان القلق الشديد يساورنا من قبلها ، إذ ليس عندنا سلاح ضد الدبابات . وكان للألمان فصائل كبيرة من دبابات النمر متأهبة للقتال . وكان من الجلى أنهم يعتقدون أنهم قادرون على سحق أى ثورة عامة فى ساعات قليلة . وقد تحركت هذه الفصائل بعد ١٥ دقيقة من ابتداء الهجوم .

وفى الساعة ١٥ : ٥ تماماً شاهد الضابط الموكل بميدان يونيا لوبايسكا ١٨ دبابة من دبابات النمر الضخمة تتقدم إلى قلب المعركة ومدافعها الرشاشة تطلق نارها . غير أن رجاله أطاعوا الأوامر الصادرة إليهم فى غير جزع ، وانتظروا وراء الأبواب أو غيرها إلى آخر لحظة ممكنة ، ثم حطموا سيور الدبابات بالقنابل اليدوية أما المدنيون فكانوا يقذفونها بزجاجات البترول الملتهب ، فما هى إلا دقائق حتى صارت هذه الدبابات عاجزة عن العمل .

وقد دلت التقارير الأولى على أنه فى خلال ٢٠ دقيقة أدرك أهل المدينة كلهم أن الجيش الداخلى قد برز للقتال . فخرج الناس فى كل مكان يقدمون معونتهم ، وكانت قوة الهجوم فى فاتحته أعظم من أن يقاس بها هجوم جيش منظم ، فقد امتاز باندفاع ثورة عامة عنيفة تعمل فى الوقت نفسه على نظام عسكرى . وكان من الجلى أن النجاح الذى أحرزناه فى الساعات الأولى يعود أكثر فضله إلى هجوم المدنيين العارم على العدو ، غير أن هذا الاندفاع كانت له مساوئه أيضاً .

ففى أثناء المعارك كان قوادنا لا يكادون يميزون بين الجنود والمدنيين ، فلم تكن لجنودنا ثياب عسكرية ، ولم تكن ثم وسيلة تمنع المدنيين من وضع الشارة البيضاء والحمراء على أذرعهم ، ولهذا كانوا يستولون كالجنود على أسلحة الألمان ، فيتعذر الاقتصاد فى الذخيرة ، لأن المدنيين يبددون فى ضرب ألمانى واحد سيلا من الرصاص والقنابل . وقد دل كل تقرير ورد على الإسراف العظيم فى الذخيرة .

وكان معظم التقارير الأولى من قطاع المدينة الأوسط ، فقد احتل جنودنا مبنى البريد ومصنع الغاز ومبانى المياه ومحطة السكة الحديدية . واستمر القتال فى مصنع الكهرباء .

وكانت هذه المعركة على أعظم جانب من خطر الشأن ، لأن مصنع الكهرباء كان مصدر النور والقوة فى وارسو ، وعليه يتوقف اتصالنا اللاسلكى بالعالم ، كما يتوقف عليه العمل فى مصانعنا الصغيرة للذخائر . وكنا قد ألفنا وحدة من العمال والفنيين والمهندسين البولنديين المستخدمين فى هذا المصنع ، وكلفناهم الاستيلاء عليه .

وكان المصنع يبدو منذ شهور كأنه موقع دفاعى فى ميدان . وقد أحاطه الألمان بمراكز مراقبة ، وأقاموا متاريس من الأسلاك الشائكة حوله وفيه أيضاً . وفى المدة الأخيرة حسنوا وسائل الدفاع عنه وضاعفوا حاميته ، وسلحوها تسليحاً تاماً . فكنا نعرف أن المصنع سيكون بندقة عسيرة الكسر .

على أنه ما وافى ظهر ذلك اليوم الأول حتى كان رجالنا قد استولوا على مصنع الكهرباء كله ، بعد قتال دام ١٩ ساعة . ففى الخامسة تماماً أعطوا إشارة القتال . وقد قاتل الألمان الذين هوجموا بعنف لا يكاد يصدق ، وقسمت وحدتنا مهماتها : فعمل بعض رجالها على استمرار العمل فى المصنع ، وظل الباقون يحاربون . ولم يستسلم ألمانى واحد ، فكان لا بد من قتل كل ألمانى أو جرحه أو نزع سلاحه .

وقد ظلت السماء تمطر مدراراً طول

ذلك اليوم . وفى الصباح تم احتلالنا لمنطقة فولا . وفى تلك الليلة وردت الأنباء الأولى بنجاح هنا وهناك ، ثم تلتها تقارير باحتلالنا مناطق برمتها . فلما كان صباح ٣ من أغسطس بدأ الموقف ينجلى .

لقد أدركنا أهدافنا بعد أربعين ساعة من القتال ، فاستولينا على ثلثى وارسو . أما فى المدينة ذاتها فما كان فى أيدى الألمان سوى أوكار للمقاومة ، وكان جيشنا قابضاً على زمام الهجوم .

وبينما كنت أقوم بجولة تفتيش فى منطقة فولا ، وجدت الجنود والمدنيين جميعاً فى حالة نفسية حسنة ، وكانوا يمرحون تحت المطر ، فقد استطاعوا أخيراً بعد خمسة أعوام أن يستنشقوا نسيم الحرية . وقد اختلطت أصوات الرصاص بأصوات الغناء ، وأقام المدنيون من تلقاء أنفسهم متاريس حول ميدان كيرسيليجو ، وجعلوا يقذفون من نوافذهم بالمناضد والخزانات والأرائك وغيرها ، وكسروا حجارة الأرض وكوموها ، وخفقت الأعلام من كل نافذة .

ووجدت فى مقر قيادتى تقارير كثيرة عن أعمال الألمان . فعند جسر بونياتوسكى هاجم الألمان متاريسنا وأكرهوا المدنيين على السير أمامهم . وكانت دباباتهم قد فقدت ثقتها بدروعها ، فراحت تستتر نفسها بجموع من المدنيين ، فكانوا يربطون النساء إلى الدبابات . لقد كانت حرباً جامعة على الطريقة الألمانية ، من طراز وارسو ١٩٤٤

وكنا لا نزال نسمع صوت المدافع من الجانب الروسى من الفستولا ، وقد صارت على مسافة أميال منا . ولم يكن يخامرنا شك فى أن الجيش الأحمر سيدخل وارسو فى الأيام القليلة المقبلة ، قبل أن تنفد مؤننا وذخائرنا .

ولم تكن الطائرات الروسية قد ظهرت فوق وارسو منذ ليلة أول أغسطس ، ولكنا قلنا إن المطر عاقها على الأرجح ، فقد كفت الطائرات الألمانية أيضاً عن التحليق . غير أن الصمت التام الذى التزمه الراديو السوفيتى فى موضوع وارسو كان تعليله أصعب ، فقد كان القتال دائراً فى وارسو تحت أعين الروس ، ولا بد أن الحرائق فى العاصمة والأعلام البولندية فوقها ، كانت ظاهرية لطلائعهم ، وكانت محطة الإذاعة البريطانية والمحطات المحايدة تذيع الأنباء أيضاً ، ولكن كلمة واحدة لم تسمع من موسكو .

وبعد منتصف ليلة ٢ أغسطس رقدت بضع ساعات أستريح ، فنمت نوما عميقا ، ثم استيقظت منزعجاً ، ولم يكن حولى ما يسوغ هذا الإحساس ، فلم أستطع تعليله ، ولم تكن تقلقنى ضجات القتال المتواصلة ، فقد

اعتدتها وألفت أصوات المدافع . وإذا بى أتبين فجأة علة جزعى . ذلك أن المدافع كفت عن الضرب ، فأرهفت سمعى بضع دقائق ، وكانت المعركة لا تزال حامية فى وارسو ، ولكنى لم أسمع أى صوت من المدافع الألمانية أو الروسية على الناحية الأخرى من النهر ، وقد استمر هذا الصمت إلى الفجر ، فصار أهم من أى صوت .

والآن بدأ كل امرئ تقلقه مدة القتال ، فما أذيع شىء عن محادثات رئيس الوزارة البولندية مع مولوتوف وستالين . فجعلنا ننتظر أنباء من موسكو بصبر نافد وقلق شديد .

وقد فطن الألمان إلى قلقنا وحاولوا استغلاله . ففى ليلة ٣ أغسطس ألقت الطائرات الألمانية نشرات على المدينة موقعة باسم « بور — قائد الجيش الداخلى » . وهكذا استخدموا اسمى فى إبلاغ أبناء بولندة المخلصين أن محادثات ميكولايجك فى موسكو قد أخفقت ، وأن الروس اتخذوا حياله موقف تهديد ، وأنى من أجل هذا أدعوهم أن يكفوا عن القتال وأن يعودوا إلى بيوتهم .

ولم يكن لهذه ولا لغيرها مما تلاها من مساعى الدعاية الألمانية أى أثر ، فقد كان تزوير الألمان سخيفاً ومن السهل فضحه . مثال ذلك أنه بعد بضعة أيام أعلنت نشرة أخرى باسمى أن هيئة أركان حربى والقيادة الألمانية ، تبحثان اقتراحاً بعمل مشترك ضد روسيا — وهى سخافة تسلينا بها جميعاً .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم الثالث من أغسطس حلقت ٤٢ طائرة ألمانية وألقت قنابل متفجرة وقنابل محرقة على ضاحية فولا وعلى قلب المدينة ، فكانت هذه أول غارة جوية ألمانية على وارسو منذ سنة ١٩٣٩ . وفى الساعة الرابعة تكررت الغارة .

وكان كل رأس يدور فيه سؤال واحد : أين الطائرات السوفيتية ؟ فإن للروس مطارات على مسافة عشرين دقيقة بالطائرة . وكانت طائراتهم منذ ٢٤ يوليه تغير على وارسو كل ليلة تقريباً ، ولكنه لم تظهر طائرة واحدة منذ بدأنا نقاتل .

وفى اليوم الثالث من أيام القتال ، ٤ أغسطس ، اضطررت أن أتخذ قراراً كان غاية فى الصعوبة عن إنفاق الذخيرة .

وكانت المبادأة لا تزال فى أيدينا ، وكنا نوسع قبضتنا على المدينة ساعة بعد ساعة ، ولكن ما استولينا عليه من المؤن والذخائر لم يكن يعادل ما استهلكنا من الذخيرة . وكان كل تقرير يرد يؤكد هذه الحقيقة .

وكانت مصانعنا تعمل ليلا ونهاراً ، بل كان العمال يوسعونها بما يبتكرون من المواد والأجهزة ، غير أن إنتاجها كان يسيراً جداً ، فإذا استمر القتال بحدته فإن ذخائرنا تنفد

فى أربعة أيام أو خمســة ، ولم أكن واثقاً أن الجيش الاحمر فى خلال هذه المدة سيدخل وارسو ، أو أن القوات الجوية ستجلب لنا معونة كافية . فكانت الحكمة تقضى بأن نضيق نطاق القتال ونقتصد فى الذخيرة .

فوقعت على كره أمراً يوجب على كل قائد أن يحتم الاقتصاد فى الذخيرة ، وأن لا هجوم إلا فى حالات الضرورة ، وكررت بإلحاح ما سبق أن طالبتُ به لنــدن ، من إرسال ذخائر وأسلحة ضد الدبابات .

وكان الســلاح الجوى البريطانى يمون الجيش الداخلى منــذ ثلاث سنوات ، من قواعد فى أول الأمر فى المملكة المتحدة ، ثم من إيطاليا الجنوبية ، فكانت الطائرات تغادر هذه القواعد كلما سمح الجو بذلك ، وتلقى المؤن والذخائر فى بولندة فى مواضع يعينها أركان حربنا وتحرسها وحدات من جيشنا .

وقد سار هذا العمل فى يسر وَفْق نظام محكم ، وكانت محطة الإذاعة بلنــدن تعلن بانتظام خبر هــذه الرحلات فى برنامجها البولندى بأن تعزف ألحاناً خاصة ، فلحن معناه «لا رحلة الليلة» ، ولحن آخر معناه « الأسلحة ستلقى الليلة » ، وعلى أثر ذلك تعزف الإذاعة اللحن الذى يعين الموضع ، وكان لكل موضع لحنه الخاص . وكان رجال منا يديرون أنوار الإشارة ، ويجمعون ما يلقى ، ويرسلونه إلى حيث ينبغى إرساله .

واليوم ، ٤ أغسطس ، سمعنا من الراديو لحن « الأسلحة ستلقى الليلة » وذكر اللحن التالى موضعاً بعيداً فى الريف لا فى وارسو ، فأورثنا هــذا قلقاً أليما ، وأغرانا بتكهن لا خير فيه . على أنه بعــد منتصف الليل بقليل ظهرت طائرتان وألقتا ١٢ ربطة ، ليس لها غــنــاء ، إذا قيست إلى حاجات ٤٠,٠٠٠ من المقاتلين ، ولكن وصولها كان له أثر منعش فى كل نفس .

ومن حسن الحــظ أن الطعام لم يكن ينقصنا ، فقد كنا ملأنا مخازن كبيرة سرية تكفى جنودنا عشرة أيام ، ثم استولينا بعــد ذلك على مستودعات ألمانية كبيرة . غير أن الحاجة إلى الذخائر لم تبرح بالنا قط ، فكانت تورثنا قلقاً ملحاً ، وتتطلب جهداً متواصلا .

وقد أفضى الأمر بالاقتصاد فى الذخيرة إلى تخفيف الاندفاع فى هجومنا ، فبذل الألمان أول جهــد لانتزاع المبادأة منا ، وكان من الجلى أنهم سيحاولون شق طريق إلى النهر وسط مراكزنا ليفتحوا طريقاً للمرور فى المدينة .

وكنا لم نستول بعد على الجسور ، ولكن شاطىء النهر كان فى أيدينا ، وكذلك كل طريق إلى الجسور ، وكانت المدينة نفسها فى أيدينا ما عدا نقط قوية منعزلة .

وقد لغمنا مفارق الطرق المهمة ، فأحبط

هذا العمل الجهود الأولى لانتزاع الهجوم منا . غير أنه كان ينقصنا العدد الكافى من الألغام ، فرسم الجنود علامات على الشارع ورفعوا لوحات على عصى كتب عليها بالبولندية : «حاذر ! ألغام !» فكانت هذه العلامات ترد الدبابات ، فتتقهقر د تماً وتذهب تلتمس طريقا آخر .

وأحرز غلام فى الثانية عشرة قصب السبق إذ رأى دبابة ضخمة من طراز النمر تزحف على متراس ، وكل مدافعها الرشاشة تطلق نيرانها . فتمهل وظهره إلى الحائط ، حتى لاحت اللحظة المناسبة وقذفها بزجاجة من البترول من مسافة ثلاث ياردات ، فاندلعت النار فيها وقفز منها رجالها واستسلموا ، فأطلقت الجماهير الهاتفة على الغلام اسم « النمر » وحملته على الأكتاف ، ولكنه لم يكن يريد تصفيقاً ، فقد كان له رأى فى نوع الجزاء ، ذلك إنه يريد خوذة جندى . وكانت أزمةً لأنه لم يكن عندنا خوذات ، ومن حسن الحظ أن بعضهم كانت عنده خوذة قديمة من الحرب الماضية ، فقدمت إليه فارتداها . ودمر فيما بعد دبابتين أخريين ، وأخيراً صار جاويشاً !

على أن مركزنا فى فولا أخذ يزداد حرجاً ، فإن الطائرات الألمانية كانت تغير عليه منذ الصباح الباكر ، وفى هذه المرة أقبلت بغير حراسة من المقاتلات ، وألقت قنابلها من ارتفاع منخفض لا يتجاوز أحياناً مئة قدم . فغطى الدخان الكثيف الحى كله ، وخرج الناس أفواجاً من الأبنية المحترقة يحملون كل ما يستطيعون حمله من متاعهم ، وتفرقت جموعهم تنشد السلامة .

ولم يكن ثم ذكر لوارسو فى أى إذاعة روسية ، ولا صوت قتال يأتى من وراء نهر الفستولا ، ولا طائرات روسية فى السماء . وكان اختفاء الطائرات أعسر فهماً فإن بضع مقاتلات روسية كان يسعها أن تحصد القاذفات الألمانية التى لا يحرسها شىء .

وفى ٥ أغسطس حدث ما بدا كأنه أول ابتداء للاتصال بالجيش الأحمر ، فقد وجد جنودنا رجلا أجنبياً قبل يومين فى القطاع الأوسط ، واستجوبه رجال الاستخبارات فقال إنه الكبتن كالوجين ، وأنه ضابط روسى تحت قيادة المارشال روكوسوفسكى ، ولم يكن معه أوراق سوى بطاقة شخصية تدل على أنه ضابط روسى متصل بجماعة زارنى ، وهى وحدة من العصابات السوفيتية تعمل فى مؤخرة الخطوط الألمانية .

وقد قال إنه هو وزميل له هبطا بالمظلات فى جنوب شرق وارسو فى ١٥ يوليه ، وكانت مهمتهما أن يتصلا بقائد الثورة فى وارسو . وقد بلغا وارسو فى أول أغسطس

فافترقا وفقد كل منهما الآخر أثناء حركات الجيش الداخلى . ولما كان جهاز الإرسال اللاسلكى والشفرة مع زميله ، فإنه لم يجد وسيلة للاتصال برؤسائه ، واستأذننا فى استعمال جهازنا اللاسلكى ليتصل بديوان المارشال روكوسوفسكى ، وقال بلهجة التأكيد إن للجيوش الروسية التفوق الساحق فى العدد، وأنها ستكون فى وارسو بعد أيام قليلة ، وطلب أن نطلعه على الحالة فى وارسو، واقترح أن يسمح له الكولونل موتتر بتوجيه رسالة إلى ستالين مباشرة .

ومع أنه لم يكن يخالجنى شك فى أن رئيس الوزارة ميكولايجك يطلع ستالين اطلاعا وافياً على سير القتال فى وارسو ، إلا أنه لم تغب عنى قيمة التأييد من ضابط سوفيتى يشاهد الحالة بنفسه ، فأمرت موتتر أن يقدم له كل المعلومات عن مراكز الألمان ومراكزنا ، وأن يبعث برسائله .

وقد طلبت رسالة كالوجين إلى ستالين أن ترسل الأسلحة من لندن وتلقى فى مواضع معينة، وأن تضرب الطائرات بالمدافع الرشاشة نقط احتشاد الألمان فى وارسو، وأن تضرب بالقنابل مطارات معينة، وأضافت إلى ذلك: « أن أهل وارسو البواسل يعتقدون أنكم سترسلون إليهم أقوى معونة فى الساعات القليلة التالية . وأرجو أن تسهلوا اتصالى بالمارشال روكوسوفسكى» ووقعها هكذا : « كبتن كونستنتين كالوجين من جماعة زارنى . وارسو » وبعث الكولونل موتتر أيضاً برسالة كالوجين إلى لندن طالباً أن يحولوها إلى المارشال روكوسوفسكى فى جبهة الميدان . ولم يرد رد من السوفيت .

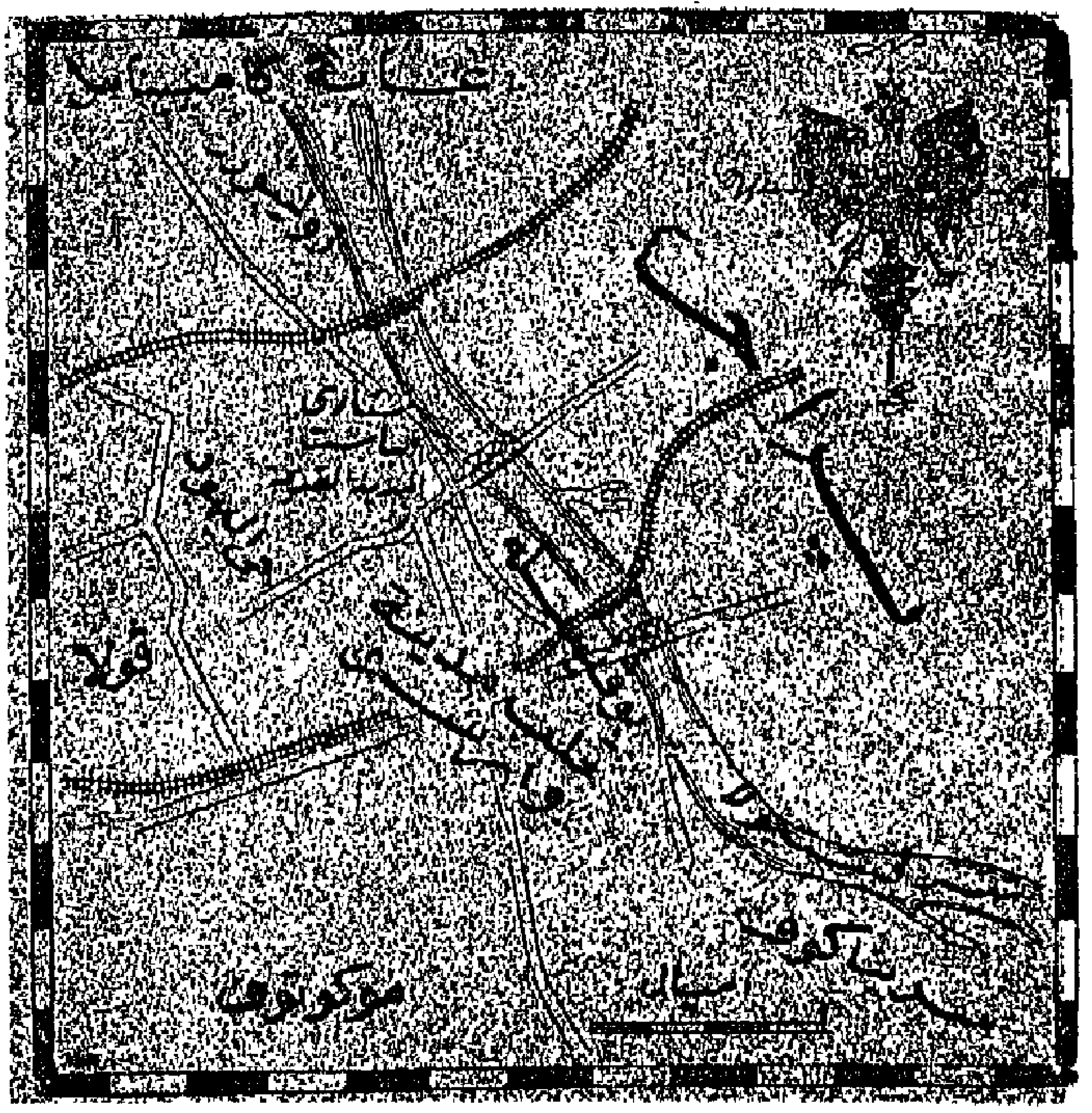
وازداد الموقف فى فولا سوءاً ، فقد أخذ الألمان يقاتلون مستيئسين ليعيدوا فتح الباب الغربى من طريقهم وسط وارسو .

وكان الدفاع عن فولا عسيراً جداً لأنها محوطة بأرض مكشوفة . وفى ٦ أغسطس صار مقر القيادة فى الخط الأمامى ، وأصبح من الصعب القيام بعملنا . ولم تحجم قط الفتيات اللواتى كن يحملن الرسائل ،ولكن الاتصال بالكولونل موتتر أخذ يزداد صعوبة .

وكانت الضرورة تقضى بإنقاذ أجهزتنا اللاسلكية وهى أداتنا الوحيدة للاتصال بالعالم ، ووسيلتنا المفردة للاتصال بالقيادة الروسية ، ولهذا أصدرت الأمر بأن ننتقل إلى ستارى مياستو — المدينة القديمة .

ولما غادرنا مصنع كاملر إلى ستارى مياستو، سرت للمرة الأولى فى حى اليهود ، وكنا لم نر خرائبها من قبل إلا من نوافذ المصنع .

وكانت المدينة القديمة حياً كله منازل عالية عتيقة ضيقة بنيت فى القرون الوسطى ، والكنائس والمنازل متلاصقة ، والطبقات



العليا تشرف على الشوارع الضيقة . وكان هذا الحى لم يمسسه سوء من الحرائق أو القنابل، فظل كما كان منذ قرون .

وصرنا الآن ندافع عن المدينة القديمة فى مواضع حصينة : مثل مطبعة الخزانة على الفستولا ، ومن دار البلدية إلى الجنوب فى اتجاه قلب المدينة ، ومن بنك بولندة وغيره على الجناحين ، وانتقل ديواننا الجديد إلى ميدان كراسنسكى، فى جناح من مدرسة كان الألمان قد اتخذوها مستشفى .

وكان أول ضابط تقدم إلىّ فى ستارى مياستو هو الكولونل فاشنوسكى ، وهو ضابط على أعظم حظ من الكفاءة ، قلده الكولونل مونتر قيادة هذا القطاع ، وكان رأيه أن الموقف غاية فى الخطورة ، فإن اللاجئين المدنيين يفدون زرافات ، والوحدات المسحوبة من قطاعات أخرى تكر راجعة إلى المدينة القديمة ، والنظام يحتفظ به ، والطعام يقدم ، والمعونة الطبية تبذل ، ولكن الحاجة إلى الذخيرة شديدة جداً .

فكررت مطالبتى لندن بإلحاح أن ترسل لنا الذخائر والسلاح ، وأن تنجدنا بالدفاع الجوى . وكانت محطة الإذاعة البريطانية تعزف كل ليلة اللحن الذى معناه « لا أعمال الليلة » . أما موسكو فما ورد منها ردّ .

وفى ٨ أغسطس فقدنا ضاحية فولا !

الحزن الملتهب

٩ أغسطس ، تغيرت الآن صبغة القتال : فقد نجح الألمان ، الذين قاموا بهجمات فى غاية العنف ، وبمعونة موجات متتابعة من الطائرات المنقضة ، وبالمدافع والدبابات ، وبإحراق المبانى ، فى شق طريق لهم بين ستارى مياستو والمدينة الوسطى ، ونسف سكة إلى نهر الفستولا عند جسر كيربدز . فقطعت هذه السكة كل اتصال للمدينة القديمة بالمدينة الوسطى .

ولما أصبحنا معزولين على هـذا النحو بعث الكولونل مونتر إلىّ برسالة عن طريق لندن ، يطلب أن نفتح مداخل المجارى فى ستارى مياستو . وفى اليوم التـالى خرج من مدخل المجارى فى ميـدان كراسنسكى شخص علـيه طوائف شتى من الأقذار ، وكان فتاةً تحمل التقارير من الكولونل مونتر . وهكذا صارت المجارى هى وسيلة الاتصال بين القطاعات فى أحياء المدينة كلها.

١١ أغسطس : كان الضغط المتزايد من الأسلحة الألمانية الثقيلة قد أكره المدافعين عن ستارى مياستو أن يتخلوا عن المتاريس فى عدة مواضع ، ولكنا ظللنا محتفظين بنقط الدفاع الرئيسية وكان مصنع الكهرباء لا يزال يعمـل ، وجهازنا اللاسلكى غير معطل ، وكانت موسكو لا تزال صامتة ، ولكن محطة الإذاعة البريطانيـة فى ذلك اليـوم أذاعت اللحن الذى معناه « الليـلة نعمل » وأتبعت هذا بعزف لحن « الحزام الأحمر » ومعناه « فوق وارسو » .

وأقبلت الطائرات عند منتصف الليل ، فسرعان ما اجتاحت الأنوار الكشافة الألمـانية السماء وانفتحت أفواه المـدافع الألمانية المضادة للطائرات ، ولـكن هذه لم تنحرف عن طريقها ، فبادرت ١٥ امرأة من العاملات فى المليشيا إلى إضاءة مصباح الزوايا ، ورسمت بالأنوار صليباً هائلا ، فهبطت الطائرات ــ وقد عددنا منها سبعاً ــ إلى قريب من الأرض وألقت حمولتهـا ، فأرسلت المدينة كلها صيحة ترحيب بهـا . وكان الناس يهتفون ، ويصيحون ، ويدعون ويضحكون ابتهاجاً . ولكنهم وقفوا ينظرون بغير حراك ، وقد اضطرمت النار فى إحدى الطائرات وسقطت محترقة فيما وراء الفستولا.

ودارت المعركة فى المدينة كلها الآن بعنف جديد ، لأن بعض ما ألقته الطائرات سقط بين المراكز البولندية ومراكز العـدو . وسقطت ربطة فوق كنيسة على مسافة مئتى ياردة من بنك الاقتصاد القومى ، وهو حصن ألمانى ، فصعد أربعـة رجال بواسل إلى القُبّة ، فقتلوا جميعاً . فصعد غيرهم من من الداخل وشقوا السقف فسقطت الربطة فى أيديهم .

وفى ليلتى ١٢ و ١٣ أغسطس ألقت الطائرات تموينات أخرى .

وقد استطعنا أن نظفر بثمانين فى المئة مما ألقى إلينا ، فقوّت هذه المعونة قلوب الجنود والشعب على الســواء ، فبلغت الثقة حداً رائعاً . وكانت هذه الأمداد تكفى لا لتمكيننا من الدفاع فحسب ، بل لاستئناف الهجوم مرة أخرى .

وفى خلال هذين اليومين قامت وحداتنا

بهجمات ناجحة وقضت على عدد من الجيوب الألمانيــة المنعزلة ، ولكننا لم نستعد زمام الهجوم ، وجاءنا قلم الاستخبارات بأن قوات ألمانية جديدة تصل ، وكان من الجلى أن فتور الهجوم الروسى ، لسوء الحظ قد مكن قوات ألمانية من العمل ضدنا .

وفى ١٤ أغسطس خرجت موسكو عن صمتها ، فأذاع الراديو السوفيتى الرسمى ، ومحطة الإذاعة البريطانية معاً البيان التالى :

« نشرت حديثاً فى عدة صحف فى الخارج أخبار من مصادر بولندية عن الثورة التى بدأت فى وارسو فى أول أغسطس بأمر من المهاجرين البولنديين فى لندن . وقد زعمت الصحف البولندية وراديو الحكومة اللاجئة إلى لندن أن ثوار وارسو كانوا على اتصال بالقيادة السوفيتية العليا ، وأن هذه القيادة لم تبذل لهم أية معونة . فهذا الزعم إما أن يكون ناشئاً عن سوء تفاهم ، وإما أن يكون قذفا فى حق القيادة السوفيتية العليا .

ولدى وكالة تاس من المعلومات ما يدل على أن الدوائر البولندية فى لنــدن ، وهى المسئولة عن الثورة فى وارسو ، لم تبذل أى محاولة لتنسيق هــذه الحركة مع القيادة السوفيتية العليا ، وفى هذه الظروف لا يكون المسئول عن نتائج الحوادث فى وارسو سوى دوائر المهاجرين البولنديين فى لندن » .

وقد كان وقع هذا الإعلان فى وارسو هو الذهول ، فأثار أعمق مخاوف الشعب وسخطه وشكوكه ، فما نسوا ذلك النداء الحار من موسكو : « يا أهل وارسو ، إلى السلاح ! هاجموا الألمان ! ليس ثم وقت يضيع ! » وما زالوا يذكرون اتهام رؤساء الجيش الداخلى بأنهم يعملون سراً على بقاء قواتهم جامدة فى وارسو .

وقد وافق ذلك ورود الأخبــار بأن ميكولايجك قد عاد إلى لندن من موسكو . ولم يذكر شىء عن محادثاته مع مولوتوف وستالين ، ومن الجلى أنهما لم تنض إلى اتفاق بين الحكومتين .

وقد أدركنا أنه فى الوقت الحاضر لا يجوز لنا أن ننتظر أى مدد سوفيتى من الجو ، أو أية حماية جوية أو أية معونة أخرى ، وأنه ليس لنا الآن إلا أن نعوّل على قوتنا ، وعلينا أن نحتفظ بوارسو بدون مساعدة من الروس إلى أن يستأنفوا زحفهم على ألمانيا . وكنا نعلم أن الروس لا يستطيعون أن يستأنفوا الزحف دون أن يتناولوا وارسو . فالمسألة هى : متى يتحركون ؟

ولما كان الهجوم الروسى قد بلغ عنفوانه على قوات العدو المتفككة المتهافتة ، فقد بدا لنا أن قوة الاندفاع وحدها ستبلّغ الروس وارسو قريباً ، فعلينا أن نثبت حتى يأتوا .

وأقبل زعماء الأحزاب السياسية إلى مقر قيادتنا بمشروعات لزيادة عملهم ، واقترح اثنان من حزب الفلاحين أن أصدر الأمر إلى كل وحدات الجيش الداخلي السرى فى بولندة بأن تزحف لنجدة العاصمة .

وكنت أعرف أن وحداتنا الريفية السيئة التسلح لا تستطيع أن تغير الموقف تغيراً يذكر ، غير أن عملا فى مؤخرة العدو يحول نظره ، قد يكسبنا فسحة من الوقت ، وكان الوقت هو العامل الجوهرى . ورأيت أيضاً أن وحدات تأتى من الريف قد تجلب مقادير من السلاح يتيسر تهريبها إلى المدينة ، فقبلت اقتراح حزب الفلاحين ، وطلبت من لندن أن تذيع رسالة تأمر كل الوحدات الميسورة الحسنة التسلح بأن تقصد على الفور وبأسرع الوسائل الممكنة إلى وارسو .

وفى الوقت نفسه ، وبواسطة لنـــدن ، أصدرت الأمر إلى جميع الفلاحين القريبين من وارسو بأن يعدّوا تقـديم الطعام إلى المدينــة أول واجب عليهم . وكان حزب الفلاحين ينظم هذا التموين .

وقد استجاب ضباط الجيش الداخلي فى بولنده كلهـا لأمرى بأن يزحفوا لنجدة العاصمة ، غير أن عقبات شتى اعترضتهم .

وترددت أنباء من لوبلين ولفوف والمناطق الأخرى الواقعة تحت سـيطرة الروس ، وكانت الأنباء كلها مجمعة على أن وحدات الجيش الداخلي التى أعربت عن رغبتهـا فى الزحف إلى وارسو ، قد نزع سلاحها .

ولم يتيسر لى ، إلا بعد أن وصلت إلى لندن فى مايو ١٩٤٥ ، بعد هزيمة ألمانيا ، أن أرى برقيـة من لوبلين مؤرخة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٤ ، تروى أمراً صادراً من قائد كتيبة المشاة السوفيتيـة السادسة عشرة ، وهذا الأمر يروى أمراً عاماً كنت أصـــدرته إلى وحدات الجيش الداخلي عن طريق محطـة الإذاعة البريطانية فى ١٤ أغسطس ١٩٤٤ ، وقد طلب الأمر السوفيتى من ضباط الجيش الأحمر أن يمنعوا سـير وحدات الجيش الداخلي إلى وارسو ، ويقول إن كل وحداته التى لا تزال تعمل فى المنطقة يجب أن ينزع سلاحها فوراً ، وأن توجه إلى المراكز العسكرية لترحيلها . وقد وصف الجيش الداخلي بأنه «الجيش الوطنى البولندى الذى تؤيده حكومة المهاجرين البولنديين » .

وقد فهم الألمان من بلاغ وكالة تاس ما فهمناه : أى أن الجيش الداخلي يقف وحده الآن أمام قوات متفوقة عليه تفوقاً ساحقاً ، ولهـــذا توقعنا أن يقوم الألمان بهجوم قوى على سـتارى مياستو ، وهو قطاع ضعيف جداً .

وفى اليوم السابع عشر من القتال بدأ الألمان يضربون وارسو بالمدافع الثقيلة التى استخدموها من قبل فى حصارهم لسباستوبول، وكان انفجارها يدمر عمارات برمتها . وقد توخى الألمان دقة عظيمة فى استخدام المدافع وسددوا نيرانها إلى قيادات المناطق ومراكز اللاسلكى ، كما سددوها إلى ما كان لهم من مخازن مؤن ومستودعات للذخيرة .

وبعد أن استمر هذا الضرب طول الصباح انقطع إلى حين، وتقدم رسل الألمان فى مواقعنا فى سكسونى بارك رافعين علماً أبيض، فقابلهم ضابط بولندى خارج خطوطنا فسلموه رسالة بتوقيع قائد القوات الألمانية فى وارسو . يطلب منا الاستسلام ويعرض على جنود الجيش الداخلى حقوق المحاربين فى الأسر ، ويهدد إذا رفض هذا الاقتراح، بسحق المدينة وأهلها .

ولم تحدث هذه الرسالة أدنى تردد فى نفوس أركان حربنا .

وكان ينبغى، بمقتضى أصول الحرب كلها، لقوة حربية فى مثل موقفنا ، أن تستسلم ، ولكنا رأينا أن الاستسلام للألمان مؤداه ذبح الجنود والمدنيين على السواء . ولهذا وعلى الرغم من امتناع معونة السوفيت، لم يكن أحد يشك فى أن سبيلنا الوحيدة هى أن نواصل القتال حتى يستأنف الجيش الأحمر زحفه . وقد أمرت الكولونل مونتر بأن لا يرد على رسالة القائد الألمانى .

وقد استطعنا أن نوجه إلى العدو رداً صريحاً بطريقة أخرى . فقد قام الكولونل مونتر بسلسلة من الهجمات على مواقع قوية للعدو ، مبتدئاً بدار التلفون فى القطاع الأوسط. وكان هذا البناء الضخم، وهو من أعلى المبانى فى المدينة ، لا يزال وكراً لمقاومة العدو ، وكان جنودنا قد أحدقوا به، ولكن الحامية ثبتت وجعلت تقذف الشوارع بنار متصلة من النوافذ العالية .

فجددنا هجومنا على هذا الحصن بمعونة شيخ جاوز الستين كان قبل ذلك قد تطوع فرداً . وكان الشيخ عنيداً ، فركب رأسه ومضى على طريقه ، وكان قبل ذلك عاملا فنياً فى دار التلفون ، ويعرف البناء حق معرفته، وكان إلى جوار المبنى بعض الخرائب، فقضى الليل وحده يحفر سرداباً تحت الخرائب . وبعد أكثر من أسبوعين من العمل الشاق ، كان قد حفر ممراً طوله نحو مئة ياردة ، وبلغ بدروم مبنى التلفون ، ثم أفضى بسر هذا الممر المؤدى إلى حصن العدو إلى قائد المنطقة . فرأى الكولونل مونتر ، اعتماداً على هذا الخبر ، أن يسخو بالذخيرة للهجوم .

وفى الليلة التالية ، وفى الساعة الثانية ،

بدأ الهجوم فى هذا السرداب، فدارت معركة عنيفة داخل المبنى حيث أقام الألمان المتاريس فى كل طبقة وكل ممر ، واستخدم جنودنا الألغام ، فنسفوا الجدران وشقوا ممرات . واستمرت المعركة فى سحب من الدخان الكثيف ، وأبدى الألمان مقاومة عظيمة ، وقاتلوا من أجل كل غرفة وكل طبقة .

وبعد عشر ساعات من القتال أبيد الألمان، وجرح الشيخ الذى حفر السرداب فى خلال القتال ، فكوفىء بسدس وعشر طلقات .

وفى الأيام القليلة التالية زاد الهجوم فى قلب المدينة شدة ، وفاز بمثل هذا التوفيق، فقضينا على مراكز ألمانية منعزلة ، وغنمنا ذخائر لا تقدر بثمن ، غير أن هذا لم يكن يكفى للانتصار على قوات العدو الرئيسية . فشرع الألمان فى ١٩ أغسطس ، فى هجوم مركز على ستارى مياستو .

وقد عثرنا بعد بضعة أيام على أمر مع ضابط ألمانى قتيل، فيه بيان دقيق لقوة العدو المستخدمة فى هذا الهجوم فى منطقة لم يكن لنا فيها سوى خمسة آلاف رجل مسلحين كيفما اتفق . وقد جاءت الضربة الكبرى من عشر كتائب من المشاة الألمان تؤيدها بطاريتان من المهندسين ، ووحدة من دبابات النمر ، و ٢٠ مدفع ميدان ، و ٥٠ مدفعاً ضخماً وبطاريتان من مدافع عيار ٧٥ م ، وبطارية من عيار ٣٨٠ مم ، (من نفس النوع الذى كان الألمان يضربون به دوفر من شاطىء المانش) وسرية للألغام ، وقطار مصفح وفضلا . عن ذلك كانت الطائرات المنقضة تقذف المنطقة بانتظام كل ساعة فى البداية ، ثم كل ربع ساعة .

وكان تركيز الضرب على هذا النحو ، موجهاً إلى منطقة لا تتجاوز مساحتها كيلومتراً مربعاً . وكان اللاجئون قد زادوا عدد السكان فى هذه المنطقة المحصورة إلى ٢٠٠،٠٠٠ ، ولم تكن فى المنازل القديمة التى يرجع عهدها إلى القرون الوسطى ، وقاية من هذا الضرب من مدافع الحصار الثقيلة ، فتقوضت كأنها مصنوعة من ورق، ودفن آلاف تحت أنقاضها ، وكانت كلما شبت النار فيها تحترق كأنها من حطب .

وفى الساعات الأولى من هذا الهجوم أقبل على مقر القيادة أربعة من الجنود يحملون جثة الملازم كامار ، وكان من أوثق رفقائى صلة بى ، فأردته شظية أصابت رأسه ، وكانت زوجته وبنته ترتديان البزة العسكرية، فتركتا مراكزهما لتشيعا الجنازة، ولم يكن عندنا نعش فسدت ألواح الخشب مسده ، وحملنا الجثة عليها ودليناها فى القبر، ولم نطلق ناراً لأننا لا نستطيع أن نستغنى

عن طلقة واحدة . ثم عادت زوجته وابنته على الفور إلى واجباتهما .

وكان فى كل أنحاء وارسو عدد لا يحصى من الجنود ، رجالا ونساء ، يرتادون المجارى محاولين أن يصلوا مراكزنا المنعزلة بعضها ببعض ، وكانت شبكة المجارى التى بنيت منذ ستين عاما ، تيهاً معقداً تحت الأرض ، ومجهولا شديداً الخطر ، يمتد أميالاً . وكانت المسالك فيها متفاوتة السعة ، وأصغر ما يمكن المرور منه ارتفاعه ثلاث أقدام وعرضه قدمان ، وكانت قطع الزجاج وأشباهها كثيرة فى الأوحال الراسبة فى أرضه المقعرة ، فمن المستحيل الزحف على اليدين والركبتين ، فإن أيسر جرح يحدث تسمما قاتلا ، فكان على سالكها أن يستعمل عصوين قصيرتين يعتمد عليهما ويثب كالضفدعة وثبات قصيرة ، فالسير غاية فى البطء والإجهاد ، وأحد هذه المسالك بين ستارى مياستو ووارسو الوسطى كان يستغرق اجتيازه تسع ساعات ، وإن كان طوله لا يزيد على ميل .

وكان سلوك ممر ضيق كهذا فى ظلام دامس وأقذار ترتفع إلى الخصر ، كثيراً ما يورث المرء فزعاً شديداً . وقد رأيت رجالا من أجرأ الناس لا يترددون فى الهجوم على الدبابات بزجاجة من البترول ، يتهالكون ويتهافتون بعد أن يقطعوا بضع مئات من الياردات ليس إلا من هذه المسالك الضيقة الوخمة .

وكانت هناك مسالك قليلة واسعة يستطيع المرء أن يقف فيها معتدل القامة تقريباً ، ولكن استخدامها كان ينطوى على خطر آخر ، لأنها مجعولة ليجتمع فيها ما ينزل فى المجارى من أحياء برمتها ، فالماء فيها عال والتيار قوى ، ولا سبيل إلى سلوكها إلا بالتعلق بحبل ، وقد يحدث فى أية لحظة أن يتدفق الماء فجأة من أى مسلك من المسالك الرافدة ، فيمتلىء المكان ويجرف التيار من فيه . وقد ضاعت أرواح كثيرة على هذا النحو فى هذه المسالك .

وكانت لندن هى مركز حركة المرور لنظام مواصلاتنا بالمجارى ، وكان يبدو من السخافة المطبقة أن نبعث برسالة عن طريق لندن لنتصل بمن هم على مسافة بضع مئات من الياردات ، ولكنه كان ينقصنا الأسلاك للتلفون ، وكانت أجهزتنا اللاسلكية على الموجة القصيرة أضعف من أن تصلح لاتصال بعضنا ببعض ، ولكن فى الوقت نفسه تستطيع بسهولة أن تتبادل الرسائل مع محطات لاسلكية قوية . وهكذا كانت مئات من الرسائل ترسل من كل الجهات إلى لندن لتعاد منها مرة أخرى .

وحدث مرة أن دورية دخلت فى المجارى

فى زونيبورز لترتادها وتهتدى إلى مسلك يؤدى مباشرة إلى قلب المدينة ، استطاعت أن تصل إلى هدفها بعدأن قضت ١٩ساعة فى البحث ، وإذا بها تجد أن الفتحة مقفلة ، ولم تكن ثمّ وسيلة لفتحها من الداخل ، فبذل أحد رجالها مجهوداً ضخما وارتدّ إلى زوليبورز ، وبعث برسالة إلى لندن يطلب فيها تكاليف القطاع الأوسط أن يفتح مدخل المجارى . ففتح ، وأخرج الرجال منه .

وصار من المستحيل الآن تقريباً الاستمرار فى استخدام الراديو ، ففى ٢٥ أغسطس قال ضابط الإشارة إن ثلاثة من أجهزتنا اللاسلكية الأربعة دفنت تحت الأنقاض وتحطمت ، وأن الرابع عمله متقطع وقد يكف عن العمل فى أية لحظة .

وكان هذا يهددنا بخطر وبيل ، فإن الراديو لم يكن الوسيلة الوحيدة للقيام بواجباتى كقائد للجيش الداخلى فى بولندة كلها فحسب ، وإنما كان المناط الوحيد للأمل فى الاتصال بالسوفيت حين يستأنفون الزحف . فلم تبق لى حيلة إلا أن أنقل هيئة أركان حربى إلى قلب المدينة حيث كانت محطات الراديو تعمل ، ولم تكن مستهدفة لمثل هذا الخطر المستمر ، وقد اخترت موعداً لهذا الانتقال ليلة ٢٧ أغسطس .

وفى الساعة الحادية عشرة خرجنا ، وكان مدخل المجارى فى ميدان كراسنسكى على مسافة ٢٠٠ ياردة من المراكز الألمانية ، وقدغطته قنابلهم اليدوية ومدافعهم الرشاشة ، وكان علينا أن نقطع ٢٠٠ ياردة على ضوء الحرائق المشتعلة فى المبانى ، فوقفت جماعتنا واحداً وراء الآخر مستندين إلى حائط ، وجعلوا ينطلقون فرادى ، وبعد فترات متفاوتة إلى أكياس الرمل التى تحمى المدخل .

ولما هبطت إلى الجدار المبنى بالأسمنت المفضى إلى المسلك ، أدارت رأسى الرائحة الكريهة ، وأسال دموعى الهواء الفاسد ، فتدلّيت فألفيت الماء القذر يصل إلى فخذى ، وكان الأمر يتطلب جهداً بالغاً للتغلب على الاشمئزاز ، وكان التيار من القوة بحيث كان يتعذر الاحتفاظ بالتوازن ، فأمسكت بالحبل الذى فى يد المرشد ، وقبضت عليه بكل قوتى وتقدمت خطوات لأفسح لمن يلينى .

وقد قضينا ساعة فى حشد الجماعة كلها فى المجارى ، وكانوا نحو أربعين ، ثم وقفنا ننتظر فى ظلام دامس . ولما كنا سنمر تحت فتحات واقعة كلها تقريباً فى المراكز الألمانية ، فقد حظرنا استعمال الضوء ، وحرصنا على الصمت التام . وكان التنفس صعباً من جراء الرائحة ، وكان على كل من يدور رأسه ويعجز عن مواصلة السير أن يجذب الحبل ثلاثاً ، وحينئذ يأمر المرشد

بالوقوف . وكان المقرر أن نستريح قليلا بعد كل ساعة .

وكان علينا أن نقطع ميلا ، فإذا سارت الأمور على ما يرام رجونا أن لا تستغرق الرحلة أكثر من خمس ساعات .

وسار الطابور يتقدمه جنديان مع كل منهما مدفع تومى، وسرعان ما اشتد التيار ، واضطررنا أن نقعى قليلا فى هذا الموضع ، لأن المجازة لم يكن ارتفاعها يزيد على خمس أقدام، وإذا بصرخة فظيعة تفاجئنى من خلفى ، ذلك أن الفتاة باسيا التى اتخذتها للمراسلة تزحلقت وردّها التيار إلى الوراء .

واستطاع يانكوسكى أن يمسكها قبل أن تفلت ، وأن يجذبها ويقفها على قدمها مرة أخرى، وكانت الأصداء التى تجاوبت مروّعة، وكانت ناطقة بمزيج من الحزن والفزع واليأس يجاوز طاقة البشر .

وكنا من حين إلى حين نضطر أن نمر تحت سيل من الماء ينحدر علينا من مواضع فى سقف المجارى دمرتها القنابل ، وقد كاد هذا الماء يغرقنا ، وكان المجرى ربما أضاءه نور ينفذ إليه من ثغرة، وكانت هذه أخطر المواضع ، لأنا كنا فيها على مسمع من الألمان ، وقد يقذفوننا فى أية لحظة بالقنابل.

وبعد زمن قلّ ماء المجرى ، ولكن السير لم يكن من أجل ذلك أسهل، لأنه كان أحفل بالأقذار، والتنفّس أصعب من جراء النتن. وكنا لا نتنفّس إلا تحت الثغرات الخطرة .

وأخيراً لمحت على بعد ضوءاً خافتاً من مصباح إشارة أزرق ، وكان لا يزال علينا أن نقطع مئتى ياردة، خيل إلينا أنها لا تنتهى، وكانت ظهورنا وعضلات سيقاننا قد أصابها التوصيم ، وكان الضوء الأزرق يبدو لنا كأنه ينأى عنا إذ نتقدم، ولكنا بلغناه أخيراً، ووجدت يدى حبلاً مدلىًّ من المدخل فوقنا فخرجنا به من الفتحة الضيقة .

وكان للنظرة الأولى التى ألقيتها على قلب المدينة وقع قوى غريب ، فأحسست أنى فى عالم آخر ، فقد رأيت بيوتاً قائمة وبعض زجاجها سليم ، ولم تكن الأرصفة مكسرة أو عليها أنقاض ،وكان من الجلى أن الناس لا يزالون يجدون الماء، فخيل إلىّ أن وارسو ما انفكت تحيي حياة السلام .

ومضينا والأقذار تقطر منا إلى مقر الكولونل مونتر، حيث أعدت لى ولرئيس أركان حربى غرفة واحدة . وسرعان ما أعطوا كلا منا دلواً من الماء لنغتسل ، فكانت أعظم النعم، فسرّنى أن أنضو ثيابى التى كان يفوح منها النتن ، ورقدت نظيفاً لأستريح قليلا

وبعد ساعات أقبل مونتر ليصف الموقف فى المدينة، فقال إن أزمة الطعام تزداد حدة

بسرعة ، وإن معظم المخابز قد دمر ، وأن الخبز لن يوجد بعد الثامن من سبتمبر ، وقد عجزت الأمهات عن تغـذية أطفالهن لما أصابهن من الرجات العصبية ، ولأن اللبن معدوم ، وقد كثرت الوفيات بين الأطفال كثرة مروعة ، والتيفوس وغـيره من الأوبئة يهدد الناس ، والدسنطاريا متفشية .

وكان لما أذاعه السوفيت من رفضهم أن يأذنوا للقوة الجوية في استخدام مطاراتهم وقع عميق في نفوس النـاس ، ولم تكن الأنباء من وراء الفستولا مشجعة ، لأنهـا لا تنبيء بأكثر من الهدوء التام .

وكان أول ما يعنيني أن أنقذ المدافعين عن ستارى مياستو ، وهم ١٥٠٠ ، وكانوا لا يزالون ثابتين في ذلك الموقع الأمامي المقضى عليه . وكانت خطتنا الأولى أن نقوم بهجوم موحد محـكم التنسيق نفتح به ثغرة في خط العدو ، وقد حددنا لذلك ليلة ٣٠ أغسطس .

وكانت مهمة الـكولونل فاشنوسكى في ستارى مياستو غاية في الصعوبة ، فقد كان عليه أن يسحب جنوده دون أن يفطن العدو ، وأن ينقلهم إلى مراكز جديدة للهجوم .

ولـكن المدنيين أصابهم الفزع حين رأوا الجنود ينسحبون ، وأرادوا لجزعهم أن يبقوا على مقربة من الجنود ، فانطلقوا يخرجون من السراديب ، فلفتت صيحاتهم نظر العدو فشرع يطلق النار على المتاريس المهجورة ، وما استطاع فاشنوسكى أن يخلص وحداته ويردهـا إلى مراكزها في الوقت المناسب لصد هجمات الألمان ، إلا بعـد عناء شديد . وذلك فيما عدا إحدى الوحدات ، فإنها لم تتلق الأوامر الجديدة في الوقت المناسب ، فهاجمت الأسفين الألماني في الوقت المعين وحدها وبدون معونة ، غير أنها ما لبثت أن ردتها نيران العدو الشديدة وألجأتها إلى الاحتماء بالمجارى ، ولم يكن معها مرشد فضلت ، وخرجت من ثغرة في موقع ألماني .

ومن حسن الحظ أن الليلة كانت مظلمة ، وأن قائدها كان شاباً ذكياً سريع الخاطر ، وكان جنوده يرتدون بقايا ثياب عسكرية ألمانية استولوا عليها .

فأفشى الأمر في جنوده همساً أن ينزعوا ما على أذرعهم من الشارات البيض والحمر ، وصف رجاله وجعل على رأسهم أربعة كانوا يحسنون الألمـانية ، ثم أصدر أوامره باللغة الألمانية بصوت مسموع ، ومضى بهم بسرعة إلى المراكز البولندية على مسافة مشى ياردة .

وما كاد يفعل حتى وقفته دورية ألمانية ، وحذره رئيسها ، وأمره أن يسير في سكينة حتى لا يجتذب إليه نيران البولنديين ، فسأله عن الطريق الذى يسـلكه ليتجنب الألغام ، فدل عليه ، فقاد كتيبته سالمة

إلى الاستحكامات البولندية. فحياه البولنديون نيران البنادق ، فقتل واحد وجرح اثنان .

على أن محاولة تخليص المدافعين عن ستاري مياستو أخفقت ، ولم تبق سوى سبيل واحدة للتراجع وهى المجارى . وكان هذا من أصعب القرارات التى اضطررت إلى اتخاذها فى وارسو ، فإنه لكى تنفذ هذه الخطة يجب أن تخلو الاستحكامات من حماتها ، ومتى نزلوا إلى المجارى فإنهم لا يستطيعون أن يكروا راجعين ، هذا إلى أنهم وهم فيها سيفقدون كل وسيلة للدفاع ، وأخلق بوجود مثل هذا العدد الكبير فى المجارى فى وقت واحد ، أن يلفت نظر الألمان إليهم ، ويكفى أن يقذفوهم ببضع قنابل غازات ، أو أن يحدث فزع ، فلا يخرج منهم أحد حياً .

على أنى لم أجد بديلا من هذا ، فأصدرت الأمر وأنا أشعر بثقل التبعة . وكان من حسن الحظ أن الألمان بعثوا برسل يقترحون هدنة إلى منتصف الليل ، ليدفنوا موتاهم ، فقبل الاقتراح الألمانى وصدر الأمر بالاستعداد للانسحاب بطريق المجارى .

وقد جاءوا يحملون معهم جرحاهم ، ومن المستحيل أن يتصور المرء كيف فعلوا ذلك ، ولكنهم فعلوه ، وسار الصف فى المجارى ببطء ، ولكن بغير توقف أو راحة ، لأنه كان لابد من التقدم ليتسنى للواقفين عند مدخل المجارى أن ينزلوا . وظلت المجارى وقتاً طويلا غاصة بالجنود ومعهم ٥٠٠ من المدنيين ، و ١٠٠ من الأسرى الألمان .

***

جعلت مقرى الجديد فى بناء استخلصناه من الألمان ، على مسافة ٣٠٠ ياردة من مركز ألمانى ، فقد علمتنى التجربة أن آمن مكان أقربه إلى خط القتال ، فإن الألمان لا يجرؤون أن يضربوا بالمدافع أو بالطائرات موقعاً هذا مبلغ قربه من مراكزهم .

وكان مجلس الاتحاد القومى يعقد جلسات فى مكان قريب ، وكنت أشهد اجتماعاته كل يوم . وقد بحث المجلس وسط أصوات الانفجار ، اقتراحاً من لندن بضم لفيف من الشيوعيين إلى الحكومة ، وهو تساهل من أجل روسيا كان رئيس الوزارة ميكولايتجك يرجو أن يؤدى إلى تفاهم معها. غير أن المسألة كان من العسير جداً تقرير شىء فيها .

فما كان ثم أدنى شك فى الموقف العام تجاه الشيوعيين ، فإن الحزب الشيوعى فى بولندة ما كان يعد هيئة تمثل عقائد سياسية ، وإنما كان يعد أداة لدولة أجنبية ، ولهذا كان خليقاً أن يسخط الناس جداً أن يضم شيوعيون إلى الحكومة البولندية .

غير أن المجلس لم يبحث فى هل يضم أو لا يضم شيوعيين إلى الحكومة ، فقد

كان أعضاؤه جميعاً يدركون ضرورة الاتفاق مع روسيا ، وأن الاتفاق يتطلب التساهل من بولندة ، وإنما كان موضوع البحث الوحيد هو هل نقدم لروسيا هذا التساهل الآن ، أو أن نطلب من روسيا كما نصح الاشترا كيون أن تستأنف العلاقات السياسية قبل أن نقدم تساهلا جديداً .

وكان رأى بعض الأعضاء أن التساهل مع روسيا خليق أن يدفعها إلى تقديم مطالب جديدة، وقالوا إن شروط الروس لاستئناف العلاقات كان فى البداية أن تقبل بولندة خط كيرزون كحد نهائى بين بولندة وروسيا ، وكان مؤدّى هذا النزول عن نصف أرضنا تقريباً .

وكانت الحكومة قد خاطرت بضياع ثقة الأمة بها وتأييدها لها ، وقبلت أن تبحث فى هذا التقسيم ، ولكن الحكومة الروسية قدمت حينئذ طلباً جديداً : فقد أعربت عن استعدادها للمباحثات ، ولكن مع حكومة بولندية «صديقة» لروسيا، واتهمت الحكومة البولندية الحالية والجيش الداخلى بأنهما «جامدان» ، وأنهما يتعاونان مع الألمان .

ولما صرح ميكولايجك بأنه مستعد لإقصاء أى شخص غير صديق لروسيا ، واجهه الروس فجأة بأمر واقع، إذ أقاموا فى موسكو «لجنة التحرير القومية» الشيوعية التى انتقلت فما بعد إلى لوبلين والتى اتخذوا منها حكومة لبولندة . والآن تطلب روسيا إدخال ممثلين لهذه اللجنة فى الحكومة البولندية تمهيداً لتجديد العلاقات السياسية .

وأخيراً اتخذ مجلس الاتحاد القومى قراره الخطير بالإجماع : أن يؤيد رئيس الوزارة فى إجابة هذا الطلب الأخير ، فإن التعجيل بإجابة مطالب روسيا قد ينقذ معظم العاصمة وأرواح المدافعين عنها .

ولكن الحوادث لم تحقق هذا الأمل . فقد قوبل ما عرضه رئيس الوزارة بمطالب جديدة ، مؤداها أن يعيد تأليف وزارته ، وأن يعين فيها واحداً من كل حزب من الأحزاب البولندية الكبرى ، وأن تكون الوزارات الأربع عشرة الباقية لأعضاء لجنة لوبلين المؤلفة من دمى فى أيدى السوفيت .

٥ سبتمبر : لم أكف قط عن طلب ذخائر وأسلحة من طريق الجو ، ولكنى أصبحت لا أعتقد أنها ستجىء . وكانت المدافع والغارات قد دمرت مصانعنا . ولم يبق بعد ٢ سبتمبر عندنا خبز ، وكان كل ما بقى من الذخائر ١٢ طلقة لكل جندى ، غير أن القنابل اليدوية المصنوعة من المفرقعات التى استولينا عليها كانت أكثر قليلا .

وفى ٤ سبتمبر دمر مصنع الكهرباء تدميراً تاماً ، فانقطع اتصالنا اللاسلكى بالعالم

وتعطلت مصانع الذخيرة. وقد وجدنا بعض الآلات التي تدار بالبترول واستخدمناها في إدارة المحركات ، وبعد أيام أوجدنا تياراً كافياً لإدارة أجهزة اللاسلكي ، وواصلت المصانع إنتاج قليل من القنابل اليدوية .

وبلغت محنة الشعب أقصى حدود الطاقة فقد كانوا يعيشون منذ خمسة أسابيع ويموتون في سراديب رطبة ، وأصبحوا هَزْلَى ، متهضّمي الوجوه ، محمرّي العيون ، وكادت أعصابهم تتحطم من الظمأ والجوع والمتاعب والضوضاء المتزايدة والخطر الدائم .

وكانت حالة الجنود النفسية لا تزال حسنة ، وكنت بهم فخوراً ، بل أعظم فخراً مما كنت في أيام الانتصار والحماسة ، فقد ثبتوا على الرغم من الجوع والظمأ والجراح وقلة النوم ، وكنت أرى آيات التعب على وجه كل جندي ، ولكني كنت أتبين أيضاً عزماً لا يهي ، وكانت ندرة الذخيرة ونفاد الطعام ، والهبوط في الحالة المعنوية بين الأهالي ، كان هذا هو الذي لم يسمح لي بأي وهم فيما يتعلق باقتراب النهاية المحتومة .

ولكن خاطراً واحداً كان يجدد عزمي كل يوم على المضي في القتال ، ذلك أن استئناف الهجوم السوفيتي على جبهة وارسو قد يحدث في أية ساعة ، إذ لا مفر من زحف السوفيت . وقد يبدأ غداً .

٥ سبتمبر : في الصباح الباكر قام الألمان بهجوم مركز بالمدفعية والطائرات على بويسله ، وهو مركزنا بين قلب وارسو ونهر الفستولا . فكان من الجلي أنهم ينوون أن يخترقوا خطوطنا إلى النهر .

واستمر الضرب يومين ، وفي فجر ٧ سبتمبر جمع الألمان البولنديات اللواتي أخذن من ستاري مياستو وساقوهن إلى بويسله ، فلم يطلق جنودنا النار حين رأوهن مدفوعات نحوهم ، ثم أفاقوا وحاولوا أن يرموا الألمان المختبئين وراءهن ، ولكن الفرصة أفلتت ، فقد ارتمى النسوة على المتاريس وهجم الألمان من فوقهن ، واقتحموا .

ولما جاء الليل نجح جنودنا في وقف الألمان ، وقد فقدنا بويسله ، ولكن بقي في أيدينا قلب المدينة ، ووقف زحف العدو .

وفي ١٠ سبتمبر سمعت الأصوات التي ظللت أنتظرها ٤١ يوماً ، فقد تأدى إلينا من وراء الفستولا رعد المدفعية الروسية القوية ، وفي الوقت نفسه ظهرت الطائرات الروسية فوق المدينة ، فحلت بشائر الأمل في الوجوه محل الوجوم .

وجاءت اللحظة التي قد ترى فيها قيادة الجيش الأحمر من الملائم الاتصال بنا للتعاون الحربي فيما بيننا ، وقد بعثت برسالة بهذا المعنى إلى المارشال روكوسوفسكي عن

طريق لندن ، وأمرت الكولونل مونتر أن يعد فصائل لعبور الفستولا متى وصل الروس إلى الضفة الأخرى للاتصال بالقيادة الروسية.

على أنى كنت أشعر بقلق شديد ، فقد كان الألمان يشددون وطأتهم بالدبابات والمشاة على مراكزنا الباقية على الشاطىء الغربى . وكنت أعرف أن جنودنا المنهوكين تناهى بهم سوء الحال من جراء الجوع والظمأ وقلة الذخائر . وكان طلب الذخيرة يجىء منهم جميعاً ، فكان لا يخفى على أن مقاومتنا قد تنهار ساعة تصبح غايتنا قريبة المنال . وكان ينبغى أن نحتفظ بمدافعنا مهما كان الثمن إلى أن يستولى الروس على براجا .

وبعثت برسالة استغاثة أخرى إلى لندن ، وألححت فى طلب الأسلحة والذخائر وقلت : « ليس عندنا خبز منذ ١٢ يوماً » فجاء الرد بأن الروس وافقوا على السماح للأمريكيين بأن يستخدموا المطارات الروسية ، وأن نحو مئة قلعة طائرة ستقوم بعمل واسع النطاق فى خلال أيام قليلة ، فرجوت أن لا تجىء هذه المعونة بعد الأوان

وكان كل شىء يدل على أن الهجوم الروسى يتقدم تقدماً حسناً ، ففى مساء ٢٢ سبتمبر احتلّ الروس الطرف الجنوبى من براجا ، وبدأت المدفعية الروسية تضرب مواقع الألمان فى وارسو على جانبنا من النهر.

وفى ١٣ سبتمبر حوّمت طائرات روسية وألقت إلينا أوراقاً جاء فيها أنها ستلقى مؤونة على سبيل التجربة ، وطلبت أن نعين المواضع بأنوار على هيئة نجوم . فلما كان الغسق كان رجال الإشارة منا فى مراكزهم ، فتلقينا أول مدد من الروس : غرارات من المواد المحفوظة الأمريكيـة ورصاص . ولما كان معظمها قد ألقى بغير مظلات ، فقد تحطمت عند اصطدامها بالأرض .

وفى نفس الليـلة ألقت طائرة ألمانية غرارات من البسكويت بين المواد التى ألقاها الروس ، فحدثت عدة حالات تسمم وبيلة بالزرنيخ قبل أن تفطن وحدات التموين عندنا إلى أن البسكويت مسموم . ومن الجلى أن الألمان أرادوا أن يعتقد الناس أن الروس ألقوا طعاماً مسموماً .

وظلت الطائرات الروسية بعد ذلك تلقى كل ليلة مؤناً . وفى ١٥ سبتمبر تلقينا من الروس مدفعين رشاشين ثقيلين ، و ١٥ مدفعاً من مدافع توجى ، و ١١ أداة لقذف القنابل اليدوية ، و ٥٠٠ قنبلة يدوية وعدداً من الغرارات ملآى بالشعير ، ولكن الأسلحة ألقيت بغير مظلات فتحطمت ، حتى طلقات الرصاص التوت ، على أن الرصاص كان روسياً لا يصلح لبنادقنا .

وكانت أساليب السوفيت الجوية تختلف

اختلافاً كبيراً عن أساليب حلفائنا الغربيين، فإن الطائرات البريطانية كان لا يستغرق عمل إحداها أكثر من ١٢ دقيقة ، أما عمل الطائرات الروسية فكان يستمر طول الليل، وكانت تتولاه طائرات صغيرة . وكان إبقاء مواقعنا مضاءة طول الليل يعرضنا لنار العدو، ولهذا كانت الخسارة بين نساء وحدة الإشارات عظيمة جداً .

ومع أن هذه العيوب قللت من قيمة المدد الروسي ، إلا أن ورود المدد دلّ على تعاون الروس ، فكان لهذا أثره البالغ في الحالة النفسية ، فقويت قلوب الجنود والمدنيين لإيقانهم أن الروس سيجيئون في أية ساعة .

وفي ١٤ سبتمبر كان الروس قد احتلوا معظم براجا ، وكان الألمان ينسفون في مشارفها الشمالية المصنع والثكنات .

وفي الساعة الثامنة مساء التقطت أجهزتنا نداء مذاعاً من موسكو بواسطة لجنة لوبلين : « إلى وارسو المجاهدة : دنت ساعة التحرير ... والنجدة آتية . واصلوا القتال! ومهما تكن بواعث الذين بدأوا الثورة قبل الأوان وبغير الاتفاق مع القيادة العليا للجيش الأحمر ، فإنا معكم بكل قلوبنا ، فواصلوا القتال ! »

وانتهت معركة براجا التي دامت ثلاثة أيام في ١٥ سبتمبر، حين احتل الروس الشاطئ الشرقي لنهر الفستولا ، وكان هناك جفاف، وكان ماء النهر منخفضاً ، حتى أنه في بعض المواضع ما كان عرضه يتجاوز ٢٥٠ ياردة ، فصار لا يفصل الجيش الأحمر عنا سوى النهر الذي ضاق وضحل، ولكننا بقينا على غير اتصال به.

وكان مونتر قد أرسل ثلاث دوريات منفصلة تنفيذاً لتعليماتي ، عبرت النهر لتتصل بمقر القيادة السوفيتية ، فأما الأولى فعجزت عن الوصول وعادت ، وفي يومي ١٤ و ١٥ عبرت الدوريتان الأخريان النهر ومعهما تقارير وافية عن مراكزنا ، وعن مواقع العدو ، ومواضع المدفعية وغير ذلك.

وفي الساعة الأولى من صباح ١٦ سبتمبر هبط ضابطان روسيان بالمظلة فسقط أحدهما على حاجز حديدي فمات، وقال الضابط الآخر للكولونل مونتر إنهما جاءا من قبل المارشال روكوسوفسكي ليتصلا بنا ، وإن تعليماته لا تسمح له بإعطاء بيانات ، وإن عليه أن يصف الحالة لقائده ، ولكنه الآن فقد كل وسيلة تعين على ذلك ، لأن زميله كان عامل اللاسلكي، وقد أصيب الجهاز بتلف جسيم .

وقد أصلحنا له جهازه ، وأعرناه إحدى العاملات في سلاح الإشارة ، فأرسلت له تقاريره بشفرته هو ، فنحن لا نعلم محتوياتها.

وكان كل امرىء في وارسو يستيقظ كل صباح متوقعاً أن يكون يومه هذا

هو يوم تحرير المدينة . وكنت فى أثناء ذلك أعوّل على المعونة الأمريكية الكبيرة التى وعدت بها لندن للحصول على المواد الطبية والذخائر والطعام لتخفيف الأزمة فى موقفنا.

وفى نهاية البرنامج البولندى الذى أذاعته لندن فى الساعة ٩ من مساء ١٧ سبتمبر عزفت الموسيقى لحناً معناه أن الطائرات ستقوم برحلة إلينا الليلة ، وتلقينا أيضاً رسالة من لندن تقول إن الطائرات ستصل إلى وارسو بين ١١ صباحاً والظهر يوم ١٨ سبتمبر .

وكان اليوم شامساً دافئاً والسماء صافية ، وكان أهل وارسو لا يدرون أن الطائرات الأمريكية مقبلة ، فلما سمعت صيحة الفرح من المدينة علمت أن الطائرات قد ظهرت .

وغصت السماء كلها بطائرات مقبلة من الغرب على ارتفاع عظيم ، وكانت تسير فى نظام تام ، وخلفها خط طويل من نقط بيض هى المظلات التى تحمل المؤن ، فصارت وارسو تهذى من فرط الحماسة ، وتدفقت الجماهير من السراديب ، وامتلأت الأفنية ، وتغطت الجدران والأنقاض بالهاتفين .

ولكنى أحسست بأنى مشفٍ على اليأس ، لأن معظم الأكياس سقطت بعيداً من خطوطنا فى مواضع كانت فى أيدينا قبل أسبوع فقط ، فكفت الجماهير الحاشدة عن الهتاف ، وارتد الناس واجمين إلى السراديب.

وكنا لم نتلق بعد شيئاً من الدوريتين اللتين عبرتا النهر فى ١٤ و ١٥ سبتمبر ، فأرسلت دورية أخرى لتتصل بالتلفون مع القيادة الروسية ، وكانت أسلاك التلفون ممتدة تحت النهر إلى براجا . وقلت فى رسالتى إن عمال التلفون عندى سيلازمون أجهزتهم بعد الساعة الثامنة مساء ١٨ سبتمبر .

وأردت أن أثبت للسوفيت حسن نيتى نحوهم ، فقررت أن أخطو خطوة أخرى . وكانت محطات الراديو السوفيتية والمحطات التى يسيطرون عليها لا تزال تتهمنى بأنى مجرم حرب ، وتعلن أنى سأحاكم على القيام بثورة وارسو ، ولكنى على الرغم من أن الجيش الأحمر كان ينتظر أن يدخل وارسو فى أى يوم ، قررت أن أعلن اسمى وأسماء كل القواد الذين يحاربون فى وارسو كدليل على أنى لا أنوى أن أقوم بأى نشاط سرى ضد الروس أو أن أخفى أى شىء عنهم.

ولم تسفر كل هذه الجهود التى بذلتها للاتصال بالقيادة الروسية إلا عن الصمت ، ولم نتلق إشارة على أسلاك تلفون براجا ، أو جواباً عن نداءاتنا المتواصلة بالراديو .

ونقصت المؤن الروسية التى كانت ترد بالجو بسرعة ، بعد مجىء الطائرات الأمريكية يوم ١٨ سبتمبر ، وصار الإعراب علناً فى مقر القيادة عن الشك فى أن الروس

ينوون حقاً أن يعبروا نهر الفستولا ويستولوا على وارسو ، ولكنى لم أوافق على ذلك لأنه يناقض لمصلحة الروس القريبة والبعيدة جميعا .

وفى الساعة ١٢ والدقيقة ١٥ من يوم ٢٩ سبتمبر رد الراديو السوفيتى على نداءاتنا للمرة الأولى ، وطلب بيانات معينة عن مواقع المدفعية الألمانية ، فأرسلها مونتر على الفور واقترح التعاون بيننا فى الأعمال الحربية .

وصرنا نتبادل الرسائل مراراً كل يوم ، وكانت رسائل الروس قاصرة على المسائل الفنية ، مثل إلقاء المؤن وضرب المدفعية ، أما اقتراحاتنا الخاصة بالتعاون فأهملت جميعاً .

فلما سحق الألمان موقعاً لنا ، لا يبعد إلا ٢٥٠ ياردة عن مواقع الروس ، دون أن يهبّ هؤلاء إلى عوننا ، قضى على كل أمل لنا فى معونة حقيقية من الروس . والواقع أن كلّ معونة روسية انقطعت فى ذلك اليوم .

وما زلت إلى اليوم عاجزاً عن فهم الحكمة من تشجيعنا فى البداية وإهمالنا فى النهاية . ولعل هناك أسباباً لم تظهر بعد .

وسكنت حركة الجبهة الروسية وصار السكون لا يقطعه إلا الطلقات المدفعية من حين إلى حين ، وأصبحت مسألة الأقوات مدعاة إلى اليأس . وكان لنا فى قلب المدينة مخزن فيه قمح وشعير نجا بأعجوبة من النار ، فأتيح لكل فرد أن يأخذ حفنة من الحبوب كل يوم ، فلما كان ٢٠ سبتمبر نفد هذا المخزون.

وكانت الخيول كلها قد ذبحت وأكلت قبل ذلك بزمن طويل ، واصطيدت الكلاب والقطط والحمام ، ولم يبق منها إلا القليل .

وفى السراديب ارتقى الناس إلى ذروة التعاون فصاروا يتقاسمون آخر الحبوب ، ولكنهم أيضاً انحطوا إلى الحضيض ، فصاروا يطلبون الذهب والجواهر ثمناً للقمة . وكان الأطفال الذين نجوا من الموت يومئذ هم الندرة القليلة .

وقل الماء أيضاً قلة عظيمة ، لأن قاذفى القنابل اليدوية من الألمان كانوا يجدون أهدافاً حسنة فى الرجال والنساء عند الآبار القليلة حيث بقى بعض الماء القذر ، وكان الأطباء يجرون الجراحات بغير بنج ، ولم تكن هناك ضمادات فاستخدموا الورق لوقف النزف ، وفترت نفوس الناس فهم لا يعبأون حتى بصرخات المدفونين تحت الأنقاض ، وضعفوا وزايلتهم القوة اللازمة لرفع الأحجار .

وفى يوم ٢٧ سبتمبر استولى الألمان على ضاحية موكوتوف فعقدت اجتماعاً عاماً لأركان الحرب ، وسردت جهودنى الكثيرة لإيجاد التعاون مع الروس ، فخلصنا إلى أن القائد الروسى لا ينوى عبور النهر فى المستقبل القريب ، وأن موقفنا ميئوس منه . فقررنا أن نبعث برسالة أخيرة إلى المارشال

روكوسوفسكي وعلى رده يتوقف استمرارنا في القتال أو استسلامنا للألمان .

وبعثت بالرسالة في الليلة نفسها ، وأيد العامل الروسي في مقر القيادة الروسية أنه تلقاها . وقد وصفت فيها موقفنا الميئوس منه، وقلت إنه لاسبيل إلى احتمال الجوع والصبر على ضغط الألمان أكثر من ٧٢ ساعة ، فإذا لم تصلنا نجدة أو وعد بنجدة في هذه الفترة فسأكون مضطراً إلى وقف القتال. وعلقنا أملنا بهذه الرسالة ، وانتظرنا الرد .

وفي ٢٨ سبتمبر ركز الألمان نار مدفعيتهم وقذائف طائراتهم المنقضة على زوليبورز ، وظللنا ننتظر رد الروس طول ذلك النهار وتلك الليلة ، فلم يرد شيء ما .

وفي ٢٩ سبتمبر بعثت برسل إلى القائد الألماني، فوضع شروط التسليم وضمن حقوق المحاربين في الأسر لجنودنا ، على أني تلكأت في اتخاذ القرار النهائي آملا أن يجيء الردُّ الروسي .

وفي اليوم التالي اقتنعت على كره مني بأن روكوسوفسكي لن يرسل رداً . وكان موقف المدافعين عن زوليبورز ميئوساً منه، ولما كنت عاجزاً عن نجدتهم فقد أمرتهم بالكف عن القتال . وقد وصل إليهم هـذا الأمر في السادسة مساء . وفي الثامنة كانت وثيقة الاستسلام قد أعدت ووقعت. وللمرة الثانية في هذه الحرب سلمت وارسو لقوة أعظم من قوتها ، وفي بداية الحرب ونهايتها، قاتلت عاصمة بولندة وحدها .

وفي بكرة ٣ أكتوبر ساد المدينة مثل سكون الموت بعد ٦٣ يوماً من قتال مستمر ، وخرج الناس في الفجر جياعا شاحبي الوجوه من سراديبهم، وحمل النساء والأطفال والشيوخ على ظهورهم بقايا أشيائهم، وراحوا يمشون ببطء إلى غاية مجهولة، وكل ما كنا نعرفه أن الألمان كانوا يوجهونهم إلى معتقل في بروزكوف .

وبعد توقيع الوثيقة بعث الجنرال الألماني يدعوني لبحث تفاصيل إضافية للتسليم ، فوافقت على مقابلته ظهر يوم ٤ أكتوبر .

وكان الجنرال صورة حية للرجل البروسي وكان ممتلئاً ثقة بنفسه واحتقاراً لغيره ، ولكنه يستر هذا بالأدب المتكلف . وتكلم بصوت عال ووضوح شديد ، وبدأ بالثناء على شجاعة المدافعين عن وارسو والإعجاب بهم ، وأعرب عن عطفه على مصيرنا ، وقال إنه يدرك المرارة التي يشعر بها البولنديون جميعاً نحو الروس ، وقال إنه واثق أن البولنديين لا يخامرهم الآن شك في سوء نيات روسيا ، وأن ألمانيا وبولندة تواجهان الآن عدواً مشتركا، هو الشيوعيون المتوحشون، فينبغي أن تسير الأمتان كتفاً إلى كتف .

وكان ردى موجزاً ، فبينت له أن استسلام وحداتنا فى وارسو لا يغير موقف بولندة حيال ألمانيا التى نحاربها منذ أول سبتمبر ١٩٣٩ . ومهما يكن شعورنا نحو روسيا ، فإن عبارة « العدو المشترك » لا محل لها ، فإن عدو بولندة هو ألمانيا .

فلم يقنط ، ووافق على أن الألمان ارتكبوا أغلاطاً فاحشة فى معاملة البولنديين ، على أنه يعتقد أن الوقت يتسع لإصلاحها وللتفاهم والعمل معاً ، إزاء المصلحة مشتركة ، وهى مقاومة السوفيت .

فطلبت فى ردى عليه أن يحصر الكلام فيما جئت له ، أى فى شروط إجلاء المدنيين . فاقترح أن أنزل فى فيلا أعدها لى ، وقال إن الراحة والفراغ خليقان أن يمكنانى من الإشراف معه على إجلاء المدنيين عن المدينة .

فلما رفضت هذا تقدم باقتراح أخير : أن تسرى الهدنة التى وقعتها عن وارسو على جميع وحداتنا التى تعمل فى ذلك الجزء من بولندة الذى تحتله ألمانيا ، لمنع إهراق الدماء عبثا . فرفضت مرة أخرى وقلت : إننا أدّينا كل واجباتنا كأمة محالفة خمس سنوات ، فلسنا مستعدّين للتخلى عنها فى ليلة النصر .

فقال : « ولكن ياجنرال ، أراك متأثراً بهزيمة أو هزيمتين أصابتا ألمانيا . إن انتصار ألمانيا محقق لا شك فيه ، وستذكر كلماتى هذه فيما بعد ، وسيكون النصر الأخير لنا فى هذه الحرب » . ويظهر أنه كان مقتنعاً بأن عند ألمانيا عدة أسلحة سرية تصنع الآن ، وأنها ستغير مجرى الأمور تغييراً جوهرياً .

فقلت إن رأيى مختلف جداً ، وانتهى حديثنا .

كانت الساعات الأخيرة أقساها علينا جميعاً ، فما كان من الهين أن نغادر آخر رقعة من المدينة التى عشنا فيها ٦٣ يوماً ، رجالا ونساء أحراراً ، والتى رقد تحت أنقاضها كثيرون من زملائنا .

وأذاع جهازنا اللاسلكى رسالته للمرة الأخيرة ، فقال المذيع بصوت متهدّج : « لقد لبثنا شهرين أحراراً ، واليوم نعود مرة أخرى إلى الأسر ، ولكن الحق أن الألمان لا يستطيعون أن يستولوا على وارسو مرة أخرى . فإن وارسو لم تعد موجودة » .

واقتربت الساعة المعينة ، فشرعت أغنى النشيد الوطنى البولندى ، فرفع الجنود والمدنيون أصواتهم بالغناء معى ، فأنشدناه إلى آخره . ثم سرنا واحداً وراء الآخر وسط الخرائب نحو مواقع الحرس الألمانى .

مغامرات مسلية
لمعلن أمريكي في الصين

أربعمئة مليون زبون

كارل كرو

ذهب كارل كرو إلى الصين منذ ربع قرن مراسلا للصحافة المتحدة . وبقى هناك ليدير وكالة إعلانات خاصة به . وقد شاهد الطبيعة البشرية الشرقية فى صور كثيرة ممتعة ، من الفتيات الحديثات العهد بالظهور فى المجتمع إلى كناسى الشوارع ، بل لقد عرف ما يمنع الصينيين أدبهم أن يقولوه عن خصائص الأخلاق الغربية .

وهذا الكتاب « أربعمئة مليون زبون » درس ممتع للطبيعة البشرية ، قالت عنه التيمس اللندنية : « كتاب فذ ، لأن كثيرا مما فيه حصيف عملى ، وكثيراً منه فكاهة رائقة . والقارىء الذى يبغى الاستنارة والمتعة ، يخسر إذا أهمله » .

آنسة الصين تكشف ساقها

لما قضى تطور الأزياء النسوية بعد الحرب ، برفع كفة الثياب ، برزت نساء المستعمرة الأوربية فى شنجهاى فى مجاول لا تتجاوز الركبة . و أتيح للفتيات الصينيات أول فرصة لرؤية هؤلاء النسوة الأجنبيات وكيف يبدون من الركبة فنازلا ، وشاهدن سيقان الفرنسيات الحسنة ، وسيقان الإنجليزيات والأمريكيات ، وهى على العموم أقل فتنة ، وسيقان الألمانيات والإسكندناويات الغليظة ، وسيقان اليابانيات الدميمة الفظيعة ، وأدركن فجأة أن سيقانهن الجميلة جداً قد طال إهمالها .

وكانت شركتى التى أنشأتها فى شنجهاى للاعلان ، تحث فى ذلك الوقت على اقتناء نوع إنجليزى جيد من الدبلان ، فخطر لنا أن الفتيات الصينيات قد يقصرن ثيابهن فيقل ما يشترين من الدبلان تبعاً لذلك . ولم يسرنا هذا الخاطر ، غير أنه حدث لحسن حظنا أن مبتكرى الأزياء فى شنجهاى اهتدوا إلى حل وسط ، فاحتفظوا بالمجاول الطويلة المحبوكة المألوفة ، ولكنهم شقوا الجانب الأيسر إلى ما فوق الركبة ، فصارت الخطوة بعد الخطوة تبدى حسن الساق ، وقد أقام الآباء والأزواج الغيورون القيامة على هذا الزى الفاضح ، ولكن الفتيات بلغ من رضاهن عنه أنهن فى الموسم التالى شققن المجاول من الجانبين ، وظل هذا هو الطراز المألوف منذ ذلك الحين .

وبادرنا لمصلحة زبوننا الإنجليزى إلى نشر أول كتاب للأزياء رأته الصين ، وأظهرنا مبلغ فتنة هذا الطراز الذى ابتدعته شنجهاى للثياب المتخذة من الدبلان ، ونجح الكتاب أيما نجاح ، وطبعنا منه عدة طبعات سنوية ، لا لمدن الصين وحدها بل للجاليات الصينية أيضاً فى جاوة وسيام . وحرصنا دائماً على تصوير المجول المشقوق ، وإنى لفخور بأننا بهذه الوسيلة أدينا واجبنا فى إظهار أجمل ساق فى العالم .

وكانت شركتى أيضاً أول شركة أعلنت عن أحمر الشفاه والقشور (دهان يصفو به الوجه) فى الصحف الصينية قبل نحو خمسة عشر عاماً . وسرعان ما تبينا أن المتزوجات لا الفتيات خير زبائن الأدهان . وقد تبينت الزوجات الصينيات منذ عدة قرون أنهن إذا تزين وتجملن ، فإن أزواجهن لا يأبون أن يجيئوا بالخدم لأعمال الطهى والتنظيف . وكانت نتيجة ذلك أن صارت كل امرأة ،

غنية أو فقيرة ، لها أدوات زينتها ، حتى العامل الذى يجر « الركشا » ترى لزوجته العنوان شيئاً من القشور والأحمر . وتنفق الصينيات على الأدهان وما إليها من دخل الأسرة أكثر مما تنفقه أى جماعة أخرى. ومما يزيد فى غرابة هذا الأمر ، هذا الفقر المدقع الذى تتمرغ فى حمأته الجماهير ، وهذا الجهاد الدائم فى سبيل العيش بأضأل الموارد .

كل شىء له فائدة

وفى كل مدينة فى الصين ، يجد المرء أصغر دكان للتجزئة على وجه الأرض ، وأقلها بضاعة . والبضاعة تعرض عادة على حصير مربع من أعواد الخيزران ، ويخيل إليك أنها أقل ما يمكن تصوره نفعاً ، فمن مسامير ملتوية إلى بزال صدىء ، ومن أزرار غير صالحة ، إلى أطباق مكسورة . فكأنها « دكان لعب » للأطفال ، سوى أن اللاعبين هنا شيوخ هرمون .

وفى كل صباح جميل يدلف هؤلاء التجار العتيقون إلى أركانهم المألوفة ، ويجلسون فى الشمس طول النهار يرقبون الجماهير ، ويثرثرون مع منافسيهم من التجار . ويتفق مرة بعد فترة طويلة أن يبيعوا شيئاً ، فقد يجد بعضهم أن به حاجة إلى إحدى هذه النفايات المعروضة ! فيتاح للشيخ التاجر أن يتحرك ويصنع شيئاً ، كما ترى فى بلاد أخرى من العالم شيوخاً يلعبون الجولف ، أو يذهبون إلى مكاتب لم تعد بها حاجة إليهم .

أما فى الدكاكين المنتظمة ، فإن الغلمان الذين يعملون فيها مساعدين قلما يتناولون أجوراً ثابتة ، ولكن هذا ليس معناه أنهم يعملون بغير أجر ، فإن العادات المقررة تقضى بأن كل ما يدخل فى الدكان غير البضاعة نفسها ، يعد رزقاً للمساعدين . وهذا يشمل الصناديق والبراميل والأقفاص ، وغيرها من مواد التعبئة ونماذج البضائع ، وكل ما هو مجعول للإعلان . وصناديق التعبئة هى أنفس الذخائر ، فتنزع المسامير بعناية ، وترتب الأجزاء وتباع وبها كان . كل هذا مستورداً ، فإن له ثمناً طيباً ، ويرى الصينى الذى يعيش فى الداخل أن من السخافة أن يكسر صندوق تعبئة ليوقد به ناراً ، كما أن الذين يعيشون فى أرض يكثر فيها الخشب يكون من السخافة أن يكسروا قطع الأثاث . وقد وجد كثيرون من رجال الصناعة الذين حاولوا أن يقتصدوا فى صناديق التعبئة ، أن هذه التجربة غالية ، فإنه إذا كان فى الدكان نوعان من السردين أحدهما فى علبة قيمتها ٧ قروش ، والآخر فى علبة قيمتها ٣ قروش ، فإنه لا خلاف على

أى النوعين يحوز بجهود العمال جميعاً فى الدكان لبيعه .

والصينيون بفضل حصافتهم المستفادة من الحاجة إلى استنقاذ كل مليم ، لا يستطيعون أن يفهموا كيف يستغنى الإنسان عن أى شىء ولو كان نموذجاً للإعلان . وأتذكر حادثة محزنة ، خلاصتها أن أحد عملائنا ، وهو يصنع القشور والعطور الرخيصة ، استخدم فى شنجهاى الأساليب التى استخدمها لترويج بضاعته فى أمريكا . وكانت الطريقة أن يدعو كل قراء الإعلان إلى الحضور بالبطاقة المنزوعة من الإعلان ، فيعطى كل واحد نماذج صغيرة من القشور والعطر والصابون ومعجون الأسنان . وقد أصر على الرغم من نصحى له ، على الإعلان عن هذه الهدية ، غير أنى تعمدت أن أنشر الإعلان فى أقل الصحف المحلية انتشاراً . ومع ذلك ، وقبل أن يفتح عميلنا دكانه فى صباح اليوم التالى ، احتشد جمهور كبير ، وبعد ساعة سدّ الشارع ، ولم يستطع العمال أن يوزعوا النماذج بسرعة كافية ، فساد الهرج ، وقذف بعضهم زجاج نافذة بحجر ، ودعى الشرطة لإخلاء الشارع ، وأخيراً قدم مدير المحل إلى المحكمة فقضت عليه بغرامة لأنه عطل المرور .

ومن المستحيل أن يتصور المرء شيئاً ليست له فى الصين قيمة تجارية ، وأسخف ورقة حساب يمكن أن ينتفع بهما على نحو لم يكن يخطر على البال ، واللفف أكثر ما تستعمل له ، وقد تلصق بغيرها فتصبح فَرْشَةً للحذاء . وهنالك قصة قديمة فحواها أن هذا هو السبب فى سعة انتشار المطبوعات التى توزعها الجمعيات الدينيـة ! فإذا كانت النشرة مطبوعة على وجه واحد ، فإنها تكون صالحة للكتابة عليها ، أو يتخذ منها ظرف حسن . والعلامات المعدنية نفيسة جداً ، ولا سيما تلك المطلية بالميناء التى يستعملها المعلنون البريطانيون فى سيارات الركاب بلندن ، ويفرضون من أجل ذلك أنها صالحة للاستعمال فى أية ناحية أخرى من العالم . وهذه تصنع منها مواقد صغيرة جيدة ، وما زال دكان فى سوشو يبيع منذ سنين ، مواقد من هذا النوع مصنوعة من لوحات إعلانات الوسكى الأسكتلندى .

ومعظم الأجانب يرمون السيجارة وقد بقى منها نصف بوصة ، ولكن الصين لا تسمح بهذا التبذير ، فترى عيون الشيوخ على الفضلات المطروحة على الرصيف ، وفى أيديهم عصى فى طرفها سن يلتقطون به الأعقاب النفيسة ويضعونها فى علبة ، فإذا جاءت أيام المطر ، وتعطلت أعمال الاستنقاذ

هذه ، قطع الشيوخ الأطراف المحروقة من السجاير ، وأخرجوا الطباق (الدخان) من الورق الملفوف عليه ، وصنعوا بأيديهم لفافات لها سوق رائجة . وتعد هذه — إذا اعتبرنا الدخل الصافى — أربح تجارة للسجاير فى العالم ، ومن مزاياها أنها تنظف الشوارع لنا أيضاً .

وكل بيت أجنبى يزود خادمه بعدد وفير من المطروحات . وقلما تكون الثياب القديمة أقدم من أن تصلح للبيع ، فإذا كانت كذلك فإن الثوب تفتق شقاته التى يتألف منها ويعاد لفقه ليتخذ منه أى شىء ، من قميص إلى معطف . وقلوع كثير من السفن التى تعمل على نهر يانجتسى مصنوعة من غرارات الدقيق . ولبعض العلب قيمتها فى ذاتها ، وبعضها يذاب لحامه ، ويتخذ من جوانبه ألواح مستطيلة نافعة يمكن استعمالها لتسقيف البيت . وحتى قطع الزجاج المكسور لها قيمة ، فإن النجارين يستخدمون هذه القطع فى صقل الخشب .

وخادم بيتنا يفحص سلة المهملات كل يوم باحثاً عن صفحات قديمة رميتها فيه ، فإذا كنت قد كتبت على وجه واحد منها ، فإن الورق يباع للطلبة . والأرجح أن أعقاب أقلام الرصاص تلقى رواجاً فى هذه السوق نفسها . وتباع أوراق اللعب الملوثة للعمال الذين يجرون « الركشا » فيشطرونها شطرين ، لتكون لهم من كل رزمة رزمتان ، يتسع لها جيب السترة الصينية . ولعلك لاحظت أن كل ورقة من أوراق اللعب يمكن أن تقطع نصفين دون أن تفقد شيئاً من فائدتها .

وفى أثناء الهجوم اليابانى على شنجهاى سنة ١٩٣٣ ، صدر الأمر إلى العمال الذين يكنسون شوارع هنج كو التى كانت تضرب بالمدافع بأن يتركوا الأماكن المهددة ويؤدوا واجباتهم فى مكان آمن ، ولكنهم ثبتوا فى مراكزهم القديمة ، وكلما سكتت المدافع اليابانية فترة ، خرجوا زرافات ومعهم المقشات والسلات لجمع الغلافات النحاسية الفارغة وغيرها مما تخلفه الحرب الحديثة ، وبعد انتهاء القتال ببضع ساعات خرجت جماعات إلى منطقة الحرب تبغى الحصول على شىء من هذه التحف ، فلم تجد ولا قلامة ظفر ، فكانت الحرب فى شنجهاى من هذه الوجهة أنظف حرب دارت على الأرجح .

وميناء شنجهاى من أشد الموانى ازدحاماً وحركة ، ولكنه أيضاً من أنظفها ، فلا تجد على سطح الماء شيئاً مما يطفو أو يطرحه البحر فى الموانىء الأخرى ، ولا ترى أقفاص فاكهة محطمة ، أو برتقالات عفنة أو غير ذلك من النفايات . فإن كل هذه النفائس

تلقطها من الميناء الزوارق التى تعمل فيه ، ونواتى كل زورق هم صاحبه وامرأته والأطفال الصغار الذين لا يستطاع الانتفاع بهم على البر . وتتجه همة الأسرة كلها إلى إنقاذ المطروحات فى البحر ، وهم يتقنون عملهم إلى حد جعل ميناء شنجهاى يخلو من طيور البحر التى تسمن على شواطىء أسكتلندة ولكنها تموت جوعاً هنا .

ولا تكاد سفينة تجارية أو حربية تلقى مراسيها فى شنجهاى حتى تجد زورقاً أو أكثر متربصاً فى مكان صالح متهيئاً لالتقاط كل ما تطرحه السفينة . ومن المعتاد فى الأسطولين البريطانى والأمريكى أن يؤجل تنظيف المخازن يوماً أو يومين قبل الوصول إلى شنجهاى ، فيؤدى هذا إلى بقاء مقدار مدهش من الزجاجات الفارغة والعلب والطعام الفاسد ، ويحتفظ البحارة بثيابهم القديمة ليضيفوها إلى هذه الهبات ، وبذلك يدخرون ثروات لهذه الطيور الآدمية فى شنجهاى .

ويرقب بحارة السفن الحربية السباق إلى سفنهم باهتمام شديد ، ويكافئون الفائز بأنفس الذخائر ، بإعطائه خير الفضلات التى يستغنى عنها ، ولكنهم لا يسمحون له بالاستئثار بكل شىء ، فبعد أن يطرح ملقى الفضلات فى البحر مقداراً عادلا كافياً منها ، يؤمر بأن يذهب ليتيح لسواه فرصة . وتظل السفينة من ساعة وصولها إلى ساعة خروجها محاطة بهذه الزوارق الصغيرة ، فلا يفوتها شىء . والزجاجات والعلب تباع بسرعة ، وفضلات الطعام تلقى للخنازير والدجاج لتسمن ، فكل شىء فى الصين له قيمة ، ويمكن تحويله إلى نقد .

كرامة " ما الوجد "

وأنا أكتب هذا ، وخادم البيت يصقل النوافذ ، وهناك عدد من النوافذ يستطيع أن يشتغل بتنظيفها ، ولكنه اختار نافذة فى ركن الشرفة الطويلة لأراه كلما رفعت رأسى . فإذا خرجت أتمشى فإنه يترك النوافذ ، لا ليتسكع ، فإنه يجب أن يظل مشغولا من الصباح إلى وقت النوم وأحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل ، بل ليلتمس لنفسه عملا آخر كسطح بلاط المطبخ ، حتى إذا عدت شرع ينظف النوافذ مرة أخرى ، أو ينفض التراب عن أساس الشرفة الذى نظف تنظيفاً جيداً فى هذا الصباح . وإذا استحال عليه أن يجد عملا أراه وهو يقوم به ، فإنه يقطع أجذال الحطب بصوت عالٍ .

وهو ليس بخادم جديد تحت الاختبار ، فقد طال مقامه معنا ، حتى ليتعذر علينا أن نستغنى عنه ، وهو يدرك هذا كما ندركه ،

ولكن أجداده تعلموا أن أجر العامل يؤدّى بارتياح أعظم إذا قام به العامل فى حيث يراه صاحب العمل .

وكل من يدخل مكتبي يستطيع ، متى فتح الباب ، أن يعرف هل نحن مشغولون بإرسال إعلانات بالبريد أو لا ، فإذا كنا نفعل ذلك ، فإن النشرات تكون مكدسة ومعروضة فى حجرة الاستقبال . وإذا كنا قد تلقينا حديثاً صندوق ألواح الإعلان من لندن أو نيويورك ، فإن الصندوق يفتح بعض الفتح ، وبعض محتوياته تبدو بغير عناية ، وتكشف عن اسم الشركة التى نعاملها وعن منزلتها . وإذا جاء زبون مهم لزيارتى فى موعد متفق عليه ، فإنه يحدث دائماً تقريباً أن يكون الخدم خارجين فى صخب شديد ، وهم يتطرّحون تحت أحمال من البريد المرسل فى اللحظة التى يصل فيها الزائر .

وقد حاولت زمناً طويلا أن أحمل العمال على استخدام مصعد البضاعة لمثل هذا العمل ، ولكنى لما ابتعت بعض الأثاث للمكتب ، مصنوعاً من خشب جديد أسود ، جىء به من المدخل الرئيسى للبناء ، وصعد به العمال أربع طبقات ، وجعلوا يقفون عند كل عتبة ويتلاغطون ، ولم يكن ينقصنا إلا المزامير والطبل ليكون الإعلان أتم . وقد أتيحت فرصة كافية للمستأجرين فى طبقات البناء الاربع للإعجاب بالأثاث ، والتكهن بثمنه ، وهذه الضوضاء والعلانية ، تكسبان العامل الصينى ثقة بنفسه وبالشركة التى يعمل لها .

وعلى ذكر هذا أقول إن « ماء الوجه » يحدث الترقيات وينظم الأجور والمرتبات ، وهى أمور معقدة فى أى مكتب . فإن ترقية موظف دون اتباع نظام الترقية يسبب « سواد وجه » لجميع من تخطتهم هذه الترقية ، فيشعرون بالظلم شعوراً قوياً . وتكفى ترقية واحدة من هذا القبيل للقضاء على انتظام العمل فى المكتب ، وكثيراً ما يحدث أن يرفض موظف ترقيته لأنه يعرف المنازعات التى ستثور حوله .

واتقاء « سواد الوجه » يخلق مواقف عجيبة حتى فى الشئون القومية . فلنفرض مثلا أن قائداً طموحاً قام بثورة على الحكومة المركزية ، ولكن الثورة قمعت ، ففى كلّ بلد آخر يسجن القائد الثائر ، وقد يعدم ، ولكن الصين لا يحدث فيها هذا ، لأن مثل هذا الإجراء الصارم خليق أن « يسوّد وجه » القائد ، حتى ليأبى ألد أعدائه أن يوافق على هذا . ومن أجل ذلك يمنح رتبة عالية ، ويعين لعمل ناء لا يخشى أذاه فيه ، كأن يكلف أن يقوم بدرس غواصات سويسرا ، أو زرع البطاطس

فى حديقة هيدبارك (*) . وهذا يحقق غرضاً سياسياً نافعاً جداً ، لأنه لا يخلق عداوات بين أنصار القائد المهزوم ، ويسهل الفوز بولائهم .

صرف الشياطين

لما انتقلنا إلى مكاتبنا الحالية منذ بضع سنوات، كان عمالنا معنيين جداً بأن يتبينوا تأثير الأرواح وهل يكون حسناً أو سيئاً — وبعبارة أخرى هل يكون البناء بناء سعد أو نحس — وقد عرف الصينيون منذ قرون أن نهجاً ما يفضى أحياناً إلى النجاح ، ولكنه فى أوقات أخرى ، وإن تماثلت الظروف ، يفضى إلى الإخفاق . ودرس الفلاسفة الموضوع، وانتهوا إلى أن مؤثرات السعد أو النحس يمكن الإنباء بها سلفاً وتقديرها .

وقد تبين أن مكاتبنا الجديدة مجدودة . وليس هذا من المفاخرة أو التخمين ، وإنما هو سرد صريح للواقع ، فقد قام بتقدير العوامل الحسنة وتقصيها خير من استطاع رجالنا الصينيون أن يستعينوا به من أصحاب المواهب ، وهو ضارب رمل أو مهندس يحسن حساب المؤثرات النفسانيـة ، وقد لقيته مصادفة ، لأن المفروض أنه يقوم بعمله فى غيابى ، ولكن مهنته كانت من الغرابة بحيث بذلت جهدى لمعرفته، وكان أشبه بعلم، وهو رجل كهل ، محتشم المظهر والملبس ، وقد قضى ساعات عديدة فى الطواف بالمكاتب ومعه المسطرة والبوصلة ، ولما انتهى كان رأيه حسناً ، وغير مواضع بعض المكاتب ، وعنى عناية كبيرة بمكتبى ، وكان الوضع الصحيح ، فيما أرى ، يقضى بأن يكون وجهى إلى نافذة ، وهو وضع غير ملائم لرجل ضعيف النظر ، فوجب أن نلتمس حلا وسطاً ، فصار خط المكتب يمتد من الشرق إلى الغرب ، وكان هذا الوضع يجعل المكتب مائلا إلى الحائط ، ولكن المؤثرات الروحية كانت مكفولة بهذا الوضع .

وليس مكتبى بالوحيد الذى تسيطر عليه هـذه المؤثرات ، وإن كنت واحداً من القلائل الذين يعترفون بذلك ، وأكثر الأجانب يسخرون من هذا. ولما كان الصينى لا يسيغ الزراية ، فإن مساعدى الأجنبى وزملاءه من الصينيين لا يذكرون له شيئاً عن هذا الأمر ، بل يكتفون بأن يرتبوا المكتب ترتيباً يهيئ للمؤثرات الحسنة كل

(*) أدهش الجنرال يانج فوشنج العالم باختطاف القائد الأعلى المارشال شيانج كاى شيك ، وقد جاء الجنرال يانج حديثاً إلى الولايات المتحدة مبعوثاً من حكومتـه لدرس « الأحوال العسكرية والاقتصادية » واعتمدت الخزانة الصينية لنفقات رحلته ٣٠٠٫٠٠٠ ريال !

نجاح ممكن . وقد أخبرنى جار إنجليزى أنه ظل ١٥ عاما فى مكتب قليل النور سيء التهوية ، لأن مساعديه الصينيين رأوا أنه حسن الحظ .

وقد حدث ذات يوم أن زارنا رئيس قرية قريبة من شنجهاى لأمر خطير ، ذلك أننا كنا قبل عام قد أقمنا لوحا كبيراً فيه إعلان عن سجاير على مقربة من القرية ، فحاق سوء الطالع بالقرية ، وقلت المحاصيل ، وزادت الأمراض على المعهود ، ومات البعض . وقلق شيوخ القرية فدعوا ضارب رمل حاذقاً ، فوجد أن لوح إعلاننا هو مثابة الأرواح الشريرة ، وجاء شيخ القرية يسألنا أن نرفعها .

فاقترحت أن نطلق عدداً كبيراً من الصواريخ حول اللوح فتذعر الأرواح الشريرة وتهرب ، فراقته الفكرة ، واستشار ضارب الرمل فوافق على أن ما يساوى عشرة ريالات من الصواريخ يكفى لذلك . وكانت هذه أول تجربة لى فى طرد الشياطين ، فاعتزمت أن لا أدع عندى شيئاً من الجهد فى هذا الأمر . وفى وسعك أن تشترى عدداً مدهشاً من الصواريخ بعشرين ريالا ، وقد خرجت القرى جميعاً لتنظر إلى سخائى وتتعجب ، وكانت الضوضاء مهولة ، ولا بد أن تكون قد ملأت قلوب الشياطين رعباً ففرت إلى بلاد أخرى ، ومهما يكن من ذلك فإنها لم تعد قط ، فقد ازدهرت القرية ولم نتلق بعد ذلك شكوى .

ولما عدت إلى وطنى منذ بضعة أعوام لم يسعنى إلا أن ألاحظ أنه قل أن توجد فى أمريكا بيوت — من البيت الأبيض فنازلا — مبنية بحيث تصرف الأرواح الشريرة ، وتتلقى خير المؤثرات الروحانية . فما يكفى أقلّ من معبد صينى لعلاج الأرواح الشريرة حول مكتب الرئيس . وإذا اعتبرنا وجهة النظر الصينية ، فإن الشياطين الطليقة التى يسعها أن تدخل فى أى بيت تقريباً بأمريكا ، هى أخطر من العصابات ، بل يمكن أن يكون فيها تعليل منطقى للأزمة المالية . وتعد هندسة أعلى ناطحات السحاب فى نيويورك مزعجة بصفة خاصة . وما من صينى عاقل يقبل أن يشغل مكتباً فى الطبقات العليا من هذا البناء .

انصت !
انصت فإن الكلاب تنبح !

كلما زارنى فى شنجهاى أمريكى مزهوّ بنفسه ، أخذته إلى قرية صينية ابتغاء التهذيب والتقويم اللذين قد يفيده إياهما نباح الكلاب ، فإن كلاب القرية تمد الصوت بنباح فظيع ،

فيسأل الزائر وقد ضجر عن السبب ، فأقول : « لأننا أجانب » .

وقد يقول : « طبعاً ! فإن الكلاب ترى ثيابنا » ، وبذلك يثبت أنه لا يدرى شيئاً عن الكلاب .

فأجيبه : « كلا ! فإن الصينى إذا ارتدى الثياب الأوربية لا تنبحه الكلاب . وإنما السبب أنها لا تحب رائحتنا ، وتظن أننا ثعالب ، أو كأن أحدنا معه فى جيبه جلد حيوان لم يدبغ فهو عفن خبيث الرائحة » . وأبين له أنه على الرغم من حبى الطبيعى للكلاب ، فإن كلاب الصين تنفر من رائحتى وما زالت تنبحنى منذ ٢٥ عاماً . وكثيراً ما خرجت بعد أن اغتسلت وحلقت ، ورائحة الصابون تفوح منى ، وقد أصبحت كأنظف ما يمكن أن يكون الرجل ، ومع ذلك لا تمضى دقائق حتى يكون كل كلب تهب عليه الريح من ناحيتى ، قد سجل احتجاجه علىّ وتأذيه من رائحتى .

ويبدو لى أن أحد التعليلات لذلك أننا نحن الأجانب ، قد صارت لنا ريح خاصة مزعجة لطول ما اعتدنا أكل اللحم ، أما الصينيون فلا ريح لهم ، أو لعل ريحهم أخفى لأنهم يأكلون الأرز والشعير والكرنب والسمك .

ومثل هذه الزيارة يكون من أثرها دائماً أن تهبط بتقدير زائرى لنفسه إلى الحد المعقول .

ويندر أن يقول لك الصينيون شيئاً عنك يخرج عن حد المجاملة ، ولكن بعضهم اعترف لى بأن لنا ريحاً ليست غير معهودة فحسب ، بل تأتى بالغثيان . ويعلل الصينيون جميعاً ، بلا تردد ، حرص الإنجليزى على الاستحمام كل يوم بأنه بطبيعته حيوان قذر فيه حاجة إلى كثرة الاغتسال . وأنا أقول الحق حين أقول إنى لما زرت بلادى آخر مرة ، وجدت فى أنفى ريح مواطنى من أبناء الشمال حين يحتشد منهم جمع كبير . ولما دخلت النفق فى نيويورك ، سطعتنى من أبدان الناس تلك الريح القوية التى تقول الإعلانات أنها تقضى على الحب ، وتقف عقبة كؤوداً فى سبيل رجل الأعمال . وكنت بعد السنين الكثيرة التى قضيتها فى الصين ، قد نسيت أن الآدميين هذه ريحهم ، وكذلك كان الحال فى لندن ، وفى باريس ، وبرلين ، وموسكو — لا ، لم تكن الحالة كذلك فى موسكو ، فإن خبث ريح البدن هناك يبلغ غاية الكمال ، ولعل هذا دليل على صحة العزم على تحقيق المثل الأعلى ، والتصميم على التفوق .

وعلى كثرة ما كنت أخفف من غلواء الزائر الأبيض ، وألطف من كبريائه الغالية بأن أعرضه لنباح الكلاب الصينية ،

كنت دائماً أنأى به عن الجواميس الهندية، والجاموس الهندى فى العادة وديع ، ومن المناظر المألوفة فى الصين أن ترى صبياً فى السادسة من العمر ممتطياً ظهره ، ولكنه على تقبله واحتماله للصبى الصينى ، يخفى تحت مظهره الدميم الهادىء ، مقتاً وحشياً لعدو قديم .

ومن سوء الحظ أن لنا نحن الأجانب على ما يظهر ريحاً كريه هؤلاء الأعداء القدامى ، ولعل ذلك العدو كان قرداً قديماً ذا ريح قوية يعيش كما كان أسلاف الجاموس فى إفريقية . وما من واحد من أبناء الشمال يكون آمناً دواماً فى جوار هذا الجاموس . على أن من حسن حظ الرجل الأبيض أن الجاموس مهذب ، فهو يتحدى عدوه لامرة واحدة بل مرتين ، والتحدى الأول يكون حين يشم الهواء ، وينظر إلى ناحيتك ويبدى امتعاضه القوى بنخره ، والتحدى الثانى حين يرفع ذيله السخيف فى الهواء ، ويضرب الأرض برجله ، والضربة الأولى إنذار لك بوجوب الابتعاد بأسرع مايمكن.

وإذ كنت قد ذهبت إلى هذا المدى فى بيان ما لأبناء الشمال من مَشَمّ ، فيحسن أن أكون أشد اجتراء وأقل مبالاة ، فأقول إنه لا فرق بين الجنسين ، فإن الكلاب تنبح السيدة الناعمة الرقراقة بقوة وحماسة كما تنبح الرجل البدين المتصبب عرقاً . وكثيراً ما رافقت سيدات فاتنات وتمشيت معهن فى الريف الصينى ، وكنت أظن أنهن قد يخدعن الكلاب ، ولكنهن لم يخدعنها ، فقد كانت ريحنا واحدة فى أنوفها. ولم اختبر قط وقع المرأة فى نفس الجاموس ، غير أنى واثق أن النتيجة كانت خليقة أن تكون غير مختلفة .

زعانف كلاب البحر والبيض القديم

طعام الصينى يذكر الأمريكى العادى بزعانف كلاب البحر وبحساء عش الطير والبيض القديم ، وليس بشىء من هذا من شأنه أن يسيل لعاب الأنجلو ساكسون .

وقد أكلت كل ذلك وسآكله مرات أخرى، لا لأنى أستطيبه بل لأنى أتقى أن أسىء إلى مضيفى ، وقد يكون حساء زعانف كلاب البحر جيداً ، إلا إذا كان شديد الزّهمة . ولم أستطع قط أن أتبين أى طعم خاص لحساء عش الطير ، ولكنى أتقزز قليلا من البيض القديم . وعلى ذكر البيض أقول إنه يخلّل فيصلب ويحفظ ، ويصبح أشبه بنوع غريب من الجبن ، وليس البيض بقديم بالمعنى الصحيح ، فإن التخليل

يتم فى نحو شهر ، وهو لا يزداد نفاسة بالقدم . وقد صنعت شطائر ذات مرة بقطع من هـذا البيض ، وأضفت إليه قليلا من الخردل ، وأطعمته صديقاً رقيق المزاج ، فاستطابه إلى أن سقط الشطر الأعلى وعرف ما تحته ، وليس الطعم بمنفر ولكنه غريب. وبعـد أن يتعلم المرء حب الجبن العتيق والحلزون والوسكى الأسكتلندى ، لا يصعب عليه أن يألف هذا البيض . والمهم أن هذه المواد الثلاث ليست شائعة فى الصين ، وإنما هى طرائف مثل البطارخ (الكافيار) والسلحفاة النهرية .

ومن الألوان الصينية التى أكلها كثير من الأجانب «الشبارق» ، ويسميه بعضهم « الطعام القومى للصين » : وحقيقة الأمر أن هذا اللون كما نعرفه ليس طعاماً صينياً قومياً ، وما من صينى يأكله ، واللون الوحيد من هـذا النوع الذى يعرفه الصينى هو نوع رخيص من الشبارق أو اللحم المفروم الذى يتخذه فقراء كانتون .

وقد روى لى الدكتور وو ـ تنج ـ فانج السياسى الصينى المشهور ، الظروف الخاصة التى جعلت هذا اللون محبوباً فى الخارج . فقال إن العثور على الذهب فى كاليفورنيا اجتذب آلافا من العمال الصينيين إلى سان فرانسسكو ، وسرعان ما صارت الجالية الصينية فى المدينة من الكثرة بحيث تكفى لفتح مطعمين على مثال ما فى كانتون .

وذات مساء رأى جماعة من المعدنين أن يطلعوا على ما يأكله هؤلاء الصفر ذوو الشعور المضفورة ، ولما دخلوا المطعم كان الزبائن قد انتهوا من الأكل ، وكان صاحب الفندق يهم بإغلاقه ، غير أن المعدنين طلبوا طعاماً ، فما كان من صاحب المطعم إلا أن جاء بكل ما خلفه زبائنه الصينيون ، وخلطه ووضع عليه قليلا من التوابل الصينية وقدمه إليهم ، ولم يدركوا معنى قوله لهم إنهم يأكلون شبارق الفقراء .

على أنهم استطابوه ، حتى لقـد رجعوا إليه يطلبون أن يطعمهم منه ، وهكذا راج « شبارق الفقراء » ، وقد جنى الصينيون منه من الثروات أكثر مما جنى غيرهم من البحث عن الذهب . وما زال الصينيون منذ أجيال يضحكون ، لأن كل طبق من هذا الشبارق هو نكتة وضحك على ذقن الأجنبى. وتوجد مطاعم للشبارق فى المدن الكبيرة فى العالم كله — ما خلا الصين .

وعاء الأرز المقدس

من أعظم تقاليد الصينيين فى تجارتهم أنه لا ينبغى لك أن تقطع معاش رجل آخر ، أو أن « تكسر وعاء أرزه » .

ومن المقبول أن تغلبه فى صفقة تجارية ، ولكن مما يعدونه عملا بغيضاً غير إنسانى أن تُنسحته ، أو أن تصرّ على أن يوفى لك بعقد إذا كان لا يستطيع ذلك إلا إذا أفقر نفسه ، والذى يحرم إنساناً مثله الحق فى الحياة ليس خيراً من وحش .

وعلى ذكر ذلك أقول إن زبوناً لنا مرت به تجربة عجيبة فى أيام الكساد ، فقد اضطر أن يخفض نفقاته ، فلما استشار أقدم معاونيه نصحوا له بفصل واحد من خيرة الكتبة فى المحل ، وأبوا كل الإباء ما اقترح من فصل موظف غبى ، فلما تقصّى الأمر تبين أنهم لم يتحرجوا من فصل موظف حاذق لأنه لن يجد مشقة فى الحصول على عمل آخر ، أما الموظف الغبى فكانوا يعرفون أن من العسير عليه أن يجد لنفسه عملا .

وكنت فى وقت ما أساعد فى إصدار جريدة يومية فى شنجهاى ، واحتجت أن أعالج إضراباً قام به عمال الطباعة ، وقد تربص أحد المضربين ذات يوم لواحد ممن يوزعون الجريدة وأتلف كل ما يحمل من أعدادها ، فشكوت المعتدى فقبض عليه ، وأدهشنى أن القاضى الصينى نظر إلى الموضوع نظرة جدّ وحكم عليه بالحبس تسعة شهور . وفى اليوم التالى أقبلت على أسرته كلها وقالت إن على أن أحرص على ملء وعاء أرزهم دائما ، ما دمت قد أرسلت عائلهم إلى السجن . وكنت كأنى الشخص الوحيد الذى لم ينظر إلى الأمر من هذه الناحية ، فأذعنت وصارت الأسرة كلها فى عنقى . وظل الحال على هذا المنوال عدة شهور ، وفى أثناء ذلك انتهى الإضراب ، فوكلت محامياً عن المضرب المسجون ليخلى سبيله ويعود إلى العمل .

صفافو الحروف الأميون

تدل أرقام الأمية على أن جانباً كبيراً من الصينيين لا يقرأون ، ومن هنا يظن كثيرون من الأجانب أن الصينيين شعب غبى . وهذا خطأ فى خطأ ، فإن الصينى الذى لا يعرف القراءة هو الذى لم تتح له فرصة للتعلم ، يضاف إلى ذلك أن الأبجدية الصينية الهائلة أصعب جداً من أبجديتنا .

ومن الغريب مع ذلك أن معظم الصحف الإنجليزية فى الصين يطبعها صينيون لا يستطيعون فى معظم الأحوال أن يفهموا الإنجليزية . وما زال صفاف الحروف الصينى أعجوبة فى نظرى ، فهو لا يفهم شيئاً على الإطلاق من الأصل ، ومع ذلك يدق بسرعة حروف « اللينوتيب » ويخرج مسودات بديعة فى نظافتها ، ومطابقة تمام المطابقة للأصل بما فيه من أغلاط فى الهجاء . ثم

أنه فضلا عن ذلك يعنت حروف الكلمات بالفرنسية والألمانية والروسية ، وهذا مالا يجرؤ إلا القليلون من صفافى الحروف الأوربيين على محاولته .

ولا شك أن هذا الجهل باللغة التى يستعملها يؤدى أحياناً إلى أغلاط مضحكة . من ذلك ، على سبيل المثال ، قصة الصحفى الإنجليزى فى شنجهاى ، وكانت صحيفته تنشر دليلا سنوياً للمدينة ، ولم يكن له دخل أو عمل فى هذا الدليل ، ولكن صفحات المسودات المصححة كانت دائماً تعرض عليه لإقرارها . فاتفق فى أحد السنين ، وهو يدير عينه فى المسودات ، أن رأى اسم رجل يمقته وكان قد مات قبل بضعة شهور ، فأراد أن يؤنب الذى يتولى ترتيب الدليل . فأحاط اسم المتوفى بإطار من الحبر أسود وكتب تصحيحاً سريعاً على الهامش .

وبعد بضعة أيام صدر الدليل ، وحول اسم الرجل الميت إطار أسود ، وعلى الهامش هذه العبارة «هذا الحمار السخيف قدمات» .

طرق شتى مظلمة

يشهد كثيرون من المراقبين المطلعين ، بعبارات فى غاية القوة ، بأن الصينيين قوم أمناء أشراف مستقيمون فى معاملتهم . وقد قال أقدم التجار الأجانب إن « كلمة الصينى ملزمة له كالعقد » ، ولكن كثيرين آخرين يستطيعون أن يرووا لك قصصاً محزنة عن طرق مظلمة خادعة ، وهم يعارضون الشهادة السابقة بقولهم إن عقد الصينى لا يساوى شيئاً على أى حال . ومن السهل تعليل هذا التناقض بين الرأيين ، ذلك أن فى الصين ، كما فى كل بلد آخر ، أناساً خربى الذمة ، وآخرين أشرافاً .

ويمثل تجار الحرير فى الصين ، وهم فى الوقت نفسه نساجون ، أقدم تجارة وصناعة فى البلاد ، بل فى العالم ، لأنهم كانوا ينسجون ويبيعون الحرير قبل ميلاد المسيح بألف عام أو أكثر ، وقد ظل نشاطهم هذا متصلا بغير انقطاع ، وكان مستوى صناعتهم عالياً دائماً . وما كاد اليابانيون يصنعون الحرير للإصدار مدة عشرة أعوام ، حتى تعلموا من الأجانب كيف يكسبون إنتاجهم هذا قيمة مصطنعة ، وكانت النتيجة أنه لا يوجد الآن شىء اسمه حرير يابانى حر ، أما الصينيون فإنهم لم يحاولوا قط أن ينتفعوا بمثل هذه الأساليب الماكرة ، وكل تاجر حرير صينى يسره أن يثبت لك أن إنتاجه حر غير مخلوط ، بأن يقص قطعة ويحرقها فى صحن ، ذلك أن الحرير الحرّ يحترق ولا يخلف أثراً من رماد ، فإذا كان هناك أى خلط ، فإن الأثر

المتخلف يكشف عنه . ولما كان الحرير الصيني حراً ، فإنه يباع بوزنه لا بطوله ، وليس ثم مساومة فى المتاجر الحسنة .

وصناعة الفضة أيضاً قديمة ، وكل قطعة مصنوعة من الفضة عليها العلامة التجارية للدكان الذى صنعها . وهذا فى الصين واجب وجوبه على العملة المسكوكة ، لأنه بمثابة ضمان غير معلق على شرط باسترداد الثمن، وهذا أقوى ضمان يستطيع صانع أن يثبته على إنتاجه. ومهما يبلغ من قدم القطعة الفضية ، أو سوء حالها ، فإن صائغ الفضة يشتريها دائماً بتخفيض يسير من ثمنها الأصلي. وبيوت الصينيين غاصة بالأوانى والصناديق الفضية ، لا لأنها زينة فحسب ، بل لأنهم يستطيعون فى أى وقت أن يحولوا هذه الزينة إلى نقد .

غير أن المستوى فى كثير من الأعمال الحديثة لا يبلغ هذه المرتبة . وقد اتفق لى مرة أن نشرت إعلاناً فى مجلة صينية شهرية جميلة الطبع ، لها من القراء ٣٠٫٠٠٠ قارئة بحسب الإحصاء ، وكانت صفحاتها الضخمة ملأى بالإعلانات . وكان إعلاننا الذى يملأ صفحة كاملة ، يعرض أن يقدم إلى كل سيدة من الثلاثين ألفاً ، نموذجاً من قشور لصفاء الوجه فى مقابل طابع بريد بقرش واحد . وظهر الإعلان ثلاثة شهور متتالية، ومع ذلك لم تبد سيدة واحدة أى رغبة فى هبتنا السخية . فشرعنا نستقصى ، فتبينا أنه فيما عدا النسخ التى ترسل إلى أصحاب الإعلانات ، لا يقرأ المجلة أحد ! ولم يكن هذا كل شيء ، فقد كانت المادة التى تنشر فى المجلة لا تتغير أبداً ، فهى هى بذاتها ، شهراً بعد شهر ، وقد كانت كذلك من قبل على قدر ما وسعنا أن نتتبع الأمر ، والتغيير الوحيد لا يتناول إلا الإعلانات وتاريخ الشهر على الغلاف . وكان ناشرو المجلة لا يطلبون الإعلانات إلا من الأجانب ، وقد اعتقدوا بحق أنه لما كان الأجانب لا يقرأون اللغة الصينية ، فإن المادة التى تنشر فى المجلة ليس لها قيمة . ولا تزال المجلة تصدر ، وهى فى رغد ، وتتلقى أحياناً رسائل من عملائنا فيما وراء البحار يقولون فيها إن منافسيهم ينشرون إعلاناتهم لهؤلاء الثلاثين ألفاً من السيدات ، ويلمحون إلى أننا أغفلنا هذه الأداة النفيسة !

ولكن رجل الأعمال الصينى تصبح أساليبه أحلك ما تكون حين يكون الأمر متعلقاً بتجارة الصادرات ، كما يتضح من المثال التالى : يعد الفول الصينى الكبير أدنى أنواع هذه الفصيلة ، وهو ينبت فى الأرض الرديئة ، ويؤتى محصولا وافراً ، ولكنه ، وإن كان مغذياً ، من الرداءة بحيث

لا يأكله آدمى إلا إذا اضطر إلى ذلك فى مجاعة. وهذا الفول يصدر، ولكنه لا يشحن إلا إلى البلاد التى يستخرج فيها الفحم، ويستهلكه أولئك المساكين الذين يوصفون بأنهم «بغال المناجم»، والذين يضطرهم عملهم إلى قضاء حياتهم فى سراديب المناجم، ويظهر أنه يحتوى على فيتامين يعوض ما ينقصهم من نور الشمس.

ولما كان هذا الفول على الأرجح أرخص طعام يعرفه عالم التجارة، فإنه لا يبدو أن فى الإمكان استفادة أى ربح من الغش فيه، ولكن صديقاً لى من المصدرين وجد الأمر على خلاف ذلك، فإنه بعد أن ظل يصدر الفول سنوات عديدة، تلقى شكاوى بأن مقداراً من الفول شحن حديثاً ظهر أنه مخلوط بالطين، ووجدت فى جميع الأكياس قطع صغيرة من الصينى.

فبادر إلى فحص الفول المعد للاصدار فحصاً دقيقا، فبدا له فى أول الأمر أن كان كل شىء على ما يرام. ثم لاحظ أن بعض حبات الفول مقسومة إلى قسمين، فارتاب، فإن حبة الفول السليمة لا تنكسر. وأدى الفحص إلى أمر غريب ــ ذلك أنه توجد بين كل عشرين حبة سليمة، على وجه التقريب، واحدة ليست إلا طينة مطبوخة ومصنوعة على هيئة الفول، ولا تختلف فى شكلها أو لونها أو وزنها عن الفول، فهى مثال بارع للحبة، وقد أمكن معرفة هذا التدليس لأن بعض الفول الصادر ابتل على ما يظهر.

وخطر له أن آلافا من «بغال المناجم» المساكين كانوا يأكلون هذا الطين باسم الفول، فتلهب غضبه وشرع فى تقصى الأمر، فما لبث أن اهتدى إلى مصنع لهذا الفول الطينى بجوار هانكو، وكان العمال يأخذون الطين من شاطىء نهر يانجتسى، ويفرغونه فى قوالب على هيئة الفول، وكان التجار يشترون هذا البديل الطينى لأنه أرخص، ويخلطونه بالفول الحقيقى المعد للاصدار. ومن حسن الحظ أن ما اهتدى إليه صديقى قضى على هذا الغش، ولم يعد «بغال المناجم» يأكلون هذا الطين منذ عدة سنوات على ما نعلم.

سنابك الخيل من هامبورج

وتجارة سنابك الخيل من هامبورج تكشف أيضا عن إحدى الخصائص الصينية الممتعة فى التجارة، وهى التمسك بما يعد نوعا ممتازاً من السلع. ففى تلك الأيام التى كانت السفن تجىء نصف فارغة وتخرج موقرة بالشاى وغيره من حاصلات الصين،

كانت أي بضاعة مما يصلح لتثقيل السفن ، تلقى ترحيبا وتشحن بأجور ضئيلة . فكان من السلع الغريبة التي تجلب إلى الصين في ذلك الزمن ، شحنة من السنابك القديمة من هامبورج — وهي سنابك بليت جداً ورقت حتى صار من المستحيل دق مسامير جديدة فيها ، وكانت تباع للحدادين الصينيين الذين وجدوا أنها إذا شطرت شطرين صارت مادة بديعة لصنع المواسي الصينية ، وهي عبارة عن مدية مطبوعة عريضة النصل . وكان الإقبال عظيما ومطرداً على هذه المواسي ، فسرعان ما صارت سنابك هامبورج سلعة أساسية في تجارة الصين .

وفي مدن أخرى كثيرة ترى تجار النفايات والمخلفات ، وعندهم سنابك قديمة يريدون التخلص منها ، فسرعان ما راحوا يشحنونها إلى الصين من نيويورك وليفربول وباريس وغيرها ، ولكن الحدادين الصينيين كان إجماعهم تاما على رفض هذه السنابك ، وذهبوا إلى أن ضخامة الخيل الألمانية وثقل وزنها ، ووقع الحوافر يوما بعد يوم على أرض هامبورج المرصوفة ، أكسبت السنابك حجما وفرندا يجعلانها صالحة لصناعة المواسي . ووجد تجار النفايات أن عليهم أن يشحنوا بضاعتهم من هامبورج ، وكانت النتيجة أن صارت السنابك تجيء إلى هامبورج من أقطار الأرض لشحنها ، وبهذا أصبحت مقبولة .

وقد تغير رأي الصينيين في السنابك في العقدين الأخيرين ، ويستعمل الحلاقون الصينيون الآن مواسي شفيلد المصنوعة في اليابان ، ويستعمل الحدادون السنابك في صنع المدى وأمشاط القنب والسكاكين الكبيرة . وكانت سنابك هامبورج صالحة بفضل حجمها للمواسي ، ولكنها أصغر من أن تصلح لهذه الأغراض الجديدة . ثم ظهر أن خيل الجر في ليفربول أكبر سنابك من خيل هامبورج فصارت ليفربول الآن مركزاً لتجارة السنابك القديمة في العالم . ويقول العملاء أن شوارع هامبورج لم تعد مرصوفة بالحجارة ، ولهذا فقدت السنابك مزيتها .

هذا البيض الصيني

وليس الصينيون بالوحيدين الذين يغالطون أنفسهم في حقيقة المزايا ويتمسكون بالأوهام السخيفة ، فالبيض رخيص جداً في الصين . وفي سنة ١٩١٩ كانت التجارة عظيمة جداً في البيض المحفوظ والمثلوج ، وكان يصدر إلى إنجلترا وأمريكا ، ثم ظهرت في البلدين دعاية قوية مرة ضد البيض الصيني الذي قيل إنه يحتوي على جراثيم خطرة

لاعداد لها ، فضلا عن غيرها مما هو أبرز وأبين . وكتب زارع فى إنجلترا إلى صحيفة بلدته ، أنه لما أراد التفريخ ، وضع تحت الدجاجة ، على سبيل الاختبار بيضة صينية بين البيض ، فخرج منها ثعبان ، ونقلت القصـة عدة صحف إنجليزية ، وأبت ربات البيوت أن يقبلن البيض الصينى ، غير أن المخابز ظلت تشتريه .

ولم تذهب الدعاية ضد البيض الصينى فى أمريكا إلى حد تفريخ ثعبان موهوم ، ولكن النتيجة كانت واحدة ، فقد وضعت قوانين لتحـديد استهلاك الطعام ، فكادت تموت تجارة البيض فى كل البلاد ، وسوّى تجار البيض الأمريكيون فى الصين حسابهم مع الفنادق ، فى شنجهاى ، وعادوا إلى بلادهم وقد تحمل بعضهم غرامات فادحة لإلغائهم العقود . أما تجـار البيض البريطانيون ، فحرصوا على سمعتهم القديمة ، فلجّوا ، وظلوا يشحنون البيض إلى إنجلترا ، حيث كانت السوق محدودة جداً ، وكان كل امرىء يتعجب لسخافتهم فى المضى فى تجارة خاسرة وكيف لم يفلسوا ؟ وأخـيراً انحلّ اللغز ، ذلك أن البيض الصينى يشحن إلى إنجلترا ، ثم يعبأ ويعاد شحنه إلى أمريكا التى تتقبله بقبول حسن على اعتبار أنه بيض إنجليزى ، ولا تزال أمريكا تستورد قدراً عظيما من البيض « الإنجليزى » الذى لعـله من أصل صينى .

الجوار العـالمى

ولعلك لاحظت أن آخر فرشة أسنان لم تكن جيدة كالسابقة من نوعها ، ولعلك أيضاً قرأت أن الحكومة الصينية قد أرسلت حديثا جنودها ليستأصلوا شأفة العصابات والشيوعيين من سيشوين ، ذلك الإقليم الغنى الغاص بالسكان على تخوم التبت المجهولة ، ولعله لم يخطر لك قط أن بين الأمرين علاقة ما .

كانت كل فرشة أسنان تصنع من شعر الخنزير ، ومعظم هذا الشعر يجىء من الصين . وخير أصناف الشعر الذى تصنع منه الفرشة الممتازة التى تستعملها ، تؤخذ من جاود الخنازير البيض فى سيشوين . وقل بين الخنازير البيض فى أرجاء العـالم الأخرى ما يستعمل شعره لهذا الغرض ، لأن الذين يربون الخنازير لا يتوخون الاقتصاد كالصينيين ، فلا يعنون بتنظيف الشعر وترتيب أصنافه .

وهكذا ظلّ تزويد العالم بفرشة أسنان جيدة يتوقف على صحة الخنزير ورفاهيته فى سيشوين ، ففكر فى فرشتك ، وفى صغر العـالم ، وكيف أن هـذا يجعلك جاراً لأربعمئة مليون جارٍ فى الصين .

فن الأكل في الصين

لن يوتانج *

مختصرة من كتاب "بيلادى وأمتى"

كان ثم شيء نأخذه نحن الصينيين إذا مأخذ الجد ، فليس هو بالدين أو لعلم ، وإنما هو الطعام . ونحن نجاهر بأنّ لأكل إحدى المسرات القليلة فى الحياة لإنسانية . وفى أوربا يمثل الفرنسيون والإنجليز اختلاف الرأى فى مسألة الطعام ، فالفرنسيون يأكلون بحماسة ، والإنجليز يأكلون على استحياء . أما الروح القومية الصينية فتميل ميلا بيناً إلى الناحية الفرنسية فيما يتعلق بطعامها .

وأول ما يشترط لنتعلم كيف نأكل هو أن نتحدث عن الأكل ونتبادل فيه الرأى . وليس من الميسور الوصول بفن الطبخ إلى مرتبة عالية إلا فى جماعة — كالفرنسيين والصينيين — يعنى فيها المثقفون والمهذبون بالسؤال عن صحة طباخهم بدلا من الكلام عن الجو . وما من طعام يكون متعة حقيقية إلا إذا تطلع المرء إليه بلهفة ، وتناوله بالكلام ثم أكله ، ثم وصف لذته . ولا ينبغى لأولى العلم أن يشفقوا من أن يكتبوا الفصول فى فن الطعام كما يفعل أولو العلم من الصينيين ، فإنّا قبل أن نعدّ طعاماً ممتازاً نبقى زمناً نتفكر فيه ونديره فى أذهاننا ونتطلع إليه ، ونستمتع من ذلك بلذة خفية يطيب لنا أن يشاطرنا إياها بعض إخواننا ، ونثبت فى الدعوات التى نوجهها بعض نقط عنه كأن نقول : « جلب ابن أخى أخيراً خلا جيداً من تشنكيانج ، وبطة مملحة من بط نانكنج جاء بها من لاويوتشى » . وقبل أن يقبل الخريف بزمن طويل ويطلع قمره ، يشرع الرجل من أهل العلم — مثل لى ليونج الذى يقر بذلك — فى إعداد العدة وادخار المال لشراء السرطان النهرى ، ويتخير مكاناً تاريخياً يبسط فيه المائدة له مع إخوانه على ضوء القمر ، فى منتصف الخريف ، أو فى بستان حال بالأقحوان ، ويخابر بعض أصدقائه ليجيئوا بشيء من النبيذ من مخزن الحاكم توان فانج ، ويروح يفكر فى ذلك كما يفكر الإنجليز فى الجواد

---

* فيلسوف صينى معاصر ومن مؤلفاته : « فن الحياة » ، ورواية « ساعة فى بكين » و « حكمة كونفوشيوس » ، و « حكمة الصين والهند » و « ورقة فى عاصفة » و « بين الدموع والضحك » .

الذى ينتظر له الفوز فى السباق .

ونحن الصينيين لا نخجل من أكلنا .

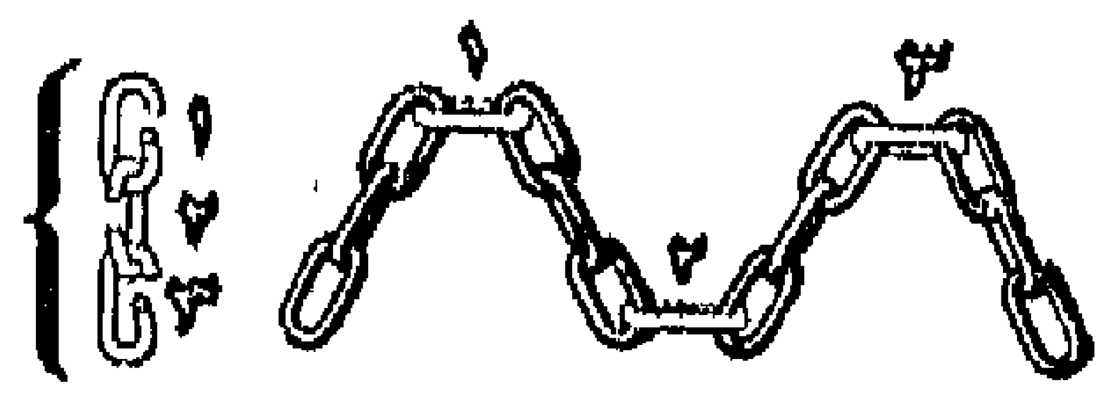
وقد تغنى الشاعر وردز ورث « بالحياة البسيطة والتفكير العالى » ، ولكن فاته أن يفطن إلى أن الطعام الجيد ، وخاصة مع أفنان الخيزران الغضة وعش الغراب ، تعد من المباهج الحقيقية فى حياة ريفية بسيطة . وقد تغنى الشعراء الصينيون جهرة «بالسمك المفروم وحساء الخضر» . وكثير من الأمريكيين يتنهدون فى غربتهم حسرة على اللحم والبطاطس ، ولكنهم لا يعترفون لك بأن هذا يجعلهم يحنون إلى وطنهم ، ولا يذكرون ذلك فى أشعارهم .

وكل من يفتح صفحات رواية صينية ، لا يلبث أن تلفت نظره الأوصاف المفصلة المتكررة للطعام الذى أفطر عليه تايو ، أو العشاء الذى تناوله بايو عند منتصف الليل . والصينيون يتلقون الطعام بمثل ما يتلقون به ملامسة النساء والنساء والحياة على العموم . وما من شاعر أو كاتب إنجليزى عظيم إلا وهو يأنف أن يكتب كتاباً عن الطبخ ، لأنه يعد ذلك خارجاً عن نطاق الأدب ، وأمراً لا يليق إلا بجهود العمة سوزان . ولكن الشاعر الروائى العظيم لى ليونج لم ير أن مما يغض من كرامته أن يكتب عن طبخ الفطريات وكل أنواع الأطعمة المصنوعة من الخضر وغيرها . وهناك شاعر كبير آخر هو يوان ماى وضع كتاباً كاملا عن الطبخ ، وكتب أيضاً مقالا ليس أبدع منه عن طباخه .

وثم مبدآن يتميز بهما الطبخ الصينى من الطبخ الأوربى : الأول أننا نطعم الطعام من أجل نوعه ، أى ما نجده من مضغه الهش أو المرن تحت أضراسنا ، ومن أجل نكهته ومذاقه ولونه أيضاً . ويرجع كثير من الفضل فى الإقبال على أفنان الخيزران الخضر إلى مقاومتها الممتعة ، التى نجدها تحت أسناننا ، غير أن أهم من ذلك أن هذا النبات يكسب اللحم نكهة إذا طبخ معه ، كما يكتسب هو من اللحم نكهة . وهذا هو المبدأ الثانى ، أى مزج النكهات ، وذلك هو قوام فن الطبخ فى الصين . فما من أحد مثلا يعرف ما طعم الكرنب حتى يذوقه مطبوخاً مع الدجاج ، وحتى يستفيد الكرنب من الدجاج نكهته ، والدجاج من الكرنب نكهته . وبهذا المزج يستطاع تأليف أى عدد من الأطعمة . والصينى حين يرى على مائدة عشاء أجنبية الخضر مثل الإسباناخ أو الجزر تطبخ على حدة ثم توضع على نفس الطبق مع اللحم أو الإوز المحمر ، فإنه لا يسعه إلا أن يتبسم تبسم المستخف بهؤلاء المتوحشين .

إن الصينيين من أردأ الدعاة ، ولكن عندهم ذخيرة نفيسة من الوصفات الشهيرة العجيبة لتعليم الغرب ، متى استعد الغرب وتطامن للتعلم . ولا يحتمل أن يحدث هذا قريباً ، لأنّا لا نملك نسّافات ومدافع ، وحتى لو كان لنا منها شيء ، لما عنينا بأن نمضى بها إلى نهر التيمس أو نهر المسيسبي ونطلق النار منها على الإنجليز والأمريكيين ونرسلهم إلى السماء على كره منهم . غير أن هذا لا يمنع أن أية أمة لا تعرف كيف تأكل وتستمتع بالعيش كما نفعل ، تعد فى نظرنا همجاً وغير متحضرة . ذلك أن فن المعيشة فى الصين غريزة ثانية ودين . ولم تنفصل القيم الروحية من القيم المادية عندنا ، بل هى أعون — كما هو الحال فى عنايتنا بالطعام — على وفاء الاستمتاع بالحياة على قدر نصيبنا منها .

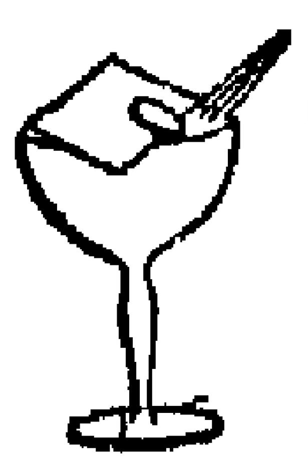
أجوبة الألغاز المنشورة فى صفحة ٧٩



١ — الجواب الصحيح هو تسعة قروش . خذ إحدى القطع المؤلفة من ثلاث حلقات ، واكسر كل حلقة منها (فذلك يكلفك ثلاثة قروش) ، ثم استعمل كل حلقة منها لتصل بين قطعتين (يكلفك لحام كل منها قرشين ولحام الثلاث ستة قروش ، فالمجموع تسعة قروش) .

٢ — اقلب الثانى والثالث .
ثم الأول والثالث .
ثم الثانى والثالث .

٣ — بدلا من أن تقذف قطعة السكر الثانية فى الهواء ، أفلتها ثم التقطها ، بأن تسرع فتتلقاها فى الكأس حين تهوى .



٤ — لا تنفخ القرش بل انفخ فى الكأس فيرتفع الحرف الخارجى للبطاقة ، فتنحرف فيتزحلق القرش منها إلى جوف الكأس .



٥ — اجمع ذراعيك على صدرك كما ترى فى الصورة ، قبل أن تمسك بزاويتى الفوطة المتقابلتين ، فحين تبسط ذراعيك ترى الفوطة قد انعقدت .

باب الكتب -١-

كيف يتسنى لنا تطبيق المعاهدات الدولية

وليم ... ليمان

مختصرة من كتاب سينشر قريبا بعنوان " إما عالم واحد وإما فناء العالم "

الكاتب معلق سياسى أمريكى معروف بسعة الاطلاع ودقة البحث وهو يرى أن (عالم المدينة الفاضلة) الذى تمثله هيئة الأمم المتحدة ، ليس وليد خطة موضوعة وتدبير مقصود لهذا الغرض ، بل جاء نتيجة لما حدث أخيراً من تطورات وثورات فى العلاقات الإنسانية .

قليل من الناس فى بلاد الأرض من يؤمن اليوم بأن الحرب أو أحد أسلحتها الخطرة ، شىء يمكن تنظيمه أو تحريمه بالمعاهدات المألوفة بين الدول ذات السيادة . فقد عقد كثير من أمثال هذه المعاهدات وصدق عليها فيما بين ١٩١٩ و ١٩٣٩ ، ومع ذلك فهى لم تمنع أو تقلل فظائع الحرب العالمية الثانية وأهوالها ، إذ لم تحترمها الدول المعتدية ، وأخفقت الدول النازلة على أحكامها فى تنفيذها . فلا يمكن الوثوق اليوم بمثل هذه المعاهدات ، ولن يثق بها أحد .

ومن البين أيضاً أنه لا غنى لنا عن عقد أمثال هذه المعاهدات الدولية أيًّا كانت صورتها — إن أردنا أن نبدأ معالجة مشاكلنا ، إذ لا يمكن إقرار مشروع عالمى إلا بمعاهدة تصدق عليها الدول ذات السيادة فى الوقت الحاضر . فواجب علينا إذن أن نبحث عن الأسباب التى أفضت إلى نقض

المعاهدات القديمة ، فإذا صدق تشخيصنا للداء ، اهتدينا إلى الدواء .

وقد علمنا على مر الزمن أن كل الاتفاقات الدولية تقريباً وأغلب نصوص القانون الدولى ، لا تنفذ إلا بالقدر الذى تشاؤه وتستطيعه دول ذات سيادة حين تفرضه كرهاً على دول أخرى ذات سيادة . ولم يرد فى هذه الاتفاقات والنصوص ذكر لطريقة تنفيذها ، فلم يبق إلا أنه رهن بمشيئة الدول النازلة على أحكامها ، وفى استطاعتها فى نهاية الأمر أن تشن الحرب على الدول التى تنكث عهدها . ويصدق هذا القول أيضاً على جميع الوسائل اللهم إلا القتال : كقطع العلاقات الدبلوماسية وحجز السفن والحصر البحرى ، وهى من قبيل الجزاء الذى لا يجدى إلا باعتباره إنذاراً ودلالة على ما يتبعه من عقوبات قاسية . وهذا ما تبينه العالم فى اعتداء اليابان على منشوريا ، وإيطاليا على الحبشة ، وألمانيا على النمسا ، وفى موقف أسبانيا والأرجنتين أثناء الحرب ، فإن العقوبات التى فرضت عليها بادىء ذى بدء لم تمنعها من المضى فى خطتها ، ذلك لأن الدول النازلة على أحكام المعاهدات والقانون الدولى ، لم تكن متأهبة ولا راضية بتطبيق العقوبة الأخيرة وهى الحرب .

فتنفيذ الاتفاقات الدولية بين الدول ذات السيادة هو ما نسميه « نظام الأمن المشترك » ، ولكن لن نجد أمة تعتمد اليوم أو غداً على اتفاقات دولية من هذا القبيل . فلماذا ؟ ذلك لأن الدواء شر من الداء ، إذ يجب على الأمم المحبة للسلم أن ترضى بشن حرب شاملة ، تسخر لها كافة مواردها وقواها لتمنع بها حرباً شاملة مثلها . فهذا دواء فيه من الجفاء والعداوة ومن باهظ النفقات ، ومن شناعة العواقب ما يَزْوِى عنه وجوه من نؤمل فيهم أن يتولوا عبء تنفيذه — وهم الشعوب المحبة للسلم .

ويجب أن نفهم هذه الحقيقة أوضح فهم ، إذ يتوقف عليها نتائج ذات خطر . فقد كثر القول بأن التهديد باستعمال القوة المشتركة حقيق بأن يمنع قيام أية دولة بالخطوة الأخيرة المؤدية إلى الحرب . فهذا كلام لا يصدق إلا إذا كان المفهوم من التهديد أنه جدّ ولا يقصد به مجرد التخويف أو الخديعة . فالواجب إذن أن لا يجول أقل شك فى أذهان زعماء الأمم التى تنكث المعاهدات ، أن الدول الأخرى على تمام الأهبة والرضى بأن تشن عليها حرباً شاملة .

ومن بسط هذه الشروط نعلم أن توفرها فى زمن السلم أمر بعيد الاحتمال ، فإن

الدول التى ستحمل عبء صيانة الأمن المشترك، ترى ساعة يكون الاعتداء أو الغزو فى أول مراحله ، أن عواقبه لن تضيرها ، وأنها قليلة الشأن فى حدّ ذاتها . ولنذكر مثلا غزو منشوريا سنة ١٩٣١ ، والحبشة سنة ١٩٣٥ ، والحرب الأهلية فى أسبانيا ، واحتلال منطقة الرين سنة ١٩٣٦ . ففى هذه المراحل الأولى من الاعتداء ينبغى أن تكون أساليب السلامة المشتركة أنفذ ما تكون إذا أريد منع الحرب ، ولكنها فى الواقع تكون عندئذ أضعف ما تكون ، ذلك لأنه لا يمكن الاعتماد على الدول المحبة للسلم فى أن تقوم فوراً بشن حرب شاملة من جراء نزاع تراه قليل الخطر . وهذا ما تدركه الدول المعتدية حق الإدراك ، ولذلك فهى تسقط من حسابها هذا التهديد المشترك وتعتبره خدعة مشتركة .

فالتهديد بالحرب الشاملة المشتركة ليس من وسائل تنفيذ الاتفاقات الدولية ، بل هو تدبير يملیه القنوط إذا بلغ حدّه ، ولا يلجأ إليه إلا بعد ضياع الأمل فى جدوى الاعتماد على الاتفاقات ، وحينئذ يكون سلم العالم قد تحطم إلى غير رجعة ، وتصبح الأمم المحبة للسلم مضطرة إلى الاتحاد معاً لشن حرب يتوقف عليها بقاؤها أو فناؤها .

فإذا رأت الدول العظمى أن العواقب أهون من أن تضيرها ضيراً ، أعرضت عن العمل المشترك لصون الأمن . من أجل ذلك لن يتأتى أن يصبح هذا العمل المشترك من الوسائل المعتادة المستمرة التى تكفل تنفيذ المعاهدات ، كالاستعانة به مثلا فى رقابة المعامل والمصانع التى تشتغل بتحطيم الذرة . وشبيه بهذا أن نقول إن القوانين لن تكون نافذة فى مدينة ما إذا كان لا مفرّ للشرطة حين يريدون القبض على المجرمين مثلا ، من أن ينشب بينهم عراك قد ينجم عنه هدم المحكمة والسجن ، والمساكن التى يسكنونها أيضاً .

فالعمل المشترك لصون الأمن ، والذى يرمى إلى تحقيق السلم تحت ظل القانون يتطلب من جماعات كبيرة من أناس أبرياء أن يأخذوا أهبتهم لإبادة جماعات كبيرة أخرى من أناس أبرياء . وهذا أساس هيهات أن تستقر عليه دعائم نظام دولى، ولن يستجيب له رجال هذبتهم المدنية، كما يندر أن يستجيب له رجال أشربوا حب الديمقراطية واحترام الفرد ، ويرون أن المعنى الأول للعدل هو التفرقة بين المذنبين والأبرياء .

فإذا أدركنا لماذا كان العمل المشترك لصيانة الأمن وسيلة معيبة فى تنفيذ القانون والاتفاقات ، اهتدينا من فورنا إلى المبدأ

السياسى الذى لا غنى لنا عن الاستعانة به لحل مشاكلنا . هذا المبدأ هو أن نجعل الأفراد ، لا الدول ذات السيادة ، هدف الاتفاقات ، أو بلفظ آخر : سن قوانين تسرى على الأفراد كافة . وهذا مبدأ غير جديد حتى فى الشئون الدولية فى عصرنا الحاضر الذى بلغت فيه السيادة القومية ذروتها من السلطان . فهنالك تبعات كثيرة تقع على عاتق الأفراد بمقتضى القانون الدولى العام ، أو بمقتضى المعاهدات . مثال ذلك : معاهدة محاربة تجارة الرقيق فى إفريقية سنة ١٨٦٢ ، والاتفاق الدولى لمحاربة الاتجار فى النساء والأطفال سنة ١٩٢١ ، والاتفاق الدولى لمحاربة المطبوعات الفاحشة ومنع تداولها سنة ١٩٢٣ ، والاتفاق الدولى لمحاربة العملة الزائفة سنة ١٩٢٩

والواقع أنه لم يستنبط فى علم السياسة مبدأ ثبتت صحته بالتجربة كالمبدأ القائل بأن النظام لا يستتب بقانون يفرض على الدول فحسب ، إذ لا يتأتى تنفيذ القانون إلا إذا كان سارياً أيضاً على الأفراد .

وإذا أردنا أن نبحث أثر تطبيق هذا المبدأ على مشاكل العالم فى أيامنا هذه ، فيجب أن لا تبلبل أفكارنا معانى كلمة « الحكومة » ، فقد يكون المقصود بها إنشاء هيئة تنفيذية عالمية أو هيئة تشريعية عالمية ، أو نظام قضائى عالمى ، أو جيش عالمى . وقد يكون من المرغوب فيه تطبيق بعض هذه النظم أو كلها أو الإعراض عنها جميعاً ، ولكن هذا بحث ينبغى أن لا نشغل به أنفسنا الآن ، إذ أن مبدأ سريان القوانين الدولية على الأفراد يمكن إنفاذه فوراً دون أن يكون ثمة حاجة للتعهد بإنشاء شىء من نظم الحكومة العالمية السابق ذكرها .

وفى تطبيق هذا المبدأ خير علاج للمشاكل التى بحثها وزراء خارجية روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة فى موسكو سنة ١٩٤٥ ، وتم الاتفاق بينهم على إحالتها إلى لجنة الإشراف على الطاقة الذرية التى طلبوا من الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة أن تؤلفها . ومهمة اللجنة « أن تعمل على تبادل المعلومات العلمية النافعة فى أغراض السلم » ومن مهمتها أيضاً « أن تشرف على الطاقة الذرية بقدر يضمن حصر استعمالها فى أغراض السلم » وكذلك « أن تستبعد من العتاد الحربى فى الدول كل سلاح يقوم على الطاقة الذرية ، وكل سلاح يكون شديد الفتك بالجماهير الغفيرة من الخلق » .

ومن الواضح أن هذه القواعد تنظم عمل عدد جم من الأفراد فى جميع البلدان . فالعلماء ورجال الصناعة والإدارة والموظفون

والمراقبون والقضاة والمشرعون وقادة الجيوش ورجال السياسة وحكام الدول ، يجب عليهم أن يراعوا فى عملهم هذه القواعد، بل يجب عليهم أن يتولوا بأنفسهم تنفيذها .

فإذا وثق الناس من طاعة هذا العدد الغفير من الأفراد للقانون ، فإن هذه القواعد تصبح قانوناً مصوناً مهيباً فى كل بلدان العالم . وإذا اعتمدنا على هـذا القانون أمكننا أن نعرف بوضوح ومنذ بداية الأمر ، مقدار نجاح الضمانات التى سنتخذها، ولنا أن نشترط أن تصديق إحدى الدول على معاهدة ما ، لا يعتبر فى نظرنا نافذاً إلا حين تستعين بتشريعها الداخلى لإقرار أحكام المعاهدة ، وتصبح من قوانينها الأهلية .

وليس هذا كل ما فى الأمر ، فما دامت المعاهـدة تتطلب أن يكون تنظيم الطاقة الذرية خاضعاً لقانون واحد يسرى فى جميع البلدان ، فللأمم المتحدة أن تعترف بحق كل فرد فى الاستقلال بظل هـذا القانون ، فيطبق عليه إذا حوكم فى أية أمة من أعضاء هيئة الأمم المتحدة . وعندئذ لا يستطيع من يتعـدى حدود القانون أن يطلب حماية حكومته ، إذ يصير خارجاً على القانون يمكن أن تقبض عليه أية دولة من دول هيئة الأمم وتنزل به عقاب ما اقترف .

فإذا رأى أحد من العلماء أو الموظفين أو أصحاب المصانع أو مديريها ، ممن يريد أن يطيع القانون ، أن حكومة تسعى إلى إكراهه على معصية ، جاز له أن يلتمس حماية الأمم المتحدة . فلو ألقى فى معسكر الاعتقال كان للأمم المتحدة أن تستفسر عن الأسباب ، فولاء الفرد لأمته يسقط عنه إذا أفضى به إلى تعـدى حدود القانون العالمى . فلن يكون الرجل خائناً لوطنه ، بل العكس هو الصحيح ، إذا ما دل على تآمر موظفى دولته على انتهاك حرمة قانون نافذ فى العالم كله وفى بلده . نعم ، إنه يدل عليهم وهو مرتاح الضمير كارتياحه حين يدل على أناس يتآمرون على الخيانة العظمى فى حق وطنه ، فليس هو ، بل هم الذين ينطبق عليهم وصف الخونة والمجرمين والخارجين على القانون .

ويقصد فى الاتفاقات المقـترحة بشأن الطاقة الذرية أن يكون استعمال هذه الطاقة وتحسين أساليب نفعها قاصراً على أغراض السـلم ، ولذلك فلن يسمح بكتمان أمرها فى جميع مراحلها : من التجارب العلمية البحتة واستخراج المعادن من المناجم إلى صـنع السلاح ذاته، وذلك حتى لا يتسنى لحكومة ما أو لعصبة من المتآمرين أن يستخدموها لأغراض تنافى هذه الاتفاقات المقترحة .

ومن حسن الحظ أن الكتمان التام

مطلب عسير المنال ، فما يكون للدولة من سر ، وخاصة فيما يتعلق بصنع السلاح ، إلا انتهى أمره إلى أن يعامه الكثيرون ، ويكفى فى إفشائه فرد واحد ، وكل ما يفعله هو أن يجهر بأن هناك أعمالا تجرى فى الخفاء وتدعو إلى التفتيش عنها .

ولا حاجة بنا إلى أن نفرض أن الدول النازلة على أحكام المعاهـدة ستعتمد كل الاعتماد على طائفة من المراقبين تميزهم بعلامة معروفة ويعملون باسم الأمم المتحدة ، إذ يجب أن تستعين هذه الدول أيضاً بممثليها الدبلوماسيين والقنصليين وموظفى مخابراتها السرية ، كما تستعين كذلك ببعوث غفيرة من الصحفيين ورجال الأعمال والسياح والدعاة والطلبة .

والتوفيق إلى ضمانات صالحة أسهل منالا فى ميدان الطاقة الذرية ، إذ لا مفر من أن يكون بين الأفراد المطلعين على أسرارها أقطاب علم الطبيعة فى كل دولة ، وهم رجال أفذاذ ، قليل عددهم ، يعرف بعضهم بعضاً وإن تباعدت أوطانهم . فمن البعيد أن يتاح لدولة ما أن تكتم تمام الكتمان تجنيد طائفة صغيرة من العلماء وتدريبهم ليعملوا فى الخفاء على تزويد جيوشها بسلاح الطاقة الذرية . فالحقائق العلمية ، وخاصة فى مبحث الطاقة الذرية ، هى ، كما يقال ، تركة مشاعة بين العلماء ، ولا مندوحة لهم من أن يتبادلوا كل النتائج التى تصل إليها أبحاثهم ، وفرض على المبتدىء منهم أن يقف موقف التلميذ والمريد من الأساتذة القدماء ، كل فى علمه الذى تخصص له .

فهناك إذن أسباب كثيرة تدفعنا إلى الظن بأن العلماء ، وهم أسرة عالمية واحدة ، سيصبحون من أوائل المؤيدين للاتفاقات الدولية ، إذ أن كل تقدم فى أبحاث الطاقة الذرية لن يأتى إلا على يدهم ، فهم فى مقام قادة المعركة المشرفين على سيرها . وسينتخب طائفة المراقبين بطبيعة الحال من بين هؤلاء العلماء وتلاميذهم .

وستصبح اتفاقاتنا قانوناً ثابتاً قادراً على البقاء ، لا لأن أغراضها سامية فحسب ، بل لأنها ستتيح للعلماء والمدربين على فنون الصناعة أن يجمعوا بين خدمة مصالحهم ومثلهم العليا فى وقت واحد . فالقانون السمح الذى يكفل للأفراد حريتهم أسهل تطبيقاً من القوانين المقيدة لهم . ومثل هذه الاتفاقات تستعين بحرية الفرد فى الحد من استبداد الدولة بسلطانها .

ومن المستطاع الظفر بكل ما قدمنا ، إذا جعلنا المعاهدات التى ننوى التصديق عليها مستندة على المبدأ الأساسى القاضى بفرض الحقوق والواجبات لا على الدول

وحدها بل على الأفراد أيضاً .

ومع ذلك فالنتائج التي وصلنا إليها ، وإن كانت ظاهرة الحجة ، لا قيمة لها من الوجهة العملية إذا اقتصرت على كونها مجرد برهان نظرى يثبت أن من الخسير تنظيم سلاح الطاقة الذرية على طريقة معينة ، إذ يلزمنا في تلك الحالة أن نستنبط خطة أخرى لتحديد التسلح ، وقد علمتنا التجارب أن تحديد السلاح — إذا طبق بعض التطبيق لا كله — لا يمنع نشوب الحرب . فيجب في النهاية أن نعنى ، لا بالحرب التي تستخدم فيها الطاقة الذرية ، بل بالحرب عامة وأيًّا كان سلاحها ، إذ نحن نعلم حق العلم أن كل نظام يوضع لضبط التسلح سيتحطم ويصبح هباءً منثوراً إذا نشبت حرب عالمية أخرى .

ولذلك يجب علينا أن نتدبر مدى تأثر الأمم المتحدة — ذلك المجتمع العالمى — بمبدأ تنظيم الطاقة الذرية . ولكن لابدّ من اجتناب التناقض والتعارض فيما نقول ونفعل . فمن التناقض أن نفرد قانوناً عالمياً ليس هناك غيره ، للإشراف على الطاقة الذرية ، ونرضى في الوقت ذاته بأنظمة متضاربة للمحافظة على السلم .

ومع ذلك فليس هناك من تناقض أو تضارب ، إذ أن هيئة الأمم المتحدة قد رفضت في الواقع أن تأخذ بنظام الأمن المشترك ، وكل ماقررته إلى اليوم من وسائل لتنفيذ الاتفاقات ، إنما يصدر عن إقامة النظام العالمى على أساس من القوانين التى تطبق على الأفراد كافة .

وهذا هو ميثاق الأمم المتحدة ينص على أن من أغراضها « اتخاذ تدابير مشتركة للقضاء على كل ما يخلّ بالسلم » ، ولكن يبطل أثر هذا النص ذلك المبدأ القاضى بضرورة إجماع الدول الخمس الكبرى على كل قرار يصدر عنها ، وهو ما نسميه « حق الاعتراض » وعلى ذلك فلا يمكن — في حدود القانون — تطبيق نظام الأمن المشترك على دولة كبرى بغير رضاها . ومعنى هذا بعبارة أخرى ، أن نظام الأمن المشترك لا يمكن تطبيقه أبداً ، إذ لا يعقل أن تجيز دولة كبرى لبقية العالم أن يشن عليها هى نفسها حرباً شاملة . هذا وقاعدة الإجماع تحمى باقى الدول من مواجهتها بوسائل إكراه مشتركة — اللهم إلا إذا كان الأمر متعلقاً بدولة بلغت من الضآلة والعزلة وهوان القدر مبلغاً يقعد بها عن أن تكون حليفة أو صديقة لإحدى الدول الكبرى .

وهناك أناس كثيرون من رأيهم إلغاء حق الاعتراض وتوطيد نظام الأمن المشترك ، ولكن عليهم أن يعودوا فيتدبروا رأيهم .

ففي سنة ١٩١٩ رفضت الولايات المتحدة ميثاق عصبة الأمم لأنها لا تريد أن يكون لها نصيب في تعهد يقضي عليها بشن الحرب . وكذلك لم يقبل أعضاء العصبة أن يفوا بتعهداتهم فيحاربوا اليابان سنة ١٩٣١ أو إيطاليا سنة ١٩٣٦ . ومن المسلم به قطعاً أن روسيا في سنة ١٩٤٥ ما كانت لتقبل التصديق على ميثاق الأمم المتحدة ، لو هو أجاز نظام الأمن المشترك ، ولحذت الولايات المتحدة حذوها في أغلب الظن .

فإذا كانت الدول الكبرى قد رفضت في الواقع أن تأخذ بنظام الأمن المشترك ، فلا يعني هذا أنها أصبحت من دعاة الفوضى في العلاقات الدولية . بل لعلها لم ترفض هذا النظام لأنها انحرفت عن الصواب ، بل لأن الوسيلة ذاتها معيبة . وهي في الحق وسيلة جافية ، باهظة النفقات ، لا عدل فيها ، مما يجعل تعميمها بين الدول أمراً ممتنعاً .

والواقع هو أن الأمم المتحدة ، وإن كانت قد رفضت الأخذ بنظام الأمن المشترك ، إلا أنها ارتبطت إلى حد كبير بالوسيلة الأخرى : أعني اعتبار الأفراد مسئولين عن تعدي حدود المعاهدات والقانون الدولي .

وقد تجلى هذا الارتباط على أتمه اليوم باشتراك الأمم المتحدة في محاكمة مجرمي الحرب وتوقيع العقاب عليهم ، إذ لم تثر هذه المحاكمة اعتراضاً مّا ، بل أثبتت الدول قولا وفعلا أنها ترتبط بالمبدأ الذي نادى به القاضي جاكسون في افتتاح محاكمة نورمبرج إذ قال : « دعوني أبين لكم بجلاء أن هذا القانون الذي نطبقه أول ما نطبقه على الألمان المعتدين ، واجب التطبيق أيضاً على كل أمة يقع منها اعتداء ، ولو كانت أمة بجلس ممثلها اليوم معنا على منصة القضاة » .

فالأمم المتحدة إذن قد اعتنقت الرأي القائل « إن الجرائم لا يقترفها سوى الأفراد » وإن « الجزاء الذي يوقع على الأفراد هو الجزاء الوحيد الذي يمكن تنفيذه في نطاق السلم تنفيذاً مجدياً » . ولم يكن ارتباط الدول بمبدأ محاكمة نورمبرج خبطة عشواء ، بل إن له جذوراً ممتدة في تاريخ عصرنا الحاضر . حقاً إنه ككل قانون عام في أول عهده ، يستند أول ما يستند على التجربة إثر التجربة ، ويفتقر إلى نصوص مكتوبة ، إلا أنه عهد واجب الاتباع ، لا يقل في ذلك عن ميثاق هيئة الأمم ذاته . وأهم ما تضمنه هذا العهد هو إقرار الأمم المتحدة لمبدأ التبعة التي يحملها الأفراد طبقاً لأحكام القانون الدولي العام . وقد قيدت هذه الأمم نفسها إلى المبدأ العام الذي يجعل كل

معتد ، لا المعتدون الألمان وحدهم ، يحاسبون طبقاً لهذا القانون نفسه .

وإذا التفتنا اليوم إلى الماضى واستعرضنا تاريخ الحرب العالمية الثانية ، أدركنا أنها تمخضت عن ثورة فى العلاقات الإنسانية ، إذ هى قد دفعت البشر إلى تخطى حدود الدائرة المرسومة لهذا العصر الذى كنا نسميه إلى عهد قريب « العصر الحاضر » ، حين كان الناس يعيشون جماعات مقسمة ، رغم تشابه الجنس ، فى بقاع دول ذات سيادة مطلقة أو فى أرض مستعمراتها . وهكذا تهيأت العوامل المؤدية إلى إنشاء الدولة العالمية . ولم يتم ذلك بفضل الاقتراحات والدعايات وحدها ، كلا ، فهى ككل الأحداث التاريخية الهامة ، ليست فى الأصل وليدة تدبير مقصود — بل هى وليدة سلسلة من القرارات كان لا مفرّ من اتخاذها حين تدعو الحاجة إليها ومن تجربة نتائجها مرّة بعد مرّة .

وليست هيئة الأمم المتحدة صورة أخرى لعصبة أمم مغلولة اليد من جراء حق الاعتراض الممنوح للدول التى هى أعضاؤها ، بل هى بحكم اشتراك أغلب أمم الأرض فيها ، بمثابة جمعية تأسيسية لوضع دستور الدولة العالمية . وقد صرفت جهودها فعلا لتوطيد نظام عالمى تسرى قوانينه التى لا تسن إلا لحفظ السلم ، على كافة الأفراد . فقد تبين للبشر أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تمكن من معاقبة مجرمى الحرب ، بل هى الوسيلة الوحيدة لتقرير ضمانات ناجعة تحمى الناس شرّ إساءة استعمال الأسلحة الذرية الفتاك ، كما أنها هى الوسيلة الوحيدة التى يرجو بها الناس أن تصبح الاتفاقات الدولية واجبة التنفيذ . ونستخلص من كل هذا نتيجة جليلة الخطر ، وهى أن سلطان الدولة العالمية مستكنّ اليوم فى هيئة الأمم المتحدة .

وليس هناك ما يدعونا إلى أن نفرض أن كل الأمم وشعوبها سينعقد إجماعها وتتّقد حماستها فتطالب بإنشاء الدولة العالمية ، بل لابدّ من أن نعمل على إقناع بعض الدول بمبدأ الدولة العالمية ، إن أردنا أن تقتنع به أيضاً دول كثيرة غيرها . ونحن نتوقع — إذا لم يجدّ ما ليس فى الحسبان — أن تظل أمور العالم زمناً طويلا تسيّرها خصومات الدول الكبرى ذات السيادة ، وما تؤلفه من كتل متنافسة ، أو توازن دولى واهى الدعائم . ولكن من الجائز ، بل من الممكن ، بل من الواجب ، أن يطرأ على أحوال العالم الحاضرة حادث جديد ، ولن يكون هذا الحادث إلا عزم الشعب الأمريكى على أن يجعل إنشاء الدولة

العالمية أهم غرض فى سياسته الخارجية .

وإذا أصبح هذا المبدأ هو الحافز الأول فى سياسته الخارجية ، كان لإقراره أثر عظيم على الإنسانية . ولا شك أن الولايات المتحدة فى هذه الساعة من تاريخها ، لو رفعت لواء الدولة العالمية لسارعت إليه واحتشدت تحت ظلاله دول كثيرة على الفور ، ولسارع إليه أيضاً أناس كثيرون فى دول أخرى .

ولم تسنح لشعب قط فرصة مثل هـذه الفرصة المتاحة اليوم لشعب الولايات المتحدة ، إذ هو يستطيع استخدام تفوقه الحربى فى تحقيق المثل الأعلى للبشرية كلها ، والعمل على نشره وبسطه فى الأمم جميعاً . نعم لا تزال أمامنـا مشاكل توزيع الأرض والموارد ، وستواجهنا مشاكل أخرى معقدة حين نشرع فى تصفية بقايا الحرب ، وفى عقد الصلح .

ولن ينتهى الصراع بين من هذبتهم المدنية وبين من طبعوا على الغلظة والعناد والخبث ، تلك الطبائع التى نجدها فى كثير من الناس حولنا كما نجدها فى أنفسنا . ولكن ما أعظم التطور الذى يطرأ على السياسة الدولية ، لو هى فرضت وتوقعت أن تعمد الولايات المتحدة — من حيث هى دولة كبرى تنضم إليها بقية الدول — إلى التعهد بإنشاء نظام عالمى يستند على قانون يسرى على البشر كافة . وقد تكون الخطوات الأولى قصيرة وشاقة ، ولكن مجرد البدء فى تنفيذ هذا المشروع سينجم عنه اتجاه جديد فى السياسة الدولية وفى خططها وفى أعمالها ، كما سينجم عنه أن يجد الناس لحياتهم هدفاً تهوى إليه أفئدتهم .

رحمة موسيقى

كتب الموسيقى أرتورو توسكانينى ، أن سيدة كتبت إليـه مرة أنها ولدت منذ أيام طفلا ميتاً ، وأنهـا استسلمت للحزن واليأس حتى ملت الحياة ، ثم عمـد زوجها إلى الراديو ذات مساء وأداره ، فسمعت حفلة توسكانينى الموسـيقية ، فرد إليها الرغبـة فى الحياة ، لأن فى العالم مثل هذه الألحان الرائعة . ولم توقع كتابها باسمها لأنها — كما قالت — « لم تشأ أن تحملنى مشقة الرد عليها ، وإنما أرادت أن تطلعنى على ما كان » .

قال : « وظلت معانى الرسالة تتردد فى نفسى ، وأحسست أنه لابد لى من أعرب لها عن شكرى فذهبت سكرتيرتى إلى كل مستشفى ولادة فى نيويورك ، ولم يكن بين أيدينا دليل يهدينـا سوى تاريخ الرسالة . وبعـد ساعات كثيرة من البحث والسؤال بالتلفون وجدناها ، فأرسلت إليها فى ذلك اليوم صورتى وكتبت فى ذيلهـا : « من أرتورو توسكانينى ، البوليس السرى ! » .

تزوجت حليف المغامرات

ملخص كتاب بقلم

أوزا جونسون

« تزوجت حليف المغامرات » — هو ترجمة صادقة لمارتن جولسون المصور الشهير الذى تخصص فى تصوير الوحوش فى مسارحها ، وفى تصوير البشر المتوحشين ، وقد كتبتها أرملته ، وفيها تروى كيف طوف فى الأرض شابان — بنت عامل ومصور متجول — مزودان بالطموح والجرأة والأمل ، واستطاعا أخيراً أن يفعلا شيئاً أبقى لهما من الشهرة والنجاح.

فى يوم ضاحٍ من أيام إبريل سنة ١٩١٠ — وكنت فى السادسة عشرة — كنت إحدى تلميذات مدرسة كانساس الثانوية اللواتى شهدن حفلة بعد الظهر فى مسرح فى شانوت . وكان بعضهم قد جاء من إندبندنس ليلقى محاضرة على « رحلة فى البحار الجنوبية مع جاك لندن » . ولكننا ذهبنا إلى الحفلة لأن إحدى زميلاتنا فى المدرسة ستغنى أغنية يصحبها عرض صور ملونة .

وبعد أن فرغت « جيل » من أغنيتها قدم مدير المسرح « ذلك الشاب السائح الجرىء المستر مارتن جونسن ، من أهالى إندبندنس » ، فتقدم على المسرح شاب طويل نحيف ، وجعل يطرف ، ويمر إصبعه حول بنيقته ثم شرع يتكلم ، وسرعان ما تكلم على المتوحشين الذين يأكلون لحوم البشر ، وعرض علينا شريطاً من الصور المتحركة ظهر فيه أناس بلغ من فظاعتهم أنى لم أستطع أن أنظر إليهم . فألقيت إلى الصف همسة بأنى مللت وانصرفنا جميعاً .

ولكن بعد سنتين خرجت مع هذا الشاب السائح نفسه فى رحلة إلى البحار

الجنوبية لتصوير المستوحشين آكلي البشر.

كانت الخطبة سريعة. وكنت قد تعرفت بمارتن جونسون بفضل « جيل » فزارني في بيتي في شانوت عصر يومين من أيام الأحد، وأخيراً اتفق أن مرضت جيل فرجا مني أن أغني في إحدى داري السينما الصغيرتين اللتين يديرهما في بلدة إندبندنس.

وكنت قد بت مع أسرته، فلما رافقني إلى القطار في اليوم التالي اقترح أن نتزوج — على الفور — فوافقت، وتم الزواج في تلك الليلة بمدينة إندبندنس، ولما كنت دون سن الرشد في ولاية كانساس، فقد كررنا عقد الزواج في ولاية ميسوري بعد خمسة أيام حتى لا يستطيع أبي أن ينقض الزواج.

ولما اجترأنا على العودة ومواجهة أسرتي كان اللقاء صعباً، وكان أبي يعمل على خط سانتافي الحديدي، وهو أصغر جسماً من مارتن، ولكن يديه كانتا مقبوضتين، وبدا وجهه شديد البياض في أول الأمر، ثم شديد الاحمرار.



وقال بصوت كالرعد: « أيها الفتى، ما تمنيت قط أن أضرب أحداً ضرباً مبرحاً كما أتمنى اليوم، فاهم ؟ »

« نعم — ولست ألومك يا مستر ليق. إن المسألة الوحيدة هي — »

« المسألة الوحيدة هي هذه يا مستر مارتن جونسون: لقد نلتها فعليك أن تعنى بها وترعاها ».

وقضيت الشهور الستة التالية وأنا زوجة سعيدة قريرة العين، ثم اقترحت يوماً أن نشتري منزلا لنا فأبى مارتن وقال إنه لا يريد أن يلقي مراسيه في مكان واحد، وأنه سيطوف حول العالم.

وكان مارتن بطبيعته شغوفاً بالتنقل لا يستقر في مكان، ففي حداثته اشتغل في ولاية كنساس مصوراً جواباً، وقبل أن يبلغ العشرين من عمره رحل إلى ليفربول على سفينة للماشية وبدأ برأس مال قدره أربعة ريالات وربع ريال. وقضى عدة شهور في بلدان أوربية شتى، وكان يكسب رزقه بما يتيسر له من عمل، وفي سنة ١٩٠٨

انضم إلى جماعة جاك لندن على باخرته الشهيرة « سنارك » ، وقام معه برحلة جديدة وشاهد السكان الأصليين في هذه الرحلة التي استغرقت عاماً ونصف عام في البحار الجنوبية . فمن له أن يصنع لهم شريطاً مصوراً وافياً ، وأقنعني فقررنا أن نرحل من فورنا ، وإن كان أبي قد سأله : أهذه هي الطريقة التي يرعاني بها ، فيحملني معه إلى بلاد وثنية كلها مستوحشون من أكلة لحوم البشر ؟

وأردنا أن ندبر مالا لرحلتنا ، فبعنا الهدايا التي تلقيناها عند زواجنا كما بعنا الأثاث ، واستعنا بالشرائط والصور التي رسمها مارتن في رحلة السفينة سنارك ، وطفنا بالولايات المتحدة وكندا لإلقاء المحاضرات . وكنا كثيراً ما يقتصر دخلنا من ذلك على ما يكفي لأجر الانتقال ، ولكن مارتن حصل على عقد مع جماعة للتمثيل المنزلي واشترك مع « ويل روجرز » فاستطعنا أن نجمع ٤٠٠٠ ريال وهي القدر اللازم لرحلة إلى البحار الجنوبية .

وكان جهازنا لهذه الرحلة الأولى ضئيلا ، وهو آلة تصوير سينمائي تدار باليد ، وآلتا تصوير ثابت ، وبندقية ومسدسان وبضعة آلاف من الأقدام من شريط التصوير ، وكان هذا كل ما وسعنا أن نتجهز به .

وكانت الشهور التالية القليلة مخيبة للأمل وباعثة على الهم والقلق ، فأبحرنا في سفن مختلفة من جزيرة إلى أخرى من جزر سليمان ، ووجدنا كثيرين من الزنوج الهمج قيل إن بعضهم من آكلي لحوم البشر ، وكنت لا أكاد أصدق أن مارتن سيهتدي إلى من هم شر منظراً من هؤلاء في أي مكان ، ولكنه قال إن هؤلاء جميعاً قد رُوِّضوا ، وأصر على البحث عن همج لم تنسل منهم المدنية ولم تمسسهم .

وأخيراً قرر أن يذهب إلى جزيرة ماليكولا ، وهي الجزيرة الثانية في جزر هبريديز الجديدة ، وكانت « غير مخفورة » ، فإذا كان يوجد في أي مكان رجل في حالة استيحاش ، فهو يوجد فيها . وركبنا سفينة صغيرة ، وما كاد الركاب يعرفون غايتنا حتى هبت علينا عاصفة من التحذير .

وقال الربان لمارتن : « أصغ إليَّ أيها الفتى ، إني لا أريد أن أفزع السيدة الصغيرة ولكن أهالي ماليكولا فيهم غدر وخيانة ، ومن الحقائق المعروفة أنهم لا يزالون يأكلون لحم البشر » . فتبسم مارتن ، وغمرته سعادة لم يشعر بها فيما مضى .

وقال رجل عليه سيما الأوغاد ، من مورِّدي الزنوج : « إني لا أرضى أن أذهب إلى هذه الجزيرة ولو أعطيت ألف جنيه إلا إذا كانت ورائي سفينة مدفعية ، فإن فيها نحو ٤٠,٠٠٠ من الهمج ، وقبيلة « الأرقام

الكبيرة » وهى أقوى القبائل ، لها شيخ مخيف حقاً » .

وأبى الربان أن يرسو بسفينته على شاطىء ماليكولا، وقال المورّد إن ڤاو جزيرة أصغر وأنها هى بغيتنا ، « وفيها بعثة فرنسية ، ويطوف بها دائماً زورق بريطانى ، غير أن هناك نحو ٤٠٠ من الهمج ، وقد سمعت أنهم لا يزالون يأكلون لحوم البشر » .

ونزلنا فى جزيرة ڤاو ، ونحن نعلم أن فى وسعنا أن نمضى منها بسهولة إلى ماليكولا. ورحب بنا الأب برين ترحيباً صادقاً وإن كان لا يخلو من حيرة ، وحدثنا هذا الرجل الطيب الذى ظل يعمل وحده بين المستوحشين فى هذه الجزيرة نحو ثلاثين عاماً ، عن الفظائع التى لا تزال ترتكب حتى فى جزيرة ڤاو . أما جزيرة ماليكولا ... وألقى إلى مارتن نظرة عتب . وشر من ذلك أنى رأيت أن مارتن نفسه بدأ يخاف علىّ ، علىّ أنا دائماً !

وجاء المساء بأصوات الطبول التى يقرعها الأهالى فى الأدغال ، وأشار الأب برين من نافذة كوخه ، فرأينا على حافة الأرض المكشوفة رجالا يحدقون فينا ، وكانت وجوههم السود من كثرة التشقق وفرط القبح، بحيث يصعب على الإنسان أن يصدق أنهم رجال .

فسألت هامسة : « ما هذا الذى فى أنوفهم ؟ »

فقال الأب برين: «عظام.عظام بشرية» .

فردّنى مارتن عن النافذة ، وقال : « لست أستطيع يا حبيبتى أن أخاطر باستصحابك إلى جزيرة ماليكولا، وستكونين هنا فى أمان مع الأب برين » .

فاستشطت غضباً ، وزايلنى الخوف وقلت: « إذا ذهبتَ فسأذهب معك يا مارتن جونسون ! هذا ما جئت من أجله » .

ووضع القسيس الطيب تحت تصرفنا زورقاً طوله ٢٨ قدماً ، وخمسة من فتيان ڤاو من الذين يمكن الاعتماد عليهم . وفى الصباح التالى، وضعنا آلات التصوير والسلع التى أعددناها للتبادل التجارى فى الزورق ، ورفعنا قلوعهُ الصغيرة وقصدنا إلى جزيرة ماليكولا .

ورسونا فى خليج تانمارو على شاطىء مهجور رمله الأصفر يزيغ البصر ، وهو يحاذى الغابة الكثيفة ، وشرع الغلمان يخرجون السلع من الزورق، وتولى مارتن بنفسه إخراج آلة التصوير السينمائى النفيسة .

وبرز فجأة من الغابة أحد المستوحشين وكان أسود كالفحم ، وعلى حال من القذارة لا يصدقها العقل، وشعره متلبّد ولحيته كثة وفى أنفه عظمة ، وهو عريان فيما خلا

مئزراً من الألياف ، وتكلم بصوت أجش ، وأدهشني أنه استعمل بضع كلمات إنجليزية : « أيها السيد ! إن بطني تمشى كثيراً » وضغط معدته بيديه .

فنظرت إلى مارتن وأنا لا أكاد أصدق ، فقد جئنا إلى ماليكولا ونحن نتوقع أن نرى همجاً متوحشين سفاكين ، فإذا بنا نلتقي زنجياً متأوهاً موجع البطن ! فكدنا نقع من الضحك ، وفتحت لفافة وأخرجت منها بعض أقراص من الكاسكارا . وأومأ إليه مارتن أن يأخذ بعضها عند الغروب والباقي عند طلوع الشمس ، فأصغى إليه الزنجي ثم بلع الأقراص كلها دفعة واحدة .

وفي أثناء ذلك خرج من الغابة كثيرون من الأهالي الأصليين ، وكلهم فظيع المنظر إلا أنهم على ما يظهر لا ضير منهم . وأعد مارتن آلة التصوير — وقد أهملوها بعد أن ألقوا عليها نظرة عارضة — وبدأ يضع الشريط . وكنت أرى أنه يقيسه بعناية .

وكان الأهالي يلغطون وهم ينصرفون . وقال لي مارتن ، وكان يفهم قليلا من لغة أهل هذه الجزيرة : « إنهم يقولون إن شيخهم هناك في الغابة ، فإذا استطعنا أن نصوره فإن الرحلة تكون قد نجحت » .

فقلت وأنا أتكلف الهدوء : « سآخذ بعض السلع وأذهب إليه » وأخرجت شيئاً من الطباق والقماش ومضيت به إلى الغابة .

« انتظري يا أوزا ! لا أستطيع أن أخاطر وأنت معي ! وسأعود غداً وحدي ! »

فواصلتُ السير فصاح بي : « حسن إذن ، فانتظريني » .

ومضينا معاً ، وخلفنا ثلاثة من غلماننا ودخلنا في الغابة ، وجعلنا نتعثر في الطريق المظلم الذي تزلُّ فيه القدم من الوحل والنباتات الزاحفة المبتلة . وكان الهواء في هذه الأرض الغميقة ثقيلا رطباً فثقلت وطأته على صدورنا . ثم بدأنا نصعد ، وكان المرتقى حاداً ومكسواً بالعشب والقصب الجاف ، ولا بد أن نكون قد ارتقينا نحو ألف قدم . وكانت أنفاسي كالسكاكين في صدري ، وإذا بنا نصل فجأة إلى رقعة مكشوفة رأيت منها خط الساحل الأصفر وزورقنا ، وكان يبدو كأنه نقطة على حافة الماء .

وسمعنا وقع أقدام فاستدرنا ، فرأينا نحو عشرين من الأهالي وراءنا ومعهم البنادق ، ورأيت وجه مارتن يتصلب ، وقال لي بصوت خافت : « لا تدعيهم يرون انك خائفة . ألقي ما معك من السلع وارجعي على مهل ، وسأشغلهم أنا بآلة التصوير » .

فدرت لأفعل كما أشار ، ولكن الطريق كان قد سده نحو مئة من المتوحشين المسلحين ، وتأدى إلينا من ناحية ما في الغابة

قرع الطبل الخفيض ، ووقف غلماننا الثلاثة مسمّرين من الفزع .

وظهر على حافة الغابة شخص بدا من فرط الفظاعة جليلا ، وكان كغيره ليس عليه سوى خرقة ، وفى أنفه عظمة ، وكان كل ما فيه يدل على القوة والبأس : قامته المديدة ، وكتفاه العريضتان ، وفكه ، وكانت عيناه تنطقان بالذكاء وقوة الإرادة والدهاء ، فأدركت أن هذا هو الرئيس .

وكان يحدق فينا وهو يقبل علينا متمهلا وأدهشني أن أسمع صوت آلة التصوير وهى تدار ، فقد كان مارتن يصور الرئيس وهو مقبل .

فقال بصوت بطىء هادىء : « تذكرى يا حبيبتى ما قلت لك : لا تظهرى الخوف . اكشفى عن السلع » .

فتكلفت ما رجوت أن يكون ابتسامة ودّ ، وكان ناجابات الرئيس ، مقبلا علىّ ، فقلت : « أهلا بك يا مستر ناجابات » ومددت يدى ببعض الطباق ، فلم يكد يعنى بالنظر إليه . فقال مارتن : « جربى القماش . إذا فزنا برضى الرئيس ، فإن كل شىء يكون على ما يرام » .

ورأيت أربعة خواتيم على يدى ناجابات أحدها له طغراء واضحة ، فسرت رعدة فى ظهرى . أتراه ينزع الخواتم من أصابع ضحاياه قبل أن يطبخهم أو بعـد ذلك ؟

وقلت بصوت عال : « هذه قطعة من قماش حسن جداً » . ونشرت القماش الأحمر اللمّاع . فمد ناجابات يده ، ولكنه لم يتناول القماش بل أمسك بذراعى ، فأحسست أن يده جلد جاف .

وجاءنى صوت مارتن الهادىء ، وأنا فى هذا الفزع ، يقول : « لا تخافى يا أوزا . فكل ما فى الأمر أنه مستغرب » .

والظاهر أن بياض بشرتى حير هذا الزنجى الضخم ، وقد حاول وهو يتمتم أن يمسح البياض بإصبعه ، فلما لم ينفع ذلك ، التقط عوداً من القصب الخشن وحك به جلدى ، وبدت عليه الدهشة لما احمرت البشرة . ونزع قبعتى عن رأسى ، وحيّره شعرى الأصفر ، ففرّقه وجعل يتأمل جلدة رأسى ، ثم شد الشعر بقوة ، وأدارنى وثنى رأسى ونظر إلى قفاى .

وكان زوجى يدير آلة التصوير فى أثناء ذلك بغير تفكير ، فتقدم ودخل بينى وبين ناجابات متكلفاً الابتسام ، وتناول يده وصافحه بحرارة . ويظهر أنّ المصافحة كانت شيئاً لاعهد به لهذا القيصر الأسود ، فنظر إليه شزراً .

وألقى مارتن إلى هذا المتوحش الملوكى مثل نظرته ، وقال لى عرضاً : « ارجعى من

الطريق مع الغلمان ، وسأتبعكم » .

على أن ناجابات لم يكن هذا ليصرفه عنى ، فلما درت لأمضى ، أخذ يدى وهزها كما هز مارتن يده ، فتنفست الصعداء لما بدا لى أنه توديع مودّة ، حتى لقد ضحكت وهززت يده بحرارة ، ولكنى لما حاولت أن أسحب يدى شد عليها ، وشرع على سبيل التجربة ، يقرصنى ويدفع أصبعه فى بدنى . فرددتُ صرخة كادت تندّ عنى ، ونظرت إلى مارتن وبى من الجزع ما بى . وكان وجهه ممتقعاً ، وقد ارتسمت عليه ابتسامة ثابتة .

ثم فك إسارى فجأة . وأصدر ناجابات أمراً فارتد المتوحشون إلى الغابة ، وبدا لنا أننا فزنا . وأمر مارتن الغلمان أن يحملوا أشياءنا ، واندفعنا إلى الطريق — فأمسك بى من الخلف ، فكأنه عبث قط بفأر .

وصاح بى مارتن أن أتذكر مسدسى ، ولكنى كنت فيما يشبه الإغماء ، وكان كل ما أعرفه على وجه غامض ، كأنى فى كابوس ، أنى أجرى القهقرى إلى الغابة . فصرخت مرة وأخرى وثالثة ، ثم أطلق سراحى فجأة ، وانقطع صوت الطبل ، ووقف الأهالى ينظرون إلى الخليج . فتبعت نظرة ناجابا فطنت إلى ما أسكتهم ، ذلك أن زورقاً مسلحاً بريطانيا كان يدخل الميناء .

وتخلص مارتن من آسريه وواجه ناجابات ، وصاح مهدداً : « سفينة حربية ! سفينة حربية ! » وكانت إشاراته تنبىء أن زورق الحراسة قد جاء من أجلنا . فعبس ناجابات وبه بعض الشك ، ثم انسحب ومعه رجاله إلى الغابة .

ومشينا إلى أن غبنا عن نظر ناجابات ، ثم انطلقنا نعدو منحدرين ، وكنا نعلم أنه لا مفر من القبض علينا ثانية إذا خرج الزورق من الخليج قبل أن نبلغ قاربنا ، وتعثرنا مراراً ، ونهضنا لنستأنف الجرى .

وبلغنا فضاء مكشوفاً ، وأبصرنا زورق الحراسة يخرج على مهل ! وعادت الطبول تدق ، وتلك ولا شك إشارة بأن يعاد القبض علينا ، وكان لا يزال بيننا وبين الشاطىء غابة كثيفة ، فاندفعنا غير عابئين على الطريق الموحل الغادر ، وقد آتانا الفزع قوة ، وشدّ من متننا ، إلى أن بلغنا الشاطىء .

وجرّنا غلماننا إلى قاربنا حين برز رجال ناجابات من الغابة . فتهافتُ فى قاع الزورق ، ولما استطعت أن أرفع رأسى مرة أخرى كنا قد خرجنا بسلام إلى البحر .

وبلغنا ڤاو فسرنا أن نجد أننا جميعاً — وفى جملتنا الغلمان — قد تشبثنا بكل قطعة من أجهزتنا ، وبمعظم السلع التى كانت معنا ، وأن آلة التصوير والشريط لم يصبهما سوء .

وكانت الصور التى فاز بها مارتن هى التى نحتاج إليها لنتم شريطنا الذى يصور حياة هؤلاء الأهالى . وكان وجه ناجابات القطب يرسل الرعدة فى أبدان أبناء الحضارة ، حين عرض عليهم الشريط بعد ذلك بشهور . وبلغ من نجاح محاضراتنا وعرض هذه الصور فيها ، أن اعتزم مارتن أن يعود إلى ماليكولا ليحصل على تسجيل أوفى لهؤلاء المتوحشين.

ولكنا فى هذه المرة نزلنا فى ڤاو بأجهزة وافية موضوعة فى ٦٥ حقيبــة وصندوقاً ، واستأجرنا ثلاثة زوارق بحارتها مسلحون لمرافقتنا إلى خليج تانمارو ، وقال مارتن : « عندنا فى هذه المرة بضع مفاجآت للشيخ ، أليس كذلك ؟ »

وأقبــل نحو عشرين من رجال الشيخ على الشاطىء حين نزلنا ، وكان على رأسهم ناجابات . ومن الغريب أنه أصبح فى نظرى شخصية للتصوير السينمائى لا متوحشاً ، وأن الفزع منه ذهب عنى لسبب ما ، فاندفعت أنا ومارتن لمصافحته ، وبدت الحيرة على هذا الشيخ المتوحش، ولكنه رأى أننا لا نمسك فى قلوبنا حقداً عليه ، فانبسطت أساريره ، وربّت على صدره ، وأشار إلى زوارقنــا ، فأدركت أنه يريد أن يركب فيها ، فدعوته فركب هو واثنان من رجاله ، وكان عجيباً منه أن يفعل ذلك لأنه صار فى أيدينا .

ولما صاروا فى الســفينة أطعمتهم خبزاً مقدّداً وسمكا محفوظاً ، فتقبلوا ذلك بغــير احتفــال . والواقع أنهم كانوا يتكلفون الفتور وعدم الاحتفال فى كل شىء . ولما انصرف ناجابات ، تلقى هدايانا من الطباق والقماش والسكاكين ، وقبعة عالية دون أن يلقى عليها نظرة .

وفى مساء اليوم التالى ، بعد أن اجتذبنا إلينــا جمهوراً كبيراً من المتوحشين بأن نشرنا أمامهم بضاعتنا ، أريناهم الصور التى أخذناها لهم فى الرحلة السابقة . ولما خرج شــعاع النــور الساطع من آلة العرض فى الظلام ، همهم الأهالى وتراجعوا ، فتناولت ذراع ناجابات بقوة ، وجلست على الأرض أمام الشاشة ليفعل كما فعلت ، فتبعنا المتوحشون وهم يتلاغطون بشدة .

ولما ظهر وجه ناجابات على الشاشة ارتفعت ضجة عظيمة ، وصاحوا : « ناجابات ــ ناجابات ناجابات » وأشار مارتن طالبــاً الضوء للتصــوير ، ولمحت ابتسامة الاغتبــاط على ثغره وهو يدير آلة التصوير ويصور ما امتزج على وجوه السود من الخوف والدهشة ، وكان كل متوحش ظهر فى الصورة جالساً مع النظارة ، وكانوا كلما ظهر منهم واحد على الشاشة يصيحون باسمه ويضحكون . ثم صارت ضجة الضحك همساً خفيضاً حين ظهر وجه

رجل مات قبل عام. وامتلأت قلوبهم رهبة، فإن «سحر» مارتن قد أخرج ميتا من القبر!

وبعد هذا رأينا تغيراً واضحاً في موقف المتوحشين حيالنا، وذهب الإحساس بالغدر، وصاروا يحتشدون حولنا في سكون واحترام. على أنه كان من الجلي أنهم كانوا ينتظرون حدوث شيء آخر. ودل البحث على أنهم يطلبون الطباق ثمناً لمشاهدتهم الصورة

ودعانا ناجابات إلى زيارة قريته، فذهبنا ومعنا ثلاثة من الرجال البيض و ٢٦ من الأهالي الموثوق بهم، وكلهم مسلح، وقضينا أسبوعاً في «مملكته»، صور مارتن في خلاله كثيراً من مظاهر حياة القوم في قريتهم. وبعد ذلك قضينا عدة شهور نطوف بساحل ماليكولا، ونرتادها هي والجزر الصغيرة القريبة منها. وقد وقفنا على كثير من عادات المتوحشين، ورأينا بيتاً مقدساً فيه سلال ملأى بجماجم آدميين، مكومة كأنها ليمون هندي أسود، على حين كانت بعض الجماجم تتدلى من السقف. ورأينا فتاة دائمة الصراخ وقد أطار الألم لبها، لأن ساقها ثنيت على فخذها وربطت به وبينهما حجراً أبيض محمي، وكان زوجها قد أمهرها ٢٠ خنزيراً، وذلك أغلى مهر، ففرت منه مراراً! وشهدنا احتفالا حول نار عليها أعضاء من جسم إنسان تشوى!

وقد أورثتني هذه الشهور الثمانية التي قضيتها بين آكلي لحوم البشر، حنيناً إلى الوطن لا يغالب، وتلهفت على الأشياء المألوفة، وعلى رؤية قومي — وعلى الماء الحار والصابون. وكذلك كان مارتن.

غير أنا بعد أن لبثنا في الولايات المتحدة بضعة شهور، وصار نجاح شريطنا الثاني «آكلو اللحوم في البحار الجنوبية» مضموناً، خرجنا إلى بورنيو لنصور المتوحشين صيادي الرءوس فيها. وقد استنفدنا ٥٠٠٠٠ قدم من الشريط في هذه الرحلة، وقرر مارتن أن يعرضها على أنها درس صادق لبورنيو، أهلها وحيوانها وكل ما فيها.

ولما عرض هذا الشريط في أمريكا، عينا أعضاء في نادي الرواد، وعرض المرحوم كارل إيكلي العالم الكبير والمثال ومدير متحف التاريخ الطبيعي، اقتراحاً صار موضوع عملنا سنوات فيما بعد.

قال إيكلي: «إن لك مهمة عظيمة القدر يا مارتن — مهمة أعظم حتى من مهمتي.»

فحدقت فيه أنا ومارتن غير فاهمين.

ومضى إيكلي في كلامه فقال: «لقد جعلت مهمتي أن أخلد حياة الحيوان المتوحش الذي يبيد وينقرض في البرونز، وأن أحصل على نماذج للمتحف. وأنت تفعل هذا

بتصوير شريط يراه ملايين فى العالم كله » .

ودارت أحاديث طويلة عديدة مع إيكلى ، أنتجت مشروعاً لتصوير شريط لحياة الحيوان المتوحش فى بيئته الطبيعية ، وقال إن إفريقية الشرقية البريطانية هى خير بقعة لذلك .

وهكذا بعد عدة شهور قضيناها فى جمع المعدات ، أبحرنا إلى ممباسا ، ذلك الثغر الحار فى إفريقة الشرقية البريطانية ، ومن هناك أرسلنا حقائبنا وصناديقنا وأقفاصنا الخمسة والثمانين بالسكة الحديدية إلى نيروبى التى اتخذناها مقراً لنا . وفى نيروبى قابلنا بلينى بيرسيفال الذى ظل عشرين سنة حارساً للصيد فى إفريقية الشرقية البريطانية ، فهو يعرف كل أصناف الحيوان وعاداتها ، والأرض التى تغشاها ، وكان كريما جاد علينا بعلمه ووقته ، وأخبرنا ببحيرة قصية ، من المحقق أن يكثر فيها الحيوان لبعدها .

فكاد مارتن يطير عقله من فرط التأثر وصاح : « هيا بنا ! لماذا نضيع الوقت فى أى شىء آخر ؟ » .

فتبسم بلينى وقال : « إذا كنت عاقلا فإنه يحسن بك أن تقوم برحلات تجريبية قبل أن تقدم على هذه ، فإنها تحتاج إلى استعداد دقيق . والبحيرة تقع فى منطقة مجهولة قرب الحدود الحبشية على مسافة ٥٠٠ ميل ، والطريق خطر ، ثم إنها ليست رحلة تشترك فيها امرأة » .

فكدت أنفجر وقلت : « ليست رحلة تشترك فيها امرأة ! عدنا إلى هذه الحكاية ! »

ولكنا قبلنا بقية رأيه ، وقمنا بعدة أسفار على سبيل التجربة قبل أن نشرع فى الرحلة الطويلة شمالا فى صحراء كايسوت إلى الأرض المجهولة على حدود الحبشة . وقد حملنا مؤننا على مركبات تجرها الثيران مسافة ٢٠٠ ميل إلى ميرو ، ثم انتقلت إلى ظهور مئة من الحمالين . وقد استأجرنا سبعين من هؤلاء الحمالين من الجبال القريبة من ميرو ، وكلهم أبطال مفتولو العضل على رءوسهم أكسيتهم المزدانة بريش النعام الفاخر ، وعلى وجوههم صبغة الحرب من لونين أحمر وأزرق . وقد دهشت واضطربت قليلا حين رأيتهم أول مرة حافين بنارنا .

وقضى ركبنا ليلة ونهاراً فى عبور نهر من الحمم الجافة . وكانت المقذوفات البركانية المتجمدة حادة كشظايا الزجاج المحطم ، فمزقت أحذيتنا المتينة ، وقطعت أقدام الحمالين الحفاة ، وكانت الشمس حامية تشوى الجلد ، والهواء جافاً لافحاً ، فاحترق جلدى ، وتأذت عيناى ، وأحسست بمثل قرع الطبل فى رأسى . وكان الزنوج قد تجاهلوا أوامر مارتن فأهملوا أن يملأوا مزاداتهم ، فجعلوا

يطرحون ما يحملون. فأصدر مارتن بكرهه أمراً أن يجلدوا بالسياط إذا تطلب الحال ذلك، فكاد كثيرون منهم يجنّون من الظمأ ووجع الأقدام قبل أن تنتهى المحنة، ولكنهم جميعاً خرجوا أحياء.

وبعد أن اجتزنا هذه المنطقة استرحنا أسبوعاً عند نبع ماء حتى يتماثل البعض، ويرجع البعض الآخر ليجيء بالأحمال المطروحة. ثم مضينا إلى أرض وحيد القرن، وبدأنا نرى كثيراً من الوحوش الدميمة التى لا سبيل إلى التكهن بما عسى أن يكون منها، حتى لقد سئمت تصويرهم، ولكنا شاهدنا ذات يوم حيواناً جميلا فى وضع بديع، وكل ما حوله من المناظر وما عليه من الضوء، على ما يرام، فنصب مارتن آلة التصوير وتركها لى، فبدأت أديرها حين أشار.

وهمس: «استمرى فى التصوير مهما حدث». ومضى غير مبال فاقترب من الوحش الذاهل، وفى هذه اللحظة خرج كركدن آخر من وراء صخرة كانت تستره وهجم الاثنان.

وكان مارتن طويل الساقين خفيف القدم، ولكنه كان يخيل إلىّ أن من المستحيل أن ينجو، فقد كانا فى إثره حين بدأ يعدو أمام آلة التصوير، ثم انعطف فجأة، وظل الوحشان المزمجران مندفعين فى طريقهما، فنجا، وكنت أرتجف وتصطك ركبتاى.

وقال مارتن مغتبطاً: «أظن أن هذه أبدع صورة لوحيد القرن وهو يهجم».

وخيل إلىّ أنى ضيعت ثقته، فقد أهملت أن أدير الآلة. فقال: «فى المرة التالية، خذى الصورة ولا تهتمى بى».

وعند حافة صحراء كايسوت وجدنا بوكولى، وهو زنجى هرم نحاو، ساقاه منسلقتان وفكه غير مستو، وقد برز لنا من لا شىء، وأعرب عن رغبته فى الانضمام إلى ركبنا. وكان له سمت غريب، وبه ثقة بأنا أحوج إليه منه إلينا، فألحقناه برحالنا، وصاروا يدعونه «أخا الفيلة الصغير»، والحق أنه كان فيما يتعلق بالفيلة حاذقاً بصيراً إلى مدى يتجاوز مجرد المعرفة.

وصار هذا الرجل الغريب الصغير الجسم ظلاً لمارتن، ولما سأله مارتن عن البحيرة المجهولة على الناحية الأخرى من الصحراء بدا كأنه لا يفهم، ولكنه كان خبيراً بالصحراء فجازها بنا بأقل ما يمكن من المشقة. وقد لبثنا أياماً نسير وراء هذا الدليل العتيق فى أرض شديدة الوعورة، وقضينا يوماً آخر نصعد فى مرتقى، وإذا بنا فجأة فوق هضبة عالية تطل على أجمل بحيرة رأيتها فى حياتى.

والبحيرة عرضها ربع ميل وطولها

ثلاثة أرباع الميل، وهى فى وسط بركان خامد، ولها شاطىء من الحمم الجامدة يمتـد إلى الوراء نحو ١٠٠ قدم إلى حافة مرتفع كثير الشجر يبلغ علوه مئتى قدم . وعلى حافة الماء ألفاف من الكروم والدوالى المائية، وأزهار إفريقية الكبيرة الزرق . وكان البط والكراكى وغيرها من الطيور تحوم وتنزل إلى الماء، والحيوانات — وهى أكثر من أن تحصى — واقفة ساكنة، والماء إلى ركبها، وهى تشرب .

فقلت : «هى الفردوس يا مارتن !» فهز رأسه موافقاً. وهكذا سميت بحيرة الفردوس.

وضربنا خيامنا على مرتفع مشرف على البحيرة، وكانت أصوات الفيلة تجىء من كل ناحية وتمزق السكون، وترجّنا ونحن جلوس تحت سقف الخيمة الرقيق، بل لقد كنا نسمع تقصّف الشجر إذ تحطمها الأفيال لتصل إلى الأكمام الغضة فى القمة .

وفى صباح اليوم التالى ونحن نفطر، وضع زوجى خطـة لتسجيل حياة الفيـلة تسجيلا تاماً . وقال فى حماسة : « إن هذا المكان هو وطنها . ولقد تركتنا ندخله » .

وأقمنا ثلاثة شهور على بحيرة الفردوس . كانت آثار أقدام الفيلة، وهى ترجع على ما يظهر إلى عدة قرون، تتقاطع فى الغابة العـذراء بمثل نظام الشوارع فى المدن؛ وقد ارتدناها فوجدنا أنها تؤدى إلى البحيرة وإلى الأرض المعشـبة، وإلى الصحراء والسهول وينابيع الماء، وأن حركة الحيوان تعظم أو تفتر بحسب الفصـول، ففى الجو المطير البارد تتجه الأفيال إلى الصحراء والسهول، وفى الجو الجـاف الحار ترتد إلى الغابة والبحيرة .

ولما جمعنا قافلتنا لنعود إلى نيروبى كان ما معنا من الأشرطة والمال قد نفد أو كاد، وكان الإعياء قد حل بنا، ولكن مارتن فكر فى خطة سرّتنى وأذهلتنى . ذلك أنه اعتزم أن يرجع ويقضى أربعـة أعوام على بحيرة الفردوس بعد أن يعدّ مالا كافياً وأجهزة وافية، فيها أحدث آلات التصوير ليصور حياة الوحوش كلها فى هذه المنطقة .

وعدنا إلى الولايات المتحدة، وذهبنا لنقابل جورج إيستمان مدير شركة كوداك وفى مرجونا أن نفوز بمعونته . فاستمع إلينا خمس دقائق بسطنا فيها فكرتنا أسوأ بسط، ثم ألفينا أنفسنا نشيَّع إلى الباب فى لطف . وقد لبثنا وقتاً طويلا بعد أن ركبنا القطار إلى نيويورك مكتئبين، غير أنى وثبت إلى قدمى لما بلغنا ألبانى وقلت له : « تعال » ونزلت من القطار قبل أن يلحق بى مارتن.

فسأل متذمراً : « لماذا ننزل هنا ؟ إننا لا نعرف أحداً فى ألبانى » .

قلت : « سنعود إلى إيستمان . أقل ما فى الأمر ، أن لا يهمل الموضوع قبل أن يعرف ماذا يهمل » .

فقال مارتن : « سيعتقد أننا خبنا . وأراهن أنه لن يسمح لنا بمقابلته » .

ولكنه سمح . ولما صرنا مرة أخرى فى مكتبه زايل مارتن اضطرابه واستعاد سكينته ، وصار كما كنت أراه حين يهجم على آلة التصوير لتصوير أسد أو كركدن .

وقال زوجى : « إنى لا أحسن الكلام فما له قيمة عندى ، وأحسبنى لم أبين أن ما أردته هو أن أحملك على الاهتمام بفكرة تصوير شريط متحرك لحياة الحيوان فى بحيرة الفردوس ، لا بمجرد مسألة مالية » .

فهز إيستمان رأسه قليلا . وأدليت بدلوى فقلت : « إننا نعرف أن لديك طرقاً عديدة تكسب المال وليست بك حاجة إلى اقتراح منا » .

وبدا لى أن إيستمان يحاول أن لا يبتسم وقال : « هل لى أن أفهم أنكما لاتعدانى بربح ضخم على المال الذى أستثمره فى مشروعكما؟ »

فهز مارتن رأسه وقال : « كل ما أعد به هو أن أرد إليك مالك بفائدة اسمية . إن تكاليف ركب كبير يقضى أربعة أعوام على هذه البحيرة ، ستكون عظيمة . ولا يمكن أن يفكر فى مساعدتى إلا رجل يقدر الفكرة ولا يحمل عينه على الربح » .

فنهض إيستمان ومضى إلى النافذة وهو يقول : « لا يسعنى إلا أن أقول إنى معجب بصراحتك يا مستر جونسون . وأنا أحب الرجل ذا الأحلام وذا الإقدام على محاولة تحقيقها » . ثم قال بغتة : « سأضع ١٠٫٠٠٠ ريال فى مشروعك ، ولك أن تستخدم اسمى للحصول على مبالغ أخرى » .

واستطعنا بفضل معونة إيستمان السخية أن نحصل على مساعدات نفيسة أخرى .

وفى إبريل سنة ١٩٢٤ كنا نتملى مرة أخرى بجمال بحيرة الفردوس التى تخطف الأنفاس ، وكان معنا كل ما يمكن أن نحتاج إليه . فكان عندنا ست سيارات وأربع سيارات نقل ، وخمس مركبات ، و ٢٣٥ زنجيًّا ــ بل لقد كاد مقدار مؤننا يكون علة إخفاق . فقد تعطلت سياراتنا ومركباتنا مرات فى الطريق من نيروبى وطوله ٧٠٠ ميل ، واضطررنا ونحن نتصبب عرقاً ونتذمر أن نجاهد لنقطع كل شبر من الأرض .

وبعد ساعتين من وصولنا بدأت « الأمطار الكبرى » التى كنا نخافها . ولم يكن يخطر لى أن المطر يكون بهذه الغزارة ، ولم تستطع خيامنا أن تحمينا من هذا الطوفان ، وكان رجالنا لا مأوى لهم ، فهم تعساء ، وعلى الرغم من ذلك أسرعنا فى إقامة المبانى الدائمة وفى جملتها معمل وحجرة

مظلمة لمارتن . وقد بنيناها من كتل الخشب وقويناها من الخارج بخليط من الجلة والطين ، وغطينا سقفها بالحشائش الجافة .

ثم أقمنا على الأيام بيوتاً للضيوف ، وأكواخاً لرجالنا، وأحطنا مبانينا وحدائقنا وسياراتنا ومركباتنا ودجاجنا وحميرنا وأبقارنا وجمالنا بسياج ارتفاعه ١٣ قدماً .

وغرستُ حديقة وأخرجت محاصيل حسنة من الفول والحمص والذرة والبطاطس والبطيخ ، ولكنى كنت أكثر استطابة للبقول البرية مثل الهليون البرى والسبانخ والتوت الأسود البرى ، وعين الغراب ، والفاكهة ، ونوع من العسل أسمر غاية فى الحلاوة . وهذه هى إفريقية المظلمة !

وفى أثناء مقامنا على بحيرة الفردوس كانت الفصول وحدها هى التى تعين لنا الوقت وتوجه عملنا . فنى موسم الأمطار حين يتوافر الماء فى الصحراء والسهول ، كنا نخرج لتصوير الغزلان والوعول والزرافة ، والحمار الوحشى والحلوف البرى . فإذا جف الجو ذهبنا إلى عيون الماء الكثيرة والغابات، وصورنا شريطاً للبقر الوحشى ووحيد القرن والفيل .

وكان رائدنا الملتوى الفك الصغير الجسم بوكولى ، يعرف عن الأفيال أكثر مما يعرف أى زنجى فى إفريقية ، ولم تكن أساليبه مقنعة فى البداية ، لأنه كان يتمتم وهو يمشى وكأنه نصف نائم . ولكنا ما لبثنا أن وثقنا به ثقة عمياء ، ولقد رأيته يشم ريح الحيوان فلا يخطىء كأنه كلب صيد . وكان يعرف من الزاوية التى تكون عليها ورقة مفردة من أوراق النبات ، منذ كم داستها قدم الفيل الثقيلة الوطأة . ويظهر أن الورقة إذا ديست واستوت بالأرض ، تحتاج إلى نحو ثلاث ساعات لتعود فتقف معتدلة ، فللزوايا المختلفة بين الحالين دلالة دقيقة على الوقت .

وكان الغصن المثنى ينبىء هذا الرجل العجيب بمرور قطيع منذ وقت يصل إلى خمس دقائق ، ويدله على الاتجاه الذى سار فيه ، فإذا عجز عن الاهتداء إلى آثار الفيلة هز رأسه هزة فلسفية وقال إحدى ثلاث عبارات : « شاورى أكو » ، من عمل الإنسان، أو « شاورى مونجو » ، من عمل الله ، أو « شاورى مفووا » ، من عمل المطر .

ومتى رأى بوكولى لسبب من هذه الأسباب أن الأحجى بنا أن نعدل عن العمل فى يومنا ، فعلنا كما يرى .

وقد استطعنا لكثرة رؤيتنا للفيلة فى السنوات التى أقمناها على بحيرة الفردوس أن نعرف السر فى إجلال بوكولى لها . فإن هذا الحيوان الوقور المحافظ الذى يعنى بشئونه ، ولا يدخل قط فى شئون الحيوانات

الأخرى، وقلما تقتتل الفيلة، وفيها بالغريزة ولاء للجماعة، وهي تعنى عناية كبيرة بصغارها.

وكنت أنا ومارتن نحب صغار الحيوان من كل نوع، ولكن صغار الفيلة كانت أقواها استيلاء على قلبينا. وقد رأينا فيلا صغيراً تقوده أمه إلى عين ماء للمرة الأولى على ما يظهر، وكان اليوم قائظاً جداً، والفيل الصغير يتلكأ خلفها ويغمغم ويتذمر فنفد صبر أمه، وأمسكت بأذنه ووضعته تحت قدمها ورشته بالماء، ثم نهض وهو لا يزال يغمغم وفمه الأحمر مفتوح فأحس بالانتعاش والسعادة، فتناول بخرطومه ذيل أمه كما يتناول الطفل يد أمه، ووقف راضياً مغتبطاً وهي تشرب.

واتفق ذات يوم ونحن في الغابة أن رأينا أربع أمهات يعقدن ما يشبه مدرسة لتعليم فن التصويت لدعوة الصغار، فكانت كل أم ترفع خرطومها وتطلق صوتاً قوياً، ثم يحاول الفيل الصغير أن يقلدها فلا يخرج إلا صوتاً هزيلا، فأغرانا بالضحك ما رأينا من خيبة أمل الأمهات وخجل الصغار، فقهقهنا، فانفضت المدرسة مذعورة.

وفي كل السنوات التي اتصلنا فيها بالفيلة لم نقتل سوى واحد، وذلك أننا كنا قد وجهنا آلة التصوير إلى قطيع متقارب في أرض فضاء والصغار تلعب حول الكبار.

وكنت عادة أثير الحيوان لتحدث حركة، ولكن في هذه المرة لم يكن ثم ملجأ نعدو إليه إذا وقع هجوم، وأصر مارتن على أن يقوم هو بمهمتي وأن أقوم أنا بمهمته وراء آلة التصوير، فمشى على مهل إلى القطيع، فرآه أكبر الفيلة، ففزع، ونشر أذنيه، ورفع خرطومه وهجم.

فذهب مارتن يعدو. وكنا كثيراً ما وقفنا مثل هذا الهجوم بأن نصيح ونلوح بأذرعنا، ولكن هذا الفيل أبى أن يعدل، فجعل مارتن يحاوره وينثني راجعاً، وينعطف، ولكن الفيل كان يتابعه في كل حركة ودورة، ويزداد اقتراباً منه، وأخذت بقية القطيع تجري وراء قائدها. وواصلت أنا التصوير تنفيذاً لاتفاقنا، ولكني واصلت الصياح والصراخ أيضاً. وكان جانب من عقلي يقول لي: إن هذه ستكون صورة بديعة، وجانب آخر يقول لي: إن مارتن سيداس حتما إذا أنا لم أقتل الفيل الزعيم. فأخذت بندقيتي من حاملها وأطلقتها. ولست أتذكر أني عنيت بالتسديد فاضطرب الفيل الكبير وارتمى على الأرض، وفزعت الأفيال الأخرى فدارت وراحت تعدو.

وأخيراً أغلقنا بيوتنا المحبوبة على بحيرة الفردوس وعدنا إلى الولايات المتحدة لنشر صورنا، ولكننا ما كدنا نفرغ حتى رجعنا

إلى إفريقية ننشد الأسود فى هـذه المرة .

الأسود ! لقد عشنا معها عاماً فى « عرين الأسد» وهى رقعة مساحتها ٥٠٠ ميل مربع فى منطقة تنجنيقة. وكنا نعمل مع الأسود ، ونأكل وننام وزئيرها حولنا من كل ناحية . وجاء وقت كنا نخاف فيه هذه القطط السمر الكبيرة ، ولكنا أحببناها أخيراً .

والأسد حيوان لطيف جداً على الأكثر ، وهو يجوب ، وينام كثيراً ، ويغريه مزاجه باللعب كقطة البيت ، ويعنى بشئونه دون شئون غيره ، ويحب أسرته ، ويؤدى واجباته كحام للأسرة وعائل لها ، وهو فى حداثته يمشى مع الذكور الصغار من أمثاله . ويقضى الوقت فى المرح ، إلى أن يكبر فيكوّن لنفسه أسرة ، وإذا هرم وعجز عن مسايرة أسرته وأصدقائه ، نفته الجماعة ، فيروح يصطاد وحده ، وعندئذ يصبح فى الغالب « وغداً » .

والأسد يقتل ليأكل ، وفيما عدا ذلك قلما يتعرض لحى من الأحياء إلا دفاعاً عن نفسه أو إذا فزع . فإذا هوجم وجرح فإنه لا يتقهقر أبداً ، بل يقاتل ما دام فى بدنه البديع دماء ، وهو يزن من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ رطل ، غير أن هذا الحيوان الضخم يستطيع بوثبات قصيرة أن يدرك أى حيوان آخر فى السهول . ولى لطمة واحدة منه أو عضة ما يكفى للقتل .

وفى أحد الأيام قضينا العصر كله بين أربعة عشر أسـداً ، وقد اعتمدنا على قلة مبالاة الأسود بالسيارات – حتى التى تكون مكشوفة ، وركابها قيد النظر – فصورناها وهى تتلاكم لاعبة عدة ساعات . فلما تعبت نامت ، وعادتها أن ترقد على ظهورها ، وأقدامها مرفوعة فى الهواء ، وشخيرها قوى . وليس فى الوسع أن يتصور المرء جماعة من الحيوان أحسن أخلاقاً وأجدر بالحب .

ولما أدرت المحرك أخيراً وبدأت أرجع القهقرى ، رأى أسد صغير أن يعترض طريقنا ، فتحمس وتبعنا ، وكان العمل الوحيد الذى تؤمن عاقبته هو أن نقف ، لأن الأسد كغيره من فصيلة القط ، يغريه الفرار بالمطاردة . وصوب مارتن بندقيته إلى رأسه .

ونظر إلينا الأسد مستغرباً أن نقف ، غير راض عن إفسادنا عليه متعة المطاردة فتشمم عجلة ، وعضها عضة خفيفة ، وتقبض أنفه لطعمها ، ثم شرع يتناولها بفمه ويزمجر كأنه جرو يلعب بكرة من المطاط . واقتربت الأسود الأخرى ووقفت تنظر فى كسل .

وقلق زوجى وقال بحذر : « إن خرقاً بسبب العجلة الآن لا يكون شيئاً حسناً ، ثم إن الانفجار قد يطير بلبه » .

فأسرعت بالسيارة لأشغل الأسد ، وأخرج المحرك سحابة من الدخان المزعج ، واغتنمت فرصة اشتغال الأسد باستغراب رائحة الدخان فاجتزت السهل .

وقررنا أن نصور عادات الأسد ليلاً بعد تصوير عاداته فى النهار ، ليكون عندنا تاريخ مصور واف لهذا الحيوان . فأقمنا أربعة مصابيح قوية على عمد طولها ست أقدام ، ثم ثبتنا آلات تصوير أوتوماتيكية على قواعد أمام المصابيح ، وهذه الآلات يديرها سلك طويل .

وكان علينا بعد ذلك أن نقوم بمهمة ثقيلة هى قتل أحد الحمر الوحشية لنتخذ منه طعماً ، ثم نحمل الضحية إلى نقطة تبعد ١٥ قدماً عن آلات التصوير ونقعد فى السيارة على مسافة مأمونة والبندقية معدّة ، والسلك مهيأ .

وكانت الضباع أول ما يقبل على الحمار ، فإذا سددنا إليها حجراً ورميناها به بإحكام فإن هذا يكون كافياً أحياناً لتفريقها ، ولكنه كان لا يسعنا إلا أن نضربها بالنار حين تجىء منها جماعات .

وبينما كنا ننتظر ذات ليلة مظلمة باردة متراكبة السحاب ، سمعنا حركة وصوت تمزيق ، وشهقة ثم زمجرة . فأضاء مارتن المصباح الكهربائى ، وإذا أمامنا ملك أسود تنجنيقة كلها . فرفع رأسه الكبير على مهل ، وحدق بازدراء فى النور ، وكانت قطعة دامية من لحم الحمار تتدلى من فمه ، ولكن هذا المنظر على بشاعته لم ينل من جلاله .

وتهيأ زوجى لإضاءة الأنوار وإدارة آلات التصوير ، فألقى الأسد اللحم ، وزأر ثم عاد فعكف على طعامه . وانضم إليه أسود أخرى ، فصاروا جماعة شائقة المنظر ، وأخلق بصورها أن تكون بديعة .

وهمس مارتن : « هذا شىء عظيم » وضغط الزر ، فلم يحدث شىء ، فضغطه ثانية فلم نر أثراً لوميض ، فنزع الأسلاك من الزر وجمع أطرافها ، على غير جدوى .

فقال : « أحسب أنه لا يسعنا أن نفعل شيئاً آخر ، ولا بد أن أذهب وأصلح الخلل » . وغادر السيارة قبل أن يتسنى لى منعه ، وأمسكته من بنيقته وقلت وأنا أكاد أبكى : « هذا جنون » .

فكان كل ما قاله : « هاتى البندقية القصيرة » .

فطردت الأسود عن الفريسة بأن ألقيت على وجوهها أنوار سيارتنا ، وبالنفخ فى بوقها وبالصياح ، فارتدت مسافة عشرين ياردة ، واستطاع زوجى فى دقائق قليلة كنت أحس أنها الأبد ، أن يصلح الأسلاك ويعود إلى السيارة . وكنت خائرة متهافتة ، وشرع مارتن فى العمل فوراً ولكنى

كنت أرى أنه هو أيضاً يرجف قليلا .

وفرغ الأسد الملك من أكل فريسته ، فرأى أن يفحص عن آلات التصوير ، وعض إحداها على سبيل الاختبار .

فصاح به مارتن وقد خرج عن طوره كل الخروج : « اترك هذه الآلة » .

فنظر إلينا الأسد الجليل بغير احتفال ، ثم بدأ يعمل أسنانه فى المنصـة التى وضعت عليها الآلة ، فانهار كل شىء

ووثب مارتن من السيارة مرة أخرى وجعل يرميه بالحجارة ، وأقبل أسد صغير وشد الأسلاك حتى فك كثيراً منها .

ولبثنا هكذا نقذف الحجارة ، ونصيح ونطلق النار فى الهواء ، ولكن هذين الأسدين لم ينصرفا إلا بعد أن قوضا كل شىء : الأسلاك جميعاً ، والمولد الكهربائى وآلة التصوير والعمود ، ثم ارتدَّا وهما يحركان ذيلهما زهواً . وهكذا حبط سعينا للتصوير على ضوء المصابيح .

ولعل أمثال هـذه التجارب هى التى جعلتنا ننظر إلى هذه السباع الكبيرة كأنها قطط أليفـة وحملتنا على التهور قليلا . فكنا فى يوم حارّ نمشى ومعنا آلة التصوير وحملة البنادق ، فإذا بأسد نائم على مسافة ٣٠ ياردة منا ، فوثب إلى قدميه على الفور ، وردّ أذنيه إلى الوراء وهزّ ذيله ، وزمجر .

فقلت : « لست مطمئنة إليه يا مارتن » وأشرت طالبة بندقيتى فقال مارتن : « أوه ، إنه ثائر قليلا ، ولكن هـذا كل شىء » وأدار الآلة . ثم شرع الأسد وهو يغمغم ، يمشى إلينا ، وذيله يضرب جنبيه ، وعضلات كتفه القوية تختلج تحت جلدته الصفراء اللامعة ، وربض وحدق فينا بعينين تنطقان بالمقت المتلهب، ثم هجم . واستمرت يد مارتن تدير الآلة ، بغير تفكير .

ووثب نحونا — عُفرتُه منفوشة ، وأنيابه بادية — فأطلقت النار وبى ذهول ، ودون أن أكون مدركة لما أصنع . وبدا الأسد كأنه معلق فى الهواء وسقط على ثلاث عشرة قدماً من قوائم الآلة .

وكانت مغامراتنا فى بعض الأحيان مثيرة للنفس ، وأحياناً كانت كدًّا مرهقاً ، وقاسينا فى أحيان أخرى ما لا يكاد يحتمل من المصاعب . على أن جملة ما خرجنا به هو الذى كان يعنينا ، وكان من أعظم دواعى الاغتباط أن نستطيع أن نعرض حياة هذا السبع النبيل على الملايين الذين كانوا يظنون أنه وحش غادر سفاك للدماء .

وقد قمت أنا ومارتن بعدة رحلات أخرى بعد أن أتممنا تسجيل حياة الأسود ، فذهبنا إلى الكونجو البلجيكية فى ١٩٢٩ ، وهى بلاد الأقزام والغورلـّى ، ولبثنا هناك عدة شهور

وصورنا صوراً حسنة للأقزام وللغورلّى وعدنا ومعنا اثنان حيان من الغورلّى .

وفى سنة ١٩٣٢ تعلم كلانا الطيران ، فقطعنا بطيارتين جميلتين بريتين مائيتين ٦٠٫٠٠٠ ميل فوق أدغال إفريقية دون أن يقع لنا حادث لحسن الحظ ، ولم ينقض لنا عجب قط من الحرية التى منحتنا إياها طائرتانا. وكانت الجبال والأدغال والسهول منظراً مترامياً تحتنا ، وكنا نرى من الجو جموع الفيلة المهاجرة ، وأسراباً من البلشون الأبيض وزرافات لا عداد لها ، وحيوانات الصيد فى السهول ، ولا نلمحها حتى نكون قد صورناها ، وكنا نستطيع أن نهبط فى مواضع يتعذر الوصول إليها فى العادة ، ولم تطأها قدم رجل أبيض من قبل ، وأن نصل إلى أهالى قبائل غريبة نائية .

واستخدمنا إحدى الطائرتين فى رحلة أخرى إلى بورنيو ، وقضينا أربعة عشر شهراً فى هذه البلاد الحافلة بالأنهار والأدغال وصيادى الرءوس . ورحب النقاد بما صور مارتن فى هذه الرحلة وعدوه خير ما صنع ، فسرّ بهذا وسعد .

وقد كان هذا الرضى دأبه فى ما يلقيه من محاضرات وما يعرضه من صور حتى قلت له يوماً : « لكنك لا تصف لأحد مبلغ الكدّ الذى تجشمته فى الأدغال ، وكيف كنت تقف وكأنك تستحم بعرقك ساعات على أحواض التحميض ، ووراء آلات التصوير ، وآلات تسجيل الصوت المتآكلة ، أو كيف رأيت عمل شهور — ٢٠٫٠٠٠ قدم من الشريط — يتلفه العفن »

ففكر زوجى فى هذا ثم ابتسم : « لقد كانت هذه مسلاة أيضاً ، حتى مشقة العمل كانت فيها متعة »

وفى صباح اليوم التالى كنا فى المطار لنركب الطائرة الذاهبة إلى كاليفورنيا ، فتحدثنا عن شراء منزل ، وهو أمل كان مارتن يخشى أن يكون قد فاتنى تحقيقه ، فزوى ما بين عينيه وهو يفكر ويقول : « ترى ماذا يصنع المرء فى هذا الامر — أمر الأطفال ؟ »

فقلت — وكنت أتكلم بسرعة وحماسة :

« لم أكن أدرى أنك فكرت فى هذا ، ولكنى اهتديت إلى ما ينبغى عمله . وأما عن البيت فإنا نستطيع أن نشترى بيتاً صغيراً فى الريف فيه سعة كافية لحيواناتنا الأليفة »

« نعم ويستطيع الأولاد أن يلاعبوها »

ودخلنا فى طائرة الركاب الكبيرة فقال وهو يبتسم : « هذه فكرة حسنة » . ودارت المحركات ، وسارت الطائرة على المدرج ، ونظر مارتن إلى ، وهو لا يزال يبتسم . ولن أنسى هذه الابتسامة ما حييت ، فقد سقطت الطائرة وتحطمت ، وقتل مارتن .

وحيد

تلخيص كتاب

الأميرال رتشرد إ. بيرد



هذا هو الكتاب الذى تردد الأميرال بيرد أربعة أعوام فى كتابته. وهو وصف لتجربة خاصة فى القطب الجنوبى، ظل زمنا طويلا لا يستطيع أن يحمل نفسه على الإفضاء بها.

وما زال «وحيد» كتاباً من أروج الكتب وأوسعها انتشاراً منذ ظهر. وقد قالت عنه جريدة نيو يورك هرالد تربيون، إنه «من أعظم الروايات قوة، وأشدها تحريكا للنفس، وهو كتاب عظيم ينبض بالحياة».

وحيــد

أنشأت بعثتنا إلى القطب الجنوبى قاعدة للأرصاد الجـــوية سمتها قاعدة « بولنج » . وكان موقعها قريباً من مركز القطب ، فى صعيد من الجمد مترامى الجوانب مطبق الظلام ، بين قاعدة البعثة الأصلية ومركز القطب فى داخل المنطقـــة المتجمدة الجنوبية . وقد أقمت فيها وحدى أديرها طول ليالى شــتاء القطب الجنوبى من عام ١٩٣٤ ، فكانت أول محطة أقام فيها إنسان فى جوف تلك القـارة المتجمدة الجنوبية .

وكانت فكرتى الأصليـــة أنه ينبغى أن يتولى العمل فى القاعدة ثلاثة رجال — اثنان للمراقبـــة الجوية ، وعامل لاسلكى . ولكننا ما كدنا نصل إلى « أمريكا الصغرى » ، وهو الاسم الذى أطلقناه على قاعدة بعثتنا ، حتى كان شهر مارس قد انتصف ، وبدأ الشتاء يُقبل . وكان من جراء ازدياد البرد واشتداد العتمة ، ووجود ثغرات خفية فى كتلة الجليد ، أن صار الزحف إلى الداخل خطراً . وأرسلت جماعة تقدمتنا بالجرارات لإقامة قاعدة فى جوف المنطقـــة المتجمدة على مسافة ١٢٣ ميلا إلى الجنوب ، فلاقت مصاعب ميكانيكية شتى . ولم يكن فى الوسع نقل المؤن اللازمة لثـــلاثة رجال فى الوقت المناسب ، فكان لابد من الاكتفاء برجل واحد ، وهـــذا الرجل هو أنا . فما كان يسعنى أن أكلف واحداً من المرؤوسين بهذه المهمة .

وكانت هذه القاعدة الأماميـــة ، فضلا عن هذا ، هى همى منذ البداية . ففى أثناء رحلتى إلى القطب الجنوبى فى ١٩٢٨ — ١٩٣٠ خطر لى أن الأرصاد الجـــوية إذا دونت فى قاعدة داخلية دائمة ، ونُسقت مع البيـــانات التى تجمع فى الوقت نفسه فى « أمريكا الصغرى » ، خليقة أن تلقى نوراً

كاشفاً على الأحوال الجوية فى هذا النصف الجنوبى من الكرة .

ثم إنى أردت أن أذهب من أجل التجربة ذاتها . فبعد سنوات عديدة من البلبلة المتراكبة التى أورثتنيها رحلات شتى، شعرت بشىء من الحيرة ، ووددت أن أذوق طعم السكون التام والوحدة ، وأن أغوص غوصاً على فلسفة تملأ شعاب النفس . أما من حيث الشئون العملية للحياة فقد كنت أشعر أن تجربتى كرائد، قد أكسبتنى الاعتماد على النفس، وكان هذا من سوء تقدير يدل عليه أنى كدت أفقد حياتى .

وطرت إلى القاعدة الأمامية فى ٢٢ مارس وعاد الطيار على الفور لئلا يجمد الزيت فى المحرك فتستحيل إدارته مرة أخرى . ووجدت الذين سبقوا بالجرارة عاكفين على حفر حفرة طولها ١٥ قدما ، وعرضها ١١ قدماً ، وعمقها ٨ أقدام ، وهى سعة كافية لكوخى الذى ركب لى خاصة ، ومتى نزل الكوخ فى الثلج فإنه يكون فى أمان من الريح وما تذروه من الثلج . والريح عند حاجز « روس » الثلجى ، الذى يقع على أقل من عشر درجات من القطب الجنوبى ، تثور بسرعة عظيمة وتذرو الثلج وتركه على أى جرم قائم . والحاجز منبسط مستو كأنه سهل ، وترى الثلج يتصاعد أبداً حتى يكتنف حواشى قبة السماء المضروبة على دائرة أفق لا ثغرة فيه .

وقد أطيلت الحفرة لتتسع « لشرفتى » التى صنعت بأن مُدّ السقف مقدار قدمين بعد الحائط عند الطرف الغربى ، وبذلك تهيأ لى ممر إلى سردابين متوازيين : أحدهما مخزن للوقود ، والثانى للمؤن . وفى أقصى طرف السرداب المفرد للطعام حفرنا ثغرة لبيت الخلاء ، وهو يمتاز ، كما قال أحد الرجال ، « بالمجرى المكشوف » . وفى أحد أركان السقف الناتىء باب يرتقى إليه بسلم ، ويؤدى إلى ظهر الأرض .

واتخذت لتدفئة الكوخ موقد زيت ذا غطاءين، تمتد مدخنته على أحد الجدران قبل أن تخرج من ثغرة فيه ، وقد ظننا أننا بهذا قد هيأنا بديلا من جهاز لنشر الحرارة ، ولكنه كان بديلا غير متقن . وكنا قد فقدنا أنبوبتين أو ثلاثاً على الطريق، فاضطررنا أن نصنع وصلات من صفائح سعة الواحدة منها خمسة جالونات، فصار هذا الجهاز الساذج البرىء المنظر ، هو الذى تتوقف عليه حياتى أو موتى .

وفى ٢٨ مارس حين عاد رجال الجرارة إلى « أمريكا الصغرى » ، أمرتهم أن لا يبذلوا من أجلى أى جهد لإنقاذى إذا كف الراديو عن العمل ، وقلت : « مهما يكن ما يحدث

فاذكروا أنى هنا فى هذا الكوخ خير حالاً مما عسى أن تكونوا على الحاجز إذا جئتم لمعونتى » .

وبعد أن ذهب الرجال هبطت إلى الكوخ فراقنى ما وجدت . فقد كانت وسائل العيش المكفول كلها فى متناولى ، فى عالم أستطيع أن أقطع ما بين أطرافه بأربع خطوات من ناحية، وثلاث من ناحية أخرى. ولم يكن عالماً مشرقاً ، فقد كان مصباح العاصفة فوق مرقدى خافت الضوء ، وكان مصباح البترول المدلى من السقف يلقى ضوءه كله على نقطة واحدة ، فتبدو الظلال أسود وأحلك. على أن هذا الخفوت أكسب المكان سعة عميقة حسنة الوقع . وكان معى فونغراف خفيف الحمل للتسلية .

ولما خلعت ثيابى فى تلك الليلة الأولى ، سخطت حين لمست قدمى العارية الأرض الباردة ، وبعد أن فتحت الباب للتهوية ذهبت أعدو إلى مخدعى قبل أن يدركنى البرد الداخل ، وسرنى — إذ تذكرت بيت الخلاء على مسافة ٣٥ قدما فى السرداب — أن كُلْيَتَىّ سليمتان .

ووجدت فى الأيام القليلة التالية أن الأجهزة الجوية ستكون مَشْغلة كبيرة ، وكانت ثمانية منها تعمل باستمرار ، ولم تكن تمضى ساعة من النهار لا أشتغل فيها بتعهدها أو بتدوين الأرصاد .

وكان الترتيب أن أتصل بالراديو « بأمريكا الصغرى » فى الساعة العاشرة من أيام الأحد والثلاثاء والخميس ، وكان جهازى يسمح بأن تتحدث « أمريكا الصغرى » إلىّ ، ولكنى كنت لا أستطيع أن أجيبها إلا بالنقط والفواصل، أى برموز مورس. وقد شجعنى تشجيعاً عظيما أنى نجحت فى أول محاولة لإرسال رسالة بالرموز على الرغم من قلة تجربتى . وقد استطاع جون داير ، وشارلى ميرفى أن يحلا رموز رسالتى بطريقة ما .

وأقبل شهر إبريل بالثلج والرياح ، فأحسست أنى آخر من بقى حياً من العصر الثلجى ، وأنى أستمسك بالحياة بما خلف لى عالم معتدل الجو ميسَّر له العيش، من أدوات هزيلة . والبرد يصنع الأعاجيب ، فإذا هبطت درجة الحرارة إلى خمسين تحت الصفر ، فإن النور الساطع يخمد فى يدك ، وإذا هبطت إلى الخمس والخمسين فإن البترول يتجمد ، ولهيب المصباح يخمد على الذبالة ، وعند درجة الستين تحت الصفر يتغلغل البرد إلى أضأل قطرة من الزيت فى الجهاز ويقضى عليها ، وإذا كان هناك أخف نسيم فإنك تستطيع أن تسمع نَفَسك وهو يتجمد إذ يسبح ، فتجد له

صوتاً كصوت فرقعة شريط صغير من البارود .

وقد دعانى البرد — حتى برد إبريل المعتدل نسبياً — إلى التفكير فى أمور كثيرة ، فقد جمد النوفوكين (مخدّر) فى صندوق الأدوية ، وحطم أنابيب الزجاج ، وانفجرت زجاجات عصير الطماطم فى صندوقين ، واضطررت أن أضع الطعام المحفوظ إلى جانب الموقد طول النهار ليذوب ماجمد منه . وكان الصقيع يتجمع على نقط الاتصال الكهربائى لجهاز الريح ، ومقياس سرعتها واتجاهها فوق الكوخ ، وكان تنظيفها عملامؤلماً ،ولاسيما فى الليالى العاصفة. وقلما كنت أهبط عن عمود مقياس الريح الذى يبلغ ارتفاعه إثنتى عشرة قدماً إلا بإصبع أو أنف أو خد أضرّ به الصقيع .

وكان الكوخ دائماً شديد البرد فى الصباح ، وكان الصقيع يكسو مرقدى فى حيث تكثفت أنفاسى . ولم يكن التوقى بقفازات من الحرير ليمنع أصابعى أن تجد لسعة وألماً من لمس المصباح أو الموقد حين أشعلهما . وكانت بشرة جلدى القديمة قد تقشرت عن الأطراف من لمس الأشياء المعدنية المقرورة ، فالجلد الجديد حساس إلى درجة لا تطاق .

وكنت قبل أن أبدأ الحياة فى « القاعدة الأمامية » ، أتناول الحياة فى يسر وكيفما اتفق ، وأعمل حين أحس بالرغبة فى العمل ، أما الآن فقد صار النهج المنتظم هو وسيلة الدفاع الوحيدة ضد الوحشة التى تطير العقل. ولم يسعنى إلا أن أعترف بالوحشة، ولم أستطع على فرط اجتهادى أن أتلقى هذه الوحشة بغير احتفال ، لأنها كانت أعظم من أن تسمح بذلك ، ولهذا اجتهدت أن أشغل أيامى بالواجبات المنتظمة المطردة حتى لا أفكر فى وحشتى .

وأخذ إبريل يمضى ، فأخذ النهار فى القصر . وكانت الشمس منذ أسابيع تبكر فى الغروب ، وتتأخر فى الشروق . والآن ومابقى على ضوء النهار إلا أسبوعان ، فقد صارت الشمس كرة عظيمة لا تكاد ترفع نفسها عن الأفق . فكانت تدور ساعات قليلة وقد حجبها الضباب ، ثم تغيب عن النظر بعد الظهر بقليل . وألفيت نفسى أنظر إليها وأرقبها كما ينظر المرء إلى حبيب يفارقه .

وكان كل يوم تقريباً يأتى بما يذكرنى بالأخطار المتنوّعة للعزلة ، وكان الصقيع لاينفك يسدّ مدخنة الموقد ، وأنابيب التهوية ومجرى العادم من المولد الكهربائى للراديو . ومع أن المشى كان دائماً رياضتى المحببة ، إلا أنى لم أكن أجرؤ أن أدع عمود مقياس

الريح يغيب عن عيني ، وهو العلامة الوحيدة على مسافة مئات من الأميال .

وأردت أن أزيد مسافة ما أمشيه ، فوضعت علامات على طريق طوله مئة ياردة ، وغرست أعواداً من الخيزران طولها قدمان ، وجعلت بين كل عودين ثلاث خطوات ، ولكني في أحد الأيام المظلمة كنت ذاهلا فتجاوزت آخر عود ، فلما درت لأعود لم أر علامة ، فهالني أني لا أدري إلى أي مدى ذهبت ، وفي أي اتجاه أسير ، فألقيت نور المصباح الكشاف على « الحاجز » ، ولكن قدمي لم تتركا أثراً على الأرض الصلبة ، فعراني الخوف ، وكان أول ما خطر لي هو أن أجري ، ولكني كبحت هذه الرغبة ورحت أتدبر الموقف .

ولما كانت الحقيقة الوحيدة التي أستطيع أن أبني عليها هي الاتجاه الذي أقبلت منه ، فقد حفرت في الثلج صورة سهم مسدد إلى هذا الاتجاه ، ثم كسرت قطعاً من طبقة الثلج وكومتها وجعلتها بمثابة منارة . ثم تطلعت فوجدت نجمين على امتداد خط السهم ، فجعلت عيني عليهما وسرت مئة خطوة ووقفت ، وأدرت النور الكشاف حولي فلم أر شيئاً سوى الحاجز المسيح .

ولم أجرؤ أن أواصل السير مخافة أن أفقد المنارة الثلجية ، فعدت أدراجي وفي المرة التالية انحرفت ثلاثين درجة إلى اليسار ، وبعد مئة خطوة لم ار شيئاً ، كما حدث في المرة السابقة .

فقلت لنفسي : لقد ضعت ! وهالني الأمر ، وأدركت أن علي أن أطيل المسافة من المنارة ، وقد أضل بعد ذلك ولا أهتدي إلى المنارة ، ولكنه لم يكن ثم بديل من هذا إلا أن أجمد ويقتلني البرد حيث أنا . ولهذا استقر عزمي على أن أزيد المسافة ثلاثين خطوة في الاتجاه نفسه ، فأعليت كوم الجليد بقطع أخرى ، وبعد أن خطوت الخطوة التاسعة والعشرين ، رأيت عوداً من الخيزران لا يزيد بعده على ثلاثين قدماً ، وما أظن أن بحاراً تحطمت سفينته ولمح شراعاً بعيداً ، يمكن أن يكون أعظم مني سروراً .

وكانت الأيام الأولى من شهر مايو أبدع ما مر بي . فقد كانت الريح لا تكاد تتحرك ، وكان البرد يهبط من القطب ، وكانت السماء سوداء كالفحم ، وضوء الشمس الغاربة يسطع كالنار الموقدة ، وشمل « الحاجز » سكون ، فلا حس ولا نبأة . ولم أعهد مثل هذا السكون التام من قبل .

والوحدة معمل بديع يتجلى لك فيه مدى تأثير الناس في أخلاقك وعاداتك ، فسرعان ما نبذت آداب المائدة ، ورحت

آكل بأصابعى ، أو من علبة ، أو وأنا واقف .

وحياة الوحدة تمحو الحاجة إلى المظاهر الخارجية ، فبعد فترة كففت عن السخط واللعن ، وإن كنت فى البداية سريعاً إلى الإعراب عن نقمتى على كل ما يمتحن به صبرى ، ولم يزايلنى روح الفكاهة ، ولكنى الآن أضحك حين أضحك بقلبى ، كأنما نسيت أن أخرج صوت الضحك ، ووجدت أيضاً أن الألفاظ ، حين أنطق بها ، تبدو لى خاوية وغير مألوفة .

وتركت شعرى ينمو ، لأنه طال حول عنقى فأفادها الدفء ، وقد حرصت على أن أحلق ذقنى مرة كل أسبوع ، لا لسبب سوى أن اللحية تجمد من الأنفاس فيترد الوجه ويثلج . ونظرت ذات صباح فى المرآة ، فقلت لنفسى إن رجلا ليس معه امرأة ، يذهب عنه العجب ، فقد كان خدّاى متقرحين ، وأنفى أحمر وارماً من عضّ القرّ مئات من المرّات ، ولكن منظرى لم تكن له قيمة . وكل ما كان يعنينى هو ما أشعر به ، وقد كنت حسن الحال إذا استثنيت الصداع أحيانا .

وفى أوليــات مايو نجوت ذات يوم بأعجوبة ، وكنت أتمشى كعادتى بعد الظهر خارج الكوخ ، فألفيت نفسى فجأة منطرحاً على وجهى بطولى فوق الثلج ، وإحدى ساقى متدليــة فى ثغرة مفتوحة ، فزحفت مبتعداً بوصة بعد بوصــة ثم تراجعت ، وألقيت على المكان نور المصباح الكشاف لأرى ماحدث .

فوجدت أنى اخترقت بساقى السقف الثلجى لثغرة خفية — ثغرة لاتستطيع أن تفطن إلى وجــودها من السطح الصلب . وكان طول الفتحة ثلاث أقدام فقط ، ولكن جوفها واسع كالكهف العظيم ، وجدرانها يتغير لونها من الأزرق إلى الزمردى وهو لون ثلج البحر ، ولم أستطع أن أرى قعرها ، ولا بد أن عمقها يبلغ مئات من الأقدام . وقد كان من حسن حظى أنى تخطيت فتحة الفجوة بعرضها ، ولو أنى كنت سائراً فى أى اتجاه آخر ، لكان من الممكن أن أقع فيها . وقد غرست أعواداً من الخيزران فى موضع الخطر .

ولما كان اليوم السابع عشر من مايو ، بعد شهر من غياب الشمس تحت الأفق ، صار الشفق الذى يبدو عند الظهر ، لا أكثر من شقّ فى الظلام يضيئه وهج محمر بارد ، وأصبح « الحاجز » عبارة عن ظل راكد هائل تعلوه كتل متراكبة من السحاب ، وطبقــات من الظلام بعضهــا فوق بعض ، وهـــذا هو الليل القطبى ، ووجه العصر الثلجى الكئيب . فلاشىء يتحرك ، ولاشىء يُرى . فكأننا حيال روح الجمود .

وأقبل البرد من جوف الظلام الذي يزداد حلوكة . وفي يوم الأحد العشرين من مايو وقف مقياس الحرارة في الكوخ عند درجة ٧٥ تحت الصفر . وعند منتصف الليل صعدت من الكوخ لأرى الضوء القطبي ، فما كدت أخرج كتفي من الباب حتى اعتراني شعور غامر بالاختناق ، وتفتحت رئتاي ولكن الهواء لم يصل إليهما ، فثنيت رأسي وتنفست في القفاز .

وقلما كان الشفق القطبي يسطع بمثل هذا اللهب الخالص . وكان ممتداً في السماء من الجنوب إلى الشمال على هيئة إهليلج عظيم ، وفيما وراء الطرف الجنوبي كان رداء النور الوهاج يطرح ثناياه وحواشيه على القطب الجنوبي .

وبينما كنت أرقب هذا المنظر تغيرت هيئة الشفق ، فصار أشبه بأفعى عظيمة وضاءة تتحرك ببطء على سمت السماء . وفي الوقت نفسه بدأت ثنايا ذلك الرداء الملقى على القطب تتموج كأنما أخرجتها عن جمودها قوة سماوية ، وراحت الطيات الأفعوانية تلتف على النجوم فتختفي واحداً بعد واحد ، فكنت كأنما أشهد مأساة كونية ، وكأن الأفعى التي تمثل قوات الشر ، تمحق الجمال .

واختفت الأفعى بغتة وعادت النجوم ، ورفع الرداء عن القطب كأنما نحته الريح التي أقبلت في تلك اللحظة تخفق فوق الحاجز ، فسرى في بدني دبيب الإحساس بأني رأيت منظراً لم تقع عليه عين إنسان فان آخر .

وصارت حياتي بقية هذا الشهر حياة عقل على الأكثر ، وأصبحت وأنا افكر وحدي فوق هذا الحاجز ، أقدر على التمييز بين ماهو عندي سمين وماهو غث ، وتعلمت ماطال تنبيه الفلاسفة إليه — أن الإنسان يستطيع أن يحي حياة عميقة مستغنياً عن كثير من الأشياء . وتغير حتى رأيي في النجاح وتعريفي له ، وملت إلى الاعتقاد أن غاية الإنسان الأولى ينبغي أن تكون التماس الوسيلة إلى مقدار من التناسق في نفسه وبين أهله ، وبهذا يفوز بالسكينة .

وكانت هذه فترة جليلة . ولم أكن أشعر إلا بعقل أوتي السكينة ، ومع ذلك كنت أحس أني أوفر حظاً من الحياة مما كنت في أي وقت آخر . وما أقل لحظات السكينة والصفاء في حياة الإنسان ، ولكن قليلا من هذه اللحظات حسبه زاداً طول العمر .

وقد فزت حينئذ بنصيبي من سكينة النفس ، وقد بقيت الأصداء الجليلة تتردد في نفسي زمناً طويلا .

وهوت الضربة على رأسي يوم الخميس

الحادي والثلاثين من شهر مايو ، وكنت فى الصباح أتحدث مع «أمريكا الصغرى» ، وإذا بآلة البترول التى تولد فى السرداب الكهرباء لجهازى ، يضطرب عملها ويتقطع. فأرسلت إلى داير إشارة أن « أنتظر » ، ووجدت الهواء فى السرداب مشبعاً بغازات العادم ، وظننت أن بالوقود شيئاً ، فانحنيت على مولد الحرارة ، وكان هذا آخر عمل أتذكره. والذى أذكره بعد ذلك أنى زحفت إلى الكوخ على يدى وركبتى وأنا أتألم ، ورأيت جهاز الراديو كأنه ملفوف فى ضباب ، فتحسست حتى وجدت المفتاح وأغلقته .

ورقدت قليلا على السرير ، ولكن عدم انتظام حركة المحرك ذكرنى بأن على أن أوقفه لأتقى الاختناق ، فلما انقلبت عن السرير أصابنى الدوار ، واضطرب قلبى ، فزحفت ببطء وألم إلى مفتاح الكهرباء ، ثم ارتددت إلى السرير .

ومضت بقية هذا اليوم الأخير من مايو وكأنها خيالات وأحلام ، وكان يخيل إلى أن ما أعانيه من الألم فى عينى ، ومن الصداع والغثيان ، والخفقان العنيف ، وتعاقب نوبات الدوار الحارة والباردة — كل ذلك غير حقيقى إلا البرد فإنه كان حقيقياً . وكان الخدر الذى أحسه فى يدى ورجلى يدب فى بدنى كأنه شلل بطىء .

وقد صفا ذهنى فى تلك الليلة إلى حد تيسر معه أن أتبين ماحدث ، فلابد أن أنبوب العادم قد امتلأ بالصقيع ، فخرج أول أوكسيد الكربون إلى السرداب. على أنى قد أدركت ، حتى وأنا فى هذه الحالة من الذهول ، أن المحرك ليس السبب الوحيد لما أصابنى ، فقد كان الموقد المثقوب هو المجرم الأول . وقد يجىء التسمم بالأوكسيد بطيئاً متكاثفاً ويكون نتيجة التعرض آنا بعد آن للأبخرة .

وقد نجوت من كارثة كادت تحيق بى ، ولكن كان على أن أستعد لمواجهتها فى صورة أخرى ، وكنت لا أكاد أقوى على إضاءة الشمعة على الرف فوق رأسى ، فأى أمل لى فى جلب الطعام والوقود من السراديب ؟ وقد أستطيع أن أعيش عدة أيام بغير طعام ، ولكننى لا أستطيع أن أعيش طويلا بغير وقود . وكان لابد من ملء خزان الوقود كل يومين أو ثلاثة. وقد انطفأ الموقد حتى وأنا أفكر فى هـذا !

وكان أقرب برميل للوقود على مسافة ١٤ قدما من الباب ، ولكنى لم أصل إليه إلا بعد وقت طويل ، لما أنا فيه من الضعف والألم . وبعد أن ملأت الوعاء لم أستطع حمله وفيه عشرون رطلا ، واحتجت أن أجره ، قدما فقدما ، إلى الكوخ . ولما نجحت أخيراً ، تنفست الصعداء لحظة ، فقد صار

فى وسعى أن أطرد البرد يومين على الأقل .

وكان النوم أقوى ما أشعر بالحاجة إليه، ولـكنه لم يسعفنى لفرط الألم فى رأسى وظهرى ورجلى، ووقع فى روعى وأنا راقد على السرير أنى لن أبرأ ، فإن أول أوكسيد الـكربون يعصف بالهيموجلوبين فى الدم ، فتحتاج الـكبد والمرارة إلى زمن طويل لإعادة المادة الناقلة للأوكسجين ، وهذا أمر يحتاج إلى أسابيع ، حتى وإن فاز المرء بخير عناية فى المستشفى . على أن أقسى البرد وأحلك ساعات الليل ، لم يكونا قد أقبلا بعد ، وكانت الشمس قد بقى على عودتها ثانية ثلاثة شهور تقريباً ، ولم أستطع أن أقنع نفسى بأن فىّ القوة الـكافية لانتظارها .

وكان اليوم التالى — أول يونيه — يوم جمعة ، وكانت تلك جمعة سوداء ، فقد استيقظت من حلم كله أهوال لأجد أنى لا أكاد أقوى على الحركة، وأدركت أن كل ما يسعنى أن أطمع فيه هو أن أطيل حياتى بضعة أيام ، وذلك بادخار ما بقى من قوتى ، وبأن أقوم بألزم ما يلزم ببطء شديد ، وبتأنّ عظيم .

وكانت حاجتى الأولى إلى الطعام والوقود، وكانت النار خامدة منذ اثنتى عشرة ساعة ، ولم أكن قد طعمت شيئاً منذ ٣٦ ساعة ، فتمهلت فى كل عمل ، ونهضت عن السرير ودخلت فى ثيابى ، واعترانى كالإغماء حين لمست الأرض ، فقعدت على الـكرسى عدة دقائق ، لا أصنع شيئاً سوى التحديق فى الشمعة ، ثم استجمعت قوة كافية لإشعال الموقد ، وكان اللهب أحمر ذا دخان من سوء الاحتراق ، وكانت النار عدوّى ، ولـكنى ما كنت أستطيع أن أحيا بدونها .

وكان الظمأ أطول شجرة فى غابة آلامى، وكأن السرداب الذى قطعت فيه الثلج لإذابته ماء ، على مسافة ١٠٠ ميل ! ولـكنى مضيت إليه ، وسرعان ما زَلت ووقعت . وكان مكان الثلج أبعد من أن أستطيع بلوغه ، فلحست جدار السرداب حتى شعرت بمثل نار الحريق فى لسانى ، ثم جمعت من الثلج القذر على الأرض ماملأ نصف دَلْو ، وكان لايزال كتلة قذرة حين حاولت أن أشرب ، وكانت يداى ترتعشان ، فأريق الماء على بدنى كله ، ثم قئت كل ماشربت ، وكنت على وشك الإغماء ، فزحفت إلى السرير لأستريح .

وقد واجهت الموت مرات عديدة فى الجو، ولـكن الحوادث تجرى بسرعة فى الجو : تقرر أمراً فيزحمك الحـكم على الفور ، ومتى أقبل عليك الضيف الخفى فى برجك ، فإنه لايكون إلا واحداً مما لايحصى من المشاغل ، أما الآن فالموت غريب جالس فى غرفة

معتمة ، مطمئن إلى ما يعلمه من أنه سيظل مقيماً هناك حين أمضى أنا .

وغمرتنى موجات عظيمة من الخوف ، واستقرت فى أعماق نفسى ، ولم يكن الخوف من الآلام أو الموت ذاته ، بل من جراء القلق الفظيع على أهلى وما يصيبهم إذا لم أعد إليهم . وقلت لنفسى إنى ارتكبت خطأ جسيما حين ذهبت إلى «أمريكا الصغرى» . وكنت أيضاً فى ساعات المرارة هـذه أرى حياتى كلها تمر أمامى وتعرض على ناظرى ، وأدركت مبلغ غلطى فى تقدير قيم الأمور ، وكيف أنى عجزت عن أن أرى أن ما فى الحياة من أشياء بسيطة مألوفة لا بهرج فيها ، هى الأهم ، فما يكترث المرء فى النهاية إلا لأمرين : محبة أهله وألفتهم .

وكان العزم الوحيد الباقى لى وأنا مدرك له ، هو أن أكتب رقعـة إلى زوجتى ، وكان القلم والورق على رف قريب ، ولـكنى حين مددت يدى إليه وجدت ذراعى غير طليقة ، فقد جمد الكم بالماء الذى أريق عليه ، فانتزعت ذراعى انتزاعاً ، وأمدتنى اللهفة على الكتابة بالقوة اللازمة ، غير أنى كنت أضعف من أن أستطيع الكتابة وأنا قاعد ، وكان رأسى ينثنى على صـدرى كلما حاولت ذلك . فلما فرغت من الرسالة استرحت زمناً طويلا ، ثم كتبت رسائل إلى أمى ، وإلى بنىّ ، وإلى القوم فى «أمريكا الصغرى» ، وربطتها جميعاً بخيط لففت طرفه على المسمار الذى يتدلى منه المصباح .

وكان اليوم الثانى من شهر يونيو امتداداً لحوادث اليـوم السابق القابضة للصدر . فعملت مرة أخرى ما لا بد من عمله ، بالتجزئة . وكنت أنفق قوتى بقدر وقطرة قطرة ، وأزحف ولا أمشى ، وأستريح فترات طويلة بعد كل مجهود يسير أبذله ، ودخلت فى السرداب ثلاث مرات فى النهار ابتغاء الوقود ، وكنت أحمله فى وعاء ماء من الصفيح ، لأن خزان الوقد كان أثقل من أن أقوى على حمله .

وكان اليوم التالى يوم أحد ، ومعنى ذلك أن أتصل بالراديو بأمريكا الصغرى ، وأن أكذب وأنا أصف لهم حالتى ، وهو ما كانت كل شـعرة فى بدنى الذى ركبـه الوجع تلح علىّ أن أجتنبه ، وما أكثر ما سئلت لماذا لم أخبر القوم بما حدث ؟ وجوابى أن الخطر كان عظيماً على من يجيئون لنجدتى ، فهناك الظلام الحالك المعترض بينى وبينهم ، والبرد ، والفجوات الفارغـة فى منطقة الحاجز ، والثغرات الغادرة ، وكلها حقائق ثابتـة لا سبيل إلى مغالطة النفس فيها ، فليس مما يتصوره العقل أن تعرض حياة رجال أنجاد لمثل هذه المهالك .

والله وحده يعلم من أين أوتيت القوة لتنظيف انبوبة التهوية من الصقيع ، وإدارة الآلة ، ولكن الأمر بعد ذلك صار لا يتطلب أكثر من ضغط إصبع لإدارتها ، وكنت أعلم أن الرموز لن تكشف عن حالى ، وكان للقوم آراء فى أعمال الربيع المقترحة ، فكنت أجيب بلا أو نعم ، وأكف وقد حل بى الإعياء .

ولعلى كنت فى تلك الليلة قريباً من الجنون ، فقد كنت فى عذاب ، وأبى أن يزايلنى الاعتقاد أنى فى سياق الموت ، غير أنى استطعت أن أشرب قليلا من اللبن مع بعض البسكويت ، وأصبحت فأحسست أنى أقوى قليلا . وفى العصر وسعنى أن أدير الفونغراف ، فسمعت ثلاث أسطوانات ، وكان شيئاً بديعاً أن أسمع أصواتاً كثيرة تخفق فى أركان الكوخ .

وقال لى صوت من الداخل : « إنك فى سبيل الشفاء ، ولك أمل حقيقى فى البرء . وربما كان واحداً فى المئة ليس إلا ، ولكنه أمل وفرصة » .

وقد حاولت فيما بعد ، وأنا راقد على السرير ، أن أحلل الموقف ، ففى خمسة أيام طويلة كالأبد كنت مفقوداً على هضبة عظيمة من الألم ، وقد سُدّ كل فج ، وقد تعذبت ، وجاهدت ، ورجوت النجاة ، وكففت عن الرجاء . على أن الإنسان لا ييأس ، فإن شيئاً حيوانياً أو آلياً فيه يدفعه إلى التشبث بالحياة والاستمرار فيها ، وسألت نفسى : ما الذى تتعلق به فى رجائك؟ ماذا يمكن أن يُصنع مما لم يُصنع إلى الآن ؟

وكانت الحاجة الأولى إذا أردت البقاء أن أنفق قوتى بحساب ، والثانية أن أتقى التسمم مرة أخرى . وينبغى أن أستعمل الموقد بقدر ، وأن لا أستعمل أبداً مصباح البترول المضغوط — وهو الضوء الوحيد الحسن ، ويجب أن أنام وآكل لأسترد قوتى .

ولكنى إذا اقتصرت على هذا النهج دون غيره ، فإنى خليق أن أجن لما تذكرنى به كل ساعة من هذه الحالة التى لا جدوى فيها ولا رجاء . فلا بد من شىء فوق هذا — إرادة الصبر على الشدائد ، وهذه لا تستمد إلا من أعماق النفس . ولكن كيف ؟ بأن أسيطر على خوالجى ولا أفكر إلا فيما هو خليق أن يفيدنى السكينة ، فإن عقلا متنافر الخواطر ، مظلماً من الارتياك واليأس ، حقيق بأن يقضى علىّ قضاء مبرماً كالبرد .

وفى تلك الليلة بذلت جهد المستيئس لأملأ ذهنى بأطايب الحياة ونعمها ، وأحطت نفسى بأسرتى وإخوانى . وأسريت بنفسى إلى حيث نور الشمس والخضرة والأشياء

النامية ، وفكرت فى كل ما سأصنع حين اعود إلى أهلى ، وبدت لى آلاف من الأشياء التى لم تكن قط إلا عارضة فى رأيى ، على أعظم جانب من الفتنة والخطر . وأخيراً ذهب عنى الاضطراب ، فلما أطفأت الشمعة شعرت أنى أعيش فى عالم بسيط غير معقد ، يتمنى الناس فيه الخير بعضهم لبعض ، وهم جميعاً وادعون مسالمون ورحماء فيما بينهم ، ويتناولون الحياة فى رفق ويسر .

ولم تسكن الأوجاع والآلام ، ولم يسعفنى النوم إلا بعد ساعات عديدة ، ولكن نومى فى تلك الليلة كان أعمق مما كان فى أية ليلة أخرى منذ ٣١ مايو . وفى الصباح كان عقلى وبدنى جميعاً أصح .

غير أن هذا التحسن كان نفسياً أكثر مما هو بدنى ، وقد قضيت ثلاث ساعات فى الاستعداد للاتصال بالراديو يوم الخميس : من حمل وقود ، إلى إحماء الآلة ، إلى غير ذلك . وكنت ضعيف الحركة كأنى رجل هرم جداً .

وصرت بعد ذلك أرهب الاتصال المقرر بالراديو ، فقد كانت مهمة إعداد الآلة ، والخوف من الأبخرة ، يستنزفان ما ادخرت من قوة ومقاومة . وكنت اخشى أن أكشف للقوم عن حقيقة حالى عفواً ، وفكرت فى أعذار أقدمها لوقف الاتصال ، ولكنها كلها كانت سخيفة . ولم يكن يسعنى أن أقطع الاتصال بلا كلام ، لأن أى صمت طويل من جانبى قد يحمل «أمريكا الصغرى» على القيام بعمل طائش على الرغم من أوامرى .

ومضت الساعات بطيئة جداً فى تلك الأسابيع الأولى من شهر يونية . وكان الألم فى عينى يمنعنى من القراءة ، وكان ملء الفونغراف يقتضينى جهداً يجب ادخاره لمهمة الحياة . وكان أقسى ما أحتمل هو العتمة الدائمة ، وكنت أتلهف على النور ، ولكن مصباح البترول كان يطلق أبخرة ، ويتطلب استعمال كباس لضغط البترول ، وهذا يستنفد من قوتى مالم أكن مستعداً لإنفاقه .

ثم أهوى عدوى الخفى علىّ بضربة ثانية فى اليوم السابع عشر . ذلك أنى أدركت محرك الراديو ، فكانت حركته مضطربة حتى اضطررت أن أفحص الصمامات ، ودار المحرك على نحو حسن ، وإذا بى أحس بدوار وأقع على ركبتى ، فوقفت المحرك ، وزحفت إلى مرقدى ، وبى من السقم مثل ما كان بى فى الأيام الأربعة الأولى من الشهر ، ولم أكد أنام فى ليلتى تلك ، فقد جهدنى الوجع والتوصيم وهزنى خفقان قلبى .

وكانت الأيام التالية عُقَداً فى حبل الزمن ،

وقد استطعت أن أواصل تسجيل الأرصاد فى داخل الكوخ ، ولكن هـذه المهمة لم تكن تبدو ذات صلة بالحقيقة ، فبينما كان جزء منى يتحسس طريقه ليؤدى مهماته ، كان جزء آخر كأنما يراقبنى من المرقد ، وكان صوت خافت متذمر يقول إنك لن تستطيع الاستمرار ، ولست أنت الذى يعمل وإنما هى العادة ، أما أنت فقد انتهيت.

ولما كان اليوم الثامن والعشرون من يونية تلقيت نبأ طيباً من «أمريكا الصغرى» ، فقد انتوى الدكتور بولتر أكبر علمائنا أن يذهب بجماعة إلى القاعدة الأمامية ليراقب ظاهرة نيزكية موعدها أوليات أغسطس ، فلم أكد أصدق الألفاظ التى كانت تسك أذنى كالحصى ، فى السماعة ، ثم سألنى بولتر « وما رأيك ؟ »

وكان عقلى غير مستقر ، فما حدث من قبل إلا مرة واحدة — فى رحلة سكوت — أن قام أحد برحلة كبرى فى خلال الليـل القطبى الجنوبى . وقطع المسافة بين «أمريكا الصغرى» والقاعدة الأمامية لايكون فى أسعد الأحوال إلا جهاداً شاقاً ، ولايجوز أن تقع أغلاط . على أنى أذنت للدكتور بولتر فى القيام بارتيادات قصيرة ، وأن يبلغنى النتيجة. وقـد كنت وأنا أقول له هذا أعلم فى ذات نفسى أنى لن أقوى على رفض طلبه . ولقد تحملت كثيراً ، فليس يسعنى أن أطرح أية قشة أتعلّق بها .

وظللت عصر ذلك اليوم راقداً أفكر فى هل يمكن اقتفاء الأثر فى ظلام يولية ، فإن هذه الرحلة لن تكون فى خط مستقيم لكثرة الفجوات تحت الثلج ، وقد وضعت على الطريق فى شهر مارس السابق أعلاماً بين كل اثنـين منها سدس ميل ، ولعل العواصف الثلجية قد أطارت عشرات منها أو عفت عليها ، وتركت ثغرات عظيمة فى هذا الخط الذى يبلغ طوله ١٢٣ ميلاً .

وقد حاولت جاداً أن تكون تقديراتى مجرّدة عن الهوى ، فتجسمت لى المصاعب التى تعترض الرحـلة ، وانتسخ ببطء ذلك الأمل العظيم الذى نشأ بعد الظهر ، وحل ردّ الفعل محـله ، فانطفأت الشمعة وأنا منكسر النفس ، وبى كلال وملل شديدان .

ومضى شهر يونيـة ، وتفاقم البـرد ، وزحفت طبقة رقيقة من الثلج إلى الجدران الداخلية للكوخ حتى صـارت على مسافة ثلاث أقدام من السقف . ولم يذب الثلج وإن كان الموقد يظل مشتعـلا ست عشرة ساعة فى اليوم . وكان الطعام المحفوظ على مقربة من الموقد يحتـاج إلى الكسر بالمطرقة والإزميـل ، وجمد لحم أصـابعى

وتهرّأ من لمس المعدن البارد . وعلى كثرة ما كنت أحشو به معدتى ، وأتدثر به من الثياب ، كان يبدو لى كأن من المستحيل توليد حرارة كافيـة فى بدنى .

ولما صعدت فوق الكوخ كادت الريح تشق جلدة وجهى وتنزعها ، وعلى كثرة ما كنت أدور وألتوى ، لم أستطع أن أتقى وقعها المخدر ، وكانت أصابع قدمى ربما أصابتها القرّة ثم ماتت ، فأحاول أن ألينها ليجرى فيها الدم مرة أخرى ، فيجمد أنفى ، فأوجه همى إلى الأنف فتجمد اليد ، وكان الرسغان والعنق والساقان تنبض نبضاناً أليماً ،ويتعاقب عليها النار والقِرّة .

وتقلص الحاجز من البرد ، وكان يخيل إلى أنى أستطيع أن أحسّ ما تعانيه قشرة الأرض من أوجاع . وكانت الرجفات الثلجية تجىء بعنف شديد ، وكان لها أحياناً مثل صوت الرعد ، قصفة بعد قصفة . وكان من الجلى أنه مع تقاص الحاجز ، قد أخذت الفجوات تتفتح حول القاعدة الأمامية .

وفى الخامس من شهر يولية رمانى القدر بضربة أخرى فظيعة ، إذ تعطل مولد الراديو الذى يعمل بالبترول ، فقد انكسرت اليد المحركة ولم أستطع إصلاحها ، وبقى الجهاز الاحتياطى الذى يدار باليد ، وهو يحتاج إلى رجل يعمل لتزويد آلة الإرسال بالقوة اللازمة ،وإلى رجل آخر يتولى أمر المفاتيح ، فكان على — أنا الذى ليس له نصف قوة الرجل الصحيح البـدن — أن أتولى الأمرين وحدى .

فشرعت أدير المحرك بكلتا يدى ، وكان الجهد أعظم مما كنت أظن ، ولكنى استطعت إدارته أخيراً وبدأت الإذاعة .

وظللت خمس دقائق أنادى وأدعو ، ثم تحولت إلى جهاز الاستقبال ، وكانت أصابعى ترعش وأنا أهيىء طول الموجة التى عينها داير لهذا الجهاز ، فلم أسمع إلا خشخشة ، فجربت كل ما على لوح الموجات فلم أجد إلا صمتاً تاماً ، فكدت أبكى من خيبة الأمل . واسترحت دقائق على السرير ثم عدت إلى إرسال الإشارات ، وإن كان من الجلى أن قوتى ستنفد عاجلا إذا ظللت على هذا المنوال ، ولما تحولت إلى جهاز الاستقبال ، كان قد بلغ من إعيائى أنى لم أعد أعبأ بشىء . ثم جاء صوت داير من الظلام مقدار ثانية ، وما كدت أسمعه حتى انقطع ، فرحت أعالج مفتاح الصوت وأنا يائس ، لأهتـدى إلى الخط الدقيق الذى يؤدى الإذاعة إلىّ :

« استمر . استمر . لقد سمعناك . استمر من فضلك . سمعناك » . كان هـذا صوت داير ، فخطر لى أن هذا بديع .

وقلت لداير: إن المولد خرب، وإن الجهاز الاحتياطى يتعبنى ، وأخبرته أن « الراديو لا يعول عليه من الآن فصاعداً، فلا تنزعجوا إذا لم تأتكم رسالاتى » .

ثم أقبل ميرفى يتكلم ببطء ، قال : « إن الرحلة إلى القاعدة الأمامية خطرة كما تعلم ، ولهذا فإن الاستعداد لها يجرى بأشد عناية ، ولو كنت فى مكانك لما اعتمدت على إمكان وصول الجرارات قبل آخر يولية » .

فأحسست بصدمة ، وخطر لى أنهم إنما يقومون بهـذه الرحلة من أجلى ، أفترانى كشفت لهم عن حقيقـة حالى ، دون أن أدرى ؟ وقلت لهم بحـدة إذا كانوا يظنون أن الرحـلة خطرة ، فينبغى أن يعدلوا عنها .

فقال شارلى بلهجته الهادئة المتزنة ، إنه يأسف لحمل كلامه على هذا المحمل : « وكل ما أعنيـه ، هو أننا نقـدر مبلغ طول الشهور الثلاثة الماضية ، وأننا نقدر أيضاً مبلغ خيبة الأمل إذا تأخرت الجرارة وقتاً طويلا » ، وتكلم طويلا ولـكنى لم أسمع إلا القليل ، لأن قلبى كان يخفق ورأسى يدور ، فتعثرت إلى مرقدى . وكانت هذه هى النكبة الثالثة ، وقد جاءت بعد خمسة أسابيع من سقم مستنزف للقوة ، فكادت تقضى علىّ ، فاضطررت إلى التمهل فى الحركة وعاودنى الألم ، ومعـه القىء والأرق .

وكان الوجـه الذى يطالعنى من المرآة فى تلك الأيام وجه رجل هرم ضعيف، فقد كان الخدّان متهضّمين خشنين من الصقيع والعينان كالجمرتين ، وكانت ضلوعى بارزة ، والجـلد متهدّلا على ذراعى . وكان وزنى ١٨٠ رطلا حين ذهبت إلى القاعدة الأمامية، ولـكنى أشك فى أن وزنى تجاوز ١٢٥ رطلا فى شهر يولية .

وفى الخامس عشر أبلغنى ميرفى بالراديو أن رحلات بولتر التجريبية نجحت ، وأنه سيحاول أن يقوم بالرحلة فى أول يوم طيب بعد العشرين من يوليـة ، فرددت عليهم بقولى: «استوثقوا أتم استيثاق من أنكم لن تضـلوا عن الطريق أو ينفـد وقودكم . ولا تعرضوا حياة أحد للخطر »

فقال ميرفى : « سنخاطبك كالعادة يوم الخميس ، ثم مرتين كل يوم بعـد ذلك » فحاولت أن أرسل إليه أنى تلقيت هـذه الرسالة ولـكن قوتى نضبت . وقد وجدت العبارة التاليـة مدونة فى سجلات أمريكا الصغرى : (ثم قال بيرد : «حسن . أصغوا مقدار عشر دقائق كل يوم نن نن نن ...» فطلب داير إعادة العبارة ، فلم يسمع جواباً)

وحتى الآن بعد أربعة أعوام يبدو الأمر كله غريباً كأنه خيال ، فقد كنت أكذب ،

وكان القوم فى أمريكا الصغرى يكذبون أيضاً ، والفرق أنهم أدركوا أنى أكذب ، فاخترعوا قصة يغالطوننى بها .

ويظهر أن شارلى ميرفى بدأ يشعر فى الأسبوع الأخير من شهر يونية بأنى لست بخير ، وزاد شكوكه أنْ رآنى أستعمل الجهاز الاحتياطى الذى يدار باليد ، وأن الرموز لا تكاد تفهم ، وأن الفترات طويلة بين الألفاظ ، غير أنه هو وبولتر حرصا على أن لا يصدر عنهما ما يحملنى على الاعتقاد بأنهما يضعان خطة لرحلة إنقاذ ، لا لأى غرض آخر .

وفى ١٨ من يولية أبلغنى ميرفى أن بولتر وأربعة آخرين قد ساروا ، فما قاسى رجل محكوم عليه بالإعدام وهو يروح ويجىء فى سجنه لعل الحكم يخفف فى اللحظة الأخيرة ، أكثر مما قاسيت حينئذ . فقد كنت معنياً بأمرى فقط ، فالآن صار ضميرى الذى يعضّه الندم مسئولا عن حياة خمسة آخرين .

وفى الساعة الثامنة صباحاً أبلغتنى أمريكا الصغرى أنهم « صاروا على مسافة ١١ ميلا جنوباً ، ومن الجلى أنهم يجدون مشقة فى الاهتداء إلى الأعلام » .

وكان البرد قارساً وهو يزداد سوءاً ، وقد أشار الخط الأحمر على خريطة درجة الحرارة إلى أدنى من ٧٥ تحت الصفر ، فأحسست بأن عقلى يطير وأنا أفكر فى أمر هؤلاء الخمسة وهم يحاولون فى منطقة الحاجز أن يحتفظوا بحياتهم وحياة السيارة .

وعند منتصف الليل نمّ صوت ميرفى على القلق : « صارت الجرارة الآن على مسافة ١٧ ميلا جنوباً ، والمشقة تزداد ، والظاهر أن الأعلام كادت تختفى تحت الثلج . وكلما غاب واحد منها عنهم احتاجوا أن يسيروا فى دائرة حتى يهتدوا إليه ، وقد اقتلع بعض الأعلام وذهب » . فأعددت رسالة لتنقل إلى ميرفى ، ولكن ذراعى خذلتانى حين هممت بإرسالها ، وما من شىء فى الحياة أشعرنى مثل هذا العقم والعبث .

وفى الصباح التالى بعد ليلة من الآلام والمزعجات ، خيل إلىّ مرة أخرى أنى معلق فى ذلك الفضاء الغريب بين الشعور والغيبوبة . وكان هذا أبرد يوم فى الشتاء ، وكان مقياس الحرارة فى الداخل يشير إلى ٨٢ تحت الصفر — وبلغ من قسوة البرد أنى لما فتحت الباب لم أستطع أن أتنفس ، وحاولت أن لا أنظر إلى جهة الشمال لعلمى أنى لن أرى شيئاً ، ولكنى نظرت عسى أن تكون الجرارة فوق مرتفع ، فأرى نورها . وأخذت عينى ضوءاً مضطرباً تخفق قلبى ، ولكنه لم يكن سوى نجم فى الأفق .

ولبثت خمسة أيام أكابد عذاب القلق

ولا أستطيع الاتصال بأمريكا الصغرى ، وكنت أفتح الباب عشر مرات فى اليوم لأنظر إلى الشمال، وكنت فى كل مرة تقريباً يخدعنى النور المضطرب اللباح الذى كنت أتبين دائماً أنه من النجوم . وفى اليوم السادس والعشرين سمعت بالراديو خليطاً من الألفاظ مشوهاً . فهمت منه أخيراً أن بولتر ضل الطريق تماماً بعد ٥٢ ميلا إلى الجنوب وأنه عاد إلى القاعدة ، وأنه ليس ثم حيلة سوى الانتظار حتى يتحسن الجو .

وهكذا انتهى يولية ، وقلت لنفسى وأنا أرفع الصفحة عن التقويم : «هذا هو اليوم الحادى والستون منذ أصابنى أول انهيار ، ولم يتغير شىء فى الحقيقة فى هـذه الفترة ، وما زلت وحدى » . وكان كل ما حولى شاهداً بما حل بى ، فمن علب مبعثرة ملأى إلى النصف بطعام جمـد ، إلى كتب قد سقطت عن رفوفها وتركتها حيث سقطت ، والآن غطت الأرض والجدران الأربعة والسقف طبقة رقيقة من الثلج ، ولم يبق هناك شىء آخر تغشاه .

غير أن النهار كان يتنفس فى تثاقل فى الشمال ، ويطرد الظلام قليلا قليلا كل يوم . وعلى ضوء هذا الفجر برز الطريق المعلم بالرايات ، قليلا قليـلا من ظلمة الغموض . وإذا كان لى الآن أمل لا ينسخ ، فهو أن أرى الشمس وضـوء النهار يزحفان على منطقة الحاجز . وهذا على الأقل ما لا بد لى منه ، فما تنزل إرادة الحياة عن هذا القدر من الأمل .

وفى يوم السبت الرابع من أغسطس قام بولتر بمحاولة أخرى ، ونقص عدد رجاله إلى ثلاثة ، عسى أن يمضى بسرعة إلى القاعدة الأمامية .

وكان يوم الأحد يوماً أوثر أن أمحوه من ذاكرتى ، فقد قمت من النوم وأنا سقيم لا أطيق الطعام ، ومتعب لا أستطيع أن أتلهى بالعمل . وجاءت إذاعة الظهر بأخبار سيئة ، فقد تعثرت سيارة بولتر فى فتحة فجوة ، وهو الآن يحاول أن يخرجها منها ، فانهارت أعصابى . لماذا لا يصنع أحد شيئاً لمساعدته ؟ فأدرت مفتاح الراديو وسألت فى « ما هى الحكاية يا شارلى ؟ أليس هناك جرارة أخرى ترسل لمساعدته ؟ استخدم كل مواردك » .

فأجاب شارلى بلطف وقال إنه لا داعى للانزعاج ، فقد رفض بولتر كل معونة ، ثم قال : « اسمع يا ديك ! إن الحقيقة أن قلقنا عليك أشد . فهل أنت مريض ؟ هل أصابك شىء ؟ » .

فحاولت أن أهرب من الجواب بقولى

إنى فهمت كل شىء فيما يتعلق بالجرارة ، وهنا عجزت عن إدارة المحرك ، وبقى الجواب ناقصاً . وكتب داير فى سجل أمريكا الصغرى : « إن قوة بيرد تستنزف بعـد كل بضع كلمات » فتهربى لم يخدع إذن أحداً .

وقد كتبت فى يومياتى بتاريخ ٦ أغسطس ما يأتى : « مما يجننى أنى بعد ٦٦ يوماً كشفت عن حقيقـة حالى فى نوبة ملل . وإنى لأتمنى أن ينتهى الأمر على نحو ما ، فما أستطيع أن أظل هكذا يطفو بى الأمل لحظة ، ويرسب بى الإخفاق لحظة أخرى . . وسأوى إلى فراشى الآن يحدونى الأمل فى أن أراهم هنا الليلة التالية » .

وقد كنت ، منـذ أول محاولة لبولتر ، أعد شعلا وصواريخ ، فإن جماعة بولتر إذا لم تجد نوراً يرشدها إلى مكانى تدعثر بالكوخ على مسافة مئة ياردة ولا تراه . وفى صباح اليوم التالى ، جعلت أدخل السرداب مرة كل ساعة فأخرجت ست صفائح من البترول وستة مشاعل من المغنسيوم وأعددتها على السطح ، فكنت كأنى استعد لآخر وثقة .

وقد نفعتنى هذه الاستعدادات البسيطة ، لأنها صرفتنى عن نفسى فترة من الزمن ، وتذكرت أنه لم يبق على طلوع الشمس إلا ثلاثة أسابيع ، وحاولت أن أتصور منظرها ، ولكن الأمر كان أعظم من أن أستطيع تمثله .

وبدأ بولتر مرة أخرى فى الثامن من أغسطس ، وفى الساعة الرابعة من عصر اليوم التالى علمت أنه خرج منذ ٣٧ ساعة ، وأنه قطع نحو ٤٠ ميلا .

ولما صعدت إلى السطح فى الصباح أقسمت أنى رأيت نوراً من ناحية الشمال . فأخرجت طائرة الإشارة ، وجعلت لها ذيلا من السلك والقماش ، ثم غمست الذيل فى البترول وأشعلته ودفعت الطائرة فى الهواء ، وكان منظرها يبعث على الارتياح وهى تترنح فى الظلام وذيلها مشتعل . وكان هذا أول عمل مبتكر عملته منذ زمن طويل ، غير أنى لم أتلق رداً من ناحية الشمال ، وأطلقت شعلتين من البترول على التعاقب بسرعة ، فلم يجىء جواب . وزايلتنى الحماسة ، وفترت الهمة ، فتهافتُّ من الإعياء .

وعدت إلى الكوخ ، وانطرحت على الفراش ونمت نوماً متقطعاً ، وقد خيل إلىّ مراراً أنى أسمع صوت جرارة ، ولكن هذه لم تكن سوى أصوات صرير فى منطقة الحاجز . وعند العصر صعدت مرة أخرى بمنظار الميدان ، فلم أر شيئاً يتحرك .

وفى ذلك المساء أبلغنى ميرفى وهو مبتهج :

« صار بولتر الآن على مسافة ٩٣ ميلا إلى الجنوب ، وهو واثق من النجاح . حظ سعيد لك يا ديك . خل الأنوار مشتعلة »

فلم أجب ، اتقاء لما عسى أن يصيبنى إذا أنا أدرت المحرك بيدى ، فليس مما يجوز أن يحدث أن يتقوّض كيانى الآن ، إذ لا بد من إعداد أنوار الإشارة .

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى دفعت الباب وخرجت . فرأيت من ناحية الشمال شعاع نور كشاف يتصعّد ثم يتصوّب ، ثم يتصعد مرة أخرى حتى يكون على سمت نجم ثم ينطفىء .

فامتلأت نفسى سروراً لا يوصف ، وحملت شعلة فى يدى ومضيت بها إلى الطائرة وأنا أكاد أقع من فرط اللهفة ، وربطت الشعلة بالذيل ، وأوقدتها ودفعت الطائرة فى الهواء إلى ٧٥ قدماً . فظلت الشعلة وهاجة خمس دقائق . وكانت عينى على الشمال طول الوقت ، بلا جدوى . وظللت نصف ساعة قاعداً على الثلج لا أفعل شيئاً سوى أنى أحدق . وكنت أعلم أنى رأيت نوراً ، ولكنى بعد كل هذه الخيبات كنت مستعداً أن أشك فى كل شىء .

وكان لا بد من الحسم ، فقد احتملت كل ما يسعنى احتماله من القلق .

وحاولت أن أنهض فخانتنى قواى ، فزحفت إلى الكوخ وتدليت على السلم إلى فراشى . وأبلغنى ميرفى فى الساعة الثامنة أن أخبار بولتر انقطعت منذ أربع ساعات ، فسقطت السماعة من يدى ، وهبط قلبى فى صدرى ، وصار عقلى كالذاهل . ولما عادت إلىّ نفسى كان نصفى على الفراش والنصف يتدلىّ منه .

وأدركت أنه لا بد من العناية بالإشارة ، فتحاملت على نفسى وسقتها إلى السلم ، فكان كل ما استطعته هو أن أرتقى فيه إلى منتصفه ، فلا شك أن بى حاجة إلى منعش ، وقد جربت الخمر مرة فكانت العقبى وخيمة . وفى هذه المرة وجدت فى صندوق الأدوية ، زجاجة هيبوفوسفات فيها استركنين ، فأخذت جرعة مضاعفة ، وشربت ثلاثة فناجين من أقوى شاى أستطيع أن أغليه ، فأحسست بخفة فى رأسى ، ولكن مُنَّتى اشتدّت .

وبعد أن تقوّيت خرجت من الباب وأطلقت شعلة ، فلما خمدت ، تحرك شعاع من نور كشاف صاعداً هابطاً فى ظلام الأفق ، وقد يكون هذا وهماً آخر ، فقعدت وتعمدت أن أولى وجهى إلى الناحية الأخرى ، فلما كررت الطرف ألفيت الشعاع لا يزال يرتفع ويهبط .

وفى لحظة عجيبة زال عنى ما كابدته

فى يونية ويولية من اليأس والآلام ، وأحسست كأنى ولدت الساعة مرة أخرى . وبعد أن أضأت المشاعل حتى لم يبق منها إلا واحد ، هبطت إلى الكوخ وسخنت علبتين من الحساء لضيوفى .

وصعدت بعدذلك فرأيت جرم الجرارة . فأشعلت ، على سبيل التحية ، ما بقى من البترول والمشاعل ، وأشفت النار على الخمود ، وإذا بالسيارة تقف ويثب منها ثلاثة رجال . فلم أجرؤ على أن أتقدم إليهم . وأتذكر أنى صافحتهم ، وهم يصرون على أنى قلت : « أهلا بكم ! تعالوا انزلوا فقد أعددتم لكم حساءً سخناً » فإذا كان هذا صحيحاً فكل ما أستطيع أن أقوله أنى لم أقصد إلى التمثيل ، والحقيقة أنى لم أجد ألفاظاً أنقل بها ما فى قلبى . وقيل أيضاً إنى تداعيت وسقطت عند آخر السلم . ولست أذكر هذا الذى حدث كله على وجه جلى .

ومضى شهران قبل أن أستطيع العود إلى أمريكا الصغرى ، وكانا شهرين جميلين وإن كنا أربعة لا نستطيع أن نتحرك دون أن يكون أحدنا فى طريق الآخر . وطالت مدة نقاهتى ، ولكن الظلام الذى كان فى قلبى تقشع ، كما تقشع عن منطقة الحاجز وتدفق النور فى أثره تدفقاً عظيماً .

وقد بقى إلى الأبد جزء منى عند خط العرض ٨ر٨٠ جنوباً : وهو البقية الباقية من شبابى وغرورى ، على ما أظن ، وشكوكى على التحقيق . على أنى خرجت بشىء لم يكن لى من قبل على وجه التمام : وهو تقدير الجمال والإعجاز اللذين ينطوى عليهما كون المرء حياً . وخرجت بشىء آخر هو تقدير جديد لقيم الأشياء . وقد حدث كل هذا قبل أربع سنوات ، ولكن المدنية لم تغير آرائى ، فأنا أحيا الآن حياة أبسط وأكثر سكينة .

تستطيع أن تقول بحق أن أحب القراءة حباً ينبعث من أعماق القلب — يجعل الشاب أكبر مما تدل عليه سنه ، ويجعل الشيخ أشب مما تدل عليه سنه .

[ولتر مردك]

كيف تعيش على أربع وعشرين ساعة في اليوم

خلاصة كتاب بقلم أرنولد بينيت

هو كتاب جليل فى علم توجيه النفس — يصف دواء ناجعاً للترهُّل العقلى ، ويدل على الوسيلة التى تضاعف متعة النشاط اليومى فى كل شىء .

وقد اهتدى بهذا الكتاب آلاف ، وما زال محبوه القدامى يسرهم أن يرجعوا إليه ، وقد كتبه أرنولد بينت فى مفتتح حياته الأدبية ، ولا يزال معدوداً من خير آثاره ، وهو يقدم للقارىء خلاصة للطريقة المنظمة البديعة التى طبقها المؤلف الكبير فى حياته هو ، فكانت ثمراتها باهرة .

كيف تعيش
على أربع وعشرين ساعة في اليوم

المعجزة اليومية :

إن المثل القائل : « الوقت من ذهب » ، يصور الأمر دون الحقيقة ، فإن الوقت هو المادة الأولية الغامضة لكل شيء ، وما ميرتنا من الوقت فى الحق إلا معجزة يومية . فأنت تستيقظ فى الصباح فإذا كيسك قد امتلأ بسحر ساحر بأربع وعشرين ساعة من نسج حياتك غير المصنوع ، وإذا أنفس الأحراز يغدق عليك على نحو فذ لا يعدله إلا السلعة نفسها !

وانظر ! إنه ما من أحد يستطيع أن يسلبك إياها ، وهى لا تسرق ، ولا يأخذ أحد منها فوق ما تأخذ أو دونه ، وما تكافأ الثروة أو العبقرية أبداً بساعة واحدة إضافية فى اليوم . وليس ثم عقاب ، فبدد هذه السلعة النفيسة كما تشاء ، فإنك لن تحرم نصيبك منها .

وعليك أن تعيش على هذه الساعات الأربع والعشرين من الزمن اليومى ، ومنها تغزل خيوط صحتك ولذتك ومالك ورضاك واحترامك ، وتطور روحك الخالدة . وإذا كان المرء لا يستطيع أن يعيش على قدر معين من الدخل المالى فقد يستطيع أن يكسب قدراً آخر قليلا ، أو يتشدد فيحدث التوازن بين الدخل والنفقة . ولكن إذا لم يستطع المرء أن يجعل دخله ، وهو أربع وعشرون ساعة فى اليوم ، كافياً لكل وجوه الإنفاق الصحيحة ، فإنه يورث حياته كلها الاضطراب بلا شك .

وأينا لم يقل لنفسه فى حياته : سأغير هذا أو ذاك متى أتيح لى وقت آخر ؟ وأينا لا يساوره الإحساس بأن السنين تمضى وتنقضى ، وأننا لم يتيسر لنا أن نجعل لحياتنا نظاماً عملياً صالحاً ؟ وهذا الإدراك لهذه الحقيقة العميقة المهملة ، هو الذى حملنى على الفحص العملى الدقيق لما ننفق من الوقت كل يوم .

احتياطات قبل الابتداء :

إن أهم تمهيد لمهمة ترتيب حياة الإنسان بحيث يحيي الإنسان حياة وافية مريحة فى نطاق ميزانية يومية من أربع وعشرين ساعة ، هو الإدراك المادىء للصعوبة القصوى فى هذه المهمة ، ولما تتطلبه من التضحيات والجهود التى لا آخر لها ، وكل

تأكيد لهذا لا يكون إلا دون الكفاية . فإذا كنت غير مستعد لاحتمال الشبطات ، وإذا كنت لاتقنع بثمرة يسيرة لجهد عظيم ، فلا تبدأ إذن ! وارقد مرة أخرى واستأنف الإغفاءة المضطربة التى تدعوها حياتك .

وإنه لأمر محزن ، أليس كذلك ؟ على أنى أرى أنه أمر حسن أيضاً — وأعنى به هذه الحاجة على عقد العزم قبل أن يستطاع فعل شىء يستحق الذكر ، وإنى لأشعر أن هذا أكبر مايميزنى من القطة الجالسة قرب الموقد.

وأراك تقول : «حسن . افرض أن عزمى صح على خوض المعركة ، فكيف أبدأ ؟ » فياسيدى العزيز ، إنك تبدأ ، وهذا كل ما هناك . وإذا رأيت رجلا فى حمام سباحة يريد أن يقفز إلى الماء البارد ، ويسأل : « كيف أبدأ بالقفز ؟ » فإنك لا تجيب إلا بقولك : « اقفز ! شدّ أعصابك ثم ثب ! »

وأبدع ما فى هذا الزاد الدائم من الوقت أنك لاتستطيع أن تبدده سلفاً ، فإن اليوم التالى والساعة التالية مهيّئان لك على أكمل صورة وأخلاها من العيب ، كأنما لم تبدد فى حياتك كلها لحظة واحدة . ولهذا فإنه لافائدة من الانتظار إلى الأسبوع القادم ، بل حتى إلى الغد . غير أنى أحب قبل أن تبدأ أن أحذرك من حماستك ، فإن الحماسة غادرة خوّانة ، وليس فى وسعك أن تبلغها مناها فى البداية ، فإنها تودّ لو حركت الجبال وغيرت مجرى الأنهار ، ثم إنها كثيراً ماتفتر فجأة وتخمد .

وحاذر أن تحاول ما هو فوق الطاقة فى البداية ، واحسب للحوادث والعوائق حسابها ، وللطبيعة الإنسانية أيضاً ، ولطبيعتك أنت على وجه خاص ، فإن الإخفاق المجيد لايؤدى إلى شىء ، ولكن النجاح اليسير قد يؤدى إلى نجاح غير يسير . ومن أجل هذا ينبغى حين نشرع فى هذه المهمة العظيمة — مهمة الحياة الوافية فى الحدود الضيقة لأربع وعشرين ساعة فى اليوم — أقول ينبغى أن نتقى ، مهما كان الثمن ، خطر الإخفاق فى البداية .

والآن فلنتدبر ميزانية الزمن اليومى . إنك تقول إن يومك ممتلىء وإنه يفيض ، فكيف ؟ إنك تنفق من الوقت فعلا فى كسب رزقك — كم ؟ سبع ساعات فى المتوسط ؟ وفى النوم ؟ سبعاً ؟ سأضيف ساعتين أخريين كرماً منّى ، وأتحداك أن تبين لى على الفور كيف تقضى الساعات الثمانى الأخرى ؟

عد المتاعب :

ولكى يتسنى لى أن أعالج الموضوع على الوجه الصحيح ينبغى أن أختار حالة عادية

— ولتكن حالة رجل من أهل لندن يعمل في مكتب . والغلطة الكبرى التي يرتكبها هذا الرجل الكثير الأشباه فيما يتعلق بيومه ، هي غلطة نظرة عامة تفسد عليه ثلثي نشاطه ومصالحه ، وهو في الأغلب لا يشعر بحب لعمله، فيبدأ عمل وظيفته متكرّهاً، ومتأخراً على قدر مايستطيع ، ويفرغ منه بسرور ، وبأسرع مايستطيع، ويندر أن تراه يشتغل بقوته الكاملة ، وهو يباشر عمله .

ولكنه على الرغم من كل هذا يصرّ على أن يعد هذه الساعات من العاشرة إلى السادسة هي « اليوم » ، أما الساعات العشر السابقة ، والست التالية فليست عنده شيئاً سوى مقدمة وخاتمة . مثل هـذا الموقف يقضى بطبيعة الحال على اهتمامه بالساعات الست عشرة الأخرى ، وتكون النتيجة أنه لايحسبها حتى وإن كان لايبددها ، وأن لايراها أكثر من هامش . وإذا كان رجل يجعل ثلثي حياته تبعاً وذيلا لثلث واحد من المعترف به إنه لايحس له بحماسة قوية ، فكيف يمكن أن يرجو أن يحيي حياة تامة وافية ؟ إنه لايستطيع .

إن الحياة التامة الوافية تقتضي أن يرتب أمر يومه في نطاق يومه . وهذا اليـوم الداخلي الذي يشبه صندوقاً صينياً داخل صندوق صيني أكبر منه ، يجب أن يبدأ في الساعة السادسة مساء وأن ينتهي في الساعة العاشرة صباحا . وفي خلال هذه الساعات الست عشرة كلها، ليس له من عمل سوى تعهد عقله وروحه والناس . وهو في هذه الساعات الست عشرة ، حر ، فهو لا يكدح في سبيل الرزق ، وإنما هو كأي رجل له دخل خاص . وهذا هو الموقف الذي يجب أن يتخذه ، وهو موقف له أهمية عظمى ، إذ كان نجاحه في الحياة رهناً به .

والنشاط التام في هذه الساعات الست عشرة يزيد على التحقيق قيمة الساعات الثماني المفردة للعمـل ، فإن من أهم ما يجب على رجلنا أن يتعلمه أن الملكات العقلية قادرة على العمـل الدائم ، وهي لا تكلّ كما يكل الذراع أو الساق ، وكل ما تحتاج إليه هو التغيير لا الراحة ، اللهمّ إلا في النوم .

وأنا حين أستعرض طريقة رجلنا الذي اتخذته مثالا لغيره ، في الانتفاع بالساعات الست عشرة التي هي له خالصة ، سأقتصر على بيان الأشياء التي يعملها والتي أرى أنه لاينبغي أن يفعلها، مرجئاً ما أقترحه «لغرس» الأوقات التي سأكون قد هيأتها — كما هي — المستوطن فضاء في الغابة .

ولا يسعني إنصافاً له إلا أن أقـول إنه لايضيع إلا وقتاً قليلا قبل أن يغادر بيتـه صباحاً في الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة ،

ففى كثير جداً من البيوت ينهض الرجل فى الساعة التاسعة ويفطر فيما بين التاسعة والدقيقة السابعة والتاسعة والدقيقة التاسعة والنصف ثم يمضى. ولكنه لايكاد يغلق الباب الأمامى وراءه حتى تكسل قواه العقلية التى تكل، فهو يسير إلى المحطة فى شبه غيبوبة، ويصل إليها فيحتاج فى العادة إلى انتظار القطار. وأنت ترى فى مئات من محطات الضواحى كل صباح رجالاً يتمشون فى هدوء على الأرصفة، على حين تسرق شركات السكك الحديدية وقتهم بلا خجل — والوقت أغلى من المال — وتضيع من جراء ذلك مئات الآلاف من الساعات كل يوم، لأن الرجل الذى اتخذته للتمثيل لايقدر قيمة الوقت، ولايخطر له أن يتخذ احتياطات سهلة جداً ليتقى خطر تضييعه.

إن معه عملة صحيحة من الوقت ينفقها كل يوم — ولنقل أنها جنيه، وليس يسعه إلاأن يبدلها بقطع نقدية صغيرة، وهو حين يبدلها يرضى بأن يخسر خسارة فادحة. فإن هذا هو مايفعله حين تسرق منه الشركة خمس دقائق مرتين كل يوم.

وقد تقول إن هذا منك دخول فى تفاصيل دقيقة، وهذا صحيح، وسأسوغ ذلك فيما بعد.

والآن هل لك أن تشترى جريدتك وتستقل القطار؟

النفس والروح الخالدة:

تستقل قطار الصباح، وتعكف فى هدوء على جريدتك، وهيئتك هى هيئة رجل فى فسحة من أمره، رجل يملك من الزمن ثروة، رجل جاءته من كوكب يومه مئة وأربع وعشرون ساعة، لا أربع وعشرون فقط. وأنا رجل مشغوف بقراءة الصحف فليس من الرأى الصادر عن هوى أن أقول إنه لما كانت السرعة تتوخى فى إصدارها، وكانت مجعولة لتقرأ بسرعة، فليس لها محل عندى فى برنامجى اليومى، وأنا أقرأها فى فترات شتى. أما أن تقرر لها ثلاثين أو أربعين دقيقة من الوحدة الجميلة، فلست أستطيع أن أدعك لتبعثر هذه اللآلىء النفيسة فى الوقت بمثل هذا الإسراف. إنك لست « شاه » الزمن، واسمح لى أن أذكرك بأدب بأنك لاتملك من الوقت أكثر مما أملك، فلا قراءة للصحف فى القطار إذن! فقد (ادخرت) لك نحو ثلاثة أرباع الساعة للانتفاع بها.

وقد بلغت الآن مكتبك، فأنا أتركك فيه إلى الساعة السادسة. وأنا أعلم أنك توهب ساعة فى منتصف النهار، تقضى أقل من نصفها فى الطعام. ولكن سأدع لك كل هذا لتنفقه كما تحب. ولك أن تقرأ جريدتك حينئذ.

وألقاك مرة ثانية حين تنصرف من مكتبك وأراك متغير الوجه متعباً ، وسواء أكان هـذا صحيحاً أم لم يكن ، فإن زوجتك على كل حال تقول إنك متغير الوجه ، وأنت تدعها تفهم أنك مكدود . ولست تتناول طعامك عقب دخولك مباشرة ، ولكن بعد ساعة أو نحوها تحس أنك تستطيع أن تطعم شيئا ، ثم تروح تدخن جاداً ، وتقـابل أصدقاءك ، وتتمشى على غير هدى ، وتلعب الورق ، وتعبث بكتاب ، وتلاحظ أن الشيخوخة تدب إليك ، وتتمشى ، وتلمس البيانو . . . يا إلهى ! لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة بربع ساعة ! وآن أن تفكر فى النوم ! وتبذل أربعين دقيقة فى التفكير فى النوم ، وأخيراً تأوى إلى مرقدك وقد نهكك عمل اليوم ، وقد مضت ست ســاعات أو أكثر منذ انصرفت من مكتبك — مضت كالحلم ، مضت كالسحر ، مضت لاتدرى كيف !

وهـذه حالة تعد عادية ، ولكنك قد تقول : « إن من السهل عليك أن تتكلم هكذا ، ولكن الإنسان يتعب حقاً . ولا بد أن يقابل الإنسان أصدقاءه ، فما يستطيع أن يظل دائماً غير مستقر » . وهذا صحيح ، ولكنك حين تذهب إلى المسرح (وخاصة مع امرأة جميلة) ماذا يحدث ؟ إنك لاتدخر وسعاً لتبدو فى آنق هندام ، وتنطلق عائداً إلى المدينــة ، وتظل غير مستقر أربع ساعات أو خمساً ، ثم ترافقها إلى بيتها ، ثم تنصرف إلى بيتك ، ولا تقضى ثلاثة أرباع الساعة فى التفكير فى أن تأوى إلى فراشك بل تأوى إليه ، وتنسى التعب والأصدقاء على السواء ، وتبدو لك الأمسية طويلة بديعة (أو لعلها كانت أقصر مما يجب !) . وهل تذكر أيام أقنعوك بأن تغنى فى فرقة الجمعية من هواة التمثيل ، فكنت تقضى ساعتين كل ليلتين تكد وتكدح كالعبد مدة ثلاثة شهور ؟ هل تستطيع أن تفكر أنه حينما يكون هناك شىء معين تتطلع إليه فى المساء ، شىء تعلم أنه سيتطلب نشاطك كله ، فإن التفكير فى هـذا الشىء يلقى على اليوم كله وهجه ، ويجعل الحيوية فيه أزهر وأقوى ؟

والذى أقترحه هو أن تعمد فى الساعة السادسة إلى مواجهة الحقائق ، وأن تعترف بأنك لست بتعبان (فإنك لتعلم أنك غير تعبان) . وأن ترتب أمر أمسيتك بحيث لايقطعها الطعام فى منتصفها ، وبذلك تخلو أمامك مسافة من الزمن مقدارها ثلاث ســاعات ، ولست أدعوك أن تقضى ثلاث ساعات كل ليلة من حياتك فى استخدام نشاطك العقلى ، وإنما الذى أدعو إليه على سبيل الابتداء ، هو أن تشتغل ساعة ونصف ساعة مرة كل ليلتين بعمل مهم منتظم ،

كتعهد عقلك وتثقيفه ، وبذلك يبقى لك ثلاث أمسيات للأصدقاء ولعب البردج والتنس ، والخلافات المنزلية ، والقراءة العابرة ، والتدخين ، والحديقة والتمشى ، وتبقى لك ثروة عظيمة مقدارها ٤٥ ساعة بين الساعة الثانية مساء من يوم السبت إلى الساعة العاشرة صباحاً من يوم الاثنين .

فإذا واظبت، فربك سرعان ماتشتهى أن تقضى أربع أمسيات ، بل خمساً ، فى سعى جدى لأن تكون حياً بالمعنى الصحيح ، وتكف عن عادة تحديث نفسك فى الساعة الحادية عشرة والربع بأنه آن لك أن تفكر فى الذهاب إلى مخدعك ، فإن الرجل الذى يشرع فى الذهاب إلى فراشه قبل أن يفتح باب مخدعه بأربعين دقيقة، فهو رجل استحوذ عليه الملل ، إنه رجل لا يحيى .

ولكن تذكر فى البداية أن هذه الدقائق الليلية التسعين ثلاث مرات فى الأسبوع ، يجب أن تكون أهم دقائق الأسبوع كله . وينبغى أن تكون مقدسة وأن يكون لها من القداسة مثل ما للتجارب المسرحية أو مباراة التنس . فبدلاً من أن تقول : « إنى آسف لأن علىّ أن أذهب بسرعة إلى نادى التنس» تقول : « إن على أن أعمل» . وأنا أعترف أن هذا غاية فى الصعوبة ، فإن التنس ألح وألزم جداً من الروح الخالدة .

تذكر الطبيعة البشرية :

وأرى فى الحالة العادية أن تقصر برنامجك الرسمى على ستة أيام فى الأسبوع ، فإذا ألفيت نفسك راغباً فى مدّه، فلك أن تمده، ولكن عليك أن تعدّ الزمن الإضافى ربحاً عابراً لادخلا منتظماً، حتى تستطيع أن ترتد إلى برنامج الأيام الستة دون أن تشعر أنك أفقر ، أو أنك متخاذل .

والآن فلننظر أين نحن . لقد اتفقنا إلى الآن على أن ننقذ من الأيام الضائعة نصف ساعة على الأقل من صباح ستة أيام فى الأسبوع ، وساعة ونصف ساعة فى ثلاث أمسيات فى الأسبوع ، فالجملة سبع ساعات ونصف ساعة فى الأسبوع .

وكأنى بك تقول : « ماذا ؟ تزعم أنك تعلمنا كيف نحيا ، وكل ماتناولته هو سبع ساعات ونصف ساعة من ١٦٨ ؟ أتريد أن تأتى بمعجزة بهذه الساعات السبع والنصف؟» . وأوثر الصراحة فأقول نعم ، إذا تفضلت بالسماح لى ! فإن ما اذهب إليه هو أن الانتفاع الكامل بهذه الساعات سيجعل حياة الأسبوع كله أنشط وأسرع ، ويفيض عليها متعة ، ويزيد اهتمامك حتى بأتفه الأشياء . وإنك لتباشر الرياضة البدنية عشر دقائق ليس إلا فى الصباح والمساء، ومع

ذلك لا يدهشك أن ترى نفسك أصبحت أصح بدناً وأحسن حالا على العموم ، فلماذا يدهشك أن يؤدى إفراد ساعة وبعض ساعة فى المتوسط كل يوم لعقلك، إلى زيادة نشاطك العقلى كله ؟

إنه ليس بالمجهود التافه فى الحقيقة أن « تهيىء » سبع ساعات ونصف ساعة من الغابة اللفّاء . وعسى أن يكون المرء قد أساء قضاء الوقت ، ولكنه قضاه . فإذا فعل شيئاً آخر فإن معنى ذلك أنه غير عاداته ، والعادات عسيرة التغيير ، ولا بد لذلك من بعض التضحية ، ومن قدر عظيم من الإرادة . ومن أجل هذا أقول وأكرر : ابدأ فى سكون وبغير جلبة .

وقبل أن أقول شيئاً فى طريقة الانتفاع بهذه الساعات التى عيناها ، أعرض اقتراحاً أخيراً هو أن تخصص أكثر من ساعة ونصف ساعة لما يعمل فى ساعة ونصف ساعة : تذكر الحوادث ، وتذكر الطبيعة البشرية ، فاجعل ما بين التاسعة والحادية عشرة والنصف ، للعمل الذى تريد أداءه فى تسعين دقيقة .

السيطرة على العقل :

يقول الناس : « إن المرء لاحيلة له فى أفكاره » ولكن للمرء حيلة . فإن السيطرة على آلة التفكير ممكنة كل الإمكان . ولما كان لاشىء على الإطلاق يحدث لنا خارج عقلنا ، فإن الأهمية العظمى للقدرة على السيطرة على ما يجرى فى هذا العقل العجيب ، أوضح من أن تحتاج إلى بيان ، فبدون القدرة على تركيز الخواطر وحصرها — أى بدون القدرة على الإملاء على الذهن وضمان الطاعة — تصبح الحياة الصحيحة مستحيلة ، فالسيطرة على العقل هى العنصر الأول فى الحياة التامة الوافية .

ومن هنا يبدو لى أن أول عمل ينبغى أن يؤدى كل يوم هو تدريب العقل ورياضته . ولهذا الجانب من فن الحياة وصناعتها أفردت الوقت من اللحظة التى تتخطى فيها عتبة بيتك إلى اللحظة التى تصل فيها إلى مكتبك .

« ماذا ؟ أدرّب عقلى وأروضه فى الشارع ، وعلى الرصيف ، وفى القطار ؟ » نعم ! ولاشىء أبسط من ذلك ! ولاحاجة بك إلى أدوات ! ولاحتى إلى كتاب ، غير أن الأمر مع ذلك ليس سهلا .

عندما تبرح البيت ، احصر ذهنك فى موضوع (أى موضوع ، فى البداية) . ولاتكاد تقطع عشر ياردات حتى تلفى عقلك قد تفلت هارباً منك تحت عينك ، وراح عند منعطف الطريق يعالج موضوعاً آخر . فاقبض على ناصيته وردّه إليك ، وسترى قبل

أن تصل إلى المحطة أنك احتجت أن تعيده إليك أربعين مرة . فلا تيأس فإنك لن تخفق أبداً إذا أنت ثابرت . ومن الخطل أن تزعم أن عقلك غير قادر على التركيز . أتتذكر ذلك الصباح الذى تلقيت فيه رسالة مقلقة تتطلب رداً دقيقاً ؟ وكيف حصرت ذهنك فى موضوع الرد حتى بلغت المكتب وهناك جلست على الفور وكتبت الرد ؟ فهذه حالة حركت الظروف فيها نفسك واستثارت حيويتها إلى حد استطعت معه أن تتحكم فى عقلك تحكم الطاغية ، فأصررت عليه أن يؤدى عمله ، فأداه .

وبالتدريب المنتظم على تركيز الذهن (وهو أمر لا سر فيه ولا وسيلة له إلا المثابرة) تستطيع أن تتحكم فى عقلك فى كل ساعة من ساعات اليوم ، وفى أى مكان تكون فيه . ولست أعبأ شيئا بالموضوع الذى تحصر فيه خواطرك ، مادمت تحصرها ، فإن الذى له قيمة هو إلزام آلة التفكير النظام . على أنه يحسن أن تقتل عصفورين بحجر واحد ، فتحصر خواطرك فى أمر نافع . وأقترح عليك — وهو مجرد اقتراح — فصلا صغيراً من ماركوس أوريليوس أو إبكتيتوس . اقرأه فى المساء ، وفكر فيه فى الصباح . وسترى .

والآن أراك تقول لنفسك : « لقد بدأت أشعر بالاهتمام بما يقول هذا الرجل ، ولكن مايقوله عن التفكير فى القطار وعن حصر الذهن وما إلى ذلك ليس لى ، فقد يكون هذا شيئاً حسناً إذا عمل به غيرى ، أما أنا فإنه ليس بسبيلى »

ولكنه بسبيلك ، وأنا أكرر هذا القول بقوة ، بل إنك للرجل الذى أتعمده . وإذا أنت رميت اقتراحى هذا أو أهملته فإنك ترمى أنفس ما أقترح عليك ، جربه ، وأمسك بزمام عقلك ، وتأمل كيف يداوى ذلك نصف أدواء الحياة — ولاسيما الهم ، ذلك الداء المخجل المنحوس الذى لا مهرب منه .

التفكير :

إن التدرب على حصر الذهن (وهو ماينبغى إفراد نصف ساعة له على الأقل فى اليوم) ليس إلا تمهيداً ، كسلم البيانو . ومتى أفدت القدرة على السيطرة على هذه الأداة الجامحة ، فإن عليك بطبيعة الحال أن تضع النير على عنقها ، ولا بد لهذا من دراسة مبدئية .

أما ماذا تكون هذه الدراسة ، فأمر لاخلاف عليه ، إذ هى دراسة النفس . « أيها الإنسان ، اعرف نفسك ! » لقد ابتذلت هذه العبارة حتى أنى لأخجل أن أسطرها ، غير أنه ما عمل بها إلا أحكم الحكماء .

ولا أدرى لماذا ؟ وإنى لمقتنع بأن الرجل الطيب من أوساط الناس لا ينقصه فى حياته شىء كما ينقصه التفكير .

إننا لا نفكر ، وأعنى أننـا لا نفكر فى أشياء لها قيمة حقيقية — فى مسألة سعادتنا ، وفى الاتجاه الرئيسى الذى نحن سائرون إليه ، وفيما تعطينا الحياة ، وفى ماللعقل (أو ماليس له) من أثر فى أعمالنـا ، وفى العلاقة بين مبادئنا وسيرتنا ، فإن السعادة ليست ثمرة اللذة العقلية أو البدنية ، وإنما هى ثمرة نمو العقل وتفتحه ، والتوفيق بين السلوك والمبادىء .

ولا تخش أن أقحم عليك مبادىء معينة ، فإن كل ما أذهب إليـه هو أن الحياة التى لا يتطابق فيها السلوك والمبادىء ، هى حياة سخيفة ، وأن هذا التطابق لا يتم إلا بالامتحان اليومى والتفكير والعزم .

وعلى قدر نقص تفكيرنا يكون نقص عقلنـا . فإذا حدث لك مرة أخرى أن سخطت على النُدُل لأن شريحة اللحم التى قدمها إليك مبالغ فى إنضاجها ، فادع إليك عقلك وشاوره ، والأرجح أن يقول لك إن النـدل ليس هو الذى طبخ اللحم ، وإنه لاسيطرة له على أعمال المطبخ ، وإنه حتى لو كان هو وحده الحقيق باللوم — فإنك لا تنال شيئاً بهـذا الغضب ، وإنما تفقد وقارك وتبدو للندل أحمق شرساً ، ولا يؤثر غضبك أدنى تأثير فى شريحـة اللحم .

وستكون نتيجة هذه المشاورة بينك وبين عقلك (وهو لا يتقاضاك أجراً عليها) أنك ستعامل الندل — إذا تكرر هذا — معاملة مخلوق مثلك ، وتحتفظ بسكينة نفسك ، وتصر فى أدب على أن يأتيك بشريحة أخرى . وسيكون الربح بديهياً ومادياً !

ومن الممكن الانتفاع إلى مدى بعيد بالكظم فى تكوين المبادىء وتكييف السيرة ، وقد ذكرت ماركوس أوريليوس ، وإبكتيتوس ويحسن أن أذكر أيضاً بسكال ، ولا برويير ، وإمرسون ، ولكن قراءة الكتب لا يمكن أن تغنى عن الفحص اليومى الصريح لما كان منك أخيراً ، ولما تهم أن تصنعه — وإدارة العين فى النفس والنظر إليها وجهاً لوجه (حتى وإن كان النظر مما لا يخف وقعه !) .

ومتى نعالج هذا الأمر المهم ؟ يبدو لى أن الوحدة فى رحلة الإياب هى الوقت المناسب ، فإن المرء يذهب يفكر عادة بعـد المجهود الذى بذله فى يومه لكسب رزقه ، فإذا كنت تؤثر أن تقرأ جريدتك (التى تستطيع أن تتصفحها وأنت تنتظر عشاءك) بدلا من أن تؤدى هـذا الواجب الأولى المهم ، فإنه لا كلام لى غير أنه يجب عليك أن تنهض بهـذا الواجب فى وقت ما . والآن أنتقل إلى ساعات المساء :

الاهتمام بالفنون :

ويقضى كثيرون فترة المساء فى غير شىء، لأنهم يظنون أنه لابديل من الكسل سوى درس الأدب ، وقد لا يكون لهم ميل إلى الأدب .

وهذا خطأ فاحش ، فإن ثم ميادين فسيحة للمعرفة خارج نطاق الأدب ، تؤتى مرتادها ثماراً يانعة . فأنت تذهب مثلا إلى الحفلات الموسيقية ، وتدخن سيجارتك (ويؤسفنى أن أقول أنك تشعل الكبريت أثناء عزف النغمات الرقيقة من فاتحة بتهوفن) وتستمتع بالموسيقى . غير أنك تقول إنك لا تستطيع العزف على البيانو أو القيثارة ، فما قيمة هذا ؟

وليس من شأن عجزك عن عزف لحن ما على البيانو أن يمنعك أن تعرف تأليف الفرقة التى تصغى إلى عزفها . فإن الحاصل الآن هو أنك على الأرجح تظن أن الفرقة مؤلفة من جملة آلات متنافرة تخرج جملة من الأصوات المختلطة المطربة . ولست تصغى إلى الدقائق، لأنك لم تدرب أذنك قط على الإصغاء إليها .

ولو أنك سئلت أن تسمى الآلات التى تعزف عليها سمفونية بيتهوفن التى هزتك ، لما وسعك أن تفعل . وكل ما يسعك أن تقوله عن هذه السيمفونية إنها « شىء جميل » ولو أنك كنت قرأت كتاب كريبل « كيف تصغى إلى الموسيقى » (وفيه صور شمسية لآلات العزف الموسيقية وترتيبها) لذهبت بعد ذلك إلى الحفلات الموسيقية وأنت على جانب مدهش من الفهم والاهتمام ، ولبدت لك الفرقة لا على هيئة جماعة مختلطة ، بل كما هى فى الواقع — كائناً متوازناً رائعاً ، لكل جماعة من جماعاته المتعددة وظيفة مختلفة لاغنى عنها ، وإذن لأرسلت لحظك باحثاً عن الآلات ، ومصغياً إليها ، ولوقفت على فرق ما بين البوق الفرنسى والبوق الإنجليزى ، ولعرفت السبب فى أن النافخ فى المزمار يتقاضى أجراً أكبر من أجر العازف على الكمان ، وإن كانت الكمان أصعب ، ولألفيت نفسك تحيى فى الحفلة على حين كنت قبل ذلك موجوداً فى حالة من الغيبوبة الجميلة ، كالرضيع الذى يحدق فى شىء ساطع .

ومن الممكن أن يوضع بهذه الطريقة أساس المعرفة المنظمة الصحيحة للموسيقى ، وفى وسعك أن تقصر دروسك على نحو خاص من الموسيقى (كالسيمفونيات مثلا) أو على ألحان مؤلف خاص . وفى نهاية عام من ٤٨ أسبوعاً تفرد فى كل أسبوع منها ثلاث أمسيات قصيرة للموسيقى ، فضلا عن درس

البرامج وشهود الحفلات الموسيقيـة التى تتخيرها بفضل اتساع معارفك ، تلفى نفسك قد عرفت الموسيقى حقاً ، وإن كنت مازلت أبعد ماتكون من القدرة على عزف « لحن لبتهوفن » على البيانو .

وقد تقول: «ولـكنى أكره الموسيقى!» فياسيدى العزيز اعلم أنى أحترمك .

وما يقـال عن الموسيقى يقال عن غيرها من الفنون . وإنى أذكر كتاب المستر كليرمونت ويت «كيف تنظر إلى الصور» أو كتاب المستر رسل سترجيس «كيف تقـدر فن العمارة» على سبيل الابتـداء (مجرد الابتداء) فى الدرس المنتظم لفنون أخرى .

وعسى أن تقول : « ولـكنى أمقت كل الفنون ! » فاعلم يا سـيدى العزيز أنى أحترمك أكثر فأكثر . وسأعالج أمرك فيما يلى قبل أن أتناول الأدب .

لا شىء تافه :

الفن شىء عظيم ، ولـكنه ليس أعظم شىء . وأهم المدركات هو التفطن المستمر للسبب والنتيجة — أو بعبارة أخرى للتطور المتواصل للـكون . ومتى عرف الإنسان الحقيقة الأساسية ، وهى أنه ما من شىء يحدث بلا سبب ، فإنه يكبر عقلا وقلباً أيضاً .

وإنه لصعب على الإنسان أن تسرق ساعته . ولـكن المرء يخطر له أن اللص إنما صار لصاً لأسباب مرجعها إلى الوراثة والبيئة يسهل فهمها علمياً . ويشـترى المرء ساعة أخرى ، وقد لا يكون مغتبطاً بذلك ، ولـكنه على الأقل يكون على حظ من الفلسفة لا يدع سبيلا إلى مرارة النفس . والمرء حين يدرس السبب والمسبَّب ينفض عنه تلك الحالة التى تجعـل غرابة أمور الحياة تصـدم أناساً كثيرين . وهؤلاء الناس يعيشـون بين الطبيعة الإنسانية وكأن هـذه الطبيعة بلاد أجنبيـة ، غير أن الإنسان متى نضج ينبغى أن يخجل من الشـعور بأنه غريب فى بلد غريب .

ودرس السبب والمسبَّب يلطف من آلام الحياة ويفيض عليها سحراً . فالرجل الذى لا يعرف من النشوء والتطور إلا اسمهما ينظر إلى البحر فلا يرى إلا منظر جليلاً مملاً ، أما الرجل الذى استقرت فى نفسه فكرة ارتباط السبب بالمسبب دائماً فإنه يرى فى البحر عنصراً كان أول من أمس بخاراً ثم صار أمس يغلى ، وسيصبح غداً لامحالة جليداً . وما من شىء هو أبعث على رضى النفس الدائم كتقدير جمال الحياة وفتنتها العظيمة الدائمة التغير .

وقد تكون كاتباً لسمسار أرض ، وقد

تكون الفنون بغيضة إليك ، وقد تريد أن تنمّى روحك الخالدة ، وقد لا تكون مرتاحاً إلى عملك لأنه تافه .

كلا ! ما من شيء تافه .

وإن ما تنطوى عليه الحياة من فتنة عظيمة ليتبدى فى مكتب سمسار الأرض . فقد اشتد الزحام فى شارع أكسفورد مثلا، وأراد الناس اتقاءه فجعلوا يسيرون فعلاً تحت السراديب والمصارف ، وكانت النتيجة ارتفاع الأجور فى هذا الحىّ ! أفليس هذا بديعاً ؟ وليتك تدرس بهذه الروح موضوع الأراضى مسافة ساعة ونصف ساعة ، مرة كل ليلتين ! أليس هذا خليقاً أن يجعل لعملك متعة جديدة وأن يغير حياتك كلها ؟ أو أنت كاتب فى مصرف ، ولم تقرأ تلك القصة التى تخطف الأنفاس (وهى متنكرة فى صورة بحث علمى) وأعنى بها كتاب وولتر بيجهوت « شارع لومبارد » . ومهما يكن من الأمر ، فإنك إذا كنت قد بدأت بهذا ثم توسعت فيه تسعين دقيقة مرة كل ليلتين، فإن عملك حقيق بأن يستولى على هواك ، وأنت جدير بأن تصبح أحسن فهماً للطبيعة الإنسانية .

أو أنت سجين فى مدينة ، ولكنك تحب الرحلات إلى الريف والتملى بشهود الحياة على الفطرة — وإنها الملهاة تجعل النفس أرحب — فلماذا لا تخرج فى بعض الليالى من باب بيتك وفى قدميك خُفّان ، إلى أقرب عمود عليه مصباح غاز ، وهناك تلاحظ الحياة الطبيعية للفراشات العادية والنادرة ، ثم تنسق ما تقف عليه من هذا الطريق ، وتقيم عليها بناء ، فتصبح آخر الأمر وأنت تعرف شيئاً عن شيء ما ؟

فلا حاجة بك إلى العُكوف على الأدب أو الفنون لتحيى حياة ممتلئة .

فإن ميدان المناظر والعادات اليومية فى انتظارك لإشباع تلك الرغبة التى معناها الحياة ، والتى يكون إشباعها معناه أن لك قلباً يعى .

والآن أنتقل إلى ذلك الذى « يحب القراءة » ومن حسن الحظ أن أمثاله كثيرون .

القراءة الجدية :

إن الروايات خارجة عن نطاق « القراءة الجدية » ، التى تفرد لها تسعين دقيقة ، ثلاث مرات فى الأسبوع ، لأن الروايات الرديئة لا ينبغى أن تقرأ ، ولأن الجيدة لا تتطلب من القارىء أى جهد عقلى محسوس . والرواية الجيدة تدفعك بقوة كما يدفع التيار الزورق ، فتصل إلى ختامها وأنت منبهر الأنفاس ، ولكنك غير منهوك . وخير

الروايات لا يتطلب إلا أيسر مجهود . وأهم العوامل فى تثقيف العقل هو الإحساس بالجهد، والصعوبة ، وبأن أمامك مهمة تودّ بجانب من عقلك أن تؤديها ، وبجانب آخر أن تهرب منها ، وهذا إحساس لايمكن أن يستفاد من قراءة رواية .

ولعل الشعر الخيالى أشد أنواع الأدب تطلباً للجهد العقلى ، وهو أسمى صور الأدب وضروبه . وأنا أقول هذا وأنا أشعر شعوراً أليماً بأن الجمهور الأكبر لايقرأ الشعر . فإذا كان الشعر « كتاباً مختوماً » فى نظرك ، فابدأ بقراءة مقال هازلت المشهور عن طبيعة «الشعر على وجه العموم» ، فإن من الصعب أن يتصور المرء الحالة العقلية لرجل يقرأ هذه المقالة ولايشعر برغبة قوية فى قراءة شىء من الشعر قبل وجبة الطعام التالية . فإذا أحدثت المقالة هذا الأثر فى نفسك ، فإنى أرى لك أن تبدأ بقراءة الشعر القصصى البحت .

وإذا كنت تكره الشعر ، فإن عندك التاريخ أوالفلسفة، وهذا مثلا كتاب هربرت سبنسر « المبادىء الأولى » وهو يسخر مما يدّعيه الشعر ، ويأبى إلا أن يعد كتابه أجل ما أنتجه عقل بشرى . ولست أقترح هذا الكتاب على أنه صالح لمبتدىء فى الجهود العقلى ، ولكنى لا أرى سبباً يمنع أى رجل متوسط الذكاء ، بعد أن يقضى عاماً فى القراءة المتواصلة ، أن يصبح قادراً على الهجوم على أسمى ما أنتجه الإنسان من البراعات فى التاريخ أو الفلسفة . إن من أعظم مزايا هذه البراعات أنها واضحة جلية إلى حد مدهش .

وأنا أعرض اقتراحين عامين لتثقيف النفس بالقراءة : الأول أن تعين اتجاه جهودك ومداها . فاختر فترة معينة ، أو موضوعاً معيناً ، أو مؤلفاً واحداً ، وقل لنفسك : « أريد أن أعرف شيئاً عن الثورة الفرنسية ، أو عن اختراع السكة الحديدية ، أو عن شعر جون كيتس » وتفرغ فى زمن معين لما وقع عليه اختيارك ، فإن ثم متعة عظيمة تستفاد من التخصص .

والاقتراح الثانى : أن تفكر وتقرأ فى آن واحد . فإنى أعرف ناساً يقرأون ويفكرون كثيراً ، ولا يستفيدون شيئاً ، وما كان حالهم ليختلف لو أنهم انصرفوا إلى شىء مادى . ذلك أنهم يجوبون أقاليم الأدب فى سيارة ، وكل همهم الحركة ، ويفخرون بعدد ما قرأوا من كتب فى العام .

فإذا أنت لم تفرد ٤٥ دقيقة من وقتك على الأقل للتفكير الدقيق المتعب فيما تقرأ (وهذا معجز جداً فى البداية) ، فإن الدقائق التسعين التى تنفقها فى الليل تذهب

سدّى ، ومعنى هذا أن خطوك سيكون بطيئاً .

لا بأس ! انس الغاية ، ولاتفكر إلا فيما يحيط بك من المناظر ، وبعد فترة ، وعلى غير انتظار منك ، تلقى نفسك فجأة فى بلد جميل ، على تلّ .

أخطار تتقى :

ولا يسعنى أن أختم كلامى على حسن الانتفاع بالوقت بغية الحياة (لا لمجرد الوجود الهامد) دون أن أشير إلى بعض الأخطار التى تعترض طريق الإنسان المخلص فى تطلعه إلى الحياة الصحيحة . والخطر الأول هو أنه يخشى أن يصبح المرء ذلك المخلوق الذى ليس أثقل منه ـ الصلف المزهوّ . وهو شخص مأفون منفوخ خرج يمشى مختالاً ، ففقد وهو لا يدرى أهم جزء من هندامه وهو روح الفكاهة . وهو شخص ممل استكشف شيئاً فوقع ذلك من نفسه وقعاً عميقاً ، جعله يشق عليه جداً أن لا يرى العالم كله يشاطره اهتمامه .

ولهذا ينبغى أن يتذكر المرء حين يشرع فى الانتفاع بوقته كله ، أن هذا وقته هو وليس بوقت غيره من الناس ، وأن الدنيا كانت تدور على عادتها فى سلام قبل أن يشرع فى موازنة ميزانيته من الساعات .

الخطر الثانى أن يصبح مقيداً ببرنامج يشدّ إليه كما يشدّ الرقيق إلى مركبة . وأنا أعرف ناساً حياتهم أعباء ثقال على أنفسهم وعلى ذويهم وأصدقائهم ، لأنهم لا يدركون هذه الحقيقة البديهية ، وهى أن البرنامج يجب أن يحترم ، غير أنه لا يجوز أن يعبد عبادة . وقد سمعت امرأة متزوجة تقول : « كلا ! إن آرثر يخرج دائماً بالكلب للرياضة عند الساعة الثامنة ، ويشرع دائماً فى القراءة قبل التاسعة بربع ساعة . فمن غير الممكن أن .... » الخ . الخ . ونغمة الحسم التى تتبينها فى هذا الصوت الشجى هى التى تكشف عن مأساة خفية .

على أنه يجب أن يقال من ناحية أخرى أن البرنامج هو البرنامج ، وهو ينقلب فكاهة سخيفة إذا لم يراعَ .

وثم خطر آخر من أن يُغرَى الإنسان بالاندفاع والعجلة ، وأن يصبح شيئاً فشيئاً مهموماً بما ينبغى أن يفعله بعد ذلك . والعلاج الوحيد هو إعادة النظر فى البرنامج وتقليله وتضييقه . على أن من المفيد جداً أن ينتقل الإنسان من جزء إلى جزء من البرنامج بتمهل شديد ، أو بعبارة أخرى أن يضيع خمس دقائق وهو مدرك تماماً أنه يضيعها .

والخطر الأخير والأهم الذى أشرت إليه من قبل ، هو خطر الإخفاق فى البداية . فإن

هذا قد يقضى بسهولة على الحافز الوليد إلى طلب الحيوية التامة . ومن أجل هذا ينبغى اتخاذ كل حيطة لاتقاء ذلك ، ولا يجوز تكليف هذا الحافز فوق طاقته . ولتكن الخطوات الأولى بطيئة غاية فى البطء على أن تكون منتظمة متلاحقة .

ومتى استقر عزمك على أداء مهمة ، فإنه ينبغى أن تؤديها مهما عانيت من المشقة والاستكراه ، فإن ما تربحه من الثقة بالنفس إذا قمت بعمل ممل ، عظيم جداً .

وأخيراً لا تسترشد حين تختار ما تشغل به وقتك فى المساء ، إلا بذوقك وميلك .

وإنه لحسن أن يصبح الإنسان موسوعة حية للفلسفة ، ولكن إذا لم يكن لك ميله إلى الفلسفة وكنت أميل إلى دراسة نداءات الباعة فى الشوارع ، فخير لك أن تنصرف عن الفلسفة وبحارها العميقة ، وأن تعكف على نداءات الشوارع !

****

سلطان الألفاظ

كان عندنا بستانى مكسيكى ربعة القوام حلو الابتسام ، فظل عدة سنين يتعهد الحديقة أحسن تعهد ، ثم أغراه عمل آخر ينال عليه ضعف أجره عندى . فلم يجد توسلى إليه ولا رسائلى ، ولا ما عرضته عليه من مضاعفة أجره ، فى رده إلى .

وصرت أتعهد الحديقة بنفسى فى وقت فراغى حتى ضقت ذرعاً . وأخيراً رآنى جار لى ، هو قنصل فنزويلا فى كاليفورنيا ، ولاحظ سوء ما وصلت إليه الحال ، فعرض على أن يكتب رسالة بالإسبانية إلى جو جونزاليس البستانى يزين له فيها العودة إلى .

فخامرنى شك عظيم ، ولكن لم يمض على إرسال الرسالة يوم حتى كان جو دائباً كعادته يتعهد حديقتى . وقال وهو جذل نشوان : «أنا مسرور بعودتى إليك . فما كنت أعرف أنك تكتب الإسبانية ، إنه لشىء جميل . »

فلم أستطع صبراً وسألت صديقى القنصل عن السحر الذى طوى عليه رسالته ، فقال غير مكترث : إنه لأمر بسيط ، فما زدت على أن كتبت إليه : « رأيت الشجر قد انحنت أغصانه حزناً وكمداً ، وسقطت أوراقه كالدموع المنهمرة ، ورأيت الورد قد أشاح بوجهه عن وجه الشمس ، وأخذ يفقد ما عهدناه من شذاه وعطره ، ورأيت الطير كسيفاً حزيناً قد كف عن ترجيع أغاريده الحلوة — كل ذلك لأنها افتقدت صديقها جو ، الذى كان يتعهد الحديقة ويجملها» . وابتسم القنصل ثم قال : «كنت على يقين من أن هذه الرسالة ستبعث الحنين فى قلبه » .

[إدوارد ثوردير]

لا تضق صدراً بالأرق

الدكتور جورج والتن
متخصص في طب الأعصاب

مختصرة من كتاب « علام الهم ؟ »

إذا أنت توقعت أن ترى السكينة اللازمة للنوم المريح ، تنزل فجأة على عقل أضناه الهمّ والكدّ طوال النهار ، فقد طلبت عبثاً . فالذى يورث تهيّج الأعصاب المانع من النوم ، هو الهمّ لا العمل . ولا يجوز لمن يأرق أن يتسرّع فيظن أن الأرق هو علة شقائه لا الهمّ . وقد يدهشك أن تعلم مقدار ما تطيقه من طول السهاد ، دون أن يلحق بك أذى ، على شريطة أن تنسى سُهادك .

بيد أن عمل يومك ينبغى أن يكون منوّعاً ، وأن تتخلله فترات من الراحة . والذين يدرّبون الشبان على الرياضة يحرصون على أن يتّقوا كلّ مجهود عنيف قبل المباراة ، فلمَ لا نجعل حظّ عقولنا من ذلك كحظّ أبداننا ؟ فإذا أردت أن تروّض نفسك على عادة النوم ، فينبغى أن تتعلم عادة الإكباب على ما بين يديك ، فهذا يعينك حين تأوى إلى فراشك على أن تعدّ النوم هو ماينبغى أن تعنى به دون غيره ، فلا تتخذ موعده فرصة لتسوية المشكلات والتأمل فى مكاره المستقبل . ويغلب أن تصيب نفعاً إذا أنت مشيت قليلا أو أخذت حماماً ، أو زاولت بعض الرياضة ، ولكن إذا أنت فعلت هذا كله وأنت مهتاج ، فإنه قلما يجديك .

وأنفع ماتتأهب به للنوم هو الثقة بأنك سوف تنام ، وأنك لن تبالى إذا لم تنم ؛ فلا النوم العميق ولا النوم الطويل ضرورى لطول الحياة أو للقدرة على العمل . وقد قال جورج أنجل المصلح وهو فى الرابعة والثمانين ولا يزال موفور النشاط ، إنهُ ظلّ أسبوعاً كاملاً لم ينم ، وبقى ثلاثة أشهر متوالية لا يصيب من النوم أكثر من ساعتين كلّ يوم ، وإنه لا يذكر أنه نام ملء عينيه ليلة واحدة . وثمة كثيرون ظلوا سنين لا ينامون أكثر من بضع ساعات كلّ ليلة ، دون أن يلحق بصحتهم أو راحتهم أذى .

وفى طليعة العادات العقلية الضارة التى لها صلة بالنوم ، هى أن تظن حين تأوى إلى مضجعك أن نومك ثمانى ساعات ينبغى أن يبدأ لساعتك ، وأنه ينبغى لك أن تحصى ساعات الأرق وتطرحها من العدد المقرّر . وهذا الحرص نفسهُ مانع من النوم ، فإذا قلت لنفسك : « إن لم أنم الليلة فسوف

أنام فى ليلة أخرى » ، وجدت فى هـذا أعجب معوان على النوم . والاحتفاظ بضجعة مريحة يسترخى فيها بدنك دون أن تُغفى أنفع من التقلب . وتدريب نفسك خلال يومك على الحدّ من حركتك التى تنشأ من ثورة أعصابك، هو مما يعينك على اكتساب هذه القدرة . والإيحاء الذاتى ينفع أيضاً . فإذا أردت أن تمتحن أثر القلق والإيحاء الذى لا خير فيه ، فانبطح على وجهك ثم تقلب على الفراش من جنب إلى جنب حتى تعود كما كنت ، واقطع تقلبك بفترات من السكون ، وقل لنفسك : « لا أستطيع أن أنام وانا على هذه الهيئة » ، فالحركة السريعة والإيحاء يمنعان النوم. وإذا أردت أن تتبين أثر استرخاء البدن والإيحاء النافع، فاضطجع الضجعة نفسها وتقلب كما فعلت أولاً وأطل فترات السكون وأنت مسترخ وقل لنفسك: « أستطيع أن أنام مهما كانت ضجعتى » فالضجعة المريحة والإيحاء الملائم يجلبان النوم قبل أن تتم الدورة .

ومنّا من يأرق لأنه يظنّ أنه يعجز عن النوم قبل أن يسوّى مشكلاته ، ولو فعل الناس كفعله لما نام أحد . فخير ما يفعلونه هو أن يروضوا أنفسهم على أن يرجئوا بعض أمورهم إلى ما يأتيهم به الغيبُ والغـد .

وصرف الذهن عن كلّ فكر بغيض ، عادة يشقّ تعودّها ولكنه ليس مستحيلا . وقد عاش الأسقف بيكون حتى نيّف على المئة ، فقال إن سرّ تعميره ، هو امتناعه عن التفكير فى شيء بغيض بعد العاشرة ليلاً .

وحرص المرء على أن ينام فى حجرة يجد فيها درجات معينة من الهدوء ، والضوء أو الظلام ، والهواء أو قلة الهواء ، هو من العادات المدمّرة للراحة . ومن كان هـذا شأنه ينبغى أن يقول لنفسه : « كل امرىء يستطيع أن يحتمل ما يطيب له ، والفيلسوف وحده هو الذى يستطيع أن يحتمل ما لا يحبّ » ، وليحاول أن يكون فيلسوفاً لا مخلوقاً رقيقاً يُدمى بنانه لمس الحرير . وإذا تنقل المرء باحثاً عن مكان هادىء ينام فيه ، فلربما وجد الهدوء نفسه ثقيل الوطأة ، وشرّ من ذلك أنه ربما سمع صوت الدم وهو يجرى فى عروقه ، وهو أمر لامفرّ له منه .

ولا تنسَ أن علة أرقك إنما هى العقل . ومن أراد أن ينام ليله فينبغى له أن يحسن تنظيم نهاره ، فلا يأخذ على عاتقه من العمل أكثر مما يطيق إنجازه دون كدّ أو ضيق ، وأن ينجز ما يأخذهُ على عاتقه دون أن تمزّق قلبه الشكوك والهموم .

جزيرة بتكيرن

مختصرة من كتاب بهذا الاسم

تشارلز نوردهوف
و
جورج نورمان هول

هذه هي الحلقة الثالثة في سلسلة المغامرات والمآسي والمعاشق التي نسجها المؤلفان نوردهوف و هول ، من حادثة من أغرب الحوادث في التاريخ البحري . وقد اتخذا من البحث الدقيق الشامل الذي قام به لهما خبراء في إنجلترا وأمريكا ، أساساً للقصة .

والحلقة الأولى في هذه السلسلة هي رواية « ثورة على السفينة بونتي » المشهورة التي صوّرت للسينما ، والثانية هي رواية « رجال ضد البحر » . وأخيراً في « جزيرة بتكيرن » يبلغ المؤلفان بهذه القصة الغريبة التي وقعت في البحار الجنوبية ختامها الرائع .

في ربيع ١٩٣٥ دخل ربان من بوسطن بسفينته في ثغر جلوستر وهو يفيض بأنباء زيارته للفردوس الهادىء الذي هو جزيرة بتكيرن — وهي نقطة منعزلة في جنوب المحيط الهادىء .

وروى قصصاً عن أهل الجزيرة الأشداء الكرماء الذين يعيشون فيها اليوم — عن كبيرهم باركر كرستيان ، ونوريس وفنسنت ينج ، وعن أطفالهم الذين يسمون باسم ماكوى . وباركر كرستيان هذا من نسل الثائر فلتشر كرستيان في القرن الثامن عشر ، وقد كان أسلاف أسرتي ينج وماكوى ممن اشتركوا في فتنة السفينة بونتي ، وفيما تلا ذلك مما هو روى في هذه القصة .

وكانت سفينة النقل المسلحة بونتي الإنجليزية قد أبحرت من ثغر سبيتهيد في عام ١٧٨٧ قاصدة إلى تاهيتي في البحار الجنوبية . وكانت غايتها أن تجيء بفسائل أشجار الفاكهة وأن تحملها إلى المزارع البريطانية في جزر الهند الغربية حيث يمكن أن تغرس ، فتزود الأرقاء بطعام رخيص ، ولكن بعد أن أدت السفينة مهمتها أثار ربانها الثاني فلتشر كرستيان النواتيّ على الربان بلاى ، لأنه عدّ سلوكه قاسياً لا يطاق . وقد وضعت خطة الثورة فجأة ، ونفذت بسرعة في صباح ٢٨ إبريل عام ١٧٨٩ . ووضع الكبتن بلاى و ١٨ من البحارة الموالين له في زورق أنزل بهم إلى البحر ، ولم يرهم الثوار بعد ذلك .

وبقي على السفينة بونتي مع فلتشر كرستيان ثمانية من المتمردين في جملتهم إدوارد ينج ، وألكسندر سميث ، وماثيو كوينتال ، ووليم ماكوى فجابوا البحر باحثين عن ملجأ أمين ، ومعهم ستة من البولنيزيين ، و ١٢ فتاة جميلة من بولينزيا أيضاً أقنعوهن بمصاحبتهم من تاهيتي — فوجدوا جزيرة نائية قل من يعرفها ولا تستطيع حتى يد الأميرالية الطويلة أن تصل إليهم فيها .

جـــزيـــرة بتكيـــرن

« أيها الرجال قفوا جميعاً عند مؤخر السفينة » .

وكف فلتشر كرستيان عن التمشي ونظر إلى الجزيرة التي ألقت السفينة بونتي مراسيها قربها . وكانت كأنها متن مرتفع على طرفيه جبلان عاليان ، في جانب أحدهما أكمات صعود ، ولكن فوق الأكم مئات من الأفدنة كثيرة الشجر مغمورة بالخضرة وجدولان ينحدران إلى البحر . فيالها من أرض قد تكون جنة !

وقال كرستيان وهو يواجه هذا الجمع العجيب من رجال ونساء ، وبيض وسمر ، « اسمعوا جميعاً . إننا هاربون من وجه العدالة ، لأننا ارتكبنا جريمة التمرد ، فإذا اهتدوا إلينا وقبضوا علينا فسيكون الموت مصير كل رجل منا . وقد وجدنا هنا جزيرة لا يحتمل أن يزورها أحد ، ويبدو لي أنها خير ملجأ ، ولكن إذا نزلنا فيها فلا منصرف لنا عنها ، فاعرفوا هذا ولا تتوهموا غيره ، وقد انقضت أيام أسفارنا إلى غير رجعة ، وليس ثم للسفينة مرسى مأمون — فيجب أن تجرّد وتحرق . والآن هل توافقون ؟ » .

فارتفعت على الفور خمس أيد، ثم انضم ماكوي ومارتن إلى الموافقين بعد تردد ، وقال كرستيان بحدة : « وأنت يا ميلز ؟ » فرفع البحار الشيخ يده وقال : « أرى أن هذا هو الأصوب ، ولكن صعب على المرء أن ينقطع عن العالم طول العمر على صخرة كهذه » .

فقال كرستيان : « أصعب من ذلك أن يشنق . وهناك أمر آخر : من الآن فصاعداً فيما يتعلق بشئون جماعتنا سيكون لكل رجل صوته ، ويتقرر كل أمر بإرادة الكثرة . موافقون ؟ إذن كونوا من هذا على ذكر دائم » ودار فنظر إلى الجزيرة وقال : « هذه بقعة هادئة . والله المسئول أن يبقيها كذلك » .

وبعد ثمانية عشر عاماً ، في سنة ١٨٠٨ ، اكتشفت السفينة الأمريكية توباز جزيرة بتكيرن مرة أخرى ، ورحب بالمستر ويبر ربانها ، رجل أشيب قوي البنية يرتدي ثياب البحارة البريطانيين القديمة ، وكانت نظرته تنبيء بالقوة التي يلطفها طيب النفس . وكان هذا هو ألكسندر سميث الرجل الوحيد الذي بقي حياً من جماعة المتمردين .

وكانت القصة التي رواها سميث لزائره فاجعة ، فما بقي من الرجال الخمسة عشر والنساء التاهيتيات الاثنتي عشرة ، وهؤلاء وأولئك هم الذين نزلوا في الجزيرة في عام

١٧٩٠ — سوى النساء والأطفال وسميث نفسه . ذلك أنه بعد ثلاثة أعوام من الوفاق في محلة من المساكن الساذجة الخشنة ، تلهبت البغضاء بين البيض والتاهيتيين من جراء مشروع تقسيم الأرض بين البيض ، وانفجرت النفوس فجأة فكانت مذبحة .

وهذه هي القصة كما رواها سميث :

قال : يوماً أسود ، ذلك اليوم الثامن عشر من سبتمبر عام ١٧٩٣ وهو تاريخ لن أنساه . بدأ القتل عند الفجر ، فلما كانت الليلة التالية كان آخر هندي قد قضى نحبه ، وكذلك معظم البيض ، وبقي كوينتال وماكوي والمستر ينج فضلا عن النساء التاهيتيات .

وأحسبك لاتستغرب أني أشعر بحنق على كوينتال وماكوي ، فإنهما هما اللذان أثارا الفتنة ، ثم خرجا منها سالمين . وكان ماكوي قدذهب إلى أن الهنود غيرجديرين بأن يملكوا أرضاً ، ولكن كل ماكانوا يطلبونه هو أن يعاملوا معاملة الرجال . وأما الفتيات فما تستطيع أن تجد خيراً منهن رفيقات معينات صادقات بريئات من سوء الخلق وجفوة الطبع . كلا ، نحن الملومون ، وكان ينبغي قبل أن نغادر تاهيتي أن نحرص على أن يكون لكل رجل فتاة ، وأن نحمل معنا عدداً آخر من الفتيات ، ولكن المتاعب كانت ستحدث لامحالة بغض النظر عن الفتيات .

وقد قام كرستيان بكل ما يدخل في وسع إنسان . والآن هاهو ذا في سياق الموت وامرأته ماعيتي إلى جانب فراشه لاتريم مكانها منه ، ولا تكف عن النظر إلى وجهه . وما أظن أن رجلا استقبل الموت بمثل أسفه وحزنه ، فقد تقوّض كل مالمسه وقد أراد الله أن يجعل هذه الجزيرة جنة عدن صغيرة فقلبناها جحيماً ... وبعد فترة طويلة سمعت صوته يقول: « حاذرأن يعرف الأطفال! » وكان هذا آخر ماسمعته ينطق به .

واحتجت ياسيدي إلى وقت حتى أرتب خواطري ، وكنت أفتقد الموتى ولكني أحسب أن ينج كان أشدنا حزناً ، فبعد موت كرستيان لم أسمعه قط يضحك ، وكان يقضي الساعات جالساً ينظر إلى البحر ، على أني كنت مغتبطاً بأن كوينتال وماكوي نأيا بنفسيهما عني .

وكان ماكوي قد انخلع فؤاده من الفزع حين رأى الهنود يطلبونه في تلك الليلة ، وكان قد رأى رأس رجلين منا دامبين متدلين عند حزاميهما ، فطار عقله

من الرعب . وكان كويتنال قد اختبل ولكن على وجه آخر ، وقد كان دائماً به خفة في عقله ، ولكنه بعد حوادث القتل هذه صار يكلم نفسه ويتصرف على نحو شاذ، لمخافته النساء . فلما أدرك أن ماكوى رحل عن البيت ، ذهب يبحث عنه حتى وقع عليه في كوخ صغير في حفرة : « إذن هذا مخبؤك ؟ وما هذه الأدوات كلها ؟ » فلم يسع ماكوى إلا أن يخبره ، وكان قبل حوادث القتل بزمن طويل قد صنع جهازاً للتقطير ، وراح يقطر الخمر سراً ، فلما سأله كوينتال صب قدراً كبيراً من الخمر وأراه كيف تصنع ، وكان لا يستطيع أن يصنع إلا مايسد حاجته هو ، فالآن جاءا بإناء نحاسى كبير من السفينة بونتى، وبه يستطيعان أن يصنعا أى مقدار .

ولما أعد الجهاز الجديد ، بدأت متاعب جديدة .

وكانا في أول الأمر يشربان خمرها في هدوء ، ولكنهما بعد قليل صارا يحملان شرابهما إلى البيت ، وأغريا خمساً من الهنديات بمشاربتهما ، وكان هذا أول ماعلمت بالخبر .

وأقول هذا عن نفسى — لقد حاولت أن أصرف النساء عن ذلك في البداية ، ولكنهن وجدن أن الشراب ينسيهن أشجانهن ، فلم يعد في الوسع صدّهن عن ماكوى وخمره . وكانت مايميتى وعدد قليل من النساء يأبين أن يذقن هذه الخمر ، وإن كن لا يعرفن ضررها . ثم زارنى ينج ذات ليلة ، وكان من السهل أن يعرف المرء من أين أقبل ، فوضع زجاجة على المائدة وقال : « هذه من ماكوى ، أرسلها إليك وفيها شراب جيد ينفعك . وإن الله ليعلم ان قليلا من السرور لا يضيرنا » . وأقول لك ياسيدى إنه ما من بحار يحب شراب « الروم » فوق ما أحبه ، وأختصر فأقول إننا أتينا على مافى الزجاجة فيما بيننا .

وفى وسعك أن تخمن ماتلا ذلك ، فقد صرت ألحق بالآخرين عند ماكوى ، وكان كل واحد في أول الأمر يكتفى بقدح في اليوم لايزيد عليه ، ولكن بعد ذلك لما صار المخزون وفيراً ، شربنا كما نشاء ، والنساء الخمس معنا ، وكان ثلاث منهن لا بعولة لهن ، فهاجهن الشراب لما بهن ، وألهب دماءهن كما فعل بنا . ولا حاجة بك إلى أن نخبرك كيف كانت حالنا، فمافكرنا في زوجاتنا أو في شيء آخر . وكانت مايميتى ترجونا أن نقلع عن الخمر من أجل الأطفال فنخجل ونعدها أن نرعوى ، ثم نكرّ إلى ماكنا فيه بعد بضعة أيام . وبلغ من أمرنا أن النساء الخيّرات أبين أن يكون لهن بنا

شأن، واستمرت الحال على هذا المنوال شهوراً. ثم حدث ما أفاء علينا عقولنا نحن الوحوش.

وكنا نحن الرجال الأربعة عند ما كوى سكارى كالعادة، وكانت امرأته وامرأة كوينتال قد أصبحتا تخافان البقاء في البيت، فأخذتهما مايعيتى إلى بيتها، وحوالى منتصف الليل أقبلت على بيتى أترنح وأتعثر، فأرقدتنى امرأتى فى فراشى، وكانت قد بقيت معى كل هذا الوقت، وكذلك فعلت امرأة كوينتال معه، فلم تهجرانا، ولكن صبرهما أشفى على النفاد، كما سأقص عليك.

وما كدت أغمض عينى حتى هزتنى زوجتى وأيقظتنى وقالت: «أسرع لقد ذهب كوينتال إلى بيت مايعيتى، وما يريد إلا شراً!»

فخرجت أوقظ ينج وماكوى، ولما عدنا وصرنا فى منتصف الطريق سمعنا كوينتال يدق الباب ويضربه، حتى كاد يقع حين بلغناه، وكنا نسمع بكاء الأطفال ثم صوت مايعيتى تقول: «عندى هنا بندقية وسأريه إذا وضع رجلا فى البيت، ابتعدوا أيها الآخرون!»

وكان ماكوى هو الوحيد الذى يستطيع أن يعالج أمر كوينتال، فعدا إليه وأمسك بذراعه: «أمجنون أنت؟» فدفعه كوينتال دفعة طرحته على الأرض وقال: «أريد امرأتى» فأمسك به وأمسك ماكوى برجليه، والمستر ينج بذراعيه، وأوثقناه نحن الثلاثة وحملناه إلى بيت ماكوى، ولم نحل وثاقه لأنه كان كالوحش الهائج.

وكانت هذه هى الحادثة الأخيرة التى استنفدت صبر النساء، فلما استيقظت فى صباح اليوم التالى لم أجد لامرأتى أثراً، وكان يوما عاصفاً تتخلله فترات سكون حارة، فقصدت إلى الشاطىء على عادتى لأنظر إلى البحر، وكنت ناظراً إلى ناحية الشرق فلمحت شيئاً طافياً، على مسافة ميل من الشاطىء، ففركت عينى المتحيرتين فرأيت زورقا مقلوبا وحوله وفوقه ناس، وفى وسعك أن تدرك كيف فوجئت وفزعت بعد كل هذه السنين التى لم أر فيها سفينة فى هذا المحيط الموحش، فذهبت أعدو إلى بيت ماكوى فى طلب المنظار، وأيقظته هو وينج وأسرعنا إلى نقطة المراقبة. وأنت تعلم كيف أنك حين تنظر بالمنظار إلى شىء بعيد، يخيل إليك أنه يثب إلى عينيك، هذا زورقنا الشراعى مقلوب، وكل نسائنا حوله وقد أمسكن بالأطفال فوقه. ويا ما كان أشدها صدمة! دفعنا القوارب إلى الماء، وانحنينا على المجاديف فحنيناها، إى والله! ولو كان هؤلاء النسوة من بنات بلادنا لغرق أكثر من طفل فى ذلك اليوم، ولكن هؤلاء

يعرفن كيف يضبطن أمرهن فى الماء ، ورفعناهن إلى القوارب — وكانت مايميتى آخرهن — وسحبنا الزورق . وجلست مايميتى ومارى الصغيرة بين ذراعيها وفى عينيها نظرة يأس لن أنساها إلى آخر يوم من حياتى . وهل تصدق يا سيدى أنهن كن قد اعتزمن أن يبحرن ومعهن الصغار إلى جزيرة من الجزر التى مررنا بها فى طريقنا من تاهيتى ؟ وهذا يريك مبلغ قنوطهن . لقد دفعناهن إلى إيثار الموت غرقاً أو ظمأ على الحياة معنا .

وفى ذلك المساء اجتمعنا نحن الرجال ، ولكن لا لنشرب ، وكان كوينتال جاداً كغيره — لا تقطير بعد اليوم ، وأقسمنا على ذلك . وأوينا إلى فرشنا مفيقين للمرة الأولى منذ زمن طويل .

والآن يا سيدى سأتخطى ثلاثة أعوام . حافظنا على وعدنا شهرين أو ثلاثة ، ولم نذق قطرة واحدة من الخمر ، وقد حاولنا أن نبدأ عهداً جديداً . ثم تكررت القصة القديمة ، وانتقلت حالنا من سيء إلى أسوأ ، وفى النهاية رحلت مايميتى بأطفالها إلى الوادى لتعيش هناك ، وشيد النسوة بيتاً لهن بلا معونة منا ، وجمعوا الأطفال فيه بعيداً منا ، وقد بقيت زوجتى وزوجة ينج معنا ، ولكن ما أقل ما كنا نحفل وجودهما ! وبقيت أربع نساء أخريات ، فعشنا معاً على حال يخزينى أن أتذكرها . . .

وهكذا سارت الأمور إلى آخر عام ١٧٩٧ . وإنى لأذكر مجلس شراب لنا فى خريف ذلك العام ، وكان شر ما مرّ بنا من أمثاله ، فقد عكفنا على الخرطول اليوم واليوم التالى ، ولكننى فى صباح اليوم التالى زهدت فيها ، وساورنى شك فى أن يكون أمر قد وقع فما اقتربت منا النساء قط ولم يكن فى البيت شيء يؤكل ، فمضيت إلى الوادى ، وكان قد مضى ثلاثة شهور لم تطأ فيها أقدامنا هذه الأرض. فلما أشرفت على الوادى وقفت ، فقد كانت الأرض كلها ممهدة والحدائق مغروسة والنساء يعملن ، ولكن الذى استوقفنى وتركنى أحدق مستغرباً هو أنى رأيت سوراً من جذوع الشجر مغروسة فى الأرض على عمق كبير ، وارتفاعها اثنتا عشرة قدماً ، والسور حديث ومتين، فلوأن رجالاً أقاموه لما كان أقوى . وبعد قليل استأنفت السير على مهل حتى لحنى النسوة ، فأقبلت أربع منهن اللائى تتقدمهن مايميتى ، وكانت كل واحدة منهن تحمل بندقية ، فلما صرت على نحو اثنتى عشرة ياردة قالت : « قف حيث أنت ! ماذا تبغى؟ » ، وكنت أشعر بالخجل

وأنا أواجهها ، ولكن الرجل الذى فقد احترامه لنفسه يحاول أن يكابر ، وهذا ما فعلت ، فقلت : « أين بالهادى (وهى روجتى) ، إنى أريد أن تعود إلى البيت » فنظرت إلى مستثبتة ثم قالت بلهجة هادئة : « إنها لا تريد أن تكون معك وافهم هذا : عليك أن ترجع وتبقى هناك ، ومن الآن فصاعداً كل من وضع منكم قدمه فى هذا الوادى يعرض نفسه للهلاك ، فإن عندنا هنا كل البنادق ، والبارود والخرطوش والرصاص لصنع ما نحتاج إليه ، وفى وسعنا أن نرمى كما يرمى أى واحد منكم ، فاذهب » .

وكان كوينتال وماكوى لا يزالان مخمورين ، ولكنى فى العصر قصصت عليهما ماقالت لى النساء . وكان من رأى ينج وماكوى أن ندعهن وشأنهن ، غير أن كوينتال كان شكساً عسراً ، وهو ضخم الجسم قوى كالثور ، قليل الذكاء : « لن يلعبن معى هذه اللعبة ، وسأجىء باثنتين منهن » ونهض ، وانطلق ، وتبعته أنا وماكوى . وكان كوينتال لم يغتسل منذ عدة أيام ، وكانت لحيته عظيمة كثة تحجب نصف صدره ، ولم يكن عليه مايستره إلا خرقة قذرة حول وسطه ، وكان يحمل هراوة ، فكان أبشع منظراً من أى مستوحش وقعت عليه عينى . وما كاد يظهر فى الأرض المكشوفة حتى نفخ بعضهن فى صدفة بحرية ، وكان هناك ست من النساء فانتشرن ووقفن ينتظرن ، وركعت مايمىتى وراء صخرة وأراحت عليها بندقيتها ووقف كوينتال لما صار على مسافة ستين ياردة ، ثم مشى على مهل وفى ثبات ، وبعد أن خطا ثلاث خطوات أطلقت مايمىتى النار عليه ، فندت عنه صيحة وارتمى على الأجمة ووراءها ، ووجدناه ممسكا بكتفه حيث مزقت الرصاصة العضلات ، وكان الدم يتدفق من موضع أصابته رصاصة كادت تقطع إحدى أذنيه ، واحتاج أن يرقد شهرين — وكان سيىء الخلق فيهما — وكان جلياً لنا أنه يزداد خفة عقل كل يوم .

وسكنت الأمور زمناً ، ولم تدن منا واحدة من هذه النسوة ، ولم نر صاحبنا ينج إلا قليلا ، وانقطع عن الشراب معنا ، ولم يذق قط بعد ذلك قطرة من الخمر ، ولكنى كنت قلقاً على صحته ، فقد جعلت حالته تسوء وكان مصاباً بالربو ، وكانت به حاجة إلى التعهد ، ولكنه أبى أن يأذن لى فى إبلاغ النسوة أنه مريض . ولما برىء كوينتال والتأمت جراحه رأى هو وماكوى أنهما صبرا زمناً كافياً ، وقد علمت بما حدث فيما بعد ، وكان فيهما من العقل مايجعلهما يتذكران أن النسوة يحسن الرماية ، فاختفيا حيث يستطيعان أن يريا الأرض المكشوفة ،

وبعد ساعتين من الانتظار خرجت اثنتان تحملان سلتين على ذراعيهما وليس معهما سلاح ، وكان كوينتال وماكوى مختبئين بقرب الطريق ، فوثبا على المرأتين وأمسكا بهما ، فذعرت إحداهما حتى أنها لم تبد أية مقاومة ، ولكن الأخرى قاومت بأسنانها وأظافرها . وأخيراً جيء بهما موثقتين إلى بيت ماكوى ، ولا أظنك تحب أن تعرف ماجرى بعد ذلك ، ولكنهما فتكا بهما فتكاً مخزياً ، وفي الليل لما نام كوينتال وماكوى خرجت المرأتان .

ومضت ثلاثة أيام هادئة ، ثم حدث قبيل العصر (وكنت في قيلولتي كالعادة) أن كنت أفتح شباكا فانطلقت رصاصة ومرت على نحو بوصة من رأسي ، وتلتها أخرى حطمت الشباك ، فهاج ذلك كوينتال وماكوى وكنت أرى من ثقب فوهات البنادق في الغابة مسددة إلى الباب ، فقد وقعنا ولاشك ، وأحدق النسوة بالمكان ، وغايتهن قتلنا . وكان رأيي الخروج ، ولكنا اتفقنا على الانتظار إلى الليل ، غير أنهن كن يردن إخراجنا إلى الأرض المكشوفة ، وقد فعلن ، فقد تسلل بعضهن بالمشاعل وأضرمن النار في السقف ، فما مضت دقيقتان حتى كانت النار قد تضرمت في المكان .

وكان لابد من الخروج بسرعة ، وكان ذلك خطراً ، وقد خرجت من نافذة مطلة على البحر ، ودرت حول بيت الدجاج ، وأطلقت إحداهن النار ، ولكني عبرت الأرض واختبأت بين الشجر حتى طلع القمر . ثم ذهبت إلى بيت ينج ولكنه لم يكن فيه ، وعلمت فيما بعد أن النسوة حملنه إلى مكانهن ليقمن على تمريضه . ثم سمعت صوت ماكوى ، وقد أصيب في رجله ونزف منه دم كثير ، وقال إنه لم ير كوينتال ، ونأينا بأنفسنا عن المحلة عشرة أيام ، ولكن أحداً لم يدن منا ، ولم يظهر لكوينتال أثر ، وإن كنت قد بحثت عنه في كل مكان ، وكنا واثقين أنه مات . وذات يوم بعد ثلاثة أسابيع صعدنا في الجبل لنلقى نظرة أخيرة على ماحولنا ، وهناك ، حيث يسقط جانب الجبل عموديا إلى البحر ، رأينا يد فأس كانت في البيت يوم احترق ، فزحف ماكوى إلى الحافة ونظر ، ولكنه لم ير إلا تكسر الموج على الصخور . ولما كنا نعرف كوينتال فقد اعتقدنا أنه جرح جرحاً بالغاً فرمى بنفسه ليرتاح ، وكان كوينتال رجلا خشناً صلباً ، وحشاً في قوته ، وخطراً جداً إذا سكر ، ولكن كان له جانب آخر ، فما من أحد إلا أحب كوينتال حين جاء إلى بتكيرن . وقد شق فقده على ماكوى لأنهما كانا صديقين حميمين .

وفى تلك الليــلة شرعت تمطر ، وظلت تسحُّ ثلاثة أيام ، ولم يكن لنا عمل ما ، فعدنا إلى الخمر ، ونزا فى رأس ما كوى أنه الملوم على ماحاق بالجزيرة من شقاء ، وكان لايتكلم فى شىء آخر، فكان يقول: «إنها الحقيقة، أنا أول من أراد أن يقسِّم الأرض ، وهذا هو الذى أدى إلى التقتيل . وما من رجل مقتــول ، أبيض أو هندى إلا وأنا المسئول عن موته » . وعلى هذا النحو مضى يتكلم طول الليل حتى كاد يطير صوابى من كثرة التكرار .

وفى اليومين التاليين حرصت على اجتناب ما كوى ، ثم قلقت عليه فذهبت إليه فألفيته منقبضاً فى ركن وقد قلب المـائدة وأدناها منه ليختبىء وراءها ، وما كدت أراه حتى أدركت ماأصابه ، فقد بدأ يتوهم أن أهوالاً ستحل به ، وكان منظره يدعو إلى الرثاء ، وهو ينتفض ويرعش وركبتاه تحت ذقنـه وعينـاه تحدقان فىَّ كالمستوحش ، وراح يتوسل ويصيح : « لاتدعه يلمسنى » وكان صوته يُغشينى ، وكان كلما استولى عليه الفزع يصيح صيحات لاتندّ عن آدمى . ولما كاد النهار يطلع استرخى ، ورأيته يغفى ، وكنت قد أدركنى الإعياء فوضعت رأسى بين ذراعى ونمت حتى أيقظتنى صرخة أخرى ، وقبل أن أفيــق كان ما كوى قد انطلق خارجاً من الباب يعــدو إلى الصخور المشرفة على البحر ، فتبعته وأنا أصيح به : « ارجع ! » ولـكنه لم يدر وجهه قط ، وهوى واختفى عن عينى . وكانت سقطة مرعبة على الصخور السفلى ، ولمحت جثمانه وقد أقبل الموج يزأر وحمله وارتد به .

ووقفت هناك نصف ساعة ، ثم ذهبت ياسيدى إلى حيث كنا قد خبأنا ذخيرتنا من الخمر ، فكسرت الصنـدوقين وأخرجت الزجاجات وضربت الصخور بكل واحدة منها فحطمتها ، ثم نزعت سلك النحاس من الجهاز وقذفت به إلى أبعـد ما أستطيع ، ولما رأيته يسقط فى البحر قلت : « الحمد لله لقد انتهينا من هذا ! »

ولو كنتَ سكيراً ياسيدى وكففت عن الشراب فجأة ودفعة واحدة ، لأمكنك أن تدرك الآلام التى عانيتها فى الأسبوعين التاليين ، فما كنت أستطيع أن أنام أو أطعم شيئاً ، وكنت أخاف أن يستولى علىّ الذعر قبــل أن يقضى علىّ ، ولـكنى ثـبتُّ فهان الأمر شيئاً فشيئاً .

وكان أمراً عظيما أن أستعيد احترامى لنفسى ، فحلقت لحيتى التى كنت قد أرخيتها وتوخيت النظافة ، ورتبت بيتى القـديم ، ثم عمدت إلى البيوت الأخرى فأصلحت من

شأنها ، وكنت أعمل وحدى ، وإن كنت لاأدرى لماذا جشمت نفسى هذا كله، وأحسبنى دار بخلدى أن النسوة سيعدن يوما ما .

وبعد نحو شهر ، كنت ذات يوم أقتلع الحشائش من الحديقة ، فسمعت حفيفاً بين الشجيرات ، فدرت ونظرت فإذا امرأتى مقبلة. ولم ينبس أحد منا ببنت شفة، وطوقتنى بذراعيها ، وأراحت رأسها على كتفى ، ثم شرعت تبكى بكاءً خافتاً على عادة الهنديات ، فكان لهذا وقع عميق فى نفسى ، ولكنى بقيت ناظراً أمامى ، وبعد برهة قلت : « أين بندقيتك يا بالهادى ؟ ألا تخشين أن أصنع بك سوءاً ؟ » فما أجابت بشىء سوى أن شددت علىّ فى عناقها ، فتناولت يدها ، وبقينا كذلك عشر دقائق ، وسأهمل كل ما قلناه ، ويكفى أن أقول إننا عدنا كما كنا قبل أن تحدث هذه الحوادث . وخبرتها خبر ماكوى ، فبكت عليه . وكان بكاؤها أكثر ، ولكن من الفرح ، حين أخبرتها أنى حطمت جهاز التقطير وزجاجات الخمر . وكنت قد ساءنى أن ينج لم يجىء إلىّ ولكنها قالت إنه سقيم مُشْبَت .

ثم انصرفت وحدها . وبعد ثلاث ساعات عادت ومعها النسوة والأطفال وكل ما استطعن أن يحملن ، وكنت لم أر بعض الصغار قط ، وبعضهم لم تقع عليه عينى منذ ثلاث سنوات ، وكان ابن كريستيان قد صار غلاماً حسناً ، فى الثامنة من عمره ، وأخوه فى السادسة ، ومارى الصغيرة فى الخامسة — ولدت فى نفس اليوم الذى بدأ فيه التقتيل . وكانت جملة الأطفال ثمانية عشر ، منهم اثنان لى فى أحسن صحة يتمناها المرء لهما . وقد أحزننى وألح نفسى أن أفكر فى آبائهم الذين ماتوا ودفنوا وحرموا الاستمتاع بهم . وحيتنى النسوة تحية رقيقة ، ولم يذكرن الماضى بكلمة ، فعلمت أن هذا صنيع مايميتى — ماخلق الله خيراً منها ، شجاعة يفخر بها أى رجل ، ولا شرّ فى قلبها . ورأيت الأخريات قد تغيرن ، فإن ما مرّ بهن قد أكسبهن رزانة غير مألوفة فى سنهن ، وكان بعضهن خفيفات سريعات إلى كل عبث ، ولكنهن كبرن وصرن خرائد وأمهات عاقلات .

واستقر بنا المقام بعد بضعة أيام كما كنا من قبل ، وشرح صدرى أن أرى البيوت عامرة بالنساء والأطفال ، والأفنية نظيفة والحدائق مجددة ، وتغير ينج ولم يعد يضحك أو يمزح كما كان يفعل قديماً ، ولكن نظرة اليأس اختفت ، فكان يجلس ويراقب الأطفال ، وينعم بمنظرهم .

وذهبت ذات صباح إلى الجانب الغربى

من الجزيرة ومعي خمسة من الأطفال الذين يحبون البحث عن البيض . فذهب كوينتال الصغير وحده وغاب شيئاً ثم أقبل من الغابة وبه فزع يعقل لسانه ، فأمسكت به فتعلق بي تعلق من لاينوى أن يدعني ، وكان ينتفض من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وأخيراً استطعت أن أقف منه على مارأى — رجلاً ضخما هائل الأنحاء جالساً على صخرة .

فقلت له : « أنا أخبرك بما رأيت يابني . إن هناك بعض التماثيل القديمة المنحوتة من الحجر ، وهي ذميمة المنظر ، وتبدو للرائي كالرجال ، ولكنه لاخوف منها » .

« لا . . لا . . ! لقد رأيته يتحرك ! »

وأصر على ذلك ، فأمرته أن ينتظر برهة ريثما أطرد هذا الشبح من الجزيرة ، وكنت أنوى أن أمشي قليلا ثم أعود إليه وأقول له إن الشبح قد اختفى ، ولكني لما قطعت مسافة لمحت ماصدمني — آثار أقدام عارية ، وهي في حجم قدمي ، فلم أصدق عيني ، فمشيت نحو خمسين ياردة دون أن أحدث صوتا ، ثم نحيت الأغصان ونظرت وإذا بكوينتال جالساً وظهره إلي على الهيئة التي رآه عليها ابنه ، وكان عاريا تقريباً ، وكان إلى جانبه فرشة من الحشائش الجافة وهو يكسر البيض ويشربه ، وكانت عظام خنزير برى ملقاة في ناحية وعظام غيره مبعثرة حوله ، وكانت ريح المكان تغثي الكلب .

ولو كان عقلي في رأسي لرجعت ، ولكني ناديته قبل أن أستطيع أن أرد نفسي ، فأدار رأسه على مهل وبصر بي ، فأورثني منظر وجهه رعدة راحت تدب في بدني علواً وسفلاً ، ولن ترى مثل هذين العينين خارج مستشفى مجانين ، وكانت له لحية عظيمة تصل إلى وسطه ، فتكلفت الهدوء وقلت : « أين خبأت نفسك ياملعون؟ لقد ظنناك وحق الله ميتاً » ، وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى تناول هراوة واندفع نحوي وقد أطلق صيحة ليس لها نظير في الطبيعة ، لا في الإنسان ولا في الوحوش ، فانكفأت أعدو طلباً للنجاة ، وأنا أثب وأحاوره وأداوره ، ثم علقت رجلي بشيء فوقعت وما أرى إلا أنه في أثرى ، ولكنه كان قد وقف يجيل عينيه فيما حوله متحيراً ، كأنه ليس على ثقة من أنه رأى شيئا . فلم أتحرك حتى كر راجعاً .

وكان ظننا أننا رأينا آخر متاعبنا وإذا بهذه تبرز لنا . وكان لا بد من إخبار النسوة فامتلأت قلوبهن فزعاً ، ورأى بعضهن أن نقتله ، ولكن أكثرهن استهولن أن نقتل رجلا مختبلاً في غير ذنب . وصرت كل يوم بعد ذلك أصعد في الربوة ومعي بندقية ومنظار فأراه في معظم الأحيان ،

ولكنى لم أره يوماً، فلما عدت وجدت النسوة جزعات. ذلك أن كوينتال كان قد اندفع خارجاً من الغابة يطلب سارة إمرأته، فبلغ من ذعر المسكينة أن خرجت على وجهها فارّة من البيت لا إليه، ثم أدركت أنها أوقعت نفسها فى مثل الفخ، وكان الطريق الوحيد الباقى لها، هو المؤدى إلى الربوة، وهو على أثرها، فارتقت فيه إلى القمة ثم ألقت بنفسها من فوقها مؤثرة ذلك على أن يدركها.

وكان الظلام قد دخل، ومضت ساعة لم يفطن فى خلالها أحد إلى غياب امرأة أخرى هى سوزانا، فبحثت عنها ولكنا كنا لا نستطيع شيئاً قبل أن يطلع الفجر، فلما طلع خرجت أنا وينج وإن كان غير معافى. وكان مع كل منا بندقية، وكنت أحمل فأساً أيضاً، وكنا ندرك أن علينا أن نقتل كوينتال، وفى وسعك أن تتصور شعورنا. وانحدرنا إلى الوادى الغربى لأننا ظننا أنه سيعود إلى مكانه القديم، فلما دنونا منه، زحفت على يدى ورجلى لأنفض المكان، فرأيت سوزانا منطرحة وليس على بدنها خرقة، وقد قيدت رجلاها ويداها بشرائط طويلة من لحاء الشجر. فاستوثقت أولا من أن كوينتال غير موجود، ثم فككت قيدها فى خمس ثوان، وكانت فى حالة يرثى لها، وجلدها كله خدوش وجروح، ولكنى حمدت الله على أنها ما زالت على قيد الحياة، وهمست فى أذنها: «أين هو» فأشارت إلى الجانب الأقصى، فوجدته نائماً وراء بعض الشجيرات فرفعت بندقيتى ولكنى لم أستطع أن أشد الزناد، فقد كنت أفكر فى كوينتال القديم الذى عرفته على السفينة بونتى. ثم تذكرت النساء والأطفال وسارة التى ماتت، فعلمت أن لامعدى لى عن المضى فيما جئت له، فالتقطت بعض الحصى ورميته عليه، فوثب إلى قدميه وتناول هراوته، فلما أقبل علىّ شددت الزناد ولكن البندقية خانتنى، وكان الوقت أضيق من أن يسمح لى بأكثر من التنحى عن طريقه وتناول الفأس، واتقيت الضربة التى سددها إلىّ، ثم أهويت بالفأس ياسيدى على أم رأسه، بكل ما أملك من قوة، فكانت ميتته سريعة رحيمة، فقد خر صريعاً على الفور دون أن يتوجع.

والآن ياسيدى قد بلغت آخر أيام البأساء، فمنذ ذلك اليوم عشنا فى سلام، وسنظل كذلك بعون الله. نعم، جاء السلام، ولكن قلبى ظل زمناً طويلا خالياً من سكينته، فقد كان وجه كوينتال يطالعنى فى الليل والنهار حتى كدت أفقد صوابى، وعرف ينج ما بى، وكان الفضل له وللأطفال فى اجتيازى تلك المحنة.

ومامن كلام يفي ببيان نعمة هؤلاء الأطفال ، فقد وهبونا حياة جديدة . وكان هناك ٢١ طفلا فى ذلك الوقت ما بين وليد جديد وغلام فى التاسعة من العمر ، فشفوا قلوبنا وأسوا جراحها ، وجعلوا هـذه الجزيرة الصغيرة فى النهاية جنة على الأرض .

والآن أخبرك بأعظم ماأصبت من نعمة وخير فى سنى حياتى كلها ، وإن كنت لم أفطن إلى هذا فى حينه . ذلك أنى وجدت ينج ذات مساء جالساً إلى مائدته يكتب فى سجل للسفينة بونتى ، وكثيراً ما رأيته يفعل ذلك .

فسألته : « ما هـذا الذى تـكتبه بهذه الـكثرة ؟ أهى يوميات تدونها ؟ »

« نعم . تسجيل للمواليد وما أشبهها . ولـكن هذا ليس كل شىء » .

فقد كان يدون كل مايتـذكره من الـكتب ، وكان قارئاً نهماً ، وقل مانسيه ، وقد قرأ لى قطعة من قصـة تسمى « سير الحاج » كما دونها ، فاستولت على نفسى أتم استيلاء . ولا تنس يا سيدى أنى لست إلا بحاراً جاهلا ولاعلم لى بلذة القراءة أكثر من علم الخنازير هنا .

وقال : « ألم تتعلم قط الـكتابة والقراءة ؟ »

قلت : « تعلمت قليـلا ، ولـكنه ذهب كله الآن »

قال : « مارأيك فى أن تستأنف التعلم ؟ إن لك لاستعداداً ، وهـذا بيّن »

فسرنى هـذا أعظم السرور لأنى كنت فى حاجة شـديدة إلى صرف ذهنى عن كوينتال ، وكان السير بطيئـاً فى البداية ولـكنه كان صبوراً طويل البال حتى لـكان يسعه أن يعلم دمية من حجر . وأخذ يقرأ لى من توراته ، وكنت قد سمعت منها فقرات أيام أنا صبى طائش ، ولم أوجه إليها عقلى . فالآن بدأت أرهف سمعى لذلك ، وكان فى كل مساء يتلو على بعض الآيات ، فأدير عليها تفـكيرى إلى المرة التالية ، وظللنا فى هـذا نحو تسعة شهور فتعلمت القراءة ببطء ولـكن باطراد ، ثم ساءت صحة ينج مرة أخرى ، ولم يستطع أن يسترد قوته ، وتفاقمت عـلة الربو ، ولو أنه كان اتفق لك يا سيدى أن تراقب إنسانا يغرق وأنت عاجز عن نجدته ، لأمكنك أن تتصور الحال . فقد كانت تشتد عليه وطأة المرض فيكافح لتخليص أنفاسه فأتوجع له ، وهو يزداد ضعفاً . واستمرت الحال على هذا المنوال ثلاثة شهور ، وجاء يوم أقعدناه مستنداً إلى الوسـائد ، فرأيت من نظرته أنه يعلم أنه فى سـياق الموت ، وبعد لحظة التفت إلىّ ، وقال : « إنك يا ألـكس الوحيـد الذى أبقاه الله لتنشئة الأطفال ،

وإنها لأمانة كبرى، وأنا واثق أنك ستكون مخلصاً في حملها . . ولشد ما كنت أود أن أبقى معك ياصاحبي » .

وتوفي في تلك الليلة ، ودفناه في اليوم التالي ، والألفاظ عاجزة عن وصف شعورنا بفقده ، وقد كنت أحبه كأنه شقيق وإن كان أرفع مني شأنا .

وتالله ما كان أحلك الأيام التالية وأعظم وحشتها ! فما بقي سواي من جميع الذين خرجوا من السفينة بونتي التي أبحرت من إنجلترا ، وفكرت في تمردنا وفيما كان لي فيه من نصيب — وكيف عاونت على وضع الكبتن بلاي و ١٨ رجلا معه في زورق صغير في قلب المحيط ، وكنت أرى الزورق بعين الخيال ، والذين فيه . وقد ماتوا ظمأ أوجوعاً ، أوأثقلهم والمتوحشون يفتكون بهم . ولو أن إنسانا ياسيدي شعر بأنه ضائع في هذه الدنيا ، لما كان هذا الإنسان إلا ألكس سميث . وكنت قد أهملت دروس القراءة لما كان ينج في مرضه الأخير ، ولكني بعد قليل عدت إلى التوراة ، واصلاً ما انقطع عندما كف ينج عن تعليمي ، ولو كنت على شيء من العلم لأخذت في درس العهد الجديد على الفور ، ولكني جعلت أدرج كالحشرة في الظلام ، في بطء وصبر ، وواظبت على هذا ثلاثة أعوام ، وكانت هناك أجزاء معقدة عويصة عليّ ، ولكن غيرها مثل المزامير والأمثال ، لم أزل أعالجه حتى حفظته عن ظهر قلب . وقد سمعت بأناس اهتدوا فجأة إلى الله ، ولم يكن الأمر كذلك معي ، فقد اهتديت شيئاً فشيئاً ، ولما بلغت حياة المسيح تفتح قلبي كما ينفتح مصراعا الباب . وسأكتفي بهذا ياسيدي ، ولكني أقول إني أوتيت سلاماً لم يزايلني إلى الآن .

ولكني كنت قلقاً على الأطفال ، ومن أدراني أن دماء آبائهم التي تجري في عروقهم لن تدفعهم إلى مثل سيرتنا القديمة ؟ وكلما طال تفكيري في هذا زاد اقتناعي بأنه يجب أن لا يظلوا جاهلين كلمة الله ، ولجت بي الرغبة في أن آخذ بأيديهم ، وقد يدهشك أن بحاراً جاهلا يستطيع ذلك ، ولكن بمعونة الله علمتهم على نحو أدهشني أنا نفسي . وبدأت بأمهاتهم ، فقصصت عليهن قصة التوراة ، وكانت القصة هي التي عنين بها في البداية ، ولكنهن سرعان ما تبين أن وراءها ما هو أكبر ، وكان من دواعي الاغتباط لي أن أعلم الأمهات ، فإذا كان هذا كذلك ، فما ظنك بلذة تعليم الأطفال ؟ وبلغ من لهفتهم على التعليم أنهم كانوا يؤمنون ولا يساورهم أدنى شك، وقد

حملني هذا على التمهل والعناية والتدقيق ، فقد خفت أن أعلمهم غير الصواب المحض ، ولم أقل شيئاً عن الخطيئة ، لأنهم كانوا لا يعرفون ماهي ، وعلمتهم أن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يقولوا الحق ويفعلوه ، وأن يوقروا أمهاتهم وأن يعاملوا الناس كما يحبون أن يعاملوا .

وكان هذا كله باللغة الهندية التي كنت أتكلمها كما يتكلمونها تقريباً ، ولكني وأنا ماض في عملي ، كنت أفكر في السنين التي ستجيء بعد أن أذهب ، فأدركت أن عليّ واجباً آخر ، ولعلك تعلم أن لغتهم لغة كلام ليس إلا ، فأخلق بهم إذا اقتصروا عليها أن لايستطيعوا قراءة شيء . وهكذا رأيت أن عليّ أن أعلمهم كتابة الهجاء ، ولم أسترح إلا بعد أن أوجدت مدرسة ، وكان القليل الذي يعرفونه من الإنجليزية عوناً لي ، وكانوا أذكياء سريعي التلقف ، ولكني كنت أحياناً أهم بأن أنفض يدي من هذا الأمر ، غير أنهم بعد أن تعلموا المبادىء ، مضوا سراعاً ، ولن أنسى زهوهم حين استطاعوا أن يقرأوا قليلا ، وأن يكتب بعضهم إلى بعض رسائل وجيزة . وكان هناك مكتب للكبتن بلاي وفيه أوراق وحبر وأقلام ، فضننت بهذه الأوراق كأنما كانت رقائق من ذهب . ولما نفد الحبر ، صنعت حبراً من رماد الجوز ، أما الأقلام فكانت متوفرة ، لكثرة الطيور في الجزيرة ، ولما نفد الورق صنعت اردوازات من ألواح الصخور .

وكان الأمهات ينظرن إلى المدرسة كأنها أعجوبة الدنيا . والحق ياسيدي أنك إذا فكرت في الأمر لم يسعك إلا أن تقول إنه قل مايعادل سحر الكتابة ، وماأدري كيف وصل الناس إلى العلم بها في البداية !

والآن شارفت قصتي ختامها ، وفي وسعي أن أمضي في الكلام ليلة أخرى ، أو سبع ليال وأحدثك عن الأعوام الأخيرة ، ولكني لا أحب أن أمتحن صبرك ، وفي مقدورك أن تعرف بغير تعريف. فقد سارت حياتنا سيراً هادئاً كأنها يوم من أيام الصيف دون أن يقع شيء من النزاع مذ قتل كوينتال ، وعاشت الأمهات وعشت معهن للأطفال وإنهن لأمهات طيبات على الرغم من أنهن كن كافرات وثنيات من قبل ، ومازلن كذلك من بعض الوجوه ، على أن بعض الكفار مما يمكن أن ننتفع بدرسه .

نعم ، حياة هادئة طيبة تلك التي أتيحت لنا في السنوات التسع الأخيرة ، وإني لكبير الشك في أن تكون هناك في أي مكان آخر أسرة إنسانية تعيش معاً وبينها من التراحم والتواصل فوق ما بين أسرتنا. ذلك أن في حياتنا سلاماً وفي قلوبنا سلاماً ، وقد صارت جزيرة بتكيرن الآن وطننا

جميعاً . وهذه جملة الحال فى ألفاظ قليلة .

* * *

بعد زيارة السفينة «ثوباز» ببضع سنوات، ظهرت سفينة بريطانية عند جزيرة بتكيرن ونزل ربانها إلى البر لينظر ، فلم يحاول سميث أن يختبىء . وقال : « إنى آخر ثوار السفينة بونتى ، وأنا مستعد أن أعود معك لأحاكم ، فإن العمل الذى بدأت فيه هنا سيستمر بدونى» . ولكن الربان البريطانى هز رأسه وقال : « لا أعرف شيئاً عن السفينة بونتى ، ولم أر أحداً له علاقة بالفتنة ، ولست أفهم فى أى شىء تتكلم . وهؤلاء الأطفال يحتاجون إليك » ، وصافح سميث وانصرف .

[نبذة من « جزيرة إيستر » لمؤلفها روبرت ج . كايسى]

ولادة تمثال

فرغ رودان المثّال الفرنسى من صنع تمثال ضخم للشاعر ڤيكتور هوجو، وقد مثّله فيه واقفاً على هامة صخرة ، وحوله ربّات الفنون وعرائس البحار . وفى صباح أحد الأيام جاء المثّال بجماعة من الصحفيين إلى داره ليروا التمثال ويتأملوه قبل أن ينقشه على الرخام أو يصبّه فى البرونز . وكان لسوء حظه قد ترك النافذة مفتوحة فى الليلة السابقة ، وثارت عاصفة هوجاء دفعت المطر الغزير منها ، فتحول طين التمثال كتلة من الصلصال لا قوام لها ، وهوى مثال الشاعر فى وهدة من الوحل .

وفتح رودان الباب ، ودعا زوّاره ليتقدموه إلى الحجرة ، وإذا هو يرى الكارثة التى نزلت بتمثاله ، فكاد ينتف لحيته نتفاً من الغيظ والحنق ، ولكن أصوات الصحفيين ارتفعت بالإطراء العظيم .

« مدهش ! آية ! هذا ڤكتور هوجو ينهض متسامياً فوق الخبث والفساد . ماأعظمه من رمز ! ياأستاذ هذه آية من آيات العبقرية . لقد حاولت أن تمثل فساد عصر لم يبق فيه شىء من النبل والطهر سوى صوت الشاعر . ما أروع مافعلت ! »

فسألهم رودان متخاذلاً : « أهذا رأيكم ؟ »

فقالوا جميعاً : « طبعاً ، هذه آية الآيات » .

[أناتول فرانس]

نهج للحياة

« كلُّ مُقتَصِرٍ عليه كافٍ ... مَن صارع الحق صرعه ... الغِيبة جهد العاجز ... الخلاف يهدم الرأى ... الطامع فى وثاق الذل ... مَن لان عوده كثفت أغصانه » .
[على بن أبى طالب]

ما أكثر كلامنا عن العقل والمعرفة ، ولكن ماقيمتهما ؟ إن القلب لايسعه أن يحيا بهما . وإنَّ المرءَ لينزل عن كل معرفته فى سبيل قبلة واحدة ، وينزل عن كل عقله فى سبيل لمسة رفيقة واحدة — واحدة !
[الكاتبة : أوليف شراينر]

يقول المتفائل : إن كأسى ملأى إلى نصفها .
أما المتشائم فيقول : إن كأسى فارغة إلى نصفها .
[صحيفة « پوست دسباتش »]

امتحن معارفك الصحية

[الأجوبة الصحيحة]

١ : الحماق الجديرى ٢ : إسهال الأطفال
٣ : اكتشاف السير ألكسندر فلمنج
٤ : السرطان ٥ : كلها يمكن توقيها
٦ : السرطان ٧ : نقص ڤيتامين د
٨ : الحمى الروماتزمية ٩ : مخالطة المصابين من البشر ١٠ : حمى التيفود وحمى التيفوس والجدرى .
١١ : لويس باستور ، الوقاية من الكلب .
بيلا شيك ، اختبار مناعة الدفتريا .
مدام كورى ، اكتشاف الراديوم .
وليم رونتجن ، اكتشاف الأشعة السينية .
١٢ : حق ١٣ : باطل (يصنع الجسم ڤيتامين د ، إذا تعرض لضوء الشمس) ١٤ : باطل (يوجد فى كل أرض ملوثة بروث البهائم)
١٥ : باطل (عاج الأسنان أصلب) ١٦ : حق
١٧ : باطل (فقد تبلى الأسنان من نقص بعض عناصر الطعام) ١٨ : باطل (عدد المصابين به من الرجال أكثر من عشرة أضعاف المصابين به من النساء) ١٩ : باطل (ولكن الأطفال أشد قبولا للإصابة به) .

طريق إلى فهم الاتحاد السوفيتي



تأليف

ولـيم س . بوليت

سفير الولايات المتحدة سابقاً في الاتحاد السوفيتي
فسفيرها في فرنسا ، فمندوبها الخاص في الشرق الأوسط

إن منع الحرب يقتضى كل مفكر أن يحاول فهم الاتحاد السوفيتى ، وهذا الكتاب يختلف عن سائر الكتب التى تعالج المشاكل الدولية ، فى حسن بيانه ودقة اختصاره . وهو يستغرق شوق قارئه و يفيده معرفة واسعة ورأياً نافعاً . ولا ريب فى أنه سيصير مدار حديث الناس . والصفحات التالية هى مختصر الفصل الثانى منه :

مملكة فسيحة الأركان

قال روزفلت يوم ١٠ فبراير ١٩٤٠ « كل من تواتيه الشجاعة على مواجهة الحقائق يعلم أن الاتحاد السوفيتى تديره ديكتاتورية لا تقل جبروتاً عن أية ديكتاتورية أخرى فى العالم » . ثم لم يكد ينقضى عام واحد حتى كان هتلر قد غزا أوربا وانقلب يهاجم الاتحاد السوفيتى ، وقضت مصلحة أمريكا أن تُعان روسيا على مقاتلة غزاتها الألمان ، فوصلها المدد . وكان روزفلت يأمل بهذا التكاتف مع الاتحاد السوفيتى أن يتفقا على تسوية مؤقتة يكون من شأنها تدعيم سلم مُوطّد الأكناف .

وبعد مؤتمر طهران ظل روزفلت يتحدث ساعتين إلى الصحفى فورست ديفس ، فكتب فى صحيفة ستردای إيفننج بوست يقول : « إن الخطة العامة التى وضعها روزفلت للوصول إلى عالم متمسك بأهداب السلم مطيع للقانون هى جرّ روسيا إلى أن تشارك مخلصة طيبة النفس فى التسوية التى تعقب الحرب . ومن أجل ذلك تجنب روزفلت كل ما من شأنه أن يسىء إلى الكرملين . ولبّ سياسته هو العمل على تهدئة روع ستالين » .

وكان روزفلت يأمل تحقيق خطته بالوسائل الآتية :

١ — إمداد ستالين بكل ما يحتاج إليه فى مواصلة الحرب ، لا يبغى من ذلك جزاء .

٢ — حمل ستالين على أن يوافق على

التصريحات الصادرة ببيان الأهداف العامة كميثاق الأطلسى .

٣ — مقابلة ستالين وجهاً لوجه، وحمله على قبول مبادىء العالم الجديد والديمقراطية.

وانتقد أناس هذه السياسة وقالوا : « ما العمل إذا تبين ، برغم هذا التساهل ، أن ستالين لا يلين جانبه ، ولا يعدل عن إصراره على اتباع سياسته الخاصة ، صارفاً نظره عن العالم الغربى ؟ » وجواب ذلك ، كما قال فورست ديفس، هو: «إن روزفلت فاق كل رجال السياسة فى المغامرة بالكثير لنيل الكثير ، فقد راهن على أن الاتحاد السوفيتى فى حاجة إلى السلم ، وأنه يريد أن يشتريه بالتكاتف مع العالم الغربى » .

وقد خسر روزفلت رهانه ، ومات قبل أن يتبين له ذلك بدلالة ما فعلته روسيا فى بولندة والمجر والنمسا ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألمانيا وإيران ومنشوريا وكوريا ، إذ لم يتحول ستالين عن عقيدته . وقد أثبتت حوادث ١٩٤٥ بما لا يدع شكا ، أن ميثاق الأطلسى واتفاق يالتا كانا فى نظره بمثابة ثوب جميل وجده حاضراً ليتخفى فيه ، فهو يلبسه إلى أن تنقضى حاجته إلى التخفى .

لماذا يتعذّر إرضاء ستالين ؟

إن أهل الاتحاد السوفيتى يعيشون فى رقعة ذات غنى وفير لم تزدحم بالسكان ، ولم تستغل مواردها بعدُ ، ويبلغ من اتساعها أنها تشغل سدس العالم كله . ويتطلع الروس إلى مستوى أعلى فى المعيشة ، وإلى شىء من الحرية الفردية والسلم . فأما وقد نزع سلاح ألمانيا واليابان فلم يبق للدول الكبرى إلا أن تصادق الاتحاد السوفيتى . وهذا وضع يحمل أية حكومة ديمقراطية على أن لا تفكر إلا فى السلم. فلماذا إذن لا تنطفىء شهوة حكومة السوفيت فى التوسع ؟

ونجد جواب هذا فى التيارات القوية التى تدفع السوفيت إلى الاستعمار ، وبعضها دفين فى أعماق تاريخ روسيا ، وبعضها متصل الأسباب بالمذهب الشيوعى . فالاتحاد السوفيتى لا نظير له بين الدول الكبرى ، فهو ليس دولة فحسب ، بل هو أيضاً مركز قيادة لعقيدة دولية . ومن المهم أن نفهم حقيقة هذه الدولة ، وأهم من ذلك أيضاً أن نفهم حقيقة العقيدة الشيوعية ، إذ أنها هى التى تملى على الاتحاد السوفيتى سياسته الخارجية . فلنبدأ إذن بتتبع نمو روسيا تحت حكم القياصرة .

روسيا ترث الشكوك والريبة

عرف التاريخ الروس أول ما عرفهم سكاناً فى مراعى أوكرانيا والغابات الممتدة حول نجود نوفجورود وموسكو ، فى أرض

لا تحمها حدود طبيعية ، بل هى رقعة لا بيّنة التخوم ولا منيعة الجانب ، واقعة فى هذا السهل العظيم الممتد من منغوليا إلى بوردو .

ومنذ فجر التاريخ شهد هذا السهل الخصب المترامى بين آسية وأوربة هجرة قبيلة إثر قبيلة من الهمج الرحّل نحو الغرب ، يعبرون الأودية المنخفضة بين جبال الأورال . ولعل الروس أنفسهم قد وصلوا بهذا الطريق ذاته إلى الأرض التى استقروا فيها ، ولم يجدوا فيها ما يحميهم من جموع الهمج التى تتابعت فى إثرهم ، وقاسوا أيضاً عداوة جيرانهم فى الشمال والجنوب والغرب ، وغزيت أرضهم مراراً . فتاريخهم سلسلة من الحروب ، والمجاعات والتعذيب ، وهتك الأعراض ، والتقتيل والرق ، فعلمتهم هذه التجارب القاسية أن ينظروا إلى الغريب نظرتك إلى من يريد أن يقتلك ويسلبك أرضك . فلا جرم أن أصبحوا من جراء هذه الأهوال أكثر الناس ريبة . فلم يكن لهم بد من ممارسة فن الخداع وفن الحرب ، وأصبح من غرائزهم أن يعاملوا الغريب بوجه يبدى الصداقة ، والقلب باق على الحذر والتكتّم .

والروس من أشد أهل أوربة بأساً ، ولولا هذا لما عاشوا ، وقد خرجوا من محنهم القاسية دون أن يمسّ ما ورثوه من القوة والبأس ، فهم أقوياء الأجسام والعقول والأرواح . والمرأة الروسية أكثر تحملا للجهد من الرجل ، وهى منذ كانت تقوم بأعمال أشق من عمل زوجها ، وتلد له أيضاً ، ولا تزال على ذلك إلى اليوم . ولقد غلب العدو الروس مراراً فى القتال ، ولكن هيهات أن يفوقهم فى كثرة النسل .

سبعة قرون تحت حكم الطغاة

ولقد ظل الروس طوال تاريخهم تحت حكم الطغاة ، فما عرفوا قط معنى الحياة فى ظل الحرية المنظمة . وكانت روسيا إبان حكم آخر القياصرة نيقولا الثانى ، تبدو فى عين الأمريكى والإنجليزى بلداً يجثم عليه استبداد لا يطاق ، ولكن الروس كانوا يومئذ ينعمون بنصيب من الحرية يزيد عما ألفوه .

وقد ثبّتت دعائم الحكم الغاشم فى روسيا أنها وقعت فى سنة ١٢٤٠ فى يد باتو حفيد جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية ، فعاش الروس قرنين تحت حكم المغول ، وأجبر من بقى حياً من أمراء الروس على الاعتراف بخضوعهم (للخان) زعيم المغول . ويقول المؤرخ فرنادسكى :

« وقد تجلى أثر المغول فى نواحٍ كثيرة من أنظمة الحكومة والمجتمع فى روسيا ، إذ أن الدولة المغولية كانت تقوم على مبدأ

خضوع الفرد خضوعاً مطلقاً لحكم قبيلته ، ويفضى هذا إلى خضوعه للدولة . وقد رسخ هذا المبدأ على الزمن رسوخاً تاماً فى أذهان الشعب الروسى ، وكان من نتائجه فرض التجنيد الإجبارى على جميع طبقات الشعب . وإذا نظرنا إلى المبادىء المغولية نظرة شاملة وجدناها ضرباً من الدولة الاشتراكية .

« وجاء المغول برأى جديد فى سلطة الأمير ، إذ قالوا إنها تستند إلى قوته التى لاترحم ، فهى سلطة فردية مطلقة ، وينبغى الخضوع لها خضوعاً أعمى . فلما انقضى حكم المغول ورث خلفاؤهم هذا الرأى » .

ولم يقتصر تأثير المغول على أنظمة الحكم فى روسيا بل تعداها إلى الدين أيضاً ، فقد حمل الدوق فلادمير ، صاحب مدينة كييف رعاة الوثنيين على التنصر فى سنة ٩٨٨ . ومن يومئذ أصبح الروس أكثر الشعوب المسيحية تديناً . وسرعان ماعرف حكامهم كيف يستغلون تدينهم لأغراضهم السياسية ، فلما استولى الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وحطموا الدولة الرومانية الشرقية ، بدأ إيفان الثالث ، دوق موسكو ينشر فكرة خلافته لقسطنطين ، وأنه أصبح الحامى الوحيد للكنيسة الأرثوذكسية ، وأن موسكو هى رومة الثالثة . واستكمالا لمظاهر هذه الخلافة ، تزوج إيفان إحدى قريبات آخر الأباطرة البيزنطيين . ومن هنا نشأت عقيدتهم بأن موسكو هى مبعث النور والمدد لهداية الناس إلى الفضيلة . وما أسهل أن يقتنع الشعب بأنه أرقى من بقية الشعوب ، وأنه جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . وأصبح الروس المتدينون يؤمنون بأن الله قد اختارهم لإنقاذ العالم . وصار خلاص العالم على أيديهم مثلاً أعلى لايبرح أذهانهم منذ استولى الترك على القسطنطينية . وقد استعان القياصرة بهذا الاعتقاد لشن الحروب ، لا على المسلمين فحسب ، بل على سائر الأمم المسيحية أيضاً . والشيوعيون ينهجون هذا المنهج ، مع عداوتهم للدين ، بغية تأييد عُدْوانهم .

البوليس السرى من تقاليد القياصرة

وهكذا أنشأ الحكم المغولى عادتين روسيتين لاتزالان إلى اليوم من العوامل القوية الحاسمة فى روسيا السوفيتية .

١ — أنه من المألوف أن يعيش المرء فى ظل ديكتاتورية ودولة مطلقة السلطان .

٢ — أنه كتب على موسكو أن تحكم العالم وتنقذه .

وقد استحدث إيفان المخيف (الذى حكم من ١٥٤٧ إلى ١٥٨٤) فكرة جديدة فى الحياة الروسية تمثلت فى إنشاء هيئة

منقطعة النظير لا تزال قائمة إلى اليوم ، ألا وهى هيئة البوليس السياسى السرى ، تتبع الخائنين له وتعاقبهم بأشد قسوة وحشية .

وكان إيفان المخيف عظيم الهمة وافر القوة يلذ له التعذيب (وقد قتل ابنه بيده) ، فكرهه النبلاء ، فقرر إيفان تصفيتهم ، وعهد بهذه المهمة إلى بوليسه السرى، وأطلق يده فى قتل من يشاء من النبلاء ، وهتك أعراض زوجاتهم ومصادرة أملاكهم . فلما لم يبق منهم قدر كاف للتقتيل ، صرفوا بحثهم إلى ضحايا أخر . فحدث مرة أن ذبحوا أغلب سكان نوفجورود . ولقد شهد الميدان الأحمر فى موسكو ، بأمر من إيفان المخيف ، مصرع مئات ممن وقع عليهم غضبه، حيث كان يلقى أحدهم حياً فى ماء يغلى أو يشوى على النار حتى يكونوا عبرة لسائر رعاياه . حدث هذا يوم كان شكسبير حياً ، والملكة إليزابيث جالسة على عرش إنجلترا ، ووثيقة الماجنا كرتا (التى لا تجيز القبض على إنسان إلا بحكم) نافذة المفعول منذ ٣٥٠ سنة . فهذا هو مقدار تأخر الروس فى الزمن عن أساليب المدنية الغربية .

وهذه الهيئة السرية التى أنشأها إيفان ، وسماها « أوبريكينا » باقية إلى اليوم فى روسيا . حقاً لقد تغير اسمها فى زمن آخر القياصرة وأصبحت تدعى (أوخرانا) ولكن أصل طبيعتها لم يتغير . ثم رفعت الحكومة السوفيتية سلطة البوليس السرى إلى منزلة جديرة بحاكم أشد قسوة من إيفان المخيف . وكانت تعرف إبان حكم لينين وستالين باسم (تشيكا) ثم باسم (أوجيبو) وهى تسمى اليوم (نيكفيدا) وقد ارتفعت بالتجسس إلى مقام الفنون الجميلة ، وتولت ذبح آلاف مؤلفة من الرجال والنساء والأطفال ، ومكنت للذعر فى قلوب الروس . (وقد قلدها هتلر وأنشأ على غرارها الجستابو الذى يتصل نسبه بالأوبريكينا) .

وقد ظل الروس قروناً عديدة يعدون إيفان المخيف هو المثل الحى للشر ، ولكن ما كاد ستالين يفرغ من تصفيات (١٩٣٦ـ ١٩٣٨) حتى بدأ مؤرخوه المطيعون يصورون إيفان فى صورة البطل ، فترى الصبيان يلقنون اليوم فى دروسهم أنه كان قائداً نبيلا للشعب الروسى .

وفرق إيفان ما يملكه ضحاياه من أرض ومدن وقرى على «الأوبريكينا» ، وأنشأ له بلاطاً جديداً من هؤلاء السفاحين البارعين، وسمى نفسه قيصراً تشبهاً بقياصرة الرومان ، واصطفى لنفسه حاشية غريبة الأطوار ، إذ جعلها على غرار الرهبان ، فكان رجال الأوبريكينا يرتدون المسوح السود ، ويخلطون بين أعنف نزوات الفحش وبين

التعبد والصلاة . وقد رأت الأوبريكينا أن أرضهم تغل لهم ربحاً أوفر لو هم حرموا على فلاحيها أن ينتقلوا إلى غيرها . وكانت حرية الفلاحين قد حدّ منها كثيراً ولكن إيفان أصدر فى سنة ١٥٨١ أمراً بأن يبقى الفلاحون وأسرهم إلى الأبد فى الأرض التى يزرعونها . وهكذا فرض الرقّ على الفلاحين . ويختلف الرق فى روسيا عن مثيله بين الزنوج ، إذ يسترق الفلاحين للأرض لا لملاكها ، فهم لا يباعون إلا مع الأرض . وأصبح معظم الروس رقيقاً ، فالفلاحون هم سواد الشعب ، ولم يتحرروا من هذا الرق إلا فى ١٨٦١ . وهكذا عاش الشعب الروسى ٢٨٠ سنة فى حال كحال رقيق الزنوج فى أمريكا ، بل لعلها شرٌّ وأشنع .

وإيفان المخيف هو أول من عهد إلى رعاياه فى مملكة موسكو الصغيرة ، أن يخرجوا إلى الغزو ، فأتاح لهم أن يحكموا من كرة الأرض سدسها ، وانتزع فى ١٥٥٢ مدينة قازان من يد حكامها التتر ، واستولى فى ١٥٥٤ على أستراخان . وهكذا بدأت أمواج من الروس تغمر السهول المديدة التى اجتاحها المغول من قبل فى غزواتهم إلى أوربة . وقد خضع لحكمهم فى القرون الأربعة الماضية ١٦٨ شعباً وقبيلة . وهذه الكتب المدرسية الصادرة فى الاتحاد السوفيتى فى ١٩٣٥ مكتوبة بنحو ١٦٥ لغة ولهجة .

وقد بسط الروس حكمهم على سيبريا والشعوب الإسلامية التى يغصّ بها الجانب الشرقى الجنوبى من روسيا ، وعلى القوم والقوقاز وأواسط آسية ، وقد تم هذا الغزو ببطء وبعد وقت طويل ، ولكن الروس ثابروا عليه ، وأخيراً ثبت الروس دعائم حكمهم فى الشواطىء الشمالية للمحيط الهادى .

مشروعات السنوات الخمس فى عهد القيصر

وحاول الروس أن يتجهوا شطر المحيط الأطلسى ، فصادفوا معارضة أشد بأساً مما لقوه من قبل ، إذ صدمتهم طلائع المدنية الغربية ، وهى تفوق مدنيتهم فى كافة مظاهر الحياة ، فلم يتقدموا كثيراً لما هم عليه من التأخر . وأراد بطرس الأكبر (الذى حكم من ١٦٨٢ إلى ١٧٢٥) أن يقضى على هذا التأخر ، فزار أوربة ودرس فنونها الصناعية .

كان رجلا شديد الصرامة يتأجج نشاطاً وذكاء ، وقد قرّ عزمه على أن يقتبس الأساليب الأوربية ، مهما كلفته من ثمن ، لتنظيم اقتصاديات بلاده ، لكى يزيد قدرتها على القتال ، ولكنه — كما يقول المؤرخ الروسى الكبير كليوشفسكى :

« لجأ إلى القسوة المفزعة لتنفيذ أغراضه النافعة ، فكان إصلاحه صراعاً مرّاً

بين الطغيان وبين الشعب وهممه الفاترة . وكان بطرس يأمل بالتهديد بسلطانه الواسع أن يوقظ روح الابتكار فى شعب غريق فى الرقّ ، كما أراد أن يستعين على نشر التعليم بالنبلاء أصحاب الرقيق ، إذ كان شرطاً لازماً لانبعاث روح الابتكار فى الشعب . وأراد أن يعمل الرقيق ، وإن ظل رقيقاً ، عمل الأحرار ذوى الإرادة . فهذا التفاعل بين الاستبداد والحرية وبين التعليم والرق ، هو المشكلة السياسية التى ظللنا قرنين ، منذ حكم بطرس ، نحاول أن نجد لها حلا ، وهى لا تزال إلى اليوم باقية بغير حل » .

ولا يزال ستالين يحاول أن يجد لها حلا ، فإن مشروعات السنوات الخمس التى وضعها متصلة النسب بمشروعات بطرس . وقد فرضها بطرس — كما يفعل ستالين — على شعبه المتقاعس بالقوة بل بالقتل .

وحاول بطرس أن يفتح لبلاده نافذة تطل منها على أوربة ، فنقل عاصمته من موسكو إلى المستنقعات المحيطة بنهر نيفا ، وعلى أكمة هنالك بنى مدينة سان بطرسبرج وهى تسمى اليوم لننجراد . ودفعه حرصه على هذه النافذة المطلة على أوربة ورغبته فى توسيعها ، إلى محاربة السويد ، فهزمهم فى سنة ١٧٢١ واستولى على إستونيا وليفونيا وبعض أجزاء كاريليا وفنلندة .

فلما هبّ بطريق موسكو الزعيم الروحى للكنيسة الأرثوذكسية يعارض إصلاحات بطرس ألغى بطرس منصب البطريق وجعل مكانه هيئة حكومية تسمى « المجمع المقدس » . وهكذا تم لبطرس الأكبر إخضاع الكنيسة لسلطانه ، كما فعل ستالين من بعده ، إذ جعلها خاضعة للسوفيت ، حينما أنشأ فى الحكومة السوفيتية لجنة تختص بشئون الكنيسة الأرثوذكسية ، ورئيسها أشبه بوزير الدين .

وسار خلفاء بطرس على خطته فى محاولته تدعيم استبداده وتقوية جيوشه باقتباس ما تعرفه أوربة من العلوم والأساليب الصناعية . فإذا نظرنا إلى بلاط الإمبراطورة كترينا (التى حكمت من ١٧٦٢ إلى ١٧٩٦) ، وجدت فيه مظاهر الحياة الأوربية ، ولكن الفلاح الروسى ظل وراء هذه المظاهر يعيش فى وهدة الأقذار والبؤس والرق .

وتاقت كترينا إلى المجد الحربى ، فتكتمت أمر خطة وضعتها للغزو ، وكان أول غرضها أن تستولى على شواطىء البحر الأسود والبلقان والقسطنطينية ، فهاجمت تركيا وانتزعت منها مساحات واسعة ، ولكنها لم تفلح فى فتح القسطنطينية . أما غرضها الثانى فكان بولندة .

وأرادت كترينا أن تتفادى الحرب بينها

وبين بروسيا والنمسا فأشركتهما في جريمتها، واقتسمت الدول الثلاث بولندة لأول مرة في ١٧٧٢، ثم في ١٧٩٣، وأخيراً في ١٧٩٥، بعد أن حارب البولنديون من جميع الطبقات ببسالة دفاعاً عن حريتهم، ولكن اسم بولندة محي من خريطة أوربة.

واستولت روسيا على أكبر جزء من بولندة، ولكنها وجدت نفسها تزدرد لقمة عسيرة الهضم، إذ أصبح كل بولندي يدين بما جاء في نشيدهم القومي: « لن تموت بولندة ما دمنا أحياء »، ومن العسير أن يحكم رجال ذاقوا أقل قسط من الحرية بوسائل العنف والاستبداد التي ابتدعها رؤساء المغول. فاضطر الإسكندر الأول حفيد كترينا إلى بحث مطالبة البولنديين بدستور لهم، فوضع لهم في ١٨١٥ دستوراً يجمع بين روسيا وبولندة تحت حكم القيصر نفسه، ولكنه منح بولندة كياناً سياسياً منفصلا له مجلس نواب وصحافة حرة وعلم وطني مستقل.

وامتعض رعايا القيصر حين رأوه يمنح البولنديين المغلوبين حقوقاً أنكرها على الروس الفاتحين، وكان هذا ولا ريب تناقضاً عجيباً، فبدأ الروس يطالبون بحقوق مثلها. ولما شبت نيران الثورة في بولندة سنة ١٨٣٢ قضى النبلاء الروس على هذا التناقض بأسلوب ينم عن طبعهم، إذ قرروا إلغاء دستور بولندة، بدلا من أن يمنحوا الروس مثل ما للبولنديين من حقوق، وكذلك ساروا بين الأمتين، ولكنها مساواة على الطريقة الروسية، غير أن هذا المستوى كان أحط مما ألفه البولنديون.

ووصف المؤرخ سير برنارد باريس حوادث ١٨٣٢ أصدق وصف حين قال: «سقطت بولندة فريسة في يد الأداة الحكومية الروسية، فكأن روسيا لا تستطيع حكم بولندة إلا إذا جردتها من المدنية».
واستعادت بولندة استقلالها ١٩١٨، ولكنها محيت مرة أخرى من خريطة أوربة حينما هاجمتها جيوش هتلر وستالين معاً، وتصافح الديكتاتوران الغاشمان فوق جثتها، وأبرق ستالين إلى فون روبنتروب يقول: « لقد ربط الدم بين الشعبين الروسي والألماني برباط صداقة جديرة بالبقاء والثبات الدائم».

واليوم تحتل الجيوش الروسية بولندة، وتقيم في وارسو حكومة كالألعوبة في يد موسكو. ومن البلاء أن لا يجد المرء شيئاً يحمله على الاعتقاد بأنهم اليوم أكثر رغبة عما كانوا منذ ١١٤ سنة، في منح البولنديين حقوقاً لم تمنح للروس حتى اليوم.

الدنو إلى الديمقراطية

وتجلى أول مظهر لبدء اهتمام الروس

بالديمقراطية السياسية والحرية الفردية ، على أثر غزو نابليون أرض روسيا. فلما أوقعت الجيوش الروسية الهزيمة بنابليون ، سارت إلى باريس ، فرأى الضباط الروس فى فرنسا وألمانيا مستوى من المعيشة والثقافة والحرية والسعادة أرفع بكثير من مستواهم ، فلما عادوا إلى روسيا بدأ نفر من صغارهم فى تأليف جمعيات سرية غرضها الإصلاح السياسى .

ولما مات القيصر إسكندر فى ديسمبر ١٨٤٥ قام نزاع على وراثة العرش ، فانتهز المتآمرون هذه الفرصة وأشعلوا نار الثورة فى سان بطرسبرج ، ولكنه كان يسيراً على حاكم المدينة أن يخمدها ببضعة طلقات من المدافع ، وقدم للمحاكمة ١٢٠ متآمراً فأعدم خمسة منهم ، وذلك لأنه لم يكن من دأب قياصرة القرن التاسع عشر أن ينتقموا من أسر المتآمرين وأصدقائهم ، كما كان يفعل سلفهم إيفان المخيف ، أو خلفهم ستالين .

وظلت تيارات الديمقراطية التى حركها المتآمرون تعم البلاد طوال القرن التاسع عشر ، وطغت فى ١٩٠٥ كالسيل المتدفق ، وأخيراً غمرت القيصرية فى ١٩١٧ . ولقد قضت روسيا ٩٢ سنة فى فوران سياسى واقتصادى وثقافى وفنى ، وانبثق من هذه الفورة كتاب عظماء كبوشكين ودستوفسكى وترجنيف وتولستوى وتشيكوف ، وموسيقيون مشهورون وارتقى الرقص المسرحى (الباليه) إلى مستوى الفنون الجميلة ، وقام العلماء الروس كمنديليف وبافلوف وغيرهما بأبحاث علمية عظيمة الخطر ، وأعانت السكك الحديدية وانتشار الصناعة على تحويل روسيا عن الاقتصاد الزراعى الذى كان وزاد عدد السكان زيادة كبيرة حتى بلغ ١٧٠ مليوناً فى ١٩١٤ .

أما القياصرة فقد ظلوا وحدهم — فيما يبدو — عاجزين عن التطور ، إذ لبثوا يتشبثون بسلطان المستبدين لا ينزلون عن شىء من حقوقهم حيال ضغط القوى المطالبة بالإصلاح ، إلا بقدر ضئيل أو بعد فوات الوقت . والواقع أنهم كانوا لا ينزلون عن بعض سلطانهم إلا حين تثير هزيمتهم فى الحرب غضب رعاياهم . وتأججت نيران ٥٥٦ ثورة بين الفلاحين فى عهد القيصر نيقولا الأول (من ١٨٢٥ إلى ١٨٥٥) ، ولكنه لم يهتد إلى علاج أحسن من إقدامه على إلغاء حرية الفكر . واشتبك قبل وفاته فى حرب القرم ضد فرنسا وبريطانيا العظمى ، وخلف لوارثه إسكندر الثانى (من ١٨٥٥ إلى ١٨٨١) هزيمة منكرة . وكان إسكندر متذبذباً سليم الطوية ، فاضطره ضغط الغضب الوطنى والحركة الديمقراطية التى انبعثت من الهزيمة إلى أن يحرر الرقيق فى ١٨٦١ .

واقتبس فى ١٨٦٤ نظام المحلفين ، وكان هذا النظام معروفاً فى إنجلترا منذ ٦٥٠ سنة خلت ، ثم كانت نهايته أن قتل غيلة .

وعاد إسكندر الثالث (من ١٨٨١ إلى ١٨٩٤) إلى سياسة القمع ، واضطهد الكنائس المنشقة ، وكم الصحافة ، وطارد المطالبين بالإصلاح السياسى والثوار . ثم خلفه آخر القياصرة نيقولا الثانى ، وهو رجل واهن ضعيف كالطفل فى عجزه عن قيادة الشعب الروسى الجامح ، وقد أعلن نيقولا الثانى بعد تولية العرش : « ليعلم الناس جميعاً أننى لست أقل من أبى إصراراً على الدفاع عن مبدأ حكم الفرد » .

وأثارت هزيمة روسيا على يد اليابان فى ١٩٠٥ غضباً وطنياً أفضى هو وجميع المظالم التى يعانيها الشعب الروسى ، إلى إعلان الإضراب فى كافة أرجاء البلاد فى ١٠ أكتوبر ١٩٠٥ . فاضطر نيقولا الثانى إلى التخلى عن شىء قليل من سلطته ، ومنح رعاياه فى ١٧ أكتوبر قسطاً من حقوقهم ، وبرلماناً يعرف باسم الدوما .

وعم الفرح أرجاء البلاد ، ومرت لحظة خيل فيها أن روسيا قد تصل بالتدريج إلى نظام الملكية الدستورية كما فى إنجلترا ، ولكن القيصر كان يمقت الدوما ، فعاشت روسيا بعد ذلك ١٢ سنة فى حال تقارب الثورة . ومع ذلك كانت تلك السنون هى الفترة الوحيدة التى نعم فيها الروس منذ فجر تاريخهم بقسط ضئيل من الحرية .

وألفت الحرب الأوربية الأولى بين معظم الروس فترة قصيرة تحت لواء « الاتحاد المقدس » ، واتقدت كراهية الألمان فى الصدور ، ولكن الهزائم اللاحقة التى أنزلها عاهل ألمانيا بالروس أثارت سخط الشعب على حكومة القيصر ، لإهمالها الشنيع وتلوثها بالرشوة . وبدأت جيوش الجنرال بروسيلوف فى صيف ١٩١٦ تشن هجوماً موفقاً على النمساويين والألمان ، ومع ذلك كانت الجنود الروسية تبيت على الطوى ثلاثة أيام أو أربعة ، ولم يكن لديهم شىء من وسائل العلاج ، ولكنهم ثابروا على هجومهم بشجاعة فائقة وجلد . ولما انقضى هذا الهجوم فى سبتمبر ١٩١٧ كان عدد الخسائر فى جيش بروسيلوف قد بلغ مليون نسمة ، وأخذ الجرحى يتسللون إلى المؤخرة ، فأثار منظرهم حنقاً عنيفاً على القيصر الضعيف العاجز ، وعلى زوجه الواقعة فى براثن راسبوتين ، وعلى أداته الحكومية الفاسدة .

وقتل راسبوتين ، وأخذ كل من يستطيع الاتصال بالقيصر يحذره قرب وقوع الثورة ، وأخذ رجالات الدولة وسفراء حلفائه يحضونه على تبديل حكومته ، ومنح الدوما

سلطات واسعة ، ولكنه لم يستمع لهم ، بل أمر فى ١١ مارس ١٩١٧ بحـل الدوما وإطلاق الرصاص على المظاهرات التى سارت فى شوارع بتروجراد تصرخ مطالبة بالخبز .

الثورة الروسـيـة

شبت نيران الثورة فى اليوم التالى ، وفى صباح ١٢ مارس ١٩١٧ اكتسحت بتروجراد جموع المتظاهرين الهائجة الجائعة . وبعد ثلاثة أيام تخلى القيصر عن العرش ، وأرسل هو وأسرته إلى المنفى ، ولقوا جميعاً حتفهم قتلاً بعد أن وثب السوفيت إلى الحكم وهكذا محى اسم القيصر من روسيا ، ولكن القيصرية بعثت مرة أخرى باسم جديد : ألا وهو قيصرية لنين وستالين .

واستبشر العالم كله بخلع القيصر ورأى فيـه دلالة على بدء عهد من الحرية يستمتع به الشعب الروسى ، وأخذ الروس أنفسهم فى غمرة الفرح يعـانق بعضهم بعضاً فى الطرقات . وظن سائر العالم — وهو جاهل بأحوال روسيا وتاريخها أو لا يعلم منـه إلا القليل — أن امبراطورية القيصر المترامية الأطراف ستصبـح جمهورية ديمقراطية .

وبذلت الحكومة المؤقتة التى خلفت القيصر كل جهدها لاقتباس الأنظمة الديمقراطية ، ولكنه كان مجهودا ضعيفاً ، فقد كان رئيسها الأمير ليفوف من أشياع تولستوى المؤمنين بمبدأ عدم مقاومة الشر ، وعلاوة على ذلك فقد سقطت تلك الحكومة منذ مبدأ عهدها تحت رحمة العمال السوفيت ومندوبى الجنود فى بتروجراد .

وكان سوفيت بتروجراد عمالاً وجنوداً قد تم اختيارهم من المصانع والكتائب المعسكرة بالبلد ، وانضم إليهم زعماء الأحزاب الاشتراكية المختلفة . وحـرم على كافة الأحزاب غير الاشتراكية أن ينضموا إلى السوفيت . وفى مبدأ الأمر كان أغلب أعضاء هذه الهيئة من الثوار الاشتراكيين الذين يدعون أنهم يمثلون الفلاحين . وانقسم الحزب الاشتراكى الديمقراطى إلى شعبتين ، تسمى الأولى « منشفيك » ، وهى تؤمن بأن الوصول إلى الاشتراكية ينبغى أن يتـأتى بالوسائل الديمقراطية ، وأنه لن يكتب لها الاستقرار بنجاح إلا إذا عمت الصناعة البلاد . والثانية هى شـعبة « البلشفيك » ، الذين أرادوا أن يقيموا النظام الديمقراطى فوراً بأية وسيلة كانت . ولما تبين لهيئة أركان الحرب الألمانيـة أن لنين سيعمل على إخراج روسيا من الحرب ، بعثت بهذا الزعيم البلشفيكى إلى لنينجراد فى إبريل ١٩١٧ ومنـذ ذلك الحين بدأ البلشفيك يتسمـون باسم الحزب الشيوعى .

وكان سوفيت بتروجراد هيئة ضخمة العدد يعجزها أن تؤدي أعمالها يوماً بعد يوم في ثورة لا تزال تتأجج ، فانتقلت قيادة العمل إلى « اللجنة المركزية التنفيذية » ، وسرعان ما انتزعت أعنة السلطان هيئة أخرى أقل منها عدداً هي مكتب رياسة اللجنة المركزية التنفيذية . وكان لنين يفوق بقية الزعماء في الذكاء والإرادة والحصافة السياسية . فأخذ هو وأعوانه يبسطون نفوذهم شيئاً فشيئاً على السوفيت . وهكذا تحولت ديكتاتورية الطبقة العاملة قليلاً قليلاً إلى ديكتاتورية متحكمة في الطبقة العاملة ، وفي كل فرد آخر في روسيا ، وتجمعت هذه الديكتاتورية في يد قائد الحزب الشيوعي .

ولولا لنين لكان من الجائز أن لا تقوم للبلشفية والحزب الشيوعي قائمة . وينحدر لنين من أبوين من الطبقة الوسطى ، وهو رجل ضخم الرأس قصير الساقين ، حلو الدعابة ، قادر على اجتذاب قلوب الناس ، وقد تبين له طريق حياته حينما قبض على أخيه الأكبر إسكندر إليانوف وهو يتآمر على قتل القيصر إسكندر الثالث ، وكان يحبه حباً عميقاً ، ثم شنق أخوه . فمن يومئذ وجد لنين بين جنبيه في الأوقات الحرجة قلباً قاسياً لا يرحم ، يناقض كل المناقضة ما جبل عليه من رقة ورحمة ، وكتب في ١٩٠١ يقول :

« إننا لم نتخل قط ، ولا يمكن أن نتخلى أبداً ، عن الإرهاب ، فهو من أعمال الحرب ، ولا غنى عنه في بعض مراحل الجهاد » .

وأعمال لنين أعون من أقواله في فهم الاتحاد السوفيتي ، ولكن بعض كلماته أصبحت اليوم من الحقائق الواقعة . وفارق وطنه سنة ١٩٠٠ ومعه بعض شركائه وأنشأ في مونيخ فرعاً لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي سماه (إسكرا) أي الشرارة .

وتضمنت أولى مقالاته في الصحف البذرة التي انبثق منها الحزب الشيوعي الراهن إذ قال : « يجب أن نعلم رجالا يقفون على الثورة حياتهم كلها ، لا وقت فراغهم فحسب ، فإن مقاومة البوليس السياسي تتطلب صفات خاصة ورجالا يحترفون الثورة . فإذا احتشدت لدينا فصائل من العمال الثائرين حنكتهم الدربة الطويلة ، فلن يتغلب عليهم رجال الشرطة أياً كانوا . وينبغي لنا أن نستعين بالكتمان المطبق والتدقيق في اختيار الأعضاء . وأخيراً ينبغي إنشاء رابطة من الأخوة والثقة بين الثوار ، فمطلبنا إذن أن تكون لنا هيئة عسكرية »

وقد نجح لنين في تأليف هذه الهيئة العسكرية ، أي الحزب الشيوعي الذي يتحرى الكتمان المطبق والتدقيق في اختيار الأعضاء .

البوليس السري القيصري

يبعث من جديد

ووقفت الهيئة الثورية المتماسكة القادرة التى شكلها لنين ، إلى الظفر بجنود وأسلحة وانتهزت فرصة الفوضى التى أشاعها تفكك الجيش الروسى المنهزم فنجحت يوم ٧ نوفمبر ١٩١٧ فى قلب الحكومة المؤقتة . واجتمع مؤتمر السوفيت فوراً ، وتألفت حكومة باسم وزارة الشعب رئيسها لنين ، وتولى تروتسكى وزارة الخارجية . وكان فى ذيل القائمة اسم « أ . ف . زوجا شفيلى ستالين الذى تولى منصب رئيس الجنسيات » .

واندفعت الحكومة السوفيتية تعمل حثيثاً لبسط سلطانها على روسيا كلها . وبعد نزاع دام أسبوعاً ، قضت على خصومها فى موسكو ، ثم بدأت تمد سلطانها على المدن الصغيرة والقرى فصادفت معارضة كبيرة . فعمد لنين فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٧ إلى بعث « الأوبريكينا » من جديد ، ذلك السلاح القديم الذى استغله إيفان المخيف ببراعة ووحشية . وأطلق عليها لينين اسم « اللجنة العليا للقضاء على أعداء الثورة » ، ولفظ « تشيكا » مركب من الحروف الأولى فى هذا الاسم . وبدأ رجال التشيكا يعملون بالقسوة التى عرفت بها الأوبريكينا ، وعلا « الإرهاب الأحمر » علواً كبيراً .

ويقول المؤرخ فرنادسكى :

« لم تكن الفظائع التى ارتكبت فى هذا العهد عرضاً من أعراض سوء استعمال السلطة ، فإن الإرهاب الأحمر أصبح أمراً معترفاً به ، وهو جزء لايتجزأ من أساليب إخضاع الأمة لإرادة البلشفيك . وقد صرح لنين نفسه بأنه « لايتصور أن تقوم الطبقة العاملة ديكتاتورية إلا بالإرهاب والعنف » فنزعت التشيكا من قلبها الرحمة والرفق . وكانت مهمتها محاربة طبقة البورجوازى (أصحاب الأملاك والتجار) ، ولكنها فى الواقع أبادت بلا تمييز كل من يشتبه فيهم أنهم من المعارضين للحكومة السوفيتية » .

وكان أمل جميع الديمقراطيين الروس منذ ثورة ديسمبر ١٨٢٥ أن يروا الشعب الروسى وقد أتيح له يوماً ما أن ينتخب جمعية نيابية لتضع دستوراً ديمقراطياً . وكانت الحكومة المؤقتة قد بدأت تعد هذه الانتخابات ، وأجريت يوم ٢٥ نوفمبر ١٩١٧ أى بعد ١٨ يوماً من استيلاء السوفيت على مقاليد السلطة فى بتروجراد . وكان عدد أعضاء الجمعية ٧٠٣ فلم يكن بينهم سوى ١٦٨ نائباً شيوعياً . واجتمع نواب الجمعية الدستورية فى بتروجراد يوم ١٨ يناير ١٩١٨ ، فأسرع الشيوعيون فقبضوا على النواب غير الاشتراكيين ، ولكن الأغلبية ظلت

للاشتراكيين الثوريين ، وانتخب شيرنوف لرياستها وهو معروف بعدائه للشيوعية ، فأرسل لنين إلى الجمعية جنوداً تحمل البنادق والمدافع وفض اجتماعها . وهكذا ضاع كل أمل فى إقامة الديمقراطية فى روسيا وأصبحت حكومة الاتحاد السوفيتى منذ ذلك الحين مظهراً سافراً للديكتاتورية التى يتولاها قائد الحزب الشيوعى . وكأن نظام الحكم الاستبدادى القديم الذى فرضه رؤساء المغول قد عاد فأطبق من جديد على الشعب الروسى بقسوة لا ترحم فكان كما قال مازاريك :

« لقد تخلصوا من القيصر لا من القيصرية، فهم يلبسون رداءها مقلوباً »

الفوضى والحرب الأهلية

وتعقدت المشاكل التى واجهها لنين تعقداً شديداً ، من جراء إيمانه بأن البشر لن يجدوا خلاصاً إلا على يد الشيوعية ، وأن دعوته ليست هى إقامة الشيوعية فى روسيا فحسب ، بل إتاحة خيراتها للعالم كله . فلم تقتصر أغراضه المباشرة على تدعيم الحكومة السوفيتية فى روسيا فحسب ، بل تعدتها إلى تشجيع الثورة فى أوربة كلها . وكان يؤمن بأن الثورات الاشتراكية ستجتاح ممالك كثيرة فى أوربة، ولاسيما المجر.

ولكن هذه الثورات الاشتراكية لم تتقد شرارتها . والحكومة الشيوعية الوحيدة التى قامت زمناً وجيزاً فى أوربة كلها ، هى حكومة بيلاكون فى المجر. وقد امتد عهدها من ٢١ مارس إلى أول أغسطس ١٩١٩ .

وقد بذل لنين أقصى جهده فى مساعدتها على البقاء ، وأرسل إليها سراً وفوداً تحمل المال والجواهر ، وظل يوالها فى الراديو بنصائحه وتوجيهاته، ولكن الاتحاد السوفيتى غير متصل الحدود بالمجر، فكان من العسير أن تعينها بالجيوش ، ومن جراء انقطاع المواصلات بينهما ضعفت هذه الحكومة وذهبت ريحها . وكان أهم ما أدته أنها علمت الاتحاد السوفيتى أن من العسير عليها أن تعين الثورات الشيوعية فى بلاد لا تجاور حدودها روسيا ، وأنه من الحكمة أن تحاول توسيع المنطقة التى تحكمها موسكو ، وذلك بغزو الأقاليم المجاورة قبل أن تحاول الإشراف على البلاد البعيدة عنها .

وأراد لنين أن ينقذ الحكومة السوفيتية من الدمار على يد جيوش عاهل ألمانيا ، فعقد معها فى ٣ مارس ١٩١٨ صلحاً منفرداً بالرغم من التزام روسيا فى معاهداتها مع حلفائها بأن لا تفعل . ورأى لنين فى جوع الشعب الجائعة ما يهدد بقلب نظام حكومته ، فأرسل حرسه الأحمر ورجال التشيكا للاستيلاء على الحبوب من الفلاحين، وجاء بها إلى المدن الجائعة ، وبدأ يوزع

الخبز ببطاقات التموين على نمط جعلها أقوى سلاح سياسى . ولما كان الحصول على الطعام متعذراً من السوق السوداء ، فقد أصبحت بطاقة التموين من أسباب الحياة . وجاد بهذه البطاقات على رجال التشيكا والحرس الأحمر وأعضاء الحزب الشيوعى وعمال المصانع ، كما جاد على أرباب الحرف وعمال المصانع العاطلين بنصيب ضئيل من الطعام حتى يهلكوا جوعاً رويداً رويداً . ثم غدت بقية الناس من الرجال والنساء والأطفال عناصر غير منتجة ومنع عنهم البطاقات .

وقد نجحت ديكتاتورية لنين فى النهاية بفضل هذه الأساليب ، ولكن السخط الذى أعقبته كاد يقضى عليها ، إذ امتلأت قلوب الفلاحين غيظاً لاغتصاب حبوبهم وبدأوا يقاومون بالسلاح رجال التشيكا والحرس الأحمر . وكانت جميع العناصر الديمقراطية ساخطة أيضاً من جراء فض الجمعية الدستورية ، ومن جراء ما ارتكبته الحكومة مع من ترتاب فى معارضته من قتل وتجويع . فبدأت الحرب الأهلية .

وعلاوة على ذلك فقد أثار الصلح المنفرد الذى عقده لنين مع ألمانيا موجة متلاطمة من بغض الحلفاء لهذه الحكومة ، إذ أنه فك عقال قوات ألمانية عظيمة ، وخشى الحلفاء أن تحشد هذه القوات لمقاتلة الجيوش الفرنسية والإنجليزية والأمريكية التى كانت تحارب فى الجبهة الغربية . وكانت المخازن فى مورمانسك وأركانجيل ، وفلادفوستك ، ملأى بمقادير وفيرة من السلاح والذخائر التى أرسلها الحلفاء للجيش الروسى ، فقر عزم الحلفاء على أن لا يتركوا هذا العتاد يقع فى يد الألمان أو فى يد الحكومة السوفيتية . فنزلت فى شهر إبريل ١٩١٨ فصيلة من قوات الحلفاء فى مورمانسك ونزل غيرها بعد ذلك فى أركانجيل وفلادفوستك .

ولم يحاول الحلفاء أن يزحفوا إلى لنينجراد أو موسكو ، ومع ذلك تألفت قوات روسية تحت رياسة لفيف من القواد يؤيدهم بعض الحلفاء تأييداً فاتراً ، وأخذت تهاجم القوات الشيوعية بنجاح ، حتى إن الحكومة السوفيتية خلال فترة قصيرة من شتاء ١٩١٨ و ١٩١٩ لم يكن لها سلطان إلا على منطقة لا تزيد مساحتها عن دولة إيفان المخيف .

وبلغ الحرج بموقف الحكومة السوفيتية أنها قدمت فى ١٤ مارس ١٩١٩ إلى مبعوث أمريكى فى موسكو عرضاً مكتوباً يسرى مفعوله إلى ١٠ أبريل ١٩١٩ ، لعقد الصلح على أساس الوضع الذى يكون قائماً فى ميدان القتال . هذا مع أن القوات المعادية للشيوعية كانت تحتل حينئذ ثلاثة أرباع روسيا .

ورفض هذا العرض زعماء الحلفاء المجتمعين فى مؤتمر الصلح بباريس ، وظنوا أن الحكومة السوفيتية ستفقد سلطانها على موسكو ولنينجراد، وأن حكومة ديمقراطية ستقوم مكانها . ومع ذلك فقد أبوا إرسال مدد من الجند يعين على إيقاع الهزيمة بحكومة السوفيت ، وكما قال لنين فيما بعد : « كان لدى الحلفاء ملايين من الجند ، فلو أنهم أرسلوا قوة لا تزيد على بضعة آلاف مؤلفة لأوقعت بنا الهزيمة » .

وبعد نزاع عنيف نشب بين الروس هلكت فيه جموع غفيرة بالتعذيب والقتل والجوع والمرض ، تمكنت الحكومة السوفيتية من هزيمة خصومها من الروس وبسطت سلطانها على إمبراطورية القيصر ، سوى فنلندة وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبسارابيا وبولندة .

ولم يحاول لنين طوال تلك المدة إخفاء الواقع من أن الحكومة السوفيتية هى التى توجه الحركات الشيوعية فى العالم كله ، فقد كان رئيس مجلس وزراء الشعب فى الحكومة السوفيتية . ولكنه اشترك جهرة فى مؤتمرات الشيوعية الدولية (الكومنترن) ، وكان هو رئيسها المبجّل . والواقع هو أن وزارة الخارجية السوفيتية هى التى تولت بالراديو دعوة أول مؤتمر للكومنترن ، وكانت مهمته علانية هى تنظيم الثورة الدولية وتوجيهها إلى أغراضها .

الكومنترن

مات لنين فى ٢١ يناير ١٩٢٤ ، فخلفه ستالين وأقام نفسه ديكتاتوراً بعد نزاع عنيف بينه وبين تروتسكى ، وأصبح صاحب سلطان مطبق على الحكومة السوفيتية والحزب الشيوعى والبوليس السرى والكومنترن . ولقد رفضت الحكومات الديمقراطية أن تعترف لستالين بحق توجيه الطابور الخامس فى بلادها ، فكان هذا شيئاً مهماً فى تأخير اعترافها بالحكومة السوفيتية . وظلت أمريكا ترفض الاعتراف بها ست عشرة سنة ولكن روزفلت قرر فى سبتمبر ١٩٣٣ أن يقبل الاعتراف بالحكومة السوفيتية إذا هى تعهدت بالكف عن توجيه الحزب الشيوعى الأمريكى ، وسمحت بحرية الدين للأمريكيين المقيمين فى بلادها .

وفى ١٦ نوفمبر ١٩٣٣ وقّع ليتفنوف فى البيت الأبيض ، نيابة عن الحكومة السوفيتية ، اتفاقاً تتعهد فيه الحكومة السوفيتية بالكف عن « أى تدخل فى الشئون القومية للولايات المتحدة » .

ولكنهم لم يفوا بهذا العهد ، إذ اجتمع فى موسكو فى صيف ١٩٣٥ ، المؤتمر السابع

للشيوعية العالمية ، واحتل قادة الشيوعية الأمريكية مركزاً بارزاً في هذا المؤتمر ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل صدرت أوامر إلى الحزب الشيوعي الأمريكي ترشده إلى الوسائل التي يستعين بها على الوثوب إلى الحكم بالحيلة والخداع ، وعندئذ أمر روزفلت سفيره في موسكو أن يقدم للحكومة السوفيتية مذكرة شديدة اللهجة احتجاجاً على روسيا لأنها نكثت عهدها بعدم التدخل في الشئون القومية الأمريكية ، وبينت المذكرة أنه « إذا دأبت الحكومة السوفيتية على تجاهل عهدها الصريح ، فإن عملها ستترتب عليه آثار خطيرة جداً » .

ولم يعر ستالين هذه المذكرة أقل اهتمام بل راح يدأب على توجيه الحكومة السوفيتية والكومنترن معاً . فلما ظهر خطر هتلر ، قرر روزفلت أن من مصلحة أمريكا أن تتجاهل مؤقتاً نكث ستالين بعهده ، وأن تبقى العلاقات الدبلوماسية متصلة بينها وبين روسيا ، ولكن روزفلت لم يقر قط حق الحكومة السوفيتية في توجيه الحزب الشيوعي الأمريكي . وطنطنت الحكومة السوفيتية بإلغاء الكومنترن في ٢٢ مايو ١٩٤٣ حينما أرادت أن تتظاهر بأنها حكومة ديمقراطية محبة للسلم . ولم ينقض عام واحد حتى بدّل الحزب الشيوعي الأمريكي اسمه باسم « الرابطة السياسية للشيوعية » ، ولكن ستالين ظل محتفظاً بالوسائل التي كان يستعين بها لبسط سلطانه على الشيوعية العالمية ، وإن اختلفت مظاهرها الخارجية .

التراجع في الجبهة الاقتصادية

خرجت الحكومة السوفيتية من انتصارها في الحرب الأهلية وهي متحكمة في منطقة مترامية تبلغ مساحتها سدس العالم ، غنية بالمعادن ، وتضم بلاداً تجود فيها الزراعة ، ويسكنها ١٦٩ شعباً وقبيلة من أهل البأس والقوة ، ولكن الحرب العالمية الأولى والثورة الشيوعية والحرب الأهلية أوقعت الاضطراب والانحلال بالنظام الاقتصادي كله في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ووقع على عاتق لنين عبء جسيم هو إعادة تعمير بلاده ، إذ هبط الإنتاج الصناعي في ١٩٢٠ إلى ثمن ما كان عليه في ١٩١٣ ، كما قل محصول الحبوب من ٧٤ مليون طن في ١٩١٦ إلى ٣٠ مليوناً في ١٩١٩ . فاضطر لينين أن يبتدع سياسة اقتصادية جديدة تبيّن فيها التراجع عن السياسة الشيوعية التي طبقت في ١٩١٧ ، إذ كانت الحكومة السوفيتية تستولي من الفلاحين على محاصيل الحبوب وتترك لهم منها مقادير ضئيلة لطعامهم ، فامتنع الفلاحون عن إنتاج

ما يزيد عن حاجتهم . وأراد لنين تشجيع الفلاحين ، فأمر أن يباح لهم بيع ما يبقى لديهم من المحاصيل فى السوق الداخلية ، بعد أن تستولى الحكومة على حصتها . واحتفظت الحكومة السوفيتية بحق احتكار التجارة الخارجية ، وأنشأت نظاماً لتجميع المصانع فى وحدات تخضع لإشرافها ، كما أبقت فى يدها حق الإشراف على المصانع ذات الإنتاج الضخم ، وأذنت للأفراد بتملك بعض المصانع الصغيرة وإدارتها ، ومنحت امتيازات لرؤوس الأموال الأجنبية .

ولكن هذه التدابير لم تكن إلا وسائل مؤقتة لزيادة الإنتاج ، وحسبها كثير من الأجانب دليلا على عودة روسيا إلى النظام الرأسمالى ، فى حين أنها عند لنين وغيره من الزعماء ، ضرب من التحول الحكيم عن تدبير يمكنهم أن يعودوا إليه فيما بعد .

وقد بلغ من نجاح السياسة الاقتصادية الجديدة أن توالى ازدياد الإنتاج الصناعى والزراعى فبلغ فى ١٩٢٧ مستوى ١٩١٣ فى عهد القيصر . فقرر ستالين أنْ قد آن أوان شن هجوم على الجبهة الداخلية لفرض نظام المزارع المشتركة وبسط إشراف الحكومة على الإنتاج الصناعى وتقدمه فى الاتحاد السوفيتى ، طبقاً لبرنامج السنوات الخمس .

وليس يتأتى لأحد إلا لديكتاتور لديه بوليس سرّى وفرق للإعدام ، أن يفرض على شعب ، مهما بلغ صبره ، احتمال الآلام التى جرّتها هذه السياسة . والحكومات الديمقراطية من واجبها أن تكفل للناخبين مستوى معيشة كريمة وإلا هزمت فى الانتخابات ، أما الديكتاتورية فتستطيع أن تنزل الشعب إلى مستوى منخفض وتنتفع كما تشاء بإنتاجه ، ولا تترك له منه إلا أقل قدر يعينه على الحياة . واختار ستالين أن يتحول الإنتاج من البضائع المستهلكة ، وهى مطلب الفلاحين ، إلى الصناعات اللازمة للحرب ، فانخفض إنتاج البضائع المستهلكة إلى الحد الأدنى ، ووظفت أموال وافرة فى إنشاء مصانع الحديد والصلب والأسلحة والذخائر . وبرامج السنوات الخمس التى وضعها ستالين هى التى أوحت إلى جورنج بقوله فيما بعد : « نريد مدافع بدلا من الزبد » .

وتتابعت برامج السنوات الخمس ، وانقلب الاتحاد السوفيتى من دولة سواد سكانها من المزارعين إلى دولة لا يشتغل بالزراعة فيها إلا نصف سكانها . وأفضى نظام المزارع المشتركة إلى اختفاء ملايين من المزارع الصغيرة التى كانت أبرز مظاهر الحياة الروسية ، وجمعت تلك المزارع وصارت وحدات كبيرة . وقد رضى بعض الفلاحين ممن اشتد بهم الفقر عن هذا النظام ،

ما من حسن حاله منهم فقد كرهه وعارضه ، وكان أغلب أفراد الفئة الأخيرة جنوداً فى الجيش الأحمر أثناء الحرب الأهليـة ، فلم ينفعهم سابق ولائهم ، وأطلق عليهم ، تحقيراً اسم « الكولاك » ، وصودرت مزارعهم وكل ما يملكونه ، فإذا بدر منهم اعتراض ، وهذا ما فعلته الملايين منهم ، قتلوا رمياً بالرصاص أو أرسلوا للسخرة فى سيبريا .

وكانت أول نتيجة لهـذا الهجوم على الجبهة الداخلية ، أن تفشت المجاعة ، وهبط عدد الخيول من ٣٤ مليوناً فى ١٩٢٩ إلى ١٦ مليوناً فى ١٩٣٣ والبقر من ٦٨ مليوناً إلى ٣٨ مليوناً ، والغنم والماعز من ١٤٧ مليون إلى ٥٠ مليوناً والخنازير من ٢٠ مليوناً إلى ١٢ مليوناً ، واستولت الحكومة فى شتاء ١٩٣٢ — ١٩٣٣ من أوكرانيا وكوبان ، رغم احتجاج الفلاحين ، على مقدار من الحبوب بلغ من وفرته أن مات من أهل الإقليمين عدد يتراوح بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين ، من جراء المجاعة التى أحكمت الحكومة تنظيمها ، ولكن ستالين استطاع بهذا الثمن الفادح أن يفرض نظام الملكيات الزراعية المشتركة .ولم يبق فى روسيا منذ ١٩٣٩ فلاح ينعم باستقلاله الخاص .

وهكذا اختفت من روسـيا كافة آثار السياسة الاقتصادية التى وضعها لنين . وقال ستالين فى ١٩٣٩ : « لقد هلك المستغلون ولم يبق أحد ممن ينبغى القضاء عليهم »

ومع ذلك ظلت الحكومة محتفظة للبوليس السرى السياسى بمستوى رفيع من القوة والعدة والعدد ، لم تبلغا هيئة الأوبريكينا فى أيام إيفان المخيف ، والتى عُرفت باسم « التشـيكا » فى عهد لنين ، ثم باسم « الأوجيبو » ، وهى تسمى اليوم « نيكفيدا » ، لقد غيرت أسماؤها ولكن طبيعتها لم تتغير . فعلها اليوم أن تتشمم خصوم الديكتاتورية تستـأصلهم وبغير رحمة ، فأذنها تسترق السمع فى كل مكان ، ويعيش كل روسى فى رهبة من الساعة التى يسـمع فيها يدها تدق بابه ليلا . ويأتمر بأمرها جيش يبلغ ربع مليون ، وأفراده أحسن أجراً ومسكناً وطعاماً من جنود الجيش الأحمر ، وله مدافعه وطائراته وسجونه وأقبيته لتنفيذ الإعدام . وفى ١٩٣٧ بلغت ميزانيتـه ٣ بلايين روبل ، ولا نعـلم اليوم أين بلغت هذه الميزانية ، ولكن الأنباء تدل على أن جيش النكفيدا قد أصبح تعداده ٦٠٠ ألف

الحياة فى ظلال النيكفيدا

والجيش الأحمر ذاته خاضع لإشراف النيكفيدا ، ولهـا أعوان فى كل مسكن ومصنع وجمعية علميـة ومسرح ، لتلتقط

آذانهم كلمات الانتقاد . ويجب على أعضاء الحزب الشيوعى جميعاً أن يبلغوها كل ما يسمعونه مما يتطلبه ظمأها الذى لا يهدأ للبحث عن دواعى الريبة . وقد أجبر آلاف من غير الشيوعيين على خدمتها ، وإلا حاق بهم انتقامها الشديد ، وفى الخمس عشرة سنة الماضية ألقت فى السجن بعدد من الرجال والنساء لا يكاد يقل عن عشرة ملايين ، وسخرتهم فى أشق الأعمال ، وهم على وشك أن يهلكوا جوعاً . وكثيراً ما تبعث بهم إلى المنطقة القطبيــة الشمالية حيث لا يتسنى للإنسان أن يعيش أكثر من ست سنوات .

وتتجسس النيكفيدا على السفراء ، بل على الوزراء وقادة الجيش فى الحكومة السوفيتية . ويسير أربعة من أعوانها خلف السفراء ليلا ونهاراً ، ويجب على كل من يخاطب أجنبياً أن يبلغها فوراً مضمون الحديث . وإذا استثنينا فتيات فرقة الرقص وبضعة أعوان للنيكفيدا ممن أمروا بالاتصال برجال السلك السياسى فإن جميع الروس يعلمون أن الإكثار من التحدث إلى الأجانب وخيم العواقب . وقد نجحت النيكفيدا فى أن تجعل الرعب أول إحساس فى القــلوب ، وأينما امتدت يدها أو أذنها فما وراء الخــدود الروسية ، وجدت الرعب جاثماً هناك أيضاً .

وبعثُ الرهبــة من العقاب والرغبة فى المكافأة هو الوسيلة التى يستعين بها مدربو الحيوان فى الملاعب المتنقلة على تعليمها بعض الحيل . وكذلك يفعل ستالين لكى يخضع الرجال لإرادته ، فهو يبث فى قلوبهم الخوف من النيكفيدا ورجاء الرقى إلى المناصب العالية ويستطيع المقتدرون فى ميدان العلم والفن أن يرتقوا إلى المناصب الرفيعة دون أن يلتحقوا بالحزب الشيوعى ، بشرط أن يواظبوا على تقريظ الديكتاتورية وعلى طاعة النيكفيدا ، أما غيرهم فى بقية الميادين فإن عضوية الحزب الشيوعى تعينهم كل العون على بلوغ مثل هــذه المناصب ، ولم يحدث فى الحكومة السوفيتية أن رقى أحد فى ميدان السياسة والاقتصــاد إلى منصب عظيم إلا إذا كان عضــواً فى الحزب الشيوعى ، وليس فى الاتحاد السوفيتى سوى حزب واحد ، أما بقية الأحزاب فقد « صُفّــيت » .

ويتابع ستالين الخطة التى وضعها لنين فى سنة ١٩٠١ ، والتى تقضى بأنه لا ينبغى للحزب أن يكون حزباً سياسياً بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ، بل « هيئة عسكرية » . وقد وصف هذه الهيئة العسكرية بقوله : « تستــند إدارة الحزب إلى ثلاثة آلاف أو أربعــة آلاف من رجال القيادة العليا ، وهم بمثابة الضباط العظام . ثم يأتى بعدهم ٣٠ الفــاً أو ٤٠ الفــاً من أواسط

القادة ، وهم الضباط ، ثم من ١٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألفاً من الأعضاء البارزين فى الحزب ، وهم بمثابة فرقة صف الضباط ، أما بقية أعضاء الحزب (ويبلغ عددهم ٦ ملايين) فعليهم أن يتلقوا الأوامر بالطاعة .

وينبغى لرئيس كل حزب سياسى فى بلد ديمقراطى أن يلبى طلبات الناخبين وإلا تحولوا عنه إلى حزب آخر . أما فى الاتحاد السوفيتى فليس أمام أعضاء الحزب باب آخر يطرقونه ، إذ ليس هناك إلا حزب واحد هو الحزب الشيوعى ، والناخبون لا يجدون إلا قائمة واحدة من أسماء مرشحى الحزب الشيوعى الذين اختارهم ستالين ، فكأن الانتخابات مظاهرات تنظمها الحكومة .

وما دامت للديكتاتور سيطرة على الحزب الشيوعى والنيكفيدا ، فليس يستطاع خلعه إلا إذا ثار الجيش . ويشغل ستالين منصب المارشال ، ولذلك فهو القائد الأعلى للجيش . وعلاوة على أن ضباط هذا الجيش هم من الطبقات الممتازة فى الحزب الشيوعى ولديهم كل أسباب الراحة ، فهم لذلك راضون وهم جميعاً ، وضباطهم العظام أيضاً ، لا يسلمون من النيكفيدا ، ويبلغ من شدة رقابتها لهم أن أية كلمة تفلت وتنم عن الانتقاد قد يجازى عليها قائلها بالصمت المؤبد .

تفوق روسيا فى عدد السكان

وينمو الشعب الروسى فى عهد ستالين ، كما نما فى عهد القياصرة ، نمواً حثيثاً ، ولم يزد عدد سكان إمبراطورية القيصر فى ١٩١٤ عن ١٧٠ مليوناً . ويقدر عدد من فقدتهم روسيا فى الحرب العالمية الأولى وفى المناطق التى انتزعت منها بعد الحرب ، بستة وعشرين مليوناً تقريباً ، ولكن عدد سكان الاتحاد السوفيتى فى ١٩٣٩ عاد فقارب ١٧٠ مليوناً ، وهذا بالرغم من نشوب الحرب الأهلية فى ١٩١٨ـ١٩٢٠ ، وانتشار المجاعة فى ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ ، وفى التصفيات والمجاعة فى ١٩٣٢ ــ ١٩٣٣ ، وارتفاع نسبة الوفيات بين ملايين العمال الأرقاء المسخرين . ولعل عدد سكان روسيا اليوم أقل شيئاً من ١٧٠ مليوناً ، ولكن من الجلى أن نمو السكان فى روسيا أسرع منه فى أمريكا وبريطانيا وفرنسا .

وإذا سمح للاتحاد السوفيتى أن يستبق المناطق المترامية التى يبسط عليها سلطانه منذ ١٩٣٩ فى أوربة وآسية ، بالإدماج أو بالاحتلال أو بإقامة حكومات موالية ، فإن عدد سكانه سيزداد بإضافة الشعوب التابعة إليه .

فى أوربة

بولندة	٣٥٫٠٠٠٫٠٠٠
ألمانيا الشرقية ...	٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠
رومانيا	٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠
يوغوسلافيا	١٥٫٧٠٠٫٠٠٠
المجر	١٠٫٠٠٠٫٠٠٠
بلغاريا	٦٫٣٠٠٫٠٠٠
ليتوانيا	٢٫٠٠٠٫٠٠٠
لاتفيا	٢٫٠٠٠٫٠٠٠
إستونيا	١٫٠٠٠٫٠٠٠
ألبانيا	١٫٠٠٠٫٠٠٠
المجموع	١١٨٫٠٠٠٫٠٠٠

فى آسية

شمال الصين (منطقة يحتلها الجيش الأحمر السوفيتى الصينى)	٧٥٫٠٠٠٫٠٠٠
منشوريا	٤٥٫٠٠٠٫٠٠٠
شمال كوريا	١٠٫٠٠٠٫٠٠٠
المجموع	١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠

وعلاوة على ذلك فإن الممالك الأوربية التالية خاضعة له بعض الخضوع ، وهى مهددة بأن يصبح سلطانه عليها مطلقاً .

تشيكوسلوفاكيا ...	١٥٫٠٠٠٫٠٠٠
النمسا	٧٫٠٠٠٫٠٠٠
فنلندة	٣٫٨٠٠٫٠٠٠
المجموع	٢٥٫٨٠٠٫٠٠٠

وإذا أتيح للاتحاد السوفيتى أن يبسط سلطانه على هذه الملايين كلها تضاعف عدد السكان الواقعين فى قبضة يد الديكتاتور ، وبلغت رعيته ٤١٨ مليوناً . وعلاوة على ذلك فإن مقدرة الاتحاد السوفيتى الصناعية ستزيد بإدماج منطقة سيليزيا الصناعية التى كانت تمد ألمانيا بنحو ٣٠ ٪ من إنتاجها الصناعى ، ومنطقة منشوريا الصناعية التى كانت تمد الصين بنحو ٧٠ ٪ من إنتاجها الصناعى ، وبآبار الزيت فى رومانيا .

محاربة الدين

لو تقلصت روسيا وعادت إلى حدودها فى ١٩٣٩ فسيكون تحت سلطانها عدد من الشبان الأقوياء ، ليس عند أية حكومة ديمقراطية عدد مثله . وقد لقحت أذهانهم بالأكاذيب الموهومة عن الممالك غير الشيوعية فالرقابة الدقيقة فى المدارس والكتب والإذاعة بالسنما لم تزودهم إلا بالدعاية للشيوعية والديكتاتورية ، فلا عجب إذا امتلأت رؤوسهم بشتات من المعلومات الخطأ .

وقد عملت الحكومة السوفيتية على تمكين الجهل الدينى بين رعاياها . وإذا قارنا عهد الاتحاد السوفيتى بعهد القيصر وجدنا عدد

من يلم بالقراءة والكتابة قد زاد ، أما عدد من يستطيع التفرقة بين الفضيلة والرذيلة فقد قلّ . فهم يساقون إلى الإيمان بأن الغاية تسوّغ الواسطة ، وأن الدين خرافة لا تنطلي على شبان أذكياء مثلهم . وكانت حجة الحكومة فى محاربة الدين فى ١٩١٧ هى « الدين للشعب كالأفيون » وظلت منذ ذلك الحين تضطهد الكنيسة تارة وتعاملها ببعض التسامح تارة أخرى ، وذلك كلما رأت أن هذا التسامح يأتيها ببعض المنافع السياسية من جيرانها . ولكن عدد القساوسة قل بنسبة ٩٠ ٪ عما كان عليه فى ١٩١٧ ، حتى أن شبان بعض المناطق لم يروا بأعينهم كنيسة قط .

وهذا ستالين لا يكتم رأيه فى هذا الأمر ، فقد قال لوفد العمال الأمريكيين فى ١٩٢٧ : « إن الحزب لا يستطيع أن يقف من الكنيسة موقف المحايد . نعم إن الحكومة تقوم بدعاية ضد الدين لمحاربة الأضغان الدينية جميعها ، وأينما وجدتها . تسألونني : هل قضينا على رجال الدين الرجعيين ؟ نعم لقد فعلنا ، ولكن من سوء الحظ أننا لم نقض عليهم القضاء المبرم ، فالدعاية ضد الدين هى الوسيلة الوحيدة التى ينبغى أن نتوصل بها إلى محو رجال الدين الرجعيين »

ولكن الدعاية وحدها لا تكفى لمحاربة الدين ، فطغت موجة من الإرهاب الدينى فى ١٩٢٩ ثم فى ١٩٣٧ حاق بالقساوسة السجن والنفى والقتل ، ولم تحل ١٩٣٩ حتى كانت عزيمة رجال الدين قد تضعضعت كل التضعضع . وندر أن تجد يومئذ فى روسيا قسيساً لا يخضع بين يدى ستالين .

ولقد هاجم هتلر الاتحاد السوفيتى فى ١٩٤١ ، فاحتاج ستالين إلى معونة الشعور الدينى والشعور الوطنى معاً ، حتى يستمد من الفلاح أقصى ما يقوى عليه من تضحية لمقاتلة الألمان . وأعلن سرجيوس ، أكبر رجالات الكنيسة وكرسيه فى موسكو ، تأييده لستالين فى قيادة الحرب ، فجازاه بأن يُنتخب بطريقاً ، ثم دعاه إلى مقابلته. وفى اليوم التالى أدى البطريق أول واجب عهد إليه فى السياسة الدولية ، فطالب حلفاء السوفيت جهاراً بفتح الجبهة الثانية .

وأنشأت الحكومة « لجنة شئون الكنيسة الأرثوذكسية » لتتولى توجيه البطريق الهرم الذى يبلغ من العمر ٧٥ سنة. فلما أنزل ستالين الكنيسة إلى مرتبة المكاتب الحكومية ، أرادها أن تكون أداة صالحة قوية الأثر . وأبيح تدريب صغار القساوسة بعد التحريم وأذن بإنشاء معهد دينى.

فمن الذى ربح : أهى الكنيسة أم الحزب الشيوعى ؟ إن ستالين يبسط سلطانه على

الكنيسة ويجعلها أداة فى يده يستخدمها فى سياسته الداخلية والخارجية . ومهما يكن من شأن الحقوق التى نزل عنها زعماء الكنيسة السياسيون فى صلحهم مع ستالين، فإن هذه الكنيسة لا تزال تضم نفراً قليلاً من قساوسة قلوبهم عامرة بالإيمان الذى أعانهم على احتمال ما لقوه من آلام واضطهاد.

العقيدة الشيوعية وسياسة السوفيت الخارجية

الشيوعية هى العقيدة التى تؤمن بها الحكومة السوفيتية فتنشىء لها أطفالا لكى يحيوا فى ظلها ويموتوا فى سبيلها . فعقيدة ماركس ولنين وستالين هى الإلحاد، وزعمهم أنها تستند إلى الحقائق العلمية ، مع أنها تستند إلى فرض غير معقول ، وهو أن إقامة الديكتاتورية الشيوعية فى الأرض وإلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج ، سيقضى على الحرب بين طبقات الشعب الواحد وبين بعض الأمم وبعض، وأنها سترقى بالطبيعة الإنسانية كما يقول لنين حتى تختفى الدولة ويعيش الناس بعد زوال الدول ، فى جو من الحرية الكاملة والهناءة الشاملة .

وقد بنى لنين على هذه العقيدة رأيه فى تسويغ إقامة الديكتاتورية فى روسيا ، إذ كان يؤمن بأن قيام الدولة يؤدى حتماً إلى التقاتل ، أما إذا عاش الناس تحت لواء الديكتاتورية الشيوعية، فإنهم يتهيأون للظفر بالحرية التامة . وقال : « لا حرية مع قيام الدولة ، وحين تستتب الحرية ستختفى الدولة » .

وهذه العقيدة عندهم بمنزلة الإيمان ، ولعل هذا هو تفسير ظفرها كما ظفرت الديانات من قبل ، بأنصار يخلصون لها ويستشهدون فى سبيلها . فالمؤمن بها حق الإيمان يعتقد بأنه يجاهد لتخليص البشر من ربقة الشر ، وأنه يعمل لرفع لواء الحق الأزلى . فالحزب الشيوعى فى نظره هو رابطة إخوانه المؤمنين ، وكتابه المقدس قد خطه له ماركس ولينين وستالين ، أما الاتحاد السوفيتى فهو الداعى إلى الجهاد* .

ولما كان أسمى الأهداف الخلقية ، فى نظر العقيدة الشيوعية ، هو تحطيم الدولة على إثر إقامة الديكتاتورية الشيوعية فى الأرض ، أصبح أول واجب على الرجل أن يعين على إقامة هذه الديكتاتورية . ويؤمن الشيوعى بأن هذه الغاية الخلقية السامية تسوغ كل الوسائل المؤدية إليها ،

* نسبة غلاة المؤمنين بالشيوعية فى الأحزاب الشيوعية خارج روسيا أكبر منها فى الحزب الشيوعى الروسى ، ذلك بأن الشيوعيين الروسيين يرون الشيوعية رأى العين ، فيرون معها النيكفيدا أما الشيوعيون خارج روسيا فلا يزالون على إيمانهم بالجنة التى تزينها لهم الدعاية الشيوعية .

من حرب وقتل وتلويث سمعة ونكث للعهود ، وكما قال لنين : « من الضرورى أن نستعين بالخداع والمكر ومخالفة القانون والمراوغة وإخفاء الحقائق » فالحدود الخلقية التى تلتزمها الحكومات الديمقراطية ، أو الحكومات الرأسمالية أو الاستعمارية ، لا وزن لها فى قرارات الحكومة السوفيتية . فالعقيدة الشيوعية تتطلب من الاتحاد السوفيتى ومن كل الحكومات الشيوعية ، أن تجعل أول أهداف سياستها الخارجية إقامة الديكتتورية الشيوعية فى الأرض ، فترى الحكومة السوفيتية تبدل خططها وأساليبها لبلوغ هذا الهدف ، تبعاً لتقديرها للموقف الدولى . أما الغرض ذاته فباق بغير تبديل ، وما هو إلا غزو الشيوعية للعالم كله . ولن نجد أقل مشقة فى فهم السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى ، إذا نظرنا إليه — كما يفعل الشيوعى — نظرتنا إلى جيش محارب ، فالخطط والأساليب واحدة : الهجوم حين يرى القائد أن النصر قريب ، والتراجع حين يتوقع الهزيمة .

الحرب حتم لا بد منه

وفيما يلى تصريح للنين يتضمن المبادىء الأساسية التى تقوم عليها سياسة السوفيت الخارجية . وقد أقره ستالين وأدرجه فى مؤلفه المسمى « مشاكل مذهب لينين » :

« إننا لا نعيش فى عالم مؤلف من دولة واحدة ، بل فى ظلال عالم من دول كثيرة ، ولا يتصور بقاء الجمهورية السوفيتية طويلا هى والدول الاستعمارية جنباً إلى جنب . فلا بد من غلبة أحدهما على الآخر . ولا مفر إلى أن يحين ذلك الأوان ، من وقوع مصادمات مهولة بين الجمهورية السوفيتية والدول البورجوازية » .

والحكومة السوفيتية عليمة بما تهدف إليه ، ولهذا فهى تؤمن بأن الحرب لا بد منها بين الاتحاد السوفيتى ، والدول البورجوازية ، أو الرأسمالية ، كأمريكا وبريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندة وفرنسا وبلجيكا وهولندة وسويسرا والسويد والنرويج والدنمرك . فهى لا تفهم السلم كما نفهمه ، بل هو فى نظرها هدنة تستعد فيها للهجوم .

وقد كرر ستالين مناداته بهذا الاعتقاد فى إذاعة له يوم ٩ فبراير ١٩٤٦ ، رسم فيها خطة منسقة للعمل ، لا للحزب الشيوعى الروسى وحده ، بل لكافة الأحزاب الشيوعية فى العالم ، فقال إن الحروب لا مفر منها ما بقى النظام الرأسمالى . ولم ينسب إثارة الحرب العالمية الثانية إلى النازية أو الفاشية أو العقلية العسكرية اليابانية ، بل

نسبها إلى النظام الرأسمالى العالمى فقال : « يخطىء من يظن أن الحرب قد نشبت عرضاً أو من جراء خطأ بعض الساسة . لقد وقع مثل هذا الخطأ ، ولكن الحرب نشبت فى الحقيقة ، لأنها نتيجة لا بد من أن يعقبها تطور العوامل الاقتصادية والسياسية فى العالم ، تبعاً للنظام الاحتكارى الرأسمالى وقد بين ماركس وأتباعه أن النظام الرأسمالى المهيمن على الاقتصاد العالمى تكمن فى طياته بذرة الأزمات والحروب ، وأن نشوء هذا النظام رهن بالأزمات أو الحروب ، لا بالثبات والاستقرار . فالأزمة الأولى التى صادفها هذا النظام ، أفضت بنا إلى الحرب العالمية الأولى ، كما أفضت الأزمة الثانية إلى الحرب العالمية الأخيرة » .

وأعلن ستالين فى خطبته هذه أن المشروع التالى للسنوات الخمس يرمى إلى التوسع فى إنتاج الصلب حتى يصل إلى ٦٠ مليون طن فى السنة، أى ثلاثة أمثال مقدار إنتاج الصلب فى روسيا فى ١٩٤٠ ، وهو ما يفوق إنتاج ألمانيا واليابان وبريطانيا العظمى معاً فى ١٩٤٠ . ويبسط ستالين اليوم سلطانه على إنتاج الصلب فى سيليزيا ومنشوريا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا والمجر . ولا جرم فإن إنتاج الصلب هو المقياس الذى تقاس به المقدرة الصناعية اللازمة لشن الحرب .

وما دمنا نرى الديكتاتور السوفيتى لا يزال يؤمن — كما آمن دائماً — بأن تحطيم الدول الرأسمالية الديمقراطية وغزو الشيوعية للعالم هما الطريق الوحيد المؤدى إلى السلم ، وما دمنا نراه أيضاً يأمر بإنتاج هذا المقدار الضخم من الصلب فى الوقت الذى يحتاج فيه الشعب الروسى أشد الاحتياج إلى بضائع الاستهلاك . فما نشك أقل شك فى عزمه على مواصلة سياسة العدوان .

التعارض بين الأغراض والخطط

والذين ينقمون على السياسة السوفيتية لأنها متقلبة ولا يمكن التكهن بها ، يخلطون بين الخطط والأغراض ، فالحكومة السوفيتية تسير قدماً نحو أهدافها ، ولكنها لا تحجم عن تبديل خططها — كما يفعل القائد المحنك — فهى تخفى خططها وتحول قوتها من جانب إلى جانب ، وتزن بدقة عوامل القوة والضعف فى بلادها وفى الدول غير الشيوعية ، فإذا استيقنت أنها إذا ضربت قصمت ، ضربت من فورها .

وترى الشيوعية أن إقامة ديكتاتوريتها فى العالم يمكن أن تتحقق بوسيلتين :

١ — الحرب بين الطبقات : ومعنى هذا إثارة الثورة فى الممالك غير الشيوعية ، والقضاء على كافة الطبقات سوى طبقة العمال.

٢ ـــ أن يغزو الاتحاد السوفيتي الممالك المجاورة له فإما أن تدمج فيـه : وإما أن تقام فيها حكومات موالية لموسكو .

ولما كانت الحكومة السوفيتية هي القائد الأعلى للجيش الشيوعي العالمي ، فهي لن تقتصر على استخدام أسلحتها الماضية من مقدرة عسكرية وسياسية واقتصادية ، بل تجمع إليها الطابور الخامس من كافة الأمم التي تفتح له صدرها ، فإذا أصدرت أمرها إليه أطاع الأمر . ويتخفى هذا الطابور السوفيتي في الممالك الديمقراطيـة في زي حزب سياسي يسمى عادة الحزب الشيوعي ، ويستعين بالحريات التي تكفلها الديمقراطية ، كحرية الرأي والصحافة والاجتماع ، ويعمل على تقويض المملكة التي تحميه .

والتبدل المفاجىء في خطط هذه الطوابير الخامسة السوفيتية ، مرجعـه إلى أوامر تملى عليها من موسكو . ولما كانت سيطرة الديكتاتورية الشيوعية على الاتحاد السوفيتي أهم دعامة للشيوعية العالمية ، فقد وجب على الأحزاب الشيوعية خارج روسيا أن تخضع مصالحها لمصالح الاتحاد السوفيتي ، فكثيراً ما تصدر إليها الأوامر بالعدول إلى خطة جديدة تكون مدعاة للسخرية فكأن هذه الطوابير الخاصة فرقة من الجند يضحى بها من أجل سلامة الجيش كله .

وإذا كان غزو الأرض كلها هو غرض الحكومة السوفيتية ، فأين الأمة التي تطمئن لنجاتها من شر هـذه المطامع ؟ وجيران روسيا أشد عرضة للخطر من الممالك البعيدة عنها ، وذلك لسبب بسيط ، هو أنها في متناول يد الجيش الأحمر ، وهو لا يتورع عن الغزو كلما وجد إليه سبيلا ، ولا ينكص عنه إلا إذا ألفاه عسيراً أو خطيراً . فشهوة الغزو عنده لاحد لها . والاتحاد السوفيتي أقدر من كل مملكة أخرى على هضم ما يلتهم ، لأنه لا يتقيد بمبادىء الأخلاق التي تواضع عليها البشر ، فهو لا يتورع في المناطق التي يبسط عليها سلطانه المطلق ، عن القضاء فوراً على خصومه السياسيين من كافة الطبقات ، إما بالقتـل وإما بإرسالهم للعمل سخرة في منفى يكون هلاكهم فيه محققاً . وهذا أيضاً هو مصير كل رجل متعلم مثقف إذا أبى أن يذعن للإرهـاب ويصبح من أعوان السوفيت ، فإذا تم له القضاء على كافة منتقديه بالقتل والنفي ، سلم له شعب فزع يائس : يسهل حمله على انتخاب مرشحي السوفيت وإلا حرم بطاقات التموين التي لا حياة له بدونها . وبهذه الأساليب تم له هضم إستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندة الشرقية .

نجاح الخطط السوفيتية

كان مطلب الشيوعيين قبل ثورتهم إلى

الحكم فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ أن يخضعوا العالم بسلاح وحيد ليس لهم غيره ، هو إثارة الحرب بين الطبقات فى الشعوب . فأتيح لهم منذ ذلك اليوم أن يستعينوا بقوة دولة عظيمة وشعب جبار ، وأصبح فى إمكانهم أن يتذرعوا لأغراضهم لا بالحروب بين الطبقات فحسب ، بل بالحروب الدولية بين الأمم أيضاً . ويتوقف التجاؤهم إلى هذه الوسيلة الأخيرة على تقديرهم للموقف العسكرى الدولى . ولما كانوا يثقون كل الثقة بأنهم لن ينكصوا أبداً عن محاولة بسط الشيوعية على العالم ، فهم لن يغمدوا السيف الذى يسلونه على الدول البورجوازية ، إلا إذا فرغوا من فرض الشيوعية على العالم كله . وهم لا يرون المعاهدات ومواثيق عدم الاعتداء إلا عهوداً يوقعونها ، لا لشىء إلا لأن مصلحتهم تقتضى ذلك ، فإذا وقعوها أبطنوا نية النكث ساعة يرون أنفسهم قد بلغوا من القوة مبلغ أن ينكثوا بها بكل جرأة ، فهم يهتدون بقول لنين : « لا بد من الاستعانة بالخداع ومخالفة القانون والمراوغة وإخفاء الحقائق » .

وقد غيرت الحكومة السوفيتية خططها السياسية الدولية تبعاً لتقديرها لتطورات الموقف الدولى ست مرات منذ نوفمبر ١٩١٧ :

(١) ١٩١٧/١٩٢٠ : قدرت أن الثورات الشيوعية على وشك أن تكتسح أوربة ، فشنت هجوماً واسع النطاق ، سلاحها فيه إثارة الحرب بين الطبقات ، مع وقوفها موقف الدفاع فى الحرب الأهلية بينها وبين خصومها فى داخل روسيا .

(٢) ١٩٢٠/١٩٣٣ : قدرت أن الاتحاد السوفيتى هو أضعف شيئاً من الدول غير الشيوعية ، وأنها قد تهاجمه ، فتراجعت عن خطة الهجوم تراجعاً حكيماً ، وعقدت مواثيق عدم اعتداء مع كثير من جيرانها كتركيا فى ١٩٢٥ ، وألمانيا وليتوانيا فى ١٩٢٦ ، وإيران فى ١٩٢٧ ، والأفغان فى ١٩٣١ ، وبولندة وفنلندة وإستونيا فى ١٩٣٢ . ومع ذلك لم تنقطع عن وصف عصبة الأمم بأنها مؤامرة رأسمالية مدبرة ضدها ، ولكنها أرسلت ليتفينوف فى مارس ١٩٢٨ للدفاع عن مبدأ نزع السلاح نزعاً تاماً فى كافة الدول .

(٣) ١٩٣٤/ ١٩٣٩ : قررت أن الاتحاد السوفيتى يواجه خطر الهجوم عليه فى جبهتين من قبل ألمانيا واليابان ، فحاولت أن تصل إلى اتفاق مع هتلر ، ولما أخفقت التجأت إلى خطة أخرى غرضها تأليب الدول البورجوازية على ألمانيا واليابان ، فانضمت إلى عصبة الأمم فى ١٩٣٤ وعقدت

معاهدة تحالف مع فرنسا وتشيكوسلوفاكيا في ١٩٣٥ (وهما من الدول البورجوازية)، وأمرت أعوانها الشيوعيين في الخارج أن يعملوا على تأليف «جبهات شعبية»، وإثارة حركات تناوىء الفاشية، ليجد فيها الاتحاد السوفيتي عوناً على ألمانيا واليابان.

(٤) ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ / يونيو ١٩٤٠ : قررت أن الميثاق الذى وقعه هتلر وستالين يوم ٢٣ أغسطس ١٩٣٩، سيفضى إلى حرب طويلة محطمة بين ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وأن الاتحاد السوفيتي لم يعد يخشى غائلة ألمانيا طوال هذه الحرب، وأن البؤس الذى ستجره الحرب قد يعين الاتحاد السوفيتي على إقامة الشيوعية في أوربة، فتحولت مرة أخرى إلى الهجوم، ونقضت معاهداتها مع فنلندة وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندة ورومانيا، وضمت إليها بعض أجزاء من فنلندة وبولندة ورومانيا وكافة ممالك البلطيق.

(٥) يونيو ١٩٤٠/١٩٤٤ : قدرت أن سرعة انهيار فرنسا ومقاومة البريطانيين لجيوش هتلر في أوربة قد تفضى إلى تعريض الاتحاد السوفيتي إلى خطر الهجوم عليه في جهتين من قبل ألمانيا واليابان، فحاولت أن توثق اتفاقها مع ألمانيا، وعقدت ميثاق عدم اعتداء مع اليابان في ١٣ أبريل ١٩٤١. فلما هاجمت ألمانيا الاتحـــاد السوفيتي في ٢٢ يونيو ١٩٤١، التزمت خطـة الدفاع في الداخل والخارج، وبذلت كل جهدها للظفر بتأييـــد الدول البورجـوازية، فطنطنت بإلغاء الحزب الشيوعى الأمريكى والكومنترن (الشيوعية الدولية)، ووقعت ميثـاق الأطلسى، ولبت طلب بريطانيا وأمريكا، ووقعت أيضاً كافة التصريحات العـامة المتضمنة بيان الأغراض السياسـية التى كان يهدف إليها الحلفاء.

(٦) ١٩٤٥ / ١٩٤٦ : لما رأت الحكومـة السوفيتية أن إستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندة ورومانيا وبلغاريا والمجر ويوغوسلافيا وألبانيا، وبعض أجزاء النمسا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا (إلى حدود نهر الألب) ومنشوريا وكوريا الشمالية — قد وقعت في يد الجيش الأحمر، أو قامت فيها حكومات موالية لروسـيا، دفعها حب العدوان إلى محاولة إخضاع هـذه المناطق لسلطانها المطلق، واستخدمت الطابور الخامس ليهيىء لبسط نفوذها، في فرنسا وإيطاليا واليونان وبعض الممالك الأوربية.

وتستند السياسة الخارجيـة للحكومة السوفيتية في الوقت الحاضر إلى اعتبارات عسكرية، مؤداها أنه يجب عليها أن تتثبت قليلا حتى تتمكن من تدعيم سلطانها في تلك

المناطق المترامية التى وقعت فى يدها منذ عهد قريب ، وأن تستولى على ممالك غرب أوربة بتقويض داخلها بالمكر والخديعة ، وأن تعيد بناء صرح اقتصادها الداخلىّ وأن تصل إلى سرّ القنبلة الذرية قبل أن تخاطر بمحاربة أمريكا ، ولهذا رأت أنه يجب عليها أن لاتحارب أمريكا من فورها، وربما رأت أن تختبر مقدار مقاومة بريطانيا وأمريكا بعد أن نهكتهما الحرب ، فإذا وجدت ضعفاً بسطت سلطانها على بعض البلاد كإيران وتركيا وشمال الصين ، ولكنها ستتراجع حتما إذا ثبتت لها بريطانيا أوأمريكا. لأنها لا تجرؤ الآن أن تحارب أمريكا، كما تخشى أن لا تسمح لها أمريكا بإخضاع بريطانيا لسلطانها .

وكل محاولة لفهم سياسة السوفيت الخارجية ، يقتصر المرء فيها على تدبر خططها الموضوعة لزمن قصير، ستؤدى إلى استخلاص نتائج بعيدة عن الصواب ، فإن سياسة السوفيت الخارجية من سنة ١٩١٧ إلى ١٩٢١ ، حين حاولت الحكومة السوفيتية إثارة الحروب بين الطبقات فى أوربة ، قد تعارضت تمام التعارض مع سياستها الخارجية من سنة ١٩٣١ إلى ١٩٣٩ ، حين سعت إلى الظفر بمعونة الدول البورجوازية ضد ألمانيا واليابان . كما أن هذه السياسة فما بين سنة ١٩٢١ و١٩٣٣ ، حين كانت الحكومة السوفيتية ضعيفة ، وخشيت أن تهاجمها الدول البورجوازية فعمدت إلى عقد مواثيق عدم اعتداء مع جيرانها ، تتعارض تمام التعارض مع سياستها من ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ إلى يونيو ١٩٤٠ ، حين أصبح الاتحاد السوفيتى قادراً على مهاجمة جيرانه ، وافترس كثيراً منهم .

دار الصنعة الشيوعية

ولكن السياسة الخارجية السوفيتية ليست سراً غامضاً ، وهذا ستالين يقول وقد صدق : « إن سياستنا بسيطة واضحة » . فإن لهم فى سياستهم الخارجية خطة لا يحيدون عنها ، هى إقامة الديكتاتورية الشيوعية فى الأرض . والحكومة السوفيتية تعتبر نفسها دائماً فى حرب، إما سافرة وإما مقنعة ، تدور بينها وبين دول العالم غير الشيوعية . وكلما عانقت الحكومة السوفيتية دولة غير شيوعية معانقة الصديق ، فإنها تخفى فى يدها خنجراً تنوى أن تغمده فى ظهرها . فهذا هو السبب فى أن ستالين لا تلين له قناة ، وهو السبب فى إخفاق « الخطة العالمية » التى وضعها روزفلت . فينبغى لنا إذن أن نواجه حقيقة كريهة ، وهى أن ستالين كهتلر لا يقف من تلقاء نفسه ، بل يجب صدّه عند حدّ . ولكن أمنى هذا أن الشيوعيين

على حق فى اعتقادهم بأن الحروب بين الاتحاد السوفيتى والدول غير الشيوعية حتم لا مفرّ منه ؟ كلا .

ويستطيع الديكتاتور السوفيتى ، إذا شاء ، أن ينتفع بقوة الاتحاد السوفيتى ونمو سكانه ، وبعقيدة الشيوعيين المؤمنين ، وبالتقاليد الاستعمارية الموروثة عن روسيا القيصرية ، وبمعونة الحكومات الموالية له والتى أقامها فى أوربة وآسية ، وبإخلاص الطابور الخامس الذى أقامه فى كافة الأمم باسم الحزب الشيوعى ، وبمساعدة أبواقه ودعاته ، وبالأحرار الذين أضناهم اليأس من علاج مشاكل الحياة الإنسانية ، بالوسائل الديمقراطية فرموا بأنفسهم بين أحضانه .

فهذه قوات عظيمة متجمعة فى يد ديكتاتور جبار عنيد ، تدفعه عقيدته إلى السعى لبسط سلطان الشيوعية على العالم ، وستفضى سياسة التهدئة والمسالمة بنا إلى الحرب ، أو إذا اتبعت هذه السياسة فإن الحكومة السوفيتية ستتخطى فى يوم من الأيام حدود المسالمة . فإن السياسة السوفيتية لاتخفى استنادها إلى الاعتبارات العسكرية .

وهذا لنين لم يتردد فى التراجع حين وجد أمامه قوة تفوق قوته ، وكذلك ستالين لن يحارب إذا وجد أمامه مثل هذه القوة . وليس فى الأرض عمل مشروع مثل استخدام القوة ، إذا كان الغرض منه كسب الوقت حتى تنمو المبادىء الخلقية وتتمكن . ونماء المبادىء الخلقية فى الاتحاد السوفيتى يقتضى بعض الوقت . وليس ثمة وسيلة تمنعه من غزو الدول غير الشيوعية خلال ذلك سوى مواجهة قوته بقوة أعظم منها مهما كان ذلك شاقاً . والحكومات كلها تعمل اليوم على توطيد السلام ، إلا الحكومة السوفيتية والحكومات الموالية لها ، فهى تستعد للغزو . وهى تفضل بطبيعة الحال أن يتحقق هذا الغزو بغير حرب ، وأن تبسط ديكتاتوريتها على العالم دون أن تضطر إلى القتال . وأبناء الدول الديمقراطية وشعوبها يريدون استتباب السلام بيد أن غريزة حب البقاء لم تمت فى قلوبهم ، وسيعمدون وإن كرهوا إلى إعداد الجيوش وإقامة هيئات دولية تصون الأمن ، يبلغ من قوتها أن تكافح عن السلم وتردّ عادية كل معتد ، ولو كان الاتحاد السوفيتى .

فـــاتـــح قـــارة

سـيرة هنرى م . سـتانلى

لا يثير اليوم اسم الدكتور داڤيد لفنجستون إلا أصداء خافتة للضجة الصحفية الدولية التي كان هو مدارها وهو لا يدرى قبل ستين سنة .

ولا يكاد اسم هنرى م . ستانلى الذى وجد لفنجستون الضائع فى أظلم مجاهل إفريقية ، يكون أشهر منه الآن . ومع ذلك كانت حياة ستانلى حافلة بالمغامرات التي تكاد تدخل فى باب الخيال ، والمتاعب والمساعى التي ليس لها فى التاريخ سوى نظائر قليلة .

وقد بوّأه عمله فى إفريقية ، بوصفه صحفياً ورائداً ، مكاناً رفيعاً بين عظماء المستكشفين الذين مزّقوا أستار الخفاء عن قارات الأرض المجهولة .

وقصة ستانلى تروى هنا فى قسمين : الأول يشتمل على صدر حياته كما سردها فى ترجمته لنفسه ، والثانى يشتمل على عثوره على لفنجستون كما رواه جاكوب واسرمان فى كتابه « بولا متارى » .

سيرة هنري م . ستانلي

مختصرة عن ترجمته بقلمه

مات أبي بعد أن ولدت ببضعة أسابيع ولا بد أني كنت قد بلغت الثانية عشرة قبل أن أدرك أن الأم لاغنى عنها لكل طفل ، فقد ظللت إلى ما بعد الرابعة يكفلني أقارب زاهدون فيّ ، أو يُدْفع بي ، على كره منهم ، إلى من يتولى أمري في الخارج . ثم حُملت في عام ١٨٤٧ إلى الملجأ ، وهو بناء ضخم من الحجر ، فلما أوصدت عليّ بوابته الكبيرة ، وخفت صداه ، خامرني للمرة الأولى شعور مخيف بالوحشة المطلقة .

وكان النظام صارماً في تنشئة الأطفال في ملجأ القديس أساف ، فقد كانت تحيط بنا جدران عالية ، وكان كل باب مترساً ، وتوقظ من النوم في الساعة السادسة صباحا ، وفي الثامنة مساء نحبس في حجرات النوم . وكان طعامنا الخبز والأرز والبطاطس والثريد — بعد أن يوزن بدقة .

وقد احتجت إلى زمن حتى أتعلم أن ليس للدموع قيمة في ملجأ ، وكان جيمز فرانسيس المعلم الأقطع الذي ألقي بي في يده الصارمة — رجلاً وحشي الطبع قد أفسدت خلقه المصائب ، ولم يكن رجلا يستطيع أن يفهم آلام الطفولة ، على أنه لم يحاول فهمها .

وكان أيسر خطأ في المدرسة يجرّ ضربة لاسعة من المسطرة ، وسلسلة الأغلاط تعاقب بجلد كجلد المتشفي . ففي كل يوم كان التعساء الصغار يطرحون على البلاط وقد أصارهم الألم أكواماً ، أو يقفون وعيونهم تطرف وظهورهم مقوسة ليتلقوا ضربة المسطرة أو ركلة وحشية . وكان من بين واجباتنا كنس أرض الملاعب بعقشات هي أليق بالعمالقة منها بأطفال صغار ، ورفع الثلج عن الأرض ، واستظهار صفحات برمّتها في المساء .

على أن هناك شيئين أنا مدين لهما بالشكر في هذا المعهد العجيب ، فقد حرمت المحبة ونعمة الحياة في بيتٍ ، ولكني تعلمت أن أعرف الله بالإيمان ، وتعلمت القراءة ، فقد كنا جماعة دينية ، وكانت على رفوفنا مجموعة حسنة من الكتب الدينية . وكان مما يعزي النفس أن أعرف أن لي ربًّا في السماء هو أرحم بي من أبي وأمي ، أتساوى بين يديه أنا وأقوى الأقوياء ، وإن كان لا أب لي ولا صديق أتجه إليه على وجه الأرض .

ولما بلغت الحادية عشرة كان بين أترابي غلام هو في عيني كأنه ملك من حيث الحسن

وطيب النفس ، وكان فى مثل سنى واسمه ويللى روبرتس . فمرضت ذات يوم ، وبعد أسابيع تماثلت للشفاء ، فروّعتنى إشاعة تقول إن ويللى وربرتس مات فجأة . ولما كان الملجأ يفتح على الفناء الذى فيه معرض الجثث، فقد اقترح بعض الصبيان أن نذهب لننظر إليه ، ودفعتنا رغبة قوية فى الوقوف على الأمر ، فتسللنا إلى البيت ، فألفينا الجثة مطروحة على خشبة سوداء ، فأقدم غلام كان من أجرئنا قلباً ؟ ونحىّ الغطاء، فلما رأينا الوجه الأصفر وجموده المفزع تراجعنا عنه جميعاً،وجعلنا ننظر إليه ونحن كالمسحورين.

ثم نحى الغطاء عن بدنه ، فرأينا أن البدن مزرقّ وبه عشرات من الجُدَرِ والندوب السود ، وكانت نظرة واحدة حسبنا . فغطينا الجثة بسرعة وقفلنا راجعين ونحن على يقين من أن فرانسيس هو السبب فى موت ويللى .

وفى مايو سنة ١٨٥٦ وقعت حادثة غيرت حياتى ، وذلك أنه جىء بمنضدة جديدة ، فأحدث بها صبي غافل بعض النقر ، فتناول فرانسيس عصا وأقبل وهو يتلهب حنقاً على الفصل الأول ، وطلب أن يعرف الفاعل ، ولم يكن أحد يعرفه ، فقلنا ذلك .

فقال : « حسن . إذن سيجلد الفصل كله . فكوا الأزرار »

وبدأ من آخر الفصل ، فحدث ما هو مألوف من الصراخ والتلوى والبكاء ، وكنت أنا قد أصبحت التلميذ الأول فى المدرسة وتوليت أمر المدرسة بنجاح فى غيبة فرانسيس ، واكتسبت وأنا لا أدرى شعور بكرامة واحترام الذات ، فلما اقترب دورى شعرت بأنى أتشدد للمقاومة .

فصاح بغضب : « ماهذا ؟ ألم تتهيأ بعد ؟ اخلع ثيابك حالاً »

فصحت : « لن يحدث هذا مرة أخرى » وأدهشتنى جرأتى .

وما كادت هذه الألفاظ تندّ عنى ، حتى ألفيتنى أرفع فى الهواء من قفاى ، وأطرح على المقعد وأضرب فى بطنى ، ثم رفعت ثانية ورميت على المقعد رمية كادت تكسر ظهرى . ولما انحنى المعلم مرة أخرى ليمسك بى سددت إليه ركلة قوية ، فاتفق أن كسرت له نظارته فكادت تعميه شظاياها ، وتقهقر فاصطدم بمقعد ووقع وضرب رأسه بلاط الأرض فوثبت إلى قدمى ، وانتزعت عصاه ، وجعلت أضربه جزافاً حتى ثاب إلىّ إدراكى لما أنا فاعل ، إذ كان يتلقى الجلد بغير حراك .

حرت ماذا أصنع، فقد ذهب عنى الغضب، فجررته أنا والآخرون إلى غرفته الخاصة ، وبعد أن أقفلنا عليه الباب سألنى صديقى موسى همساً : هل مات ؟ فأفزعنى هذا

الخاطر الشنيع ، ووافقت على ما اقترح من الهرب ، ولكن قبل أن أفعل بعثت بغلام يستطلع حالة المعلم ، وتنفست الصعداء حين علمت أنه كان يغسل وجهه .

وفررنا من المدرسة على الفور أنا وموسى ، وتسلقنا جدار الحديقة ، وأسرعنا فى الفرار كأن وراءنا كلاباً تتعقب آثارنا .

التشرد

ومهما يكن من الثقة الغريرة التى كنت أنطوى عليها بأنى واجد وراء النطاق المسوّر أصدقاء يحتفسون بى ، فقد منيت بالخيبة العاجلة ، فما كدنا نتجاوز منطقة الباب حتى بصر بنا الأطفال فى ثياب الملجأ ، فتقحموا علينا بالاحتقار .

ولما أقبل الليل زحفنا إلى فرن جير مهجور ، وقد أضنانا التعب وداخلنا الهم وأفزعنا الظلام . وهكذا تقضت شر ليلة أتذكرها ، وطلعت الشمس فاستأنفنا الفرار ونحن جائعان بائسان ، وتغلبنا على حيائنا فاستجدينا بعض الخبز من سيدة عجوز بدينة رحيمة ، وفى تلك الليلة لُذْنا بكوم من الدريس .

وفى بكرة اليوم التالى وصلنا إلى دنباى حيث كان لموسى اقارب تلقونا بالترحاب ، وبعد أن استرحت ليلة مضيت وحدى إلى جدّى وهو صاحب مزرعة كبيرة وفى خفض من العيش ، وبعد أقل من ساعة كنت فى دوّار الضيعة بين الخيول والخنازير والإوز . فجرى حديث لا ينسى .

وانى لأرى نفسى الآن واقفاً فى المطبخ وقبعتى فى يدى أمام رجل هرم صارم الوجه أحمره ، وهو مضطجع على كرسيه فى سراويل قصيرة ، يدخن من قصبة طويلة من الصلصال . وأتذكر أنه سألنى عمن عسى أن أكون وعما أبغى ، وبعد أن أفضيت إليه بحاجتى أخرج القصبة من فمه وأشار بها إلى الباب وقال : « حسن جداً ، يمكنك أن ترجع من حيث أتيت ، فما أستطيع أن أصنع لك شيئاً »

وزرت أقارب آخرين ، ولكن المتزوجين الذين لهم ملء بيت من الأطفال لا يطيب لهم أن يعنّوا أنفسهم بالفقراء من ذوى القربى . وقضيت وقتاً وجيزاً فى ضيافة ابن عمى ، وهو مدرس شاب سرّه ما رأى من إقبالى على الدرس وتوفّرى عليه ، غير أن تلاميذ مدرسته عيرونى بأنى كنت نزيل ملجأ ، فسرعان ما صار ابن عمى يرغب فى التخلص منى .

وهكذا حدث أن عمة لى من ليفربول قدمت لزيارتنا ، فجازفت بالقول بأن زوجها — العم توم — يستطيع أن يوظفنى كاتباً فى شركة تأمين ، فتقرر على الفور أن أذهب ،

وأعطيتُ ثياباً لائقة وجنيها ، وأرسلت إلى ليفربول .

فألفيت العم توم خفيف الروح كثير الوعود وواثقاً من قدرته على أشياء كثيرة من أجلى ، ولكنه كان لا يكسب إلا جنيهاً واحداً فى الأسبوع يعول به أسرة كبيرة .

ويمكن أن تعرف موضع الضعف فيه — إذا كان هذا موضع ضعف — من أنه ، وأسرته فى ضنك ، تسرّع فتحمل عبئى . ولم يتحقق التحاق بوظيفة الكاتب المرجوة ، وأخيراً انتحت بى عمتى ماريا ناحية واقترضت الجنيه الذهب منى وقالت : « إن العم توم متعطل منذ أكثر من ثلاثة أسابيع ، وهو مكروب جداً ، ولابد لى من أن أهيىء له وجبة حسنة أو وجبتين لأقوّى قلبه وأشجعه » .

وفى صباح يوم الاثنين من الأسبوع التالى اقترضت بذلتى ورهنتها ، وفى يوم الاثنين التالى أخذت معطفى ، فعلمت أن الأسرة فى ضيق شديد .

ورحت أذرع الشوارع لعلى أجد أى عمل ، وأتأمل نوافذ الدكاكين عسى أن يكون فيها إعلان يقول «مطلوب غلام» ، وعرضت خدمتى عشرات من المرات فكان الجواب أنى صغير ، أو دقيق الجسم ، أو أنى لست خفيفاً رشيقاً ، أو أنى جئت بعد الأوان . ولكنه حدث ذات يوم بعد عشرين خيبة أن وجدت عملاً فى دكان سلع صغيرة متنوعة بشارع لندن بخمسة شلنات فى الأسبوع ، وكان عملى يبدأ من السابعة صباحاً وينتهى فى التاسعة مساء ، ويشمل الكنس وإعداد المصابيح وصقل النوافذ ، ورفع الشبابيك الثقيلة ووضعها .

فكنت أغادر البيت فى منتصف الساعة السابعة صباحاً ومعى وعاء فيه خبز وزبدة وقطعة صغيرة من اللحم البارد أتبلّغ بها إلى الساعة التاسعة مساء . وقد ظلت عاداتى منتظمة شهرين بفضل قوتى الريفية ، ولكن ثقل الشبابيك بعد ذلك هدّنى وأرقدنى أسبوعاً ، فاستخدم صاحب الدكان غلاماً قوياً فى الثامنة عشرة بدلا منى ، وتلا ذلك شهر من ذرع الشوارع مرة أخرى أنشد عملاً .

فاتفق ذات يوم أنى كنت أؤدى مهمة لجزار فى الميناء ، فصعدت إلى السفينة وندرمير ومعى سلة من المؤن ورسالة إلى الربان . وفى هذه اللحظة قرر الحظ مصيرى ، فبينما كان الرجل يقرأ الرسالة كنت أنا أدير عينى بإعجاب فى أثاث الحجرة الوثير ، والمرايا المذهبة والطنف اللامعة . ثم شعرت فجأة بأن عينى الربان علىّ .

وقال : « أرى أنك معجب بغرفتى . فما قولك فى أن تعيش فيها ؟ »

فقلت وأنا فى دهشة : « سيدى ! »

« أقول ما رأيك فى أن تبحر على هذه السفينة ؟ »

« ولكنى لا أعرف شيئاً عن البحر ياسيدى » .

« هس ! ستتعلم بسرعة . هل تحب أن تبحر معنا تعمل عمل فرّاش ؟ سأعطيك خمسة ريالات فى الشهر ، وما يلزمك . وبعد ثلاثة أيام نبحر إلى نيو أورلينز » .

فتجمع فى لحظة كل ما كان يغيظنى ، وأوحى إلى أن أقول : « سأذهب معك يا سيدى إذا كنت ترى أنى أصلح » .

فى البحر

لبثت ثلاثة أيام فى السفينة وندرمير غافلاً لا أدرى شيئا ، ولكن فى صباح اليوم الرابع ردّنى إلى الحياة صوتٌ حادٌ يصيح بعنف من الكوة : « أنت أيها — أيها البريطانى الصغير ، اطلع وامسح السطح أيها — وإلا نزلت وسلخت جلدك حياً » .

وكان عنف الصوت وقوته كافياً لإيقاظ الموتى ، فنسيت الدُّوار الذى كنت أعانيه وتعثرت صاعداً إلى السطح ، واختلست أقصر نظرة ممكنة إلى الوجه المضطرم ، وجه الرجل الذى بلغ به الغضب هذا المبلغ ، ثم رآنى أقبل على عملى بلا تلكؤ ، فأسرع إلى غلام آخر وقال له بتهكم لاذع : « والآن ياعزيزى هارى أرانى واثقاً أنك لا تريد أن تذوق طرف حذائى ، أم تراك تريده ؟ »

فقال الغلام بسرعة : « كلا يا سيدى » .

« إذن ألق بثقلك على هذه المقشة . سامع ؟ »

« نعم ، نعم ، ياسيدى » .

واعتدل البحار ، ومضى إلى جماعة من النواتيّ يمسحون الأرض بهمة ويرسل وابلاً من اللعنات فوق الرءوس ، فتساءلت وأنا أسمع هذه اللعنات الفظيعة : إلى متى يكفّ الله عنهم نكاله ؟

ولما دقت أجراس المساء قيل لى إن سريرى سيكون مع سرير هارى فى غرفة الصبيان الذين هم تحت التمرين ، ولم يرد ذكر لتعيينى فرّاشاً . وكان زميلى هارى قد قام برحلة سابقة على السفينة وندرمير ، فلما أخبرته أنى عينت فرّاشاً أضحكه ذلك جداً وقال إن الربان مازال يلعب « لعبته القديمة » . « ففى الرحلة الماضية كان معنا غلامان فرّاشان ، ولكننا ما كدنا نخرج إلى البحر حتى استاقهما الربان أمامه للعمل ، وانهال عليهما طول الرحلة إلى نيو أورلينز ، فلما رست السفينة بجانب الرصيف فرّا مخافة أن يلقيا ما هو أسوأ من هذه المعاملة فى رحلة الإياب . ولابد أن يكون الربان قد خرج بخمسة وعشرين ريالا من أجورهما » .

وكان النظام على السفينة وندرمير وحشياً ، فكما أن فرانسيس كان يجلد ويضرب ويركل الأطفال الذين يلى أمرهم ، كذلك كان مساعدو الربان الأوغاد يصيحون ويشتمون ويضربون ويركلون الرجال التعساء الذين يعملون فى السفينة ، وكان من حسن حظى أنه فى الأسبوع الأول وجد ثلاثة ركاب مختبئين ، فتحول إليهم غضب المساعدين ، ولهذا لم تكن الرحلة غير محتملة .

وفى اليوم الثالث والخمسين من إبحار السفينة من ليفربول ، دخلت ميناء نيوأورلينز ، ولما سمح لنا بالنزول ذهبنا — أنا وهارى — نعدو على الرصيف فرحَين . وكان النسيم الرقيق المعطر وما امتزج به من روائح الدبس والسكر والبن الأخضر والقار ، ومرق اللحم وشراب الروم والويسكى — يفيض على كل ما أرى سحراً . وكان الناس الذين أمر بهم يبدون لى أنبل من كل من رأيت ، فقد كانت لأبدانهم خَطْرة فى المشى لم أعهدها فى قومى ، وكان تعبير وجوههم مخالفاً لكل ما ألفته ، وكدت رأسى بحثاً عن اسم لهذا الذى يخالف ما ألفت . وأنا أعرف الآن بطبيعة الحال أن الشعور بالمساواة والاستقلال هو الذى جعل كل وجه مختلفاً إلى هذا الحد عما رأيت فى ليفربول ، فهؤلاء الناس لا يعرفون لهم سيداً ، وليس فى قلوبهم رهبة لمستخدميهم . وضاعف مساعدو الربان فى الميناء مجهودهم معى ، وأثقلوا الوطأة على بغير رحمة ليحملونى على ترك السفينة ، فيقتصد أصحابها المبلغ الزرىّ الذى أستحقه . وأخيراً لم أعد أطيق حياة الرقّ ، وفى الليلة التالية خرجت من السفينة ورقدت فى انتظار الصباح بين كوم من بالات القطن .

العمل

وبعد طلوع الشمس بقليل خرجت من هذا المكان ، ونفضت ما علق بثيابى واتجهت إلى شارع تشابيتولاس . وحوالى الساعة السابعة بصرت برجل جالس أمام دكان يقرأ جريدة ، فظننته صاحب المكان الذى كان مكتوباً عليه « سبيك وماك كريرى — تجار جملة ووكلاء » . وبعد أن ألقيت نظرة أخرى على وجهه البشوش اجترأت فسألته : « بك حاجة إلى استخدام غلام يا سيدى ؟ »

فقال وهو يحدق فى وجهى : « غلام ؟ كلا لا أظن أن بى حاجة إلى غلام . من أين جئت ، فلست بأمريكى » .

فقلت : « جئت من ليفربول ياسيدى » ، وشرحت له أحوالى .

فقال : « وهكذا صرت بلا صديق فى بلد غريب ، وغايتك أن تشرع فى جمع ثروة . حسن ، وماذا تستطيع أن تعمل ؟ تعرف

القراءة؟ أي كتاب هذا الذي في جيبك؟»

«هو إنجيلي، هدية من أسقفنا. أي نعم ياسيدي أعرف القراءة» . قلت هذا مزهواً.

ففتح الإنجيل وتبسم وهو يقرأ ما كتب عليه : «هدية إلى جون رولاندز من توماس فاولر شورت الدكتور في اللاهوت وأسقف القديس آساف، مكافأة على الهمة في الدراسة وحسن السلوك العام».

والتفت إلي وأشار إلى مقال في الجريدة وقال : «اقرأ هذا» ففعلت، وقرأتها كما قال قراءة صحيحة ولكن اللهجة غير أمريكية.

ثم سأل: «هل تحسن الكتابة؟».

«نعم ياسيدي، أكتب خطاً حسناً كما قيل لي».

«إذن دعني أراك تكتب على غرارة البن هذه نفس العنوان المكتوب على الغرارة القريبة منها، وعندك الفرشة وعلبة الدهان»

فرسمت في بضع ثوان حرف س في مربع وبجانبه «ممفيس بولاية تنيسي» ورفعت إليه وجهي.

فقال : «كتابة حسنة. والآن اصنع بالغرارات الأخرى ما صنعت بهذه» وكان هناك نحو عشرين، وبعد بضع دقائق كان العنوان عليها جميعاً. فصاح : «بديع، لاخوف من أن يضل بني ويضيع في هذه المرة. سيحضر المستر سبيك بعد نحو ساعة، وفي أثناء ذلك يحسن أن تجيء معي لتفطر».

وقال لي إنه لما كان الأثر الأول في النفس له شأن عظيم، فإنه يحسن بي أن أحلق شعري وأن أنفض الغبار عن ثيابي. وبعد أن أكلنا أخذني إلى دكان حلاق، فلما عدنا إلى محل سبيك وماك كريري قال لي إن منظري مرض.

وبعد أن حيّ هذا الرجل المفضال المستر سبيك تحية مودة، تناول ذراعه وانتحى به ناحية وقضى بضع دقائق في حديث معه، ثم قال المستر سبيك وهو يبتسم :

«إني أيها الفتى مستعد أن أستخدمك على سبيل التجربة أسبوعاً بخمسة ريالات».

وناهيك بما شاع في نفسي من الفرح والزهو حينئذ! قبل بضع ساعات ليس إلا كنت كرجل معرض لتهشيم رأسه في أية لحظة، والآن صرت حراً وارتقيت إلى مرتبة الإنسان.

وأقبلت على العمل بهمة، وما لبث مابدا من نشاطي وقوة ذاكرتي أن صار موضع التقدير، فثبت في عملي بخمسة وعشرين ريالا في الشهر، وهو مبلغ كان يبقى لي منه خمسة عشر ريالا في الشهر بعد أن أؤدي أجر المسكن وتكاليف الطعام، فهو كان ثروة في نظري.

وما انقضت بضعة أسابيع على مقامي

حتى تغيرت روحى وأخلاقى ، فقد نلت حرية القول والرأى ، وأمنت الاضطهاد واحتقار الطبقة التى انتمى إليها ، وصار ما ألقاه من معاملتى فى أمريكا كلها رهناً بشخصيتى أنا بغير نظرة إلى الأسرة أو الأصل ، فاستقام ظهرى وصارت خطواتى أوسع وأنا أستمتع بهذا الاستقلال الجديد. وبلغت الآن الخامسة عشرة ، فأنا لم يمض على تركى الملجأ سوى ثمانية عشر شهراً .

وعلمت من مستخدمى أن الرجل الذى كان أول من خاطبته — ذلك الذى أحسن إلى — سمسار يعمل فى التجارة بين الزراع على جانبى النهر وبين تجار نيو أورلينز ، واسمه ستانلى . وحوالى الأسبوع الرابع عاد المستر ستانلى يحمل طائفة جديدة من الطلبات ، وهنأنى بتحسن مظهرى وأسر إلى أن المستر سبيك راض عنى أتم رضى ، وناولنى بطاقته ودعانى إلى الإفطار يوم الأحد التالى .

ولما كان يوم الأحد ألفيت البيت من الفخامة بحيث ترددت فى الدخول لولا أن المستر ستانلى كان فى انتظارى على الشرفة ، فمضى بى إلى حجرة رحيبة نفيسة الأثاث ، وقدمنى إلى سيدة ضئيلة وهنانة هى مثال الصقل والتهذيب، فكانت أول سيدة قابلتها ، ولكنه ما من شىء كان خليقاً أن يتغلب على حيائى مثل ترحيبها بى وتلطفها معى ، وأجلستنى بجانبها على أريكة ، فسرعان ما انطلقت أثرثر معها بذلاقة مدهشة .

وانتقلنا إلى غرفة الطعام فألفيت فيها نحو اثنى عشر فى مثل سن المستر ستانلى وزوجته ، ومرتبتهما الاجتماعية ، فوقع فى نفسى أن بينى وبينهم هوة تكاد تتعاظم المجتاز ، وكان حديثهم يدور على ما أفهم فى الأغلب ، ولا شك أنهم أدركوا من سلوكى وسنى أنى لست من طبقتهم ، غير أنهم شرفونى بأن أدخلونى فى زمرتهم . فكان إفطاراً لا ينسى .

وصرت بعد ذلك أقضى صباح كل أحد مع آل ستانلى ، وكانت السيدة ستانلى تبدو فى كل زيارة أشد عطفاً وحنواً ، وكان هو يزداد محبة أبوية ، وكانوا يأخذوننى إلى الكنيسة ويتعهدوننى بطرق أخرى شتى .

وكان صيف ١٨٥٩ غاية فى الوخامة ، فمرض المستر سبيك ذات يوم وبعد أربعة أيام توفى ، فبيع المحل بالمزاد ولكن الذى اشتراه احتفظ بى .

وبعد بضعة أسابيع ذهبت أزور المستر ستانلى على عادتى يوم الأحد ، فراعنى أن أسمع من وصيفتها أنها مريضة جداً وأن بها حاجة إلى عناية دائمة ، وكان المستر ستانلى مسافراً وتبينت فى وجه الوصيفة مرجريت آية

التعب والقلق، فرجوت منها أن تستعين بي، فقالت بعد تردد إني قد أساعدها على الظفر بحظ من الراحة إذا أنا جلست عند الباب، فإذا سمعت أي صوت أو حركة في الغرفة دعوتها ولزمت مكاني طول النهار والليل. ومع أني دعوت مرجريت مراراً إلا أن ما كانت تختلسه من فترات الراحة أعانها على الاحتفاظ بقوتها. ووعدت وأنا عائد إلى عملي أن ألتمس إجازة بضعة أيام، وأن أعود إليها في مدى ساعة، ولكن مستخدمي الجديد رأى أن يعد ما التمست من الإجازة بضعة أيام عملا متكرراً، وقال لي بجفوة إني أستطيع أن أذهب إذا شئت ولا أرجع، وقد كان هـذا الرد الخشن لو سمعته قبل بضعة شهور خليقاً أن يجعلني أتضاءل، ولكن جو نيو أورليـــنز ينضج شعور المرء بالاستقلال والكرامة، فأجبته بقولي:

« حسن جداً ياسيدي. تستطيع أن تطردني على الفور ! »

وصار وقتي كله بعد ذلك تحت تصرف مرجريت، وكانت المسز ستانلي المسكينة تزداد في أثناء ذلك سوءاً، فلما كانت ليلة الأربعاء قال الطبيب إن حالتها خطرة. وقبيل منتصف الليل أومأت مرجريت إلي — وكان وجهها مكفهراً ممتقعاً — أن أدخل غرفة المريضة، فدخلت على أطراف أصابعي وقلبي يخفق خفقاناً مؤلماً، ورأيت سريراً عريضاً عليه أستار بيض من القطن الرقيق يرقد عليه جسمها النحيل، وكانت من الوهن والرقة بحيث خيل إلي أن من الوقاحة أن أكون قريباً منها وأنا في هذه العافية العاتية.

وفتحت عينيها الرقيقتين وقالت بصوت كأنما يجيء من بعيد: « كن فتى طيباً والله يبارك فيك ! » وبينما كنت أرهف أذني لأسمع، اتسعت العينان وثبتتا، وغمرت محياها سكينة جميلة، فلما التفت لأنظر في عيني مرجريت عرفت أن الأجل قد وافى.

ولبثت فترة لا أكاد أجعل بالي إلى شيء من فرط الأسى، ثم انقشعت السحابة شيئاً فشيئاً عن ذهني، فذهبت أنشد عملا، غير أن الحظ لم يكن مؤاتياً في هذه المرة. وبعد أسبوعين من السعي المخفق انحدرت إلى كل ضروب الأعمال، وبعد شهر من هذا العناء ركبت باخرة إلى سنت لويس حيث قدرت أن أجد المستر ستانلي.

على أني علمت حين سألت عنه في الفندق في سنت لويس، أنه رجع إلى بيته قبل أسبوع وكان ما معي من المال قد قارب النفاد، ولكني لحسن الحظ استطعت أن أعود إلى نيو أورلينز لقاء أن أعمل مساعداً للطباخ في سفينة مسطحة لنقل الخشب.

وجدت أباً

وفى نيو أورلينز حيث وجدت المستر ستانلى كان استقباله كاستقبال الأب، حتى أن الولد الضال ما كان يمكن أن يشعر بأكثر من هذا السرور .

بين هـذه الجملة الأخيرة ، وما تلا ذلك ، فترة ... ، وكنت لما أنا فيه من السرور الذى يملأ شعاب نفسى ، لا أبالى بغير اغتباطنا المتبادل . غير أن العاطفة مالبثت أن حركت أعمق أعماق نفسى ، فقد كان يقول بشىء من التأثر إن مستقبلى ينبغى أن يكون أمانة يحملها . ذلك أنه تأثر تأثراً بالغاً بما حدثته به مرجريت عن آخر ما كان وزوجته تجود بأنفاسها ، فعاد لايستطيع أن ينحّيني عن تفكيره فيها، وقد سأل نفسه عما تراني أصنع، ولما كان يعرف أنى غريب ولا صديق لى، فقد كان كل مايتخيله من حالى يحزنه، فاعتزم لما عاد إلى نيو أورلينز أن يبحث عنى وأن يكفلنى .

وكنت فى أحلامى قديماً كثيراً ماأتصور النشوة المستفادة من حب الأب ، كما أراه مُغدقاً على غيرى من الأطفال فأغبطهم عليه. والآن ، ومن حيث لا أحتسب ، تلقيت هذه الاستجابة لدعائى .

وقبل أن أدرك كل ما ينطوى عليه هذا التصريح من أثر فى حياتى، نهض، وضمنى إليه ضماً رقيقاً ، فتهافت وبكيت ، فقد كان هذا هو الحنو الوحيد الذى ذقت طعمه ، وما كانت القسوة مهما بلغ من أمرها لتسيل دموعى، ولـكنها انهمرت لهذه الضمة الرقيقة .

وقال لى إنه لاولد له ، وأنه هو وزوجته كثيراً ما سألا الله أن يمنحهما نعمة الذرية حتى أضناهما التمنى والانتظار، وكثيراً مافكر فيما أدار فى نفسه سؤالى له : «بك حاجة إلى غلام ياسيدى؟» ، فقد كان هذا السؤال كأنه إعراب عن مناه طول حياته : «وأنا أعدك أن أتخذك ابناً لى ، وأن أعدك لمستقبل تجارى، وستحمل فى المستقبل اسمى ، هنرى ستانلى» .

وقد بدأ العهد الذهبى فى حياتى من هذه اللحظة الجليلة .

ولاشك أن كثيراً من الناس قد عرفوا من وجهى المشرق وعينى الملتمعتين ، ونحن نجتاز الشوارع معاً ، أنى ممتلىء جذلاً ، وما استطعت إلا بجهد شديد أن أكبح نفسى عما تغرى به خفة الفرح مما لايليق .

وانقضى معظم اليـوم فى تجهيزى لمنزلتى الجديدة ، فزودت بثيـاب جديدة أنيقة، وملابس تحتية، وأحذية فاخرة ، وأدوات زينـة لا عهد لى بها ، مثل فرشة الأسنان وفرشة الأظافر .

ثم مضوا بى إلى حمام طويل فى إطار من الخشب الأسود ، وبينما كنت أعجب

بحسنه سمعت عن المزايا الكثيرة المسندة إلى استعماله اليومى ما أغرانى بحبه .

وغمرت نفسى فيه عصر ذلك اليوم كأنما كنت أريد أن أغسـل ما لوثنى به الفقر والشقاء . والأطفال الذين ينشأون فى بيوتهم يتبعون بالفطرة الآداب السائدة فيه ، ولم يكن لى بيت ، ولهــذا كان ينقصنى تلك اللباقات الصغيرة المستفادة من الحياة المنزلية ، غير أنى من اللحظة التى خرجت فيها من الحمام فى ثيابى الجديدة ، شرعت عفواً فى تلك التربية الأولية التى ستجعلنى جديراً بأن يرانى الناس إلى جانب رجل محترم .

ولبثنا سنتين تقريباً نتنقل بين نيوأورلينز ، وسنت لويس ، وسنسناتى ، ولويزفيل ، ولكنا كنا نقضى معظم وقتنا على فروع نهر المسيسيبى السفلى حيث كنا نقـوم بمهامّ رابحة فى معاملاتنا مع التجار المحليين . وقد اكتسبت فى هذه الأسفار التجارية معارف جغرافية تفوق كل ما كان يمكن أن تعلمنيه المدارس . وكان تذكرى للأسماء والوجوه والتفاصيل التجارية عظيم النفع لأبى .

وكنا حين غادرنا نيوأورلينز فى آخر ١٨٥٩ قد جلبنا معنا ملء حقيبة من الكتب المتخيرة ، وقيل لى إن علىّ أن أواصل الدرس كأنى فى مدرسة . ولم تكن رحلة على النهر مع رجل مثل أبى ، لتعوق تعلمى . بل لقد بلغ من حرصـه على اغتنام الدقائق التى تمر خطفاً ، أن تسرّى حرصه إلى فصرت مثله .

وكنا نقرأ معاً فى هذين العامين ، ونتدارس كتباً كثيرة ، فاتسعت معارفى حتى كأنما كنت مع مؤدِّب .

وكنت حريصاً على العمل بأيسر اقتراح له ، غير أنى أخشى أنى لم أكن فى كل وقت جديراً بما يولينى ، أو كفؤاً لما يرجو لى ، فقد كنت امرءاً لا أستطيع دائماً أن أفعل الواجب أو اللائق ، ولا بد أنى امتحنت صبره فى بعض الأحيان .

شريد ثانية

قابلنا فى سبتمبر ١٨٦٠ رجلا مديد القامة أنيقاً اسمه الماجور إنجهام ، على ظهر سفينة ذاهبة إلى نيوأورلينز . وقبل أن نبلغها ائتلفنا إلى حد جعـله يدعونا إلى قضاء شهر معه فى ضيعته بأركنساس . ولما صرنا فى نيوأورلينز تلقى أبى رسالة من أخيـه فى هافانا أقلقته وأحوجته إلى السفر لرؤيته ، فكانت دعوة الماجور إنجهام عوناً على تذليل الصعاب ، فأنا أذهب مع الماجور إنجهام ، وأبى يقوم برحلتـه ، ولو كنا اطلعنا على الغيب وعلمنا أن هـذا الفراق سيكون إلى الأبد لأحجم كلانا عنه ، غير أنا كنا قد بلغنا مفرق الطرق ونحن لا ندرى . . .

ولما آن لأبي أن يرحل رافقناه أنا والماجور إنجهام على باخرة مسافرة إلى هافانا ثم مضينا إلى أركنساس ، وصرت أتلقى من أبي الرسائل بانتظام ، ثم تلا ذلك شهر بعد شهر من الصمت التام . وقد بقيت حتى دخلنا في شهر مارس ١٨٦١ أنتظر كل يوم أن أتلقى منه خبراً أو أن أراه مقبلا ولكنه كان قد كتب علينا أن لا نلتقي مرة أخرى فقد مات فجأة في ١٨٦١ — ولم أسمع بموته إلا بعد زمن طويل .

وفي أثناء ذلك وقعت حوادث مدهشة . فقد تحدى كثير من الولايات الجنوبية حكومة الولايات المتحدة وخرج من الاتحاد معظم الولايات التي تنتج القطن ، وفي أوليات شهر مايو انفصلت ولاية أركنساس أيضاً ، فتلهبت النفوس وفارت وسرت في هذه الحماسة الحربية ضد همج الشمال ، فتطوعت في الجيش الجنوبي .

وكنت إلى ذلك الوقت قد تفاديت في حياتي الأخطار الجسام ، ولكن هذا التطوع كان غلطة فاحشة — الأولى من كثير غيرها . غير أني كنت قد حمست كغيري من أهل الجنوب وصرت « آكل نار » ، وأدار الثناء العام رءوسنا الصغيرة فصقلنا الأزرار النحاسية والأسلحة وما إليها من عدة القتال ، وطبعت صورنا على قطع من الصفيح ، على هيئات وحشية ، والمسدس في يد ، والخنجر في الأخرى ، والوجه عبوس منذر بالشر .

وبعد بضعة أسابيع اجتزنا شوارع عاصمة أركنساس للمرة الأخيرة ، وكانت تخفق فيها الأعلام ، والناس يصيحون ويهتفون ، ونحن نرفع عقائرنا بأغنية « ديكسى » والبنات يلوحن بمناديلهن ويبكين . وكان الضوء المنعكس عن بنادقنا اللامعة وسنانها المصقولة يخطف الأبصار ، والنسيم يعبث برايات الكتائب والفصائل ونحن سائرون إلى مكان العرض « وعيوننا إلى أمام » .

ولو أن السيدات الصغيرات شهدننا حين وصلنا إلى المعسكر في الهزيع الأول من تلك الليلة ، بعد مسيرة يومنا الأول ، لركبهن الخزى إلى الأبد ، فقد كنا كمسع المتطوعين الجديدين ، موقرين بكثير مما ليس له نفع من العدة ، وقد أضنانا التعب ، واتسخنا .

وفي أسبوعين اثنين مات خمسون بالتيفوس أو الملاريا ، أو من سوء الجراية . وبعد ثلاثة أسابيع كنا جميعاً مهددين بمثل ذلك .

على أننا تعودنا على الأيام لحم الخنزير المقدد والفول ، وتعلمنا الرضى بالنوم على وسادة من الحجر ، وتمرسنا بالمصاعب والمناوشات ففقدت الحرب ثقل وطأتها شيئاً فشيئاً .

شيلو

وفى اليوم الثانى من إبريل ١٨٦٢ تلقينا أمراً بإعداد جرايات من الطعام المطبوخ تكفى ثلاثة أيام ، وبعد يومين زحفنا لنشترك فى معركة من أحمى المعارك التى دارت فى الغرب . ففى الساعة الرابعة صباحاً ، تركنا معسكرنا الرطب ، وتقدمنا للهجوم فى شيلو على جبهة طولها ثلاثة أميال .

وظل القتال دائراً طول الصباح ، ونحن نحشو بنادقنا العتيقة ونطلقها ، وأخيراً قوبلنا بوابل من الرصاص بلغ من شدته أن صدر إلينا الأمر بالاستتار . ولما نهضنا مرة أخرى لنواصل الهجوم — وكنت قد استترت أنا واثنى عشر آخرين وراء شجرة مقطوعة — أصابتنى ضربة عند معقد الحزام وطرحتنى أرضاً ، ولم يطل انطراحى إلا دقائق ثم أفقت من الصدمة ، فوجدت مشبك الحزام منقوراً نقراً عميقاً ، ولما كنت لا أرى فصيلتى فقد سرت شمالا فى الاتجاه الذى سارت فيه الكتيبة فوق أرض مغطاة بجثث القتلى وحطام الحرب . وكان ماشهدت فى تلك الأرض كتلة من الفظائع سأظل أذكرها كلما ذكر اسم شيلو .

وأدركت كتيبتى حوالى الساعة الأولى وألفيتها مشتبكة فى هجوم عنيف ، واستمرت المعركة بعد الظهر كله . وأخيراً حوالى الساعة الخامسة ، قمنا بهجمة فاستولينا على معسكر كبير ، وبعد أن طردنا منه العدو وأبعدناه عنه أمرنا بالارتداد ، وكنت قد استحلت إلى شخص يتحرك كالآلة وليس لى إلا هم واحد هو أن أنام .

واستيقظت قبل الفجر بساعة ، وقد أنعشنى الرقاد . وبعد أن أكلت وهنئت ، لحقت بكتيبتى عند طلوع النهار ، فأرسلت الكتائب على الفور تقريباً إلى خط القتال بسرعة ، فتقدمنا فى النظام الخاص بالمناوشات . وكنت أنشط مما كنت خليقاً أن أكون ، ولعل السبب أن الكبتن سميث قال لى : « والآن يا مستر ستانلى أرجو أن تخطو إلى الأمام بهمة ! » فجرح كرامتى أنى أفردت بهذه الملاحظة ، وتقدمت كالصاروخ ، وبعد قليل لاقينا أعداءنا وكانوا على مثل نظامنا ، وكانوا مقبلين بعزم صادق ، فألقينا بأنفسنا وراء الأشجار القريبة ، وأطلقنا نيراننا ، وحشونا البنادق ووثبنا إلى مخبأ آخر ، وأخيراً وجدت نفسى فى أرض خضراء مكشوفة ليس فيها شجرة أو أصل شجرة على مقربة منى ، ولمحت منخفضاً من الأرض على مسافة عشرين ياردة تقريباً أمامى ، فعدوت إليها وحشوت بندقيتى بسرعة ، وشغلت بأعدائنا ذوى الثياب الزرق حتى أنى لم ألتفت

إلى جماعتنا ذوى الثياب الرمادية . ولم أفكر قط فى التراجع ، ولكن لما كان الزرق يتقدمون ويدنون منا دنواً لا يدعو إلى الاطمئنان على الرغم من نيراننا ، فقد نهضت من مكمنى ، فأذهلنى أنى الوحيد من جماعتى فى خط من مقاتلة الزرق ! فقد تقهقر رفقائى ، وما سمعت بعد ذلك إلا قائلا يقول : « ألق هذه البندقية وإلا رميتك برصاصة تنفذ من عظامك ! ألقها بسرعة ! »

وكان ستة من الزرق مسددين بنادقهم إلى ، فألقيت بندقيتى وأنا لا أكاد أملك نفسى . وأصبحت أسيراً لهمج الشمال !

أسير حرب

فى الثامن من إبريل نقلنا بباخرة إلى معسكر دوجلاس على مشارف شيكاغو . كان بناء هذا السجن الموحش غاصاً بالحشرات والهوام ، فما مضى أسبوع حتى فتك بجماعتنا من الأسرى ما يحيط بنا ، وعاثت فينا أمراض الكبد والدوسنتاريا والتيفوس ، فصارت جماعتنا تزداد كل يوم نقصاً ، وكانت المركبات تأتى كل صباح إلى المستشفى ودار الموتى لتحمل الجثث .

وأقبل علىّ ، ذات يوم ، المستر شيبان أحد المشرفين على المعسكر وقال لى : إنى أستطيع إذا كنت قد مللت الأسر ، أن أنال حريتى بأن أكون جندياً من جنود الاتحاد ، فقلت : « كلا ! لا أستطيع أن أفعل هذا ! »

فأخذ يفيض فى الكلام على تفوق الشمال ، وأن الجنوب سيهزم لامحالة ، وأن مما يدعو إلى الرثاء أن يضحى الشبان بأرواحهم فى سبيل قضية كقضية الرقيق ، ولكنه كان من العبث أن يحاول التأثير فىّ من الناحية السياسية ، فقد كنت أجهل بالسياسة من أن يجدى معى ذلك ، ثم إن أبى الذى تبنانى كان من أبناء الجنوب ، وقد أعمانى جميله وشكران نعمته .

ولكن فى خلال ستة أسابيع اصطلحت عوامل أقوى من منطق المستر شيبان على نقض عزمى على إيثار البقاء أسيراً ، فقد خفت أن يعصف بعقلى تفشى الأمراض وأهوال السجن ، وأنى قد أظل فى الأسر سنوات ، فقبلت شروط الإفراج عنى ، والتحقت مع كثيرين غيرى من الأسرى بمدفعية الولايات المتحدة ، وفى الرابع من شهر يونية استعدت حريتى مرة أخرى .

ولكن بعد ثلاثة أيام من العمل فى الجيش استعلت علىّ جراثيم السجن ، فلما وصلنا إلى معبر هاربر ، صرعتنى الدوسنتاريا والحمى ، فثقلت وأثبتُّ فسرحونى من الخدمة ، وأنا حطام .

وكانت حالتى من التضعضع أقصى ما يمكن أن يصير إليـه إنسان خارج السجن ، ولم يكن معي مليم ، ولا كنت أدرى أين أقصد ، ولم يكن فى وسعى أن أمشى ثلاثمئة ياردة دون أن أقف وأفهق ، وكنت ، وأنا أرقد فى الليـل كالخشب تحت أعين النجوم ، والحمى ترمضني والنزف يلح علىّ فى جوفى ، لا أحس برغبة فى مكافحة الموت ، ولكن كل فجر يطلع كان يجيء بومضة أمل تدفعنى إلى طلب القوت والمأوى . وكانت هاجرزتاون على مسافة أربعة وعشرين ميلا من معبر هاربر ، ولكن أسبوعاً تقضّى قبل أن أصل إلى ضيعة دون منتصف الطريق ، فرجوت صاحبها أن يأذن لى فى النزول بكوخ على أطرافها ، فجاءنى ببعض الدريس فانطرحت عليه وليس لى أدنى رغبة فى النهوض مرة أخرى . ومضت عدة أيام قبل أن أفيق ، فوجدت مرتبة تحتى ، وغطاء من قطن مطروحاً على ظهرى ، واستعدت قوتى ببطء بفضل العطف المتواصل وغذاء اللبن .

وقد بقيت مع هـذا المحسن الكريم إلى منتصف أغسطس وكان يعنى بى أحسن عناية ، ولما رحلت أبى إلا أن يدفع لى أجر الطريق إلى بلتيمور .

القسم الثانى

"بولا مـــارى" أو محطـم الصخور

تأليف جاكوب واسرمان

آخر ما كتبه ستانلى فى ترجمته لنفسه بيّن وأولى رحلاته الكشفية العظيمة فترة من حياته مستسرّة إلى حد ما ، وكل ما نستطيع أن نتبينه فى الظلام الذى اشتمل عليها هو أنه كان لا يستقر أبداً ، وأنه كان يجاهد مستئيساً ضد انقلاب الحظ عليه .

ففى خريف ١٨٦٢ كان يعمل أجيراً فى الحصاد ، ثم عمل فى البحر فى سفن شتى ، وتحطمت به سفينة تجاه برشلونة فسبح إلى الشاطىء وهو عريان ، وفى أغسطس ١٨٦٤ تطوع فى بحرية الولايات المتحدة ، وفى ١٨٦٥ شهد الاستيلاء الدموى على « فورت فيشر » . وقد وصف هذا الهجوم فى رسائل رحبت بها الصحف ، وكانت تلك أول عمل صحفى له .

وبعد ذلك صار مراسلا صحفياً يجوب كرة الأرض ، ويروى وقائع الحروب والثورات ، ولفت إليه نظر جيمز جوردون

بنيت صاحب جريدة النيويورك هرالد .
فحدث ذات يوم فى ١٨٦٩ أن كان ستانلى يوافى الصحيفة بحوادث فتنة فى إسبانيا ، فاستدعاه إليه بنيت وكان فى باريس .

وقال بنيت : « عندى لك عمل مهم : هل تظن أن لفنجستون حى ؟ »

« لا أدرى يا سيدى »

« أنا أظن أنه حى ، وأن من الممكن الاهتداء إليه ، وسأبعث بك لتجده »

فلم يسع ستانلى إلا أن يتعجب لهذا الأمر الهادىء، بأن يذهب إلى قلب إفريقية المجهول باحثاً عن رجل يعتقد العالم كله أنه مات .

فسأل : « هل فكرت تفكيراً صحيحاً فى التكاليف الجسيمة ؟ »

« نعم . اسحب ألف جنيه الآن ، ومتى أنفقتها فاسحب ألفاً أخرى ، ثم ألفاً ثالثة، وهكذا ، ولكن اهتد إلى لفنجستون . هذا كل ماعليك : أن تهتدى إليه والله معك » .

وكان دافيد لفنجستون « الباحث عن النهر » كما كان أهالى إفريقية يسمونه ، طبيباً مبشراً أسكتلنديا يجوب إفريقية مرتاداً لها منذ ١٨٤٠ ، وكان رجلا جديراً بأعظم التقدير ، فاز عمله الجرىء فى إفريقية بالإعجاب العام . وفى سنة ١٨٦٦ غادر زنجبار مغرباً إلى قلب القارة وقد خامرته فكرة الاهتداء إلى منابع النيل ، فلم يسمع عنه شىء بعد ذلك ، فقلق الناس عليه وجعلت الصحف تسأل بإلحاح : « ماذا جرى لدافيد لفنجستون ؟ »

على أن أصدقاء لفنجستون الذين كانوا يعتقدون أنه لا يزال حياً ما كانوا ليتصوروا ما صار إليه من سوء الحال فى ذلك الوقت . فقد كان فى السابعة والخمسين ، وقد ذهبت أسنانه ورثت ثيابه ، وألح عليه المرض ، وتكسر وهزل من الجوع ، وخذله وتخلى عنه أتباعه من الأهالى ، وقد بقى هذا الرجل المستفرد ، مقيما على غير أمل فى قرية يوجيجى على شاطىء بحيرة تنجنيقا يفصل ما بينه وبين البحر القبائل المقتتلة ، وتسعمئة ميل من الأدغال .

لما وصل ستانلى إلى زنجبار — نقطة البداية فى بحثه التاريخى — لم يجد خبراً عن لفنجستون ، ولا رسالة من بنيت تؤيد الأمر الشفوى بأن يبحث عن الرحالة ، ولا حوالة مالية ، وكان كل ما بقى من المال مع هذا « المراسل الخاص » ٨٠ ريالا . غير أن تعليماته كانت أن « يجد لفنجستون » فلابد من العثور عليه ، وظاهره القنصل الأمريكى فاستطاع أن يسحب على حساب بنيت ما يكفى من المال لتجهيز القافلة : ٣١ من الأهالى المسلحين يسمون « الجنود » ، و١٥٣

من الحمالين . وفى فبراير ١٨٧١ خرج إلى أرض مجهولة كل الجهل ، على أنه كان له هدف — وإن كان غامضاً — هو المنطقة التى تلى بحيرة تنجنيقا ، حيث قيل قبل عامين فى رواية مبهمة أن الرائد هناك . وكان الطريق الذى سلكه (وهو لا يعد «طريقاً» إلا تخيلا ، والحقيقة أنه لم يكن يعدو أن يكون اتجاها قائماً على التخمين) لم تطأه قدم أوربى قط ، ولم تكن دولة أوربية قد فكرت فى استعمار هذه النواحى ، وكان معظم إفريقية الوسطى يمثل على الخرائط باللون الأبيض .

وفى الأيام الأولى من رحلته فى الفيافى الألغاز ، كانت تأخذه الحمى الاستوائية ، وكان مسها أحياناً من الشدة بحيث يضطر إلى الرقاد أياماً على الشبكة التى يتخذها للنوم وهو غير مستطيع حراكا ، ولا يكاد يعى شيئاً .

وكانت الصعاب التى اعترضت القافلة ، عند عبور الأنهار الكثيرة التى وسعت الأمطار لجتها، وعبابها ، مما لا يكاد يستطاع تخطيه ، وكانت تأخذ عليها الطريق أدغال ألفاف لا تخترق، وأشجار متشابكة متداخلة، وكانت الأشواك تحدث جراحاً عميقة فى الجلد ، وكان هناك نبات يكفى مسه لإحداث خراجات مؤلمة فى الخدين والجبين، وبطائح من الوحل منتثرة بين الحشائش التى تناهت فى الطول ، وكانت الأدغال المنخفضة تخرج منها أبخرة وبيلة لا تنقطع ، ولا تكاد القافلة تصعد إلى الأرض المرتفعة المكشوفة حتى يسهل على المغيرين رؤيتها ، فتتعرض للهجوم باستمرار ، وكان خط الحمالين المتلوى يثير ضجة بين طيور لا عداد لها : حمائم خضر وغربان ودراج ذهبى وبجع ....

ثم كان هناك بلاء الحشرات ، ويصف ستانلى جموعاً لا تحصى من الزواحف جيوش جرارة من النمل الأسود والأبيض والأحمر تعيث فى الأرض الموبوءة، وحشرات من كل لون تمرح على الشجيرات والنباتات ، والبراغيث وذباب تسى تسى الذى لا يطاق ، وترى على العشب أعشاش زنابير صفر الرءوس لدغها كلدغ العقارب .

وكان يغيظه دائماً ويخنقه ما يراه بين أتباعه من الشك والخوف والقحة والتحايل ، وما يطلبه الطغاة الصغار على طريقة من «الجزية» . وقد تعلم المساومة الرفيقة مع الشيوخ الذين يتوعدونه ثم يؤدى «الجزية» خرزاً وقماشاً وأسلاكاً مما اشترى لهذا الغرض .

وكانت الأسابيع تمضى فيمرض الحمالون وينطرحون ، وكانت القافلة كلها تكف عن السير من فرط الإعياء . « وقد غاصت الحمير فى الأوحال كأنما سمرت فيها ، أو غرست . وكانت أيام المطر المنهمر ، والغابات التى يقطر منها الماء ويلفها الضباب ، والأرض المغمورة

وألفاف الأعشاب فى الماء الموحل وألواح الأشجار الهامدة والقصب — كل هذا كان كافياً لإفشاء الحمى» . ثم جعلت الحصبة تأخذ نصيبها . ويصف ستانلى حوادث موت شبيهة بما كان يحدث فى معارك الإسكندر .

وكان ستانلى بطبيعة الحال يسأل فى كل مكان عن أخبار لفنجستون ، ولكن السؤال كان إلى الآن عبثاً ، على أنه مضى على سنتيه . وفى أكتوبر قامت فتنة خطيرة ، أخمدها بجرأة بأن واجه بندقية زعيمها باحتقار . وواصل السير فى الوهاد والمستنقعات ، وقال الدليل : «هنا اختفى عن الأنظار تاجر عربى وقافلته المؤلفة من ٣٥ من العبيد» . وجاء الليل وجلس رجال ستانلى حول النار ينتفضون من الحمى ، ولا يجترئون أن يناموا خوفاً من زئير الأسود ، غير ان ستانلى استطاع ببسالته وصدق عزمه أن يواصل السير على الرغم من المصاعب جميعاً . وكتب فى مذكراته يقول : «تحدثنى نفسى أنى سأجده ، سأجده ! سأجده ! حتى الألفاظ لها قوة الإلهام » .

وأخيراً فى صباح اليوم الثالث من نوفمبر التقت جماعة ستانلى بقافلة من يوجيجى ، فسأل عن الأخبار فتأثر تأثراً بالغاً حين قيل إن فى يوجيجى رجلا أبيض .

« رجل أبيض ؟ »

« نعم مثل السيد (أى ستانلى) وعلى وجهه شعر أبيض ، وهو مريض » .

«مرحى!» بهذا يعلق ستانلى فى مذكراته « إنه لفنجستون . لا بد أن يكونه ، ولا يمكن أن يكون سواه ! » ودعا رجاله إلى السير السريع إلى يوجيجى ، وانطلق هذا المنقذ والصحفى فى الفيافى كالعاصفة .

وفى يوم الجمعة العاشر من نوفمبر ١٨٧١ وهو اليوم السادس والثلاثون بعد المئتين مذ غادر الساحل ، دخلت القافلة يوجيجى ، فأحاط بستانلى حشد صاخب ، وتقدم رجل أسود مديد القامة فى قميص أبيض طويل ، وقال إنه خادم لفنجستون . فأمره ستانلى بأن يعدو إلى سيده ، فانطلق الرسول وقميصه الأبيض يخفق خلفه كأنه راية يعبث بها النسيم . ومضى الركب فى طريقه وعلى الجانبين الجماهير تتلاغط ، وبلغ القوم السوق حيث لمح ستانلى شيخاً له سمت ، «ولما اقتربت منه لاحظت أنه حائل اللون متعب» . ثم كان الحوار الشهير — وجيزاً خالياً فى ظاهر الأمر من العاطفة حتى فى ساعة الفوز هذه .

« الدكتور لفنجستون فيما أظن ؟ »

« نعم » قالها لفنجستون بابتسامة رقيقة ، ورفع قبعته قليلا .

وكان ستانلى قد خلع خوذته التى يتقى بها الشمس ، فأعادها ، ورد لفنجستون قبعته

إلى راسه ، وتصافح الرجلان . ثم جرى حديث كشف عن شيء من التأثر ،

« إني أحمد الله الذي وفقني إلى رؤيتك يا دكتور » .

« وإني لشاكر له أني هنا لأرحب بك » .

وكان من فكاهات التاريخ أن يلتقي هذان الرجلان المختلفان في أقصى الأرض الموحشة، وفي لحظة فريدة من تاريخ كل منهما — ستانلي الذي سيطبق الخافقين ذكره بفضل بحثه وما أثمره ، ولفنجستون حين تم عمله ودنا أجله .

ودهش لفنجستون حين شرح له ستانلي مهمته ، فما خطر قط على بال الرحالة الهرم أن العالم معنيّ بأمره أقل عناية .

وقضى الرجلان أربعة شهور معاً يرتادان المنطقة، ولكن الشيخ الرائد أبى أن يصحب منقذه إلى أوربة كتذكار حيّ لتوفيقه، وكان يعلم أن منيّته قريبة، ومن الأوفق له أن يلقى أجله في إفريقية الوسطى حيث قام بعمله . إن إفريقية أحق به ، وفي إفريقية آلى أن يلاقي الموت .

وهكذا — في مارس ١٨٧٢ ، بدأ ستانلي رحلة الإياب إلى الشاطىء ، وقد شق عليه أن يفارق لفنجستون ، وكان كلاهما يعرف أنه لن يرى صاحبه مرة أخرى ، وبعد شهرين وصل ستانلي إلى زنجبار ، ومات لفنجستون بعد ثمانية عشر شهراً على شاطىء بحيرة بانجيولو .

إن الذين هم من طراز ستانلي لا بد أن يؤدوا ثمن النجاح نقداً من خيبة الأمل ، فما بلغ ستانلي إنجلترا حتى قوبلت أقواله في كل مكان بالارتياب ، وكذبه الناس ولاموه وعاملوه بازدراء ، وتولى رئيس الجمعية الجغرافية زعامة هذه الحملة عليه ، نافياً أن ستانلي يمكن أن يكون قد قابل لفنجستون. وكان ستانلي قد جاء معه برسائل من لفنجستون غير أنه اتهم بتزويرها عمداً . وهبت على هذا الصحفي وأساطيره عن إفريقية رياح باردة من جمعيات علمية شتى ، وكانت الجمعيات والصحافة تؤثر أن تعتقد أن دافيد لفنجستون ذهب إلى غير رجعة ، على أن تصدق أن هذا الصحفي الأمريكي قد اهتدى إليه — لأنه لا من علماء الجغرافية ولا من الخبراء !

ثم كان اجتماع للقسم الجغرافي من الجمعية البريطانية ، ووقف ستانلي أمام جمع من ثلاثة آلاف فيهم طائفة من كبار العلماء الجغرافيين يدافع عن نفسه كأنه متهم بجريمة ، وقال رئيس الجلسة بلهجة لاذعة إنهم مجتمعون هنا ليسمعوا حقائق صادقة لا ليصغوا إلى حكايات مثيرة . فرد ستانلي بثناء حار على لفنجستون ، وبمقارنة أليمة بين الجغرافي المضطجع على كرسيه الذي يضيق من اعتقاداته

فيتحدث بلهجة الجزم عن إفريقية المجهولة، وبين ذلك الشيخ الباسل الذى قضى سنوات هناك ينشد الحقيقة بين أعداء مستوحشين على الفطرة . وقد استولت هذه الخطبة على القلوب ، ولما حدث بعد ذلك بقليل أن اعترفت أسرة لفنجستون بصحة الرسائل، لاذ النقاد بالصمت ، وبعثت إليه الملكة فيكتوريا برسالة تهنئه فيها ، وبعلبة نشوق ذهبية مرصعة بالماس .

ولكن الشهرة كانت قد ثقلت وطأتها عليه، وصارت المدنية فى نظره أكذوبة ، وأصبح « قلب إفريقية الكبير » هو الذى يجرى الدماء فى عروقه ، وصورة إفريقية لا تبرح عينيه — جدتها الرائعة، ووحشتها العظيمة، وجلال مناظرها ، وفتنة ألوانها، وشفوف نورها كالأحلام، وأبعادها المترامية التى تورث النفس قلقاً لذيذاً ، كأن عليها صبغة رحلة إلى كوكب غير كوكبنا. فأغراه هذا السحر بتجديد السعى لحل ألغازها .

وراح ستانلى بعد ذلك يصنع تاريخاً لا يعرف عنه هذا الجيل شيئاً، حتى أن مصاعب رحلاته تكاد تكون مجهولة أو منسية. ولم يكن اهتداؤه إلى لفنجستون إلا فاتحة كشوف غيرت وجه نصف قارة، مادياً واقتصادياً ، وكان تتبعه لمنابع الكونجو من أعظم أعمال الارتياد . وحسم كشفه عن منابع النيل فى بحيرة ألبرت خلافاً قديماً .

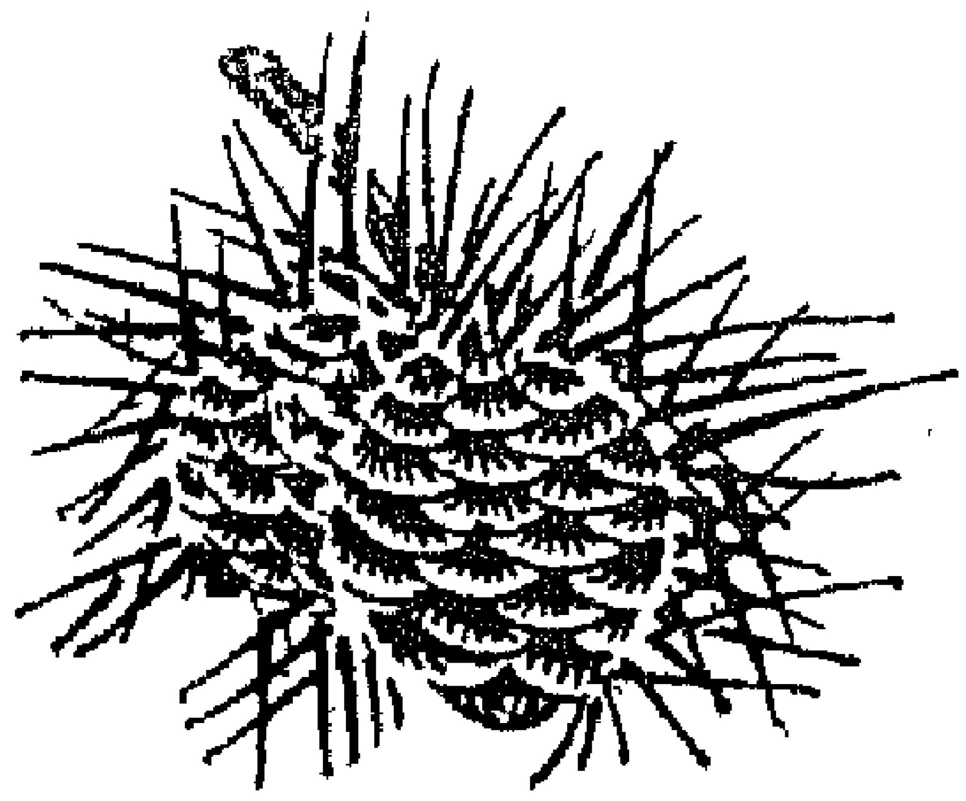
وكان هنرى ستانلى آخر العظماء من أهل الخطار — غازياً تلكأ به الزمن ، واسمه يجاور اسم كولمب كمستكشف ، وقد مضت قرون بعد كولمب قبل أن ترسم أنهار أمريكا وجبالها ، وتعمر أرضها الشاسعة بالسكان ، ولكن خريطة إفريقية الاستوائية غطيت بالأسماء فى زمن ستانلى نفسه ، وقسمت مجاهلها إلى مستعمرات بريطانية وفرنسية وألمانية وبرتغالية .

ولعله كان من المناسب ، حين مات ، أن يأبى عليه أن يدفن فى وستمنستر ذلك المجتمع الذى زج به فى الملجأ فى صباه ، وحقر أعماله وهو رجل . ولا يحمل الحجر المنصوب فوق قبره فى إقليم سارى إلا هذه العبارة : « هنرى مورتن ستانلى — ١٨٤١ — ١٩٠٤ » مع اسمه الإفريقى « بولامتارى » ثم هذه الكلمة المفردة « إفريقية » .

باب الكتب - ١ -

الحياة في الغابات

مختصرة من كتاب
هنري داڤيد ثورو



« الحياة فى الغابات » بيانٌ وافٍ عن تجربة عيشة راضية مطمئنة ، وعن مغامرة فى طلب البساطة والنظام لا تزال مطابقة لحاجة الإنسان ، كما كانت منذ مئة سنة مضت . وهو كتاب سمع به أكثر الناس ولكن لا يقرؤه اليوم إلا قليل . ومع ذلك فيخيل إلينا أنه كلما ازدادت الحضارة تعقيداً على تعقيد ، ازداد هـذا الكتاب علوًّا وخلوداً عاماً بعد عام .

الحيــاة في الغابــات

آليتُ أن أؤذّن في الناس كديك الصباح ما استطعت ، وإلا فحسبي أن أوقظ نوّام جيراني الأدنَين ...

إن جمهور البشر يعيشــون في قنوطٍ مستكنّ هادىء . والذى يعانونه من قلق مستمرّ ونَصَب دائم أشبه بالداء العُضال الذي لاشفاء له . وقد ضاق وقتهم عن أن يكونوا شيئاً سوى آلات متحركة . فيالها من غفلة وحماقة !

ويخيّــل إلىّ أنهم يظنون أنه لم تبق لهم خِيَرةٌ فى هذا الأمر، فليتهم علموا أنّه ما من رأى ولا عمل ، مهما تقادم عهده ، يجوز أن يؤخذ بالتسليم بغير سلطان ولا برهان ، وما من شىء يقول لك الناس إنك لاتستطيع أن تفعله ، فحاولت أن تفعله إلا رأيت أنك مستطيع .

ولقد أقنعتنى التجارب أن مزاولة العيش فى هذه الحياة الدنيا ليست عناءً ومشقة بل لهواً وتسلية — إذا حرص المرء على أن يعيش بحكمة وعلى الفطرة .. ولقد عشت سنتين كاملتين وحيداً فى الغابات على مسيرة ميل من أىّ جار يجاورنى، فاتخذت لنفسي داراً بنيتها بيدىّ على شاطىء بحيرة والدن فى ولاية ماساشوستس .

لقد رحلت إلى الغابات لأنى أحببت أن أعيش كما أشتهى وأريد ، وأن أقتصر على مالا بد منه من أسباب الحياة، وأن أعرف ماذا أستطيع أن أتعلم من علمها الذى تعلمنيه . وأردت أيضاً أن أعيش عيشة متعمقة تستوعب سر أسرار الحياة ، وأن أعيش زاهداً متقشفاً صابراً طليقاً كالإسبرطيين ، بأن أنفى عن الحياة ماليس منها ، وأن أردّ الحياة إلى أبسط صــورها . فإذا ثبت لى أنها خسيسة القدر ، فعلامَ إذن نجهد أنفسنا فى تلمّــس كلّ مافيها من خسّة متمكنة ؟ وإذا صح أنها رفيعة القدر فقد عرفت ذلك بالتجربة .

فى أواخر مارس ١٨٤٥ وقفت على شاطىء بحيرة والدن وأخذت أجتثّ شجرة شهباء طويلة مسنونة الفروع من شجر الصنوبر ، وأشذّب خشبها وأنجره بفأسي فأجعله أجذالاً وعروقاً وصفائح . وعمدت إلى كوخ قديم فاستعنت بالألواح التى فيه ، أما مخزن طعامى فقد احتفرته فى حضن ربوة كان قد سبقنى إليها طائرٌ نقارٌ فاتخذها وكراً عند أصل

بعض أشجار السُّماق والعُلَّيْق . وفى شهر مايو أعانني بعض أصحابى فأقمت قوائم منزلى ، وما هو إلا أن سقّفته ووضعت الألواح على جوانبه حتى جعلته سكنى ومأواى . وقد بلغت تكاليف ذلك كله ٢٨ ريالا . نعم لقد كان مسكناً صغيراً لا يتردّد فى جوانبه صدًى من ضيقه ، غير أنه كان يبدو أوسع من أن يكون سكناً يسكنه إنسان بمفرده ، فى ناحية بعيدة عن الجيران .

وأصلحت قطعة أرض تكفى لما أريد زراعته من فول وبطاطس وذرة ولفت ، فعرفت من يومئذ أن المرء إذا عاش عيشة بسيطة ، وحرص على أن لا يأكل إلا ما يزرع وأن لا يزرع أكثر مما يأكل ، لم يحتج إلى أن يفلح من الأرض أكثر من بضعة أمتار قليلة ، وأنه يستطيع أن يؤدّى أعمال زراعته وادعاً غير جاهد ، وذلك فى بعض أوقات فراغه أيام الصيف . إنها ليست على المرء ضربة لازب أن يكسب رزقه بعرق جبينه ، اللهم إلا إذا كان بدنه أسرع من بدنى فى إرسال العرق .

لم يكن طعامى يكلفنى سوى ٥٤ مليما فى الأسبوع على التقريب ، وقدّرت جملة الوقت الذى قضيته فى العمل ، فإذا هو ستة أسابيع أنفق أيامها فى أدائه ، وذلك حسْبى فى الوفاء بنفقاتى كلها . وتبين لى أن هذه المهنة هى أوفر المهن حرية ، فإن يوم العامل ينتهى بمغرب الشمس ، ففى وسعه بعدئذ أن يصرف همه إلى أى عمل يؤثره ويختاره . فكانت أيام الشتاء كلها، وأكثر أيام الصيف، فراغاً خالصاً أنفقه فى التحصيل والدراسة .

حسب المرء فائدة يستفيدها من معيشته على الفطرة ، وإن كان فى غمرة الحضارة ، أن يعلم ما العناصر الجوهرية التى هى قوام الحياة . أجل ، فإن أكثر أسباب الترف ، وكثيراً مما يتوهم الناس أنه من أسباب الراحة ، ليست أموراً نحن فى غنى عنها فحسب ، بل هى عوائق قائمة تؤخر رقى الجنس البشرى . وحياتنا أشلاء ممزقة تعصف بها كثرة المشاغل . وأكثر الناس يعيش عيشة خسيسة ذليلة ضارعة : فهو يقتّر على نفسه جاهداً ليخرج من ذلّ الديون ، وهو يمرض نفسه بشدة الشح رجاء أن ينفعه ماله إذا مرض .

وكلما رأيت أحدنا يقضى أجمل شطر من عمره فى كسب المال الذى يعينه على أن يستمتع بحرية موهومة يوم يبلغ أخسّ شطر به قيمة ، تذكرت ذلك الرجل الإنجليزى الذى رحل إلى الهند ليجمع ثروة عسى أن يعود إلى إنجلترا ثانية فيعيش معيشة شاعر ، وكان أولى به أن يسارع إلى غرفة فى سطح بيت يجعلها مثواه ومَهْبِط إلهامه .

والشعب نفسه ، بما فى مجموعه من رخاء موهوم ، ليس سوى بنيان ضخم متراكب دمَّره الترف والسَّفه والتبـذير وسوء التقدير وتفاهة الغرض ، كما دمرت الآلاف المؤلفة من الأسر فى طول البلاد وعرضها. وليس للشعب ولا لأهليه من علاج شافٍ إلا الصرامة فى تدبير الأموال والنفقات ، والبساطة فى المعيشة ، والسمو فى الأغراض . أما أسباب الترف والراحة ، فإن الحكماء كانوا أبداً أحرض الناس على بساطة العيش .

وأكثر الناس تتوزَّعهم الهموم الكاذبة فى الحياة حتى تقعد بهم عن أن يجنوا خير ثمارها . وأنت إذا سرَّك أن تكون فيلسوفاً فلن يغنيك أن تكون صاحب أفكار دقيقة ، حتى يبلغ بك حب الحكمة أن تعيش عيشة البســاطة والحرية والنبل والأمانة . ومعنى ذلك أن تعالج بعض مشاكل الحياة ــ لا بالعقل وحسب ، بل بالعمل أيضاً . فما هى جرثومة الترف التى تَسُلّ قوى الشعوب وتدمرها ؟ وهل نحن على ثقة من أن ليس فى حياتنا شىء منها ؟

أعلم أن الشعوب تستبدُّ بها شهوة حمقاء حتى تخلد ذكرها بفخامة الحجارة المصقولة المنضودة ، فانظر ماذا يكون حالهم لو هم بذلوا مثل ذلك من الجهــد فى تهذيب الأخلاق والعادات وتطهيرها ؟ لقد كان خيراً للشعوب أن تخلد ذكرها ومجدها بروائع الفكر لا بروائع البناء . وحدثنى بربك ما جدوى كل ما نضدوا من حجارة وصخور ؟ ألا إن خصـــلة واحدة تدل على أصالة الرأى ، لأجدى وأخلد من نصب شامخ يسامى نجوم السماء .

وهذه الأهرام الخالدة لا أجد فيها عجيبة إلا عجيبة واحدة ــ أنه قد كان فى الدنيا هذا الحشد من البشر الذين بلغ من هَوَانهم على الناس وعلى أنفسهم أن يقضوا أعمارهم فى تشييد قبر لرجل طموح سفيه الرأى ، كان أولى به وأكرم لهم أن يغرقوه فى أعماق النيل . وإنى لأرى كثيراً من الناس يشغلون أنفسهم ليعرفوا من الرجل الذى بناها ، أما أنا فما يسرنى إلا أن أعرف مَنْ مِنْ أهل ذلك الزمان من لم يشغل نفسه ببنائها أو ببناء مثلها ــ أى من الذى ترفع عن مثل هذه التفاهات ؟

لقد علمتنى السنتان اللتان قضيتهما فى مزاولة حياة الفطرة عجباً من العجب : أن تحصيل القوت الضرورى لا يكلف المرء سوى جهد قليل لا يكاد يصدق ، وأن المرء إذا عاش على غذاء بسيط كغذاء الحيوان لم يضره ذلك ، بل يعيش موفور الصحة والقوة . وبالله عليك ماذا يشتهى الرجل العامل من الطعام فى ساعة الظهيرة مثلاً ،

سوى بضعة كيزان من الذرة الخضراء يغليها مع قليل من الملح .

أما الثياب ، فلعلّ أكبر ما يهمنا منها هو حب الطرافة ومراقبة رأى الناس فيها ـ لا طلب المنفعة منها . وأنا على يقين من أن اهتمام عامة الناس بأن تكون ثيابهم مطابقة للطرافة والشهرة (المودة) ، أكبر من اهتمامهم بأن تكون بين جوانحهم قلوب سليمة من الدَّخَل . أما أنا فلم يُزْرِ بأحد من الناس عندى أن أرى عليه ثياباً مرقعة . والرجل الذى صرف همه إلى عمل عظيم يتمه، ليست به حاجة إلى ثوب قشيب يلبسه إبّان أدائه .

ولست أنكر أن المأوى ضرورة من ضرورات الحياة ، بيد أنى أرى أكثر الناس يعيشون عمرهم كله فى فقر هم فى مندوحة عنه ، لظنهم انه لا بد من أن تكون لهم بيوت كبيوت جيرانهم . وتدبر ضآلة الضرورة التى تلجىء المرء إلى طلب البيت . والمرء إذا وجد الدفء ، فماذا يبغى وراء ذلك ؟ إنه لا يبغى ولا ريب دفئاً من الضرب نفسه ، ولا بيتاً أرحب وأفخم ، ولا نيرانا أكثر عدداً وأشد حراً وأشباه ذلك . والمرء إذا أصاب ماهو قوام للحياة ، فأجدر به أن لا يصرف اختياره إلى ماليس بضرورى للحياة ، بل عليه أن يقذف بنفسه فى خِضَمّ الحياة لساعته ، فقد خلصت عنقه من ربقة الكدح والعناء .

حين اتخذت لنفسى سكناً بين الغابات ، صار كل صباح أستقبله كأنه دعوة محبَّبة تغرينى بأن أجعل حياتى رائعة بسيطة كالطبيعة نفسها ، فأرانى أستيقظ مع بزوغ قرن الشمس ، فأستحم فى الغدير ، والضباب حولى فى الجو كالأشباح يسرق الخطى هارباً فى كل وجه إلى جوف الغابة ، فكانت رياضة أحسُّ لها خشوعاً كخشوع العبادة ، بل كانت من أحب الأعمال إلىّ .

والصباح هو أعظم الساعات المشهودة فى اليوم كله . هذا على أن المرء إذا تابع مسير الشمس بفكر رزين طيّع صار يومه كله صباحاً مديداً دائماً . وكنت ربما جلست فى الشمس الضاحية أمام البيت من ساعة الشروق إلى ساعة الهاجرة سارحاً فى الأحلام ، تحت ظلال أشجار الصنوبر والجوز والسماق ، وفى عُزْلة وسكون لا يفسدها على شىء ، والطير من حولى تسجع وتتغنى أو تمرُق فى جوانب البيت طائرة لا تحدث صوتاً . فكنت أنمو فى تلك الساعات كما تنمو أعواد الذرة تحت جنح الليل . بيد أن عشيرتى من أهل المدينة سيقولون هذا كسَل صِرْف ، ولا ريب .

ولقـد عرفت من يومئذ حق المعرفة ماذا يعني أهل الشرق بما يسمونه « الاستغراق والتأمل » ، فلم تكن أيامي أياماً يحتويها أسبوع ، ولا أياماً تقطع أوصالها الساعات أو تكدر صفوها طقطقة الساعة .

كان لي في هذا النهج الذي عشت عليه فضيلة تجعل لي مزية على أولئك الذين تضطرهم حياتهم إلى التشوف إلى خارج البيت ابتغاء السلوة ، إذ كانت حياتي هي سلوتي وقرة عيني ، ولم أعدم لها قط جدة وبشاشة . لقد كانت مشاهد مفصلة متصلة لانهاية لها ، وكان عمل البيت تسلية بهيجة . فإذا اتسخت أرضه بكرت في الهبوب من نومي ، وأخرجت الأثاث من البيت ، ثم أصب على الأرض ماء ، ثم آتي برمل من شاطىء البحيرة فأرشه عليها ، ثم آخذ مكنسة فأكنسها فإذا هي بيضاء نظيفة .

وما هو إلا أن أرى أعـواد الفول قد اهتزت وطلبت المخرج من منابتها ، فأسرع إليها قبل أن تعلو الشمس شجيرات البلوط ، ثم أسرع في حش الحشائش العاليـة ، وأمضي في عملي حافي القـدمين سائراً على ذلك الرمل الندي ، وإذا عملي في كل يوم هو أن أتيح للتربة الصفراء أن تخرج خبء ضميرها فولاً عليه ورق ونوار ، وأن أتيح للثرى أن يبث أسراره فولاً ناضراً لا عشباً وحشيشاً .

وإذا ما ضربت فأسي صخرة في باطن الأرض ، سمعت لصليلها صدى كأنه موسيقى تتردد بين جنبات الغاب وأطباق السماء ، وأراني أعمل عملي على ألحانها . وربما رأيت صقر الليل محوماً في عنان الجو كأنه قذاة تلوح في مرآة السماء ، وأنظر إليـه يهوى بين الحين والحين منقضاً مرسلاً صريراً حاداً حتى إخال أنها السماء قد انشقت. وربما وقفت أرقب زوجاً من إناث الصـقور تحومان في جو السماء ، وتتناوبان التحليق والهبوط، وتتقاربان وتتباعدان، حتى أظنهما صورة مجسمة من أفكاري التي تساورني وتخامرني . وربما أزعجت فأسي عظاءة رقطاء (سحلية) بليدة الحركة بشعة المنظر خرجت من مرقدها تحت جـذع نخر . فكنت إذا وقفت أستريح متوكئاً على نصاب فأسي ، وجدت أن تلك الأصوات وتلك المناظر ليست سوى قليل مما يجود به الريف والبر من أسباب الترفيه التي لاتنفد .

لقد يئست الكآبة القائمة من أن تستبد بامرىء يعيش بين أحضان الطبيعة ساكن النفس هادىء الحواس . فقد رأيتني أعيش مستمتعاً بصداقة الطبيعة ، فما وجدت شيئاً استطاع أن يجعل الحياة عبئاً ثقيلا على نفسي .

فهذا المطر الذى رَوَّى فولى وحبسنى اليوم بين جدران دارى ، لم يجلب على كرباً ولا كآبة بل كان خيراً ونعمة .

كانت أحلى الساعات عندى ، حين تهطل الأمطار المنهمرة فى الربيع أو الخريف فتجعلنى رهين البيت وتمسح عن قلبى الهموم بما أسمع من زمجرتها وصوت هطولها ، وحين تطول ساعات الشفق وتنثال على المرء أفكار كثيرة فتستقر فى نفسه وتكشف له اللثام عن أسرارها . وكان من دأبى أن أخرج فى الليلة الدافئة فأركب قاربى ناخباً فى نايى ، فإذا بى أرى الأسماك تحوم حولى ، كأنها مفتونة بى وبما تسمع منى .

وكثيراً مايقول لى بعض الناس : «أظنك تشعر هناك بالوحدة ، وتود لو كنت قريباً من قومك وعشيرتك؟» ، فلا أجد شيئاً أحب إلى من أن أقول لهم : « لماذا أشعر أنى وحيد ؟ وحدثونى أىُّ مسافة هذه التى ترونها تقطع المرء عن عشيرته وتجعله فى عزلة مستوحشاً ؟ ولقد عرفت أنه ما من جهد تبذله الأرجل فى السعى ينتهى إلى أن يقرِّب ما بين عقلين متباعدين . وحدثونى أى شىء نحن فى حاجة إلى جواره والقرب منه ؟ لن تقولوا — إلى جمهور غفير من البشر ، ولاريب ، بل إلى ينبوع حياتنا السرمدى الدافق » .

واجتماع الناس فى الغالب شىء تافه لاغناء فيه ، فنحن نتلاقى فى فترات متقاربة حتى إن الوقت ليضيق بأحدنا عن أن يقف على خصلة جديدة فى أخيه تزيد قدره له ومعرفته به . وإننا لنتلاقى على مائدة الطعام ثلاث مرات فى اليوم ، فما نزيد ما نفعله على أن يذيق بعضنا بعضاً طعم تلك الثمار الحامضة التى هى نحن أنفسنا . ونحن نتلاقى عند مكتب البريد ، وفى الحفلات ، وحول مواقد النيران فى كل ليلة ، بل نحن نعيش فى زحام كثيف حتى يعوق بعضنا بعضاً عن الحركة ، ويكبكب بعضنا على بعض ، ويخيل إلىّ أن ذلك يفضى بنا إلى أن يقلَّ توقير الرجل منا لأخيه .

وأنا بلا ريب لست بناسك ولا راهب متبتِّل ، بل أظننى كأشد الناس حباً لمخالطة الناس ، وأن فى نفسى ما يجعلنى ألتصق التصاق العلقة مصّاصة الدم ، إذا وقعت على رجل حق تترقرق الدّماء تحت إهابه . وليس فى بيتى سوى ثلاثة كراسى ، فواحد للعزلة واثنان للصداقة ، والثلاثة لاجتماع السمار . وكان فيمن يزورنى رجال من أصحاب الأعمال ، ولكنى لم أرهم يفكرون إلا فى مزاولتى للعمل ، وفى هذا المسكن النائى الذى يقصينى عن هذا المكان أو ذاك ، وأسمعهم يقولون إنهم يحبون النزهة فى

الغابات ، فما أرتاب في أن الأمر ليس كما يقولون . ولكن كان يزورني من أجدني أشد أنساً بهم — من أطفال يأتون ليقطفوا بعض الثمار ، ومن عمال في السكة الحديدية في ثيابهم النظيفة وقد خرجوا للرياضة في يوم إجازتهم ، ومن سماكين وصيادين ، ومن شعراء وفلاسفة — وقصارى القول إنهم هم الحجاج المخلصون الذين خرجوا من ديارهم إلى الغابات حباً للحرية وحسب .

فلما وافى شهر سبتمبر رأيت على الشاطىء الآخر من البحيرة شجرتين أو ثلاثاً قد بدأت أوراقها تحمر ، وأخذت كل شجرة تتميز عن أختها شيئاً فشيئاً على مرور الأيام وكأنها مفتونة بنفسها معجبة بانعكاس صورتها على المرآة الصقيلة التي تلألأ من ماء البحيرة . ولما نضجت ثمار شجر أبي فروة (الكستناء) ادخرت منها قدراً كافياً للشتاء ، فكنت أخرج حاملاً على كتفي غرارة أجول بها في جوف الغابات . ولما حل شهر نوفمبر فيومئذ بدأت أتخذ البيت سكناً ألوذ به ، وذلك أني بدأت آوي إليه طلباً للدفء والوقاية . ولقد طابت نفسي يوم رأيت سُخام النار الأسود يغشى جدران المطبخ الذي بنيته بيدي ، فكنت إذا حركت النار بالمسعر ليعلو ضرامها ، أجد في ذلك لذة أعظم مما عهدت .

فلما جاء زمن الجليد شرعت أطلي الجدران بالجبس ، وأخيراً أقبل الشتاء بعنفوانه وقد فرغت ولما أكد ، وأخذ عزف الرياح يدوي حول البيت طروباً جذلاً كأنه كان محرماً عليه أن يفعل ذلك حتى أُذن له في هذه الساعة . وطفقت الإوز تأتي ليلة بعد ليلة وهي تدلف متثاقلة ولأجنحتها خفق وتصفيق ، وظلت تفعل ذلك حتى بعد أن غطى الثلج أديم الأرض .

صار كل عملي يومئذ أن أجمع الحطب من الغابة ، فربما رأيتني أتأبط شجرة بيمناي وأخرى بيسراي وأجرهما إلى سقيفة الحطب . وكل إنسان من البشر يرنو إلى حطبه المدخر بعين ملؤها الشغف ، وقد كنت أنا أحب أن أجعل حطبي أمام نافذتي ، فكلما كثرت أعواده كان ذلك أفضل ، فهي تذكرني بالعمل الذي أديته على أرضى وجه . وليت شعري أي شيء تقر به عين المرء كما تقر بطعام كان قد اضطره منذ قليل إلى الخروج تحت غاشية الثلوج حتى يحتطب له حطباً ينضجه عليه .

وقلما كان يزورني أحد في هذا الفصل من السنة ، فالثلج إذا كثر نهى كل طارق عن الدنو من مثواي ، فيمر الأسبوع والأسبوعان لا أرى طلعة بشر ، فكنت أقضي أيامي مستكناً في هذا المثوى كما تفعل

فئران المروج والغيطان . وكان دأبى أن أخرج مع الصبح حاملاً فأساً ودلواً ، فأيمم شطر البحيرة طلباً للماء ، ولا أزال أشق طريقى بين الثلوج والجليد ، حتى إذا بلغت غايتى حفرت ثغرة فى الجليد ، فإذا ماجثوت لأكرع من الماء،صوبت البصر إلى مَسْبح الأسماك الساجى ، فإذا ضوء ناعم رقيق يتخلل جوه وكأنه منبعث من نافذة عليها زجاج مصقول ، ويسود المكان سكون خالد لاتقطع صمته الأمواج ، كسكون السماء الساجية فى شفق الغروب ، وإذا أنت ترى السماء تحت موطىء قدميك ، كما تراهاسقفاً مرفوعاً فوق رأسك .

كان من أكبر ما أغرانى بالخروج إلى الغابات والعيش فيها ، أن يتاح لى أن أرى مقدم الربيع فى إبّانه . أخذ الضباب والمطر وارتفاع الحرارة يذيب الجليد شيئاً بعدشيء، وأخذ اليوم يطول طولاً تكاد تحسه . وجعلت أتسمّع نبأة من ترجيع طير عائد بعد غيبة ، أو هتافاً رخيما من سنجاب ، أو أتلفت لعلّى أرى طائراً نقاراً قد انطلق خارجاً من مكمنه الذى يقضى فيه أيام الشتاء .

يابشرى ! هذا أول أنغام الربيع ! بل هذا محيّا العام قد أشرق كأنضر ما كان وأحفله بالبركة ! بل هذه ألحان طيور الربيع تطوى إلىّ السهول الجديبة الندية ، فأسمعها خافتة لها رنين رقيق كرنين صفائح من فضة ، فإخال أنى أسمع صوت آخر حبة من ثلوج الشتاء وقد هوت ساقطة على الأثر . فماتاريخ الدنيا عندئذ، وماحساب الزمن، وماالآداب الرفيعة على بكرة أبيها ؟ هذه جداول الماء تتغنى جذلانة بمقدم الربيع ! وتسمع الأذن صوت الثلوج الذائبة متخافتاً منحدراً إلى بطون الوهاد ، وحسّ الجليد وهو يذوب ذوباناً حثيثاً فى قلب البحيرة . وترى العين هامات العشب حمراً متوهجة على مناكب الرّبى كأنها نار الربيع المشعلة ، حتى كأن جوف الأرض ينفث زفرات متضرمة يحيى بها الشمس الآيبة بعد طول غياب .

وأوان تغير الجو من عاصفة وشتاء إلى صحو وصفو هو الساعة الفاصلة المشهودة التى تنادى جميعَ الموجودات بحلولها ، والظاهر أنها سريعة الزوال . ففى مثل لمح البصر رأيت الضوء يغمر جوانب دارى ، وإن كان الليل قد أوشك أن يقبل ، وسحائب الشتاء لم تنقشع بعد ، وظنف البيت لايزال يقطر ماء من هطول المطر . فقمت أطل من الشباك ، فيارباه ماذا أرى ! هذا الذى كان بالأمس ثلجاً بارداً أشهب اللون ، قد استحال غدراً شفافاً ساجياً مبشراً بالخير . ثم سمعت رنّة عصفور آتية من بعيد ، فخيل إلىّ أنها

أول رنة سمعتها منذ آباد متقادمة من سالف الدهر، وأنني لن أنسى لحنها على كرّ الآباد المتطاولة من الدهر الآتي — فهي الأنشودة الفتية الحلوة المرددة منذ الأزل .

نحن البشر في أمس الحاجة إلى سر القوة الذي تبعثه فينا حياة الغاب — في حاجة إلى أن نخوض أحياناً في المستنقعات حيث تتخذ الدجاج وطيور مالك الحزين مجاثمها ، وأن نتشمم رائحة البرديّ الذي توسوس خلاله النسمات ، حيث تبني أوكارها دجاجات أشد توحشاً وتوحُّداً ، وحيث يزحف النمس وبطنه لاصقة بأديم الثرى . ونحن مهما نهلنا من مناهل الطبيعة فلن ننهل منها ماينقع الغلة ، فينبغي أن ننعش أنفسنا بمرأى القوة التي لاتنفد، وبمناظر البسيطة المتراحبة الهائلة، وبغُثَاء البحر الذي يقذفه على الشاطيء ، وبالغابات وما فيها من شجر ناضر أو أجذاع نخرة، وبمشهد البوارق والرواعد والأمطار.

وبعد سنتين كاملتين فارقت الغاب ، فربما كان ذلك مني لأني رأيت أن أمامي ضروباً كثيرة أخرى من الحياة ينبغي أن أستمتع بها، وأنه لم تبق لي فسحة من الوقت أقضيها في هذا الضرب وحده . ومن العجيب أنه من السهل كل السهل أن ننقاد إلى طريق بعينه ، ثم نتخذ لأنفسنا فيه منهجاً مطروقاً نألفه . إنّ أديم الأرض رقيق سريع التأثر بواطيء الأقدام وكذلك شأن كل سبيل يجتازه عقل الإنسان. فأي أزقة دارسة تربة عميقة تراها، تلك الأزقة التي داسها العُرْف ودرج عليها الاحتذاء بآثار الآباء والأجداد!

بيد أن المرء إذا زاغت خطاه عن مسايرة خطى رفقائه ، فربما كان مردّ ذلك إلى أنه يسمع نغمة غير التي يسمعونها فهو يسير عليها . وخير له أن يتبع اللحن الذي يسمعه كيفما كان إيقاعه ، ومهما تباعد مصدره .

ولقد علمتني التجربة شيئاً واحداً على الأقل هو : أن المرء إذا مشى ثابت الجنان إلى حيث تقوده أحلامه ، وحاول أن يعيش العيشة التي يمثلها له خياله ، لقي من النجاح مالم يكن يتوقعه في سائر أيامه . إنه سيُعْرِض بجانبه عن بعض أشياء ويهجرها ، وإذا به يجد أن هناك بضعة قوانين أخف قيداً وأهون محملاً قد بدأت تستقر من حوله وفي دخيلة نفسه . والمرء كلما ازداد بساطة في عيشه ، ازدادت نواميس الطبيعة في عينيه بساطة وبعداً عن التعقيد ، فلا العزلة ترى عندئذ عزلة ، ولا الفقر فقراً ، ولا الضعف ضعفاً . وإذا كنت قد بنيت لنفسك صروحاً مشيدة في الهواء ، فلا تظننها جهوداً ضائعة ولابدّ ، فذلك هو مكانها الحق ، وما عليك إلا أن تسرع فتضع لها أساساً ثابتاً في الأرض .

هـذا تاريخ جواد نبيل أفرغه في قالب قصة ، ضابط كان له صاحباً فى الحرب العالمية الأولى .

الوثّاب

حياة حصان من سيبريا

مختصرة من كتاب

نقولا كالاشنيكوف



كان الوثّاب حصاناً من خيل سيبيريا ، وكان صديقاً لى ، وكنت أجده رفيقاً شجاعاً وفيه وفاء وإدراك يندر مثله . وقد كتب لنا القدر أن نكون معا زمناً فى الدفاع عن بلادنا . وأنا إذ أكتب ترجمته من ذكرياتى وكما تلقيتها عن آخرين أحبوه ، فإنما أؤدى ديناً من الشكر لا للوثاب وحده بل لجياد لا يأخذها الإحصاء ، احتملت نصيبها بلا تذمر من المآسى التى يخلقها الناس — المؤلف

الوثّاب ؟

ولد الوثاب قبيل الفجر ، وكان أول ماشعر به المهر بعد أن خرج إلى الدنيا ألماً كحزّ المدى فى بدنه ، ورقد على القش اللين ينتفض وهو فى كربه لا يفهم شيئاً ، وانحنى عليه جسم كبير له شعر ولفه فى شىء لين دافىء ثم حمله ، فقاوم ، ولكن ذراعين قويتين ضمتاه ، وصوتاً مطمئناً كله ، فأدرك بالغريزة أن هذا الذى يحمله يمكن أن يوثق به .

ولما لمس جسمه الصغير جسم الفرس الكبير الدافىء ، أدار رأسه وصعده إلى عينيها السوداوين الرقيقتين ، وفى ضوء النهار ألقت العينان عليه نظرة فيها حنو وقلق ، ثم جاء الصديق الذى حمله ، وأقامه على أرجله فوقف مترنحاً . ثم دفع بفمه إلى شىء لين ، ففتح فمه من تلقاء نفسه وأطبقه على ماوجد ، فقطر إلى حلقه سائل عذب أفعمه بسرور لا يوصف . وكان هذا ما يشتهى ، فشرب اللبن .

ووقف جراسيم أوزيروف الفلاح السيبيرى إلى جانبه راضياً ، وتذكر يوم جاءه سائس مذعور بجواد غريب لصاحب منجم قريب واستنجده قائلا : « أعنّى . فإنى خليق أن أطرد إذا جئت سيدى بحصان أعرج . وليس هذا بحصان عادى فإن فى عروقه دماً إنجليزياً ، وقد فاز بجائزة فى سباق تومسك . وأنت أخبر الناس بالحيوانات فى هذه القرية ، فعالجه وسأؤدى لك أجرك من جيبى » .

ولم يكن المال ماطلب جراسيم حين ثاب الحصان إلى صحته ، بل أن يؤذن له أن ينزّيه على خير أفراسه ، وقال جراسيم لنفسه وهو ينظر إلى المهر الأسود الصغير : « ياله من نتاج » ! والتفت إلى الغلام الواقف إلى جانبه وقال : « قل لى يا دنيس يا بنى ، ماذا نسميه ؟ إنه لك فقد وعدتك به » . فركع الغلام بجانب المهر ومد يده فمسح بها على رأس المهر الحريرى وقال : «إن أرجله

ولد نقولا كالاشنيكوف فى سيبيريا ، وانتظم فى الجيش الروسى ورقى إلى رتبة يوزباشى . وقد عاش فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنة ١٩٢٤ وتجنس بالجنسية الأمريكية سنة ١٩٣٠ ، وقد نشرت روايته الأولى منذ سبع سنوات وكان عنوانها : « أهل السيف »

طويلة ودقيقة فلنسمه الوثّاب » .

وبدأت تربية الوثاب من أول يوم فى حياته حين عرف فرق ما بين البرد والدفء، والجوع والشبع ، وتعودت أذناه شيئاً فشيئاً أن تميز الأصوات ، وكان أحد هذه الأصوات يبدو كأن له علاقة خاصة به، فكان لا يفتأ يقول: « ياوثاب ، ياوثاب » . وكان كلما سمع هذا الصوت يرفع رأسه ويمد رقبته النحيلة ويرهف أذنيه . وسرعان ما تعلم أن هذا الصديق الكبير هو صاحبه .

وكان الوثاب ذكياً ، فشرع يرد مايلقى من الحنان بمثله فكان يسير خلف صاحبه والغلام ، ويحك فمه بهما حين يكونان قريبين كأنما يريد أن يقول: « إنى ملككما، ولكما أن تثقا بى ، وسأفعل كل ما تطلبان منى » . وكان إيمانه بالإنسان عظيماً ، ولم يكن يخشاه أو يرتاب فى حكمته .

وكان ينظر باشتياق إلى الأمهار الأخرى فى حظيرة بعيدة ، من الرحبة المسوّرة التى كانوا يخرجونه إليها هو وأمه كل صباح ، واجتذبته على الخصوص مهرة بلقاء حاول أن يلفت إليه نظرها ، فكان يذهب يعدو ويصهل حتى بدأت تستجيب له بكر يرخافت، فسرّه هذا . ولما صارت الأيام أدفأ، أطلق هو وأمه فى الحظيرة الكبيرة ، وهناك وجد للمهرة البلقاء .

فراح يشم المهرة على مهل من رأسها إلى طرف ذيلها الملتوى ، ثم استخفه السرور فنهض على رجليه الخلفيتين ودار حول نفسه كالنحلة ، فامتلأت عينا المهرة إعجاباً .

ولكن الجياد الأخرى فى الحظيرة كفت عن الرعى ونظرت إليه كأنما تقول : « من أين جاء هذا المزهوّ بنفسه ؟ » وشرع بعض الأمهار يقودها كميت شرس ، تسير نحوه متحرّشة به ، فلصق الوثاب بالسياج وقد بلغ من ذعره أنه عجز عن إخراج أى صوت ، وهمّ به الكميت وقد كشف عن نواجذه ، وإذا بصوت آخر يصيح :

« أمسك ! ما هذا ؟ » وكان صوت صاحب الخيل ، فلما سمعته الأمهار تفرقت .

« إيه أيها الوثاب لقد أفزعوك ! لعلك غاليت فى الزهو بنفسك » ، ومسح الرجل بكفه عليه ، فأشعره هدوءه أن الدنيا عادت كما ينبغى أن تكون .

وقال الرجل: « سيكون حصانا مطهما يادنيس » .

فقال الغلام : « نعم . فإنه ليس كالأمهار الأخرى . فلماذا ؟ أمن أجل أبيه ؟ »

فصمت جراسيم برهة ثم قال : « ربما ، ولكن أمه حسنة الخلق وخفيفة رشيقة الحركة كما تشتهى . والخيل كالناس ، فيها الجيد والردىء . خذ مثلا هذا المهر الكميت

— إنه سيء الخلق وجبان ، وسنضطر على الأرجح أن نخصيه، فإنه يصلح للعمل الشاق فى المزرعة ، ولكنه لا يصلح للإنتاج — ولذلك سنجعل المهرة البيضاء والوثاب للإنتاج ، وسندربهما تدريجاً ، فنعودهما أولا احتمال اللجام ، وبعد ذلك نشدهما مع حصان أكبر منهما . وتذكر يا دنيس أن عليك أن تعامل الوثاب بعطف ، فإن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يتعلم بها » .

وأفعم قلب الوثاب رضى ، فترك الرجل يحك له الموضع الحساس خلف أذنه ، ولما صهلت المهرة لتلفته إليها، حمحم مجيباً لها وقال لنفسه : ألا ما أطيب الذين كانوا منذ هنيهة أعداءه ، وأبعدهم من الأذى ! ماعدا المهر الكميت فإنه يبدو كأنما يمسك فى قلبه حقداً ، وكأنما يقول بعينيه « انتظر ! سأوسعك أذى لم يحل بك مثله فى حياتك » .

وكانت أيام الصيف حارة ، ولكن الليالى الباردة كانت تطلق الأرج العطر من الزروع النامية ، والبرسيم الذى قطع حديثا وبقى مكدساً فى الحقول . وقاد جراسيم ذات صباح المهر « الوثاب » إلى الأسطبل وأغلقوه عليه ، فاستغرب المهر لأنه لم يسبق له أن فصل عن أمه ، وجعل يروح ويجىء ويصهل شاكياً ساخطاً ، ولكن أمه لم تجىء .

وبعد ذلك لما عادت الخيل من المرعى جعل يدور مضطرباً ويدعو أمه ويصغى ليسمع جوابها ، وفى تلك الليلة أدرك أنه أمر جلل — فإن أمه لن تكون بجانبه .

وظل أياماً يتجاوب الفضاء بنداءاته ، ثم سمع ذات صباح صهيلا حزيناً من إسطبل مجاور ، وكان الصوت هو صوت المهرة البلقاء ، فأدرك بغريزته أنها هى أيضاً فقدت أمها ، فاندفع فى حظيرته يطلب إخلاء سبيله ليخف إلى نجدتها .

وأخيراً أقبل صاحبه وقال : « ماهذه الضجة ؟ أتظن أن المهرة فى هم ، وأنك تستطيع أن تسليها ؟ ربما كنت تستطيع ذلك » وتبعه الوثاب متلهفاً إلى الفناء ، وانطلق ماضيا إلى المهرة التى كان دنيس خارجاً بها من الأسطبل ، فحيا كل منهما صاحبه بشمة وأصوات صهيل خافتة . وهكذا أقام الوثاب نفسه حامياً للمهرة .

وجاء يوم اقتيدا فيه إلى حقل عليه سياج والعشب فيه كثيف ، فأطلقا فيه مع الأمهار الأخرى . وهناك رأيا مرة أخرى بعض زملائهما القدامى ، وبينها مهر أبيض رقيق الحاشية ، والمهر الكميت الشرس وما كاد هذا يرى الوثاب حتى بدأ يظهر سوء خلقه ، ولكن الوثاب اتقاه ولازم المهر الأبيض .

ونمت الصداقة بين الوثاب والمهر الأبيض ، وحدث مرة أن شرع الكميت يتودد إلى البلقاء ، فخف الأبيض إلى معونة الوثاب وطردا الكميت ، ولكن الوثاب لم يكن يستطيع دائما أن يجتنب عدوه القديم ، فتكررت المشاجرات وكثرت ، وأصيب الوثاب مرة برفسة قوية من الكميت ، وفى مرة أخرى عضه بقسوة فى ظهره وفخذيه .

واتفق ذات صباح والخيل عائدة من حوض الماء أن ألفى الوثاب نفسه فجأة فى ركن ، والكميت يسد طريق النجاة عليه . وفى هذه اللحظة حدث أمر عظيم ، فقد أحس كأن كرة من النار تتجمع وتضطرم فى جوفه ، وتجرى فى كل عرق فى بدنه ، وتنفجر فى موضع ما من رأسه ، فدار وراح يضرب برجليه ، وقبل أن يفيق الكميت واجهه وقد تسطحت أذناه وهجم عليه ، فما راعه إلا أن الكميت دار ولاذ بالفرار .

وصار الوثاب الآن قوياً لا يخاف ولا يحتاج إلى حماية أحد ، وقد كان تفطنه إلى ما فيه من قوة شيئاً باهراً ، ولكن هذا لم يكن معناه أنه أصبح مستقلا ، فقد كانت حاجته إلى الآدميين حقيقية كحاجته إلى الشمس .

وكان الوثاب فى ربيعه الثانى وصيفه التالى يجوب الحقول والغابات مع أصدقائه المهرة البلقاء والمهر الأبيض ومثات غيرها ، والتقى مرة بأمه ، ولكنه لم يكترث لها ولا اكترثت له ، وشم كل منهما صاحبه على سبيل التحية الودية وانصرفا .

وقاده صاحبه ذات يوم هو والمهر الأبيض إلى حظيرة كبيرة ووضع على ظهريهما لبْداً ذا سيور تنعقد أطرافها تحت البطن ، فتراجع المهر الأبيض ورفس ، أما الوثاب فتحير ولكنه لم يفزع . وبعد عدة أيام على هذه الحال أدهشه صاحبه بأن طرح سرجاً ثقيلاً من الجلد فوق اللبد وشد السيور ، ولكن بعد أن نفخ الوثاب بطنه وصار بدنه كتلة صماء ، فقد كانت هذه إهانة له ، وسمع صاحبه يقول بصوت مطمئن : « لا لا ! كيف يضير السرج حصاناً قوياً مثلك ؟ »

ثم تلت ذلك صدمة مباغتة حين وثب دنيس وثبة سريعة وامتطى ظهره ، ففزع الوثاب ، وشب ، ودار وذهب يعدو فى الحظيرة .

والآن لم يكن على ظهره أحد . فأجال عينه فيما حوله ، وكان دنيس جالساً على الأرض يضحك وفى يده قطعة من الخبز : « تعال خذها ياوثاب . لقد أدهشتك ، أليس كذلك ؟ وأنت أيضاً أدهشتنى » .

وقبل أن يبلغ عامين من عمره تعلم أن يحمل راكباً وأن يجر مركبة جليد خفيفة ،

وكثيراً ما كانوا يشدونه إلى المركبة ويدعونه يجرى فوق سطح بحيرة بيكال المتجمد الأملس. وكان يعرف أنه خير تلميذ بين الأمهار التى من سنه فزهاه علمه هذا، حتى المهر الأبيض الدمث كان يبدى أحياناً بعض المقاومة، أما الكميت فكان لا يذعن إلا بالقهر.

على أن الوثاب لم يكن من الجسامة أو القوة مثل المهر الأبيض أو الكميت الذى يشبه البرميل، ولكنه يبدو أطول بسبب طول بدنهِ النحيل، وكان فيه شىء يجعله فى نظر زملائه خيراً منهم، فقد كان مختلفاً ومنفرداً بصلته العجيبة بالآدميين.

ولما بلغ الوثاب الثالثة فى الربيع، صارت تعروه نوبات من القلق، ووقعت النبوة بينه وبين المهر الأبيض، وكانا موضوعين فى حظائر منفصلة، ريان منها الأمهار الأخرى تستمتع بحريتها، وكانت الأمهار تمر بهما، فتهيجهما، وحدث ذات مساء عند الغسق أن كانا ينظران إلى خيل العمل وهى راجعة من الحقول، فلمحا البلقاء فى حظيرة قريبة، وكان جسمها الممشوق كالظل فى هذا الضوء الخافت، ولكن صهيلها الرقيق كان حسبهما، فهاجت حُرقاتهما.

وكان المهر الأبيض أثقل من أن يستطيع الوثوب، فنخر وأسند جسمه إلى الحاجز، ولكن الوثاب شبّ واصطدم بأعواد الحاجز ثم تراجع إلى الركن، وعلا رأسه وذهب يركض إلى الحاجز، وارتفعت يداه، ودفعته رجلاه فصار وراء الحاجز.

فصهل صهيل الظفر وركض إلى المهرة وجعل يتقصى بدنها المنتفض بفمه، فتقبلت مغازلته الحارة الخشنة، ثم انفرجت الأزمة فجأة بعمل تركه راضياً وادعاً. ولما جاء صاحبه ودنيس فى صباح اليوم التالى كان الوثاب والمهرة واقفين فى هدوء جنباً إلى جنب كما وقفا مراراً من قبل.

وجاء ربيع ١٩١٤ وصيفه إلى سيبيريا. وشرع ناقوس الكنيسة ذات يوم يدق لا دقاً مرحاً كما يفعل فى أيام العطلة، بل بتؤدة ووقار، فقد أعلنت الحرب، وأقبل موظفون فى ثياب عسكرية على القرية يطلبون الخيل ويعرضونها، وزاروا كل إسطبل، وفتح أحدهم فم الوثاب ونظر فيه.

ثم ذهب الرجل فطوق جراسيم بذراعيه عنق الوثاب وأراح خده على شعره الناعم: «أيها الوثاب!..» وكان صوته مترعاً بالأسى ثم صاح دنيس: «إيه يا وثاب، سيأخذك القيصر منا إلى الحرب ولن نراك بعد ذلك أبدا!»

وبعد بضعة أيام أخرج الوثاب والمهر الأبيض والكميت من الإسطبل، ووضعت

الحبال حول رقابهم ، وربطت إلى مؤخرة مركبة . ولما غادرت الفناء ندّت عن دنيس صيحة : « وثاب ... ياوثاب ! »

وجمعت الخيل وسارت فى الشوارع الصاخبة. ثم لمح الوثاب بغتة أجراماً ضخمة تزأر وتنفخ وتجر صفوفاً من بيوت غريبة الأشكال ، فما كان رأى قبل ذلك قطاراً حديدياً ، فأرهف أذنيه ، وأدار عينيه ، واقتيدت الخيل واحداً بعد واحد وهى تتمنع . ورأى المهر الأبيض يذهب ، ثم الكميت ، فانطلق يركض خلف الكميت ، فى المدرج إلى مركبة السكة الحديدية .

وفى تلك الليلة ، وقفت الخيل والنعاس يغالبها والقطار سائر يهتز بعض الاهتزاز ورأى الوثاب عين الكميت تنظر إليـــه مستفسرة فى قلق ، فصهل صهلة رقيقة كأنما يقول له : « لاتخف ياصديقى القديم » فقد زال ما كان يخامره من الشعور بأن المهر عدو له ، وصار بينهما رباط وثيق .

وتعاقب النهار والليل تعاقباً مملا ، وعرف الوثاب للمرة الأولى كيف يكون الخوف من الآدميين ، وكان الرجال يجيئون ويذهبون حاملين الطعام والماء ، وكان لأحدهم لحية وخطها الشيب ، ذكرته بصاحبه فحياه بصهلة وهو يتوقع أن يلاطفه الرجل ، غير أن الرجل تناول مقشة وأهوى بها على رأسه .

فصار الوثاب بعد ذلك يجفل كغيره من الخيل إذا دنا الرجل منه ، وكان الكميت هو الوحيد الذى لم يخف كرهه له ، وقد ظل هذا الرجل الغريب الشنوء أياماً وهو يحرص على البعد عنه ، ولكنه جاء ذات مساء وهو مغيظ محنق وصب جام غضبه على الكميت ، فقبل الكميت التحدى وكشف عن أسنانه ، وهجم عليه ، فتقهقر الرجل بسرعة ، فهوى من باب المركبة المفتوح واختفى ، ولم يره أحد بعد ذلك .

وجاء رجال آخرون ، ولكن الوثاب كان ينظر إليهم جميعاً بغير اكتراث ، ثم كان يوم أذهله فيه أن يسمع أحدهم يناديه باسمه : « وثاب ..وثاب ! » فمد عنقه إليه فلاطفه الرجل ، فصار بعد ذلك ينتظر مقدم الرجل بصبر نافد .

وكان الرجل باشجاويش موكلا بقطار الخيـــل ، ومزوداً ببيان بأسمائها جميعاً ، وكان مثالا للفلاح الذى تنجبه القرية الروسية ، وكان يعد الخيل جزءاً ضرورياً من الحياة . فلما رأى هذا الحصان الذى كان من الجلى أنه يفهمه ويفهم أساليبه ، شعر بحنين قوى عميق ، ومالبث أن اشترى كراسة ، مدفوعاً إلى ذلك بهواه ، أو بالضجر من الرحـــلة الطويلة ، وكتب عليها : « سجل لخدمة الحصان السيبيرى ، الوثاب »

وكتب على الصفحة الأولى: «لكن معلوماً لكل من يجد هذه الكراسة أنها سجل لخدمة الوثاب، وهو حصان دمث جداً. وإني لأرجو من كل من يكون هذا الحصان وهذه الكراسة من نصيبه أن يواصل تسجيل أعماله في خدمة بلادنا»

وأسدل ستار الليل على الجبال والغابات وانطلقت شرارات، وشقت الظلام ألسنة من اللهب، خلفت وراءها دخاناً كثيفاً كريهاً، وكانت معركة عنيفة تدور منذ أسبوع في جبال غاليسيا، وكان كل شيء في فوضى، وكانت المركبات وصناديق الذخيرة مبعثرة بين الشجيرات، وكانت الدروب في الجبال غاصة بجثث الخيل والرجال.

وكان الوثاب والكميت لا يشبهان في شيء تلك الخيول السمينة الحسنة الغذاء التي سبقتهما إلى خوض القتال، وكان جلدهما مشدوداً على عظامهما البارزة، ورأساهما مثنيين، وفقد الوثاب كل إحساس بالزمان والمكان.

ولكن الوثاب اكتسب بفضل المتاعب والآلام قدرة على فهم سيده الجديد الملازم روادوف، وتدرب على أن يظل هادئاً مهما يكن مايحدث، وشحذت فيه غريزة التفطن إلى الخطر، وصارت أذناه مرهفتين حتى ليميز بين نيران العدو ونيران قومه، وصار أنفه يستطيع أن ينبئه باقتراب الغرباء من الناس والخيل.

والآن وهو واقف إلى جانب مركبة مدفعية فارغة عند سفح مرتفع، فقد أمر فمه على كفل الكميت كأنما يريد أن يقول: «تبسم يا صديقي!»

فأجابته عينا الكميت الغائرتان: «إني لا أكاد أقوى على جر أرجلي. ولن نخرج أحياء من هذا يا صديقي!»

وكانت نيران العدو لا تنقطع، على حين كانت مدافع الروسيين لا تنطلق إلا من حين إلى حين، وتلفت الوثاب ليحيي سيده الملازم، الذي مسح له عرقه، وقال له ليرفه عنه: «يا وثاب إنك بطل، فإنك أنت الذي أنقذتنا اليوم جميعاً - إذ أحسست بالعدو وعصيتني حين أردت أن تعبر بي النهر ولو أنك كنت غبياً مثلي لوقعنا جميعاً في الشرك. ولكنا الآن في مأزق ياصاحبي، فإن العدو يحدق بنا».

وفي تلك الليلة تقهقروا، وكانت أشباح الجنود والخيل والمركبات ترى في الغابات إذ تعجل البطارية بالانسحاب من مكانها المكشوف، وراحت هذه القافلة الغريبة تتعثر في الظلام.

وقبيل الفجر وصلت الفرقة إلى هضبة

انتثرت عليها الصخور الحادة ، ولها ذروة من أشجار باسقة فانطرح الرجال والخيل على الأرض . ووقف الوثاب ومازال تحت السرج مشدوداً إلى مركبة مدفع ، والكميت على مقربة منـه ، فضرب الارض بحافر ، ليلفت إليه الكميت ، ولكن هـذا لم يزد على النظر إليـه بفتور ، وكان الناظر إلى هيكله المعروق واسوداده من العرق والتراب ، يشعر أن فيه شيئاً مفزعاً غير مألوف .

وسك أذنى الوثاب صفير قنبلة ، فدار وقد صار كل عرق فى بدنه كالوتر المشدود ، وكان الجنود والخيل سواء فى إدراكهم أن النهار سيطلع عليهم بالهول مرة أخرى ، وأن السماء ستمطرهم ناراً ودماراً ، وصـارت الساعات القليلة التالية كابوساً ، إذ كانت القنابل تتفجر والأرض ترتج تحت الخيل المذعورة ، وانفجرت قنبلة فوق الهضبة ، فحصبتهم بوابل من الحجارة والأقذار ومعها شجرة عظيمة ، وأصابت الشجرة حصاناً وتشابكت عليه أغصانها كأنما تعانقا ، ثم اختفيا معاً وراء حافة الهضبة .

ولما كان الظهر أطلت الشمس المضطرمة على الأرض المخربة ، وكانت نيران المدافع قد انقطعت تقريباً وأفسحت لنيران البنادق التى كانت تنصب من كل اتجاه . وتحت هذه النار الحامية تقـدم الملازم من الوثاب ، وشد السرج ، وامتطى ظهره ، فذهب عن الوثاب كل خوف . وراحا يجوبان الهضبة من أقصاها إلى أقصاها ، وكان الوثاب يرى الخيل والمركبات تنحدر عن جانب الهضبة الوعر ، إذ يوجهه سيده هنا وههنا .

وكان العدو المستتر يرقب هذا الانحدار عن الهضبة ، فصب على القوم وابلا جديداً من الموت ، ورأى الوثاب زميلا له — حصاناً كميتاً — يتعثر ويقع براكبه ، فانتفض ، ولكن لمسة من يد سيده كانت كافية لرد السكينة إليه ، فانطلق ليلحق بالآخرين الذين تدفقوا فى شعب مفض إلى غابة كثيفة آمنة ولما بلغ سفح التل رأى الكميت مجروحاً جرحاً بليغـاً ، وهو يحاول أن ينهض ، ويحرك رأسه من ناحية إلى ناحية ولا معين له . ولو كان الأمر إلى الوثاب لذهب إليه . ولكن سيده حثه على السير ، فذهبت آخر فرصة لمساعدة صديقه القديم وتخفيف ما به .

ورأى الوثاب رأس الطابور يختفى فى الغـابة ، وسمع مدافع قومه تطلق ، فقـد اقتربت النجدات ، ودار الملازم به وسار به إلى آخر الطابور ، وانفجرت قنبلة غير بعيد منـه ، واضطربت الأرض تحت الوثاب ، وقذف به فى الهواء .

ولما أفاق نهض بسرعة وهو يشعر بضعف فى قوائمه ، وبمثل كى النار فى بدنه ، وكان

الملازم رادوف منطرحاً على بضع خطوات منه، فوقف الوثاب ينتظره حتى يركب، ولكن رجالا جاءوا وحملوه على محفة وذهبوا به، وكانت المدافع لاتزال تطلق من مكان بعيد، غير أن الغابة كانت ساكنة، وكان حملة المحفة يمشون بسرعة، والوثاب يبذل أقصى مافى وسعه ليلحق بهم، والدم يقطر منه.

ولما شفى الوثاب كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت.

سار قطار حربى شرقاً فوق الريف الروسى الساكن، موقراً بالجنود الذاهبين إلى قلب سيبيريا لإعادة تنظيم صفوفهم وتعبئتها. وجلس فى ركن ضابطان شابان يتحدثان بصوت خفيض، وكان أحدهم يرتدى بزّة كبتن تشيكوسلوفاكى، والآخر ملازم روسى، وكانا يتحدثان عن الثورة الروسية، وفى فترة من فترات الصمت سمعا رجلا قريبا يشيد بفضائل حصانه.

وقال الكبتن ماليشيك التشيكوسلوفاكى للملازم الروسى: «إنى أنا نفسى من الفرسان، ولست أقول إن للحصان عقلا كعقل الإنسان، ولكن له إدراكا غريزياً يدهش. وإليك شيئاً أحب أن أريك»، وناوله كراسة ملوّثة زهمة.

لقد كتب هذا جنود لا أعرفهم، وهو سجل لحصان سيبيرى اسمه الوثاب، وهو الآن على هذا القطار. وليس منظره بالمعجب، ولكن فى عينيه شيئاً غريباً. ولعل أعجب شىء فى أمره أن كل هؤلاء الجنود والضباط جشموا أنفسهم عناء الكتابة عنه كأنه مخلوق ذو عقل وإدراك، وصديق مؤتمن».

وابتسم الملازم وهو يقرأ العنوان «سجل خدمة المهر السيبيرى، الوثاب» وفتح الكراسة كما اتفق وشرع يقرأ:

«نحن على وشك الانهزام وقد كاد العدو يطوقنا. وسنهلك إذا لم تصل إلينا النجدة. وأنا أكتب الآن فى كراسة صديقى الوفى «الوثاب» فإذا عاش بعدى، ووقع فى أيدى غرباء، فإنى أرجو أن تذهب هذه الكراسة معه. فإنى أريد أن يعرف الناس وفاءه. إن هذا الحصان يسعد حين يكون سيده سعيداً، ويشقى إذا حزن سيده، وهو الليلة بجانبى وعيناه تتبعان كل حركة أقوم بها. وإنى أقسم أنهما عينان بشريتان. ولن يدهشنى أن أسمعه يقول لى «تشجع».

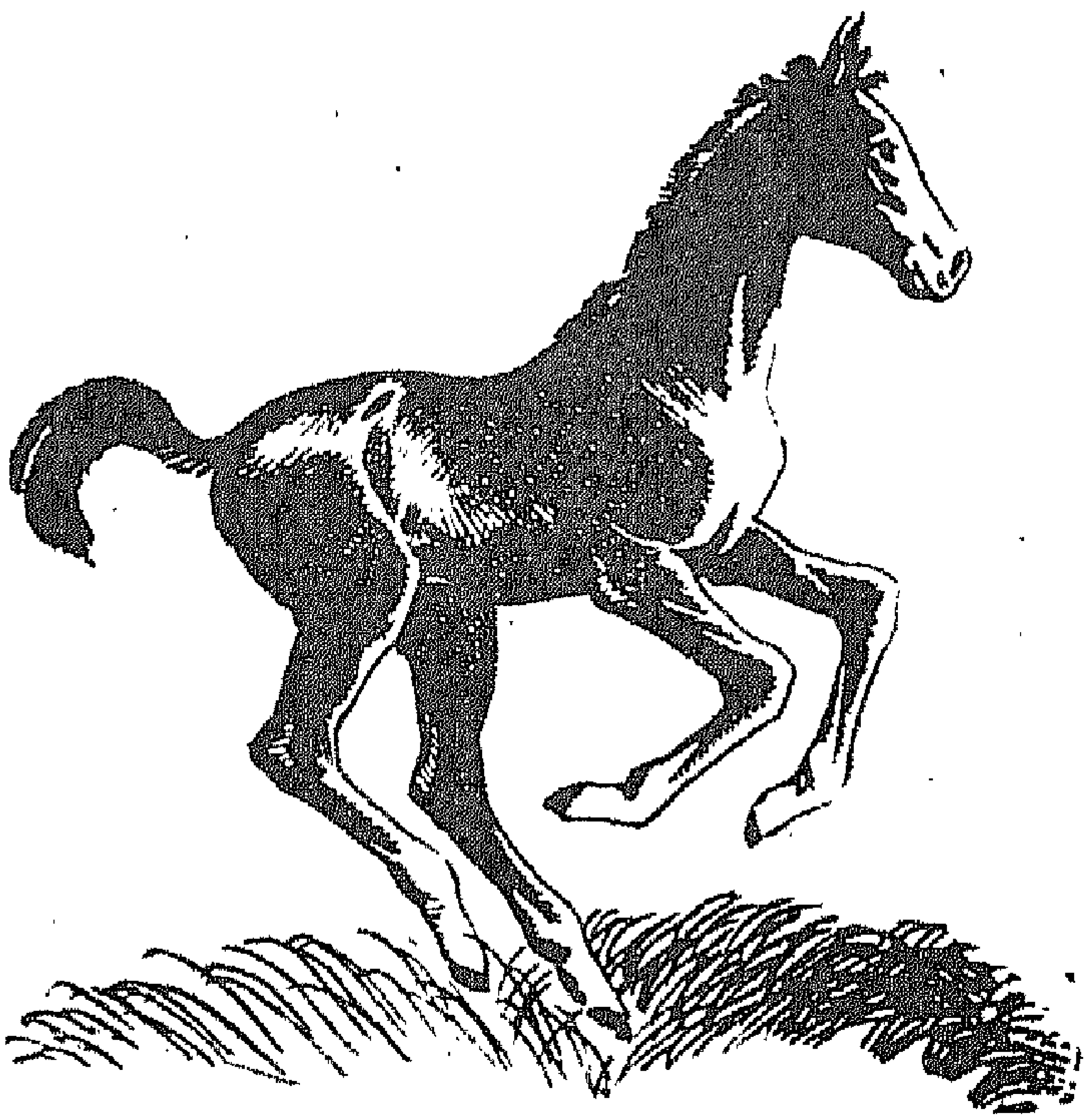
«وأنت يامن قد تصبح غداً سيد الوثاب، تذكر أنه شاطرنى ماعانيت من المتاعب، فعامله كما تعامل إنساناً مثلك، وإذا كنت تشك فيما كتبت عن عقله. فما عليك إلا أن تذهب إليه وتربت عليه وتقول له:

« ياوثاب . إنك جواد عظيم ، فاخدمني بولاء وصدق كما خدمت كل الذين أحبوك وعنوا بك » — الملازم رادوف . »

فتأثر الملازم كولوسوف تأثراً عميقاً بهذه العبارة التي كتبت بسرعة بالقلم الرصاص ، واندفع يقول : « هذا الرجل يستحق أن تنفذ وصيته الأخيرة. فماذا تنوى أن تصنع بهذا الحصان ؟ »

فقال الكبتن : « أنا عندى حصانى ، وأنت تحب الخيل، فخذه وخذ الكراسة ، فإن من الملائم أن تكونا معاً فكلاكما من سيبيريا » .

ولما وقف القطار أخرج الوثاب من المركبة إلى مأوى . وتقدم الملازم كولوسوف منه ، وربت على عنقه وقال بحنو : « أنت يا وثاب حصان جميل وأنا أعرف أنك ستخدمنى بإخلاص » ، فأطربت الوثاب هذه اللهجة الروسية المألوفة ، وصهل صهلة خفيفة وهو يتجه إلى الرجل .



لقد رحل الوثاب مرةً إلى الغرب ليخوض حرباً ، وهو الآن مع سيده الأخير ، يعود إلى الشرق مرة أخرى ، إلى أركتسك حيث بدأت حياته العسكرية .

وكانت الحرب الأهلية المخربة قد وضعت أوزارها، واتحدت الجيوش الحمراء والبيضاء ضد عدو مشترك فى الشرق الأقصى هو أتامان سمينوف وحلفاؤه اليابانيون .

وكان الزحف شرقا إلى بحيرة بيكال يجرى فى عواصف الثلج والبرد ، واتفق ذات صباح أن كان الثلج كثيفاً والهواء البارد يجعل التنفس شاقاً ، فسرى فى بدن الوثاب مثل تيار الكهرباء ، إذ أحس بالثلج تحت حوافره ، ونفخ ليخلى منخريه ، واستولى عليه شوق عجيب .

وسأله سيده : « ماذا بك يا وثاب ؟ »

فالتفت الوثاب وهو مطمئن إلى سيده كأنما يريد أن يقول: « ليس الخوف ما بى ، بل هذا الثلج وهذا الريف المألوف . لقد كنت هنا من قبل » .

وفى اليوم التالى بلغا قرية كابانسك ، وكان الوقت ليلا ، ولكن الشوارع غصت بمن خرجوا إليها ليرحبوا بالجنود . ولما ذهبوا بالوثاب إلى إسطبل فى فناء حقل طيب ، أبى أن يقف ساكناً أو أن يأكل وإن كان لم يطعم شيئاً منذ وقت طويل .

وبقى وحده ، فمد أنفه إلى كل ناحية ، يفحص كل شىء ويشمه ، ثم رفع رأسه فجأة وأنصت ، فقد سمع وقع أقدام تقترب ، وصوت شاب ينادى : « وثاب . . ياوثاب ! » وفتح الباب .

ووقف فى المدخل على ضوء مصباح رجل طويل ملتح وصبى نحيف ، واقتربا ، وفحصا الوسم الذى على فخذه . فصاحا « الوثاب . . . الوثاب ! إن دنيس لم يخطىء . فإنك الوثاب حقاً ــ جندى عائد من الحرب . . مرحباً بك فى بيتك ! »

وفى الصباح التالى كان الجو كله مرحاً ، وتأثر أهل القرية إذ علموا أن الوثاب قد عاد بأعجوبة إلى جراسيم أوزيروف . وأقبلوا واحداً بعد واحداً ينظرون بعيونهم ، وتجمعوا من الصباح الباكر ووقفوا فى الفناء وقد أجمعوا على أن هذه معجزة حقاً .

وسر الوثاب بهذا الترحاب ، ولكن أصواتاً فى الإسطبل شغلته ، فصهل ليلفت إليه مهرة جميلة بلقاء بعيدة ، فرفعت رأسها وجاوبته بصهلة حارة كصهلته .

وخفقت ضجة الأصوات فجأة حين قال جراسيم للضابط :

« أيها الرفيق الضابط ، إن الوثاب حصاننا ، والناس هنا يستطيعون أن يقولوا لك إن هذا ميسم أوزيروف . وقد ولد فى هذه الحظيرة الصغيرة هناك ، وأخذ إلى الحرب فى سنتها الأولى كغيره من الخيل ، وهذه المهرة البلقاء التى هناك هى أم ولده . وسأرفع عنه اللجام لترى أنه سيذهب إليها من فوره . فكن عطوفاً عليه » .

فتأثر الضابط ، ورفع اللجام ، فهز الوثاب رأسه ومضى إلى الحظائر ، ولم يذهب إلى أقرب حظيرة ، وكان فيها عدد من الخيل ، بل قصد إلى البلقاء فى آخر حظيرة .

فابتسم الضابط لدنيس ثم التفت إلى أوزيروف وغمز بعينه وقال: « ليس لى حق فى تسريح حصان سليم ، ولكن لاحظت فى المدة الأخيرة أنه مريض . والحصان المريض لا يصلح للحرب ، فإذا أعطيتنى بدلا منه حصاناً سليما فإنى أقبل » . فتجمع الفلاحون حول الضابط يهتفون به ويصافحونه على

حين وقف دنيس وأبوه يبكيان ويضحكان .

وفى اليوم التالى خرجت القرية لتوديع الجنود ، وكان الوثاب وحده هو الذى يشهد ما يحدث وهو قلق ، ولم يفهم لماذا لم يسرجوه .

وهمس الضابط فى أذنه : «وداعاً ياوثاب! وداعاً أيها الرفيق القديم ! إنى آسف لفراقك ولكنك ستكون سعيداً هنا » . وربت عليه ثم امتطى جواداً آخر كان فى انتظاره ، وانصرف دون أن يتلفت .

ودار الوثاب وانثنى وهو مضطرب . وقد شعر أن شيئاً غير عادى قد وقع . ولكنه سمع البلقاء تصهل فسكن وطمأنه صهيله ، وبدا كأنما يقول : « لاتقلق ! فلن أفارقك مرة أخرى ! »

الشيخ الهرم ، ودنيس ، والملاطفات الرقيقة ، وأصوات الحقل التى كانت كالموسيقى فى أذنيه — كل هذا كان بعض حياته كأنما لم يكن قد اغترب قط . وهذا بيته — بيته المحبوب الحقيقى .

جلس الحجاج يقتل أصحاب عبد الرحمن ، فقام إليه رجل منهم فقال : أيها الأمير إن لى عليك حقاً . قال : وما حقك علىّ ؟ قال : سبّك عبد الرحمن يوماً فرددت عنك . قال : ومن يعلم ذاك ؟ فقال الرجل : أنشُد الله رجلاً سمع ذلك إلاّ شهد به . فقام رجل من الأسرى فقال : قد كان ذاك أيها الأمير فقال : خلّوا عنه ، ثم قال للشاهد : فما منعك أن تنكر (السبّ) كما أنكر ؟ قال : لقديم بغضى إياك . قال : ويُخلّى هذا لصدقه .

قال ثمستكليس — الجندى السياسىّ المشهور — لابنه الصغير« أنت أقوى امرىء فى بلاد الإغريق » . فسأله الغلام : « وكيف ذلك ؟ » فقال : « لأن أهل أثينا يحكمون بلاد الإغريق كلها ، وأنا أحكم أثينا ، وأمك تحكمنى ، وأنت تحكم أمك »

« وصف النقاد كتاب هسكث بيرسون الجديد عن أسكار وايلد بأنه « أوفى وأوثق » ما كتب عن عبقريته الرائعة المحيرة . وهذه مختارات من هذا الكتاب انتقاها وصنفها الكاتب : ماكس إيستمان



أمير الدعابة

مستخرجة من كتاب "أسكار وايلد : حياته ودعاباته"

سنة ١٨٥٦ ولد فى إرلندة رجل من أكبر أمراء الدعابة فى الأدب ، فكان أغزر المحدثين خيالاً ، وأحضرهم بديهة ، وأجرأهم على الدعابة ، وكان أيضاً ألطفهم مرحاً وحبوراً — أو هكذا على الأقل كان يذكره أصحابه . وقد وصفه أحد كبار النقاد فقال إنه : «أكبر أستاذ مزهو بنفسه رزين فى تفكيره ،أطاعت له الأستاذية فى فن الحديث ،منذ تكلم الناس الإنجليزية » . فكان يقول الكلمة المناسبة فى وقتها المناسب ، فلم يكن من عادته أن يفكر فيها حتى إذا طلع عليه الصباح تمنى أن يكون قالها . ولن نجد سواه أحداً أكثر الناس من الاستشهاد بروائع كلماته ، فمن ذلك :

« الواجب هو الفعل الذى نتوقعه من سوانا »

« فى وسعى أن أقهر كل شىء إلا الإغراء »

« تحب المرأة الرجل لنقائصه ، فإذا كان له منها حظ وافٍ غفرت له كل ذنبٍ حتى قوة تفكيره »

« أسألك المعذرة ، فإنى لم أعرفك — فقد بلغ منى التغير مبلغاً كبيراً »

لم يكن أسكار وايلد ممن يستأثر بالحديث فى المجالس ، بل كان مستمعاً يقظاً حى النفس ، وبرع فى توجيه الحديث بأسلوب يتيح له أن يستثير خير ما فى عقول جلسائه ، ولم يكن يذكر خاصة أموره لأحد قط إلا

خصائه ، وما كان متحكما فى آرائه، ولا كان يخالف أحداً فى رأى ، ولا كان يدعى أنه حُجَّة فى شىء من الأشياء — اللهم إلا فى آداب السلوك فى الحين بعد الحين .

وكان يحرص دائماً على أن يكون رزيناً منصفاً يشارك الناس راضياً فى التندُّر على نفسه . وكان سخياً سخاءً مفرطاً ، فكانت أمواله تتدفق من بين أنامله تدفقاً غزيراً كتدفق أفكاره . وما من شىء كان يكسل عن أدائه لنفسه فاحتاج إليه أحد سواه إلا أداه له على السجية، لا من الشعور بالواجب. ولعله هو الوحيد بين أصحاب الدعابة والتندّر من بلغت به رقة حاشيته أن لا يمس أحداً بإساءة تؤذيه ، ولم يستعمل قط كلمة نابية ولو اقتضاها المزاح . وإذا طار به المرح فى سموات الخيال ، بقى كعادته رفيقـاً رقيقاً . وأكثر كلماته المأثورة هى فى الأغلب جدٌّ كلها ، وأدل شىء على ذلك قوله : « يحرص البشر على أن ينظروا لأنفسهم نظرة كلها جدٌّ — هذه هى الخطيئة الأولى »

« ليست المحنة فى الشيخوخة أن تحس بأنك شيخ ، بل إحساسك بأنك شاب »

« إن المرء ليجد لذة فى معاتبة نفسه ، فهو حين ينحى باللائمة على نفسه يحس بأن لا حقَّ لأحد فى ملامته »

وكان أسكار وايلد جاداً أيضاً فى حبّه للجمال ، وقد شن فى سبيل الجمـال حرباً شعواء على المتزمتين من أهل الأخلاق الذين كانوا فى عصر الملكة فيكتوريا . وأدرك أيضاً أن فى وسعه أن يجد روائع كثيرة فى هذا النزاع القائم بين الرأى السليم فى الشعور بالجمال ، والرأى الفاسد فى الشعور بالإثم ، ولما كان أسكار قد خلق مفطوراً على القدرة فى حسن عرض الأشياء كسائر أهل الفكاهة والدعابة ، فقد أحسن استغلاله خير استغلال .

أعلن أسكار ، وهو لا يزال طالباً فى الكلية ، أن الإصلاح فى الملابس أجدى على الناس من الإصلاح فى الدين . فلما نزل لندن بعد تخرجه مشى وهو يحمل قفازين لونهما أزرق شاحب ، وزعم للنـاس أنه أستاذ فى « علم الجمال » ، فكان يظهر فى حفلات الليل «عليه معطف من المخمل، مطرز الحواشى ، مرتدياً سروالاً قصيراً عليه الوشى ، وجورباً أسـود طويلا إلى الركبة ، وقميصاً رقيقاً فضفاضاً ، عليه بنيقة واسعة متدلية الطرفين، فيها قلادة (كرافتة) كبيرة متهدلة خضراء اللون». واتخذ زهرة الزنبق وعباد الشمس شعاراً ، لا من أجل جمالهما، بل لأنهما شىء مضحك إذ رأيتهما على صدر رجل ضخم قد ناطهما إلى عُروته .

واعلم ، على ذكر هذا ، أن أسكار وايلد كان ضخم الجثة شديد الأسر حديد الطباع ، فكان فى استطاعته أن ينصر مذهبه وذوقه على رغم كل معارض ، سواء أكانوا فرادى أم جماعات . من ذلك أنه لما كان فى كلية ترنتى بمدينة دبلن ، سخر من إحدى قصائده فتى بطل مَرِير القُوَى كان يُعدّ من أعتى العتاة ، فسار إليه أسكار وايلد ولطمه على وجهه ، ودارت المعركة بينهما ، وذهل الطلبة حين رأوا الشاعر يصرع البطل صرعة مُرْدِية .

وبعد ذلك بزمان رأى زملاؤه فى أكسفورد أنه ينبغى لهم أن يقتحموا غرفته ويحطموا أثاثها الجميل ، حتى يخلصوا من شذوذه وخروجه على تقاليد الجامعة . فهجم على غرفته أربعة من الفتيان أدار الغرور رؤوسهم ، وبقى الآخرون وقوفاً ينظرون عند الدرج ، فلم يلبث المقتحم الأول أن لحق بأصحابه عند الدرج ، مشيعاً بحذاء أسكار وايلد ، ونال الثانى لكمة قذفت به متدحرجا على سابقه ، وعاد الثالث محمولا على متن الهواء . أما الرابع فقد حمله أسكار إلى غرفته ودفنه تحت كومة من الأثاث ، ثم عاد إلى النظارة الذين صاروا معجبين برجولته ، فدعاهم إلى غرفته ليتذوّقوا شيئاً من خموره المنتقاة .

وقد شوهد مرة وهو لا يزال فى أكسفورد يخاطر بنفسه واثباً من مقصورة إلى مقصورة فى ردهة الموسيقى ، لكى يدعو الحاضرين إلى دعوة أعدها لهم بعد انفضاض الحفلة . بيد أنه كان من الكسل بحيث لم يكن يستخدم هذه الجرأة الخارقة إلا فى الدفاع عن النفس أو فى العبث والتسلى . وقد قال بعد ذلك بزمن : «أخشى أن يكون فاتنى أن أمارس شيئا من الرياضة — اللهم إلا لعبة الضمنة (الدومينو) فقد كنت ألعب الضمنة أحياناً على رصيف بعض المقاهى الفرنسية» .

وليس يدخل فى طوق رجل ضئيل الجسم خَرِع المفاصل ، أو رجل ضعيف هيّاب أن يفعل ما فعل أسكار وايلد ، فبكبريائه الطاغية وموهبته الخارقة فى التندر والدعابة ، استطاع أن يجعل صيته يذيع فى قارتين واسعتين وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، دون أن ينشر سطراً واحداً يشغل إنسان نفسه بقراءته .

ولم يكن أسكار جميل الصورة ، اللهم إلا ما ترى من جمال عينيه المتلألئتين وجبينه الوضّاح ، أما أسنانه فكانت متراكبة ، وأما بشرته فكانت أميل إلى الشحوب ، فإذا سلم عليك هزّ يدك برخاوة وطراوة ، وإذا نظرت إلى عضلاته القوية رأيتها أشبه باللحم منها بالعضلات . وكان بديناً متراكب اللحم

تتبين فى مظهره شيئاً من الجسامة المفرطة فى التركيب ، حتى قال رتشـارد ليجالين الشاعر الإنجليزى : إنه يراه كأنه دمية مفرطة الضخامة . فكانت هذه الصفات تنفر الناس منه عنـد النظرة الأولى كما ينفرهم اللقب الذى ادعاه لنفسه « أستاذ علم الجمال » ، بيد أن صوته الرخيم ، وضحكته الرقيقة الصادرة من صميم القلب ، والينبوع الذى لا ينفد من الحكايات المطربة ، ومن الفكاهات وغرائب القصص والعبر والأمثال ، ومن الأفكار العميقة التى كانت تتدفق من لسانه كالسيل ، كانت تصطلح جميعاً على نفى هـذا النفور الأول ، فكان النـاس ينجذبون إليه إذا دخل مكاناً وبدأ يتكلم .

« لا يجدى على المرء شىء كما يجدى الغلو » ، هكذا كان شعاره ، وكان حريصاً عليه لا فى مظهره وحده بل فى كلماته أيضاً .

وقد سئل مرة كيف قضى يومه ، فقال بوقار : « قضيت النهار كله أراجع قصيدة من قصائدى ، فحذفت منها شولة ، فلما جاء العصر رددتها ثانية إلى مكانها » .

وجاءه مرة رجل ضئيل الجسم حقـير الهيئة فقال : « جئت أطالب بالضرائب » .

فردّ عليه أسكار بغطرسـة وغضب : « الضرائب ! وعلام أدفع هذه الضرائب ؟ »

قال الرجل : « إنك ساكن هذا البيت ياسيدى ، أليس كذلك ؟ وتقضى فيه نهارك وتنام فيه لياليك » .

قال أسكار : « صدقت ، ولكن ماتقول إذا كنت لا أجد فى نومى راحة أبداً ؟ »

ودخل مرة دكان زهّار فأمر العامل أن يرفع بعض الأزهار من الواجهـة فقال له الرجل : « سمعاً وطاعة ياسيدى ، كم تريد منهـا ؟ »

فقال أسكار : « كلا ، فأنا لا أريد منها شيئا ، وشكراً لك . وما سألتك أن ترفعها من الواجهـة إلا لأنى أراها كأنها كليلة منهوكة القوى » .

وخرج مرة فى ثياب مشهّرة تلفت الأنظار ، وهو يعلم حق العلم وقع هذه الغرائب عند الناس ، فسمع رجلا من المارة يقول : « هذا هو أسكار وايلد الأحمق المجنون » فالتفت أسكار إلى رفيقه وقال : « عجبا ! ما أسرع مايصير المرء معروفاً فى لندن ! »

ولم يلبث أن ذاع صيته فى أمريكا أيضاً فرحل إليها ليحاضر الناس فى البلاد المختلفة . وقد ملأ قلب الرجل الذى يتولى أمر رحلته حسرات حين أبى أن يضع فى عروته زنبقة يسير بها فى شارع برودواى ، بيد أنه غالى فى زينة ثيابه ، وغالى فى دعابته وأحاديثه للصحفيين حتى بلغت الرحلة ذروة النجاح . وما من دعابة كانت أجزل خيراً ونفعا من كلمات ثلاث

قالها وايلد وهو فى الميناء ، حين سأله أحد رجال الجمارك هل عنده شيء مما ينبغى أن يطلعهم عليه فقال : «لاشيء سوى عبقريتى»

كانت رحلة أسكار وايلد فى أمريكا أشبه بالانتقام لرحلة مارك توين فى أوربة ، فقد سخر توين سخرية شديدة من أوربة وغلوها فى الثقافة ، فسخر أسكار مثل سخريته من أمريكا وفقرها فى الثقافة ، فمن ذلك قوله :

«حين رأيت أنه من عادة أهل أمريكا أن يعلقوا الصور عالية قرب السقف ، حسبت ذلك فى بادىء الأمر ضرباً من الحمق . ولم أقدر هذه العادة حق قدرها حتى تبين لى مبلغ قبح هذه الصور » .

« إن استغراق أمريكا فى هم سخيف هو التجارة ، وقلة احتفالها بالجانب الشعرى فى الأشياء ، إنما يرجع كله إلى سبب واحد ، هو أن الشعب قد جعل بطله القومى رجلا يعترف على نفسه بأنه لايستطيع أن يكذب» .

وقد جاءته برقية من جرجزفيل تقول: «هل لنا أن نطمع فى محاضرة فى علم الجمال؟» فأجاب : « غيروا أولا اسم مدينتكم » .

ولما دعى أسكار للمحاضرة فى جامعة هارفرد ، دخل ردهة المحاضرات ستون طالباً وجلسوا فى الصف الأول ، وقد لبسوا جميعاً سراويلات قصيرة موشاة كسراويل أسكار ، ومع كل منهم زنبقة أو زهرة من عباد الشمس ، وبلغ أسكار الخبر قبل المحاضرة ، فإذا بهم يرونه على المنصة مرتدياً ثياب السهرة ، فخجل الطلبة لما تورطوا فيه من حماقة . وتحججت الردهة بالضحك حين قال : « إنه يرى فى ردهة المحاضرات بعض مايدل على شيء من النهضة الفنية » ، فلما قال كلمته المأثورة : « التقليد هو تحية العوام لأصحاب العبقرية » تجاوب المكان بالتصفيق .

وقد أخفقت كل المحاولات السخيفة التى أريد بها إفساد رحلة « أستاذ علم الجمال » . فقد اجتمع عليه السكيرون المدمنون على طول طريقه من نيويورك إلى سان فرنسيسكو ، فكان يشرب معهم حتى يبلغ منهم السكر ، ثم يكبكب بعضهم على بعض فى عربة وينطلق بهم آيباً إلى فندقه وهو مرح جذلان . وقد دعاه رجال التعدين فى كولورادو إلى وليمة أقاموها له فى جوف منجم ذهب ، وكان وايلد معجباً برجال التعدين حتى وصفهم بأنهم أحسن أهل أمريكا أناقة فى ملابسهم ! وقال يذكر دعوتهم : « لما نزلنا إلى جوف المنجم ، جلسنا إلى الوليمة ، فكان اللون الأول من طعامنا هو الخمر ، وكان الثانى خمراً ، وكان الثالث خمراً أيضاً » ، فما بزغ الفجر حتى أخرج المعدنون مغمى عليهم من كثرة الشراب ، أما أسكار فقد

خرج وهو يثرثر ويتندر كأنه خارج من حفلة شاي فى لندن .

فلما بلغ أسكار ما كفاه من شهرة ذائعة وجمع شيئاً من المال ، ضاق ذرعاً بحياة التمثيل التى كان يمارسها ، وعزم على أن يمتحن نفسه فيرى هل يطيق أن يزاول بعض العمل . وقد قال حين قفل راجعاً من أمريكا : «لقد مات أسكار الأول، وليس لأسكار الثانى علاقة بالفتى المرسل الشعر الذى يحمل فى يده زهرة عباد الشمس ويذرع ميدان بيكادللى» (وقد صرح أسكار فيما بعد أنه لم يحمل قط زهرة عباد الشمس ذارعاً ميدان بيكادللى وقال : « فى وسع كل أحد أن يفعل ذلك ، لقد كان أكبر همى هو أن أجعل الدنيا كلها تعتقد أنى فعلت ذلك وإن لم أكن فعلته »)

كانت أولى تجاربه فى العمل قصيرة المدى ، وذلك حين صار رئيس تحرير لمجلة تدعى « دنيا المرأة » ، فاستمتع كل الاستمتاع بشطر من واجبات هذا العمل ، وهو اضطجاعه فى كرسيه وتحدثه إلى الكتاب الذين يؤملون أن تنشر مقالاتهم ، وزاد على ذلك استمتاعه بلقائهم فى مقهى « كافيه رويال » . وعاش يومئذ طبقاً لكلمته المأثورة : « لاتؤجل لغد ما تستطيع أن تصنعه بعد غد » . أما امتناعه عن الرد على الرسائل ، فقد سار فيه على مبدأ اعتقده وهو : « لقد عرفت رجالا نزلوا لندن تنطوى قلوبهم على آمال باهرة ، فما مضت أشهر قلائل حتى رأيتهم حطاماً مركوماً من جراء تلك العادة المستهجنة، وهى الرد على الرسائل » . وكذلك لم يمر على أسكار سوى عام واحد فى رياسة التحرير .

ثم بذل جهداً آخر فى أداء عمل سوى الحديث، فاشتغل ناقداً فى «بال مال جازيت» ولكنه منى بإخفاق مرة ثانية ، فقد كان أرق قلباً من أن يهجم على مؤلف بما يسوءه. وكان أقسى شىء قاله فى نقده هو تقريظ للرسام الأمريكى جيمس مكنيل هويسلر الذى كان على نبوغه رجلا شديد الحب لنفسه والإعجاب بها ، قال : « أما من حيث إنه أحد كبار أساتذة الرسم ، فذلك رأيى فيه . ولعلى لا أخطىء إذا قلت إن هويسلر نفسه يوافقنى على هذا الرأى كل الموافقة » .

فكانت هذه الكلمة بدء معركة من النوادر بينهما ، نال فيها هويسلر مرة من بطل الفكاهة نيلا ذاع بين الناس . وذلك حين أقيم معرض فى لندن عرض فيه هويسلر بعض رسومه، فجاء الناقد الفنى لجريدة التيمس وجعل يبدى رأيه فى الرسوم : هذا حسن ، وهذا ردىء ، وهكذا . فقال له هويسلر : « يا ابن أخى ، لا تقل هذا حسن وهذا

ردىء ، فليس من حقك أن تعبر عن رأيك بأحدهذين اللفظين، فإن شئت فقل: « هذا يعجبنى » أو « هذا لا يعجبنى » ، وعندئذ لا يدّعى أحد أنك قد تجاوزت حدود حقك. والآن هيّا بنا إلى كأس من الخمر — فهذا هو الشيء الوحيد الذى يعجبك ولاريب ».

فقال إسكار وقد اهتز عطفه مرحاً : « وددت لو كنت قائل هذه الكلمة ! »

فأجابه هويسلر : « سوف تنتحلها يا أسكار ، سوف تنتحلها »

ولم يصبر أسكار على هذه النكتة اللاذعة حتى نال من هويسلر بما هو أشد منها لذعاً .

وكان الذى اضطرّ أسكار إلى بذل الجهود الجبارة فى ممارسة العمل ، شيئاً مألوفاً حدث فى حياته كما يحدث لسائر الناس . فقد أحب فتاة وهام بها وتزوجها ، وكان لديها من الثروة ما يكفى لطعامه ومسكنه ولكنها لاتكفى لتحقيق كلمته : «أنلنى مناعم الترف ولك علىّ أن أستغنى عن ضروريات الحياة » .

كانت زوجته كونستانس فتاة جميلة ، وكانت موهبتها هى الصمت كما كانت موهبة زوجها هى الكلام . قال أسكار : « أحبها لأنها لاتنبس ببنت شفة ، وأنا لا أزال أسأل نفسى عجباً رجاء أن أعرف كيف تكون أفكارها » . وإذا شئنا أن نحكم عليها طبقاً للحديث الوحيد الذى نقل عنها ، قلنا إنه لا شبه بين أفكارها وأفكار زوجها ، فقد كانت تقية ذات دين ، وكانت تبدى عن حب شديد للدُّعاة الذين يدعون للدين بين الهمج فى الغابات . فقال لها أسكار :

« أتحبين الدعاة ياعزيزتى ؟ ألم تعلمى أن دَعْوتهم ليس سوى ولمية مقدسة أعدت لذوى المتربة والمسغبة والمحرومين من أكلة لحوم البشر ؟ فمتى أشفى أكلة لحوم البشر على الموت جوعا شاءت رحمة الله الواسعة أن ترسل إليهم طائفة من هؤلاء الدعاة ليقيموا بهم أوَدَهم »

فقالت كونستانس : « رباه! إنك لاتقول هذا جاداً يا أسكار ، بل لست إلا مازحاً بلسانك » .

كان من دأب أسكار أن يقول : « إن خير أساس للزواج هو سوء التفاهم المتبادل » ، وقد ظل زواجه سنوات زواجاً موفقاً ، ورزق ولدين كان مولهاً بحبهما ، وكان ولداه يعدّانه رجلاً كاملاً لما كان يفيضه عليهما من غرائب قصصه . فكان حُبّ هذين الغلامين هو الذى مهد له الطريق إلى اتخاذ الكتابة عملاً .

فكان أول كتبه ذات الشأن — وسيظل قوم يعدّونه خير كتبه — سِفْر فيه مجموعة من غرائب الحكايات نشره وهو فى الثامنة

والثلاثين من عمره . ويقول أصدقاؤه إنه بعد أن كتب هذه الحكايات لم يجدوا فيها من الروعة ما كان فيها حين قصها على أولاده منطلقاً فى قصصه على سجيته . ومع كل ذلك فهى أروع أمثالها من الحكايات فى اللغة الإنجليزية .

وفى سنة ١٨٩١ شارف أسكار السادسة والثلاثين ، ولم يزل ضالا لم يهتدِ إلى الطريق الواضح الذى يحيل عبقريته فى الحديث إلى أدب مكتوب ـ ألا وهو كتابة المسرحيات. وقد طبعت أولى مسرحياته فى سنة ١٨٩٢ وهى « مروحة ليدى وندرمير » ، ولم تكن إلا ضرباً من المهارة فى التوفيق بين بعض الفكاهات والنوادر التى يتذكر أنها جرت على لسانه، بيد أن نجاحها كان سريعاً ومتجدداً على الأيام، وأخيراً اهتدى إلى سواء السبيل. فلما كانت سنة ١٨٩٤ وكتب أروع مسرحياته* صار أشهر كتاب المسرحيات فى لندن وأحبهم إلى الناس ، وأحد مشاهير كتاب العالم . أما اليوم فإن ما يباع من كتبه فى أوربة أكثر من أى مؤلف إنجليزى آخر ، اللهم إلا شكسبير .

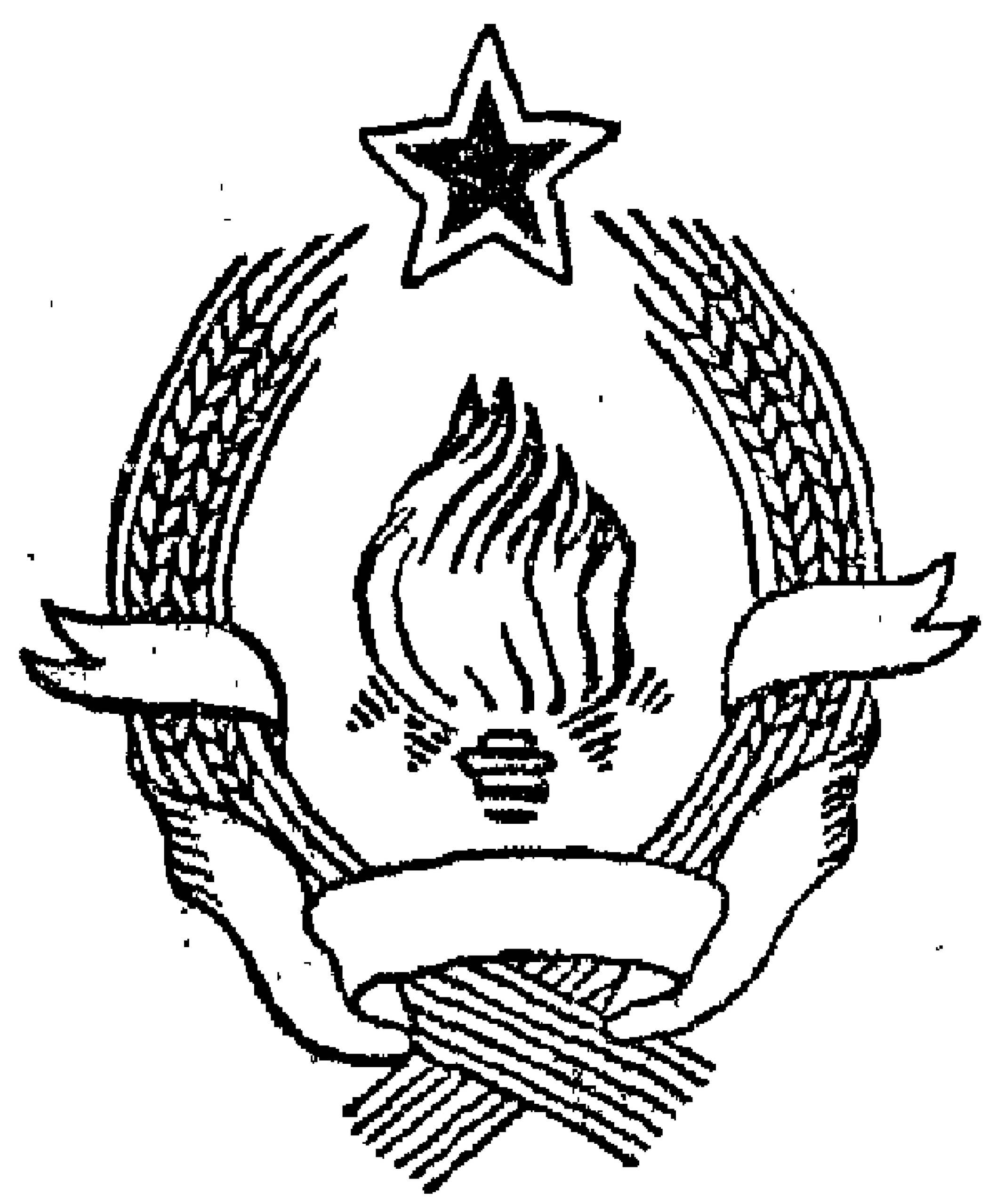
وقد عاش أسكار أربعين سنة لم يذق فى يوم واحد منها طعم البؤس والشقاء، كما يقول أصدقاؤه . ثم حدث ما نغَّص عليه عيشه ـ وليس يعلم أحد ما هو على التحقيق ، ولعله هو النجاح ، فقد قال هو نفسه: « ليس فى هذه الحياة الدنيا سوى مأساتين : إحداهما أن لا ينال المرء ما يبتغيه، والأخرى أن ينال ما يبتغى . وشرُّهما هذه الأخيرة، وهى المأساة حق المأساة » . أو ربما كان سر بؤسه علة أصابت غدة من غدده ، فقد أصبح فظ الطباع منتفخ البدن، وأطلق العنان لشذوذ جنسى لم يمنعه إلى آخر أيامه من أن يعيش مع أهله عيشة طبيعية متمتعاً بأتم عافية .

أما السنوات الأربع الأخيرة من عمره فكانت أحفل ما فى تاريخ الأدب الإنجليزى بالفجيعة وأجلبها للشفقة والرثاء . كانت سنوات خزى وسجن ونفى ومتربة ـ وشرُّ ما فيها الصمت ، ثم جاء الموت فأنقذ نفسه المحطمة من نكبتها . وقد روى الناس قصة هذه السنوات مراراً فدخلها الكذب والتحريف ، فينبغى أن يقرأها على وجهها الصحيح كل من له ولع بمعرفة طبائع البشر وتصاريف الأقدار . ولكن ينبغى للمرء أيضاً أن يتجنب الإفراط فى تأويلها، وينبغى أيضاً أن يحول بين هذه السنوات الأربع وبين إلقائها ظلا قاتماً مريباً على تلك السنوات الأربعين الحافلة بالمرح والرقة والكرم والدعابة التى لا تبارَى ولا تجارَى.

* The Importance of Being Earnest

يوغسلافيا

عبرة لأهل الأرض



بجدان رادتسا
مختصرة من كتاب يوشك أن ينشر

من وراء الستار في البلقان :
قصة تحمل الناس على التفكير

يوغسلافيا، عبرة لأهل الأرض

أعضاء الحزب الشيوعي في بلاد العالم يزعم قاطبة أنهم يحبون الديمقراطية، فتجدهم في كل بلدٍ تقريباً خارج الاتحاد السوفيتي، يجتهدون في أن يضموا أعضاء الأحزاب الأخرى في هيئات يطلقون عليها اسم الجبهة القومية، أو الجبهة الشعبية، أو لجنة المواطنين الأحرار، أو ما شاكل ذلك. وهم يزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك لنشر «الديمقراطية». أما أنا فقد دلتني تجربتي في وطني على حقيقة هذه الخطة الماكرة الخبيثة.

عينت في سنة ١٩٤٥ رئيس قسم الصحافة الأجنبية في وزارة الاستعلامات في حكومة المارشال تيتو القائمة اليوم. وهذه الحكومة تطلق على نفسها وصف الجبهة الشعبية، وقد أنشئت لتكون اتحاداً متعاوناً مؤلفاً من الأحزاب التي كانت تنشد للشعوب اليوغسلافية من أهل الصرب وكرواتيا وسلوفينيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود ومقدونيا، نهجاً في الحياة أدنى إلى النهج الديمقراطي.

أما الحزب الشيوعي فقد كان غرضه منذ أول الحرب أن يظفر بالسيطرة لا أن يحقق التعاون، فاستولى شيئاً فشيئاً على مناصب السلطة، الظاهر منها والخفيّ، فإذا العاقبة نظام يناقض الديمقراطية كل المناقضة ويخنق حرية القول والصحافة والفكر، ويخضع حياة الناس لعيون هيئة جديدة للبوليس السري، ويعمد رجاله إلى الجبروت في اعتقال الناس وسجنهم وإعدامهم وتذبيحهم. فهذا حكم مستبدٌ قوامه الإرهاب والموت، وزمامهُ في يد عصابة صغيرة.

وقد اصطلح الشيوعيون على تسمية الديمقراطيين الحقيقيين الذين يرضون أن يتعاونوا معهم في سبيل «الديمقراطية» بعبارة: «كورستني بودال»، وهي بلغة الصرب والكروات معناها «المغفَّلون النافعون».

وقد كنت أحد هؤلاء المغفلين. وعسى أن تكون قصة تنبهي ويقظتي شيئاً فشيئاً، ذات جدوى في تحذير «المغفلين» في سائر البلدان.

كنت في سنة ١٩٤٣ في نيويورك رئيساً لقسم الصحافة التابع للحكومة اليوغسلافية الملكية، وكنت لم أزل في خدمة تلك الحكومة منذ سنة ١٩٢٨ — في بلغراد وأثينا وجنيف ووشنطن، ومع ذلك كنت

أرى أن قسط يوغسلافيا قبل الحرب من الديمقراطية كان قسطاً ضئيلا ، وكان هذا الرأى يملأ جوانحى يوم قرأت أن « جمعية التحرير الأولى » التى اجتمعت حول المارشال تيتو قد أصدرت بياناً سرى كالكهرباء .

وقد جاء فى هذا البيان أن الجمعية تريد « اتحاد الشعوب اليوغسلافية اتحاداً حرًّا على قدم المساواة بينها » . فهو بيان يؤيد « الديمقراطية » ، وتتردد فيه أنفاس أمة جديدة بعثت تحت ظلال الحرية .

ووازنت بين واجبى نحو يوغسلافيا القديمة والجديدة ، فآثرت جمهورية يوغسلافيا المتحدة الديمقراطية على ملكية الملك بطرس ، وآثرت تيتو على ميخائيلوفتش ، واستقلت من منصبى . وجعلت قلمى مناصراً لتيتو فى الصحف الأمريكية التى تشد أزر الأحرار .

وكتبت فى مجلة نيشن مقالا جاء فيه : « لقد نهضت يوغسلافيا الجديدة : اتحاد قائم على المساواة السياسية والدينية والاجتماعية . وأنا وإن كنت من صغار المجاهدين إلا أنى أشعر بأنى إنما أؤيد أشياع تيتو ، لأن آمال بلادى معقودة بعملهم » .

ولم أطق عندئذ أن أبقى فى المنفى طويلا ، فأبحرت فى نوفمبر سنة ١٩٤٤ من نيويورك ، وجاءت زوجتى بأولادنا ليودعونى على الرصيف ، فوجدتها شديدة الغبطة ، وكانت مُنانا أن تلحق بى قريباً فى يوغسلافيا موطن الأحرار من الرجال والنساء .

« لماذا عدت ؟ »

فلما بلغت بلغراد رأيت حولى كل دلائل التحرير — على أيدى الروس . فهذه مهامز الروس العسكرية تصلصل فى كل الشوارع ، وصور ستالين تطل من كل النوافذ . ولم أحفل كثيراً يوم سرق الجنود الروس ساعتى من غرفتى فى الفندق ، فقد ألف الناس فى بلغراد أن يأمرهم الجنود الروس : « هات ساعتك » ، فالساعات فى نظر هؤلاء المحرِّرين شىء جديد لا قبل لهم بمقاومة إغرائه ، بيد أنهم كانوا محرِّرين ، وكانوا إخواناً سلافيين .

وكان الشبان فى أسمال بالية يرقصون فى ميدان عام رقصة « الكولو » الصربية القديمة ، لكن الكلام الذى كانوا يغنونه أثناء الرقص كان جديداً :

« تيتو أيها الرفيق إذا ذهبت إلى روسيا فردِّد شكرنا للجيش الأحمر ، وبلغ ستالين أن شبابنا الصربى فى طاعته » .

لم أحفل بكلام كثير من معارفى القدماء فى بلغراد وكأنه ينم عن الأسى العميق ، كانوا يقولون لى : « لماذا عدت إلى هذا الجحيم ؟ »

كان هؤلاء المعارف من الطبقة الصربية الحاكمة التى حكمت يوغسلافيا بين الحربين العالميتين ، وهاهم الآن يسيرون فى ثياب رثة وفى عيونهم الجزع ، فرثيت لهم ، لكنى تذكرت ما كان لهم من شأن فى فى مساوئ الماضى ، وصرفت نفسى إلى التفكير فى المستقبل الحر الصالح .

وقد أوجست خيفة على حرية ذلك المستقبل حين تبينت أن تقلدى رياسة القسم الخاص بالصحافة الأجنبية فى وزارة الاستعلامات ، يقتضى أن يتحروا عن سيرتى . ولن تجد اليوم يوغسلافيًّا قد سلم من ذلك التقرير السرى الذى تسجل فيه حركاته السياسية وأعماله الخاصة ، فهو يرسل فى أثره من مكان إلى مكان ، ويقرر نوع المعاملة التى يلقاها من ولاة الأمور أنىّ ذهب . فإذا كان التقرير غير مرض حيل بينه وبين كل عمل فى الحكومة ، وإذا منعت عن العمل فى الحكومة ، فقلما تجد عملا تعمله . وقد أعدّ التقرير الخاص بى سفيتا نيدلكوفتش رئيس المستخدمين فى وزارة الاستعلامات وعضو الحزب الشيوعى .

وقد أجفلت ساعة قال لى نيدلكوفتش إن فى سيرتى نكتة سوداء هى تأليف كتاب « عذاب أوربة » الذى نشر فى بلغراد سنة ١٩٤٠ .

كان الكتاب ضد الفاشيين ، وقد صادره الألمان المحتلون . ففيم اعتراض نيدلكوفتش الشيوعى ؟

ولكن سرعان ما عرفت السبب . فقد كان الكتاب ضد الفاشيين ، بيد أنه لم يكن مع الشيوعيين ، بل كان يناصر الديمقراطية . وقد أنذرنى نيدلكوفتش بأنه سيراقب سيرتى فى المستقبل .

وهكذا أدركت أنه لا بدّ لغير الشيوعيين من أعضاء الحكومة المنتمية إلى الجبهة الشعبية من أن ينالوا رضى الشيوعيين، فغير الشيوعيين هم « المظهر » والشيوعيون هم المدبرون فى الخفاء وأصحاب السلطان .

وحين اقترحت ضم طائفة مختلفة من الأدباء غير الشيوعيين إلى قسم الصحافة رُفض اقتراحى وقيل لى : « إنهم رجال كُتب عليهم الموت ، ونحن فى حاجة إلى رجال جُدُد . ولن تلبث حتى ترى الرجال الجدد قد حلوا محلهم » .

« رجال كُتب عليهم الموت ! » عبارة ظلت جاثمة على صدرى كالكابوس .

وجعلوا يقذفون بالرجال الجدد إلى إدارتى .

وكان أحدهم يدعى ڤكسان أرسل إلى من البوليس السياسى السرى رأساً ، وقدّ كلف أن يتولى أمر الصحفيين الأجانب مع

أنه لايعرف لغة أجنبية واحدة . فبدأ ينشىء إضبارة سرية لكل مكاتب أجنبي في بلغراد . ولم أشأ أن أكون مجرد تمثال ، فحادثت رئيسي وزير الاستعلامات ساڤا كوزانوفتش سفير يوغسلافيا في وشنطن الآن ، ولم يكن شيوعيًّا ، بل كان السكرتير العام للحزب الديمقراطي المستقل . وكان هو أيضاً رجلا يحيط به « رجال جُدُد » ، وكان عاجزاً كل العجز عن مدّ يد المساعدة إليّ .

أما المدير الحقيقي لوزارة الاستعلامات فكان « مساعده » ڤيلكو كوراخ ، وهو شيوعي .

وأدركت أن هذه حال كل عضو غير شيوعي في جبهة تيتو الشعبية المزيفة ، حتى إيفان سوبازيتش وزير الخارجية .

وسوبازيتش من زعماء أكبر حركة ديمقراطية في يوغسلافيا ، وهي حزب الفلاحين الكرواتي . فهو الذي أمضى اتفاق تيتو سوبازيتش للجمع بين العناصر اليوغسلافية المناهضة للفاشية في ائتلاف ديمقراطي . وكانت بريطانيا هي التي حضته على هذا الاتفاق ، واشتركت معها الولايات المتحدة في ذلك إلى حد ما .

فالآن عرفت أن سوبازيتش لم يكن هو الذي يدير وزارة الخارجية بل إدوار كاردلج الشيوعي .

وظل عجبي ، أنا المغفل ، لا ينقضي حتى تمّ لي أعجب اكتشاف — عن تيتو نفسه : فتيتو يحمل لقب رئيس الوزراء ووزير الدفاع ولقب المارشال ، وهو أيضاً عضو في مكتب السبعة التابع للحزب الشيوعي اليوغسلافي ، ويظنونه في الخارج صاحب الأمر والنهي في يوغسلافيا ، ولكنه في الواقع لا يحكم ، بل هو « مظهر » وحسب .

ديمقراطية تيتو

لقد هالني أن أرى تيتو يسكن القصر الأبيض الذي كان مقراً للأمير بول فيما سلف . وكان الشيوعيون قد وعدوا بأن يخصوا أطفال العمال والفلاحين بالقصور الملكية ، فالآن أرى تيتو يحتل أفخم هذه القصور جميعاً . وقد آلمني أن أراه يدلني على الصور القديمة البديعة المعلقة على حيطان القصر ، كأنها تشهد بذوقه الفني الرفيع ، وكان يحاول أن يخفي فعلته بابتسامة مشرقة .

وتيتو يستطيع أن يبتسم ، ويستطيع أن يمثل : يلبس بجورنج ، ويقلد حركات موسوليني ، ويحاول أن يتكلم كستالين ، وهو يبتسم تلك الابتسامة ، وهي ابتسامة ملؤها الثقة والقوة ، بل العنف أيضاً .

والشيوعية كالفاشية في حاجة إلى رمز حيّ . فتيتو يستطيع أن يظل خمس ساعات

واقفاً على منصّة العرض يبتسم ويمر به ألوف العمال والموظفين ، وتلاميذ المدارس يهتفون : « تيتو لنا ونحن لتيتو ! فليعش تيتو ! يعيش ! يعيش ! » إنها نزعة مادية جامعة ترفع واحداً من البشر إلى مرتبة التقديس المطلق .

وكلمات تيتو عندهم وَحْى يُوحَى ، وإنها لكذلك . فكل كلمة ينطق بها تيتو فى خطبه العامة يكتبها له عضوان آخران من المكتب السياسى التابع للحزب الشيوعى : يكتبها زوييفتش تسيرنى وزير المالية ، وميلوڤان ديلاس من أهالى الجبل الأسود وصديق ستالين .

والشيوعية هى حكم طبقة الموظفين . وعقل الطبقة الحاكمة اليوغسلافية بل عقل يوغسلافيا نفسها ، هو إدوارد كاردلج . وهو سلوڤينى قصير ، بدين ، أنيق ، عليه سيمياء العلماء . وكان يزاول التدريس . وهو من علماء المنطق والجدل ، درس منطق الشيوعية فى موسكو ، وهو الآن يتقلد منصب نائب رئيس الوزراء ، والرئيس الأعلى لرؤساء المستخدمين فى جميع مصالح الحكومة . وثمانية وعشرين من هؤلاء الرؤساء يجتمعون به كل أسبوع للبحث فى موقف موظفى الحكومة من الناحيتين الشخصية والسياسية ، حيال نظريات الحزب الشيوعى وخططه . وقد مثل كاردلج يوغسلافيا فى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة وفى مؤتمر الصلح بباريس ، وبواسطته يسيطر صوت موسكو فى هيئة الأمم المتحدة على صوت بلغراد .

تُسمَّى قوة البوليس السرى السياسى اليوغسلافى «أوزنا» ، ومعناها مصلحة الدفاع عن الشعب . وقد نظمها روس توفروا على التجسس و«التصفية» ، ورئيسها الفريق ألكسندر رانكوفتش ، وفى وسعه أن يقبض بلا أمر من النيابة على كل مواطن يعد « عدواً للشعب » ، وأن يعدمه بلا محاكمة .

وهيئة « أوزنا » مؤلفة من أقسام : قسم لمراقبة المدنيين ، وآخر لمراقبة الجيش ، وثالث لمراقبة اليوغسلافيين الذين يقيمون فى الخارج ، ورابع لمراقبة الأجانب المقيمين فى يوغسلافيا ، وآخرها قسم خاصّ لمراقبة الحكومة نفسها — أى لمراقبة جميع موظفى الحكومة ، ومنهم الشيوعيون . والحزب الشيوعى نفسه يتولى التجسس على نفسه ، فهو كالبصلة مؤلف من طبقات . وعليك أن تنزع عنه طبقاته طبقة طبقة قبل أن تصل إلى قلبه الذى قوامه شبكة من الجواسيس .

وتستخدم أوزنا ١٠٠,٠٠٠ جاسوس لمراقبة قطر تعداده أربعة عشر مليوناً .

ولأوزنا أن تنتفع بخدمة الحرس المختار الذى يشبه هيئة حرس هتلر الخاص، وهى تضم ١٥٠,٠٠٠ عضو يرتدون اللباس العسكرى، فهى خير قوة عسكرية فى البلاد، ولها من المأكل والملبس والسلاح أحسنه.

ولم تجر فى يوغسلافيا فى العام الماضى انتخابات حرة، وإن كان تشرشل وستالين وروزفلت قد تعهدوا عن دولهم فى مؤتمر يالتا بأن تجرى انتخابات حرة فى جميع البلدان الأوربية التى تحررت من الألمان.

فقبل أن تجرى الانتخابات أصدرت محاكم « قضائية » استبدادية، تسمى محاكم الشعب، أحكاماً معجلة على ألوف من الذين يعدّون « أعداء الشعب »، فحرموا حق الانتخاب لا لشىء سوى أنهم غير شيوعيين. وقد نقص زعماء العناصر الديمقراطية الصحيحة فى يوغسلافيا نقصاً مطرداً بإلقاء القبض عليهم، ثم يعتقلون أو يختفون، وذلك أشد هولا من الاعتقال.

أسئلة وأجوبة

وقد قبض على أوغست كوزوتتش وكيل حزب الفلاحين الكرواتى واختفى عن الأنظار، فطلب سوبازيتش وزير الخارجية والممثل الأول لحزب الفلاحين الكرواتى فى الجبهة الشعبية، أن يؤذن له بزيارة كوزوتتش فرفض طلبه. وشهد الدكتور بازيزا سموليان اجتماعاً لحزب الفلاحين وجه فيه اللوم إلى سوبازيتش لعجزه عن إطلاق سراح كوزوتتش، فلم يكد هذا الاجتماع ينتهى حتى ألقى القبض على سموليان نفسه، وهو من كبار الأعضاء، كما ألقى القبض على غيره من مندوبى حزب الفلاحين الكرواتى.

فلما أصبح من المستطاع استئصال زعماء الأحزاب السياسية المهمة على هذا النحو، صار من أيسر الأمور استئصال أوساط الفلاحين جماعات جماعات. وقد يعقد موظفون من الشيوعيين اجتماعات سابقة للانتخابات فى قرى كرواتيا الصغيرة، فيتكلم فلاح متهوّر فيقول:

« ياحضرة القومسير، هل تأذن لى بسؤال؟ »

« بلا ريب ».

« ألا ترمينى فى السجن؟ »

« كلا. فقد حُرّرت، وأنت الآن حر ».

« حسن إذن. فأين رئيس حزبنا الدكتور ماتشيك؟ فإنا لنحب أن نسترشد برأيه ».

« إن ماتشيك رجل رجعى، فاشى، خائن. وهو الآن غير مقيم فى هذه البلاد ».

وماتشيك رئيس أصدق حركة ديمقراطية فى كرواتيا، فرّ إلى باريس حيث فرض

عليه النفى فرضاً . وقد سأل عنه مئات من الفلاحين فلم يلبثوا أن افتقدتهم قراهم .

ويضاف إلى غير الشيوعيين ممن سجنوا أو فقدوا ، أولئك الذين قتلوا قتـلا . فقد روى المونسنيور ألوس ستيبينتس ، كبير أساقفة زغرب وأكبر الكاثوليك مقاماً فى يوغسلافيا، أن ١٦٩ من قساوسته سجنوا، و٨٩ فقدوا ، و٢٤٣ قتلهم أشياع تيتو .

وكان فى زغرب طبيب مشهور يشتغل أيضاً بالطب النفسى يدعى الدكتور غوبرو ڤرانيستش ، وكان وطنياً كرواتياً ولكنه أبى أن يتعاون مع هيئة «أوستاشى» الفاشية الكرواتية المسلحة، بل لقد أنقذ كثيرين من الكروات والصرب وغيرهم من القتل بأيدى تلك الهيئة . وكان ممن أنقذهم ميروسلاف كارليزا أعظم شـارح كرواتى لفلسفـة كارل ماركس . فما عاد الدكتور ڤرانيستش إلى زغرب حتى قبض عليه أشياع تيتو وحاكموه ثلاث مرات، وحكموا عليه فى المرة الثالثـة ، فاستأنف كارليزا الكاتب الماركسى الحكم إلى تيتو تلميذ كارل ماركس، بالنيابة عن الدكتور ڤرانيستش .

بيد أن تيتو لم يستطع مع أشياعه شيئاً ، ولم يكن ڤرانيستش فاشياً ، ولكنه لم يكن شيوعياً ، فأعدم .

وفى زغرب وما يجاورها ألقى أشياع تيتو القبض على ٧٠٠٠٠ من الأهالى، كان أكثرهم قد عاون أشياع تيتو معاونة صادقة . وجندت جنود تيتو شباب شومادیجا ، أشهر الأقاليم الصربية تاريخاً ، وقذفوا بهؤلاء الفتيان ، وهم عزل أو يكادون ، وراء الدانوب فى وجه الجيش الألمانى الذى لم يكن قد تشتت بعد ، فسقط منهم ستون ألفاً أمام الدبابات الألمانية . فبدأت أفهم لماذا قيل : « إنهم رجال كتب عليهم الموت » .

وفى بعض نواحى أقاليم يوغسلافيا الغربية ، عمد بعض معاونى ميخائيلوفتش إلى مساومة الإيطاليين ليظفروا منهم بعتاد عسكرى انتفعوا به فى محاربة أشياع تيتو ، لكن ميخائيلوفتش كان فى صربيا الأصلية رمز الضمير القومى فى الشعب الصربى . وهذا يفسر لماذا أحس تيتو أن لا بد له من أن يلوث سمعته بمحاكمته فى بلغراد .

وقد رحلت رحلة فى الريف قطعت فيها ٣٠٠٠ ميل ، فلم أر بشراً حياً ، بل أطيافاً من الرجال والنساء يجاهـدون فى حراثة الأرض بجلد عجيب . وسألتنى سيدة عجوز فى سبليت مسقط رأسى : « لماذا جئت إلى هـذه الأرض التى لا يسعد فيها سـوى الأموات ؟ » .

كان البـؤس مخيماً على القرى والريف بتمامه ، وقد قال لى فلاح : « لقـد أتى

الشيوعيون وحررونا ، وأخذوا مناستين فتى لم نرهم منذ ذلك الحين قط . وقد كان من عادتنا الرقص ، فلم يعد بيننا من يرقص. إننا نلبس جميعاً ملابس الحداد ، نعمل ونجلس في بيوتنا . وهذه هي الحرية التي جلبوها إلينا » .

يعترف الشيوعيون أنفسهم بأنهم منذ « التحرير » تخلصوا من ٥٠٠ ألف يوغسلافي بالاعتقال أو الغيبة أو الموت . وأرى جلياً أن غرضهم إنما هو « تصفية » الطبقة اليوغسلافية الوسطى على بكرة أبيها من زراع وتجار وأصحاب صناعات من غير الشيوعيين ، « ولن تلبث حتى ترى الرجال الجدد قد حلوا محلهم »

وقد جرت الانتخابات في نوفمبر الماضي وسط هذا الفزع ، فلم يكن فيها سوى قائمة واحدة من المرشحين كلهم من الجبهة الشعبية، وكلهم ممن اختارهم الحزب الشيوعي أو أقر ترشيحهم . وكان من الضروري للتصويت ضد مرشح أن تصوت ضد قائمة المرشحين كلها . وقد فاز الذين وافقوا على هذه القائمة فوزاً مبيناً بعد أشهر من تطهير المعارضين وإرهابهم .

لقد أثرت هذه الانتخابات في بعض « المغفلين النافعين » في العالم الديمقراطي ، ويستطيع هؤلاء أن يلموا بحقيقتها من الجنرال رانكوفتش ، فقد خطب الجمعية الوطنية اليوغسلافية المنتخبة في ٢٤ مارس من هذا العام فقال : « إن أولئك الذين يعارضون سياسة النظام الحاضر ، لا يمكن أن يتولوا السلطة عن طريق الانتخابات الحرة ، ولا يمكن أن يشتركوا في الحكم ، بل لا يمكن أن تقوم لهم قائمة ، أو أن يكونوا معارضة يؤذن لها بالمعارضة »

عالمان

قال لي كاردلج حين بدأت عملي بوزارة الاستعلامات : « إن بيننا وبين أمريكا هوة لا سبيل إلى اجتيازها ، فنحن عالمان لا يمكن أن يتحدا ، ومعنا نحن قوة الجماهير . فحين ننتصر على العالم الأمريكي يصبح العالم عالماً واحداً » .

ثم اطلعت بعد ذلك على التعليمات السرية التي أصدرها كاردلج إلى زعماء الحزب الشيوعي اليوغسلافي . وقد قال في هذه التعليمات :

« لقد تساهلنا مع عالم الرأسماليين في بعض الأمور لنكسب الوقت ، لكن حين تدق الساعة يجب أن نكون متأهبين للتحول إلى الهجوم . إن ثورة الطبقات العاملة ماضية في طريقها ، وهي متصلة بالاتحاد

السوفيتي باتفاقات تنص على المساعدة المتبادلة في السياسة والاقتصاد . وهي كما قال ستالين تؤلف بين الجهات الكثيرة التي تختمر فيها الثورة : في بولنـــدة ورومانيا وبلغاريا وإيطاليا ، وتجمعها في نظام واحد ، وسيهجم هـذا النظام الثوري على النظام الرأسمالي ويلقاه وجهاً لوجه » .

وأنت تراهم يعربون اليـوم عن هذا الشعور إعراباً صريحاً في خطب علنية عامة ، فقد وقف القائمقام برانكو بيروفتش ، القومسير السياسي الشيوعي للفرقة الرابعة من الحرس المختار ، وخطب جنوده في ١٧ فبراير من هذه السنة فقال :

« إن البريطانيين والأمريكيين هم رأس الرجعية الدولية المنافقة ، وهم يهددون سلام العالم ، فلا يسعنا أن نعتمد إلا على اتحاد السوفيت وحده ، فهو الدولة الوحيدة التي تسودها المثل الديمقراطية العليا . وقد كنا إلى اليوم مضطرين أن نقول : مع إنجلترا والولايات المتحدة من أجل صون السلام ، أما الآن فنستطيـع أن نقول للناس : حاربوا إنجلترا والولايات المتحـدة وسائر القوى الرأسمالية في العالم » .

فغرض الشيوعيين في يوغسلافيا هو أن يلقوا بها في أتون الحرب الأهلية ، ثم في حرب دوليـة بين الطبقات تكون حرب إبادة . وهذا غرض لا يمكن أن يقره زعماء الأحزاب الديمقراطية المخلصـة في حكومة الجبهة الشـعبية اليوغسلافية ، فأخذوا يتسللون منها واحداً بعد الآخر .

لقد أعلن ميلان جرول ، نائب رئيس مجلس الوزراء وزعيم الحزب الديمقراطي الصربي في العام الماضي ، أن الغرض من التحرير لم يكن توطيد الشيوعية بل التوسع في إفهام الناس معنى الديمقراطية ، فكان ذلك سبباً للحملة عليه واتهامه بأنه صنيعة الرجعية ، فرد على ذلك بقوله إن الشيوعيين هم الذين يؤلفون بين الديمقراطيين والرجعيين باستبدادهم وبطشهم . وقد ناشد الشيوعيين أن يحلوا الحرية السياسية محل البطش ، فذهبت مناشدته عبثاً ، فاستقال في شهر أغسطس من العام الماضي ، واعتزل في بيته في بلغراد ، ووقف بباب داره رجل من رجال تيتو مسلحاً ببندقية سريعة .

ورأى وزير الخارجية سوبازيتش كيف بلغ فساد الديمقراطية في يوغسلافيا ، فقرر أن يشاور الدكتور فلاتكو ماتشيك زعيم حزب الفلاحين الكرواتي الذي هو حزبه ، وكان الدكتور في منفاه في باريس . وذهب سوبازيتش لمقابلة تيتو ، فقال له تيتو إنه لا يجد مانعاً يمنعه من السفر ، ولكن يجب عليه أولا أن يخاطب في ذلك كاردلج

رئيس المستخدمين . وفى اليوم التالى أخبر كاردلج سوبازيتش أنه كلف أن يطلب إلى السفارة البريطانية إعداد طائرة لتقله إلى باريس ، وكان الجو رديئاً فى الأيام الثلاثة التالية .

وأصيب سوبازيتش فى تلك الأثناء ببرد ، فطلبته السفارة السوفيتية بالتلفون وأبدت له عظيم قلقها على صحته ، وأنها ستبعث إليه بطبيب روسى ممتاز هو الأستاذ ف . أوجنييف .

ووصل الأستاذ ومعه طبيبان يوغسلافيان ، فحصوا سوبازيتش وأعلنوا رأيهم : وهو أن سوبازيتش مصاب بنزف فى المخ ، فيجب أن يلازم فراشه ويستريح راحة تامة ، ولايقابل زواراً . وما هو إلا أن أحاط بالبيت أربعون رجلا مسلحاً من حرس تيتو الخاص ، فظن سوبازيتش أن تيتو آت لزيارته . بيد أن تيتو لم يحضر ، ولا انصرف الحرس المسلح .

وسمع السفير البريطانى بهذا الحصار فجاء يعود سوبازيتش فحال الحرس بينه وبين دخول البيت . وكان سوبازيتش إذ ذاك أسير حكومة هو وزير خارجيتها ، فلم يستطع شيئاً حتى أن يرى سفير الحكومة البريطانية التى اضطرته إلى عقد اتفاق تيتو — سوبازيتش ، وحملته على تقلد منصب وزير الخارجية . وأحست حكومة الجبهة الشعبية اليوغسلافية بأنها صارت قادرة على أن تتحدى بريطانيا ، وأن تنبذ سوبازيتش فكلاهما كان غراً سليم الطوية .

واستقال سوبازيتش عندئذ ، وحذا حذوه الدكتور ج . شوتى صديقه السياسى ، وأذن لسوبازيتش بأن يقيم فى زغرب ، رجلاً من عامة الناس لايشتغل بالسياسة ، تراقبه الأوزنا مراقبة دقيقة .

« إنك لاتؤمن بالمثل الأعلى »

أما أنا فقد أخذ القلق يساورنى ، بعد أن تبين لى كيف ينتفع بى الشيوعيون : وقد كان لى من يقرأنى بين جمهور القراء اليوغسلافيين ، فإذا كتبت مقالا فى مجلة يوغسلافية أعطيت إلى صغار المتعلمين الذين اعتقلهم الشيوعيون ليقرأوها ، وقال لهم القومسير الشيوعى الموكل بالمعتقل :

« انظروا ! ها هو ذا رادتسا الذى ليس شيوعياً ، موظف فى الحكومة ، ومن معتنقى ديمقراطية تيتو . فلماذا لا تعتنقونها أنتم أيضاً ؟ » .

وقد ألحق شابان شيوعيان بإدارتى فتوليا شئون المراسلين الأجانب فى بلغراد ، مؤيدين من نيدلكوفتش رئيس المستخدمين فى وزارة الاستعلامات . وقد كان المقرر

أن أكون أنا رئيساً لقسم الصحافة الأجنبية، لكنه كان مقرراً أيضاً أن لا أتصل بالصحافة الأجنبية .

لقد خيل إليّ أن يوغسلافيا بأسرها قد جُنّت بما أصاب الشيوعيين من مس وما يتملكهم من حنق . فقد اختير شبان من الشيوعيين في دلماسيا لكي تتم عليهم شيوعيتهم بأن يرموا السجناء الفاشيين بالرصاص، وكان هؤلاء السجناء من أترابهم ورفاقهم . وفي الجبل الأسود حين قبض على بعض أنصار ميخائيلوفتش دُرّب أولادهم الذين كانوا من أشياع تيتو على صدق العزيمة الشيوعية ، ثم امتحنوا بتكليفهم بإطلاق الرصاص على آبائهم .

وقد أدركت أن أي يد أستطيع أن أسديها لبلادي ، لا يمكنني أن أسديها داخل حدودها . ولم يكن في وسعي أن أخفي شقائي وورعي ، فاتهمت بأني صنيعة الأمريكيين ، وجعل جواسيس الأوزنا يتعقبونني .

وقد قررت أن أستقيل وأهاجر، ولكن جاءني موظف وقال لي : « إن كاردلج يمنعك من مغادرة البلاد » .

فاقترحت عندئذ أن أستقيل على أن أبقى في البلاد في إقليم دلماسيا الذي هو موطني . وتحدثت في ذلك مع ڤيلكو كوراخ الرئيس الحقيقي لوزارة الاستعلامات فقال :

« إذا لم يرقك عملك هذا فالتحق بفرقة عمال نعيد بناء قرية مدمرة ، أو التحق بالجيش . أما أن تستقيل فشيء لا تملكه ، وليس لمخلوق في هذه البلاد أن يستقيل بغير إذن » .

فقلت لنفسي : إذن لا بد من الهرب . ولا بد من الاهتداء إلى شخص ينيلني جوازاً دون أن يشعر أحد .

وكنت أعرف أن هذا الشخص لن يكون كوراخ ، فكوراخ كان يريد أن يستبقيني في يوغسلافيا ، وكان يحثني على على الالتحاق بالحزب الشيوعي فقلت له :

« لا أستطيع ، فالحزب يتطلب شخصاً يكفر بالإنسانية — بل بالأسرة وبالله » .

فامتقع لون كوراخ ، وبدا منه الجفاء ، وصار لا يناديني بالرفيق رادتسا بل بالسيد رادتسا .

قال : « يا سيد رادتسا ، إنك رجل لا تؤمن بالمثل الأعلى » .

قلت : « بلى إني لأومن بالمثل الأعلى ، إني أومن بالجماعة الإنسانية » .

قال : « يا سيد رادتسا ، إنك لا تؤمن بمثل أعلى ، إنك لا تستطيع أن تقتل أحداً في سبيل مثل أعلى » .

قلت : « كلا لا أستطيع . لقد رأيت

فاشيين يقتلون، ورأيتكم أنتم أيها الشيوعيون تقتلون . ورأيت من البغض ما كفانى ، والذى تحتاج إليه بلادنا الآن هو الحب » .

فنظر إلى كوراخ نظرة جامدة وقال :

« هذا يا سيد رادتسا ما يراه أهل الطبقة الوسطى (بورجوازى) وما يفهمه الرأسماليون » .

وعجلت أبحث عن جواز ، وكنت قادراً على أن أقول صدقاً إنه لا بد لى من أن أذهب إلى إيطاليا لتسوية بعض شئون أسرتى الملحة . فتقدمت إلى موظف شيوعى وكان من المثقفين ومن ذوى الشعور الرقيق ، ويخطىء من يظن أنك لا تجد أمثال هؤلاء بين الشيوعيين ، فإن بينهم من هذه صفته . وقد أنالنى هذا الرجل جوازاً يخولنى السفر فى طائرة بريطانية إلى ميناء بارى الإيطالى .

وإذا ما كررتُ البصر إلى ما سلف من تجاربى ، بدت لى بعض الحقائق جلية لا ريب فيها .

الأولى : أن المشروع الروسى البعيد المدى فيما يتعلق بيوغسلافيا هو توحيد شعوبها الستة مع بلغاريا وألبانيا فى اتحاد بلقانى يُضَمّ إلى اتحاد السوفييت فيكون جمهورية من جمهوريته ، ويومئذ يمتدّ الاتحاد السوفيتى من البحر الأسود إلى البحر الأدرياتيكى ، وعن طريق ألبانيا إلى البحر الأبيض المتوسط . ولم يسبق أن بلغت روسيا ، ولا فى عهد القياصرة ، مبلغاً من القوة يدفعها إلى التفكير فى مثل هذا التوسع العظيم نحو الغرب .

الثانيـة : أن من العقبات التى تعترض هـذا المشروع هو ما طرأ من بغض يوغسلافيا الفجائى للروس . فقد ظل اليوغسلافيون مئات السنين منذ الحكم التركى يتطلعون إلى روسيا ويعدونها منقذة لهم ، فما هو إلا شهران من الاحتلال الروسى حتى تبدّد هذا الحلم . وليس هؤلاء الروسيون الشيوعيون شعباً متفوقاً ، فهم دون الشعب اليوغسلافى تعلما وثقافة ، وأحط منه فى مستوى المعيشة . وهم لم يأتوا إلى يوغسلافيا بجديد ، سوى ما درّبهم عليه الشيوعيون من القوة الغاشمة والقسوة المنظمة .

الثالثة : أن الشيوعيين اليوغسلافيين الذين صاروا العنصر الحاكم بفضل الجنود الروس قليلون شيئاً ما ، ولو جرت انتخابات حرة حقاً لما بلغوا عشرة فى المئة من مجموع الأصوات . وكثير من اليوغسلافيين يتبينون الآن بجلاء ما بين الشيوعية والفاشية الألمانية من آصرة . ويتندّر المتندّرون إذا خلوا إلى أنفسهم فى بلغراد فيطلقون على تيتو تتلر على وزن هتلر .

الرابعة : أن أكبر مصدر لمقاومة نظام تيتو فى يوغسلافيا هو الدين ، ومن ثم كانت الحرب التى تشنها حكومته على الكنيسة .

كنت ذات ليلة أحادث الدكتور ليوبو ليونتش فى بلغراد ، وقد كان فى طليعة الفاشيين فى يوغسلافيا ، ولكن الشيوعيين لا يرونها جريمة أن كنت يوما ما فاشياً ، على شريطة أن تحالفهم بعد ذلك . وقد انضم إليهم الدكتور ليونتش ، وهو الآن سفير يوغسلافيا فى لندن . وقد كنا نتحادث عن المونسنيور أنتى بونيفاشيش كبير أساقفة سبليت . وكان بونيفاشيش قد ندد فى رسائله إلى رعيته أثناء الحرب بهيئة الأوستاشى الفاشية وبهيئة المتشيعين للشيوعية ، لما ارتكبوا من مذابح فى دلماسيا . وكان هو نفسه قد أنقذ الكثيرين من أشياع تيتو من بطش العصابات الفاشية الدلماسية والإيطالية ، ثم قبضت عليه الأوزنا أخيراً .

فقال لى الدكتور ليونتش : « لا مفرّ من إعدامه » .

قلت : « لماذا ؟ وماذا جنى ؟ »

قال : « ليس ما فعلهُ بالشىء المهم ، ولكن لا بد من إعدامه لكى تظهر الحكومة اليوغسلافية الجديدة أنها لا تخشى الكنيسة » .

والواقع أن اليوغسلافيين ينتمون إما إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإما إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية . والدين فى الشرق الصربى أو الغرب الكرواتى والسلوفينى ، هو أصلب ما يقف فى وجه السيطرة الشيوعية .

المغفلون النافعون

ليس لى ولا لأى يوغوسلافى آخر أن ينصح للديمقراطيات الغربية بما ينبغى أن تكون عليه سياساتهم الدولية ، ومع ذلك فإنى أحب أن أشير إلى العبرة الأولى التى يستطيع جميع المؤمنين بالديمقراطية أن يستخرجوها مما يحدث فى يوغسلافيا .

وهذه العبرة هى التفطن إلى الأذى الناجم من اللغة التى يستخدمها الشيوعيون وصنائعهم فى كل مكان ، يريدون بها الخديعة حين يسعون إلى استدراج مواطنيهم إلى معاونتهم اقتصادياً وسياسياً . فمأساة يوغوسلافيا بحذافيرها يمكن تتبعها وإرجاع أصلها إلى هذه الخديعة .

لقد وعد الشيوعيون يوغسلافيا بأن ينشئوا اتحاداً يضم ستة شعوب متساوية الحقوق ، تتكون منها ست « جمهوريات » منفصلة تحكم نفسها بنفسها ، فأعطوا يوغسلافيا حكومة عاتية مركّزة فى بلغراد .

فحين قال الشيوعيون « اتحاد » كانوا يعنون حكومة مركزية مطلقة .

ووعد الشيوعيون يوغسلافيا بالحرية السياسية لجميع الأحزاب المعادية للفاشية ، فأوجدوا في يوغسلافيا حرية سياسية للحزب الشيوعي وحده . والحرية السياسية التي ينالها الشيوعيون معناها تسلطهم السياسي التام .

ووعد الشيوعيون يوغسلافيا بحرية الملكية الخاصة فجعلوا ٧٥ في المئة من الصناعة والتجارة ملكا للدولة ، تتولى هي إدارتها .

ووعد الشيوعيون يوغسلافيا بأنه لن يكون فيها طبقة حاكمة . واليوم يذهب أطيب المآكل وأحسن الملابس وخير الدور والمنازل للموظفين الشيوعيين الجدد ، بل إن ثمة جملة تطلق على الشعب في مجموعه تحقيراً له هي « سيفا ماسا » أي « الجماهير العاجزة » .

وقد وعد الشيوعيون يوغسلافيا بالسلم ، فأنشأوا فيها جيشاً مؤلفاً من ٥٠٠٠٠٠ ألف رجل ، وملأوا قلوب هذا الجيش بدعاية لا تنقطع ، ليعدوه لحروب دولية جديدة أفظع مما عهد حتى الآن ، وأشد نكالاً .

وأحب الألفاظ إلى الشيوعيين حين يريدون التغرير بالناس ليحملوهم على أن يعاونوهم معاونة مؤقتة ثم يغدرون بهم في النهاية ، هي ألفاظ « السلام » و « الديمقراطية » .

ويوغسلافيا هي الدليل القاطع على أن الشيوعيين حين يقولون : « ديمقراطية » يعنون تسلطاً جديداً ، وحين يقولون « سلام » يقصدون أن يزداد التذبيح في الأمم وبين الأمم .

إن لي في غرب أوربة وفي أمريكا أصدقاء أحبهم ، وهم يشاطرون العالم أمله في عزة الديمقراطية وبلوغها الكمال . وهم في هذا على حق ، لكني أحب أن أقول لهم :

« تبصروا لتعرفوا من الذين يشاركونكم في أداء هذه المهمة العظيمة . احذروا أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون معانيه . واحذروا أولئك الذين يكذبون في بيان معتقداتهم ليصلوا إلى أغراضهم . واحذروا أولئك الذين لا تختلف ألفاظهم عن ألفاظكم ، ولكن لا همّ لهم حيثما تولوا السلطة إلا دماركم . لا تكونوا « كورستني بودال » — لا تكونوا مغفلين نافعين » .

[ينحدر مؤلف هذا الكتاب ، الذي ظلّ سنين كثيرة من كبار رجال الحكومة اليوغسلافية ، من أسرة كرواتية عريقة . وقد تزوّج نينا فريرو كريمة جوليلمو فريرو المؤرخ الإيطالي الذائع الصيت ، وهو يشتغل الآن بالصحافة في نيويورك]

باب الكتب

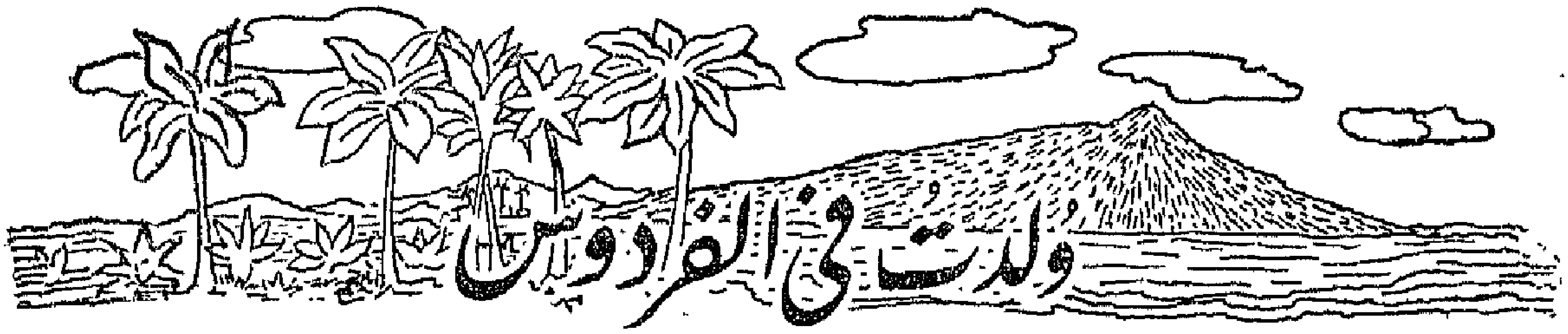
ولدتُ فى الفردوس



ملخص كتاب بقلم

أرمين فون تمبسكى

إن المغامرة الرائعة لنشأة الإنسان فى مزرعة عظيمة ومرعى كبير فى هاواى ، قد زادتها روعة قدوة والد باسل علم أبناءه أن يحيوا حياة حافلة خطرة . وتقول مجلة « نيويورك تيمس » : فى كتاب « ولدتُ فى الفردوس » نرى الجزر وما تثيره من الرغبة السّمحة المائجة القوية المحبّبة للحياة ، كأنما تغنى وتشدو بلحن فاتن من فردوس ماضٍ . والمرء يضع الكتاب وهو يشعر كأن باباً قد فتح له على عالم ساحر لم يألفه » .



ولدت في الفردوس



كانت أول كلمة تعلمتها هي «ألوها» — أي «حبي لك!» — صادرة من قلب عامر ودود كريم. وتالله ما كان أروع ميراثنا نحن الأطفال الذين ولدوا في هاواي من آباء بيض! فقد كان يحف بنا مالا آخر له من الأرض، وكانت الموسيقى والأصوات المرحة لاتنفك تصافح أسماعنا، ونبض الحياة يسرى فى الماء والأرض والهواء، وأريج أزهار الزنجبيل والجوافة يفعم الجو. وكانت خيوط المطر المنهمر الفضية، ونور الشمس الباهت على الأرض والبحر، والأزهار التي تتفتح عنها أكمامها ما بين قرمزى وأزرق وبنفسجي — بل كانت الأرض التي ندب عليها تختلج فيها نبضات الحياة، من الحمم التي تغلى وتجرى فى عروقها.

وكان زملائي خليطاً: آه سن، الطباخ الصيني الذي كان له وجه كوجه المومياء، والذى كان لصيحاته دوى الطبل، فكان لهذا يبدو كالساحر. ومربيتى اليابانية التى كانت تدفىء كفها فى ثوبها دائماً قبل أن تلمسنى، والتى كان المرء يشم منها رائحة البخور والشاى المغلى الخفيف. ومكالى الراعى الشيخ — من أهل هاواى — وكان إذا ركب جواده حملنى معه على وسادة فى طوافه، فيعلمنى أساطير قومه ولغة الطبيعة الهامسة. وكان معنا أيضاً سيدات جميلات، وزراع وملوك وأمراء ومشاهير، وكان يغص بهم بيتنا في أواخر الأسابيع فيرقصون ويغنون طول السبت ليلا، ويخرجون فجر الأحد ليصيدوا الثيران الوحشية — هؤلاء هم الناس الذين أحببتهم، والذين جعلوا الأعوام والأيام حافلة بأكثر مما يتسنى وصفه.

وكانت المزرعة التى نعيش فيها، وهى ٦٠٫٠٠٠ فدان، تسمى باسم البركان العظيم الذي تنبسط فوقه، وهو هاليكالا، أى بيت الشمس، وكان على عرش هذه المملكة أبي — لويس فون تمبسكى.

وهناك أناس يبدون كأنما يسيرون فى الحياة وعليهم ضوء خفى يجلوهم للناس. وكان لويس فون تمبسكى الذى يجرى فى عروقه الدم البولندى والدم الأسكتلندى، من هؤلاء الناس. فقد كان أسلوبه في الكلام، ومظهره وسمته وهو يدخل الغرفة — كل ذلك ينطبع على لوح الذاكرة. وكانت عيناه

المرحتان اللتان يومض فيهما الاغتبـاط بالحياة ، وإشراق ابتسامته، وخفته وسرعته إذ يثب على ظهر جواد ، أو ينحنى ليلاطف كلباً — كان ذلك كله يفرده بين الناس .

لما بلغ أبى الثامنة عشرة ، بدأ يجوب العالم طالباً للمغامرة ، وانتهى على مقربة من هاواى إذ وجد فى جزيرة ماوى أرضاً أحبها حباً جماً على الفور . وسرعان ما أثبت اقتداره فى أعمال التجارة ، ثم عرضت عليه إحدى الشركات إدارة مزرعة هاليكالافقبل ، وأثبت قدرته بأن أدارها على أساس رابح . ولما تزوج إيمى وودهاوس بنت السفير البريطانى إلى بلاط هاواى ، ذهب بها إلى مزرعة هاليـكالا ليعيشا هناك . وقد علقت به فتنة هذه الأرض فصرفته عن بقية بقاع الدنيا ، فمنحها حبه وقوته ، ووهب هـذه الأرض التى وكلت إلى عنايته ، حياته أيضاً — فقد وجد جنته . وفيها ولدتُ .

وكنت دائماً أستيقظ فى البكور عندما ترفع المواشى فى مراعيها رؤوسها لتحيي النور الدائم الروعة الذى يولد من الظلام . وأظل إلى أن تقبل تاتسو، أصغى إلى صوت البن وهو يُطحن، وإلى اندفاق الماء فى حمام أبى، وإلى قرقعة السياط، وإلى حوافر الخيل المنطلقة ، وإلى نُتَف من أغانٍ يشدو بها الرجال وهم ماضون إلى عملهم فى مزرعة كبيرة . وكان أبى يخرج فى العادة قبل أن أفرغ من الفطور ، فإذا أخره شىء ازداد اليوم بهجـة بفضل مرحه وقوته وحدة فؤاده . وكان أهل هاواى ينظرون إليه نظرتهم إلى رئيس ، ولكنهم كانوا ينادونه باسمه الأول ، ويدعوه اليابانيون « المستر لويس » ، وما كان أحد منهم يسميه المستر فون تمبسكى ، فما كان يعوزه لقب يكسبه الاحترام .

وكنت كل صباح حين أدخل المطبخ مع تاتسو، أرانى أنضح اغتباطاً وبشراً . وأجعل عينى ، وأنا أتناول الخبز واللبن ، على آه سن وهو يروح ويجىء ويرفع الأغطيـة عن المواعين الفائرة وفيها اللحم المملح والديكة . وكانت مواعين أخرى أصغر منها ، فيها كل شرقيـة تفوح منها روائح مغرية ، وكان الفرن الكبير يطلق رائحة الخبز الطازج .

وكان أربعون نفراً يطعمون من المطبخ . فقبل أن يسكت ناقوس الإفطار كان الرجال يقبلون — رجال فى كعوب أحذيتهم مهامير، وعلى أرجلهم سكاكين مربوطة ، وفى قبعاتهم أزهار : رجال يملأون المكان بالكلام المدهْوَر فى الأشداق والضحكات العالية ، فيأخذون أكواماً من أطباق البيض

السميكة ويملأونها طعاماً سخناً، ويتناولون فناجين ضخمة من القهوة،ويخرجون بذلك كله إلى أرض الحديقة .

وكنت أترقب مكالى بلهفة ، وأنطلق لأقابله فيحملنى على ظهره ، ويطوق عنق بما يعده لى كل صباح ، فتصبح الساعات البهيجة التى نقضيها معاً ، حقيقة ماثلة أبداً.

وحدث ذات صباح أن عصيت أمى ، فنهتنى أن أخرج مع مكالى إلا بعد الإفطار، ولم يجدنى الصراخ والبكاء والتمرغ والرفس، وحملتنى تاتسو وأنا متهافتة منهوكة القوى إلى الفراش ، وكانت تمشى فى الغرفة فى هدوء وخفة ، فخطر لى أنها قد تنصرف إذا أنا تناومت، فأتسلل خارجةوأدرك مكالى .

وشعرت بفيض حبها لى وهى تغطينى . ولكنى لم أفتح عينى ، فلما سمعتها تخرج ارتديت ثيابى بسرعة وسرت منحنية بجانب سور الحديقة ، وذهبت أعدو فى الطريق وقد امتلأ صدرى بأرج الصباح ونسيم الحرية ، وكان مكالى يهم بامتطاء الجواد لمضى إلى المرعى الساحر الذى ترتع فيه وترعى الخيول الأصيلة ، وكانت لنظرة الدهشة والتأنيب الرقيقة التى ألقاها على، مثل وقع العصا، ولكنى ألقيت بنفسي عليه .

فقال بلغة هاواى يوبخنى : «يالك من طفلة شيطانة !»، ولكن صوته كان واشياً بالحب.

فقلت وأنا ألهث: «سأضرب على كل حال لأنى هربت ، فخذنى لأرى الأمهار » .

وكثرت الغضون التى جعّدها الابتسام عند مؤخر عينيه فعرفت أنى فزت ، وصنع لى من بعض ثيابه وسادة أجلسنى عليها ، ومضينا على مهل ، وكانت السعادة التامة تنضح منى، فاسترخيت مستندة إلى القميص الأزرق الحائل الذى يرتديه هذا الرجل الذى أحبه .

وترجلنا على ذروة تل وقعدنا على الأرض الدافئة العطرة، وشعرت بعينى مكالى الحكيم العطوف تنظران إلى ، فزايلنى ما كان فى نفسى من الغيظ والشعور بالخيبة والعجز فى الصباح ، واشتهيت فى سرى أن أجزيه على السرور الذى كنت دائماً أنعم به وأنا معه، واقترحت أن أحدثه بكل ماأشم وأرى وأسمع ، وكان ذلك نوعاً من اللهو لى ، على أنى أدركت فيما بعد أن تدريبه الدقيق لحواسى جعلنى واسعة المعرفة بالأرض وطبيعتها، وقريبة من القوى الخفية فى الطبيعة . ونظر إلى وجهى الملوث وعينى المنتفختين ثم هز رأسه فى حنان .

وقال برقة : «لافائدة اليوم يا بنيتى ، فإن الناس يخونهم ذكاؤهم وهم محزونون ، فخير أن نذهب إلى الخيل » .

فركبنا وأنا كالذاهلة ، وكنت أصغى إلى

صوت الأرض ، وهو صوت ضخم مؤلف من أصوات خافتة : حمائم تهدل فى أعشاشها فوق الأشجار الخضر ، وطيور تصفر وتزقزق ، وحفيف الأغصان . وتأدّى إلينا من ناحية الأرض المطمئنة تحتنا صهيل عذب من مهر جاوبته حمحمة فرس .

فسألنى مكالى بلغة هاواى : « أين هما ؟ »

وتكرر الصهيل ، فدلتنى أذنى المدربة على ناحيته فأشرت إلى الأَجَمة الثالثة من الأشجار فى الوادى ، فالتمعت عينا مكالى وهز رأسه راضياً ، وعدت الفرس بنا عدواً خفيفاً سهلا ، فصرنا إلى حيث كانت عشرون مهرة متخذة للنسل مجتمعة ، فقال مكالى : « كلا ، كوكيت ليست هنا . يجب أن نمضى لنرى » .

وكانت كوكيت مهرة أبى الأصيلة ، وكانت توشك أن تنتج ، وأخيراً وجدناها بين طائفة من شجر الجوافة ، وجانباها يضطربان ، وكتفاها تتصببان عرقاً ، فأسرع مكالى فترجل ، وكلمها وهو يفحصها .

وقال بعد دقيقة : « إن ولدها قد بدأ يخرج ، وهو بكرها ، ولا وقت للرجوع بك إلى البيت ثم العودة إليها . وأحياناً تجزع المهرة وتفزع عند الوضع الأول » وبدا عليه الأسف : « فتروح تعدو ، وقد تفقد ولدها ، فسأبقى معها . ولكن ربما غضبت المسز لويس لأن بنتها الصغيرة رأت مهرة تضع حملها ، أما أهل هاواى فلا يعبأون شيئاً بهذا ، وصغارهم يشهدون الولادة . إنها عاداتهم ، ولكن الإنجليز لهم رأى آخر » .

وحسمت كوكيت الموقف ، فبدأت تترنح من ناحية إلى ناحية ، وكان مكالى يعرف ماذا يصنع على وجه الدقة ، وكان لا يفتأ ينظر إلى ناحيتى ، ويتكلم مسروراً : « كوكيت بخير . . . الوضع ميسّر . . . » ويهز رأسه راضياً على نحو يجعل المشهد يبدو كأنه شىء مألوف .

ولما صار النتاج على الحشائش مبللاً ولا حراك به ، لحست أمه وجهه حتى فتح عينيه ، وبعد قليل نهض على أقدامه فى ضعف فلمست أنفه بأنفها ، وكانت أرجله لا تكاد تحمله ، ولكنه جميل ، فنظر إليها ثم بدأ ينشد طعامه .

فسرت فى بدنى هزة سرور وسألت : « هل أستطيع أن ألمسه ؟ »

فأشار مكالى برأسه أنْ نعم ، فوضعت كفى على كفله البليل فرفس رفسة ضعيفة ، فأشرق وجه مكالى ، ثم غاض السرور من وجهه وقال : « يحسن أن نعود الآن ، فقد لا تسمح المسز لويس بأن تركبى معى مرة أخرى » ، وأركبنى الفرس ثم وثب ورائى ، وفطنت تدريجاً إلى المأزق الذى هو فيه .

فقلت : « لن أخبر أمى » .

فقال مؤنباً : « لا أحب هذا الكذب يابنيتى . خير من هذا أن نبتهل إلى الله العلى الكبير، وإلى إلهنا « أكوا » العظيم أن يجعلا المسز لويس تفهم وتعذر ولا تحرمنى منك » .

ولما عدنا ، ترجل مكالى وكأنه رجل هرم متعب لم يبق له فى الحياة مأرب ، فأدركت أنى المسئولة عما هو فيه بهربى ، وأقبل أبى خارجاً من البيت ، وانتزعنى وضمنى إليه ، وكلمه مكالى ووجهه يرجف ، وكان أبى يصغى ويفكر .

وقال : «أول ولد ! سأضطر إلى ضربك علقة . فإن أمك كالمجنونة ، والمزرعة كلها على قدم وساق ، والعمل واقف لأننا كنا نبحث عنك » .

ووضع يده على كتف مكالى ليطمئن ، فستر الرجل عينيه لحظة ، ثم لثم يد أبى ورفعها إلى جبينه ، فتحير الدمع فى عينى أبى ، وقال وكأن فى حلقه شيئاً : « امض إلى عملك يا شيخ ! »

ولكنه لما حملنى إلى مكتبه صار وجهه مكتئباً صارماً ، وألحت على حلق الغصص ، وراح أبى يبين لى فى أناة وصبر ما ارتكبته، حتى وضح الأمر فى عينى :

« إن الهرب ليس كل ما ارتكبت يابنيتى ، فقد غششت تاتسو وتناومت لتنصرف . وتاتسو تحبك وتثق بك ، وقد خنتها ، وأوقفتها مع أمك فى موقف المخطئة ، ولولا أن مكالى قابلنى قبل غيرى ، لصار موقفه حرجاً . والآن هل فهمت لماذا ينبغى أن أضربك ؟ »

فأحسست أنى غارقة فى لجج من الإجرام وقلت وأنا أكاد أختنق : « نعم . فأرجو أن تضربنى بسرعة فننتهى » .



وقبل أن أبلغ الخامسة بزمان طويل، كنت أستطيع أن أركب حصاناً عارى الظهر وأنا مطمئنة . فلما بلغت الخامسة أهدى مكالى إلىّ فى عيد ميلادى سرجاً ، وكنت أراقبه وهو ينجر الخشب ويسويه ، وأساعده فى تهيئة الجلد ، فلما نزع آخر قطعة رقيقة من الجلد عن الخشب ، نظرنا إلى عملنا فى صمت .

وقال : « انتهينا » .

فكان هذا إيذاناً بنهاية أمر ، وبداية أمر ــ فقد اجتزت مرحلة الحداثة إلى مرحلة الطفولة ، وسأركب الآن حصانى إلى جانبه .

وأراد أبى أن يحتفل بمنزلتى الجديدة فقال لى إن فى وسعى أن أذهب معه لنسوق العجول إلى الشاطىء لتشحن إلى هونولولو .

وكان ذلك يبدأ دائماً فى الساعة الأولى

صباحاً اغتناماً لابتراد الجو فى الظلام ، فلما بلغنا بعد ظهر ذلك اليوم الحظيرة الكبيرة المسورة بجدار من الحجر فى ناحية ما كينا ، كانت ساقاى قد تصلبتا، وركبتاى فى ألم مبرح من حسك الصبير الذى كان يخزهما، إذ أذهب أعدو بالجواد لأحول دون مايهم به القطيع من الإجفال . وقد أدركت للمرة الأولى أن أبى وأعوانه كثيراً ما كانوا يخاطرون بأرواحهم حين يغادرون عالمى المطمئن كل صباح .

وقال أبى : « تعالوا نسبح ريثما يعد العشاء » ، وهيأ لى مكالى شيئاً كالوسادة من شملته الحمراء ، فأحسست أنى كبرت وأنى أشبه هؤلاء السمر الملوحين الذاهبين إلى الماء ، ولما صاروا فيه ضربوه بأكفهم ، فكانت لهذا أصداء مديدة جوفاء .

فسألت : « لماذا يصنعون هذا ؟ »

فقال أبى : « ليس هنا شعاب من الصخر ، وهذه الأصوات تطرد قروش البحر » .

فأحجمت مترددة ، فجلس أبى إلى جانبى وقال: « يابنيتى ، إذا كنت تبغين أن تكون حياتك ملأى حافلة ، فإن عليك أن تغامرى أحياناً ، على أن قروش البحر فى هذا الماء معروفة بجبنها » .

فشعرت كأن فى أحشائى طائراً مذعوراً يضرب بجناحيه ، وسمّر الخوف قدمى فى الرمل ، وألقى علىّ أبى نظرة غريبة وغطس فى الماء ، فأغمضت عينى ودخلت فى الماء ، وسرعان ما كنت أسبح بين أبى ومكالى ، وما لبث جمال البحر الناعم أن محا كل خاطر آخر .

وفى تلك الليلة ، ونحن جلوس حول النار ، أخرج « بيلى » الأكورديون ، وأخرج كاها ليواى طنبوره ، وراحوا جميعاً يغنون إحدى أغانى الرعاة القديمة، وكان فيها من حركة التبختر وهزة الرقص مايمثل حياتنا الرحيبة الرخية . ولم أكن أريد النوم ، غير أنى لما فتحت عينى مرة أخرى كان الفجر الفضىّ المتلألىء قد غمر السماء ، وكان بيلى يعد القهوة ، وهو كى يخبّ بجواده لينظر هل ظهرت السفينة أو لم تظهر .

وإذا بالصباح الصافى كالمرآة تشقّه صيحة قوية من الغياض ، فانطلق القطيع يعدو إلى البحر ، فخففنا إلى جيادنا ، ورفعنى مكالى إلى سرج جوادى، ووثب إلى ظهر جواده. وذهبنا نركض على الشاطىء ، وكان رجالنا الذين يمتطون جيادهم بغير سروج يخوضون الماء وراء الماشية ، وكانت أوامر أبى تسكّ السمع كأنها طلقات البنادق .

وكانت الماشية تسبح متجهة إلى جزيرة حمراء بعيدة، وكان كل ما نراه منها رؤوسها. واختفى رأس ثم آخر ، وشرع الرجال وهم

يخوضون الماء بجيادهم يضربون الماء بأكفهم. قروش البحر! وصار الصباح وَغى أهوال ، وفزع القطيع ، وصار يدور ويتصادم ، ويحاول بعضه أن يركب بعضاً ، والرجال يصيحون ويضربون الماء ، والخيل تخوض وتجاهد . وخيـــل إلىّ أن أبي ومكالى سيمزقان إرباً إربا ، وأردت أن أصرخ ، ولكن عضلات حلقي كانت كالمشلولة .

وأخـيراً استطاع الرجال وهم يصيحون ويسخطون ، أن يردوا القطيع المُغَمغم إلى الساحل ، ثم استاقوه إلى الحظـيرة ، وأقبل الثور الشارد الذي بدأ الإجفـال يترنح وفى جنبه جرح فاغر ينزف دماً ، وهو لايفتأ ينظر إليه كالمذهول ، واندفع أبي وهولو ماليا إلى الماء مرة أخرى لينقذوا خمسة ثيران تسبح قرب الشاطىء ،وغطس أحدها تحت المـــاء حين وصل إليه أبي ، ولكنهما أنقـذا الآخرين ، فصعدتُ إلى الشاطىء بسلام .

وكنت أنتفض فوق سرجي ، وأحس أن عظامي أصبحت كالهلام،وكان أبي يبدو لى كأنه لايعرف من أنا ، وكانت وجوه الرجال جميعاً ناطقة بالإعيـاء والشعور بالخطر ، وشعرت كأني فى عزلة ، وبكيت كالجرو ، فأقبـل علىّ أبي ، وحملني عن سرجي إلى سرجه ، فارتد إلىّ شعوري به وبغيره .

وقال : « هدِّئ روعك » .

فتعلقت بأبي ، وبلعت ريقي ، وكان لايكلمني أبداً كما يكلم طفلا ، ويعاملني كأنى كبيرة ، فيغريني هذا بأن أتشجع مثله .

« لماذا أجفل القطيع ؟ »

« أضجره الانتظار ، وسقطت جوزة من جوز الهند فى الحظـيرة ، فوثب من فوق السور وأجفل » .

« وماذا جرى للثور الأسمر ؟ »

« ذبحوه وأراحوه من عذابه » .

وصاح هولوماليا وأشار بيده ، ونظرنا فإذا السفينة قد ظهرت ، فجمع أبي رجاله وقد اتخذ هيئة الجد ، وكلمهم بلغة هاواى ، فقذف بيلى بشىء على الماء ، فحدث انفجار .

وقال أبي على سبيل التفسير : « ديناميت لطرد قروش البحر ، وهو عمل غير جائز قانوناً ، ولكن له مايسوغه الآن » .

وألقت السفينة مراسيها على مسافة نصف ميل من الشاطىء ، وجرت الأمور مجراها مرة أخرى ، وأنزل زورق مسطح أقبل على الشاطىء ، وربط أبي ثوراً وانطلق به إلى الماء ، وكان هوكى يركض إلى جانب الثور ، واندفعوا إلى المـاء بسرعة وسبحوا إلى الزورق ، ورمى أبي بالحبل إلى رجـل فى الزورق ، ودار والتقط منه حبلا جديداً ، وعاد إلى البر . وكان الرجال يعملون اثنين

اثنين بنظام ودقة ، وسبحت ثمانية ثيران على كل جانب من جانبى الزورق وهى مربوطة من قرونها ، فلما بلغ الزورق السفينة رُفعت الثيران إليها .

ورفع الزورق بآخر حمولة إلى جانب السفينة ، وانطلقت صفارتها ، وأرسل الرجال المكدودون خيولهم ، وأطفأوا ظمأهم من جوز الهند الأخضر ، ودنا منى مكالى وقال : « أتحبين أن نخوض الماء بحصان ؟ تعالى أردفك على فرسى » .

ففكرت فى قروش البحر ، وترددت بين الخوف والرغبة . وإنه لمنظر بديع ، حين تتلقى الخيل الأمواج بصدورها وتسبح ذيولها وراءها كالمراوح ، ثم تذكرت ماقاله أبى من أن على من يبتغى حياة حافلة أن يغامر بعض المغامرة .

فقلت أخيراً : « نعم » .

فأومضت عين مكالى وقال : « يالك من فتاة ! » وأردفنى خلفه .

وحدث ذات يوم ، بعد عيد ميلادى التاسع بقليل ، أن جمح جواد مكالى به فاصطدم بعمود البوابة ، وبعد بضعة أسابيع ورمت رجله وآذته ، فأمره أبى بالراحة شهراً وكان له ، كمعظم رجالنا من أهل هاواى ، قطعة أرض خاصة به يزرعها أعضاء أسرته ، وكنا كل بضعة أيام نركب إليه لنراه ، ولكن ساقه ازدادت سوءاً ولم تتحسن .

وأقبل ابن مكالى ذات صباح ، وهو فى الخامسة عشرة ، وطلب من أبى أن يأذن لى فى الذهاب إلى مكالى على الفور . فلما بلغنا بيته ، ألفينا هذا الرجل الهرم المحبوب قاعداً على الأرض وظهره إلى الحائط ، وقد حفر الألم أخاديد عميقة حول فمه ، وكانت ساقه ممدودة أمامه وهى ملفوفة فى أوراق الشجر .

ورآنى فشرع يبكى فى صمت ، فأسرعت إليه ، وقد غمرتنى كالفيضان ذكرى السنوات التى قضيناها معاً ، وكل ما تقاسمناه ، وماتعلمت منه ، وصار الكلام عبثاً ، فبكيت بكاء شديداً وسألته : « أتراك ستموت يامكالى ؟ »

فأشار إلى رجله ، وقال : « نعم » وراح يلثم يدى ، ويقول بصوت خفيض بلغة هاواى : « يابنيتى التى حملتها على وسادة قبل أن تدرج وتتعلم المشى ، والتى كانت تريح رأسها الذهبى الشعر على صدرى ، والتى علمتها الركوب والسباحة... »

فطوقته بذراعى ، ولصقت به ، وبدا كأنما أفاده هذا روحاً . وكان يعلم ، كما أعلم ، أنه ينزل من قلبى مكاناً لن ينزله أحد سواه ، وتبعتنى عيناه الحزينتان ونحن نمضى ببطء إلى الباب .

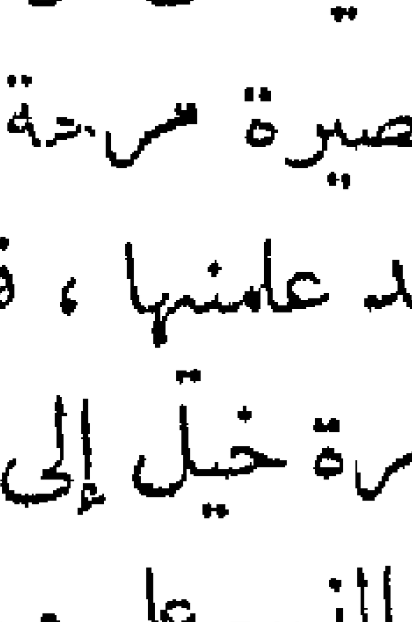
وقال: « مى كى ألوها پو أولى »

وما كانت به حاجة أن يقول لى شيئاً ، فإن حبى له ، كحبه لى ، لن يغيض له معين ، وتناول أبى يدى ، واحتبس صوتى فى حلقى ولكنى استطعت أن أقول: «مى كى ألوها پو أولى » بصوت مرتجف .

وأقبل أهل هاواى من كل حَدْب فى الجزيرة ليسيروا فى جنازة مكالى ، فقد كان على هدوئه إنساناً عظيماً . وقد بكته أمى حتى انتفخ وجهها ، فإنها لما جاءت إلى ماوى وهى عروس ، كان مكالى هو الذى زين بيتها الأول الصغير بالزهر وجمله لاستقبالها .

وقبل أن تسير الجنازة بقليل دعانى أبى إلى مكتبه وقال : « أريد أن تعلمى أنه ليس فى الموت شىء فظيع ، وكثيراً ما يكون فرجاً وراحة، وقد مات مكالى بأوجع أنواع السرطان وأسرعها . وينبغى أن يسرك أن أوجاعه قد انتهت وأنه شفى منها ، وهذا شبيه بقتل حصان هرم كسيح لإعفائه من الآلام . لقد كان موت مكالى راحة له » .

ووقفت بجانب أبى على القبر المفتوح ، فامتلأ قلبى غصصاً ، واحتجت أن أسند جبينى إلى ذراع أبى ليكف بدنى عن الانتفاض . ومازالت ذاكرتى تتمثل بعد كل هذه السنين كل صغيرة وكبيرة مما حدث فى ذلك اليوم : الغلمان اليابانيـــون ، ورجال المشائل وهم واقفون وعلى وجوههم ما يشبه سيما الغضب إذ يحاولون كظم شعورهم ، واليابانيات بأسنانهن المسودة وذلك حداد عندهن ، ونساء هاواى مرسلات الشعور وهن يندبن ويغنين بأصوات كأنها أصداء الأرغن ، والثيران الستة القوية وقد لف الزهر حول قرونها ، وأبى يحيط بذراعه الأخرى ابن مكالى اليتيم الذى أوصاه مكالى به وسأله أن يكفله . ولما شرع هالومالى وبيلى وغيرهما من الشيوخ ، ينزلون النعش بحبال ملفوف عليها الزهر تحدرت الدموع من مآقيهم على خدودهم ، فأومأ إلىّ أبى أن أدع ذراعه ليسند بها أمى التى كانت تبكى وتعول كأى امرأة من نساء هاواى . نخليتها له مطيعة ، وارتددت إلى الخلف وقعدت على الأرض ، وقلت لنفسى إنه لاينبغى لى أن أعتقد أنى لن أرى مكالى مرة أخرى . وكما يحدث أحياناً فى أوقات المحنـــة ، تذكرت أغنية قصيرة مرحة من أغانى هاواى كان مكالى قد علمنيها ، فلما أدرتها على لسانى مرة بعد مرة خيل إلى أنى أنا ومكالى راكبان معاً ، والنسيم على وجوهنا والأزاهير على قبعاتنا .



بعد ذلك بأيام قلائل مر بنا ثلاثة من كبراء الإنجليز فى طريقهم إلى أستراليا ليتولوا

بها وظائف رسمية ، وأقاموا عندنا أسبوعاً فى المزرعة .

فارتاحت أمى وانطلقت على سجيّتها، فإن هؤلاء من قومها ، وهم يتكلمون لغتها ويفكرون كما تفكر ، وقد أثنوا على الشاى الذى قدمته لهم ،واستطابوا الشطائر المصنوعة من الخردل والجرجير ، وهى غاية فى الرقة ، وأتوا على ماقى الأطباق من الكعك المحشو بالبرقوق .

وبينما كانت أمى معهم تحادثهم عن إنجلترا، كنت أنا أرقب خدم البيت وهم يعدون المائدة للعشاء ، وقد أفاضت مفارش الدمقس والأدوات الفضية الثقيلة والبلورية المتلألئة على المائدة الطويلة ،مسحة من الأبهة والفخامة القديمتين . وبعد أن وضعت آخر قطعة من الفضة فى مكانها ، زينت ظهور الكراسى بأزهار القرنفل المخملية .

وكان ذلك ليلة السبت ، والمزرعة على قدم وساق كالعادة ، وقد ازدادت الحركة بقدوم الضيوف الكبار . ووقفت أنا وشقيقتاى أينا وجوين فى الحديقة ننظر إلى الضيوف وهم يجتمعون استعداداً للعشاء ، وكان الضيوف يرتدون ثياب السهرة ، وأمى فى ثوب جديد ، وأبى فى ثوب أبيض .

ولم أر أمى قط سعيدة كما كانت فى تلك الليلة . فقد عادت إلى الجوّ الإنجليزى الذى كانت تتلهف إليه ، وكانت تحب أبى ، وتحب هاواى ، ولكنها لم تندمج قط فى هاواى اندماجاً تاماً ، أما الآن فقد ارتدّت هاواى وغابت فى الليل الأرجوانى ، واعتلت إنجلترا عرشها مرة أخرى — لحم البقر المشوى ،والثياب الرسمية، وأضواء الشموع، والأصوات الخافتة ، والأوانى الفضية تنقل بإحكام على الصحاف الصينية وعليها شعار الدربى — لقد كان اغتباط أبى من أجلها مما يطيب للمرء أن يرى دلائله .

ولكن باباً صغيراً فتح فجأة ، واندفعت داخلة منه امرأة مذعورة سمراء عارية الجسم وشعرها الأسود منتفش ، وارتمت بين ذراعى أبى .

« لويس ، لويس ، أنقذنى ! »

وحاولت ليهو — امرأة موكو — وهى تبكى وتنشج أن تضع نفسها على حجر أبى ، وكان جسمها الأسمر البدين يبدو عارياً جداً ومخجلا بإزاء غطاء المائدة الأبيض .

وامتقع وجه أمى فصار كالطباشير ، وتجمد شاربا الكبتن بيلى على شفته، وانطبقت شفتا الفيكونت أشلى، وسقطت نظارة السير هيو عن عينيه ، فقد قضى على حفلة العشاء قضاء مبرماً .

وصاح أبى : «ماذاحدث؟ » وستر بفوطته الكبيرة مايمكن ستره من بدن ليهو الجسيم.

فقالت لهو وهى تصرخ وتدس رأسها فى نحر أبى : «موكو يوشك أن يقتلنى . كنت أرقص رقصة البولا مع هوكى ، لا لشىء سوى التسلى ، فأقبل موكو ومزق ثيابى ليجلدنى ، فغضب هوكى والتقط حبل الصيد » ، وتغيرت لهجتها وهى تقول : «أوه يحسن أن تذهب بسرعة يالويس ، ومن يدرى ؟ لعل هوكى قد قنص موكو بحباله فيقتله . أسرع ، وأنا أخاف أن أرجع ، فأغلق علىّ باب مكتبك إلى الغد » .

فأنزلها أبى عن حجره ، وخلع سترته ، وغطاها بها وأخرجها من الغرفة ، ولكن حفلة العشاء قضى عليها . فقد انتصرت هاواى الوثنية الجامحة المسرفة على إنجلترا .

وتسورت الجدار الحجرى بضعف ، ورأيت أبى ينطلق إلى المخيم الغاص بالصائحين من أهل هاواى ، وبالبرتغاليين واليابانيين الذين كانوا يتنقلون على غير هدى كأنهم أنعام ضالة . ثم رأيت جيب قميص أبيض يبدو منطلقاً به صاحبه من البوابة ويختفى بين الجمهور — الكبتن بيلى ، وبعد أربع دقائق أو خمس رجع هو وأبى .

وقال أبى : « لم يكن من السهل التغلب على هوكى ، فقد كان سكراناً طافحاً ، ولكن هذا قد تكرر أكثر مما يجوز ، وسأطرده غداً ، فإنه هو السبب فى إفساد حفلة إيمى » .

وندت عن الكبتن بيلى ضحكة قصيرة وقال : « ولكنى أقسم أن هذا الحادث كان ممتعاً ، ولن أنسى أبداً هذه المرأة السمراء العارية وهى تقتحم المكان علينا كأنها قنبلة متفجرة . لقد كان هذا وحده يستحق الرحلة كلها من إنجلترا إلى هنا » .

وفى صباح اليوم التالى كان هوكى واقفاً على عتبة المكتب وعليه آيات التوبة كعادته دائماً ، فقال له أبى بلهجة صارمة : «إنك مطرود طرداً نهائياً ، فقد أزعجت ضيوفى ، وسببت لإيمى اضطراباً عصبياً ، وذلك ضار بها لأنها حامل » .

وأدرك هوكى أن هذه هى النهاية ، فسحت عيناه بالدموع على خديه وأمسك بيد أبى ، وانطلق يتحدث بلغة هاواى فى حماسة .

قال إنه إذا أمكن أن يكون خادماً للطفل الذى سيولد فإنه يكف عن الشراب إلى الأبد ، وإن رغبته فى الشراب دون رغبته فى التشرف بأن يوكل إليه أحد أبناء أبى ، وإنه يودّ أن يكون مكالى الثانى .

ففكر أبى قليلا ثم قال : « إنى لم أكن من الملائكة فى شبابى يا هوكى ، فإذا أقلعت عن الخمر فإنى أستبقيك ، وبعد أن يولد الطفل أنظر هل تكون خادمه الموكل به أو لا » .

وفى اليوم الذى ولدت فيه لورنا اجتمع الخدم وزوجاتهم فى الحديقة ، وكان هوكى بينهم ووجهه ناطق بالأمل والقلق وهو

ينتظر أن يعرف ما استقر عليه رأى ابى ، وكان الرجال الآخرون يعابثونه ، فصارت عيناه السوداوان كالجمر .

وقال يرد عليهم : « لا بأس ، اضحكوا . لقد مضى علىّ أحد عشر أسبوعاً لم أذق فيها خمراً ، ولا شك أن لويس لاحظ ذلك » .

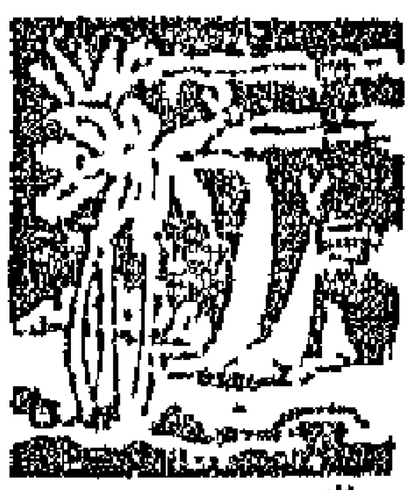
ولكن هوكى لم تبد عليه هذه الثقة حين خرج أبى إليهم وقال لهم وهو مبتهج : « إن إيمي بخير ، وغداً بعد انتهاء العمل تستطيعون أن تدخلوا جميعاً عليها لتروها وتروا الطفل . ولما كنت يا هوكى خادم لورنا ففي وسعك أن تراها في الصباح » .

فاندفع هوكى وارتمى على أبى وطوقه بذراعيه : « شكراً لك يا سيدى ، شكراً . إن سعادتى أكبر من أن أحتملها » .

وفى الفجر كان ينتظر ومعه طاقة من القرنفل الأبيض ليعلقها على مهد لورنا . وكان يجىء كل صباح ليراها وهو مغتبط ، وسرعان ماصار وجهها يشرق حين يبدو لها ، ولما بلغ عمرها ثلاثة أشهر حملها وأركبها للمرة الأولى على وسادة أمام سرجه .

ويظهر أن أبى كان ذا موهبة تساعده على معرفة القيمة الحقيقية لكل رجل . فبعد عامين أراد « إيولى » الذى يساعد على تدريب الأمهار ، وكان رجلا خفيفاً إلا أنه يصعب الركون إليه ، أن يتولى خدمة الطفل الذى كان فى طريقه إلى الدنيا ، فقال له أبى إنه يقبل إذا استطاع إيولى أن يصلح أمره ويستقيم حاله .

وكانت المزرعة كلها ترجو أن يكون الطفل ولداً ، وفى الساعة الثامنة من ليلة الأحد ولد أخونا إيرول ، فكاد اليابانيون وأهل هاواى يجنون من الفرح ، وصارت الدنيا لا تسع إيولى . وبعد أن هدأت الضجة راح الخدم يعزفون ويغنون تحت نافذة أمى ، وابنها . وصارت الحياة تامة النعمة .



وكيف تستطيع الألفاظ أن تعبر عما كان فى تلك الحياة الرضية السمحة من مدّ وجزر عظيمين ، حفلت بهما عشرات من السنين النضيرة التى ولّت وليس لها نظير فى التاريخ ؟ لقد كانت الضيافة لاتنتهى ، لأنا كنا نستقبل ونضيف كل مشهور يزور الجزر ، وقلما كان « عش العُزّاب » — دار الضيافة الرحيب — يخلو من الرجال آخر الأسبوع ، من شبان ظرفاء من أبناء الأسر الكبيرة ، وماليين وصيارفة هم مهما بلغ من ضآلة شأنهم يزيدون فى بهجة الشعوب .

وكان أمراء هاواى وأميراتها أيضا إذا طافوا بالجزر ينزلون عندنا ، وحينئذ كانت

رقصـة « البولاس » العظيمة التقليـدية القديمة العهد تدور في حديقتنا، فنحس ونحن جلوس وراء المغنين وأجسام الراقصين اللينة المتثنية، أن الطبول تنطق بأقدم لغة وأعنفها داعيةً أرواح السلف أن تؤوب إلى الأرض.

وكانت حفلات عيد الميلاد تحيي طول الليل وتمحي فيها كل فروق العنصر والجنس والسن والمقام ، وترص الهـدايا التي يتبادلها كل رجل وامرأة وطفل في المزرعة ، ويبلغ طول أكداسها عدة ياردات حول شجرة عظيمة مضاءة بالشموع ، ويعزف الخدم ، ويقبل أصحاب الأرض وزراع القصب من مسـافة أميال إلى البيت ليساهموا في السرور والمرح ، ويرقص الخدم مع السيدات البيض الحسان ، ويحاول الزراع الوقورون أن يخاصروا الوطنيات البدينات المتهافتات .

وكانت هنـاك رحلات إلى وايكيكي ، وكانت يومئذ شاطئاً هادئاً جميلا تملكه أسر من البيض الوجهاء وأعضاء من البيت الملكي في هاواي ، اتخذوه للسباحة فيه. وكانت هناك أيضاً رحلات بنت ساعتها إلى بركان مونالو حين يثور . وكان كل أهل هاواي يتنزهون في أقرب موضع مأمون من الشلال الناري الذي يبلغ عرضه ميلين والذي تتدفق الحمم منه إلى البحر ، فتقذف شؤبوباً من البخار يرتفع إلى ١٨٫٠٠٠ قدم ، وتترك ماء البحر يغلي إلى مسافة أميال من الشاطىء . وهو منظر رائع ساحر عميق الأثر في النفس ليس له مثيل في غير هاواي . وكان هناك الاهتيـاج النفسي الذي يخطف الأنفاس ، والخطر من قنص الثيران الوحشية بالحبـال في الغابات فوق مرتقى هاليا كالا ، وكانت هناك رحلات صيد نضرب فيها مخيمنا فوق فوهة هاليا كالا الخامدة ، وكنا إذ نجلس حول النار في الليل ، ويقص علينا الشيوخ من أهل هاواي أساطيرهم القديمة ، يخيل إلينا أن الماضي قريب منا جداً .

ولكن العام الذي تلا ميلاد إيرول دار بتغيير محزن في صورة حياتنا الواسعة الرحيبة ، ذلك أن لورنا التي كانت الصـحة مجسدة ، أصيبت بالربو وكنت قد بلغت الثانية عشرة ، فاقترحت أن أتولى أمرها في الليل ، ولكن أمي كانت تشك في إمكان الاعتماد علي ، غير أن الإعياء اضطرها إلى تجربتي .

وكانت أمي تنام في البداية في الغرفة معي أنا ولورنا ، ولكني مهما بلغ من دؤوبي في النهار ، كنت لا أكاد أسمع أول نشيج من أختي الصغيرة حتى أثب إلى قدمي ، وأسقيها الأدوية التي وصفت عبثاً لها ، فلما أثبتت كفايتي صارت أمي تنام وتركت لي الأمر كله .

غير أن أمي كانت تنهار تحت عيني ،

ويذويها القلق لا على لورنا وحدها بل خوفاً على إيرول من العدوى أيضاً ، وكان لا يسمح للطفلين بالخروج من البيت إذا كانت هناك نسمة تتحرك ، وإذا نقلا من غرفة إلى أخرى ، وضعت البطاطين أمام كل باب لمنع تيارات الهواء ، وصار إيرول سقيما متغير اللون من التدليل والترفيه ، وا كتأب أهل البيت جميعاً ، وكاد ينقطع سيل الزوار المرحين فى أواخر الأسابيع ، لأن أمى كانت منهوكة القوى وفى شاغل من صحة الطفلين ، فلا رغبة لها فى الاستمتاع بالأضياف .

ورأيت ، كما رأى أبى ، ما أصاب الطفلين وبيتنا ، ولكنا كنا أعجز من أن يدخل فى وسعنا شىء ، وقد تشجع أبى فقال لأمى إن بقاء الطفلين ملفوفين طول الوقت وبعيدين من الشمس والهواء النقى لا يساعدها على المقاومة ، ولكن فزعها من التيارات صار ضرباً من الخبل ، فبقيا نحو سنتين لا يسمح لهما بالركوب أو باللعب مع الحيوانات مخافة أن تحدث لهما الحركة أزمات ربو . وا كتفى بتلهيتهما فى هدوء بالألاعيب والكتب ، وحرما كل الحرمان نصيبهما من ضوء الشمس وركوب الخيل ، ومن السباحة ومرافقة الخدم .

وكانت لورنا فى سن تساعدها على أن تتذكر أن الحياة لم تكن كلها دائماً فترات مملة تتخللها أزمات اختناق ، وكانت تحب الحيوانات ، فكانت تتوسل كل يوم من أيام السنتين اللتين كانت فيهما حبيسة ، أن ترى كوليا وهو جواد ابن أربعة أعوام قعدت على ظهره حين كان مهراً صغيراً ، أفلا تستطيع أن تخرج ، وتقعد على ظهره ساكنة هادئة ؟ وأخيراً أشارت أمى على أبى أن يجىء بالحصان كوليا إلى الحديقة لتراه لورنا من النافذة . فلما جاء أبى بهذا الجواد الضليع اللامع ، نسيت لورنا ما وعدت به من أن لا تتأثر أو تهتاج ، وراحت ترفس وتصرخ لتذهب ، حتى اضطرم وجهها ، فكان من أثر ذلك أن انتابتها أزمة ربو حادة . فكان هذا ختام الأمر .

وجاءت النهاية فجأة وعلى غير انتظار . ذلك أن الأسرة كلها ومعظم رجال المزرعة ماعدا أبى وأنا ، أصيبوا بالأنفلونزا ، وقضينا أسبوعاً نقوم بالتمريض أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم ، وما كادت أمى تقف على قدميها حتى تحولت الأنفلونزا عند لورنا إلى التهاب رئوى .

وكانت لورنا وهى تهذى تلح بلا انقطاع فى طلب الجواد كوليا والخادم هوكى ، فما انقضت ستة أيام حتى كانت أمى قد انهدت وثقلت ، وبعد ذلك بيومين اجتازت لورنا الأزمة وتماثلت للشفاء ، ولكن أمى لم تشف .



وصار كل شىء أجوف فارغاً . وقد راعتنى المصيبة التى حلت بأبى ، أكثر مما ثقلت على نفسى وطأة فجيعتى ، لأن موت أمى ألقى على كاهله عبء أسرة من خمسة ، اثنان منهم صغيران مريضان ، وقد عيننى « ملازمه الأول » وقال إن على أن أدافع عن الحصن معه .

ولما كان رجل عمل ، فإنه بعد بضعة أيام من تشييع جنازة أمى ، دعا الأسرة إلى جلسة فى مكتبه . وكان الأقارب والأصدقاء الذين زحموا البيت عشرة أيام ، قد انصرفوا ، ولم يبق معنا إلا لورين ثيرستون ، أو كا كينا كما كان يسمى بلغة هاواى ، وكان هو وأبى فى شبابهما قد ركبا معا وقنصا الحيوانات الوحشية بالجبال ، والآن ترك كا كينا أسرته وعمله فى المحاماة وجريدته ، ليكون مع أبى ويعينه على إعادة تنظيم بيته وتسيير أموره .

وكان عقل أبى ركيناً ومستقيماً حتى فى المأساة ، وقد وكل إلىّ إدارة البيت على قدر مايدخل فى طاقتى ، واستبقى المربية لتعليمنا ، وولى إينا أمر لورنا فى النهار وفى الليل أيضاً إذا لم تكن هناك أزمة ربو. فإذا حدث هذا فإن على أن أتدخل، وجعلت جوين تساعدنا فى أى باب . ولكنى أصبحت آخر الأمر أمًّا ، ومضيفة ، وربّة للبيت .

وبعد أن بسط أبى خطته بالتفصيل ، صرف الآخرين واستبقانى ، وتناول يدى ، فهمّ كا كينا بالخروج ، ولكن أبى أشار إليه أن يبقى وقال له : « إنك داخل فى الشوط الثانى ياصاحبى » .

وتناول غليونه ، وحشاهُ وقال : « هذا ختام ، وكل الأوراق على المائدة » وألقى إلى كا كينا نظرة ثم أمال وجهه إلىّ وقال : « سأحدثك كأنكِ رجل يابنيتى » .

وصارت نظرته غريبة ، وكأنها إلى شىء بعيد ، ولما أشعل الطباق كانت يده ترعش قليلا وقال : « لقد حاولت ما استطعت أن أكون زوجاً وأباً طيباً ، ولكنى لست بقديس ، وبغير إيمى ، قد أتحطم وأهوى بكم جميعاً معي » .

وكانت عين كا كينا لاتتحول عن وجه أبى ، فقال : « إنى أعرف طبيعتك يافون ، وأنا أراهنك على أنك لن تتحطم ، وقد تكبو بضع كبوات ، ولكنك ستؤدى واجبك كاملا تامـاً فى تنشئة أطفالك ، وإلا فأنا لست أعرف الرجال » .

فبـدا وجه أبى متهضّماً ، ثم ارتد إليه مدّ القوة الذى كان قد انحسر عنه إلى حين ، فقال بعنف هادىء : « أما والله لن أخذلك ! ولكنى لن أقتحم عقبات ، أو اجتاز جسورا قبل أن أبلغها ، بل سنمضى قدماً خطوة

خطوة . والمشكلة الأولى هى الأطفال . فهل نظل ندللهم ونبقيهم داخل البيت، أو نجازف فنغير حياتهم تغييراً تاماً ونخرجهم إلى الحقول ، وننظر ماذا يحدث ؟ يخيل إلى أن لورنا وإيرول إذا أطلقا وعجزا عن الاحتمال ، لن يكونا أسوأ حالا مما هما الآن إذ يعيشان هذه العيشة » .

فقلت بلهفة : « دعنا نخلع عنهما ثيابهما الصوفية ، ونسرّح شعرهما ونرسله ، وليستحما بالماء البارد كل صباح ، وليركبا مع خادميهما ، وسترى أن هذا سوف يجعلهما صحيحين شديدين كشدة الرجال » .

فضحك كاكينا ، وبدا السرور فى عينى أبى الحزينتين .

وسألنى : « هل تشاطريننى التبعة عن هذا النهج ؟ إذا لم يستطع الطفلان أن يقاوما ويحتملا » وتردد قليلا ثم مضى يقول : « وحتى إذا احتملا فإن الناس سينتقدوننا ، وسيقولون فينا : مسكينة إيمى ! ما كادت تولى حتى طرحوا أساليبها جانباً . أنت الآن ساعدى الأيمن ، وقد تبوئين بالإخفاق والخسران إذا نحن مضينا فى هذا النهج » .

ففكرت فى الليالى السود التى قضتها لورنا ، والأيام المملة فى غرف مقفلة ، وحدثت نفسى أنه إذا كان المرء لا يستطيع أن ينعم بالسرور والجمال فى طريقه فما خير الحياة ؟ وحاولت أن أعرب عن هذا لأبى .

فوافق وقال : « اتفقنا . وسنبدأ من جديد ، وإنى لأشعر أن الطفلين قادران على الاحتمال فإنهما من أرومة متينة » .

فقلت مقترحة : « فلنبدأ الآن . إن لورنا لا تزال فى فراشها ، وهى ضعيفة كالفرّوج الصغير ، ولكننا نستطيع أن ندخل كوليا إليها لننعشها » .

فابتسم أبى للمرة الأولى منذ عدة أيام وقال : « قولى لها إن ضيفاً سيزورها ، وسأذهب أنا وكاكينا لنجىء بالحصان » .

وبينما كانت إينا تمشط شعر لورنا وتسرحه وتربطه برباط جديد ، طفت أنا ببقية من فى البيت ليساهموا فى هذه المسلاة . وبعد دقائق قليلة دبت حوافر كوليا فى الشرفة واجتازتها ، ثم أدخل الجواد رأسه الجميل من فرجة الباب . فأشرق وجه لورنا ، وصاحت « كوليا ! » ودفعت ذراعيها إليه . وأمسك أبى وهوكى بعذارىْ اللجام على الخدين ودخلا بالجواد على حذر ، فجعل يتشمم مرتاباً رائحة الأثاث ، ثم صافحت أنفه ريح لورنا فكفكف منخراه عن الاضطراب ، ومضى به أبى وهوكى إلى جانب السرير .

فاحتضنت لورنا حنكه الناعم الملمس ، وجعلت تخرج أصواتاً واشية بحبها له ، وتنشق

عبير جلده النظيف ، فمذ كانا ابنىْ سـنة ، مشى على رجلين وهو على أربع ، نشأ بينهما ذلك الحب العجيب الذى يوثق ما بين الناس والحيوان . وما من محب حقيقى للخيل إلا وقد مرت به فى وقت ما ، أعجوبة الاهتداء إلى حصان على أتم ما يكون موافقة له وانسجاماً معــه ، وقد جعلت لورنا تمر بأصابعها المعروقة التى تشبه الأعواد ، على رأس كوليا الجميل ، وهو يتنفس مغتبطاً .

وأعانت أبى جهودنا المتبادلة على تعهــد الطفلين ، على اجتياز المصاعب الأولى التى أورثه إياها حزنه ، وكانت إصابة لورنا بالالتهــاب الرئوى قد شفتها من الربو على الأقل ، ولكنها كانت وهنانة جداً ، ولكن زيارات كوليا لها فى كل يوم، وخروجها إلى الحديقة كل صباح ، نفت عن الحياة ما كان ينغصها من الاختناق والحرمان من كل ما تحب ، وكانت تقعــد على سجادة تحت الشجر ، والهواء يصافح وجهها والشمس تنفذ من جلدها ، وخادمها هوكى ساهر عليها ، وصديقها كوليا على أرجــله الأربع يرعى الحشيش على مقربة منها .

أما إيرول فكنا معه أقل ترفقاً . فقد قصصنا له شعره ، ونضونا عنــه ما كان محشوًّا فيه من الثياب ، فصار يمشى مختالا فى سراويل قصيرة وقمصان على طراز قمصان الصبيان اليابانيين . وكنا نغمره بالماء البارد كل صباح وهو يصرخ ويصيح ، وبعد أن يتناول فطوره ، يركبه إيولى خادمه معه إلى الظهر ، وفى العصر نحطه على ظهر فرس عجوز بغير لجام ، ترعى فى الحديقة كما تشاء ، وكان ربما ندّت عنه صرخة فيعــدو إليه بعضهم ليرفعه عن الحشيش ويرده إلى مكانه من السرج . ولا شك أن صديقات أمى استهجنّ أساليبنا ، ولكن الغلام لوّحته الشمس وصار أقوى وأشد .

وبعد أن استعادت لورنا صحتها وقدرت على الركوب ، اضطرت مربيتنا لوفاة بعض أهلها أن تعود إلى سان فرنسسكو ، فعقد أبى مجلساً من أهل الأسرة وقال لنا إنه بعد أن فكر فى الأمر انتهى إلى أن سنة نقضيها نحن البنات الكبيرات بغير تعلم ، لن تضيرنا شيئاً إذا نحن أنفقنا الوقت فيما ينفع .

ومضى يقول: «إن لى حاجة إليكن معى، وما دمنا فى البيت فأنا انتظر منكن أن تتعهدنه وتتعلمن تدبير شئونه ، وإذا استدعى العمل أن أذهب إلى وايوباى فسآخذكن جميعاً معى . وفى المســاء بعد أن ينام الطفلان ، سأقرأ لكن وأضيف إلى ما تعلمتن ما أستطيع ، فإذا تعهدتن لى بأن تنتفعن أعظم انتفــاع من إطلاقكن فى المرعى إلى حين —» .

نتعهد !! تصور أن نذهب إلى كل مكان

معــه ، وأن نأخذ الطفلين معا ، وتتعلم التدبير المنزلى من خدم نحبهم ! يالهــا من مسلاة محبّبة ! وبعد أن سكنت عاصفة الطرب التى استخفتنا قعدنا على درجات سلم المكتب لنضع الخطط ونستمتع باغتباطنا .

وشعرت بجلال هذه اللحظة، فقد قُذِف بنا على ضرب جديد فى الحياة ، وبدأ عهــد جديد ، فقد كانت حياة الصغار منا مصوغة على الأكثر على مثال نشأة أمى الإنجليزية ، أما الآن فإن الأسرة كلها ستخوض حياة الرجال على مثال أبى ، وقد تبينت من اختلاج وجه أبى النحيــل ، أنه يتساءل : أتراه يستطيع أن يقود السفينة إلى مرفأ أمين ؟

وفتحت بوابة الحديقة ، ودنا منا كاكينا على مهل ، وكان قد جاء على غير انتظار ليقضى معنا يوماً ، ثم وقف على كثب منا ، وبعد أن أدار عينيه فينا لحظة أطلقها ضحكة غريبة :

« إنكم جماعة كالمستوحشين ، حتى الطفلان الجالسان وعلى رأسيهما قبعتان كبيرتان من الخوص وفي أقدامهما المهاميز . هــذا هو الصقر المستفرد وصغاره متهيئون للتحليق ! »



وبعد ستة أعوام من الحياة فى الهواء الطلق ، عاد إيرول ولورنا إلى الصحة التــامة وصارا مولعين بركوب الخيل ، وكبرت جوين وإينا وصــارتا فتاتين تعتمدان على النفس . واستقر عزمى على ما تطلعت إليه من أن أصبح كاتبة ، وكنت أقضى ساعات عديدة كل يوم جالسة إلى مكتب ، وإذا بالتحول الثانى الكبير يحدث فى حيــاتنا ، وقد بدأ ذلك بأن أعلن أبى إلينا أننا جميعاً مدعوون إلى قضاء شهر فى مزرعة باركر لجمع الثيران وسوقها إلى الشاطىء وحملها إلى السفن .

فصحنا من الفرح فإنها من أعظم مزارع العالم وأفخمها ، وتبلغ مساحتها نحو مليون فدان ، ويعمل فيها ويقبض أجورهم منهــا رجال كان آباؤهم وأجدادهم يعملون هنـاك من قبلهم ، فكان ذهابنا إليها حظاً سعيداً نادراً . وذهبنا إلى مزرعة باركر بحراً ، وبلغنا كوايهاى فى ساعة متأخرة من الليل .

ولمــا خرجنا فى صباح اليوم التالى على الجياد من الأشجار المحيطة بالبيت ، بدت لنا الأرض متقاذفة ، وكأنها محيط لانهاية له من النبات المائج ، إلى حيث يذهب فى الهــواء بركانا مونا كيا ومونالوا ، ويحجبــان ثلثى صفحــة السماء . وفى الوادى المتموج كان قطيع من الماشية يسير وكأنه نهر أحمر طام ، وكان صوتهـا أقوى ما سمعت فى حياتى .

ومرّ بنــا الرجل الذى يقود القطيع يركض ، وكان يبدو كأنه جزء من الأرض فهو شــديد عنيف ، حرّ ، يمتطى السرج

وساقاه ممدودتان مستقيمتان على طريقة أهل هاواى ، وهى جلسة جميلة متزنة رائعة . وكان يتفجّر من جوانبه نشاط ساحر كثيراً ما يمتاز به من اختلطت أنسابهم . ورأى أبى فصاح : « ألوها يا لويس ! »

فسألت : « من يكون هذا ؟ »

فقال أبى : « هذا ليهو ليهو لندسى . أما أكبر رجال الأسرة فهو جونى وهو رئيس عمال ، وهناك غيره اثنا عشر رئيساً آخرون » .

وقضينا أسبوعاً أونحوه ، وقد استولت الحياة فى المزرعة على نفوسنا وصرفتنا عن كل ماعداها ، ثم أقبل رئيس العمال ذات ليلة وقال لأبى : « سأصعد غداً فى جبل مونا كيا وراء صغار الخيل ، ويسرنى أن تجىء أنت وبنوك ، فإن ذلك سيكون مسلاة عظيمة ، وسنركب كالشياطين »

فقال أبى : « فى نيتى أن أذهب غداً إلى ماكاهالو ياجونى ، ولكن خذ الأولاد معك فإنهم يستطيعون أن يجاروك » ، وضرب ردفه بجمع يده ، وهى عادة أصبحت مألوفة .

فشعرت بأن قلبى يعتصر ، ذلك أن حصان أبى سقط به قبل عامين فى حفرة عميقة من الحمم الباردة ، وهو يطارد ثوراً وحشياً على جبل هاليا كالا ، فتعلق أبى بسرجه وقد كسرت ذراعه والترقوة ، وهيضت الحرقفة وأبت على مايظهر أن تشفى . أفتراه يريد الآن أن يقول إنه أصبح لايقوى على الركض العنيف ومطاردة الخيل إلى سفوح الجبال؟

وساورنى شعور بأن تغييراً يوشك أن يحدث ، وأن أبى يعلم شيئاً لايرى أن يفضى به إلينا .

ولما طلعت الشمس فى صباح اليوم التالى كنا على جبل مونا كيا ، وهناك على قمة المرعى وقفنا اثنين اثنين ، على فترات ، وشرعنا ندفع الخيل إلى النزول ، وزادت السرعة شيئاً فشيئا ، وصارت خيلنا تجاهد لتبارى الأمهار الصغار ، وراحت حوافرها تدب فى الأرض المطمئنة فيدوّى صوتها ، وارتدّت فى هذا الصباح أصداء الصيحات وقرقعة السياط ، وبدا الجبل كله كأنما امتلأ بالظهور اللامعة الخاطفة ، ودفعت بجملتها بعد مداورات شتى إلى الحظائر وهى تصهل وترفس . فكان صباحاً رائعاً .

وارتددنا إلى البيت ، فاقترح ليهو ليهو مباراة بحبال القنص ، فراح كل اثنين يركضان فى السهل وآخران يتبعانهما ومعهما الحبال يديرانها فى الهواء ، فأشاع وقع الحوافر ، وحسيس الحبال الدائرة فى الهواء إحساسات غريبة فى نفسى .

وقلت لأبى فى تلك الليلة وأنا أحدثه عن فروسية ليهو ليهو التى لا مثيل لها : «إنه ليس

إلا عاملا ، ولكن صورته تعلق بنفسى وتخامرنى » .

فقال أبى على سبيل الإيضاح : « إن بعض الناس يلهبون الخيال . ولبهو لبهو هذا يحرك النفس ــ حتى نفوس الرجال . وإناك لتبخسعة منى . فقد كنت أسمع الضحك فى الظلام فتنازعنى نفسى أن أتبع الصوت . وأرى هذا أمراً فوق طاقتك ، فضعى لنفسك لجاماً »

وكنت أريد أن أرتب ما فى نفسى وأتبينه ، فسلكت خير طريق أعرفه ، وحدثت أبى فى هذا . ولقد ركبت وضحكت مع لبهو لبهو ، وأهدى إلىّ أزهاراً ، وغنانى ، وأعارنى جياده ، كما فعل كثيرون غيره من العمال ، ولكن الأمر فى هذه المرة كان تجربة يخفق لها القلب .

ولم يقل أبى شيئاً إلى أن أفضيت بما عندى ، ثم قال : « لولا أنك ولدت فى هذه الجزيرة لعدت بك إلى البيت غداً ، ولكن إذا كنت تريدين أن تكونى كاتبة ، وأن تكتبى شيئاً حيًّا ، فإنه ينبغى أن تجربى كل أنواع التجاريب ، غير أن عليك أن تتذكرى أن الغاية الحقيقية فى معركة الحياة ، ليست هى أن تفوزى بمظاهر التقدير ، بل أن تحتفظى بها لامعة وضيئة . وأنا أريد لك أن تمضى على سننك وأن تهجمى حيث يخاف الملائكة أن يخطوا ، ولكن عليك فى الوقت نفسه أن تفى لمثلك العليا ــ كائنة ما كانت » وتناول يدى وشد عليها وقال : « ابقى كما أنت ، وضّاءة مشرقة » .

فقلت وأنا أشهق : « مهلا ! إن الأمر ليس أمر لبهو لبهو ؟ ولكنك أوحيت إلىّ أخيراً فكرة كتاب حقيقى . فقد كنت أتعثر وأنا أكتب عما أحس أنه من الأشياء المحركة للنفس ، ولم أدرك قط أن هاواى أرض عذراء لم يمسّ كنوزها أحد إلا القليل الذى نبشته أيدى الغرباء منها » .

فالتمعت عينا أبى ، وقال : « امضى فى هذا ، فإن العالم الخارجى لا يحلم بهاواى التى نحبها ، ولا يعرف عن هذه الجزر إلا آلات العزف ومسابح الشاطىء » .



وأسفت وسررت حين عدنا إلى ماوى . ولكنى أحسست ونحن نطوف بالاسطبلات والحظائر أن أبى يتكلم بتحفظ . وفى اليوم التالى بعد الإفطار قال لنا : « أيها الأطفال ، إن عندى لكم أخباراً هى أكبر من أن نخوض فيها تحت سقف ، فأعدوا خيلكم » .

وركبنا فى صمت وقلق ، وكانت الحشائش التى استوردها من جميع أنحاء العالم تمس أرحل الخيل ، ومئات الآلاف من الأشجار

التى غرسها تذهب فى الهـواء تحت عين الشمس .

ولما ارتقينا فى الجبل إلى حيث نرى من تحتنا أرض المزرعة مبسـوطة كالصورات البارزة ، ترجل وقعدنا جميعاً على الحشيش الدافىء الجميل ، وقال أخيراً : « يحسن بى أيها الصغار أن أفضى إليكم بكل شىء دفعـــة واحدة ، فتنفسوا نفساً عميقاً وارفعـوا رؤوسـكم ! بعد أول العام الجديد ستنتقل إدارة المزرعة إلى سام بولدوين » .

فغمرنا الفزع والجزع ، واندفعنا إلى أبى واستطاع أن يلمنا جميعاً بين ذراعيه ، ولم يحاول أن يتكلم إلا بعد أن خف ما عرانا من الحزن .

وسألته : « منذ كم تعرف هذا ؟ »

« منذ أربعة شهور . وهذا هو السبب فى أنى أردت أن تذهبوا إلى مزرعة باركر ، فما كنت أريد أن تبقوا فى البيت أثناء التصفية الأخيرة ، وقد صدمنى فى البداية أن أعرف أنى سقيم لا أقدر على إدارة هذه المزرعة بعد اليوم ، ويرى آل بولدوين أن ساقى المهيضة قد تتحسن إذا لم أكثر من الركوب ، وسيظل مرتبى كما هو ، وسيوكل إلىّ أمر الخيـل الأصيلة ، وسنشيد بيتاً جديداً فى مرعى نتاج الخيـل ، وسينتقل بولدوين إلى هذا البيت القديم .

« وأنا أعتمد عليكم فى مساعدتى على جعل حياتنا الجديدة حافلة كالقديمة ، فإن الحياة مغامرة جليلة حتى حين يسـوء فيها الحظ — ولهذا أرجوا أن لا تكرّوا الطرف وتأسـفوا على انقضاء الأيام القديمـة ، واحشـدوا كل ما تستطيعون فى كل يوم جديد . وستجدون بعد قليل أن هذه الأيام الجديدة قد صارت هى أيام المستقبل القديمة الحميدة ، وفى أثناء ذلك ارفعوا رؤوسـكم فلا تهزمكم الدنيا .

« وسـيكون من التجارب النافعة لكم أن تتعلموا أن الحياة ليست هى التى لها القيمة ، وإنما الذى له قيمة هو الروح التى تحيون بها ، وسيقلّ عملى فيتسـع وقتى لكم . أفهمتم ما أعنى ؟ إن السعادة أن يصوغ المرء نفسه وعقله طبقاً لما تقتضيه الأحوال المحيطة به » .

فتذكرت أن مكالى قال لى مثل هـذا ولكن بألفاظ أخرى . ووضعت أبى فى الميزان ، فألفيتـه يضيف إلى الحياة الحب والضحك ويجعل لها غاية ، ويغريك بأن تمضى قدماً لترى ما يجىء المنعطف التالى فى طريقك . ونفض أبى الرماد من غليونه وسألنا : « هل تعاونونى على جعل كل يوم أحفل وأغنى من اليوم السابق ؟ »

إنه يسأل ! « اتفقنا . أنظروا إلى الأمام ، وارفعوا الرؤوس ، فإننا على طريقنا ! »

وبينما كان البيت الجديد يبنى ، بعث آل بولدوين بأبى وأنا معه فى رحلة دامت سبعة أشهر على نفقة المزرعة ، فزرنا الولايات المتحدة وطوّفنا بها ، ورحلنا إلى ألاسكا وكندا ، وتحسنت حرقفة أبى بفضل الراحة من الركوب .

وعدنا ثانية ، فتوثقت الوشائج بين أبى وبين أخوتى وبينى ، وكان الصغار يركبون بعد الإفطار مباشرة إلى المدرسة ، ويقصد أبى إلى الاسطبلات للإشراف على الخيل ، وأقعد أنا للكتابة . وفى أواخر الأسبوع يعج المكان بالناس حتى صار البيت الجديد أحفل بالضيوف من القديم ، ولكن أبى صار يتعبه ركوب جواد كبير فاضطر أخيراً إلى ركوب مهر ، وكنا نريح له ساقه بحمالة مدلاة من السرج . وكانت تمر أوقات يعود فيها كما كان ، كله بشر وابتهاج ، ولكنه كان على الأكثر كالمدّ الذى طال فبدأ ينحسر فى بطء .

ولم يقل أحد من إخوتى ولا أنا شيئاً ، ولكننا كنا نعلم ، وتواطأنا على أن نجعل الحياة مرحة غاصة فياضة كما كانت دائماً ، وعلى أن نجعله يشعر أنه فى فورة الحياة كل لحظة ، وأنه يحيي حياة قوية مندفعة ، لأنه ما من حياة أخرى توافق رجلا مثله .

وكنت، وأنا أعمل وأصلى وأدعو الله :
« اللهم أغدق عليه رحمتك فقد أغدقها علينا ، واشفه ورده إلى العافية يامن لا يعجزه شىء ، فإن لم يكن بدّ من قضائك فيه فاقبضه إليك وهو فى العنفوان قبل أن يقعده الوهن » .

ودعانى طبيب الأسرة يوماً إلى مكتبه وحدى ، وكان قد صور حرقفة أبى بأشعة إكس وسألنى : « ما مبلغ شجاعتك ؟ »

« لا أدرى . وسأتبين » .

« ياعزيزتى إن أباك لايمكن أن يبرأ ، وسيزداد سوءاً ، فإن نصف تجويف الحوض متدرّن ، وهذا مايجب أن يكتم عنه لإطالة حياته ، ولن يرى هذه الصور لأنى سأبدلها وقد شدخ التجويف من جراء تلك السقطة ، وأدى تعب الركوب ساعات إلى بقاء العظم ملتهباً » .

« أما لو قضى نحبه حالا ... »

« لاسبيل إلى ذلك » .

« كم يبقى ...؟ »

« يمكن أن يبقى سنوات ، ومن المحتمل أن تسوء الحالة بسرعة » .

« وسيكون متألماً طول الوقت ، ويزداد عجزاً عن فعل مايجب ؟ »

فهز الطبيب رأسه موافقاً .

وكانت هذه صدمة من أشد الصدمات فى حياتى ، ولكنى كنت كأنى أسمع صوت

أبي يقول: « تشدّدي » وكنت أدرك أن عليّ أن لا أخذل أحب الناس إلى ، على ظهر هذه الأرض .

وسارت الحياة في طريقها ، وكان أبي يركب مرتين فى الأسبوع إلى المستشفى ليعالج بالأشعة فوق البنفسجية التى قال الطبيب إنها قد نفعته ، وكان البيت يكتظ دائماً بالضيوف فى آخر الأسبوع. وجاءت فرقة من مروضى الجياد من الولايات المتحدة فأنزلها أبى معنا ، وصار إخوتى يركبون معها فى معارضها ، وأبى مبتهج كالطفل ، وفازت لورنا بمعظم الثناء ، وسررنا جميعاً حتى الضيوف .

وزحف الخريف بأيامه الجميلة التى تخطف الأنفاس ، وذهب طبيب الأسرة فى رحلة إلى الساحل وحل محله طبيب روسى شاب ، وبعد يوم من زيارة أبى للمستشفى دعانى إليه ، وكان يرتدى خير أحذيته وسراويله ، وكانت عيناه تومضان ، فقال: « أسرجوا لى الجواد بليبوى ، فسنركب للنزهة مرة أخرى » .

وكان ركوب هذا الجواد مشقة ، فذهبنا أنا وإخوتى إلى الإسطبل ونحن نشعر بفراغ واكتئاب ، ودار فى نفوسنا أن أبانا عرف أنه لن يشفى ، ولهذا يريد أن يخرج مع الأسرة فى نزهة على ظهور الخيل مرة قبل أن يقعده المرض ، ولكنه لم يخطر لى قط أن الطبيب الجديد صارح أبى بحقيقة حالته .

وامتطينا خير جياده ، وراحت الكلاب تعدو أمامنا ، وأصعدنا فى الجبال ثم ارتددنا بأقصى سرعة إلى البيت ، منحدرين على المهابط الوعرة ، ناهبين الأرض المستوية ، وأبى فى الطليعة ، وكنت أرى ظهره المتصلب ، فأعرف أنه مهما يكن ما يكابد من الألم فإنه سعيد بأن يحس الهواء يصافح أذنيه ، والجواد الكريم يعدو تحته .

ووقفنا مرة فى الطريق ، وأدار أبى عينه فى أرض المزرعة المترامية ، وكانت نظرته شاردة ، ولكن لا من الحزن بل من الاغتباط الشديد ، واحتجت إلى كل ما أوتيت من قوة الإرادة حتى لا أخور . وكان يبدو لى أن أبى يتبوأ عرشه القديم ، وأن الزمن والجزيرة يشاطرانه سروره ، فلا يجوز لنا أن نفسد عليه ذلك بالبكاء . وبينما كنا نواصل الركض هابطين خيّل إلىّ أن أبى يستعيد حياته الماضية حين كان يركب ويصيد الثيران ، وكانت الدموع تلذع عينى وتؤلمنى كأنها دماء منفجرة ، ولكنّ وراءها اغتباطاً بأنه يستعيد ذلك كله حقيقة لا تخيلاً .

ولما عدنا إلى البيت كان وجهه مربداً مكموداً من الألم ، والعرق يتصبب منه ، ولكنه قال « ألم يكن هذا ممتعاً ؟ » وبدا لحظة كأنه جبار من جبابرة الأساطير . وفى

تلك الليلة أحطنا بالنار وراح أبى يقص علينا ذكرياته ويبسطها أمامنا كأنها حصاد وفير لماضيه الحافل.

وقد أذكرتنى هـــذه النزهة فيما بعد بحادثة قديمة، حين أصيب الجواد تريدوند — خير جياد هولوماليا — إصابة قاتلة فى أثناء صيد الثيران الوحشـية بالجبال، فقال أبى يومئذ: «لا تحزن ياهولوماليا. لقدقضى تريدوند نحبــه وهو فى عنفوان نشوته، أما المأساة فهى أن تبقى حياً بعد أن منيت بالعجز، وأن تحس أن الحياة تتخطاك فى مرها، وأن تشـعر أن قبضتك تتراخى. أما أن تثب من هنا إلى هناك والحياة ما زالت أغنية جميلة، فهذه هى النعمة».

وجاءت النهاية بسرعة وفجأة. وكان أبى قد أرسـلنا فى مهمات تستغرق ساعة أو ساعتين، فلما رجعت وجدت الخادم «أداجى» ينتحب عند البوابة، ويتكلم بما لا يفهم، فاندفعت داخلة إلى غرفة أبى

ألفيتــه منحنياً على مكتبه وعلى صدر قميصه ثقبان مسودان من رصاصتين وحولهما إطار من الدم، وكان المسدس الذى أراح كثيراً من الحيوانات وأطلقها من إسار الشيخوخة أوالمرض، ملقى على الأرض.

وكان على المكتب رقعـــة فيها عبارة وجيزة: «أنا محطم، مقطـوع النفس، ومخنوق. ولست إلا حصاناً آخـر هرماً أريح قبل أن تنقلب الحياة لعنة بدلاً من أن تكون نعمة. وأنتم يا أبنائى تفهمون»



وكان المطر يهطل فوق السقوف، ويسحّ بقوة على الجزيرة، ويملأ الليـل بمثل أصـوات الهدير الهائل، وكأنما فى هـذا المطر المدرار قوة من قوى الطبيعة لا تعرف ضابطاً ولا كابحاً، أو كأنما هناك حشـد من الجلال. وكان بيتنا الذى كانت تتجاوب فيـه أصوات الرجال والمهاميز، ساكناً لا حس فيه، فقد مات أبى، ونزل «مطر الرؤساء تحيـّة له»، فإن أساطير هاواى تقول إنه لا ينزل مثل هـذا المطر السحاح الذى يطبّـق الأرض إلا حين يموت واحد من الأسرة المالكة، دلالة على أن الآلهة تحيِّى العضو الجـديد الذى ينضم إلى صفوفها. وكان يخيل إلىّ أن شبحاً شارداً مبتهجاً، قوياً عنيفاً يمشى فى الظـلام المدلهمّ، وقد تحرر روح أبى المرح البـاسل الذى ظل مقيداً خمس سـنوات إلى بدن محطم، فراحت الجزيرة والحديقـــة المغمورتان تنشدان أنشودة النصر، فكيف أحزن؟ لقـد فتح ذراعيه ووثب باختيـاره فوق الهاوية بين هنا وهناك، كما كان يثب بجواده

دون أن يخشى أن لا يبلغ الناحية الأخرى .

واستجابت مشاعرى المتوترة إلى مايهيب بها ويحركها من هذا الطوفان، لأفهم الرسالة المتكررة مرة بعد مرة ، رسالة الصوت القوى المنبعث من السماء .

وتجلى الأمر . فهذا الفردوس الذى نعمنا به على الأرض لابد أن يذهب مع الرجل الذى أوجده ، ولكن راية البهجة والشهامة التى رفعها أبى لايجوز أن تطوى، إذ نمضى نحن أفراخه إلى المصاير المقدورة لنا .

سعة الحيلة

نظرت إلى الطريق أمامى فأدهشنى أن أرى ما حسبتهُ جثة كلب ميت . فوقفت سيارتى ، وإذا صفير عال يقرع أذنىّ ، وإذا الكلب ينهض متثاقلا وينتفض ، ثم رأيت فتى فى الثانية عشرة يتقدم إلىّ من وراء شجرة ويقول : « هى حيلة تكاد تنجح دائماً فأظفر بصاحب سيارة ينقلنى بها مسافة ما »

[جون بريتماير]

كان أحد الباعة المتجولين ماضياً بسيارته فى طريق موحش ، فرأى فتاة حسناء تسير على قدميها ، فسرَّهُ أن يقف سيَّارته ويدعوها إلى الركوب معه ، فينقلها إلى المدينة . وقام فى ذهنه أنها قد تقبل دعوته إلى العشاء معه . ولكنها لم تكد تجلس فى مقعدها من السيارة حتى قالت : « هل لك أن تقف قليلاً لنحمل أمى معنا ، هى تلك السيدة التى أمامنا » .

[جوردن هلاند]

كنا على الطريق التى تجوز سفوح التلال فى كاليفورنيا الجنوبية ، فعجبنا لرجل رأيناه يعدو أمامنا ، فخطر ببالنا أنه فى حاجة إلى المعونة ، فوقفنا سيارتنا لكى ندعوه إلى ركوبها . فلما دخلها تغيَّرت حالهُ ولم يبدُ عليه أنهُ منطلق فى حاجة ملحَّة . فسأله زوجى : « أذاهب أنت فى طلب طبيب ؟ »

فقال الرجل : « لا . أنا ذاهب إلى مخزن « الزوايا الأربع » ، فزوجتى تريد بعض المطرّيات لوجهها ، وقد وجدت أننى إذا عدوت وقف من يرانى من أصحاب السيارات ودعانى إلى الركوب » .

[مسز إ . هـ . جيلوم]



آثرت الحرية

مختصرة من كتاب
فكتور كرافشنكو

في اليوم التاسع عشر من أغسطس ١٩٤٣ قدم فكتور كرافشنكو إلى وشنطن عضواً فى لجنة المشتريات السوفيتية ، وبعد ثمانية شهور تخلى عن عمله ، وقطع صلته بالحزب الشيوعى ، ونزل عن جنسيته السوفيتية . والحوادث التى حملته على هذا العمل الحاسم هى موضوع كتاب « آثرت الحرية » الذى كان ومازال من أوسع الكتب رواجاً منذ صدر .

وقد نشر المختار (أغسطس ١٩٤٦ صفحة ١٠٦) ملخصاً أول للكتاب ، يتناول حياة القلق والشك التى يعانيها الموظف السوفيتى فى الخارج . وفى هذا المختصر الثانى يرسم كرافشنكو صورة للحياة بين طبقة الموظفين العليا ، كما تبدو من مَرْقب قريب من قصر الكرملين] .

أُنْثرتُ الحرّيّة

دعيت ذات يوم إلى مكتب الرفيق أندريه أوتكين نائب رئيس السوفناركوم — مجلس وزراء الشعب — فى الجمهورية الروسية الاشتراكية فى اتحاد السوفيت ، فقال : « إننا محتاجون إلى مهندس من أعضاء الحزب ليرأس قسم هندسة التسليح للحرب ، وأظن أنك تصلح لهذا العمل » .

وكنت يومئذ كبير مهندسى البرومتريست ، وهو اتحاد صناعى يشرف على تسعة مصانع تشتغل بالإنتاج الحربى ، وهى وظيفة تبعاتها أقل بكثير مما دعيت إليه . فقلت : لست واثقاً من قدرتى على أن أتولى عملا مهماً كهذا .

فقال : « وأنا أرى أنك ستقوم بالعمل على وجه مرضٍ جداً ، فإنك ذو خبرة ، وقد كنا نراقب عملك فى الاتحاد » .

« إذا كان هذا رأيك ، فإنه ينبغى طبعاً أن أقبل » .

وهكذا حدث فى آخر مايو ١٩٤٢ ، فبعد بحث شامل قامت به هيئة البوليس السرى ، (النكفيدا) . وبعد تأييد اللجنة المركزية للحزب ، اتخذت مكتبى بجوار مكتب أوتكين ، وقد بقيت فى هذه الوظيفة نحو عام ، كنت فى خلاله مندمجاً فى دائرة الحكام الداخلية ، ومخولا أن أحمل رمز السلطة السحرى ، البطاقة الحمراء الخاصة ذات الحروف المذهبة . فكنت بذلك من أعضاء الحكومة .

وللروسيين كلمة يعبرون بها عن ذلك هى فلاست أى « السلطان » ، ومعناها السلطة العليا ، ولكنها تعنى ماهو أكبر من ذلك : ستالين ، والمكتب السياسى للحزب ، والبوليس السرى ، وحاشية ستالين بألقاب أو بغير ألقاب . على أن هذه الكلمة تملأ نفس المواطن العادى رهبة ونفوراً ، لأنها تصور له المسافة المترامية التى تفصل هذه الطبقة القوية المختارة عن جماهير الناس .

وقد كنت فى مجلس وزراء الشعب أتبوأ مكاناً قريباً من ذروة السلطة ، حيث يسير أعلى الحكام فى فلك آخر من الحياة الإنسانية ، ويشعرون أنهم مُعفَون من التقيد بالأخلاق والمشاعر العادية التى ينبذونها لأنها « نزعات برجوازية » و « مبادىء حرّة متعفنة » .

وكان على رأس مجلسنا كونستانتين بامفيلوف ، وهو رجل بلغ قربه من الحاشية المقرّبة أنه لما مات دفن فى جدار الكرملين بالميدان الأحمر . وكانت خمس مصالح قوية تتبع مساعده الأول أندريه أوتكين ، وأنا أتولى إحداها ، فليس بينى وبين القمة سوى

خطوتين . وكانت مصلحتى مقسمة إلى عدة أقسام فنية ، يديرها الذين يساعدوننى .

وقد كنت أدرك طبعاً أن فترة ارتقائى الوجيزة خطرة ، فقد رفعنى هوى بعضهم ، وفى الوسع أن ترمى بى إصبع ناعمة من أصابع من هم فوقى ، وهؤلاء يستطيع رؤساؤهم أن يلقوا بهم إلى الأعماق بغير إنذار . وكثيراً ما كنت أرى بامفياوف أو أوتكين يرتجف فى حضرة رئيس من رؤساء البوليس السرى أو بعض المقربين من حاشية الرئيس الأعلى ، وكنت أسمعهما يشتمان بألفاظ قذرة كأنهما بعض الخدم الذين ارتكبوا إثماً ، ولاغرو فإن التوازن فى ظل الدكتاتورية يتم تمامه فى ميزان دقيق تضطرب كفتاه بالسلطة المطلقة والخوف الذى لاحد له .

وكان القليلون منا الذين يمثلون الفلاست، أو السلطان فى مجلس الوكلاء — وهم نحو ثلاثين رجلا — معزولين عمن هم دونهم من الموظفين والمستخدمين بوسائل شتى . فقد كان لنا طابقنا الخاص وهو ساكن سكون المعبد ، ويحرسه رجال من البوليس السرى من طبقة الضباط ، ولمكاتبنا الرحيبة أبواب مزدوجة لتحول دون استراق السمع . وكانت تقدم لنا ألوان من الطعام الجيد للإفطار والعشاء فى مكاتبنا مجاناً ، ولنا حجرة طعام خاصة للوجبات الأخرى بأثمان تافهة ، ومن أنفس امتيازاتنا حق دخول مستشفى الكرملين والانتفاع بصيدليته يوم كان الجمهور لا يجد سبيلا إلى الأطباء والأدوية .

وقد أكون فى حياتى الخاصة شيئاً لاقيمة له ، ولكنى فى مكتبى كنت محمياً كأنى كنز وطنى عظيم . فما من غريب يستطيع أن يزورنى بغير إذن صريح منى ، فأكتب جوازاً للزائر وأختمه بخاتمى الخاص ، وقبل أن يسلم إليه الجواز يطلب منى رقباء البوابة تأييداً للاذن بالتلفون ، ولكى يستوثق الرقباء من أن مخاطبهم ليس رجلا محتالا ، كان ينبغى أن أطمئنهم بكلمة سر لا يعرفها إلا أنا والبوليس السرى . ومتى تلقى الزائر الجواز ، فإن شخصيته تفحص أربع مرات على أربع مراحل قبل أن يصل إلى غرفة الاستقبال عندى .

ولم يكن لأحد دونى فى المنصب أن يصدر جوازاً مهما بلغ من عظمة الشأن ، فإذا احتاج أحد مساعدى إلى بعض الغرباء فإن عليه أن يبسط لى الأمر ، فإذا رأيت أن الزيارة ضرورية اتخذت التدابير اللازمة .

وكانت هيئتنا أيضاً ، مثل الكرملين واللجنة المركزية للحزب ، يحميها فوق ذلك نظام معروف باسم « رقعة الشطرنج » .

ففي أوقات غير منتظمة كان الحرس من رجال البوليس السرى يغيّرون بإشارة من نقطة الرقابة المركزية ، كما تنقل قطع الشطرنج ، فينقلون فجأة بغـير تنبيه ، ويجرى تنقيلهم على نحو معقد ، فما من حارس يستطيع أن يعرف أين يكون فى وقت معين ، وهكذا يستحيل أن يتواطأ أربعة أو خمسة من الحراس على إدخال زائر غير مرخص له .

على أن الرمز الحقيقى لمنصبى العالى الجديد لم يكن هذه اليقظة فى الحراسة ولا حق فى إصدار الإذن ، وإنما كان شيئاً عادياً فى الظاهر ولكن له دلالة أو قيمة خاصة فى حياة ذوى المناصب الرفيعة ، وهو خزانة أعرف أنا وحدى أرقام قفلها — لم أكن وحدى فى الحقيقة فى ذلك ، فقد كان رجال البوليس السرى يشاطروننى هذا السر ، غير أن الرؤساء لا يكلون مثل هذه الخزانات إلا لذوى المناصب الكبيرة . ولم يكن ثم إلا خزانة واحدة ، هى خزانة ستالين ، يجهل البوليس السرى أرقام قفلها .

حتى أوتكين وبامفيلوف حين يزوران مكتبى ، ينظـران إلى الخزانة متطلعين ، ويتساءلان فى سرهما عما عسانى قد دونته فى الملفات عن أوامرهما وتعليماتهما الشفوية ، وذلك لأنه لما كانت الخزانة هى أرض الصيد المحببة إلى البوليس السرى ، فإن أنجع وسيلة للوشاية بالرؤساء دون أن يخاطر المرء بكتابة تقرير صريح إلى البوليس ، هى أن يدون المرء الحقائق «لنفسه» ويخبئها فى خزانتـه الخاصة .

ولن أنسى أول يوم لى فى منصبى الجديد ، فقد وصلت فى الساعة العاشرة صباحاً ، وكان السكرتيرون والمسـاعدون فى أماكنهم ، وكانت الأوراق التى تتطلب أن أنظر فيها مرتبة بعناية على مكتبى الذى تطل عليه صورة كبيرة لستالين . وما كدت أجلس إلى مكتبى حتى دق التلفون ، وكان المتكلم ضابطاً من البوليس السرى يسأل هل آذن له فى المثول أمامى ، وكانت هذه أول مرة يطلب فيها إذنى بالزيارة ممثل لهـذه الهيئة المخيفـة ، وكانت تعليماته وشروحه للإجراءات مظهراً لهذا التلطف الذى لم يسبق له مثيل .

وفى الساعة الحادية عشرة أقبلت خادمة بالفطور : بيضتين وشىء من اللحم وزبد ، وقدح من الشاى ، وكعكات وخبز أبيض ، وكان هذا كله فيما عدا البيض والشاى من فضل قانون الإعارة والتأجير الأمريكى .

وكانت الخادمة فى العقد الرابع من عمرها ، وثيابهـا حسنة ، ولكن شيئاً فى وجهها المتهضّم صدّنى عن الطعام ، فتركت بيضة ، وبعض اللحم وكسرات من الخـبز

وقطعة من السكر ، كأنما كان هـــذا فوق ما أستطيع التهامه. ولما قرعت الجرس دخلت سكرتيرتى وحملت الصحاف ، ثم جاءت بعد ذلك بأوراق لتـــوقيعها ، فوقفت بجانب المكتب لحظة وهى غير مستقرة .

وقالت: « يخجلنى أن أقول ذلك ، ولكنى اجترأت على أكل ما تخلف من فطورك . فأرجـــو أن تصفح عنى . إن من الصعب أن يمسك الإنسان رمقه » .

فقلت : « يسرنى أنك فعلت ذلك ، ولكنى أقول بصراحة أنى كنت أفكر فى أن الخادمة ... »

فقاطعتنى قائلة: « ولكنى أنا وليزا متفاهمتان؛ فيوماً آخذ أنا المتخلف ، ويوماً آخر تأخذه هى . الجوع فظيع، وهو أقوى من الحياء » .

ومنذ ذلك اليـــوم طول الشهور التى قضيتها فى هذا المنصب، كنت لا آكل إلا نصف فطورى ، وأترك الباقى لليزا وسكرتيرتى ، وعلمت أن ليزا كانت تحمل نصيبها إلى البيت لتطعم طفليها الصغيرين .

ولما كان منصبي قريباً من القمة ، فقد سمعت كثيراً مما يصح أن يوصف بأنه أخبار عليا . وفى حينما تكون الصحافة تحت الرقابة التامة تكون مثل هذه الأخبار الشفوية ، ــ ولاسيما إذا كانت لها صبغة غير مشروعة ــ ذات قيمة كبيرة .

فالخلاف بين زعيمين فى القمة ، وصعود نجم موظف وأفول نجم آخر ، وملاحظة لاذعة يبديها « الرئيس » نفسه ــــ هذه كانت مواد الأسرار التى نتبادلها بلهفة .

وقد تيسر لى أن أعرف أن كاجانوفتش وأندرييف ــــ وكلاهما من أعضاء المكتب السياسى ، متعاديان وكل منهما يدسّ لصاحبه ليفوز بالحظوة عند ستالين ، وأن ميكويان ومولوتوف يتنافسان على المحل الأول عنده ــ أى ستالين ، وأن مخليس رئيس الدائرة السياسية للجيش الأحمر أقصى فى هدوء عن منصبه لأنه وهو يهودى قد صار هدفاً صالحاً للدعاية النازية بين الجهلة من الجنود ، وأن فاسيلى ــــ أحب أبناء ستالين إليه ــــ لا يزال يقع فى متاعب يجرها عليه الشراب والبنات والطيش فى قيادة السيارات .

على أن ستالين نفسه كان أشد موضوعات اللغط إنعاشاً للنفوس ، فقد كانت كل كلمة من كلماته تجترّ وتحلل، وكانت محابّه ومباغضه ، وصحته وعاداته وعيوبه ، تثير من الاهتمام بين رجال حاشيته فوق ما يثيره سير الحرب أو مصير الثورة العالمية .

وقد علمت أن ستالين مولع بالشطرنج والبليارد ، وأنه ماهر حاذق فيهما ، وعلمت كذلك أنه يؤثر القـــوقازيين أى أهل جورجيا وأرمينيا على الروسيين ، وأن هؤلاء

القوقازيين، وإن كانوا جزءاً ضئيلا من جملة أهل الاتحاد السوفيتي، منتشرون فى جميع نواحى النظام القائم .

وكنا جميعاً نعلم أن ستالين يحب الأمثال، فبعد أن عقد ميثاقه مع هتلر قيل إنه قطع الحديث فى المجلس السياسى بمثل من أمثاله التى يحبها : « لست أضمن طعم هذا الصنف ، ولكنه سيكون حاراً ! » ، وكان أحياناً إذا أطال بعضهم فى الكلام ، يقترح بلطف : « اقلب الأوزة وإلا جاوزت بها حد الإنضاج » ، أو يرى المتكلم يكثر من التمهيد قبل الدخول فى الموضوع فيقول : « إناث تخور كالبقرة جاءها المخاض ، ولكن أين العجل ؟ »

ويعتقد أصفياء ستالين اعتقاداً راسخاً أنه يؤمن بالخرافات ، وأنه غير أحياناً خططه لأن « العلامات » لا تؤذن بالتوفيق . ولعله الوحيد بين الدكتاتورين والساسة الناجحين الذى يعد « ذئباً مستفرداً » ، وأنه حريص على العزلة ، يحجب نفسه فترات طويلة للتفكير وحده . وعسى أن يكون الوحيد بين زعماء الكرملين الذى يندر أن يغتابه أحد ، على حين تلهج الألسنة بغير انقطاع عن الزعماء الآخرين والراقصات والممثلات وحفلات الشراب وما إليها .

ويتفق الذين عرفوه منذ زمن طويل معرفة وثيقة على أنه منتقم ، ولم يعهد فيه قط أنه نسى أو اغتفر مساءة ، وقد أحاط نفسه برجال من نفس هذا المعدن — رجال أقوياء الشكيمة ، ليس فيهم رقة أو تسامح . على أن سوء ظن ستالين بالذين يحفون به كالمرض ، لا يسمح له بأن يستثنى حتى الذين يرضى عنهم فى أى وقت معين . ولا يكاد يكون هناك شك فى أنه يعدّ كل واحد منهم متآمراً عليه أو متربصاً .

وكان علينا فى طبقة الموظفين التى انتمى إليها ، من التبعات فوق مالنا من السلطة . فقد كنا فى وظائف أعلى من أن تسمح لنا بالراحة ، كصغار الموظفين والمستخدمين العاديين ، ولكن وظائفنا فى هذا اليوم لم تكن من السمو بحيث تجيز لنا أن نلقى العبء واللوم على كواهل غيرنا .

على أن أثقل ما عانيناه كان قلة النوم ، وكان الأسبوع الذى استطعت فيه أن أنام خمس ساعات فى اليوم ، فلتة . وكان معظم رجال المكتب والمتخصصين يعملون عادة من الساعة التاسعة إلى الساعة الخامسة ، أما يوم عملى فكان يستمر من العاشرة أو الحادية عشرة إلى الثالثة أو الرابعة من صباح اليوم التالى ، وكثيراً ما كان يجاوز ذلك . وكان يندر أن أختلس بضع ساعات من

المساء أقضيها فى البيت مع زوجتى . وكنت فى بعض الأحيان أجازف فأنام ساعة أو ساعتين نوماً مضطرباً على أريكة فى مكتبى ، والباب موصد وجهاز التلفون بجانب أذنى حتى لا يتبين أحد أنى نائم .

وكان نظام العمل فى الطبقة العليا من الموظفين فى موسكو غريباً ، لأنه يجرى على النسق الخاص الذى اقتضته عادات رجل واحد . وكان ستالين يبدأ يومه عادة حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً ، ويظل يعمل حتى الرابعة أو الخامسة مساء ، ثم ينام إلى العاشرة أو الحادية عشرة مساء ، ويستأنف العمل إلى الثالثة أو الرابعة صباحاً أو إلى ما بعدها . وكانت جلسة العمل ليلاً هى أهم الاثنتين .

فالعمل فى العاصمة منظم تبعاً لساعة ستالين الشاذة . فكان الموظفون الأعلون ينشطون للعمل حين يصل « الرئيس » إلى مكتبه (كما كنا جميعاً نسميه فى أحاديثنا) ولا يفترون إلا حين يعود إلى بيته . وكانت بقية البلاد ، لدوام اتصالها التلفونى بعقر الرياسة وشعورها الدقيق بحالاته ، تجرى أيضاً على هذا المنوال . ولهذا كان الواقع أن المد والجزر فى حياة الحكومة فى روسيا كلها خاضعين لهذا التأثير .

ففى مصلحتنا مثلا ، كان بامفيلوف وأوتكين يحرصان على أن يكونا فى مكتبيهما قبل أن يصل ستالين إلى مكتبه ، ويبقيان إلى أن يغادره . أما أنا فكنت حريصاً على أن أبدأ عملى قبل أن يجيء رؤسائى المباشرون ، كما كان مساعدىّ يحضرون قبلى . ولم أنصرف قط بغير إذن صريح ، وقبل أن يفرغ رؤسائى من عملهم ليلاً ، ولهذا كنت أقضى فى العمل ١٧ أو ١٨ ساعة. وكان أوتكين وبامفيلوف لايشكون فى أنى حاضر إلى جانب التلفون حين يحتاجان إلى مخاطبتى ، كما كان ستالين أو مولوتوف لا يشك فى أن بامفيلوف يباشر عمله فى مكتبه حين يخطر له أن يطلبه تلفونياً .

وكانت مصلحتنا ، باعتبار أنها أداة التنفيذ والإشراف للجنة الدفاع المهيمنة، مسئولة عن جانب ضخم من الإنتاج الحربى كله . وكان بعض هذه المهمة الهائلة موكولا إلى القسم الذى أتولاه ، فكانت مئات من الأوامر والقرارات والشكاوى والتهديدات تصل إلى مكتبى بإمضاء ستالين وألصق أعوانه به ، وكنت على اتصال مستمر بكل مصلحة ، وبالمصانع والمكاتب الصناعية الخاصة ، والمصالح الأقليمية فى طول البلاد وعرضها ، فكانت حياتى سعياً محموماً لتهيئة المواد والوقود والعمال ، ولزيادة الإنتاج فى فترات معينة من الوقت .

وقد تبينت من أول الأمر تقريباً مبلغ النقص المحزن فى المـواد اللازمة للحرب ، وذلك فى مؤتمر عقـده ألـكسى كاسيجين أحد أعوان ستالين الأقوياء ، وكان موعد انعقـاد المؤتمر الساعة الأولى بعد منتصف الليل بالكرملين،فلما دخلنا حجرة كاسيجين ساد الصمت والسكون،واختفت الابتسامات، ولبس كل واحد قناعه الرسمى .

وهـذه الحجرة البيضاوية فسيحة عالية السقف . ويجلس كاسيجين ، الذى يرتدى ثياباً مصنوعة خارج روسـيا ، إلى رأس المائدة الطويلة ، ووجهه صارم وعليه دلائل التعب والسهر ، ونحييه فيرد بهزة من رأسه ويأمرنا أن نجلس ويقول : « فليقدم رئيس الجفيوك تقريره » .

« والجفيـــوك » اسم مختصر لمصلحة المارشال فوروبيوف وهى تتولى التجهيزات العسكرية ، ولم يفتنا أن المارشال لم يخاطب باسمه ولقبه : كاسيجين إذن غير راضٍ .

ويتكلم المارشال فوروبيوف خمس عشرة دقيقة مستنداً إلى حزمة من المذكرات ، ويسرد أرقاماً وأرقاماً أخرى أكثر ، والصورة كلها حالكة قاطعة بنقص المواد : لا زوارق بحارية ، ولاجسور معدة من قبل لعبور الأنهار ، ولا ألغـام لتعويق زحف العدو ، ولا مصانع متنقـلة للإصلاح ، بل لافؤوس ولا مجارف للمشـــاة ، (وينظر كاسيجين إلى الإضبامة التى أمامه ويبدى الملل والضجر) ، ويمضى المارشال فى بيانه ولـكن شعوره لايلبث أن يتفجر من تحت قناعه العسكرى الصلب ، فيصيح :

« إن الناس يموتون بالآلاف فى جبهـة القتال فى هذه اللحظة ! فلماذا لا نستطيع أن نزودهم على الأقل بألزم مايلزم لهم؟ لقد أمر الرفيق ستالين بنفسه ثمـانى مرات بالمصابيح ولـكنها لاتزال تنقص الجبهة . إنى أناشدكم أيها الرفقاء الذين تقفون على رأس الصناعة باسم الجنـدى البسيط الذى يقاتل فى الميدان » .

فيسأله كاسيجين: « أى نوع من المصابيح تشير إليه ؟» فيرفع كولونيل مصباحاً ساذجاً له إطار من المعدن وجوانب من الزجاج ، هو النوع المطلوب بدلا من بطاريات الإشارة. فيسأل كاسيجين بغضب : « ولِمَ لا نستطيع أن نصنع حتى هذه التوافه ؟ »

ويتفق أنى على علم بهذه المسألة ، فأقول أن إنتاج المصابيح قد أبطأ لأنه ليس عندنا رقائق معدنية، ولا آلات لتكييفها، ولا زجاج من النوع أو الحجم المطلوب .

فيدق كاسيجين المائدة بقبضة يده ويقول: « يجب أن ينتهى هذا الجمود الإجرامى ! ويجب أن نصنع المصابيح ! ويجب أن يكون

الإنتاج الحربى كما أمر الرفيق ستالين ! سوسنين — هات تقريرك ! »

ويتكلم وزير مواد البناء — وهو رجل طويل كئيب الوجه — بلهجة مملة واشية باليأس ، فإن مهمته عسيرة . ذلك بأن الآلات فى كراسنو يارسك فى حالة سيئة ومحطة توليد الكهرباء معطلة ، ولا يوجد العمال الصالحون .

ويستمر المؤتمر ساعة بعد ساعة ، وكل تقرير يقدمه وزير يزيد اليأس ، و « عنق الزجاجة » فى المواد والآلات ووسائل النقل تبدو كأنها تعددت فصارت كأنها غابة مضلة من « أعناق الزجاجات » لاسبيل إلى اختراقها، ويكف كاسيجين عن السؤال ، ويصرخ بالأوامر ، ويعين الأرقام والتواريخ دون أن يستشير أحداً . ونحن نعلم ، وكاسيجين يعلم ، أن وجوه النقص حقيقية ، وأنه ما من أحد منا يستطيع أن يأتى بالمعجزات .

وفى أثناء المؤتمر يدق التلفون ، فتتغير هيئة كاسيجين كلها فجأة ، وينقلب رقيقاً خانعاً، ومن البديهى أنه يعرف ممن التلفون. « نعم ، يايوسف فيساريونوفتش . . . طبعاً سنعمل هذا ! » . ستالين ! وتسرى فى أبداننا الرهبة ، ونجلس جميعاً صامتين جامدين كالتماثيل ، حتى يعيد كاسيجين السماعة بعناية ، ويحتاج إلى خمس دقائق ليستعيد مظهر الغضب ويستأنف لهجة الأمر والشتم .

وتبلغ الساعة منتصف الخامسة صباحاً قبل أن يطلق سراحنا ، وقد صيح بنا وشُتمنا شتماً قبيحاً ، ولعل العبارات البذيئة الشائعة فى كل مكان بين الطبقات العليا فى النظام السوفيتى هى أبرز مايذكر بأصله الذى يرجع إلى الطبقات العاملة . وقد خرج كل واحد مثقلا بأوامر بطلب موادّ أرقامها تدير الرأس . ونحن جميعاً نعلم أن هذا مستحيل، وأن الأرقام قد رفعت عمداً لتعتصر آخر قطرة من مجهود الصناعة .

وقد شهدت عشرات من هذه المؤتمرات فى الكرملين ، عقدها غير واحد من مندوبى ستالين ، وكانت الإجراءات ومظاهر الغضب والمطالب ، والتهديدات لاتختلف .

وقد عرفت بفضل جهودى اليائسة لتنظيم الإنتاج الذى تصنعه أبسط الأدوات ، قيمة مايتدفق من الأسلحة والمواد والآلات من أمريكا بمقتضى قانون الإعارة والتأجير فى إدراك النصر ، وذلك لأننا كنا نواجه نقصاً فى كل ناحية .

وسأذكر دائماً تلك الليلة التى أقبل علىّ

فيها جنرال فى الجيش الأحمر وجلس فى مكتبى يتوسل إلىّ ، والدموع تنهمر من عينيه ، أن أزوده بآلات يقطع بها الأسلاك الشائكة ، وقد قال إن آلافاً من جنودنا يتطعون ويذبحون بغير موجب من جراء حاجتهم إلى هذه الآلات البسيطة، وقد طلبت فى حضرته الوزراء فى موسكو ومديرى المصانع خارجها ، ولكن مافائدة الهياج والتهديد والصياح ، مادامت المصانع ليس فيها الصلب اللازم أو الأدوات أو الآلات ؟

وكان البحث عن أحذية الخيل مدعاة لعقد مؤتمرات لا آخر لها ، ومخاطبات تلفونية مستمرة ، ومتاعب وآلام شتى . وقد احتجنا مرة أن نستولى على آلاف من بوصلات المدارس ووزعناها بشح على الجبهات المختلفة ، وكان الأمر الذى أصدره ستالين بتوقيعه يطلب ٥٠٠٠٠ بوصلة لميادين الحرب ولكن الصلب المغنطس لم يكن إليه سبيل .

وكانت الأوامر التى أتلقاها من فوق كثيراً ما تكون هستيرية اللهجة ، وكان الأمر الصادر بتوقيع ستالين أو أحد أمنائه ، بطلب قطعة جوهرية من قطع الدبابات أو جهاز للطائرات لاغنى عنه ، لايجىء إلا ومعه إنذار بعقاب لارحمة فيه .

« إن الإشراف على تنفيذ هذا الأمر مفروض على وزير الشعب فى شئون الهيمنة الرفيق بوبوف ، وكل من يرتكب مخالفة هذا الأمر كائناً من كان ، يعد مسئولا (وهذا معناه العزل والمحاكمة أمام محكمة عسكرية) ويجب أن يبلغ أمره إلىّ » .

وهذا هو أسلوب ستالين المعهود ، وكل موظف يقلده فى علاقته بمن هم دونه ، وهى لغة الخوف والتخويف بغير تزويق أو تمويه ، والمقصود بها هو تذكيرنا صراحة بمعسكرات الاعتقال وفرق الإعدام . ومع أن الخطاب قد يكون موجهاً إلى زعماء أقوياء تقشعر أبدان الروسيين لذكر أسمائهم ، إلا أن ستالين ومعاونيه الأدنين لم يكن يفوتهم قط أن يهددوا بالاعتقال والعقاب .

ولم يسبق قط أن كددت هذا الكدّ ، أو عملت وأنا أشعر شعوراً مستغرقاً كهذا بالإخفاق . وسرعان ماصار لونى متغيراً وعيناى ملتهبتين ، ومسّ الحمى يأخذنى ، وذلك مايحدثه التعب الدائم .

وكان كل من حولى من الرجال والنساء يكدون مثل كدى ، ولا شك أنه كان بينهم من يمقتون الاستبداد السوفيتى كما أمقته ، غير أن آراءنا السياسية لم تضعف من إخلاصنا لقضية النصر . فقد كانت بلادنا فى خطر — فكل ماعدا ذلك لاقيمة له ، ولم يكن أحد منا يحتاج إلى حافز آخر إلى العمل ، فالتهديد إسراف لاموجب له فيما يتعلق بنا .

وكان مجلسنا كله من بامفيلوف إلى أصغر كاتب موكل بحفظ الملفات ، يجرفه عباب طام من الوطنية المنبعثة من أعمق أعماق التاريخ الروسي والأرض الروسية . أما وكلاء الدعاية الصغار التابعون لأداة ستالين في الداخل والخارج ، الذين يحاولون أن يعللوا هذه الفورة بأنها ظاهرة شيوعية، فإنهم يظلمون روسيا ظلماً قبيحاً ، لأنهم يحاولون أن يفسروا قوة متأصلة لا يحدها زمان تفسيراً قائماً على الآراء الحزبية التافهة . فما كانت المعجزة إلا معجزة روسية لا سوفيتية، ولا دخل فيها لكارل ماركس ولا ستالين .

وكانت الشهور التي قضيتها في هذا المجلس هي التي دارت فيها أقسى معارك الحرب وأشدها مرارة ، وأعني بها الموقعة المستيئسة في سبيل ستالنجراد ، وكان الجمهور الروسي أقل معرفة بمجرى هذه المعركة المتطاولة من بقية العالم . ولكننا نحن بفضل مراكزنا في الحكومة لم يكن يسعنا إلا أن نعرف كيف جرت الدماء أنهاراً ، وماذا اتخذ من التدابير القاسية لدرء عواقبها .

وكان التجنيد يجري منذ زمان طويل على نحو لا نظير له في أية دولة أخرى ، وكانت أعمار رجالنا المقاتلين تتراوح بين السادسة عشرة والسادسة والخمسين، وانقطع التظاهر بالفحص الطبي ، والإعفاء من الخدمة من أجل من لا عائل لهم غير المجند ، بأمر سري صدر عن ستالين نفسه ، وكان آلاف من قدماء المحاربين يردون إلى جبهة القتال قبل أن تندمل جراحهم ، وكان الصبيان والبنات ممن لا يتجاوزون سن التعليم وأمهات الأطفال الصغار ، بل نساء المزارع التي خلت من رجالها ، هؤلاء جميعاً كانوا يحشدون للعمل في المصانع .

وفي هذه الأزمة المستحكمة في موارد القادرين من رجال ونساء ، كان تسخير الملايين من السجناء السياسيين عاملاً ذا شأن عظيم — بل أهم عامل — في إنقاذ الاقتصاد الحربي السوفيتي ، وهذه حقيقة يجب أن نواجه مهما يكن ما تنطوي عليه مما لا يخف على النفس . وأنا أعلم مما رأيته في نطاق واسع أن معظم الصناعات الحربية استخدمت فرقاً من الأرقاء ، وأن المعول الأول أو الأوحد في معظم المصانع كان على هذه السخرة ، فالذين يلغطون في الخارج عن النصر الروسي وأنه دليل على « نجاح النظام السوفيتي » قد يكونون أقرب إلى الصواب إذا مجدوا نجاح نظام السخرة الذي جرت عليه الدولة في نطاق واسع .

وبزيادة اعتماد الصناعة على الجيوش الجرارة من السجناء المسترقين ، تضخمت

صفوفهم إلى حد لم يسبق له مثيل بسبب الاعتقالات التى اقتضتها الحرب ، وقد كان التقدير المسلم به فى الدوائر الرسمية لهذا الجيش من العمال عشرين مليوناً . وقد استرق النازيون أبناء البلاد المغزوة واستخدموهم فى صناعاتهم الحربية . أما الكرملين فاسترق أمته . ومن السهل أن يتصور المرء الأحوال الفظيعة التى كان يعيش فيها السجناء يوم كان الجوع قاسياً فى البلاد ، وكان البوليس السرى يعدهم ممن لاداعى للحرص عليهم ، فهو لايسأل عما يصيبهم أوعن الوفيات بينهم .

وقد طال فى مجلسنا بحث مسألة إخلاء معسكرات الاعتقال ، على حين كان الألمانيون يتقدمون ، فقد كان نقل هذه الجماعات المسترقة أهم من نقل المواطنين الأحرار ، لأن لاستخدامهم فى العمل قيمة اقتصادية تستحق الحرص عليها . وأهم من ذلك أن هؤلاء السجناء لم يكن من المنتظر أن يحبوا النظام السوفيتى ، فهم قد يصبحون عوناً للألمان . وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء السجناء إذا وقعوا فى الأسر فإن العالم الخارجى قد يقف منهم على بعض الأسرار الفظيعة عن مدى نظام الاستعباد السوفيتى وعن تطبيقه .

وقد وقف بعضنا فى المجلس على حوادث قتل فيها السجناء بالجملة لما تبين أن من العسير نقلهم وقد حدث هذا فى منسك ، وسمولنسك وكييف ، وخاركوف ، ودنيبروبتروفسك ، وزباروجى .

وكنت فى إلحاحى على المصالح أن تسرع فى الإنتاج ، أجد دائماً معوقاً فى نقص الأيدى العاملة ، وكثيراً ما طالب بامفيلوف رئيس البوليس السرى بالأيدى العاملة لتزويد هذا المصنع الرئيسى أو ذاك ، وكان أحياناً يرفع الأمر إلى مولوتوف مباشرة أو إلى بيريا رئيس البوليس السرى الأعلى .

ولا أزال أذكر بوضوح حديثاً أمرت به مع أحد كبار رجال « الجولاج » (الإدارة المركزية لمعسكرات السخرة) ، وكان مطلوباً منه أن يقدم بضع مئات من السجناء لعمل مستعجل ، وكان الضغط الواقع علينا فظيعاً من أجل هذه المهمة ، فدعوت موظف الجولاج من أجل ذلك لحسم الأمر .

فقاطعنى قائلا : « أيها الرفيق كرافشنكو ، كن رجلا عاقلاً ، فإن مصلحتك ليست الوحيدة التى تصيح مطالبة بالعمال . فهذه لجنة الدفاع تطالب بهم ، والرفيق ميكويان يسوّد عيشنا ، وفوروشيلوف يطلب عمالا لتمهيد الطرق ، ومن الطبيعي أن يظن كل واحد أن مهمته أعظم المهمات وأولاها بالتقديم . فماذا نصنع ؟ الواقع أننا لم ننجز إلى الآن خططنا الخاصة بالاعتقالات .

ولا يزال الطلب أكبر من العرض » .

ولم يكن بطبيعة الحال يعني أن الاعتقالات تدبر فعلا لمواجهة مطالب العمل ، وإنما كان يشكو فقط ، بالأسلوب السوفيتي ، من أن الملايين في جيوش السخرة لاتكفي لإجابة الطلبات جميعاً ، غير أن ما في عبارته من القسوة لا يزال يجرى الرعشة في بدني .

ولا تزال رحلة قمت بها من أجل عملي منقوشة نقشاً أليماً على لوح ذكراتي . وليس في مقدور أحد إلا أن يكون شاعراً من طبقة دانتي ، أن يرسم بالألفاظ صورة لذلك المصنع السري المخبوء تحت الأرض ، وهو تابع لوزارة التموين ، وأكثر من يعملون فيه من المسخرين .

وهو واقع في منطقة غابات كثيفة في إقليم موسكو ، ولا بد من إذن خاص لركوب القطار الذي يحملنا إليه . وقد فحص ضباط البوليس السري أوراقنا عدة مرات ، وكان القطار يسير ببطء ، وكنا نرى من النوافذ مرة بعد مرة طوائف كبيرة من السجناء — فما من أحد يعجز عن أن يتبين حال هؤلاء البؤساء — وهم يقطعون الأشجار ويكومونها ويجرونها إلى الخطوط الحديدية ، وأخيراً وقفنا عند نهاية الخط الجديد .

وكان هناك مصنع للذخائر يقوم في رقعة من الفضاء ، وفيما وراءه في الغابة توجد المداخل الضيقة الخفية إلى الحجرات في جوف الأرض ، وقد موهت بعناية ودقة ، حيث أقيمت المصانع الكبيرة التي يعمل فيها آلاف من السجناء والعمال الأحرار ، فيحشون القنابل اليدوية ، والقنابل ، والألغام وغيرها من صنوف الذخائر بالمفرقعات . والمنطقة كلها التي تضم هذا العالم السفلي محوطة بالأسلاك الشائكة ، ويقوم على حراستها رجال مسلحون من البوليس السري ، ومعهم كلاب ضارية مدربة على المهمة الموكولة إليها .

وكنت قد جئت ومعي رفيق لتسوية خلاف بين هذا المصنع السري ومصنع آخر يزوده ببعض المواد اللازمة له ، وبعد أن عقدنا اجتماعاً في الليل مع الموظفين أعطيت غرفة في فندق المصنع . وفي صباح اليوم التالي بكرت في القيام ، وكان المطر يهطل والبرد قارساً ، وبعد الساعة السادسة بقليل رأيت فرقة من نحو ٤٠٠ رجل وامرأة يمشون عشرة عشرة تحت حراسة قوية إلى المصانع السرية .

وقد ألفت على الأيام مناظر هؤلاء العبيد البؤساء ، في الأورال وفي سيبريا ، ولكن الفظاعة هنا بلغت فيما بدا لي مبلغاً شيطانياً ، فإن هذه الوجوه المتهضمة المصفرة التي ليس فيها قطرة من الدم ، لم تكن إلا أقنعة

للموت، ولم يكن أصحابها إلا جثثاً على أقدامها.

وكان بينهم رجال ونساء قد يكونون فى الخمسين أو أكثر، ولكن كان فيهم شبان فى العشرين وحوالها، وكانوا يسيرون صامتين منكسرين كأنهم دمى، ولا يتلفتون يمنة أو يسرة، وكان كثيرون منهم يلبسون نعالا من المطاط مربوطة بالخيوط إلى أقدامهم، وكان آخرون يلفون أقدامهم بالخرق، وبعضهم فى ثياب ريفية، وعلى بعض النساء معاطف من الجلد ممزقة، ورأيت هنا وهنا ما بقى من الملابس الأجنبية الجيدة.

وبينما كان هذا الموكب المحزن يسير بجانب البناء الذى أطل منه عليه، سقطت امرأة فجأة على الأرض، فجرها اثنان من الحراس، ولم يولها أحد من السجناء أقل التفات، فقد نضب فى نفوسهم معين العطف والشعور الإنسانى.

وكانت فرق أخرى كهذه تسير إلى الجحيم المدفون فى جوف الأرض مقبلة من جهات أخرى آتية من معسكرات البوليس السرى المخبوءة فى هذه الغابات، على أميال عديدة على الأرجح. وفى المساء رأيت طابوراً أطول يدلف فى المطر والوحل للعمل ليلاً.

ولم يسمح لى بالنزول تحت الأرض، على أنى لم تكن لى رغبة فى هذا، ولكنى وقفت من الموظفين الذين كنت على اتصال بهم فى اليومين اللذين أقمتهما على ما يكفى لتصور مبلغ البؤس واحتقار الحياة الإنسانية. فإن هذه المصانع المخبوءة سيئة التهوية، وقد أنشئت دون اكتراث لصحة العمال، فيكفى أن يقضى المرء بضعة أسابيع فيها ليتسمم، وكانت نسبة الوفيات عالية، وكان الآدميون يؤتى بهم ويقذفون باستمرار كما يؤتى بالخامات.

وكان مدير هذه المصانع شيوعياً شتيم الوجه يحمل على صدره صفاً من النياشين، فلما سألته عن عماله نظر إلى مستغرباً كأنما سألته عن صحة جماعة من البغال مقضى عليها بالإعدام.

وقال: «من سوء الحظ أنه ليس بين هؤلاء المخلوقات كثيرون من العمال الحاذقين، فهم يسببون لى متاعب كثيرة. وقد سألتنى عن هؤلاء السجناء أهم سياسيون أم مجرمون، وهذا أمر لا يعنينى لأنه من شأن البوليس السرى الذى يزودنى بالأيدى العاملة. وكل ما أعرفه أنهم أعداء للأمة».

وكان هذا الكابوس ماثلا دائماً أمام عينى وأنا أفاوض القوم فى أمر العمال إجابة لطلب الوزارات المختلفة، أما ما موِّه به هذا من الأضاليل عن كرامة العمل والخدمة المسددة للاشتراكية الجامعة، وكون « زعماء طبقة العمال » هم الذين يقومون بهذا، فقد جعل الصورة أبشع. فمن البديهى

أن « ديمقراطيتى المتعفنة » كانت أعمق من أن ينفع فيها دواء .

ولما كنت رئيساً لقسم فى المجلس ، فقد استطعت أن أدخل عدة مخازن ، ومصانع للأحذية والثياب مخصصة لأهل السلطان . وفى هذه الحال قابلت صفوة رجال الحزب ، ورجال الحكومة والبوليس والكرملين ، ونساءهم أحياناً ، وسائقيهم وخدمهم .

ولم يكن واحد فى الألف من الروسيين يخطر على باله أن مثل هذه المخازن الغاصة موجودة ، وكان من بين مشترياتنا أشياء امحت ذكراها من أذهان الجمهور . وكانت جرايتى الشهرية تشمل لحم الخنزير ، والمواد المحفوظة ، والزبدة ، والسكر ، والدقيق ، ولحم الخنزير المملح — وكل ذلك مجلوب من الولايات المتحدة — ومن روسيا السمك والطيور ، والخضر والفودكا ، والنبيذ والسجاير . وإذا كنا برغم حصولنا على هذه الألطاف ، نقضى أياماً كثيرة نجوع فيها زوجتى ، فما ظنك بحال الرجل العادى ؟

وقد اختفى تقريباً كل ما لا غنى عنه كالخبز والصابون والكبريت ومصابيح الكهرباء وأدوات المائدة والمطبخ ، وحتى فى قلب موسكو كان التيار الكهربائى لا يجرى فى الدور الكبيرة إلا ساعتين أو ثلاث ساعات فى الليل ، أما الذين يتعذر عليهم الحصول على الجاز ، وهم الجمهور الأكبر ، فكانوا يقضون الليل فى الظلام .

وفى هذا الشتاء من عام ١٩٤٢–١٩٤٣ أحرق الناس أثاثهم ، وكتبهم ، وأوراق الموسيقى العزيزة ، وكل شىء يمكن أن يفيدهم الدفء بضع دقائق . وكانوا ينزعون خشب الأرض والأعواد من السقوف ، ليدفأ أطفالهم فلا يموتوا برداً . وقد أقمنا أنا وزوجتى إيرينا موقداً حسناً من الحديد فى بيتنا ، وحصلت بفضل الحكومة على بعض حطب الوقود ، وكنا أحياناً نهب جيراننا شيئاً منه وإن كان هذا محظوراً .

وقضت علىّ واجباتى أن أزور عدداً كبيراً من المصانع قصر فيها الإنتاج عن المطلوب ، فوجدت أن نقص الطعام كان فى كل حال من الأسباب الرئيسية . وأوفدنى بامفيلوف مرة إلى بلدة سولنشوجورسك على مسافة غير بعيدة من موسكو لتفتيش مصنعين . وكان طحن القمح قد تعطل من جراء الحاجة إلى المناخل التى تحتاج إلى أسلاك دقيقة جداً لا يمكن صنعها فى هذين المصنعين ، وكان المديران مستعدين للمعاونة ، وقال لى أحدهما : « إن رجالنا مستعدون للعمل ، ولكنه لن تكون لهم قدرة على الاستمرار فيه ما لم يحصلوا على الأقل على الجراية العادية فى المدن الأخرى » .

فسألته وأنا متعجب « ولماذا لا يأخذون نفس الجراية ؟ »

« لأننا في منطقة زراعية، فينبغي أن نحصل على مؤنا من الريف. ولكن هذا فرض بحت فالواقع أن الفلاحين أنفسهم يتضوّرون ، ولعلك رأيتهم في الطريق » .

وقد رأيتهم فعلا ، فقد جئت بالسيارة واجتزت هذه المنطقة الريفية التي دار فيها القتال وخربت ، ورأيت الفلاحين غائري العيون متضورين .

ولما عدت إلى مكتبي وضعت مشروعا مفصلا للانتفاع بهذين المصنعين ، ولما كاد الليل ينتصف استقبلني بامفيلوف وقرأ المشروع بحضور أوتكين ، وكان يهز رأسه الأصلع اللامع ويقول: « حسن.. حسن.. بديع ! » ثم غام وجهه فجأة :

« ماهذا ؟ خمسمئة جرام من الخبز في اليـوم للعامل وأسرته ؟ »

فقلت بلهفة : « نعم، وهذا ضروري، فإن هؤلاء الناس جياع ولا شك » .

فقال بامفيلوف بلهجة الأمر : « احذف هذا من المشروع » . فلما ألححت ألقى إليّ نظرة غضب صريح :

«اسمع يا كرافشنكو ! هل أنت بلشفي أو من دعاة الخدمة الاجتماعية ؟ إن الروح الإنسانية رائد غير صالح عند وضع قرارات الدولة . فتعلم من الرفيق ستالين ـ أحبب الشعب ولكن ضح بحاجاته عند الضرورة!»

فلم يدهشني أن لا ينتج المصنعان نصف الأسلاك المطلوبة، وإن كانا مزودين بالخامات الكافية .

وكانت مسألة أسـلاك التلفون للميدان من المتاعب التي تورث الصـداع الدائم ، لأن قـلة التلفونات كانت تكلفنا أرواحا كثيرة في الجبهة ، وأخيراً درست هـذه المسـألة ليلاً في اجتماع طويل بالكرملين برياسة سابوروف أحد مندوبي ستالين .

ولما لم يكن هناك صفائح معدنية ، تقرر بعد جدال طويل أن تصنع البكرات من الخشب على الرغم من الاعتراضات الشديدة من العسكريين . وصدرت التعليمات الدقيقـة بتوقيـع ستالين نفسه .

وبعـد نحو شهر اجتمع بمكتبي جميع الوزراء المختصين ليقـــدموا تقاريرهم عن النتائج . وكانت النتيجـة أن المصانع كلها مقصرة في إنتاج هـذا البديل الذي تقرر في الكرملين أن يصنع من الخشب .

ولهـــذا زرت مصنع خشب مقام على مشارف موسكو لأرى بنفسي لماذا لا تسلم البكرات المطلوبة ، فقال المدير إنه ليس عنده الكفاية من العمال الحاذقين ، ولم أر إلا عدداً قليلا يعمل في هذه الناحية . ودخلت جانباً

آخر من المصنع كان الإنتاج فيه على قدم وساق فسألت: « وما هذا الذى يجرى هنا؟ »

وقد تلهب غضبي مما رأيت ، فقد كان نحو ١٥٠ مشتغلين بصنع الأثاث : الأرائك، والمكاتب، وحوامل المرايا للزينة والكراسى الكبيرة ، وكلها من خير أنواع الخشب المجنة.

« تقول إنه ليس عندك عمال حاذقون ؟ ولكنى أراك تبدد مجهودهم فيما هو من مواد الترف . وهذه جريمة ، وأنا أنذرك بأنى سأقيم الدنيا وأقعدها » .

فلم يبد على المدير أنه انزعج ، وهز كتفيه وأرانى دفاتر تدل على أن هذه الأثاثات صدر الأمر بصنعها من رؤساء الحزب ومن كبار رجال الحكومة والجيش الأحمر. فعدت مسرعاً وأنا ما زلت محنقاً ، وانطلقت إلى مكتب أوتكين ، وشرعت أبسط له الأمر ، فكاد لا يصدق ما يسمع ، وأعرب عن سخطه .

ولكنى لما أخبرته بمن ينتج لهم المصنع هذه المواد المدنية ، تغير وجهه على الفور ، وقال متمتماً: « أهو ذاك ؟ نعم ... إن هذه لمعضلة ! أحسب راحة زعمائنا تقدّم على غيرها فى الحرب » .

وفكر طويلا فى الأمر والمصنع يواصل إنتاج الأثاث ، والجيش الأحمر يناشدنا أن نزوده ببكرات التلفون وأطراف البنادق وما ماثل ذلك .

ولكن إذا كنا قد عانينا مصاعب فيما يتعلق بتلفونات الميدان ، وأجزاء الدبابات والأسلحة والطائرات فقد عوضنا ذلك على الأقل فى ناحية واحدة . ذلك أنى كنت فى إحدى الليالى عاكفاً على كوم من التقارير ، فدعانى أوتكين إلى مكتبه وهناك وجدته منهمكا فيما بدا لى فى أول الأمر أنه لعبة عجيبة ، فقد كان على مكتبه وعلى الكراسى من حوله قطع من الورق القوى مكسوة بقماش مذهب ومفضض .

وقال بلهجة المسرور ، على سبيل الشرح: « أشرطة للأكتاف . أليست جميلة ؟ » أشرطة للأكتاف سيعاد استعمالها بعد أن كانت تعدّ من قبل رمزاً بغيضاً للعسكرية القيصرية ! وكان هذا القرار الذى لم يذع قد وضعه المكتب السياسى ، وكان إنتاج هذه الأشرطة قد سار فى طريقه ، وسيحمل أوتكين هذه النماذج إلى ستالين الذى سيقدمها بنفسه . وسألت أوتكين ألا يعد الكثيرون هذه الخطوة ارتداداً إلى الأساليب القيصرية الروسية ، فضحك :

« ما أسخفها فكرة ! إن القلوب تحت هذه الأكتاف المذهبة ستظل قلوباً سوفيتية صادقة » . وسكت ثم قال ببطء على سبيل التأكيد : « وفضلا عن هذا ، فإنه إذا عد بعض الناس هذا رجوعاً إلى الأساليب

القيصرية ، فإن هذا قد تكون له فائدة من الوجهة السياسية ، لأنه سيكسبنا أصدقاء فى بعض الدوائر المهمة » .

إن الأجانب الذين يحاولون أن يفهموا سياسات ستالين أو « العقل السوفييتى » بأن يدرسوا صحف السوفيت وأعمال الكرملين المعلنة ، لايخرجون عادة إلا بملء سيارة نقل من الهراء ، فما من واحد فى الألف من هؤلاء قد فطن إلى الرأى البلشفى فى أن تكون هناك « حقيقتان » — واحدة للجمهور وللعالم أجمع ، والأخرى للصفوة من رجال الحزب وللقابضين على زمامه . ففى الوقت الذى تنشر فيه دعاية خاصة ، أو يجرى عمل من الأعمال علانية ، قد تصدر التعليمات إلى رجال الحزب بأن يهملوا هذا بل حتى بأن يعتقدوا مايناقضه .

وفى أثناء الحرب رؤى أنه من الضرورى « التراجع عن مذهب لينين » فى الظاهر لا فى الجوهر ، فقد كان الأمر يستدعى تهدئة « العناصر الرجعية » فى الداخل وفى شرقى أوربة ، بالتظاهر بإعادة تقرير الدين ، ويتطلب استغلال القيم المعنوية للوطنية العتيقة إلى أقصى مدى ، ويستوجب أخيراً تألف الحلفاء الرأسماليين بحل الشيوعية الدولية .

وقد تقبل العالم الخارجى ومعظم شعبنا كل هذا باغتباط ، من حيث هو دليل على أن زعماء السوفيت قد غيروا مابقلوبهم . بل لقد كان هناك « خبراء » أعلنوا أن الاتحاد السوفيتى يتخلى عن الدكتاتورية ويقترب من الرأسمالية ، وزعموا أنهم تبينوا أن أساليب الحياة الديمقراطية ، وأساليب الحياة السوفيتية الجامعة تتدانى لتتلاقى فى موضع ما ، فى الوسط .

ولو أن واحداً من هؤلاء الخبراء شهد جلسة من جلسات الحزب الأسبوعية السرية لكبار الموظفين ، لتلقى صدمة ! فقد كان « التراجع عن مذهب لينين » فيما يتعلق بنا ليس أكثر من مناورة عابرة ، ولم يكن التفاهم مع رجال الدين إلا تساهلا لامفر منه على مافيه من غضاضة . ولما كان نظامنا فى هذه اللحظة من لحظات العمل مضطرا إلى التساهل ، فقد نوشدنا أن نقوى ولاءنا للشيوعية وإيماننا بانتصارها آخر الأمر .

وما من شيوعى قد لُقّن مبادئها تلقيناً جيداً كان يشعر أن الحزب « يكذب » حين يذيع الأخذ بسياسة ويضمر غيرها ، فإن ضميره لايعد ذلك إلا شبيها بما يفعله القائد فى الميدان حين يخدع العدو . وإلى أن تصبح الأرض كلها وقد تحولت إلى اتحاد سوفيتى واحد ، يكون على هيئة أركان الحرب العامة للثورة — أى زعمائنا فى الكرملين — أن تقوم بالمناورات ، فتهاجم

مرة ، وتتربص مرة ، وتتراجع أخرى ، وتستغل فى كل حال ما بين الأمم الرأسمالية من الخلاف والتناقض . أما رجال الأخلاق من البورجوازية الذين يلغطون بالسياسة ذات الوجهين وبالغدر ، فهم فى نظر الرجل البلشفى « الواقعى » لا أكثر من سخفاء تخلفوا من زمن مات .

ولم يكن فى أعمال الحزب أثر « للتغييرات العميقة » التى ظن أنها أدخلت على النظام السوفيتى . وإذا استثنينا مناقشة مسائل الحرب ، فإن اجتماعات الحزب كانت فى جوهرها كاجتماعاته قبل الحرب .

ففى العاشرة مساء كنا نقبل على اجتماعنا الأسبوعى . وضيفنا الليلة هو يودين رئيس وكالات النشر الذى أصبح الآن يمثل قسم الدعاية فى اللجنة المركزية للحزب . وهو يحدثنا عن شئون العالم ، ولكن ما يقوله ليس مجرد آراء بالمعنى الذى يفهمه أهل الغرب ، بل هو يمثل عقائد ومواقف مقررة من قبل لا نجرؤ على الانحراف عنها بل لا يخطر لشيوعى مخلص أن ينحرف عنها . وسيتكلم يودين بلسان ستالين .

وينهض الرفيق يودين للكلام ، فنرهف السمع ، ونحاول أن نلتقى ما يقول بكل جارحة من جوارحنا ، ويقول يودين إن مدا هائلا من الإيمان بنظامنا السوفيتى يرتفع بين الجماهير فى إنجلترا وأمريكا ، ثم يقتبس من أقوال ج . ب . برستلى ، وهارولد لاسكى وغيرهما ، وليس فى مقدور تشرشل وروزفلت وأضرابهما ، ولا فى مقدور الاشتراكيين وأتباع العمال أن يصدوا هذا المد . أما الصراع القائم بين تشرشل والعمال المعارضين ، فليس أكثر فى رأى يودين من ملاكمة تمثيلية ، ويصرح بأن « الفريقين يحبون روسيا قدر حبنا نحن لهتلر » .

فتستحث هذه الوخزة الأيدى على التصفيق ، وكل وخزة للعمال وغيرهم من « الديمقراطيين » المزيفين تقع موقعاً حسناً فى اجتماعات الحزب .

ويواصل يودين كلامه فيقول : « أيها الرفاق . إن شركتنا العسكرية مع الأمم الرأسمالية لا ينبغى أن تورثنا أوهاماً ، فعلينا أن نستمسك بالأصول ، فإن عالمى الرأسمالية والشيوعية لا يستطيعان أن يعيشا إلى الأبد جنباً إلى جنب . أيهما يغلب الآخر ، لا تزال هذه كما كانت — المسألة الكبرى .

« وما دام العالم الرأسمالى محدقاً بنا فنحن فى خطر أيها الرفاق . فلا تنسوا هذا أبداً ، ولا تقعوا فى غلطة التفكير على قاعدة الإعارة والتأجير . وإنها لصفقة ندفع فيها ثمناً غالياً من تضحياتنا بالدماء السوفيتية والأرض

السوفيتية . ولا تبالغوا فى أمر « الصداقة » الجديدة غير الطبيعية . وتذكروا دائماً أننا نحن أعضاء الحزب جنود لينين وستالين ، وأننا نعرف كيف نقدر حقيقة الرأسمالية » .

وينتهى يودين فننهض جميعاً وننشد نشيد « الشيوعية الدولية » وبعد أن تنتعش نفوسنا بهذه الآراء والمبادىء ، نرجع إلى مكاتبنا المختلفة . أما رجالات الدولة أمثال يودين وبامفيلوف ، فيذهبون إلى المقصف التماساً لشىء من الترفيه ، فيلتهمون لطائف الإعارة والتأجير الأمريكيـة . وبينما تراهم يواصلون البحث فى موضـوع الاجتماع ، يستمتعون سلفاً بانهيار العالم الرأسمالى .

لما ألغيت الدولية الشوعية فى الظاهر فى مايو ١٩٤٣ ، كنت قد تركت عملى فى المجلس ، ولكن البيانات التى ألقيت فى الاجتماعات الخاصة للشيوعيين الكبار كانت متفقة مع ما قاله لنا يودين وأمثاله . وقد أفهمونا أن هذه الهيئة العالمية إنما حلت شكلا لا حقيقة ، وأنه صار الواجب الآن ، وقد اضطرت الشيوعية الدولية أن تعمل سراً ، تعزيز رجالها وكيانها ، « إن قوات ثورتنا فى العالم كله ، أيها الرفاق تستعد للصراع ــ وللنصر » .

ويوم أعلن هذا الحل المزعوم للشيوعية الدولية ، فدخل بذلك السرور على قلوب الحلفاء الرأسماليين الساذجين ، اتفق لى أن زرت مخزن « الكتاب الدولى » ، وهى هيئة تنشر دعاية باللغات الأجنبية ، فرأيت أكداساً من الكتب الحـديثة الطبع والموضوعة طبق مبادىء الحزب ، معدة للتوزيع فى البلاد التى كان الجيش الأحمر يوشك أن يدخلها . فالشيوعية الدوليـة قد ذهبت شكلا ، أما الواقع فهو أن اللجنة المركزية للحزب كانت تجدّ وتستعد حتى يتم غزو أوربة بالجنود والآراء فى وقت واحد . وكان رجال الشيوعية الدولية التى « ألغيت » يعاد تنظيمهم بسرعة محمومة ، استعداداً للمهمات العظيمة التى تنتظرهم فى ألمانيا والنمسا وفرنسا وبولنـدة والمجر وإيطاليا وكل البلدان الأخرى .

تحت شمس البحر الأحمر



مختصر كتاب
بقلم
الكوماندر إدوارد الزبرج

كتب فرنسيس لدلو محرر مجلة « بائع الكتب » يقول: « إني أزكي كتاب الكومندر إدوارد إلزبرج بوصفه قصة واقعية، ولكنها مع ذلك مؤثرة جداً . ففيها تشويق، وحوادث روائية وإلهام . وأحياناً تكون مسلية فتغريك بالقهقهة على ما فيها من صراحة الجد، وأحياناً تحرك النفس كالموسيقى العسكرية . وأعتقد أنها قد تأخذ مكانها بين الروائع من قصص الشجاعة في لقاء المصاعب الساحقة » .

تحت شمس البحر الأحمر



ليلة ٧ ديسمبر ١٩٤١ كنت أستقل
في القطار الذاهب إلى وشنطن ، وكنت
فى العام السابق قد استقلت من وظيفتى ،
بعد نحو ثلاثين عاماً قضيتها فى الأسطول
النظامى ، والاحتياطى البحرى . ولكنى
الآن ،وقد بدأت الحرب ،رغبت فى التطوع
للخدمة العاملة .

ولما كنت قد تخطيت الخمسين بقليل ،
فقد كنت فى ذلك الفريق الذى لا تشتد
الرغبة إليه ، إذا آثرنا التلطف فى التعبير ،
ولكن البحرية قررت أن كل ضابط سابق
ذى خبرة بأعمال الإنقاذ والتعويم ، قديكون
نافعاً ، وذلك بغض النظر عن سنه . فهل
أقبل أن أذهب إلى البحر الأحمر الذى يرقد
فى قراره أعظم مقدار من حطام السفن فى
العالم ، (ولا نستثنى برل هاربر) ؟

وكانت مهمتى على وجه التحديد أن أنشىء
قاعدة بحرية فى مصوع بإريتريا ، على ثلثى
المسافة من السويس إلى عدن فى البحر
الأحمر. ومصوع خير ميناء فى البحر الأحمر،
ولعله الميناء الوحيد الصالح لأن يكون قاعدة
بحرية لتعزيز مجهود البريطانيين فى آخر خط
من المعركة التى كانت دائرة يومئذ فى ليبية
لمنع جحافل روميل من الاستيلاء على الشرق
الأوسط كله .

وكان الإيطاليون ، قبل أن يتخلوا عن
مصوع للبريطانيين فى الربيع الماضى ، قد
نفذوا برنامجاً من التدمير المنظم على أوسع
نطاق عرف فى أية حرب . ففى الموانىء
الثلاثة وعلى مقربة من مصوع ، أغرقت
أربعون من السفن الحربية الألمانية
والإيطالية ، وسفن الشحن والركاب ،
وحوضان جافان عائمان من الصلب لا يعوضان،
وحطمت الآلات الثمينة فى دور الصنعة
البحرية بالمطارق الضخمة ، وقذفت الروافع
الكهربائية فى البحر ، وأخيراً أغرقت
صفوف من السفن الكبيرة ، رصت بأقصى
عناية ممكنة ، ومقدمة كل واحدة إلى مؤخرة
الأخرى ، لتسد مدخل الميناء .

وكان تهديد روميل للاسكندرية فى
خريف ١٩٤١ قد جعل من الحتم الحصول
على قاعدة بحرية أخرى تستند إليها القوات
البريطانية فى البحر الأبيض المتوسط ،فتولت
الولايات المتحدة إصلاح ميناء مصوع بمقتضى
قانون الإعارة والتأجير،على أن يقوم المدنيون
بالعمل تحت إشراف البحرية ، ولكن بعد

حادثة بِرل هاربر ، صارت وشنطن عاجزة عن تقديم الرجال والمهمات التي تعهدت وهي مطمئنة بتقديمها قبل ذلك بأسابيع قليلة ، ومع ذلك صدرت إلينا الأوامر نحن الموكلين بمشروع الشرق الأوسط ، بالذهاب كما كان مقرراً ومعنا مدنيون ، وكنا نعمل بإشراف الماجور جنرال رسل ماكسويل من رجال الجيش الأمريكي ، وبتوجيهه ، وكان يومئذ في مصر ، وكان علينا أن نجمع ما نستطيع جمعه للعمل الذي عهد به إلينا .

ولم يكن ثم سفن للتعويم من سفن الأسطول ولا أجهزة ولا معدات لذلك ، ولا ضباط بحريون آخرون ، ولا مجندون . وقد استطعت أن أجمع خمسة ليس إلا من الغطاسين المدنيين — وإن كنت محتاجاً إلى ثلاثين أو أربعين على الأقل — واثنين لا أكثر ملحان لأعمال التعويم .

وفي طريقي إلى مصوع تحدثت مع الجنرال ماكسويل في القاهرة ، ولم تكن قد أتيحت له فرصة لزيارة مصوع ، فعلمت أني سأجد الحالة هناك سيئة ، وأن الجو فظيع كما يقال ، ولكن الموقف الحربي في ليبية يسوء بسرعة ، فيجب أن أذهب إلى مصوع على الفور ، وأن أفعل كل ما يمكن ، دون أن أنتظر رجالي أو المهمات ، فإن الحاجة إلى ذلك ملحة .

وزاد همي ما أخبرني به كبتن بريطاني من أن آخر قائد للأسطول البريطاني ذهب إلى مصوع ، انتهى أمره بعد شهر بأن دخل مستشفى عسكرياً لما أصابه من إعياء في البدن والعقل .

وقال لي : « إن مصوع أشد مكان على وجه الأرض حرارة ، ويقال إنه ليس بعدها سوى الجحيم » .

وكانت أسمرة ، عاصمة إريتريا ، وهي في موقع جميل على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم فوق سطح البحر الأحمر ، أقصى ما يمكن أن يذهب إليه الإنسان طائراً . ومن هناك في صباح اليوم الثلاثين من شهر مارس ، خرجت في سيارة للجيش ، فانحدرنا في جبل وعر إلى صحراء مستوية على مسافة ٣٠ ميلا من مصوع .

وما هي إلا دقائق حتى كنت أتصبب عرقاً وبدأت أفهم لماذا تعد مصوع معدومة النظير على الأرض ، فإن هذه الجبال العالية التي هبطت منها تجعل مصوع وساحلها الضيق كأنهما في قدح ، والشمس المتلظية تمتص من البحر الأحمر المتلهب مقادير هائلة من البخار تصدّها الجبال ، فتظل فوق القدح ، وتجعل مصوع على مدار العام من أشد بلاد العالم رطوبة وأشدها حرارة .

وذخلنا مصوع وانعطفنا إلى شبه جزيرة

« عبد القادر » حيث القاعـدة البحرية الإيطالية القديمة التي أقصد إليها ، وترجلت من السيارة وقد شواني الحر ، وبللني العرق. وسرعان ما تبينت أن مما يزيد الحرارة سوءاً أن هنالك غباراً أصفر ناعماً يرتفع كالسحاب مع كل خطوة ، ولم يكن ثم شجر ولا ظل .

وزرت ضابطين أمريكيين آخرين كانا في مصوع منذ حين ، فتلطفا واقترحا أن أستحم ، فقد كان عندهما حوض يتركان الماء فيه حتى يبرد ، على ما قالا .

فأسرعت ونضوت ثيابي المبتلة ، ووثبت إلى الحوض المملوء وكان يبدو بارداً ومغرياً ، ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان ساخناً مزعجاً . ولم يكن ثمة شك في أن ماء ساخناً كثيراً قد صب فيه ، فبحثت عن صنبور الماء البارد ، ولكنه لم يكن هنالك سوى صنبور واحد ليس عليه علامة ما ، فأدرته لحظة ، ثم أسرعت فسددته ، فقد كان ماؤه أحرّ من الذي في الحوض .

فبدأت أفهم معنى ما قيل لي عرضاً عن الماء الذي « يبرد » في الحوض ، فقد كان من الجلي أنه لا يوجد سوى نوع واحد من الماء يخرج من الصنبور في مصوع — الماء الساخن . فإذا كنت لا تريد حماماً ساخناً — ومن ذا يريده ؟ — فإنك تملأ الحوض في الصباح وتدعه طول النهار قبل أن تستحم في المساء ، معتمداً على التبخر لتبريده قليلا .

وفي صباح اليوم التالي خرجت بالسيارة لفحص الموانىء ، فمررنا بالحي الوطني في مصوع — وهو عبارة عن أكواخ فظيعة المنظر ، ولوحات عديدة على مسافات متقاربة كتب عليها « الدخول محظور على جميع الجنود » . ووصلت إلى الميناء الجنوبي ، وكان فيه صف طويل من السفن الكبيرة ، وكان بعضها لا يبدو منه إلا الصواري والمداخن ، والبعض مائل على جنبه ، والبعض مقلوب وقعره إلى فوق . وكانت هناك سفينة ركاب ضخمه مقلوبة على جنبها ، وفي جانبها الأيسر ثغرة واسعة . وفيما وراء صف السفن المغرقة صوارٍ ومداخن منتشرة في كل مكان .

فههنا ولا شك ميدان رجل الإنقاذ والتعويم ، وهو يجد فيه ما يشاء من أعمال التعويم — حطام سفن في صفوف منتظمة ، وحطام سفن مفرقة كل واحدة منها على حدة ، وحطام سفن كبيرة وصغيرة مائلة على جوانبها أو مقلوبة — حطام في كل مكان ، يكفي لتحطيم أي رجل ينظر إلى كل هذا الحطام لما يعرفه من قلة معداته ، وقلة رجاله ، وقسوة الأحوال التي يعمل فيها .

وكان أول ما فكرت فيه أن أعيد ورش الآلات المحطمة صالحة للعمـــل . وكان الإيطاليون قد حطموا كل محرك كهربائي لكل آلة بالمطارق الضخمة ، وتركوا الآلات

جميعاً غير صالحة لشيء ، فلا عجب إذا كان قد قيل فى وشنطن إنه لا بد من تزويد مصوع بطائفة كافية من الآلات الجديدة ، ليتسنى استخدامها مرة أخرى قاعدة بحرية.

وشرعت على الفور فى تعبئة قوة للعمل من الإيطاليين ، وأهل إريتريا ، والعرب ، وكل من أستطيع استخدامه بأجر . وكان من حسن الحظ أن عندى ستة من المشرفين المدنيين وهم من أتباع المقاول ، وقد عملوا معى جميعاً بأقصى جهد مستطاع .

وسرعان ما وجدت أنه وإن كان الإيطاليون قد دمروا كل محرك كهربائى لكل آلة ، إلا أن أعمال التخريب لم تكن على وتيرة منظمة ، فبعض المحركات كان طرفها هو المحطم ، والبعض حطم طرفها الآخر،والبعض حطم إطاره الرئيسى . وهذا هو السبيل لحل المشكلة : إذا استطعنا أن نفك كل المحركات المحطمة ، فإنى واثق أننا نستطيع أن نجد أجزاء سليمة كافية لتركيب عدد قليل من المحركات .

ولكنه لم يكن عندنا أدوات ، وإن كان قد صار عندنا بعض العمال . ومما لا يكاد يصدق أنه لم يكن ثمة فى مصوع أبسط الأدوات وأشيعها ، مثل المطارق والمفكات، فاضطررت أن أذهب إلى أسمرة لأحصل على أربع مطارق وبعض المفكات والمبارد .

وفى صباح اليوم التالى شرعنا فى العمل ، وراحت فرق من الإيطاليين تفك الآلات، وفرق من أهل إريتريا ترتب الأجزاء السليمة، ومضى أوستن بيرن الرئيس الميكانيكى يبحث بين هذه الأكوام عما يحتاج إليه ليصنع مخرطة جيدة وآلة لطرق ألواح الحديد بها .

وكان النجاح الرائع حليفنا ، ففى اليوم الثانى كانت الآلات التى يطلبها بيرن معدة ، وكان لانج وتايلور فى ورشة الكهرباء قد ركبا ستة محركات كهربائية. ومن غريب الأمر أنه ما كان هناك أشد اغتباطاً من ذلك الإيطالى الذى كلف العمل على هذه المخرطة الأولى — وهو أحد الإيطاليين الذين ساعدوا منذ عام على تدمير كل شيء . أما الآن فقد صار وجهه مشرقاً بادى الإعجاب بالذين أعادوا هذه الآلة المحطمة إلى العمل مرة أخرى .

وعلى الأيام صارت كل آلة تعاد إلى العمل تزيد قدرتنا على صنع أجزاء جديدة لغيرها ، وبلغت الحماسة فى الورش بين هذا الخليط من العمال درجة الحمى ، إذ يرون آلات جديدة تركب وتنتج . وبعد شهر ، وبغير أن نستعمل شيئاً لم يكن موجوداً فى مصوع أوحولها حين أتيناها ، أصبحت كل ورشة إيطالية مدمرة فى القاعدة البحرية تعمل بأقصى قوة قدرها لها الإيطاليون ،

بل بأكثر من ذلك فى بعض الحالات . وصارت قاعدة الإصلاح البحرية التابعة للولايات المتحدة فى مصوَّع ، مستعدة للعمل فى الأسبوع الأول من مايو ١٩٤٢ ، على الرغم من أنّ الآلات الجديدة المطلوبة من أمريكا كانت لاتزال غير معبّأة للشحن .

وكانت هناك مسألة أخرى ملحة تواجهنى كلما نظرت إلى البحر الأحمر من نافذة غرفتى . ذلك أنه كان هناك فى الفرضة خارج المرفأ حوض جاف عائم من الصلب متوسط السعة ، لا يمسكه إلا أنجر واحد ، وكانت حكومة إيران قد اشترته قبل ست سنوات من إيطاليا . وقبل وصولى ببضعة أسابيع تبينت الأميرالية البريطانية أن الإيرانيين لم يدفعوا ثمنه ، فهم لا يعدون مالكيه بالمعنى الصحيح ، فاستولت عليه غنيمة من غنائم الحرب من إيطاليا ، وجرته مسافة ألفى ميل من الخليج الفارسى إلى مرساه الحالى ، وهو الآن فى الفرضة المكشوفة عرضة للغرق إذا أصيب بضربة قوية .

وكانت حاجة البريطانيين شديدة إلى هذا الحوض الجافّ إذا أريد لمصوع أن يكون لها أى نفع لهم ، ولكنه استحال إلى الآن جره إلى الميناء البحرى ، وهو المكان الوحيد الذى يمكن استخدامه فيه الآن . فخمس سفن مغرقة كانت تسد المدخل ، يضاف إلى هذا أن جزءاً من سلاسل المرسى للحوض الجاف فقد فى الرحلة الطويلة — فلم يعد للحوض سلسلة تكفى للرسو المأمون .

وحيال هذه المشاكل لم يستطع آخر ضابط بريطانى أن يصنع شيئاً ، وأضناه حرّ مصوع ، ومنظر كل هذا الحطام المتلف للأعصاب ، والخوف الذى يساوره ليلاً ونهاراً من أن يلحق هذا الحوض النفيس بالحطام الموجود ، فحُمل فى سفينة إلى المستشفى ، وأسند الأسطول البريطانى المهمة إلىّ .

وخرجت لأفحص الحطام الراقد عند المدخل . وكان من حسن الحظ أن إحدى السفن انقلبت وهى تغرق على جنبها ، ونأت بمؤخرتها عن مقدمة أقرب سفينة إليها . ولما اقتنعت بعد القياس الدقيق أنه يوجد مجازٌ كافٍ بين الحطامين لمرور الحوض بعناية شديدة ، ذهبت أبحث عن مرسى صالح .

وكان العامل الذى أرسل من القاعدة البحرية البريطانية فى الإسكندرية لجر الحوض الجاف إذا أمكن إدخاله فى المرفأ ، قد وصل إليه ، وكان قلقاً من جراء سلاسل المرسى المفقودة . ومن أين يجىء بها فى هذا المكان النائى عن حوض بورتسموث الإنجليزى على بحر المانش ؟

فقلت له لا تقلق ، فإن الحكمة السائرة تعطينا

الجواب : «ابحث تجد» . وبينما كنت أقوم برحلة تفتيش على الجانب الأقصى من الميناء عصر ذلك اليوم ، أخذت عيني بناء إيطاليًا منعزلا وأمامه كتل ضخمة للمراسى من الأبرق (الأسمنت المسلح)، فمن البديهى أن هنا كان المستودع الإيطالى للمراسى وشبكة دفاع الغواصات . فدققت النظر فوجدت سلاسل ثقيلة من أنواع شتى مطمورة بعض الشيء فى الرمل أمام البناء . فما عنى الإيطاليون بأن يتلفوا هذه السلاسل الثقيلة ، وكان هـذا فى حرّ مصوع خليقاً أن يكون عملا فوق الطاقة ، وكذلك هيأ لنا الله المخرج على يد الإيطاليين أنفسهم .

وما لبث الحوض الجاف الإيرانى أن صار داخل الميناء بسلام، وثبت فى موضعه للعمل.

•

وكان الحر يزداد يوما بعد يوم ، فكنت استحمّ بعرقى طول الوقت ، فبدأ وزنى يقل بسرعة ، وكذلك زملائى الأمريكيون القلائل الذين يجاهدون معى للمضى فى العمل. وكنا قد دخلنا فى شهر مايو ، والعادة تقضى بالكف عن العمل فى شهور الصيف، غير أن روميل كان يشق طريقه شرقاً ويزداد تهديداً للاسكندرية ، وكان الموقف يتطلب أن أقذف بتقاليد مصوع مع الرياح . فلا بد من العمل فى الصيف ، وإلا فلا فائدة منه إذا كنا نريد أن يكون لمصوع أى تأثير فى سير الحرب .

وكانت العادة الأولى من عادات مصوع التى خالفناها هى العمل ثلاث ساعات فقط فى الصباح وساعتين فى المساء ، فغيرنا هذا وجعلنا ساعات العمل عشراً فى القاعدة البحرية مع الراحة ساعة عند الظهر . وكان لى رأى هو أن منح الرجل ست ساعات للراحة فى منتصف النهار ، مؤدّاه أن يقضى ست ساعات أخرى يشرب فيها كل ما تصل إليه يده من الخمر أو البيرة ليطفىء ظمأه فى الحر المحرق . وما من سبيل إلى المكابرة فى حقيقة الظمأ ، ولكن أجدى شيء فى إطفائه هو الماء وأقراص الملح .

وفى الثامن من شهر مايو ١٩٢٤ كانت قاعدة الإصلاح البحرية التابعة للولايات المتحدة فى مصوع مستعدة للعمل ، فغمر الحوض الإيرانى الجاف بالماء ليتلقى أول سفينة تحتاج إلى إصلاح، وكانت السفينة كوريترا ، وهى باخرة يونانية مسلحة، قد جاءت فى الليلة السابقة من الإسكندرية، وكنت قد استأجرت مئتين من أهل إريتريا وشيوخهم للعمل فى السفن فى الحوض الجاف . فقسموا إلى فرق كل فرقة برياسة شيخها ، ووزعوا على الباخرة كوريترا من مقدمتها إلى مؤخرتها لإزالة الأصداف الملتصقة ببطنها .

وكان البطن مغطى بالأصداف إلى عمق عدة بوصات ، وقد جمدت الطبقات القديمة حتى صارت كحجر الكلس على كرّ الأعوام، فعالجها عمال إريتريا بمجارف من الصلب صنعت لهذا الغرض في ورشة الحدادة الجديدة.

ولكن العمل كان يسير ببطء مخيب للأمل.

وفي بكرة الصباح التالى قصدت إلى الحوض الجاف مرة أخرى ، فعدت من التفتيش مكروباً، فإنه مع هذا البطء يكون من حسن الحظ أن نفرغ من العمل فى أسبوع ، وكنت قد قدرت له ثلاثة أيام . وكانت السفينة التالية التى ستدخل الحوض قد رست فى مصوع انتظاراً للدخول ، ولن تلبث الثالثة حتى تغادر الإسكندرية اليوم فى أثرها ،ولن نلبث أن نرى فُرْضة مصوع غاصة بسفن معطلة تنتظر دخول الحوض .

ففكرت فى استخدام الترغيب بالمكافأة للإسراع فى العمل ، ولكن القانون كان يقيدنى ، فإن أجور العمال المحليين كانت محددة تحديداً صارماً بخمس وعشرين ليرة فى اليوم ، وعمالنا يتقاضون هذا الأجر . ثم خطر لى فجأة إمكان التهرب من هذا التحديد للأجور ، فأمرت المشرف أن يجمع لى الشيوخ .

وقلت للمترجم: « قل لهم إن الوقت الذى أسمح به لجرف بطن سفينة، ودهنها على هذا الحوض الجاف ، هو ثلاثة أيام ليس إلا . فإذا لم ينتهوا من العمل مســـاء غد فهم مطرودون جميعاً — الشيوخ وغيرهم — ولكن إذا انتهوا منه مساء غد ، فسيعطون أجور ثلاثة أيام وأحتفظ بهم ، وإذا فرغوا منه صباح غد فإنهم يعطون أجور ثلاثة أيام، وإذا انتهوا من العمل فى السفينة الليلة فى يومين، فسيعطون أجور ثلاثة أيام كذلك ، وإذا فرغوا من العمل فى أية سفينة فى أقل من يومين ، فإنهم يأخذون أيضاً أجور ثلاثة أيام » .

وعقد اجتماع ملتهب تحت دَفّاع السفينة كوريتزا ، ثم تفرّق الشيوخ مسرعين إلى قبائلهم ، ودعا كلٌّ منهم أهل قبيلته ، وظل العمل معطلا نحو خمس دقائق أو عشر ، وإذا بى أسمع نحو مئتين من أهل إرتيريا يتصايحون جميعاً وهم يبحثون اقتراحاتى تلك.

ثم كروا إلى العمـــل ، ولو أنى كنت لوحت بعصا سحرية لتغيير ما بهم ، لما كانت النتيجة أعجب .

فما جاء الظهر حتى كان بطن السفينـة كوريتزا قد جرف ، وحلت الفرشة وعلب الدهان محل المجارف . ولو كان يخامرنى أى شك فى فائدة المكافأة فى الحث على الإنتاج ، لزال فى ذلك اليوم على ظهر الحوض الجاف الكريه الرائحة المفعم بالأبخرة .

وفى الساعة السادسة مساء أخرجنا السفينة كوريتزا من الحوض الجاف، فمضت فى طريقها ، وذلك بعد ثمان وأربعين ساعة من دخولها أو أقل. وفى منتصف الليل تلقينا رسالة من القائد العام للأسطول البريطانى فى الإسكندرية تقول: «أحسنت يامصوع» .

وما هو إلا أن عكف عمال إريتريا على العمل حتى أسرعوا فيه بدلا من أن يبطئوا . ففى الأيام المئة والعشرين التى أفردت للسفن التجارية فى الحوض فى ذلك الفصل ، ومنها شرّ شهور الصيف ، أدخلنا ثمانين سفينة — فبلغ المعدل أخيراً سفينة فى كل يوم ونصف يوم . وليس فى الدنيا حوض جاف بلغ هذا الرقم فى السلم أو الحرب على ما أعتقد .

وفى التاسع من مايو قدم من الولايات المتحدة الكبتن وليام ريد من المتخصصين فى أعمال التعويم، ومعه خمسة من الغطاسين وميكانيكى متخصص فى أعمال التعويم، وثمانية من الميكانيكيين وبعض السفن الصغيرة. وكنت أتلهف على الشروع فى التعويم ، فعهدت إليهم بأشق مهمة كانت الأميرالية البريطانية نفسها قد ذهبت رسمياً إلى استحالتها — وهى رفع الحوض الجاف الإيطالى الكبير ، وكان هــذا الحوض أنفس الغنائم الحربية بين ما أغرق فى مصوع .

وكان ترقيع الخروق السبعة الكبيرة التى أحدثها الإيطاليون فى هيكل الحوض حتى يتسنى نزح الماء منه ورفعه ، يتطلب خمسين غواصاً وعــدة مئات من الميكانيكيين ، وكثيراً من سفن الإنقاذ الحسنة المعدات ، للعمل مدة سنة أو أكثر — أو كما جاء فى تقرير بريطانى أن العمل سيكون «طويلاً وعسيراً وغير ناجح على الأرجح »

على أنى اهتديت بعــد فحص التلف إلى طريقة لرفع هذا الحوض ، فبدلا من معالجة مهمة ستكون « طويلة وعسيرة وغير ناجحة على الأرجح » اعتزمت أن أجعلها «قصيرة وسهلة ومحققة النجاح» . وكان لابد أن أجد وسيلة ، فما كان عندى لاالرجال ولاالمعدّات للقيام بهذه المهمة على أى وجه آخر .

ويشبه الحوض الجاف العائم إذا نظرت إليه من طرفه حرف U ، ويمكن تشبيه الجزء الأفقى فى قعره بطَوْف مجوف هائل لا ينفذ منه الماء ، عمقه ١٥ قدماً وعرضه مئة قدم وطوله ستمئة قدم ، وقدرة هــذا القعر على الطفو عظيمة ، وكافية لرفع كل من السفينة والحوض الجاف نفسه .

أما الأجزاء العمودية من حرف U فجداران ضخمان أجوفان من الصلب سمك كل منها ١٥ قدماً ، وارتفاعه ٣٥ قدماً ، والجداران قائمان على جانبى الحوض من أوله

إلى آخره . والغرض الأكبر منهما أن يكون الحوض الجاف ثابتاً ، حتى إذا غطس ليتلقى سفينة توطئة لرفعها ، لم يضطرب أو ينقلب فيقذف بالسفينة عن قاعدته .

وكانت فكرتى بإيجاز أن أرفع الحوض الجاف بوسيلة واحدة ، هى الهواء المضغوط فى جوف الجدارين . ولم يكن من شأن الخروق فى قاع الحوض أن تثير صعوبة ، لأن الهواء المضغوط إذا أدخل فى جوف الجدارين يستطيع أن يطرد الماء من هذه الخروق حتى يخرج مقداراً من الماء يكفى لجعل الحوض قادراً أن يطفو قليلا . وبعد ذلك ينبغى أن يشرع فى الارتفاع بفضل الجدارين المفعمين بالهواء . وقد دل الفحص على أن الجدارين الجانبيين مغموران بالماء ، وهو ما تحققت منه بأن غطست فى جهاز غواص لفحصهما . فكل ما كان علينا أن نفعله هو أن نجعل الجدارين السليمين محكمى السد لا ينفذ منهما الهواء ، وذلك بأن نسد كل الفتحات سواء أكانت فى الماء أم فوقه . وكان من حسن الحظ أن الحوض لم يغطس إلا فى ثمانى قامات من الماء ، فعند الجزر المنخفض ينكشف سطح الجدارين قليلا فيتهيأ لنا موضع قدم .

ولكى أخرج فكرتى إلى العمل ، كان على أن أضع على سطح كل من الجدارين مضخة هواء مضغوط ، وأن أصل الأجزاء الثمانية التى لا ينفذ منها الهواء ، فى كل جدار بهذه المضخة ، وأن أصل المضختين اليمنى واليسرى عبر ثغرة من البحر طولها ٨٠ قدماً بين الجدارين ، وأن أسد كل فتحة فى سطحى الجدارين وجوانبهما . وما جاء مساء اليوم الأول حتى كانت مضختا الهواء الطويلتان والوصلات قد أقيمت . وفى أثناء ذلك كان الغواصون قد سدوا فتحات الهواء فى الجزء الأعلى من الهيكل المغمور ، وسدوا كل الفتحات الأخرى التى وجدوها فى جوانب الجدران بسدادات من الخشب مستدقة الطرف .

وقد بدأت متاعبنا الحقيقية حين استخدمنا ضاغطات الهواء ، فقد وجدنا منافذ للهواء فى السطوح العليا فوق الماء ، فقل إعجابى بمهارة بناة سفن موسولينى .

فانصرف كل العمال والغطاسين والكهربائيين والنجارين وعمال الأنابيب لسد هذه المنافذ — ولم تكن هذه بالمهمة الممتعة ، فإن ألواح الصلب تحت أشعة شمس إريتريا الحارقة ، كانت تمتص من الحرارة ما يجعلها أحمى من أن تلمس باليد العادية ، حتى أهل إريتريا الذين ألفوا أن يمشوا حفاة طول حياتهم على رمال الصحراء ، كانوا لا يطيقون هذه الألواح الحامية وفى أقدامهم نعال سميكة تجعلها كأرجل الفيلة . وقد رأيتهم

يلفون على أقدامهم قطعاً من الخيش والأشرعة القديمة ، ويغمسونها فى الماء مراراً .

ولكنه كان علينا أن نسد المنافذ سواء أكان الصلب حاميا أم بارداً ، وكنا نقعد على مساند من الخيش أو الشراع المبلول حتى لا نحترق . فلما كان العصر سدوا من الثقوب ما يسّر أن يدخل بعض الهواء فى الحوض ، ولما دنونا من الغروب انحرفت الإبر على مقاييس الضغط عن علامة الصفر : وكل أوقية من الضغط معناها أن الماء فى جوف الحوض قد هبط نحو بوصتين .

وكان أشد ما يقلقنى هو هل تتحمل الضاغطات الحامية التى تعمل ساعة بعد ساعة تحت الشمس المتلظية وفى هذه الأحوال الفظيعة ، حتى تتم المهمة . ولكى نتعهدها ونراقب على الدوام عملها طول الليل ، قسمنا أنفسنا إلى فرق تعمل كل منها ثلاث ساعات ، تتولى كل منها السير على الجدارين الجانبيّين وعلى الجسر المترنح بينهما — ومسافة ذلك أكثر من ثلث ميل — لدرس الضغط على مقاييس الهواء ، مع اتقاء الوقوع على الأجسام العارية لجماعة الإنقاذ المنطرحين كيفما اتفق على مراتبهم والراقدين فى غير راحة فى الليل الحارّ .

وسار العمل فى تلك الليلة وفى اليوم التالى دون أن يعطله شىء ، وفى الساعة الثامنة مساء ارتفع الضغط فى ناحيتنا فوق أربعة أرطال ، فقلق ريد لأن ألواح السطح انتفخت قليلا هنا وهنا بسبب ضغط الهواء الواقع عليها من تحتها فقلت له : « فلتنتفخ ! فما يسعنا أن نفعل شيئاً آخر » .

ومضينا فى مراقبة الضغط كما فعلنا فى الليلة السابقة ، وفى الساعة الأولى صباحاً نهضت لأقوم بنوبتى فى المراقبة ، فلما تقدمت على الجانب الأيسر وجدت ريد مقرفصاً فى الظلام مستثبتاً إلى الماء على جانب الجدار .

وهمس ريد كأنما خشى إذا رفع صوته أن يفسد الأمور : « انظر إليها — أترى صدفة المحار الكبيرة فوق خط الماء بقليل عند العلامة ؟ فمنذ نصف ساعة كانت فى الماء ، وهى الآن فوقه بمقدار بوصة . لقد بدأ الحوض يرتفع » .

فقعدت على السطح الحامى بجانب ريد ، وصوبت عينى إلى هذه العلامة المرتجلة . وبعد دقائق قليلة شرع قلبى يدق ، فقد كانت هذه المحارة تبتعد ببطء على سطح الماء اللامع . لقد بدأ المستحيل يتمّ . وبعد يومين ونصف يوم ليس إلا ، ظهرت بوادر النجاح فى هذه المهمة « الطويلة العسيرة غير الناجحة » وأخذ الحوض الجاف يرتفع !

وبعد تسعة أيام طفا الحوض تماماً بسلام ، وكانت هذه أقصر مهمة إنقاذ عالجتها ،

فأحدث ذلك ضجة فى الشرق الأوسط، وأدت إلى ترقيتى بناء على توصية الجنرال مكسويل إلى رتبة كبتن .

والآن وقد اقترب شهر يونيو وأخذت وقدة الحر التى لا تصدق تزداد تسعُّراً ، فقد بدأنا نحن الذين يعملون خارج البيوت نعانى مرضاً استوائياً لم يكن من الأمراض المخوفة التى لقحنا ضدها ، وإنما كان بثور الحر لا أكثر . وكنت دائماً أذهب فى سخرية إلى أن البثور شىء تزيله عن بشرة الطفل الرقيقة بأن ترشها بمسحوق الطلق (التلك) .

أما فى مصوع فقد وجدنا أن بثور الحر ليس بالشىء الذى يسخر منه . فقد كان الجلد كله يلتهب ويظل ملتهباً فتصير البشرة كأنها نوع خشن من الجلد ، وكانت المساحيق والغسول والمراهم لا غناء لها فى إزالة هذه الحكة الفظيعة — فقد كان العرق يمحو هذه الأشياء على الفور . وكانت الحال أسوأ فيما يتعلق بمن يعملون فى الإنقاذ ولا سيما الغطاسين ، فإن الوحل والأقذار والأصداف تهيج البثور وتحدث هرشاً شديداً يكاد يطير العقل .

وفى أسبوعين فقدت إلى الأبد اثنين من فرقتى الصغيرة للإنقاذ وعددها ١٣ ، أما الآخرون ومعهم معظم الرجال الذين يعملون معى ، فى البحر أو على البر ، فكانوا يقضون نحو رُبع وقتهم فى المستشفى .

وكنت منذ وصولى إلى مصوع أودّ أن أقف على حقيقة الأمر فى حرها . ففى الأسبوع الأول من يونيو أخذت معى مقياس حرارة إلى حيث كانت فرقة من عمال الترميم تعمل فى الحوض الجاف، ورفعته بضع دقائق ، فسرعان ما أحاط بى عشرات من الأمريكيين وعمال جنوب إفريقية، وقد جذبتهم رؤيتهم للمقياس ، فقرأت فيه درجة ٦٥ سنتجراد

وكان هذا بالطبع فى الشمس ، ولكن العمال كانوا فى الشمس أيضاً .

ثم وضعت المقياس على ألواح الصلب فى أرض الحوض الجاف ، فسجل درجة ٧٢ $\frac{٧}{٩}$ سنتجراد .

فأفضت هذه التجربة الصغيرة على الفور إلى ضياع عدة ساعات من عمل العمال . فقد راح كل واحد يمسح بدنه ويبحث عن مكان ظليل ، وقد بدأ يشعر بأضعاف ما كان يجده من الحر قبل ذلك ، وجعلوا يتساءلون : أيستطيع أى إنسان أن يعيش بله أن يعمل فى حر كهذا ؟

فلما أوفينا على شهرى يوليه وأغسطس ازداد الحر ، ولكنى لم أجرؤ مرة أخرى

على إخراج مقياس الحرارة لأعرف درجتها على وجه الدقة ، وقد كنا أقرب ما يمكن إلى حر نار الجحيم . ولو أنى عرفت حقاً أن الحرارة أشد مما كانت ، لكان من المشكوك فيه أن أقوى على احتمالها مع معرفتى باشتدادها .

وفى أثناء ذلك كنا نعالج تعويم سفينة أخرى هى الباخرة ليبنفلز ، وهى سفينة شحن ألمانية كبيرة أغرقت لسد الميناء . وكان من المحتم تطهير الميناء بأسرع ما يستطاع ، وكان سقوط طبرق فى ٢١ يونيه قد أورث الجنود المتحالفة فى الشرق الأوسط غمًّا شديداً . فبدأ من القاهرة « خروج » على غير نظام ، وأغلقت القاعدة البحرية فى الإسكندرية بسرعة . فصار عندى الآن القاعدة البحرية الباقية والحوض الجاف الوحيد فى الشرق الأوسط .

وكنت قد قدرت أن تعويم الباخرة ليبنفلز عمل عادى من أعمال الإنقاذ ، فما لبثت أن تبينت أنه ما من عمل من أعمال التعويم فى مصوع يعد عادياً . ولم تنته متاعبنا أن رفعناها .

ففى الرطوبة القطيعة التى كانت مضخاتنا عرضة لها ، كانت المضخات تنهار مع المولدات الكهربائية . وبينما كنا نحاول أن نصلح المضخة كان الماء يعود فينفذ إلى عنبر السفينة فتميل ، ويؤدى ذلك إلى اندفاع الماء فى العنابر الأخرى إلى هذا الجانب . ولابد أن تعتدل السفينة ليتسنى إدخالها فى الحوض الجاف لإصلاحها .

وبعد أربع ليال وخمسة أيام من العمل المتواصل استطعنا أن نقيم الباخرة ليبنفلز ، فما زاد مَيْلها على ١٣ درجة إلى اليسار — وكنت من قبل أعد هذا سيئاً جداً — ثم جررناها إلى الحوض الجاف ، والعلم الأمريكى يخفق مزهواً من قمة ساريتها .

وعلى الرغم من الاحتجاجات العنيفة من المشرف على الحوض ، أمرت بإمالة الحوض إلى اليسار ، فكاد الجانب الأيسر يختفى تحت الماء ، ولكن هذا الميل كان يشاكل ميل السفينة ليبنفلز ، ثم جررنا السفينة بسرعة إلى الحوض وأقمناها على القعر المائل قبل أن ترتد يمنة ، ونزحنا ماء الحوض — وكان إدخالها الحوض على هذا النحو عملا خطراً .

وفى الثانى من أغسطس تلقيت أمراً بالراديو بأن أقوم على الفور لشهود مؤتمر مع قيادة الأسطول البريطانى فى الإسكندرية ، وهناك سرنى أن علمت أنى سأتلقى أخيراً مساعدة ضباط بحريين وعمال من دور الصنعة .

ووجدت فى القاهرة أن « الخروج » قد كف بعد أن عجز روميل عن اختراق خط العلمين ، غير أن الموقف البحرى فى البحر الأبيض المتوسط كان أسوأ مما كنت أتوقع . وأخبرنى الأميرال هاروود القائد العام للأسطول البريطانى وبطل الموقعة الشهيرة التى دارت عند نهر بلاتا فى ١٩٣٩ وقضى فيها على البارجة « جراف سبى » ، أن أسطوله مؤلف على وجه التحديد من أربعة طرادات خفيفة وحسب ، وأن ثلاثة منها معطوبة .

ولم يكن عنده بوارج يواجه بها البوارج الإيطالية الأربع أو الخمس ، فقد ضربت البارجة بارهام بالطربيد عند طبرق فغرقت وفقد من رجالها ٨٠٠ ، وأصيبت البارجتان « كوين إلـــيزابث » و « ڤاليانت » بما عطلهما عن العمـل ، وإن كان المحور لا يعرف ذلك .

كانت البارجتان واقفتين في ميناء الإسكندرية ذات ليلة ، وإذا بزورق حراسة يلتقى برجلين فى ثياب الاستحمام قاعدين على شمندورة لشبكة ضد الغواصات ، فنقلا إلى البارجة « كوين إليزابث » ، واتضح أن الاثنين إيطاليان ، وكان هذا مبعث قلق . وبعد استجوابهما عبثاً ، أمر قائد البارجة بإنزالهما فى جوفها ووضعهما فوق القعر المزدوج — واحد فى الجانب الأيمن والآخر فى الجانب الأيسر — حتى إذا رغبا فى الكلام صعدوا بهما .

ثم بدأت حرب أعصاب ، ففى البارجة « كوين إليزابث » والبارجة « ڤاليانت » القريبة منها ، قامت فرق العمال بمد الحبال وحاولت أن تجرف بطن السفينتين لإزالة أى شىء يمكن أن يكون عالقاً بهيكلهما ، وبقى الأسيران صامتين .

وقبل الساعة الخامسة بربع ساعة فى الصباح انهارت أعصاب الرجلين وأبديا رغبة مفاجئة فى الكلام ، فحملا إلى السطح بسرعة ، فطلبا أن ينقــلا من السفينة لأنهما كانا قد وضعا لغماً كبيراً تحتها ولغماً آخر مثله تحت البارجة ڤاليانت ، وكلاهما سينفجر بحسب التوقيت بعد خمس عشرة دقيقة .

فأرسل النبأ بالإشـارات على الفور إلى البارجة ڤاليانت ، ودقت أجراس الخطر ونفخ فى الأبواق تدعو الجميع للعمــل ، وأطلقت الصفارات تتلوها النداءات العالية : « اربطوا كل شىء تحت ! أغلقوا كل الأبواب الحاجزة للماء وإلى السطح جميعاً » .

وفى أقل من عشر دقائق كان جميع البحارة وعدتهم فوق الألف ، محشودين على السطح فى الظلام ، وبقى البحارة فى صمت أليم ينتظرون حتى صارت الساعة الخامسة ؛ أكان الأمر أكذوبة وخدعة أم حقيقة ؟

وإذا كان حقاً فماذا عسى أن يصنع بهم هذا اللغم ؟

ولم يكن الأمر خدعة ، ففي الساعة الخامسة حدث انفجار مهول رج البارجة « كوين إليزابث » وحمولتها ٣١,٠٠٠ طن ، وبعد بضع ثوان حدث انفجار آخر تحت البارجة « ڤاليانت » وأصيبت كل منهما بخرق كبير فى جوفها ، وبدأتا تميلان ، ولكن لم يقتل أحد من رجالهما ، وشرع البحارة على الفور فى العمل للحد من التلف .

ولما طلع الفجر على الميناء كانت البارجتان لاتزالان عائمتين معتدلتين ، ولم يكن أحد ، إلا من عسى أن يكون قريباً جداً منهما ، يستطيع أن يعرف أنهما هبطتا فى الماء إلى ما دون الحد المألوف .

وكان الأمر يتطلب إصلاحاً كبيراً ، فقد تحطمت مراجل السفينتين فى جملة ما تحطم ، ولكنه كان من الضرورى أن يبقى العدو متوهما أن بريطانيا لا يزال لها فى هذه البقعة بارجتان على الأقل قادرتان على العمل . ووجد ستة آخرون من الإيطاليين فى جهاز غواصين ، وبدا أن من الممكن أن يكون هؤلاء هم كل وكل إليهم هذا العمل البارع الخطر .

ورغبة فى إيهام المراقبين من الجو ، سارت الحياة فوق سطح السفينتين كالعادة — فكانت الفرق الموسيقية تعزف ، والبحارة يحشدون للتفتيش فى الساعات المألوفة ، والزوارق الصغيرة تروح وتجىء فى مهماتها العادية . ونجحت الخدعة ، والظاهر أن العدو لم يدر قط أنه كان موفقاً فى ضربته .

وقامت الأميرالية البريطانية بخدعة أخرى ، وكان لها بارجة قديمة فى عهد الحرب العالمية الأولى اسمها سنتوريون ، نزعت منها المدافع واتخذت هدفاً ، فجهزت بسرعة بمدافع من الخشب ودروع تبدو كالدروع الحقيقية ، وأرسلت إلى الإسكندرية ، وجعلت بعد ذلك تكثر من الطواف لتظهر العلم البريطانى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط وليظل الإيطاليون محجمين عن الخروج — ولو اجترأ أى زورق مدافع على الدنو منها لاستطاع أن يغرقها بسهولة .

وكان الطراد ديدو معطوباً عطباً خطيراً من جراء قنابل كادت تحطمه . ولما كان البريطانيون لا يستطيعون إدخاله الحوض الجاف فى الإسكندرية الذى لا يكف العدو عن ضربه ، فقد اتخذت التدابير لإرساله إلى دربن فى جنوب إفريقية على بعد ٥٠٠٠ ميل ، وكان هذا يقصى الطراد عن خط القتال أكثر من شهر أو شهرين تقريباً .

فلم أستطع أن أسيغ هذا . وصحيح أن الحوض الجاف الإيطالى الذى عومناه فى مصوع لم يعد إلى العمل ، وأن الحوض الجاف

الإيراني كان كما قال المهندس البحري للأسطول ، أصغر من أن يتسع للطراد ديدو . ولكنه بدا لي أن هناك طريقة لإصلاح الطراد في مصوع — وبذلك يعود إلى الخدمة في أقل من ربع الزمن الذي يستغرقه الذهاب إلى ديربن والإياب منها . فعرضت مشروعي على الأميرال هاروود ، وسرني أنه تحمس له . ولما انصرفت هزّ يدي بحرارة وهو يودعني ثم قال متوسلا : « أرجو يا إزبرج أن تتوخى الحذر وأنت تعالج الطراد ، فإنه ربع أسطولي كله ! » .

ووصل الطراد ديدو إلى مصوع في صباح اليوم التاسع عشر من أغسطس ، وكان الحوض الجاف قد ملىء ماء ليتلقاه .

وكان الذي أثار الشكوك أن الحوض يستطيع أن يحمل ستة آلاف طن ، وأن طوله لا يتسع لأكثر من ٤١٠ قدم، وتفريغ الطراد أكثر من ٧٥٠٠ طن ، وطوله ٥٣٠ قدماً .

فالأمر يبدو مستحيلا في ظاهره ، ولكن الذي خطر لي هو أن التلف الذي أصاب الطراد واقع كله في مؤخرته ، فلست أحتاج أن أرفع مقدمته من الماء على الإطلاق ، فالمقدمة تظل عائمة في الماء وأنا أرفع المؤخرة لإصلاح العطب ، وبهذا أحل مشكلة وزنه وطوله الزائدين في وقت واحد . وهذه هي الطريقة التي أدخلنا بها الطراد ديدو في حوض أصغر من أن يصلح له .

وظهر أن العطب شديد ، ولكني قدّرت أن تتم العمل في ستة أيام .

وفي صباح اليوم السادس ركبت دروع الصلب في مكانها ما عدا الدرع الأخيرة على الجانب الأيمن . وتقدم أحد رؤساء العمال إلى بنبإ لا يسرّ .

قال : « اللوح لا يصلح يا كبتن ، ولا بد من ردّه ليوضع في المطرقة لثنيه ، فإنه ليس للطراد مفاصل » .

وكان من سوء الحظ أن ليس في مصوع مطرقة آلية ، وقد فهمت ما أراده مقدم العمال بإشارته إلى « المفاصل » في الطراد ، فإن مؤخرته كانت مستقيمة تقريباً إلى ما تحت خط الماء ببضع أقدام ، ثم يثني اللوح على الهيكل ، وكان الطرف الأعلى من لوح الصلب الأخير يصل إلى نحو ست بوصات فوق خط الانثناء الأفقي ، وكان لا بد لتدريع السفينة من ثني اللوح عليها .

وقد حاول العمال ثني اللوح بالمطارق الكبيرة ، وخيل إلينا فترة أنه مقضى علينا بالإخفاق ، ثم أمرت أحد الرجال أن يدعو اثنين هما خير الحدادين عندنا — بيل كننجهام وهوريس أرمسترنج — وكانا في مهة أخرى . وبعد ساعة ونصف ساعة كانت مطارقهما

الجبارة قد ثبتت لوح الصلب الثقيل بدقة على ما تحته . فنجونا بيومنا ، وسلمنا الطراد في الموعد المضروب ، واستحق كننجهام وأرمسترنج منى شكرى وحبي الدائمين .

وكان من نتيجة ما صنعناه للطراد ديدو ، أن وكل إلينا الطرادان يوريالوس وكليوبترة وصدر الأمر للمكانيكيين البريطانيين الذين جاءوا مع الطراد ديدو أن يبقوا فى مصوع فى انتظار الطرادين الآخرين . فأطلق وجودهم بعض رجالى ، وأتاح لى فرصة للشروع فى تعويم الحوض الجاف الإيطالى الأصغر ، وكان غائصاً تحت الماء .

وفى أحرج اللحظات التى مرت بنا ونحن نرفع هذا الحوض تعطل جهازنا الكبير لضغط الهواء فجأة ، فغطس الحوض الذى كان قد ارتفع قليلا لما غمر الماء جوفه .

وفى لحظة أو لحظتين صار الذين كانوا يعملون على الحوض عائمين فى الماء فى كل مكان ، وقد دعوت الله أن يكون الذين يعملون تحته مثلهم عائمين ، وكنت أعرف أن أرمسترنج ، وجونز ، ولارسن كانوا جميعاً فى ذلك الجانب فى المؤخرة التى غمرها الماء تحت قدمى ، ولا بد أن طوفاناً من الماء قد أخذ يتدفق من المنفذ التحتى المؤدى إليها . وقد دل على ذلك فى تلك اللحظة عمود الماء النازل وفقاقيع الهواء الصاعدة .

فصار قلبي كالرصاص . ولم يكن ثم ما يجزم به المرء أن هؤلاء الثلاثة قد وقعوا فى فخ ، ولكن إذا كانوا قد وقعوا فإنه لا ينبغى أن يتركوا ليموتوا دون أن يبذل مجهود لإنقاذهم ، فقذفت بنفسى من فوق الأخشاب المنصوبة فى هذه الدوامة الفائرة من الماء ، فهى تدل على مكان المنفذ .

وكانت المسافة إلى هذا المنفذ تسع أقدام وما كدت أغطس حتى عدت لا أرى شيئاً سوى كتلة من الماء المزبد وفيه فقاقيع الهواء . وتحسست حتى وجدت باب المنفذ ، وكان مواربا ، وما لبثت أن لمست أصابعى شيئاً طرياً ـ هو ذراع بين الباب وإطاره . فأمسكت بالذراع بإحدى يدى لئلا تفلت منى حين يفتح الباب فيندفع الماء ، وجذبت باليد الأخرى الباب الحديدى بكل ما فىّ من قوة ، فارتدّ مفتوحاً .

وجذبت جسما مسترخياً من المنفذ ، وصعدت به من الماء إلى السطح ، وبعد لحظة كنت أنا وما أحمل فى زورقى ، أحاول التنفس ، وصوبت عينى إلى هوريس أرمسترنج الذى كان راقداً عند قدمى وقد غاب عن وعيه .

وقلت : « أسعفوه بسرعة ! » وعدت إلى الحوض ، وغطست مرتين فى هذا

العباب المائج من خلال الباب الذى بقى مفتوحاً وصعدت بالآخرين : لارسن وجونز .

وخف جرّاحنا ورجال مستشفى الجيش ليسعفوا الرجال الثلاثة، فأفاق جونز بسرعة، وبعدساعة أفاق لارسن أيضاً. أماأرمسترنج فبقى غائباً عن رشـده ، فحمل فى زورق لمواصلة العمل على إنعاشه فى المستشفى .

وصرنا فى الساعة الخامسة ، وكان جهاز ضغط الهواء قد أصلح ، فاستأنفنا العمل لإعادة رفع الحوض الجاف . وبعد خمس ساعات طفا الجانب الأيمن من الحوض مرة أخرى ، فلما كان الصباح كنا قد انتصرنا .

ولكن الفجر لم يحمل إلى قلوبنا روعة النّصر ، فقدنعى إلينا هوريس أرمسترنج ، وتذكرت هوريس وهو يضرب بمطرقته الهائلة تحت مؤخرة الطراد ديدو، فبكيت .

وفى أخريات نوفمبر تلقيت أمراً بأن أغادر مصوع وأتقدم نفسى إلى مقر قيادة الجنرال أيزنهاور للقيام بأعمال إنقاذ مستعجلة فى جميع موانىء إفريقية الشمالية فلم أشعر بأسف .

وقد رفعنا منـذ شهر مارس أحواضاً عائمة ، وسفناً للمحور ، وآلة رافعة عائمة ضخمة ، ولا يمكن أن يكون هناك شك في قيمة ما أسدته مصوع لقضية الحلفاء .

والآن ابتعدت الحرب فجأة عن مصوع واستقر الحلفاء فى شمالى إفريقية ، وعادت طبرق إلى أيدى البريطانيـــين ، وراح مونتجمرى يطارد روميل إلى طرابلس . فانتهى عهد مصوع .

وستقوم طائرتى فى الصباح من أسمرة ، وبعد أن ودعت أصحابى ركبت السيارة إلى أسمرة تحت نجوم السماء المظلمـة ، وتلفت فرأيت على مياه البحر الأحمر أضواء متلاحقة فى الميناء الغاصّ بالحطام الذى أنقذناه . .

ومضينا نخطف فى الظلام ونهب الصحراء الحارة إلى الجبال ، وسرعان ما شرعنا فى الإصعاد ، فوضعت على كتفى معطفى الذى طال إهمالى له ، فإنى سأحتاج إليه الآن ، وقد يكون شمال إفريقية أشد إضناء من مصوع ، ولكنه على التحقيق سيكون أبرد .



سطو وتجسس

مختصر كتاب

ويليس جورج

قصة عجيبة عن « لص » ، يفتح الأقفال ، والخزائن ، ويصور الوثائق المختومة بالشمع ، ويعيش خارجاً على القانون فى سبيل خدمة بلاده فى زمن الحرب .

سطو وتجسس

بعد الهجوم على برل هاربر بقليل، كنت ذات ليلة في عملي بمكتب المخابرات السرية التابع لوزارة البحرية في نيويورك. وفي الساعة الحادية عشرة مساء مزّقت سكونَ المكتب دقات آلة التقاط الرسائل وهي تسجل رسالة من وشنطن دفعت بي إلى ممارسة عمل قد يصدق عليه وصف « السطو الرسميّ » .

ذكرت الرسالة أن موظفي إحدى السفارات في وشنطن قد حرقوا — فيما يقال — كل محفوظاتها في الليلة السابقة ، وسألتنا أفي مقدورنا أن نتثبت من أن قنصليتها في نيويورك قد حذت حذوها .

فاستأذنت رئيسي أن أحاول التسلل إلى القنصلية لأحقق الأمر ، وكان رئيسي على خلاف كثيرمن الموظفين، رجلا لا يحجم عن المخاطرة بمنصبه من أجل القيام بعمل تدعو الضرورة إليه . فقال لي :

« امض في سبيلك ، ولكن لا تنس أن لدور القنصليات حرمتها إذ تُعَدُّ قطعة من أرض أوطانها ، فلو اكتشف أمرك لوقعت وزارة البحرية في حرج شديد » .

وكنت أدرك ذلك حق الإدراك، فدبرت خطة مأمونة العواقب ، فبدأت بمقابلة مدير البناء الذي فيه القنصلية ، وأطلعته على وثيقة إثبات شخصيتي، فتبين لي أنه من قدماء رجال البحرية، فتطوع من فوره لمساعدتي وقال لي:

« ليس هناك مَنْ يتولى حراسة البناء ليلا سوى عامل المصعد المخصص للقنصلية » .

وتنكرت في زي العمال الموكلين بنظافة الدار، وركبت مصعداً آخر إلى الطابق الثاني فوق القنصلية ، ثم نزلت إليها عن طريق السلم ، وفتحت بابها بالمفتاح الذي يحتفظ به مدير البناء . فلما دخلتها هبت عليّ رائحة احتراق أوراق ، ودلت سلال المهملات على أن يداً قد أعدمت كل الأوراق ، ولكني وجدت بضعَ خزائن حديدية ، وخزائن أخرى مدفونة في الجدار ، وكذلك وجدت صناديق لحفظ اللفات ، فأيقنت أنه لا تزال هناك أوراق هامة غير التي أُحرقت .

وصح عزمي على الرجوع إلى تلك القنصلية ، سواء أُذن لي أو لم يؤذن — ومعي كل ما يحتاج إليه فتح الخزائن والصناديق من رجال وأدوات . ولم أجد ممانعة من رئيسي ، وإن كان قد أذن لي هذه المرة بدون إذن من وشنطن . ولم يغب عنه،

كما لم يغب عنى ، أن التنقيب فى سلال المهملات شىء ، وفتح الخزائن شىء آخر ، وقال لى :

« لى شرط واحد ، هو أن تقوم بعملك بحيث لا يرتاب إنسان فى أنك فتحت هذه الخزائن » .

وهذا شرط ينوء به رجل مثلى لم يألف هذا العمل ، ولكنى بدأت فى اليوم التالى فى جمع زمرة أرجو أن تحسن مثل هذا العمل . فاخترت حداداً ، وخبيراً فى الخزائن ، وعالماً باللغات ليدلنا على المستندات الجديرة بالاستنساخ ، واخترت أيضاً مصوراً قديراً ليصورها على شريط مصغر ، وأعارنا مكتب المخابرات البريطانية رجلا ناتىء العظام وجهه كوجه الفأر ، وهو رجل عزب بلغ الخمسين من العمر ، وكل عدته حقيبة فيها بعض القلايات والغلايات والمواقد الصغيرة التى تعينه على فض أية ربطة مختومة ، بحيث يعجز المدقق عن أن يدرك أنها فضت ، ولو فحصها بالأشعة فوق البنفسجية . وأخذت معى أيضاً عدداً من الحراس لمراقبة البناء وتنبيهنا إذا رأوا أحداً من موظفى القنصلية .

وتم مسلك هذه الزمرة التى جمعتها على عجل فتولت أول سطو لها ، على أنها قليلة الدراية بمهمتها ، إذ أخذنا نجول فى القنصلية على غير هدى ، فيتصادم بعضنا ببعض ، ثم نتقاطر متزاحمين من حجرة إلى حجرة لنرى الأقفال كيف تفتح . ولما فتحت أول خزانة مددنا جميعاً رؤوسنا فى وقت واحد لنرى ما بداخلها ، ولم نكن حراصاً على إخفاء آثارنا ، ومع ذلك لم يكتشف أمر زيارتنا ، وظللنا نوالى التنقيب فى القنصلية ليلة بعد أخرى .

وحدث ذات مرة أن وقعت آلة التصوير على الأرض وسُمع لها دوى ، فلم نر شيئاً يريبنا ، إلا أن عامل المصعد قد روى بلا ريب خبر هذا الدوى ، إذ ساورنى شعور غامض فى الليلة التالية بأن الحالة قد تبدلت ، فقررت أن أتبين الأمر قبل أن أرسل زمرة العمال للتنقيب . فتنكرت من جديد فى زى عمال النظافة ، وصحبت رئيسهم ودخلت القنصلية ، فإذا أنوارها تضاء فجأة ، وطلع علينا القنصل ومعه حارس مسلح يسدد إلينا بندقيته ، فأنقذنا زينا ، واعتذر لنا القنصل قائلا إنه حسبنا من اللصوص .

أخذت بعد ذلك أرصد القنصلية من دار مجاورة ، فتبينت أن الحارس يصل فى الساعة الخامسة من مساء كل يوم ويقضى بها الليل كله ، فمنعنا وجوده من العودة إليها ، ولكنى قررت أن أتخلص منه . وتسللت ذات ليلة إلى الطابق الذى فوق القنصلية ، وقذفت كرسياً على الأرض فأحدث ضجة عظيمة بالقرب من بئر المصعد ، ثم نزلت مسرعاً

إلى الطابق الأرضىّ ومعى الكرسى. وبعد نصف ساعة وصل القنصل فى سيارة ، وكان الحارس قد دعاه ، وأخذنا نرقبه من الدار المجاورة وهو يتفحص فى هياج أرجاء القنصلية . وكررت الحيلة نفسها ليالىَ متتالية ، فيحدث كل مرة ما حدث فى الليلة الأولى . وغضب القنصل آخر مرة غضباً شديداً ، إذ ضاقت نفسه بهذه الأوهام التى تزعجه عن مضجعه فى جوف الليل . وفى الليلة التالية ، لم يعد الحارس إلى القنصلية، فقد طرده القنصل ولا ريب .

وعدنا إلى عملنا وقد زاد احتراسنا ، فنحن نعلم أن القنصل قد أخذته الريبة ، وهكذا بدأنا نتعلم بالتجارب القاسية . ولم ننته من مهمتنا إلا بعد عشرة أسابيع ، ولكننا ظفرنا بعد انقضائها بصور كافة المستندات الهامة التى كانت فى القنصلية ، وصار عندنا قاموسها الرمزى، وكشف بأسماء أعوان المحور المقيمين فى الولايات المتحدة ، وبيانات وفيرة تثبت أن النازيين يستخدمون القنصلية للتجسس على نطاق واسع .

وفى السنتين التاليتين تمّ على يدى ١٥٠ سطواً مماثلا دون أن ينكشف أمرنا . وهذا من حسن حظنا ، فإن الحكومة لن تحمينا إذا قبض علينا ونحن ننتهك القوانين . وقد أنذرنا رئيسنا قائلا :

« حذار حذارِ من إحراج الحكومة مهما كان الأمر » .

وبالرغم من اعترافى بأن السطو قد أصبح لى عملا ، فإننى أرجو القارىء أن يؤمن بأننى لست ممن تهوى نفوسهم الإجرام ، وليعلم أننى كنت قبل أزمة ١٩٢٩ سمساراً فى سوق الأوراق المالية بنيويورك ، ثم قضيت بضع سنين فى خدمة وزارة المالية ، وكان يعهد إلىّ بتتبع أخبار مهربى الخمر من كوبا، وذلك بعد إلغاء قانون تحريم بيع الخمور ، ثم عهد إلىّ بعد ذلك بتتبع أخبار مهربى المخدرات .

لذلك كنت قد أصبت خبرة عظيمة فى أمثال هـــذه التحقيقات حينما التحقت فى سنة ١٩٤١ بمكتب المخابرات السرية التابع لوزارة البحرية ، ولكن خاب أملى ، فقد عهدوا إلىّ بعمل كتابى .

فلما أعلنت الحرب زاد اهتمام الناس جميعاً ، وموظفى الحكومة أيضاً — بخطر التجسس ، وحرص كثير من الناس على تزويدنا بأنباء الجواسيس، فكان دق التلفون فى مكتبنا لا ينقطع . وقيل لنا ذات ليلة إن أنوارا كشافة تنبعث من حجرة فى سطح بناء كبير فلعله جاسوس يرسل إشارات رمزية . فحطمنا باب الحجرة، فإذا بالجاسوس

الذى نريد القبض عليه سمكٌ فى حوض وضع بجانب النافذة وسلط عليه نور كهربائى يومض وينطفىء لتدفئة الأسماك التى جىء بها من المناطق الاستوائية .

ونقل إلينا التلفون أخباراً عن أشخاص يرسلون إشارات لاسلكية على موجة قصيرة ، وعن غواصات ألمانية يقال إنها شوهدت فى نهر هدسن ، وكل هذه الأنباء من نسج الخيال ، ولكن كان علينا أن نحقق كل هذه الوقائع واحدة واحدة .

وما كنت أرى مثل هذا العمل سوى لهو أطفال ، وأخذت أفكر فى المستندات السرية التى تضمها مئات من الصناديق والخزائن فى الشركات التى تعمل فى الولايات المتحدة تحت سيطرة الألمان . فهذه هى البيانات الهامة التى ينبغى للمكتب أن يظفر بها ، بدلا من أن يشغل رجاله بتتبع الأنباء التى يوافيه بها أشخاص حمقى ضعاف الأحلام . وبدأت أفكر فى وضع خطة للسطو — أو قل للسرقة ، ووافق رؤساؤنا عليها حينما رأوا نجاحنا فى السطو على القنصلية المشتبه فيها .

ولكن هذا النجاح الأول الذى أصبناه كاد يودى بخطتنا ، إذ كنا لا نجهل أن الخبرة بهذه الأعمال لا تزال تنقصنا ، ومع ذلك أراد رؤساؤنا أن ننفذ خطتنا على نطاق واسع ، فطلبوا إلينا — كأنما هو أمر يتم بين عشية وضحاها — أن ندرب خمسين رجلا على الاحتيال لفتح الأقفال ، ومثل هذا العدد أيضاً لفتح الخزائن . فصار المكتب كخلايا النحل من كثرة العمل ، وصارت كل حادثة تحتاج إلى جماعة من الرجال المتخصصين يعملون يداً واحدة .

وكان إخفاء أسرارنا عن بنى جلدتنا أشق من إخفائه عن الذين يرتابون فينا . وتقاطر كثير من الضباط لزيارة معمل الأبحاث الذى أقمناه فى مكتبنا ، وأخذ عمالنا يبينون من هو"ين لهؤلاء الضباط كيف تفتح الصناديق بسلك صغير أو بسن منشار ، وكيف تفك الأقفال وتفض الخطابات ، وسائر الحيل التى نلجأ إليها عند السطو ، ويستشهدون بحوادث لا تزال رهن التحقيق . ومثل هذه المعلومات الشائقة سوف تصبح من بعد خير حديث يتجاذبه الناس على موائد الطعام . وعمد بعض الضباط وغيرهم ممن لا تربطهم بالمكتب أقل صلة ، إلى المفاخرة بهذه الأعمال استثارة لأعجاب رفيقاتهم من الفتيات . ولقد حضرت حفلة ذات يوم فإذا بفتاة يافعة تحدثنى بتفصيل إحدى وقائع سطونا ، وقد عرفتها من كاتب صديق لها يتباهى بأنه ممن يعهد إليه بهذه الأعمال الجريئة .

ولكننا برغم هذه الصعاب أخذنا ندخل التحسين على وسائلنا وأدواتنا ، حتى أصبحنا

قادرين على أن نقوم فى ليلة واحـدة بمثل مهمتنا الأولى التى استغرقت عشرة أسابيع، بيد أننا كنا فى بعض الأحيان نمكث شهراً كاملا نضع خطة سطو واحد ونستعد له، فالسطو ولا جرم يتطلب حذراً شديداً.

وأصبحنا نبـدأ كل تحقيق مهم بفرز الأوراق المهملة التى يأتينا بها عمال النظافة من المكاتب المشتبه فيها، فلربما دلتنا قصاصة ورق أو بقية رسالة محترقة على أن الأمر يتطلب تحقيقاً شاملا. وقد كان هناك رجل نرتابُ فيه، وكانت عادته أن يمزّق رسائله ويحرقها. ومرّ شهر فإذا كاتبة الاختزال التى يستخدمها تلقى بدفترها فى سلة المهملات، فوقفنا منها على نص رسالة مهمة كان قد كتبها منذ ستة أسابيع مضت.

وقد تولى الزميل البريطانى تدريبنا على إجادة فضّ الرسائل، وتعلمنا كذلك أن نأخذ معنا ستائر لنغطى بها النوافذ حتى يتسنى لنا العمل والأنوار مضيئة، وأن نشرع فى العمل بهدوء وسكون إلى أن نتحقق من أن المكان خالٍ من آلة مخبأة لالتقاط الأصوات وتسجيلها، وأن نأخذ معنا مسحوقا من الرماد والطلق (التلك) لنـذرّه على المستندات وسطوح المكاتب والخزائن التى نفتشها، وأن ننتبه للأشراك المنصوبة لنا، وأن نرسم على الورق مواضـع ما يكون فى الخزانة قبل أن نلمسها، حتى نعيدها كما كانت أولا. وزوّدنا إحدى سياراتنا بجهاز لاسلكى يرسل الإشارات ويتلقاها، وصنعنا جهازاً صغيراً آخر لنضعه فى حقيبة ونأخذها معنا. ولكننا لم نوفق كثيراً فى تدريب غير المختصين من رجالنا على الاحتيـال لفتح الصناديق والخزائن، إذ هو فنٌّ يحتاج إلى دراية تامة بالأقفال وأسرارها، وإلى التمرن على فتحها سنة كاملة.

وكان أكبر نجاح أصبناه هو سطونا على المسكن الذى رتبه ستيفن زيجلى بمكر شديد فى الطابق الثانى عشر من أحد أبنية شيكاغو. وهـذا الرجل يتظاهر بأنه يتولى أعمـال المصارف والتأمينات، وله فى هذه الأعمال شهرة دولية، ولـكن السلطات الأمريكية ارتابت فى أنه يقوم أيضاً بعمل أهم، وهو إدارة جمعية تجسس ألمـانية. وأقام زيجلى مركز أعماله فى بلد أوربى محايد، ولكن أغلب صلاته كانت بألمانيا.

ولما فتح زيجلى مكتبه فى شيكاغو أصرّ على إدخال تعديلات كبيرة فى المسكن، وأعاد نظامه بحيث يجتاز الزائر قبل الوصول إلى مكتبه أربع حجرات تحت رقابة من فيها من الموظفين، ثم سارع بالشكوى إلى مدير البناء بأن عاملات النظافة قد أتلفن بإهمالهن

مستنداً مهمًّا ، وأصر على أن يأتى هو بمن يتولى له هذا العمل مكانهن .

ولبثنا ثلاثة أشهر نفحص الأوراق التى تجمع من سلال المهملات فى مكتبه ، فتبين لنا أنه ممن تعلبهم عادة التلهى برسم صور أو دوائر على الورق على غير وعى أثناء انشغالهم بالحديث مع الناس وجهاً لوجه أو بالتلفون . فكانت صوره دائماً مدافع وسفناً حربية أو طائرات وقنابل ، وقد يرسم أحياناً شيئاً يشبه جهاز الرادار شبهاً كبيراً ، فقررنا السطو على مكتبه .

ولما كنت أنا المسئول عن السطو ، فقد حملت معى مسدساً ، وكذلك فعل ثلاثة من الحراس ، أما بقية الرجال فلم يحملوا إلا مسدسات صغيرة تطلق بدل الرصاص غازاً ، وجعلت أول همى أن أفوز بمعونة مدير البناء ، فمد لى يد المساعدة ، وكذلك فعل المالك بعد أن اتصلنا به ، ولكنه اشترط علينا أن نختلق للنفوذ إلى المكتب عذراً معقولا ، فاقترحت أن نتظاهر بأننا عمال مكلفون ببحث مقدار تمايل البناء ، وقلت له : « تحدث فى كل الأبنية صدوع من جراء تمايلها ، وذلك فى المواضع التى يقع عليها أكبر ضغط . وإن احتمال وقوع غارات جوية يسوّغ لك أن تطلب فحص هذه المواضع . وهذه حيلة تمكننا أيضا من وقف المصاعد أثناء قيامنا بالتنقيب ، بحجة أن الاهتزازات الناجمة من حركة المصعد تؤثر على الأجهزة الدقيقة التى تتولى الفحص بها . وهذا يجعلنا بمأمن من المباغتة » .

فأجابنى : « لا بأس ، يا حضرات المهندسين ! »

وفحصنا أمر المستخدمين الخمسة الذين يشرفون على البناء بالليل ، فتبين لنا أن أحدهم لا يؤمن جانبه ، وسعينا إلى نقله لخدمة النهار . واختارت سيارة الراديو مكاناً لها بجوار البناء ، وشرع اثنان من رجالنا وهما فى زى النقاشين ، يطلون جدران الممشى المؤدى إلى باب مسكن زيجلى ، وعلمنا منهما بعد يومين أنهما أصبحا يعرفان كل موظفيه .

وقمت أنا والحداد بتفقد مسكن زيجلى ، ولم نجهل أنه لو كان من الجواسيس حقاً لما غفل عن نصب فخاخ لمن يقتحم مسكنه ، فلذلك شرع خبير الأقفال يعالج الباب الخارجى بكل هدوء وفتحه بعد ١٥ دقيقة ، وظل واقفاً خارج الباب ليصنع له مفتاحاً آخر .

وكان مالك البناء قد قدّم إلىّ رسم المسكن ، فأضفت عليه كل التعديلات التى أدخلها زيجلى ، وبينت مواقع المقاعد والمكاتب والصناديق وبقية الأثاث ، وقمت بهذا العمل فى سكون تام . ثم أخذت أبحث عن الأشراك ، فوجدت على حافة النافذة وراء مكتب زيجلى ، حقيبة يمتد منها سلك مستور إلى وصلة الكهرباء بأسفل الجدار ،

فرفعت السلك من الوصلة وفتحت الحقيبة ، فإذا بها تضم جهازاً دقيقاً لتسجيل الأصوات يتحرك من تلقاء نفسه إذا نطق إنسان فى الحجرة بكلمة واحدة ، ويسجل بواسطة مكبرات الصوت ، من غير ضوضاء ، كل ما يحدث فيها من أصوات .

ووجدت أحد مكبرات الصوت على رف وراء مكتب زيجلى ، وآخر مخبوءاً تحت منضدة وسط الحجرة . ووجدنا فى أحد الصناديق خزانة حديدية من طراز متين ، فسجلنا أرقام قفلها الخارجى . ولم نغادر المسكن إلا بعد أن تحققنا من أن كل شىء قد أعيد إلى مكانه الأول ، فقد أعدنا طلاء أرض المسكن بعد أن داستها أحذيتنا وتركت آثارها عليها، ونثرنا مسحوق الرماد والطلق على الحقيبة بدلا من طبقة الغبار التى كانت تعلوها . ثم خرجت من المسكن ودرست كل الطرق التى يتسنى لنا الفرار منها إذا فاجأنا مباغت ، واخترت بقرب مسكن زيجلى دورة للمياه لنقوم فيها بالتصوير الشمسى .

وبعد ثلاثة أيام من هذا التفقد ، ذهب أحد عشر رجلا من عمالنا فى الساعة الواحدة صباحاً إلى ذلك البناء فى عدة سيارات تتبعها سيارة نقل كبيرة قد كتب على جدارها « شركة نورث وست الهندسية » وتحت هذا الاسم عنوان الشركة ورقم تلفونها ، وكنا قد استأجرنا فعلا مكتباً صغيراً فى العنوان المذكور، وكتبنا اسم الشركة على باب المكتب، وأدرجنا رقم التلفون فى دليل شيكاغو .

وأخرجنا من سيارة النقل عدة صناديق وحقائب كتبنا عليها اسم الشركة أيضاً، وفيها أجهزة للفحص وأجهزة لقياس تمايل البناء. وبقى رجلان مختبئين فى السيارة : أحدهما عامل اللاسلكى، والآخر حارس يعرف كل موظفى زيجلى، وأخذا يرقبان باب البناء من شق صغير فى غطاء السيارة .

وتقدمت إلى مدير البناء وأنا أتظاهر بأنى لا أعرفه ، وأطلعته على العقد الذى تعهدنا فيه بقياس درجة تمايل البناء وعليه توقيع المالك ، وطلبت إليه أن يوقف حركة المصاعد ، ثم استولينا — نحن المهندسين ! — على مصعدين وتفرقنا فى أرجاء البناء ، ثم تجمعنا عند مسكن زيجلى . وتركنا فى المصعد قبعاتنا ومعاطفنا وأحذيتنا ، وقلنا لعامل المصعد إننا فعلنا ذلك لأن وقع الأحذية على الأرض يحدث اهتزازات تضر بأجهزتنا.

وتقدم واحد منا ومعه المفتاح الذى صنعه خبير الأقفال ليفتح الباب ويستوثق من أننا لن نقع فى كمين ، وطلبنا إليه إذا وجد نفسه فى مأزق أن يتظاهر بأنه من اللصوص ويولى الفرار بأقصى جهده .

ولكنه وجد الطريق مأموناً فدخل من

فوره الحجرة ، وفك جهاز تسجيل الأصوات، وأسدل الستائر السود على النوافذ وأضاء الأنوار . فلما رأينا هذه الإشارة دخلنا جميعاً، وبدأ كل رجل منا يؤدي المهمة الموكولة إليه ، فرتب عامل اللاسلكي اتصاله بسيارة النقل الواقفة في الطريق ، وأعد المصور أدواته في دورة المياه ، وفتح خبير الأقفال باب مسكن مجاور حتى نهرب إليه وقت الضرورة .

وبعد ١٥ دقيقة من دخولنا وصلتنا رسالة لاسلكية من السيارة تنبئنا بأن أحد موظفي زيجلي قد دخل البناء ، فسارع رجالنا إلى جمع أدواتهم ولجأوا إلى المسكن المجاور ، وهناك أعدنا الاتصال بالسيارة . وقد تم جلاؤنا عن مسكن زيجلي في بحر عشر دقائق دون أن نترك أثراً ما يدل على زيارتنا .

وعمد الحارسان اللذان خلفناهما عند المدخل إلى تنفيذ خطة موضوعة لتعويق الباغتين ، فأصر أحدهما على أن يثبت القادم شخصيته لمدير البناء ، وأضاع خمس دقائق وهو يبحث بالتلفون عن هذا المدير في مكاتب ليس بها أحد في تلك الساعة، وأخذ الحارس الثاني يشرح له دقائق الأجهزة التي نستعملها لقياس تمايل المباني. وقال له : « فأنت ترى أنك ستعطل عملا مهماً ، أفلا تستطيع أن تؤجل شغلك إلى غد ؟ » فأجابه الموظف : « الحق أنني لم آت لعمل ، بل إن رفيقتي تشاربني في حانة قريبة ، وقد نفدت نقودي فأريد الآن أن أصعد لآخذ زجاجة من الويسكي خبأتها في مكتبي ، ولن أبقى فيه أكثر من دقيقة واحدة » .

فأخذه عامل المصعد إلى الطابق الثاني عشر وظل ينتظره حتى فتح الباب وأخذ الزجاجة ورحل يتبعه أحد رجالنا إلى أن رآه يعود إلى رفيقته ، ولما وصلتنا إشارة لاسلكية بالأمان عدنا إلى عملنا .

وفتح خبيرنا خزانة زيجلي المتينة في أقل من عشرين دقيقة، بعد أن عالج أرقام مفتاحها، وهذا عمل دقيق يحتاج إلى تدريب طويل وخبرة عظيمة ، ولا ينجح فيه إلا من آتاه الله خفة اليد وحدة السمع ومعرفة تامة بأقفال هذه الخزائن .

ووقع نظرنا ساعة فتحت الخزانة على ربطة مختومة كتب عليها بحبر أرجواني « وردت في الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة مساء » ، ويلي ذلك تاريخ الأمس. فالظاهر أن الربطة وصلت قبل موعد انصراف الموظفين بقليل ، فوضعها زيجلي — لعامه بمحتوياتها — كما هي في الخزانة . وأعددت رسماً دقيقاً يبين وضع هذه الربطة في الخزانة، حتى يتسنى لنا إعادتها كما كانت، ثم أخرجناها وسلمناها إلى خبير فض الأختام .

لفّها الخبير فى ورق شفاف جعل فيه خروقاً بقدر أختامها، ثم أعد معجوناً كالذى يستعمله أطباء الأسنان وطبع عليه أختام الربطة البادية من خروق الورق، ثم جاء بقلم من الحديد أحماه أولا فى النار ودار به حول الخروق، وكان غلاف الربطة قد أحكم تثبيته بالصمغ قبل أن توضع عليها الأختام، فعمد الخبير إلى بلّ الغلاف بسائل يستعمله هواة جمع الطوابع لنزعها من ظروف الرسائل. فلما تشرب الغلاف هذا السائل وذاب الصمغ من الداخل، تناول الخبير حافة الغلاف وأخذ يرفعها على مهل.

ووجدنا فى الربطة قاموساً رمزياً، فسجل المصور كل صفحة فيه ثم ناوله إلى الخبير ليعيد ترتيب الربطة، فأخذ يليّن باطن الأختام المنزوعة بقلم الحديد المحمى، وهيأ لها طبقة من المعجون فوق مكانها فى الربطة، ثم وضعها وضغط عليها فثبتت بحيث أصبح منظرها لا يختلف عما كانت عليه من قبل، فلا تلاحظ العين أن يداً قد عبثت بها.

أما نحن فقد اكتشفنا فى الخزانة أثناء ذلك خدعة تنصب لنا شركا، إذ رأينا فيها خيطاً متعرجاً قد ألقى فوق صندوق من الصفيح يغطيه التراب. فلبثنا عشرين دقيقة نرسم تعاريج هذا الخيط ونقيسها ونتدبر كل ما يراد من وضع هذا الخيط على تلك الصورة. ثم أخرجنا محتويات الخزانة وفحصنا ما بها من ملفات، وهكذا فعلنا أيضاً بالأوراق والمستندات التى أخرجناها من الصناديق وسلمناها إلى العالم اللغوى، وهو يجيد أربع لغات، وقد لجأ إليها كلها لقراءة تلك الأوراق وفرز المهم منها، فصورناها جميعاً. وانهمك المصور فى مباشرة مهمته، فالتقط فى أقل من أربع ساعات ألفى صورة من الرسائل وصفحات القاموس الرمزى والتقارير وأوراق أخرى.

وانتهت مهمتنا، فاجتمعنا عند مدخل البناء وأردنا أن نستر موقف المدير، فتظاهرنا أننا نجدّ فى جمع الأجهزة التى جئنا بها لقياس تمايل البناء، وفى كتابة حساب معقد من الأرقام. ولم نكد نمضى فى هذا العمل حتى أقبل زيجلى مسرعاً، والظاهر أن الموظف الذى قدم علينا من قبل كان قد استفاق من سكرته التى طالت ساعتين، وأبلغه بالتلفون أنه شاهد جمعاً من الرجال يجولون فى البناء ومعهم آلات عجيبة. ومرّ زيجلى بالحارس مسرعاً، وقد بدت عليه دلائل الغضب والاهتمام للنبأ الخطير، وطلب أن يصعد فوراً إلى مكتبه فتجاهلناه لوثوقنا من أنه لن يجد أثراً مايدل على زيارتنا.

ونزل زيجلى بعد عشرين دقيقة مبتهج النفس وهو يبتسم، فلا شك أنه ألفى كل

نخاخه كما هي ولم يجـد ما يريبه ، ثم أخذ يفحص بعناية شديدة أجهزة مقياس تمايل البناء ، وكنا بسطناها عند المدخل وبدا عليه السرور حين قال له أحد « المهندسين » إن البناء سليم ، ثم غادرنا وهو يصفر مسروراً.

ولعل هذه كانت آخر مرة يصفر فيها مسروراً ، إذ ذهب رجال الحكومة بعد يومين بهدوء إلى مكتبه واقتادوه إلى السجن بهدوء أيضاً.

ووقعت في أيدينا وثائق تثبت ببراهين قاطعة أن زيجلي يدير جمعية ألمانية للتجسس تضم نفراً كبيراً من الأعوان في عدة مدن أمريكية . وقد وجـدنا في خزانته كشفاً بأسماء هؤلاء الأعوان ومكان إقامتهم ، وتعليمات عن استعمال شرائط التصوير المصغرة والحبر الخفي ووسائل التنكر وغير ذلك . وقد تم القبض على جميع أعوان زيجلي في غضون شهر واحد ، وانهارت جمعية التجسس ، ولـكن لم يعلم زيجلي ولا سواه كيف انكشف أمرهم .

كانت وسائلنا حينئذ على نقيض ما كانت عليه من سذاجة أيام اقتحمنا القنصلية الأجنبية ، فقد وفقنا إلى وضع الخطة المحكمة لعملنا حتى لا تدع مجالا للمصادفة . ولعلّ حادث الضابط «باتا» هو خير مثل يبين لك ما طرأ على أساليبنا الفنية من تقدم وتحسن .

فذات يوم قبض على موظف معروف بالأمانة يدعى جستاف جنسن يشغل منصباً مهماً في مصنع حربي ، وذلك حينما خطر لأحد حراس المصنع وهو يؤدي واجبه أن يفتش ثيابه ، فوجد في جيبه جزءاً من رسم لسلاح سري جديد . وكان جنسن من مهندسي المصنع الذي يصنع هذا السلاح ، فادعى أنه وضع الرسم في جيبه أثناء العمل ثم غفل عنه . ونظراً لسابق خدماته الجليلة في زيادة إنتاج المصنع ، فقد أفرج عنه بعد أن وجه إليه تحذير شديد ، ولـكن رئيس حراس المصنع لم يطمئن إلى أقواله ، وأمر بوضعه تحت المراقبة .

وكان جستاف ممن اكتسبوا الجنسـية الأمريكية بالإقامة ، أما مولده ففي بلد يحتله الألمان ، وله حكومة مهاجرة تقيم في لندن. وكان جستاف موضع التبجيل ، والرأي فيه أنه يناصر الأمريكيين بقلبه ، ولـكن ورد على لسان أحد جيرانه وهو يذكر خصال جستاف كلمة ذات مغزى زادت من ريبة رئيس الحرس ، فقد قال الجار : « إن جستاف رجل أريب ، فليس هو بالمهندس المقتدر المنصرف إلى عمله في المصنع وحسب، بل إنه يصنع بيديه كثيراً من الأشياء التي يحتاج إليها . فقد صنع منذ قليل آلة لتصوير الوثائق ووضعها في قبو منزله » .

آلة لتصوير الوثائق ! إن هذا فيما يبدو يدل على التجسس . وأحيل الموضوع على مكتبنا ، وراجعنا ملف خدمته فوجدنا أنه ذكر في الطلب الذي قدمه للتوظف اسم الضابط باتا باعتباره أحد من يعرفونه ، وهذا الضابط من كبار موظفي الحكومة المهاجرة ، ومقر عمله في نيويورك .

وكنا نعلم أن باتا قد اشتغل بالجاسوسية في الحرب العالمية الأولى ، وبدا لنا أن من الخير أن نفحص أمره الآن ، فعهد إليّ أن أستكشف مكتبه في نيويورك .

وقال لي مدير البناء الذي يقيم فيه باتا : « يسرني مجيئكم فإنني أرتاب في هؤلاء الناس لأنهم يشغلون الطابق العاشر كله وبعض مساكن الطابق الثاني عشر أيضاً ، وسيل زوارهم لا ينقطع ، وقد بدأوا أخيراً يحرقون أوراقهم » .

وتعذر عليّ أن أتحين وقتاً يخلو فيه المكتب من الموظفين ، إذ اعتاد بعضهم أن يمكث فيه طول الليل ثلاث مرات أو أربعاً في الأسبوع للاستماع إلى إذاعات لاسلكية يزعمون أنها صادرة من أهل المقاومة السرية في أوربة .

وفحصنا سجل السكان المحفوظ عند بواب البناء ، فأدركت أن يوم السبت هو أصلح وقت نقوم فيه بالتنقيب في المكتب ، وقابلت مدير البناء فأدخلني مكتب الطابق العاشر ، ورسم المصور في الظلام صورة المكتب كله وملحقاته في الطابق الأعلى .

وكان المكتب فسيح الأرجاء ، إذ وجدنا في قسم واحد منه ١٤٠ صندوقاً لحفظ الملفات وهي مغلقة جميعاً ، فقيدت أرقام الأقفال كلها ونوع الخزائن وأحجامها ، فتلك الأرقام تعين على صنع المفاتيح المناسبة . وكذلك البيانات التي قيدتها عن الخزانتين تعين خبيرنا — على الاستعداد لفتحها ، وقد عرف طرازها .

وسرعان ما أدركت أن اقتحام هذا المكتب عمل معقد ، ولا بد من إجرائه على نطاق واسع يتطلب الاستعانة بكل ما لدينا من رجال وأدوات . إذ لا بد لنا من آلتين للتصوير ، ومن سيارة الجهاز اللاسلكي ، وجهاز لاسلكي لكل من الطابقين ، وعشرين رجلا على الأقل .

وأخذ بعض رجالنا وهم متنكرون في زي عمال النظافة أيضاً — يشتغلون طول النهار بالقرب من المكتب أياما عديدة ، حتى ألفوا وجوه كبار موظفيه ، وقمنا بتجربة أجهزتنا اللاسلكية في تلك المنطقة ، حتى نطمئن إلى أن الأسلاك الكهربائية في البناء لا تؤثر على الرسالات التي نتبادلها .

وقد رأينا على أن نحتال من جديد للتمكن من اقتحام المكتب ، بأن ندعي أننا مكلفون

بقياس تمايل البناء ، وجئنا بأجهزة لافائدة فيها ولكن منظرها يوحي بأنها أجهزة دقيقة ثمينة ، حتى يشعر حراس البناء بالليل أنهم يشاركوننا في عمل مهم، وأخذنا نترقب اقتحام المكتب مستعينين بهذه الأجهزة الخداعة .

واجتمع رجالنا في مكتبي في الساعة العاشرة صباحا لنتحقق من كمال استعدادنا ، وبعد ذلك بخمس وخمسين دقيقة تحركت سيارة الجهاز اللاسلكي ، واستقل الحراس سيارتين وراءها . أما السيارة الأولى فقد اختارت لها مكاناً أمام البناء ليستطيع رجالها مراقبة مدخله . وفي الساعة ١١ر١٤ فتح باب البناء المخصص لدخول سيارات البضائع ، وذلك باتفاق بيني وبين المدير ، ودخلت السيارتان اللتان تحملان الأجهزة اللاسلكية والمصورين. وبعد دقيقة واحدة أقفل الباب، ووضع الرجال أدواتهم في مصعد، وصعدوا إلى الطابق العاشر والحادي عشر .

أما بقية رجالنا « المهندسين » ، فقد تحركت بهم سيارتان من مكتبنا في تمام الساعة الحادية عشرة ، ووصلوا مدخل البناء بعد عشرين دقيقة ، فاستقبلهم المدير ، فتريثوا معه قليلا بدعوى إطلاعه على الأجهزة التي يحملونها ، ولما اطمأنوا إلى أن قدومهم لم يثر الشبهات صعدوا إلينا .

وعكف خبير الخزائن على عمله، وفتحت على عجل أقفال المكاتب والصناديق بالمفاتيح التي أعددناها من قبل ، وأخذ العالم اللغوي يراجع المستندات التي نجدها ، ولم تمض عشر دقائق حتى كنا قد صورنا أول مستند .

ووصلتنا فجأة إشارة من سيارة اللاسلكي تحذرنا بأن الضوء ينبعث من إحدى نوافذ المكتب ، فأحكمنا إسدال ستائرها ، فجاءتنا إشارة أخرى تقول لنا : « على بركة الله » ثم تابعنا عملنا مسرعين . ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى فتحت الخزانة ، وكنا نعمل في صمت، ولم نسمح لأحد منا أن يشرب من الصنابير أو يدخل دورة المياه لئلا ينبعث من أنابيب البناء أقل صوت ينم علينا. واستمر العمل خمس ساعات ونحن نسرع فيه إسراعاً، والتقط المصور ستة آلاف صورة ، وانتهت مهمتنا ، وتأهبنا لمغادرة المكان .

وأعدنا كل الأشياء إلى حالتها الأولى ، ونثرنا مسحوقنا على سطح خزانة كان قد علاها الغبار لقلة استعمالها ، ومسحنا خشب المكاتب ، ومحونا آثار بصمات الأصابع عن اللفات، وكنسنا الأبسطة حتى لاتبدو عليها آثار أقدامنا وقد خلعنا عنها الأحذية .

ولما عدنا إلى المكتب شرع العمل في تحميض الشريط المصور ، واستخرجنا منه صوراً مكبرة أخذنا نفرزها ونرتبها، وتسنى لنا بعدئذ أن نتبين نتيجة عملنا في تلك الليلة.

ماذا وقع فى يدنا ؟

أول ذلك أننا ظفرنا بسجل كامل لأخبار جستاف جنسن ، علمنا منــه أنه من الجواسيس الأجانب ، كما علمنا كل سر أؤتمن عليه فأفشاه . وفزنا أيضاً باكتشاف مقر جمعية للتجسس تجمع الأسرار الحربية فى كافة المدن الكبرى فى أمريكا الشمالية والجنوبية . ووقعنا أيضاً على أسماء كل ما لهذه الجمعيــة من أعوان تابعين لتلك الحكومة المهاجرة . وكملت معلوماتنا عن الوسائل التى تتبعها تلك الجمعية للاستعانة بالهيئات الاجتماعية التى تضم أفراداً وُلدوا خارج أمريكا .

وقد دهشنا من دقة إحكام هذه العصابة لعملها ، وتبين لنا أننا لا نجاريها فى مضمارها . ولا أستطيع أن أعــدد كل المعلومات التى حصلنا عليها ، ولكنى أؤكد أننى قرأت الخطة التى وضعها الحلفاء لغزو صقلية قبل أن يبدأ الغزو بأسبوعين .

ومردّ الفضل فى كل عمل عملناه هو إلى الخبراء المقتدرين الذين عاونونا ، ولم يكن هؤلاء الرجال من رجال القوات المحاربة ، ومع ذلك فقد خاطروا كل ليلة بسمعتهم وحياتهم لمساعدتنا ، ولم يكن لهم مطمع فى مال ، ولو قبض عليهم لما وجدوا لهم عذراً يدافعون به عن أنفسهم ، إذ كنا نحمل تبعة السطو الذى نتولاه ، فلو كشف أمرهم لفقدوا مناصبهم وموارد رزقهم . وقد رضى أحد كبار الخبراء فى فن التصوير الشمسى فى أمريكا أن يخاطر بنفســه ليساعدنا فى مهمة شاقة تتطلب خبرته .

وأعاننا أيضاً على النجاح كثير من العلماء ، وإن كانوا لا يرافقوننا عند اقتحام الدور . وقد صنع لنا أحد العلماء فى أسبوع واحد جهازاً صغيراً يدار بالبطاريات لإرسال الإشارات اللاسلكية ، مما أعاننا على تفتيش مكتب لم نشأ الاستعانة بتياره الكهربائى حتى لا ينتبه صاحبه لعملنا .

وأخيراً نقلت من هذا المكتب وأصبحت معلماً فى المكتب السرى التابع للقوات المحاربة ، وأخذت ألقن طلبته فن فتح الأقفال وغيره من الفنون المشابهة ، وارتحلت بعد ذلك إلى ألمانيا ومعى فرقة من المتخصصين فى تحطيم الخزائن ، وحصلنا على وثائق خطيرة أصبحت فيما أعتقد من أدلة الإثبات فى محاكمة نورمبرج .

أما الآن وقد انتهت الحرب ، فقد عدت إلى ملل الحياة المدنية ، وما أنا اليوم إلا فتاح خزائن عاطل عن العمل . والغالب أن هذه السمعة التى اكتسبتها أثناء الحرب لا تزال عالقة بى ، فلا عجب إذا خشى أصحاب الأعمال أن يستخدموا رجلاً سبق له فى سبيل خدمة وطنه فتح آلاف من الأقفال ومئات من الخزائن .

من نوادر الأدباء

اشتهر وسلر بنقده اللاذع كمثل اشتهاره بصوره الرائعة . ورأى ذات يوم صورة لا تزال فى أوائلها من رسم دانتى جابرييل روستى المصور والشاعر الإنجليزى ، فأثنى عليها . وبعد أيام قابل روستى فسأله عنها ، فقال روستى : « لقد أمرتُ بصنع إطار بديع لها » . فلما رآها وسلر بعد أيام أخرى كانت الصورة مثبتة فى إطار نادر الجمال ، ولكنه قال لصاحبها : « أراك لم تضف إليها شيئاً منذ رأيتها أول مرة » ، فقال روستى : « لا ، لم أضف شيئاً ، ولكننى نظمت قصيدةً فى موضوعها » وقرأ القصيدة ، فألفاها وسلر فيّاضة بالجمال والحنان فقال : « أخرج الصورة من الإطار ، وضع القصيدة مكانها » .

دُعى مارك توين والمالىّ تشونسى ديبيو مرةً للخطابة بعد مأدبة . وجاء دور مارك توين أولا فألقى خطبة رائعة استغرقت ثلث ساعة ، فوقعت عند المستمعين وقعاً عظيما ، ثم كان دور ديبيو فوقف وقال :

« حضرة الرئيس ، سيداتى وسادتى : اتفقت مع مستر كليمنز (اسم مارك توين الحقيقى) قبل المأدبة أن نتبادل الخطبتين . وقد فرغ هو الآن من الخطبة التى أعددتها أنا . وإنى لأشكر لكم حسن إصغائكم إليها واحتفائكم بها ، ويسوءنى أننى أضعت المذكرات التى كان المستر كليمنز قد أعدها وأعطانى إياها ، ولست أذكر شيئاً مما جاء فيها » . ثم جلس بين الهتاف والتصفيق .

فلما انفضّ شمل المجتمعين ، دنا أحدهم من مارك توين وقال : « أحسبك يا سيدى رجلاً قد فُرِض عليه أمر أليم ، وقد تسامع الناس بأن مستر ديبيو رجل بارع الذكاء واسع الحيلة ، ولكن هذه الخطبة التى أعطاكها كانت لا تباريها فى سخافتها خطبة أخرى » !

فلتثر العاصفة



خلاصة رواية

روز وايلدرلين

مؤلفة

"كيتي بيلي" و"سنا" الخ

هذا مختصر رواية رائعة حافلة بآيات الحب والبسالة وكفاح الطبيعة القاهرة ، وهي رواية جعلت مؤلفتها روز ويلدر لين في طليعة كتاب الروايات في هذا العصر ، وقد رحب بها النقاد يوم صدورها أعظم ترحيب فأعيد طبعها ثماني مرات ، ولا تزال رواية يعاد طبعها مرة كل سنة .

فلتـزأر العـاصفة

كان طفلين يلعبان معاً ، قالا إنهما سيتزوجان متى شبّا وكبرا ، فلما كبرا تزوجا .

ولم ينقض قط عجب كارولين ، الفتاة الحييّة الهادئة التى لم يقسم لها حظ وافر من الجمال ، كيف فازت برجل مثل تشارلز . وكان مرحاً مقداماً ، وصائداً جريئاً ، وراقصاً وعازفاً ، ومكافحاً .

ولم يكن قد بقى بقرب حلّتهما سوى القليل من الأرض الطيبة ، أما إلى الغرب فكانت أرضاً لم يستوطنها أحد ، وكان يقال إنها خصيبة ومستوية ، وليس فيها غابات تقطع ، فذهبا غرباً .

وكان والد تشارلز رجلا سخى الكف ، وله ستة أولاد أصغر من تشارلز ، وكان على تشارلز أن يعمل لأبيه إلى أن يبلغ الحادية والعشرين ، ولكن أباه نزل له عما بقى له من الزمن — هبة حرة تتجاوز العامين ، وزاد على ذلك فأعطاه المركبة والجوادين ، وهذا ما كان يكسبه بالعمل حتى يبلغ الحادية والعشرين .

أما أبوا كارولين فأعطياها بطانيتين ، ووسادتين محشوتين بريش الإوز البرى ، وقدراً ، ومقلاة ، وطاسة . وأعطياها أيضاً لحماً محفوظاً ، وجبناً ، وقالبين من السكر ، وديوان شعر تنيسون ، مجلداً بالجلد الأخضر المذهب ، وكان عندها هى ملاحف رقّعتها . فخرجا مزوّدين تزويداً حسناً .

ولم يستطيعا قط أن يقولا أيهما كان خيراً — أيام الرحلة غرباً وهى متنوعة على طرق مجهولة ، أم الليالى التى كانا يقضيانها بجانب النار الموقدة ، وتشارلز يعزف على قيثارته ، والخيل ترعى ، والنجوم تتلامح ، والقمر يضىء ، وهواء الليل ساج جميل . وكانت أغنيته المحببة إليه تنهضه على قدميه إذ يرفع الصوت بألفاظ التحدى والنصر ، فتنطلق فوق الحقول المعشوشبة وتتجاوب بأصدائها الغابات المتراحبة العذراء :

« خلّ العاصفة تزأر ، فإن ذلك أخلق بأن يعجل بفنائها ، وسنخوض الإعصار ، ونرسو آخر الأمر على الشاطىء السعيد » .

ثم تخمد كارولين النار ، ويربط تشارلز الخيل حتى يطلع الصبح ، ثم يأويان إلى فراشهما فى المركبة .

وكان تشارلز يصيب كل يوم صيداً ، وإذا احتاجا إلى الدقيق والشاى والسكر ، أقاما فى حـلّة من الحلل ، وذهب تشارلز يعمل ليكسب ما يتزوّد به .

وكان الصيف قد شارف آخره حين بلغا

السهوب الغربية ، ووجد تشارلز عملا على السكة الحديدية ، وقال إن إقامة بيت أمر لابد أن يؤجَّل، وفى أثناء ذلك تقيم زوجته فى مخيم السكة الحديدية ، فإنها حامل، وهو يريد أن يكسب شيئاً من المال .

وكان مخيم الرجال الذين يمدون الخط الحديدى إلى الغرب صغيراً فى هذا السهل المتقاذف : وهو قسم للنوم ، وآخر للطبخ ، ومخزن للشركة . وكانت المسز بيكر وأختها اللتان تديران قسم الطبخ ، امرأتين جافيتين غير مهذبتين ، فلم تشأ كارولين أن تقيم معهما ، فبنى لها تشارلز كوخاً أو عريشاً من العيدان، فكان يقطع العيدان الجافة القوية ، وساعدته هى على تمليس الحيطان ومدّ غطاء المركبة فوقها، واستخدمت الحشائش الجافة فوق السطح لاتقاء حرارة الشمس . وقد تمت إقامة البيت فى يومين، فصارت لها دار مرتبة رطيبة الجوّ لا يشاركها فيه أحد .

وكان تشارلز يذهب بالمؤن إلى البيت الجديد على مسافة عشرين ميلا غرباً، فيكون مع كارولين ليلة ويغيب عنها ليلة . وكنت تسمع الذئاب تعوى على بعد ، وكانت مخازن الشركة القريبة كثيرة الضوضاء بوقع الأقدام فيها ، وارتفاع أصوات الذين يشربون ويقامرون، وكان تشارلز قد أعطاها مسدساً فلم تخف قط ، ولكنها كانت تستوحش ولا تجد أنيساً .

فلما كانا شهر سبتمبر صارت الرياح باردة، والسماء الغائمة تتجاوب بأصوات الطيور المرتدة إلى الجنوب ، وكانت المخيمات تنقض ، فلن يكون هناك عمل حتى يحول الحول . وكان تشارلز قد كسب من المال ما يكفى لمؤونة الشتاء ، ولشراء الأدوات والبذور ، وقد وجد مكاناً يقيم فيه بيته .

وكانت عيناه الزرقاوان تومضان وهو يحدثها بذلك، ففى هذا المكان بيت مسقوف ومستودع من العيدان ، وخمسون فداناً من الأرض الممهدة ، فقد كان فيها قبله رجل أخذ هذه الأرض وعمل فيها كل هذا ، ثم نفض يده منها وذهب مشرّقاً ، وقال إنه لا يطيق أن يقضى شتاء آخر مستفرداً وَحَداً .

وسألها تشارلز : « أترى ستكون هذه الأرض موحشة لك يا كارولين؟ إنه لن يكون هناك إنسان آخر إلى مسافة ثلاثين ميلا » .

« أما لك بُدّ من أن تنأى عنها ؟ »

« كلا ، بل سأكون هناك، ولكن — » .

فقالت : « لا ، لن تستوحش نفسى » .

وفى منتصف الليل قصد تشارلز مكتب تسجيل الأراضى على مسافة ثلاثين ميلا ، ليظفر بهذه الأرض قبل أن يسبقه إليها سواه . ولم يكن قد ناهز العشرين ،

ولكنه كان رأس الأسرة ، فلم تكن به حاجة إلى الانتظار إلى أن يبلغ الحادية والعشرين ليسجل طلبه للأرض . وفى ثالث يوم ، وفى ظلام الليل ، سمعته كارولين يغنى على الرغم من كركرة المركبة ؛ وكانت معه الوثائق ، فبعد خمس سنوات تصبح الأرض ملكه .



انقطع العمل فى المخيم . وشرع الرجال يذهبون شرقاً إلى البلاد المعمورة فى مركبات أو على ظهور الخيل ، أو مشياً على الأقدام . أما كارولين فساعدت تشارلز على حزم المؤن ، فذهبا غرباً .

وغضبت المسز بيكر حين سمعت أن تشارلز وكارولين لن يذهبا شرقاً لقضاء الشتاء ، وواجهت تشارلز ويداها على خصرها .

وقالت مغضبةً : « هذه البنيّة وفى مثل حالتها ! أتريد أن تقتلها ؟ »

فأفزعته صراحتها ، فما كان يدور له فى خلد أن ولادة طفل تنطوى على خطر على المرأة ، فصار مستعداً أن يعدل عن كل شىء وأن يكر راجعاً بكارولين إلى أهلها ، ولكن كارولين كانت تفكر فى البيت والأرض ، وكانت تعلم أنه إذا أخذها غيره من طلاب الأرض فقد يقتلون تشارلز حين يعود فى الربيع ، وكثيراً ما وقع هذا ، فقالت فى أدب بصوتها العذب : « وداعاً يامسز بيكر — يجب أن نمضى الآن » .

ومضى تشارلز بالمركبة ، ولكنه كان لا يزال مستعداً للارتداد ، وكانت كارولين أفطن من أن تذكر له طلاب الأرض والوثّابين عليها ، واكتفت بأن تقول برصانة : « إن الوضع أمر طبيعى ، وفى وسعى أن أضع طفلى هناك كما أضعه فى أى مكان آخر » .

وساقا مركبتهما طول النهار دون أن يلتقيا بأحد ، وأبصرا مرة فارساً من بعيد لعله من الهنود ، أو من البيض الخوارج على القانون الذين يختبئون فى الغرب .

وكانت دائرة الأفق طول النهار على وتيرة لا تتغير ، والحشائش البرية تتماوج مع الريح . ولما كان العصر مرا بمخزن بذور منفرد ، هو الأثر الوحيد الذى يُهتدى به فى كل هذه الأرض ، فانحرف تشارلز عن طريقه ليشترى بعض البذور .

وقبيل الغروب دار حول مستنقع ، ووقفت الخيل ، فصاح تشارلز : « وصلنا ! »

فاتسعت عينا كارولين وهى تصوبهما إلى الماء فى بطن الخور تحتها ، فقهقه تشارلز ، فقد أبقى هذا الخور سراً ليفاجئها به ، ولم يخبرها أن فى هذه الأرض ماء ، وأنهما لن يحتاجا أن يحفرا بئراً .

وقال تشارلز : « خطر لى أن نسميه

خور الكمثرى البرى » ، وكانت هناك على الماء شجرتا كمثرى صغيرتان : « إن الماء يجرى فى عروقهما، وسينوّران فى الربيع » .

وأسرع فأراها الكوخ ، وكان تحت أقدامهما ، والخضرة فوقه ، والحشائش تحجب مدخنة الموقد ، والطريق ينحدر على حافة الخور الوعرة إلى الباب .

كان الباب يفتح على حجرة كبيرة تتسع لكل ما معهم ، والأرض ممهدة وصلبة ، والقماش يستر السقف وجانباً من الحيطان ، وهناك سرير ، ومائدة ودكة ، وموقد من الحديد للطبخ وكان تشارلز قد اشترى ذلك كله من الرجل الذى رحل عن الأرض، وكانت الشمس تدخل من الباب الذى يطل على السهوب المترامية من فوق الجانب الغربى المنخفض من الخور، بل لقد كانت هناك كوة صغيرة مغطاة بورق مزيّت، ومنها يدخل النور فى الشتاء .

ولم يكن ثم ما هو خليق أن يكون أدفأ من هذا الكوخ فى الشتاء وأبرد فى الصيف، وكل هذا الدفء وهذه الراحة — المخزن المصنوع من العيدان ، والأرض الخصبة التى لا شجر فيها ، والخور ، وبعض النبت الذى يصلح علفاً للخيل ووقوداً — كل هذا لهما ! وكل ما يتطلب الأمر منهما أن يعيشا هنا ويفلحا الأرض ، وبعد خمس سنوات يكون ذلك كله ملكا لهما .



وظل كل شىء مريحاً قبل أن تهب عواصف الثلج ، وكانت الخيل تجد الدفء فى المخزن، وأمامها النبات والشوفان تأكل منه إلى أن يقبل الربيع ، وكان تشارلز قد قطع كل الحشائش الجافة وكومها بجانب المخزن .

وعوت الرياح ودفعت الثلوج أمامها على الأرض . وكان تشارلز فى الأيام الصافية يحمل بندقيته ثم يعود باللحم والفراء، وكانت كارولين تكنس وتمسح ، وتطبخ، وتغسل وتكوى . وفى الأيام التى تهب فيها عواصف الثلج صارخة من الشمال الغربى ، كان تشارلز يتحسس طريقه إلى المخزن لايعدوه، وكان قد مدّ حبلاً من رأس الطريق إلى باب المخزن حتى لا يضل فى العواصف التى تعمى البصر .

وصنع تشارلز مهداً من صندوقين ، ونجر الخشب بعناية بقطعة مكسورة من المدخنة ، حتى صار أملس مثل كفه ،وحفر على رأس المهد صورة طائرين وعش . وكان ضوء المصباح حسناً ، والموقد ينفث الحرارة ويبعث رائحة الطعام الطيبة . وكان تشارلز يتناول قيثاره من صندوقه ويعزف ويغنى ويوقع بقدمه .

وفى شهر فبراير غطى الثلج هذا العالم

الساكن ، وأثقل الحمل كارولين فصارت بطيئة الحركة قصيرة النفس ، وكان تشارلز لايفارقها إلا قليلا وإن كان الجو ملائماً للصيد. وكان السكون يغشى هذه الأميال من الثلج التى لا أثر فيها لإنسان ، والتى لايسمع فيها إلا زفيف الرياح ، ولا يرى إلا آثار الوحوش ــ عالم لا عداوة فيه ولا رحمة .

وحاولت كارولين أن تتذكر كل ماسمعته عن الوضع ، وما أقل ذاك ، ولم تدع تشارلز يفطن إلى حنينها إلى أمها .

وجاءها المخاض بأوجاعه بعد ظهر يوم ، وكانت قد أعدت عجينة للخبز وأدنت الوعاء من الموقد ليرتفع العجين ويختمر بسرعة ، واستطاعت أن تملكه وتقرّصه وترغّفه قبل أن يرى تشارلز وجهها، وكانت تعلم أن الأوجاع ستكون شديدة ، وآلت أن لا تصرخ أو تتوجع ، حتى لا تزيد ما يعانيه .

وطال الليل جداً ، وكانت راقدة على السرير تبتسم لزوجها كلما استطاعت ، وكان فزعها شراً من الوجع ، فتعلقت به فى جزع ، ولكنه كان أقل منها حيلة ، ثم غام كل شىء ، وسمعت صرخات أدركت أنها ندّت عنها ، ولم تكن تستطيع أن تردها أو تكتمها ، ولم تكن تشعر بشىء إلا هذا الألم الذى لا يطاق . وكانت قوتها قد أخذت تضعف .

وولد الطفل فى صباح اليوم التالى ــ ولد فى يوم عيد ميلادها السابع عشر كأنه هدية فسمياه تشارلز جون . وكان سميناً صحيح البدن ، وكان قلما يصرخ . وكانت كارولين تغسل ثيابه كل يوم وتغسله هو بماء الثلج بعد تدفئتـه على الموقد . وكانت سعادتها فوق الوصف إذ تحمله لترضعه .

وذهبت الثلوج بسرعة فى ذلك الربيع ، وبين مساء وصباح ازدانت السهوب بالأزهار البرية، وكان الباب يظل مفتوحاً طول النهار ، وكانت كارولين تحمل الطفل وتمضى به إلى الحقل حيث يحرث زوجها ، وكانت الأرض كلها عليها تباشير خصْبها .

وكان الخط الحديدى سيصل فى ذلك العام إلى مسافة عشرة أميال من مكانهما ، ونزل عدد من الأسر عند موقع المدينة ، وستجرى القطر على الخط فى العام القادم. وكان الناس فى كل مكان يتخـذون بيوتهم ، فاغتبط تشارلز وكارولين لأنهما سبقا غيرهما وأخذا خير بقعة . وسيخرج فى أرضهما أول قمح فى هذه المنطقة .

وفى صباح يوم من أيام مايو ، وقد أنبتت الأرض واخضرت رؤوس القمح ، وأخذ تشارلز يزرع البطاطس، أقبلت مركبة تجرها الثيران. وفى ذلك المساء دعا تشارلز كارولين

وأراها ناراً على مسافة نصف ميل، وفى صباح اليوم التالى كان القادمون يقيمون كوخاً .

فقال تشارلز بفرح: «سيكون لنا جيران».

ومضى فى الصباح ليحيي القادمين ، ثم عاد كئيباً محزوناً ، فقد كانوا من السويديين ولا يكادون يعرفون الإنجليزية .

وبعد بضعة أسابيع ، وفى وقت الظهر ظهر الستر سفنسن فى مدخل الباب وهو رجل ضخم فى ثياب معفرة ، ويداه غليظتان، ووجهه عريض مكتئب ، وكان الدمع يلمع فى عينيه الزرقاوين ، ومد ذراعيه مشيراً إلى السهوب المترامية، وأخرج صوتاً كصوت الرياح التى لا تهدأ ، ورفع إصبعين ، أحدهما يشير به إلى نفسه ، والآخر إلى زوجته . وبسط يديه إلى كارولين متوسلا ، فقد كانت زوجته تشعر بالوحشة .

وفى عصر ذلك اليوم ارتدت كارولين خير ثيابها ، وقبعتها ، وحملت طفلها بين ذراعيها ، ومضت تجتاز السهل حتى وقفت أمام الستر الذى يغطى مدخل الباب، ونادت فى استحياء : « يامسز سفنسن » .

فرفعت الستر امرأة صفراء الشعر ، فى مثل سن كارولين، وكانت تنتفض من السرور، فأخذت بيد كارولين وأدخلتها الكوخ ، وكان الكرسى الوحيد فيه هو المقعد الذى نزع من المركبة ، وألحت عليها المسز سفنسن وهى تبتسم وتتكلم بما لا يفهم ، أن تقعد عليه ، ثم وضعت البن والماء فى إبريق وخرجت مسرعة لتوقد تحته ناراً ، فما كان عندها موقد .

وكان غطاء المركبة مطوياً على الأرض ، وعليه مرتبة سميكة من الريش ومخداتها ولحاف. وفى أحد الأركان براميل وصندوقان كبيران مدهونان ، وفتحت المسز سفنسن صندوقاً وأخرجت فنجانين وطبقين ، ثم جاءت بالقهوة .

وقالت كارولين وهى تشير : «فنجان».

فقالت المسز سفنسن مثلها : « فنجان » ، وضحكت فبدت أسنانها البيض المتينة .

وقالت كارولين : « طبق » .

فقالت المسز سفنسون بحماسة : «طبق» .

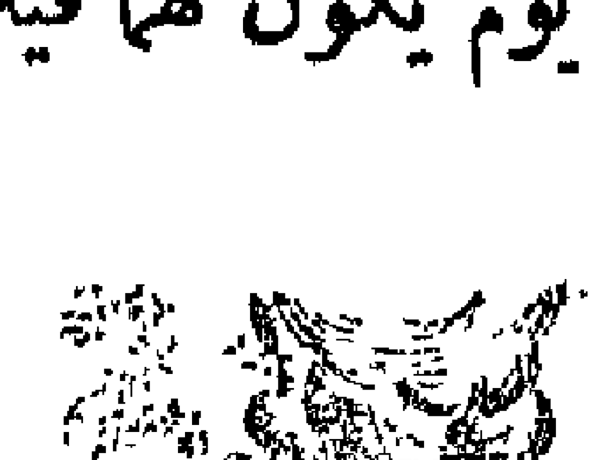
ثم شرعت كارولين تشير إلى أشياء أخرى فكان الأمر كأنه لعب ولهو ، وقالت المسز سفنسن بعدها : « طفل » فتركتها تحمل ولدها ، فكان يضحك ويضرب برجليه وهو على ذراعيها .

ولما همت كارولين بالانصراف ، ذهبت بها المسز سفنسن إلى المستودع المصنوع من العيدان وأرتها خليتى نحل ، فعلمتها كارولين كلمتى « نحل » و« عسل »، وعادت إلى البيت تحمل أنباء كثيرة تريد أن تقصها على زوجها .

و بعد ذلك صارت كارولين والمسز سفنسن تجتمعان أحيانا مرتين فى الأسبوع، وتقضيان العصر معاً فى أحد الكوخين . وشعرت كارولين كأن الأرض تعمر بسرعة لما صار لها جار على مسافة نصف ميل منها .

وكانت الأرض تموج بنباتها وستخرج سوى القمح ، البطاطس واللفت والجزر ، ويتوفر الدقيق للشتاء المقبل ، ويكون المال كافياً لغير ذلك من المؤن . وفى العام المقبل ، إذا جرت الأمور على ما يرام ، يستطيعان أن يتخذا بقرة ، ومتى آلت ملكية الأرض إلى تشارلز ، فإن فى وسعهما حينئذ أن يبنيا بيتاً .

وغرسا الحبوب على صفين حول الموقع الذى اختاراه لإقامة البيت، وكانت كارولين تذهب كل يوم ، بعد أن تفرغ من أعمالها الأخرى، تملأ الدلو عشرات المرات من ماء الخور إلى صفى الحبوب النابتة . وسيجىء يوم يكون لهما فيه حجاز يصد الرياح .



وفى صباح يوم فى أخريات شهر يونيه قال لها زوجها : « أريد أن أريك شيئاً » ،وكان صوته يرعش من فرط التأثر ، فتبعته فى الطريق ، ثم وقفت مذهولة . فقد كانت السنابل الخضر فى الحقل كله ترتفع أمامها إلى صدرها .

وعجز تشارلز عن ضبط صوته وهو يقول « انظرى يا كارولين ! سأحصد مقدار أربعين بوشلا من الفدان الواحد . والقمح يباع هنا الآن بسعر ريال للبوشل . فهذا المحصول يساوى ألفى ريال ! »

فذهلت ، فقد كان هـذا مبلغاً يتجاوز كل تقدير ، وقالت بلهجة من به رهبة : « فى وسعنا أن نشترى البقرة » .

فصاح تشارلز: « بقرة ؟ قولى قطيعاً من البقر ! وسنحيط الأرض بحاجز ، ونبنى البيت ، وسأشترى لك ثوباً من حرير ! وستكون لنا مركبة وزوج من الخيل! » ، ورفعها بين ذراعيه وراح يدور بها ويرقص ويصيح وقد غلبه الطرب ، ويقول: « أصبحنا أغنياء يا كارولين ! أغنياء ! »

وجعلا يذهبان كل مساء إلى حقل القمح لينظرا إليه ، وكانت أيام الصقيع قد ولّت ، ولم تعد بالمحصول حاجة إلى المطر ، وشرع تشارلز يحفر سرداب البيت الجديد بين صفوف الحبوب التى زرعها . وكانت كارولين قد وُلدت فى بيت من خشب ، أما تشارلز فكان يطوف برأسه شبح من ذكرى بيت أبيض الدهان فى الشرق، فاعتزم أن يبنى البيت على هذا المثال .

وخطر لتشارلز أن الأرض التى حصل

علها ليست كافية ، وقال : « وينبغى أن أستجل طلباً لأرض أغرس فيها أشجاراً . إننا ننمو ونكبر يا كارولين وينمو معنا أعظم بلد فى العالم ! »

فقالت : « ستحتاج إذن أن تغرس مئة شجرة وتتعهدها خمس سنوات ، وتقتل نفسك عملا ، وأنت تتعهد أرضين » .

فضحك منها ضحكا طيبه الحب وقال : « وما فائدة المال ؟ فى وسعنا أن نستأجر عمالا » .

وقبل أن تطلع الشمس استقل المركبة ، فقد أقيم فى موقع المدينة مكتب للأراضى ، ففى مقدوره أن يعود إلى البيت فى تلك الليلة .

ولم يكن عمل اليوم فى نظرها إلا صدفة تضم فى جوفها مستقبلاً هو أقرب إلى الحقيقة من الحاضر ، وستكون فى البيت الجديد بئر ومضخة ، فلا تحتاج أن تأخذ الماء من الخور بعد ذلك وتحمله . وسوف تكون للطفل ثياب رقيقة من الصوف ، وأردية موشاة بالمخرم (الدنتلا) ، وتفرش أرض البيت بالخشب ليسهل تنظيفها .

ولما مالت الشمس للمغيب ذهبت تحمل الماء لتسقى البذور المغروسة ، واعتدلت فى وقفتها ونظرت إلى الحفرة التى ستكون سرداب البيت ، وفكرت فى الدار البيضاء التى ستبنى وحولها الأشجار الذاهبة فى الهواء تصد عنها الرياح ، وتحيط بها حقول تخرج ثروة من القمح . هكذا سيكون بيتهم ، ولن يعرف الطفل بيتاً غيره ، وسيكبر ويصبح فتى ثم رجلا فى هذا البيت الأبيض الكبير ، ويعمل فى حقول القمح وفى المخازن الكبيرة ، ويركب جواده ويركض به فى السهوب ، ولن يتذكر شيئاً من الحياة فى كوخ فقير .

وكان الظلام قد أرخى سدوله حين سمعت صوت المركبة وخرجت للقاء زوجها عند المخزن ومعها مصباح ، فوقع الضوء على حمل من الحطب ، ووراء المركبة آلة حصاد جديدة حمراء تلمع أجزاؤها المصنوعة من الصلب ، وكان على المقعد بجانبه كوم من حزم ملفوفة .

ووثب تشارلز فوق العجلة ، وضمها ضمة طردت الهواء من رئتيها : « خمنى ماذا جئتك به ! »

« ولكن يا تشارلز ، كيف ؟ أتراك استدنت ؟ »

« ولم لا ؟ إننا قادرون على الوفاء ، أليس كذلك ؟ أما لو أنك سمعت ما يتحدثون به فى البلدة عن قمحنا ! لقد قدمت طلباً للأرض الواقعة فيما وراء الخور وصار لنا خير رقعة فى هذه المنطقة . ومتى صارت كلها مزروعة قمحاً ــ ربّاه ! هل كنت

تحسبين أنى سأقطع كل هذه الأميال العشرة على مركبة فارغة ؟ لقد كان واجباً أن نشترى آلة الحصاد هذه – والحطب ! »

ولم يسبق لهما قط أن تناولا عشاء كهذا أو قضيا مثل هـذه الليلة . وكان تشارلز قد اشـترى قطعة من اللحم ، وشيئاً من الحلواء والزبيب ، وزاد فابتاع رطلا من الزبد ورطلا من السكر الأبيض ، وجاء بلعبـة للطفل ، وحذاءين كبيرين جداً له فى سنه هذه . ثم فك حزمة ، وكشف عن ياردات من الحرير الرقيق الأسمر ، فشهقت كارولين وهى لاتكاد تصدق ما ترى عيناها ، ولمست الحرير فى خشوع ، وحاول تشارلز أن يتكلم مستخفًّا فقال : « إن شعرك أرق وأنعم من الحرير » ، ثم ندت عن صدره صيحة وهو يقول : « حمداً لله، فإن فى وسعى الآن أن أعنى بك وبالطفل » .

وبعد أن أكلا عشاءهما جلسا معاً فى مدخل الباب ، وصعّدا عيونهما إلى النجوم ، وكانا مطمئنين آمنين بفضل ما أخرجت الأرض من القمح . وقال تشارلز : « سأحصده فى آخر الأسبوع المقبل » .

وكانت كارولين تضع طعام العشاء على المائدة فى اليوم التالى حين سمعا صراخ امرأة .

فقال تشارلز : « ابقى حيث أنت » .

وتناول بندقيته وخرج ، ولم تبعد كارولين عن الطفل واكتفت بأن تذهب إلى رأس الطريق .

وكانت المسز سفنسن مقبلة تعدو ، وتشارلز يعـدو إليها ، فصاحت وهى تلهث بألفاظ تنم على التحذير والفزع ، ثم دارت وأشارت إلى فوق ، فرأت كارولين سحابة لم يسبق لها بمثلها عهد مقبلةً من الشمال الغربى بسرعة . وعادت المسز سفنسن إلى كوخها وهى تنتحب .

وأحست كارولين بمثل وقع المطر على النبات حولها ، ولكنها لم تر سوى أوراق تضطرب ، ووقف تشارلز كأنما تجمّد وصاح : « ربّاه ! ربّاه ! » .

ذلك أن الجراد كان يتساقط من السماء بالمئات ، فقد كانت السحابة من جراد .

وذهب تشارلز يعدو إلى المستودع وهو يصيح : « املأى الدلو . اغمسى البطانيات فى الماء ، فقد تكون النار منجاة من شرّه ! » .

وقبل أن ينقطع تساقط هذه المخلوقات المجنحة من السماء ، كان تشارلز قد ساق الخيل ثلاث مرات حول حقـل القمح ، وحفر ثلاثة أخاديد فى الأرض ليحمى بطينها المرفوع قمحه من النار التى أوقدها بعـد ذلك فى الحشائش البرية . ومن حسن الحظ أن الريح كانت ساكنة .

وكان على كارولين أن تتبع النار على طول الخط المحروث لتمنع النار من أن تشب في القمح ، أما تشارلز فكانت مهمته أشق ، وهي أن يحصر النار في الحشائش ويمنعها أن تحرق الأرض كلها . وكانت هنالك سوى رائحة الحشائش المحترقة ، رائحة زيتية منبعثة من الجراد الذي يقع في النار .

وبدا كأنه لم يكن قط هناك ، ولن يكون أبداً ، سوى هذه المعركة المستيئسة العنيفة التي لا رحمة فيها ولا هوادة . على أنها انتهت أخيراً ، وهوت كارولين إلى الأرض وهي ترتعد .

خف إليها تشارلز ، وكان قد غشيه الدخان وذهب شعر جفونه ، واحترق الشعر الذي كان على ذراعيه ، ولكن أعواد القمح ظلت قائمة كما كانت — خضراً ذهبية جميلة — وللجراد حفيف فوقها .

وقال : « ادخلي واستريحي ، وسأحافظ على أن يبقى هذا الدخان الكثيف الخانق ، وأخلق بهذا أن يجدي »

ومشت كارولين فوق الجراد ، وكانت قدماها تسحقان ما تدوسان منه وكان الجراد في شعرها ، وفي كمها ، وفي إزارها ، وحاولت أن تسد أذنيها فلا تسمع حفيف أجنحتها .

ومضت إلى الطفل تتعهده بلا تفكير ، وفي الوقت المعتاد أطعمت الخيل ، وقادتها إلى الماء لتسقيها ، ثم طبخت العشاء . وكان تشارلز يجز الحشائش ويكومها على الخط الذي كانت فيه النار حول حقل القمح ، فارتفع الدخان الكثيف وانتشر في الهواء الراكد .

وأبقت كارولين العشاء دافئاً زمناً طويلا ثم جاء زوجها أخيراً ، وقد زهد في الطعام من الإعياء والقلق والاضطراب . وخرجت معه إلى حقل القمح ، وأرثا النار الهامدة على ضوء النجوم ليظل الدخان يرتفع في الجو .

وطلع الفجر معتما من الدخان ، ولما وقعت أشعة الشمس الأولى على السهوب ، ارتفع من الأرض صوت ، وكان هذا صوت أشداق صغيرة لا عداد لها تأكل وتقضم . وبدأ الحقل يموج ويضطرب ، والأعواد الطويلة تنتفض وكان أحدها ربما اهتز وتحرك كأنما يكافح ، ثم يتطرح ويميل على ما جاوره .

فصاح تشارلز بصوت مبحوح وانطلق إلى الحقل ، وجعل ينتزع الأعواد جملة ، وكان يحس كأنه إنما يقطع لحمه هو حين يقتلع الأعواد ويكدس أكوامها ليشعل فيها النار ، ولكنه لابد من التضحية ببعض النبات لإنقاذ البقية .

وكان تشارلز يصيح من خلل الدخان : « كارولين ! ارجعي إلى الكوخ وابقي فيه — لاقبل لك بهذا — ما زلت ترضعين الطفل ! » وكانت الدموع المنحدرة من

عينيه المحمرتين تبلل الهباب الذى على خديه.

وكانت كل ساعة تحمل إليه شراباً بارداً وطعاما ، ولكنه كان لا يكف عن العمل ليأكل. وقال مرة وهو يشهق: «لو استطعنا أن ننقذ ما يكفى للبذور ، لأمكن تأجيل هذا الدين إذا رهنت له المحصول » .

وفى اليوم التالى لم يبق عود من الحشائش قائماً على الأرض ، وكانت ملقاة كأنما حشت ولكنها كانت لا تزال تضطرب . وجاءت كارولين بدلو من ماء الخور ووقفت تحدق فى أشجار الخوخ. لم تكن عليها ورقة واحدة.

ولما دخل تشارلز فى الكوخ كانت عيناه محمرتين فى وجهه الذى علته طبقة من الدخان. وقال : « ذهب القمح يا كارولين! كل سنبلة . » وانحط على المقعد .

وأبت أن تدعه يتهافت وينهار . وقالت : « إذا لم يكن هناك قمح فإنى أحسب أننا نستطيع أن نمضى فى سبيلنا بدونه . وقد استطعت إلى الآن أن تمضى بدونه» وقعدت بجانبه فجذبها إليه، وأحست أن الشهيق يرج كيانه حين أسند وجهه إلى كتفها ، وقد تعلق بها فى هذه المحنة التى تجاوز طاقته ، كما تعلقت هى به حين وضعت طفلها .

« آه يا كارولين ! أما لو أنى لم أرتكب هذه الحماقة! مدين بمئتى ريال ، لا طحين لهذا الشتاء — ولا بذور أيضاً » .

« لا تفكر فى هذا الآن . ولن تعجز عن تدبير أمرك . وسيزول عنك هـذا الشعور متى نمت قليلا » .

ونام نوماً ثقيلا من الإعياء ، وفى الصباح كان وجهه متضناً وعيناه وارمتين ، وبعد أن اغتسل وأفطر ، أقنعته بأن يرقد ثانية فنام، وجلست كارولين ساكنة حتى لا تقلقه.

وسمعت فجأة صوتاً حاداً تمشى دبيبه فى ظهرها ورأسها ، فوثبت إلى قدميها ، فرأت على عارضة الباب صفا أسـود يتهاوى عليه ويتدفق منه. فقد أقبل الجراد يغزو الكوخ، وكانت آلاف من ذوات الرؤوس الصلبة ، والعيون الجاحظة، والفكاك البارزة ، تتحرك فوق عارضة الباب ، فالتقطت الطفل ولفت عليه فوطتها وغطته بذراعيه .

وصاحت : « تشارلز. تشارلز ! اقتلهم! »

وكان الباب مفتوحا على حافة الخور. فبدا لها كأن الأرض كلها تزحف — الطريق ، وحافة الخور، والسهوب ... تموج وتزحف ، ومدت يدها إلى الرتاج ودفعت الباب فأغلقته بشدة فسحق عدداً من الجراد .

وهب تشارلز يسقط الجراد عن السقف والحيطان ، ويسحقه بقدميه ، ويزيله عن السرير ، ويكنسه من تحته .

وظلت هذه المخلوقات تجىء طول الليل والنهار بعده ، ولم يبرح تشارلز الكوخ

ألا ليتعهد الخيل ، وقال : « الحمد لله فإنها بخير ، وسأستطيع أن أجد عملا لى بها ، وسأعود إلى العمل فى السكك الحديدية ، فما قضى علينا بعد ، وسنكون بخير » .

فقالت كارولين : « طبعاً . وقد وفقنا دائماً » .

وكانت تعلم مبلغ كرهه للعود إلى العمل فى السكك الحديدية ، فقد قضى عاما يعمل فى أرضه ، وكان حراً مستقلا .

وقبيل المساء ، بدا الورق المزيت الذى يسد الشباك صافياً ، فقد ذهب الجراد فجأة كما جاء ، ومضت سحابة شفافة منه إلى الشمال الغربى . ولم يبق فى السهوب كلها عود واحد من النبات ، وثار التراب مع الريح فى المساء ، وكان كل ما تركه الجراد ولم يأت عليه هو أكوام الدريس المتخلفة من العام الماضى .

واستقل تشارلز المركبة فى صبيحة اليوم التالى إلى أقرب مخيم للسكك الحديدية ، وكان على مسافة عشرين ميلا ، وقال لها : « إذا استخدمنى رئيس العمال على الفور ، فسأبقى هناك ، وسأحاول أن أبعث إليك بخبر إذا وجدت أحداً آتيا إلى هنا ، ولكن لا تقلقى إذا لم أعد غداً مساء ، فإن سفنسن هنا ، وسيتعهدك » .

وضمها إليه لحظة ، وقبلها ، ثم استقل المركبة ومضى بها .

ولم تدرك مبلغ قلقها إلا بعد أن تخلف عن العودة فى الليلة التالية ، وحدثت نفسها أنها كانت واثقة أنه سيجد عملا ، وسيستطيعان الآن أن يؤديا بعض ما عليهما وأن يبتاعا بعض المؤونة للشتاء المقبل ، وبذوراً للعام التالى .

وقالت إن ما ضاع من القمح ليس بالخسارة الحقيقية ، فما حصدناه قط ، ولا بنينا البيت الجديد ، ولا اشترينا المركبة الجديدة والجوادين — ما كان شىء من هذا كله حقاً .

وقالت لنفسها : « لقد وجد عملا ، وستكون لنا بقرة فى العام المقبل ، ويشرب ابنى من لبنها » .

وبعد خمس ليال عاد زوجها . وكانت كارولين ترضع الطفل حين سمعت المركبة تقف أمام المستودع . وأراها ضوء المصباح التراب الكثيف فى عينيه ، وأدركت أنه قطع عدة أميال فى يومه فى التراب والحر وحده ، وعاد مهزوماً .

فقالت تلاطفه : « أراك تعبت جداً فدعنى أفك الخيل » .

« لم أستطع أن أجد عملا . ليس فى المنطقة كلها عمل » .

فرفعت إليه وجهها ، فقبلها قبلة سريعة ودار ليحل السيور ، ودخلت هى فى الكوخ . فلما أقبل كان الشاى يغلى ، والبطاطس يصعد منه البخار وكان فمه وفكه صارمين ، فاستغربت كارولين وقالت لنفسها : « إنه لم يتجاوز العشرين ! »

وقال : « إنهم يستغنون عن العمال فى كل مكان ، وقد كفوا عن العمل. وكل امرىء يبحث عن عمل . ونصف من فى البـلدة يخرجون منها ، وقد رأيت الرجال يشحذون فى مخيمات السكة الحديدية ، — رجال لهم أسر وأطفال ! »

فتشددت وقالت : « ليس الأمر من السوء بهذا القدر . فعندنا الدريس والبطاطس ، وفى هذا الشتاء تستطيع أن تخرج للصيد » .

فضرب المائدة بقبضته وقال : « لن أستطيع ، فليس عندى بارود ولا أستطيع أن أقترض . وقد قضى على » ووضع قبضتيه على ركبتيه وقال : « علينا أن نرحل عن هذا البيت إذا استطعنا . وقد أجد عملا إذا ذهبنا شرقاً » .

وكانت كارولين تدرك أنه لا ينبغى لهما أن ينزلا عن البيت والأرض ، فقالت : « لماذا لا تذهب شرقاً حتى يقبل الشتاء ، وفى وسعنا أن نرجىء الدين إذا بقينا فى البيت » .

فقال بفتور : « كيف نستطيع أن نقوم برحلة كهذه ونعود فى خمسة شهور ؟ إننا سنضطر أن نسير على مهل من أجل الطفل ، ويجب أن يكون معنا مال لنعيش ونقتات . وسيثب بعضهم على هـذه الأرض المحروثة إذا تركناها » .

ولم يكن قد خطر له أن يشرّق وحده فقالت بحزم : « لن يثب على الأرض أحد وأنا هنا » . ففهم ورفع إليها عينيه وقال : « هل تعنين يا كارولين — » .

فقالت : « إنى أشعر بالوحشة فى الحالين سواء أكنت تعمل فى السكة الحديدية أم فى أقصى الشرق » . وتشددت وقالت بسرعة : « سأكون بخير فإن آل سفنسن هنا » .

وفى تلك الليلة ظلا يتحدثان وهما راقدان والطفل بينهما ، واستطاعت أن تبين له أن الأمر بسيط : فالعمل فى الشرق أو فى السكة الحديدية سواء .

وقضيا بضعة أيام معا قبل أن يرحل . وساعدته وهو يغرس البطاطس واللفت ، وحفر بئراً ، وعلق عليها البكرة لتمتاح منها ، وهى قريبة ، فلا تحتاج أن تذهب إلى الخور . وقضيا المساء مع آل سفنسن ، ثم عادا إلى الكوخ فى ضوء القمر ، والطفل نائم على ذراعى أبيه .

وفى صباح اليوم التالى وضع الحطب فى المركبة وذهب إلى البلدة ، ثم عاد يحمل الدقيق والملح والعسل والبترول ، وقطعة من اللحم المملح ورطلين من الشاى ، فقد باع الحطب واشترى بثمنه هذه المؤن ، وهى تكفى كارولين حتى يعود فى الخريف . ورهن الخيل لوفاء الدين ، ولكنهما مع ذلك تحدثا وهما مستبشران . وقال إنه سيقطع الطريق بسرعة ، ومتى وجد قطاراً فسيركبه ، ويقال إن المحصولات جيدة

فى الشرق ، ومن السهل أن يجد عملا فى الحصاد ، وفى الخريف يعود ومعه ما يكفى من المال ويسترد الخيل ، ويقضيان شتاء آخر معا ، ثم يجىء الربيع ، والعام الجديد ، والمحصول الجديد .

وظلا مستبشرين إلى آخر لحظة ، التفت إليها تشارلز ولوّح لها بيده عند قمة الطريق ، ورفعت كارولين الطفل وأمسكت بيده ولوحت له بها ، وبقيت واقفة تصغى حتى انقطع صوت المركبة . لقد رحل .

وكان عندها ثلاث كرات من الخيط ، وإبر صغيرة للنسج ، فبعد أن فرغت من شئون الكوخ ولم يبق شىء آخر تعمله ، نسجت الخيط كله ثم حلته لتنسجه مرة أخرى .

وكانت كارولين دائمة التطلع إلى القادمين إلى السهوب على الخيل ، فإذا رأت أحدهم يركض إلى الجنوب ، راحت تعدو وتنادى وترفع عينها إلى الغريب القادم وتقول : « أماض أنت إلى البلدة ؟ إذا كنت سترجع من هذا الطريق فهل لك أن تسأل فى مكتب البريد عن رسائل لى ؟ »

فكانوا جميعاً يقولون : « حباً وكرامة . يسرنى أن أفعل ذلك » ، ولكنهم لم يعودوا .

وكانت كارولين واثقة أن لها رسالة فى مكتب البريد — إذا لم يكن قد وقع لزوجها حادث ، وكانت الرحلة ذهاباً وإياباً تستغرق يومين ، بعربة تجرّها الثيران ، أو سيراً على الأقدام ، فعرض سفنسن أن يقوم بها ، ولكنها فى عصر ذلك اليوم سمعت وقع حوافر ، ثم سمعت من يدعوها ، فإذا رجل يحمل لها رسالة :

« زوجتى العزيزة — إنى أتناول القلم لأخبرك أنى بخير ، وأنى أرجو أن تكونى كذلك ، كيف حالك وحال الصغير ؟ إنى أزاول عملا فى مطحن وأتقاضى ٥٠ ريالاً فى الشهر مع المسكن . وصاحب المطحن يعاملنى معاملة حسنة . اكتبى إلىّ لأعرف كيف أنت . وسأعود فى شهر أكتوبر . والآن يكفى هذا من زوجك المحب . قبلاتى لك وللصغير » .

وقد أبلت الرقعة من كثرة ما قرأتها .

وسار سفنسن إلى البلد ليرسل ردها بالبريد ، وكان عطوفاً جداً حتى لكانت كارولين تشعر أنها لن تستطيع أن توفيه حقه . ورأت أن تدعه يجز البرسيم لها على أن يقتسماه . وكان يحتاج إليه لإطعام ثيرانه ، أما هى وولدها فيكفيهما ما بقى عندها من العام الماضى ، ونصف المحصول الجديد .

وظل سفنسن أسبوعاً كاملا يجز البرسيم ويكومه ، وكانت امرأته تجىء معه كل صباح حاملة جانباً من الطعام ، فيأكل الثلاثة غداءهم فى الكوخ الظليل ، وكان هذا الأسبوع خليقاً أن يكون مما يطيب تذكره لولا كآبة

سفنسن . وكانت كارولين تغضب حين تسمعه يحمل على البلاد كلها وعلى الغرب . فتقول بحدة : « إن البلاد بخير . وما من بلد يمكن أن يطعمك بملعقة » .

فيشير سفنسن بمديته إلى الفضاء ، وكانت السهوب تحجبها الحرارة ، ولا أفق يبدو ، ويقول بمرارة : « هذه الأرض اللعينة لا تطعم أحداً ، هي مأوى جن » .

فتسكت كارولين وتتقى تأدباً منها أن تقول : « إن الرجال هم الذين يصنعون البلاد » . ثم تقول بلطف بعد قليل : « إن الجو حار لأنه لا شجر هناك ، وفي حيثما تكون الأشجار يروح الناس يقطعونها ويحرقونها ويقتلعون جذورها . أما هنا فسنغرس الأشجار التي نريدها ، وسيكون الجو أكثر اعتدالا متى نما الشجر وزرعت الأرض وخرجت المحاصيل . إنها أرض طيبة » .

ولما أقبل شهر سبتمبر ، راحت كارولين تعد الأسابيع ، فما بقي إلا ثمانية أسابيع ثم تجتمع بزوجها .

وأقبل سفنسن ذات صباح ووقف بباب الكوخ وبسط يديه الغليظتين ثم تركهما تهويان إلى جانبه وقال : « سنرحل » .

لقد قنط واعتزم أن يرحل إلى الشرق .

وحاول سفنسن أن يتصيد الألفاظ ، واغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول لها إن خول النحل تقتل الصغار فتغرس إبرها فيها فتميتها ، لأن غريزتها دلتها على أنها ستعجز عن إطعامها في الشتاء . فقد أتى الجراد على كل نبت ، ولم يعد النحل يجد نوراً وزهراً يستخرج منه العسل ، وانحدرت دموعه إلى لحيته حزناً على صغار النحل ، وقال بحدة إنه لن يبقى في أرض لا تستطيع أن تعيش فيها نحلة .

وفزعت كارولين قليلا ، فقد احتفظت طول الصيف بشعورها بأن الأرض سيستقر فيها العيش بسرعة ، إذا كان لها جيران على مسافة نصف ميل منها ، ووضعت قبعتها على رأسها وذهبت لتزور امرأة سفنسن .

وقالت المسز سفنسن إن لها أخا في ولاية أخرى ، وسيقصدان إليه ، وسيقضيان هذا الشتاء في أرض حقولها مسوّرة وفيها جيران ، أرض زاخرة بالحياة . وقد تحدثت عن كل هذا وهي مشغولة بالتهيؤ للرحيل .

ولم تنطق عيناها بحقيقة شعورها إلا مرة واحدة على غير عمد ، فقد كانت تدرك أن زوجها يئس ، وأنه لن يكون إلا أجيراً في الشرق ، ولكنها تبسمت وقالت : « سنعود ، والأرض واسعة ، أليس كذلك ؟ »

نعم ، ولكن تشارلز سيصبح مالكا لأرضه بعد أربع سنوات أخرى ، ولن ييأس أبداً .

وحمل سفنسن على ثيرانه ما عنده من البطاطس واللفت ونصيبه من البرسيم البري

إلى البلدة ، ليستبدل بها مؤناً يحتاجان إليها في رحلتهما . ولما عاد دسّ يده في جيبه وأخرج رسالة ، ففضتها كارولين بسرعة وكانت فيها ورقتان من أوراق النقد ، وكانت لا تكاد تتبين الألفاظ المكتوبة على الرقعة ، لترقرق الدموع في عينيها :

« زوجتي العزيزة — إني أتناول القلم لأقول لك لا تقلقي . فقد وقعت لي حادثة ولكني أتماثل للشفاء بسرعة. لست أستطيع يا كارولين أن أعود في شهر أكتوبر ، فقد انكسرت ساقي في موضعين ، ولكن الطبيب يقول إنها تلتئم بسرعة ، ولن أصاب بالعرج — وقد تسلمت رسالتك ، ويسرني أن أعلم منها أنك بخير ، وأن الصغير سمين وبصحة . يحسن بك يا كارولين أن تقيمي مع آل سفنسن فلست أدري متى أستطيع السفر ، والشتاء قد يكون قارساً هناك ، وسيكون الصيد نادراً ، وستخرج الذئاب والمتشردون إلى الأرض المعمورة ، وسيعنى بك سفنسن ، فدعيه يبني لك كوخاً بجوار كوخه ، وقد بعثت لك بما تيسر من المال للمؤن ، وسأعود متى استطعت ، فلا تقلقي عليّ ، فإن صاحب المطحن لا يتقاضاني شيئاً على طعامي وأنا طريح الفراش ، وسيؤدي للطبيب أجره . وحاولي يا كارولين يازوجتي العزيزة أن لا تحنّي إليّ كحنيني إليك ، فلن أفارقك مرة أخرى ما دمت حيًّا . واكتبي إليّ . زوجك المحب »

ونظر سفنسن إلى كارولين مستطلعاً . وكان هو وزوجته قد تأهبا للرحيل ، وكل يوم يمضي يعد خسارة ، لأنه ينبغي لهما أن يرحلا بسرعة قبل نزول الثلج وتراكمه .

وقالت : « لن يعود الآن فقد أصيب بكسر » ، حتى هذه الكلمات لم تدلّ على ماعراها من الذهول ، وكانت عيناها تنظران إلى ورقتي النقد ، ورقتين كل منهما بعشرة ريالات ، فهما عشرون ريالا .

وصار الأمر مرجعه إليها الآن ، فقالت : « سآخذ الطفل وأذهب إلى البلدة » .



وانحرف آل سفنسن عن طريقهما ليذهبا بكارولين إلى البلدة ، وبذلك منحاها يومين من جملة الأيام القليلة الباقية لهما ليقطعا الطريق إلى غايتهما. وفي هذين اليومين كانت الثيران تأكل طعامها دون أن تدنيهما من غايتهما. ولم تستطع كارولين أن تأبى هذه المعونة ، ولكنها أبت أن تتقبل غيرها . وعليها اليوم أن تجد لها مأوى في البلدة .

وكان هناك المتجر ، فتنفست تنفساً عميقاً وحملت الطفل على كتفها ، وكان هندرسن

صاحب المحل يكنس الأرض حين دخلت هى وامرأة سفنسن فقال : « صباح الخير . ماذا أستطيع أن أصنع لكما ؟ »

فقالت له كارولين إنها تريد أن تقيم فى البلدة حتى يعود زوجها : « وفى وسعى أن أعمل فى مقابل الإقامة . وقد بعث إلىّ ، بقدر من المال ولكن — »

فعبث هندرسن بلحيته وقال : « أقول لك الحق ، إنه لم يبق كثير من النساء هنا ، فقد رحل الرجال ذوو الأسر بعد أن أنزل بنا الجراد هذه الضربة . والمكان ضيق ، ولكن يحسن أن تتحدثا إلى زوجتى » وفتح الباب المؤدى إلى منزله وقال : « هنا سيدتان تريدان أن تحدثاك » .

وكانت زوجته تعد الفطور ، وهى امرأة صغيرة الجسم ، سريعة الحركة ، كثيرة الكلام فقالت : « طبعاً لا تستطيعين أن تقيمى وحدك على تلك الأرض مع دنوّ الشتاء . وإنه ليسرنى أن تبقى معنا . والله يعلم أن قليلا من المال ليساعدنا كثيراً ، ولكنه ليس عندنا سوى غرفة نوم واحدة لنا نحن الستة . ومتى جاء دورنا لإسكان المدرّسة عندنا ، فسأحتاج أن أعد لها فراشاً هنا فى المطبخ . وهناك زوجة ديكر صاحب الحانة ، ولكنها امرأة تقية . وليس عندها سوى غرفة واحدة ، ولكنها رحيبة ، وليس فيها غيرها هى وزوجها . وهناك أيضاً زوجة وكيل المحطة إنسول ولست أدرى هل تقبل إسكانك ، ولكنه لا ضير من السؤال » .

وكانت المسز ديكر امرأة نحيفة شاحبة الوجه وعيناها سوداوان براقتان ، فوقفت فى مدخل الباب ونظرت بحدة إلى كارولين والطفل وخاتم الزواج على إصبعها وقالت :

« لماذا يتركك زوجك هنا ولا يعنى بك ؟ » .

فقالت كارولين : « إنه ذهب إلى الشرق ليعمل ، وسيعود متى استطاع » .

« تدفعين أربعة ريالات فى الأسبوع ؟ » .

فذهلت كارولين ، واتسعت عيناها جداً وهى تنظر إلى المسز ديكر .

وقالت المسز ديكر : « إذا كنت لا تستطيعين — لا أستطيع أن أطرد حتى كلباً عن بابى إذا لم يكن له مأوى » .

فقالت كارولين بوقار : « إن هذا أكثر مما أردت أن أدفع ولكنى سأفكر فى الأمر » .

وبدا لكارولين كأن الأمر ليس حقاً وأنها ليست سائرة فى الطريق المعفر فى هذه البلدة الغريبة ، ولا مأوى لها .

وكانت المسز إنسول تقيم فى الطابق الذى فوق المخزن ، وهو البناء الوحيد ذو الطبقتين فى البلدة كلها . فجمعت كارولين كل شجاعتها وصعدت على الدرج ، وفتحت المسز إنسول الباب وهى غاضبة ، وكانت تنظف البيت

وحول رأسها فوطة ، وفى يدها مكنسة .

قالت كارولين: « إنى أبحث عن عمل ».

« فردت عليها بحدة: ما أكثر العمل هنا! ولكنك تخطئين إذا ظننت أنه يسعى أن أستخدم فتاة . ولو كنا نستطيع أن نعيش عيشة كريمة ، لما جئنا إلى هذه الأرض » .

فقالت كارولين: « إنى مستعدة أن أعمل مقابل السكنى والأكل » .

« اسمعى نصيحتى واذهبى شرقاً . فقد خربت هذه الأرض وصارت للكلاب. وعندنا ثلاثة أولاد كبار نطعمهم ، ولا يبقى بعد ذلك ما يكفى قطة . ومعذرة » وأغلقت الباب .

فدقت المسز سفنسن كفاً بكف وسألت كارولين ماذا تنوى أن تصنع ؟

فقالت كارولين : « سأعود إلى البيت » لقد أقام لها زوجها بيتاً وستقيم فيه . وإذا كان لا مفر عن احتمال الوحدة والبرد ، والذئاب والمتشردين ، فليكن ! وستكون هناك حين يعود زوجها .

وفى تلك اللحظة خرج من المتجر شاب ، وهو يحاول أن يحمل لفائف معه وأن يمد يده فى الوقت نفسه إلى قبعته :

« صباح الخير ياسيدتى . هل وصلتك الرسالة ؟ »

فقالت : « عم صباحاً . نعم تلقيتها ، وشكراً لك » .

« لقد سألت فى مكتب البريد عنها فقالوا إنها أرسلت إليك » .

فسألته : « هذه خيلك ومركبتك ؟ »

فقال بزهو : « نعم » .

« إنك تعرف أين أسكن ، فهل لك أن تحملنى إلى هناك بريال ؟ »

« بكل تأكيد » .

وحاول سفنسن أن يبدى عن رجولته ، وقال إنه يعد نفسه مسئولا عن سلامتها أمام زوجها ، وأنه مستعد أن يأخذها معه ، غير أن كارولين أبت حتى أن تستمع إلى اقتراح الرحلة إلى المجهول ، واستولت عليها الرغبة فى العودة إلى بيتها .

وتوخت الحيطة فابتاعت بعض المؤن للشتاء ، وشكرت آل سفنسن من أعماق قلبها ، وكانت تعلم أنها لن تراها مرة أخرى . وقبلت المسز سفنسن كما قبلت أخواتها حين فارقتهن إلى الأبد لترحل إلى الغرب مع تشارلز .

ثم ذهبت تقطع السهوب وراء الخيل السريعة السود ، وكانت حوافرها تقدح الشرر ، وكان عرفها وذيولها تميل مع الريح ، والهواء يصافح وجه كارولين ، وهذا الشاب الغريب إلى جانبها وكان هذا كله آخر ما بقى فى ذاكرتها من ذلك اليوم العجيب .

وحمل الشاب المؤن إلى الكوخ ، وجاءها

بدلو من الماء من البئر ، فشكرته كارولين وأعطته ريالا .

فقال لها: «إنى أكره أن أتركك وحدك هنا ، ولكنى أحسب أنك ستكونين فى أمان إلى حين ، فى هذا الجو الحسن . متى يعود زوجك ؟ »

« لا أدرى على وجه التحقيق » .

«أعندك مسدس وتعرفين كيف ترمين؟»

« نعم » .

« الأرجح أنك لن تحتاجى إليه ، ولكنه يطمئن — إن فتاتى هى المعلمة — وسوف نعود من هذا الطريق يوم الأحد المقبل إذا كان الجو حسناً — والآن أستودعك الله ! » ، وانصرف .

وفى هذا الأسبوع كتبت إلى تشارلز رسالة طويلة ، واتقت أن تزعجه بإخباره إن آل سفنسن رحلوا ،وكتبت إليه تقول إنها تحبه ، وحدثته عن أسنان الطفل ، وكيف أن سفنسن جزَّ لها البرسيم مناصفة، وقالت إن ما بعث به إليها من المال كاف . وإنها هى والطفل فى أحسن صحة،ولا ينقصهما شىء ، وإن سفنسن وزوجته مثال الرقة والعطف ، وإن كل أسباب الراحة متوفرة للشتاء ، وكتبت بعناية وبخطها الدقيق المتقن تقول : « إننا نجتاز الآن وقتاً عصيباً ، ولكنه لا ينبغى أن نفكر فيه ، وعلينا أن نفكر فى المستقبل، فما كان قط من السهل أن نعمر أرضاً ، ولكن ما أسهل ذلك علينا مع ماهو متاح لنا من أسباب الراحة ووسائل التيسير،كالبترول والمواقد والسكك الحديدية والبريد السريع ، بالقياس إلى ماعانى آباؤنا. وإنى لأرجو أن نحيى حتى نرى أياماً أكثر رخاء مما كانت فى الماضى ، وحينئذ نفكر بارتياح واغتباط فى أن هذه الأيام الصعبة لم تمضِ عبثاً » .

وهـذه الرسالة التى طوتها ووضعتها فى الظرف ، وعنونتها لم ترسل قط ، وبقيت طول الشتاء بين صفحات الإنجيل ، لأن الجو تغير فجأة ، ولم يستطع الشاب وفتاته أن يجيئا . وكان صباح يوم السبت صافياً معتدلا كأيام مايو، وبعد الظهر أقبلت سحابة كثيفة من الشمال الغربى وأطبقت فى السماء ، وتحتها عارض منذر من السحاب كأنه الملاءة المنشورة . ثم ثارت العاصفة وكأنها جدار أبيض أصمّ ، وجاءت الرياح تعوى مع الثلج .

وظلت الرياح ثلاثة أيام وثلاث ليال لا تكف عن العواء ، ولما فتحت كارولين الباب لم تستطع أن ترى شيئاً من الثلج المتهاوى . ولم تدر ما مبلغ البرد ، فإنها لما رأت السحابة بادرت فكومت الدريس فى كل شبر من الكوخ ، وكانت تثنيه بشدة

فإذا احترق كان له لهب شديد قصير الأجل، ونأذّت كفاها ودميت من تناول الأعواد الحادة الخشنة، ولكنها واصلت التكسير، وأبقت الكوخ دافئاً. وكانت تصنّ بالبترول، فتمضي عليها في الساعات الطويلة الحالكة مستضيئة بضوء مضطرب يدخل من بين الألواح، أو من غطاء الموقد المكسور، فانتابتها مخاوف غامضة ثقيلة.

كيف يكون الحال إذا مرض الطفل؟ وإذا أصاب تشارلز شيء فلم يعد أبداً؟ وإذا خرجت وحدها وفاجأها ذئب بوثبة، فماذا يكون مصير الطفل وحده في الكوخ؟

وفي صباح اليوم الرابع استيقظت كارولين على صمت وسكون عميقين، وآذى الهواء البارد منخريها، وتكون الصقيع على طرف البطانية من أنفاسها، وكانت النافذة تبدو شهباء مستترة في الظلام، فأشعلت المصباح وأوقدت ناراً في الموقد البارد. وكانت إذا أرادت أن تفتح الباب تلقي بنفسها عليه بكل قوتها، فتنثني الألواح المتينة، ويسقط الثلج من فرجة الطنف، ويضرب نور الشمس عينيها، فتحس أن الألم يعمهما.

وكان الثلج الذي يغمر الأرض، تحت السماء الزرقاء المتراحبة، يعكس ضوء الشمس البارد، ولا شيء يتحرك، ولا شيء يتنفس. وكان الهواء والشمس والثلج كل العالم المنظور — عالم لا حيّ ولا ميت، وهو مخيف لأنه غريب عن الحياة والموت.

وتنفست نفساً عميقاً، وانهالت على الجمد بالمسحاة تفتره شبراً فشبراً لتشق بها طريقاً تمشي عليه وهي آمنة.



وكانت هذه العاصفة القاسية في أخريات أكتوبر تنذر بأن الشتاء سيكون قارساً فوق العادة، وكانت لا تدري متى تثور بها العاصفة التالية. فكان أول ما عنيت به هو الوقود، فحفرت الجمد عن أكوام الدريس إلى جانب المخزن، وحزمتها بحبل وجرتها واحداً واحداً على الطريق إلى الكوخ. ولما أراقت الماء الذي غسلت يديها به، لاحظت أن قطراته رنّت على طبقة الجمد، فقد تجمدت وهي تسقط، وصار أنفها وأذناها بيضاً، واحتاجت أن تدلكها بالثلج طلباً للدفء وذلك مؤلم.

وكثرت العواصف بعد شهر نوفمبر وكانت في الأيام التي تضطر فيها إلى البقاء في الكوخ، تكسر الدريس، وتشعل المصباح وهي تنظف وتطبخ وتغسل وتقضي ساعات تلاعب الطفل، وقد صار أكبر، وكان ينظر إلى ضوء النار الموقدة

فيصفق ، واستطاع أن يجلس بلا معونة ، وأن يزحف ، وظلا هى والطفل يعيشان يوماً بعد يوم ،والرياح المولولة والبرد والثلج لا يمسهما منها سوء .

ثم جاءت العاصفة التى دامت سبعة أيام وكان عند كارولين فى الكوخ من الدريس ما يكفيهـا ثلاثة أيام ، ولم يسبق أن رأت عاصفة تستمر ثائرة أكثر من ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث اقتصدت فى إحراق الدريس ولكنها لم تنزعج ،وفى اليوم الرابع اضطرت أن تكسر صندوقاً وتوقد فيه ناراً ، وفى اليوم الخامس أحرقت الصندوق الباقى ، وبقيت المقاعد الثقيلة والمـائدة ، ولكنها كانت قد تركت الفأس فى المخزن .

ولما خمدت النار لم يبق ثم شىء ينبعث منه ضوء ،وغُمَّ عليها الأمر فلم تعد تعرف أهى فى النهار أم فى الليل ، وإذا رقدت مع الطفل ولصقت به تحت البطاطين فقد يحفظ عليهما الحياة دفء بدنيهما،وعدلت عن تكسير المقاعد الثقيلة لعجزها عن ذلك بيديها ، ولم يبق إلا المهد ولكنها أشفقت أن تعجل بإحراقه .

وفى اليوم السابع حطمت المهد وأحرقته بحساب وتقتير ، واتخذت من الرأس الذى صاغه تشارلز للمهد ، وقوداً لتغلى الشاى والبطاطس . وعجنت قطعة من البطاطس وغلتها فى الماء وأطعمت الصبي بالملعقة ، ثم أطفأت المصباح ورقدت معه تحت كل ماعندها من فراش .وأيقظها تغير فى صوت الرياح ،ولم تكن تعلم أهذا نهار أم ليل ،فلما تحاملت على الباب وفتحته ، رأت ريحاً شمالية قوية تطرد مايتساقط من الثلج أمامها ، ولم يكن الثلج يدور وهو يسقط ، فالعاصفة قد انقضت .

وفى الصباح فى بريق الشمس والثلج الذى يأخذ البصر ، رأت وراء الخور قطيعاً من الماشية ، وكان متلاصقاً متلاحماً ، ورؤوسه إلى الجنوب ، وأنوفه متدلية إلى الركب ، وهو واقف يتشدد على البرد صابراً . وكان شاطىء الخور يحجب الكوخ عن الماشية ، ولكن إذا تحرك القطيع ولمح الدريس فقد يأتى على وقودها .

ولفت شملتها على جسمها وأخذت المسدس. وكانت تعلم أنها لا تستطيع بفأس أوغيرها أن ترد الماشية المتضورة عن الطعام ، وما كانت تجرؤ أن تخاطر بمواجهتها إذا هى انطلقت ، وإنما تستطيع أن تحولها بطلقات الرصاص ، فإذا أخفقت احتمت بالكوخ . وإذا ضاع الوقود ــــ

ولم تتحرك الماشية ، أفتراها ماتت ؟ كلا ، فإن أنفاسها تخرج بيضاء من خياشيمها ، وسارت على مهل إلى الشاطىء ، والثلج المتساقط يرتفع إلى ركبتها،واجتازت الخور المتجمد ، ودنت من الماشية حتى صارت على

عشر ياردات منها ، ثم على مسافة خمس ، ثم على مسافة ياردتين ، ولم يرفع القطيع رؤوسه ، ثم رأت كعكات من الثلج على عيونها وعلى أصداغها ، حتى أنفاسها وهى تتصاعد كالبخار قد تجمد وأعماها .

وأدركها عطف قوىّ ، فاندفعت تخوض الثلج إلى أقرب عجل ونزعت الثلج عن عينيه ، فنخر ورفع رأسه فزعاً ، وجرى بضع ياردات ثم دار عائداً إلى القطيع ، وند عن حلقه خوار طويل من الألم .

وكانت كارولين تعرف ما يجب أن تفعله ، وفكرت فى الصبى الذى يستمد قوته من قوتها ، فمضت إلى أقرب عجل وصوبت المسدس إلى صدغه وأغمضت عينها وأطلقته ، فلما فتحت عينيها كان قد خر ميتاً ولم يخرج من جرحه إلا قليل من الدم يقطر ويتجمد ، ولعلها رحمته بقتله .

ثم كأنها ألهمت ففكرت فى اتخاذ بقرة . ولم لا ؟ وإذا لم تأخذ البقرة ، فإن البقرة ستموت . أما لو أخذت بقرة ! وتوفر اللبن للطفل ! وفوجىء تشارلز بذلك حين يعود ! وكانت تمشى كأنما ينازعها حذاؤها وشملتها وهى تدخل فى غمار القطيع ، فقد كانت تعلم أن البقر لا بد أن يكون فى الوسط ، وكانت هناك بقرة صغيرة ، حمراء ، غير موسومة وتكاد تكون سمينة ، فتخيرتها .

وعادت إلى المخزن لتجىء بحبل ، ومالت الشمس للمغيب حين نجحت فى دفع البقرة التى أعماها الثلج وفى شدها وإخراجها من القطيع ، فقد كانت تأبى أن تخرج منه لتظل آمنة ، فجاهدت كارولين جهاداً شاقاً حتى اجتازت بها الخور وصعدت بها إلى الشاطىء وأدخلتها فى المخزن ، وألقت إليها الدريس وأزالت الثلج عن عينيها .

وارتدت إلى القطيع تحمل الفأس والحبل ، واقتطعت من العجل خير أجزائه من اللحم ، ثم ذهبت وهى تنتفض من التعب ، تزيل الثلج عن عيون الماشية واحدة واحدة ، فمضى القطيع يمشى فى تثاقل وضعف على الجمد . لقد أتاحت له كارولين فرصة للحياة ، وشعرت أنها استحقت البقرة .

وفى تلك الليلة كان اللحم يطبخ على الموقد ورائحته تفعم الهواء ، وكان الدريس المغمور بالثلج فى المخزن حسب البقرة من طعام وشراب . وشعرت كارولين أنها قصرت فى واجب الشكر على ما فازت به من نعم ، وتركت فخذتين من العجل فى الثلج خارج الباب لتحتفظ بهما .

ولما ذهبت إلى المخزن فى اليوم التالى ، خارت البقرة واندفعت وعيناها متسعتان فزعتان ، فألقت إليها بالدريس ، ووضعت لها دلوين من الثلج على مقربة منها ، وكلمتها

ليسكن روعها ، وستعرف البقرة على الأيام عطفها عليها فتهدأ وتسلس .

وأغلقت باب المخزن وهى مزهوة بأنها تملك شيئاً ينبغى أن تتحفّظ عليه ، وكانت تهم بأن تمضى إلى أكوام الدريس فصدها شعور غريزى ، فوقفت ودارت فتلفتت ، وإذا حول زاوية المخزن ذئب هزيل ، وكان رذفاه يختلجان ، والشعر الخشن يقفّ على ظهره ، وأنيابه تبدو تحت خطمه الملتوى ، ثم برز اللسان الأحمر يلحس فمه الناتىء فى جشع ، وحرك مخلباً ، ولم تتحرك كارولين ، ودار الذئب بسرعة واختفى فى الثلج المتساقط .

وسارت كارولين بخطى ثابتة إلى الكوخ فى الثلج الذى يأخذ البصر ، وكانت تدرك أنها إذا ركضت فإن الفزع الويل سيستولى عليها ، ولكن الذئب قد يثب عليها من فوقها وهى تنحدر فى الطريق الهابط على شاطىء الخور ، وبلغت الطريق وانطلقت تعدو . ولم يكن ثم قياس للزمن وهى تجتاز المسافة من حافة السهوب إلى باب الكوخ الذى أغلقته بقوة وراءها ، وسرعان ما تأدى إليها عواء ذئب من السقف فوق رأسها ، فأجابه آخر من ناحية الخور المتجمد .

وفى تلك الليلة سمعت أصوات النهش والقضم والعُواء عند الباب ، فقد وقعت الذئاب على اللحم الغضّ فى الثلج ، فتركت المصباح مشعلاً ، وجعلت عينها على ورق النافذة ، وكانت أصغر من أن يدخل منها ذئب بسهولة ، وكانت مستعدة أن تطلق الرصاص إذا ظهر مخلب أو رأس ، وكانت قد جاءت بالفأس إلى الكوخ ، فاستقر عزمها على أن تحطم المائدة والمقاعد وتحرقها ، مفضلة ذلك على الخروج مرة أخرى ، ولكنها حرصت على أن يكفيها الدريس يومين ، ثم رأت ضوءاً فضياً فوق الثلج الذى يغطى النافذة ، فعلمت أن الشمس طالعة .

وفتحت الباب بجهد شيئاً فشيئاً ، والمسدس فى يدها ، فما تستطيع أن تقضى الشتاء كله بغير وقود ، ولا مفر من التعرض لبعض الأخطار .

ولم تعثر على أثر للذئاب فى أى مكان ، ووجدت البقرة بخير فى المخزن ، ولم تخرج قط بعد ذلك من الكوخ إلا بالمسدس .

وكان وجود الذئاب يذكرها دائماً بتحذير زوجها لها ، فقد كتب إليها يقول إنه قد يكون هناك ذئاب ومتشردون ، وفكرت وهى تحرك النار ، فى الدخان المتصاعد من المدخنة ، فإنه فى الأيام الصافية يرى من مسافة أميال فى كل الجهات ويدل على أن الكوخ مسكون .

وفقدت الشعور بالزمن فى هذا الشتاء وهو يمضى ، وجاء شهر فبراير وهى لا تدرى ،

وأشرفت على النهاية فترة من الأيام الصافية بردها قارس قبل الغروب ، فثارت العواصف مرة أخرى . وكان الصندوق مملوءاً بالدريس ، وصحاف العشاء قد نظفت ، وكارولين تسرح شعرها قبل النوم على الضوء الخافت المنبعث من النار المشفية على الهمود .

وخطر لكارولين أن صوت الرياح أشبه بأصوات الجن وهي منطلقة تتسابق وتدور فوق الكوخ ، وتخرج صيحات وصرخات وولولات ليست مما يخرج من الأرض أو الإنسان ، وإذا بها تصعد عينها فترى فجأة المدخنة تنثني وتقرقع ، وراعها أن سمعت صيحة آدمية .

إن رجلا فوق الكوخ ولا شك ! وقد أعمته العاصفة فاصطدم بالمدخنة ، وما من رجل شريف نزيه القصد ، أو آخر ضل عن بيته ، يمكن أن ينأى عن مثواه في هذه العاصفة ! فهو لا بد أن يكون من الطرداء الخارجين على القانون الفارين أمام هذه العاصفة .

وقد اصطدم بالمدخنة من الناحية الشرقية ، فهو متجه إذن إلى الخور ، وليس بينه وبين السقوط في الجمد العميق إلا بضع خطوات يهوى بعدها عن شاطىء الخور ، وحينئذ يقضى عليه وتدفنه العاصفة في مكان ما ، ولا يبقى منه إلا عظامه بعد أن يذوب الثلج في الربيع . وقالت لنفسها : « اهدئي واسكني ! فليس هذا من شأنك ، ولا تدخليه عندك ، وفكري في الطفل ! »

ثم أدنت فمها من المدخنة وصاحت « ارقد ! وازحف ! شاطىء الخور أمامك ! اتبعه إلى اليمين ! هناك حبل ! أسامع أنت ؟ »

وكانت صيحته التي رد بها خافتة لأن الرياح طغت عليها ، فعادت تقول له «أمامك طريق ! طريق ! تحت ! إلى اليسار ! »

وإذا كان قد رد عليها فإنها لم تسمعه . وتناولت مسدسها ورفعت المزلاج عن الباب وتراجعت ووقفت وراء المائدة ، وانتظرت والمسدس في يدها .

واتسع الوقت أمامها للندم على ما فعلت ، ولإدراك أنها ما كانت تستطيع أن تفعل غير ذلك .

ودفعت الرياح الباب فجأة فانفتح ، واندفع الثلج إلى الكوخ ، وظهر الرجل . وكان مديد القامة ، خافي المعالم ، في معطف من الفرو وقبعة وغطاء للأذنين يغطيهما الثلج . وكان متلفتا إلى عينيه المحمرتين ، وحاجبيه المكسوين بالثلج ، ومضت هنيهة قبل أن تعرفه وتصرخ ، فالتف عليها ذراعاه القويان الباردان كالثلج .

وقالت بعد هنهة ، وهى تشهق ولا تزال غير مصدقة : « كيف — كيف وصلت إلى هنا ؟ » وكانت يداها تتحسسان الفرو الذى غشيه الثلج ، صاعدة هابطة عليه لتستوثق أن هذا هو تشارلز حقاً .

فقال : « إنى أكاد أقتلك برداً ، فلأغلق الباب » . فلما سمعت هذه الكلمات المألوفة أنشأت تبكى . وقالت وهى تنشج : « هل — هل تعشيت ؟ »

فقال ، كأنما يغنى من الفرح : « قاتل الله العشاء » .

ثم جعل بعد ذلك يعابثها قليلا : « ماذا يدهشك ؟ ألم أقل لك إنى سأعود بأسرع ما أستطيع ؟ » وأنبها جاداً فقال : « الله وحده يعلم يا كارولين ما قاسيت حين قيل لى فى البلدة إن آل سفنسن رحلوا ، وإنك هنا وحدك » .

وكانوا قد أنذروه فى البلدة أنه لن يستطيع مغالبة العاصفة ، ولكنه اعتقد أنه يقدر على ذلك . وما كاد يصل إلى الخور حتى هبت العاصفة : « وخيل إلى أنى منجه إلى الشمال ، ثم لما اصطدمت بالمدخنة ، لم أدر أى شىء هذا ، ثم نأيت عنها ولم أهتد إليها ثانية ، وهذا ما كنت أحاوله — أن أهتدى إليها — حين سمعتك يا كارولين — أيها الملك ! » .

ثم ضمها . وما أكثر ما سئل عنه ، وما خبرها به .

وقال وهو مبتهج : « معى أربعون ريالاً . ألا إن صاحب المطحن لخير الناس فى عشرين ولاية ! وما كنت أتوقع أن يبقى معى مليم ، ولكن — » .

« وكيف رجلك ياتشارلز ؟ »

« لا أزال مضطراً أن أترفق بها قليلا — ألا ترين أنك على ركبتى الأخرى ؟ ولكنها احتملت السير . وستصح وتعود كما كانت فى الربيع فنحرث الأرض » .

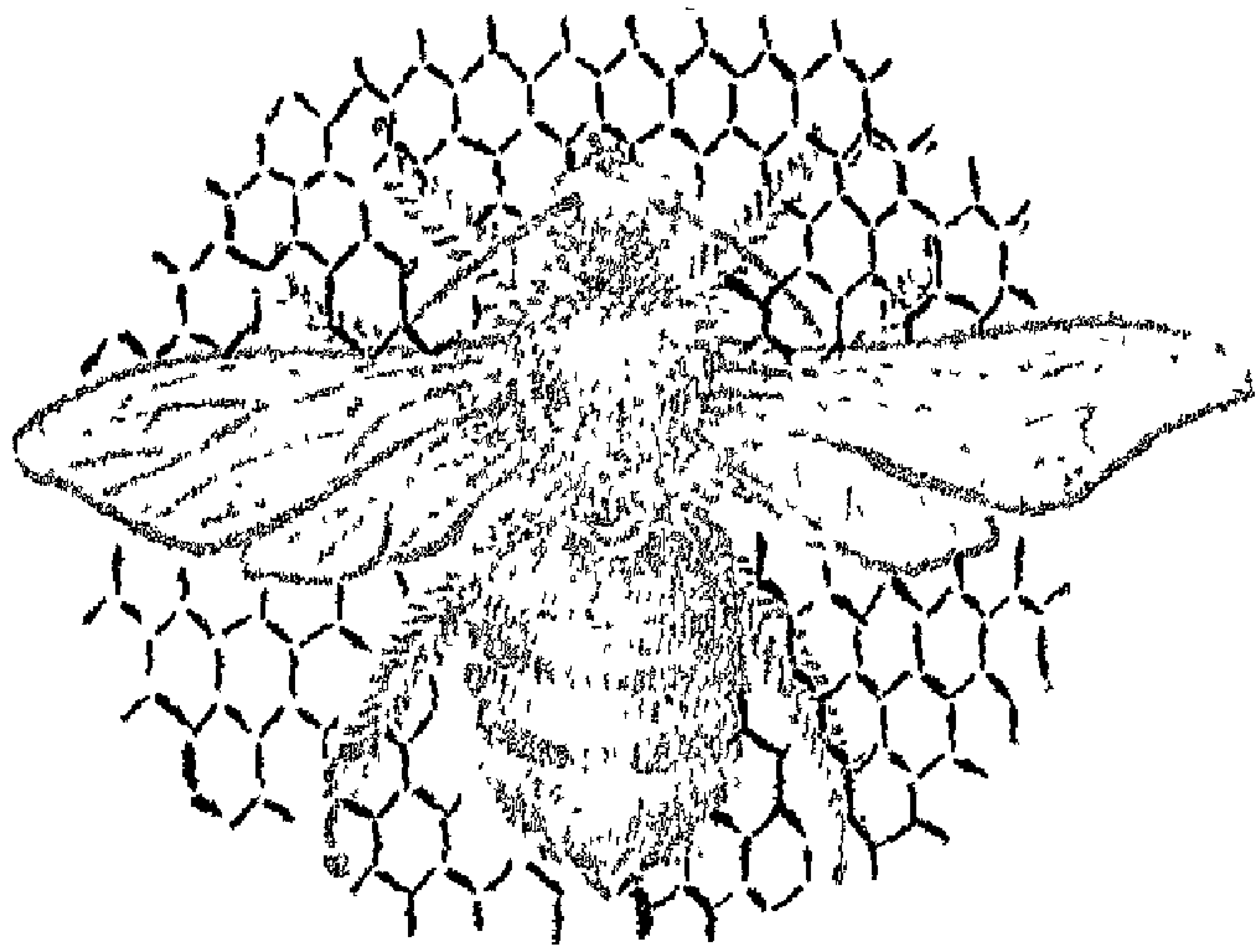
« وكان لابد أن تمشى ! أوه ياتشارلز ! »

« وماذا كنت تنتظرين أن أفعل وأنت هنا وحدك ؟ »

ولم يكن لما قالا قيمة فى الحقيقة ، وكانت العاصفة لا تزال ثائرة فى الخارج ولكن ماذا يهم ؟ لقد لف شملهما مرة أخرى — فلتزأر العاصفة !

قال ابن قتيبة قرأت فى كتاب للهند : « ليس من خلة يمدح بها الغنى إلا ذم بها الفقير ، فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان وقوراً قيل بليد ، وإن كان لسناً قيل مهذار ، وإن كان زميتاً قيل عيى » .

حياة النحلة



مختصر كتاب

موريس مترلنك

إن قصة الخلية مزيج مدهش من الأسرار والعلم والمتعة . ومترلنك يرويها هنا بنظر نافذ وبراعة حتى صار كتابه آية خالدة .

حيـــاة النحـــلة



مبارزة ملكية

نفض النحل الذي في خليتنا فتور الشتاء عن نفسه، وبدأت الملكة تضع في الأيام الأولى من شهر فبراير، فكل يوم يشهد مولد آلاف من النحل. وكلما تقدم الربيع، ونشط اجتناء العسل، استولى القلق على أهل هذه المدينة الغاصة. وستشعر الملكة قريباً بقوة قاهرة تكرهها على ترك هذه المدينة التي تولت فيها الملك. وهي ليست ملكة بالمعنى الذي يفهمه الناس من هذه الكلمة، فإنها لاتصدر أوامر، بل تخضع — كأهون رعاياها شأناً — لتلك القوة المحجوبة التي هي «روح الخلية»، وهي وسيلة التناسل الوحيدة في الخلية وأم المدينة كلها، وكل مايتحرك داخل جدرانها من عمال وذكور ويرقات وأساريع، ومن أميرات صغار سيعجّل مولدهن القريب رحيلها هي — كل هؤلاء قد خرجوا من بين جنبيها.

والنحلة العاملة تعد الملكة مقدسة، فأنقى العسل المصفى من أجلها، يدخر لها وحدها، ولها حرس يحف بها ويتعهدها نهاراً وليلا. وإذا اتفق أن وقع لها أهون حادث فإن الخبر ينتشر بسرعة من جماعة إلى جماعة، فيقبل الجميع ويروحون ويجيئون وهم يندبون. وإذا انتزعتها من الخلية قبل الأوان، فإن العمل فيها ينقطع، فلا أحد يعنى بالصغار. ويكف المتارون عن زيارة الزهر، ويتخلى الحراس عن مراكزهم عند المدخل، ويزحف القحط شيئاً فشيئاً على المدينة، وينقص السكان، ثم لايلبث الحزن واليأس أن يبيداهم وإن كانت كل زهرة من أزاهير الصيف متفتحة أمامهم.

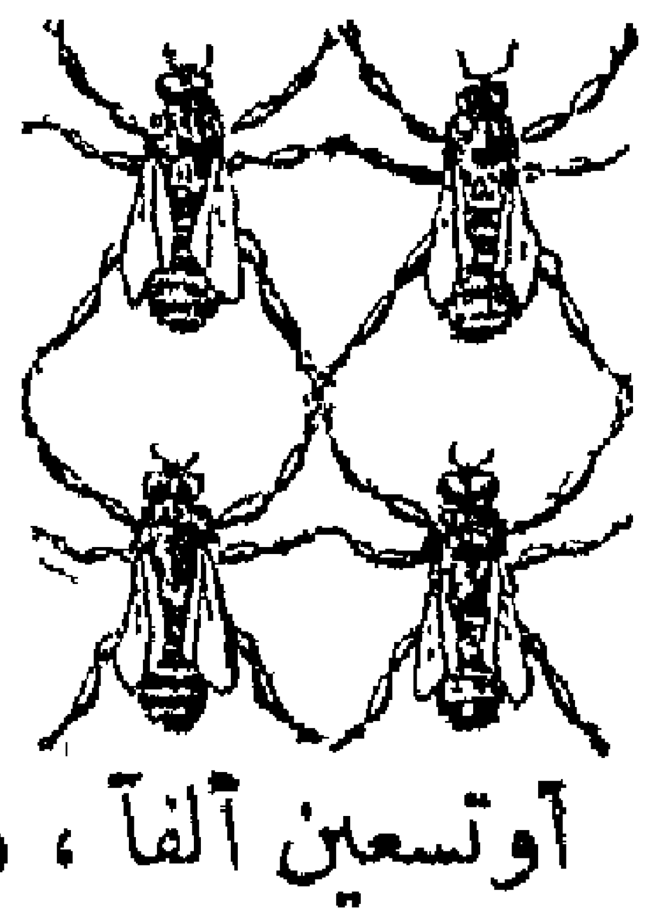
فإذا عادت الملكة إلى الصحة قبل أن يدرك اليأس النحل، فإنه يتلقاها بترحيب عجيب مؤثر. فيحف بها في لهفة، ويقدم إليها العسل، ويمضي بها في صخب إلى بهو العرش، ويعود النظام فوراً، ويستأنف العمل، وتتجاوب أصداء الخلية بترنيمة الغبطة الغريبة الرتيبة الإيقاع التي هي النشيد الملكي، على مايبدو.

والنحل لايسمح بأكثر من ملكة واحدة ناضجة في الخلية، ولكن الناس لا يزالون يعبثون بما يعده النحل قوانين ثابتة للطبيعة. وماذا يصنع النحل حين نجيء نحن، بالقوة أو بالغش، بملكة ثانية إلى المدينة؟ لعل هذا في الأحوال الطبيعية، وبفضل الحراس على الباب، لم يقع قط مذ جاء النحل إلى هذه

الدنيا ، ولكن هذا الحادث الضخم لا يذهب بألباب النحل ، فإنه يواجه الموقف باجتنابه. وإنه لسهل على النحل أن يشك الملكة الطارئة بما لا يحصى من إبره المسمومة ، فتموت على المكان . ومع أن الإبرة مشرعة للوخز دائماً ، ومع أن النحل لا يفتأ يطعن بها فى معاركه التى تدور بينه ، إلا أنه لا يشرعها أبداً فى وجه ملكة ! وكذلك الملكة ، فهى لا تشرع إبرتها فى وجه رجل أو حيوان أو نحلة عادية ، ولا تستل سلاحها الملكى أبداً — وهو مقوس على هيئة السيف — إلا حين تنازل نداً لها : ملكة مثلها .

ويبدو أنه ما من نحلة تجرؤ على اقتراف جريمة قتل ملكة ، غير أنه لا بد من قتل إحدى الملكتين . ولهذا يلجأ النحل إلى طريقة أخرى للالتواء بالملكة المتطفلة ، وذلك أنه يحيط بها إحاطة تامة وقد تشابكت أبدانه التى لا يأخذها حصر ، ويبقيها فى هذا السجن أربعا وعشرين ساعة إذا احتاج الأمر إلى ذلك حتى تموت اختناقاً أو جوعاً .

ولكن إذا حدث فى هذه اللحظة أن جنت الملكة الشرعية ، فإن جدران السجن الحية تنفرج على الفور ، وتنشىء دائرة حول العدوين ، وترقب المبارزة الغريبة التى ستدور بينهما . وإذا حاولت إحدى الملكتين أن تفر من المعركة ، سواء أكانت الملكة الشرعية أم الطارئة ، فإن النحل يقبض عليها فوراً ويضعها فى هذا السجن الحى حتى تبدى رغبة فى منازلة عدوها . على أنه ينبغى أن نقول إن التجارب العديدة تدل على أن النصر يكون دائماً — تقريباً — حليف الملكة الشرعية ، لأن النحل يبدى بعض التحيز فى طريقة سجنه للملكتين المتنافستين ، فأم النحل لا تكاد تجد شيئاً من الضيق فى محبسها ، أما الملكة الغريبة فإنها تخرج منه دائماً منهوكة مضعضعة مكلومة .



سرب النحل

تتهيأ خليتنا الجياشة للخروج جماعة ، فإن ستين ألفا أو سبعين ألفاً ، من ثمانين أو تسعين ألفاً ، وهم جملة السكان ، ستغادر المدينة فى الساعة المضروبة نزولاً على روح الخلية . والنحل لا يخرج لقلة فى الطعام ، كلا ، فلو أن الخلية فى قحط ، أو لو أنها نهبت أو ثارت بها عاصفة ، أو حل مصاب بالأسرة المالكة ، لما هجر النحل الخلية ، وإنما يخرج منها حين تبلغ الخلية ذروة الوفر والرفاهية .

وأجمل ما تكون الخلية ليلة هذا الخروج العظيم . ولنحاول أن نصوره لأنفسنا ، لا كما يبدو للنحل ، فإننا لا ندرى على أية صورة سحرية قاهرة تنعكس الأشياء على ٦٠٠٠ ،

أو ٧٠٠٠ صفحة من صفحات عيونه الجانبية. ولكن كما يمكن أن يبدو لنا لو كنا فى مثل جرمها. فمن رأس قبة ضخمة، تتدلى جدران من الشمع منشئات إنشاء هندسياً لا نظير له فى دقته وجرأته وعظمته بين المنشئات الإنسانية. وكل جدار من هذه الجدران التى لا تزال مادتها نقية عطرة، فيه آلاف من الكهوف خزنت فيها مؤن تكفى الجميع عدة أسابيع. وهنا، فى كهوف شفافة، توجد العناصر المخصبة المستمدة من الأزهار، خميرة الحب المشتارة من كل زهرة من زهر الربيع — وهى ترسل ومضات ما بين صفراء وحمراء وسوداء بنفسجية. وعلى كثب منها، فى عشرين ألف خزان، أودع عسل إبريل وعليه أختام لا تفض إلا فى أيام الضنك الشديد وهو أصفى أنواع العسل وأعطرها. وتحت ذلك عسل مايو فى سبيل النضج، فى أوعية كبيرة مفتوحة، وإلى جانبها فرق من الحراس تمدها بتيار مستمر من الهواء. وفى الوسط — وهو أدفأ مكان فى الخلية — مسكن المستقبل، المقر الملكى الذى فيه كهوف الفقس. وأخيراً، فى قدس الأقداس، توجد القصور الثلاثة أو الأربعة أو الستة أو الاثنا عشر، وهى رحيبة إذا قيست إلى غيرها، وفيها تقيم الأميرات المراهقات فى انتظار ساعتها، وهى ملفوفة فيما يشبه الشملة، وتطعم فى الظلام.

ولكن ساعة خروج السرب قد أزفت، ففى الخلية جو غير مألوف، قلما يخطىء النحال إدراك معناه. وعلى سطح الممرات الذهبية كلها يعد العمال العدة للرحلة. وتبدأ كل نحلة، قبل أى شىء آخر، بحشو بدنها بمؤونة من العسل تكفيها خمسة أيام أو ستة أيام. ومن هذا العسل الذى يحمله النحل فى جوفه يستقطر فيما بعد، بطريقة كيميائية لا تزال غامضة، الشمع اللازم لإنشاء المبانى فوراً. وهو يتزود أيضاً بنوع من الصمغ تختم به وتسد كل الشقوق فى المسكن الجديد، وتقوى به الجوانب الضعيفة، وتطلى به الجدران.

فالنحل يدرك سلفاً ما سيحدث له فى هذا اليوم الذى هو أخطر أيام حياته، فقد ينزل المطر غداً أو بعد غد، أو تثور الرياح. والجوع والموت خليقان أن يحلا به لولا بعد نظره. ولن يخف أحد إلى نجدته، ولا هو ينشد النجدة من أحد، فإن كل مدينة لا تعرف الأخريات، والمعونة لا تبذل أبداً، وحتى لو جمع النحال النحل الخارج ووضعه إلى جانب الخلية التى هجرها فى هذه اللحظة، لبدا على النحل كأنه نسى ما كان يجد فيه من الهناءة والوفر والسلام. وكل نحلة تؤثر أن تموت جوعاً وبرداً، على أن ترجع إلى الخلية التى يتضوع منها أريج كدها السابق، فينتهى إليها وهى فى ساعة محنتها.

وصحيح أنه فى هذا اليوم العظيم يخرج

بعدد معين من العمال إلى الحقول فى هدوء ، كأنَّ شيئاً لم يحدث ، ثم يعـود وينظف الخلية ويتعهد كهوف التفريخ، ويظل بمنأى عن النشوة العامة . هذه النحلات هى التى لا ترافق الملكة فى خروجها، بل تبقى لحراسة الخلية القديمة ، وتغذى ١٠,٠٠٠ بيضة ، و ١٨,٠٠٠ يرقة ، و ٣٦,٠٠٠ من صغار النحل، وسبعا أو ثمانى من الأميرات ستصبح اليوم مهجورات . أما لماذا أفردت لهذا الواجب الصارم ، وبأى قانون ، وبأمر من فذلك ماليس فى وسعنا أن نتكهن به . وهى تبقى لأداء هذه المهمة فى ولاء وسكون ودون أن تنحرف عنها . ومع ذلك فإن الإغراء لابد أن يكون قويا ، فإنه عيد العسل، ويوم الفرحة الوحيد والنسيان والطيش . ويبدو كذلك أنه اليوم الوحيد الذى يأ كل فيه النحل حتى يهنأ ، وينعم على هواه بأطايب الكنز الذى جمعه هو. فقد طرح النحل الخارج وراء ظهره كل تعب وكل همّ ، ولم يعد عنيفاً معتدياً ، مرتاباً ، جامحاً ، غاضباً . وفى وسع الإنسان ـــ ذلك السيد المجهول الذى لا يعترف النحل بسلطانه والذى لا يستطيع أن يخضع النحل إلاّ بالإذعان لقانونه ـــ فى وسعه فى هذا اليوم أن يشقّ الستار الوضاء الذى ينشئه النحل وهو يطير هزجاً فى دوائر ، وفى وسعه أن يجمعه فى يده كما يضع فيها عنقوداً من العنب . فإن النحل فى هذا اليوم يصبر على كل شىء ولا يؤذى أحداً ، مادام لا يحال بينه وبين ملكته التى تحمل مستقبله فى جوفها.

وتصدر إشارة الرحيل فجأة فى الخلية الحاشدة، فكأن حافزاً واحداً مباغتاً قد فتح كل باب فى الخلية ، فينطلق الحشد الأسود خارجا اثنتين اثنتين، أو ثلاثاً ثلاثاً ، أو أربعاً أربعاً ، بحسب عدد المخارج . ويظل الحشد لحظات يخفق فوق الخليـة ، ثم ينطلق فى الفضاء كالبساط السحرى الذى تحدثنا عنه الأساطير « طاعة لأمر سيده » ويمضى فى طريقه المستقيم إلى الشجرة التى حطت عليها الملكة، وحولها يحط كل فوج هزِج، ويطوى أجنحته الوضيئة .

ثم يسود الصمت مرة أخرى ، وتعود هذه الضجة العظيمة ، وهى ليست أكثر من جماعة كبيرة من النحل الهادىء تنتظر عودة الروّاد الذين ذهبوا يبحثون عن مكان يصلح أن يكون مثوًى .

وهـذه هى المرحلة الأولى لما يسمى «الخروج الأول» الذى تكون الملكة القديمة على رأسه دائماً . والمعهود أن يستقر النحل على الشجيرة أو الشجرة التى هى أقرب إلى الخلية ، لأن الملكة كانت تعيش فى ظلام دائم منذ طارت لزواجها أو منذ خرجت فى العام الماضى وقد كادت تنسى كيف تستعمل جناحيها .

وينتظر النحال حتى يتم الحشد ويلتئم عقده، ثم يغطى رأسه بقبعة كبيرة من الخوص (لأن أشد النحل وداعة يخيل إليه أنه وقع فى شرك إذا هو تعثر فى الشعر، فيستخدم إبرته) ثم يشرع يلم الحشد بأن يهز الغصن الذى عليه النحل، فيسقط ويتلقاه فى خلية مقلوبة، ويقع النحل فى هذه الخلية زرافات كالثمر الذى جاوز حد النضج. وإذا كان الغصن متيناً لايسهل هزه، استعمل النحال ما يشبه الملعقة يجمع بها النحل ويفرغه فى حيث يشاء، كأنما هو يفرغ بها قمحاً فى ماعون. ولا داعى لأن يخشى مايهزج حوله من النحل، وما يقف على وجهه ويديه. وقد ارتفع فى الجو هزجها من الطرب والنشوة، وهى أصوات لها تختلف عن أصوات الغضب. أما لماذا يشعر النحل بالسعادة فذلك ما لا نعرفه، إلا أن يكون سر ذلك أنه يطيع قانونه.

ولكن إذا لم يجمع النحال النحل، فإن تاريخه لاينتهى هنا. ذلك أنه يظل مستقراً على الغصن حتى يعود العمال منه وهم يقومون منه مقام الكشافة والرواد، وقد تفرقوا عند الخروج فى كل النواحى للبحث عن مثوى، ثم تعود هذه النحلات واحدة واحدة، ويخيل إليك أنها تقدم تقريرها عن مهمتها. فهل يكون هذا المثوى الجديد فى جذع شجرة أجوف، أو فى ثغرة فى جدار متهدم، أو فى فراغ كهف؟ والأغلب أن يتريث الحشد ويتدبّر إلى صباح اليوم التالى، ثم يختار. وفى لحظة معينة يتحرك الجمع، ويتفرق، ويمضى، ويندفع فى طيرانه على طريق مستقيم مجتازاً الحواجز وحقول القمح والأنهار والقرى إلى غايته التى اعتمدها، وهى لاتكون إلا نائية، ويندر أن يستطيع الإنسان تتبع هذه المرحلة الثانية.



تأسيس المدينة

وسواء أذهب النحل إلى حيث يشاء أم استولى عليه النحال، فإن مدينة جديدة تؤسس على الحالين. وقد خلف النحل فى الخلية القديمة ذخيرة عظيمة من اللقاح المستمد من الزهر، وأكثر من ١٢٠ رطلاً من العسل، وهو مقدار يزيد نحو ٦٠٠,٠٠٠ ضعف على وزن النحلة المفردة. وهذا يعادل، إذا اعتبرنا الإنسان بدلا من النحلة، ٤٢,٠٠٠ طن من المؤن، أو أسطولا ضخما من السفن الكبيرة موقراً بزاد هو أثمن من أى زاد نعرفه. فإن العسل للنحلة ضرب من الحياة السائلة، وغذاء مصفّى ليس فيه نفاية.

وهنا فى المثوى الجديد لا يوجد شىء، لاقطرة من عسل، ولا ذرة من الشمع،

ولا علامة هادية، ولا شيء يستعان به . على أن النحل لا يكاد ينزل فى المثوى الجديد حتى نشهد تقسيما لهذا الحشد المختلط هو أوضح ما يكون وأبعده عن أن يكون مرتقباً . فالجمهور الأعظم منه يؤلف من نفسه وهو متلاصق متماسك ستاراً مثلثاً كثيفاً أشبه بمخروط مقلوب رأسه عند قبة المثوى . ويظل هذا المخروط المقلوب العجيب ساعات طويلة ينتظر فى صمت يكاد يكون مروّعا، أن يظهر الشمع بأعجوبة . ولسنا نعلم كيف يحدث ، وكل ما يسعنا أن نقوله هو أنه يظل متدلياً هكذا مسافة من الزمن تتراوح بين ١٨ و ٢٤ ساعة فى درجة حرارة تبلغ من ارتفاعها أن تغرى المرء بالاعتقاد أن فى جوف الخلية ناراً موقدة . ثم تظهر طبقات بيض شفافة عند فتحة الجيوب الأربعة الصغيرة التى تحت معدة كل نحلة .

وفى أثناء ذلك تكون بقية النحل — التى بقيت تحت — غير عابئة بالمخروط ، فتتولى كنس الأرض ، وإزالة القش وذرات الرمل والورق الذاوى ، فإن النحل نظيف إلى حد الشطط فى ذلك . وفى أشد أيام الشتاء برداً ، حين يعوق الصقيع ما يسميه علماء النحالة « الخروج فى سبيل النظافة » ، يؤثر النحل أن يموت بالآلاف من داء يصيب أمعاءه ، على أن يلوث خليته .

وبعد أن يتم التنظيف ، يشرع النحل يمسح المثوى ويفحصه بدقة ، فكل شق يفحص ، ويسد بمادة كالشمع ، ثم يبدأ طلاء الجدران من أعلى إلى أسفل ، ويعين الحراس للباب ، ثم يخرج عدد من عمال النحل إلى الحقول ويعود باللقاح .

ولنحاول أن نكوّن فكرة عن إحكام النظر ، ودقة الحساب والجهد وسائر ما يتطلبه تهيئة هذا المثوى الجديد من هذه الأمة الصغيرة . ففى هذا المثوى الذى يعدّ تراعى قوانين التهوية ، والمتانة ، وخصائص الشمع ، وطبيعة الطعام الذى يخزن .

والخلايا التى يقدمها الإنسان للنحل على ضروب شتى لا آخر لها ، فمن تجويف فى شجرة ، إلى وعاء من الطين لا يزال يستعمل فى آسية وإفريقية ، إلى بناء من القش على هيئة الناقوس ، أو خلية مربعة كالتى يتخذها النحالة المتخصصون ، ذات طبقات ثلاث أو أربع من أمشاط بعضها فوق بعض تكفى لعسل ثلاثمئة رحلة ، والأمشاط فى إطار ، فيسهل إخراجها واستخلاص عسلها .

ومهما يكن المثوى الذى يوضع فيه النحل من سوء الحال ، فإن عليه أن يؤسسه ، وهو مطالب بأن يعين مواضع مخازن الشتاء التى ينبغى أن لا تجاوز منطقة الحرارة المنبعثة من النحل الذى يكاد يتجمد ، وعليه أن يختار مواقع لكهوف التفريخ بدقة ، وإلا

حلت به نكبة إذا جاءت أقرب أو أبعد مما ينبغي من الباب .

ومع ذلك لم يحدث قط أن أعيَى النحل علاج مثواه مهما بلغ من غرابته ، إلا إذا كان المثوى الجديد لا يصلح على الإطلاق ، أو إذا كانت تشيع فيه الروائح الكريهة . وفي هذه الحال يهجره النحل وينشد مثوى أصلح على مسافة قريبة . كذلك لا يمكن أن يقال عن النحل إنه يمكن إغراؤه بالقيام بعمل سخيف أو غير منطقي ، سواء وضعت النحل في مثوى على هيئة الكرة أو المكعب أو الهرم ، أو في سلة بيضية أو متعددة الأضلاع ، فإن هذا الحشد العجيب من العقول الصغيرة المستقلة يستخدم المثوى السخيف الذى أعددته له على نحو منطقي باهر. وفضلا عن ذلك — وهذا يحدث كثيراً في تربية النحل بالطرق الحديثة — إذا كانت جدران الخلية التى جمعت فيها النحل مغطاة بالشمع ، فإنه لا يضيع الوقت في إنتاج شمع لا حاجة به إليه ، بل يشرع في إتمام العمل الذى بدأ به النحال من قبل ، ويخلق في أسبوع مدينة حسنة الهندسة مريحة ، ولولا ذلك لاحتاج إلى شهرين أو ثلاثة شهور لإنشائها .

ومتى تكونت طبقات الشمع رأينا إحدى النحلات ، كأنما ألهمت ذلك فجأة ، تنفصل من البقية وتصعد إلى أعلى موضع في القبة ، ثم تنزع بفمها وأرجلها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها ، وتدحوها ، وتنشرها وتثنيها بمثل مهارة النجار الذى يعالج لوحا طريا ، حتى إذا صارت للمادة الشمع الأبعاد اللازمة ، ألصقتها بأعلى نقطة في القبة . وبهذا تضع حجر الزاوية في المدينة الجديدة ، فإننا هنا أمام مدينة مقلوبة تتدلى من السماء .

ثم تضيف إلى حجر الزاوية قطعاً أخرى من الشمع ، ثم تذهب فجأة كما جاءت ، وتحل أخرى محلها ، وتمضي في العمل ، وتختفي بعد ذلك .

وعندنا الآن كتلة صغيرة من الشمع ليس لها إلى الآن صورة ما ، متدلية من القبة . ومتى بلغ سمكها حد الكفاية ، رأينا نحلة أخرى تخرج من الجماعة ، وهي مختلفة في شكلها اختلافاً كبيراً عن النحلة التي سبقتها فوضعت الأساس . وتدل هيئتها على رسوخ الإيمان ، ويروح الجمع كله يتتبع حركاتها باهتمام حتى يكاد يخيل إلينا أن مهندساً مشهوراً قد دعي ليعين في الشمع موقع الغرفة الأولى التي ينبغي أن تتعلق بها — بالحساب الرياضي — كل أخرى . وهذه النحلة من طبقة العمال الثالين أو النحاتين ، وهي لا تنتج شمعاً ، ويحل محلها على الفور عامل نافد الصبر يمضي في المهمة التي سوف يتممها ثالث . وهكذا تطيه

كل منها القانون العام للعمل المتقطع المتتابع .

وينشىء النحل أربعة أنواع من الغرف . فهناك أولا الغرف الملكية وهى على هيئة ثمرة البلوط ، ثم الغرف الكبيرة المجعولة لتربية الذكور وخزن الطعام ، والغرف الصغيرة وهى مهود للعمال ومخازن عادية ، وتشغل فى العادة أربعة أخماس السطح المبنى فى الخلية . وأخيراً يقيم النحل ما يمكن أن يسمى غرف الانتقال ، للوصل بين الغرف الكبيرة والصغيرة . وهذه بطبيعة الحال غير منتظمة الشكل ، ولكن أبعاد النوعين الثانى والثالث يبلغ من دقتها وضبط مسافاتها أنه حين وضع نظام القياس المترى وأريد الاهتداء إلى قياس طبيعى مضبوط مقرر ، اقترح بعضهم اختيار غرف النحل لهذا الغرض*.

وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسدسة الأضلاع على قاعدة هرمية . ويقول الدكتور ريد : « لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكلة ، دون أن يكون هناك بينها مسافات لافائدة منها . وهذه هى المثلث المتساوى الاضلاع ، والمربع ، والسدس المنتظم . والمسدس أصلحها من حيث المتانة والراحة .

« وقد تبين أنه بجعل أرض الغرفة مؤلفة من ثلاثة سطوح تلتقى فى نقطة ، فيتيسر له أن يقتصد فى المادة والجهد مالا يستهان به ، والنحل — كأنه عالم بمبادىء هندسة الفراغ — يجرى عليها بدقة . وتعد الزاوية التى تلتقى عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد ، من مسائل الرياضة العليا . وقد عين ماك لورين عضو الجمعية الملكية بلندن ، هذه الزاوية المطلوبة بدقة ، ووجد أنها هى نفس الزاوية التى تلتقى عندها فعلا السطوح الثلاثة فى أرض غرفة مشط النحل » .

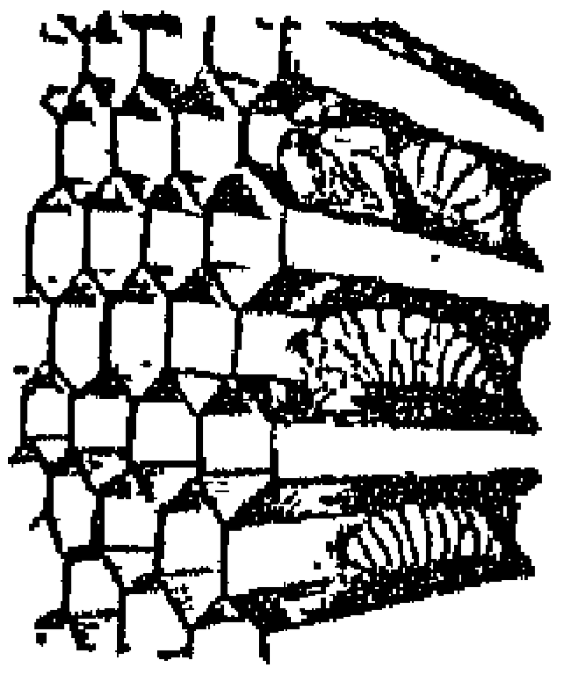
ومن المحقق أن النحل لا يشتغل بالحسابات العويصة ، ولكنه من ناحية أخرى ، يبدو أن من المستحيل أن تكون هذه النتائج المذهلة راجعة إلى المصادفة وحدها ، ولاسيما أن الزنابير التى تبنى أيضاً أمشاطاً ذات غرف مسدسة ، قد حلت هذه المسألة حلاً لا يدل على ذكاء ، فإن أمشاطها مبنية جزافاً ، حتى أن ثلث المسافة تقريباً يضيع هباء .

ونحن إذ نعجب بهذه البراعة الهندسية فى البناء ، يجب أن نقف أيضاً لنعجب بالبراعة فى إنشاء الممرات والمماشى من خلل الأمشاط أوحولها . وهى من حذفها فى شقها تهيىء طرقاً مختصرة فى كل اتجاه ، وتحول دون الزحام ، وتكفل التهوية الحرة . وكذلك يجب أن نعرف التجارب العديدة التى أجريت لحمل النحل على تكييف بنائه

---

* تبين أخيراً أن الغرف وإن كانت عجيبة الانتظام ، تتفاوت بعض الشىء فى السعة بحسب الخلايا .

وترميمه ، ولكن يحسن بنا أن ندع هذه الأعاجيب وأن نعود إلى رواية الخلية .



الحياة فى الخلية

ولا يكاد الصف الأول من المثاوى يتم حتى تحتله الملكة وحاشيتها من الحرس والخدم . وقد يحسن أن نذكر هنا حقيقة غريبة، هى أن العمال من النحل تتقى دائماً أن تدير ظهرها إلى الملكة ، فلا تكاد تقترب من جماعة العمال حتى تراها ترتب صفوفها بحيث تواجه الملكة وترجع القهقرى أمامها.

ومتى وصلت الملكة إلى غرفة تعدّها صالحة ، فإنها تضع فيها بيضة وتمضى إلى غرفة أخرى ، ومنذ هذه اللحظة إلى أن ينزل أول صقيع الخريف، لاتكف الملكة عن البيض، وهى تبيض أثناء أكلها ، وحتى فى نومها إذا نامت . ولا تزال تتعقب العمال خطوة خطوة وهم ماضون بهمة على الرغم من كلالهم فى إقامة المهاد التى يتطلبها خصبها . وأخيراً تتمّ هذه الأم التى لاتكلّ ، طوافها بمحيط الخلية كلها ، فتعود إلى مثاويها الأولى التى تكون فى هذا الوقت خالية ، لأن الجيل الأول يكون قد خرج إلى الحياة ، ولايلبث أن يطير إلى النوّار القريب ، وتغصّ به أشعة الشمس ، ويزيد به إشراق الزمان .

ويخرج من البيض الذى وضعته الملكة فى المثاوى الكبيرة ذكور النحل . ويبدو من هذا أن الملكة لابد أن تكون قادرة على تعيين جنس البيضة سلفاً ، واختيار المثوى لها. فكيف يتسنى لها أن تفصل الذكور من الإناث من بين هذا البيض الذى لايأخذه إحصاء !

هنا يواجهنا مرة أخرى لغز من ألغاز الخلية، ولا سبيل إلى سبر غوره والكشف عن سره ، ونحن نعلم أنه حتى الملكة العذراء ليست عاقراً ، ولكن البيض الذى تضعه لايخرج إلا ذكوراً ، وهى لاتستطيع أن تنتج عمالا أو ذكوراً بإرادتها إلا بعد تلقيحها فى طيران الزفاف الخطر ، وهذا الطيران يكسبها إلى آخر العمر نطفة التلقيح التى تنتزعها من عاشقها المسكين . وهذه النطف تبقى حية فى غدة خاصة تحت المبيض ، وتسيل فتلقح البيض فى مروره .



الملكات الصغيرة

والآن فلنغلق خليتنا حيث نرى الحياة قد استأنفت سيرها الدارج ، ولنعد إلى المدينة الأمّ لنرى ما يجرى فيها بعد أن هجرها الحشد .

بعد أن تسكن الضجة ، تصبح المدينة المسكينة التى برحها ثلثا أهلها ضعيفة كالبدن

الذى ألح عليه النزف ، على أن بضعة آلاف من النحل قد بقيت ، وهى تزيل كل أثر للحادث ، وتعنى بخزن المؤن التى نجت من النهب ، وتخرج إلى الأزهار مرة أخرى ، وتقوم بحراسة دقيقة على « رهائن » المستقبل .

وعلى الرغم من أن اللحظة تبدو حالكة ، فإن الأمل كبير فى حيثما دارت العين ، حتى ليخيل إلينا أننا فى قصر من قصور الأساطير القديمة ذات الجدران المكونة من آلاف الفوارير التى فيها أرواح الرجال الذين سيولدون . فإنا هنا فى مثوى الحياة التى تسبق الحياة ، وفى كل ناحية يرقد آلاف من صغار النحل فى مهاد مختومة ، وهى بيضاء كاللبن ، وأيديها مطوية ورؤوسها مثنية فى انتظار ساعة اليقظة .

وحول منطقة التفريخ كلها ، يرقص العمال من النحل وتخفق أجنحتها . ويبدو أن النحل بهذه الحركة يولد الحرارة اللازمة ، وبعد بضعة أيام أخرى ، تبدأ تنشق " تلك الأوعية — والخلية الكبيرة تحتوى ما بين ٦٠,٠٠٠ و ٨٠,٠٠٠ منها — فيخرج صغار النحل ، فتقبل القابلات من النحل مسرعات ، وتساعد الصغار على الخروج من سجنها ، وتنظفها وتمسحها وتذيقها بطرف لسانها أول قطرة من عسل الحياة الجديدة . والصغار تعرف على الفور كل ما ينبغى أن يُعرف ، وتمضى من فورها إلى المثاوى المغلقة ، وتروح تضرب بأجنحتها وترقص رقصاً موقعاً لتعجل هى أيضاً بخروج أخواتها الدفينات .

على أنها تعفى فى بداية الأمر من أشق الجهود ، فلا تخرج إلى الأزهار مع أخواتها التى ولدت معها فى يوم واحد إلا بعد أسبوعين ، وفى أول خروج لها تتخطى العتبة وتقف ، وتبرحها ثم ترجع عشرين مرة ، وتخفق فى الجو ورؤوسها متجهة إلى الخلية ، وعيونها تنظر وتتأمل وتدخر صور الأشجار والنافورة ، والبوابة ، والجدران حتى ينطبع على ذاكرتها طريقها الجوى الذى ستنساب راجعة منه ، كأنما صار طريقاً معلماً بخطين من الحديد .

ولما كانت الملكة القديمة قد رحلت مع الحشد ، فإن هذه الخلية لا تزال مفتقرة إلى ملكة ، فتظهر فى جوف أحد الأمشاط سبع منشئات غريبة أو ثمان ، كل منها بذرة أو حبة تملأ مكان ثلاثة أو أربعة من مثاوى العمال . والمعهود أن تكون كلها مجتمعة حول نقطة واحدة ، ويتولى حرس كبير شديد العناية ، السهر على هذه المنطقة التى يبدو أنها ذات شأن كبير ، إذ من هنا تخرج الملكات . وفى كل واحدة من هذه الحبات تكون قد وضعت بيضة قبل خروج

الحشد — بيضة مماثلة من كل وجه للبيض الذى يخرج منه العمال .

ومن هذه البيضة، بعد ثلاثة أيام ، يخرج فرخ صغير يتلقى غذاءً وفيراً خاصاً يسمى « الهلام الملكى » . فينمو الفرخ بفضل هذا الغذاء نمواً شاذاً ، ويطرأ عليه تغيير فى أفكاره وفى بدنه ، يبلغ من جسامته أن النحلة التى سيلدها خليقة أن تكون من نوع مختلف من الحشرات .

وعمر هذه النحلة يكون أربع سنوات أو خمس بدلا من الأسابيع الستة او السبعة التى هى عمر النحلة العاملة . ويكون مخها أصغر ، ولكن مبايضها ضخمة ، ويكون لها عضو خاص ، هو وعاء التلقيح ، فيكاد يجعلها جامعة بين الذكورة والأنوثة ، ولا يكون لها من الخصائص ما هو متعلق بحياة الكد ، فلا يكون لها زَغَب على قوائمها، ولا جيوب تدخر فيها الشمع ، ولا سلال تجمع فيها اللقاح ، وتموت دون أن تذوق زهرة واحدة . وإنه لعجيب أن نرى أشياء كثيرة من أعضاء ، وآراء ، ورغبات ، وعادات، وحياة كاملة — لاتتوقف على جرثومة ، كما هو الشأن فى النبات والإنسان والحيوان ، بل على مادة غريبة لاحركة فيها ولا حياة — هى طعام النحل المسمى « الهلام الملكى » .

وقد مضى نحو أسبوع على رحيل الملكة القديمة . وصغار النحل الملكى الراقدة فى الحبات ليست كلها فى سن واحدة ، فإن من مصلحة النحل أن تكون المواليد فى فترات منتظمة ، وقد ظل عمال النحل ساعات يرققون جدران أنضج المثاوى ، والملكة الصغيرة من الداخل تقرض الغطاء المستدير لسجنها . وأخيراً تخرج ، ولا تكاد تفعل حتى يستولى عليها نشاط عجيب ، وتحس أنها ليست وحدها ، وأن عليها أن تفتح مملكتها ، وأن على مقربة منها أدعياءَ مختبئين فتروح تمشى على جدران الشمع بحثاً عن منافساتها ، وهنا تتدخل روح الخلية بأحكامها التى نجهل سرها .

وقد تسمح الخلية للملكة الجديدة بأن تحطم أخواتها وأعداءها قبل التفريخ، أو قد تؤثر الخلية أن تتريث حتى تؤدى المراسم الخطرة المعروفة باسم « طيران الزفاف » الذى يتوقف عليه مستقبل هذه الأمة . فإذا أذنت الخلية فى القضاء على المنافسات — وهو ما يحدث كثيراً — فإن الملكة تسرع إلى كل مهد كبير، فيفسح الحرس لها الطريق ، وتدفعها غيرتها المتلهبة فتلقى بنفسها على أول مهد يصادفها ، وتنزع عنه الشمع بأسنانها ومخالبها ، وتمزق الغلاف الرقيق الذى يغطى المهد ، وتجرد الأميرة الراقدة من كل ستر ، وتلسعها بإبرتها

حتى تميتها ، وتكرر هذا فى مهد بعد مهد .

وتكون النحلات المحيطة بها واقفة فى سكون تشهد هذه الثورة ولا تعمل شيئاً ، حتى يدرك الملكة الإعياء فلا تعود تقوى على مطاوعة عاطفتها ، وحينئذ يتولى النحل إتمام المجزرة .

وهذه هى الساعة الرهيبة فى الخلية ، والمناسبة الوحيدة — إذا استثنينا ماله مسوّغ من قتل الذكور العاطلين — التى يسمح فيها للعمال بالشقاق والقتل فى الخلية .

ويحدث أحياناً أن تخرج ملكتان فى وقت واحد ، ولكن هذا نادر لأن النحل يحرص حرصاً شديداً على الحيلولة دون ذلك — فإذا حدث هذا فإن مبارزة وبيلة تبدأ فى اللحظة التى تخرجان فيها من مهديهما. ولهذه المبارزة طابع عجيب ، فإنه إذا صارت الملكتان أثناء المحاورة فى موقف قد يجعل الطعن قاتلا للاثنتين ، فإن الملكتين المتحاربتين يستولى عليهما الجزع ، فتتحاجزان وتفرّان لتلتقيا وتتنازلا مرة أخرى . وتنفصلان ثانية إذا رأتا أن الكارثة المزدوجة تهدد مستقبل أمتهما ، إلى أن توفق إحداهما أخيراً إلى مباغتة الأخرى واهتبال غرّة منها وقتلها دون أن تتعرض هى للخطر. ذلك أن قانون هذا الشعب لا يسمح إلا بضحية واحدة !

وبعد أن تحطم المهود ، ويقتل كل منافس ، يتلقى الشعب ملكته الجديدة بالقبول ، ولكنها لا تتولى الحكم حقاً ، ولا تعامل من شعبها كما كانت أمها تعامل إلا بعد طيران الزفاف ، أما قبل التلقيح فإن النحل يستخف بها . فلكى تكون فى مثل مركز أمها ينبغى لها أن تلتقى بالذكر فى خلال عشرين يوماً من حياتها ، فإذا تأخر هذا لسبب من الأسباب ، فإن الملكة يقضى عليها بأن تظل عذراء . وقد رأينا أن هذا ليس معناه العقم . وهنا نواجه السر — أو الاحتياط — الطبيعى العظيم ، أى الإنتاج بغير تلقيح ، وهو ما يشاهد فى عدد من الحشرات . والملكة العذراء تستطيع أن تضع ، ولكن البيض الذى تضعه ، كبيراً كان أو صغيراً ، لا يخرج منه إلا ذكور . ولما كان الذكور لا يعملون أبداً ، ويعيشون عالة على الإناث ، ولا يخرجون للتزود إلا لأنفسهم فقط ، وهم على العموم عاجزون عن تموين أنفسهم ، فإن النتيجة تكون بعد بضعة أسابيع أن يبيد آخر عامل مرهق ، وأن يقضى على الخلية كلها .



طيران الزفاف

اتخذت الطبيعة فى تلقيح النحلة تدابير غريبة لاجتماع الذكور والإناث من أصلين مختلفين . وإن حول الملكة العذراء ومعها فى الخلية ، مئات من الذكور الأقوياء فى نشوة

دائمة بين العسل. والسبب الوحيد فى وجودهم هو الوصال مرة واحدة . ومع أن الاحتكاك الدائم بين رغبتين يؤدى فى كل مكان آخر بلا استثناء إلى التغلب على كل عقبة ، إلا أن هذا الوصال لايكون أبداً فى الخلية . وفى كل يوم ، من الظهر إلى الثالثة مساء ، حين تكون الشمس مشرقة ، يخرج هذا الجمع المجنح ينشد العروس وهى أعرق فى الملكية ، وأعسر منالا من أميرات الأساطير اللواتى لا سبيل إليهن . ذلك أن عشرين أو ثلاثين قبيلة من ذكور النحل تقبل مسرعة من كل الخلايا المجاورة ، فحاشية الملكة فيها أكثر من عشرة آلاف خاطب ،ومن هذه الآلاف العشرة لا يقع الاختيار إلا على واحد فقط !

وقل من استباح سر زواج النحلة الملكة الذى يتم فى أجواز السماء الجميلة الوضاءة اللانهائية .

ومهما يبلغ من شوق العروس فإنها هى التى تختار اليوم والساعة ، وتتلكأ فى ظل المدخل حتى يطلع صباح رائع يفتح لها أبواب السماء التى سترف فى قبتها اللازوردية العظيمة .

وتبدأ طيرانها راجعة مرتين وثلاثاً حتى يرتسم فى ذهنها موقع المملكة التى لم ترها قط من الخارج ، ومنظرها . ثم تنطلق كالسهم إلى قبة السماء الزرقاء ، وتحلق إلى ارتفاع لايكاد يرتقى إليه أبداً غيرها من النحل وتكون الذكور فى كؤوس الزهر تنعم بالفتور ، فتشهد هذا المنظر ، ويحمل إليها النسيم هذا العطر الجذاب الذى ينتشر من جماعة إلى جماعة حتى تفعم به كل خلية قريبة ، فتحتشد الجموع على الفور وتتبعها فى بحر السرور ، ويسكرها هى خفق أجنحتها ، وتذعن لقانون الجنس الذى يقضى بأن لا ينالها فى طبقات الجو سوى الذى هو أقوى ، فتزداد علواً وسمواً ، ولابد أن تصل إلى منطقة لاتغشاها الطير حتى لاتنتهك حرمة هذا الزفاف. فتمضى صاعدة، ويكون الحشد المختلط الذى يتبعها قد أخذ يخف ويتفرق ، ويرتد عن الطراد الضعيف والمتهافت والمسن والجائع الذى خرج من خلية راكدة أو فقيرة ، ويختفى هؤلاء فى الفضاء ولا يبقى سوى عدد قليل لايكال معلقاً فى الزرقة الأبدية ، وتهيب هى بأجنحتها أن تدفعها دفعة أخيرة ، ويدركها ذلك الذى تخيرته لها بقوة لاسبيل إلى إدراك كنهها . ويمسك بها ، فيمضيان معاً يدفعهما حافز واحد ، ويدوران معاً متشابكين صاعدين وينعمان بثانية من نشوة الحب وجنونه .

ولا يكاد يتم اجتماعهما حتى تنتزع جهاز الذكر من جسمه ، وتجر معه كل ما فى أحشائه. فيتراخى جناحاه ، وكأنما أصابته صاعقة ، فيسقط بدنه الفارغ فى الهاوية .

والقانون الذى ضحى بمستقبل الخلية من أجل تكاثر الذكور الذين لا حاجة إليهم، هو نفسه الذى يضحّى بالذكر من أجل مستقبل الخلية . والفكرة تورث الذهول أبداً ، ولكنها لا تخلو من منطق ، إذ يبدو أن الطبيعة قضت لمصلحة التلاقح أن لا يتم اتحاد الذكر والأنثى الملكة إلا فى أجواز السماء . ولكن فى السماء أخطاراً شتى — الرياح الباردة ، وتيارات العواصف ، والطيور — ولهذا قضت بأن يكون الاتحاد أقصر وأوجز ما يمكن . وإنه لكذلك بفضل الموت المفاجىء الذى يدرك الذكر .

وتهبط الملكة بعد ذلك من السماء اللازوردية وترجع إلى الخلية وقد أعطاها الذكر كل ما كان له ، وأكثر مما تحتاج إليه، فتحتفظ بالنطفة التى تسبح فيها ملايين من الجراثيم التى تظل إلى آخر حياة الملكة تخرج واحدة واحدة حين تمر بها البويضات ليتيسر الاتحاد العجيب بين عنصرى الذكورة والأنوثة ، فيولد النحل العامل . والآية مقلوبة ، فإنها هى التى تقدم عنصر الذكورة ، وذكر النحل هو الذى يقدم عنصر الأنوثة .

وبعد يومين من هذا الاتحاد تضع بيضتها الأولى ، فيحفّ بها شعبها ، ويبدون لها أعظم رعاية . ومنذ هذه اللحظة التى صارت فيها مزدوجة الجنس ، وصار لها مدد من الذكورة لا ينفد ، تبدأ حياتها الحقيقية ، ولا تترك الخلية أبداً إلا حين تهجرها مع الحشد الراحل ، ولا تكف عن الإنتاج إلا عند ما يرفرف عليها الموت .

وإنه لزفاف هائل، وإنه لأغرب مما يصوره الخيال ، وفيه مأساة ، وليس للطبيعة همّ إلا أن ترقى الجنس بالتلقيح المختلط ، ولكى تكفل هذا جعلت أداة الذكر بحيث لا يستطيع استخدامه إلا فى الفضاء ، ولكى يتيسر هذا ينبغى أولا أن يؤدّى طولُ مدة الطيران إلى توسيع الرئتين . وامتلاء هاتين الرئتين العظيمتين بالهواء ، يدفع بالجزء الأسفل من المعدة إلى الوراء فيتسنى بروز عضو التناسل . وهذا هو بيان السر الفسيولوجى كله لهذا الطراد الرائع والزفاف البديع — وهو يبدو عاديا جداً للبعض ، ويكاد البعض الآخر بعده سوقياً .



ذبح الذكور

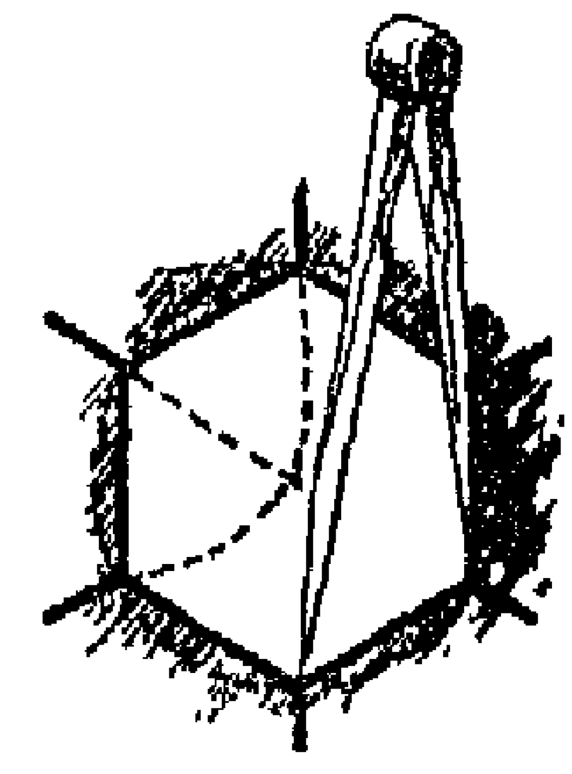
إذا ظلت السماء صافية ، واللقاح والعسل متوفرين ، فإن جماعة العمال من النحل تظل فترة وجيزة متسامحة متغاضية ، تحتمل وجود الذكور الثقلاء النهمين . وهذه الذكور السمينة المبدّدة الراضية كل الرضى عن بطالتها وعن كونها ليست أكثر من

« زوج شرف » لاتزال عاطلة لاخير فيها ، تأكل وتنعم وتزحم الممرات ، وتعرقل السير فيها ، وتعوق العمل . وهي تختار لرقادها الهنيء خير أركان الخلية ، ثم تنهض متثاقلة وتحتشد عند الحجرات المفتوحة حيث العسل أحلى وأعطر ما يكون ، وتلوث بإفرازها الأمشاط ، وتروح جماعة العمال الصابرة التي لاتزال عيونها ناظرة إلى المستقبل، تصلح في صمت مايفسد الذكور التي تخرج إلى الشمس لتضحى فيها من الظهر إلى الثالثة بعده ، ولها خوذة مؤلفة من لؤلؤتين سوداوين كبيرتين، وريشتين عاليتين خفاقتين، ودرع من مخمل متموج الألوان ضارب إلى الصفرة .

فإذا أراد الذكور الخروج أحدثوا جلبة كبيرة، ونحوا الحراس جانباً ، وأوقعوا النحل الذي يتولى التنظيف ، واصطدموا بالنحل الذي خرج يمتار وعاد موقراً بالقليل الذي جمع ، ويخرج الذكور واحداً واحداً إلى الفضاء وهو مغتبط لا يصده شيء ، ويقصد إلى أقرب الأزهار ، حيث يرقد إلى أن يوقظه نسيم العصر الرقيق ، ثم يرجع إلى الخلية بنفس الأبهة والنفخة، فياض الجوانب بالرغائب البديعة ، ويمضي من فوره إلى الحجرات ويدس رؤوسه إلى الأعناق في العسل، ويعب فيه حتى يمتلىء ويصبح كالطبلة ليعوض ما فقد من قوته .

ولكن صبر النحل ليس كصبر الإنسان ، فيجيء صباح يصدر فيه الأمر الذي طال ارتقابه ، ويشيع في الخلية ، فتنقلب جماعة العمال الوادعة إلى قضاة وجلادين، ولا ندري من أين يصدر الأمر ، ويظهر أن مصدره هو النقمة التي استولت على جماعة العمال على الأيام ، ولايكاد يصدر الأمر حتى يخفق به كل قلب . وتكون جماعات الذكور العاطلة راقدة غافلة على الجدران المعسولة، فيتقدم إليها جيش من عذارى النحل الساخطة وتوقظها من نومها بعنف ، فتهب متعجبة ، ولا تكاد تصدق عيونها ، فتديرها فيما حولها وهي مذهولة ، وفي ظنها أن هناك خطأ هي ضحيته ، ولكن الأيام التي كانت تشور فيها عسل مايو وتحتسي رحيق أزهار الليمون ، وتشم أرج العتر والبرسيم — قد تقضت ، وشاعت في الخلية رائحة السم الحادة . ويهجم على كل ذكر ثلاث أو أربع من النحل رسل العدالة، فتشرع بهمة في قطع جناحيه ، والبحث عن ثغرة في درعه تدفن فيها سيوفها ، ولا يحاول الذكور الضخام العزل دفاعاً عن أنفسهم ، وتودي بالبعض جراحه على الفور فيحمله ويقذفه من الخلية اثنتان أو ثلاث من النحل الذي أعدمه، ويحتمي البعض الآخر بركن من الأركان ويبقى فيه يحيط به حرس لا يرحم حتى يموت جوعاً ، ويصل كثير من الذكور إلى الباب فينجو في

الفضاء ولكنه فى المساء يكون البرد والجوع قد ألحّا عليه فتعود جموعه إلى المدخل ملتمسة المأوى ، غير أنه يلتقى هناك بحرس لا يعرف الرفق . وفى صباح اليوم التالى قبل أن تخرج جماعة العمال فى رحلاتها اليومية ، تنظف المكان الغاص بجثث الذكور الضخام التى لا خير فيها ، وتمحى ذكرى هذا الجنس العاطل إلى أن يجىء الربيع مرة أخرى .



رقدة الشتاء

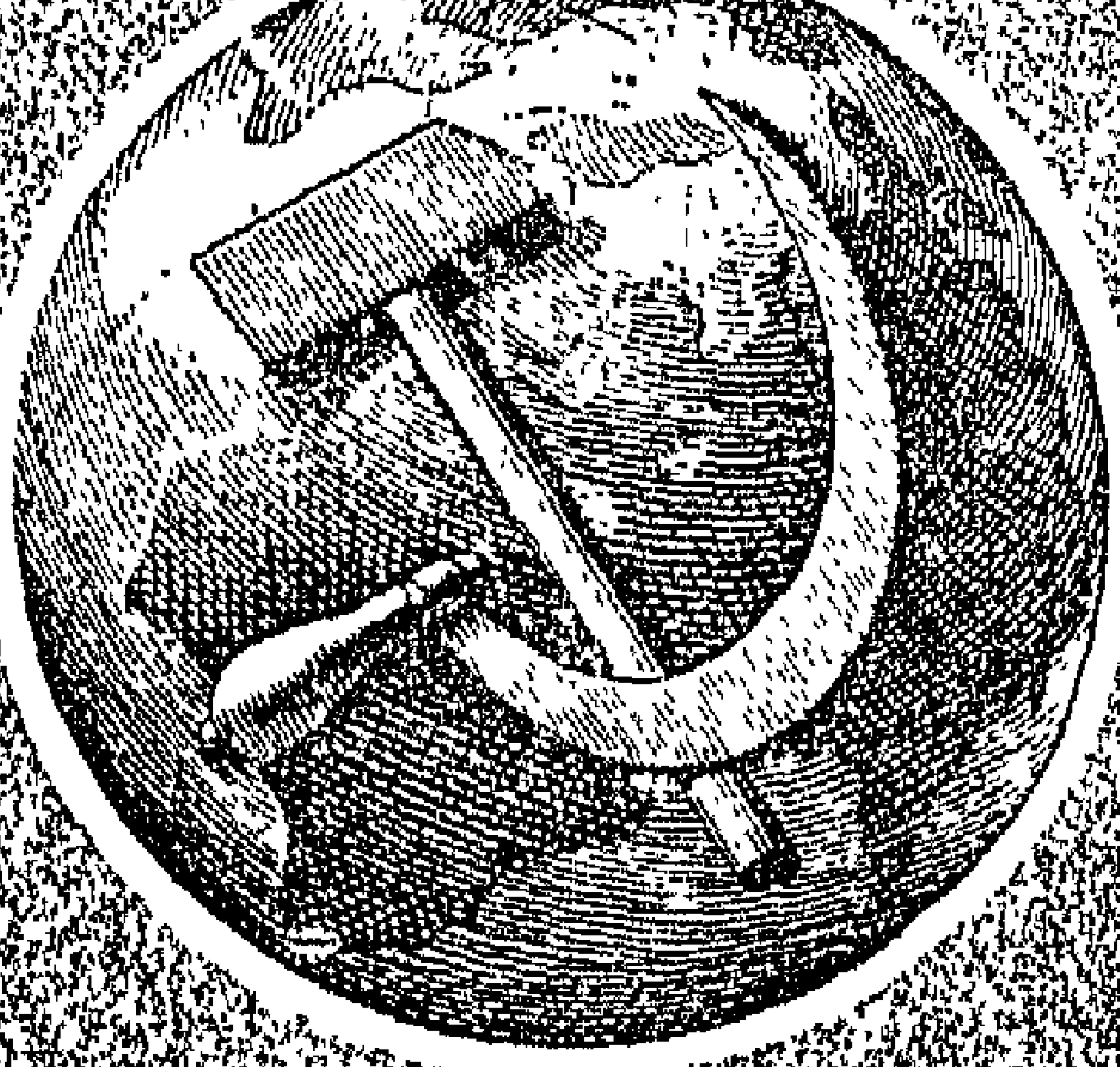
ويستأنف العمل بعد القضاء على الذكور، ولكن بهمة تفتر شيئاً فشيئاً ، لأن الأزهار تقل ، وقد مضت أيام الأفراح العظيمة ، وتختم مخازن العسل بالشمع الأبيض الذى لا يلحقه فساد ، وينقطع البناء ، وتقل المواليد وتكثر الوفيات ، وتطول الليالى ، ويقصر النهار ، ويعصف المطر والرياح وضباب الصباح بعثات من جماعة العمال .

ويكون الإنسان قد أخذ نصيبه من الحصاد ، وقد زودته كل خلية حسنة بمئة رطل من العسل ، بل بمئتى رطل فى بعض الأحيان تمثل حقولا واسعة من الأزهار ، كان النحل يزورها كل يوم ألف مرة أو ألفين . ويحتشد النحل فى وسط الخلية استعداداً لنوم الشتاء الطويل ، ويروح يخفق بأجنحته معاً — بسرعة أو ببطء بحسب درجة الحرارة فى الخارج ، فيولد فى منطقته دفئاً معادلا لدفء يوم من أيام الربيع . ويقوم العسل الذى يتغذى به مقام الشمس والأزهار حتى تطلع شمس الربيع فتدفىء الخلية ، وتبعث برسالتها إلى النحل أن قد عادت إلى الحياة الشقائق والبنفسج ، وتخبره أن السماء صارت زرقاء مرة أخرى ، وأن الدائرة التى تضم الموت إلى الحياة وتصل ما بينهما قد عادت إلى الدوران وبدأته من جديد .

ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية لا يسعنا إلا أن نظل على ذكر لآية من آياتها، وتلك هى الحجرة المسدسة التى تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق — كمال لا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقريات البشر مجتمعة . فما استطاع الإنسان فى نطاق مساعيه أن يحقق ما حققه النحل فى دائرته ، ولو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة ، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع .

حقيقة ١٤ مليونًا من أرقاء روسيا السوفيتية

ماكس إيستمان



مختصر مقتبس من كتاب ألفه دافيد . ج . دالين وبوريس نيقوليفسكي ، وعنوانه : « لا شيء سوى سلاسلهم » وستنشره مطبعة جامعة ييل . وقد أضيفت إليه أقوال لشهود العيان من البولنديين الذين أفرج عنهم من معتقلات الرقيق وفقاً لاتفاق ستالين سيكورسكي ، وحقائق منتزعة من تقارير رجال كانوا من رجال الشرطة السرية السوفيتية ، وغيرهم من الذين كانوا يشتغلون في إدارة هذه المعتقلات ، ومقتطفات متعددة من الصحف السوفيتية .

حقيقة ١٤ مليونًا
من أرقاء روسيا السوفيتية

من أخطر الحوادث فى العصر الحديث وأشدها ترويعاً للنفس ، حادث إحياء سنة استرقاق الناس فى روسيا السوفيتية . وقد حاول هتلر أن يفعل هـذا على الطريقة الرومانية القديمة ، فاستعبد الأجانب أو من كانوا فى حكم « السلالات المنحطة » . أما ستالين الذى لا يؤمن بالتفاوت بين السلالات ، فقد استرق أبناء وطنه ، كما استرق أبناء أمم أخرى ، وقد فعل ذلك على نطاق لم يشهد التـاريخ مثله من قبل .

فى إمبراطورية الاتحاد السوفيتى اليوم ١٤ مليون عبد* فرضت عليهم السخرة ، وهم يعيشون فى حظائر تحيط بها حواجز تعلوها الأسلاك الشائكة ، ويحرسها فى الليل والنهار رماة يرابطون فى أبراج مزودة بالأنوار الكشافة القوية ، وأسراب من الكلاب لمطاردة من يفر . وهؤلاء الأرقاء يؤدون أشق الأعمال وأخشنها وأفدحها من تعدين واحتطاب وكشف أرض الغابات ومد الطرق والسكك الحديدية وشق الترع وتمهيد المطارات وإنشاء المصانع .

فهذه القوة العاملة قليلة النفقة ، ثابتة خاضعة للمسيطرين عليها ، « لا تبالى » تقلب الجو ، ويمكن أن تنقل فى مركبات الشحن ، فتساق جماعاتها سوق الأنعام دون مقاومة . ويمكن أن ينتفع بها دون خوف أو قلق على الأموال المثمرة فى العمل ، لأن هؤلاء الأرقاء السوفيت لا يكلفون سيدهم شيئا ، وسيدهم هو وزارة الشئون الداخلية* ، يأخذهم وكلاؤها من الشارع بلا حرج أو ينتزعونهم من فرشهم فى جوف الليل . ويعمل أربعة عشر مليونا من الأرقاء عامل جوهرى فى اقتصاد « الدولة الاشتراكية الأولى » . فإذا نقص عـددهم أصدرت الإمفيدا أوامر إلى فروعها بالقبض على طائفة تعين عددها ممن تسميهم « المذنبين » الجدد .

ونظام الاسترقاق هذا يدحض الزعم بأن « الملكية الجامعة » قد حلت مشكلة البطالة ،

---

* يوافق ألكسييف على هذا الرقم (انظر بيانه فى ذيل هذا الفصل ص ١٢١) وقد قال فيكتور كرافشكو مؤلف كتاب « آثرت الحرية » إنه بلغ ٢٠ مليوناً ، يوم كان فى روسـيا . وقد روى الكولونيل كازاليت النائب البريطانى الذى رافق سيورسكى رئيس الوزارة البولندية فى جولة فى هذه المعتقلات أن جنرالا روسياً قال له : « لست أدرى لم تتألمون من أجل البولنديين ، فثمة ٢٠ مليوناً من قومنا يعيشون هذه المعيشة نفسها » .

* إمفيدا لفظ مركب من أوائل الحروف ، وهى الاسم الجديد لبوليس الدولة . وقد كان يعرف قبل باسم « نكفيدا » وقبل ذلك باسم « أوجبو »

فنى الاتحاد السوفيتى من الناس الذين كتب عليهم الرق الدائم أكثر من عــدد العمال الأمريكيين الذين تعطـلوا فترة ما فى أشد سنوات الأزمة ضيقا وكساداً . ويعيش الأرقاء فى بعض المعتقلات معيشة أسوأ من معيشة الناس فى العصر الحجرى . وإليك على سبيل المثال بعض شهادة أسير بولندى كان قاضيا فيما سبق من أيامه . قال :

« وصلنـــا إلى السهل القرور المهجور عراة أو نكاد ، حفاة الأقدام بين الموت والحياة ، فلم نجد سوى عود غلقت عليه لوحة عليها هذه الـكلمة : « المعتقل ٢٨٨ » فأكلنا عصيدة حبوب كالشعير لم تطبخ ، ونمنا فى خنادق متلاصقين طلباً للدفء ، وكان فراشنا أعواداً مبلولة مفروشة على الطين .

« وكان الموكل بالمواعيــد يوقظنــا فى الساعة الرابعة صباحا بدق فأس على منشار من الصلب ، فلم يكن أحد يكلف نفسه أن يلبس ثيابه ، لأنه ينام بها ، وليس علينا إلا أن ننهض ونأكل ماتبقى من عصيدة البارحة . فإذا كانت الساعة الخامسة أعطيت الإشارة الثانية : « هيا إلى العمل » فتخرج هذه المخلوقات القذرة فى أسمالها البالية واحداً بعد واحد من جحور الطين ، وهى ترتعد برداً ، فتبدأ عمل يوم آخر . وقد كانت الرائحة الكريهة شيئاً لا يطاق .

« وقد حدث أحياناً أن لزم أحدهم مكانه زاعماً أنه مريض ، فإذا جس مساعد الطبيب نبضه وحكم أنه يكذب ، ضرب المسكين وركل حتى يخرج من مكانه . وكان كثيرون يموتون كل ليلة ، فيمزق الحراس ثيابهم عن جثثهم ويجرونها إلى مايشبه زريبة مصنوعة من القضبان والعيدان فتكدس فيها » .

وما يلى مأخوذ من شهادة آخر : « كنا نعيش فى خيام لاسقوف لها ، فكنا نعود ليلاً من عملنا وقد برح بنا البرد والبلل ، فنتهالك على ركبنا فى الوحل داخل الخيام ، ونرقد بملابسنا فننام نوم المحموم ، ونجفف بعض ملابسنا قبل أن يسفر الصبح ، فيسوقنا الحراس وكلابهم إلى عمل يوم آخر . وكنا إذا ما مات أحدنا فى الليــل ، نخفى جثته ما استطعنا أن نحتمل نتنها ، لكى نأخذ حصة الخبز التى كانت مقررة له » .

وقد أخذ هذا المثلان من « معتقلات الموت » فى الشرق الأقصى الروسى والشمال الروسى . وكثير مثلها مما يصف الحياة فيها يمكن الاستشهاد به من أكداس الأدلة التى بين أيدينا . وقد روت سيدة بولندية ذات مكانة — وهى اليوم فى أمريكا — رواية عن الحياة فى معتقل وسط من هذه المعتقلات فأيد ما جاء فى روايتها مئات من المعتقلين السابقين بشهادات مفصلة مكتوبة .

ينام الأرقاء ف ثكنات طويلة من خشب على صفوف من رفوف يبلغ عرضها طول الرجل ، فيدخل السجناء رؤوسهم أولا وينامون على الرفوف العارية متلاصقين وأقدامهم إلى الممرّ . وليس لهم فرش ولا ملاءات ولا بطاطين ، فينامون فى الأسمال التي يعملون فيها . وأجسامهم تزخر بالقمل والبق ، وتمرّ عليهم الفيران ، وليس عندهم ماء يغتسلون به ، ولا يؤذن لهم إلا بحمام واحد فى كل شهر من دلو مملوء بالماء الساخن. وفى كل ثكنة موقد واحد يدفىء من يكون فى دائرة لا يتجاوز نصف قطرها خمس أذرع ، أو ستًّا . أما بقية السجناء فلا ملجأ لهم إلا حرارة أبدانهم .

فى الساعة ٤٠ : ٤ صباحاً يوقظ الأرقاء حراس مسلحون ، فإذا تلكأوا جرّهم الحراس من الرفوف جرًّا وهم يضربونهم ، ويأخذ كلٌّ منهم قصعة من الخشب وملعقة (لا تغسلان أبداً) إلى قدر كبير فيتلقى ملء مغرفة من حساء رقيق وقطعة من الخبز الأسود*. وبعد الفطور يصفون صفوفاً ويحصى عددهم ويساقون إلى العمل جماعات كل جماعة فيها ٢٥ رجلا، ويخفرهم حراس مسلحون بالبنادق . وفى كل صباح ينذرهم أحد الحراس قبل الخروج إلى العمل فيقول: «حذار ! فلن يخطو أحدكم خطوة إلى اليمين أو إلى اليسار إلا رمى بالرصاص دون إنذار». والحراس يرمون حقاً ، وكلُّ رجل يضل أو يعثر يترك جثة هامدة على جانب الطريق.

يعمل السجناء عشر ساعات متوالية إلى اثنتى عشرة ساعة . ويعطون عند الظهر ملء ملعقتين طافحتين من «الكاشا» وهى عصيدة كثيفة . ثم يصفون صفوفاً فى المساء ويعدون ويلقى إليهم الحراس بالإنذار نفسه ويعودون بهم . وأما طعام العشاء فمغرفة أخرى من الحساء ، وملء ملعقتين من العصيدة. ثم يزحفون إلى رفوفهم لقضاء الليل.

تلك هى حياتهم إذا أنجزوا المقدار المطلوب من العمل المنتج ، فإذا لم ينجزوه خفضت جراياتهم الضئيلة . أما الذين يرفضون العمل — ومن ينجز أقل من ثلث المقدار المطلوب يعد فى حكم من يرفض — فيحبس على انفراد ، فإذا توالى الرفض كانت العقوبة المألوفة هى الإعدام .

وجاء فى تقرير آخر : « ومع ذلك فإن الذين «يرفضون» كثر ولا سيما فى الشتاء . ومن يرفض يكون عادة رجلا قد بلغ منه

---

* يصنع الحساء شهراً كاملا من السمك ، وتشاهد رؤوسه وعيونه طافية فيه ، وفى الشهر التالى من حبوب الشوفان غير المقشورة ، وفى الشهر الثالث من ثفل حبوب الصويا بعد عصر زيتها ، وفى الشهر الرابع من الكرنب والماء .

الإعياء فبات لايكترث لشيء ولايتمنى سوى شيء واحد: أن يرقـد هادئاً في مرقده، فيكون أقل ما يكون شعوراً بانطفاء جذوة النشاط والحياة في بدنه.»

ولكل طائفة من المعتقلات مستشفى، وهو بناء كسائر المبانى مزود بالرفوف النابية للنوم. ولكن الطعام فيه أكثر قليلا، ولكل مريض بطانية. ويتحول بعض المستشفيات جنة في نظر المرضى لوجود طبيب مخلص هو في العادة مسترق مثلهم، ولكن يحدّ من جهده قلة المواد الطبية، وكثرة القوانين التي وضعت لتقضى على المرضى، لا لتعين على شفائهم. ومن هذه القواعد أنهم يعيّنون نسبة خاصة للمرضى، فمن يمرض بعد أن تكتمل هذه النسبة لا يأذنون له بدخول المستشفى.

كان تشتيت الأسر شيئا يمزق نياط القلوب في عهد النازى، ولكنهم في ألوف من الأحوال كانوا يبقون على الأسر المعتقلة مجتمعة الشمل. أما في روسيا فالقاعدة العامة، حتى في ترحيل الجماعات ونفيها، أن يفرق بين الأزواج وزوجاتهم، ويشتت شملهم حتى يتعذر عليهم أن يتصل بعضهم ببعض. وكثيراً ما تطبق هذه القاعدة على الآباء وأبنائهم.

ويتفاوت درجة القسوة بتفاوت الزمان والمكان، ولكن القواعد العامة المتبعة في المعتقلات متشابهة في جميع الأماكن، لأن الغرض الأول في هذا النظام هو معاقبة أعداء الدكتاتورية واستئصالهم والانتفاع بهم ما أمكن الانتفاع. والروس السوفيت يخشون دائما أن ترق القلوب، وكل حارس من حراس المعتقلات يدرك أنه إذا لم يحرص على القسوة التي فرضها السوفيت، كان عرضة لخطر الحكم عليه بالاسترقاق.

وما هي القاعـدة في اختيار الروس للاستعباد؟ إنهم يختارون من الذين يعرقلون النظام الشيوعي الجامع، أو يعارضونه، أو ينقدونه أو يشتبه في أنهم يكرهونه سراً.

ومن أغرب ما في الأمر أن المميّزين بين المسترقين هم الذين يعرقلون النظام من طريق الإثم الخلقي — أي المجرمون من أمثال اللصوص والقتلة، وأقلهم امتيازاً هم الذين يعارضون عن اقتناع أدبي أو ديني أو سياسي. فهؤلاء يطلق عليهم «أعداء الشعب». أما المجرمون فيبلغون ١٥ في المئة من أهل المعتقلات، وأما البقية فسبع طوائف:

١ — البيتوفيك، وهـذا لفظ سوفيتي جديد يطلق على جريمة «الانحطاط» عن طريقة الحياة الاشتراكية. وهي تشمل ما يسمى «منوء استعمال الوظيفة». ولما كانت

الدولة تملك كل شيء ، فبائع الشراب المبرد رجل موظف ، وإذن فهذا مورد لا ينضب يجمع منه الرجال لمعتقلات الأرقاء . مثال ذلك:

هذه طاهية فى مزرعة مشتركة نسيت أن تملح طعام العشاء فحوكمت بتهمة « تقصيرها فى تأدية واجباتها الرسمية » . وهذا رجل أرسلته المزرعة المشتركة إلى المدينة ليبيع بعض الحبوب فباعه بمبلغ ٢٣ روبلا بدلا من ٢٦ أو ٢٧ روبلا ، فألقى القبض عليه لأنه بائع غير بارع .

٢ ـ الكولاك ، هؤلاء هم المزارعون المقاديم الموفقون ، الذين وفقوا بطرق شريفة إلى اقتناء أرض وماشية أكثر قليلا مما يقتنيه جيرانهم ، واعتقدوا أنه يحق لهم أن يقتنوها ، فهؤلاء يؤلفون أكبر فئة من الأرقاء . ولما كانوا أقوياء الأبدان وقد ألفوا العمل الشاق ، تراهم أنفع الأرقاء للدولة . وقد كانوا ينفون بالملايين ، (وكم من قرية قد نفى أهلها جميعاً) ، يوم كان الفلاحون يساقون سوقاً إلى المزارع المشتركة فى أوائل العقد الماضى ، وإذا ما انقرض الكولاك حل محلهم فلاحو المزارع المشتركة الذين لا يفتأون يتوقون إلى اقتناء المزارع الخاصة برغم كل عقبة .

٣ ـ عمال الصناعة الذين حكم عليهم « لإهمالهم » أو لأنهم « يعرقلون النظام » وهذه جريمة شنعاء فى القانون السوفيتى ، وتشمل أيضاً التغيب عن العمل أو التأخر ، أو الاحتجاج على ساعات العمل وأجوره وأحواله ، وهى أشنعها جميعاً .

٤ ـ عمال وشيوعيون من أمم أجنبية أغراهم بالسفر إلى روسيا ما يرجونه فيها من قيام الدولة المثلى ، وقد جاءوا حجاجاً إلى وطن الاشتراكية الدولية ، فما لبثوا حتى اعتقلوا فى بلد يسىء الظن بجميع الأجانب ، ويضم إليهم روسيون عاشوا خارج روسيا ثم عادوا إليها فعدوا ملوثين بالثقافة الغربية البورجوازية ، وكذلك الذين يتصلون بالأجانب الذين يزورون روسيا .

مثال ذلك: فتاة تدعى أنيشكا، اشتركت فى حفلة راقصة وظفرت بجائزة ، وكانت زوجة القنصل الإيطالى حاضرة فهنأتها ، وحادثتها حديثاً رقيقاً دقيقتين أو ثلاثا ، فاعتقلت الفتاة فى اليوم التالى وحكم عليها بالسخرة .

٥ ـ العصاة من القساوسة وأناس حكم عليهم بالسخرة من أجل عقائدهم الدينية ، وكتاب ومؤلفون من أجل آرائهم .

٦ ـ بضعة ملايين من أهل بولندة وبلغاريا وغيرهم من الدول التابعة لروسيا ، وقد صار هؤلاء طبقة جديدة من الأرقاء منذ وضعت الحرب أوزارها ، وهم يختارون ويعاملون كالأرقاء الروس سواء بسواء .

٧ ـ أسرى الحرب الروس الذين أعيدوا إلى وطنهم. فالقاعدة المتبعة فى الجيش الروسى أن الجندى الروسى ينبغى أن يموت وهو يقاتل ، فالتسليم للعدوّ محرم . وإذن فجميع الذين « حرّروا » من الجنود يمثلون أمام لجنة فتحكم أهم أبرياء أم لا ؟ وقد سيق ألوف منهم إلى معتقلات الأرقاء وكثيرون منهم مصابون بجراح تشهد لهم بحسن البلاء دفاعاً عن وطنهم . وهذا الرق المصلت على رقابهم كالسيف، هو الذى جعل ألوفاً منهم يأبون كل الإباء أن يعودوا إلى وطنهم .

إن العمل فى المعتقلات محدود الزمن من الناحية القانونية ، ولكنّ الإمفيدا لا تعرف قانوناً ،فهى تستطيع أن تمدّ زمن الأحكام بأمر إدارى كما تستطيع أن تفرضها بأمر إدارى ، وكثيراً ما تفعل . أما الذين أطلق سراحهم بعد الحكم عليهم بالعمل فى هذه المعتقلات ، فيقدّر عددهم بخمسة فى المئة .

ومن أغرب الأمور أن هذا العمل البشع لم يظفر باهتمام الصحافة العالمية ، وفى سنة ١٩٣٠ حظرت وزارة المالية الأمريكية استيراد رُبّ الخشب وعيدان الثقاب من روسيا لأنها من منتجات « السخرة » . ولكن مولوتوف نفى ما يشاع بزعم فاضح فقال : « إن كثيرين من العمال فى البلاد الرأسمالية ليحسدون السجناء فى مناطقنا الشمالية على ما يستمتعون به من أحوال المعيشة والعمل » . فرفعت وزارة الخارجية ذلك الحظر . ومضى فريق من السياح يزعمون أن هذه المعتقلات كمصايف الكشافة البديعة أو هى أحسن ، ومنهم هنرى ولاس الذى ظهر فى صورة ومعه طاغية معتقل دالسترو ى ، فتراه فيها مبتسما مغتبطاً . ومساحة هذا المعتقل أكبر من فرنسا مراراً ، وفيه يموت ألوف من الأرقاء فيما يبذله السوفييت من جهد جهيد للتفوق على سائر الأمم فى استخراج الذهب . وقد وصف ولاس هذا الطاغية بأنه « زعيم من زعماء الصناعة » .

وأمثال هذه الاخطاء كانت خليقة أن لا تقع لولا الطريقة الخاتلة التى بدأ بها الرق فى روسيا . فقد تسلل مستتراً فى ثوب مثل أعلى ، وكان رأى لنين أن المجرمين ليسوا أعداء المجتمع بل ضحايا المجتمع الرأسمالى . وأعلن أن الحاجة فى النظام الاشتراكى إنما هى إلى تربية هؤلاء تربية جديدة بالعمل ، فيزول الإجرام من الدنيا .

وقد بدأت روسيا حركة إصلاح إنسانى نافع فى السجون وبين جماعات المجرمين ، وظلّت بعض آثاره قائمة حتى ١٩٢٨ فقضى المجهود الضخم الذى اقتضاه تنفيذ مشروع السنوات الخمس على المثل العليا كلها سوى

إنجاز العمل المطلوب . أما الفكرة الصالحة، فكرة تربية المجرمين تربية جديدة ، فقد ضاعت فى بحث أولى الأمر عن الأيدى العاملة ، وكل ما بقى حتى اليوم من المثل الذى نشده لنين هو تمتع المجرمين ببعض الامتيازات فى هذه المعتقلات .

وقد حرصت وزارة الداخلية والعدل على المطالبة بأن تكون معاملة « أعداء الطبقة العاملة » أشـد قسوة من معاملة المجرمين غير السياسيين. وقد أعلن سيميون فبرين ، وهو موظف كبير فى الإمفيدا : « إننا نقول لكم أيها المجرمون العاديون إننا لا نعدكم أعداء ، لأننا لا نجد بينكم أبناء ملاك الأرض وأصحاب المصانع » .

ونضم هذه المعتقلات ألوفا من الأطفال، لأن مرسوم ١٩٣٥ الذى يجعل القانون الجنائى يشمل بحكمه القصّر الذين فوق الثانية عشر لم يلغ قط . وعلى الرغم من حظر المباشرة الجنسية بين الأرقاء ، ترى أطفالا يولدون فى هذه الأرض التى تظلمها المجاعة بسلطانها . فكثيرات من النساء يلجأن إليها غير عابئات بشىء ، عسى أن يتيح لهن الحمل شيئا من راحة وجراية أكبر مما ينلن . فإذا بلغن الشهر السابع أو الثامن نقلن إلى معتقل خاص بالوالدات فيلبثن فيه سنة يعملن عملا خفيفاً ، فإذا حال الحول أخذ الطفل إلى مكان تجهله الأم ، فتتولى الدولة تربيته .

ومنذ أخذ السوفيت بنظام الرقّ صار عليهم أن يحلوا مشكلة اقتصادية معقدة . فقد كان متوسط العامل الأجير ١٤٩٦ روبلا فى السنة عام ١٩٣٢ — ١٩٣٣ ، وقدرت تكاليف السجين فى المعتقلات بنحو ٥٠٠ روبل . فالفرق توفير كبير ، ولكنه لا يعوّض ما هو مأثور بين عمال السخرة من قلة الكفاية .

وقد فطن الماركسيون السوفيت إلى هذه المشكلة ، فحلوها فى ظل النظام الاشتراكى حلا يعجز المجتمع الرأسمالىّ عن أن يحاول مثله . فهم يفرضون على العامل العناية بعمله، وذلك بإبقاء جمهرة الأرقاء جائعة، وبتوزيع الطعام عليهم وفقاً للعمل الذى يؤدونه. فالذين لا يستطيعون أن يؤدوا عملا يكفى لسدّ حاجتهم أو لا يريدون أن يؤدّوه، كالضعاف والمرضى والذين « يرفضون » ، يقتر عليهم حتى يموتوا قبل أن يصبح رزقهم عبئاً ثقيـــلا على الدولة .

وقد قال شاهد عيان آخر : « لقد قضى على كل شىء يبقى على المرء كرامته ، فلا حرمة ولا كرامة ولا رحمة . ولا يزال الجوع وما يصحبه من تبلد العقل والخلق يحيل هؤلاء البشر إلى ضروب من الحيوان .

فالإنسان الذى يعيش فى هذه الجثث يموت تدريجاً، ويحل محله حيوان منهوك ذاهل». وما أسدل «الستار الحديدى» إلا ليخفى هذه الحقائق . وسيظل هذا الستار مسدلاً ما دام فى الدنيا أحرار يرون فظاعة ما مُنِى بها البشر باسم الاشتراكية .

بيان من كيريل م . ألكسييف

كان قبل مهندساً ، ثم دبلوماسيا سوفيتياً ، ثم فر من السفارة السوفيتية فى المكسيك سنة ١٩٤٦ وتنكّر للشيوعية، وهو مقيم الآن فى الولايات المتحدة .

كل الوقائع الواردة فى مقال ماكس إيستمان صحيحة وقد رواها رواية معتدلة . ويسرّنى أن أرى هذه الحقيقة المهولة الجاثمة على الشعب الروسى قد نشرت ، فلا بد من أن يعيها العالم الغربى بأسره .

إن عـدد معتقلات الأرقاء فى روسيا وعدد المعتقلين، بلغا مبلغاً من الجسامة حتى تكاد تجد كل أسرة قريباً من ذويها بين هؤلاء الأرقاء . ونحن المهندسين نعرف أحوالهم علم اليقين ، لأن كثيرين منا قد ساهموا فى مشروعات بناء ضخمة يستخدم فيها الرقيق بوجه عام ، ولا سيما تشـييد المصانع الجديدة فى الأورال وسيبريا .

وقد اشتركت فى هذا التشييد، وفى وسعى أن أشهد أن العمل هنـاك تم معظمه على أيدى أرقاء جىء بهم من المعتقلات المجاورة.

وليس ثمة من يعلم ، ولا الإمفيدا التى تدير هذه المعتقلات، عدد المحكوم عليهم فيها. ويوم غادرت روسيا منذ سنتين كان عددهم وفقاً لإحصاء الإمفيدا، يتجاوز ١٤ مليوناً . ومن المستحيل الظفر برقم دقيق لأن ألوفاً يموتون كل يوم ، وكثيرون يهلكون وهم فى طريقهم إليها . وهؤلاء العمال لا يعدون من البشر ، فهلاك مئـات الألوف منهم لا يقلق الذين يتولون إدارتها ، والذين يموتون يعوَّضون باعتقال غيرهم .

والمهمة السياسية التى تضطلع بها المعتقلات هى أن تستأصل تدريجاً الذين يوصفون بأنهم عنـاصر « خطرة » (أى الذين يعارضون الحزب الشيوعى) وهم لا يقتلون لساعتهم ، لأن الحكومة ترغب فى الانتفاع بتسخيرهم قبل أن يموتوا .

قصة التجسس على الطاقة الذرية



مختصر كتاب

رتشرد هيرش

كان لفتننت كولونل في فرقة المخابرات العسكرية التابعة لهيئة أركان الحرب العامة بوزارة الحربية في الولايات المتحدة

لما أذاعت الحكومة الكندية فى ربيع ١٩٤٦ قصة أعمال التجسس السوفيتى المدهشة فى كندا ، نشر الخبر بعناوين كبيرة فى صحف العالم ، غير أن الجمهور فاتته تفاصيل كثيرة مثيرة . والبيان الدقيق التالى مستند إلى أقوال موظفى الحكومة الكندية ، وإلى التقرير المنشور الذى وضعته لجنة التحقيق الملكية .

قصة التجسس على الطاقة الذرية

في رقم ٢٨٥ بشارع شارلوت في مدينة « أتوا » — عاصمة كندا — يقوم بناء من الطوب الأحمر ، مائل السقف ، ذو ثلاث طبقات، وشرفات بيض عالية. وهو من ذلك الضرب الذى كان يؤثره الأثرياء من الناس الذين كانوا فى أخريات القرن التاسع عشر ، يشيدون الدور الكبيرة ليؤسسوا فيها أسراً كبيرة . وفى أوائل ١٩٤٢ اتخذته السفارة السوفيتية مقراً لها.

وكان الجزء الرئيسي من الدار يشغله السفير زاروبين ومساعدوه . أما الجناح الخلفى الذى كان فيما مضى مطبخاً ومسكناً للخدم ، فقد فصل ما بينه وبين بقية البناء بأبواب مزدوجة من الصلب ، ونوافذ ذات قضبان من الحديد وشبابيك من الصلب . وفى هذا الجناح يوجد قسم الشفرة السرية ، وفيه تكتب الرسائل السرية إلى موسكو ، وتحل رموز ما يرد منها .

وكان لكل قسم من الأقسام الخمسة فى السفارة شفرتها الخاصة والموظف الموكل بها ، فى غرفة موصدة ضماناً للسرية المطلقة . مثال ذلك أن القسم العسكرى الذى يرأسه الكولونيل نيقولاى زابوتين كان يتولى شفرته من يدعى إيجور جوزنكو ، وهو موكل بالمكاتبات التى ترسل إلى مدير المخابرات العسكرية فى موسكو . وكانت دفاتر الشفرة الموكولة إلى موظفها جوزنكو تحفظ كل ليلة فى خزانة كبيرة من الصلب ، تحفظ فيها أيضاً مذكرات الملحق العسكرى اليومية السرية . وكذلك كان للبوليس السرى الروسى وسائله الخاصة لمراسلة موسكو ، ومثل هذا يقال عن السفير والملحق التجارى ورئيس القسم السياسى .

وكان جوزنكو شاباً فى الخامسة والعشرين رزيناً جاد النظرة ، وقد اختير خاصة لهذه المهمة الجسيمة التبعات . وكان وهو ملازم فى الجيش الأحمر قد تدرب زمناً طويلا تدريباً خاصاً قبل أن يوفد إلى أتوا . وهو خريج مدرسة مخابرات خاصة تديرها هيئة أركان الحرب للجيش الأحمر . وقد خاض الحرب فى الصفوف الأولى أيضاً ، وشهد معاركها عاماً كاملا فى ١٩٤٢ ، واشترك فى حملة الشتاء على أبواب موسكو . وأخيراً ، بعد العمل فى الفرقة الرئيسية للمخابرات التابعة للجيش الأحمر حيث قام البوليس السرى بفحص سيرته الماضية ، واختبار مبلغ الثقة به ، ألحق بالخدمة فى الخارج وأرسل إلى كندا فى يونيه ١٩٤٣ ،

وحمل معه زوجته « سفتلانا بورسوفنا » الطويلة السوداء الشعر . وبعد وصولهما إلى أتوا بقليل ولد لهما ابنهما أندريه ، وكانت لهم شقة صغيرة فى العمارة رقم ٥١١ بشارع سمرست تطل على حديقة عامة . وكان الجيران يثنون على الزوجين الشابين ، فقد كانا هادئين ، مؤدبين ، وقورين .

ولم يكن في مظهر جوزنكو ما يَشِي بالصراع الذى يمزق روحه ، فقد كان من مرقبه الفذ يرى تفاصيل أعمال التجسس تتراكم أمام عينيه ضد بلد أصبح يزداد احتراماً لأسلوب حياته وإعجاباً به .

ولما انصرف إيجور جوزنكو من مكتبه فى الساعة الثامنة من مساء اليوم الخامس من سبتمبر ١٩٤٥، لم يقطع ما بينه وبين وطنه فحسب ، بل عرض نفسه أيضاً لخطر القتل . وكان طول النهار يعمل كالمحموم ، وهو مطمئن إلى يقينه أن ما يأتيه سيكون جزيل النفع آخر الأمر للشعوب الحرة فى العالم. واختار من الخزانة، ومن أكداس الشفرة ، الوثائق التى تعد مفتاحاً لغيرها ، وكان بعض هذه برقيات ، والبعض يوميات ، والبعض قصاصات ورق ممزق أعطيت له ليحرقها ، وكانت المجموعة كبيرة الحجم ، ولكنه وزعها على جيوبه ، وشبكها بالدبابيس تحت قميصه ، فاستطاع أن يتقى إثارة الشكوك فى نفس حارس الباب ، وهو من رجال البوليس السرى .

وخرج بسلام من الباب ونجا من حارسه ، ومضى فى طريقه لا يتلفت ، وغاب بين الذين يتمشون فى المساء ، دون أن تلفت مشيته أو هيئته النظر إلى شخصه النحيف الدقيق . على أن أعماله كان مقدراً لها أن تكون بالغة القيمة عميقة التأثير فى العلاقات المستقبلة بين الأمم .

وكان قد فكر بعناية فى المهمة التى أخذها على عاتقه ، وكان قد اعتزم أن يكشف عن خطة السوفيت لإنشاء قاعدة للجاسوسية فى كندا — لا ضدها فحسب ، بل ضد الولايات المتحدة وبريطانيا أيضاً . وكان ينوى أن يؤيد أقواله بما لا سبيل إلى نقضه من الوثائق والأدلة ، ولن يطلب فى مقابل ذلك إلا أن تتكفل الحكومة الكندية بحماية زوجته وابنه ، أما هو فقد قدّر الأخطار التى تواجهه ، ورجح أن يقتل قبل أن تتم مهمته .

وذهب جوزنكو إلى دار صحيفة « أتوا جورنال » وطلب أن يقابل رئيس التحرير ، واعتذر عن أن يبين الغرض من المقابلة .

وقيل له : « إن رئيس التحرير ليس هنا . ولكن فى وسعك أن تقابل أحد مساعديه » .

وقال جوزنكو للساعد إن عنده معلومات على أعظم جانب من خطر الشأن ، لا لأهل كندا وحدهم ، بل لسلام العالم واستقراره . وأخرج من جيب سترته ورقة من الأوراق العديدة الرقيقة المكتوبة على الآلة الكاتبة بالروسية ، وقال : «عندي وثائق كثيرة ، وينبغي أن تدرسها » .

واستمر حديثهما نحو ساعة . وكانت رواية جوزنكو ووثائقه من الغرابة بحيث حار المحرر في الأمر ، وأخيراً قال : «يحسن أن تقصد رجال البوليس . فإن هؤلاء ، لا الصحفيين ، هم المختصون بالنظر في مثل هذا الأمر » .

وكانت الساعة قد قاربت العاشرة ، فليس في الوسع عمل شيء قبل صباح اليوم التالي .

وفي صباح اليوم التالي قصد جوزنكو وامرأته إلى وزارة العدل ومكتب المدعي العام — راؤول مرسييه ، فخاطب المسز فرناند جوبارن سكرتيرة المستر مرسييه شارحاً ما فعل وما ينوي أن يفعل ، وأمر زوجته ففتحت حقيبتها التي أصبحت مستودعاً للوثائق .

وقال : « كل شيء هنا ، وفي جملة ذلك معلومات سرية عن القنبلة الذرية . فيجب أن تبلغي حكومتك هذا » .

فقالت المسز جوبارن : « إن المدعي العام في المحكمة ، ولكني سأحاول أن أصلك بالرجال المختصين » .

وطلبت وكيل الوزارة للشئون الخارجية — نورمان روبرتسن — فقال « خله ينتظر ، وسأطلب تعليمات من رئيس الوزارة » .

وكان جوزنكو يريد أن تسمع قصته بسرعة ، فقد كان يعلم أن غيابه عن السفارة الروسية سيثير الشكوك ، غير أن الاتصال برئيسي الوزارة في صباح اليوم السادس من سبتمبر كان عسيراً ، فقد كان ذلك يوم افتتاح دورة جديدة للبرلمان .

وكان النواب في الساعة الحادية عشرة على مقاعدهم ، وما هو إلا أن يدخل رئيس الوزارة وليم ليون ماكنزي كنج حتى تبدأ المراسيم .

وكان كنج في غرفة الانتظار على مقربة من البناء الرئيسي ، فدخل عليه ضابط وأسر إليه شيئاً ، فقصد رئيس الوزارة إلى التلفون .

وقال وكيل الوزارة روبرتسن : «آسف يا سيدي لتعطيلك ، ولكن هذا أمر ليس له سواك » وحدثه عن جوزنكو .

فأجاب ماكنزي كنج — وهذه ألفاظه بالحرف في جلسة البرلمان الكندي ، كما أذيعت فيما بعد — « هذه مسألة يجب أن نكون حيالها في منتهى الحذر . فما ندري

أهذه الوثائق مزيفة أم صحيحة . ولا نعلم شيئاً عن حالة عقله ، أو الظروف التي تدفعه إلى هذا العرض . ولست ارى أن حكومة كندا تستطيع أن تتخذ أية خطوة من شأنها أن تحمل حكومة السوفيت على الاعتقاد أننا نتجسس على شئونها . فقل لهذا الشاب أن يرجع إلى سفارته بالأوراق التي يحملها » .

ولكن رجوع جوزنكو كان قد مضى أوانه ، فلما عاد هو وزوجته إلى شقتهما — رقم ٤ — نظر من النافذة إلى الحديقة وراء الشارع ، فرأى على دكة ما كان يخشى ويتوقع أن يرى : رجلين كان من الواضح أنهما يراقبان نوافذه .

وفى المساء طرق بابه، وسمع صوت الضابط من رجال السفارة يقول : « جوزنكو — افتح الباب ! »

فحبس جوزنكو وزوجته أنفاسهما ، ولكن أندريه الصغير ذهب يدرج على أرض الغرفة فى أثر لعبة ، فتعثر ووقع على الباب . ولم يحاول الضابط لافرنتييف أن يدخل ، ولكنه عرف أن الشقة ليست خالية .

وحمل جوزنكو الطفل وخرج من باب خلفى يؤدى إلى الشرفات الخلفية المشتركة بين الشقق الأخرى فى الدور الثانى .

وكان يجلس فيها جاويش من سلاح الطيران الكندى وزوجته ، وكان يدخن ويقرأ فى صحيفته .

فقال له جوزنكو : « معذرة . هل أستطيع أن أكلمك ؟ »

فرفع الجاويش إليه عينه مستغربا .

وقال : « طبعاً . ماذا تريد ؟ »

« أرجو أن تأخذ ولدى الصغير ليبيت عندك الليلة ، فقد يقع لى ولامرأتى حادث» .

« ماذا عسى أن يحدث ؟ »

« نقتل» . وكان هذا هو الجواب الموجز .

وكان جوزنكو والجاويش واقفين فى الشرفة ، فأبصروا لافرنتييف يمشى فى الشارع ، فامتقع وجه جوزنكو ، وهمس : « هذا هو ! وقد يكون الأفضل أن تأخذ زوجتى أيضاً إلى شقتك » .

وبينما هما يتحادثان أقبلت المسز أندرسن ، وهى سيدة عطوف تسكن الشقة رقم ٦ . فلما سمعت القصة قالت : « إن بيتى يتسع لأسرتك كلها، ولك أيضاً يامستر جوزنكو . وإنه يسعدنى أن يكون مثواكم عندى ما رغبتم » .

وقال الجاويش : « اذهب أنت معها ، وسأدعو البوليس ، فإن هؤلاء القوم لا يجرؤون على اقتحام بيت مواطن كندى» .

كان هذا فى الساعة السابعة، وفى منتصف الساعة الثامنة استجاب للدعوة الشرطيان

توم والش ، وماك كالوك اللذان كانا يجوبان المنطقة فى سيارتهما .

ووجدا أسرة جوزنكو فى الشقة رقم ٦ فعرفهما جوزنكو بنفسه ، وقال إن عنده معلومات على أعظم جانب من خطر الشأن للحكومة ، وسألهما حمايته ، فأكدا له أنهما سيراقبان الشقة .

« دع النور فى الحمام ، فإننا نستطيع أن نراه من الحديقة ، فإذا احتجت إلينا فأطفئه » .

وعادا إلى سيارتهما وانتقلا بها إلى مكان فى الحديقة .

ولم يحدث شىء حتى انتصفت الساعة الثانية عشرة ، فجاء أربعة رجال فى سيارة إلى الدار رقم ٥١١ بشارع ممرست وقصدوا على الفور إلى شقة جوزنكو ، وبدأوا بطرق الباب ، وكان الدق من الشدة والإلحاح بحيث ظن الجاويش أن الطارقين هم الشرطيان، وأنهما عادا للقيام بتحر آخر، ففتح بابه وأطل .

وأدرك أنه أخطأ فهم بإغلاق الباب ولكن أحد الرجال أقبل عليه مسرعا وسأله « أين جوزنكو ؟ »

فألقى إليه الجاويش نظرة جامدة وقال : « من أدرانى يا صاحبى » وأحكم إغلاق الباب .

وعقد الطارقون مؤتمراً فى الرواق ، ثم أهوى الرجال الأربعة بأكتافهم على باب شقة جوزنكو فانفتح .

وكان جوزنكو فى الشقة رقم ٦ يراقب ما يجرى من ثقب قفل الباب، فنهض ومضى إلى الحمام وأطفأ النور .

ورأى الشرطيان فى الحديقة هذه الإشارة، فأسرعا إلى الشقة عدواً ، ووجدا الأنوار كلها مضاءة فى الشقة رقم ٤ ، وأبواب الخزانات كلها مفتوحة . وكان القنصل بافلوف فى إحداها ، والكولونل روجوف فى أخرى ، ومعهما فى الغرفة اثنان من رجال السفارة السوفيتية .

فسألهم والش : « ماذا تصنعون هنا يا قوم ؟ »

فأبرز بافلوف بطاقته وقال إن الحاضرين جميعاً من رجال السفارة ، وإنهم يبحثون عن أوراق رسمية معينة، قال : « إن صاحب الشقة قد برح المدينة ، ولكنه أذن لنا فى الدخول وأخذ ما نريد » .

فأشار والش إلى القفل المكسور ، وكان بعضه لا يزال ملقى على الأرض وقال : « إنها لطريقة عجيبة للدخول ومعكم إذن » .

فهز بافلوف كتفيه : « وقد أضعنا المفتاح . وهذه أشياء تملكها حكومة السوفيت ، فلنا أن نصنع ما نشاء . تفضل بالانصراف » .

فهز الشرطيان رأسهما : « حتى يحضر مفتش » . فشاور القنصل باڤلوف رجاله ، فقرروا أن ينصرفوا ، ولم يحاول الشرطيان منعهم ، فعادوا إلى السفارة السوفيتية .

وقضى آل جوزنكو بقية الليلة فى الشقة رقم ٦ فى رعاية الشرطة .

وبعد طلوع النهار بقليل فى السابع من سبتمبر ، نقل آل جوزنكو الوثائق إلى ديوان الشرطة الكندية ، وأبلغ الضابط س . ت . وود بنفسه رئيس الوزارة ماكنزى كنج ما كان فى الليلة السابقة .

فعاد رئيس الوزارة يبين الحاجة إلى التحرز : « استوثقوا من أن بواعث هذا الرجل لا يرتقى إليها الشك ، وأن وثائقه صحيحة » .

وكان أول ما حاول الضابط وود أن يتبينه هو الدافع لجوزنكو على ما قرره من ترك السفارة السوفيتية .

فكان الجواب : « يسرنى أن أشرح لك ذلك » وهذه أقواله نثبتها هنا لما فيها من عبرة .

« أنا إيجور جوزنكو ، أود أن أفضى بالبيان التالى بمحض إرادتى :

جئت إلى كندا منذ عامين ، فأدهشتنى فى الأيام الأولى الحرية التامة التى يستمتع بها كل فرد فى كندا والتى لا وجود لها فى روسيا .

وكانت الأباطيل التى تذاع فى روسيا عن البلاد الديمقراطية ، تتبدد كل يوم ، فلن تجد دعاية كاذبة تستطيع أن تثبت فى وجه الحقائق .

« وبينما ترى الحكومة السوفيتية تتشدق فى المؤتمرات الدولية بأقوال معسولة عن السلام والأمن ، إذا بها فى الوقت نفسه تستعد لحرب عالمية ثالثة . ولكى تتهيأ لمواجهة هذه الحرب ، شرعت تنشىء فى البلاد الديمقراطية وفى جملتها كندا طابوراً خامساً يساهم فى تنظيمه المشاون الدبلوماسيون لحكومة السوفيت .

« وفى أثناء مقامى فى كندا رأيت كيف أن الشعب الكندى وحكومته يرغبان رغبة صادقة فى أن يساعدا الشعب السوفيتى ، فأرسلا مؤناً إلى الاتحاد السوفيتى ، وجمعا المال فى سبيل الأمة الروسية وخيرها ، وضحيا بحياة أبنائهما لإرسال هذه المعونة فى عرض البحار ، وبدلا من أن تشكر الحكومة السوفيتية هذا الجميل أخذت تتوسع فى أعمال التجسس فى كندا ، وتستعد لطعن كندا من الخلف — وكل هذا بغير علم الأمة الروسية .

«ولما كنت مقتنعاً بأن هذه السياسة ذات الوجهين التي تتبعها حكومة السوفيت حيال البلاد الديمقراطية ، لا تتفق ومصلحة الأمة الروسية، وأنها تعرض المدنية للخطر ، فقد قررت أن أنفض يدى من النظام السوفيتي، وأن أعلن قرارى هذا جهرة » .

وكانت المسألة الثانية هى فحص الوثائق وترجمتها وإثبات صحتها ، وكانت كوماً من الأوراق من كل لون وشكل وحجم ؛ وأدرك الموظفون من نظرة واحدة إلى مقدراها واختلافها أن مهمة ترتيبها ومراجعتها لن تكون سهلة .

وتقرر اتخاذ مقر خاص للعمل فى ثكنات روكليف التابعة للشرطة الكندية ، وهناك بدأت فرقة مكافحة التجسس برياسة المفتش جون ليوبولد تكشف عن قصة من الدس والتآمر والخيانة لا نظير لها فى تاريخ التجسس فى شمال أمريكا .

وفى أثناء ذلك لم تكن السفارة السوفيتية نائمة ، فوجهت إلى حكومة كندا مذكرة وصلت فى الثامن من سبتمبر جاء فيها :

« تخلف عن العمل موظف فى السفارة اسمه إيجور سيرجيفتش جوزنكو من يوم ٦ سبتمبر ، وقد تبين فيما بعد أن إيجور جوزنكو اختلس مقداراً من مال السفارة ، واختفى هو وأسرته .

« وترجو سفارة الاتحاد السوفيتى من وزارة الشئون الخارجية أن تتخذ تدابير سريعة للقبض على إيجور جوزنكو وتسليمه لترحيله » .

فطلبت حكومة كندا تفاصيل عن المبالغ المسروقة ،فلم تجب السفارة بشىء عن هذا. ولكنها فى الرابع عشر من سبتمبر بعثت مذكرة أخرى للاستعجال جاء فيها :

« إن السفارة بناء على تعليمات من حكومة الاتحاد السوفيتى تكرر ما طلبته من حكومة كندا من القبض على جوزنكو وزوجته وتسليمهما بلا محاكمة للسفارة لترحيلهما إلى الاتحاد السوفيتى » .

ولم تكن حكومة كندا فى ذلك الوقت تنوى أن تسلم جوزنكو لأحد ، فقد امتحنت إخلاصه وصحة وثائقه أشد امتحان وأدقه ، فاجتاز الامتحان مرفوع الرأس .

وثبت أن الوثائق غير مزيفة ، وكانت عشرات منها مكتوبة بالحروف الروسية، وقال جوزنكو إنها بخطوط الكولونل زابوتين ، والكولونل روجوف ، والكولونل موتينوف . وقام المحققون بتحريات فى البيوت المختلفة التى كان هؤلاء الضباط

ضيوفاً فيها ، وحصلوا فى أحدها — وهو استراحة للصيد — على دفتر دونت فيه أسماء الضيوف ، وفيه توقيعات كثيرين من رجال الحكومة وموظفى السلك السياسى الذين كانوا ضيوفا فيه ، وفى جملتها أسماء هؤلاء الثلاثة . واستطاع أحد الخبراء بالخط أن يجزم بأن جوزنكو جاء بخطوط صحيحة للموظفين السوفيت .

وتمت تحريات أخرى أيضاً ، فقد جاء جوزنكو بأربع صور لبرقيات أرسلت من لندن إلى أتوا ، وكانت تواريخها ترجع إلى بضعة أسابيع مضت — ٢٤ و ٢٥ و ٣١ من أغسطس . ودلت المراجعة فى ملفات الحكومات الرسمية على أنها نسخ دقيقة لرسائل سرية جداً ، المفروض أنه لا يعرفها سوى الحكومتين البريطانية والكندية .

ولم تعد المسألة مسألة إثبات صدق جوزنكو ، بل استئصال شأفة تغلغل وكلاء السوفيت السريين إلى أخفى شرايين الحكومة الكندية . وكانت الوثائق بمجرد ترجمتها توضع فى ملفات على حسب موضوعها ، وكانت عناوين الملفات مروّعة : الأسلحة الذرية — الرادار — المفرقعات السرية — الجوازات المزورة . وليست هذه سوى بعض الأمثلة .

ولم يحدث قط من قبل فى تاريخ الجاسوسية أن أتيح للدولة التى حيكت لها شباك التجسس أن تطلع على خطة محكمة مؤيدة بالوثائق دفعة واحدة ، بل لقد كانت الأدلة فوق الحاجة ، وملأت الأسماء المستعارة للوكلاء الروسيين والكنديين والبريطانيين والأمريكيين ثلاث صفحات مطبوعة .

فلما كان اليوم الحادى والعشرون من سبتمبر ، كان الخبراء الذين يعملون تحت رياسة المفتش ليوبولد على استعداد لتقديم التقرير إلى رئيس الوزارة .

وقد استهل الضابط تقريره بما يأتى :

« سيدى — إن الأدلة تثبت أن شبكة من الوكلاء يتخذون أسماء مستعارة ، قد وضعت ونظمت للحصول على معلومات سرية من موظفين للحكومة الكندية وهيئاتها . وقد تولى هذه الأعمال بعض رجال السفارة السوفيتية وفقاً لتعليمات صدرت إليهم من موسكو . وكل هؤلاء الوكلاء يعرفون بأسماء مستعارة ، من ذلك على سبيل التمثيل أن الاسم المستعار للكولونل زابوتين ، هو « جرانت » على ما يظهر .

« أما البرنامج الخاص للجاسوسية الموكول للكولونل زابوتين فهو : أولا القنبلة الذرية وتركيبها والرسوم والعمليات الفنية المتعلقة بها ، وثانياً نموذج من اليورانيوم

٢٣٥ والتفاصيل الخاصة بمكان إنتاجه ، وثالثاً مكتبة مجلس الأبحاث القومى ، ورابعاً تنقلات جنود لولايات المتحدة » .

ثم شرح الأغراض الأخرى التى يطلبها جواسيس السوفيت، وهى تشمل موضوعات سرية جداً، مثل القنابل الطائرة والصاروخية، والفتيل الإلكترونى للقذائف ، والرادار ، ومفرقعات فائقة القسوة تعرف باسم « آردكس » .

وتكلم رئيس الوزارة فسأل : « هل لى أن أسأل إلى أى مدى أمكن إدراك هذه المآرب ؟ » فاحتفظ الضابط المقرر بنظرته الجامدة وصوته الهادىء وهو يقول: «سيدى لم يكن هناك إخفاق »

ولما اتضح المعنى ، لزم كبار الموظفين المجتمعين الصمت ذاهلين . فسأل رئيس الوزارة : « هل أفهم من هذا أن بعض تفاصيل السلاح الذرى قد عرف ؟ » .

فتقدم الضابط المقرر بملف وقال : « هذا هو الملف يا سيدى الخاص بالوكيل «أليك» . وفى البرقية رقم ٢٤١ المرسلة إلى موسكو فى التاسع من أغسطس ، نجد الجواب على هذا السؤال » .

« إلى المدير : بيانات مقدمة من أليك ... إنتاج اليورانيوم ٢٣٥ يبلغ أربعمئة جرام فى اليوم فى مصنع الفصل المغناطيسى فى كلنتون . وإنتاج أل «٤٩» يحتمل أن يكون ضعف ذلك . وتعد بعض وحدات « الجرافيت » لإنتاج ٢٥٠ جراما كل يوم ... سلم إلينا أليك بلاتين مع ١٦٢ ميكروجرام من يورانيوم ٢٣٣ — جرانت ».

فسأل رئيس الوزارة : «من يكون أليك هذا ؟ »

فهز الضابط المقرر كتفيه وقال : « لم تعرف شخصيته بعد يا سيدى . والظاهر أنه عالم وثيق الاتصال بمركز هذا العمل . ويستفاد من البرقيتين رقم ٢٤٤ و ١١٩٥٥ إن أليك ينبغى أن يكون فى لندن فى السابع من أكتوبر ليحاول الاتصال بممثل السوفيت هناك ، وأظن أنك ستجد فى هذه البرقيات قرائن لها دلالتها » .

وكانت البرقية رقم ٢٤٤ مؤرخة قبل بضعة أسابيع وهى مرسلة من « جرانت » إلى موسكو وفيها .

« إلى المدير : وضعنا تفاصيل الاجتماع بأليك فى لندن . وسيعمل أليك فى كلية الملك شارع ستراند .

الاجتماعات — ٧ و ١٧ و ٢٧ أكتوبر فى الشارع أمام المتحف البريطانى . الوقت الساعة ١١ مساء،

علامة التعرف : جريدة تحت الإبط الأيسر ، كلمة السر : تحياتى إلى ما يكل . وفى أول سبتمبر يجب أن يطير أليك إلى لندن ، وقبل سفره يقصد إلى مصنع اليورانيوم فى منطقة بتاواوا . وقد قال إنه لا بد أن يعود فى العام القادم ليقضى شهراً فى كندا . أعطيناه خمسمئة ريال . جرانت » .

أما البرقية رقم ١١٩٥٥ فكانت رداً على هذه ، وهذا نصها : « إلى جرانت : الترتيبات الموضوعة للاجتماع غير مرضية ، وأنا أبعث إليك بترتيبات أخرى :

١ — المكان : أمام المتحف البريطانى على شارع جريت رسل على الجانب المقابل له من الشارع . ويقبل أليك من شارع توتنهام كورت ، ويقبل رجل الاتصال من سوثمبتن رو .

٢ — الوقت : الساعة الثامنة .

٣ — إشارة التعارف : يتأبط أليك تحت ذراعه اليسرى جريدة التيمس ، ويحمل رجل الاتصال فى يده اليسرى مجلة بكتشر بوست .

٤ — كلمة السر : رجل الاتصال « ماهو أقصر طريق إلى ستراند؟ » أليك : « تعال معى فإنى ذاهب إلى هناك . المدير » .

وكان من الجلى لرئيس الوزراء ومن معه أن معرفة « أليك » مسألة على أعظم جانب من الاستعجال ، وإلا فإن كل تدبير اتخذ للاطمئنان على سرية القنبلة الذرية وتحسينها وصناعتها قد يصبح عديم القيمة ، غير أن ما كنزى كنج رئيس الوزارة رأى أن المسألة من الدقة بحيث لا يمكن أن تعالج إلا بالتشاور الشخصى بينه وبين الرئيس ترومان ورئيس الوزارة البريطانية أتلى :

وقد قال فيما بعد على سبيل الإيضاح لمجلس العموم الكندى : « لقد كانت مسألة لا يمكن ائتمان البرقيات عليها » .

وفى ٢٨ من سبتمبر غادر مكنزى كنج أتوا ، وفى اليوم التالى عقد مؤتمراً مع الرئيس ترومان فى وشنطن بسط فيه الخطة العامة لمؤامرة التجسس السوفيتى ، ثم استقل الرئيس الكندى الباخرة كوين مارى من ميناء نيويورك .

وكان المستر أتلى رئيس الوزارة البريطانية فى قصر شيكرز مقره الرسمى ، وكان قد أبلغ الغرض من رحلة كنج وعرف وجه الاستعجال فيها ، فدعا كنج إلى الحضور على الفور ، وقبل أن تمضى بضع ساعات دعى كبير رجال اسكتلنديارد إلى قصر شيكرز .

ووكل إلى الليوتننت كولونل ليناردبرت

من رجال الفرع الخاص باسكتلنديارد مهمة الاهتداء إلى شخصية أليك، والإشراف على مراقبة الاجتماع السرى الذى سيعقد فى مساء اليوم التالى السابع من أكتوبر. فبعث الكولونل برت فى طلب مفتش البوليس السرى ولیم وايتهيد ، ودرسا معاً القرائن التى تضمنتها برقيات موسكو .

وكان من الأنباء البالغة القيمة أن أليك سيعمل فى كلية الملك بشارع ستراند .

« وإذا كان يعرف أى شىء عن النشاط الذرى فالأرجح أنه من علماء الطبيعة . فلنبحث هل سافر إلى كندا أخيراً أى واحد من رجال هذه الكلية » .

وقصد برت ووايتهيد إلى كلية الملك ، فقال لهما رئيس قسم الطبيعة على الفور : « إنه الدكتور ماى ، فقد كان يعمل فى مشروع الطاقة الذرية فى مونتريل » .

فبحث برت فى صفحات سجل الكلية فوجد فيه هذه النبذة : « الدكتور ألن نان ماى ، معيد بالجامعة ، ستافورد تيراس كنجستن . أقدم الأعضاء فى قسم الطبيعة الذرية فى شركة الصناعات الكيميائية » .

فهل هذا هو أليك الذى ورد ذكره فى برقيات موسكو ؟ وظهر من صورته أنه رجل قصير أصلع ضيق العينين، وله شاربان، ويتخذ نظارات لها إطار معدنى. وكاد يكون مما لا يصدق أن يكون هذا الرجل الوديع المظهر فى مقام يهدد أمن العالم .

على أن الخطوة التالية كانت مع ذلك واضحة، فأرسل لفيف من الرجال إلى ستافورد تيراس، وهو شارع هادىء فيه صفوف من المساكن ، وسرعان ما صارت العيون المختبئة بحيث تستطيع أن ترقب العالم الطبيعى ، ووضعت ترتيبات أخرى لمراقبة منطقة المتحف البريطانى .

ولما دنا موعد الاجتماع ، كان الذى يراقب الدكتور ماى يراه على كرسى يدخن وقدماه فى نعلين ، أمام نافذة بيته فى الدور الأرضى ، وإذا كان مشغولا بشىء آخر أهم من الكتاب الذى يقرأ فيه ، فإن ذلك لم يبد عليه ، فما تحرك بعد أن جاوزت الساعة الثامنة ، ولم يحدث شىء حول المتحف أيضا .

وتلقى الكولونيل برت التقارير من فريق المراقبة ، فأدرك أن الأمور — على الأقل فى الوقت الحاضر — لا متقدَّم فيها ولا متأخَّر .

وأرسلت من اسكتلنديارد رسالة إلى الشرطة الكندية لتستقصى مبلغ انطباق رحلات الدكتور ماى على ما ورد عن أليك فى برقية « جرانت » رقم ٢٤١ إلى المدير فى موسكو .

وكان رئيس مشروع الطاقة الذرية فى مونتريل وتشوك ريفر حيث مصنع بتاواوا هو الدكتور دوجلاس كوكروفت وهو عالم ذو شهرة دولية . وقد أظهرت سجلات الدكتور كوكروفت ، أن الدكتور ماى زار مصنع بتاواوا مرتين ، وكانت الثانية فى الثالث من ديسمبر ، وأنه قام بعدة رحلات أيضاً إلى معامل الأبحاث الذرية فى مدينة شيكاغو حيث اشترك فى تجارب مع علماء الولايات المتحدة . وقد سافر إلى إنجلترا بعد بضعة أيام من زيارته لمصنع بتاواوا فى الثالث من سبتمبر ، والمقرر — كما ورد فى البرقية — أن يعود فى العام المقبل ليقضى شهراً هناك .

ولم يكن ثمة عالم آخر جرى على نفس هذا النهج ، أو ينوى أن يعود فى العام القادم ! فالأمر واضح إذن .

وأرسلت المعلومات الخاصة بالدكتور ماى إلى مركز الأبحاث الذرية بوشنطن حيث عرضت على الفور على الجنرال ليزلى جروفز .

ومن المبادىء الأساسية فى قلم المخابرات العسكرية للولايات المتحدة ، أن الذين يعملون فى المشروعات السرية لا يجوز أن يطلعوا على أكثر مما يحتاجون إليه لمباشرة عملهم . وهكذا حدث قبل شهور ، أنه لما اقترح مجلس الأبحاث القومى فى كندا أن يسمح للدكتور ماى بزيارة الولايات المتحدة لمدة شهر ، عرض الطلب على الجنرال جردوفز نفسه .

فبعث الجنرال جروفز يطلب الملف الخاص بالدكتور ماى ، فوجد فيه أن الدكتور ماى سبق له أن زار معامل الأبحاث الذرية بشيكاغو ثلاث مرات ، «وأن زيارته الثالثة وقعت بين ٢٥ من سبتمبر و ٣٠ من أكتوبر ١٩٤٤ . وقد قام بعمل واسع النطاق بالتعاون مع غيره من العلماء فى ميدان سرى جداً وعلى جانب عظيم من الخطر . وأسفرت رحلته عن رسالة علمية شاركه فيها عالم أمريكى » .

وبدا للجنرال جروفز أن زيارة رابعة يقوم بها الدكتور ماى تجىء مناقضة للمبادىء التى يتطلبها الاطمئنان والأمن ، لأنها تسمح له بأن يطلع على أكثر مما يجب مما يجرى فى أجزاء شتى من مشروع الطاقة الذرية ، ومن أجل ذلك كان رده ــ بلطف ولكن بحزم : « كلا ! » .

وإذا كانت أسرار خطيرة فى ميدان الطاقة الذرية لا تزال فى أمان ، فإن فضلا كبيراً يرجع إلى ما قرره الجنرال جروفز من إقصاء الدكتور ماى . فقد قالت لجنة التحقيق الكندية الملكية : « لقد أخفق

السوفيت في الحصول على تفاصيل صنع القنبلة الذرية ... لأنه لم يكن في كندا أحد يستطيع أن يطلعهم على ذلك » .

وفي أثناء ذلك كان الدكتور ماي في لندن تحت المراقبة الدائمة، فأحصيت عليه وسجلت كل حركة في وقتها . ومرت الأسابيع فصار من الجلي أن الأمر لا يخرج عن احتمالين : أنه لا يبذل مجهوداً للاستجابة لبرقية موسكو ، أو أنه تلقى تحذيراً فسكن . ولكن إذا كان رؤساء الجواسيس لا يستعجلون ، فإن اسكتلنديارد تستطيع أن تقابل صبرهم بمثله، مضافاً إلى ذلك دؤوبها وصدق عزمها .

وواصل رئيس الوزارة الكندية ماكنزى كنج فحص هذه الوثائق وما لها من شأن سياسي خطير، مع المستر آتلي رئيس وزارة بريطانيا والمستر بيفن وزير الخارجية . ولما كان مقرراً أن يجتمع ممثلو الدول الكبرى الأربع في ديسمبر ، فقد أدركوا أن أي كشف قبل الأوان عن مؤامرة التجسس ، قد يقضي على كل أمل في الاتفاق . وبلغ من تعقد المسألة أن قرر كنج وأتلي أن يعبرا المحيط ويباحثا الرئيس ترومان .

ويبدو الآن أن رد الفعل في موسكو للاجتماع الذي دام ثلاثة أيام ، كان لا يخلو من دلالة. فبينما كان ترومان وأتلي وكنج مجتمعين على ظهر اليخت سيكويا الراسي في مياه نهر البوتوماك ، كان السوفيت يحتفلون بالعيد الثامن والعشرين للثورة، وخطب مولوتوف ثمانين دقيقة فقال بصراحة :

« ليس من الممكن في الوقت الحاضر أن يظل أي سر فني ذي قيمة كبيرة ملكاً مقصوراً على دولة واحدة أو أية دائرة ضيقة من الدول . وسوف نظفر بالطاقة الذرية وعدة أشياء أخرى أيضاً » .

ولما عاد كنج إلى أتوا صحبه أتلي ليطلع بنفسه على كل ما جد في هذا الموضوع .

وكان أول هم للمحققين أن يتقوا إزعاج الكولونل زابوتين ، إلى حد يدفعه إلى تنبيه المتآمرين في كندا وتحذيرهم . ومع أن الملحق العسكري الروسي عرف أن بعض الوثائق فقدت ، إلا أنه كان من المعتقد أن الملحق لا يدري أن جوزنكو جاء بملف البرقيات التي سلمت إليه قبل شهور ليحرقها. وكان مما يعتمد عليه المحققون أيضاً خوف زابوتين من عقاب موسكو له . وعلى هذا فإن من الممكن أن يكون الكولونل زابوتين — خوفاً منه على حياته — قد هوّن من أمر الوثائق الضائعة، وأنه كتب في تقريره أن الحادثة كانت « اختلاس أموال » ،

كما دلت على ذلك البرقيات الدبلوماسية المتبادلة .

ومهما يكن من ذلك فإن الواقع أنه فى شهور سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر كان الكولونل زابوتين وأعوانه يتصرفون كأنه لم يحدث شىء .

وفى خريف ١٩٤٥ حصل تقدم عظيم فى الاهتداء إلى رؤساء فى جماعة التجسس .

وكان بين الوثائق سجل للرسائل رتب فيه زابوتين كل ما بعث به إلى موسكو فى الخامس من يناير ١٩٤٥ ، وقد أدرك المفتش ليوبولد أن هذا هو مفتاح السر كله، لأنه كشف عن نوع المعلومات المرسلة ، وذكر المصادر أيضاً .

وكانت الرسالة رقم ١٧٥ باسم « نورا » وهى تشتمل على برقيات رقم ١٠ واستفهامات رقم ٣ وصور شمسية رقم ١١ » . وتذكر جوزنكو أنه كتب البرقيات بالشفرة ، وكان قد أمر بأن يحرق الأصول ولكنه أخذها من الخزانة ، وهى الآن فى يد الحكومة الكندية .

وكانت الأصول عبارة عن نسخ من برقيات سرية واردة من إنجلترا ، ولا تزال محتوياتها إلى اليوم من خطر الشأن بحيث لا يمكن إذاعتها . وفيها أمور لا تتعلق بكندا وحدها ، وإنما ائتمنت عليها كندا من حكومات أخرى . فلما لم تسد هذه الثغرة ، فإن الضرر قد يصيب العلاقات بين كندا والدول الصديقة . ومن أجل هذا كان الاهتداء إلى «نورا» مسألة لها المقام الأول.

وكان من حسن الحظ أن جوزنكو عرف اسمها — « إمّا وويكن ».وقد شهد فى هذا بما يأتى :

ج — كل ما أعرفه عن إمّا وويكن أنها تعرفت بالماجور سوكولوف ، فاقترح عليه الكولونل زابوتين أن ينتفع بها (جاسوسة) .

س — هل كنت حاضراً ؟

ج — نعم ، كنت فى الغرفة واقترح سوكولوف أن يعرض عليها أن تعمل جاسوسة فى أكتوبر ١٩٤٤ ، على أنه استخدمها قبل ذلك بكثير . وقد قالت إنها قد تستطيع أن تعمل كاتبة اختزال أو كاتبة فى مكتب المستشار التجارى ، وإنها تحب روسيا وتودّ أن تساعدها .

وفى وزارة الشئون الخارجية الكندية أخرج كاتب فى قسم المستخدمين ملف إما وويكن، فإذا فيه أنها موظفة فى قسم الشفرة منذ فبراير ١٩٤٤ ، ويشهد رؤساؤها بأنها موظفة هادئة مجتهدة .

وظهر من سيرة حياتها أنها ولدت في ١٩٢٠ في ولاية ساسكتشوان بكندا من أبوين روسيين . وفي سنة ١٩٤٣ اجتازت امتحان خدمة الحكومة في الاختزال ، وهي تتكلم الروسية والإنجليزية . وقد عينت في مصلحة الجوازات ، ثم نقلت فيما بعد إلى قسم الشفرة ، حيث كانت تطلع على جميع البرقيات الدبلوماسية وعلى نظام الشفرة أيضاً .

وفي اليوم التالي حين حضرت إمّا إلى مكتبها وجدت أنها أعيدت إلى قسم الجوازات. فسألت : « ماذا حدث ؟ أليس يرضيهم عملي ؟ »

« لا لا . لا شيء من ذلك — أظن أن الموظفين قليلون في مصلحة الجوازات ، وهم هناك مفتقرون إلى فتاة مجربة مثلك » .

وبهذه الطريقة طمع أولو الأمر في سدّ الثغرة ، وفي أن يخفوا في الوقت نفسه مبلغ ما وقفوا عليه وعرفوه . وكان هناك وكلاء كثيرون لا تزال شخصياتهم مجهولة ، فليس من الحكمة المخاطرة بعمل يحملهم على المبادرة إلى التستر .

وبعد الانتهاء من أمر « نورا » راجع المفتش ليوبولد مرة أخرى مفتاح لغز الجاسوسية — سجل الرسائل في يوم ٥ فبراير ١٩٤٥ — وفيه مذكرة رقم ١٠٦ ، وأخرى رقم ١١٠ مكتوب عليها أنهما « صورة » و « صورة مختصرة » من رسائل سرية من السفير الكندي في موسكو إلى رئيس الوزارة ماكنزي كنج ، وأن « إيلي » هو المصدر .

وكان جوزنكو قد حمل معه فضلا عن ذلك برقية من المدير في موسكو إلى الكولونل زابوتين يشير فيها إلى « إيلي » .

فسأله المفتش ليوبولد : « من كانت إيلي هذه ؟ »

فقال : « قبل أن أترك السفارة، ألقيت نظرة على الملف الخاص بها — اسمها ويلشر ، وهي تعمل في مكتب المندوب السامي لبريطانيا هنا في أتوا » .

وكان المندوب السامي البريطاني في كندا هو مالكوم ماكدونالد ابن رئيس الوزارة البريطانية الأسبق رامزي ماكدونالد ،وقد راعه أن يكون أحد موظفيه محل ارتياب .

وكانت الموظفة الوحيدة عنده التي تعرف باسم ويلشر ، هي كاثلين ماري ويلشر ، وكانت تطلع على كل رسالة واردة أو صادرة ، وعلى البرقيات ، واللفات السرية . وكانت فوق الأربعين بقليل ، وهي هادئة رقيقة الكلام ، وعملها متقن ، وكان مظهرها أقرب إلى مدرّسة حسنة الوجه منه إلى الجاسوسة .

ولما كانت الحاجة إلى التكتم لا تزال

شديدة بحيث لا يمكن حتى أن تستجوب . فقد كانت الوسيلة الوحيدة الباقية أمام أولى الأمر هى أن يضعوها تحت المراقبة ، وأن يغيروا عملها تدريجاً حتى لا يتيسر لها بعد ذلك الحصول على معلومات مهمة .

أما وقد عرف « أليك » و « نورا » و « إيلى » وصاروا تحت المراقبة ، فقد راجع ليوبولد طائفة من الأسماء الأخرى — « باك » و « باجلى » و « وبادو » . وكان فريق « ب » قد تغلغل إلى مجلس الأبحاث القومية — حارس أسرار القنبلة الذرية .

ومن حسن الحظ أن جوزنكو كان قد نقل معه من السفارة وثيقة فيها بيان لنشاط هـذا الفريق ، وورقة مكتوبة باللغـة الإنجليزية على الآلة الكاتبة ، فى أسفلها هذا التحذير : « احرقها بعد درسها » ، وهى تحوى التعليمات السرية الصادرة إلى «باك» ، رئيس فريق «ب» ، من مساعد الكولونل زابوتين ، الليوتننت كولونل روجوف . وفيها ما يلى :

« رموز فريقك ستكون :

«جان (روجوف) .

«باك (اسم مستعار) ـ ج . لونان بادو ـ دورنفورث سميث باجلى ـ نيد مازيرول .

«وأنت وحدك الذى يعرفنى باسم (جان) ولا يعرفه غيرك » .

ولم يحتج المفتش ليوبولد أن يراجع دفتر تلفونات أتوا من أجل لونان ، فقـد كان فى الملف المأخوذ من السفارة الروسـية عنوانه وصناعته ـ مراسل للجريدة العسكرية «الشئون الكندية» . وجاء فى أحد السطور «مدة العمل فى الشبكة* من مارس ١٩٤٥» .

ولكى يكون الملف أوفى ، كان فيه تقرير من «باك» إلى روجوف مؤرخ فى ٢٨ مارس بعد أسابيع قليلة من دخوله فى الشبكة ، ويستفاد منه أن السوفيت ، قبل إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما بشهور ، تنبهوا إلى جهود كندا والولايات المتحدة لحل مشكلات الطاقة الذرية .

«فهمنا تعليماتك المكتوبة ، وقد تم عمل تمهيدى فى المهمات الخاصة المعينة وقد أخبرنى بادو أن هذا العمل السرى يجرى فى الوقت الحاضر فى طبيعـة نواة الذرة ـ قذف المواد ذات النشاط الإشعاعى لتوليد الطاقة . والتكتم فى هذا أشد منه فيما يتعلق بالرادار ، والعمل يجرى فى جامعـة مونتريل وجامعة ماك ماستر . وسنوافيكم فيما بعد بتفاصيل أوفى . باك . »

* الشبكة يراد بها هيئة الجاسوسية السوفيتية .

وكانت هناك وثائق أخرى ، اثنتان منهما تبرزان بروزاً قوياً ، الأولى بخط روجوف عن بادو وفيها :

« يطلب بادو الإذن فى التحول إلى العمل الخاص باليورانيوم » .

والثانية برقية من برقيات « جرانت » إلى المدير ، وقد جاء فيها :

« تلقينا من بادو ١٧ وثيقة من الوثائق البالغة السرية،والسرية،وهى إنجليزية وأمريكية وكندية ،وتبلغ فى جملتها نحو ٧٠٠صفحة.واستطعنا فى خلال اليوم أن نصور كل الوثائق ، وفى الأيام التالية القليلة سنتلقى مثل هذا القدر من الوثائق تقريباً لمدة تتراوح بين ثلاث ساعات وخمس ساعات.وأرى من الجوهرى أن نفحص كل ما فى مكتبة الأبحاث . جرانت» .

وقد أدهش عظم نطاق هذا السعى المفتش ليوبولد نفسه .

وعين المفتش رجالا ليعرفوا المقر الراهن لكل من « باك » و « بادو » و « باجلى » ومراقبتهم . وقد ظهر أن لونان (باك) لايزال يعمل محرراً فى صحيفة « الشئون الكندية » . ولما كان رجل اتصال وحسب ، وليس له سبيل إلى الوقوف على معلومات سرية فى ميدان عمله ، فقد رؤى أنه ليس من الضرورى السعى إلى نقله من عمله بأوامر من الجهات العليا .

ولم يكن أحد فى مجلس الأبحاث القومى يعرف باسم دورنفورث سميث (بادو)، ولكن كان هناك من يدعى درنفورد سميث وهو متخرج من جامعة ماك جيل فى الرياضيات والطبيعة ، وقد عمل خمس سنوات فى شركة بل للتلفونات بمونتريل ، قبل أن يلتحق بمجلس الأبحاث . ولما كان عمله يسمح له بالاطلاع على السجلات السرية ، فقد اتخذت التدابير لنقله إلى مكان آخر .

وكان الذى أقصى بعد ذلك هو «باجلى» — نيد مازيرول، الذى ظهر أنه إدوارد ولفريد مازيرول ، وهو يحمل درجة بكالوريوس علوم فى الهندسة الكهربائية ، وعضو فى المعهد الأمريكى للمهندسين الكهربائيين ، وقد اشتغل بشركة وستنجهاوس الكندية وهيئة الإذاعة الكندية ، وفى سنة ١٩٤٢ التحق بمجلس الأبحاث القومى فى القسم الخاص بالرادار . وهو رجل طويل عريض الكتفين كبير الرأس منفوش الشعر ، وقد تزوج موسيقية كندية مشهورة بعزفها على البيانو .

وقد وجدت فى مذكرات شتى كتبها الكولونل روجوف ، عبارات تدل على أنه فى الرابع من إبريل دفع المبالغ الآتية : « باك » مئة ريال ، « بادو » خمسين

ريالا ، « باجلى » ثلاثين ريالا . وفى الثانى من مايو مذكرة أخرى تدل على أن مئة ريال دفعت إلى « باك » .

وكانت المبالغ من الضآلة بحيث كان من الجلى أن المال نفسه لم يكن هو الذى أغرى الوكلاء السريين بأن يفعلوا ما فعلوا ، فهناك باعث على الخيانة أسوأ من الرشوة .

وقد يسر دفتر البريد الخاص بزابوتين الوسيلة إلى معرفته أحد الرؤوس وراء المؤامرة كلها . فقد كان فيه هذه المذكرة :

« ١٠٨ — ديبوز — مذكرات
— قرارات الجلسات السرية للبرلمان
— صفحة ١ »

وكان البرلمان قد عقد جلسة سرية فى ٢٥ نوفمبر ١٩٤٤ بحث فيها موضوع توزيع القوات الكندية على وجه جديد بعد انهيار ألمانيا .

وكان قد وضع نظام فهرس دقيق معقد لتعقب الأسماء الرمزية العديدة التى ظهرت فى القضية ، وقد تطلب هذا أخذ عدة صور من كل وثيقة بحيث صارت القرائن الخاصة بكل اسم مجتمعة فى ملف واحد ، وكان بعض اللفات يبدو خاليا ، والبعض يكاد يحطم ما يمسكه من غلاف معدنى ، وبين هذه ملف « ديبوز »

وقد شعر المفتش ليوبولد بالعطف على الصناع القدماء الذين كانوا يصوغون الفسيفساء من قطع كثيرة ملونة من الحجر والزجاج، فإنه هو أيضاً يجمع القطع الصغيرة من الأخبار ويحاول أن يرسم صورة « لديبوز » ، وكان من بين القطع النقط الآتية التى كانت أبعث من سواها على الأمل.

والأولى هى :

« إلى المدير
« أعيد انتخاب ديبوز للمرة الثانية عضواً فى برلمان الاتحاد الكندى ، وهكذا صار لنا هناك عضو من الأعوان . جرانت » .

والثانية سطر واحد من مفكرة للكولونل روجوف ، وهو :

« فريد ديبوز ـ تكلم بصفه عامة »

والثالثة فى صحيفة ممزقة من المفكرة التى سلمها الكولونل زابوتين لجوزنكو ليحرقها وهى :

« فريد — مدير الاتحاد . كان يشتغل قبل ذلك عند الجيران » .

والرابعة إشارة أخرى من المفكرة الممزقة :

« الاتصال فى وشنطن بشخص ديبوز ، لوضع ترتيبات للاجتماع ، صرف ٦٠٠ ريال » .

والخامسة أيضاً من الصفحات الممزقة :
«عمل فريد ـ الجماعة فى مونتريل
(العاملين) » .

فما معنى كل هذا الكلام المختلط ؟ وجه المفتش ليوبولد السؤال إلى جوزنكو ، فقال إن كلمة « الأعوان » التى وردت فى العبارة الأولى هى الكلمة الرمزية للحزب الشيوعى ، وظهر من العبارة الثانية أن « ديبوز » كان يعرف أيضاً باسم «فريد» ، والعبارة الثالثة التى وردت فيها كلمة «الجيران» دلت على أن « فريد » كان يعمل من قبل للبوليس السرى ، وكشفت الرابعة عن أن « ديبوز » وكل إليه أن يتصل فى الولايات المتحدة بوكيل فى وشنطن ، وأظهرت العبارة الخامسة أن « فريد » رئيس الجماعة من العاملين فى مونتريل .

وبهذه التفسيرات أصبح فى وسع القارىء العادى للصحف الكندية أن يحل لغز شخصية « ديبوز ـ فريد » فما كان هناك سوى عضو شيوعى واحد فى البرلمان هو فريد روز من مونتريل .

وروز هذا رجل قصير حادّ الطبع جاء إلى كندا من لوبلن فى بولندة ، مع أبويه ، وكان يومئذ فى الثالثة عشرة ، واكتسب الجنسية الكندية فى ١٩٢٦ ، وانضم إلى عصبة الشباب الشيوعى ، وصار السكرتير العام فى ١٩٢٩ ، وزار روسيا فى ١٩٣٠ ، وفى ١٩٣١ حكم عليه فى قضية فتنة وسجن سنة .

وكان فى أول الأمر كزملائه الشيوعيين يعترض أشد اعتراض على الحرب مع ألمانيا ، فصدر الأمر باعتقاله ، ولكنه ظل مختبئاً إلى سبتمبر ١٩٤٢ حين سلم نفسه ، وعينت لجنة استشارية من كبار الكنديين لإعادة النظر فى أمره فجاء فى تقريرها :

« ومع أن اللجنة لم تتأثر برأيه وما يقدّره لنفسه من خطر الشأن ، إلا أنها ترى أنه سيتبع نهج الحزب فى تأييد مجهود كندا الحربى ، وأن إطلاق سراحه صار لا يسىء إلى سلامة الدولة » .

وإذا روعى ما حدث بعد ذلك تبين أن ماذهبت إليه اللجنة كان إسرافاً فى التفاؤل .

وفى السادس من أكتوبر ١٩٤٢ وقّع روز عهداً بأن لا يشترك فى نشاط الحزب الشيوعى فى كندا أو أية هيئة يسيطر عليها الحزب ، وأقسم أن يحرص على اجتناب الإفضاء بأى معلومات تتعلق بالحرب ، ووعد أيضاً بأن لا يأتى « أى عمل من شأنه أن يسيء إلى كندا أو إلى حلفائها » .

وما كاد حبر توقيعه يجفُّ حتى نكث عهده ، لفظاً ومعنى ، فلم يكتف بالقيام بدور رئيس فى تنظيم جماعة « ب » من

الوكلاء فى مجلس الأبحاث القومى ، بل كان على صلة بأربع عشرة جماعة أخرى كان يزوّدها بالتعليمات والمشورة .

ولم يتخذ أى تدبير من شأنه أن ينبه فريد روز عضو البرلمان إلى أن دوره المزدوج قد انكشف ، فظل يظهر فى مجلس العموم ، ويشغل مكتبه فى دار البرلمان ، ويقيم فى مسكنه الحسن مع زوجته وابنته ، ولكن اتصالاته صارت تحت المراقبة ، ولم تكن تمضى لحظة من الليل أو النهار لا يعرف فيها أحد المخبرين أين هو ، وماذا يصنع .

وفى هـذا الدور اتضحت شخصيات عضوين من الأعضاء الرئيسيين فى جماعة روز التى كانت تسمى « فريق مونتريل » .

ويجب أن يعرف القارىء أن جوزنكو وإن كان قد انتقى وثائق السفارة ببراعة مدهشة وحكمة عظيمة ، لم ير قط أحداً من الوكلاء الكنديين . فلم يكن يستطيع أن يشير إلى شخص ما ، ويقول هذا هو الذى يسمى كذا أو كذا فى التقرير الفلانى ، فكان على الذين يقومون بالتحرى أن يبحثوا بأنفسهم عن القرائن فى الوثائق ، وكان معوّلهم على الاجتهاد فى البحث .

وكان الذى هداهم إلى الأثر الدال على أول الوكلاء بمونتريل ، فقرة من مفكرة الكولونل زابوتين :

« فريق مونتريل (العاملين)

« جراى : رئيس قسم الإدارة الخاصة بتوفير مواد الحرب للحلفاء . يحسن العمل . يقدم معلومات عن القذائف والمدافع » .

وبقية الملف الخاص بجراى غاصٌّ ، وهو يدل على أنه مصدر فياض بالتقارير السرية عن القـذائف والمدافع والمفرقعات . وقد عثر المفتش ليوبولد على خـير القرائن فى وثيقتين : الأولى برقية يتناول فيها الكولونل زابوتين إمكان اتخاذ جراى وكيلا سرياً فيما بعد الحرب ، وقد دلت البرقية على أن « جراى » مهندس جيولوجى وأن مرتبه من وظيفته ٤٢٠٠ ريال .

وقد دون المفتش ليوبولد على رقعة صغيرة ما يأتى : « مهندس جيولوجى — المرتب ٤٢٠٠ ريال — ربما كان رئيس فرع فى قسم الذخائر والمؤن » ، وشبك هذه الرقعة بالوثيقة الثانيـة ، وهى صفحة منتزعة من المفكرة المفككة ، ومكتوبة باليـد باللغة الإنجليزية ، وفيها بيان « للإجراءات السرية فى مكتب المهمات » وكتب المفتش على رقعته « يراجع خط اليد » .

ثم تولى محقق مدنى الشباب من رجال الشرطة الكندية بحث ملفات فرع الذخائر

فى قسم الذخائر والمؤن ، فعثر على أصل الوثيقة ، وكانت رقم ٣١٫٧١٩ فى ملف سرى لمكتب المهمات . وظهر من السجلات أن هذه الوثيقة أعطيت لمن يدعى هارولد س . جيرسون ، وهو رئيس قسم ، وكان توقيعه مطابقاً للخط التى كتبت به الصفحات التى جاء بها جوزنكو من السفارة الروسية .

وجيرسون هذا من مواليد كندا ومن أبوين روسيين ، وكان مهندساً جيولوجياً ناجحاً فى عدة شركات للتعدين قبل الحرب ، وهو الآن رئيس قسم فى مصلحة الذخائر والتموين كما خمّن المفتش ليوبولد ، ويتقاضى ٤٢٠٠ ريال فى العام .

ولما ذهب رجال التحرى ليراقبوه ألفوه رجلا رَبْعة مدمناً تدخين الغليون ، وشعره أصفر جعد ، وعلى عينيه نظارة ذات إطار معدنى ، وهو فى هيئته أشبه بمدرس رقيق القلب فى جامعة . وكان من العسير — كما هو الشأن فى غيره من أفراد العصابة — أن يقرن الإنسان شخصية هـذا الرجل الظريف الذكى الركين بشخصية جراى الذى سجلت وثائق السفارة نصيبه من المؤامرة ، وقد وضع كغيره تحت المراقبة إلى أن يحين الوقت للانقضاض عليهم .

وعاد المحققون إلى مذكرة الكولونل زابوتين فراعهم ، وهم ماضون فى العمل ، أن يجدوا كل هذا العدد الكبير من ذوى الشهرة العالية على صلة بالمؤامرة . وكان أسوأ وجه للأمر كله فيما يرى المعنيّون بسلامة الدولة ، أن وكلاء السوفيت استطاعوا أن يجدوا أشخاصاً أذكياء موهوبين مستعدين لخيانة بلادهم .

وبلغ من عمق وقع هـذه الظاهرة أن اضطر ونستن تشرشل أن يصرح فى مجلس العموم بقوله : « إن بلاداً كثيرة تسعى للحصول على معلومات عن شئون البلاد الأخرى — ولا شىء فى هـذا ، ولكن الفرق بين النظام السوفيتى وغيره من النظم ، هو أن الجماعة الشيوعية ترى أن من الأمور التى ترتفع إلى منزلة العقيدة الدينية أن يضحى الإنسان بوطنه فى سبيل الغاية الشيوعية » .

وإلى هنا كان الباحثون يسيرون سيراً رُخاءً إلى حدّ ما ، فقد استطاعوا أن يهتدو إلى كل واحـد من أصحاب الأسماء المستعارة وأن يراقبوه ، أما الآن فقـد شرعوا يعالجون ما هو أشقّ وأعوص .

مثال ذلك أنه كان هناك وكلاء فى « فرقة مونتريل » التابعة لفريد روز تبدأ أسماؤهم بحرف « ج » ، وأحدهم يعمل فى مصنع للدبابات ، ومنهم صاحب صيدلية ،

ومنهم أيضاً سيدة هى زوجة بدال ، وإلى اليوم لم يتيسر الاهتداء إليهم .

وقضى رجال الشرطة الكندية ثلاثة شهور يرتادون تيه القرائن المتعلقة بعصبة التجسس ، وكشفوا عن مقدار من الأدلة لا يكاد يصدقه العقل . وكان ما كنزى كنج رئيس الوزارة ، وهو يرى دلائل الإثبات تتضخم بين أيدى المحققين ، ويجعل باله إلى الحالة الدولية العاصفة ، يتساءل حتى متى يستطيع أن يرجىء القيام بعمل حاسم ؟

وجاء أول نذير بالمتاعب فى الأسبوع الأول من ديسمبر ١٩٤٥ ، إذ غادر الكولونل زابوتين كندا فجأة ، ولم يبلغ الحكومة الكندية التى يمثل دولته لديها ، وقد ظلت الباخرة السوفيتية (ألكسندر سوفوروف) راسية فى ميناء نيويورك حتى صعد إليها ، وكان حرس الجمرك فى الولايات المتحدة هم آخر من عُرف أنهم رأوه حيًّا ، فقد شاع بعد ذلك أنه أصيب « بأزمة فى القلب » قضت عليه بعد أن عاد إلى موسكو بقليل .

وبعد بضعة أيام طاف ج . ن . زاروبين السفير الروسى بمكاتب الحكومة الكندية ، وقال إنه عائد إلى موسكو لاستشارات عادية ، وإنه لا يقول « وداعاً » بل « إلى الملتقى » ، ولكنه لم يعد بعدها .

وكان من الجلى أن موظفى السوفيت أدركوا الآن فى أى شىء تستخدم وثائق جوزنكو ، وفى مستهل ١٩٤٦ صار من الواضح أن الحوادث صائرة إلى أزمة ، فقد أخفق مؤتمر وزراء الخارجية بموسكو ، وفى الخامس من فبراير صدر مرسوم رقم ٤١١ عهد بقضية التجسس إلى لجنة تحقيق ملكية يرأسها اثنان من قضاة المحكمة العليا بكندا ، هما القاضى روبرت تاشيرو ، والقاضى ر . ل . كيلوك .

واللجنة الملكية — مادامت منعقدة — تعد هيئة مستقلة تمام الاستقلال ، وقراراتها لا يعاد فيها النظر ، ولا تراجع ولا تستأنف . ووظيفتها أن تقوم بالتحقيق وأن تقدم تقريرها إلى الحاكم العام فى مجلسه ، وهى صاحبة الرأى — على خلاف المحكمة — فى الإجراءات التى تتبعها ، ولها أن تتلقى أى شهادة أو دليل تشاء ، وهى من هذه الوجهة أقدر على تبين الحقائق من المحكمة المقيدة بقواعد صارمة فيما يتعلق بجواز قبول الإثبات . غير أن اللجنة لا تستطيع تنفيذ ما تنتهى إليه من النتائج ، فإذا أدى تقريرها إلى إقامة الدعوى كان بها ، لأن المحاكم وحدها هى التى لها الحق فى توقيع العقوبات .

وكان التكتم لا يزال مرعياً ، لأن تسربه

أى خبر قد يحبط الأمر كله ، على أنه فى صباح اليوم الرابع عشر من فبراير أوفد مستشار اللجنة الملكية رسولا إلى وزارة العدل يطلب القبض على اثنى عشر رجلا من الذين تعقب نشاطهم رجال المباحث ، ومع أن أوامر القبض وأسماء المقبوض عليهم ستظل سرية ، إلا أن رئيس الوزارة أدرك أن مثل هذه الغارة الواسعة النطاق لن تمر دون أن يفطن لها أحـد ، فلا مفرّ من الإفضاء ببيان .

وأراد رئيس الوزارة أن يجعل مسلكه لا غبار عليه من وجهة النظر الدولية وقواعد البروتوكول ، فقرر أن يتحدث إلى القائم بأعمال السفارة الروسية فى أتوا ، وهو نيقولاى بيلوخفوستيكوف الذى ناب عن السفير زاروبين فى أثناء غيابه .

وهذه رواية ماكنزى كنج لما دار من الحديث : « قلت إنى سأفضى إلى مجلس العموم بأن دولة أجنبية لا أسميها تتجسس ، وتتلقى معلومات ، ولكنى أريد منه أن يعلم أن الدولة التى أشير إليها هى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، وإنى من ناحيتى على أتم استعداد للقيام بزيارة شخصية للمارشال ستالين للحصول على تفسير لهذه الحوادث المدهشة » .

وبينما كانا يتداولان ، كان رجال الشرطة الكندية يتهيأون ، وفى الصباح الباكر من يوم ١٥ من فبراير ضربوا ضربتهم ، وانقضوا على جامعة ماك جيل ، وجامعة مونتريل ، وجامعة تورنتو ، ومكتب الرقابة على القطع الأجنبى ، ومجلس الأبحاث القومى ، ولم يكن أحد ممن اعتقلوا فى ذلك اليوم يدرى أنه كان مراقباً منذ شهور .

ووقف رئيس الوزارة فى مجلس العموم يلقى على الأعضاء المشرئبين إليه بياناً موجزاً عما يجرى . « إن لدى هـــذه الحكومة معلومات لا شك فى صحتها تثبت أن أسراراً أفشيت إلى أشخاص لا صفة لهم ولا حق لهم فى الاطلاع عليها ، وفى جملتهم بعض أعضاء بعثة أجنبية فى كندا » .

وفيما وراء المحيط الأطلسى — بلندن — قرر الكولونل لينارد برت من رجال الفرع الخاص باسكتلنديارد أن يتحدث إلى الدكتور ألن نان ماى — الذى يدعى « أليك » فى برقيات موسكو — والذى زود السوفيت بنماذج من اليورانيوم ومعلومات عن القنبلة الذرية :

« هل تعلم يادكتور ماى أن معلومات تسرّبت من كندا عن الطاقة الذرية ؟ »

فنظر إليـــه الدكتور ماى بثبات وقال بهدوء : « هذه أول مرة أسمع فيها هذا » .

« وهل تعلم أننا نعلم أنه كان بينك وبين بعضهم فى لندن موعد فى هـذا الصدد ، وأنك أخلفته ؟ » .

فلم يجب الدكتور ماى بشىء .

وكان الكولونل برت ورجال اسكتلنديارد لا يرون المبادرة إلى القبض عليـه ، لأنهم كانوا يرجون أن يهتدوا عن طريقه إلى جاسوس آخر ، ولهـذا لم يفعلوا شيئاً فى ذلك الوقت .

وفى أتوا ، كانت لباقة الشرطة الكندية وكفايتها تخفيان نشـاطاً محموماً ، أو كما قالت اللجنة الملكية : « إن مدى تشعب هيئة الجاسـوسية ، وشخصية جميع وكلائها ، لم يكونا معروفين إلى اليوم الرابع عشر من فبراير ، فقد كان هناك عدد من الوكلاء مذكورين فى سجلات السـفارة بأسماء مستعارة فقط ، ولم يستطع جوزنكو أن يرشد إليهم ، وكان من أهم الأمور أن يعرف أكبر عـدد ممكن منهم ، والطريقة التى يتبعها كل واحد » .

وكان أهم طـور فى البحث الذى كان يدور نهاراً وليلا فى روكليف ، هو الذى يتنـاول بواعث الوكلاء المتهمين . وكان المحققون لا يملون السعى للكشف عن السبب .

وكان معظم المشـتبه فيهم من المتعلمين تعلما عالياً ، ومن ذوى الاقتدار الملحوظ والذكاء العظيم . وللبواعث التى كشف عنهـا التحقيق دلالتها وخطرها ، لا لكندا وحدها بل للعالم أجمع .

ولم يكن ثم دليل على أن المال كان له دخل كبير فى إغراء هؤلاء الناس ، وكان كل شىء يثبت أن الباعث الأول هو ثمرة فكرة سياسية عززها التدريب والتعلم فى « فرق الدراسة » أو الخلايا الشيوعية . وقد وجدت اللجنة الملكية « أنه فى معظم الحالات كان الباعث متصلا أوثق الاتصال بمناهج التربية النفسية التى يتولاها فريق سرى فى جماعة هى فى الظاهر جماعة سياسية كندية ـ حزب العمال التقدمى (الحزب الشيوعى فى كندا) ، ومناهج هذه التربية النفسية السرية أوسع انتشاراً من شبكة الجاسوسية نفسها .

« ويبدو أن السياسـة العامة للحزب الشيوعى تقضى بصرف لفيف معين ممن يعطفون على الحزب ، عن الانضمام إليه علناً ، وهؤلاء يدعون إلى الانضمام إلى الخلايا السرية ، أو إلى فرق الدراسة . ويؤخذ هؤلاء الأعضاء السريون من طوائف شتى من الأمة من الطلبة والمشتغلين بالعلوم والمدرسين ، والموظفين ، والعمال فى الصناعة والتجارة ، والمشتغلين بأى نشاط إدارى ، أو أية طائفة يحتمل أن تحصل على وظيفة حكومية .

« والغرض هو تعويد الشبان تدريجاً جو التآمر وأخلاقه . ومن السهل أن يتصور الإنسان التأثير العام الذى تحدثه فى نفس الشاب أو الفتاة ، تلك الاجتماعات السرية ، والمعارف السريّون ، والأغراض والخطط السرية . ويظهر أن هذا الأسلوب يراد به أن يتدرب الإنسان على أن تكون له حياة ذات وجهين ، ومقاييس من نوعين مختلفين » .

ولا سبيل إلى تقدير هذا الضرب من التجسس ومغزاه إلا على ضوء الفقرات السابقة ، وإلا فإن ظهور مثقفين موهوبين فجأة ، يعبثون بأسرار الدولة لا يكون مفهوماً .

وكان سلوك هارولد س . جيرسون الأستاذ الذى لا يكف عن التدخين ، مثالا لموقف هذا الفريق عند الاستجواب . وقد عرضوا عليه وثائق بخطه مأخوذة من ملفات السوفيت ، وأمامنا شهادة المفتش هارفسون عما حدث ، قال :

« سألت المستر جيرسون هل يعرف هذا الخط ، فقال إنه يشبه خطه جداً . فسألته هل كان يدون مذكرات عن الوثائق ، وهل كان عمله يقتضى أن يدون هـــذه المذكرات ؟ فقال إن من الصعب تحديد واجباته ، ولكنه دوّن مذكرات » .

« فقلت للمستر جيرسون : إنى سأقف الاستجواب مسافة أربع وعشرين ساعة ، وفى خلال هذه الفترة أريد منه أن يتروّى ويفكر فى هل هو مستعدّ بوصف كونه مواطناً كندياً ، أن يساعد حكومته ويزودها بأى معلومات تكون عنده عن التجسس السوفيتى ؟

« وفى اليوم التالى سألت المستر جيرسون عن قراره ، فقال إن هناك عدة مسائل شخصية مرتبطة بالقرار يراها فى غاية الصعوبة ، وسألنى هل أسمح له بالتأجيل إلى ظهر يوم السبت ليصل إلى قرار ؟ »

« وفى ظهر السبت قال إنه وصل إلى قرار ، وإنه يدرك أن الصورة حالكة فيما يتعلق به ، وإنه ارتكب أخطاء ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش عيش المطمئن إذا باح بمعلومات من مثل أن فلاناً فعل كذا وكذا — وإذا أشار إلى هذا الرجل أو ذاك الرجل » .

هذا ، وقد حدث فى موسكو فى ٢٠ من فبراير أن أمر نائب وزير الشئون الخارجية سولومون لوزوفسكى بأن يستدعى القائم بأعمال السفارة الكندية ليون ميراند ، وشرع من توّه فى تلاوة بيان من صفحتين . ويحسن عند قراءة الفقرات التالية أن نكون على ذكر من وثائق السفارة التى أخذها جوزنكو :

« علمت الهيئات السوفيتية أن بعض رجال الملحق العسكرى السوفيتى فى

كندا تلقوا من بعض الرعايا الكنديين معلومات ذات صبغة سرية، لم تبد مع ذلك ذات شأن كبير للهيئات السوفيتية . وهذه الأخبار تشير إلى معلومات فنية لا حاجة بالهيئات السوفيتية إليها، لأن التقدم الفنى جاوز مداها فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية . وهذه المعلومات يمكن الاطلاع عليها فى كتب منشورة عن الرادار الخ ، وكذلك فى الرسالة المشهورة التى وضعها ج . د . سمايث الأمريكى عن « الطاقة الذرية »، ولذلك فإن من السخف أن يقال إن إعطاء معلومات سرية تافهة من هذا القبيل يمكن أن يهدد أمن كندا وسلامتها .

« على أن حكومة السوفيت بمجرد علمها بالأعمال السابقة الذكر ، استدعت من كندا الملحق العسكرى السوفيتى لعدم جواز القيام بهذه الأعمال » .

وقد كان طريفا أن يحاول البيان السوفيتى التهوين من شأن المعلومات . وبغض النظر عن كون التقدم الفنى فى الاتحاد السوفيتى قد جاوز مدى هذه المعلومات ، وهى مسألة تحتمل الخلاف ، فإن الواقع هو أن هيئة دقيقة النظام قد أقيمت للحصول على هذه المعلومات .

وعلى الرغم من الزعم بأن المعلومات الخاصة بالطاقة الذرية يمكن الاطلاع عليها فى كتب منشورة ، تبينت اللجنة الملكية أن هذه المعلومات السرية لم يكن قد طبع منها شىء فى الوقت الذى أخذت فيه . ولو أنها كانت طبعت ، لما كانت سرية . والذى يدل دلالة صادقة على قيمتها أن يكون رؤساء الجاسوسية السوفيتية قد عدّوها ذات خطر عظيم .

ولم يسمح بنشر كثير من الوثائق فى هذه القضية لأن اللجنة الملكية تبينت أن « بعض المعلومات سرى جداً حتى أنه لا يمكن الإشارة إليها إلا من بعيد وبأعظم حذر » .

وكان أعظم عمل خطير الشأن وفق فيه الحلفاء الغربيون فى الميدان الفنى ، بعد القنبلة الذرية ، هو الرادار . ولا يزال بعض التحسين الذى تم فيه يعد من أخفى الأسرار . وقد حصل الوكلاء السوفيت على معلومات فى هذا الميدان على أعظم جانب من خطر الشأن . ومن المسائل الهامة الأخرى ما يسمى « أسديك » وهو جهاز مضادّ للغواصات يعين على الاهتداء إليها . وقد قالت اللجنة الملكية إن « كثيراً من

المعلومات التى يمكن الحصول عليها فى كندا فى هذا الموضوع قد تسرب ، وربما كانت قد تسربت كلها » .

وثم موضوع آخر هو « فتيل ف. ت » وهو فتيل مدهش لإحكام رماية المدفعية ، ولا تزال التفاصيل الخاصة بترتيب أسلاكه وصناعته من الأسرار المحجوبة . ومع أن هذا الفتيل صنع أولا فى كندا سنة ١٩٤٣ إلا أن تفاصيل صناعته لا تعرف فى غير الولايات المتحدة . وهـذا الفتيل هو « القنبلة الكهيربية » التى ورد ذكرها فى بعض الوثائق السوفيتية ، وقد حصل أحد الوكلاء على رسمها . وجانب كبير من المعلومات التى كان الوكلاء يسعون للحصول عليها ، متعلق بتدابير الدفاع فيما بعد الحرب عن كندا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة . وكانت المعلومات التى سلمها إلى السوفيت أمثال جيرسون من هذا القبيل — بيانات عن الإنتاج ، وأماكن الصناعات ، والنقل ، والمشروعات ، والشئون المالية . وفى هذا تقول اللجنة الملكية : « إن جانبا من هذه المعلومات يمكن الانتفاع به فى أعمال التخريب الممكنة » .

وفى الثانى من مارس ١٩٤٦ أصدرت اللجنة الملكية تقريرها المبدئى الأول ، الذى رفع ستار السرية إلى حد يسمح بوصف بعض الأعمال التى قام بها الكولونل زابوتين ، وإمّا وويكن ، وكاثلين ويلشر ، وجوردن لونان ، وإدوارد مازيرول . وقبل ذلك ببضعة أيام كان المفتش وايتهيد من رجال اسكتلند يارد بلندن قد قصد كلية الملك ووصل إليها حين كان الدكتور ألان نان ماى يختم محاضرة له على نظرية نواة الذرّة ، فلما أتمها أومأ إليه المفتش الذى كان ينتظر عند الباب .

وقال : « معى أمر بالقبض عليك ، وسأتلوه عليك حالا » .

فزمّ الدكتور ماى شفتيه وقال : « حسن . لقد كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل » .

وكان التحرّى فى خلال الشهور التى مضت منذ ظهرت علاقة اسم « أليك » المستعار بالتجسس على أسرار القنبلة الذرية — قد كشف عن حقائق أخرى فيما يتعلق بنشاطه . فلما واجهوه بهذه الوثائق ، كان من العسير عليه أن يفسر أعماله ، وبواعثه أيضاً . وأخيراً قبل أن يكتب بياناً قال فيه :

« منذ نحو سنة ، بينما كنت فى كندا ، اتصل بى شخص لا أرى أن أبوح باسمه ، وطلب منى معلومات عن الأبحاث الذرية .

وكنت قد فكرت بعناية فى

صواب الاستيثاق من أن التقدم فى باب الطاقة الذرية غير مقصور على الولايات المتحدة ، وانتهيت إلى قرار مؤلم هو أن من الضرورى الإفضاء بمعلومات عامـــة عن الطاقة الذرية والتثبت من أنها تؤخذ مأخذ الجد. ولهـــذا السبب قررت أن أقبـــل ما عرض علىّ .

« وفى اجتماع لنا أعطيت الرجل مقادير ميكروسكوبية من يورانيوم ٢٣٣ ويورانيوم ٢٣٥ ، وأعطيته أيضا تقريراً مكتوباً عن الأبحاث الذرية بقدر ما أعلم منها .

« وطلب الرجل منى كذلك معلومات عن القنبلة المسيرة بالكهيربات التى تصنعها الولايات المتحدة . ولم أكن أعلم عنها إلا القليل ، فلم أعطه شيئاً يذكر .

« وأعطانى الرجل بعض الريالات (وقد نسيت عـــددها) فى زجاجة ويسكى ، وقد قبلتها على غير إرادتى.

« وقبل أن أغادر كندا ، اتفقنـا على أن أقابل عند عودتى إلى لندن رجلا لا أعرفه ، وقد أخلفت الموعد لأنى رأيت أن هذا النهج الخفى لم يعد لائقـاً ، نظراً لما أذيع رسمياً من المعلومات، ولإمكان الاتفاق على نظام الرقابة الدولية على الطاقة الذرية .

« وكان الأمر كله مبعث ألم لى ، وما دخلت فيه إلا لأنى شعرت بأن هذه قد تكون مساهمة منى فى سبيل أمن البشر وسلامتهم . ولم أفعل ذلك طلباً للربح . »

وقد علق القـاضى أوليفر على بواعث الدكتور ماى الإنسـانية بما يأتى :

« لقد أصغيت إليك يا ألن نان ماى بشئ من الدهشة وأنت ترسم صورة رجل شريف لم يفعل إلا ما يعتقـــد أنه صواب. وأنا لا أرى فيك ما تراه أنت فى نفســك . فكيف بلغ من قحة رجل فى مثل مركزك وغروره فضلا عن لؤمه ، أن ينتحل لنفسه الحق فى تقرير أمر من هذا الضرب، مع أنك قد أعطيت على نفسك موثقاً مكتوباً أن لا تفعل ذلك ، وكنت تعلم أن هذا السرّ من أعظم أسرار بلادك — إنه لأمر شنيع أن تكون قد فعلت هذا » .

وبعد الساعة الحادية عشرة ببضع دقائق

فى ليلة ١٤ مارس دق الجاويش رينيه ج . نويل من رجال الشرطة الكندية ، باب فريد روز فى أتوا .

وكان روز على التلفون يحادث مراسلا لجريدة فى تورنتو طلبه ليسأله هل قبض عليه فقال روز : « كلا ، لم يقبض على » ووضع السماعة ، وفتح البـاب فاعتقل على الفور .

ومع أن الوثائق والشهود تثبت علاقة فريد روز بكثير من جماعة التجسس ، إلا أنه رفض أن يدلى بأقواله أمام اللجنة الملكية ، أو أن يفسر علاقته بالقضية .

وقد ظلت اللجنة الملكية منعقـدة من فبراير إلى يونيه ١٩٤٦ . وفى السابع والعشرين من يونيه ، بعد أن سمعت عشرات من الشهود وراجعت آلافا من الصفحات ، أذيعت قراراتها المزعجة . وقد قالت فى ختام تقريرها : « لم نطلع إلا على القليل الذى استطاع جوزنكو أن يجمعه قبل مغادرته للسفارة من وثائق زابوتين الخاصة بالجاسوسية ، وهذه الوثائق لا تكشف إلا عن عمل نظام الجاسوسـية الخاص بالكولونل زابوتين ، وإن كانت الأدلة تكشف عن وجود شباك أخرى مازال بعضها يعمل منذ عدة سنوات » .

وقد ترك أمر العقوبة لمحاكم الدولة ، ونظراً لتعقد أدلة الإثبات ضد كل فرد ، رؤى أن الأوفق عقد محاكمات مستقل بعضها عن بعض .

وقد برّىء بعض الذين تعقبهم رجال الشرطة الكندية لعدم كفاية الأدلة ، واعترف البعض بأنهم مذنبون ، وثبتت إدانة آخرين ، ولا تزال المحاكمات مستمرة . وهذا ما انتهى إليه الأمر فى بعض المحاكمات الرئيسية إلى الوقت الذى كتب فيه هذا :

الاسم	الاسم المستعار	المحاكمة	الحكم
الدكتور ألن نان ماى	اليك	اعترف	١٠ سنوات
فريد روز	ديبوز	أدين	٦ سنوات
إما وويكن	نورا	اعترفت	٣ سنوات
كاثلين ويلشر	إيلى	اعترفت	٣ سنوات
ه . س . جيرسون	جراى	أدين	٥ سنوات
د . ج لونان	باك	أدين	٥ سنوات
إ . و . مازرول	باجلى	أدين	٤ سنوات
درنفورد سميث	بادو	أدين	٥ سنوات

والزمن وحده هو الذى سيبين هل تؤدى وثائق جوزنكو إلى تغيير فى أساليب السوفيت فى استخدام هيئة دبلوماسية لإنشاء طابور خامس فى بلاد دولة صديقة. وقد قال جوزنكو فى هذا الصدد: «جاء فى آخر برقية طلب معرفة الموارد الطبيعية التى تستطيع كندا أن تعبئها فى حالة نشوب الحرب — الفحم والزيت والمعادن النادرة وغير ذلك»

وإن اهتمام روسيا بكندا لبديهى من وجهة النظر الحربية العالمية التى لا دخل للعاطفة فيها، فإن كندا واقعة على الخط الأمامى للطريق الجوى القطبى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

منذ عهد آدم وحواء

يتفق النساء والرجال فى شىء واحد على الأقل: ريبتهم فى النساء

[هـ . ل . د منكن]

إذا اردتِ أن تدركى السعادة الحقّ مع رجل، فينبغى لك أن تفهميه كل الفهم وأن تحبيه بعض الحب. وإذا أردتَ أن تدرك السعادة الحق مع امرأة، فينبغى لك أن تحبها حباً جماً، وأن تنصرف تماماً عن محاولة فهمها.

[هيلين رولند]

لن تجد فى الدنيا امرأة يخشى خطرها، وإنما تجد رجالا عرضة لإغراء المرأة.

[جوزيف وود كراتش]

كنت قبل زواجى أرى ستة آراء مختلفة فى تنشئة الصغار وكيف ينبغى أن تكون، أما اليوم فقد صار عندى ستة أولاد — وليس عندى رأى ما.

[لورد روتشستر]

سئلت عانس لِمَ لم تتزوج فقالت: «لابد أن يكون الزوج من خير الرجال حتى يكون الزواج به أفضل من البقاء بغير زواج»

[إرفنج ورورث پولى]

بَحَّارٌ عَلَى ظَهرِ جَوَاد

سيرة الكاتب جاك لندن

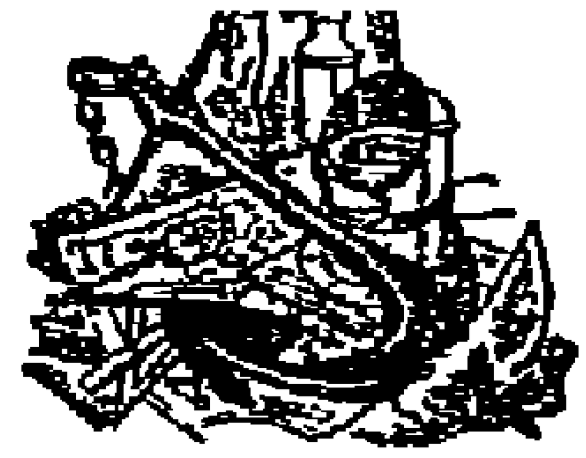


مختصرة من كتاب

إرفنج ستون

مؤلف كتاب "نهمة الحياة" الذى نشر
مختصره فى المختار مايو ١٩٤٤ بعنوان "النفس المعذبة"

قصة من عجائب القصص ، هى حياة جاك لندن ، الكاتب الروائى والرائد المغامر الذائع الصيت . إن التناقض العنيف فى طباعه ، وجمعه بين العبقرية والجنون فيما يأتيه ، جعلا قصة حياته أغرب من أغرب رواياته .

بحّار  على ظهر جواد

في صباح يوم من أوائل شهر يونيو سنة ١٨٧٥ أصبح أهل مدينة سان فرنسسكو فقرأوا قصة مروعة في صحيفة الكرونيكل ، فقد أطلقت سيدة الرصاص على نفسها لأن زوجها « طردها من البيت حين أبت أن تسقط جنينها » . وكانت تلك السيدة هي فلورا ولمان، وأما الرجل فكان الأستاذ و . هـ . تشيني ، المنجم الإرلندي الطوّاف . أما الجنين فقد ولد وعاش فذاع ذكره في أرجاء الأرض باسم جاك لندن ، الذي ارتفع من مهاوي الفاقة فصار مغامراً جريئاً وأشهر كاتب في زمنه .

لم يكن في رواية الكرونيكل سوى قليل من الحقيقة . وعلى أن فلورا ولمان كانت تعاشر الأستاذ تشيني فإنها لم تكن زوجة له، ولم يدر بخلدها أن تنتحر ، فقد كان حسبها أن تجرح نفسها جرحاً خفيفاً . والرصاصة التي أطلقتها فأحدثت ذلك الجرح ، آذت تشيني أكثر مما آذتها ، فقد قضى الرجل بقية حياته منبوذاً مرذولا ، وما لبث حتى فارق سان فرنسسكو . فكذلك نشأ جاك لندن ولم تقع له على أبيه عين .

ولد هذا الطفل الذي جاء إلى الدنيا من سفاح ، في ١٢ يناير ١٨٧٦ ، وقد ظل اسمه جون تشيني ثمانية أشهر، ثم تزوجت أمه رجلا اسمه جون لندن ، كان أرملاً وله ابنتان صغيرتان .

وكثيراً ما كان جاك لندن يقول بعد أن اكتملت رجولته إنه لم يستمتع بالطفولة ، فما يذكر منها سوى الضنك والعسر ، بيد أنه كان ينال شيئاً من الحب . نعم إن أمه أهملته ، ولكن إليزا — أكبر أختيه من زوج أمه — عنيت به وعطفت عليه فصار كأنه ابنها . وقد كانت هي في الثامنة، ولكنها بلغت من حسن الإدراك والثقة بالنفس مالا تعهده فيمن كان في مثل سنها ، فظلت موضع ثقته إلى يوم قبضه الله إليه . وكانت لهم جارة زنجية قد ثكلت ولدها منذ زمن قليل ، فصارت مرضعة لجاك وظئراً وصديقاً صدوقاً له طول حياته .

ومع ذلك فقد عانى جاك في طفولته ضنكا شديداً، فلما كان في الحادية عشرة من عمره تعطل زوج أمه عن العمل شهوراً متوالية ، فوقع عبء رزق الأسرة على جاك، فكان يستيقظ قبل أن يسفر الفجر، وينقل الجرائد إلى بيوت المشتركين ، ثم يذهب إلى المدرسة . فإذا انقضت الدراسة عاد ينقل الصحف إلى دور أخرى . وكان في أيام

السبت يسيّر عربة لنقل الثلج ، ويشتغل فى الليل فى أحد أندية الرياضة ، وقد بلا الحياة عراكاً مع غيره من باعة الصحف، أو شهد مايدور فى الحانات من شجار بين روّادها، وألف ما يراه عند أرصفة الميناء من أخلاق البحارة العائدين من الشمال أو المبحرين إلى البحار الجنوبية لتهريب الأفيون.

وقد أحب منذ صغره الكتب والبحر ، فكان ينفق كل دقيقة من فراغه فى نادى الزوارق على الميناء ، وكان أصحاب اليخوت من الأغنياء ينفحونه بقليل من المال لقاء تنظيف سفنهم ، وقد علموه كل ما كانوا يعرفونه عن الزوارق الصغيرة . ولما كان مقداماً لايهاب شيئاً ، صار يحب البحر كأنه ولد فيه ، وصار أبرع بحار صغير على تلك الشواطىء الخاتلة .

فلما كان فى الثالثة عشرة من عمره ، ألفى نفسه مضطراً أن يقطع دراسته، فظل سنة يعمل فى كنس الحانات وأعمال أخرى على غراره . ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة حتى ظفر بعمل فى مدبغة، وكان أجره فيها قرشين فى الساعة، وكان يعمل عشر ساعات كل يوم على الأقل ، وقد تمتد ساعات عمله إلى ثمانى عشرة ساعة أو عشرين ساعة فى اليوم. وكان يقطع الزمن مثقلا متعباً رازحاً لايقوى على مواصلة القراءة فى الليل ، فكان يسأل نفسه: أهذه هى الحياة — أن تعيش كأنك دابة عاملة ؟

كان يتردد على الميناء فى آصال أيام الأحد. فعرف قرصان المحار الذين يسطون على المنابت الخاصة التى يربى فيها ثم يبيعونه على أرصفة الميناء. وقد علم جاك أنهم قلما يجنون من عمل ليلة واحدة أقل من خمسة وعشرين ريالا ، وأن الرجل الذى يملك زورقه يستطيع أن يجنى مئتى ريال فى ليلة واحدة. فلما سمع أحد قدماء القرصان يقول إنه يريد أن يبيع زورقه بمبلغ ثلاثمئة ريال ، حزم جاك أمره على مايريد ، فمضى لساعته إلى مرضعته الزنجية ، وطلب منها أن تقرض ابنها الأبيض مايحتاج إليه من المال. أفترضى أن تفعل ؟ قالت : إن مالى هو مالك يا بنى.

وفى يوم الأحد التالى خرج جاك إلى الزورق المعروض للبيع وانضم إلى جماعة تسكر وتعربد عليه ، وعرض أن يشترى الزورق . وفى صباح الاثنين لقى صاحبه فى حانة فدفع المال ، وما كادا يحيان الصفقة بكأس من الوسكى — وهى أول كأس شربها — حتى هرع إلى الميناء فرفع المرساة وخرج بزورقه إلى عرض الخليج ،فقد تحقق حلمه ، وفى وسعه الليلة أن ينام على الماء .

وفى تلك الليلة اشترك جاك فى أول غارة

على منابت المحار ، وقد قبل رجل أسود العارضين من أوغاد الميناء يدعى «العنكبوت» أن يخرج معه فى هــذه الغارة . فلما أسفر الصباح أسرع إلى سوق المحار فى أوكلند فباع مانهب ، فإذا هو قد كسب فى ليــلة واحدة أكثر مما يكسبه فى المدبغة فى بحر ثلاثة أشهر .

وقد مرّت الأسابيع فصار جاك مشهوراً بين أقرانه من قرصان المحار بشدة البأس والمراس . وقد كان أيضاً فتىً ودوداً ، فكان إذا ما أراد زملاؤه من القرصان أن يعبُّوا الخمر عبًّا — وهذا من دأبهم — لا ينفك يجارى أعتاهم على الشرب ، مع أنه لم يكد يتجاوز الخامسة عشرة من عمره . بيد أنه كان يذهب فى الفترات بين الغارة والغارة إلى دار الكتب فى مدينة أوكلند ، فيختار طائفة من الكتب ويذهب بها إلى زورقه ، ويوصد باب حجرته حتى لا يدخل عليه أحد من زملائه ، ويستلقى على ظهره يقرؤها كتاباً بعد كتاب .

وقد ظلّ يغير بزورقه ويجنى رزقاً وفيراً ، فردّ المال الذى اقترضهُ من مرضعته الزنجية وكفل عيش أسرته ، واشــترك فى مئات من المغامرات الرائعة المحفوفة بالخطر . وقد نشب شجار فى أحد الأيام بين قرصان المحار السكارى ، فشجر بينه وبين « العنكبوت » عراك عنيف ، فيومئذ أشعل « العنكبوت » النار فى أكبر شراع فى زورق جاك ، وهجم فريق من خصومه القرصان فأجهزوا على الزورق ثم أغرقوه فى قرار اليمّ .

وسرعان ماتشارك جاك هو وشاب يدعى نلسن فى العشرين من عمره ، وهو شجاع مقدام متين الأسر ، وكانت سفينة نلسن قد أصابها أذى فى ذلك العراك وجنحت إلى الشاطىء وشقت من جنبها ، ولكن الشابين رمّمَاها وجعلا يغيران بها حيث يطيب لهما ، فكانا يكسبان ١٨٠ ريالا فى الليلة الواحدة ، ولكن شركتهما ما لبثت أن حلت ، لأن نلسن فقد بصره من كثرة الشرب ، وكان جاك يجاريه حتى صارت العربدة تستهوى فؤاده .

بيد أنه كان خلال ذلك كله يتلمس طريقاً يخرجه من حياة العبث والتهور التى ألفها ، وإذا بشىء ليس فى الحسبان يقع له . فقد شرب حتى ثمل ذات ليلة ، فمضى فى الساعة الأولى صباحاً وهو يترنح ليصعد إلى سفينته فوقع فى المـاء ، فحمله ماء الجزر وأبعد به إلى اليابسة . وكانت نفسه منقبضة ، فعزم أن يموت غرقاً ، فهذه الميتة أروع ما تختم به حياته القصيرة الرائعة . فطفا على ظهره فى المـاء تحت السماء الصافية ، ورأى أنوار الميناء تمر به ، فجعل يودع كلاً منها وداع

الراحل الحزين . وسرعان ما نبهه الماء البارد فثاب إليه رشده . فأدرك أنه لا يريد أن يموت ، فنضا ثيابه وأخذ يسبح . فلما أسفر الصبح وجد نفسه قرب جزيرة مار ، وكان منهوك القوى مخدر الأطراف من البرد ، وكانت الريح تدفع ماء البحر فى فمه وخياشيمه ، ثم عثر عليه بحار يونانى ، فرفعه من الماء فوجده بدنا لا شعور فيه . ومن يومئذ عزم على أن يقلع عن الإغراق فى السكر ، وظل على ذلك سنوات كثيرة .

بيد أنه ظل فتى يستمتع بما فى الحياة من روعة المغامرة ، وكان إذا خرج بزورقه من خليج سان فرنسسكو عابراً مضيق « الباب الذهبي » الذى يفضى إلى رحاب المحيط الهادىء ، تمر فى مخيلته صور البلاد الشرقية التى من وراء المحيط ، كما تمثلها من الكتب الكثيرة التى كان يطالعها . وقد صار اليوم فى السابعة عشرة من عمره ضخماً قوياً شجاعاً ، يريد أن يرى العالم ، ولا وسيلة إلى ذلك إلا السفر بحراً . فاختار سفينة أعدت لصيد عجول البحر فسافر عليها ، وكانت تتأهب للرحلة ميممة شطر اليابان وكوريا وسيبيريا ، فيقضى رجالها ثلاثة أشهر يصطادون بالحراب عجول البحر .

وكانت هذه السفينة — سوفى سذرلند — سفينة ذات شراع ، حمولتها ثمانون طناً ، وقد بنيت لكى تكون سريعة فى البحر ، وجعلت شرعها كثيرة واسعة . وعلى أن جاك لم يخرج قبل ذلك إلى عرض المحيط ، فقد انضم إلى بحارتها المتمرسين ، فساءهم أن يروا هذا الفتى الغرير بينهم مساوياً لهم . فإذا عجز جاك عن أن يثبت لهم أنه أهل حتماً لعمل البحار ، فلا مفر له من أن يقاسى سوء معاملتهم مدة سبعة أشهر أو ثمانية أشهر .

فلما كان اليوم الثالث بعد خروج السفينة إلى البحر ، هبت عاصفة ، وكانت نوبة جاك أن يقوم على عجلة الدفة ، فأمسك بها ، ووقف الربان يرقبه بضع دقائق ، فأومأ برأسه استحساناً لما رأى ، وترك الفتى وشأنه . وقد ظل جاك يكافح العاصفة وحده فلم ير أحداً من البحارة على متن السفينة ، فلما هدأت العاصفة تبين أن جفاء زملائه له قد هدأ أيضاً .

فلما وصلت السفينة إلى جزائر بونين خرج الأهلون واليابانيون فى زوارقهم إلى لقائها ، فما رآهم جاك حتى أيقن والروعة تملأ جوانحه ، أنه قد عبر المحيط إلى الجانب الآخر من الأرض ، بعد أن ظل هذا العبور كالحلم يراود خياله فى الليل والنهار . فلما نزلوا إلى البر سار فى إثر زملائه إلى

الحانات ، وشرب معهم حتى سكر ، وقامروا حتى سلبوهُ مالهُ ، فكان بينهم كالغِرّ الأحمق .

فلما أثار البحارة قطعان عجول البحر ونفرت على محاذاة ساحل اليابان ، ودفعوها نحو سيبيريا ومضوا فى أثرها ليعكفوا ثلاثة أشهر على قتلها وصيدها وهم يعانون المشاق المضنية ويتعرضون للخطر ، كان ذلك فى نظره مغامرة رائعة . فلما فرغوا جوزى عن عمله بمالٍ غير قليل أنفقه على العربدة فى مدينة يوكوهاما .

فلما عادت السفينة إلى سان فرنسسكو ، مات على سواحلها ما كان فى نفسه من فتنة بالبحر ، فقد آن الأوان فى رأيه حتى يسكن ويستقرّ .

فى سنة ١٨٩٣ نزلت بالبلاد الأمريكية ضائقة مالية شديدة ، فلم يجد جاك عملا يعمله إلا فى مصنع للقنب ، يجزى عنه ريالا لقاء عمل عشر ساعات فى اليوم . وعادت أمه إلى البيت ذات ليلة ومعها نسخة من صحيفة « سان فرنسسكو كول » وحثته على أن يكتب مقالا لمباراة نظمتها تلك الصحيفة ، فأخذ القلم بيده ووصف الإعصار الذى هبّ على السفينة « سوفى سذرلند » وأرسله إلى الصحيفة ، فنال الجائزة الأولى وقدرها ٢٥ ريالاً .

لا يزال مقال « إعصار على ساحل اليابان » مقالا لم تخلق جِدّته ، تقرأه اليوم فتحس بالحياة التى تزخر بين سطوره ، فقد كان فى عبارات هـذا الفتى إيقاع كإيقاع الموسيق ، مع أنه لم يكد يتم دراسته فى المدرسة الابتدائية .

وبعد أن تولى أعمالا شتى متلاحقة قليلة الأجر قاصمة للظهر ، صار جاك أفاقاً يطوّف فى البلاد الأمريكية راكباً قطارات الشحن . وقد ألقى القبض عليه فى إحدى المدن متهماً بالتشرد ، فحكم عليه بالحبس ثلاثين يوما مع الأشغال الشـاقة . فلما عاد إلى سان فرنسسكو عزم على أن يثقف عقـله حتى يصير قادراً على ان يعمل بعقله بدلا من أن يعمل بعضله وقوة بدنه .

فلما حزم أمره على ذلك ، أدرك أنه لن ينال السعادة والرضى إلا إذا صار كاتباً يقص القصص التى يزخر بها ذهنه . وقد عزم أيضاً أن يلتحق بجامعة كاليفورنيا ، ولـكن هذا يقتضى منه أولا أن يتأهب لدخول الجامعة بالدراسة فى مدرسة ثانوية .

وقد كان فى التاسعة عشرة من عمره يوم التحق بفصل السنة الأولى فى مدرسة أوكلند الثانوية ، وقد دخله فى ثوب كأنه فصِّل لغيره ، لابساً قميصاً من الصوف مفتوحاً عند العنق ، وكان شعره جعداً منفوشاً ، وكان يمضغ الطباق كعادته يوم

كان أفاقاً ، وقد دأب على ذلك لأن عصير الطباق كان يخفف عنه وطأة الآلام التى يحس بها فى تجوات أسنانه . فلما عرضت عليه أخته إليزا ، وكانت قد تزوجت ، أن تنفق على إصلاح أسنانه إذا هو أقلع عن عادة مضغ الطباق ، قبل عرضها غير متردد . ويومئذ أشترى أول فرشة لتنظيف الأسنان .

كان عمر الفتيان والفتيات من حوله يتفاوت بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، وكان معظمهم من الذين لم يذهبوا فى رحلة خارج منطقة سان فرنسسكو ، فكانوا فى نظره أشبه بالأطفال . وقد كان يتمنى أن يكون واحداً من الجماعة التى يدرس معها فى فصل واحد ، ولكنه عجز عن إدراك ما يتمنى . أما رفاقه فقد عجزوا أيضاً عن أن ينفذوا إلى حقيقة هذا الفتى ويفهموها .

وكان فى عطلة الأسبوع يطلب أعمالا شتى : فيحش حشيش الحدائق ، وينفض السجاجيد ، ويتولى نقل الرسائل أو غير ذلك من الأعمال الصغيرة . وكان إذا انصرف الطلبة من المدرسة فى المساء ، بقى هو فيها يكنس الحجر وينظف المراحيض . فازدادت الهوّة اتساعاً بينه وبين رفاقه ، بيد أن المجلة الأدبية التى يصدرها الطلبة رحّبت بما يكتبه لها .

ثم انضم جاك إلى الحزب الاشتراكى الذى أنشىء فى أوكلند منذ قريب ، وألقى القبض عليه وهو يخطب فى حديقة المحافظة بغير ترخيص ، فكان ذلك عند كثيرين مؤيداً لما كانوا يرونهُ من أن الشاب ليس نقى الصفحة ، فأوصدت فى وجهه أبواب بيوت كثيرة كانت قد تفتحت أمامه .

فلم انقلب جاك لندن اشتراكياً ؟ لقد نشأ فى الفاقة ، فعضّه الجوع بنابه، وعرف ما هو الحرمان ، ولمس بيديه ما تعانيه الطبقات المحرومة من الشدائد . وقد تلقى بعض ميله إلى الاشتراكية من منبته الإرلندى ، فقد فطر كالإرلنديين على العطف على الفقراء والمساكين ، كما فطر أيضاً على حب الكفاح . ثم إنه كان يحس أن فى قرارة نفسه ضغينة على العالم كله ، لأنه ابن سفاح . وعلى كل فقد صارت الاشتراكية فى نظره منطقاً إنسانياً تاريخياً اقتصادياً لا تردّ له حجة كجدول الضرب ، وصار هذا المنطق فى نفسه عقيدة استبدت به طول حياته .

كانت درجة جاك فى السنة الأولى من دراسته بين المتفوقين والأوساط من الطلبة، ولكنه كان يتعجل الزمن حتى يلتحق بالجامعة ، فترك المدرسة وأكب على الدراسة فى بيته ، فكان يلازم مكتبه تسع ساعات

كل يوم وهو يدرس الرياضة والكيمياء والتاريخ وأدب اللغة الإنجليزية ، فما مضت ثلاثة أشهر حتى مضى إلى الجامعة وتقدم لامتحان الالتحاق بها فنجح فيه .

ولكنه لم يكد يقضى بضعة أشهر فى الجامعة حتى أدرك أن طلب العلم فيها جهاد مرير وعبء لا قبل له بحمله . فقد كان زوج أمه عليلاً لا يكسب قرشاً واحداً له أو لأمه فلورا ، فلم يكن لجاك بدّ من أن ينهض بعبء رزقه ورزقهما .

وعلى الرغم من فاقة الأسرة ، عمد جاك إلى آخر سهم يقامر به قبل أن يطلب عملا يعمله بيديه ، فقد عزم على أن يكتب قصصاً ، ما دام قد حزم رأيه على أن يصير كاتباً فى آخر الأمر . فأوصد على نفسه باب حجرته ، وأكب على الكتابة خمس عشرة ساعة يوماً بعد يوم . فلما أعيدت إليه قصصه من رؤساء التحرير الذين رفضوا أن ينشروها ، باع ثيابه بمبالغ ضئيلة من المال ومضى فى الكتابة حتى أنفقت أسرته آخر ريال تملكه ، ونفد الطعام الذى فى البيت ، فخرج يومئذ يطلب عملا ، فوجد عملا فى مغسلة يضمن له طعامه ومكانا ينام فيه ، وأجراً قدره ثلاثون ريالا فى الشهر ، كان يعطيه كاملا لأمه فلورا .

وبعد أسابيع من العمل المضنى أحس أنه علق فى شرك لا مخرج منه ، ولا معين عليه ، فماذا يفعل ؟ وإذا بالقدر يمهد له الطريق ، فقد عثروا على الذهب فى مقاطعة كلونودايك فى الأسكا فى صيف سنة ١٨٩٦ ، فكان جاك فى طليعة الذين رحلوا للبحث عن الذهب ، ولم يثنه عن الذهاب أن أمه وزوجها كانا يعيشان بالأجر الذى يجنيه من المغسلة ، ولا أنه قد صرف وجهه عن الدراسة فى الجامعة وعن الكتابة التى يهواها ، فهذا نداء المغامرة يناديه .

وقد مكنته أخته إليزا من أن يلبى النداء ، فقد ركبت حمى البحث عن الذهب زوجها شبرد الذى جاوز الستين من عمره ، فأخرجت إليزا من المال الذى ادخرته مبلغ خمسمئة ريال وأنفقتها لتعد عدة زوجها وأخيها ، فأبحرا فى ١٢ مارس سنة ١٨٩٧ .

كانت السفينة أوماتيلا التى أقلتهما غاصة بالرجال الراحلين فى طلب الذهب ، فأقلعت بهم وسارت محاذية الشاطىء حتى ألقت مراسيها فى خليج سكاجواى ، وجعلت الزوارق تنقل المعدنين الذين استهوتهم روعة المغامرة من السفينة إلى ساحل ديا ، فكنت ترى ألوفاً منهم وقوفاً تحيط بهم أمتعتهم ومعداتهم التى تزن ألوفاً من الأطنان ، وهم يلحفون فى مساومة الهنود الحمر على أجر

حملها . وكان الأجر المطلوب ستة قروش إلى ثمانية قروش عن كل رطل ينقل إلى ممر شيلكوت — وهذا أجر فادح يستنفد مال جاك وشبرد عن آخره .

وكان معظم الباحثين عن الذهب عاجزين عن دفع هذه الأجور أو عن حمل أمتعتهم ومعداتهم والسير بها فى الدرب الوعر ، فعادوا بالسفينة إلى سان فرنسسكو وقد باءوا بالهزيمة ، وعاد شبرد معهم مخلفاً جاك مع أصدقائه طمسن وجودمن وسلوبر .

كانوا فى شهر إبريل ، ولكن الشقة أمامهم كانت طويلة وعرة ، فعليهم أن يعبروا ممر الجبال إلى بحيرة لندمان ، ثم أن يعبروا البحيرة إلى شلال المياه ، ثم أن يهبطوا هذا الشلال وأن يرحلوا بعد ذلك ذلك مئات الأميال فى وادى نهر يوكون . فإذا أرادوا أن يبلغوا بلدة دوسن قبل أن يهجم الشتاء ، فإن أمامهم أشهراً كثيرة من العمل المتواصل المضنى .

واشترى جاك زورقاً صغيراً ، فحمله الرجال بالمؤن والزاد وجرُّوه جرًّا فى نهر ديا مسافة سبعة أميال ضد تيار الماء حتى وصلوا إلى سفح ممر شيلكوت ، وهنالك خبأوا المعدات والزاد ، ثم عادوا فى الزورق محمولا على عباب النهر ، فملأوه ثانية وجروه سبعة أميال إلى المخبأ . وقد دأبوا على ذلك أسابيع كثيرة فنقلوا مؤونتهم وأمتعتهم التى تزن ٨٠٠٠ رطل إلى سفح الجبل .

وممر شيلكوت وعر كثير الصخور يصعد فى جانب الجبل كأنه عمود قائم ، فحمل جاك ما وزنه ١٥٠ رطلا على ظهره وبدأ يصعِّد ، وكان طول الدرب ستة أميال ، فكان الرجال الصعدون فيه صفًّا واحداً من أسفله إلى أعلاه . وكنت ترى على جانبيه الشيوخ والضعاف والمتعممين الذين نهكهم الإعياء . وكانت كل رحلة من أول الدرب إلى آخره تستغرق يوماً كاملا ، فقضى جاك وصحبه تسعين يوماً بتمامها حتى أنجزوا نقل أمتعتهم وزادهم .

فلما بلغوا ساحل بحيرة لندمان ، ارتد فريق آخر من هذه الجماعة المغامرة لأنهم لم يجدوا زوارق ليعبروا البحيرة فيها . أما جاك وصحبه فقد قطعوا الشجر ونشروه بأيديهم ، ثم صنع جاك البحار زورقين مسطحى القعر ، وجعل يخيط القماش ليصنع قلوعاً ، ثم أبحر مع أصدقائه فعبر البحيرة ووصل إلى منابع نهر يوكون ، وهناك جعلوا يتأهبون للمرحلة الأخيرة فى سفرهم .

فلما بلغوا « شلالات الجواد الأبيض » وجدوا نحو ألف زورق مرسية على الشاطئين وألوفاً من الرجال وقوفاً حيارى ، وقد سُقِط فى أيديهم فلا يدرون ماذا يفعلون ،

فإن كل جماعة حاولت أن تجوز الشلال هبوطاً مع مائة المتدفق ، قد طواها الهلاك .

أما جاك فوقف على مرأى من جماعات الرجال المهللين له ، وجعل يسمر قماش الشراع فوق المؤن التى فى الزورق ، وأمر صاحبه ساوبر أن يجثو على ركبتيه فى مقدمة الزورق ، وفى يده مجداف ، وأمر طمسن وجودمن أن يقفا فى الوسط ، وأن يسرعا فى تسيير الزورق ما استطاعا ، وجلس هو فى المؤخرة قابضاً على الدفة ، وسار بالزورق مجارياً أقوى تيارات الماء المتدفق فوق الشلال ، فوثبوا به سالمين وأرسوه فى ماء ساكن ، وعادوا على أقدامهم ليعبروا الشلال مرة أخرى بزورقهم الثانى .

ولم يكد جاك يفعل ما فعل حتى اشتد إلحاح الناس عليه أن يسير الزوارق الأخرى كما سير زورقه لقاء جُعْل يدفع له ، فطلب ٢٥ ريالا عن كل زورق ، وأقام بضعة أيام فجمع ألفى ريال له ولصحبه ، ولو أراد لجمعوا خمسة آلاف أخرى ، ولكن شهر سبتمبر كان قد انتصف ، ولا تزال الشقة طويلة أمامهم .

بل إن تأخرهم عند الشلال إلى منتصف سبتمبر كان أطول مما ينبغى ، فلما بلغوا بلدة ستيوارت التى تبعد ٧٥ ميلا عن مدينة دوسن ، نزل الشتاء ، فعصفت العواصف ، ثم سقط الثلج فغطى الأرض بدثار أبيض ، فعجزوا عن المضى ، فاستولوا على كوخ مهجور على ضفة نهر اليوكون ، وأقاموا فيه كالمحاصرين .

وقد سدّ الثلج الطريق على خمسين من الرجال الباحثين عن الذهب فى بلدة ستيوارت ، فكانوا جماعة متآخية على تضارب أخلاقها ، وكان فيها طبيب وقاض وأستاذ ومهندس . وقد كان ذلك الشتاء بهجة كله فى عينى جاك ، ففى المخيم كتب كثيرة يطالعها ، ورجال يحدثهم فيثيرون كوامن فكره ، وكان كثيرون من الصيادين والهنود الحمر والمعدنين والباحثين عن الذهب يقطعون المسافات البعيدة طلباً للراحة والدفء فى كوخ جاك ، وقد خلد جاك ذكرهم بعد ذلك فى قصصه الساحرة عن ألاسكا .

وقد حاول جاك فى ذلك الشتاء مرة أن أن يجد الذهب الذى جاء فى طلبه ، وقد جعل يبحث عنه مع صاحبه طمسن فى الروافد الكثيرة التى تصب فى نهر يوكون ، فوجدوه فى النهر المسمى هندرسن ، فالماء المتدفع فى بعض مجراه ، قد منع الجمد أن يطبق على سطح النهر ، فضربا بمعاولهما ومساحيهما أرض النهر وأخرجا كتلاً من حصى وتراب تبرق فيها شذور لامعة ،

فانبهرت أنفاسهما وسجلا حقهما فى هذه الأرض ، وعجلا فى العودة إلى ستيوارت ليذيعا خبر ما وجدا ، وإذا بكل رجل فى المحلة قد خرج ليسجل حقه فى قطعة من الأرض ، وقال طمسن لجاك إن قيمة قطعتهما تبلغ ربع مليون ريال . وأيًّا كانت الأحلام التى راودت خيال جاك عن عودته إلى أوكلند مثقلا بأكياس من الذهب ، فإنها سرعان ما تبددت يوم قال المعدِّنون المتمرسون إن الشذور اللامعة ليست سوى معدن الميكا أو الطلق الشفاف .

فلما تنفس الربيع اشترك جاك ورجل يدعى الدكتور هارفى فى تفكيك الكوخ ، ثم شدُّوا أخشابه بعضها إلى بعض وجعلوا منها رَمَثاً طفا على ماء النهر حتى وصل إلى مدينة دوسن ، فباعا الخشب هناك بستمئة ريال .

ألفى جاك مدينة دوسن مخيما كبيراً يسكنه ٣٠ ألفاً من الناس، ويخترقه شارع موحل قامت على جانبيه الحانات والمراقص ، وكان روّاد الحانات يرحبون به ، وكان المعدنون يدعونه إلى الشرب معهم ، ويوفون ثمن الشراب ، لقاء شرف التندر معه ، وكانت النوادر والروايات التى يروونها له أوقع فى نفسه من الشراب الردىء . وكان ينفق لياليه فى بيوت القامرة ، يراقب الناس ويدوّن ما يرى فى مذكراته. وجعل يصغى إلى أحاديث الصيادين والمعدِّنين الذين كانوا فى ألاسكا قبل وجود الذهب فى كلونددايك، فاجتمع لديه أول تاريخ صادق لتلك المنطقة فى أيامها الأولى .

فلما وافى شهر يونيو عاد جاك إلى بلده ، فوصل وهو لا يملك شروى نقير ، ودون أن يخرج من الأرض درهما واحداً من الذهب.ومع ذلك فقد جنى من رحلة البحث عن الذهب مالاً يفوق المال الذى جناه أعظم الباحثين حظا وتوفيقاً .

فلما بلغ جاك مدينة أوكلند عرف أن جون لندن زوج أمه قد مات ، فحزن حزناً شديداً ، لأن الرجل كان قد غمره بحبه ، واليوم أصبح جاك رأس الأسرة ، فأكب على الكتابة لا ينصرف عنها إلا ليعمل أعمالا متفرقة ، وقد استغرق فى قصصه حتى شق عليه أن يصرف بعض عنايته إلى بعض أعماله المجدية كحش الحدائق ، ونفض السجاجيد وما أشبه ذلك ، فعضتهم الفاقة بنابها ، فاضطر جاك أن يرهن دراجته أولا ، ثم ساعته،ثم معطفه الواقى من المطر الذى خلفه له جون لندن ، وكان هوالشىء الوحيد الذى ورثه عنه .

ثم حدث أن تلقى ذات صباح كئيب

ظرفاً مستطيلا رقيقاً من مجلة « أوفرلند منثلى » ، فإذا كان الظرف ينطوى على رسالة تنبئه بأن قصصه عن ألاسكا قد قبلت لتنشر ، فهذا هو وجه الخلاص قد أسفر . وكان قد قرأ أن المجلات تدفع عشرة ريالات مقابل كل ألف كلمة ، وإذن فالقصة من قصصه التى تبلغ كلماتها ٥٠٠٠ كلمة ، تعود عليه بخمسين ريالا . ففتح الظرف بأصابع ترتعد ، فلم يجد فيــه تحويلا مالياً ، وكل ماوجده كان رقعة من ورق تقول إن المجلة تدفع له خمسة ريالات يوم نشر القصــة ، فضربه اليأس .

ولكن يأسه كانت قصير الأجل . ومن أغرب المصادفات فى حياته أنه تلقى فى أصيل ذلك اليوم ظرفاً مستطيلا رقيقاً آخر من مجلة تصدر فى شرق الولايات المتحدة وكان اسمها « بلاك كات » (القطة السوداء) ، وفى الظرف رسالة من المحرِّر يقول فيها إنهُ أرسل إليه تحويلا بأربعين ريالا .

فلما كان شهر يناير نشرت مجلة «أوفرلند منثلى» القصة التى قبلتها، فكان لا بدّ لجاك من أن يسير أميالا ليقترض ثمن نسخة من المجلة .

وكان « أوفرلند منثلى » قد عرضت عليه سبعة ريالات ونصف ريال ثمن كل قصة تالية يخصُّها بها ، فأرسل إليهـا جاك قصتهُ « السكون الأبيض » ، مع أن صاحبها لم يكن قد وفى ثمن القصة الأولى . فقبل المحرر نشرها دون تردد ، وقد صارت بعد من أشهر أقاصيصه .

فلما نفدت آخر كسرة من الخبز من البيت ، اقترض جاك أجر الزورق وذهب إلى مكتب « أوفرلند منثلى » ، فهاله أن يرى أن المجلة ليست بالمجلة الذائعة الصيت فى أقطار أمريكا كما كان يتصور ، وكان دخلها لا يكاد يقوم بأوَد محررها ومدير إدارتها ، فرحب الرجلان أحسن ترحيب بجاك لندن ، وأثنيا أبلغ ثناء على عبقريته ، ووعدا أن يرسلا إليه بالبريد فى صباح اليوم التالى خمسة ريالات . فلما هدَّدهما جاك بالالتجاء إلى العنف ، أخرجا من جيوبهما قطعاً صغيرةً من النقد بلغ مجموعها خمسة ريالات .

كانت أسرة جاك غارقة فى بحر من الدين، فقتّرت على نفسها حتى تكفيها الريالات الخمسة شهراً كاملا . بيد أنه تلقى فى الأشهر القليلة التالية بضع رسائل متفرقة تنبئه بقبول قصصه للنشر ومعها تحاويل بمبالغ ضئيلة . فلما كان شهر يوليو أدرك جاك منزلة الكاتب المعروف ، فقد نشرت قصصه ومقالاته فى خمس مجلات ، فكان ذلك كالمعجزة فى حياة فتى لم يناهز الثالثــة والعشرين ، ولم يمارس الكتابة حقاً إلا منذ تسعة شهور .

وقبل أن تنتهى سنة ١٨٩٩ أتيحت له الفرصة المرتقبة . كان قد كتب قصة طويلة جعل عنوانها « مغامرة الشمال » ، وتجرأ فأرسلها إلى مجلة « أتلانتيك منثلى » سيدة المجلات الأدبية وأعلاها كعباً وأعسرها منالا على الكتاب . ولو أخذ جاك بما كان مأثوراً عن تلك المجلة ، لكان خليقاً أن ترد إليه قصته مع رسالة فيها شىء من الجفاء ، بيد أنه تلقى رسالة من المحرر أثنى فيها على القصة وعرض أن يشتريها بمئة وعشرين ريالا .

فعانق جاك أمه وحملها وهو يصيح : « أنظرى ، أنظرى يا أماه ! لقد أدركت أمنيتى ، إننا فى طريقنا إلى القمة » .

والحق أنه كان أدنى إلى القمة مما كان يظن أو يتوقع ، فقد عرضت عليه دار النشر « هوتون ومفلين » المشتركة مع مجلة « أتلانتيك منثلى » أن تخرج له فى الربيع كتاباً يضم مجموعة أقاصيصه ، فحمله هذا النجاح على أن يفكر فى الزواج . وكان قد لقى فى مأتم صديق له فتاة حسناء هى « بسى مادرن » وكانت خطيبة الشاب المتوفى . وكانت « بسى » حزينة على فقيدها ، وكان جاك حزيناً على انفصام عروة الحب التى وثقها مع فتاة عرفها فى المدرسة ، إذ كانت أمها تعارض فى زواجهما . وكانت بسى فتاة متعلمة وقد مارست صناعة التدريس ، فما لبثت حتى صارت تراجع أصول القصص التى يكتبها جاك وتقوم أخطاءها ، وكانت تستحسن كتابته وتثق ثقة عمياء بأنه سوف يصير كاتباً من أعظم الكتاب فى العالم . فلما خطبها جاك قبلت من فورها .

كان التوفيق مقدراً لهذا الزواج ، ففى ربيع تلك السنة ، اقتحم جاك عرين مجلة « مكلور » ، مجلة الأقاصيص المشهورة فى ذلك العهد ، إذ قبلت أن تنشر ثلاثاً من أقاصيصه لقاء ثلاثمئة ريال . ولما صدر كتابه « ابن الذئب » ، وهو يضم مجموعة أقاصيصه . تلقاه النقاد بالثناء والحمد ، ويومئذ عرض عليه مكلور صاحب المجلة أن يرسل إليه مئة وخمسة وعشرين ريالا كل شهر خلال خمسة أشهر متوالية ، حتى يعكف على تأليف رواية .

وكانت سفينة حياته تسير رُخاءً يوم أنبأته بسى بأنها حامل ، فعظم فرحه ورضاه ، وكأن الغبطة بأنه سيصير أباً قد قدحت شرراً فى نفسه ، فلم تكد تنقضى خمس ساعات حتى شرع يكتب روايته « ابنة الثلوج » .

ولكن متاعب البيت كانت تحف به وهو يعمل : الحاجة التى لا تنقطع إلى المال ، والشجار الذى لا ينقطع بين فلورا وبسى ،

فقد أبت الأم أن تغفر لكنتها أنها اغتصبت منها منزلتها الأولى فى الأسرة . فلما أشرف على نهاية الرواية أدرك أن التوفيق قد أخطأه فيها، ووافقه مكلور على هذا الرأى والتقدير وقرر أن يمتنع عن نشرها .

ووضعت بسى طفلة تزن تسعة أرطال ، فساء جاك أن الوليد ليس ولداً ، بيد أن حبه للطفلة اشتد على الأيام .

وقد كتب فى سنة ١٩٠٤ : « تبدأ السنة الجديدة ، والهموم وخيبة الآمال تكتنفنى من كل ناحية » . فقد كان دينه يبلغ ثلاثة آلاف ريال ، وكان عاجزاً عن أن يكسب من عمله ما يكفى لنفقة الذين يعتمدون عليه ، وكان غير راض عن عمله وبطء ذيوع اسمه .

بيد أنك لا تجد مسوغاً كان يسوغ له هذا الشعور بالخيبة وعدم الرضى إذا نظرت إلى نجاحه فى ميدان التأليف ، فقد كتب إليه جورج بريت رئيس دار مكميلان للنشر فقال : إن قصصه هى خير ما يكتب فى هذا الضرب من القصص فى طول البلاد وعرضها . فأرسل إليه جاك مجموعة من الأقاصيص عن ألاسكا والهنود الحمر ، فقبلتها دار مكميلان من فورها .

فلما كان الربيع عرضت عليه شركة « الصحافة الأمريكية » أن يسافر إلى جنوب إفريقية ليوافيها بأنباء حرب البوير ، وكان يومئذ لا يزال غارقاً فى الدين، وكانت بسى حاملا أيضاً ، ومع ذلك فقد قبل ما عرض عليه قبل أن تنقضى ساعة .

فلما وصل إنجلترا وجد برقية تنبئه أن الاتفاق قد ألغى ، فألفى نفسه فى لندن على سبعة آلاف ميل من بيته ، ولا مال فى جيبه ولا عمل له . ولكنه كان طوال حياته رجلا يحسن مطابقة ما تقتضيه الحال ، فعزم أن يستقصى الحياة فى حى الفقراء فى شرق لندن، وكان يومئذ جحيماً ليس كمثله جحيم فى العالم الغربى . فلما علم ناشرو كتبه فى أمريكا ما ينوى أن يفعل ، هالهم الأمر ، وقالوا إنه خليق أن يكون عرضة للاغتيال وهو نائم فى سريره . ولكن جاك ذهب إلى دكان يبيع الثياب المستعملة ، واشترى ثياباً خلقة مهلهلة قذرة ، فلبسها وأم قلب ذلك الحى .

لقد عاد جاك مرة أخرى بحاراً كسائر البحارة خالى الوفاض ، لا أستاذاً باحثاً ينظر إلى أهل الحى من عليائه ، فعده القوم واحداً منهم ووثقوا به وتحدثوا معه . وقد أودع ما عرفه عن هذه الأنقاض البشرية فى كتاب جعل عنوانه « أهل الهوة » ، فصار من أشهر ما كتب فى العالم عن المحرومين من البشر

وعاد إلى نيويورك فوصلها فى نوفمبر ومعه فى حقيبته أصول هذا الكتاب ، فقبلت دار مكميلان على الفور أن تخرجه ، ورضى رئيسها برين ، الذى غمر جاك لندن بحبه وعطفه ، أن يدفع له مئة وخمسين ريالا كل شهر مدة سنتين ، على أن يكون له التقديم فى اختيار ما يرتضيه من مؤلفات جاك للنشر .

واجتمع جاك بأسرته فكان اجتماعاً رفّ عليه الفرح والرضى ، ولكن بسى وضعت طفلة ، فخاب رجاؤه فى أن يكون له ابن من صلبه ، وظلت هذه الخيبة تعذبه وتنهش قلبه .

خطر له خاطر جديد هزّه فنفض عنه رداء الكسل ، فكان ذلك الخاطر قصة عن كلب عزم أن يقصها فيما لا يزيد على أربعة آلاف كلمة . فلما انقضت أربعة أيام ألفى نفسه قد كتب أربعة آلاف كلمة ، ولكنه دهش حين تبين أنه لم يكد يبدأ القصة . فعزم أن يجعل عنوانها : « نداء الغاب » وأن يدعها تنمو وتتسع بين يديه كما تشاء ، فليس بين القصص التى عنى بها قصة كهذه ملكت عليه لبه وأذكت خياله . فقضى ثلاثين يوما بتمامها وهو يكتب ولا ينى ، مهملا كل شىء — أسرته وديونه وطفلته الوليدة .

وأرسل جاك القصة إلى مجلة « ستردای إيفننج پوست » فردّ المحرّر عليه برسالة يتفجر منها الثناء ، وبحوالة قيمتها ألف ريال ، وعرض عليه بريت رئيس دار مكميلان ، ألفى ريالٍ أخرى من أجل حقوق نشرها فى كتاب ، على أن ينزل جاك عن حقوق الطبع جميعاً وأن يقبض المبلغ فوراً . فتدبر الأمر فوجد أنه لم يجن من أحد كتبه ألف ريالٍ ، وكان يأخذ حصتهُ على عدد النسخ التى تباع ، وهذه ألفان من الريالات تدفع فوراً ويمكن التصرف فيها ، وبخاصة فى إعداد تلك السفينة « سبراى » التى أخذت بمجامع قلبه ، فقبل ما عرض عليه وباع حقوق الكتاب كلها .

كانت السفينة « سبراى » سفينة صغيرة ذات حجرة تتسع لنوم اثنين ، فاشتراها لا لأنه كان يتوق أن يعود إلى الحياة على صفحة الماء وحسب ، بل لأنه كان ينوى أيضاً أن يكتب رواية بحرية ، فأراد أن يطأ بقدميه متن سفينة قبل أن يشرع فى كتابتها ، وزوّد السفينة بالطعام والأغطية وخرج بها فى رحلة دامت أسبوعاً إلى المياه التى كان يختلف إليها يوم كان واحداً من قراصنة المحار . وعاد بعد أسبوع وقد امتلأت خياشيمه برذاذ الملح ، وأطبقت أنامله على حبال الشراع ، فبدأ يكتب

« ذئب البحر » . وكان إذا ألفى المتاعب في البيت تؤوده أو تقطع عليه عمله ، يعمد إلى السفينة فيخرج بها إلى عرض البحر ، ويكتب كلَّ صباح ما يملأ ثلاث صفحات وهو جالس على ظهرها .

وفي أواخر يونيو استأجرت بسي بيتاً للاصطياف في مصيف يدعى « جلن إلن » في وادي القمر ، وأما جاك فأراد أن يمضي في رحلاته البحرية وأن يحصر اهتمامه في إنجاز رواية « ذئب البحر » ، فبقي في البيت الذي استأجراه منذ سنة في بلدة بيدمونت . وكان ذات ليلة في عربة على طريق جبلي ، فهوت العربة في وادٍ عميق ، فأوذي جاك أذى كبيراً ، فكانت تعوده فتاة تدعى شارميان كتردج وتعنى بتمريضه ، وكان قد لقيها في نفس الشهر الذي لقي فيه زوجته بسي ، فصارت صديقة لها وكثر ترددها على بيتهما . فلما صار في وسعه أن ينهض ويمشي ، انضمَّ إلى أسرته في المصيف . وجاءت شارميان أيضاً لتنزل على عمتها ، فكان لهذا الحادث أثر بليغ في حياة جاك لندن .

وجد جاك أسرته تعيش عيشة الراحة والاطمئنان في كوخ قائم في خميلة معطرة ، وكان الذين خيموا هناك يطبخون طعامهم في مطبخ مشترك على ضفة النهر ، ويأكلونه على موائد طويلة كالموائد التي تمدُّ في نزهات الخلاء ، ويسبحون في ماء النهر البارد الصافي . فكان جاك يلعب مع طفلته كل يوم بعد الغداء ، أما في الصباح فكان يلتمس مكاناً منعزلاً يكتب فيه . وذات ليلة من أواخر شهر يوليو ، اجتمع الناس المخيمون في تلك الخميلة ، وانضم إليهم الصغار وهم مدثرون حتى لا يضرّ بهم البرد ، لكي يستمعوا إلى جاك لندن يقرأ عليهم قصة « ذئب البحر » . وكان يقرأ من أصوله المخطوطة على ضوء شمعة ، وكان الناس منبطحين على الأرض من حوله وعند قدميه ، وكان الفجر قد أخذ يسفر حين قلب صفحته الأخيرة . ولا يزال الأحياء من الذين استمعوا إليه يقرأ هذه الرواية ، يعدّون ما حدث من أروع ما وقع لهم في حياتهم .

فلم تكد تنقضي ساعات قليلة حتى حدثت زلزلة مزقت أسرة جاك لندن . وقد روت زوجته القصة فقالت :

« حدث ذات يوم أن بقيت مع جاك قرب الجدول بعد طعام الغداء ، وجعلنا نتجاذب أطراف الحديث . وقد كان يريد أن يعود إلى أوكلند ليقضي فيها أياماً ، لأنه وجد في حياة المصيف ما يقطعه عن عمله ، وقال إنه يفكر في شراء مزرعة مواشٍ

فى صحراء كاليفورنيا الجنوبيـة ، وسألنى أأرضى أن أعيش فيها ، فقلت له إننى أرضى . وجعلنا ندبر أمرنا حتى نذهب إليها فى الخريف .

« وفى نحو الساعة الثانية عدت بالطفلين إلى البيت حتى يناما ، وكانت مس كتردج تنتظرنا . فلما فرغنا من الحديث رأيتهما يسيران معاً حتى جاءا إلى مكان فجلسا ، فلم يطف بخيالى شىء ، وقد ظلا جالسين معاً أربع ساعات وهما يتحدثان .

« وفى الساعة السادسة أقبل جاك على البيت وقال : « بسى ، سوف أتركك » . فقلت : « أتعنى أنك عائد إلى بيدمونت ؟ » فقال : « لا . سأتركك ... سننفصل » ، فتهالكت على حافة السرير وحدّقت فيه كالذاهلة زمناً طويلا لا أقوى على الكلام ، ثم قلت له : « ماذا تعنى ... فقد كنت تتحدث منذ هنيهة عن مزرعة فى جنوب كاليفورنيا ... » فجعل جاك يردد قوله إنه سينفصل عنى ، وظللت أنتحب وأنا أقول : « لا أفهم ... ماذا حدث ؟ » ، فأبى أن يضيف إلى قوله كلمة أخرى » .

وما كان أحدٌ يعلم ، ولا بسى على الخصوص ، أن شارميان كتردج قد نفذت إلى شغاف قلبه . ولو كانت بسى ممن تنهش قلبها الغيرة من بعض النساء ، لما كانت شارميان إحداهن ، فقد كانت أكبر من جاك ، وكانت على شىء من الدمامة ، وكانت مضغة فى أفواه كثيرة ، ومنها فم جاك نفسه . ومع ذلك فقد أحس جاك فى أعماق نفسه بقوة مدمرة لا يستطيع دفعها ترغمه على أن يترك زوجته وابنتيه من أجلها .

ولما أصبح الصباح عاد جاك إلى بيدمونت ونقل أمتعته من البيت واستأجر غرفة ، فلم تكد تنقضى أيام حتى عرفت الصحف بما كان من انفصال الزوجين ، ونشرت الخبر فى صفحاتها الأولى بحروف كبيرة .

وقد ظلت صلة جاك بشارميان خلال السنتين التاليتين ، أميل إلى الحذر والتستر . وقد كان الحبيبان يجتمعان خفية مرة أو مرتين فى الأسبوع ، خشية الفضيحة التى لا مفرّ منها لو عرف سبب انفصال جاك عن زوجته . فإذا ما حالت الظروف دون اجتماعهما تبادلا سيلاً من الرسائل ينفّسان فيها عما يعتلج فى قلوبهما .

وعلى أن شارميان لم تكن فتاة حسناء — فقد كانت رقيقة الشفتين ضيقة العينين متهدلة الجفنين — فإنها اصطنعت لنفسها مظهر الشجاعة وقلة المبالاة ، إذ اضطرت بعد وفاة أبيها أن تكسب رزقها بنفسها ، فتدربت حتى صارت سكرتيرة بارعة ، يوم كانت الفتاة العاملة شيئاً غير مألوف . وكانت

واسعة الاطلاع على الأدب ، جريئة الفكر لا تتقيد بالعرف ، وكانت تحب الموسيقى ، وتحسن الغناء بعض الشيء ، وقد أخذت نفسها بنظام حازم ، على الرغم من أنها كانت تعمل ستة أيام فى الأسبوع ، فتعلمت العزف على البيان حتى صارت تجيده . وكانت فتاة لا تكاد ترهب شيئاً .

وكانت شارميان مقتنعة بأن زوجة جاك لا تصلح له ، وأنها تستطيع أن تكون هى الزوجة التى يحتاج إليها ، زوجة تشاركه فى رحلاته ومغامراته ، لا زوجة تلزم البيت مقيدة بنظامه .

وقد عسر على بسى أن تدرك لماذا أحب زوجها أن يهجرها على حين فجأة ، ولكن كبرياءها منعتها أن تتشبث به أو أن تخرج عن طورها أمامه أو أمام الناس . ولما نزلت بها هذه البلية لم تجد صديقاً يواسيها سوى أمه فلورا . وقبل ذلك ظلت فلورا وبسى ثلاث سنوات متلاحقة وهما تتشاجران حتى ضاق جاك ذرعاً بهما ، أما الآن فقد انقلبت الأم على ابنها لأنه هجر زوجته وابنتيه . وأحنق جاك ما رآه من « خيانة » أمه ، فاضطربت نفسه اضطراباً عنيفاً حتى تعذر عليه أن يعمل ، وقد ظل على هذه الحال يائساً من إنجاز روايته « ذئب البحر » حتى خرج فى رحلة على سفينته سبراى .

فى أثناء ذلك أقبل القراء على روايته « نداء الغاب » التى ظفرت بثناء النقاد ، إقبالا عظيما ، ولو كان احتفظ بحقوق الطبع ، لبلغ ما يجنيه من النسخ التى بيعت مئة ألف ريال . ولكن جاك لم يؤسفه أنه عقد الصفقة التى عقدها مع بريت ، فقد أنفق هذا الرجل مالا كثيراً فى الترويج لاسم جاك ، وقد كان جاك يدرك قيمة ذلك الترويج فى مستقبل أيامه .

كان جاك قد أرسل إلى بريت النصف الأول من رواية « ذئب البحر » ، فعرضها على مجلة « سنشورى » ووصى بها أبلغ توصية ، فقبل محررها أن ينشرها مسلسلة فى مجلته ، وأن يدفع أربعة آلاف ريال لقاء حقوق النشر المتسلسل ، فابتهج جاك أعظم ابتهاج وعقد الصفقة بالتلغراف . وأكب على عمله وقد تجدد نشاطه ، وحصر ذهنه فيه ، فأنجز الرواية فى ثلاثين يوما كان فيها كالمحموم .

فلما نشبت الحرب بين روسيا واليابان فى سنة ١٩٠٤ عرضت عليه خمس من شركات الأنباء أن يكون مراسلا حربياً لها ، فاتفق مع الشركة التى عرضت عليه أكبر أجر ، وهى شركة هرست ، وقضى عدة شهور فى ميادين القتال . وقد حاولت

الحكومة اليابانية أن تمنع المراسلين من مشاهدة القتال الدائر ، فقنع فريق من المراسلين الذين لم يطبعوا على الإقدام والمغامرة، أن يقيموا فى طوكيو طوال الحرب . أما جاك فاستجاب لداعى العزيمة والإقدام فى طباعه ، واستأجر زورقاً يابانياً ، وعبر به البحر الأصفر معرضاً نفسه لأخطار كثيرة ، حتى يكون على مقربة من القتال الدائر . وقد فاق جميع المراسلين فى عدد الرسائل التى بعث بها إلى شركته ، ونال قصب السبق فى نقل حوادث كثيرة خطيرة، فصار اسمه أذيع كثيراً مما كان .

فلما عاد لقى على رصيف الميناء محضراً من المحكمة أبلغه طلب الطلاق الذى قدمته زوجته بسى .

فأتت عليه بعد ذلك فترة عانى فيها شقاء النفس وعقم العقل ، فقد أشقاه أنه خسر ابنتيه ، وأنه آذى زوجته بسى ، وأن عقله قد جمد ، فلا يخطر له خاطر جديد رائع ولا يستهويه مشروع من المشروعات .

ولكن الترحيب العظيم الذى لقيه كتاب « ذئب البحر » ، وهو كتابه العاشر فى أربع سنوات ، كان بدء مرحلة جديدة إلى ذروة مجده . فقد صار الكتاب حديث الناس بين عشية وضحاها ، ولهجت الألسن بذكره مدحاً وذماً . وقد وصفته طائفة من الصحف بأنه وحشى تشمئز منه النفوس، ولكن الكثرة من الصحف اتفقت على أنه نتاج « عبقرية مبتكرة نادرة » . فلم تكد تنقضى ثلاثة أسابيع على صدوره حتى كان فى طليعة الكتب الرائجة .

وقد كسب جاك لندن فى حياته القصيرة مليون ريال أو أكثر ، ولكنه كان ينفق ماله قبل أن يصير بين يديه ، ثم يجهد نفسه فى التمهيد للظفر به . وقد كان يقول : « ربّاه ! سأظلّ عبداً لعادة تبذير المال » .

وكان إلى شهرته فى تأليف الروايات محاضراً مشهوراً ، يكسب مئات من الريالات فى اليوم حين يطوّف ليحاضر . وكانت الجماهير تحبّ فيه رجولته القوية وإخلاصه وحماسته فى معالجة موضوعات الإصلاح الاجتماعى ، وبسمته الفاتنة، وضحكته الرنانة.

وكان يحاضر فى بلد يبعد عن سان فرنسسكو يوم جاءه النبأ بأن الحكم قد صدر بطلاق بسى منه ، فأبرق من فوره إلى شارميان حتى تلحق به ، وتزوّجا . فلما صدرت صحف الصباح الثانى وصفت هذه المبادرة إلى الزواج بقولها « عجَلة منافية للذوق » . وقد كانت الصحف تؤازره وتعطف عليه ، فانقلبت عليه بعد زواجه الثانى وصارت تصبّ عليه جام سخطها ، وسخريتها أيضاً . ولو قنع بأن يهدأ بضعة

أشهر قبل أن يتزوّج شارميان ، لاجتنب هذه الفضيحة ، ولما عرّض نفسه للتهجم عليه من كل ناحية .

جاء شهر فبراير سنة ١٩٠٦ فكان يحاضر في مدينة سانت بول فأصيب بمرض ، فألغى بقية المحاضرات وعاد إلى بيته في «جلن إلن» ، وكانت نفسه قد شبعت من المدن والجماهير فتاق إلى الرحلة في البحر ، وصار يحدث زوجته عن رحلة حول العالم . وقد كانت هذه الرحلة مُنية حياته وحياتها ، فقد كانت شارميان تجاريه في حب المغامرة وتحثه عليها . فشرع من فوره يدبر خطة لرحلة حافلة بضروب من روعة المغامرة ، تصغر بإزائها كلّ مغامرة سابقة في حياته .

وقد كتب جاك بضع رسائل إلى محرّري المجلات الكبيرة في الشرق الأمريكي عسى أن يقنعهم بأن يحملوا معه بعض نفقات الرحلة . قال : «يبلغ طول السفينة ٤٥ قدماً ، وأنوى أن أقلع في أكتوبر ، والرحلة تستغرق سبع سنوات على الأقل » .

كان خليج سان فرنسسكو يعجّ بسفن كثيرة تصلح لركوب البحر ، وكان يستطيع أن يبتاع إحداها بثمن معقول ، ولكنه أبى أن يسير أية سفينة إلا سفينة يرتضيها هو . وكان في مدينة سان فرنسسكو مهندسون قد تفوقوا في تصميم السفن وبنائها ، ولكنه أبى أيضاً إلا أن يرحل في سفينة قد صنعت طبقاً لمثال تخيله في ذهنه .

وكان روسكو إيمز ، خال شارميان ، قد تولى تسيير زوارق صغيرة في مياه سان فرنسسكو يوم كان من أهل الترف ، فاتفق معه جاك على أن يأخذ التصميم إلى الأحواض وأن يشرف على صنع السفينة الجديدة « سنارك » . وقد فعل جاك ذلك مع أنه كان يعرف أن روسكو رجل لا يصلح لعمل ، وأن تجربته البحرية ضئيلة لا تغنى ، وكان جاك قد قدّر أن بناء هذه السفينة يكلفه سبعة آلاف ريال ، فقال لروسكو : « أنفق هذا المال كله في بنائها ، واحرص على أن تكون أمتن سفينة على الماء » .

فابتاع روسكو المواد اللازمة ، واتفق مع العمال واستأجر مكاناً في حوض الصنعة ، ثم حدث زلزال سان فرنسسكو وتابعته النار الحاصدة ، فالتهمت مواد البناء ، وأعقب ذلك شلل حلّ بتجارة المدينة وصناعتها ، فمضت أسابيع كثيرة دون عمل يذكر في السفينة ، ولم يشرعوا في بنائها إلا في شهر يونيو .

فلما انتصف الصيف ألفى جاك نفسه قد أنفق على السفينة عشرة آلاف ريال ، وهي كلّ ما في يديه من المال ، بيد أنها لا تزال

فى أولها . وأخذت ردود المحررين الذين كتب إليهم فى فبراير تتوالى عليه ، ولم يجد بينهم من عُنى بمشروعه .

وفى أول أكتوبر — وهو اليوم الذى كان قد عينه ليقلع بسفينته — وجد أنه قد أنفق عليها خمسة عشر ألف ريال ، ولكنها لا تزال فى منتصف الطريق إلى التمام . وأدرك جاك يومئذ أنه أخطأ خطأ فادحاً يوم اعتمد على روسكو إيمز ، وبلغ منه اليأس أنه صار يشرف بنفسه على بناء السفينة حتى تمّ . وأخذت الصحف تنشر مقطوعات ساخرة تندّد فيها بتلكؤ جاك لندن ، وجعل أصدقاؤه يتراهنون معه على إرجاء موعد سفره مرة بعد مرة .

وعلى أن جاك قد أدرك أن روسكو إيمز رجل لا كفاية فيه ، فإنه لم يبادر إلى طرده والاتفاق مع ربّان مجرّب ، بل قنع بأن يدفع له المال حتى يتعلم الملاحة ، وردّ جميع البحّارة المجرّبين الذين عرضوا عليه أن ينضموا إليه ، فاكتفى بأن يضم إليه فى جماعة السفينة زوجته شارميان ، وروسكو إيمز ، ومارتن جونسن الذى صار فيما بعد مستكشفاً مشهوراً فى إفريقية ، وطالب جامعة اسمه هربرت ستولتز ليكون بمنزلة المهندس ، وخادماً يابانياً . وما كان أحد منهم ، سوى جاك ، يعرف كيف ينشر شراعاً .

وقد أبى الناس أن ينظروا إلى السفينة سنارك نظرة الجِدّ والاهتمام ، ولا سيّما الرجال الذين ضمّهم جاك إليها . ورآها البحارة المجربون فقالوا بفساد تصميمها وبنائها ، وبأنها ستغرق فى لُجج اليمّ .

وأدرك جاك أنه لن يتمكن من أن ينجز بناء السفينة فى سان فرنسسكو ، فعزم أن يبحر بها إلى هنولولو فى جزائر هوائى فيتمها هناك . فلما حاول العمال أن ينزلوها عن أعوادها انهارت الأعواد وهوت السفينة ، وسبق مؤخرها مقدمها فى السقوط فارتطم فى الوحل .

فلما حسب جاك حسابه تبين أنه قد أنفق خمسة وعشرين ألف ريال على هذه السفينة المشلولة ، فأشار عليه أصدق أصدقائه بأن يسلّم بالهزيمة ، وقالوا إن سفره فيها إذا استطاع أن يبحر بها ، كفعل من يبحث عن حتفه بظلفه . فقال : « لا أستطيع أن أتراجع » . وتعاونت الأيدى فأخرجت السفينة من الوحل وأنزلت فى الماء ، وأرسيت قرب رصيف فتمّ ترميمها فى حال من الفوضى تجلّ عن الوصف ، وزوّدت بالطعام وحمّلت بأمتعة جماعتها .

وقد اصطلحت المصائب على جاك ، فسرق ماله ، وسخر منه الناس وعدّوه رجلا أحمق لا رجاء فيه ؛ ولكنه مع ذلك رفع مرساته

فى ٢٢ إبريل ١٩٠٧ وأقلع ، فمضت السفينة متثاقلة وعبرت الخليج إلى البوّابة الذهبية ومنها إلى عرض المحيط الهادىء ، فكان ذلك كالمعجزة : فملاّحها لا يعرف الملاحة ، ومهندسها لا يحسن الهندسة ، بل إن طباخها لا يعرف الطبخ .

وعلى أن انسياق جاك مع خياله وعواطفه كان أصل بلائه ، فقد زاد هذا البلاء جشع الرجال الذين من حوله . فلم تكد تمضى أيام على خروج السفينة إلى عرض المحيط حتى بدأ الماء يتسرب من شقوق بين ألواح الخشب على ظهرها فتلف الزاد ، ثم بدأ يتسرب من جانبها . أما الحجر التى كلفه بناؤها مبلغاً طائلاً من المال لتكون عصيّةً على نفاذ الماء ، فقد صار الماء يتسرّب من إحداها إلى الأخرى . وأما الأدوات التى ركبت فى غرفة الحمّام فقد تلفت فى بحر عشرين ساعة .

ولم يتبين جاك إلا بعد أيام ، أن روسكو لم يتعلم شيئاً من الملاحة يوم كان يدفع له مالا ليتعلمها ، وأن السفينة التى أخذ الماء يتسرب إليها قد ضلت فى عرض المحيط . فأخرج جاك كتب الملاحة وأكب على دراستها ، ثم رسم الخرائط برصد الشمس . وقد كتب فيما بعد : « إن الاهتداء فى الملاحة بالشمس والقمر والنجوم قد صار شيئاً هيناً بفضل علماء الرياضة والفلك » وقد مكنته قدرته العجيبة على حصر الذهن من أن يحذق المعرفة اللازمة للتغلب على هذه العقبة — الملاحة الصحيحة .

فلما هاج البحر وعلت أمواجه ، لم ينفع السفينة سنارك حيزومها البديع الذى أنفق عليه جاك شيئاً كثيراً من همه وماله ، بل كان خطراً محققاً لأنه يحول دون إدارة السفينة حتى تواجه الريح حين تشتد العاصفة . وكان ترنح السفينة فى البحر المائج كافياً لينزل الدوار بمارتن جونسن والخادم اليابانى ، فصار جاك مضطراً أن يضيف إلى مهامه الكثيرة الشاقة محاولة طبخ الطعام وهو واقف فى حجرة يرتفع فيها الماء إلى الركبتين ، ولكنه حاول عبثاً . وكانت شارميان تتولى الدفة فى الحين بعد الحين ، أما روسكو فكان قد اشترى قبل الرحيل طعاما محفوظاً بعثات من الريالات على حساب جاك وخزنه وأقام فى غرفته يأكله ، وأنبأ جاك أنه لا يستطيع عملاً لأنه مصاب بالإمساك .

ففى هذا الخطر الذى كان يحدق بهم ، والفوضى الشائعة فى السفينة وهى مهددة بالغرق كل يوم ، كان جاك ينتحى مكاناً على ظهر السفينة ، وشرع يكتب روايته «مارتن إيدن » ، ولعلها أجود رواياته ومن أعظم الروايات الأمريكية . وأنت ترى اليوم الصحائف التى سوّدها جاك بحبره ، فلا ترى

فيها تنقيحاً يذكر ، فهي تدلُّ على قدرته الهائلة على تنظيم العمل وحصر الذهن حين يؤلف .

بعد رحلة دامت سبعة وعشرين يوما ، رأى ركاب السفينة المنكودة الطالع قمة جبل هاليا كالا الذاهبة عشرة آلاف قدم فى الجو ، فاغتبط جاك أيما اغتباط بدقة حسابه . وفى صباح اليوم التالى دخلوا برل هاربر ، فأقبل زورق من نادى اليخوت لاستقبالهم ، وجاءهم بصحف وبرقيات من أمريكا ، وفيها أن السفينة سنارك قد غرقت .

وقد قضوا خمسة أسابيع على شاطىء هونولولو ، أكبَّ فيها جاك كالمحموم على كتابة المقالات التى يرجو أن تجدى عليه مالا قد اشتدت حاجته إليه . وقد ظلَّ اثنى عشر يوما لا يدنو من سفينته ، فلما ذهب إليها بعد ذلك وجد أن أحداً من رجالها لم يعن بتنظيف سطحها ، وأن كثيراً من أشيائها قد بدأ يتلف تحت الشمس الحارقة ، فطرد روسكو إيمز والمهندس هربرت ستولتز وأعادهما إلى كاليفورنيا .

ثم بعث من فوره ليجىء برجل يدعى جين فنلون ليتولى عمل مهندس السفينة ، وقد ذكرت الصحف فى معرض السخرية أن « فنلون تدرَّب على الملاحة يوم كان مصارعا فى ملهىً » . وقد جاء وقضى بضعة أشهر وهو يحاول أن يصلح السفينة ، ثم عاد إلى كاليفورنيا وهى أسوأ حالا مما كانت قبل مجيئه .

بيد أن جاك وشارميان كانا يستمتعان فى أثناء ذلك بضيافة أهل هوائى وكرمهم ، فقد رحبوا بهما فى كل مكان واحتفوا بهما . وكان كل يوم يسفر عن مغامرة جديدة رائعة ، فقد صادا السمك على ضوء المصباح الكهربائى مع الأمير كالامانولى ، وشهدا الحفلات التى أقامها أهل الجزيرة ، وسبحا فى مياه البحر الدافىء تحت ضياء القمر .

وفى منتصف شهر أكتوبر أقلع جاك ميمماً شطر جزائر ماركيز ، وكان معه فى هذه الرحلة من رحلته ربان هولندى مجرب . ولم يجد بين الذين ضمهم إليه فى سان فرنسسكو رجلا كفؤاً للمغامرة سوى مارتن جونسن الفارع الطول الوضىء الوجه . وكانت شارميان أيضاً قد أقامت الدليل على كفايتها ونفعها فى هذه الجماعة ، فهي جريئة القلب واسعة الحيلة ، مطمئنة النفس إذا ساءت الحال ، أنيسة المحضر إذا حسنت .

وبعد أن مضت أيام على إبحارهم ، فتح جاك كتاب الملاحة فى جنوب المحيط الهادى فقرأ فيه أنه لا يوجد فى التاريخ المدوّن ذكر سفينة شراعية واحدة استطاعت أن تعبر

من جزائر هوائى إلى جزائر ماركيز ، فتيارات المحيط عند خط الاستواء ومهابّ الرياح التجارية ، تجعل ذلك فى نظر البحّارة أمراً مستحيلا . فنجاتهم من كارثة تحل بهم يكاد يكون من المعجزات .

وقد هبّت رياح شديدة هدّدت السفينة الصغيرة بأن تحطمها كأنها عود ثقاب ، فظلوا ستين يوماً لم يروا فيها ذات شراع أو دخان ، وقد اندلق نصف الماء العذب المحمول فى السفينة ، فلم ينجهم من الموت ظمأً سوى مطرٍ هطل عليهم رحمة من الله . وكان جاك كالشابّ الذى يعيش فى نشوة دائمة ، يرسم الطريق للسفينة فى مجاهل المحيط ، ويصيد الدلفين والقرش ، ويكتب كل يوم ألف كلمة فى روايته « مارتن إيدن » . وبعد أن قضوا شهرين كاملين فى البحر يحفّ بهم خطر دائم ، وصلوا إلى ثغر نوكوهيفا فى جزائر ماركيز .

•

قضوا فى تلك الجزائر اثنى عشر يوماً كلها رائع ، صاد جاك فى أثنائها العنز البرّى ، وشهد حفلات الأهلين ومراقصهم ومآدبهم ، ثم رفع مرساته وأبحر إلى جزيرة تاهيتى . فلما بلغها علم أن الناس فى أمريكا كانوا قد قطعوا الأمل مرة أخرى من نجاة السفينة ، وقد نشرت صحف كثيرة مقالات تعرب فيها عن أسفها الصادق على فقد كاتب شابٍّ موهوب . أما الصحف الأخرى فقد زعمت أنه يوهم بأنه قد ضاع حتى يتوسل بذلك إلى الإعلان وذيوع الذكر .

وجد فى تاهيتى طائفة من الرسائل أرسلت إليه من أمريكا فطالعها ، فتبين أن شئونه قد اضطربت اضطراباً فظيعاً بعد غياب لم يدم سوى ثمانية أشهر . فقد رسخ فى ذهن مدير مصرف أوكلند أنه قد مات ، فحجز على بيت أمه فلورا لقاء مال الرهن . وكان قد صرف شيكات فى هوائى مجموع قيمتها ٨٠٠ ريال ، فردّها المصرف لأن « ماله فى المصرف دون الكفاية » ، فضجت الصحف بهذا الخبر . وقد كان كل ذلك من جراء تبذير مسز روسكو إيمز وسوء تدبيرها ، وكان جاك قد جعلها وكيلا عنه قبل الرحلة وفوض إليها أموره . فعزم جاك أن يعود إلى أمريكا فى أول سفينة حتى يسوّى أموره

فلما نزل إلى البر فى سان فرنسسكو نشرت الصحف بحروف ضخمة نبأ وصوله وسخرت منه سخرية لاذعة ، فلما قال لأحدهم إنه ينوى أن يعود بالسفينة التى جاء بها إلى تاهيتى بعد أسبوع ، حاول أصدقاؤه أن يثنوه عن عزمه وحثوه على أن يبقى فى أمريكا مادام قد أقام الدليل على قدرته أن يقوم برحلة كهذه الرحلة ، ولكنه لم يعرهم التفاتاً .

وقد عني في هذا الأسبوع القصير المزدحم بإرسال برقية إلى ناشري كتبه ، يطلب منهم مالاً مقدماً على حساب روايته «مارتن إيدن» التي كاد يفرغ منها ، ورفع الحجز عن بيت أمه ، وسدّد المتأخر من الفائدة على ثمن المزرعة ، واتفق مع طائفة من المجلات على مقالات يكتبها عن رحلته ، ودبر أموراً أخرى خاصة بنشر كتبه .

فلما عاد إلى تاهيتي في إبريل أبحر في سفينته سنارك إلى جزائر فيجي، فبلغ عاصمتها سوفا في يونيو ، بعد أن توقف في الطريق غير مرة . فنزل الربان الهولندى إلى البر ولم يعد ، فصار جاك منذ ذلك اليوم ربان السفينة أيضاً ، وجعل يطوّف فيها بين جزائر سليمان ، وعاش حينا بعد حين على مزارع في الأدغال عيشة أقرب ما تكون إلى الفطرة والتوحش والتجوّل في نواحي الأرض . فلما كان في مالايتا كمن له أكلة لحوم البشر وهجموا عليه ، وسدّدوا إليه نبالاً مسمومة ، واعتدت عليه قبائل من السكان وهم يتصايحون ، فكتب عن أيامه هذه فقال : « إنها أمتع أيام في حياتي » .

كانت أمراض المنطقة الحارّة تحفّ به من كلّ جانب. فأحال سفينته إلى مستشفى، وقد تعرّض رجاله لضروب الأذى ، فإذا جرحت ساق أحدهم وهو يربط قاربه على الشاطىء ، أو وهو يمشي في الأدغال ، تكوّنت قرحة لا تلبث حتى تصبح قرحاً عديدة ، فإذا كل قرحة منها في حجم الريال من الفضة . ولما كانوا في جزائر سليمان أصيب رجال السفينة جميعاً بالملاريا ، وكثيراً ما كانت القشعريرة والحمى تركب خمسة منهم مرة واحدة ، فيترك أمر تسيير السفينة لسادسهم ، ساء الجو أو سكن . وبعد أن توالت نوبات الملاريا على جاك أشهراً كثيرة، صار يقضي نصف وقته تقريباً وهو طريح الفراش ، ومع ذلك كان يستمتع بهذه المتاعب لأنه كان يتخيل أنها بعض ما ينبغي أن يمنى به الرواد والمستكشفون من المشاق . وكان يحب أن يصف نفسه بوصف الطبيب الهاوى ، فكان يخلع أضراسه ويداوى قروح شارميان ومارتن جونسن بالسليماني ، ويضع بيده أقراص الكينا في حلق الخادم ، فقد أصيب هذا الياباني بحمى البول الأسود وسلم أمره إلى ربه على أنه ميت لا محالة .

لم ينصرف جاك خلال ذلك كله عن زيارة الجزائر التي يرسى في مياهها كلما أتيح له ذلك، وكان يدوّن مذكرات وافية، ويصور الصور ، ويجمع أشياء القبائل : من خشب منحوت ورماح وأقمشة ، لينشىء بها في بيته متحفاً للبحار الجنوبية . وكان لا يثنيه

عن كتابة القدر المقرر كل يوم سوى إصابته بنوبة الملاريا .

فلما وافى شهر سبتمبر سنة١٩٠٨ذهبت عنه روعة القيام بدور طبيب من الهواة ، فقد بدأت يداه تتورمان من إصابته بالاستسقاء ، فكان يجهد نفسه جهداً أليماً حتى يطبقهما ، ثم أخذ جلده يتقشر طبقة بعد طبقة حتى تقشرت ست طبقات ، فكان ذلك عذاباً فظيعاً . وقد عجزت المخاطر والمشاق عن تثبيط همته ، وكانت سخرية الناس وخوف الإفلاس حافزاً لها . أما المرض فقد غلبه على أمره . فلما اصطلح عليه العجز والألم،أبحر فى سفينة مسافرة إلى أستراليا ودخل مستشفى فى مدينة سدنى ، فتحير الأطباء فى مرضه ، فليس له ذكر فى تاريخ الطب .

فلما تبين أن علاج الأطباء لا يجديه شيئاً فى المستشفى، قضى الأشهر الخمسة التالية متنقلا بين فنادق سدنى عسى أن يتاح له علاج يمكنهُ من أن يعود إلى سفينته سنارك. وكان عاجزاً عن الكتابة ، بل كان الألم يبرّح به حتى ليعجز عن القراءة . وأخيراً أدرك أنه إذا لم يعد إلى وطنه ، فإن عظامه تدفن فى البلاد الحارّة . فبتّ رأيه وعرض السفينة سنارك للبيع ، فبيعت بثلاثة آلاف ريال .

عاد جاك إلى سان فرنسسكو بعد سنتين أو أكثر من التطواف ، فقال للصحفيين : « لقد بلغ منى الإعياء فعدت إلى الوطن حتى أصيب قسطاً وافراً من الراحة » . وكان يومئذ ينوء بعبءٍ باهظٍ من الدين ، وكانت صحتهُ قد نهكت ، وظنّ محررو الصحف والمجلات أنّ معينــه قد نضب ، إذ مضت سنة لم يروا فيها من آثار قلمه شيئاً يذكر .

ولكنهُ لم يكد يعود إلى وطنه حتى تحسنت صحته تحسناً سريعا ، فلما وقع على كتاب عنـوانهُ : « أثر ضوء المناطق الاستوائية فى الرجال البيض »،وعرف منه أن ما أصيب به من داءٍ حيّر أفهام الأطباء ليس مخوفاً،وأنه يرجع إلى الأشعة التى فوق البنفسجية فى ضـوء الشمس فى البـلاد الاستوائية وأثرها المؤذى فى جلده ، تمّ له البرء يوم زال القلق الذى استبدّ بنفسه .

فأقبل جادًّا على إصلاح أموره ، وكان المحرّرون والنقـاد يزعمـون أنه أفرغ ما فى جعبته ، ولكن جاك كان يعلم أنه لم يكد يمسُّ القصص التى يتوق إلى كتابتها ، فشرع يؤلف رواية « الضوء المحرق » ، وهى قصة عن كلونديك وسان فرنسسكو تصوّرها على نحو غريب . وكتب أقاصيص يكثر فيها الحوار وتحرك النفس ، وجعل

مسرح حوادثها على ساحل إرلندة . وباع أفضل أقصوصة كتبها عن الألاسكا إلى مجلة « ستردای إيفننج بوست » وكان عنوانها « قطعة لحم » ، فاتفقت معه هذه المجلة على أن يكتب لها اثنتي عشرة أقصوصة في السنة التالية. فلما صدرت روايته « الضوء المحرق » راجت رواجاً عظيماً فاستردَّ مكانته الأولى .

فلما قام الدليل في نفسه على أنه لم يفقد شيئاً من قدرته ، وعلم أن زوجته شارميان حامل ، انصرف إلى تحقيق أمنية ما زالت تساوره طوال حياته ، فبدأ يبني بيتاً أراده لكي يقضي فيه بقية أيامه ، واختار له مكاناً رائعاً في وادٍ في « هِل رانش » تحيط به بواسق الأشجار والكروم والبساتين والغابات . وعزم أن يبني في هذا البيت حجرة تتسع لكتبه التي يبلغ عددها أربعة آلاف مجلد ، وللتحف الكثيرة التي عاد بها من الاسكا والبحار الجنوبية . وعزم أيضاً أن ينشىء فيه حجرة واسعة للبليار ولعب الورق، وأخرى للموسيقى إرضاءً لشارميان، وغرفة للأكل تتسع لخمسين ضيفاً .

وقد سمى هذا البيت « بيت الذئب » وأراده أن يكون أجمل بيت في أمريكا ، فاستعان بالمهندسين ، وقضى شهوراً حافلة بالرضى وهو يقلب النظر في الرسوم، وأخيراً قرَّ رأيه على أن يكون البيت ذا ثلاث وعشرين غرفة . ثم وجد بنَّاءً إيطالياً ممتازاً يدعى فورني، وأمره أن يبني بيتاً يبقى على الدهر.

وفي ربيع سنة ١٩١٠ دعا إليه أخته إليزا بعد انفصالها عن زوجها لتسكن معه ، فأحسن فيما فعل ، وعهد إليها أن تشرف على العناية بمزارعه . ولم يكد يفعل حتى أضاف عبئاً جديداً إلى هذا العبء الذي ألقاه على كاهلها ، فاشترى قطعة أرض من الكروم مساحتها ٨٠٠ فدان .

وفي ١٩ يونيو وضعت شارميان طفلة ، فعاشت ثلاثة أيام وحسب ، فساوره حزن لا سلوان منه ، وصار يعتقد أنه سيموت دون أن يرزقه الله بولد يبقى ذكره ، فأحس أن النبع الذي في صدره قد غاض ، برغم أربعة وعشرين كتاباً خلفها ذرية تخلد ذكره .

ولم تكد شارميان تتماثل حتى ذهبا في نزهة بحرية دأب فيها على التأليف وتسيير السفينة كعادته ، وكانا يصيدان السمك ويعدّانه لطعام العشاء . وقد مرت شهور الصيف على هذا المنوال ، فاندملت الجراح التي خلفها فقد الوليدة في نفسهما . وكان يظفر بأعظم رضى النفس يوم يمتطي جواده ويعبر الحقول إلى « بيت الذئب » ليشرف على سير العمل فيه يوماً بعد يوم ، ويقضي ساعات في محادثة فورني والعمال

وكان الشوق يلح عليه أحياناً فى أن ينصرف عن العمـل الرتيب الذى ألفه ، فكان يشد أربعة جياد إلى عربته ، ويربط أجراساً خاصة بأطواقها ، ويمضى ينهب الأرض نهباً على الطريق الترب المنحدر إلى بيته فى « جلن إلن » ، ثم يمضى إلى أقرب حانة فيدعو من فيها إلى الشرب معه ، كما كان يفعل يوم كان بحاراً . ولا يكاد يشرب بضع كؤوس حتى ينتقل منها إلى حانة أخرى ، فلا يرخى الليل سدوله حتى يكون قد شرب ملء إبريق من الوسكى ، وتحدث مع مئة من الناس .

ومن هنا نشأت فى ذهنه فكرة كتابه «جون بارلى كورن» الذى ظفر له بشهرة لا تجارى ، وحمل النقاد فى الوقت نفسه على سلقه بألسنة حداد . وهذه الرواية تتضمن شيئاً كثيراً من ترجمة حياته . فقرأها ملايين من الناس ، واستخرج الوعاظ منها عبرة خلقيـة يقاومون بها معاقرة الخمر ، وقالت الجماعات المنظمة لمقاومة الحانات والخمور أنها تنطق عن آرائهم . وصنع منها فلم سينمائى ، فعرض تجار الخمور ومقطروها مبلغاً ضخماً من المال ليمنعوا عرضه . وقد رسم جاك فى هذه الرواية صورة غلبته على السكر ، ولكن الناس الذين قرأوها صاروا يرونه سكيراً مدمناً . فلما سن قانون تحريم الخمر فى أمريكا سـنة ١٩١٩ كانت هذه الرواية قد مهدت له الطريق .

كان جاك قد أنفق حتى شهر أغسطس ١٩١٣ ثمانين ألف ريال على تشييد «بيت الذئب» الذى أوشك أن يتم ، وعين يوم ١٨ أغسطس لرفع الأنقـاض المتخلفة عن البناء من حوله ، وفى صباح اليوم التالى يشرع العمال فى نقل أمتعة جاك وشارميان إلى البيت الجديد . وفى تلك الليلة استيقظ البناء فورنى على صياح فلاح : « فورنى ، بيت الذئب يحترق» . فلم تنقض دقائق حتى أقبل جاك يعدو مبهور النفس ، ووقف على التل الصغير حيث جلس من قبل مع العمال يغنى ويشرب الخمر ، فلم يكن فى وسعه أن يصنع شيئاً سوى أن يقف هناك ويدع الدموع تنحدر على خديه ، وهو يرى الدمار يحيق بأعز أمانيه عليه .

وقد ألصقت تهمة إشعال النار بغير واحد من الناس ، وكان هو موقناً بأن النـار لم تشب قضاء وقدراً ، ولكنه لم ينطق فى تلك الليلة الفاجعـة سوى مرتين . فلما كانت شعاليل النار على أشدها قال همساً : « أوثر أن أكون الرجل الذى أشـعلت النـار فى بيته ، ولا أكون الرجل الذى أشعلهـا » . فلما أسفر الصبح كان البيت

الذى شُيِّد ليبقى على الدهر قد صار كالهيكل الخاوى ، فقال بصوت هادىء : « فورنى ، غداً نبدأ فى البناء ثانية » .

ولكنه لم يجدّد بناء بيت الذئب ، فالنار التى أكلت البيت فى تلك الليلة قضت قضاء الأبد على الجذوة التى فى قلبه .

كان دينه يبلغ يومئذ مئة ألف ريال ، فلما فكّر فى المؤلفات التى ينبغى أن يؤلفها لكى يجنى منها ذلك المبلغ الضخم ، أحسّ بشىء كأن صخرة جاثمة على صدره .

ومع ذلك فقد أدرك جاك فى سنة ١٩١٣ ذروة مجده الأدبى ، فقد نشرت المجلات أربعاً من رواياته مسلسلة فيها ، وأخرجت دار النشر أربعاً أخرى فى كتب . وكان بينهما روايتاه العظيمتان « جون بارلى كورن » و « وادى القمر » ، فصار يعد بين أقرانه قوة من قوى الطبيعة ، لا مؤلفاً من البشر وحسب .

ولكن صحته أخذت تضعف وتسوء ، وهذا العقل الذى أخرج واحداً وأربعين كتاباً فى أربع عشرة سنة ، قد أخذ يكل . ولقد كان فى حياته قادراً أن يحتمل الخمر التى يشربها ، إذا استثنينا أيام حداثته يوم كان من قرصان البحار . أما اليوم وقد تغيرت الحال ، فقد دفعه المرض إلى السكر ، فزاد السكر من علته .

وفى فبراير ١٩١٥ رحل مع شارميان إلى جزائر هوائى ليقضيا بقية الشتاء ، فأعانه الدفء وضوء الشمس والسباحة وركوب الجياد على أن يستردّ قسطا من العافية ، فشرع يؤلف رواية جديدة ، فأتمها فى الصيف وعاد إلى بيته فى جلين ألن . فاشتدت عليه علة اليوريميا ، ولكنه أبى أن يكف عن الشرب ، وحصر عمله فى كتابة رواية خفيفة للسنما عنوانها « ثلاثة قلوب » ، كان قد تعاقد على كتابتها لقاء خمسة وعشرين ألف ريال . فكان يكتب ألف كلمة كل يوم من غير مشقة وهو راض عن هذا العمل الذى لا يكلفه جهداً فكرياً شاقاً .

لقد كانت الكتابة عنده كالدم السارى فى عروقه ، فصارت اليوم سماً قاتلا . فلما أنجز قصة « ثلاثة قلوب » كتب يقول : « إن إنجاز هذه القصة عندى بمنزلة عيد . فقد أتممت اليوم السنة الأربعين من عمرى ، والكتاب الخمسين من كتبى ، والسنة السادسة عشرة منذ بدأت أكتب » .

وكان الناس ، إلاّ أخته إلزا ، يجهلون أن جاك كان معذب النفس لأنه كان يخشى أن يجنّ . فقد بلغ الكلال من عقله كل مبلغ ، ولكنه كان مندفعاً إلى أن يكتب كل يوم ، فكان يخشى أن يفضى هذا العبء

إلى انهيار عقله ، وقد توسل إلى إلزا مرة بعد مرة قائلا : « إلزا أسألك بالله إذا أنا أصبت بالجنون ،فلا تبعثى بى إلى المارستان » .

وفى يناير سنة ١٩١٦ شد رحاله مع شارميان إلى هوائى ، بعد أن جرب تجربة فى زراعة البساتين النموذجية فأخفقت وكلفته مالا كثيراً ، ولكن هوائى لم تبرىء فى هذه المرة لابدنه ولا عقله . فلما عاد عجز معظم أصدقائه عن أن يعرفوه ، فقد أصبح سميناً ، منتفخ الوجه ، خابى نور العينين ، كاسف البال ، يبرح به الألم .

فلما قالت له إلزا : « ياجاك ليس فى الدنيا كلها رجل يقاسى من الوحشة ماتقاسيه ، فلقد عجزت عن أن تنال الأشياء التى تمناها قلبك » ، قال لها : « كيف عرفت بربك ؟ »

ولكن النار اتقدت قليلا فى البدن الخابى ، فكتب جاك أقصوصتين من أحسن أقاصيصه مرتداً بهما وفيهما إلى أيام المغامرة المجيدة فى شبابه .

وفى يوم الثلاثاء ٢١ نوفمبر ١٩١٦ ، أتم تدبير أمره حتى يسافر فى اليوم التالى إلى نيويورك ، ثم تحدث حديثاً هادئاً مع إلزا ، ثم هم بأن يأوى إلى فراشه ، فمشت معه فى البهو الطويل الذى يفضى إلى مكتبه وتركته هناك وأوت إلى مخدعها .

وفى الصباح جاء خادمه اليابانى إلى إلزا والرعب بادٍ على أساريره ، فهرعت إلى الشرفة التى ينام فيها جاك ، فألفت أخاها فاقد الوعى ، ووجدت على الأرض زجاجتين صغيرتين ، وعلى المائدة دفتراً عليه أرقام ـ أرقام تدل على المقدار المميت من المورفين الذى تجرعه .

ومات جاك فى تلك الليلة ، فحزن العالم لموته . وقد أفسحت صحف أوربة لموته مكاناً أوسع مما أفسحت لنبأ وفاة الإمبراطور فرنسوا جوزيف النمسوى الذى توفى قبله بيوم واحد . أما حزن أمريكا فتراه متجليًا فى صورة سيدة رفعت صحيفة بيديها ثم صاحت بجماعة مرحة من الفتيات والفتيان : « كفوا عن الضحك ، لقدمات جاك لندن » .



ترجمة حياته على لسانه

مختصر كتاب بقلم

جورج ر. ستيوارت

هذا تاريخ فاتن لتطور الانسان ، يروى كما يجب أن تروى قصة جيدة ممتعة : ببساطة وسرعة وحسن خيال . وجورج ستيوارت ينفث الحياة والفكاهة فى قصة يدفنها المؤرخون عادة تحت اكوام من الحقائق المحيرة .

وكثيرا ما ترى هذا المؤلف يبالغ فى اظهار أشياء أهملها غيره من المؤرخين ، أو تراه يهمل ما بالغوا هم فى اظهاره . وقد تجد أن بعض نظرياتك العزيزة عليك قد طارت شعاعا ، ولكنه لا يسعك فى هذه الأيام الحافلة بالشك الأليم فى المستقبل ، الا أن تستمد أملا جديدا من تشبث الانسان ببقاء الحضارة ، واستمرار تقدمه .

والمستر ستيوارت أستاذ فى جامعة كاليفورنيا ، وقد اشتهر بالابتكار فيما يكتب ، وبالدقة فى جمع الحقائق ، وله كتب كثيرة مشهورة .

الإنسان : ترجمة حياته على لسانه



أنا الإنسان، أشعر وقد ارتفعت بى السن بعض الارتفاع ، برغبة فى الترجمة لنفسى . والباعث لى على ذلك هو أنى ضجرت أشد الضجر من شتى التراجم التى كتبت عنى، فإنها أولاً سيئة التقسيم تكاد تكون مقصورة على ثلاثة الآلاف السنة الأخيرة ، وإن كان ما فعلته فى هذه المسافة من الزمن لا يعادل فى خطر الشأن ما فعلته قبل ذلك . ثم إنها ثانياً تحيل ما هو بسيط فى حقيقته فتجعله معقداً مملاً .

وهى تكدس أكواماً من اللغط والتفاصيل عن أمور من مثل قيام الدول وسقوطها ، وقد يكون هذا ممتعاً ولكنه قليل الجدوى لأنه يفضى فى النهاية إلى التعقيد والسآمة . وأنت إذا قرأت معظم كتب التاريخ لم تهتد إلى حقيقة «الإنسان» لأن ما فيه من ذكر الرجال وتراجمهم يحجب عنك هذه الحقيقة .

ومهمتى أسهل من مهمة المؤرخين لأنى أكتب عن الإنسان ، وليس يعنينى أن أبين أى أجناسى أو قبائلى أو أفرادى فعل هذا أو ذاك ، وإنى لأرجو أن لا أخلط السؤال الجوهرى : «ماذا كان ؟» بالسؤال الذى هو دونه شأناً وهو: «من فعل هذا ؟» فلا بد إذن من البداية ، ثم أنحدر بعد ذلك على الأيام .

وأنا الإنسان ، أستطيع أن أتتبع أصلى إلى حيوان لَبُون بدائى، وهو حيوان يتسلق الأشجار ، وقد عاش نسله فيها قروناً لا عداد لها ، وقد ترك هذا الزمن الطويل الذى قضيته فى الوثب والترجح بين الأغصان أثراً بيناً فى هيئتى .

انظر إلى كفى ، فإنى عظيم الاعتزاز والزهو بها ، ومع ذلك لم تكن فى الأصل إلا أداة لوقايتى من السقوط من الشجرة .

ثم إن حيوانات الأشجار كان لا يسعها إلا أن تعنى بالصعود والنزول كعنايتها بالسير إلى أمام وخلف . وكانت كلما تسلقت تعتدل فى وقفتها ، ولهذا تعلمت بسهولة أن تقف وتقعد فى اعتدال ، وفى وسعك أن ترى أن هذا يصدق على القردة والدببة والسنجاب . وهكذا يرجع اعتدال قامتى إلى تسلق الشجر .

وانظر الآن إلى الحواس . ويبدو أن اللمس أقدمها عهداً ، وقد أوتيته الخلائق التي لا عيون لها ولا آذان ، وما زال اللمس هو الحاسة الأساسية عندي ، وكان أسلافي يعتمدون أيضاً إلى حد كبير على الشم ، وهو وثيق الصلة بالذوق ، وله فضل كبير في الاهتداء إلى الطعام . ولكن يبدو أن سؤالا نشأ على الأيام عن قيمة الشم والنظر والسمع ، وهنا أيضاً كانت حياة أسلافي في الأشجار هي التي زودتهم بالجواب . فقد كان الشم قليل الجدوى على مسافة من الأرض إلا إذا كان الحيوان صغيراً جداً ، والرائحة إذا بقيت على امتداد غصن من الأغصان ، فإنها لا تعبر المسافة من شجرة إلى شجرة، أما الصوت فإنه يسمع على الشجرة كما يسمع على الأرض . على أن النظر خير وأجدى لأنه هو الحاسة التي تعين على الوثب بإحكام من فرع إلى فرع . ومن هنا كان ترتيب الحواس عندي أن الشم أقلها قيمة ، والسمع أوسطها ، والنظر أعظمها ــ وهذا ما تصلح به الحياة في الأشجار .

ومن الاعتماد على البصر جاء اعتياد الحياة في النهار ، وقد صارت حياة أسلافي متوقفة على النور إلى حد يبعث على الرثاء ، وقد تبعتهم في هذا أنا الإنسان .

والرمي والتسديد ــ أي إصابة الشيء لا مجرد الإعراب عن الغضب ــ من صفاتي الخاصة ، وإنها لجزيلة النفع ، فإنه لا يكاد يكون هناك مخلوق آخر يقدر على ذلك ، ويظهر أن للرمي علاقة بالأشجار لسبب بسيط، هو أن أي شيء ينفصل عنها يسقط، وتستطيع أن تلاحظ أن كثيراً من حيوانات الأشجار ــ حتى السنجاب ــ تسقط قطعاً من اللحاء أو غيره على الحيوانات التي تحت الشجر ، وسقوطها يربك الحيوان الذي على الأرض بل يفزعه، ويبعث على سرور الذي في الشجرة . ولا شك أن الإسقاط أو القذف الجزاف مختلف جداً عن الرمي بالمعنى الصحيح ، ولكنه البداية على ما يظهر .

ولم يكن أسلافي ــ وإن كانوا أتم ما يكونون تهيؤاً للعيش بين الأغصان ــ يستطيعون أن يعيشوا بينها طول الوقت ، فقد كان عليهم أن يهبطوا إلى بركة أو جدول طلباً للماء ، ومتى صاروا على الأرض فإنهم كانوا ولا شك يتجولون قليلا ليستمتعوا بذلك ، وكانوا يجدون في الوقت نفسه بعض أنواع من الطعام .

وهذا يفضي بي إلى نقطة حاسمة في تاريخي: الهبوط من الشجر إلى الأرض . وهناك نظريات معقدة لشرح هذا التحول ،

ولكنه ككثير غيره فى قصة حياتى ، من أبسط المسائل ، فإنه بعد كل ما يقال فيه ، ليس إلا ضرباً من الهجرة . وأدعى الأمور إلى الهجرة الزحام ، والمفروض أن أسلافى كانوا مما يسمى « الحيوانات الموفقة » أى أنهم مهيأون تهيئة حسنة لأسلوب حياتهم ، وكانوا لا ينفكون ينتشرون فى أى منطقة من مناطق الغابات يسكنونها . وعلى الأيام ، بعدد لا يحصى من آلاف السنين ، بلغوا طرف الغابة حيث يختلط الشجر بنبات الأرض والحشائش ، وفى مثل هذه الرقعة كان أسلافى يقضون على الأرض وقتاً يزداد طولا على الزمن ، ثم يكرون راجعين إلى الشجر ليلا .

وأخيراً كان مالا بد أن يكون ، فقد أبعد بعضهم فى تجواله ، أو أطال التلبث فى منتجع طيب يؤثره ، أو تأخر لأن شوكة دخلت فى قدمه . ويدخل الليل ، فتضطرُّ هذه الجماعة — وهى الأولى من جنسها — أن تقضى الليل على الأرض ، فترعد وتنتحب من الرعب ، وهى لا تدرك ما حدث ، فتجرى على عادتها ، فتصعد إلى ظهر صخرة ، أو تزحف داخلة فى لفائف من الشجيرات وإن كانت أصغر من أن تسمح بالتعلق بها ، وترتعد وتنتحب مرة أخرى حين يحلو لك الليل، ولعل طائفة من ذئاب الليل وقعت عليها ، أو لعل الحظ قد ساعفها فسلمت .

ومن المحقق أن ما وقع مرة ، قد تكرر باطراد تبعاً لازدياد إلفهم للأرض ، واضطرارهم إلى الإبعاد فى التجوال . وقد تعلموا كثيراً بحكم التجربة التى أكرهوا عليها ، مهما بلغ من بطئهم فى ذلك ، أن البر يعجز عن تسلق بعض النجود الصخرية كعجزه عن تسلق الشجر ، أو أن شجيرة شائكة قصيرة تحير الأسد وتعييه . والمهم أننا نعلم على وجه التحقيق أن الأمر انتهى بهجر الشجر حتى عند النوم .

وهذا الهبوط من الشجر وإن كان قد حدث تدريجاً على مسافة من الزمن تبلغ عدة قرون ، كان بمثابة أزمة بالغة . فقد كان السؤال الذى ارتهنت به بقية القصة كلها هو : هل تعود هذه المخلوقات إلى المشى على أربع ، أو تواصل ما اعتادته أيام سكنى الشجر من المشى على رجلين ؟

وقد عاد القرد البابون الذى هبط أيضاً إلى الأرض بعد زمن طويل من الحياة فى الشجر ، إلى المشى على أربع ، وبهذا سار فى طريق الحيوانات التى تعيش على الأرض ،

وصار أشبه مايكون بالكلب،فله فك المحارب وأسنانه،والعقل الضيق الذى يكون مع هذه. ثم إنه لما كان يستخدم قادمتيه فى المشى فإنه لا يستطيع أن يتخذ منهما يدين .

على أن أسلافى صاروا على الأيام أكثر تعويلا فى المشى على الرجلين ، وبهذا تركوا يدىّ حرتين أستعملهما كما أشاء ، غير أنى وإن كنت مزهواً بيدى ، أرى أن قدمى هى فى الحقيقة أكبر ما يميزنى . فإنى بعد أن تطورت قدمى التى قصرتها على المشى والعدو دون غيرها تقريباً ، نجوت من أن أصير كالغورلىّ التى تصاد وتحفظ فى قفص ، فإنها حيوان لا يداه صالحتان ولا رجلاه ، والأربع كلها بين بين .

ولما هبط أسلافى من الشجر أصبحوا لا يحتاجون أن يتعلقوا بالأغصان، ومع ذلك لم يستخدموا أيديهم فى الوقوف أو المشى ، فصارت أيديهم لا عمل لها ، وفى وسعهم أن ينتفعوا بها دائماً فى أشياء كثيرة ، بعضها سيء ولكن كثيراً منها عظيم النفع ، وبعضها ينطوى على جرأة فى التجريب ، والواقع أن هذه الأيدى العاطلة غيرت كل شيء تدريجاً وصنعت الحضارة .

وعلاقة اليد بالقدم ممتعة ، فالقدم أشبه بشخص يضحى بنفسه ، ويخضعها لمصلحة العمل ولا يظفر بتشريف وتمجيد ، وإن قدمى لشيء منقطع النظير فى الطبيعة ، أما يدى فإنها تفوق بعض الشيء يد القرد . والمرء حين يفكر فى اليد وأنها تساعده على استعمال الآلات ، ينسى أنه لولا المشى على القدمين لما استطاع أن ينقل آلة من مكان إلى مكان إلا إذا حملها بفمه .

ولا بد أن قدمى تطورت ببطء فى الفترة الطويلة التى تلت الهبوط من الشجر والعيش على الأرض ، وقد يظن الناس أن هذه الفترة كانت حافلة بالمصاعب ، وأن هذا المخلوق الذى هجر الشجر خليق أن يلفى نفسه عاجزاً بعض الشيء فى بيئة غير مألوفة . والواقع أن الأمر قد يكون على نقيض ذلك فإن الكفايات التى تكون عادية فى أسلوب قديم من أساليب الحياة ، قد تكسب صاحبها مزايا كالمعجزات فى حياة جديدة . مثال ذلك أن الحياة على الأرض تلائم حاسة الشم ، وقد كان أسلافى لا نظير لهم تقريباً فى إنماء حاسة النظر، وبهذا صارت لهم مزية سلاح سرى على الحيوانات الأخرى التى تعيش على الأرض .

ثم إن حيوانات الأرض المفترسة تعيث ليلا فى الأغلب،ولما كان أسلافى قد تكيفوا على مقتضى الحياة فى الشجر ، فإنهم كانوا يسعون فى النهار،ولذلك قلما كانوا يتعرضون لببر . يضاف إلى ذلك أن معظم حيوانات

الأرض لا قدرة لها على التسلق ، فما دام أى واحد من أسلافى على مقربة من شجرة يثب إليها، فقد كان فى وسعه أن يطمئن بل أن يجترىء ويتوقح ، ولا شك أنه كثيراً ما كان يعابث جاموسة إلى آخر لحظة ، ثم يثب إلى غصن ويستمتع بما يراه على الوحش المهاجم من دلائل الخيبة .

وكان هؤلاء الذين هجروا الشجر ، يعيشو منذ البـــداية جماعات جماعات ، وكانت الجماعة وهى على الأرض — كما كانت إذ هى على الشجر — ترتاد وتأكل فى حيثما كانت تجد طعاماً ، وكان هناك فى الأرض المحشوشة المكشوفة فضلا عن بيض الطير ، والثمار ، والجوز ، والبراعم ، طعام جديد جيد هو بذور النبات الناضجة . ولا شك أن هذا الذى هبط إلى الأرض حديثاً والذى كان بطىء الخطو ضعيف الفك ، لم ينقلب فجأة صائداً عظيما، فكان يدع الأرانب تمضى دون أن يخطر له أن يتعقبها ، أما الغزلان والثيران البرية فكانت فى نظره كأنها مخلوقات فى عالم آخر .

وكانت الجمـــاعة تتحرك على مهل ، وتنتجع وهى سائرة ، وأحسب أن أجرأ الذكور وأنشطها كانت تبعد فى تجوالها ، حول أطراف النُّجْعة ، وفى الوسط تصيب الأمهات والصغار طعامها ، ولما كان كل واحد يمشى محنى الظهر ، فقد كان من السهل أن يركب الصغير ظهر أمه ، ويلف ذراعيه وأصابعه الصغيرة على شعر رأسها الطويل .

وإذا آذن الحال بالخطر ، ذهبت الأمهات والصغار أولا ، وتولى الآباء حماية الجماعة المتراجعة ، وهم يطلقون صيحات التحدى . ومع أن الجماعة فى جملتها كانت تستطيع الدفاع عن نفسها إلا أن الحيوان المفترس الرابض على أحد الجناحين ، كان يستطيع أن يبطش بالهرم الضعيف ، أو الحدث الأحمق ، وبكل من يتخلف مصادفة أو لمرض ، ولكن الجماعة فى جملتها كانت تزداد نشاطاً لأن الضعفاء منها كانوا أكثر تعرضاً للفتك بهم .

وهكذا استطاعت الجماعة ، على نحو ما ، أن تبقى . ولم تكن المشكلة الكبرى الناشئة عن ترك الشجر والنزول إلى الأرض ، مشكلة الدفاع أو الطعام ، وإنما كانت العود أو عدم العود إلى المشى على أربع . ولو أنها كانت قد عادت إلى ذلك لكانت الأربع قد صارت أربع أقدام شبيهة بالأكف ، بل لفقد خير العقول كل وسيلة للإعراب عن نفسه .

وقد امتد عهد الحياة على الشجر إلى عدة آلاف من القرون ، وقد قدروا المدة التى تطلبها التكيف على مقتضى الحياة على الأرض وتطور القدم وغير ذلك بستة ملايين من

السنين ، وهذه مسافة من الزمن أطول جداً من التي انقضت بعد ذلك ، لأننا في نهايتها نصل إلى تاريخ حديث بعض الشيء — حوالي مليون سنة قبل الميلاد .

وقد كنت إلى الآن أشير إلى « أسلافي» لأني أشعر أني أختلف اختلافاً جوهريّاً عن ذلك المسخ الشبيه بالقرد الذي هبط من الشجر . وسأكف من الآن فصاعداً عن كل ذكر للأسلاف ، وأعد نفسي ، أنا الإنسان ، قد ولدت لأني حزت الأشياء الخمسة الجوهرية : الأدوات ، والكلام ، والنار ، والطبخ ، والثياب .

وقد كان استعمالي للأدوات أسبق ، وأظنه كان سهلا جداً ، فقد اعتدت وأنا أعيش على الشجر أن أقبض على الغصن ، فلما هبطت إلى الأرض ومشيت على رجلين ، كنت ولا شك أشعر أنه يكون أبعث على راحتي أن يكون ثم شيء أمسكه بيدي الفارغتين ، وكان من الطبيعي جداً في البداية . وقد انقضت الحاجة إلى إمساك غصن حقيقي ، أن التقط عوداً ميتاً واقعاً على الأرض ، (حتى في أيامنا هذه يحب الناس أن يمشوا وفي أيديهم العصيّ) .

ولما صار العود في يدي ، أصبح لي آلة تصلح لإسقاط الثمار والجوز ، وتحولت عادة حمل العود إلى شيء نافع ، ثم صرت إذا أفزعني هجوم مباغت ، أضرب بالعود دون أن أتخلى عنه — فصار هراوة .

والأرجح أن الآباء من البداية كانوا أصلح لاتخاذ الأدوات وأقدر على ذلك من الأمهات اللواتي كانت أيديهن مشغولة بتعهد صغارهن ، أما الآباء فأيديهم فارغة ، فمن السهل عليهم أن يحملوا العصي والحجارة ، وأن يزدادوا حذقاً في استعمالها . وقد ظل الحال كذلك إلى الآن ، فإن الأم بالمعنى الصحيح في أيامنا هذه خليقة أن تخلط في التفريق بين المِنْحت والبزال .

أما عن صنع الآلات فأظن أنه ليس ثم فرق كبير بين استعمالها وصنعها ، فإن مجرد التقاط عود هو من بعض الوجوه صنع لآلة وقطع عود ميت من شجرة أدخل في باب الصناعة . على أني حتى من بداية هبوطي إلى الأرض كان عندي من الآلات أكثر مما أعرف ماذا أصنع به .

وكانت الأغصان — أصدقائي القدماء — أسرعها إلي ، ولكني على الأرض لم ألبث حتى ألفت العظام أيضاً ، وكثيراً ما كنت في تجوالي أذود النسور عن نهش رمة أيل أو ثور . وكانت أمامي مجموعة كاملة من الآلات — عظام الفخذ وهي صالحة لاتخاذها هراوات للضرب ، والقرون أو روقها كثقاب ، وألواح الكتف للجرف والحك ، ولم يكن

يقعد بى غير قلة تجربتى ، فإنه ما كان يسعنى أن أستعمل مجرفاً ولا شىء عندى أجرفه ولا فكرة لى عن الجرف .

وبعد مدة (أعنى بضعة ملايين من السنين أو نحو ذلك) أحسبنى بدأت أتعلم شيئاً عن الحجارة وأن أحملها معى كأنما هى عصى، فإن لها منافع خاصة مستمدة من الغلظ والثقل والصلابة . وهى تصلح للقذف، ولكل أنواع الدق وخاصة لكسر الجوز. ولعلى أيضاً تعلمت أن الجذور المريئة يمكن الحصول عليها بحفر الأرض، ومن الأحجار ماهو صالح للحفر .

وكان يحدث أحياناً وأنا أحفر أو أدق أن يضرب الحجر حجراً آخر فينكسر وإذا بى بعد أن كان الذى فى يدى حجراً مستديراً واحداً قد صار شيئاً جـديداً مختلفاً حاد السن يمكن أن يجرح اليد ــ شيئاً يدعو إلى العجب ، ويصلح للعب والانتفاع به .

وهكذا كثرت الأدوات المهيأة فى عالم حافل بالأعواد والحجارة والعظام ـــ متى نما العقل الذى يستطيع أن يستعملها .

وفى هذا النماء العقلى كان استعمالى اللغة أعون شىء لى . وما من أحد يدرى على وجه التحقيق كيف نشأت اللغة ، وما يزال أصلها من الموضـوعات الممتعة التى تتعادل فيها قيم النظريات، والنظرية التى أرانى أميل إلى الأخذ بها هى أنى كنت أكثر أنيناً وزجراً وعواء ونخيراً من كثير من الحيوانات، وكانت دواعى الـكبح لهذا كله ضئيلة ، ولم أكن محتاجا أن أقضى الساعات الطويلة فى الاجترار فى صمت، أو أن أجوب الغابات متسللا مخففاً الوطء ، أو أن أقضم خلسة فى سكون مخافة الانقضاض علىّ ، وكان معظم أصواتى يعبر على نحو ما ، عما أشعر به فى اللحظة التى أنا فيها ، وكانت كل نبحة أو صرخة أو غمغمة ، عبارة عن جملة غامضة فى الحقيقة .

وهذه كانت بداية اللغــة الحقيقية التى صارت حادثة كأعظم ما مر من الحوادث ، وكانت فوائدها البديهية اجتماعية تيسر العمل واللعب معاً ، ولـكن لعل مزيتها العظمى أنها آلة أقدر من العصى والحجر على إفادة السيطرة على العالم . ذلك أن اللغــة ليست مجرد أداة لنقل الخواطر ، بل هى أيضاً أداة للتفكير نفسه .



أما عن النار، فإن كثيراً من الحطب المتفحم قد وجد فى كهوف إنسان بكين، وهو عريق فى القــدم والبدائية ، حتى إن العلماء لا يعدونه إنساناً بل إنساناً قرداً . فاستعمالى للنار إذن سابق فى التاريخ للعهد الذى صرت فيه إنساناً حقيقياً .

ولا بد أنى كنت وأنا فى الشجر أرى الحرائق يضرمها البرق، ولا بد أن جماعاتى قد لاذت بالفرار فزعا من الوقدة، أو أحاطت بها النيران. على أن حرائق البرق قلما كانت تتسع، وأكثرها كان يتقد قليلا ثم يهمد ولم يكن الحريق الصغير من شأنه أن يرعب ولا سيما فى النهار حين يكسف نور الشمس وهج اللهب، وأنا مخلوق شديد الفضول والتطلع، ولم أكن فى النهار هيابة، ويخيل إلى أن بعض جماعاتى دنت شيئاً فشيئاً من حريق صغير، والذكور فى الطليعة، وكل واحد فى قلبه القلق والخوف ولكنه لا يحب أن يهرب قبل أن يهرب الآخرون، ولم تنتشر النار ولم تلسعهم، فلما كان الحريق التالى، ازدادوا جرأة على الاقتراب.

وما كان من الممكن فى البداية أن تكون للنار فائدة ما. فهى لم تكن أكثر من شىء نادر يشاهد. وأحسبها بعد ذلك صارت لعبة، حين أقبل بعض أهل الجرأة، وتناول عوداً مضطرما وراح يلوح به، ومع الأيام صارت خصائص النار معروفة، فهى تأتى على الشعر وتحرق الجلد، و « تتغذى » بالأوراق والأغصان الجافة، والمطر والماء « يقتلانها »، وكانت تبدو كأنها تموت تحت الرماد، ولكن الريح تعيد إليها الحياة وكذلك النفخ بالفم، وبفضل هذه المعارف تيسر بعض القدرة على السيطرة على النار.

ولعل أول « انتفاع » لى بها كان حين تعلمت أن الحيوانات المفترسة التى تعيث ليلا تخشاها، فبينما كان اللهب يرتفع مستعراً حيال الأشجار، كان الببر يدور متذمراً ولكنه يحرص على الابتعاد، ولهذا صرت إذا نزل الظلام وما يغرى به من اليأس، أو مالت النار إلى الخمود، أنتفع بما تعلمته وأنا ألعب، وغذيت النار وزودتها بما يُؤَرِّثها إلى مطلع الفجر.

ولا بد أنى فى البرد لاحظت أن النار تشع حرارة لذيذة ودفئاً كالشمس، ولكن الأقرب إلى الاحتمال أن صلتى الوثيقة بالنار لا ترجع إلى هذه الأسباب، بل إلى اهتدائى قبل ذلك إلى الطبخ. ولعل التعبير بلفظ « الطبخ » آنق من أن يطلق على ما لم يكن أكثر من رمى قطع اللحم فى النار، ولكنه ليس ثم لفظ آخر، وقد كنت، وأنا على الشجر، نباتياً على الأكثر، ويستفاد من حالة أسنانى أدهاراً طويلة بعد هبوطى إلى الأرض أنى ظللت كما كنت تقريباً وأنا على الشجر، من حيث الطعام، وفى كل هذه القرون كنت إذا مررت بثور سقط من فوق صخرة فمات ولم يزل دمه حاراً، أدعه،

فإنى بهذه الأسنان التى لا تختلف كثيراً عن أسنانى الحالية ، وبالفك الذى لى ، لم يكن يسعنى بسهولة أن أغرز أنيابى فى الجلد السميك ، ثم أهوى على ألياف العضلات تحته .

غير أن الأدوات والنار غيرت كل هذا ، فقد استطعت بحد الحجر المكسور أن أمزق الجلد وأقطع اللحم ، وبالنار أن ألين اللحم الشديد بحيث تستطيع مضـــغه أسنانى الضعيفة وفكى ، وهكذا صرت على الأيام آكل لحوم — وكانت نتائج ذلك أهم مما قد تظن .

فإنه لما كان اللحم المطبوخ مركّزاً وأسهل هضما ، فقد قلّ ما احتاج إليه من الوقت للأكل ، وللانطراح بعد ذلك فى فتور فاتسع الوقت للتفكير واللعب ، على أنى لم أكن أستطيع إلى ذلك الحين أن أنقل النار بسهولة ، فكان هذا باعثاً قويّا على الاستقرار فى مكان . وأهم من ذلك كله أن حب أكل اللحم جعلت منى صائداً ، وهكذا أعان الطبخ — كغيره من الأمور الخمسة الجوهرية — على تسييرى على الدرب إلى المستقبل .

وقد كثر الجدل (ولا أحد يدرى على وجه التحقيق) حول الثياب ، وهل كانت فى الأصل للزينة ، أو لما يسمى بالأغراض المجدية مثل الوقاية من البرد . وأنا أرى أنها نشأت عن فكرة عمليـة هى التوقى من الأذى .

ولما شرعت أجرى على رجلين ، تعرّضت للخدش والحك بكل شجيرة وغصن تلك الأجزاء الرقيقة من جسمى التى ترى فى الحيوانات الأخرى مزوّدة بعناية تحت البدن ، فكنت لهذا مضطراً أن أحاذر فى الأرض الوعرة الكثيرة الكلأ ، وحتى مع الحذر لا بد أنى كابدت آلاماً بل أذى خطيراً ، وما كدت أتعلم أن أسلخ جلد الحيوان وأن أربط أطرافه وألفه علىّ بإحكام ، حتى كأن كل شىء يدعونى إلى العمل على وقاية نفسى ، وأنا أرى أن ما اتخذته للتوقى صار يعد فيما بعد زينة أيضاً ، ثم أدى ذلك إلى نشوء فكرة الحياء .

وإلى هنا ، بعد أن اهتديت إلى الأشياء الخمسة الأساسية ، أكون قد بلغت بقصتى ما يسمى العصر الحجرى القـديم ، وأنا أشك فى أن الحجر كان استعماله فى ذلك الزمن أكثر من استعمال الخشب أو العظم ، والفرق هو أن الخشب والعظام تبلى بسرعة أما الحجر فقد يبقى على حاله زمناً طويلا ، ومن هنا نشأت بطبيعة الحال الفكرة القائلة

إن قبائل ذلك الزمن استعملت الحجر ولم تكد تستعمل شيئاً غيره .

وذلك أيضاً كان الزمن الذى ظهر فيه الإنسان ساكن الكهوف ، غير أن كثيراً من الأوهام توجد أيضاً فى صدره ، فإنه فى معظم أرجاء العالم تقل الحاجة إلى العيش فى الكهوف ، والأرجح أن الجماعات كانت تؤثر الفضاء وتضرب فى الأرض هنا وههنا ، وتتعلم أن تنقل نارها معها فى تجوالها ، ولكن المضارب لا تترك أثراً بالقياس إلى الكهوف، التى لعلها اتخذت للسكنى فى الشتاء عدة أجيال . ومن هنا تعد فكرة العصر الحجرى،وفكرة سكنى الكهوف،راجعتين إلى إرباء العناية بالدليل الميسور على العناية بالدليل غير الميسور .

كانت أقدم الآلات الحجرية أدوات القطع ولا خير فى محاولة الفصل فى هل كانت فأساً أو مطرقة أو غير ذلك . فما كانت إلا قطعة مستديرة تقريباً من الحجر بريت بحيث يكون لها حد خشن أو حدان من الجانبين ، ويسهل حملها باليد ، فكانت لهذا سلاحاً ماضياً عند التشابك فى القتال ، ومن الممكن استعمالها أيضاً للدق والحفر والحك ، وإسقاط الثمار عن الأشجار ، وإذا قذفت من مسافة قريبة ، على وشق واثب ، فإنها كافية لثقلها أن تجعله يتهافت .

وعلى مدار القرون حلت محل هذه الأداة الفؤوس اليدوية والمناحت والمجارف وما إليها ، وقد حدث التغيير ببطء شديد حتى لقد استغرق أدهاراً لا سنة أو قرناً . وأحسب أن كثيراً من التغيير قد حدث دون أن يشعر به أو يدركه أحد . ولنتأمل مثلا الهاون وقد كان أداة يتخذها الأولون ، ولا يزال متخذاً إلى الآن فى المعامل والصيدليات ، فإنى لما بدأت أكسر الجوز ، كانت الطريقة الطبيعية لذلك أن أضع الجوزة على صخرة مستوية السطح وأدقها بحجر ، وما من صخرة تكون ملساء كل الملاسة ، ولهذا كان الجوز يتدحرج إلى ما هناك من تجويف فى الصخر ، وعلى كر السنين صار الدق يعمق التجويف حتى صار أشبه بكأس صالحة للاحتفاظ بالشيء المدقوق فى مكان واحد . وهكذا ظهر الهاون بطبيعة الحال ودون أن يفكر أحد فى أمره .

ومن الوسائل الأخرى لإحداث التغيير مايسمى فى العادة «الاختراع» وسأمثل لذلك بما لعله أول اختراع عظيم ، أعنى ما ربما كان أول شيء يخرج إلى حيز الوجود بفضل عمل إنشائى مفاجىء ينبثق من عقل موهوب . والواقع أنه وإن كان قد ظهر فى أوليات العصر الحجرى ، إلا أنى أعده عملا بارعاً يستحق المقارنة بالقاطرة البخارية والطائرة،

لأنه أول مثال لفكرة أساسية عن الصناعة، ولا يمكن أن يكون قد حدث مصادفة ، ولست أستطيع أن أتصور أنه جاء تدريجاً وشيئاً فشيئاً على القرون. وأبسط مايفسر به هذا الاستكشاف أن يُردّ الفضل فيه إلى لحظة من الإلهام تمر بعقل فرد موهوب .

ولنا أن نعترض أن قبيلة هذا الفرد كانت تتخذ رماحا من الخشب الذى يقوى على احتمال صهر النار ، وتستعمل أطراف الحجارة الحادة كالسكين أو المجراف ، فومضت فى ذهن هذا الفرد فكرة، وتخيل الأداتين مجتمعتين على صورة جديدة تحت الشمس — الحجر بثقله وحدة سنه ، موصولا بالخشبة الطويلة الخفيفة القوية .

ولم تكن الفكرة فى ذاتها كافية ، فقد كان عليه بعد ذلك أن يهتدى إلى طريقة تثبيت الحجر فى الخشبة . وهذا أيضاً لم يحدث تدريجاً على مر القرون، فإن الفكرة بمجردها لا تنحدر من جيل إلى جيل ، ولهذا فإن بنا حاجة إلى أن نفترض أن صاحب الفكرة اهتدى إلى الوسيلة العملية أو أنه بمعونة اللغة ، أفضى بالفكرة إلى من هو أكثر كداً وأحذق يداً فربط سن الحجر إلى الرمح بسير من الجلد، والأرجح أنه فى النهاية انتحل الفضل فى الفكرة أيضاً .

وإذا رد المرء بصره عن العصر الحديث إلى هذه الأداة التى تبدو له بسيطة جداً ، فقد يميل إلى الاستخفاف بها ، غير أنها انطوت على جماع ما تقوم عليه أعقد آلة حديثة ، تصنع بضم مئات وآلاف من الأجزاء بعضها إلى بعض .

وأرانى أنا الإنسان أتحدث عن الطبخ وبعض الأسلحة كأنما قيمتها الوحيدة أنها تؤتينى السيطرة على العالم المحيط بى ، غير أنها فى النهاية قلبت أسلوب حياتى فى الجماعة، فكان من جراء ذلك أن حدث تغير عظيم أثر فى كل شىء آخر وقع بعد ذلك . وكان الذى حدث هو هذا : لما صنعت الرمح وتعلمت الطعن به ورميه، صار عندى سلاح جيد بديع ، ومن ذلك الحين أخذت قبائل كثيرة تزداد تحولا عن الرعى إلى الصيد . وما زال جانب كبير من حياتى يجرى على مقتضى أساليب التفكير التى نشأت عن عادات الصائد وأساليبه .

من ذلك على سبيل المثال أن الصيد أوجد تفاوتا شديداً بين أفراد الجماعة، لأنه يتطلب قوة عضلية حرة. وكانت الأمهات قد انحازت إلى الجماعة الراعية ، ولم يستطعن ومعهن أطفالهن أن يسايرن الصيادين ، ومن هنا أرى أن الآباء كانوا هم الذين يصيدون من بداية الأمر ، وبهذا وجدت لأول

مرة ثغرة واسعة بين الصياد ، ومن يتولى أمر النار .

ثم إنه بينما كان الصيادون بعيـدين ، كانت الأمهات ومعهن الأطفال يتجولن ويجمعن الجوز والجذور وبذور النبات فى مواسمها ، بل أستطيع أن أتخيل عهداً طويلا كان الصائدون فى خلاله منهومين باللحم المشوى يحشون به بطونهم ، ولكن الأمهات اللواتى كن أكثر تعلقاً بالعادات المتبعة كن أشد إقبالا على الأطعمة الأخرى (وحتى إلى الآن أرى إناثى يكتفين فى الغداء بالسلطة ، ويقلن لذكورى كلوا خضركم المطبوخة) .

ولما كانت المصادفة تولد التغيير ، فإن أسلوب حياتى الجديد جاء بعادات جديدة ، فقد زالت الحاجة إلى الاقتصار على أكل الثمار والبذور فى حيث توجـد ، وصار الصائد يحمل الظبى القتيل ، أو يترنح تحت فخذ مقتطع من حيـوان ضخم ، وكانت الأمهات أيضاً يرجعن بأطفالهن من تجوابهن إلى حيث النـار الموقدة والأمن والروح . وهكذا صارت النار التى توقد للجماعة وتتخذ للطبخ ، نقطة مركزية . وإنى لأكشف عند مداخل الكهوف القديمة عن آثار المواقد ، ولعلى حتى فى تلك الأيام كنت قد بدأت أربط بين «الموقد والبيت» .

وثم أمر آخر عظيم الخطر . ذلك أنى كنت قد صرت قبل الميلاد بنحو مئة ألف سنة ، شبيهاً من حيث البدن بما أنا عليه اليوم ، ومخى فى مثل حجم المخ الحديث ، ومن ذلك الحين إلى الآن صار ما يطرأ على البدن من التغير قليل الشأن فى هـذا التاريخ . وسأدع ذلك وأروى ما حدث من التغيير فى أساليب العيش ، وهو تغير يمكن أن يحدث فى زمن وجيز . أما تطور البدن فقد استغرق زمناً مديداً جداً . مثال ذلك أنى لو كنت اضطررت أن أكون صائد وحوش ونما لى مثل الأسنان الطويلة التى للذئب أو النمر ، لاستغرق هـذا التطور مليون سنة ، ولكنى استطعت أن أخترع الرمح وأبلغ به درجـة الكمال ، وأتعلم استعماله ــ كل ذلك فى بضعة أجيال .

وأقول باختصار إن أعظم فرق بينى وبين الحيوانات هو أنها تكيفت على ما يقتضيه العالم المحيط بها ، أما أنا فقد استطعت ، إلى حد ما بطبيعة الحال ، أن أغير العالم حتى يصبح صالحاً لى . من ذلك أنه إذا اشتد البرد كان كل نوع من الحيوان يموت أو يرحل إلى مكان أدفأ ، أو تنبت على بدنه فروة كثة ، أما أنا فأوقدت النار ، وارتديت الثياب ، وبذلك خلقت عالماً (على مقربة من النار أو داخل الثياب) أعيش فيه مرحاً ولا شعر لى .

والناس ينظرون عادة إلى هؤلاء الأوائل المستوحشين نظرة الرثاء والعطف ، ولكني لست واثقاً أن حياتهم كانت تدعو إلى الرثاء ، فقد استمتعوا بكل مناعم العيش الأساسية ، ولعلهم كانوا أتم استمتاعاً بها وأقل همًّا ممن جاءوا بعدهم . ولما كانوا لا يعرفون الحياة الرغيدة ، فإنهم لم يشتاقوا إليها، وكان الفرد يستطيع إلى حد ما أن يصنع ما يشاء ، وكانت القبيلة يستغرقها ما يثيره في النفس الطراد اليومي ، لا « العمل » .

وقد كان ولا يزال لمثل هذه الحياة في الواقع فتنتها العظيمة لي ، فبعد ذلك بزمان طويل ، وفي خلال القرون التي انتشر فيها العمران في أمريكا الشمالية ، كان آلاف يهجرون الحضارة ويشاطرون قبائل الهنود حياة الصيد والقنص ، ولكن لم أجد ما يثبت أن هنوداً انصرفوا عن حياتهم وذهبوا من تلقاء أنفسهم ليعيشوا في المدن .

وفي هذه الفترة الأخيرة من العصر الحجري القديم ، تعلمت كيف أوقد النار بطرق شتى ، وكنت أيضاً أصنع آلات وأدوات أجود وأصلح ، واهتديت إلى استعمال الإبر، والأرجح أني استطعت بذلك أن أتخذ من الثياب ما هو أوفق ، ومن المحقق أني صنعت الخرز واتخذت الحلي ، وشرعت أنعم بالحياة من وجوه أخرى أيضاً ، فاستعملت قناةً من القصب وأبواقاً من العظم لعزف بعض أنواع من الموسيقى البسيطة، واتخذت بعض الطقوس والرقص، غير أن أهم ما فعلته في ذلك الوقت كان شيئاً آخر أقوى تحريكا للنفس .

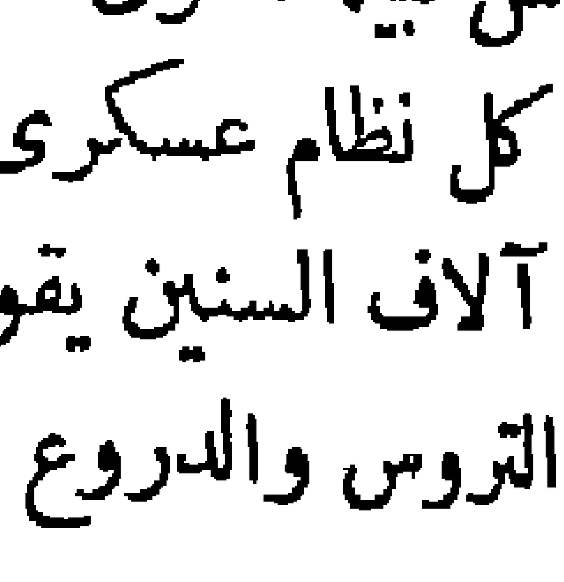
فقد اخترعت القوس، ولا بد أنه كان اختراعاً حقيقياً ، ومن العسير أن يتبين المرء أية سلسلة من التطورات أدت إلى ظهور هذا الاختراع شيئاً فشيئاً ، فما كانت هناك مواد كثيرة سهلة المتناول توحي بفكرة القوس، ولا بد أن رجال القبائل تعلموا صنع السيور وعقد العقد ليتسنى لهم أن يشدوا رأس الحربة أو السنان إلى القناة ، غير أن وتر القوس يحتاج إلى سير أطول وأقوى جداً، ولم تكن السِّيَةُ اللينة الانعطاف من الأشياء المألوفة ، ثم إن السنان أو النصل يجب أن يكون متيناً صلباً لا لدناً .

وهكذا يكون أسهل تعليل لهذا الاختراع — كما هو الحال في اختراع الحربة نفسها — هو أن نفترض إلهام العقل المبدع . وقد كان تأثير مخترع القوس في تغيير مجرى التاريخ كتأثير أي مخترع كبير غيره من قبله أو بعده.

ذلك أن القوس أولا سلاح جيد يستعمل للحيوان المتوسط الحجم ، فليس من السهل أن يقتل السهم فيلا أو جاموساً ،

ولكنه كان أمضى سلاح استعملته لرمى أى حيوان من الغنم إلى الغزلان ، والحيوانات التى من هذا الحجم أصلح ما تكون للطعام، فإن من الصعب أن تطعم قبيلة برمتها أرانب وسناجيب . ثم إن معظم لحم الحيوان الضخم قد يفسد قبل أن يؤكل،أما الغنم والغزلان والأبقار فإنها موفورة لصغرها ، وهى من الجسامة بحيث تزود الطاعمين بمقدار حسن من اللحم .

وتوفر الطعام مؤداه ازدياد عدد الأطفال الذين يكبرون،وهذا معناه اكتظاظ الأرض بالسكان ، فاضطر رجال القبائل أن يحملوا القسى ويخرجوا للصيد فى أرض أخرى ، فوجدوا أن السهم يفتك بالصائد الرامح من قبيلة أخرى كفتكه بغزال ، وقد ظل كل نظام عسكرى فى خلال عشرات من آلاف السنين يقوم إما على القوس وإما على التروس والدروع للتوقى من السهام .



وقد عرفت الذئب من أقدم الأزمنة، فيوم كنت لا أزال أنتجع كانت جماعاته تتربص أحياناً على جانبى جماعاتى ، فتصيب متخلفاً أو طفلا كما يحدث فى الهند إلى يومنا هذا . وبعد أن أصبحت صائداً صارت جماعاتى وجماعات الذئاب تعيش فيما يشبه الحياد المسلح ، وكان كل من الفريقين أمهر وأخطر من أن يحاول الفريق الآخر صيده .

ولا أدرى أين كانت الخطوة التالية ، ولكن أحسبها كانت فى الجنوب فى أرض دافئة ، لأن الذئب فى غابات الشمال كان ضخم العظام طويل الأنياب ، فكان إذا صادفته بين أشجار البلوط يهجم على عنق . أما فى الأدغال الحارة والصحراوات الجرداء فهو أصغر جرماً ، فكان إذا رآنى يلوذ بالفرار وذيله بين رجليه كما ينبغى أن يفعل حيوان أمام رامح .

ولما اخترعت القوس صار اللحم عندى أوفر مما كان فى أى وقت مضى ، ولعلى أسرفت فى الصيد حتى تركت الذئب يتضور، وبدأت فى الليـــالى أرى عينيه تومضان ، إذ يدنو من النار،وأسمعه يقضم بنهم ما رميته من العظام التى عليها بعض اللحم ، ولما كان جائعاً ، فقد بدأ يظهر قبل دخول الليل ليلقط ما عسى أن يجد ، وكنت أدع له رأس الشاة وأحشاءها ، وكان يبقى على مسافة منى لا يعدوها ، فقد عرف مدى رميتى للحجر وهل سأرميه أو لا أرميه بحجر .

ثم كان يتفق أن أجد جرواً فى غابة — مخلوقاً صغيراً مطمئناً يكسوه الشعر ويمشى على بطنه السمين ، ويتطلع إليك بعينين

واسعتين ــ فكنت أخفض الفأس المرفوعة وأحمله إلى الحلة ، فيلعب زمناً مع الصغار ، حتى إذا نبتت وبرزت أنيابه ، صار بريق عينه أحدّ ، وذهب يتسلل وينضم إلى الذئاب الشهب التى تطوف بالنار . ولكن مثل هذا الذئب كان لا يعود قط ذئباً صريحاً ، فقد كان أكثر اقتراباً من النار ، وكان يتذكر الأطفال الذين لاعبوه ولاطفوه .

وعلى مر القرون صارت هذه الحيوانات الشهباء التى تغشى النار فى الغسق ، تجزينى أضعاف أضعاف ما كنت أرمى به إليهم من التوافه ، فقد كان عواؤها فجأة فى فحمة الليل ينبئنى أن النمر قد دنا ، وكانت تتبع جماعة الصيد لتأكل ما يتخلف من الصيد ، وكانت وهى تتبعنى ، إذا رأت دُبَّةً تتعرض لى ، تهجم عليها من خلفها ، فتدير وجهها إليها ، فيتاح لى أن أرميها بسهم . وأخيراً انضمت إلى الطراد وشاركت فيه ، ولما كانت مفطورة على الصيد ، فقد تعلمت متى تربض فى سكون ، ومتى تتعقب أثر الرائحة ، ومتى تثب وهى تعوى على الظبى الجريح .

وإنه لجانب عجيب من تاريخى لا يكاد يتصوره المرء لولا أنه وقع فعلا . وهكذا عشنا معاً بتبـادل الأخذ والعطاء ، وإن كان الأرجح أن هـذا يرجع إلى زيادة التقارب البطىء بين جماعتى وجماعات الذئاب ، أكثر مما يرجع إلى الترويض .

وهكذا على كر القرون صار الحيوان الطفيلى حارساً ، وزميلا فى الصيد ، وصديقاً ، وازداد دنوًّا من النار (ولا يزال إلى الآن يرقد قريباً من النار ، وينشر أذنه باهتمام إذا سمع صوتاً غريباً ــ ثم يحدث نفسه أن هـذا صوت الصبى جارنا إذ يعود إلى البيت ــ وينام ليحلم بأحلام قديمة إذ يطارد النمر ، ويستيقظ لينظر مرتاباً إلى هـذا الواغل الجديد : قطة البيت) .

وأخيراً عسى أن أكون قد اعتقدت أنى أسعد مما كنت قبلُ ــ فى يدى القوس ، وعلى آثارى الكلب فى الغابات والمخارم ، وأن لى أن أعيش مرحاً إلى الأبد . ولكن هذا لم يكن مقدوراً .

إن أول انقلاب عظيم فى حياتى (بعد أن أصبحت إنساناً حقاً) كان حين أربى تعويلى على الصيد ، على تعويلى على الانتجاع . والآن بدأ انقلاب عظيم ثان ، فقد اهتديت إلى إنتاج الطعام ، وبهذا استطعت تدريجاً أن أعتمد فى زادى على الزراعة وتربية الماشية .

وقد كان اهتدائى إلى إنتاج الطعام من خطر الشأن بحيث لم يعدله شىء آخر مما فعلته بعد ذلك ، فقد هيأ ذلك أساساً لكل حضارة ، على أن هذا التوفيق العظيم ــ كما

يحدث أحياناً — لايكاد يبدو صعباً كغيره مماهودونه، فإن زرع الحنطة يمكن أن يجيء على مراحل سهلة كثمرة للانتجاع، وكذلك ترويض الغنم ثمرة الصيد .

وحتى حين كانت جماعاتى لاتزال تتجول طلباً للنجعة ، تعلمت كثيراً مما هو جوهرى لها حين شرعت تزرع ، إذ لابد أنها لاحظت أن نجوم النبات الخضر تذوى فى الحر ، وتخضر وتربو بعد المطر . وكانت جماعاتى فى الأرض الجافة صيفاً تلاحظ أن النبات يخرج بعد أول مطرة فى الخريف .

وكذلك فطنت على الأيام إلى حقيقة النمو البسيطة ، من البذور فإن أى واحد يقلع عوداً من الشوفان أو الشعير كثيراً ما كان يرى مايبقى من البذرة — الجذر يخرج منها فى اتجاه ، والعود فى اتجاه آخر . بل إن بعض النبات مثل الفول ، كان يبدى هذا علانية ، فيخرج أنصاف حبات على أعواده فوق الأرض . وأحسب أن فهم حقيقة البذور كان سهلا .

وتعلمت جماعاتى فى عهد النجعة أمراً آخر جوهريا، فقد كان من متاعبها الكبيرة فى حياتها الأولى فى ذلك العهد أن الأمر يكون إما سعة عظيمة وإما شدة وضنكا ، لأنه متى نضجت بذور الحشائش صار هنالك من الطعام فوق مايمكن أكله حتى ولو اجتمع الناس والغزلان وغيرها من الحيوان. ولكن الرؤوس بعد قليل تنفتح ، ويسقط الحب وينتثر على الأرض حيث لايستطيع أن ينتفع به غير الطير والجرذان . ومثل هذا كان يحدث للأقوات الأخرى. فكان المنتجعون الأولون يكظون بطونهم فى الصيف والخريف ، ويسمنون ، ليكونوا أقوى على احتمال قلة المحصول فى الشتاء ، والربيع ، ولكنهم مالبثوا أن اقتدوا بكثير من الحيوانات فتعلموا أن يدخروا مايزيد على الحاجة ، لافى بطونهم بل بخزن الجوز وبذور الحشائش فى الكهوف .

وظل المنتجعون زمناً طويلا يجمعون طعامهم وينافسهم غيرهم ، فالطير كانت تأكل التوت ، والحيوان يرعى الحشائش الناهضة المستوية ، والخنازير تقبل على أصول الجوز ولكن الناس، ولاسيما بعد أن تعلموا الخزن والادخار ، بدأوا يعدون هؤلاء المزاحمين واغلين متطفلين . ثم نشأ أسلوب جديد فى الكلام .

« فليعهد إلى صبى أن يذود الطير عن شجرنا ! » .

« يجب أن نقيم الليلة حيث ترد النار الثيران عن حقلنا » .

ومتى بدأ قوم يفكرون على هذا النحو ويقولون « أشجارنا » و « حقلنا » فقد

خطوا الخطوة الأولى فى سبيل الزراعة .

وهكذا يكون الأرجح أنى أوليت النباتات رعايتى وحميتها من طلابها ، واحتفظت بها لنفسى ، ثم تعلمت أن أحميها من النباتات الأخرى ، كأن أنزع الشجيرات التى تخنق شجرة التين الغضة . ثم حدث ماهو أصعب قليلا حين أدرك العقلاء أن الأشـــجار والحشائش تحتاج إلى الوقاية من الناس أيضاً ، فإنه إذا قصف أحـــدهم الأغصان ليقطف الثمر كانت النتيجة أن يقل الثمر فى العام التالى ، وكان معنى هذا مد الفكر مسافة عام، ولكن البصر كان قد صار فى مقدورهم فمنعوا الأحداث من إيقاد نار بجانب جذع نخلة، وبينوا حماقة الرقص فى أرض معشوشبة مرجوة الخير .

وقد ساعدت هذه الأعمال على المحافظة على النمو الطبيعى ، ويسرت حصول القبيلة على قدر حسن من القوت ، ولم يكن من الصعب الانتقال من هذه الحالة إلى أنواع معينة فى الفلاحة البدائية . على أن قوام الزراعة هو غرس البذرة ، ولا بد أن بعضهم فى يوم ما ، غرس بذرة آملا أن يجنى فيما بعد محصولا .

وليس فى وسعى أن أعرف أى شخص كان هذا ، ولا أى نوع من البذور غرس ، ولكن التخمين ممكن . فأولا لا يمكن أن تكون هذه البذرة بذرة شجرة ، فإن نمو الشجر يستغرق زمناً طويلا . وأغلب الظن أنها لم تكن بذرة قمح أوشعير لأن زراعة هذه الحبوب تثير مشا كل خاصة ، وفضلا عن ذلك فإنها لم تكن بذرة طعام أساسى . ومن المحتمل جداً أن البذرة الأولى كانت بذرة شىء نادر لذيذ الطعم يغرى الناس باشتهائه .

وإذا اعتبرنا الاحتمالات جميعاً ، فإن الأرجح أن تكون بذرة نوع من البطيخ فإن هذا هو الذى قد يرغب بعضهم فى الاستزادة منه . ومن السهل أن يجد البذور الكبيرة ويقتنيها ، ثم إنه إذا جرب بعضهم غرسها فإن أوراقها التى تخرج يسهل تمييزها وهـــذا يسهل اقتلاع النباتات الأخرى ، وهو ما تعلمه المنتجون . ومتى بدأت البذور تخرج رؤوسها فإن العود ينمو بسرعة ويظلل كثيراً من النبات غيره ، وبعد زمن وجيز يطول العود ويمتد، وبعد قليل ينوّر ، ومتى بدأ النـور يذوى فإن أى إنسان يستطيع أن يرى الثمار الصغيرة ، فيتحلب فمه عليها . وهى تكبر بسرعة ، وإذا كانت البذور قد غرست قريباً من الحلة ، فإن الكلاب تذود عنها الغزلان والماعز حتى تنضج الثمار ، فالمحصول التى تجىء به بذرة واحدة قد يكون جديراً بما يبذل فى سبيله ، لأنه يؤتى طرفة لذيذة لا سبيل إليها بغير ذلك ،

فى حين أن محصول مئة حبة من القمح
أو الشعير لا يجىء بقدر من الطعام له قيمة .
وهكذا يكون من المحتمل أن الحديقة
سبقت حقل القمح ، وأخلق أن يكون
الغرض من الغرس إنتاج هذه الأطايب
والحصــول بفضل ذلك عفــواً على
الفيتامينات) وذلك قبل التعويل على الزراعة
للحصول على الكفاية للعيش ، وكان مصدرها
فى ذلك الوقت الصيد عند معظم القبائل .
وقد جاء فى التوراة أن العبرانيين المتضورين
ذكروا قدور اللحم والخــبز والسمك
فى مصر ولكنهم كانوا أشد اشتهاء للخيار
والبطيخ والكراث والبصــل والثوم .
ومن هذا القبيل أيضاً أن الله فى البداية
غرس حديقة فى شرقى جنة عدن ، فهو
لم يزرع حقل شعير .

على أنه بعد زمن غير مديد صارت هناك
حقول شعير ، وحقول قمح أيضاً ، ولكن
القمح لم يكد يعوض متاعب الغرس حبة
حبة ، أو حتى تلاً فتلاً ، ولم يكن من
السهل تمييز أعواده من أعواد الحشائش
الأخرى ، ولهذا لا يسهل اقتلاع الأعشاب
الضارة — الخارجة معه .

غير أن هذا قد لا يكون عسيراً فى بلاد
جافة ، ولهذا يمكن أن يقال إن زرع القمح
لعله بدأ فى بلاد قليلة المطر مثل سورية ،
لأنه فى البلاد الجافة تقل الحشائش البرية ،
ففى الوسع زرع القمح فى أرض تكاد تكون
عارية من قبل ، ثم يصبح علينا أن نجلب الماء
إلى البذور بطريقة من طرق الرى — إما
بحمل الماء فى قرعة ، وإما بتحويل ماء
ينبوع أو جدول لينحدر على الحقل . ومتى
بدأت الأعواد تطول بسرعة ، فإنه لا يكون
هناك إلا القليل من الأعشاب التى تنمو
بجانبها ، فيكون لنا حقل قمح . وتبعاً لسير
الأمور ، صار نهجى ، أنا الإنسان ، رهناً
بزرع نوعين مما يسمى الحبوب ، ومستقبلى
(وليس هذا تخميناً فإنه جلى فى تاريخى)
فى أيدى هؤلاء الذين تعلموا فى السنين
الأولى كيف يزرعون القمح والشعير .



كان الكلب قد
روض وأصبح أليفاً
منذ عدة آلاف من
السنين على الأقل ، ثم
تلته الغنم والماعز والخنازير والأبقار ،
وكانت كلها تطلب وتصاد من أجل لحمها
عدة قرون قبل أن تصبح أليفة .

فلما كانت الغنم قد تغيرت عن أصلها
أكثر مما تغير سواها من هذه الحيوانات ،
فإن هذا يدعو إلى الظن بأنها أول ما سيطرت
عليه ، وإذا أردت أن تكون فكرة عما

عساه حدث ، فتصور حالة قبيلة معينة حوالى عام ١٠٠٠٠ قبل الميلاد .

ولنفرض أن هـذه القبيلة كانت نازلة فى سلسلة من الجبال المنخفضة يحيط بها سهل صحراوى . وعلى جوانب الجبال كان رجال القبيلة يجمعون البذور والثمار ، ويصيدون السمّان والأرانب ، ولكن موردهم الرئيسى للطعام كان الغنم البرى .

غير أن رجال القبيلة تعلموا على الأيام استعمال القسى والسهام وازدادوا حذقا فيه ، فكثر ما يظفرون به من الغنم فى العام ، وازداد تبعاً لذلك تعداد القبيلة ، مع ازدياد عدد الأطفال السمان الأصحاء الذين يلعبون حول نار الجماعة ، وبعد بضع سنين قليلة أصبح الصبية صيادين ، وراحوا يقتلون عـدداً آخر من الغنم ، وما هى إلا فترة وجيزة حتى صار ما يقتل من الغنم أكثر مما يولد من نتاجها حتى فى سنوات الخصب .

ثم انتقلت الحال بالقبيلة من الرغد إلى الضيق ، فكان الصائدون يعودون جياعاً وأيديهم فارغة ، وراحت الأمهات يبحثن عن التوت ويحفرن الأرض طلباً للجذور التى كن يزدرينها أيام الخصب واللحم السمين ، ولعل هـذه الحالة كانت تتكرر كثيراً وفى أماكن عديدة ، وعلى الأيام صار الصائدون ينظرون إلى أبعد من ذبابة السهم ، وأصبح شيوخ القبيلة الذين عانوا فترة من ندرة الصيد يعبسون ويسخطون إذ يرون الفتيان يقتلون الغنم لا لسبب سوى الاستمتاع بإظهار براعتهم . وكان هناك شىء آخر أيضاً ، فقد بدأوا يشعرون أن الذئاب والنمورة باغية — كما أن بعض النـاس ، فى نفس الوقت تقريباً بدأوا يشعرون أن الثيران والغزلان متطفلة على « مراعينا » ، وهكذا شرع الرماة يطاردون الذئاب والنمورة أيضاً .

ومتى بدأت القبيلة فى جماعتها تنظر إلى إلى الغنم على أنها « غنمها » فإن فى وسعها أن تشرع فى اتخاذ وسيلة للمحافظة عليها ، وتلك خطوة طويلة فى سبيل تأليفها وترويضها . ثم شرعت تتكلم بعبارات جديدة :

« ابقوا على النعجة مع الحمل ! » .

« إن نمراً قد افترس بعض غنمنا — فلنتعقبه ولنقتله ! »

« هل المراعى أخصب على الجانب الغربى ؟ فلنذهب بغنمنا إلى تلك الناحية حين نخرج للصيد اليوم . »

وهـكذا كفّ رجال القبيلة عن صيد الغنم ، وصاروا رعاة . و قد تم ذلك خطوة خطوة ، وببطء شديد حتى ليتعذر أن نعرف متى حدث ذلك .

لقد أحدثت انقلاباً بترويض الحيوانات

الصالحة للطعام وبتعلمى زراعة القمح. وترجع قيمة النصر المزدوج إلى أنى أنا الإنسان أصبحت أعمل مع الأرض والشمس والمطر لإنتاج الطعام ، ولم أعد مقتصراً على الضرب فى الأرض ، هنا وهنا لأجمع أو أقتل ما أنتجت الأرض والشمس والمطر ، ولا على منافسة الذئب والأسد على اللحم ، والماشية والطير على الحبوب ، والعيش من يوم إلى يوم على غير اطمئنان أو ثقة فى الأغلب . ومع أن هذا الذى حدث كله يروى فى بضعة أسطر ، إلا أن القدرة على إنتاج الطعام غيرت أساليب حياتى ، وأساليب تفكيرى أيضاً ، كما غيرها الصيد مرة قبل ذلك بزمان طويل .

لقد كانت حياتى من قبل مدارها مخيم الصائدين الذين يرتادون الغابات بالقسى والكلاب ، فالآن صار مدار حياتى حلة صغيرة من القرويين يزرعون القمح ويتخذون قطعان الغنم والماشية . وقد كانت كل قرية صغيرة عبارة عن عاصمة أو حاضرة لأنه لم يكن ثم ما يكسفها ويحجبها ، وكان القرويون يزدرون قبائل الصيادين والمنتجعين الفقراء الجياع فى الأغلب ، الذين لا يزالون يرتادون السهوب أو الغابات .

وحوالى هذا الوقت تعلمت شحذ الحجارة بدلا من الاكتفاء باتخاذ حجر ذى حد أو سن . ومن هنا أطلق على العصر كله اسم العصر الحجرى الجديد ، وبهذا الحجر المشحوذ صارت لى لأول مرة فأس يمكن الاعتماد عليها عند الضرب بها دون أن أخشى أن يتحطم رأسها حين أضرب . وكانت هذه الفأس الصالحة عظيمة النفع لى فى هذه المرحلة لاقتلاع الأعشاب والشجيرات والأشجار ، وتوسيع حقول القمح الجديدة . ولا بد أن الزراع الأولين كثيراً ما احتاجوا إلى الفأس كحاجتهم إلى المنجل .

وحدثت سلسلة عظيمة أخرى من الاكتشافات ذات صلة بأعمال الحمل والخزن فاهتديت إلى عدة وسائل لذلك فضلا عن استخدام ما يعد أوعية طبيعية مثل القرع .

فأولا يمكن أن تجمع أطراف الجلد فيصبح أشبه بالعَيْبة أو الغرارة ، وقد ربطت الأطراف فيما بعد فصارت غرارة حقيقية ، وقد تبين أن هذه أداة بديعة ، وأنها تحمل حتى الماء . وكان لهذه الغرارة عيوبها . ومنها أنها لا تستطيع أن تظل مفتوحة الفم للملء ولكن على الرغم مما اكتسبته من الحذق فيما بعد لم أستطع أن اعتاض منها سواها . ومع أنى أصنع بعض الأكياس من الجلد اليوم ، إلا أنى لا أزال أستعمل ملايين من الأكياس البسيطة جداً لنقل كل شىء وحفظه — من الماء إلى الفحم والذهب .



وبينما كنت أعمل على تحسين الغرارة كنت — وأنا أعبث على الأرجح — أنسج الحصير من أعواد الأسل. والحصير يمكن أن تجمع أطرافه كالجلد، فلما تعلمت نسج الحصير على هذه الصورة، صارت لى سلة، والسلة شبيهة بالغرارة — وعاء بديع لحفظ الأشياء لخفتها ومتانتها وسهولة تناولها، وما زلت إلى اليوم أستعمل ملايين من السلال لا تختلف كثيراً عن السلال البدائية، بل هى تصنع من نفس المواد.

غير أن السلة لا تصلح لحفظ الماء، ولا بد أنى طليتها بالطين للتغلب على هذه الصعوبة، فلما احترقت سلة من هذه السلال — مصادفة — فى النار، وجدت أن الطين أحمر وصلب، وكنت فى ذلك الوقت قد اكتسبت قدراً كافياً من الذكاء، وتنبهت إلى علاقة السبب بالمسبب، فتعلقت بالفكرة الجديدة وبدأت أصنع القدور. وكنت فى البداية أقلد الأشكال الطبيعية بل أشكال السلة أيضاً، غير أنى بعد قليل تعلمت أن أصوغ القدور على أشكال كثيرة لا يأخذها حصر، وأن أزينها بالرسوم والصور بالألوان.

وقد كان لهذه الأدوات المتخذة لحمل الأشياء وخزنها قيمة عظيمة جداً، لأن ظهور المدن كان متوقفاً عليها، فما يستطيع عدد كبير من الناس أن يعيش فى مكان واحد إلا إذا كان القمح الذى يزرع فى مكان آخر فى موسمه، يمكن أن ينقل إليهم ويخزن عندهم ليستعمل فى الفصول التى لا يزرع فيها قمح.

وثم توفيق آخر جليل فى تلك العصور التى هى أعظم العصور الإنشائية — هو نسج الثياب. فقد ظل الصائدون عدة قرون لا يرتدون إلا جلود الحيوان، وكانوا يخيطونها بالإبرة والخيط ليجعلوا منها كساء (أو كانت الزوجات والأمهات يفعلن ذلك). والجلود شىء حسن فى الجو البارد، ولكنى كنت فى بعض الأحيان أنشد الوقاية من الشمس، ثم إنى كنت قد عرفت فكرة الحياء قبل ذلك بزمن مديد، ولهذا كنت فى البلاد الحارة أريد أن أستر بدنى دون أن أختنق تحت كساء من الجلد، ومن هنا كان أول ثوب عرف فى البلاد الحارة.

ومن السهل أن يستوحى المرء نسج الثياب من نسج الحصير والسلة، والواقع أن أول ما صنع من الثياب، كان مضفوراً، ولعل وبر النعاج كان أول ما استعمل لأنه يمكن أن يتخذ منه نسج رقيق خفيف، ثم استطاع بعض الماهرين (هذا على الأرجح كان بعد زمان طويل من تعلم الزراعة)

أن يزرعوا الكتان ويهيئوه وينسجوه ، ثم تلا ذلك على ما يظهر استعمال الصوف .

وهكذا استطعت أنا الإنسان أن أوجد صناعة النسج المعقدة المملة بجميع تفاصيلها من جز ، وتمشيط ، وندف ، وغزل ، ونسج ، وتبييض ، وصبغ ، وغير ذلك مما لا يعرفه إلا أهل هذه الصناعة .

وقبل أن يمضى زمن طويل أفضت صناعة الثياب إلى اتخاذ النول ، وهو أعقد أداة اتخذتها إلى ذلك الحين .

وإذا كان ثم شيء تعلمته عن الحياة — وأنا أكر الطرف راجعاً — فذاك أن التغير يولد التغير على ما يظهر ، ولست أرى هذا بجلاء كما أراه فى نفس هذا العصر الدهش ، وهو عصر لا يمكن أن يكون بالغ الطول حتى إذا طبقنا عليه المقاييس التاريخية ، وألفان من السنين مسافة من الزمن كافية له . ومع أنى قد أضفت إلى إنتاج الطعام الحجارة المشحوذة والأوعية والنسج ، إلا أنى لم أكد أبداً فى سرد كل ما كان من وجوه التغير .

ومن الغرائب التى لاحظتها أيضاً أن أى جديد قد تتفرع عليه أشياء أخرى ، فما كان أحد فى البداية يخطر له أن زرع المحصولات سيقترن اقتراناً طبيعياً باتخاذ الحيوانات . ذلك أن السماد أعان النبات على النماء ، ووفرة الغلة الناتجة يسرت لى إطعام الحيوان وجعلته يعتمد علىّ .

وتأمل نتيجة أخرى لم تكن متوقعة هى ما أدى إليه التبن ، فقد كان القمح يزرع من أجل الحب ، ولكن القرويين ألفوا عندهم مقادير كبيرة من التبن ظهر أن لها فائدة من وجوه شتى . فهى علف لبعض الحيوان ، وهى تجعل النار تتسعر بسرعة ، ويمكن أن يتخذ منها الحصير وغطاء الرأس ، وهى فراش حسن للرجل والحيوان .

وكذلك كان حال الحيوان أيضاً . فقد كان ترويضه فى البداية من أجل الطعام ، وبعض أشياء أخرى مما يستعمله الصائدون — الجلد والعظام والقرون والأوبار ، ولكن بعض رجال القبائل من أقدم العصور حلبوا النعاج والمعز والأبقار ، وبعد أن روضوا الحيوانات الأخرى حلبوا الأتان والمهر والناقة ، بل كل كبيرة من ذوات الأثداء تستحق هذا العناء . ثم خرج من اللبن كل المنتجات الثمينة التى لم تكن منتظرة مثل الروب والزبدة والجبن ثم الخمائر والطلاء والغراء واللدائن .

وكان تطور الغنم أعجب ما حدث ، فإن شعر الغنم الأصلى المستوحش كان شبيهاً بشعر المعز ، ولا يزال الغنم المستوحش كذلك إلى الآن ، ولكن فروة بعض الغنم بدأ شعرها

يطول، بعد أن صار هذا الحيوان فى كنق، (بفضل التنوع الطبيعى على الأرجح) ، وكانت هذه الأغنام خليقة فى حياة الاستيحاش أن تجد معوقاً لحركاتها من طول أوبارها، فتتعرض للإبادة ، وقد كان من جراء هذا الطول فى أوبارها أن صارت أقل نشاطاً وأضعف ثقة بنفسها فجعلت تلازم الراعى . وفى هذه الأحوال الجديدة صارت فرصة البقاء لها أكبر ، وسرعان ما وجد الراعى أن جلود هذه الغنم تصلح لاتخاذ أردية دافئة.

وهكذا عاونت الطبيعـة بإنقاذ أطول الحيوانات وبراً للنتاج . وبهذا حصلت على الصوف فضلا عن اللحم ، وبهذا أيضاً — فى مستهل التاريخ — صارت الغنم بأصوافها الثخينة مفتقرة إلى كل الافتقار لحمايتها ، ورمزاً للعجز .

صارت الحياة — فيما بين ٦٠٠٠و٥٠٠٠ ق . م . — تزداد تعقداً بسرعة ، وأحسب أن فكرة « العمل » ظهرت فى ذلك الوقت ، فإن الناس لم يعودوا يحيون حياة الصائد المغامر، واقتضت الفلاحة أن تكون هناك فى أوقات منتظمة نوبات عمل شاق ليس بالممتع فى كل حال ، وهذا هو العمل .

وهذه الفترة التى شهدت نشوء معنى العمل ، يحتمل أن تكون قد شهدت أيضاً نشوء معنى الفراغ ، فقد كان القروى يقوم بمهمات قد تكون ثقيلة بغيضة إليه، ولكن الوقت الذى كان يقضيه فى الحصول على طعامه الأساسى أقل . ومتى وجد الناس الطعام الكافى والوقت للقعود والحديث والتفكير ، فإن أفكاراً جديدة تدور فى رؤوسهم ، فتتخذ صور اختراعات جديدة وأساليب مستحدثة فى الحياة .

ولست أزعم أن هذا كان عصر سلام ذهبى ، ولكنى حين أحفر منقباً عن إحدى هذه القرى الأولى لا أجد أسواراً أو موانع للدفاع، أما الأسلحة التى أجدها فهى أدوات للصـيد لا أدوات للحرب . وكانت جماعة الصيادين تعيش على الأطراف ملتزمة قانون الحربة والقوس ، ولكن هذه كان قليلا عديدها ، وقد تغير من حين إلى حين ولكن القائمين لم يكونوا غزاة إلى ذلك الحين .

ومع أن حياة القرية كانت أشد تعقيداً من حياة الصيد والانتجاع ، إلا أنها لم تكن تتطلب ذلك التعاون الدقيق السريع الذى يتطلبه الطراد ، فإن الفلاح يستطيع أن يعمل وحده ولنفسه ما شاء من الوقت ، ولهذا يكون القرويون أكثر ديمقراطية ونزوعاً إلى الفردية من الصيادين . ثم إنهم لم يكونوا إلى ذلك الحين قد تميزوا بالاختصاص فى ضروب عملهم إلى الحد الذى يؤدى إلى

القضاء على المساواة، فقد كان كلٌ منهم فلاحاً، ولكنه كان يستطيع أيضاً أن يعمل - وكثيراً ما عمل - كل ما استوجب الأمر عمله، فكان يصيد الحيوان والسمك، وينجر الخشب، ويصنع القسيّ والنبال على سبيل الهواية.

ولما كثر إنتاج الطعام كثر عدد الناس، فراحوا يتوسعون ويزرعون قرى أخرى، ولم تكن متباعدة منعزلة، وكان الأفراد يروحون ويجيئون بينها ويتبادلون الأشياء والأفكار، فتحتك العقول وتشحذ.

ولعله كان يحدث بعد الحصاد أن يحمل اثنان من الفتيان جلدماعز بعد معالجته على طريقة قريتهما، ويجتازا الجبل ويخترقا الغابة، ومعهما قوساهما، فقد كان من المحتمل دائماً أن يلتقيا ببعض أهل الجبال الجوّابين أو يصادفا دباً، حتى إذا بلغا القرية الأخرى أفضيا بما عندهما من أنباء، واستمعا إلى أنباء القوم. ويدور الحديث، ويأكل الطارئان مايقدم إليهما من طعام، ويختلسان النظرات إلى الفتيات، ويسمعان أن نوع القمح الجديد الذى جيء ببذوره من الجنوب فى العام الماضى قد خيب الأمل، ويصغيان إلى ما عند القوم من تعليل لذلك، ويدليان بما يعنّ لهما من رأى. ويرى أحدهما زوجة تستعمل نولا قديم الطراز، فيبين للقوم كيف يمكن تحسينه قليلا، ويضحكان إذ يسمعان قصة جديدة (ليس فيها شىء من الاحتشام) ويقصان مثلها على سبيل المساجلة، ويقال لهما إن بدو الصحراء فى الشمال الشرقى - على مسافة بعيدة جداً - قد قاموا بغارة. ثم يهدون جلد الماعز إلى القروى الذى ضيفهما، فيقابل لطفهما بمثله ويهدى إليهما صدفة مصقولة جاءت من قرية فى الغرب. ثم يعودان إلى قريتهما - وقد أدّيا مهمة السفير والتاجر وحامل الأخبار.

وأحسب أن الحياة كانت قريبة شبيهة بهذه الصورة فى فترة القرون العشرة العجيبة مابين سنة ٦٠٠٠ وسنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد.

وظهرت القرى على الأيام فى أودية الأنهار، وصارت أكثر عدداً منها فى أى مكان آخر لخصوبة التربة. ولا يمضى إلا زمن وجيز حتى تصبح العشرات منها متقاربة أو متجاورة. وبين هذه القرى - لا بين القرى المنعزلة فى التلال والجبال - يجرى الخيط الكبير الذى ينتظم حوادث قصتى هذه.

وأخذت الحياة تزداد تحولا من البساطة إلى التركيب، فقد صارت هناك محصولات جديدة وطرق جديدة لزرعها ينبغى أن يتعلمها الناس، وتعقد أمر الزراعة حتى صار حسب أى واحد أن يكون فلاحاً،

ولا متسع من الوقت عنــده لبناء بيته وصنع أدواته .

وكذلك كان الأمر فيما يتعلق بالحرف الأخرى ، فبعد أن اخترعت عجلة الفخار ، انتقل عمل الفخار إلى أيدى صناع مخصوصين. وكانت صناعة المعادن من أول الأمر خارجة عن نطاق الفلاح العادى ، وظهر الحداد فى العالم وكان جديداً كل الجدة ، واضطر الفلاح أن ينتج مزيداً من الطعام للمقايضة على الآلات والقدور . ولما كان الفلاح قد اقتصد بهذا وقتاً طويلا ، فإنه قد صار أرغد حالا ، ولا شك أن الحداد وصانع الفخار كانا يؤثران صناعتيهما على العمل فى الحقول، فكانا هما أيضاً أرغد حالا .

وفى الوقت الذى نزع فيه الأفراد إلى التخصص ، نزعت القرى أيضاً ولا شك إلى مثل ذلك ، وكانت الحبوب هى أساس الحياة ، فإذا كانت رقعة من الأرض صالحة للحبوب على وجه الخصوص ، فإن الناس كانوا يستقرون فيها ، غير أن الخصائص التى تجعل الأرض أصلح ما تكون لزراعة الحبوب ، هى بعينها التى تجعلها غير قادرة على تزويد القرية بحاجاتها الأخرى . ذلك أن الحجارة لازمة لأدوات الزراعــة ، ولا حجارة فى الطين الخصيب . والحطب الذى يوجد هناك غير نفيس ، أو لا شجر هناك . وزراعة الحبوب لا تلتئم مع اتخاذ المراعى ، وقد ينظر المرء ويحدق حتى تخرج عيناه فلا يجـد ركاز النحاس فى أرض بين نهرين .

وهكذا أخذت بعض القرى تنمو وتكبر وتتعقد فيها الحياة لأن أسر الفخارين وصناع الأدوات والتجار عاشوا فيها ، وأما وقد أخذت هذه القرى تصبح إلى حد ما مركزاً للصناعة والتجارة ، فإنه يحسن أن نبدأ باستعمال لفظ جديد ، فنسميها مدناً .



ولك أن تعد زمن الفصل التالى حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م . وهــو عصر تدهور القرية ونشوء المدينة . وقد ظهر الرق فى كل المناطق التى نشأت فيها المدن، وكانت الرغبة فى الاستكثار من الرقيق هى أكبر ما أغرى بالحرب ، وصــارت تجارة الرقيق حرفة وصناعة أدت إلى تجويد فن الغزو ، ولعله كان أحدث عهداً من الرق ، لأن الغزو لم يكن فى الحقيقة إلا ضرباً من الاسترقاق بالجملة

ولما توطدت أركان المدن حقاً ابتداء من سنة ٢٥٠٠ ق . م . تقريبــاً حدث تطور ملحوظ فى مجال الترف والرفاهية ، وهذا يبدو على الخصوص فى الفنون . وقد

حفظ الزمن كثيراً من هذا الإنتاج الجديد : مبانٍ ومقابر ، وتماثيل ، ونقوش، وفخار ، وخزف ، وقطع بديعة من المعادن المصوغة، وزجاج ، وتوابيت ، وغيرها من أشغال الخشب والعاج ، وطلاء الجدران، بل بعض الآثار الأدبية أيضاً ، وكانت هذه الفنون كلها مقصورة على الأقلين .

وما من قطر واحد كان يستطيع أن يخرج كل المواد النادرة المنشودة ، ومن هنا اتسع نطاق التجارة ، فخرجت القوافل والسفن إلى البلاد الأخرى أو إلى القبائل المتخلفة التي قد يكون عندها ما تقايض عليه من ذهب وفراء أو أفاويه أو أعشاب سحرية . وهكذا أخذت صناعة السفن وفن الملاحة في الرقي بعد سنة ٢٥٠٠ ق . م .

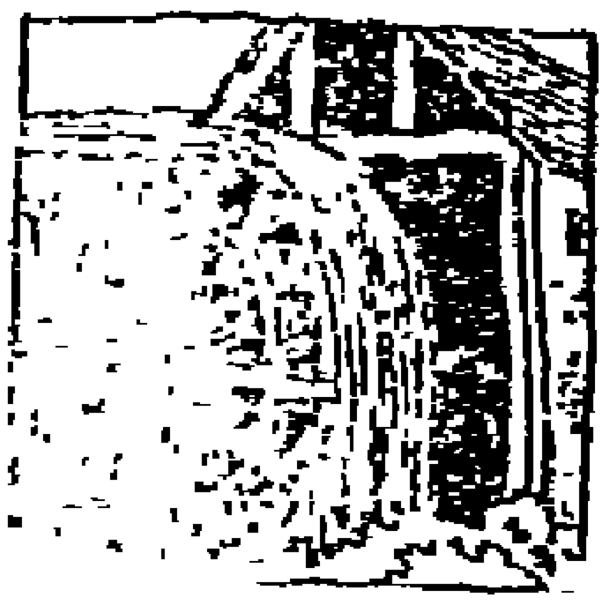
وحوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م . بلغت الدنيا حالة لم يطرأ عليها تغيير جوهري خلال ثلاثة آلاف سنة وأكثر بعد ذلك .

وباختراع الكتابة تخرج قصتي « إلى نور التاريخ » ويبدو أن الكتابة — ككثير مما عرف الإنسان ، جاءت على مراحل بطيئة، فبدأت بالصور ، ثم تلا ذلك التصوير المبسط المصطلح عليه الذي يشبه الرسم بالعود ؛ وأخيراً صارت هذه الصورة المبسطة تعبر عن الكلمة بدلا من أن تعبر عن الشيء .

ثم جاء اختراع الحروف الأبجدية فيما بعد ، وليس من الميسور إلى الآن ردّها إلى ما قبل ١٥٠٠ ق . م .

وقد سهلت حروف الهجاء كل شيء ، بحيث أصبح في وسع كل إنسان — من الوجهة النظرية — أن يقرأ ويكتب ، غير أن الواقع هو أن القراءة والكتابة ظلتا على مدار القرون مقصورتين على الكتبة وعلى قلة ضئيلة ، وبقي الأرقاء والفلاحون وكثيرون من أهل الطبقة العليا أيضاً ، ولا سيما النساء ، أميين كالنسانيس .

أما ما حدث في الآلاف الأخيرة من السنين فمدوّن ومعروف . وإني إذ أكتب هذا في منتصف القرن العشرين بعد الميلاد، أرى في تاريخي عصرين عظيمين من عصور الإنشاء والخلق : أولهما بدأ بتعلم الزراعة وترويض حيوانات الطعام ، وقد امتد هذا العصر بضعة آلاف من السنين وظهرت فيه القرى، واستمر إلى أن أبطأت حضارة المدن . وثاني هذين العصرين العظيمين بدأ حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . ولا يزال مستمراً على ما يظهر . وقد كان هذا العصر وما زال هو عصر الاستكشافات من جغرافية وفنية وصناعية ، وما انفكت تحدث فيه تطورات عميقة في نظام الجماعة.



وقد وُصفت أنا الإنسان بأنى أهيم بالأدوات ، واتخذ الكتّاب هذا الوصف سخرية منى ، فكأنهم يريدوننى أن أكون أشدّ هياماً بالشعر منى بالمحاريث . بيد أنى أجد شيئاً يقال فى الدفاع عن الأدوات ، فقد أفادتنى القوة والسلطان على العالم الذى يحيط بى ، وقد لاحظت على الدهور ، أن العصور التى تزخر بالمخترعات الجديدة ، تبتكر فيها أيضاً أساليب جديدة للحياة والاجتماع .

ومنذ ألف سنةٍ أو أقل دخلت عهداً من حياتى ، جمعت فيه بين الأدوات الجديدة والانتفاع بالأدوات القديمة على وجه جديد . وقد ألف الكتاب أن يعدّوا البارود والطباعة أعظم المخترعات فى أوائل العصر الحديث ، بيد أنى أرى أن الانتفاع بقوة الماء ، كان أخطر شأناً وأسبق عهداً .

ولعلّ طواحين الهواء اخترعت فى العصور القديمة ، ولكن الانتفاع بها على نطاق كبير تأخر عن الانتفاع بطواحين الماء . وقد ازداد الانتفاع بقوة الماء والهواء ازدياداً بطيئاً ، ومهما يكن من أمر فإن وجود طواحين الحبوب كان فى حد نفسه ذا قيمة لا تقدر فى الدلالة على وجوه الانتفاع بالقوة فى المستقبل ، وكانت كلّ طاحونةٍ أو عجلة يديرها الماء الجارى حجة ناهضة على الرق والعبودية . فالعبد الرقيق قد يغنيك عن دفع أجر له ، ولكنك مع ذلك مضطر أن توفر له الطعام ، وإذن فالاستعانة بالماء على الطحن كان أقل نفقة من الاحتفاظ بالرقيق وإن وفيت للطحان أجراً عن عمله .

وفى أوائل العصر الحديث اكتشف البحارة نفع البوصلة وطريقة استعمالها بيد أن حذقهم فن الملاحة ضد اتجاه الريح كان أخطر شأناً . وعلى الرغم من براعة الفينيقيين واليونانيين ، كانت شعوب العالم القديم ألصق باليابسة ، فإذا سلكت البحار ظلت محاذية للسواحل . أما الشعوب التى عزمت على عبور المحيط الأطلسى فقد كان حتما عليها أن تتقن الملاحة ، أو أن تقبع فى بلادها . وقد حذقت الملاحة ، ثم تدرجت صعداً فى بناء السفن ، وأمعنت فى سلك البحار .

فكان ذلك عصراً حافلا بآيات الريادة والاستكشاف ، والأسماء الثلاثة البارزة التى يصح أن تتخذ رمزاً دالا على ذلك العصر ، هى أسماء كولمبوس ، ومجلان ، وكوبرنيكس . وقد عاش الثلاثة فى عصر واحد وتمت مكتشفاتهم فى قرن واحد .

وقد رحل كولمبوس إلى بلد أذهل الناس خبره ، فلم يسعهم إلا أن يطلقوا عليه وصف « العالم الجديد » ، فكأنه فتح

أمام عيون الناس طريقاً إلى اللانهاية . ثم جاءت رحلة مجلان حول الأرض ، فكأنها قالت إن للانسان حدوداً ، وأن هذه الحدود قائمة على كرة ليست بالكبيرة ، وأن سفينة صغيرة تستطيع أن تدور حولها في زمن ليس بالزمن المديد. أما كوبرنيكس فقد كان أبعد الثلاثة رحلة ، مع أنه ظل مقيما في داره ، وقد أدرك في أثناء رحلته أن هذه الكرة الصغيرة ليست مركز الكون، بل هي واحدة من كرات كثيرة ، ولعلها من أصغر الكرات حجماً .

كولمبوس ، مجلان ، كوبرنيكوس — ماذا تراني صنعت بمكتشفاتهم في الفترة القصيرة التي مرت عليها ؟ أما أمريكا التي كشفها كولمبوس فقد جعلتها جزءا من عالمي أنا الإنسان ، وأنت تنظر إليها اليوم فلا تعدها حلما بعيداً ، أو أملاً أو عالما جديداً ، فما هي سوى قارتين تقطنهما شعوب كثيرة بينها حدود وحواجز .

أما مجلان فأراني لم أكد أفعل شيئاً بما كشف ، وأفرادي لم يكادوا يبدأون النظر إلى أمم الأرض على أنها أمة واحدة وعالم واحد ، ومع ذلك فإن اسم مجلان خليق أن يصير الرمز الذي يطلق على العصر الذي وقفت الساعة على أعتابه .

وأما كوبرنيكس ، فأراني لا أزال أداعب الآراء التي طلع علينا بها كأنها وهم من الأوهام ، ولا تزال القدرة على الرحلة إلى كوكب سيار آخر ، بعيدة عني ، كما كانت الرحلة حول الأرض بعيدة عن ذهن الناس في عهد الرومان .

وحوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ظهر الملوك ، والنبلاء ، والأحرار ، والعبيد ، والأرقاء، ولكن الملوك كانوا أبعد مايكونون عن السلطة المطلقة ، وكان الأرقاء قليلا عديدهم،ولم يكن ثمة فاصل حاسم بين النبلاء والأحرار،ولا بين الأحرار والعبيد،واحتفظ الفرد بقدر من الإدراك لقيمته وحريته ، وبتقاليد التمرد على سلطة الملوك المتزايدة .

وصاحب هذا الكفاح نمو الحكم التمثيلي وأساليبه ، وكان هذا أهم تطور اجتماعي في ألف سنة ، فقد كان من الممكن في قبيلة أو قرية أن تتقرر الأمور ذات الصفة العامة بأن يدعى الآباء إلى اجتماع ، ولكن إذا انتشرت القبيلة في رقعة واسعة ، أو كبرت القرية فأصبحت مدينة تتبعها قرى ، فإنه لم تكن هناك طريقة عملية في ذلك العالم القديم، يتسنى بها للبعيدين أن يتركوا أعمالهم ليشهدوا اجتماعا .

غير أن الأوربيين ابتكروا طريقة اختيار ممثل لكل منطقة ، ثم يجتمع هؤلاء الممثلون

فى مجلس أو برلمان ، وقد يسرت هذه التجربة إيجاد أداة يستطيع بها الأفراد أن يعملوا معاً فى بلاد كبيرة دون أن يخضعوا لحكم ملك أو مدينة كبيرة . فمهّد ذلك لقيام الديمقراطيات الكبيرة .

وإنى لأجد فى الوقت الحاضر أن ائتلاف المدن والديمقراطية أقوى مما كان فى أى عهد مضى ، وأن كل الدلائل تشير إلى استمرار النشاط والحيوية . ويبدو أن الديمقراطية تتيح للفرد فرصة فيها حرية لم يتم مثلها له فى ظل المدنية القائمة على نظام الملكية والاسترقاق .



أما من حيث المستقبل فإن أول سؤال هو : « أترانى سأبقى زمناً آخر ؟ » أظن ذلك .

ولاشك أن هناك احتمال نظرى بأن يحدث اصطدام فلكى يمحونى ، أو قد أطلق أنا قوة ذرية تقضى على . ويقول البعض إنى قد أبيد نفسى بالحرب ، والواقع أن الحرب قد تعصف بسكان مدينة أو إقليم ، ولكنك لن تجد حرباً معروفة وإن اقترنت بالوباء والمجاعة، قد محت كل الشعب الذى خاضها . فأنا لا أرى احتمال القضاء على وجودى عن طريق الحرب .

ولنتصور شر حرب تدخل فى الإمكان إلى الآن — عالم منقسم إلى معسكرين متعادين ، متكافئين وكل منهما يحطم الآخر بالقنابل الذرية ، وحتى إذا حدث هذا فإن إبادة الإنسان تقتضى أن توجه القنابل إلى جميع الأكواخ الصغيرة ، وجميع الغابات العظيمة، وكل قرية للإسكيمو على حافة الجمد القطبى، وأعتقد أن جمع الأفراد القادرين على صنع القنابل الذرية وإطلاقها سيقضى عليهم أولا، وأن الدمار العام سينقطع حينئذ بطبيعة الحال تاركا كل حلة بعيدة بغير أذى .

وثم سؤال أكثر دوراناً على الألسنة ، وهو : هل ستبقى الحضارة ؟

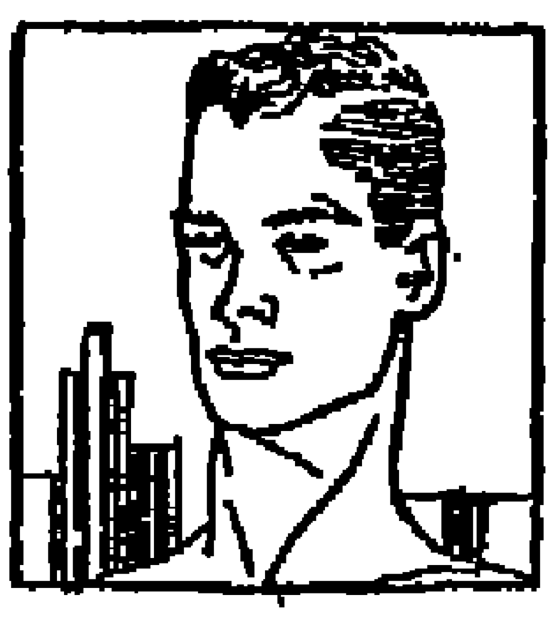
أظن ذلك . ومع أنه سهل علىّ أن أتصور القضاء على الإنسان ، إلا أنه يبدو لى أن الحضارة شجرة معرقة الجذور متينة ، فعلى الرغم من كثرة اللغط بقيام الدول وسقوطها فإن الحضارة لم يقض عليها فيما مضى ، وإذا كنا نعنى « بالحضارة » ما يشبه الإمبراطورية الأشورية أو الرومانية ، فإن هذه قد بادت ، ولكن إذا عنينا بالحضارة جملة أشياء من مثل الزراعة وصناعة المعادن والتقاليد الاجتماعية — فإن المدنية لم تنقرض قط ، ولم تخسر الدنيا على ما يظهر أى شىء مهم منها . وهكذا تظل قصتى مسايرة للحضارة ومستمرة على الرغم من أشد الحروب تدميراً،

كانت عندئذ أبسط نظاماً وأقرب
أصولها الأولى .

أما من حيث التطور الاجتماعى فى
تقبل ، فإنه لم يظهر إلى الآن سوى
مين اجتماعيين سايرا الحضارة . أحدهما
م الملكية والعبودية القديم ، والثانى هو
م الديمقراطية الحديثة . والتاريخ إلى
ب النظام الأول ، ولكن لست من
منين بأن التاريخ يعيد نفسه (وأقصى
يقال أنه يعيد نفسه على نحو ما يتكرر
صوت المصوغ فى اللحن الموسيقى — مع
تقال من نغمة إلى نغمة) . وأعتقد أن المسألة
تظل إلى الآن من الناحيتين ، وقد يستمر
صراع زمناً ، أما أيهما تكون له الغلبة
د مئة عام أو خمسمئة ، فلا أدرى ، فقد قام
الماضى نظام الملكية والعبودية واستمر
سبب واحد ، ذلك أنه لما أربى عدد الناس
لى موارد الطعام صارت المشكلة واحدة
ئماً وهى : هل يهوى الجميع إلى حضيض
لوجود ، أو يهوى معظمهم ، ويحيى
لأقلون حياة أرغد ؟ وكان الأمر الثانى
و الجواب فى كل حال .

على أن عند الديمقراطية حلا ثالثاً —
ن يعيش الجميع عيشة طيبة . وعلى الديمقراطية
كى تبقى وتخرج هذا الحل إلى حيز العمل ،
ن تصبح أحزم تدبيراً وأن لا تظل مستعدة
للتأثر بكل ذى لسان ذرب يضع قدمه على
عتبة الباب . ولما كانت الديمقراطية قد
ارتضت أن تحمل المسئولية المشتركة عن
رغد الجميع ، فإن عليها أن تصمم وتحزم
أمرها على أن تحل مسألة كفالة المساواة فى
الفرص لجميع الناس .

وسواء أقام نظام الملكية والعبودية ،
أم قام نظام آخر من الديمقراطية ، فإنى
أستطيع أن أتنبأ وأنا واثق من صدق
فراستى ، بأن العالم كله فى مدى قرن أو
قرنين سيتحد فى ظل حكومة واحدة .
ويبدو لى أن العالم تضاءل من جراء تقدم
الآلات الحديثة ، فصار التوحيد لا مفر منه .



وها أناذا قد بلغت
ختام قصتى إلى يومى
الحاضر . وإذا سألتنى :
« هل كان تاريخى
حسناً أو سيئاً ؟ » ، فكل ما يسعنى أن
أجيب به هو أنه سواء أكان تاريخى حسناً
أم سيئاً ، فإن قصته ممتعة ، وكأنى بالأرض
والمخلوقات الأخرى لم تتغير إلا قليلا على قدر
ما أذكر . وحسبى أنى على الأقل قد فعلت
ما فعلت وابتكرت ما ابتكرت !

ولهذا أقول إنها ليست قصة ممتعة فحسب ،
بل إنها أجود قصة وأمتعها فى العالم !

[تتمة من صفحة ١٠٠]

فاليقين بأن هناك قوة فوق قوتنا نستمدُّ منها القدرة على عمل ما ينبغى أن نعمل ، وعلى احتمال ما ينبغى أن نحتمل ، هو سرُّ أولئك الرجال الذى اكتملت رجولتهم فصاروا أهل قوة وثبات وشجاعة فلا ينثنون أمام الصعاب . وقد قال الفيلسوف وليم جيمس إن ذات الإنسان الواعية متصلة بحقيقة روحية أوسع من ذاته ، وهى تؤثر فى الكون الذى يحيط به ، وفى وسعه أن يظل على صلة مجدية بها . والجهل بهذه المعانى يفضى بكثيرين إلى الانهيار .

ومحصل كل هذا واضح ، فأنت لن تجد شيئاً أجدى على الناس فى تجنب الحاجة إلى أطباء النفس كتجديد اليقين الدينى . وأقصد بالدين هنا جوهر الدين — أن ينشىء المرء فى دخيلة نفسه ملاذاً تخيم عليه السكينة فيلوذ به ، وأن يصرف من نفسه شياطين البغضاء والضغينة بكرم النفس وصفاء النية ، وأن يحرر نفسه من العكوف على ذاتها حتى تندفع فى عمل نبيل شعاره « أن يبذل خير ما فى النفس لخير الناس » ، وأن يحل محل الاستهتار الذى يضنى النفس إيماناً مظفراً بأن للحياة معنى أبديا وقصداً ، ولعله يستمد من معين النفس قدرة على احتمال أعباء الحياة .

وستظل عيادات الأطباء النفسيين مزدحمة بالقصاد . ففى طوايا نفوس الناس اضطرابات عاطفية أعمق من أن يجدى العقل الواعى والإرادة فى علاجها ، وهى كالأمراض والآفات الموروثة ، لاتقع تبعتها على المصاب بها . غير أن تجديد اليقين الدينى خليق بأن ينقذ كثيرين من الأمراض النفسية التى يتعرضون لها ويصابون بها . وقد تذكرت وأنا أرى وفود الناس التى يطرد ازدحامها بأبواب العيادات النفسية ، قصة رجل سأل أحد الحكماء : « ترى ماذا تصنع لو وقعت فى مثل هذا المأزق ؟ » فكان ردُّ الحكيم : « كنت أتوقى الوقوع فيه ، ياصاحبى » .

على بركانه

فى أثناء رحلة الرئيس ترومان إلى المكسيك ، ذهب لمشاهدة بركان باريكوتين ، فحدّق إليه وأطال التحديق ، فسأله رئيس جمهورية المكسيك مارأيه فيه فقال : « إنه لبركان هائل ، ولكنه لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً إذ قيس بالبركان الذى أجلس عليه فى وشنطن ! » [مجلة « ليبرتى »]

ذخيرة الحيوان

إيفان ت . ساندرسن

عضو جمعية علم الحيوان ، والجمعية الجغرافية البريطانية

ايفان ساندرسن عالم اسكتلندى شاب من علماء التاريخ الطبيعى، تخرج من جامعة كمبردج ورحل الى مستعمرة الكميرون البريطانية فى غرب افريقيـــة ، على رأس بعثة لدراسة الحيوان وجمع نماذجـه ، فاستعان فى دراسته بعين الفنان اللطيفة الاحساس ، وحماسة العالم المتبحر . والحياة فى الأدغال تفجأ الانسان المتحضر بمشاهدها الغريبة، فهناك ترى « ساندرسن » وصاحبيه « جورج » و « سيتون » (الدوق) عرضة للمفاجآت حيثما التفتوا وأينما ساروا. وكتابه روايةزاخرة بالمغامرات النادرة وبالرسوم البديعة التى رسمها بيديه ، وقد قالت فيه الكاتبة الناقدة دوروثى كانفيلد فيشر : «قلما تجد بساطا سحريا ينقلنا كما ينقلنا هذا الكتاب ، مبعدا بنا عن مألوف حياتنـا الرتيبة . ومؤلفه الشـاب خير صاحب تتخذه أيا كان صحبك الآخرون» .

زخيــرة الحــيوان

« مِسْك » باللحم ياسيدى » ، و « اللحم » فى الرطانة الإنجليزية الشائعة فى غرب إفريقية تعنى « الحيوان » .

وقد لازمتنى هـذه العبارة آناء الليل وأطراف النهار طوال إقامتى فى تلك البلاد، وقد كان أحد أبنائها يطلع علىّ بها وأنا مُكِبٌّ على قياس رجل الجرذان ، أو بطون الضفادع،أو أى عمل من الأعمال الكثيرة التى لا بد منها لبعثة غرضها جمع نماذج من مختلف الحيوان ، ولكنها عبارة كانت دائماً باعثاً على ضرب من النشوة جديد فى خيمتنا .

فلما سمعتها اليوم قلت : « وأىُّ حيوان هو اليوم ؟ »

والتفتُّ فرأيت أمامى رجلاً مبتسماً من أهل البلاد يعبث بالإزار الذى يستر عورته، وإذا به يصيح ، ثم يرفع يده ويأخذ فى مصّ إصبعه . ففى ثنايا الإزار كتلتان صغيرتان سوداوان من الفراء الأسود اللامع طول كل منهما بوصتان أو نحوهما . فلما وضعهما على شرفة الكوخ ، وثبا لساعتهما على قوائمهما الخلفيـة كأنهما مصارعان ، وجعلا يصيحان بأصوات رفيعة عالية لاتكاد تسمع لارتفاعها ، ثم جعلا يتصارعان .

وعلى أن زَباب*غرب إفريقية يُعَدُّ من أخس الحيوانات طباعاً وأشـدها تهيجاً وتمرُّداً ، فقد رحبنا بإضافة هاتين الزّبابتين إلى مجموعتنا ، وقد اشترينا هذين المخلوقين الضئيلين اللذين لا يكفان عن الصياح، كل واحد بنصف قرش ، ووضعناهما فى قفص صغير ، وزودناهما بقطع من اللحم أوشك أن يدب الفساد فيها ، فظلا يتعاركان ويتصايحان بقية النهار وسـواد الليل . فلما أصبح الصباح نظرنا فألفينا اللحم الذى وضعناه فى القفص قد اختفى مع أنه يزيد على حجم الحيوانين جميعاً ، ثم تبينا أن أحد الحيوانين وحسب لم يزل حيًّا . أما الآخر فكان مطروحاً فى زاوية من القفص ، وقد بقرت بطنه فقد أكل صاحبه أحشاءه، ومعظم رأسه أيضاً .

وهذه الحيوانات تهجم على كل حىّ ، ولا تستثنى الإنسان أو هِررة الغاب الضخمة. فلكل منها فكان صغيران مزودان بصفوف متراصّة من أسنان مشحوذة كالإبر ، وهى

* الزباب واحدته زبابة حيوان من آكلات الحشرات شبيه بالفأر فى الظاهر ولكنه ليس من رتبته ولا فصيلته .

رائحة كريهة توقيها من هجوم الطيـــور والحيوانات اللبونة عليها. وأذكر أنى لمست مرة فى المتحف البريطانى ، زجاجة حفظت فيها طائفة من هذه الحيوانات فى كحول منذ ثلاث سنوات ، فلم أجد بدًّا من أن أغسل يدىّ مرتين حتى لا تغلبنى رائحتها الكريهة فأقىء . ومع ذلك ترى أهل هذه البلاد يسلقون هذه الحيوانات فى زيت النخيل وبعض الأوراق، فيصنعون رائحة من أطيب الروائح التى شممتها فى حياتى وأبقاها ، وهى تشبه رائحة خشب الصندل أو ليمون يوسف أفندى .

صعاليك الغـابة

وكان هناك طريق قديم على مقربة من أحد مخيماتنا الأولى فى الغابات ،وكان مغطى بالعشب حتى يكاد يشبه أى ثغرة أخرى بين الشجر ، ولكنه كان ينفعنا فى التجول فى الغابة الكثيفة ، وكنت أجوبها ذات مساء فاستوقفنى صوت مفاجىء خيل إلى أنه صادر عن ثورة فى معدتى على الخليط الذى حشوتها به فى الغـذاء ، فوقفت مرتبكا وبى حياء طبعتنا عليه آداب الحضارة . وتكرر الصوت عدة مرات . وقد تعشيت من قبل مع أسرة صينية نابهة، وتعشيت أيضاً مع رهبان صومعة فى جزيرة بالى فى الهند الشرقية ، وقد رأيت القوم يظهرون رضاهم عن الطعام والتـلذذهم العظيم به بالتجشؤ على هذا النحو ، ولكن الأصوات التى كانت تخرج الآن حولى فاقت أقصى ما يتناهى إليه الخيال فى الشرق الأقصى .

وشعرت برغبة قوية فى رؤية محدثى هذا الصوت العجيب ، ولكن كلما تحركت لأنظر تحت الأعشاب ، كان الصوت ينقطع فجأة .

وأردت أن أستدرج هذه الخلائق الخفية واستدنيها فلجأت إلى الحيلة ، وقعدت على جانب الطريق ، واشـــتركت فى إخراج الصوت ، بضعف فى البـداية ، ثم بقوة مطردة الزيادة . ففاقت النتيجة ما كنت أرجو ، وما كنت أخشى أيضاً ، فقد دنت الأصوات منى دنواً شديداً .

وإذا بى أرى حيواناً مخيفاً قد قعد أمامى وبدا لى كأن شملة غبراء قد لفت عليه ، وكان يفحصنى بعينين نظرتهما ثقيلة . فكففنا أنا وهو (أوهى) عما كنا نخرجه من الأصوات، وندت عنا كلينا فى وقت واحد صيحة «أوه» حتى لقد شعرت برغبة قوية فى الضحك ، ولم يكن يخطر لى فى بال أن القردة ، وإن كانت من فصيلة البابون تخرج فى جماعات كبيرة لتتبارى فى إخراج هـذه الأصوات من حلوقها .

وكنت قد رأيت قردة البابون من قبل، ومع أنى كنت أود لو عدت إلى المخيم ومعى

هذا النموذج الطريف القاعد أمامى، إلا أنى تذكرت أن الرأى أفضل من الشجاعة حيال هذا الحيوان ، لهـذا نهضت لأنصرف ، متـقيا العجلة كأنى فى حفلة شاى طبعها الوقار بطابعه ، فوقفت السيدة (أو السيد) مثلى، ولكنها وقفت على أرجلها الأربع بحيث بدت مؤخرتها لى ، وكانت وردية زاهية فى هذا الوقت من السنة .

وكان لهذا الحادث آثار عجيبة، فانفرجت الشجيرات فى كل ناحية ، وتبدى لى منظر مدهش من هذه الخلائق التى هى دون الإنسان مرتبة ، وكان بينها ذكر لا شك فى ذكورته مخيف الجرم ، ومعها صغار فطس الوجوه شاحبتها . وكان فى حركاتها تمهل كأنما تتخذ أمكنتها استعداداً لمباراة فى الملاكمة ، ومضى القرد الضخم الذى كان كأنه الرائد ، إلى الطريق ورائى وقطع علىّ خط الرجعة .

ولا أظن أنك رجلٌ أحدقت به قط طائفة من قردة البابون المتربصة ، ولكن إذا كان قد وقع لك ذلك ، فإنك ستوافقنى على الأرجح ، على أن من العسير جداً أن تهتدى إلى حيلة أو أن تفكر تفكيراً هادئاً ، ثم إن أى جماعة فى هذه الدائرة يكون ظهرى إليها ، تظن أن الفرصة قد لاحت لها لكى تتقدم قليلا، وقد بدأت الحلقة تضيق بسرعة، وأتذكر أنى حدثت نفسى حديث المتجلد المؤمّـل ، أن هذه القردة تأكل النبات ، وأنى لست نباتاً ، وإن كنت أحسب أنى قد أبدو كذلك فى عيونها ، وتثاءب السيد الضخم فلحت أنيابه وطولها ثلاث بوصات .

وكنت أعرف أن كل حيـوان تقريباً — ولو كان نمراً — يتراجع إذا تظاهرت بأنك تقذف حجراً . فجربت ذلك ، ولكنى فى غمرة الموقف التقطت حجراً بالفعل على غير قصد ورميت به هذا الذكر الضخم المتثائب. وقد دهشنا جميعاً حين أصاب حجرى الهدف، وغضب الهدف وحنق ، وبينما كنت أنحنى لأجمع قذائف أخرى راح هو يرقص ويردّ التحية بقوة ، ويجرف الأرض برجليه ، ويلتقط صخرة صغيرة وهو يفعـل ذلك ، ويقذفها على بإحكام شديد .

وكان هذا بداية هرج ومرج شديدين ، فرحت أقذف بالحجارة فى كل ناحية ، ومع أن القرود التى تواجهنى كانت تتقهقر فى كل مرة، إلا أن من كان منها على الجانب الآخر أخذ يزحف نحوى ، وكان السـيد الضخم أكثرهم تقدماً ، وقد أصبح الآن متلهب الغضب ، يرمينى بالحجارة والحصى الكبير ويبصق على وهو يرقص ، ويعرض لى وجهه الدميم الذى يشبه وجه الكلب، ومؤخرته التى لا تشبه مؤخرة الكلب فى شىء. ولم أجترىء على إطلاق النار مخافة أن أثير الجمع كله .

وفى إحدى فترات الهدوء ، أخرج واحد من أصغر القردة صيحة ضجر ورمانى بحفنة صغيرة من الطين ، وكان هذا العمل سخيفاً ، حتى أنى ـ وأنا فى هذه الحالة النفسية المضطربة ـ انطلقت أقهقه . ولا أدرى لماذا بدا لى الأمر مضحكا ، ولكن ضحكى كان عملا موفقاً جداً .

ذلك أن أم الصغير تناولته وفرّت ، وتبعتها أمهات كثيرات ومعها صغارها ، أما البقية وكانت نحو اثنى عشر من الذكور فشرعت تعدو هنا وههنا وهى فى دهشة ، فواصلت الضحك والصياح كأنى فى حفلة مباراة الكرة ، وسرعان ما صار ضحكى وكلامى خليطاً غير منسق ، من جرّاء ما صارت إليه أعصابى ، فأقبلت على الذكر الضخم وأنا أصيح به : « لقد أصابوا الهدف . إجرِ . إجرِ . إجرِ يا سخيف ! » وكنت فى الوقت نفسه أرقص الرومبا التى تقصم الظهر . فوقف القرد جامداً فى مكانه وعلى وجهه آيات الاستهجان ، ثم خانته أعصابه فانطلق يعدو .

وبادرت فعدت أدراجى إلى المخيم .

النمورة

الغابُ كثير الأسرار ، فالنمورة مثلا كثيرة جداً ، وكنا نبغى أن نبتاع نماذج منها ، ولكنا إذا استثنينا أننا لمحنا النمورة الحية مرة أو مرتين فقد ظللنا شهوراً عديدة لا نرى سوى أجزاء من أجسامها . وكانت هذه الأجزاء الكاذبة الوعد عبارة عن جلود وجماجم ينقصها الفك الأسفل ويدخرها شيوخ القرية ، فإن النمر يدخل فى كثير من الطقوس ، ولم نستطع أن نشترى جثة نمر إلا بعد أن دفعنا مبلغاً من المال إلى جمعية النمر وقمنا ببعض الطقوس التى لا بدّ منها للانضمام إلى هذه الجمعية .

وأدى اتفاقنا مع جمعية النمر إلى الحصول على نمر كبير ودمه لا يزال حاراً ، وتسلمه زميلى سيتون . ولما تلقاه سيتون (ونطلق عليه الدوق) كان النمر كاملا ، فسلخه بيديه ، وكان معه أوميزى سلاّخه ، وجمهور من المتفرجين . ولما تم السلخ كان شعر الوجه قد زال ، ولم يقص وإنما اقتلع من جذوره .

وبعد قليل وقع اضطراب بين خدامنا ، وقد اهتديت إلى السبب فيما بعد ، ذلك أن أوميزى اتهم بحيازة شاربى الفهد ، وظُنّ به أنه قد يسمّ زملاءه .

وبينما كنت أسوى هذا النزاع بين الأتباع ، وقفت على شىء كثير عن هذا الموضوع المختلف عليه — موضوع السم بواسطة الشوارب المقصوصة من الفهد والببر

والنمر . وقد رويت قصص هــذا السم فى بلاد عديدة ولكن لايبدو أن أحداً استطاع أن يثبتها أو ينازع فيها .

وبهذه المعرفة الجديدة التى أفدتها أعددت بعض شعرات من شوارب النمورة أخذتها من جلد نمر آخر على حسب القواعــد الموصوفة ، وقدمت هذه الشعرات مدسوسة فى الموز إلى شمبانزى ، فشعر على الفور بوجود شىء غير طيب ، ومجّ وتفل ما ذاق ، وداس بأرجله ما بقى من الموز ـــ بحدة ، وقدمت له شــيئاً آخر من الموز ليس فيه شعر مقصوص من الشوارب فالتهمه بنهم . وقد استطعت بعد ذلك أن أغرى قرداً بأكل شىء من الموز فيه الشعر ، فلما مات بعد بضعة أسابيع شرحته بعناية .

ولم أعثر فى أول الأمر على شىء ، وظننت أن الشعرات كلها مرت من الأمعاء ، على أنى قمت بفحص أدقّ فوجدت عدداً كبيراً من الالتهابات الشبيهة بالأكياس مدفونة دفناً عميقاً فى جدار المعدة ، ولما شققتها أذهلنى جداً أن أجد شعرة واحدة مقصوصة من شعرات الشارب (لااثنتين ولا أكثر) .

فهل شعر شاربى النمر سمٌّ إذا أُكل ؟ يظهر أن الأمر كذلك ، وقد مات القرد بالالتهاب الرئوى قبل أن يحدث الشعر أثره كله ، ولكنى أعتقد أن الدرنات التى وجدتها فى جدار المعدة كان من شأنها أن تؤدى إلى التهاب وبيل فى الصِّفاق (البريتون) .

ويروى أن الذين قيل إنهم قتلوا بهذه الطريقة ، عانوا آلاماً مبرحة بعد قليل من التسمم ، ويقول الإفريقيون عن هؤلاء إن « الببر ينهش بطونهم » .

الغــابة الكبيرة

إن عالم الغابات الكبيرة مقسم إلى طبقات بعضها فوق بعض . فهناك أولا طبقة تحت الأرض تعيش فيها جماعة غريبة من الحيوان قل من يعرفها ، معظمها ضئيل الحجم ، وفيها تقضى حياتها كلها ، ويندر أن تخرج إلى النور أو حتى فى ظلام الليل . ثم تأتى بعد ذلك الطبقة التى نرى فيها الحيوانات المألوفة من كل حجم ونوع ، من الفيل إلى الفأر ـ وهذه هى أرض الغابة .

وفوق هــذه الطبقة ترتفع الحياة عن الأرض وتحلق فى الجو ، وتكون بين الأشجار الباسقة التى تغطى الرقعة كلها . وفى هذه « القارة الطائرة » قامت مدنية حيوانية ولم تزل باقية من قبل ظهور الإنسان فى العالم .

ويبدو هــذا البحر اللجى من النبات من فوق ، كأنه بساط لا آخر له من المخمل يتموج تموُّجاً رقيقاً فى كل اتجاه إلى آخر مدى البصر ، ولا يزال لونه يتغير مع دورة

الفصول ، فالمطر يكسبه لوناً أخضر باهتاً ، ويكسبه موسم الجفاف — وهو خريف النطقة الاستوائية — حمرة مضطرمة ، وتسقط آلاف من الثمار الشهية الناضجة البهيجة الألوان — كباراً وصغاراً — فى الظلمة تحت الشجر . وأما المطرة الخفيفة ووقدة الشمس فتخرجان حفلا من الأزهار ، ما بين قرمزى وأزرق وأخضر وأصفر وبنفسجي وأسمر وأحمر . وقد بدا لى سطح الغابة أحياناً كأنه بساط موشى بألوان السنط الذهبي ، والحمرة القانية من شجر « لهب الغابة » . وهناك جمهور عظيم من الحيوانات الصغيرة يقضى حياته كلها مختبئاً فى هذه « القارة الطائرة » المستسرة ، ولا يهبط أبداً إلى الأرض ، وبعضه — بعض القرود والضفادع والجرذان — يهبط أحياناً طلباً للماء ، أما الوصول إلى الآخرين والوقوف على مظاهر حياتهم فيقتضيان الصعود إلى عالمهم الرفيع .

التسلق

وذات ليلة خرجت وحدى لأفحص شجرة قريبة ، ومعى مصباح كهربائى حرصت على أن أضيئه باستمرار ، فكان يستوقفنى هنا وههنا عينان ملتمعتان أو عين واحدة تومض ، وهذه العيون الصغيرة الجافية التى تبدو مفردة ، خداعة جداً ، فقد لا تكون إلا قطرات من الماء أو من عصارة نباتية تعكس الضوء ، أو عناكب أو حشرات .

وهذه العيون الكبيرة المركبة فى هذه الخلائق الصغيرة ، تستطيع أن تعكس من الضوء ما تعكسه عين حيوان كبير ، وبعضها فوق ذلك نيّر وضّاء . ووقفت فى موضع وصعّدت نور المصباح ، فرأيت فوقى تقريباً حيواناً له أعجب منظر وألطفه ، وكان متدلياً من غصن ، وهو لا يختلف فى شىء عن دب صغير ، وكان مقلوباً فى تدليه ، ووجهه الصغير المستدير إلى الأرض ، وكان قريباً منى حتى لقد رأيته يلحس أنفه الوردىّ بلسانه الصغير الوردى أيضاً ، وكان سائر بدنه مكتنزاً وأسمر وذا فرو ، فجعل يطرف فى النور الساطع ، ثم شرع يصعد بجهد ، وحدثتنى نفسى أن أظفر بهذه الأعوبة الصغيرة ، الجميلة فاعتزمت لسخافتى أن أتسلق الشجرة .

وسهّل التسلق علىّ بعض الأغصان الدانية ، ولكن الصعود كان صعباً لأنى كنت مضطراً أن أسدد الضوء إلى الحيوان حتى لا يختفى عن ناظرى ، وصار الأمر سباقاً بينى وبين الهبّار (وهو قرد غزير الشعر) إلى الزواية بين الفرع والجذع ، وقد سبقته إليها ، فلما أدرك خطأه فى مداورته ، تقهقر إلى ما هو أرحب وأوسع بسرعة لم أكن أظن أنها فى وسعه .

ووضعت المصباح فى فمى وتعقبتـه ، فضعت فى تيه من الأغصان الضخمة ، وتبينت أنى أستطيع أن أنتقل من شجرة إلى أخرى كما يفعل الحيوان ، وكدت أفقد المصباح مراراً ، ثم وجدت أنى عاجز عن الهبوط لأن الشجرة التى بلغتها ليس لها أغصان قريبة من الأرض ، وكنت قد ارتفعت مئة قدم وزيادة ، أما الهبّار فكان قد نجا فى خلال ذلك .

وظللت فترة أحاول أن أصل إلى جماعة من النبات المتسلق قريبة منى، وإذا بى أسمع فجأة ضجة عظيمة من أصوات شتى حولى ، فلففت ذراعى حول بعض الأغصان ، وتناولت مصباحى ، فإذا بى وسط جماعة من القرود يغالبها النعاس . ولعل أبعث شىء على الدهشة هو أن تلتقى بجماعة من القردة الخفاف فى بيئتها . وكنا نرى كل يوم تقريباً هـذه الحيوانات تمر كالأشباح وتصعد فى طرقها المرتفعة وهى آمنة من كل اعتداء . وها هى ذى هنا ، تطرف وهى صامتة فى ضوء المصباح ، وهى أبعد عن اليقظة من رجل أسرف فى الشراب .

كانت هـذه الحيوانات عاجزة كلّ العجز فى ظلام الليل ، فكانت تترامى هنا وهناك ، وتعول عويل الأطفال ، وتعوى مستغيثاً بعضها ببعض ، وكانت الأمهات تحتضن صغارها ، والذكور الكبار تطأ الأرض وطئاً ثقيلا كأنها قد أدركت أنه ينبغى لجماعتها أن ترحل عن مكانها ، بيد أنها لم تستطع أن تحزم أمرها على أى مكان تقصد . وعلى شدّة اهتمامى بمراقبة عاداتها وطبائعها ، كانت الفترة التى أتيحت لى لأفعل ذلك فترة قصيرة ، ذلك بأن الأرض أخذت تمور من تحتى .

وتلت ذلك دقائق كانت من أفظع ما مرّ بى ، فقد هوى الغصن الذى كنت ممسكا به بكلتا يدىّ ، فهويتُ على رأسى ، وظلت ساقاى معلقتين بنبات معرّش متين رأيتهُ ملفوفاً على صدرى ، فأنقذنى هذا النبات المعرّش من الهلاك . وبعد قليل بدأت أتسلقه حتى بلغت حبالا أخرى من النبات منحدرة إلى الأرض فنزلت عليها .

فكان ما حدث خاتمة كئيبة لليلة رائعة ، ولكنه هدانا إلى أننا نستطيع أن نتسلق الأشجار حتى نقتحم حمى الحيوانات التى تسكن الأشجار ــ حمى «القارة الطائرة» .

وقد ظللنا بعد ذلك زمناً غير يسير دأبنا فيه على تسلّق الأشجار فى وضح النهار ، فأتاح لنا ذلك أن نصـوّر الصور الضوئية الأولى لحيوان الليمور * النادر فى مسارحه

* الليمور : قرد صغير الذنب جميل الصورة

الطبيعية . وقد رأينا حيوانات الفراء الثمينة تجوس خلال الأشجار مبتهجة بما تفعل ، ورأينا السناجيب تلعب لعبة القفز والوثب كما يفعل الصغار فى المدارس، ورأينا مشاهد أخرى لا تحصى ولا تنسى .

وقد تبيّنا أن لهذه الحيوانات طرقاً مطروقة فى الأشجار ، تقطعها كلّ يوم سائرة فى اتجاه بعينه ولا تغير مواعيدها . وقد لمحت ذات مساء رَباحاً كبيراً ، وهو حيوان أرقط شبيه بهرّ الزباد ، فاختفى فى جحر كبير فى أواسط شجرة ضخمة ، وكان يعود إلى هذا الجحر كلّ مساء فيبقى فيه بضع دقائق ، ثم يبرحه باحثاً فى جوف الليل عن طعامه . وقد شقّ علىّ أن أتصوّر الباعث على هذه الزيارة الرتيبة، حتى تمكنت من تسلّق الشجرة ، فوجدت بركة صغيرة من الماء الصافى الساكن فى ثغرة بين فرعين من فروع الشجرة . فقد كان هذا الحيوان يؤمّ البحيرة كلّ ليلة فى موعده المضروب ليشرب من مائها .

وقد نصبنا لهذه الحيوانات شراكاً وشباكاً وأحابيل وغيرها من حيل الصيادين ، ساعة عرفنا الطرق التى تطرقها ، فجمعنا منها النماذج التى نطلبها ، وكنا نحتفظ بها فى مخيّمنا ، فنتخذ بعضها للتدليل كما تدلل الكلاب والقطط فى بيوتنا ، ونتخذ من بعضها الآخر نماذج حية للبحث العلمىّ حتى نستطيع أن ندرس عاداتها وطبائعها .

فهذه المجموعة الصغيرة من الحيوانات كانت كفيلة بأن تجعل كل عالم من علماء الحيوان يحسدنا عليها لو رآها . وقد كانت تضمّ ثعابين وسحالى وضفادع الشجر وقردة وسناجيب وفئران الغيط الضخمة ، والرّباح ، وقطط الزباد والهبّار والليمور وطائفة أخرى من صغار الحيوان .

وذات يوم تسلقت أنا وأحد أعواننا شجرة باسقة كنا قد لمحنا فيها نوعاً جديداً من السناجيب بالمنظار المقرّب . وقد تسلقنا إلى أعلاها على ما يشبه السلالم المصنوعة من نبات معرّش متدلٍ من شجرة سنط ضخمة ، ثم انتقلنا إلى شجرة مجاورة لها ، واتخذنا لنا مكاناً نجلس فيه بين أغصانها العليا ، فإذا نحن على مرأى من رقعة واسعة من سطح شجر الغاب . فكان ذلك أول مرة تسلقت فيها إلى سطح الغاب من جوفه ، فكانت تجربة لن أنساها ما عشت .

كان ضياء الشمس المنسكب على سطح الغاب قوياً يبهر البصر ، ويزيد من قوته انعكاسه عن الأوراق اللامعة . ورأينا جماعات لا تحصى من الفراش الملون غادية رائحة ، تزور عناقيد الأزهار الغريبة التى تبدو مصنوعة من الشمع ، وسمعنا طنين

آلاف من النحل تحوم حول الأشجار التى تؤثرها فتبــدو كأنها عاصفة من غبار ، وشاهدنا كبار الذباب وصغاره تحوّم هنا وهناك وتمرق أحيــاناً كالسهام الخاطفة فلا يدركها البصر ، أو تسكن فى الفضـاء كأنها طائرات من طراز هليكوبتر، وتظل على ذلك بضع دقائق . وكانت الطيور على اختلاف ألوانها وأحجامها ترف فى الفضاء، وكانت العقبان والنسور تحلق وتدور فوق رؤوسنا ثم تنقضّ فى الحين بعد الحين إلى البساط الأخضر المنتشر من تحتها كأنها رُجوم أو صواريخ .

وبعد أن جلسنا نستمتع بهذه المشــاهد الخلابة ساعة أو أكثر ،لمح صاحبى سنجاباً صغيراً فى شجرة مجاورة ، فعزمت لساعتى على أنه ينبغى أن يصير هذا الحيوان الصغير السـعيد موضوعاً لبحث علمى جاف ، فثبتُ ساقىّ حول الأغصان ، وأسـندنى صاحبى بيديه حتى لا أقع ، ثم سدّدت إليه نارى ورميته بها ، فوقع من فوره خلال الشجر إلى الأرض .

فبعثت بصاحبى ليعود به، وبقيت وحدى فى مجثمى وفى يدىّ المنظار المقــرّب والـكيس الذى نضع فيه ما نصيبهُ من الحيوان ، والبندقية وأشياء أخرى . فلما كادت مفاصلى تتيبّـس حاولت أن أغيّر قعدتى ، فأمسكت بغصن رفيع أجرد ، فإذا أصابعى تنطبق على شىء بارد لزج على الجانب الذى لم أرهُ من الغصن . وفى الوقت نفسه رأيت لفة من شىء أخضر كالزمرد قد انسابت من أسفل الغصن وسرت على ساعدى . فأفلت الغصن الذى قبضت عليه فى مثل البرق الخاطف،فكدت أهوى. وإذا بى أرانى أنظر إلى رأس مشيق أصفر وأخضر، قد ركبت فيه عينان سوداوان لامعتان لم أرَ عينين أكبر منهما فى رأس ثعبان . فحاولت كاليائس أن أمدّ يدى إلى شبكة صـيد الفراش ، وطرحتها على الرأس البراق . وبعد جهاد خيل إلىّ أنه دام ساعات كثيرة ، تمكنت من أن ألتقط رأس الثعبان والجزء المقدم من بدنه فى هذه الشبكة ، وألقيت بالشبكة وما فيها إلى الأرض ، فسقطت عند أقدام صاحبى .

ولم أدر إلا بعد سنة من عودتنا إلى إنجلترا أن هذا الثعبان الأخضر الأصفر الجميل هو مخلوق لا أذى منه . وعلى كلّ فمن العسير على المرء أن يستنجد بعلمه وهو فى رأس شجرة وحول ساعده ثعبانٌ يلتفُّ!

« الرجـــل ـ الحيوان »

وذات يوم دخل علينا فى مخيم ضربناه على جبل، صياد مروّع وروى لنا أن رجلا كالحيوان قد هجم عليه .

فسألت الترجمان: «وماذا صنع الصياد؟»
فقال : « إن الحيوان صاح صياحاً عالياً فأطلق الصياد النار عليه ففرّ، وجاء الصياد لينقل خبر ما كان » .

فعقدنا اجتماعاً على عجل، وخيل إلينا أن « الرجل — الحيوان » لم يكن سوى غورلّى . فسألنا الصياد : أمات الحيوان ؟ قال : إنه لم يتلبث بعد أن رأى ما رأى حتى يستوثق من حياته أو موته .

فخرجنا فى فجر اليوم التالى باحثين منقبين، وبعد ساعات من التوقل المضنى فى سفح الجبل، بلغنا جداراً قائماً من العشب الكثيف المتماسك ، فجعلنا نشق طريقنا فيه ، حتى صرنا إلى مكان قال الصياد إنه المكان الذى رأى الغورلّى فيه .

وفجأة سمعت بقرب مرفقى صوت تكسر وتهشم ، وإذا العشب الكثيف ينشق فأرى أمامى جسماً ضخماً أشعث أغبر يمر كخطف البصر ، فتفززت أعصابى دفعة واحدة ، وتعثرت فسقطت ، ولكننى لمحت ولما أكد جسماً ضخماً أبيض وأسود ، ثم اختفى وراء بعض الورق وهو يخرج من حلقه أصواتاً كأنها حشرجة مخيفة .

فلما لممت أذيالى ونهضت ، وجدتنى على حاشية مزرعة موز، أرضها غاصة بالحشائش والأعشاب ، ورأيت رجال جماعتنا وقوفاً وفى وسطهم جثة ضخمة ، جثة غورلّى ذكر .

فيلوح أن النار التى أطلقها الصياد عفواً فى الليل السابق أصابت مرماها ، فمات الحيوان حيث كان يرعى العشب على رأس حرف من حروف الجبل . وأغلب الظن أننا لما تقدمنا قطع أحدنا حبال بعض النباتات المعرّشة التى أمسكت الحيوان حيث كان ، فسقط كأنه جلمود صخر ضخم ، فسطّح الحشائش والأعشاب ، وأخرج أصوات تلك الحشرجة المخيفة ساعة خرج الهواء من رئتيه وفمه وهو يتدحرج .

ولن أنسى كوامن الشعور التى أثارها فى نفسى مشهد ذلك الحيوان الصريع ، فقد تلقيت عن أساتذتى أن الغورلّى حيوان تتجسم فيه القوة الوحشية المخيفة، وها هو ذا الآن صريع بين يدى : حيوان وقور لا يأكل سوى النبات ، وقد طوى ذراعيه على بطنه الضخم ، وخبت فى وجهه المغضّن الأسود نار القوة التى كانت تسرى فيه ، وهذه عيناه مفتوحتان تحت أهدابها الطويلة المستقيمة . فساورنى شعور قوى لا يحدّ بالرثاء لحاله ، فلم يسعنى إلا أن أرى فى مصيره مأساة مصير جماعته من الحيوان وقد أخذ البشر يطاردونها مطاردة لا هوادة فيها من السهول إلى الجبال منذ قرون

كثيرة ، حتى ضاقت ذرعاً بطراد جماعات لاشعر لها من صغار الرجال، وفتك النمورة بصغارها ، وافتئات أهل الزراعة والصيد على مراعيها،فالعالم كله يتغير من حوله ،وقد تحدى هذا التغير بصيحاته القوية،حتى جاءه أجله وهو مندفع للقاء قطعة من الرصاص أطلقها عليه خصمه الضئيل فخر صريعاً .

وقد ربطنا هـذا الشيخ الحزين إلى شجرتين رطبتين ، ثم حمله ثلاثون من الحمالين وراحوا ينشدون وهم يترنحون تحت عبء يكاد يؤودهم حمله ، فخرجوا به من أرض الضباب ، من معقله المعرّش المنيع .

فلما وصلنا إلى المخيّم قدّرنا وزنه فإذا هو يتفاوت بين ٦٥٠ رطلا و٧٠٠ رطل، وكانت المسافة بين مدّ ذراعيه تسع أقدام وبوصتين . وقد تجد كثيرين من الخبراء ينعون علينا صحة هـذا القياس ، فردّي عليهم أن يتفضلوا بزيارة المتحف البريطانى وأن يفحصوا هيكله بأنفسهم .

وأهل منطقة أسـومبو يعتقدون أن الغورلّى سلالة من سلالات البشر ، وليس حيواناً على الإطلاق . ولما كان الإفريقيون يرون من عادات الغورلّى وطبائعها أكثر مما تراه أية جماعـة أخرى من البشر على سـطح الأرض ، فأظن أنه ينبغى لنا أن تقدر آراءهم حق قدرها وأن لا نهملها إهمالا . وأما رأيى أنا ــ رأى عالم من علماء الحيوان والتاريخ الطبيعى ورأى إنسـان عاقل ، فمطابق لرأيهم كلّ المطابقة .

وقد قضينا وقتاً طويلا نحاول أن نصوّر الغورلّى بآلات التصوير الضوئى . أما وقد رأيت هذه المخلوقات حيّـة فى مسارحها ، واستمعت إلى ندائها وحديثها ، وفحصتها حيـة وميتة وقارنت بينها وبين طوائف الشمبانزى والبشر ، فإنه لا يسعنى إلا أن أعدّها رتبة متخلفـة من البشر ، أو من الرتب التى تحت رتبة البشر . وأنت لا تجد أن لها أيدياً ووجوهاً وأرجلا كمثل أيدينا ووجوهنا وأرجلنا وحسب ، بل تجد أنها تستعملها أيضاً كما نستعملها . وهى متصفة بالقدرة على الإنشاء ، يدلُّ على ذلك ما تبنته من مصاطب تنام عليها ، واستعمالها العصىّ، وفرزها الأشـياء بعضها عن بعض ، وهى تفعل ذلك على وجه يضارع ما يفعله بعض الكبار من الناس . وهى تعقد عُقَـداً فى حبال النباتات المعرشة لتنتفع بها فيما تبنى ، وتشمل لغتها من الأصوات المختلفة ومن ضروب الأصوات ما تشتمل عليه أية لغة من لغات البشر . أضف إلى ذلك وجوه التشابه ووجوه الاختلاف البيّنة بين أعضاء الأسرة الواحدة، فلكل أسرة كيانها الخاص،

وأهل هذه البلاد يعرفون هذه الأسر حين تقع عليها العين ، فيميزونها بما عرفوه من خصائص كل أسرة .

زبابة المـاء الجبارة

وثمة حيوان أدنى ما يكون إلى حيوانات الأساطير ، بل هو فى الحقيقة حيوان يجمع فى بدنه غرائب الحيوانات البائدة مع أنه لا يزال يعيش على سطح هـذه الأرض ، وموطنه جداول الجبال فى غرب إفريقية . وقد كشفه أولا منـذ سنين كثيرة رجل اسمه دوشايو ، كان مشهوراً برحابة خياله ! وكرّت الأعوام دون أن يعنى أحد عناية تذكر بتبيان الحقيقة عن طبائع هذه الزّبابة المائية الجبّارة ، التى يطلقون عليها بلسان العلم اسم « بوتا موجال فيلوكس » . فهذا حيوان يشبه كلب المـاء ، والعثور عليه من أشق الأمور ، فلذلك جُعل الظفر بنموذج منه من أهم المهامّ العلمية التى عهدبها إلينا .

فقلت لأحـد رجالنا : « قل للشيخ إذا رضى ، أن يأمر جميع الصيادين أن يأتونا بأى حيوان يشبه هذا » . ورفعت بيدى صورة يقال إنها تمثل حيوان « بوتاموجال » وهو حىّ .

ولم أكن أتوقع أن يعنوا حقاً بالاستجابة إلى طلبى ، ولـكن سرعان ما تبينت أثر هذا الطلب فى شيخ الناحية .

فقال : « آه ـ ها ، آه ـ ها » .

فسألت : « أيعرف الصيادون هـذا « اللحم ؟ »

فأكد لنا ترجماننا «إثبى» أنهم يعرفونه حقّ المعرفة ، وقال : « إنه حيوان يعيش فى المـاء الضحل » .

« ويظن الشيخ أنه هو خير صيّاد يذهب لصيده والعودة به » .

فصاحوا جميعا : « آه ـ ها » وانفضّ الجمع .

واستغرقتنا أعمال كثيرة فى بضعة أيام ، وكان أملنا ضعيفاً فى العثور على هـذا الحيوان النادر فى هـذه المنطقة ، فنسينا أمره إلى حين .

وكنا ذات ليلة مكبين على عملنا فى أرض خلاء ، وكانت حلتنا قرب قرية ، وكان يحيط بنا من كل ناحية جماعة كبيرة من ذوى الأبدان السمر العارية ، تنظر إلىّ بعيون شاخصة ، كأن على رؤوسهم الطير ، وأنا أشرّح الجرذان ، وأدون البيانات عنها ، ولم تندّ عن القوم همسة ما حتى رأونى أملأ قلم الحبر ، فصاحوا مهللين . وكان صاحبى جورج منهمكا كذلك ، انهما كى على مقربة منى ، وكانت جماعة من أهل القرية تحدق به أيضاً .

فلما خفّت وطأة العمل ، أخرجت

الفونغراف والأسطوانات ، وهيأت للجمع حفلة موسيقية . فعلت أمارات الحيرة وجوه القوم ، لأنهم لم يدركوا أسرار هـذه الآلة العجيبة ساعة ارتفع الرنين الموقع من جوفها .

وفى أمريكا فرقة موسيقية تعزف موسيقى الزنوج من ضرب « الجاز » ، وكنت أنا وصاحباى نهيم بأدوارها وأصواتها ، فلما وضعت إحدى أسطواناتها وأدرتها ، أحدث استهلالها هرجاً ومرجاً بين القوم . فاتضح لى لساعتى أن ذوق الجماعة فى الموسيقى يشبه ذوقنا شبهاً عجيباً . وسرعان ماألفينا الجمهور يتثنى ويتمايل ، وإذا الطبول تبرز ، وهى شتات عجيب من طبول صغيرة يغطيها الجلد ، وأدوات ذات زوايا مصنوعة من الفخّار ، وكتلٌ ضخمة مفرغة من الخشب ، وإذا بها تقرع جميعاً على إيقاع واحد .

فكان أثر ذلك فى نفسى كأثر السحر ، لأن الإفريقىّ مفطور على حسّ مرهف ، فكل طبّال يعرف بفطرته أين ينبغى له أن يكفّ عن القرع وأين ينبغى له أن يستأنف . وأتبعنا بالأسطوانة الأولى طائفة أخرى من الأسطوانات ، فعلا صياح القوم وازداد صخبهم على نحـو ما يؤثر عنهم فى مراقص الأدغال . وسرعان ما رأينا رجلاً ضخماً مترنحاً من أثر الإيقاع فى نفسه وملتفّاً بجلد قرد ، يعدو إلى حاشية الجمع المزدحم وهو يطلق ناراً ، خُيّل إلينا أن ذلك شىء يخلق بنا أن نضيفه إلى أمثال هذه الحفلات الموسيقية فى الغرب ، فحشونا بنادقنا وصرنا نطلق فى الهواء على إيقاع اللحن ، وابتهج القوم بما فعلنا ، فإنفاق الذخيرة على هـذا النحو يعدُّ من أعلى آيات الضيافة عندهم . وقد ظلت الحفلة قائمة يتخللها رقصٌ بديع ، حتى بتنا لا نعرف فى أى هزيع من الليل نحن .

ويؤسفنى أن أعترف أننى أغفلت فى تلك الليلة الغرض الذى من أجله شدّت بعثتنا رحالها إلى إفريقية ، فلذلك صدمت صدمة قوية ساعة بلغت الحفلة ذروتها عند الفجر . فقد كان بين الأسطوانات أسطوانة اسمها « شوتم » ، وفى أثناء عزفها شـوهدت عصابة من الناس ترتقى الأكمة وتتقدم نحونا ، وإذا المنادى ينادى فيقول إنهم جاءوا من قرية « تمالى » وأنهم يحملون « زَبابة مائية » .

فصحت متوسـلاً : « دعونى أرى » ومددت ذراعىّ مدًّا كأننى أستجدى ، فأدرك الإفريقيون بما فطروا عليه من الإحساس الدقيق ، ما يضطرم فى نفسى من لهفة ، فانفجروا ضاحكين ، فمن الواضح أن التوسل على هذا النحو ليس أفضل طريقة لعقد صفقة مع أحد من الناس .

وانشقت صفوف القوم ، وإذا غـلام

يتقدم نحوى وهو يبتسم ، وبين يديه كيس كبير . فلما فتح الكيس أتلع الناس أعناقهم وجعلوا يثرثرون .

وإذا حيوان مشيق يخرج من الكيس رويداً رويداً إلى ضوء الفجر الشاحب ، وإذا بى أرى بعد قليل عند قدمىّ حيواناً مقعياً هو حقاً حيوان « بوتاموجال » ، وهو حىّ، وله ذيل كذيل السمك، وعينان صغيرتان كأنهما مغرز إبرتين — فهو يشبه صوره المرسومة فى الكتب كلّ الشبه . وإذا جماعتنا تصيح ابتهاجاً ورضىً ، فقد أدركوا جميعاً أننا قد ظفرنا بالحيوان الذى ننشده ، لا بحيوان آخر يخيّب ظننا كما حدث لنا من قبل غير مرة .

وكان ثمن هذا الحيوان خمسة وعشرين قرشاً ، فدسست ثلاثة أضعاف الثمن فى يد الغلام ، فندت عن القوم زفرة قوية ، فهم لا يستطيعون أن يعقلوا كيف يؤدى الرجل الأبيض — مهما كانت غفلته فى شئون المال — ثلاثة أضعاف مايطلب منه أن يؤديه .

« بودو جونا »

وكان ثمة حيوان مجهول ، أو كالمجهول، يشبه القُراد ويسمى « بودوجونا » ، وهو غريب الطباع ، وطالما تاق أهل العلم إلى استطلاع أمره ، لما له من شأن فى دراسة الحيوان . والحق أن الكشف عنه فى غرب إفريقية كان فى طليعة الأغراض التى من أجلها أعدت بعثتنا وزودت بالمال . وقد ذهبت جميع مساعينا فى البحث عنه أدراج الرياح ، فلما عثرنا عليه فى آخر الأمر كان ذلك اتفاقاً ساقنا الحظ اليه .

فقد جاءنى أحد الأولاد ذات يوم وقال : «جاء الشيخ ياسيدى ومعه شيوخ أخر» .

كنا يومئذ فى منطقة لم نجس خلالها من قبل . وكان خارج محلتنا عشرون من شيوخ القبائل أو نحو ذلك ، وكان لكل منهم جماعة من الأتباع خرجوا فى أحسن زينتهم وأزهاها .

وقد أخذنا على غرة بوصول هذه الوفود فى مواكب أبهتها . وكان صاحبى جورج، حسن البزة أنيقها كمألوف عادته، فسراويلاته من قماش رقيق ، وقميصه نظيف كأنه خرج لساعته من يد الغاسل والكاوى . وكان الدوق ، صاحبى الآخر ، فى بزته الكاملة وقميص من الكاكى . وأما أنا فيؤسفنى أننى لم أكن فى ثياب تضفى شيئاً من الاحترام على الرجل المتحضر .

فقد كنت لا أزال فى منامة مصنوعة من الحرير الوردى اللون ، غريبة التفصيل والتلوين ، وكان شعرى قد طال كثيراً فوضعت على رأسى قبعة جمعته من تحتها حتى لا تشعثه الريح وينسدل على وجهى ورقبتى .

فلما فوجئنا بزيارة الوفود ، تعذَّر عليَّ أن أبدّل ثيابي ، فجلست وسط الجمع كأني زهرة مونقة متفتحة في شهر إبريل ، وجلست قبالتي جماعة من الشيوخ الإفريقيين بجللهم الوقار ، وجعلوا يحدجونني بنظرات فاحصة ، فخشيت أسوأ ما يخشى .

وران السكون على الجماعة ، ثم تقدم لسان الشيوخ وجعل يتكلم :

« إن كبير الشيوخ قد جاء يحييكم ، ويتمنى سائر الشيوخ أن تكون بلادهم قد وقعت من نفوسكم أحسن موقع » .

فقلت : « قل لكبير الشيوخ إننا نحب هذه البلاد أعظم حب » .

وإذا « الملك » — كبير الشيوخ — يطلب من كل شيخ جاء معه أن يقول ما يعنّ له . والتفت الترجمان إلى أولهم ، وهو شيخ هرم ملتف بملاءة طويلة فضفاضة من نسج الكتان ثم نظر إليَّ وقال :

« يقــول الشيخ إن ثوبك جميل جداً » .

ثم التفت إلى الشيخ الآخر وحوّل نظره إليَّ وقال :

« يقول الشيخ إن الثياب التي وضعتها على رأسك جميلة جداً » .

وإذا كبير الشيوخ يبتسم راضياً عن أعضاء مجلسه . ثم التفت الترجمان إلى ثالث الشيوخ ، فإذا به يلقي بلغته خطبة طويلة تبدَّت فيها حماسته . وإذا الترجمان يكاتم ضحكه بغير أن يخرج عن حدود التوقير لشيخه . ثم التفت إليَّ وقال :

« يقول الشيخ ، لِمَ يعسر على المرء أن يشتري في إفريقية قماشاً كالقماش الذي صنع السيد منه ثوبه ؟ »

وبعد لأيٍ تكلم كبير الشيوخ فذكر الغرض الأول من هذا الاجتماع ، فهم يريدون أن يأخذوا رأينا في شق ترعة تيسر عليهم نقل زيت النخيل الذي يبيعونه للتجار الأجانب .

وبعد أن شرحت لهم أننا جئنا إفريقية في طلب الحيوان، ذكرت لهم أن من محاسن الاتفاق أن يكون بيننا رجل مهندس ، فوقف الدوق وانحنى ، ووعد بأن يزور المكان الذي ينوون أن يشقوا الترعة فيه ، وبعد أن تحسس الشيوخ قماش منامتي بأصابعهم ، حيونا تحية الكريم ، ثم برحوا محلتنا .

وفي اليوم التالي ركب الدوق زورقاً فساروا به في النهر ، فتبين أن شق الترعة يقتضي عملا كثيراً من نسف الصخور ، وبناء الأهوسة ، ثم عاد إلى المحلة بعد أن جمع طائفة من نماذج الحيوان في طريقه .

وكنت منصرفاً إلى عملي في تلك الليلة ،

فإذا بى تحين منى التفاتة إلى أنابيب الزجاج الصغيرة التى عاد بها الدوق من رحلته ، وكان النور واقعاً عليها من مصباح قوىّ ، فرأيت الحيوانات الدقيقة تموج فيها ، وقد تطلعت أولا غير آبهٍ ، ثم رأيت ما رأيت فجحظت عيناى .

فناديت الدوق وأنا أغالب نفسى على رباطة جأشها وقلت : « ما هذه الحيوانات التى فى هذه الأنابيب ؟ »

فقال غير مكترث : « بعض العناكب الصغيرة » ، ودحرج الأنبوب حتى استقر أمامى .

وأحسّ جورج باللهفة فى نبرة كلامى فقال : « ماذا ترى ؟ »

وأتلع الرجلان عنقهما فرأيا مخلوقاً صغيراً طويل الأرجل دقيقها فى حجم الظفر ، يخرج من الأنبوب إلى الطبق .

فكان ذلك الحيوان ، هو حيوان « بودوجونا » .

وكذلك انتهى بنا المطاف إلى العثور على ضالتنا الأخيرة من الحيوان الذى طلبناه فى غرب إفريقية ، فقد قضينا شهوراً كثيرة من البحث الدائب المضنى فى كلّ ضرب من ضروب التربة فى تلك البلاد وفى كتل نخِرة من الخشب ، وفى الشجر والوحل ، بل غصنا فى مياه الأنهر بحثاً عما ننشد ، حتى عثرنا أخيراً على حيوان لا يقدّر بثمن ، ولا تنى متاحف الحيوان فى العالم أجمع عن البحث عنه .

فقهقهت قهقهة عالية ، سمعها أعواننا فى المحلة فهرعوا إلينا .

فصحت بهم وقد رفعت الطبق فى يدى : « انظروا ، انظروا . فقد وجدت حيوان بودوجونا » .

وعلى الرغم من عسر الاسم الذى يعرف به هذا الحيوان ، فقد أدركوا جميعاً معنى ما أقول ، فقد طالما تحدثنا عن هذا الحيوان ودققنا النظر فيما عندنا من رسومه منذ وطئت أقدامنا أرض إفريقية .

ثم قلت لرجالى : « إليكم ما أريد . اذهبوا فى صباح الغد مع هذا السيّد ، ولا تعودوا إلا وقد جئتم بقدر كبير من هذا « اللحم » الصغير . فإذا عاد أحدكم خالى الوفاض فويلٌ له ، فإننى طارِدهُ لا محالة » .

والحقّ أننا ظفرنا بمقدار كبير من حيوان « بودوجونا » — بخمسمئة منه . وقد وجدوها تتوالد تحت الورق المتعفن فى رقعة من مزرعة قديمة . وقد حفظناها جميعاً فى الكحول ، ما عدا عشرين أبقينا عليها حية فى علبة من الصفيح ، ومع أننا كنا نجهل ما ينبغى أن نقدمه لها لتأ كله .

فقد وصلت سالمة إلى إنجلترا وعاشت فيها سنة كاملة ، دون أن يتبين أحد ما تأكل. وقد أخذناها إلى اجتماع عقدته الجمعية العلمية الملكية ، وعرضت على كبير أساقفة إنجلترا في اجتماع عقـده أمناء متحف التاريخ الطبيعي . وقد عُنِي بها علماء أمم مختلفة ، فحدقوا فيها ووخزوها وقلبوها ، بيد أنني لاأعرف أن أحداً من هؤلاء العلماء استطاع أن يقطع أحـــدها رقائق تصلح للبحث المجهرى . فجلدها صلب يفلّ أية سكين ، فهي في الواقع حيوانات بالغة الصلابة .

ولكنها ليست أشدّ صلابة من رجال كرجال بعثتنا ، يرون أنهم أحسنوا الانتفاع بوقتهم إذا ظلوا يعملون جاهدين شهور كثيرة ، ثم عادوا بنماذج من مخلوقات صغيرة مجهولة ، يعـدُّها أهل العلم شيئاً نفيساً . وقد كان خير جزاء ظفرنا به ، أننا عدنا بكل حيوان خرجنا إلى إفريقية الغربية في طلبه ، وبحيوانات كثيرة أخرى لها قيمتها العلمية ، فما أغرب طباع الرجال الذين يخرجـون في طلب الحيوان ، وما أحفلها بالروائع والمسرّات !

رأى زوجي في المنطقة الجبلية في شرق ولاية بنسلفانيا مزرعة صغيرة تدل جميع الدلائل على أنها مزرعة موفقة ، فدخل يسأل أهي معروضة للبيع ، وبين لصاحبها الشيخ أن همه ليس منصرفاً إلى زراعتها واستغلالها ، بل إلى اتخاذها ملاذاً له في أيام الإجازة ، ومكاناً للصيد .

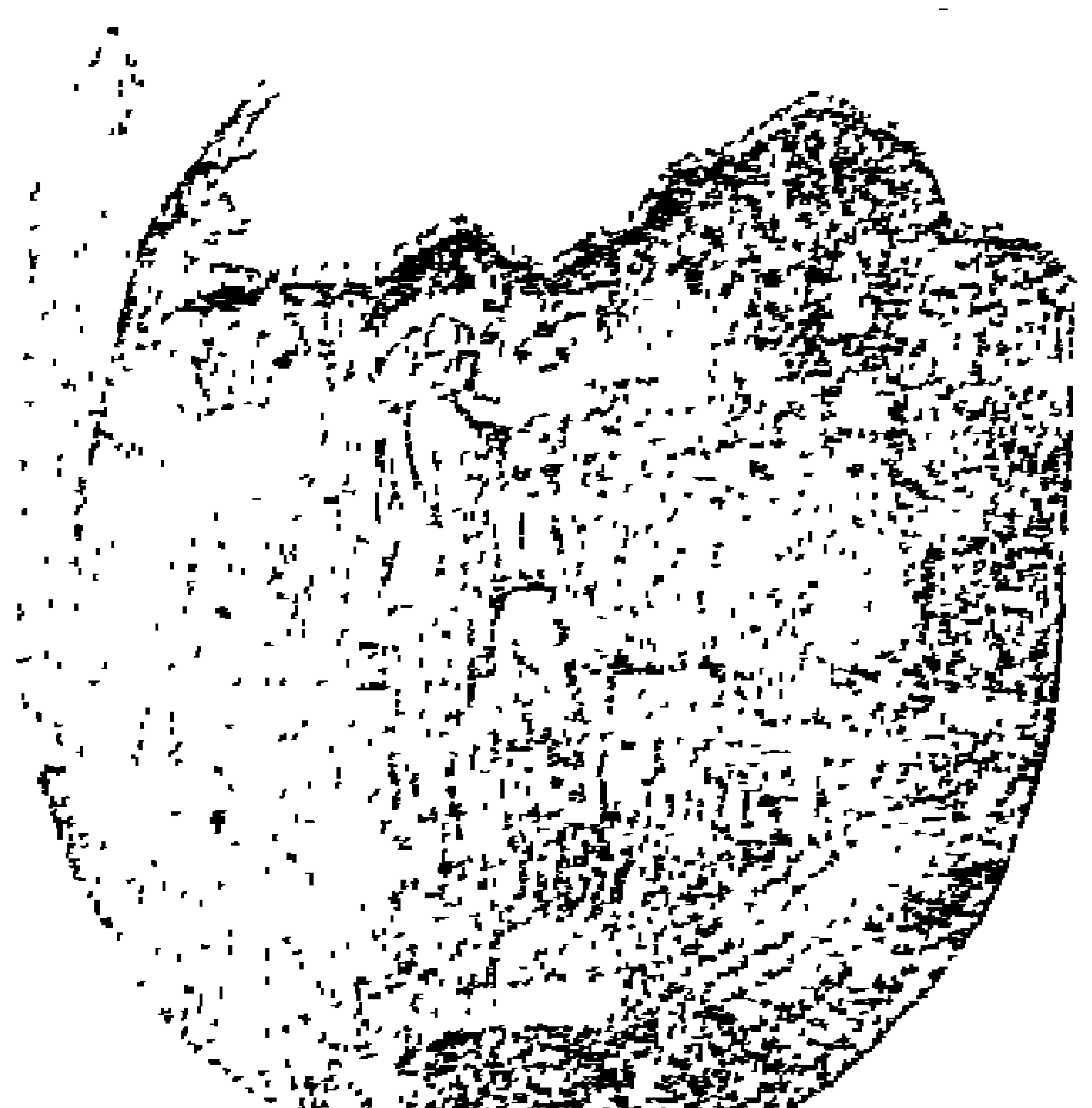
فقال الفلاح الشيخ : « حقاً إنني أنوى أن أبيعها في الربيع القادم ، فقد جاهدت أنا وزوجتي أربعين سنة لنجعلها مزرعة صالحة لأسرة تسكنها وتجنى منها رزقاً كريماً . وهـذا في رأيي هو خير ما أستطيع أن أصنعه لمستقبل وطني ، ولن أرضى أن أبيعك إياها » .

فقال زوجي : « ولم تأبى ذلك ؟ » .

فقال الشيخ : «قد يشق عليك أن تدرك عذرى. بيد أنني أرى أنني لو بعتها لك وأنت لا تنوى أن تزرعها وتستغلها — مهما بلغ المال الذى تدفعه — لكنت كمن يبيع قطيعاً من صغار الماشية الكريمة المؤصلة للجزار» . [كاترين بنيون]

مغامرات امرأة

مختصر كتاب «مسز مايك»



تأليف
بنديكت و نانسي فريدمان

قصة رائعة فيها سيرة فتاة في السادسة عشرة من عمرها، تزوجت شرطياً كندياً وخرجت معه إلى المنطقة الشمالية القاسية، وهي قصة حافلة بروائع المغامرة والحب.

وقد كتب ناقد صحيفة بوسطن جارب يقول: «إن كتاب «مسز مايك» حافل بكل ما يهز النفس — من روعة وأسى ورشحات إنسانية، وفيه شيء من وداعة النفس والرحمة. وقلما تجد في الكتب شخصية كشخصية «مسز مايك» التي على حقيقتها تفوق خيال الأخيلة». وقد روى المؤلفان قصة «مسز مايك» على لسانها كما روتها لهما. وبعد أن نشرت هذه القصة مسلسلة في مجلة «أتلانتك منثلي» طبعت في كتاب صار من أروج الكتب التي نشرت في هذه السنة.

مغامرات امرأة

قال لى رفيق فى السفر ــ وهو شيخ من أسكتلندة ــ إنه لم يشهد مثل هذا الشتاء القارس منذ خمسين سنة ، وأنا لم أبلغ من العمر إلا ستة عشر عاماً ، ولكنى لم أجد ضيراً فى تصديق شهادته عن السنين التى مضت قبل أن أولد . وتراكم الثلج على نوافذ القطار وتسابقت فى السماء كسف من السحاب الثلجىّ تسوقها عاصفة هوجاء تبلغ سرعتها ٦٠ ميلا، ونزلت الحرارة إلى ما دون الصفر ، وتوالى هبوطها .

وكنت قد غادرت مونتريال منذ ١٨ يوماً انقضت فى سفر مضن ، ومقصدى الذهاب إلى خالى جون فى مدينة كالجارى ، ذلك لأن الأطباء فى مدينة بوسطن ــ حيث أقيم مع أمى ــ قرروا أن الجو البارد الجاف يفيد صدرى .

وأخيراً وقف القطار بمحطة كالجارى ، ورأيت على الرصيف رجلا طويلا أسمر ، عيناه تشبهان عينى أمى ، فأقبل علىّ يبتسم ويقول : « أنت كاترين مارى ؟ » فضمنته وقبلته وقلت : « أرجو أن تكون أنت خالى جون » .

فأجاب : « نعم . أنا خالك جون » . ثم أخذ يتأملنى ملياً وقال : « ما أشبهك بأمك ! »

وجاءنى خالى بمعطف من الفرو ثقيل فارتديته فوق معطفى ، وأخذت مكانى فى عربته ، فألقى على ركبتىّ غطاء من الصوف وتناول الزمام وسرنا ، فخيل إلىّ أننا نطير ، وأخذ الثلج ينهمر بغزارة ، والرياح تلهب وجوهنا كالسياط .

ولم نصل إلى مزرعة خالى إلا بعد يومين ، ولم أكد أبلغها حتى لاحظت فرقاً محسوساً فى الجوّ فقلت له : « إن وجهى قد أحس الدفء يا خال » .

فقال : « بعد قليل سيتحول مهبّ الريح وسترين بنفسك تقلبات الجو هنا » .

ونمت تلك الليلة وفوقى غطاء ثقيل ، فلما طلع الصباح طرحته عنى إذ هبّت طوال اليوم رياح دافئة ، واصطبغت السماء بلون أحمر قانٍ .

فقلت له : « ماذا حدث يا خال ؟ أيقبل الربيع عندكم هكذا فجأة ؟ »

فأجاب : « هذه رياح قادمة من الغرب

تدفئها التيارات اليابانية ، فإذا وصلت إلى السهول بدأ الثلج فى الذوبان » .

وبعد يوم واحد اختفت الثلوج ، فإذا الأرض مخضرة بالعشب ، ولم ينفك ذوب الثلج يتساقط أينما أدرت عيني ، من على الأغصان والفروع وسطوح الأكواخ .

وعلا ماء النهر وطغا على الحقول فى بعض الأماكن ، وهدد بالغرق قطعان الماشية التى ترعى على شاطئيه ، فخرج خالى وعمال المزرعة وساقوها إلى مكان أمين ، وعادوا وهم صامتون والإعياء بادٍ على وجوههم ، وأخذت أعد لهم القهوة فشربوها ساخنة واستراحوا .

وسأل سائل : « كم رأساً خسرنا ؟ »

فأجابه آخر : « مئة رأس تقريباً » .

فقال خالى : « خسارة ماكدونالد أبلغ من ذلك » .

فقلت : « ماذا حدث ؟ »

فشرب خالى جرعة من القهوة وقال : « لقد غرقت الماشية ، فإن قطع الثلج سدت النهر فطغت مياهه على الحقول ، وقد اضطررنا من أجل إنقاذ الماشية إلى النزول فى ماء يبلغ صدورنا ويتوالى ارتفاعه » .

فانقبضت نفسى وأغمضت عينى لكيلا أرى صورة آلاف من الماشية المضيّعة وقد دهمها الفيضان ، وكنت قد رأيتها فى هذا الصباح عينه ترعى العشب آمنة مطمئنة .

وقال أحد الرجال : « يحدث هذا كل عام ، والغالب أننا ننجح فى إنقاذها . وفى بعض الأحيان لا ندركها فتموت ، فإن الرياح الدافئة تدهمنا فجأة » .

تلك إذن هى طبيعة هذه المنطقة الشمالية .

كنت فى المطبخ ذات يوم أعد كعكة ، فإذا بطرق خفيف على الباب ، ودخل شاب طويل يرتدى بذلة حمراء ، ويحمل رجلا على ظهره فصرخت : « رباه ! أهو ميت ؟ »

فضحك الشاب وألقى حمله على المقعد وقال : « ستدلك أنفك على حاله » .

فأدركت أنه مخمور ، وسألت الشاب : « من يكون الرجل ؟ »

فأجاب : « هو جونى فلاهرتى طباخ خالك ، والقهوة الساخنة تنفعه فأعديها له وأسرعى » .

فاستدرت نحو الشاب ، فرأيتنى برغم طول قامتى أرفع إليه وجهى لأكلمه وقلت له : « أشكرك على مجيئك به إلينا ، ولكنى أرجوك أن تنصرف ، فلا أحب أن أتلقى أمراً من شرطىٍّ بريطانى » .

فقال : « هل أنا شرطى بريطانى ؟ وما الذى جعلك تظنين هذا الظن ! »

وبدا الغضب على وجهه ، وإنه لوجه وسيم ،

ثم قال : « أنا الجاويش مايك فلانجان من قوة شمال كندا » .

وجاء خالى وصافح الشرطى بود وقال له: « إذن هكذا يؤوب جون إلى الدار » .

فأومأ مايك برأسه وذهب خالى إلى الحجرة المجاورة حيث كان مايك قد أرقد جونى فى فراشه ، وارتفع صوت خالى وهو يعنف طباخه بكلام شديد ، فشعرت بشىء من الحرج لسماع مايك تلك الألفاظ النابية التى كانت تنطلق من فم خالى ، ولكن مايك أخذ يعلق على كلمات خالى بضحكات عالية ، فتملكنى الغضب ووضعت على المائدة ملعقتين اثنتين فحسب ، فأدرك ما أقصده وضحك مقهقهاً ، فوقفت أمامه أتحداه وقلت: « ما الذى يضحكك أيها الجاويش ؟ »

فقال : « أنْ أجد فتاة مثلك فى مقاطعة ألبرتا » .

وعاد خالى وجلس ثلاثتنا لتناول العشاء ، وكان طبق الحلو هو الكعكة التى أعددتها ، فقضم منها خالى قضمة وبدت فى عينيه نظرة غريبة ، ووضع الشوكة ودفع مقعده إلى الوراء ، وكذلك فعل مايك ، وقال وهو يبتسم إلىّ :

« يا جون إنك حينما تبدأ فى تدريب كاتى على إطلاق الرصاص ، لن تجدها فى حاجة إلى ذخيرة . . »

فقلت له : « ولماذا ؟ »

فأجاب : « يكفيك فتات هذه الكعكة فإنها أصلب من الرصاص ! »

فقضمت منها قضمة كبيرة فأحسست كأنما أمضغ حجراً صلداً ، وتصنعت أننى أبلع ما مضغته دون أن يدل فمى على أننى لم أفعل .

وقام مايك يحيينا لينصرف ، فلم أرد على تحيته ، لأننى لم أستطع النطق بها ، فتناول يدى ومال علىّ حتى مس شعرى خده وقال : « أبصقى ما فى فمك — وأجيدى خبزها فى المرة القادمة » .

وجاء مايك ذات يوم إلى المزرعة ووقف بالباب وهو يبتسم وفى يده هدية ملفوفة ، فلما فتحت الربطة رأيت فيها سروالا ثقيلا مما يرتديه الصيادون ، فقلت له محتجة : « ولكن هذا سروال رجال ! »

فأجاب : « ارتديه ، فلن آخذك للصيد فى مثل ثوبك هـذا . . » وأشار بازدراء إلى الثوب الملوّن الذى أرتديه .

وسرنا على شاطىء غدير ، ودرنا حول التلال ، وصعدنا فى الجبال ، وقال مايك : « إنك تمشين كالرجال ! » وفهم كل منا أنه أراد إطرائى .

وبلغنا قرار نهير فى الغابة تحفّ به أشجار عالية ، ورأيت بقايا جذوع بعض الأشجار

بعد أن قطعت بطريقة عجيبة ، ذلك أن جذع الشجرة يجزّ حتى يصبح على شكل مخروط مدبب الرأس، وهمس مايك يقول : « اقتربنا من موطن القنادس ! وسترين سدودها عما قليل » .

وسرنا بضع خطوات ، وجذبني مايك إلى جانبه وقد وقف على حافة صخرة ، وأخذت أتأمل سدوداً من الأخشاب والحصى وفروع الأشجار والطين قد حبست ماء النهر حتى أصبح بركة واسعة .

ووقفنا صامتين برهة طويلة نتأمل ونترقب، وأخيراً طفا قندس على سطح البركة وأخذ يعوم وذيله يقوم عنده مقام السكان للسفينة ، ثم تسلق الشاطىء وأخذ يسير على رجليه ، إذ كان على يديه حمل من الحصى والحجارة .

فقلت هامسة : « ما أشبهه برجل قزم ! »

فأجابني : « هذا هو الوصف الذي يطلقه اليابانيون على هذه الحيوانات فيسمونها : قبيلة الأقزام » .

وفجأة قفز مايك من مكانه وكان يتطلع إلى رأس النهر ، وبدا الغضب على وجهه ، فرأيت على مقربة منا شيئاً يشبه عصا صيد الأسماك راقدة على سطح الماء وفي آخرها مصيدة ، واقترب منها قندس فأطبقت عليه ، وارتفعت العصا فجأة عن الماء وقد تدلى منها ذلك الحيوان المسكين وهو يصرخ ويداه عالقتان بالمصيدة .

وفي تلك اللحظة انقضّ عليه صقر كبير فصرخت ، وولى مايك ظهره وقال :

« لنعد من حيث أتينا » ، ولكني أبصرت ما تحاشى هو رؤيته ، إذ اقتلع الصقر عينيّ القندس من محجريهما . وحطم مايك العصا وأرقد الحيوان على الأرض ، وحملني إلى حافة الغابة حتى لا أرى شيئاً . وبعد لحظة سمعت صوت طلق ناري ، وعاد مايك ولمس شعري برفق ، فأخذت أبكي وأقول : « سالت عينا هذا الحيوان المسكين وهو حيّ ! » .

فقال مايك: « لاتلق بالك إلى ما رأيت ، فإن هذا لا يحدث كثيراً ، لأن أغلب المصايد توضع تحت سطح الماء ، فإما أطبقت على القندس ، وإما أفلت منها وهو سليم . أما هذه العصا التي تعلو وتنتصب حين تنطبق المصيدة فاختراع شرير قلما يستعمله أحد هنا » .

وتناول مايك يدي بين يديه وحاولت الابتسام وانهمرت الدموع على وجنتيّ فانحنى مايك وقبّلهما .

لبثت أسبوعا أحاول استرضاء خالي ليأذن

لى بالذهاب مع مايك إلى حفلة الرقص التى ستقام فى مزرعة أومالى ، وكان يجيبنى كل مرة بقوله : « دعينى أفكر » .

ولما جاء مايك ليصحبنى إلى الحفلة كان خالى لا يزال يفكر ، وأخيراً قال إنه سيعلن رأيه بعد عودتنا من حفلة الرقص ، فضحكنا لمزاحه، وامتطينا جوادين وانطلقنا .

وعدنا بعد منتصف الليل ، ولم يحاول مايك تلك الليلة أن يقبلنى ولو مرة واحدة، ووجدنا خالى جون ينتظرنا وقال : « لقد جاوزت الحدود يا مايك » .

فأجابه: « أعلم ذلك، وأريد أن أحدثك فى الأمر فوراً » ، ثم نظر إلىّ وقال : « لا تغادرينا » ، فوقفت وأنا أتوقع أن ينطلق خالى فى تعنيف مايك ، ولكن مايك هو الذى تكلم أولا وسأل خالى أن يأذن بزواجنا ، فلم ألبث أن طوقت عنقه بذراعى وأنا أقول : « أحقاً ما تقول يا مايك ؟ » فرفع يدى عن عنقه وقال : « نعم ، أريد » .

ثم التفت إلى خالى وسأله: « والآن ماذا تقول يا جون ؟ »

فأجابه خالى: «لن أوافق يامايك، فأنت لن تلبث أن تعود إلى المنطقة الشمالية القاسية، ولا يرضيك أن تصحبك فتاة رقيقة مثل كاترين مارى إلى تلك المنطقة » .

وساد الصمت برهة ، ثم استطرد خالى يقول: « أنت تعلم كل العلم يا مايك أنك خير من أرضاه زوجا لها ، ولكن أمها هى التى عهدت بها إلىّ ، ولا أظنها توافق على زواجها بك فإنها صغيرة السن معتلة الصحة ، وأعتقد أنه ينبغى لها أن تعود إلى بوسطن » .

فوجهت كلامى إلى الاثنين قائلة: « أوَليس لى أن أقول شيئاً فى هـذا الأمر ؟ » ، ثم قلت لمايك : « إذا كنت تحبنى فأخبرنى بذلك فوراً ، وإذا أردت أن تتزوجنى فاسألنى أنا أولا، فقد أرضى وقد لا أرضى » .

فأقبل علىّ مايك ، وأخذ يهمس فى أذنى بحيث لا يسمعه خالى: «إننى أحبك يا كاتى، ولم أكف عن حبك منذ رأيتك. وأظنك تعلمين هذا، وسأعمل على إسعادك ولو ضحيت بحياتى فى سبيلك . إننى أريد أن تصبحى زوجتى » فالتفت إلى خالى قائلة: «سأتزوجه» ولكنه كان قد انصرف .

وكتبت إلى أمى أخبرها أننى سأتزوج مايك فى المزرعة يوم الأحد التالى ، وكنت أعلم أنها لا تملك نفقة السفر لحضور ليلة عرسنا، وكان مايك قد تلقى أمراً بالعودة إلى مقر وظيفته بجهة هدسن هوب وهى تبعد عن نهاية الخط الحديدى الواصل إلى مدينة

أدمونتون بمسافة ٧٠٠ ميل تقطع بالزحافات التي تجرها الكلاب ، وهي رحلة تستغرق ما بين شهرين إلى ثلاثة أشهر .

وكنت أرهب هذه الرحلة ، ولكني كتمت خوفي ، وكتبت لأمي أقول إنني جد سعيدة . نعم فقد كنت سعيدة حقاً ، ومولهة بحب مايك .

وبدأنا الرحلة من أدمونتون في رفقة قافلة من زحافات الكلاب تحمل بعض التجار والصيادين وموظفي شركة خليج هدسن . واشتد البرد منذ أول يوم ، وهبطت الحرارة إلى الخمسين تحت الصفر بحساب فارنهايت ، وهيهات للأغطية مهما ثقلت أن تبعث الدفء في جسمي وأنا جالسة في الزحافة ، وكم كنت أودّ أن أنزل منها ثم أجري حتى يدب الدفء في جسمي . ولما اقتربنا من أتاباسكا تبدل الجوّ ، فقد سكن الهواء وتراكمت السحب في الشرق ، ولما مالت الشمس أحاطت بها فجأة حلقة من ضوء فضيّ ، ولم تلبث أن ظهرت في وسط هذه الحلقة الماثلة أربع حلقات أخر مضيئة يسطع من كل واحدة منها نور وهاج كأنها شموس أخرى .

وقال مايك : « نحن نسميها كلاب الشمس ، وقد رأيت منها مرة ست عشرة حلقة حول الشمس كأنها جراء حول أمها ، وهي نذير بهبوب عاصفة ثلجية » .

وانهمر الثلج وحبسنا في أتاباسكا يومين كاملين قبل أن نتمكن من مواصلة السفر .

وكانت محطتنا التالية قرية (تايلورز فلات) حيث تقيم أسرة هوارد ، وهي من أصدقاء مايك ، وقدمت لنا صاحبة الدار في العشاء فولا وبيضاً مجففاً وبرقوقاً مجففاً . وراعني أثناء العشاء عواء كأنه نحيب يرتفع شيئاً فشيئاً حتى يتحول إلى صرخة مدوية ، ولم يلق أحد من أصحابنا باله إليها ولا انتبه لها . ثم عاد العواء من جديد وعلا شيئاً فشيئاً حتى أحسست بالصرخة الأخيرة تكاد تمزق قلبي . وردّدت أصوات أخرى هذا العواء ، واشتد واختلط حتى صار عواء واحداً ، إنه قطيع من الذئاب يصرخ من الجوع .

وارتعش بدني وانهارت أعصابي ، وأخذت أتتبع ارتفاع العواء حتى إذا بلغ قمته اندفعت أصرخ أنا أيضاً . ونظر إليّ الرجال وقد أخذتهم الدهشة ، ولكني أخذت أصرخ وأصرخ ، وقفز مايك من مكانه ووضع يده على كتفي وقال : « كفى يا كاترين » ، فوجدت في كلامه صرامة لم أعهدها فيه من قبل ، فأقلعت عن

الصراخ ولـكنى أخذت أضحك ثم أبكى فى ثورة عصبية .

وفجأة أدركت سبب ما حلّ بى . لم يكن الخوف من الذئاب هو الذى حركنى ، بل ما وجدته فى العويل من شكاية الوحدة ومن مرارتها ، ولهذا صرخت أنا أيضاً وبكيت معهم ، إذ كنت أشعر أنا أيضاً بالوحدة ، إذ افتقدت أمى وأسرتى وإخوتى وحننت إليهم ، ولم تفارقنى ذكراهم بعد أن انقضى علىّ شهران دون أن تمس قدمى إلا أرضاً مترامية الأطراف لا يتبين فيها طريق ، تغطيها الثلوج ، ويخيم عليها شبح الفناء والوحدة القاتلة .

ولما انفردت بمايك طوقت عنقه بذراعىّ وهمست : « إننى سعيدة يا مايك . إننى أحبك حبًّا صادقاً وأنا سعيدة بذلك ، ولا أدرى كيف حدث منى ما حدث » .

بيد أنى رأيت فى وجهه الكآبة والحزن كأنما اعتزم أمراً لا يحبه وقال : « سأعود بك يا كاتى صباح الغد » .

ولم يغمض لنا جفن تلك الليلة لما كان يساورنا من الأفكار ، ثم صحبنى عند مطلع النهار ولـكن لا ليعود بى من حيث أتينا ، بل لأواصل السفر معه . وحينئذ شعرت أننى أصبحت زوجته حقاً ، وأدركت أن هذه الأرض المتراحبة البيضاء ووحشتها جزء لا يتجزأ من حياة مايك ، وقلت لنفسى : « إذا كنت تحبين مايك فستحبين أيضاً كل ما حوله » .

ولما اقتربنا من هدسن هوب وجدت الأرض تزداد جمالا ، وكنا نسير فى باطن النهيرات المتجمدة ، تمر بنا على الجانبين سلسلة من تلال بين صغيرة وكبيرة . وأخيراً وقع نظرنا على هدسن هوب حيث نلقى عصا الترحال .

ورأيت فوق رَبْوةٍ مخزناً لشركة ثلج هدسن ومن حوله أكواخ الصيادين قد خفيت بين أشجار مثقلة بالثلوج، وعلى مقربة منها سفوح الجبال قد غطتها أزهار الثلوج وأشجار الصنوبر ، وفى ناحية الشمال يجرى نهر « السلام » .

وبعد أن تناولنا عشاء ساخناً فى دار حارس المخزن، أخذنى مايك إلى دارنا بين أشجار الصنوبر وراء المخزن . ورأيت الدار تشتمل على حجرة كبيرة وحجرتين للنوم ، وفيه موقد للتدفئة وللطبخ معاً ، وهو نوع من المواقد شائع فى تلك المنطقة. ووجدت فوق الفراش غطاء من جلد البقر، وفى الجدران بعض الشقوق مسدودة بالأعشاب . وأبصرت من النافذة ذلك الـكوخ الذى أعد ليكون مكتباً لمايك ، وهو فى الوقت ذاته محكمة المحلة ومستشفاها.

فسألته : « أيقصدك الناس هنا إذا ما مرضوا ؟ »

فأجابنى بهدوء : «إننا على بعد ٧٠٠ ميل من أطراف العالم المتمدين ومن أقرب طبيب » .

« ولكن ألك خبرة بالطب ؟ »

«علمى به قليل،وقد اشتريت بعض كتب طبية من كالجارى » .

فنظرت إلى الرجل الذى أصبح زوجى وأدركت أنه ليس بالجاويش فحسب ، بل إنه رجل ينهض بأعمال خطيرة فى تلك المنطقة .

ويبلغ سكان تلك المحله ، سوى الهنود ١٣٥ نفساً كان أغلبهم قد خرجوا للصيد حينما وصلنا . وقدمت إلينا من التل ذات يوم قافلة من الزحافات ، فصرخت بمايك : « انظر يا مايك ؟ » وأخذنا نرقب هذه القافلة من الرجال والكلاب تقطع السهل مسرعة ، وانتشرت الزحافات فوق سفح التل ، حتى رأيت فيها خمسين رجلا يسابق بعضهم بعضاً ، وقد تكدست أكوام من الفراء فى الزحافات .

وأقبلت النساء من الناحيــة الأخرى مسرعات لتحية القادمين ، فإنهن لم يرين رجالهن منذ سبعة أشهر . ولما اقترب الجمعان تريثت النساء ، ثم أخذت كل واحدة منهن تسير بجوار رجلها وهو لا ينفك يرمى إليها من الزحافة ، دون أن ينبس بكلمة ، قطعاً من الفراء . وثارت نفسى حينما رأيت أحد الهنود يفك عن الزحافة أحد كلابه ويربط زوجته مكانه بين بقية الكلاب ، ومالبثت المرأة أن شاركت الكلاب فى الجر ، وسارت الزحافة ببطء وسط القافلة .

فقال لى مايك : « إن نساء الهنــود شديدات القوى ، فقد ألفن هــذا الجهد سلالة بعد سلالة منذ ألف سنة » .

ولما انقضى الشتاء اشتاقت نفسى إلى أن أخلع ما ألبسه من ملابس الرجال الثقيلة ، فأرتدى بدلها ملابس النساء ، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق ، وظللت فى تلك المنطقة أرتدى ملابس الرجال طــوال الربيــع والصيف وموسم البعوض، لأنها خير وقاية من أسرابه اللعينة . ووضع مايك شباكا على النوافذ ، ولكن عيون هذه الشباك ، برغم دقتها ، لم تمنع تسرب هذا البعوض إلينا وهو يطن طنينه .

واستجاب مايك لرجائى ، فطفق يدرب الهنود على استعمال هذه الشباك ، ويفهمهم أنها تنجيهم من الأمراض لو علقوها على نوافذهم وأبوابهم . وقد سألته : « أتعتقد أن هــذه الشباك ستغير من أحوالهم كثيراً ؟ »

فأجاب : « نعم ولا ريب » .

وخيل إلى أن جوابه فاتر يدل على أنه لا يؤمن كثيراً بما يقول .

وذهبت فى الأسبوع التالى أزور أوميمى زوجة زعيم الهنود ، فوجدت طفلها فى ركن الحجرة راقداً على خرق بالية يهز رجليه الصغـيرتين ليطرد عنهما أسراب البعوض والذباب، ورأيت فى إحدى رجليه جرحاً عميقاً دامياً ، فإذا انقطع عن هز رجليه حط البعوض والذباب على الجرح ليلغ فى دمه ، فأشرت إلى النافذة وقلت : «أين الشباك التى وضعها الجاويش مايك؟»

فابتسمت وتركت الحجرة ثم عادت ومعها عدد من ملابسها ، فرأيت أنها قد اتخذت هذه الشباك زينة لأذيالها .

وقال لى مايك ذات يوم : « لا تعرف هذه المحلة لافتات الشوارع أو جنود المرور . والناس يهتدون بالشمس فى النهار وبالنجوم فى الليـل ، ويعرفون منهـا مرور الوقت والاتجاه كما يعرفون منها أيضا تغيرات الجو » .

وكنت راقدة بجوار زوجى ذات مساء نرقب النجوم ، فأدركت فجأة أنى قد نلت من القوة والعافية ما يجعلنى أنسى صدرى وسعالى أسابيع طوالاً ثم قلت لزوجى : « ستصير أباً عما قريب ! »

فضحك وقال لى : « ما أخبثك ! كيف كتمت الأمر عنى ! »

وفى أحد الأيام قضيت ساعات أعمل فى الحديقة وقد سكن الهواء وانتشر الضباب فحجب الشمس إلا قليلا ، واصطبغت أشعتها بلون برتقالى ، وأخـذت أستنشق ملء رئتى من الهواء ، فشممت رائحة دخان ، وأدركت أن هناك حريقاً من جهة ما ، فأسرعت إلى مايك .

وسمعت وأنا أجرى إلى مكتبه عدو كلب ورائى ، ولـكنه لم يكن كلباً ، بل كان قطة كبيرة منتفشة الشعر . فعزمت على مواجهتها ، ورأيتها قد تدلى لسانها ولمعت نظراتها ، ثم استدارت واندفعت تعـدو مسرعة فسقطت عند جذع شجرة . وقد تملكتنى الدهشة إذ رأيت نمساً مخططاً يطارد هذه القطة الوحشية ، فمثل هـــذه الأخطار هى وحدها التى تدفع تلك الحيوانات الضارية إلى الخروج إلى المسالك التى يطرقها البشر .

وكان الدخان حينئذ قد اشتد وتساقط الرماد فوق الطريق وأقبل مايك يجرى إلىّ ، وجذبنى نحوه وقال : « اذهبى إلى النهر يا كاتى » ، ورأيت سترته الحمراء تختفى عن ناظرى وهو يسير فى اتجاه قرية الهنود ، فدعوت الله أن لا يصيبه مكروه .

وازدحمت ضفة النهر بنساء ليس فيهن إلا من تجرّ طفلا أو تجذب طفلا أو تحمل طفلا . ونزل بعضهن إلى النهر حتى بلغ الماء خصورهن ، وتعالى صراخ الأطفال وبكاؤهم . وسرت مع الضفة ونزلت أنا أيضاً في النهر فغمرني ماؤه البارد ، وأخذت أسير بجانب الضفة جيئة وذهاباً حتى ألف جسدي برودة الماء . وسمعت صوتا يناديني فإذا هي ليولا الهندية زوجة أحد الصيادين ، وكانت تحمل على كل ذراع طفلا ، وتشبث بأذيالها طفل ثالث وهو يصرخ ، فحملته على ذراعي .

واشتدت لفحة النيران فغطست في النهر وتبعتني ليولا ، وبدت لنا من خلال سحب الدخان أشباح الرجال وهم يعملون في إطفاء الحريق في طرف الغابة وراء مبنى الشركة ، ولكن النار ما لبثت أن اتصلت ببابه الخلفي ودب فيه الحريق ، وأصبح النهر هو الحاجز الوحيد بيننا وبين النار .

ولم يطل تردد الحيوانات الساكنة في الغابة ، فقد لجأت هي أيضاً إلى ضفة النهر ، فقفز ثعلب أحمر من صخرة إلى الماء ، وحمل إلينا الريح رائحة فروه وقد حرقته النار ، واندفع الثعلب في النهر حتى كاد الماء يبلغ فمه ، فوقف لا يبدو منه إلا أنفه ، وكان إلى جانبه جماعة من الكلاب ولكنها لم تلق بالا إليه . وظهرت في الماء أنواع أخرى من الحيوانات الضارية منها الذئاب والدببة .

وتعالت ألسنة النيران على الضفة ، فأغمضت عيني . وبرغم ذلك ظل وهج النيران ينفذ إليهما . وأخذ الطفل يبكي بكاء شديداً ، فغمرته في الماء حتى بلغ ذقنه ، وأخذ الرماد الساخن يتساقط علي ويحرقني ، ولكن جسدي كان قد خدرته برودة الماء .

وجعلت أسأل نفسي وأنا لا أدري كم لبثت في الماء ؟ أنحن في نهار أم في ليل ؟ فقد احتجبت السماء ولم يبق إلا وهج النار والدخان .

وغطيت فم الطفل وأنفه وغطست به تحت سطح الماء ، فتململ الطفل ولكني أبقيته معي حتى كدنا نختنق ، ثم طفونا ونحن نلهث ، فإذا بالهواء الساخن يلهب وجوهنا ، فغطسنا مرة أخرى . ولا أدري كم مرة فعلنا ذلك ، وأدركت من اضطراب الطفل بين يدي أنه لا يزال حياً .

وانتشلنا مايك ومزق ثيابي ، ثم أدركتني غيبوبة ، فلما انتبهت وجدتني في ثياب أخرى ، قميص رجال وثوب هندي ، وقد رقدت على الأرض وعلى مقربة من رأسي حطب متقد . وقال لي مايك إننا في صباح اليوم التالي ليوم الحريق ، وإنني نجوت أنا والطفل من الأذى . ورأيت وجهه مسوداً

من الدخان ، وعلى جبينه خطوط تدل على مكان تصبب العرق ، واختفت سترته الحمراء وقميصه ، وأخذ يضع مكمدات على وجهى ورقبتى وقال لى : « وجدتك متعبة مقروورة ، وقد أصيب وجهك الجميل ببعض الحروق البسيطة» . فقمت واقفة وحضنته ، وهممت أن أسأله عن عدد المصابين ، ففهمت من وجهه الشاحب أن الخسارة كبيرة .

ولم تخمد النار إلا بعد مقاومة دامت ١٥ ساعة،ولم يكن مع زوجى إلا ٤٧ رجلا، وكان لا بد له من مئة رجل ليستطيع صدّ النار عند النهر . وكان طريق النجاة قد سُدّ فى وجه النساء والأطفال من سكان الضفة الشرقية ، وأطبقت عليهم النيران قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى النهر . وكان مايك قد أوفد إلى النسوة رسولا يحذرهن، ولكن هذا الرسول لم يصل إليهن فهلك أربعون منهن . وهذا هو ثلث عدد سكان القرية .

فقلت له : « ليس الذنب ذنبك » .

فأجابنى بهدوء : « لست أدرى ، كان ينبغى أن أوفد رسولين فلعل أحدهما كان يستطيع أن يصل إليهن » .

« ألم يكن فى وسعك أن تستغنى عن رجلين فى وقت واحد ؟ »

فكان جوابه : « كلا ! »

فشددتُ يدى الصغيرة على يده الكبيرة لأهدىء من روعه .

وخلفت النار المدمرة أرضاً سوداء كأنها مساكن الجن ، واختفت معالم القرية ومن بينها دارنا .

وانقضى النهار كله فى حفر القبور ، وأقمنا عليها ٣٧ شاهداً غطيناها بدهان أبيض ، ودعانا مستاجان زعيم الهنود إلى كوخه ، وصافح مايك كما يفعل الرجال البيض ، وقال برطانته الهندية : « الجاويش أنقذ قومى » . ولم يزد على ذلك شيئاً ، ولكن كان فى قوله كل الكفاية .

ولم يمض على هذا الحريق وقت طويل حتى وصلنا كتاب بنقل زوجى من هدسن هوب إلى جروار ، فخرجنا من فورنا للسفر ، إذ كان الحريق لم يبق لدينا شيئاً نحمله معنا ، وأقبل أهل القرية كلهم إلى النهر يودعوننا ، ولم يبق فيهم أحد من البيض أو الهنود إلا قدم لنا هدية من طعام ، بالرغم من أن الشتاء القارس كان على الأبواب ، والطعام فيه قليل مطلوب .

وبعد أن دامت الرحلة بضعة أسابيع أنزلنى مايك ذات يوم من الزورق ،

فشعرت بالأرض تميد تحت قدمى وقل : « ها قد وصلنا » . وولجنا مدخل دار يئن خشب أرضها تحت أقدامنا ، وطرق مايك الباب فانفرج قليلا كأنما تفتحه يد لا ترحب بنا .

وكان رجاؤنا أن نصل جروار وقد حانت ولادة الطفل ، ولكن آلام المخاض بدأت بعد أن استسلمنا للرقاد فى الليلة الماضية . وكان مايك قد سمع أن هناك ممرضة مدربة تقيم فى تلك الجهة ، وهى امرأة أسكتلندية اسمها مسز ماثرز ، فسرنا إليها طول الليل .

وانفرج الباب فشعرت من أول نظرة أننى لا أحب تلك المرأة ، إذ كانت شمطاء متهدلة اللحم ، ورأيت دارها تشبهها ، فهى دار فسيحة ينقصها النظام والنظافة ، وتسطع منها رائحة الطعام الفاسد . ثم أخذتنى إلى حجرة نوم وأعطتنى قميصاً من الصوف أدركت من حجمه أنه قميصها ، وجعلت تراقبنى وأنا أرتديه وقالت : « إنك نحيفة الجسم » .

فشعرت بالرهبـة وقلت لها : « ماذا تعنين ؟ »

أجابت : « هو ما قلته ، وأشك أن أفلح فى استنقاذ طفلك حيًّا » .

وكان مايك واقفاً فى باب الحجرة فصرخ فيها وهو يكتم غيظه : « اعزبى عن وجهى » فوقفت مسز ماثرز برهة تحدق فيه كأنها لم تسمعه ، ثم اتجهت إلى الباب وهى تتمتم : « أتطردنى من دارى » وأغلق مايك الباب وراءها .

وتناول يدى وقبلها وقال : « أنصتى يا كاتى ، لم أكن أعلم أنها على هذه الصورة ، وسأذهب إلى المحلة لأحضر لك مسز كاربنتر لتتعهدك » ثم ابتسم وقال : « إنها قابلة ماهرة ، وستحبينها يا كاتى ، فهى التى تولد نساء المنطقة كلها » .

واشتدت آلام المخاض بعد ليلتين ، وجلس مايك إلى جوارى ، وكنت أشد على يديه كلما ضربنى الألم ، ثم أرقد ألهث وأستجمع قواى لنوبة الألم القادمة .

وفى أثناء إحدى النوبات كنت راقدة وقد انقطعت أنفاسى وانهدّت قواى ، فجاءتنا القابلة ، ولم ألاحظ أن الباب قد فتح ، بل رأيتها واقفة إلى جوارى تنظر إلىّ ، وكلمتنى بصوت هادىء مطمئن كأنه خرير الماء ، فتنهدت وأغمضت عينى . ثم شممت رائحة شديدة الشذا كأنها رائحة حطب محترق ، ففتحت عينى فإذا بالقابلة تقدم لى قدحاً لأشربه وقالت : « هذا شراب تعرفه نساء الهنود هنا . وسيعينك بإذن الله » ، ثم لم أعد أسمع صوتها ، فقد غبت عن وعى .

ولما ثابت إليّ نفسي وجدت زوجي يقبلني ويقول : « قد انتهى كل شيء يا عزيزتي » فابتسمت له، وكنت أسمع صوت أقدام القابلة وهي تسير في الحجرة . وبعد وقت طويل استطعت أن أدير رأسي لأرقبها وهي تدلك المولود بالزيت . ورأيت القابلة ضخمة الجسم قوية البنيان كأنها رجل ، وتتجلى فيها مع ذلك الرشاقة والمهابة والطيبة والثقة بالنفس .

فابتسمت لها وقلت : « لا شك أن أطفالا كثيرين قد جاءوا إلى هذه الدنيا على يديك » .

فأجابت : « لقد ولدت أنا سبعة عشر مرة ، كما أشرفت على ولادة أكثر من مئة طفل كتبت السلامة لأمهاتهم كافة ، ولم يمت على يدي إلا طفل واحد هنا في هذه الدار حينما جئت لتوليد مسز ما ثرز » .

وشد مايك على يدي ليطمئنني ،وغادرتنا القابلة بعد يومين من مولد ابنتي ماري ، وقد أحبها قلبي حباً جماً . ولما استجمعت قواي جاء مايك بعربة وفرش فيها غطاء ورقدت فيها .

ولما وصلنا تلك القرية قصدنا كوخاً في منحدر من الأرض ، فوجدنا نفراً من سكان القرية في انتظارنا أمام هذا الكوخ الذي تنحني فوقه فروع الأشجار الباسقة ، وأمامه حديقة قد نبتت فيها زهور جميلة عجيبة لم أرها من قبل، وكان هذا الكوخ هو دارنا . وكانت القابلة هي أول من جاء لتحيتنا ، وساعدتني على النزول من العربة ، وحملت الطفل وأدخلتني الكوخ، ثم عرفتني بزوجها وأخويها وباقي أفراد أسرتها وجيرانها وأسرة بكلير ، وأخذوا جميعاً يلاعبون الطفل .

ولما خرج الجميع بقيت زوجة بكلير معي ، وجلست على مقعد إلى جواري وتناولت يدي وقد غمر الضوء وجهها ، فرأيته ينم عن العزم وقوة الإرادة ، تلك الخصال التي كنت أفتقدها في نفسي ، فرأيت لها فماً دقيقاً ينطق بالكبرياء ، وأنفاً صغيراً مستقيماً قلما رأيت مثله في منطقة الشمال ، وعينين جميلتين زرقاوين حتى ما يخطر ببالك أنها زوجة صياد .

وأخذت تكرر اسمي بلهجتها الفرنسية الرشيقة وقالت :

« ليتني عرفتك منذ عشر سنين أو عشرين سنة ، فأنت لا تدرين كيف تشعر المرأة إذا لم تجد واحدة قط من بنات جنسها تعاشرها في تلك المنطقة » ، ثم ابتسمت وقالت : « بالله حدثيني عن مدن كندا ، فإنني مشتاقة إلى مثل هذا الحديث وإن كنت لا أعرفها » .

ولما خلوت إلى نفسى قمت إلى النافذة وأخذت أنظر إلى الحديقة الجميلة التى لم أر مثلها من قبل ، وقلت لمايك وأنا أشير إليها : « ما أجملها : لقد نسيت أن أسألك من زرعها ؟ »

فبدا على وجهه شىء من الضجر وقال : « يقولون هنا أن مسز مارلن هى التى زرعتها ، ولم تكن هنا فى الليلة الماضية لأنها مريضة » ثم قال فجأة : « لا تركبك الأوهام ياكاتى من هذه الأزهار » وبدأ يشرح لى شيئاً لم أسمعه ، إذ كنت قد استغرقت فى النوم بين ذراعيه .

وفى صباح الغد رأيت كل زهرة قد ذبلت وسقطت على الأرض فأخذت أبكى وأقول لزوجى : « انظر ماذا حدث ! » فقال : « كنت أعلم ذلك » ، وقطفت زهرة فإذا بى أتبين أنها كانت زهوراً يانعة قد قطفت من منبتها ثم نسقت فى حديقتنا ، وقال مايك بأسف : « إن مسز مارلن مختلة العقل ، فإنها أرادت برشق هذه الأزهار أن تحييك ، وهى أزهار برية تنمو فى الغابات والمستنقعات . ولاشك أن المسز مارلن قد صرفت يوماً كاملا فى جمعها » . فشددت على يدى زوجى وأنا متأثرة بالترحاب الذى لقيته حتى من مسز مارلن المجنونة التى خرجت إلى المستنقعات وقضت يومها كله فى قطف الأزهار حتى تهيىء لى حديقة جميلة تبقى ساعة واحدة .

وجاءتنا جارتنا كونستانس وانحنت على مهد ابنتى ثم تناولتها ورفعتها ، فضحكت الطفلة وضحكت لها كونستانس . ولم أرها من قبل فى مثل هذا الانشراح وقالت : « ما أشبهها بسوزان طفلتى وأول أطفالى . فقد ولدت تسعة أطفال جميعهم ماعدا أربعة راقدون هناك » . فأدركت أنها تعنى تلك القبور الصغيرة التى مررنا بها ونحن قادمون . فسألتها عن السبب فقالت : « هى أمراض الحصبة والحمى القرمزية والتيفود ، فإن الشتاء هنا قارس ، وليس بيننا أطباء ، ولكنى أنقذت أربعة من أولادى » ثم أدارت وجهها عن النافذة وقالت : « أحمد الله على ذلك ، ولكنى أفكر فيما أصاب غيرى » .

ودعتنا كونستانس تلك الليلة للذهاب معها إلى الدير لحضور صلاة منتصف الليل ، وهذا الدير أكبر بناء فى تلك المنطقة ، وله حديقة كبيرة وقال مايك . « يقيم هنا ثمانون طفلا يعتمدون فى طعامهم على ما تنبته حديقته » .

ودخلنا بهدوء فوجدنا الصلاة قد بدأت ، وألفينا المقاعد بين جذوع الأشجار ،

وأخذت الظلال التي تلقيها الشموع تتراقص على جدران الحجر . ووقف القسيس كأنه جذع شجرة عتيقة ، وفي قدميه حذاء ثقيل مما يرتديه الصيادون . وحينما بدأ يتلو صلاته سمعت له صوتاً رقيقاً .

وأرادني مايك على أن آخذ فتاة من أولاد الدير لتساعدني في العناية بالدار وبالطفلة ، وصحبتني الأخت تريزة إلى حجرة اللعب فوجدت فيها جمعاً من الأولاد ، ثم فتحت بابا في نهاية الحجرة فانبعث من ورائه بكاء ونحيب وقالت : « هؤلاء هم المحرومون من اللعب عقاباً لهم » . ورأيت ثلاثة أطفال جلوساً على مقعد وهم يبكون ، وقد احمرت عيونهم ، وإلى جانبهم فتاة هندية تبلغ من العمر خمس عشرة سنة ، وهي مطرقة غارقة في التفكير .

رفعت تلك الفتاة وجهها إليّ وابتسمت فأحببتها لأول نظرة وقلت من فوري : « أود أن آخذها » ، ثم استدرت إلى الفتاة وقلت لها : « أتحبين أن تعيشي معي ؟ »

فنظرت إليّ الفتاة باهتمام وقالت : « نعم . أسألك بالله أن تأخذيني » .

فقالت الأخت تريزة : « يحسن أن نبحث هـذا الأمر مع الرئيسة » . فلما ذهبنا إليها حيتني بوقار وقالت : « إن هذه الفتاة اسمها « آن » وهي ذكية لطيفة ماهرة ، ولكنها تتوهم أنها تحبُّ » .

فسألت : « وهل تعرفين هـذا الفتى الذي تحبّـه ؟ »

فأجابت الرئيسة : « نعم ، إنه جوناثان فوركيـه ، وأبوه خِلاسيٌّ ثار في وجه الحكومة ، فشب الفتى ثائراً في قبضة الفقر لا تعنى به سوى أمه الهندية . ولما طلبت إليه أن يترك هذه الفتاة وشأنها ، أجاب : « إنهـا ستصبح رفيقتي » . ثم تريثت الرئيسة قليلا وقالت : « إنك لا تدرين معنى تلك الكلمة كما يفهمها جوناثان ، فإن فيها القضاء على مستقبل التلميذات هنا ، فإننا نعلمهن القراءة والكتابة ، فهل من الخير أن ندفع إحداهن إلى حياة تعيش فيها كالحيوان ، وتشقى طول يومها في خدمة زوج يركلها ويضربها ؟ فأنت ترين من ذلك لماذا ينبغي أن لا تتزوج آن هذا الفتى .

فقلت لها : « قد فهمت ما تعنين » .

فلما أعدت على مايك قول الرئيسة ضحك وقال : « لا أظن أنها تسبّـب لنا شيئاً من المتاعب » ، ولكنه كان مخطئاً في رأيه . لقد أحبها جميع من عرفها لبشاشتها ، وأطلقنا عليها اسم « فرحانة » وهذا هو معنى اسمها بلغة قومها .

خرجت ذات يوم أنظف السجاد ، فما

كان أشد دهشتي حين وجدت على درج البيت كوماً من الفراء الجميلة ، وجاءت فرحانة فشهقت بابتهاج وجمعت الفراء بين ذراعيها ودست رأسها في شعرها الناعم وهي تتمتم بكلام من لغتها وقلت لها : « أتعلمين من أين جاءت هـذه الفراء يا فرحانة » فنظرت إليّ وعلى وجهها غبطة لا تخفى . وقالت : « جاء بها جوناثان » .

وبدا لي أن هذا الاسم كما نطقت به ، أجمل اسم سمعته أذناي ، ولكن قلت لها غاضبة : « ألست سعيدة هنا ؟ »

فقالت : « إنني أحبك » .

فقلت لها : « إذن تعدينني بأن لا تقابلي جوناثان ما دمت معنا ، وإلا أعدتك إلى الدير . وأما الآن فاحملي هـذه الفراء إلى مخازن الشركة لتعاد إلى جوناثان حين يأتي في المرة القادمة » ، ولكنها رفضت وأخذت تبكي ، فجريت إليها واحتضنتها وقلت لها : « أتحبينه كل هذا الحب ؟ »

فقالت : « نعم » .

فتملكتني الحيرة ، وأدركت أنها تجد سعادتها في الحياة مع هذا الفتى رغم ما قد تلقاه فيها من مشقة .

ثم أعددت طعام الغداء وحملته إلى مكتب زوجي ، فرأيت من خلال النافذة فتى اسمه كردينال من سلالة الهنود ، وقد عقد منديلا أصفر قذراً على رأسه وهو يقول : « إن هذا الشرير جوناثان فوركيه يأتي كل ليلة إلى داري ويقذفني بأسهم من قوسه ، وقد أصابني في الليلة الماضية بجرح في يدي ، واتهمني بأنني أسرق فراء من المصايد . وهذا كذب ، ولكنه سيقتلني لا محالة » .

فأجابه مايك : « سأستدعيه للتحقيق معه » .

وعندئذ انفتح الباب فجأة حتى كاد يوقعني على الأرض ونظر إليّ مايك بغضب وقال : « ما الذي حملك على الوقوف هنا والتعرض للبرد ؟ »

فقلت له : « أريد أن أحدثك عن جوناثان، أتظن أنه لا يستنكف من القتل؟»

فضحك زوجي .

فقلت له : « ليس في الأمر ما يضحك، فقد وضع جوناثان اليوم كوماً من الفراء على باب دارنا » .

فأجاب وهو يفكر : « إذن هو يريد أن تهرب معه فتاته » .

فقلت : « أجل، وعليك أن تحدثه ليتقي ربه ويعدل عن غرضه » .

فقال : « ليس جوناثان بالفتى الذي يسهل إرهابه » .

فقلت : « هـذه حماقة منه ، فإنك ستضطر إلى إلقائه في السجن » .

فأجاب مايك : « لك الله يا كاتى ، أتطلبين أن ألقى برجل فى السجن لا لجريرة إلا أنه عاشق ؟ »

فقلت: «ولكنه رجل خطر ، فماذا تفعل لو أنه قتل كردينال ؟ »

فقال : « لا أعتقد أنه مجرم بطبعه، وأظن أن كردينال هو الذى يسرق فراءه فإنه رجل سيء السمعة ، وقد أراد جوناثان إرهابه ليتقى شره، وسرقة الفراء هنا أخطر الجرائم لأنها المصدر الوحيد للرزق » .

فقلت : « ولماذا لا يرفع جوناثان شكواه إليك ؟ »

قال : « لأنه من سلالة الهنود ، وهم قوم ذوو كبرياء » .

ورحل مايك فى صباح الغد يبحث عن جوناثان ويأتى به ، وعاد بعد العشاء بوقت طويل ، ولم أتبين فى مبدأ الأمر أن وراءه شخصاً صامتاً مختفياً فى الظلام ، وقال مايك: « هذا هو جوناثان فوكيه » وأحنى الفتى رأســه تحية لى دون أن يبتسم ، وجال بنظرة من عينيه الواسعتين فى أرجاء الحجرة، ثم استقرت على فرحانة وهى واقفة فى ركنها البعيد وقد حبست أنفاسها ، ولـكنه لم يكن باش الوجه ، ولم يوحىء إليها ، وإن ظل برهة طويلة يرمقها ببصره .

وأخذت زوجى إلى المطبخ وأغلقت البـاب وقلت له بغضب : « لماذا أتيت بهذا الفتى ؟ ألم تر نظرته إلى الفتاة ؟ إنك مجنون ولا ريب، لأن أهل الدير إذا سمعوا بخبر مجيئه طلبوا إعادة الفتاة إليهم ، وظنوا أنك سعيت إلى ذلك. وهذا ما يبدو لى أيضاً » .

فوضع يديه القويتين على كتفى وقال : « اسمعى أيتها الحمقاء . لقد أتيت بجوناثان لتطعميه ، فهو يكاد يهلك جوعاً . وقد رأيته حين وجدته ينزع قشر شجرة ليلتمس تحته ما يبل به ظمأه » .

ولـكنى لم أصدق ذلك وقلت: « إذا كان جوناثان ماهراً فى رمى السهام كما فعل مع كردينال ، فلماذا لا يصطاد شيئاً يأكله ؟ »

فقال مايك: « قد وجدته مصاباً بجرح، وهذا سبب تأخرنا فى العودة ، فقد سار إلى جانبى بهدوء ثم سقط على الثلج ، فلما فتحت قميصه وجــدت جسده كله مثخناً بالجروح . ولا شك أنه أصيب بخمسين ضربة على الأقل » .

فقلت : « هل تظن أن كردينال هو الذى ضربه ؟ »

فأجاب : « أجل . فقد مررت على مصايد جوناثان فوجدت عندها آثار عراك، وعلمت أن جوناثان كمن له حينما رأى مصايده قد عبث بها ، فلما قدم أمسك به ،

ولعله سأله عن الفراء المسروقة ، وأعتقد أنه انهال عليه بالضرب ، ولكن لا دليل عندى على ذلك ، لأن جوناثان رفض أن يتكلم فهو شديد الكبرياء ويريد الانتقام لنفسه ، ولا يود أن أفسد عليه غرضه بإلقاء غريمه فى السجن » .

وأخذ جوناثان يأكل بهدوء وهو صامت ولم يأكل إلا قليلا ، ولما فرغ نظر إلينا أنا وزوجى وقال بجد : « قد أكلت فى دار صديق » .

فقال مايك : « نعم فنحن أصدقاء » .

وكانت فرحانة تخفى ابتساماتها وهى تدور فى الحجرة ، ولاحظت أن جوناثان يرقبها بسرور زائد. وسمعنا طرقاً على الباب، فلما فتحه مايك دخل كاردينال ، فلما وقع نظره على جوناثان بدت على وجهه ابتسامة محنقة ، وربت على كتف مايك وقال : « أحسنت صنيعاً بالقبض عليه »

فأجاب : « إنه طليق لم يقبض عليه ، وقد أخبرتك أن الابتعاد خير لك ، فليس فى حضورك هنا إلا الضرر » ، ثم التفت إلى جوناثان وقال: « إننى أعلم أنك رميت سهامك على كردينال ، وقد جئت بك إلى هنا لا لأقبض عليك بل لأسمع أقوالك . وها أنا ذا أحذرك من العودة إلى فعلتك ، وأريدك أن تعدنى بذلك » . وشخص جوناثان ببصره فى الفضاء ولم ينطق .

فقال له مايك : « استمع يا جوناثان إذا اعتديت على كردينال مرة أخرى فإننى سأقبض عليك » .

واستقرت نظرة جوناثان على كردينال وقال : « إذن فالسهم القادم سيكون هو السهم الأخير » .

وهذا تهديد واضح بأنه سيقتله، واصفر وجه كردينال ، وسمعنا فى الصباح الثانى أنه غادر المحلة .

ومضى الشتاء ببطء وهدوء وكان الرجال غائبين عن المحلة فقد خرجوا للصيد ، وبقى النساء وحدهن فى الدور ، وانصرفت أنا إلى التمتع بصحبة ابنتى مارى . وكان من المرتقب أن أرزق بطفل آخر فى شهر يوليو ، وسرنى ذلك ولم آبه بتشاؤم نساء المحلة اللاتى يرضين بأن يفقدن ستة من الأولاد لتبقى لهن ثلاثة ، فقد عقدت العزم على أن يشب أولادى فى صحة وعافية .

وطلبت إلى القابلة أن أزورها مراراً لتشرف على علاجى ، فقد أعدت فى كوخ صغير بجانب مسكنها أنواعاً مختلفة من الأدوية وكلها من الأعشاب الجافة ، تعالج بها التهاب الحلق والروماتزم وسم الثعبان والصداع وكسور العظام .

وفى إحدى زياراتى لها لقيت مسز مازلن ، وكنت لم ألقها من قبل فأشكرها على زهورها .

فلما شكرتها رفعت يدها الصغيرة إلى وجهها وأخذت تنظر إلىّ بتعجب ، ورأيتها ذات جمال غريب لا تلقاه إلا فى هذه السلالة المنحدرة من أجناس متباينة . وتريثت برهة ثم قالت : « هل تتحدثين عن زهور . نعم أذكر أنى رتبت لك الحديقة يا مسز مايك . أكانت جميلة ؟ »

وجعلت أنظر إليها وأنا أتدبر كيف أكلمها ، ثم قالت وهى تهز رأسها :

« ولكن الأزهار ماتت وكل شىء تلمسه يدى يموت » . ونطقت بهذه الألفاظ بهدوء ، فأحسست أن هناك لعنة قد كتبت عليها .

وردت الأنباء فى نهاية الخريف بأن كردينال يعيث فساداً فى شمال المنطقة ، وعاد إلى خلته القديمة فى سرقة الفراء ، ولكن بطريقة جديدة ، وهى وضع فراء رخيصة محل الفراء الثمينة التى يسرقها . فعزم مايك على أن يقبض عليه .

وشاهدت زوجى وهو يشد عدته إلى جواده ليرحل إلى مجاز النهر ، ثم يصحب زميلا له ويستقلان قارباً للوصول إلى مقر السرقات فسألته :

« متى تعود ؟ »

فقال : « بعد شهرين يا كاتى » .

فمددت يدى لأستند على سور مدخل الدار ، ذلك لأنى سألد طفلى أثناء غياب زوجى . وعدت إلى الدار وأغلقت الباب ورائى وانطلقت أبكى .

فلحقنى مايك وضمنى إليه وقلت له : « عدنى بأنك ستعود سليما » ، فأخذ يحدثنى برفق وشفتاه تلمسان شعرى وقال : « لا يساورك القلق ، سأكون معك ، وسأعود إليك . ولولا وثوقى بهذا لما سافرت » ، وابتسمت لى عيناه الزرقاوان ، وداعب شعرى بيديه الكبيرتين ، ثم خرج وبقيت وحدى .

ووفى مايك بوعده إذ عاد بعد الأسابيع الستة ومعه كردينال بمنديله الأصفر القذر المعهود وقد عقد على رأسه ، وكان مآله إلى السجن .

وفى تلك الليلة جلس زوجى بعد العشاء فى مقعد كبير ووضع مارى على حجره ، وجلست أنا عند ركبتيه ، وإذا بالباب يفتح فجأة ويقبل أحد زملاء زوجى يقول : « مات كردينال مقتولا . فقد رأيته جالساً فى السجن وقد مالت رأسه إلى الوراء حتى لمست القضبان . وحسبته نائماً ، فلما اقتربت منه تبينت أنه قد طعن فى حلقه ، ولا تزال المدية مغروزة فيه » .

فأسرع مايك يرتدى ثيابه وقال : « هل رأيت تلك المدية من قبل ؟ أو هل تعرف صاحبها ؟ »

« إنها مدية جوناثان فوكيه ، فعلى مقبضها نقش لمناظر صيد ، وهـذا النقش لا يجيده إلا هو » ، فقاطعه مايك وهو يلقى نظرة خاطفة على فرحانة وقال: « لا أحب التسرع فى الاستنتاج ، فتعال معى نحقق الأمر » .

وظلت فرحانة شاردة البصر وقتاً طويلا.

وعاد زوجى وزميله وبينهما جوناثان ، ودخل ثلاثتهم الحجرة صامتين ، ومدّ مايك يده إلى جيبه وأخرج ربطة وأمسك بطرف الغلاف وتركها فهوت مدية على المائدة . ثم التفت إلى جوناثان وقال : « أهى لك ؟» فأجاب بلا تردد : « نعم » .

وتريث زوجى قليلا ثم قال : « كنت تصنع من قبل مدى كهذه المدية وتبيعها ، فهل هذه واحدة منها ؟ »

فالتفت إلينا جوناثان وعلى شفتيه ابتسامة محببة وقال : « كلا . بل هى مديتى ، وأنت تظن أننى قتلت كردينال » .

فأجابه زوجى : « لا أدرى ، وهناك ما يحملنى على الظن بأنك لا تقتله على هذه الصورة . وإذا أنكرت التهمة فسأبحث عن شخص آخر غيرك » .

فظل جوناثان صامتاً ، فتابع زوجى كلامه قائلا: « فإذا أبيت الإنكار فسأضطرّ إلى القبض عليك بتهمة القتل . ومعنى هذا أنك ستقضى الصيف كله فى السجن » .

ولم يظفر زوجى بجواب فقال أخيراً : « لك ماتشاء،ها أناذا ألقى القبض عليك» .

فقفزت فرحانة وحالت بينهما وصرخت: « ليس هو الفاعل » فوجه إليها جوناثان نظرة رقيقة وقال : « يا رفيقتى الطيبة أنت لا تريدين أن أقضى الصيف كله فى السجن أقاسى لسع البعوض والذباب » .

فصرخت فيه : « قل لهم إنك لم تفعل » .

فنظر إليها طويلا وقد بدت عليه دلائل التفكير وقال : « أولم أقتله ! » فطأطأت فرحانة رأسها وانهمرت دموعها .

وحل الصيف واقترب موعد مولد حملى، وأخذت سارة القابلة وفرحانة تحومان حولى ، ولا تنفك سارة توصينى بالهدوء والطمأنينة ثم جاءت لى بشرابها المعهود ، فشممت مرة أخرى رائحة الحطب المحترق وغبت عن وعيي . ولما فتحت عينى وجدتنى أحمل ابنى بين ذراعى ، وقد وقف زوجى بجانبى ومد إصبعه الكبيرة إلى المولود . فسرعان ما انطبقت يده عليه ، فكأنما احتوت يده الصغيرة قلبي أيضاً . وفجأة

سمعت صرخة نحيب عالية ، فتعلقت بزوجي فقال يطمئنني : « لا تخافي يا كاتي . إنها مسز مارلن المسكينة تود أن ترى مولودك » .

فقلت : « دعوها تدخل » وطلبت أن يأذنوا لها بالدخول، وحملت فرحانة الطفل لها لتراه ، واقتربت مسز مارلن بحياء ثم مدت يدها فجأة وأخذت الطفل من فرحانة وأسرعت إلى الباب والطفل بين ذراعيها. فقفز زوجي ولحق بها ، ولكني استوقفته فأطاع . ووجهت إلى فرحانة نظرة مستفسرة ، فأومأت إليها برأسي ، فاقتربت من مسز مارلن حتى لم يبق بينهما إلا مسافة صغيرة ثم ابتسمت لها ومدت يديها وقالت : « ناوليني الطفل » ، فهزت المرأة رأسها وأخذت تولول وتقول : « هو طفلي ، هو طفلي » وحملت الطفل برفق على ذراعيها وأخذت تغني له : « مات ابني وما أنت إلا ابني » .

اقترب منها زوجي بهدوء فإذا بها تعود إلى النحيب مرة أخرى وتقول همساً : « ماتوا . كلهم ماتوا . مات طفلي . مات أبي ، وكل شيء ألمسه يموت » . وجعلت تقول هذه الكلمات كأنها أغنية فرنسية معروفة مما يهدهد به الأطفال .

ثم استدارت نحونا فجأة وصرخت : « قلت له أن يرحل عني ويتركني ، فأنا أرملة رجل أمريكي لا رفيقة رجل هندي ، ولكنه حين تلعب الخمر برأسه يأتي إلى الدار وهو يهدر . ثم خرج للصيد ولم يعد ، وأنا حامل أنتظر ولادة طفل هو أبوه ، وأعتقد أنه حينما يعود سيتزوجني في الكنيسة . فلما قبض عليه الجاويش مايك وألقى به في السجن ، ذهبت إليه لأخبره بحالي ، فرمى برأسه إلى الوراء وقهقه ضاحكا ، وكانت مديتي مربوطة إلى حزامي فأخذتها وطعنته بها كما تطعن رقبة الخنزير ، ثم عدت إلى الدار وافترستني الأوجاع ، فقد مات ابني ، نعم مات » وأخذت تهدهد ابني بتلك الكلمات وهي تتلوها كأنها أغنية .

فقال زوجي : « أيكون كردينال هو هذا الرجل . إنه هزأ بك فطعنته بالمدية . فمن أين جئت بها ؟ فكري قليلا . هل احتطب لك جوناثان فوكيه وقوداً لهذا الشتاء » فاندفعت المرأة تبكي وقالت : « لقد أعطانيها » .

فقال مايك : « سنعيدها إليك إذا أعطيتنا الطفل » .

فسألته . « أهو وعد لا رجعة فيه ؟ »

فقال لها : « نعم هو ذلك » .

فما كان منها إلا أن ناولته الطفل. وحدث بعد أيام أن فارقتنا فرحانة ، ذلك أن الهنود أقاموا مأدبة كبيرة للاحتفال بموسم الحصاد ،

وأعرت فرحانة فرواً أبيض كان زعيم الهنود قدمه هدية لى حينما غادرنا هدسن هوب ، ووقفت أنا وزوجى نرقب الرقصة فى مساء العيد،فوقفت الفتيات صفاً ومشين وهن يرقصن نحو صف الفتيان ثم يعدن مكانهن مسرعات ، فيقبل عليهن الفتيان وهم يرقصون أيضاً . وتألق جمال فرحانة وسرورها وهى تختال بفروها الأبيض ، وكان جوناثان بين الراقصين وأخذ يقفز بنشوة وابتهاج . ثم انفض الجمع واختلطت الفتيات بالفتيان ، وتقدم نفر منهم يدعون فرحانة إليهم ، ولكنها وقفت أمام جوناثان ورفعت منديل رأسها وألقته على كتفيه ، وظل كل منهما واقفاً مكانه إلى أن انتهى قرع الطبول . ولا أدرى ماذا قال لها ولا ما قالت له ، ولكنى رأيتهما حينما انفض الجمع يبتعدان ويسيران إلى الغابة ، وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها فرحانة .

وذات مساء رقد الطفلان فى فراشهما ، وأخذ مايك يتسلى وحده بلعب الورق ، وكان الشتاء قد حل مرة أخرى ، ولم يكن لى ما أفعله سوى القراءة والرياضة مع طفلى . وفجأة أقبلت امرأة هندية وقالت : « أيها الجاويش مايك . إن طفلى مريض، إنه يختنق » .

وخرج زوجى معها ، وكنت قد أويت إلى فراشى والنعاس يغالبنى ، فسمعت طرقاً على الباب ، وليست هذه عادة مايك ، فقمت من الفراش ، فلمحت وراء النافذة رجلا فإذا به زوجى يقول : « لا تفتحى الباب يا كاتى ، فلا أريد الدخول ، فقد مات ولد هذه المرأة بالدفتريا ، وسأنام فى مكتبى ، فإذا لم ينتشر الوباء أعود إليك بعد خمسة أيام أو ستة » .

فقلت له : « أواثق أنت أنها الدفتريا؟ »

فقال : « أجل . ولكن لا تقلقى . وخير وقاية أن تدهنى حلقك وحلق الطفلين بصبغة اليود . وإذا احتجت إلىَّ فعلق منديلا أبيض على النافذة » .

واستيقظت فى الصباح على أصوات البكاء والنحيب المنبعثة من المحلة ، وفزعت ابنتى مارى وبدأت تبكى ، فأغلقت النوافذ كلها والباب وقلت لها إنه صفير الرياح .

وأخذت أسليها برسم صور تلونها بقلمها، وغسلت أطباق الفطور ويدى ترتجف ، وأنا أحاول التجلد ، ولكن أصوات النحيب والبكاء لم تنقطع ، ووجدتنى أصيخ إليها بسمعى وأتساءل قائلة لعله صفير الرياح.

وجاء مايك إلى النافذة وناداني وقال : « قد انتشر الوباء ويرقد المرضى كل أربعة فى فراش واحد. وبعض المرضى لديهم الطعام،

ولكن لا يقوون على النهوض من فرشهم ، فأعدى أكبر وعاء لديك واطبخى شيئاً من اللحم والأرز ، فإذا فرغت منه فعلقى المنديل لآتى وآخذه . ولكن ضعى الوعاء عند مدخل الدار » .

وفتحت الباب قليلا وناولته طعام الفطور وسألته كيف يعنى بهؤلاء المرضى جميعاً ؟

فأجاب . « كل ما فعلته هو أنى صرفت لهم حبوب الكينين حتى نفدت ، فأنا أعطيهم الآن جرعات من الكحول ليتنعشوا بها . وهذا هو ما هم فى حاجة إليه ولكن الطعام أجدى عليهم » .

ثم غادرنى وعاد بعد ساعة ، وأخذ ما أعددته من الحساء بعد أن وضعت الأوعية عند مدخل الدار فسألنى : « هل دهنت حاق الأولاد بصبغة اليود ؟ »

فلما أجبته بأننى فعلت قال : « افعلى ذلك مرة أخرى » ، ثم حمل الأوعية واتجه نحو المحلة .

ومرت الأيام دون أن يقترب أحد من الدار، وانصرف رالف ومارى إلى فراشهما بعد أن لعبا كثيراً ولحقهما التعب. وأخذت أسلى نفسى بشىء من شغل الإبرة وأنا أحاول أن لا أنصت للأصوات ، ولكنى لم أستطع الخلاص من أسر هذا النواح على الموتى . وخيم الظلام على الحجرة ، فرفعت وجهى فرأيت وراء النافذة امرأة واقفة تحدق فىّ ، وقد أدارت ظهرها للشمس ، وكانت شعثاء الشعر يتناثر شعرها فى مهب الريح حول رأسها وجيدها ، ورفعت إلى النافذة شيئا تحمله فى يدها ، فإذا هو طفل ميت قد يبست أعضاؤه ، فصرخت فيها : « عودى إلى دارك » ، فلم تتحرك من مكانها وهى ترينى طفلها ، كأن هذا كل ما لديها من جواب .

فقلت لها : « ماذا تبغين ؟ »

فجعلت تحاول الكلام ولكن صوتها اختنق فى حلقها ورمت من فمها على الثلج بصاقاً أغبر ، ومدت يدها نحوى بالطفل وهى تكرر كلمة واحدة هى : « الدواء » .

فقلت لها : « عليك بالذهاب إلى الجاويش مايك » .

فنطقت عيناها بخيبة الأمل وهزت رأسها ببطء ، فلا أشك أنها ذهبت إلى مايك ووجدت أن الكحول قد نفد أيضاً . وظلت المرأة تحدق فىّ ، فأنا المرأة البيضاء الوحيدة فى هذه المحلة ، والمفروض فىّ أن أقدر على فعل شىء ما ، فلم أطق صبراً وصرخت فيها : « لا أستطيع مساعدتك ، اذهبى . اذهبى من هنا » ، فأطاعت صاغرةً وأدارت ظهرها وابتعدت وسارت تترنح ، فلما عاودها الاختناق سقطت على الثلج فوق

طفلتها ونثرت الرياح شعرها وأخذ يتموج حولها ، وأشحت بوجهي عن الجثتين المنطرحتين في فناء الدار .

واستيقظ رالف وهو يبكي وقد ورمت الغدد تحت فكه واحمر حلقه ، فعلقت منديلا أبيض ، ولما أتى مايك كان قد ظهرت على حلق الطفل بقع بيض .

وقلت لزوجي : « افعل شيئاً » .

فوضع مايك مكمدات حول عنق الطفل وطلب مني أن أغلي في الحجرة ماء حتى يتشبع جوها بالرطوبة وقال : « دعيه يأكل ما استطاع » .

فقلت : « كلا . إنني أريد دواء » ، ثم ارتجفت من هذه الكلمة ، لأن تلك المرأة التي جاءتني كانت تلح في طلب الدواء أيضاً .

قال مايك : « إن الدواء الذي يحقن به الأطفال المرضى موجود ولكن لا سبيل إليه إلا بعد رحلة تستغرق شهرين أو ثلاثة ، وفوق ذلك ينبغي أن يظل طازجاً » .

وفي تلك الليلة بدأت ماري تضع يدها على حلقها وتبكي ، وحاولت أن أخفف عنها بالألعاب والصور ، ثم قدمت لها الطعام .

وأخذ جسم رالف يتلوى وهو يجاهد في التنفس ، وكأنما يصرخ كل عضو منه في طلب الهواء ، وانقلب شخيره إلى حشرجة ، وظل يجاهد ثم سكن جسده . فانحنى مايك فوقه ، ولما رفع رأسه أدركت أن أجله قد انتهى . فأقبل زوجي علي يواسيني ، ولكني انفجرت باكية ، وبعد سبع ساعات ماتت ماري وهي التي لم تمرض في حياتها يوماً واحداً .

وحاول زوجي أن يرفعني عن فراشها ولكني ظللت متشبثة بابنتي أكلمها عن صورها ودميتها ، فقال زوجي : « لا فائدة في كل ما تفعلين ، فيحسن بك أن تذهبي إلى كونستانس لأن ابنتها بريتا مريضة منذ أيام » . فأعددت سلة ملأتها بالطعام وأنا أشعر بالغيظ يمزق قلبي لأننا نعيش في منطقة بعيدة عن العمران . وقلت لزوجي وأنا أتحاشى النظر إليه : « لو كنا نعيش في مدينة » ، فأسكتني وأخذني إلى بيت كونستانس

وجدت النار قد خبت في المدفأة ، وأخذت أرتعش من البرد . أما بريتا فكانت راقدة في فراش في طرف الحجرة وقد ركعت أمها إلى جوارها ، فلما رأتني نهضت وعلى شفتيها ابتسامة متعبة وقالت : « جئت لنا بطعام ، ولكن سنعطيه لأهل المحلة ، فلم يعد لنا حاجة إليه فقد ماتت بريتا » ، فأسندت رأسي إلى الباب ، ولم يعد يروعني شيء .

وعاد مايك بعد قليل وفي يده عصوان وقال : « خذيهما معك إذا كنت ذاهبة إلى

المحلة ، فإن الـكلاب قد ضريت لأنها لم تأكل منذ يومين » . فأطعته وخرجت أنا وكونستانس ، ووجدنا أول بيت دخلناه خالياً قد مات سكانه جميعاً إلا عجوز جالسة على الأرض قد غطت رأسها وهى تولول ، فوضعت بجانبها نصف رغيف وانصرفت .

وهجم عليّ كلب فضربته بالعصا على أنفه فتقهقر وهو يزمجر ، ثم أقبل كلب آخر ناتىء العظام وهو يزحف على بطنه ، ولبث الـكلبان واللعاب يسيل من أشداقهما ينظران إلى فتى يجر فتاة صغيرة من نافذة ثم يرفعها على سطح الدار .

فرفعت بصرى إلى سطوح الدور الأخرى ، فرأيت صفوفاً من الأقدام العارية ، كما رأيت أناساً آخرين مربوطين إلى الأشجار . وهذا هو ما يفعله الهنود لتبريد حرارة الحمى .

ونزل الشاب إلى السطح ودخل البيت المهجور ، فوضعت النصف الباقى من الرغيف عندالباب، ولـكنه أبى أن يأخذه وهز رأسه قائلا: « إذا ماتت فسألحق بها » .

ثم رأيته يترنح ويسقط على فراش من الجلود ، فهممت بإيقاد النار فى المدفأة ، وذهبت إليه ولـكنه أشار إلى أن أبتعد عنه وقال : « حذار من الـكلاب فقد تدخل الدار » .

فقلت : « سأغلق الباب » .

فقال : « حسناً تفعلين ، فإننى سأظل بضعة أيام راقداً » . وهؤلاء الهنود يخشون أن تشوه أجسامهم بعد الممات ، فلا جرم أن خاف هذا الفتى أن يقف بين يدى خالقه يوم الحشر وقد مزقت الـكلاب جسده .

وظللت أطوف على المرضى أحمل الماء مرة وأغليه مرة ، وأسعفهم بالمكمدات أحياناً وأصب الحساء أحياناً فى حلوق متورمة ، وكنت إذا رأيت وجوه الأطفال وهى زرق ممتقعة شعرت كأننى أجاهد لإنقاذ طفلتى .

ورأيت أمامى طفلا يتلوى جسده ثم يموت ، وغطت أمه رأسها وولولت . وطلع الصباح وحملقت إلينا من الأشجار عيون الموتى ، ولم يعد قلبي يهتز لما رآه من الألم والإعياء . وقد مد إليّ طفل مرة ذراعيه النحيلتين فاعتصر قلبى الألم وأنا أقول : « ليتهما ذراعا من أحب ! » ، وتملكنى الخنق أيضاً حينما رأيت طفلين تماثلا للشفاء . ومرّ بى رجل شيخ يحمل جثة امرأة عجوز . ثم انبعثت صرخة،فقد أنشب كلب أنيابه فى تلك الجثة الصغيرة الضامرة ، فأخذ الشيخ يشدها منه ، فإذا بها تتمزق بين يديه ، وسرعت الـكلاب تمزق لحمها إرباً إرباً ولـكن الشيخ رمى نفسه فوق الـكلاب يضربها بيديه الضعيفتين فسارعت إليه

فوجدت الكلاب قد مزقت لحمــه أيضاً .

وعثرت سارة القابلة علىّ بعد ذلك ، وصحبتني إلى زوجي وقد حملتني بعض الطريق.

لم أجد المهدين في الدار ولا أقلام ماري ولم أسأل زوجي قط ماذا فعل بها ، وصبرت حتى خرج وقمت أفتش الدار كلها ، ويخيل لي أنني سررت حين لم أجدها .

وكان مايك يغيب عني كل يوم ، إذ شغل هو وزملاؤه بدفن الموتى طوال الأسبوع ، وكان معظم الموتى من الأطفال والشيوخ .

وفي الليلة التالية حملني زوجي إلى الجبل، فمررنا وسط صفوف من الشواهد البيض ، فأخذت أقرأ الأسماء المنقوشة على الخشب ، فرأيت اسم ابنتي ماري ، وبجانبها قبر عليه اسم ابني . وهكذا ثوى طفلاي في سفح هذا الجبل العاري الذي تصفر فيه الرياح ، وركعت بجانب القبرين ولمست الثلج بيدي. وبعد قليل لمس زوجي كتفي فقمت وتبعته إلى الدار ، وكنت أود أن أرتمي بين ذراعيه ، ولكن نفسي لم تطاوعني . ولم أتبين السبب في مبدأ الأمر، ثم أدركت أنني أنحى عليه بالملامة ، فهل أدرك شعوري ؟ لقد غمرني بطيبته ورقته وصــبره ، وإن كان يتحاشى أن تتلاقى أعيننا ، فكان لا ينظر إلىّ إلا حين يجدني مشغولة عنه . ولم أستطع التغلب على الكآبة الكامنة في قلبي ، ولا شك أنه عالم بها ، فهو قد عاش في هذه المنطقة وشاهد في كل شتاء أطفالا صرعهم الوباء دون أن يجهل أن تلك المنطقة خالية من وسائل الإسعاف ، فلم يكن خليقاً به أن يأتي بزوجته إليها ويدعها تلد أولاداً يحيط بهم مثل هذا الخطر .

ومر شهران ونحن نجلس معاً في حجرة واحدة دون أن نتبادل إلا أقل الكلام ، فإذا طلع النهار تعمد زوجي أن يغيب عن الدار وقلبي يناديه شوقاً إليه ، لأن الوحدة ترهقني . وكم من مرة عددت فيها الساعات بصوت مرتفع انتظاراً لعودته ، فإذا عاد سارعت بتحيته قائلة : « مرحباً يا مايك » فيجيبني : « مرحباً بك يا كاتي » .

ثم أعمد ، وأنا أعد مائدة العشاء ، إلى ترديد ما أود أن أقوله له ، فإذا جلست شعرت بقلبي يخفق في صدري ، فاضطربت حركاتي . فماذا عساي أقوله له ؟ إن كل خواطري تعود بي إلى تيه من الألم المرير .

وبعد العشاء أجلس وأنصت له وهو يعزف على آلة موسيقى قديمة كان قد عثر عليها في المخزن ، ويستغرق زوجي في عزفه وهو غائب عني ، فكأنما فقدته أنا أيضاً كما فقدت ولديّ . وظللت ليلة بعد ليلة أنصت لهذه الموسيقى حتى كرهتها ، وحتى كادت هذه الآلة تدفعني إلى الجنون .

وحينما رأيته ذات ليلة يهم بتناول الآلة أدركت أنني سأهبّ واقفة وأصرخ ، ولكنني لم أفعل، إذ جيء لنا في هذه اللحظة برجل جريح ، فغسلت الدم عن وجهه . وحينئذ تبينت أن عينه قد خرجت عن محجرها ، وعكف زوجي على تضميد جروح وجهه . ولا أدري كيف جاءت سارة القابلة أيضاً وأخذت تساعد في إسعاف الرجل بأدويتها . أما الجريح فهو راندي فولان ، وقد سكن المحلة منذ عهد قريب . ولما أعدت النظر إليه وجدت عينه قد استقرت في محجرها ، ورأيت زوجي يلف حولها الضماد. وكانت إحدى ضلوعه مكسورة بارزة من جنبه ، وعلى صدره جروح عديدة ، وكانت تتدلى من كتفه ذراعه المخلوعة . وهذه هي أول مرة نشاهد فيها مبلغ مايصاب به الرجل من الجروح إذا افترسه دب أسود .

وظل الرجل طوال الأسبوع الأول وهو غائب عن وعيه معظم الوقت ، وانقضى الأسبوع الثاني وهو طريح الفراش لاينقطع أنينه ، ثم عادت إليه القدرة على الكلام ، فكان يحدثني إذا دخلت حجرته ويشكرني على عنايتي به ، وهو لا يدري مبلغ غبطتي لأنني وجدت في هذه العناية تسلية لهمومي . وقال لي إن له أختاً تقيم في بوسطن ، وكان يهون عليّ أن أشقى في تمريضه بالليل والنهار لا لشيء إلا لأستمع إليه وهو يحدثني عن الحفلات الموسيقية التي حضرها ، وعن آخر مستحدثات أزياء النساء ، وعن السيارات التي أصبحت مبذولة لأغلب الناس وكيف صارت سرعتها تبلغ ٢٥ ميلا في الساعة .

وجاء زوجي ذات يوم ومعه برقية من أخت الرجل تطلب فيها إليه أن يعود إلى بوسطن يوم يقوى على السفر . وحينئذ طرأت لي فكرة راقتني وأخافتني في وقت واحد ، وقلت لزوجي ذلك المساء ونحن جالسان أمام المدفأة : « ليس أفضل له من أن يقوم بهذه الرحلة ، ولأنه في حاجة إلى العلاج على يد طبيب » .

فجعل مايك ينظر إليّ طويلا ثم قال : « ولكنه لا يستطيع السفر وحده » . فأجبته وأنا أسرع في كلامي وأتجنب النظر إليه : « أعلم ذلك ، ولهذا فكرت أن أسافر معه ، لأنني لم أر موطني منذ أربع سنوات ولهذا أسافر معه إلى بوسطن ثم ... »

فهبّ واقفاً وقال : « إن كان هذا هو عزمك يا كاتي ، فامضى فيه ، فلعله من الخير » .

وسرعان ما أعددت حقيبتي وصندوق الإسعافات الطبية ، وأعد زوجي نقالة ليحمل عليها المريض . ثم جاء ذات يوم من مكتبه ووقف عند النافذة وأخذ

يقول لى وهو لا يدير وجهه عنها : « إننى لا أحب أن تتركينى » .

فقلت : « ولكنى ... »

فقال : « أنصتى إلىّ . إن هذه فكرة طرأت ولم نبحثها، فأنت لم تخبرينى كم تغيبين عنى . وأنا أشعر . . . »

ثم هزّ كتفيه وقال: «ولكن ما الفائدة؟ لقد عزمت على السفر ، أليس كذلك ؟ »

وفى الصباح اجتمع جيراننا وأصدقاؤنا عند المرفأ ، وأقبلت سارة نحوى تقول : « عودى إلينا يا مسز مايك » .

وحملنى زوجى إلى القارب ، والتفت نحوهم أحييهم ولكن الدموع المترقرقة فى عينى حجبت عنى وجوههم ، وتعالى الهتاف والتحيات ، ولم أستطع من الضجة أن أتبين منها كلمة واحدة » .

ومكثنا يومين فى سفر شاق ، بعضه فى القارب ، وبعضه فى عربة تجرها الجياد ، حتى بلغنا السكة الحديدية ووجدنا قاطرة صغيرة قد ألحقت بها عربة واحدة للمسافرين.

وحمل زوجى أمتعتى ووضعها على المقعد، ثم دسّ فى يدى بعض النقود ، وحينئذ أدركت أن لحظة الوداع قد حانت وطوقنى بذراعيه القويتين وهو متردد وقال لى : « إنى أحبك يا كاتى » .

وغادرنى وتحرك القطار وكانت آخر صورة له انطبعت فى ذهنى وهو واقف بمفرده، ومن ورائه تيه تلك المنطقة الشمالية .

وأخذت أرقب الأرض المبتلة بالمطر وقلبى يخفق بذكرى ما دار وما لم يدر بيننا من حديث .

وجدت أختى آن فرنسيس تنتظرنى بمحطة بوسطن فقلت لها: « أريد أن أمكث هنا وقتاً طويلا » .

أقامت أمى وأختى حفلة للترحيب بى ، وازدحم منزلنا بفتيان وفتيات وجوههم غير غريبة عنى ، وإن كنت لم أعرفهم إلا بعد جهد ، وعزفت الموسيقى ورقصنا ولهونا وأكلنا وشربنا .

ثم جاءت أمى خلسة إلى غرفتى وعانقتنى وقالت : « أراك تشكين الوحدة يا بنيتى » .

فاندفعت أقول لها : « إننى أحبه يا أماه ، وسأظل أحبه » .

فأخذت أمى تمسح شعرى بيدها وتقول: « لعله يأتى هو أيضاً إلى بوسطن » . فقلت لها : « كلا ، إنه لن يكون فى بوسطن سوى شرطى صغير » .

فأجابتنى أمى بحزم : « إننى أحرص على الابتعاد عن التدخل فى شئون بناتى ، لقد عقد زواجك فى مكان ما فى تلك المنطقة الموحشة برجل لم أره من قبل ، ثم استقبلت معه حياة لا ترضاها امرأة معه . فأنت

حبيسة فى كوخ من الخشب ، وليس عندك إلا أقل الثياب ، وليس هناك طبيب ، وإلا لكان أسعف طفليك حينما أشرفا على الهلاك . وليست هذه حياة جديرة بك يا كاتى ، وليس من العدل إرغامك عليها . إننى أعتقد أنه من واجب الزوجة أن تلازم زوجها ، ولكن حالتك مختلفة تمام الاختلاف . ولن أدعك ترحلين إلى الشمال مرة أخرى ، فتقاسين الألم من الوحدة ومن رؤية قبرى طفليك ».

فأجبتها وأنا أتمتم: «لستُ أريد العودة».

ثم أخذنا نتردد كل ليلة على المسارح والحفلات الموسيقية ، ولكنها كانت متعة لا تمس قلبى ، فقد شعرت أن هذه الحياة قد أصبحت غريبة عنى ، بل أحسست أن هناك فارقا أو حاجزاً قد فصلنى عن أمى وأختى . وظللت أصور لنفسى مايك كما رأيته آخر مرة واقفاً وحده ومن ورائه تيه المنطقة الشمالية ، هذا هو الوطن الذى أحن إليه ، وإن لزوجى فى هذا الوطن مقامه الملحوظ . إننى لم أكن عادلة ، بل كنت مخطئة ، واليوم أدرك كل هذا ، ولا بد لى من أن أبوح له بما يتردد فى نفسى وأكشف له عن قلبى . وجعلت أصرخ كأنه بجانبى يسمعنى ، وأقول : « خذنى إليك يا مايك ، فلن أفارقك مرة أخرى » .

وجاء زوجى يستقبلنى وأنا أنزل من القطار ، وأخذ يحدثنى بصوت خافت مختلج . كان يهم بالكلام ثم يصمت ، وينظر إلىّ فأنسى ما كنت أريد أن أقوله له ، وأنظر أنا إليه أيضاً . وقد هممت أن أقرّ له بخطئى ، ولكنه ظل يقبلنى فيمنعنى من الكلام .

وقلت له : « سنبدأ حياتنا من جديد . أليس كذلك يا مايك ؟ »

فأجاب : « لا شك فى ذلك » .

وركبنا الزحافة وظل مايك يرقبنى ثم قال : « ألا تحسين بفرحة العودة إلى الوطن والمأوى ؟ » . نعم ، لقد كان قلبى يرقص سروراً بالعودة إلى دارى المحبوبة .

ووصلنا إلى الدار فى اليوم التالى ، فوجدت أغصان الشجر المثقلة بالثلوج قد انعقدت فوق الدار كأنها قباب من البلور ، فقفزت من الزحافة وجريت إلى مدخل الدار ، ولكن مايك سبقنى إلى الباب وقال : « أخشى أن يكون البيت مختل النظام » .

فأجبته : « لا تكن أحمق وسأرتب كل شىء » .

فوجه إلىّ نظرة جعلتنى أفهم أن اختلال النظام أشد مما أتصوّره ، فهيأت نفسى لأسوأ الفروض ودفعت بالباب ، فإذا بالدار نظيفة مجلوّة مرتبة خير ترتيب ، فالتفت إلى مايك لأرى ما إذا كان قد مكر بى ، ولكن

نظرة واحدة مني إلى وجهه جعلتني أعتقد أنه لم يكن يقصد ذلك . ووجدت كل شيء في مكانه ، وعلى المائدة عشاء ساخن .

وفي تلك اللحظة سمعت الباب الخلفيّ وهو يغلق ، فجرينا إلى المطبخ فرأينا سارة وهي تنفلت منه خارجةً ، فناديناها فأخذت تلوّح لنا بذراعيها دلالة على أنها سمعت نداءنا ، ولكنها أبت أن تعود أو أن تدير وجهها إلينا ، فهي تريد أن تترك الزوجين في خلوتهما .

وحلّ شهر أغسطس الذي أعلنت فيه الحرب ، وجاءنا تيمي بوكلير ليودعنا ويطلب إلى زوجي أن يعني بجواده ، وأخبرنا أن أخاه بول قد التحق بالجيش هو أيضاً .

ولم ينته الشتاء حتى كنت قد حملت خمس برقيات إلى أسر من جيراننا تنبئهم بوفاة رجلهم أو فقدانه في الحرب .

وجاءت سارة يوماً إلى مكتب زوجي وقالت : « أعدّي لي كوبة من الشاي » .

وليس طلب قدح شاي بأمر غير مألوف ولكنه أزعجني منها ، لأنني لم أعهد في سارة منذ عرفتها أنها تطلب شيئاً من إنسان . وشربت قدحاً ثم قالت فجأة : « ولدت مادلين بنت كونستانس طفلين ، وهي الآن تحتضر » .

فصرخت فيها : « أحق ماتت مادلين ؟ » .

فأجابت : « وضعت على يدي طفلين ولداً وبنتاً ، ثم بدأ النزف ، فحبسته حتى لا يخرج ، ولكنه استمر داخل جوفها ، وهي الآن تموت » .

ورمى زوجي قلمه وقال : « أولدت توأمين ، ولداً وبنتاً ؟ »

أجابت : « نعم . ولداً وبنتاً » . ولم ينطق أحدنا بكلمة وجلسنا نتناول الشاي صامتين .

وبعد ثلاث ساعات بدأت آلة التلغراف تدق ، ورفعت سارة رأسها ترقب زوجي وهو يسطر الرسالة ، فإذا بها تقول : « ٢٧ مارس — إلى جوزج بوكلير وزوجه — نخبركم بمزيد الأسف والحزن أن . . . قد قتل في ميدان القتال » .

فالتفت إلى سارة وسألتها أ كانت كونستانس تعلم بخبر مادلين .

فأجابت : « نعم ، إنها كانت معها ولكنها الآن عادت إلى دارها » .

فقلت : « رباه ، لماذا كتبت كل هذا البلاء على تلك الأسرة ؟ »

وذهبت إلى الدار وقرعت الباب فخرجت إلى كونستانس ، فأردت أن أمهد للخبر السيء بكلام لطيف وديع ، ولكن كل مااستطعت أن أنقله هو أن أقدم لها البرقية . فقالت وقد زمّت شفتيها : « أيهما ؟ »

فأجبتها : « إنه بول » .

وجاء نعى ابنها الثانى فى الربيع التالى ، وكانت كونستانس تعد الابن للتوأمين ، فالتفتت إلىّ مبتسمة وقالت : « مرحباً بك ياكاتى » وكنت واقفة إلى جانب المائدة كما وقفت فى الشتاء الماضى ، وتحت يدى البرقية الأولى لم تفض وقد علاها التراب فإنها لم تلمسها ، فوضعت البرقية الثانية فوق الأولى وخرجت .

ولما عدت إلى الدار وجدت زوجى ينظر من النافذة ، ورأيت جواد تيمى واقفاً يرعى فى الحقل ، وقال لى زوجى : « كانت سارة هنا ، ولا أدرى كيف أحست بالنبأ ، فإنها جعلت تسألنى عن تيمى » .

فسألته : « وهل أخبرتها ؟ »

فقال: « نعم ، وكل ما قالته هو : يموتون وهم صغار من المرض ، ويموتون وهم كبار فى الحرب » .

وكأنما لم يكف هـذا العالم المصطخب المتقاتل أن يرسل إلينا برقياته تحمل إلينا نبأ الموت ، بل بعث إلينا أيضاً بموت جديد ، فقد تولد من قذارة الخنادق فى أوربة فى خريف سنة ١٩١٨ مرض الأنفلونزا ، وانتشر حتى بلغ شمال كندا ، فمات من سكانها أيضاً خلق كثير دون أن يسعفهم طبيب .

وتبعت سارة إلى حجرة النوم فى منزل بوكلير ، فوجدت جورج العجوز جاثياً على الفراش . ومرت ساعات طويلة قبل أن تتحرك كونستانس أو تتكلم ، ثم فتحت عينيها وقالت: « إننى فى سياق الموت ياكاتى ، ولكنى متعبة جداً ، ولهذا فإنى لا أبالى أن أسلم الروح » .

وسهرنا الليل بجانبها ، ولكنها ظلت ساكنة لا تتحرك وقد انفرجت شفتاها ، وأخذت أنفاسها تتردد بهدوء .

ولما اقترب الصباح جاء مايك ليحل محلى ،ففتحت كونستانس عينيها مرة أخرى ونظرت إلينا وعرفتنا وقالت : « خذا التوأمين » ،ثم قضت نحبها . فارتمى جورج على الفراش وهو يبكى ، وألقيت رأسى على كتف زوجى وأخذت أبكى حسرة على أعز صديقة لى

وأخذنا التـوأمين إلى دارنا ، وجعل زوجى يلاعبهما . ولما رآنى أبكى من السرور أخذ يغمرنى بقبلاته ورزقنا الله بطفل ثالث ، إذ جاءنا جوناثان فوكيـه ذات يوم وهو يحمل طفلا وأخبرنا أن فرحانة ماتت وخلفت له هـذا الطفل فسرنى أن أتبنى أيضاً ابن فرحانة التى كانت تحب ولدىّ وتعنى بهما .

وهكذا كملت أسرتنا وجعلت تتوالى ونحن فى سعادة وهناءة .

هذه طبائع البشر

النعاس على عينيّ ذات ليلة ، وإذا بجرس التلفون يدقّ ، فأخذت السماعة بيدى فإذا بصوت غريب عنى يقول: «إن زوجى يثير غضبى ! » فقلت : «آسف ياسيدتى فقد أخطأت فى طلب النمرة » ، ولكن صاحبة الصوت لم يزعجها أننى قاطعتها وأننى بيّنت لها خطأها فمضت تقول : « أيظن أن العناية بثلاثة من الصغار شىء هين ! وأنا أيضاً أريد أن أتنزه مرة بعد مرة ، ولكن أيهمه شىء من هذا ؟ يهزّ كتفه ويقضى السهرة كلّ ليلة مع أصحابه على مايقول،ثم يريدنى أن أصدق مايقول».

فاعترضتها مرة ثانية بلهجة حازمة وقلت: « يؤسفنى ياسيدتى ، فقد أخطأت فى طلب النمرة فأنا لا أعرف من أنت » .

فقالت : « طبعاً . أنت لاتعرف من أنا . أو تظن أننى أستطيع أن أفضى بكل هذا إلى من يعرفنى ؟ إذن لذاع أمره وشاع ، فالناس يحبون القيل والقال . غير أننى وجدت أنه لا بدّ من زحزحة هذا الحجر الجاثم على صدرى . فأنا أحسن حالا الآن ، فشكراً » ، ثم قطعت المحادثة .

ويل لنا من ألكسندر جراهم بل ومن مخترعاته !

[پول كلاين]

كانت فتاة زنجية من صويحباتى تندب سوء حظها أنها لا تزال بغير زواج ، فقلت لها : « يلوح لى أن صاحبك يحبّك حبّاً صادقاً ولا يريد سوى مرضاتك ، فلم لا تتزوجينه يا لوسندا ؟ »

فقالت : « أنا فى مشكلة من هذا الشاب ، فهو يسرنى يوماً ، ويغضبنى يوماً ، ولا أزال فى حيرة من أمرى فلا أستطيع أن أقرّر أيسرنى أكثر مما يغضبنى أم يغضبنى أكثر مما يسرنى . وإلى أن أصل إلى قرار ، سأبقيه معلقاً بين الشك واليقين حتى ينفطر قلبى لوعة وأسى ، ويومئذ أتزوجه مهما يكن قرارى ! »

[نلدا ستورمز]

كنت أتجوّل فى أحد المتاحف منذ سنوات ، فوقعت عينى على شىء غريب استوقف نظرى : حية من ذوات الأجراس يبلغ طول ذيلها قدماً وفيه ثلاث وعشرون عقدة . فشقّ على أن أصدق أن ذيل هذه الحية يبلغ هذا المبلغ من الطول ، وإن كان ماثلا أمامى . فالتفت إلى أمين المتحف ، العالم الحكيم هومر وليمز ، وفى عينيّ سؤال عن سرّ ما رأيت .

فقال وفى عينيه بريق : « أرسل إلينا

بل جونز هذه الحية من ولاية تكساس ، فكانت أكبر حيـة من ذوات الأجراس رأيتها فى حياتى،وكان فى ذيلها تسع عقد . بيـد أنه لم يكد ينقضى شهر على عرضها فى التحف حتى جاءنى رجل وقال إنه قتـل مرة حية أكبر منها، وكان فى ذيلها عشرة عقد . ثم جاءنى آخر وأقسم بأغلظ الأيمان أنه رأى حية فى ذيلها اثنتا عشرة عقدة .

« فظللت زمناً أفكر فى أقوال الرجلين، وعزمت فى آخر الأمر أن أرى إلى أين ينتهى أمر الكذابين من الناس . ففككت ذيل الحية وأضفت إلى عقدها الأصلية أربع عقد جديدة أخذتها من مجموعة المتحف... ولا يزال الناس يتمادون فى الكذب ، ولاأزال أضيف إلى الذيل عقدة بعد عقدة، حتى بلغت كما ترى ٢٣عقدة ، وصارت الحية غريبة ، ولم ننته بعد ، فليس لكذب الناس حدٌّ يقف عنده » . [فكتور شمت]

يبكر ابنى فى الخروج إلى عمله كلَّ يوم، قبل أن يستيقظ أحد من أسرتنا . وقد كان عيد ميلاده الرابع والعشرين منذأيام. فلما جلست إلى مائدة الفطور وجدت على صحنى بطاقة منه هذا نصُّها :

« أمى العزيزة ، منذ أربع وعشرين سنة تغـدَّيت على حسابك ، أفلا تقابلينى ظهر اليوم فأرد لك التحية ؟ جاك » .
[ح ٠ ى ٠ لركنبراك]

قضيت بضعة أسابيع مع صديق لى فى مزرعة أبيه بولاية أوريجون ، فلاحظت أن أباه ينفق ساعة أو نحو ساعة كل يوم فى تنظيف سيارة فورد عتيقة وفى صقلها ، حتى لتراها كالعروس المجلوة حيال سيارة جديدة فخمة ، وأخرى من طراز «ستيشن واجون » كان يهمل تنظيفهما . فسألته عن سر ذلك .

فنظر إلى وكأنه ينظر إلى الأفق البعيد، وقال: « اسمع يا بنى، منذ ٢٥ سنة لم أكن أملك سوى هذه السيارة ، فهجرت عليها الولاية البعيدة التى ولدت فيها وجئت إلى هذا المكان ، فأعانتنى على أن أجد عملا ، فوفرت منهمالا قليلا فاشتريت قطعة أرض، ثم أعانتنى على مقابلة فتاة عرفتها ، ثم حملتها إلى هذه الدار من الكنيسة يوم تزوجتها، ثم نقلتها مرتين إلى المستشفى وعادت بها وفى أحضانها ولدان جميلان . وقد نقلت نتاج أرضى إلى السوق وساعدتنى على أن أجعل هذه المزرعة كما تراها اليوم . فهذه السيارة ليست سيارة عتيقة وحسب، يابنى، بل هى صديق قديم ، ولست بالرجل الذى ينسى صديقاً قديماً » . [أنتونى بيروج]



كتاب الشهر

٣٠ عامًا في صحبة الوحوش

GRIZZLIES in their Back Yard

بقلم بيث داى

عندما استقر جيم ولوريت ستانتون فى ادغال كولومبيا النائية ، محققين بذلك حلما عزيزا طالما داعب خيالهما عن الحياة على الحدود كانت لديهما مجموعة فريدة من الجيران ، هى اكبر مستعمرة للدببة فى امريكا الشمالية

وقد تحدثت « بيث داى » فى كتابها «دببة فى فنائهما الخلفى » عن تجاربهما التى لا يكاد يصدقها العقل مع هذه الوحوش الجبارة ، وغيرها من الحيوانات الاخرى التى عاشا معها زهاء ثلاثين عاما • ويقول ر• ف• بتلر كبير مراقبى شئون الصيد فى كولومبيا ان جيم ستانتون لا يعد من اكفأ العارفين بامور الدببة فحسب ، بل انه خبير فى حياة الغابة بصفة عامة •

وقصة آل ستانتون زاخرة بالمغامرات اليومية التى تجمع بين الاثارة المرعبة والمرح فضلا عن انها قصة حياة فيها جمال وبساطة ، اقتطعها من الادغال شخصان لا يقهران •• »

٣٠ عامًا فى صحبة الوحوش

فى ليلة ممطرة ، منــــذ أمد ليس ببعيد ، استيقظ جيم ولوريت ستانتون على صوت عندمدخل منزلهما الخشبى الذى يقع فى منطقة (بوغاز الفارس) على ساحل كولومبيا ، فنهض جيم متعثرا من فراشه وهـــــو يفرك عينيه من أثر النوم ، ثم فتح البـــاب الخلفى ، وسار ليجد فى مواجهته دبا عملاقا مبتل الشعر •

كان الدب واقفا على قدميه ، وقــد وضع مخالبه فوق ثلاجة آل ستانتون الضخمة ، يشمشم بانفه بحثـــا عن طعام •

وهرع جيم واختطف بندقيته ، فسألته لوريت :

ـ ماذا هناك ياجيم ؟

فأجاب جيم : دب يحاول أن يدخل الى الثلاجة •

فقالت متوسلة : أرجوك الا تقتله ياجيم ••

ووصل جيم الى المدخل على صوت ضجة صاخبة مزقت السكون ، فوجد أن الدب قد حطم باب الثلاجة ، وراح يدس رأسه الضخم فى داخلها •

وألصق جيم فوهة بندقيتـــه تحت اذن الدب اليسرى ، وقال بخشونة :

ـ اخرج من هنا قبل أن أقتلك ••

ونقل الدب بصره بين الثـــــلاجة العامرة باللحوم ، وبين الرجل الضئيل الحجم ، البادى العزيمة الذى يقف أمامه فى لباس نومه ويبدو أنه اختار أسلم الامرين ، ثم راغ منطلقا صوب الغابة •

***

لقد ظل ستانتون وزوجته يعيشان أكثر من ثلاثين عاما فى مثل هذه الجيرة التى تضم أكثر المناطق المزدحمـــــة بالدببة المفترسة التى لا تزال باقيـــة فى قارة أمريكا الشمالية • وفى خلال أشهر الصيف يتناول الكثير من هذه الوحوش طعامه فى المراعى المنبســـطة التى تقع على مرمى البصر من منزلهما • وليست الدببة وحــــدها هى جيران ستانتون وزوجته ، فهنـــاك الغزلان والراكون وغيرها من ســـاكنى الغابة التى تشاركهما فى هذه الحياة المنعزلة •

ويقول جيم ان الحيوانات المفترسة تعد رفيقا لمن يعيش فى الغابة ، فهى تبدد شعور العزلة والوحدة •• ثم يبتسم وقد تجعـــد أنفه القصـــير ويضيف قائلا :

ـ انك لا تطلق النار على جيرانك طبعا ، الا اذا اضطررت الى ذلك ..

ولم يكن جيم ستانتون النحيل القوى العضلات ، أو زوجته لوريت الهيفاء ذات العينين العسليتين من أهل الغابة يوم وفدا الى هذه الدنيا فحتى عام ١٩٤٩ ، كان جيم وهو فى الرابعة والثلاثين يمتلك حظيرة ناجحة لايواء السيارات فى ستيل ، وكان ينعم بالعيش هو وزوجته فى مسكن مريح بالمدينة . ولكن وراء هذه الحياة العادية، كان يكمن فى قلب كل منهما هوى عميق للجبال والغابات، فكانا ينتهزان كل فرصة للفرار من المدينة والتجوال فى الغابات . وأخيرا باع جيم حظيرته. ووضع مدخراته فى جيبه ، وانطلق هو ولوريت الى رحلة طويلة لصيد الاسماك لم يعودا منها قط .

انطلق الاثنان صوب الشمال فى زورق مدبب الطرفين يسير بمحرك لا تزيد قوته على حصانين ونصف حصان ، مستطلعين البواغيز والقنوات فى مضيق (الملكة شارلوت) الذى يفصل جزيرة فانكوفر عن ساحل كولومبيا الجبلى .

ولم يكن يقلقهما التفكير فى أمر المستقبل ، فاذا نفد مالهما فانهما يستطيعان صيد السمك للحصول على القوت ، كما أن فكرة الحياة المنعزلة فى الغابة لم ترعبهما ، فقد ولد جيم يتيما ، وقضى أغلب أيام شبابه مع ازواج أمه ، وكان أحدهم صياد وحوش نرويجيا ، أخذ الصبى معه الى الغابة خلال ثلاثة فصول من فصول الشتاء . ولم ينس جيم التجربة أو الدرس الذى لقنه اياه هذا الصياد.

أما لوريت ، فقد كانت هى الاخرى تتمتع بحصانة كبرى . لم تكن تخاف الحيوانات المتوحشة أبدا ، وهى ثقة يبدو أنها كانت تلقى استجابة لدى الحيوانات، فقد حدث ذات مرة أن كان الاثنان منطلقين بقاربهما عندما شاهدا ظبيا جميلا يقف عند حافة الماء ، فتوجه جيم صوب الشاطىء تحت الحاح لوريت وراح الظبى يرقب لوريت فى اهتمام مشوب بالتعالى ، وهى تسير نحوه وتربت على أنفه الناعم الذى يشبه المخمل ، ولكن عندما اقترب جيم منه ، أرسل الحيوان فجأة شخيرا من أنفه ، ورفع حافريه الاماميين معا ، ودق بهما الارض ثم انطلق هاربا صوب الغابة ..

وقال جيم :

ـ ماذا حدث ؟ . اننى لم أكن أنوى ايذاءه .

فقالت لوريت بهدوء : ولكنه يعلم

انك لا تتردد فى الاقدام على القتـــل اذا وجدت داعيا له •

جنة فى الشمال

سمع آل ستانتون عن (بوغاز الفارس) لأول مرة عندما قابلا اثنين من صيادى الشباك الجائلين فى جزيرة فانكوفر ، فقد ذهب الرجلان الى رأس البوغاز بعد ان سمعا انه أكثر المناطق غابات فى كولومبيا البريطانيـــة ، ولكنهما أضافا قائلين : لقد وجدنا ان هذه المنطقة أكثر ادغالا مما نستطيع احتماله •

فسألهما جيم : وما سبب المتاعب هناك •

فقالا : عـــدد لا يحصى من الدببة •

وهنا التمعت عينـــا جيم ببريق اللهفة وقال :

ـ دببة ، هذا هو المكان الذى نريده !! ••

وكان الحال كذلك بالنســبة للوريت • فمنــذ الطفولة كان جيم مسحورا بالحديث عن سيد الغابات ، الذى يعد أكثر الحيوانات آكلة اللحوم افتراسا فى أمريكا الشمالية ، وقــد سمع الكثير من الاساطير عن هــذه الدببة من الكهول ، الذين يبدو أن فلسفتهم كانت ترى ان الدب الوحيد الطيب هو الدب الميت • وكان جيم يسائل نفسه دائما عن مدى الحقيقة فى هذه الاقوال ، التى يبدو ان احدا لم يعرفها لانه لم يعرف الدب الحى فى موطنه •

والآن حانت الفرصة ليعلم ذلك جيم بنفسه •

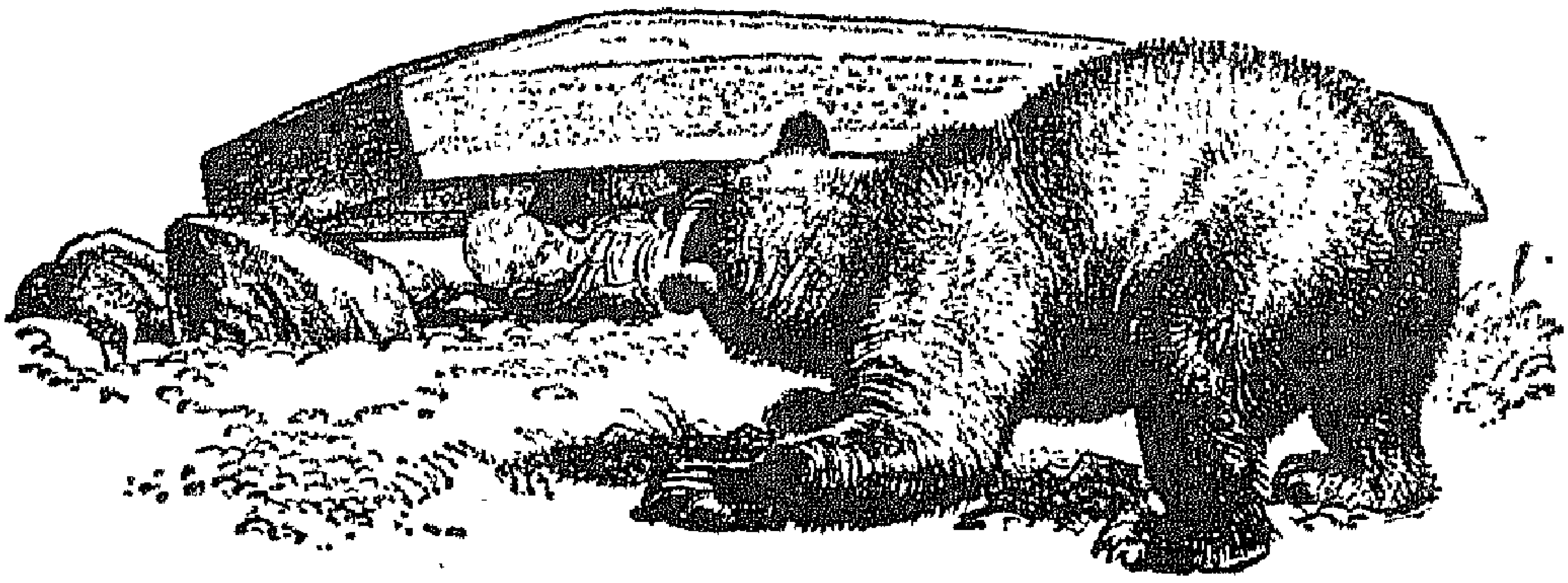
واتجه ستانتون وزوجته رأســـا صوب المضيق ، فبلغا بوغاز الفارس بعد الغسق ، حيث قضيا الليلة على ظهر القارب ، واستيقظا فى الصباح التالى ليشاهدا الجنة •

كان لايزال أمامها ٦٠ ميلا من المياه التى تسير فى ممرات متعرجة تمتد بين السواحل الجبلية التى تكسوها أشجار الصنوبر ، وذرى الجبال التى يغمرها الجليد ، وكانت مساقط المياه كأنها شرائط من الفضة تزين الغابات المظلمة ، بينما كان ماء البوغاز نفسه ذا خضرة معتمة غامضة ، تلونه المياه المتدفقة من المناطق الثلجية الموجودة فى أعلاه • لقــد كانت أرضا رائعة لم تمسسها يد من قبل •

وعند رأس البـــوغاز ، عثر جيم ولوريت على كوخ مهجـــور لصياد • فاقتربا من الشاطىء •

وقالت لوريت وقد برقت عيناها :

ـ سنعيش هنـــا ولا شك ، فهـــذا



أجمل مكان رأته عيناى .

وبينما عكف جيم على معالجة مشكلات المأوى والتموين ، اتجهت لوريت الى تخزين الطعام للشتاء ، فحفظت كميات من التوت البرى الذى ينمو حولهما بوفرة ، وصادت سمكا وحفظته . وكان يكفى ان تسير من باب بيتها ثم تعود بعد خمس عشرة دقيقة ومعها كمية من سمك البلطى أو السالمون .

وكان الاثنان يعتمدان على نفسيهما تماما ، ويقول جيم وهو يبتسم : اذا وقع لك شىء فى الغابة فأنك لا تستطيع أن تطلب النجدة بالتليفون . واذا كان هناك شىء واحد يحتاج اليه الانسان لمثل هذا النوع من الحياة ، فهو أن يكون ماهرا سريع التصرف .

وقد لعبت سرعة بديهة لوريت دورا هاما فى نجاتهما عدة مرات ، فقد حدث أن ألحت ذات يوم على جيم لكيلا يخرج للصيد كما كان يعتزم ، وفى نفس المساء اجتاحت البوغاز ريح عاصفة ، أحالت الماء الاخضر الى زبد أبيض ، وأسقطت الاشجار فى الغابة وعندما خرج ستانتون وزوجته ليشاهدا المنطقة فى اليوم التالى ، وجدا ان عددا هائلا من أشجار الارز قد تهاوى فوق سقف الكوخ الذى اعتاد جيم أن يقضى فيه ليالى صيده .

وقد شغل جيم ولوريت نفسيهما خلال الشتاء الاول بتدبير خشب الوقود والماء والطعام ، ونصب جيم شباكه وصاد كثيرا من الحيوانات ذات الفراء الثمين كالمارتن و « المنيك » والقنادس ، فلما جاء الربيع انضم الى اثنين من الحطابين اللذين ظهرا هناك ، وتعلم منهما فن اسقاط أشجار الارز الضخمة ، التى كانا يبيعان أخشابها كتلا للمشترين الذين يأتون من فانكوفر .

وهكذا كانت الحياة سعيدة عامرة

بالعمل ، جعلتهما يحسان بالراحة فى أعماقهما ، حتى انه بعد أن أنقضى العام الاول ، أدرك جيم ولوريت انهما لن يغادرا هذا المكان •

جيران من الدببة

وعلى الرغم من ان ستانتون وزوجته قد وجدا ما يثبت وجود الدببة فى كل مكان من حولهما ، فأن الدببة الكبيرة كانت تجفل فى مبدأ الامر ، ولكن الوحوش ما لبثت أن اعتادت رائحة الآدميين ، فلم تعد تشعر بالخطر ، وراحت تنساب عائدة الى مناطق طعامها المعتادة فى السهول المنبسطة المحيطة بالكوخ وما لبث جيم أن استطاع ان يميز شخصية ٣٠دبا مختلفا ، وعندما ازدادت ألفة الدببة مع آل ستانتون ، اتخذ أربعة منها فراشا لنومها على بعد مائة ياردة من الكوخ ، وكان فى استطاعة جيم ولوريت أن يستمعا خلال الليل ، وهما نائمان فى فراشهما الى شخير جيرانهما القريبين من ذوى الفراء السميك •

وتبين لستانتون وزوجته ، ان الدببة رغم اشتهارها بالوحشية كانت أكثر ميلا الى تفادى المتاعب منها الى اثارتها ، فالدببة لا تقتل من أجل الحصول على اللحم • ومن النادر ان تهاجم انسانا ، ووجد جيم أن مجرد رائحة البشر تخيف الدب فى المناطق الثلجية الشمالية ، حيث لم يسبق لها ان شاهدت آدميا ، وقد دفع جيم قبعته ذات مرة فى وجه دب مهاجم ، فكان هذا كافيا لكى يجعله يعدومهرولا الى داخل الغابة •

ويقول جيم ان الدب الذى يقف على قوائمه الخلفية انما يفعل ذلك بدافع الفضول والاستطلاع لا الغضب ، اما اذا جاءك الدب عدوا على أرجله الاربع، فمعنى هذا انه ينوى العمل حقا •

ولكن لافائدة من الجرى امام الدب، فهو على الرغم من ضخامة حجمه وثقل وزنه ، ينزلق بسرعة غريبة • وقد حاول جيم أن يختبر ذلك ذات مرة ، فجرى بأقصى سرعته ليقطع الطريق على دب كان يسير سيرا عاديا، فلم يستطع مجرد اللحاق به • وينصحك جيم قائلا : اذا جريت ، فاجر نحو الدب على أمل أن تخيفه!! •

وعلى النقيض من الاعتقاد الشائع بأنها تسير دائما فرادى، وجد ستانتون وزوجته ان الدببة تنتجع المراعى - خلال موسمها على الاقل - فى جماعات • واذا حدث أن شق دب ذو قوة خاصة طريقه الى المنطقة ، فان الجماعة تتجه الى التفرق •.

ويضع جيم ذكاء الدببة فوق ذكاء الكلب والحصان ، فكثير من الصيادين مثلا يشكون من اغارة الدببة على الاكواخ التى يأوون اليها • واذا وضعوا المتاريس على الابواب والنوافذ ووجدت الدببة أنها لن تستطيع الدخول من هذا الطريق تحولت الى السقف ، ونزعت بمخالبها بعض ألواحه الخشبية بحيث تكفى لاحداث ثغرة يمكن أن تنفذ منها الى الداخل •

ويقول جيم أنه اذا صمم الدب على الدخول فليست هناك طريقة لمنعه •

وعندما التقى جيم بصغار الدببة لأول مرة ، وجد أنها تقف ثابتة ، وتحدق فيه ، ثم تعدو بضع خطوات ترتد بعدها الى الوقوف ، لتلقى نظرة ثانية نحوه ، ثم تعدو مسافة أخرى ، فالحذر يعلمها وجوب الجرى للاختباء ، والفضول يقفها لكى تلقى نظرة أخرى •

وهى مغرمة باللعب كالاطفال ، فهى تصارع بعضها البعض ، وتلقى العصى والاحجار فى الهواء لمجرد اللهو ، ومن ألعابها المحببة التى شاهدها جيم أنها تختلس النظرات نحو قطيع من الوز ثم تعدو نحوه فجأة لمجرد التمتع برؤية الطيور المذعورة وهى تطير صائحة صارخة •

وعلى عكس الصور التى تظهر الدب واقفا على قدميه يلاكم خصمه ويحتضنه ، فان الدب انما يقاتل فى الواقع كالقط ، فيضرب بمخالبه الضخمة ويعض بأسنانه ، وفى المعارك الصورية ، قد تجرف صغار الدببة بعضها البعض بمخالبها المرعبة ، واذا وقع احدها ، سقط الآخر فوقه فى صوت كالزئير ، وهو يعض رأسه وأذنيه •

وقد اقترب جيم ذات مرة على بعد ٨٠ قدما من دبين يتصارعان ليرى ماذا يفعلان ، فتوقفا فترة طويلة للتحديق نحوه ، ثم عادا لمزاولة رياضتهما •

وكان أكثر الدببة التى التقى بها جيم فضولا ، دبا ذكرا جاء ذات ربيع ليأكل الحشائش ، اذ كان جيم يقوم باصلاح قاربه عند الشاطىء ، وبينما كان راقدا تحت القارب المقلوب ، انتابه احساس بأن هناك من يرقبه ، فألقى نظرة من فوق كتفه ، فاذا به يرى وجها ضخما لدب فضولى ، كان يختلس النظر اليه تحت القارب ، وكانت ملامح وجهه تكشف عن ود وصراحة ، حتى أن جيم بدلا من أن يشعر بالخوف ، أحس برغبة فى أن يقرص أذن الدب • وبعد دقائق قليلة ، سار الدب بضع خطوات ، واستلقى على الحشائش ، وقد أدار وجهه نحو

الارض ليستطيع أن يرى ما تحت القارب ، وفى خلال الاسبوعين اللذين أمضاهما جيم فى اصلاح قاربه ، عاد الدب بضع مرات ليراقبه •

دنيس •• الخنزير عاشق البحر

وبينما كان جيم يدرس أحوال الدببة الكبار ، كانت لوريت تمارس حيلها النسائية على انثى خنزير تدعى دنيس ، حصل عليها آل ستانتون من يخت كان يمر الى جوار الشاطىء ، وقد أثبتت – دنيس – التى كانت من أكثر الخنازير رفاهية – أنها ذات خبرة مدهشة بالادغال ، كما أنها طبعت نفسها على الجرأة والثقة بالنفس كالذئاب بل والدببة أيضا •

ومع أن دنيس كانت قعيدة البيت ، الا أن آل ستانتون لم تكن لديهم رغبة فى أن تشاركهم كوخهم ، ومن ثم فقد ثبتت لوريت برميلا عند الشاطى ملأته بالحشائش الجافة ، وعندما تساقطت بشائر الجليد الاولى ، حرصت لوريت على أن تشعل بعد ظهر كل يوم نارا على مقربة من برميلها لتضمن لدنيس احساسا بالدفء ولو مرة واحدة على الاقل فى اليوم •• وقد راقبت الخنزيرة لوريت باهتمام وهى تشعل النار لأول مرة ، وبعد ظهر اليوم التالى عندما شاهدت سيدتها قادمة ، هرولت دنيس الى الشاطىء وعادت الى لوريت وفى فمها قطعة من الخشب الطافى على سطح الماء •

وكانت دنيس مغرمة بركوب القارب • وكانت تصرخ كل مرة ينطلق فيها جيم به لتصعد معه ، ولم يكن جيم يفعل الا أن يسحب القارب نحو الشاطىء ويقول : هيا يادنيس ، فتصعد الخنزيرة اليه • وكان اخراج دنيس من القارب مهمة أكثر صعوبة ، فعندما كان جيم يأمرها بالنزول ، كانت تطلق صيحات احتجاج حادة ، وبعد أوامر متكررة تهبط أخيرا وهى تزحف على جانب الزورق ، وتضرب الماء بعنف ثم تسبح الى الشاطىء •

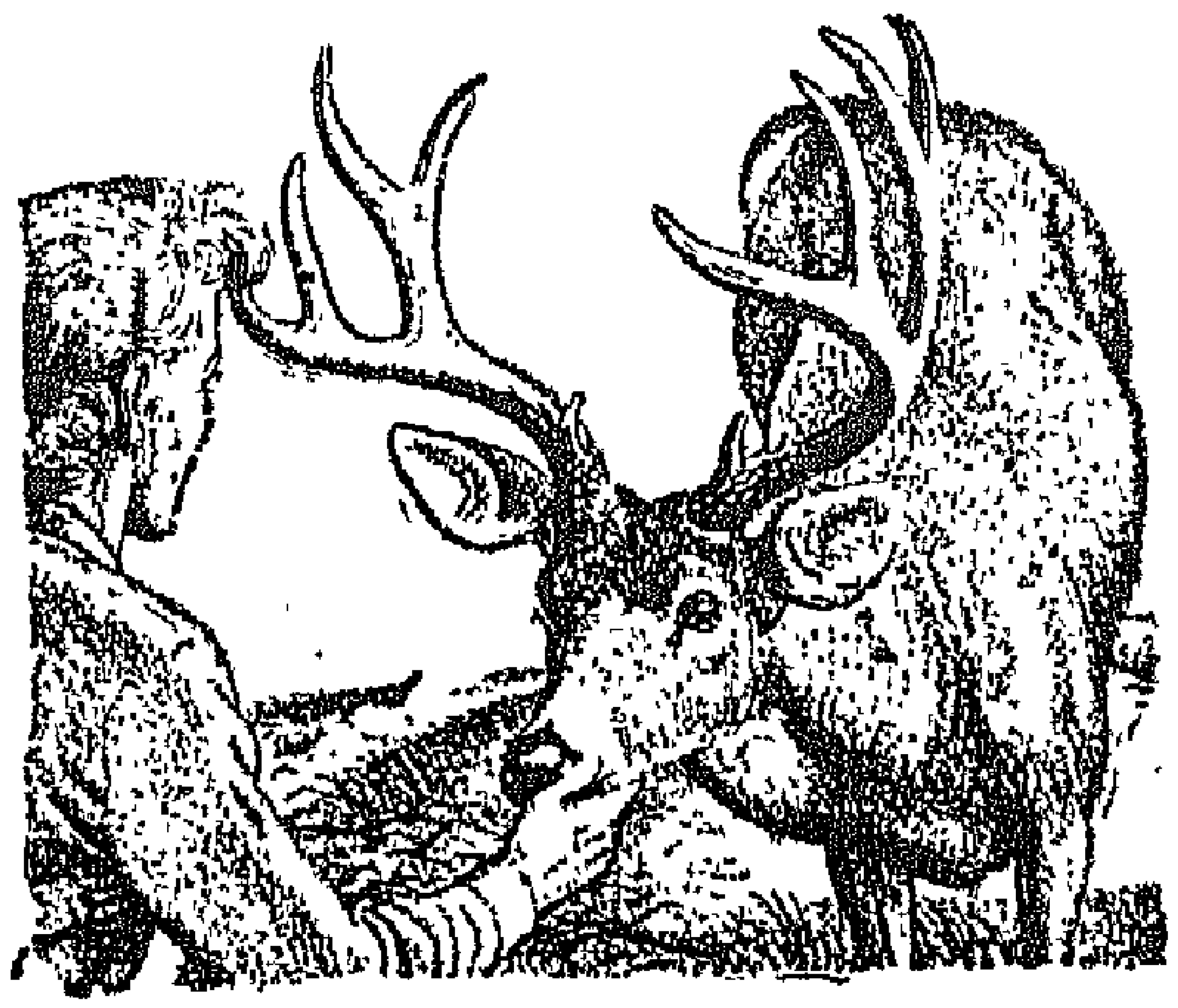
وحدث ذات مرة بينما كان آل ستانتون بعيدين عن كوخهما أن حضر أحد حراس المصايد لزيارتهما ، وما أن سمعت دنيس صوت المحرك ، حتى سبحت لمقابلة الزورق ووراءها مجموعة من القطط التى كانت تحتفظ بها لوريت •

وبعد أيام قلائل حضر الحارس بوجه شاحب وسأل جيم بصوت أجش :

– هل لديكم خنزير يسبح ؟

فقال جيم – أجل لدينا ••

فبدت الدهشة على وجه الرجل وقال :



ـ ولديكم أيضا قطط تسير فى الماء ؟ فضحك جيم وقال : أجل لدينـــا

وهنا تنفس الرجل الصعداء قائلا:

ـ لقد كنت أفكر فى تغيير نوع الخمر الذى أتعاطاه بعد أن شاهدت هذا المنظر

***

وقد أمر ستانتون باحضار رفيق ذكر لدنيس ، وهكذا أصبح هو وزوجته أصحاب قطيع يضم ٤٠ خنزيرا ليس بينها واحد يطاوعهما قلبهما على ذبحه •

وكان جيم ولوريت يستيقظان مع أول بصيص من نور الفجر على صوت عشرة خنازير صغيرة • وكانت هذه الخنازير تسحب أى جورب تائه أو ردام داخلى تعثر عليه ، وتروح تجرى به فى حلقة مرحة . ثم ترمى لعبتها وتهرول عائدة الى العراء •

والذئاب هى العدو الاول لقطيع الخنازير الناشىء ، وقد دربت دنيس نتاجها على أن تتجمد كطير السمان عند أية علامة من علامات الخطر • وقد أراد جيم ذات مرة أن يختبر قدرتها هذه ، فالتقط خنزيرا صغيرا ، وهو فى مثل هذا الموقف ، فظل الحيوان الصغير جامدا كالتمثال ، وعندما أطلقه جيم ثانية على الارض ، لم يسترخ الخنزير حتى أطلقت أمه صفارة الامان •• !

وقد علمت دنيس أطفالها أيضا كيف تطارد الذئب ، فاذا تسلل أى ذئب الى مكان طعامها ، تركته الخنازير حتى يقترب الى أن يصبح على مسافة ٣٠ قدما ثم تهجم عليه وتطارده الى الغابة •

ومن العجيب حقا أن الدببة قلما تزعج الخنازير . بل انها كثيرا ما تأكل جنبا الى جنب معها ، ويرى جيم أن التعليل الوحيد لذلك يكمن فى الحقيقة القائلة أن كلا من الدب والخنزير البرى يشمان غالبا نفس الرائحة ، فضلا عن أن بصر الدب ليس حادا ، ولكن اذا حدث أن تذوق الدب مرة طعم خنزير ، فسوف تنتهى هذه الهدنة بينهما ، ولن يكون أمام جيم يومئذ الا التخلص من هذا الدب قبل أن

يكشف الآخرون سره

نوم طويل مضطرب

وقد تبين لجيم أن ذكور الدببة لا تلقى بالا الى ما هو مدون فى كتب الطبيعة ، فهى قد تنام أو لا تنام خلال الشتاء كما تشاء وكما تستدعى حالة الجو ، فان شعاعا من شمس الشتاء الساطعة قد تجعل الذكور تنطلق أحيانا الى الخارج لتتجول ، وقد تتوقف من وقت لآخر لتنال إغفاءة مؤقتة لمدة أسبوع أو أسبوعين ، ثم تنهض مرة أخرى وتطوف بضعة أيام ، وان كان لا يبدو عليها الجوع خلال هذه الجولات الشتائية .

أما الاناث ، فتبدأ اعتكافها فى أواخر أكتوبر ، وتختفى عادة عن الانظار فى أواخر نوفمبر ، حيث تكون اما فى حالة حمل للصغار التى ستولد خلال فترة نوم الشتاء ، أو تصحب معها أطفالها التى لا تزيد أعمارها على سنة ، وتظل معتكفة حتى الربيع .

وتنجب الدببة صغارها مرة كل عامين ، بعد فترة حمل تدوم عشرة أشهر ، ولا تنجب الانثى الشابة عند حملها لاول مرة غير دب واحد ، ثم يأتى حملها الثانى عادة بتوأمين ، وبعد ذلك قد ينجب كثير منها ثلاثة صغار كل عامين . وتولد الصغار عمياء لا تبصر ، ضئيلة الحجم لا حول لها ولا قوة ، تتراوح زنتها بين رطل ونصف ورطلين ، وفى خلال فصلى الصيف والشتاء الاولين ، تحتفظ بها الأم معها دائما ، وعندما يحل الصيف التالى ، تظل الصغار تتبع آثارها أيضا ، وان كانت الأم تحرص على أن تبتعد عنها مسافة كافية لتدريبها ، ثم تصبح مشكلتها هى التخلص من صغارها التى تبلغ أعمارها السنتين ، قبل أن تعتكف خلال الشتاء التالى .

ومنظر الأم وهى تحاول ان تفطم صغارها ممتع ومثير للشفقة فى وقت واحد ، فانثى الدب تتبع وسائل مباشرة تؤدى الى الهدف فورا ، فعندما تهرول الصغار الى الأم الحامل ، تواجه بصفعة على الوجه ، وقد ترسل الضربة الواحدة الطفل غير المرغوب فيه مسافة تتراوح بين ٣٠ و ٤٠ قدما وهو يعوى بصورة تدعو للاشفاق .

وقد رأى جيم ولوريت الخدعة التى تلجأ اليها الأم للتخلص من صغارها التى تتبعها ، اذ تعدو نحو النهر وتقفز اليه وتسبح حوالى نصف ميل ، ثم تقفز خارجة من الماء ، وتجرى على ضفة النهر وتعود الى السباحة مرة أخرى مبتعدة عن صغارها ، وبعد

تكرار مثل هذا الهجر الواضح عدة أيام ، تنطلق الصغار باكية الى السهول ، ثم تهدأ وتبدأ فى التفكير فى وسيلة لحماية نفسها ..

تدريب الربيع

عندما يظهر الدب البالغ فى الربيع يكون مرتديا نفس المعطف الثقيل الذى اختفى به فى الشتاء ، وهو يأكل قليلا خلال الاسبوع أو الاسبوعين الاولين ، ويظل يحوم حول عرينه للتخلص من هذا الفراء الشتوى الخشن ، وعندما يعثر على شجرة مناسبة ، يظل يحك نفسه فيها حتى يدمى ، ثم يفرك نفسه فى القار ليتخلص من فرائه ، وبعد أسبوعين من هذا العمل يصبح الدب فى حالة يرثى لها ، وقد تشعث شعره ، وامتلأ عنقه بالقروح والجروح ، وكان هناك دب يبدو فى السهول أمام آل ستانتون كل عام وقد مزق كل أثر للشعر فى جسمه ماعدا جزءا يشبه عرف الاسد حول عنقه وكانا يدهشان كيف يقف هذا المكسيكى الاقرع ـ كما كانا يسميانه ـ ليرعى أمام أنظار بقية الدببة دون أن يحيرها .

ولا تعود للدب شهيته الا بعد أن يعد جسمه للعدو بتحريك سيقانه الى أعلى وأسفل وتزيد شهيته يوما بعد يوم خلال الصيف ، فهو يبدأ طعامه ببعض الحشائش والكرنب والظربان . وعندما يحين منتصف مايو ، يبدأ فى الحفر بحثا عن جذور نبات الراوند البرى ، ولا يهتم الدب باللحوم خلال هذه الفترة . ولكن عندما ينتصف يوليو ويقترب موسمه الذى يصيد فيه السمك ، يصبح شرها لأكل اللحوم ، وقد يأكل أية جيفة يمكن أن يجدها .

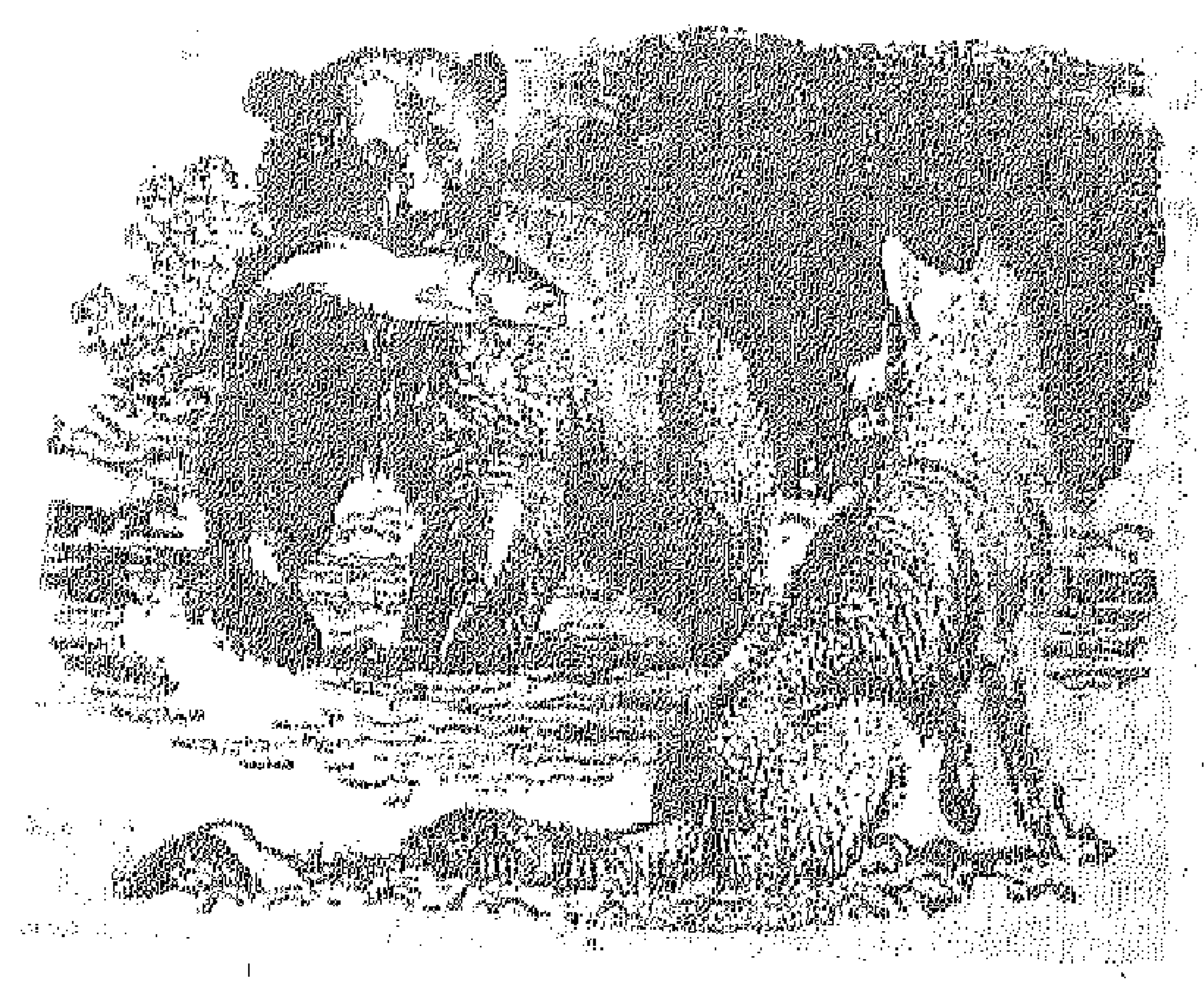
واذا أحب الدب نوعا خاصا من الغذاء ، أصبح شاغله الوحيد ، وقد تسلل جيم ذات مرة عندما سمع دبا يحدث ضجيجا عنيفا فى الغابة ، فوجد الحيوان وهو يدور الى جوار بعض الصخور الضخمة ثم يقذف بها على سفح الجبل ، محاولا أن يملأ فمه بالفيران الصغيرة التى كانت مختبئة تحتها .

وعندما يصل سمك (السالمون) تشرع الدببة فى علاجها الاكبر لمعدتها ، ويمسك الدب فريسته بفمه ، على عكس الصور الشائعة التى تظهره واقفا وسط الماء وهو يلتقط السمك بمخالبه .

حمامات عامة ... وفراش للنهار !

واذا سمحت الظروف ، بنى الدب لنفسه حوضا للاستحمام فى كل ميل

أو نحو ذلك على طول الطريق ، وهو عبارة عن فجوة محفورة في الارض الرطبة بين جذور الاشجار ، يملؤها بالماء والطين ويزحف الدب الى هذه (الحمامات العامة) عندما يكون سائرا خلال الصيف ، حيث يغوص قليلا ، ثم يخرج لينطلق فى طريقه الى الحمام التالى ، كما تحتفظ الدببة البالغة بأسرة تنام فيها خلال النهار على طول الطريق أيضا •



وقد أحصى جيم ذات صيف ٤٣ مكانا للنوم على طول أربعة أميال من النهر مما جعله يعتقد أن هذا معناه أن لكل دب عدة أسرة ، وتقيم الدببة فراشها بطريقة تتيح لها أن ترى سفح الجبل •

والحيوان الوحيد الذى يخافه الدب فى هذه المنطقة هو الذئب الذى قد يبلغ وزنه ١١٠ أرطال ، فعندما ينطلق الكلب مع أنثى الذئب للصيد معا ، يقومان بمطاردة الدبة ذات الاطفال فيتسللان وراء أطفالها التى تتبعها وهى تنطلق عادة فى طريقها تاركة أطفالها الجرحى خلفها ••

وخوف الدب من الذئب شديد ، حتى أن الكلب الضئيل الحجم يستطيع أن يضطر الدب المارد الى الجرى امامه بضعة أقدام على الاقل ، ولكنه لا يلبث أن يستدير ليهجم بدوره ، وان كان الخوف الفطرى من الذئب يجعله يهرب مرتعبا فى أول الامر بغير سبب معقول •

ويظل الدب محتفظا بخوفه من الذئاب حتى يبلغ السابعة أو الثامنة من عمره ، ثم ينعكس الموقف فاذا بالدب الكبير الحجم يصحبه غالبا ذئب عجوز للحراسة ، فيستخدم الاثنان مواهبهما المشتركة للعمل معا للحصول على الطعام والامن • ولما كان الدب يصطاد السمك أحسن من الذئب ، فهو يدفع أجر حراسته سمكا طازجا ، بينما الذئب بما له من حاسة شم قوية يستطيع دائما أن يكشف عن وجود الانسان قبل الدب ، وهو يسير فى الامام ليكشف الطريق لصديقه الدب •

مطعم مجانى وسط الادغال

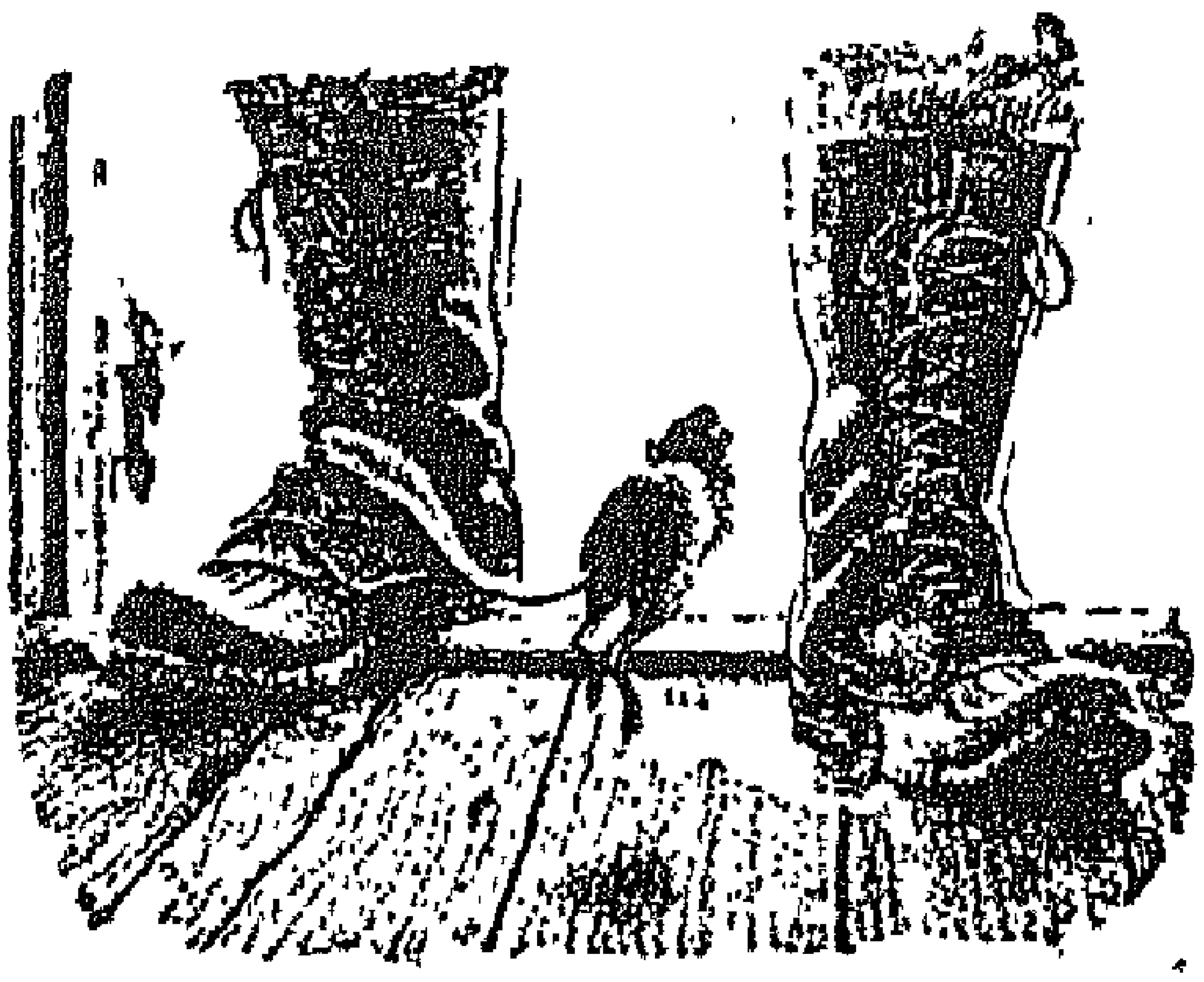
يعتقد آل ستانتون أنهما قاما

باطعام كل طيور وحيوانات الغابة خلال السنوات التى أمضياها هناك ، ما عدا فصيلة الذئاب ، بل لقد قدما الطعام لذئب عجوز لا أسنان له ، بلغ من الكبر عتيا فلم يستطع الصيد وجاء اليهما متسولا .

ومنذ حوالى خمس سنوات — وكان الشتاء بالغ القسوة — أخذ آل ستانتون على عاتقهما اطعام الغزلان التى تجمد طعامها ، وعندما تبين للوريت أن الغزلان لا تأكل الحبوب والغلال النيئة ، أخذت تعد لها خبزا خاصا مصنوعا من النخالة ، والقرطم المسحوق واللبن ودقيق القمح المخلوط بالماء ، وكانت هذه (الطبخة) التى تقدم للغزلان والسنجاب والطيور والحيوانات ذات الفراء هى الوجبة الفاخرة لآل ستانتون ، وكان اعدادها يكلفهم كل موسم مبلغا يتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ دولار .

ويهز جيم رأسه وهو يتحدث عن زوجته قائلا : « يا لها من امرأة ... تصور أنها تعيش بلا هدايا فى الاعياد أو نزهات فى المدينة ، ولا تحصل على ثياب جديدة فى الربيع ... وكل ما يهمها هو الحصول على غذاء أكثر لحيواناتها الاليفة المحبوبة » .

وفى الشتاء الماضى ، عندما بلغ



ارتفاع الجليد فى البوغاز أكثر من ٤٠٠ بوصة ، انتفع ٢٣ غزالا من مطعم (آل ستانتون) المجاني ، ولم تحاول لوريت أن تحتفظ بشىء منها ، وهى تقول إن من السهل عليها الاحتفاظ بأحد الغزلان ، ولكنها لا تريد أن تعودها الاعتماد عليها حتى اذا حدث لها شىء ما ، فقد تذهب الى غيرها فيطلق عليها النار .

وكان آل ستانتون يسمحان لنفسيهما كل موسم بلحوم غزالين فقط . وكان جيم يتوغل حوالى عشرة أميال داخل الغابة ليحصل على غزال غريب بدلا من أن يصيد غزالا من التى تقف فى ساحة منزله خوفا من تقريع زوجته لوريت .

وقد أعدت لوريت صندوقا للطعام عند بابها الامامى لحيوان (الراكون) وحدث ذات ليلة بينما كان جيم فى الخارج مع أحد الصيادين ، أن سمعت

لوريت صوت هرج فى الخارج يشبه صوت دب منزعج ، فانطلقت لتكشف الامر ، فوجدت حيوانا من نوع الراكون مع زوجته وأطفاله الاربعة جالسة فوق الكوخ فى انتظار وجبة الصباح •

وحتى فيران الغابة كانت تحظى باهتمام خاص من هذه السيدة الرحيمة ، وقد حدث ان اختار فأر فقد بعض ذيله ، الاقامة لدى آل ستانتون مما أزعج لوريت الحريصة على اناقة منزلها ، ولكنها لم تقتل الفأر ، بل وضعته معزوجها فى صندوق للاحذية ومعه مؤونة أسبوع من الطعام ، وانطلقا بهمسافة خمسة أميال بعيدا عن البوغاز حيث تركاه هناك ••• ولكنهما بعد أن عادا الى المنزل وجدا الفأر فى انتظارهما ، فتركاه •

وكان جيم يشاطر لوريت شعور التسامح حيال مخلوقات الغابة ، فقد حدث ذات خريف عندما ذهب الى أحد الاكواخ التى يضع فيها شباكه ، ان وجدها مليئة بأسرة من الفيران النطاطة ، وهى مخلوقات صغيرة ذات لون بنى وصدر أبيض ولها أرجل خلفية تشبه أرجل القنفر ، فأطعمها جيم ثم زحف الى الكيس الذى ينام فيه ، ولكن فأرا تحفز لان يتخذ من شعر رأسه عشا ، فدفعه جيم بعيدا ، ولكن الفأر عاد ورقد بكل بساطة فوق رأس جيم •

وعندما عاد جيم الى الكوخ بعد أسبوع ، كان الفأر فى انتظاره ، ورجع بعد عشرة أيام ، فاذا بالفأر يقفز اليه ليرحب بقدومه ، وظل هذا الفأر ثلاثة مواسم شتائية يعيش فى الكوخ ويحيى جيم فى كل مرة يمر فيها هناك •

ولما كان آل ستانتون هما الوحيدين اللذين يقيمان اقامة دائمة فى هذه المنطقة منذ سنوات ، فقد كانا عادة مصدرا لتموين الناس والحيوانات على السواء ، وقد حدث مرة خلال سنواتهما الاولى فى المنطقة أن تركا كوخهما وذهبا لاستكشاف أرض جديدة تصلح لنصب الشباك ، وعندما رجعا وجدا قاربا غريبا يرسو على مقربة من الكوخ وبه زوجان من الهنود الحمر • فاستولى عليهما القلق نظرا لقلة خبرتهما بالهنود الذين يأتون فى كل موسم لصيد السمك ونشر الشباك •

وزاد هذا القلق عندما قدم الرجل نفسه اليهما قائلا انه يدعى (تشيكى جو) وهو اسم شخص هندى سمعا

من قبل أنه على استعداد لسرقة أى شيء تصل اليه يداه .

ودعا جيم الهندى وزوجته لتناول الشاى داخل الكوخ ، وقد لاحظت لوريت أن حديقتها التى كانت زاخرة بخضر آخر الخريف لم تمسسها يد ، كما أن أحدا لم يدخل الكوخ ، فأسرعت تشعل النار . وفى أثناء تناول أقداح الشاى الساخن وأكل الشطائر ، سرد عليهما تشيكى قصته ، فقال : انه فقد منزله فى حريق شب منذ بضعة أيام عندما كان فى الخارج مع زوجته فى قاربهما ، وانه لم يبق لهما شيء الا الملابس التى يرتديانها .

وسأل الهندى جيم عما اذا كان يستطيع أن يبيعهما بعض الدقيق واللفت ، فقال جيم : كلا

وبينما بدت الخيبة على وجه الهندى ، أردف جيم قائلا بهدوء :

ـ بل سأعطيها لك هدية .

وعندئذ ملأت البسمة وجه تشيكى جو وهو يفغر فمه فى دهشة بالغة .

وحدث مرة أخرى خلال شتاء قارس ان أصبح كوخ آل ستانتون بمثابة محطة اغاثة للطوارىء لثلاث عائلات هندية ، فوجئت بالثلوج المبكرة ، وكانت الجماعة تضم ستة من الكبار وعددا كبيرا من الاطفال ، ورضيعا فى الشهر الخامس من عمره ، وقد قدمت لوريت لبنا محفوظا للرضيع ، وأعدت الدقيق والبطاطس والسكر والشاى والفول والأرز للباقين .

جداول المد والجزر

وعندما أدرك جيم ولوريت منذ ١٥ عاما أنهما لن يرحلا عن الغابة التى أحباها ، أقاما لنفسيهما منزلا خشبيا مريحا بمساعدة فتى كان يقيم معهما فى تلك الاثناء . وكانت مساحته من الداخل تبلغ عشرين قدما فى أربعين ، وقد طليت الكتل الخشبية من الداخل بالورنيش ، ومن الخارج دهنت بطلاء أخضر فى لون الغابة . ولم يكن فى المنزل كهرباء أو مواسير ماء ، ولكنه يدفأ بالنار التى ينتجها الحطب فى الموقد الصخرى الضخم الذى وضع جيم تصميمه وبناه بنفسه .

وتصل آخر باخرة تحمل البريد والمؤن الى البوغاز حوالى أول ديسمبر ، ولا تعود الا فى أواخر مارس ، ووسيلة آل ستانتون الوحيدة للمواصلات هى قاربهما البخارى وزورقهما ذو المجدافين حيث يستخدمانهما لتبادل الزيارات مع حفنة من سكان الاكواخ الخشبية

وليس لديهما تليفون ، وحياتهما الاجتماعية يحكمها جدول المد الذى علقاه على شص فى قاعة المطبخ •

ولا يغادر آل ستانتون المنطقة الا مرة كل عام ، عندما يأخذان الباخرة الى(خليج اليرت) لاجراء فحص طبى• ولما كان عليها تمضية الليل هناك ، فهما يستأجران غرفة فى فندق ليتمتعا بالكماليات التى يفتقدانها أكثر من غيرها كالماء الساخن واللبن الطازج ، وبعد عدد من الحمامات ، يقومان بجولة فى المطاعم يحتسيان خلالها أكوابا كثيرة من اللبن

ولكن حياة المدينة لم تعد تغريهما بالعودة • وتقول لوريت أنها لم تشعر بالملل الا مرتين : احداهما عندما أطلق أحد حطابى الغابة النار طيلة الليل ، والاخرى عندما ذهبت الى السينما مع زوجها أثناء وجودهما فى المدينة •

وتسلية الزوجين الوحيدة ، بعد دراسة جيرانهما من الحيوانات والضيافة الكريمة لكل المخلوقات البشرية ، هى القراءة ، فهما يأمران طوال الصيف باحضار الصحف والكتب ، ليحتفظا بها لليالى الشتاء الطويلة •

ويقول جيم وفى عينيه بريق « ساحصل على بذلة جديدة ذات يوم، وأخرج لارى كيف أصبح شكل العالم اليوم » •

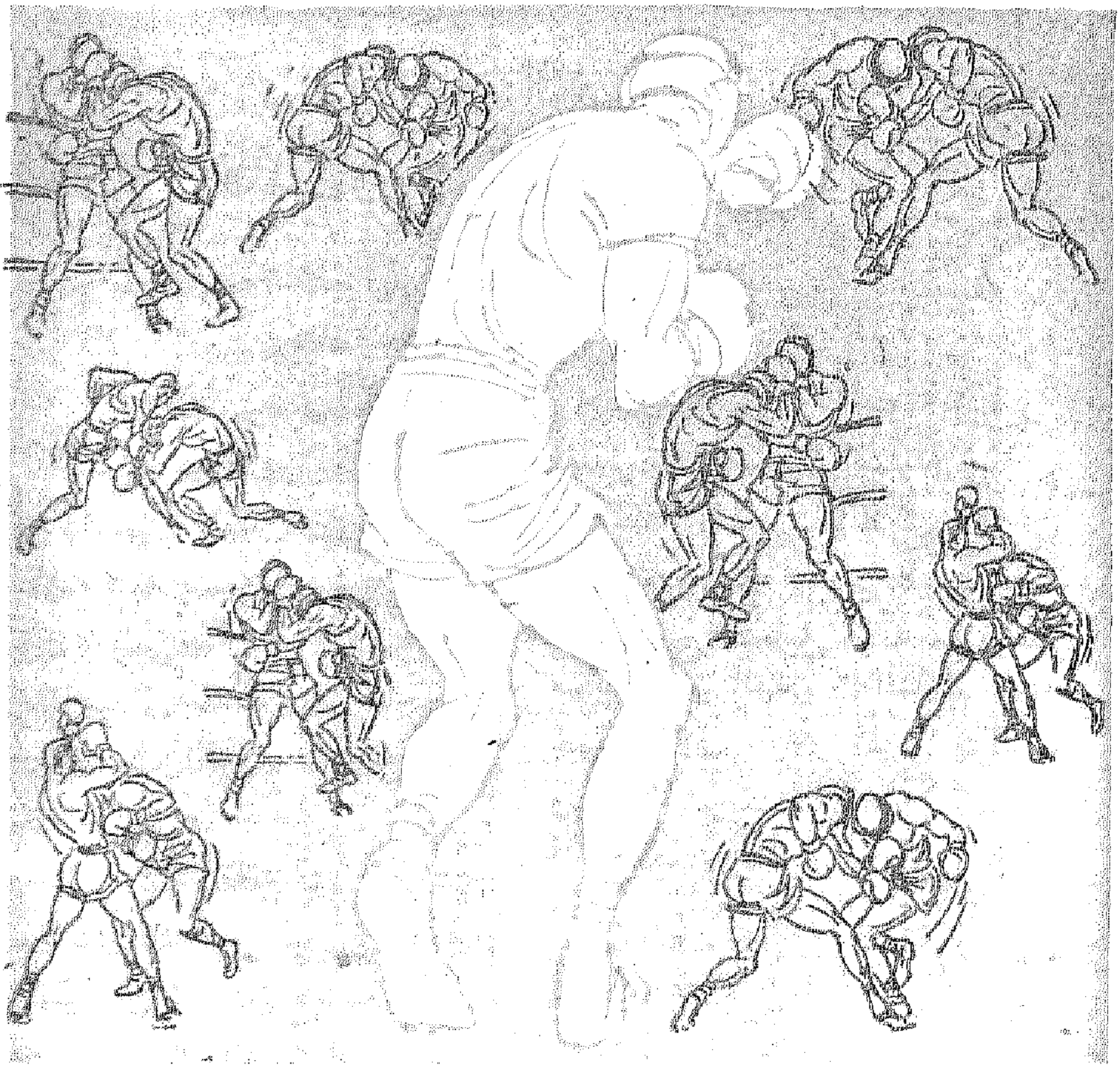
ولكنى أشك فى ذلك ما دام الدب الاشهب الكبير لا يزال يطوف بأنحاء الغابة مع الطيور والغزلان وغيرها من الحيوانات •

جواب اختبر ذكاءك

١ -

٨٨٨
٨٨
٨
٨
٨
١٠٠٠

٢ ـ ثلاث بوصات ، لان نصف قطر الاسطوانة ٦ بوصات • فاذا كانت الابرة تترك بوصه عند الهامش وبوصتين اخريين هما نصف قطر المنطقة المركزية ، يكون الباقى ثلاث بوصات • مع العلم بان الاسطوانة هى التى تدور حول الابرة وليست الابرة هى التى تدور حول الاسطوانة ، اى ان الابرة تقطع فى حركتها نصف القطر فقط • ومع العلم كذلك بان عدد مجارى الابرة فى كل بوصة لاقيمة له فى حل المشكلة •



قتلت رجلاً .. قتلة بغير سبب

كتاب الشهر : THE HARDER THEY FALL

انها قصة شمشون جديد ، وهبته الطبيعة جسما جبارا وقوة خارقة ، وجد نفسه فجأة أسير قوم لا هم لهم الا استغلال هذا الجسم ، يتلمسون المال من كل طريق على حساب سذاجته وطيبته ، فاشركوه دون ان يدرى فى مؤامرات ومناورات ، وجعلوا منه بطلا فى حلقات الملاكمة ليربحوا من ورائه الملايين ثم نبذوه نبذ النواة ، بعد أن حققوا هدفهم وتركوه يائسا محطما خالى الوفاض ..

انها قصة المجد الزائف ، الذى يصنعه بعض الناس فى سبيل مصالحهم الخاصة وقد وجدت هوليوود فى تلك القصة الواقعية المثيرة مادة طيبة لفيلم كبير أنتجته أخيرا باسم « هزيمة الاشداء »

هل الملاكمة عمل مشروع أوانها لاتعدو أن تكون قسوة مثيرة .. وجرائم شروع فى قتل متعمد لارضاء حب العنف (السادية) فى الجماهير ؟



قتلت رجلاً.. قتلته بغير سبب



ملخصة عن رواية بقلم « بودشولبرج »

كانت أول مـــرة سمعت فيهـا عن « تورو مولينا » ، عندما دعاني رئيسى (لاتكا) إلى مكتبه .. لم يكن مكتبه يشبه فى شىء المكاتب المعهودة لمنظمى مباريات الملاكمة ، بل كان أقرب الى مكتب رجل ناجح من رجال الاعمال الذين لهم ولع خاص بأعمال الملاكمة .

وحيانى لاتكا قائلا :

ـ عندي لك عمل كبير يا (أدى) .. أنس كل شىء عن «جاس لينرت» وبقية الصعاليك الذين لدينـــا فى الحظيرة ، فقد عثرت على شىء أفضل ، عثرت على (تورو مولينا) ..

فقلت فى دهشة :

ـ ولكنى لم أسمع قط عن تورو مولينا هذا !!

ـ ولم يسمع أحد بعـد عن تورو مولينا ، ولهذا دعوتك لكى تجعـــل كل انسان يسمع عن تورو مولينا

ـ ولكن من أين جئت بهذا المولينا .. من الذى باعك اياه ؟

ـ فينس فانيمان !!

ـ أنت تعرف ما يقوله الناس عن فينس وعن سمعته السيئة ؟

ولكنه قاطعنى قائلا :

ـ اســـمع .. فى اليـــوم الذى لا أستطيع التعامل فيــه مع فينس ، سأتخلى عن العمل . اننا لم نعطه غير خمسة آلاف دولار مقابل مولينـــا ، وسيظل شريكا لنا مقابل خمسة فى المائة من الارباح ، أما القزم الضئيل القادم من أمريكا الجنـــوبية ويدعى « أكوســـتا » فهـــو الذى أحضر مولينا وسيعطيه فينس ٢٥٠٠ دولار و ٥ ٪ أيضا ..

ولكن لم كل هذه المتـــاعب ؟ بم يمتاز مولينا هذا ؟

ـ انه يمتاز بأنه أضخم من صعد الى حلقة الملاكمة ، فطوله ستة أقدام وسبع بوصات ووزنه ٢٨٥ رطلا ..

ـ ولكنها قد تكون ٢٨٥ رطلا تافهة؟

فقال لاتكا :

ـ انك تسخر منى الآن ، ولكننى أستطيع أن أسير فى الجحيم خيرا منك رغم أننى لم أذهب الى الجامعة . أننى

سأعطيك أجرك الاسبوعي وفوق ذلك سأعطيك ٥٪ فى النهاية ، فاذا بلغت أرباحنا فى العام الاول ٢٠٠ ألف دولار فستحصل على ثروة صغيرة .

وفكرت فى هذا العرض ، لقد كنت أحلم دائما بالحصول على خمسة آلاف دولار لأتخلى عن عملى ، وابتاع كوخا صغيرا فى مكان ما فوق الجبال حيث أتفرغ للكتابة ، ولا شك أن ٥ ٪ من ٢٠٠ ألف دولار ستكفل لى الحصول على أكثر مما أطلب .

***

وفى اليوم التالى توجهت الى منزل (لاتكا) الريفى ، وقد ابتاعه من مليونير أصاب فشلا فى زواجه فتخلص منه بخمسين ألف دولار مع انه يساوى أضعاف ذلك والتقيت فى الحديقة « بدانى ماك كيوه » ، وهو شخص نحيل متوسط العمر ، أشيب الشعر ، كان يوما من ملاكمى الوزن الخفيف ، حتى هزمه ليونارد فى الجولة الاولى ، فأصبح الآن مدربا لملاكمى لاتكا ، وهو فى الواقع أفضلهم

ثم خرج لاتكا لمقابلتى ، ثم ألقى يده على كتفى قائلا :

ـ هيا بنا الى الداخل فان أكوستا هنا .

وعبرنا غرفة الجلوس الرحبة الى ممشى تسطع فيه أشعة الشمس .

وعندما رآنا ذلك المنظم الارجنتينى الضئيل الحجم ، نهض سريعا على قدميه فى ثبات وقد افترت شفتاه عن بسمة مصطنعة ..

وقال أكوستا بعد أن غادرنا لاتكا :

ـ ان للمستر لاتكا رأسا صالحا جدا للعمل وعندما جئت أنا وتورو الى أمريكا الشمالية لم نكن نحلم بأن نحصل على شريك مثل هذا الرجل العظيم .

فقلت له : عليك أن تسمعنى كل شىء منذ البداية . من أين أتى هذا الملاكم وكيف عثرت عليه .. ومتى بدأ الملاكمة ؟

فقال أكوستا :

ـ منذ عامين ، كان لدى سيرك صغير متجول ، وفى ذات يوم مررنا بقرية جبلية صغيرة فى الارجنتين تسمى (سانتا ماريا) .. وسار كل شىء على ما يرام حتى المشهد الاخير وهو مشهد «الفريدو »الرجل القوى»

كان الفريدو يتحدى فى هذا المشهد أى ثلاثة من المتفرجين بأنه يستطيع أن يرفع بمفرده أقصى ما يمكنهم رفعه معا على خشبة المسرح ، وفى تلك المرة رأيت أضخم رجال شاهدتهم عيناى وهم يرفعون أضخم برميل

من النبيذ !

وسألت عنهم ، فقيل لى أنهم آل مولينا ، وان أكبرهم سنا ويدعى ماريو يعمل صانعا للبراميل فى القرية ، أما الاثنان الآخران فهما ولداه .

وكان على ألفريدو بعد ذلك أن يرفع بمفرده برميل النبيذ الضخم ، فاذا فشل ، كان على أن أدفع لكل واحد من الرجال الثلاثة مبلغ بيزو واحد..واذا - لا قدر الله - استطاع أحد المتفرجين رفعه ، دفعت له خمسة بيزو .

ووضع ألفريدو المسكين ذراعيه حول البرميل ، وحاول عبثا ان يرفعه وتلاحقت انفاسه ، وتفصد العرق من جسمه ، دون جدوى !

وتصاعدت الصيحات من الحاضرين جميعا : نريد تورو ، نريد تورو .

وفجأة نهض من بين الجموع عملاق ضخم ، وصعد على المسرح ، ثم رفع البرميل فوق رأسه بكل سهولة .

وسألته مرة أخرى : من يكون هذا الشاب ؟

فقالوا انه أصغر أبناء ماريو مولينا، وأقوى رجل فى الارجنتين .

وعندما دفعت لهذا العملاق مبلغ الخمسة بيزو ، قلت له :

- مارأيك فى أن تأتى معى وتأخذ مكان (الرجل القوى) فى السيرك . ستنال نقودا كثيرة وترى مدنا كبيرة جميلة !

ولكنهقال : انهلايريدمفارقة أهله فسألته كم ينال أجرا على عمله ؟ فقال انه يحصل على اثنينمن البيزات فى اليوم .. فقلت :

- اثنين فقط .. انك ستحصل من لويس أكوستا على خمسة .. وعندما نعرض أعمالنا فى المدن الكبرى ، ستحصل على عشرة وربما خمسة عشر فى اليوم ، وستعود الى سانتا ماريا وتتزوج أجمل فتاة فى القرية

فقال لى : هل تعنى كارميليتا بيريز ؟

وعرفت أننى وقعتأخيرا على الوتر الحساس ، فضربت عليه قائلا :

- بكل تأكيد أعنى كارميليتا ، ستعود ومعك من المال ما يكفى لبناء منزل لك .. أنت وكارميليتا .

ونظر الى تورو طويلا ، وكنت أرى كيف تعمل كلماتى فى رأسه ، ثم قال أخيرا .

- سأطلب الاذن من أبى أولا .

وهكذا غادر تورو مولينا قرية سانتا ماريا معى .

واستطرد لويس أكوستا يقول :
لقد أحـرزنا نجاحا فى كل مكان ذهبنا اليه ، فان الناس لم يسبق أن شاهدوا مثل هـذه الضخامة وتلك العضلات الهائلة ٠

وفى بلدة منـدوزا ، اتفقت مع صديقى الطبيب لوبه موراليز على أن يعلم تورو فن الملاكمة مقـابل ٥ ٪ من أرباحه ، وعندما أخبرت تورو بذلك لم يعجبه الامر ، وسألنى : لماذا يجب أن يضرب انسانا ويتلقى ضرباته مع أنهما ليسا متخاصمين ٠ فأفهمته أن الملاكمة عمـل مربح ، وانه ليس من الضرورى أن يكون خصما لمن يلاكمه

وقلت له انه سيربح كثيرا ، ويبنى منزلا كبيرا لأبيه ، ويستأجر خادمة لكارميليتا فاقتنع أخيرا ٠

ومضى أكوستا يقـول ان موراليز درب تورو على ما يعرفه من الملاكمة ــ وهو قليل ــ ثم نظم له مبـاراة فى بيونس ايرس يتلاكم فيها مع لويس فيربو الملاكم المعروف وعنـدما انتهى العرض ، قال فيربو للصحفيين أن تورو أقوى من جاك دمبسى !

وهكذا أحرز تورو بعض الشهرة ، فأقنعته بالحضـور معى الى أمريـكا الشمالية ٠ وسألت أكوستا عما اذا كان لديه شيء آخر يريد أن يقوله ، فقال لى :

ــ هناك مسألة شخصية صغيرة ٠٠ هى مسألة النسبة المئـوية ، فعندما حضرنا الى أمريكا وجدت أبواب مهنة الملاكمة مغلقة فى وجهى تماما ، وكان لابد من العثور على شريك ، وهكذا قابلت مستر فاتيمان فى الملعب ، وظننت أنه منظم كبير ، ولهذا بعته ٥٠ ٪ من عقد تورو مقابل ٢٥٠٠ دولار ، ولكن بعد أسبوع فوجئت عندما وجدت أنه باع ٤٠ ٪ من نصيبه للمستر لاتكا مقابل ٣٥٠٠ دولار ٠ ثم طلب منى لاتـكا أن أبيعه ٤٠ ٪ أخرى مقابل ٣٥٠٠ دولار لانه الوحيد الذى يستطيع أن يظهر تورو ويصل به الى أعظم الملاعب ٠ وفهمت أننى اذا لم أقبل ما عرضـه على ، فلا بد أن أعود من حيث أتيت ٠ وهكذا ترى أننى رغـم كل ما فعلت لم يترك لى الا عشرة فى المـائة فقط ٠٠ سأدفع نصفها الى لوبه موراليز ! فهل أستطيع أن أرجوك أن تطلب من مستر لاتكا أن يزيد نصيبى قليلا ٠

***

عندما تقع أنظارك على تورو مولينا لأول مرة ، تجد نفسك مضطرا الى النظر اليه على عدة دفعات ومن عدة زوايا ، نظرا لضخامة حجمه العجيب

كان العملاق يتحرك كأنه حيوان كبير فى الحقل ، مجرد ثور أو حصان

أفلت مقوده فجأة ، فسار الى منزل ، ولكنه عندما شاهد أكوستا بدا عليه الارتياح ..

وطلب اليه أكوستا أن يصافحني، فتردد برهة ، ثم أذعن .

وصحبني لاتكا خارج الغرفة وسألني عن رأيي فيه ، وقال مازحا :

ـ ألا ترى أننا نستطيع أن نؤجره بالطابق كما يفعلون في ناطحات السحاب؟هل أوحى اليك أكوستا بشيء؟

فقلت : ان الطريقة التي عثر عليه بها مشوقة للغاية . وانني اقترح أن نطلق عليه لقب «عملاق الانديز »

فقال لاتكا : « عملاق الانديز » لا بأس بهذا الاسم ، انني أتوقع أن يدر علينا مالا كثيرا ! .

وفي ملعب ستيلمان ، حيث يتدرب أكثر الملاكمين الذين يلعبون في نيويورك ، دبر « داني ماك كيو » ملاكمة تدريبية بين تورو وجورج بلونت ، وكان جورج ملاكما جيدا ، ولكنه أصبح الآن مجرد شريك في التدريب ، يعرض وجهه وجسمه الاسود اللامع للضرب العنيف مقابل خمسة دولارات للجولة .

وصعد تورو الى الحلقة ، فاذا به يلفت أنظار الجميع بجسمه الضخم وقامته العملاقة ، وعنقه الطويل الكثير العضلات ، ولكن هذه الملاكمة الودية كشفت أن تورو لم يعرف بعد شيئا من فن الملاكمة الحقيقية ، فقد كان جاهلا لأصولها وفنونها .

وسألت جورج بعد المباراة عن رأيه في تورو . فقال انه مخلوق ضخم الجثة ولكنه لايستطيع أن يهزم أحدا.

***

وفي تلك الليلة أخبرت لاتكا عن المهزلة التي شاهدتها في الملعب وقلت ان كل ما لدى تورو من عضلات كبيرة رائعة لا تمكنه من أن يضرب بقوة تكفي لكسر بيضة ، وان أي ملاكم محترف يستطيع أن يقتله ، حتى ليترت العجوز ! ولكن لاتكا لم يتأثر بكلامي ، بل قال :

ـ عليك أن تستمر في دعاياتك له ، وسترى ماذا سأفعل به .

وعرضت على لاتكا أن يبحث عن مكان لتدريب مولينا بعيدا عن الاعين حتى لا ينكشف أمره أمام بقية المشاهدين في ملعب ستيلمان ، فوافق .

وبعد بضعة أيام ، أخذنا القطار الى كاليفورنيا

كان أهدأ شخص بيننا هو تورو، الذي جلس أمام النافذة صامتا يحدق في مناظر الريف المتشابهة

دون أن ينبس ببنت شفة .

وعندما وقف القطار في المحطة ، كان المصورون في انتظارنا ، اذ كنت قد بعثت للصحف المحلية برقيات عن موعد وصول عملاق الانديز ، فالتقط له مصوروها صورا كثيرة مختلفة تكشف عن ضخامة حجمه .

وأعددت حملة دعاية كبرى لتورو مولينا في كاليفورنيا ، واتفقت مع متجر كبير على اعداد الثياب اللازمة لتورو ، كما اتفقت مع متجر آخر على اعداد فراش كبير الحجم لينام عليه مولينا في الفندق ، والتقطت له صورا وهو ينقل الى الفندق ، وتوجهت مع الصحفي المشهور (جوأوسوليفان) لتناول الغداء في مطعم ليمان ، وهناك أسررت اليه أنباء هامة : قلت له اننا نبحث عما اذا كان من الاوفق أن يبدأ تورو بملاكمة شتاين أم كومبز ، راعي البقر !.

وفي الصباح ظهر النبأ على رأس عمود في الصحيفة التي يحرر فيها أوسوليفان باعتباره نصرا صحفيا له!

وظل كتاب الرياضة يتناقشون طوال الاسبوع «شتاين أم كومبز» ! كومبز أم شتاين ؟ ... وبعد أن مضينا في ذلك شوطا بعيدا ، ظفرنا بعمودين كاملين في الصحيفة للاعلان بأن تورو مولينا عملاق الانديز ، البطل الذى لم يهزم في أمريكا الجنوبية ، قد اختار كومبزليكون أول من يلاكمه في أمريكا الشمالية .

ورغم كل هذه الدعاية ، فان تورو لم يتقدم قط في مجال التدريب ، بل ظل مجرد جسم ضخم على الحلقة ، يستطيع أصغر الملاكمين أن يصرعه في دقائق .!

وحاول أكوستا أن يتدخل في طريقة تدريب تورو مولينا ، ولكن داني نهره بشدة ، وطلب منه الخروج من الملعب وعدم التدخل مرة أخرى .

وجاءت ليلة المباراة

وظهر تورو ، وهو يرتدى ثوبا من الحرير الابيض ، وقد رسم عليه العلم الارجنتيني ، وعلى ظهره صورة لقمة جبل كتب عليها بحروف ذهبية « عملاق الانديز » ، وعندما وصل الى الحلقة ، لم يتسلق حبالها بالطريقة المعهودة ، بل رفع قدمه فخطا من فوقها .

وتمت المباراة كما كان متفقا عليه، اذ مثل كومبز دوره بمهارة ، وسقط في الجولة الثانية على أثر ضربة قوية من يد تورو ، ومع أن بعض المتفرجين لم تعجبهم هذه النهاية السريعة للمباراة وارتفعت صيحاتهم الا ان

بقية الجمهورفى مجموعة كانتمرتاحة لانها شاهدت هـذه الضربة القاضية الحاسمة .

وسمعت بعض أفراد الجمهور وهم يتحدثون فى سـذاجة وسرور عن عظمة تورو العملاق ، وقال أحـدهم أنك لا تستطيع أن تؤذيه ولو ضربته بمطرقة كبيرة

وفى غرفة الملابس ، هرع أكوستا نحوى وصاح وهو يطوقنى بذراعيه :

ـ لقد فاز .. لقد فاز !

وكان تورو هو الآخر مسرورا من نفسته ، وهو يكرر : لقد ضربتهضربة واحدة فاذا به يتهاوى صريعا !

وذهبنا الى مأدبة أقامهـا (بات دريك) النجم السينمائى الذى كان سائقا لاحدى السيارات ، وهنـاك شاهدنا مجموعة كبيرة من مشـاهير النجوم الذينالتفوا رجالا ونساء حول تورو كما يفعل هواة جمع التوقيعات!

ونظـر تورو حوله فى دهشـة وضيق .

ورأيت نجمةمشهورة تبتسم لتورو من فوق كأسها ، وقالت روبىزوجة لاتكا :

ـ هذه المرأة أكبر صائدة للرجال فى المدينة ، ومن الافضل أن أنقـذ تورو من بين يديهـا حتى لا يسقط ضحية لها .

وبعـد دقائق كان تورو يرقـص مع روبى .

ومررت بهمابعدقليل وهماجالسان على مقعد حجرىفىالحديقة ،وسمعته يضحك لشىء قالته روبى ، فخيل الى اننى لم أره يضحك من قبل .

***

فى الصباح التالى ، اسـتدعانى لاتكا لرؤيته ، كما استدعى أكوستا ايضا .

لقد قرر ان يتخلصمن هذا الرجل الذى كان يضايق دانى كثيرا .

وانحنى أكوستا وهو يلقى تحيـة من تحياته الزاخـرة بالملق ، ولكن لاتكا قاطعه فجأة وهو يسأل أحـد رجاله :

ـ هل عرفت موعد سـفر اول باخرة الى بيونس ايرس ؟

ـ مساء الخميس

فالتفت الى اكوستا وقال له :

ـ هذه هى السفينة التى سـتعود بك الى وطنك !

ونظر اليه اكوستا فى دهشة وهو لا يصدق ما يسمع .. ثم قال :

ـ كلا لن ارحل .. لقد جئت مـع مولينا وسأظل معه .. او يعود معى

فقال لاتكا بهدوء :

ـ لن يحدث هذا .. اننى املك

مولينا انا وجيمس كوين، فاذا اردت أن تأخذ الخمسة فى المائة معك فهذا شأنك ، ولكن الـ ٩٥ ٪ ستبقى معى

ـ ولكنه رجلى ٠٠ انه ملكى ٠

كان اكوستا يصيح وقد اندفعت دماء الغضب الى وجهه ٠٠ وزعق قائلا

ـ سأبقى هنا ٠٠ سأقاومك بكل وسيلة ٠٠ سأبحث لى عن محام ٠

فنظر اليه لاتكا بهدوء وقال :

ـ بل ستعود يوم الخميس ٠ ان تأشيرة الاقامة الخاصة بك تنتهى فى الاسبوع القادم ٠ ولن تستطيع ان تحصل على امتداد لها لاننا لا نريدك معنا ٠ اما مولينا فقد حصلنا له على امتداد الاقامة ٠

وبعد برهة قال لاتكا :

ـ ساعطيك ٥٠٠٠ دولار مقدما مقابل حصتك ، على أن تنال المبلغ نقدا على ظهر الباخرة ، على شريطة ان تقنع مولينا بالبقاء هنا ٠ فما رأيك ؟

ويبدو ان مسألة تأشيرة الاقامة قد سلبته القدرة على الكفاح ، وآمن أكوستا بالهزيمة فطأطأ رأسه فى اذعان

***

وفى يوم الجمعة توجهنا بالقطار الى سان دييجو ، حيث كان على تورو مولينا أن يلعب المباراة الثانية مع ملاكم من الوزن الثقيل يسمى (جونسن

النمر ، استحضره فينس فانيمان واتفق معه على ان يسقط بضربة قاضية فى الجولة الثالثة مقابل ٥٠٠ دولار ٠

واراد تورو ان يحصل على بعض المال ليرسل شيكا لابيه ، ولكن فينس احتج بضرورة عمل حساب الارباح والنفقات اولا ، واكتفى باعطائه خمسين دولارا على الحساب !

وفى اوكلاند تغلب تورو على شخص يدعى اوسكار ديكالب فى الجولة الرابعة بنفس الطريقة ، وفى دينو هزم شخصا يدعى تافى باريش زعم انه بطل الوزن الثقيل ، وذهبنا الى لاس فيجاس حيث نظمنا ملاكمة مع ملاكم هندى رفض أن يمثل دور المهزوم الا بعد أن اتفقنا معه على طريقة ترضى كبرياءه أولا ٠٠

واخيرا قال لى لاتكا انه يريد ان أن ينظم مباراة فى نيويورك بين تورو ولينرت ، فقلت له أنه يمتلك الاثنين ، وليس من المصلحة ان يدع احدهما يقضى على الاخر ، ولكنه قال لى ان احدا لايعرف انه يمتلك عقد تورو ، ومن ثم فانه بعد انتهاء المباراة يعلن انه اشترى تورو من فينس ودانى ٠

وقال لاتكا : ان لينرت الآن فى الثالثة والثلاثين ، وقد لعب منذ ١٥ عاما ، وكل ما يرجوه الآن هو

ملاكمتان تدران عليه ربحا طيبا ، يكفيه ليقضى بقيةايامهفى راحةوهدوء ثم ان القضاء على لينرتسيجعلتورو منافسا منطقيا لبادى شتين ، وحينئذ نكون قد بلغنا أبواب المليون دولار .

***

وفى كليفلاند وشيكاغو اضفنا انتصارات أخرى زائفة الى سلسلة الضربات القاضية التى فاز بها مولينا ثم بدأنا نعلن فى الصحف عن المباراة الكبرى التى ستقام فى نيويورك بين مولينا وجاس لينرت .

ومع ان نصيب مولينا عن هذه الانتصارات كان يجب ان يتجاوز عشرات الالوف من الدولارات، الا انه لم يستطع أن ينال من (فينس) أكثر من خمسمائة دولار عندما طلب بعض النقود من حسابه .

وفى نيويورك تزاحم حولى مندوبو الصحف ، فان المناورات التى قمنا بها حتى الآن والدعاية التى سبقتنا عن انتصارات مولينا «عملاق الانديز» فضلا عن جسمه الجبار نالت نصيبا كبيرا من اهتمام الرأى العام .

وقال لى دانى انه يعتقد ان مولينا كفيل بهزيمة لينرت حتى اذا حاول الاخير ان يلاكم ملاكمة جدية ، اذ ان لينرت قد اصبح فى حالة لا تسمح له بالاستمرار فى الملاكمة ، ولا سيما بعد ان هزمه شتاين .

وسكت دانى برهة ثم قال :

ـ ان مولينا يذهب الان لزيارة « روبى » فى كل فرصة تسنح له .

فقلت : أرجو أن تكون مخطئا فى ظنك ، فانى لا استطيع تخيل ما سيحدث اذا اكتشف لاتكا هذا الموضوع .

وتوجهت الى غرفة تورو . كانت هناك كومة من الورق فوق المائدة ، تحوى رسوما بدائية بالقلم الرصاص تبدو فيها روح المرح والسخرية .. واستطعت أن أعرف بينها صورة لفينس وأخرى لدانى ،والثالثة للاتكا .

وكانت هناك صورة لامرأة جميلة كان من الواضح انه يقصد بها روبى

وقلت له : انك ترسم جيدا ياتورو .. ولكن هذه الصورة ليست جيدة . واشرت الى صورة روبى ، فقال تورو:

ـ ان السنيورة جميلة جدا لا استطيع رسمها .

ـ أرجو ألا يراك لاتكا وانت تحوم حول زوجته .

وعندئذ رأيت سحابة من الالم العميق تبدو على عينى تورو، ثم قال:

ـ انني لا احوم حولها .. ان السنيوريتا صديقتى ، وهى تعاملنى

بلطف وتحب الحديث معى
وسكت تورو قليلا ·· ثم قال :
ـ انني احب السنيوريتا ·
فقلت في دهشة :
ـ الا تعرف انها متزوجة ؟
فقال بعناد : انها تحبنى وسآخذها معى الى سانتا ماريا ، حيث تعلمها امى كيف تطهى الاطباق التى احبها، وسنصبح أغنياء بما أحصل عليه من مال .
ـ كل هذا جميل ، ولكنك نسيت شيئا واحدا ، لاتكا ·
ـ ان السنيوريتا ذكية جدا ··· وستعثر على الطريقة التى تبلغه بها ما حدث ·

ولم اجد فائدة فى مناقشة مثل هذا المخلوق الغبى، فرأيت ان احاول معالجة الموضوع مع روبى ، فطلبت منه ان يصحبنى الى هناك ·

***

لم يجب احد على دقات الجرس عند الباب الامامى ، فتوجهنا الى الجزء الخلفى ، وانسللنا من المشى الذى تحجبه ستارة خفيفة ، ولكنا لم نر احدا ·· وتبعت تورو وهو يصعد الدرجات الى أعلى ·

كان يبدو تماما انه يعرف الى أين هو ذاهب ، وكانت غرفة جلوس روبى تقع عند نهاية ردهة الطابق الثانى ·

ووصلنا اخيرا الى الغرفة لنرى منظرا مثيرا !

كانت روبى جالسة امام البيانو، والى جوارها رجل غريب ، وقد غاب الاثنان فى عناق حار عنيف !

واحس الرجل بوجودنا فقفز من جلسته ، وعندئذ ادركت انه جاكى ريان ، وهو ملاكم شاب، وصاح جاكى: اخرجا من هنا ·!·

واندفع تورو نحو روبى ، ولكن جاكى اسرع نحوه وضربه بقبضة يده ضربة قوية فى معدته فسقط على الارض ·· ثم نهض وقد حنى رأسه كأنه ثور يتحفز للقتال وانطلق للهجوم ·

وصحت اطلب الى جاكى ان يخرج سريعا ، وصرخت روبى ايضا قالت :
اخرجوا جميعا ·· اخرج انت ايضا يا جاكى ·
فقال : حسنا ··· سأذهب ، ثم طوح بيده فى الهواء مهددا ··
واستدار تورو نحو روبى وهو ينظر اليها بعينين يبدو فيهما عدم التصديق ·· وقال :
ـ لماذا فعلت ذلك ؟ ·· لماذا فعلت هذا الشىء المخجل ·· وقد كنت تقولين دائما اننى الرجل الوحيد فى حياتك ·· وانك سترحلين معى الى سانتا ماريا ·

ولكن روبى نظرت اليه فى قسوة وقالت :

ـ سأقول لك شيئا ايها القرد .. هل تعتقد اننى أترك كل هذا من أجل جحر حقير فى الارجنتين ، لاقضى حياتى مع ملاكم صعلوك من الدرجة العاشرة !

وحدق فيها تورو فى استغراب ، ثم قال :

ـ تورو ليس صعلوكا ، توروملاكم فاز فى كل مباراة !

وقهقهت روبى ساخرة، ويبدو أنها قررت أن تضعه فى مكانه الصحيح فقالت ببطء :

ـ استمع الى ، انك لا تستطيع أن تهزم أحدا • وكل نصر أحرزته انما كان متفقا عليه• كل الصعاليك الذين تفخر بفوزك عليهم قد نالوا ثمن تظاهرهم بالهزيمة •

وهنا زمجر تورو قائلا :

ـ كلا ، أننى لا أصدق ..

ثم التفت الى فى يأس وقالمتوسلا:

ـ قل الحقيقة يادى ، قل الحقيقة بربك •

وبدأ لى ان توجيه ضربة أخرى الى كبرياء الرجل سيضاعف من جريمتى، ولكن لم يكن هناك حل آخر أمامى .. فقلت :

ـ هذا صحيح، لقد كانتمبارياتك كلها مدبرة يا تورو !

ووضع تورو يديه فوق وجهه كأنما أصابه صداع رهيب ، ثم استدار وانطلق هاربا ، ولحقت به ، وحاولت أن أشرح له كيف اننا انما نحاول أن نساعده على جمع المال الذى يطلبه ، ولكننى لم أتلق منه أى رد ..

ثم استدار نحوى فجأة وقال :

ـ هذه المباراة معلينرت ، هل هى متفق عليها أيضا ؟•

فقلت كاذبا : كلا ، أنها مباراة حقيقية ، فاذا استطعت أن تهزمه ، فلن يكون هناك ما تخجل منه •

ودق تورو كفه بقبضة يده الاخرى وقال مهددا :

ـ سأربح هذه المباراة ، وسأريكم ان تورو ليس ملهاة ..

***

كان تورو يدور فى أنحاء غرفة الملابس فى الملعب وقد استولى عليه القلق ..

وكان لينرت هوأولمندخلالحلقة، وكان يبدو أكبر سنا مما رأيته آخر مرة ، كما كان وجهه شاحبا ، وقد خبا وميض عينيه •

وما كاد تورو يصعد الى الحلقةحتى دوى المكان بتصفيق حاد متواصل ،

ولكنه كان يبدو كأنه لا يشعر بهـذا التصفيق ، بل ظلت عيناه تحدقان في غريمه فقط •

واطفئت الانوار ، وبدأت المبـاراة وسط أعصاب مرهفة من الجميع ، وقد بدا منذ اللحظة الاولى أن تورو يلاكم في عنف وشدة ، وبدت الدهشة على وجه لينرت ، من الطريقة التى يوجه بها تورو لكماته اليه •

كانت لكمات عنيفة قاتلة وان لم يكن فيها فن أو حركة •• وكان تورو يحاول أن يتغلب بأية وسيلة ليثبت لنا انه ليس بالرجل الذى يحتـــاج الى مباريات وهمية لينتصر •

وأصابت قبضة توروراس لينرت بضع مرات كادت تفقده صوابه • ولم تكن ضرباته تمت بشيء الى فن الملاكمة، بل كانت ضربات شـــخص يريد أن يدمر ما أمامه فحسب •

وبدا أن لينرت أوشك على الانهيار ، مع انه كان يلاكم بطريقة فنيـــة صحيحة ، ولكن غريمه كان كالثـور الهائج ، وانهال تورو بقبضته علـى لينرت ، حتى اضطر هذا الى أن يحتمى بالحبل ويغطى رأسه بيـديه وهو فى حالة يرثى لها • ثم سقط فاقد الوعى •

وانتهت المباراة بفوز مولينا ، وان كان الجمهـــور لم يعجب بما رأى ، وصاح كثيرون قائلين : انها مبـاراة قذرة زائفة •

ونقل جاس لينرت الى المستشـفى فى حالة سيئة وهو غائب عن الوعى، وهناك تبين انه أصيب بنزيف فى المخ •

وقال لى طبيبه ان هذا النزيف كما يبدو نتج عن المباراة الاخيرة بين جاس لينرت وشتاين ، ولكنه كان صغيرا فلم ينتبه اليه ، فجاءت المباراة الحالية لكى تضاعفه وتزيد من خطره •

وكنت أنا الوحيـد الذى أدرك أن مباراة (مولينا ـ لينرت) لم تكن مباراة ملاكمة ، بل كانت جريمة قتل عمد ، وان لينرت كان ضحية المطامع البشرية ، ولكنى لم استطع أن أقول شيئا ، خوفا على عملى أنا أيضا !

وعندما جاءت الانباء بأن لينرت قد مات ، استولى الذهـــول على تورو مولينا ، وراح يتجول فى الغرفة فى رعب وذعر ، كأنه شخص صـــدمته سيارة فقام يسير على غير هدى !

وراح يقول مكررا فى ذهول :

ـ لقد قتلت رجلا •• قتلتـه بلا سبب • !

***

وبعد بضعة أيام ، ذهبت الى مكتب لاتكا لاتقاضى مرتبى الاســـبوعى ، فوجدته هناك يتفق مع هاريس مدير

أعمال بودى شتاين على تنظيم ملاكمة جديدة لمولينا .

كان يبـــدو على لاتكا انه منشرح الصدر، وقال لى اننا نستطيع أن نحقق أرباحا تبلغ مليوني دولار من هـــذه الملاكمة ، فان مقتل لينرت سيدفع الكثيرين الى شهود المباراة الجديدة ، ليروا ان كان مولينا يستطيع أن يقتل ملاكما آخر !.

وكانت نظرة لاتكا للجنس البشرى صحيحة

ان «الساديه» والقسوة التى كانت تبدو فى ملاعب الرومان القدماء لاتزال هى نفسها تطل من عيون المتفرجين فى مباريات الملاكمة فى العصر الحديث.. ، فقد فاق الاقبال على المباراة الجديدة، كل ما كنا نتوقع .

ودق جـــــرس التليفون فجأة ، وسمعت صوت مولينا يتكلم .

كان غاضبا بعد أن طالع نبأ المباراة الجديدة فى الصـــحف . وقال لى أنه لن ينازل شتاين أو أى انسان آخر ، انه عائد الى وطنه .

وتحدثت اليه طويلا حتى استطعت ان اهدىء ثورة غضبه ، واقنعتـــــه بقبول الملاكمة .

***

وفى يوم المباراة لم تكن هناك غرفة خالية فى فنادق نيويورك بأسرها ، فقد وفد المعجبون والهـــواة من كل أنحاء البلاد ، كما جاء وفد من مسقط رأس شتاين فى قطار خاص ، كمـــا حضر وفد آخر من أهـــالى الارجنتين لتشجيع بطلهم . يضم بعض أصحاب الملايين والسياسيين وغيرهم ..

وتوجهت الى غـــرفة الملابس لأرى تورو . كان يخلع ثيابه ببطء ، كأنه لا يريد ان يعود ملاكما مرة أخرى . ولم يقل لى شيئا عندما دخلت ، بل لم يفتح فمه ليخاطب احدا آخر .

ثم دخل لاتكا وجلس أمام تورو ، وقال بصوت هادىء قاس :

ــ اسمع ايها الصعلوك . لقــــد أخبرتنى زوجتى بكل شىء عنك .

فرفع تورو أنظاره اليـــــه فى بطء منتظرا الضربة التالية، بينما استطرد لاتكا يقول :

ــ لقد قالت لى انك حـــاولت أن تغازلها ذات يوم .. وكان يجب أن أحطم رأسك ، ولكنى لست فى حاجة الى ذلك ، فان ملاكمة اليوم كفيـــلة بذلك ويكفى أن أجـــلس فى الصف الاول لامتع نفسى برؤية شتاين وهو يحطم مخك .

ثم صفع تورو على وجهه صـــفعة قوية ، فلم يتحرك ، بل ظل يحـــدق أمامه بغباء بضع دقائق دون أن يقول

أو يفعل شيئا •

***

تصاعدت صيحات الجمهـــــــور الوحشية ، تدوى من ٨٠ ألف حنجرة عندما دق الجرس معلنا بدء الجـــولة الاولى ، وبدأت المباراة ••

كان يبدو أن تورو قد تعلم شيئا من فن الملاكمة ، ولكن التنفيـــذ كان ضعيفا لا براعة فيه ، وبدا أن ضربات شتاين كانت أشد عنفا من أفضـــل لكمات تورو •

واستطاع شتاين أن يوجـــه ضربة قوية إصابت عين تورو أصابة جعلتها تبدو حمراء قانية • وظل شـــتاين مواظبا على توجيه ضرباته الى هـــذه النقطة الضعيفة حتى أصـــبحت عين تورو فى حــــالة يرثى لها • وكان الجمهور المتحمس يصيح مشـــجعا شتاين على مواصلة الضرب فى هذه العين المصابة •

وشاهدت شفتى مولينا ترتعشان فى ألم بالغ ، وهو ينظر فى شـحوب الى غريمه بعين واحـدة ، بينما كان شتاين يواصل هجومه ولكماته بطريقة فنية وضربات قاسية ، حتى استحال الجانب الايمن من وجهه الى قطعــــة حمراء تغمرها الدماء •

ونظرت الى لاتكا • كان جالسا فى هدوء يجذب انفاس سيجاره الكبير •

وتوالت الضربات كالمطر على العملاق ، حتى خر على الارض •

وانتهت المباراة المؤلمة باعلان فوز شتاين •

ونقل المســكين الى مســـتشفى روزفــلت ، حيث ذهبت لزيارته فى الصباح • كانت الجروح التى أصابت وجهه قد جعلته يبدو أكثر قبحا مما كان !

ورأيت شفتيه تتحـــركان : كان يحاول أن يقول لى شيئا من بين هاتين الشفتين المجروحتين، واستطعت أخيرا أن أسمعه يقول :

ـ سـأعود الآن الى وطنى ، أين نقودى ؟ •

فقلت له : سأحضرها لك ••

وتوجهت الى المكتب ، حيث وجدت كاتب حسابات لاتكا يراجع الايرادات والمصروفات فسألته عن دخل المباراة الاخيرة ، فقال :

ـ مليون و ٣٥٦٨٩٣ دولارا

ـ وكم نصيب مولينا من هذا المبلغ

فاستمهلنى قليلا ريثما بحث فى أوراقه وسجلاته ، ثم قال لى :

ـ انه مبلغ صغير ، بعد استبعاد نفقـــات التدريب والاقامة والدعاية والنقل الخ ••

لايتبقى له غير ٤٩ دولارا و٧ سنتات .

قلت فى دهشة :

ـ هذه سرقة صريحة .

فهز الرجل رأسه وقال : هذا ماتقوله الارقام حسبما طلب الى قيده فى الدفاتر .. وكل شىء مقيد فيها حسب القانون ، فلا يستطيع أحد أن يطعن فيها .

وعدت الى المستشفى لأقابل تورو .

كان لا يزال راقدا على ظهره يحدق فى السقف ، وما كاد يحس بدخولى ، حتى التفت برأسه نحوى وقال :

ـ نقودى !

فهززت رأسى ، لم أدر ماذا أقول ، ثم قلت فى النهاية .

ـ تورو : لا أعرف كيف أبلغك هذا ؟ .. ولكن .. لقد ذهب كل شىء ، وأنا آسف .

وعندئذ صدرت من حنجرته حشرجة عنيفة ، ثم أدار وجهه بعيدا عني ببطء ، وانخرط فى بكاء صامت .

وكان المنظر من أشد المناظر ألما على نفسى ، ان أرى رجلا مثله يبكى فى يأس ..

وفكرت فى المبلغ الذى سيعود على من هذه الصفقة وقدره ١٧ ألف دولار ، فقلت :

ـ عندى فكرة يا تورو .. ان فى استطاعتى أن أعطيك خمسة آلاف دولار ، يمكنك أن تعود بها الى وطنك على الاقل .

فالتفت نحوى وحدق فى وجهى ، ثم همس بصوت أجش :

ـ اذهب ، اذهبوا جميعا ، اغربوا عن وجهى

لقد ضمنى تورو الى فريق اعدائه ، مع اننى كنت الصديق الوحيد الذى يراعيه ويعطف عليه ..

تطبيق سريع !

توجه احد موظفى مكتب كبير للاعلانات لمقابلة مدير المؤسسة فاخذ المدير يحدثه عن أهمية التكرار فى فن الاعلان ، وقال له :

ـ عليك بالتكرار فهو مفتاح النجاح . كرر الكلمة مرة واثنتين وثلاثا ، فلا بد انك ستصل فى النهاية الى مبتغاك ... والآن لماذا حضرت لمقابلتى ؟

فقال الموظف على الفور :

ـ اننى اريد علاوة .... علاوة .. اريد علاوة !

أيها الموت لا تفخر بما عملت

كتاب الشهر : DEATH BE NOT PROUD

انها قصة دامية ، انتزعها كاتبها من حبات قلبه الذى مزقه الالم ، بعد أن شاهد ذلك الصراع العنيف الذى دار أمام عينيه بين ولده الوحيد وبين عدو رهيب لا يرحم

قصة كفاح بين قوتين غير متكافئتين احداهما لفتى غض الاهاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، والاخرى لغول متوحش يفتك بالاجسام والعقول، ولا يهدأ حتى يصل الى هدفه الاخير ، الموت !

ان « جون جونتر » الصحفى الامريكى اللامع الذى أخرج للعالم سلسلة تحقيقاته العالمية فى كتبه المشهورة « داخل الولايات المتحدة » و « داخل آسيا » و « داخل أفريقيا » الخ .. يكتب فى هذه القصة نوعا آخر من التحقيقات كانت روحه المعذبة ميدانها الوحيد ! • »

أيها الموت لا تفخر بما عملت

ليست هذه مجرد مذكرات من النوع المعهود، بحسبانها قصة صراع طويل بين الموت وأحد الاطفال، بل هي قصة ما حدث لمخ جوني، قصة كفاح نبيل من أجل الحياة في ظروف تلاشى فيها الامل، واني ارجو أن يذكره الناس لا لمجرد مذويته، بل من أجل شجاعته التى لا تقهر أيضا.

ولد جوني فى باريس يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٩، وأمضى السنوات السبع الاولى من حياته فى اوروبا وانجلترا وعند ما رجعنا الى الولايات المتحدة التحق أولا بمدرسة فى مدينة (ولتون) بولاية كونكتيكت، ثم تنقل بين عدد آخر من المدارس الى أن التحق أخيرا بأكاديمية «ديرفيلد» فى ماساشوسيت ومات فى ٣٠ يونيو ١٩٤٧ وهو فى السابعة عشرة، بعد مرض استمر اربعة عشر شهرا، ولو عاش، لالتحق بجامعة هارفارد فى خريف ١٩٤٩.

وينبغى أولا أن احاول رسم صورته لكم. كان فتى طويل القامة ضامر الجسم، له شعر فى لون الحنطة تحت ضوء الشمس، وعينان زرقاوان، وكانت له أجمل يدين رأيتهما فى حياتى، وكان الكثيرون يرونه جميل الصورة، وان كانوا يفكرون أكثر فى روحه المرحة، وحديثه الساحر، وعقله الراجح، وفوق كل ذلك كان ذا نفس خلت من الانانية والاثرة ..

وكان جوني هو الشخص الوحيد حقا الذى لم يكن يفكر فى نفسه أولا وما زلت أذكر ذلك اليوم، بعد العملية الاولى التى دامت ست ساعات، عندما اعتقد دكتور «بوتنام» أن من الحكمة ابلاغه عن حقيقة مرضه فاستجمع رقته ولباقته وكأنه يمسك بيده مشرطا من أدوات جراحته، وقال فى هدوء

ـ جوني .. ان العملية التى اجريناها لك كانت لاستئصال ورم فى المخ ..

ولم يكن فى الغرفة أحد، عندما

نظر اليه جونى وقال :
ــ هل عرف والداى ذلك .. ؟
كيف نسوق اليهما هذا النبأ ... ؟

***

كانت أول معرفة لجونى بالعالم الخارجى عن طريق الصور : نمور فى أخطر حالاتها الوحشية ، وعلى نقيض ذلك مجموعة من الفيلة الراقدة على الاعشاب .

وجاءت هوايته للموسيقى بعدذلك حيث تلقى دروسا فى العزف على الكمان خلال سنواته الاولى ، وكان يحتفظ الى جواره بجهاز تسجيل ثمين ، ظل على مقربة منه حتى اليوم الذى ودع فيه الحياة . وعندما بلغ التاسعة ، عزف كثيرا من المقطوعات التى لحنها بنفسه فى حفلات المدرسة

كان يكثر من القيام بالتجارب الكيمائية وكان لديه معمل صغير فى المنزل ، وما زلت اذكر حتى الآن الساعات السعيدة التى امضاها هناك مع موادهالكيمائية وافرانه ومقاييسه وانابيبه وأجهزته الكهربائية .

وكان جونى وامه فرنسيس على صلة وثيقة جدا ، وكان يلتقى بنا معا أكثر مما يرى الطفل والديه المطلقين عادة ، اذ كان اتفاقنا عند الطلاق ان يقضى عطلة الشتاءوالربيع معى فى نيويورك ، والصيف مع فرنسيس فى (كونكتيكت) ، ومع ذلك فقدكنت اراهكثيرا خلالالصيف أيضا ، كما كانت فرنسيس تراه فى نيويورك خلال الشتاء ..

ورغم كثرة اسفارى ، فقد كنت ارتب شئونى بحيث أكون معه خلال عطلته ..

كان كرم جونى وروحه الودود يخفيان كثيرا من العنف فى طباعه ، فقد كان متواضعا يؤمن بالخير فى الناس ، وكان ينبعث منهشىء يجعل الداخل الى الحجرة التى هو فيها يشعر فورا بالدفء وحرارة الاتصال به ، فقد كان من هؤلاء الذين كانوا يعتقدون حقا أنهم يدينون للعالم بحياتهم لا العكس ، ولكن لم تتح له الفرصة ليرد هذا الدين . كانتالدنيا هى الخاسرة بموته .. !

***

عندما عاد جونى الى المنزل فى عطلة عيد الميلاد سنة ١٩٤٥ ، كان يبدو فى حالة صحية طيبة ، وكنا نرى بعضنا كثيرا . وعندما بارحنا ليعود الى المدرسة فى يناير قال لى :
ــ هذه أفضل عشرةأيام امضيتها فى حياتى يا أبت .

ويوم عاد ليمضى عطلة الربيع فى

مارس ، كان يبدو متعبا ، ولكنى ظننت أن هذا مجرد رد فعل النظام القاسى الذى تتبعه مدرسة ديرفيلد بالاضافة الى الضغط المعهود خلال فترة المراهقة .

وقام طبيب الأسرة الدكتور ترايجر بفحصه كالمعتاد ، ثم قال انه فى أحسن حال . وبعد يوم او بعض يوم ، شكا جونى من تصلب فى العنق ، ولكننا لم نأخذ الامر على محمل الجد وفعلا سرعان ما اختفى هذا الالم ، وعاد الى مدرسته مملوءا عزيمة ورغبة فى الدراسة ..

وفى الاسبوع الثالث من ابريل اتصل بنا الدكتور جونسون طبيب المدرسة تليفونيا ، وقال ان جونى دخل المستشفى بسبب تصلب فى عنقه ، ولكن ليس هناك ما يدعو للانزعاج . واتصلت بجونى تليفونيا وتحدثت معه فوجدته غاضبا لانه حرم أسبوعا من الدراسة ..

وفى حوالى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ٢٥ ابريل ، دق جرس التليفون فى مسكنى بنيويورك وقال لى الدكتور جونسون :

ـ لدينا الآن طبيب من اطباء الاعصاب ، من سبرنجفيلد يدعى دكتور « هاهن » سيرى ابنكم .. وها هو سيحدثك ..

وقال لى دكتور هاهن انه يعتقد أن ابنى مصاب بورم فى المخ .

فأصابنى ذهول جعلنى لا افقه ما يقول ، ثم قلت فى دهشة :

ـ ولكن هذا امر خطير جدا .. أليس كذلك .. ؟

فأجاب : لا أنكر انه خطير ..

وراح الطبيب يصف لى الاعراض ثم طلب منى أن أتصل بالدكتور « تراس بوتنام » الذى يعد افضل طبيب لمثل هذا النوع من المرض .

وفى منتصف الساعة الخامسة ، كنت أنتظر فى مكتب الدكتور بوتنام وكان الرجل قد مر بفرنسيس فى (نيوهافن) ثم وصل الى ديرفيلد حوالى الساعة العاشرة .

وبعد خمس دقائق ، علمت ان جونى سيموت ..

لقد رأيت ذلك واضحا على وجوه الاطباء الثلاثة . أما جونى نفسه فقد كان مرحا

ورأيت أن جفنه كان مرتخيا قليلا فوق عينه ، وان كان هو قد حاول ان يبتسم ..

وقال لنا بوتنام انه لا بد من اجراء عملية لجونى فى نيويورك ، بأسرع ما يستطاع ..

وفى ساعة مبكرة من الصباح ، انطلقنا الى هناك فى عربة اسعاف ، وكانت رحلة طويلة قطعناها فى جو بارد كئيب وأمطار كثيرة

كانت فرنسيس تمسك يد جونى الذى أخذته سنة من النوم . وهناك فى مستشفى معهد علم الاعصاب ، كانوا قد أعدوا له غرفة مريحة تطل على الهدسون .

ونقل جونى برفق الى فراشه . فى هذا المبنى الكبير ، الذى أصبح حصنا لآمالنا ومخاوفنا أكثر من عام كما كان سجنا لاحلامنا .

وفى اليوم التالى بدت عين جونى أحسن من ذى قبل ، فلم يكن فيها ذلك الذبول المخيف . ولكنه أصيب بعد ذلك بصداع مؤلم : ظل يعانى منه حتى مات

وفى يوم الاثنين ٢٩ ابريل ١٩٤٦ اجريت العملية لجونى ، وقد صعد الى غرفة العمليات فى منتصف الثانية عشرة ظهرا ، ولم يعد منها الا فى الخامسة والثلث بعد الظهر ، وكانت هذه الساعات الست هى أطول ما مر على أنا وأمه .

وسألتنا اثنتان من الممرضات بطريقة قاتلة :

ـ هل هو ولدكما الوحيد .. ؟

***

ان فتح الجمجمة واستئصال الورم من المخ عمل يتطلب ادق نوع من الجراحة ، اذ يتوقف كل شيء على نوع المرض الذى يمكن ان يكتشفه الطبيب . فقد كان هناك حوالى ٥٠ نوعا مختلفا من الاورام ، بعضها غير خطر نسبيا ، وقد ظهر ان ورم جونى قريب من السطح فى الجزء الايمن من مؤخرة الراس مما جعل العملية أقل خطورة مما كان يمكن ان تكون

ولكن يبدو ان اتمامها بمثل هذه السرعة كان نذير غير طيب ، فان بعض الاورام تكون مغلفة ومن ثم يمكن اخراجها فى جزء شبيه الرخام الملصوق بالهلام ، ولكن هناك اوراما أخرى من نوع متشعب كالعنكبوت تزحف وتندس خلال الفجوات الدقيقة بالمخ ، فتتلف عملها ، وتكون ازالتها مستحيلة فى الغالب اذ أنه اذا تعمق الجراح كثيرا مات المريض بسبب ما يفقده من الدم ، فضلا عن القضاء على كثير من الانسجة السليمة فى المخ مما يجعل الموت أفضل من الحياة ☐

وكنا نأمل فى سماع انباء طيبة حتى النهاية . ولكن فى ساعة متأخرة بعد الظهر ، عندما هبط دكتور ترايجر من غرفة العمليات ، ألقيت

نظرة واحدة الى وجهه ، فادركت أتعس ما يمكن ان ادركه .

كان يبدو أن عمر الرجل قد زاد خمسة أعوام خلال هذه الساعات القلائل .

وانتحيت به جانبا وسألته سؤالا واحدا :

ـ هل كان الورم مغلفا .. ؟

فقال كلا ..

وهبط بوتنام بعد دقائق فى نشاط ، ولكنه كان يبدو كالقادة الذين رأيتهم فى أعقاب المعارك الشديدة وسار الرجل الى القاعة بعد ان ألقى الى فرنسيس بكلمة مشجعة ، اذ قال أن الورم كان فى حجم البرتقالة وانه أخرج نصفه ..

وسمعت ضوضاء ناحية المصعد ، ثم خرج فراش جونى على عجلاته .

وعندما القيت نظرتى الاولى على وجهه المختفى تحت العمامة الضخمة من الاربطة ، تراجعت فى صمت كئيب

كانت عيناه مغمضتين ، وقد انتفخ وجهه كله حتى اصبح فى حجم ولون كرة القدم ...

ولكن هذا كله لم يكن يدعو للقلق كما قيل لى ، لانه نتيجة الاستسقاء والانتفاخ الذى تبع صدمة العملية

وفى حوالى التاسعة من ذلك المساء تنفس جونى بشدة ، واهتز فى فراشه محدثا حركة ضعيفة بفمه المنتفخ .. فقالت له الممرضة :

ـ ابصقه خارجا ..

فأجابها بكلمات واضحة تماما .

ـ أنت تعلمين انتى لا استطيع أن أبصق ، فاننى مجهد تماما .

وحدقت فيه الممرضة فى ذهول لانه استطاع أن يتكلم .. !

وفى تلك الليلة نمت جالسا فى حجرة الزائرين .

***

ظلت عينا جونى مغلقتين تماما خلال اليومين الاولين ، وقد أمضى هذين اليومين وهو يخشى أن يكون قد أصيب بالعمى .

وبعد ستة أيام تناول افطاره جالسا فى الفراش ، وفى اليوم الثامن انهمك فى رسم سلسلة معقدة من القطاعات المتكافئة ، وفى اليوم الحادى عشر قطع الردهة بطولها سائرا بمفرده .

ولم يكن جونى قد ادرك طبعا خطورة مرضه صورة تامة ، اذ كان علينا قبل كل شىء ان نقيه من المعرفة الصريحة الواضحة ، نظرا لان فرحته الكبرى بل الوحيدة هى رغبته فى الحياة الى جانب شبابه .

وما أن أخبره بوتنام بحقيقة مرضه ، حتى أسرع جونى فاستدعى صديقا يدعى أريس جرانيت وقال له بافتخار :

ـ لقد أحدثوا ثلاث فتحات فى رأسى

ثم اتصل بزميل فى المدرسة يدعى ادجار برنو ، وقال له

ـ هل تعرف ان الضغط الذى كنت أعانيه كان ورما فى المخ ... ؟

وببطء شديد ، استطاع بوتنام ان يحظى بثقتنا فيه حتى اننا أغرقنا فى التفاؤل مدة اسبوع او أسبوعين ، فأعددنا مشروعات للسفر مع جونى لاستكمال الشفاء .

فقد كان التشخيص الاولى للمرض هو انه عبارة عن (خلايا نجمية) وهو نوع من الاورام غير الخطرة نسبيا ، ومع أن بوتنام لم يكن قد قضى عليه تماما ، فقد كان هناك أمل فى أن العلاج باشعه اكس سوف يقضى على الباقى .

ولكن الفحص التالى أظهر أن جونى مصاب بأسوأ كثيرا مما كان يخشاه الاطباء . فقد كان الورم فى طريق التحويل .

وشرح لنا بوتنام لماذا لم يغلق الجمجمة بل تركها مفتوحة واكتفى بتغطيتها بغطاء خفيف من فروة الرأس ، حتى يخفف الضغط على المخ ويتيح للورم ان يبرز الى الخارج بدلا من الداخل ، اذا استمر فى النمو ، ولو كان بوتنام قد أغلق الجمجمة بعد العملية بالعظام أو بقشرة سميكة لمات جونى فى خلال شهر .

وواصل جونى الشفاء بطريقة طبية . فلم تعد عيناه ترتجفان أو ترمشان ، وفيما عدا ضعفا طفيفا فى ساقه اليسرى ، فقد كان يبدو على ما يرام .

***

كان أكثر ما يهمه هو العودة ثانية الى المدرسة ، فقد كان يرعبه أن يفكر فيما ضاع عليه من دروس وكيف يمكنه تحصيلها .

ولم يكن جونى قد صلى كثيرا من قبل ، ولعل هذا كان نتيجة عدم ميله للذهاب الى كنيسة احدى المدارس التى التحق بها وكرهه لاجباره على تمضية جانب كبير من الوقت فيها . ولهذا راحت فرنسيس تقرأ له الصلوات من مختلف الانواع من هندية وصينية ويهودية ومسيحية . واقترحت عليه مرة أن يفكر فى صلاة لنفسه .

وفى ٢٨ مايو تلقينا أنباء أخرى أكثر سوءا .

لقد أغمي على جوني أثنــاء ذهابه الى الحمـــام . وكان تقرير الطبيب سيئا .

وكانت أول مرة رأيت فيها الرعب على وجه جوني عندما استعد للعلاج بالاشعة ، فقد كان يردد لنفسه انه ليس الا أخذ صــور . ثم ادرك من طول الوقت الذى كان يمضيه تحت جهاز الاشعة أنه لابد أن يكون صورة من صور العــلاج . فالتفت نحوى وقال بحزم :

ـ هل يعنى هذا أننى مصــــاب بالسرطان ؟

ثم التفت الى امه وتمتم قائلا :

ـ لدى الكثــير لاعمله .. وليس امامى الا القليل من الوقت !

***

غادر جونى معهد علم الاعصاب فى أول يونيو وانتقل الى مسكننا . ومنذ أول دقيقة استقر فيها فى المنزل فعل ماكنا نتوقعــه ، اذ أسرع الى دائرة المعارف البريطانية ليبحث فيهــا عن الجزء الخاص بأورام المخ ، ولكنا كنا قد احتطنا للامر واخفينا هذا الجزء لانه كان يذكــر ان اغلب أورام المــخ تنتهى بالعمى .

وكان عليه أن يرجع للمستشـــفى كل صباح للعلاج بالاشعة ، حتى انتهى العلاج فذهب الى مسكن فرنسيس فى كونكتيكت لقضاء الصيف .

كان صيف عام ١٩٤٦ عبـــــارة عن لطخة سوداء فى ذاكرتى ..

كنا نخرج مع جونى كثيرا ، فقد كان عليه أن يتوجه الى نيويورك مرة كل عشرة أيام للفحص ولمواجهــة الازمات المتتابعـــــة . وكان منزل فرنسيس فى ماديسون مكانا طيبــا للنقاهة ، فقد كان يواجه المضيق ، وله شاطىء خاص على هيئة مروحة ، وكانت غرفة جونى فى أعلى ولكنهــا لاتثير عنــاء فى الصعود والنزول .. وفى هذا المنزل اثمن كتبه ومجموعاته الحيوانية وجهاز تسجيله وكل مايلزم لدراساته .

كان يحب كل دقيقــــة من ذلك الصيف ، فقد كانت أمه معـــه طوال الوقت ، كما أننى كنت احضر اليهما فى عطلات نهاية الاسبوع ..

وكان يقلقه كثيرا أن يؤثر مرضــه فى مشروعاتنا المستقبلة او يكلفنــا كثيرا من النفقات ، كما كان شــديد الاهتمام بأن أواظب على اعداد كتبى

***

وتتابعت بعد ذلك الازمات واحدة بعد الاخرى فى سلسلة من التقلبــات القاسية ، فان الغطاء الذى فوق فروة

الرأس ، ظل البروز الذي فيه يزداد ببطء وشدة حتى أصبح في حجم كرة التنس . كما أن مجال الرؤية أصبح محدودا ، فلم يعد في استطاعته أن يرى الى جانبيه ، وكأنما وضع غطاء غير منظور حول كل عين .

وفي يوم الاربعاء ١٧ يوليو ، عدت الى المدينة . وحوالي منتصف الليل اتصلت بي فرنسيس من مادسون ، وقالت ان النتوء قد فتح من تلقاء نفسه ولم يكن هذا في حد ذاته أمرا خطيرا ، ولكنه اقلق طبيبنا المحلي ، وبدأ جوني يأخذ البنسلين تفاديا للمرض . ثم نقلناه الى المستشفى مرة أخرى .

وفي نفس الوقت سمعنا عن جراح مشهور في مونتريال يدعى « ويلدار بنفيلد » وافق على الحضور بنفسه الى نيويورك لينظر على جوني .

وبعد مشاورات مع ترايجر وبوتنام طيلة الصباح ، أمضى بنفيلد ساعة يفحص قطع الزجاج التي تحوي أنسجة من مخ جوني مخافة أن يكون هناك خطأ في التشخيص .. وأخيرا قال الرجل :

ـ ان ابنكم مصاب بورم ليفي عصبي سوف يقضي عليه .

وشرعنا نبحث عن وسائل جديدة ، فقد يكون هناك شعاع من أمل في مكان ما رغم حكم الموت الذي اصدره بنفيلد ، ولكنا يجب أن نعمل بسرعة .

وذات صباح طالعت فرنسيس نبأ في صحيفة «النيويورك تايمز» لايزيد طوله على بوصتين ، يصف بعض التحسينات الملموسة في الاورام نتيجة حقن في الوريد من غاز الخردل .

وراحت فرنسيس تستعين بأصدقائها في نيويورك لتتبع أثر ذلك العلاج ، وانتهى بنا البحث الى محطة التجارب في « ماين » التابعة لجامعة أوتاوه ، والى مكاتب جمعية مكافحة السرطان . وبعد أسبوع استطعنا الحصول على الغاز في المستشفى التذكاري بنيويورك على مسيرة عشر دقائق فقط من مسكني

ان غاز الخردل بطبيعته سم قاتل يقتل بعض الخلايا التي نمت نموا شاذا سريعا ، وما هو الورم ان لم يكن شيئا ينمو بسرعة ؟

ولكن الخردل لم يجرب من قبل على حالة في المخ .. ولكن كلمة سمعناها في حديث تليفوني مع عالم أمريكي شهير جعلتنا نقرر استخدامه ، فقد قال الرجل :

ـ لو أنه كان ابني لجربته عليه .

وفي خلال ٢٤ ساعة ، رأيت أول

حقنة من غاز الخردل تعطى لانسان في المركز الطبي ..

وكان من الواجب أن يوضع جوني بعد ذلك تحت مراقبة دقيقة لمعرفة الآثار التالية ، لأن الخردل يقلل عدد الكرات البيضاء في الدم . ولما كانت هذه الكرات تقوم بعمل مهم فى مكافحة المرض ، فقد كان من الضروري حقن جوني بكميات كبيرة من البنسلين باستمرار تعويضا مؤقتا لما يفقده من الكرات البيضاء

وأحدثت الحقن الاولى من غاز الخردل فائدة كبيرة ، فقد زادت حيوية جوني وأصبح أكثر قوة وانتعاشا .. اما المجموعة الثانية من الحقن فلم أكن واثقا من أثرها ، لاننا قررنا اعطاءه كمية اضافية من الخردل ، فأعطى هذه الحقن في أواخر أغسطس عندما بدات النتائج الاولى الطيبة ، ولم يكن مستطاعا معالجته باشعة اكس نظرا لحالة الرأس .

وبارح جوني المستشفى مرة اخرى ليعود الى الريف ، حيث زود نفسه بشجاعة ، محاولا استعاضة وقته الضائع ، فقام بعمل واجبات مدرسية وشغل نفسه بكثير من الاعمال العقلية الرياضية .

وفي ٣١ اغسطس حدث رشح جديد في النتوء ، واصبح عدد الكرات البيضاء في الدم أقل من الف ، وبدا أنه يتلاشى بسرعة

وكنا في نفس الوقت نبحث عن اتجاه آخر ..

ففي اوائل الصيف الاخير روى رايموند سوينج عن طبيب يدعى ماكس جيرسون أحرز نجاحا كبيرا في ايقاف السرطان وغيره من الامراض بوساطة علاج يقوم على نظام التغذية . ولكني كنت أنظر الى الامر في شك وارتياب

ثم علمت أن جيرسون له خبرة طويلة في حالات الاورام المخيفة ، فذهبت لمقابلته حيث أطلعني على ماسجله في علاج الاورام . ومع ذلك فقد ظل الامر يبدو لى غير قابل للتصديق وأن مثل هذا المرض الخطير يمكن ابعاده بمجرد تنظيم التغذية .. وعلى أية حال فقد اثر جيرسون في تاثيرا كبيرا .

وعارض ترايجر اولا بشدة مزاعم جيرسون ، ثم اذعن اخيرا على اساس أن حالة جوني كانت تتدهور بسرعة . وأن طريقة التغذية لن تحدث ضررا .

وهكذا بدا فصل جديد في كفاح جوني الذى لايقهر

كانت تلك الايام من شهر سبتمبر في عيادة الدكتور جيرسون كئيبة في

أول الامر ، فقد كان جونى يرقد هناك شاحب الوجه يلهث فى تعاسة ، وكانت كرات دمه تتناقص يوما بعد يوم ، وقد امتلأت ذراعاه وصدره بالرضوض بسبب انهيار شعيراته الدموية ، ولكنه بعد أسبوع لم يشعر بسوء فى حالته بل إنهـا ازدادت تحسنا .

وراح عدد الكرات البيضاء يرتفع باطراد ، واختفت الرضوض بسرعة غير عادية وشفى الجرح الذى فى النتوء .

أما معجزة المعجزات ، فكانت فى انكماش البروز الذى فى الجمجمة ..

كان غذاء جيرسون خاليا من الملح والدهنات ، كما كانت البروتينات ممنوعة مدة طويلة أو مقتصرة على الحد الادنى .

وفى خلال الاشهر التالية ظل يتناول غذاء من الفاكهة والخضر ونوعا خاصا من الحساء مصنوعا من الطماطم والكرفس وبعض الخضر .. ولتعويض النقص فى الاملاح المعدنية كانت تعطى له يوميا حقنة من مستخرج الكبد وأقراص مقوية . ومع أن جونى كان يكره هذا الغذاء الا أنه واظب عليه بأعظم ما يمكن من الطاعة والاخلاص . وكان يسجل فى كراسته الاقراص التى يتناولها كل يوم بعناية .

وكان يتحسن باستمرار وهذا هو كل مايهمنا . وكان التحسن العام مطردا فى بعض الاحيان حتى أننا كنا نمتلىء فرحا .

أن جونى سيشفى ..

وحدثت بعد ذلك أروع الاشياء فى قصة هذا الكفاح العظيم .

لقد وافق جونى بروح طيبة وان شابتها خيبة أمل ـ على أنه لن يستطيع العودة للمدرسة ، وراح يحاول استعادة ماضاع عليه فى المدرسة بوساطة المعلمين الخصوصيين .

لم يكن يستطيع السير دون ترنح أو يحرك أصابعه اليسرى ... لقد فقد نصف بصر كل عين من عينيه ، وتآكل جزء من عقله ، ومع ذلك فهو لايزال يعمل .

واحضرت فرنسيس اثنين من المعلمين لتلقينه الدروس ، بينما كان هو يضع خطته اليومية كانه قائد يدير المعركة .

ثم جاء اليوم العظيم عندما أعطى لجونى اختبار تمهيدى ليرى كيف يستطيع أن يؤديه ؟.

كانت هذه مرحلة مهمة من مراحل مرضه . وقد حاول بعض المدرسين ارجاء الاختبار ولكنه أصر على أدائه .

وعندما اجتازه بطريقه مرضيــة قال لفرنسيس :

ـ يجب ان يغامر المرء فى هــذه الحياة أحيانا .

***

وأخذت الحــالة تسوء بعــد ذلك بشدة ، فقــد تدهورت حالة النتوء بصورة خطيرة ،وبدأ الجلد المجاور له فى التشقق ، ونال منــه التعب الى حد كبير

كنا جميعا ـ ما عدا جيرسون ـ نرى انه يجب اجراء عملية صغـيرة سريعة لتفادى ازدياد المرض . وقد قاوم جيرسون فكرة العملية .

وهكذا بدأت معركة بين الاطباء ، حتى وصلنا أخيرا الى حل وســط ، وهو أن يقوم الدكتور ليستر مونت أحد مساعدى بوتنام الشبان باجــراء العمليه مستــخدما التبريد بدلا من البنج . ووافق جيرسون فى النهــاية على ذلك . وهـــكذا عاد جونى الى مستشفى الاعصاب .

وفى ساعة مبكرة من اليوم الذى كان محددا لاجراء العملية ، فتـــح النتوء من تلقاء نفسـه ـ كما توقع جيرسون ـ واستدعى جونى نفسه الطبيب الذى أدرك ما حدث تماما ، فقام بتفريغ النتوء فى غرفة المريض نفسها ثم استدعانى فى الساعة الحادية عشرة ، وكان صوته يفيض بالسرور ، وقال انه نزح بنجاح خراجا عمقــه خمسة سنتيمترات فى المخ .

وبدأ جونى يسير فى طريق الشفاء بقفزات سريعة ، فاسترد ثقتــه فى الشــطرنج ، وذاكر كثيرا ، وهنأ الأصدقاء ، وضحك وداعب الممرضات واجتاز اختبارا آخر فى وقت قصير .

لقد ذهب هذا النتوء المرعب اللعين ، فقــد نزحه الدكتور مونت تماما . وستصبح جمجمة جونى ناعمة ملساء عادية كجمجمتى أنا ..

واعتقدنا انه عنـدما تزول البقايا الاخيرة للورم القاتل فى العام القادم ، فان كل شىء سوف ينتهى . وأعلن مونت أن عينى جونى اصبحتا عاديتين ، وان الورم قد اعتقل فى مكانه ..

وأحس جونى بالمرح والثقة بنفسه ،

***

وحتى اليوم لم نعرف بعد ما سبب هذا التحسن العجيب فى صحة جونى خلال هذا الشتاء ... قد يكون ذلك راجعا الى العلاج باشعــة اكس التى يتأخر ظهور آثارها عادة ، أو الى غاز الخردل ، أو شباب المريض ، أو تغذية جيرسون .. وقد يكون السبب هو تلك الاسرار الغـــامضة التى تحيط

بالروح البشرية أو الى كل هـذه العوامل معا !

وكذلك لم يعرف احد سبب هـذا التدهور العنيف الذى حدث بعـد ذلك ... فان شيئا دفع ذلك الورم البركانى فأطلقه من عقاله مرة أخرى . لقد كان كل ما نعرفه هو أن جونى ظل فى تحسن يشبه المعجزة بضعة أشهر ، ثم عادت الامور تسوء من جديد .

فقبل فبراير ١٩٤٧ بثلاثة أشهر ، لم يكن جونى يستطيع السير ، أما الآن فقد أصبح قادرا على السير نصف ميل أو حوالى ذلك ، وعلى الرغم من ميله قليلا ناحية اليمين ، وتعثر قدمه اليسرى بعض الشيء ، الا أن التحسن لم يكن مما ينازع فيه .

ولكن فى أواخر فبراير ، أى بعد ستة أسابيع ، عاد النتوء الى البروز مرة أخرى . وبدأ جونى يعانى نوبات من فقدان الذاكرة ، فكان يتساءل :

ـ أين أنا ؟ .. أى يوم هذا .. ؟ فى أية سنة نحن الآن .. ؟

وعلى الرغم من ان النتـوء كان مستمرا فى النمو ، الا أن جونى ظل يعمل خلال شهرى مارس وابريل ، بعد أن اعتزم اتمام دراسته فى ديرفيلد والتخرج فيها

وفى ٢٨ مارس عرفت انه نجح فى دروس التاريخ على الرغم من انه انقطع عن حضورها منذ احد عشر شهرا .

وفى ٧ ابريل تلقى رسالة من مدرسة (بويدن) أشاعت البهجة والسرور فى نفسه ، فقد اجتاز اختبار اللغة الانجليزية بنجاح رائع وأصبح يتقدم زملاءه فى هذا العلم .

وفى ١٢ ابريل ذهب الى الكلية لأخـذ امتحاناتها ، وقال لى انه لم يشعر بمثل هذا التحسن .. وكانت الكلية يومئذ مزدحمة الى حـد كبير حتى انه انتظر حوالى ساعة واقفـا وسط حشد ضخم من الشباب ، وهو يشق طريقه بينهم شبرا بعد آخر .

كان فى حالة مؤلمة تثير الاشفاق ، وكان يخطو فى سـيره ببطء ولكن فرنسيس كانت على مقربة منه .

ودامت الامتحانات ست سـاعات ونصف الساعة ، فلم نعد للغداء الا عند العشاء . وهناك ألقى نفسه على أريكة قائلا انه متعب ، ثم اسرع الى التليفون ليقارن بين اجاباته واجابات زملائه .

ومع ذلك ، فلم يكن هناك شك فى ان هذا الورم الوحشى القاتل يزداد باطراد ، مما يدل عـلى انه بدأ ينمو من جديد .

وأخـيرا قرر الدكتور مونت أن يقوم بالكشف عليه على أمل أن يتمكن من الوصول الى داخله واستئصال بعض ماقيه من سائل ، كما حدث في ديسمبر ، وتمت العملية في المستشفى بتخدير موضعي .وعندما انتهت ، أدركت ان الحالة سيئة جداء فقد ادار الطبيب ظهره نحوى عندما رآنى فى الردهة ولم يتحدث الى ... فدلفت الى داخل الغرفة

***

ورفع جونى يده ببطء فوق رأسه بتحية رقيقة وقال متمتما :

ـ ما هذا الورم العجيب ؟

وراح يتحسس رأسـه فى أمل يائس ... ثم سقطت يده الى جانبه، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيت فيها عينيـه وقد امتـلأتا بالدموع .

وظل جونى راقدا فى صمت فترة طويلة ... ثم تنهد قائلا :

ـ اعتقد ان الامر يتطلب وقتـا طويلا !

وعدت الى المنزل مع جونى بعـد حديث قصير مع الطبيب ادركت بعده أن الامل قد ضاع تماما ...

قال لى مونت ان الورم الذى لدى جونى هو أخبث أنواع الاورام ، فهو ورم ليفى عصبى فى صورة مضاعفة، وانه لا يستطيع أن يقدم أى أمل لى.

ثم قال : دع جونى يفعل مايريد لكى يموت سعيدا .

وحاولنا بعد ذلك ألا نتركه يخرج بمفرده خوفا من أن يحدث له شيء ، وكان هذا يثير جدالا طويلا بيننا ... وأصبحنا فى حيرة ... هل نتركه فيسقط واذ ذاك قد تصاب جمجمته بأصابة قاتلة ، أو تضيع ثقته بنفسه لانه لا يستطيع الخروج دون اذن !!

وخرج الامر بعد ذلك من أيدينا ، فقد أصبح واضحا أنه لابد من اجراء عمليـة اخرى بسرعة لان النتوء كان مستمرا فى النماء بصورة خطيرة .

وتوجهنا الى المستشفى مرة أخرى فى مساء ٢٩ ابريل ـ اى بعد عام من بدء ظهور المرض .

كان جـونى يريد أن يعيش ... ومع ذلك فقد قال لى فى اليوم التالى:

ـ قد يكون العـالم الآخر أكثر بهجة من هذا العالم !

***

وصـعد الى غرفة العمليـات فى الساعة الواحدة والدقيقة العـاشرة وغادرها فى السابعة والنصف،ونحن فى الانتظار دون أن نعرف شيئا ... وكان غائبا عن وعيه عند خروجه من

غرفة العمليات ولكنه لم يكن يبدو منتفخا كما حدث بعد عملية العام الماضى .

وجاءنى الطبيب بعد قليل شاحب الوجه ، وقال ان الورم ينمو بسرعة وانه رغم تعمقه الى مسافة أحد عشر سنتيمترا فى المخ فانه لم يجد أية أنسجة سليمة فيه .

ومر الاسبوعان التاليان سريعا ، وبدا أن النتوء قد اختفى فترة من الوقت وحل فى موضعه فجوة .وعاد جونى الى المنزل فى منتصف مايو .

ومع أنه ظل فى حالة طيبة الا أنه أصبح من العسير عليه أن يربط حذاءه أو حزامه بنفسه ، فكانت الخادمة تساعده على ذلك دون ان يعترض .

وفى ٢٥ مايو اتصل بى مستر بويدن تليفونيا ، وقال لى انه صحح أوراق امتحانات جونى وانه وجدها كلها طيبة باستثناء علم واحد . ثم قال ان الكلية قررت منحه دبلوما ودعانى للحضور معه فى الاسبوع التالى ليتخرج مع زملاء فصله .

وانهمرت دموعنا جميعا لدى سماع هذا النبأ ... أما جونى فقد تثاءب وكأن الامر لا يعنيه .

وكان يوم ٢٧ مايو هو اسعد يوم فى حياته عندما جلس بين زملاء الفصل وأصدقائه القدامى ، وتناول طعامه معهم . كان الفتيان يحدقون فيه كأنهم ينظرون الى شبح ، ثم اختفت نظرات الدهشة من عيونهم حتى لا تضايقه .

وعندما حل دوره ليتسلم شهادته من ناظر المدرسة ،دوى المكان بتصفيق حاد متواصل ... وسار هوفى ثبات حيث قدم له مستر فلينت الشهادة فتسلمها فى هدوء وقفل عائدا الى مكانه .

كانت لحظة نصر خالد بالنسبة لجونى ، أنسته كل ما مضى .

وعدنا الى نيويورك ، وقد تملكنا احساس قوى أن نبذل المستحيل حتى لا نترك ولدنا يموت .

ولكن الورم ... هذا المجرم الغادر كان لايزال يواصل نموه !

وقررنا أن نكرر كل وسيلة أدت الى تحسينه فى أوائل العام ،كأشعة X وغاز الخردل ونظام التغذية ،والعملية الجراحية اذا استطاع تحملها .

واخترنا أن نبدأ بالخردل لانه كان أسرعها أثرا .

وفى ١٢ يونيو ذهب جونى الى المستشفى التذكارى ليحقن بغاز الخردل مرة أخرى

ورأى الاطباء من الاوفق ارساله

الى الريف لقضاء أيام هناك فسافرت أمه الى ماديسون لتعد له المنزل . وأمضيت أنا معه الايام العشرة الاخيرة بمفردي .

ثم جاء ذلك الصبح الكئيب يوم ٢٧ يونيو ، عندما التفت الى ونحن على مائدة الافطار وسألني عن أمه وأين ذهبت ؟

ثم أحس بألم في النتوء الذي لم يكن مربوطا الآن ... ومر بيده فوق رأسه فأصيب بصدمة عنيفة ثم صاح :

ـ ما هذا ؟ ... منذ متى يجرى هذا الامر ؟.. متى كنت في المدرسة ، ولماذا كل هذه الاقراص ؟

ثم انتابته قشعريرة عنيفة حادة .

واستمر تدهوره بعد ذلك ، حتى امتلأت نفسي بالمخاوف ، فأسرعت باستدعاء فرنسيس للعودة على عجل . !

وفي صباح الاثنين ، اخذته الى المستشفى التذكاري لاختبار دمائه قبل سفره الى الريف ولم يبدا هناك شيئا غير عادي ، ولكن بينما كنت أتناول الغداء على مائدة صديق ، اتصلت بي فرنسيس تليفونيا وقالت ان جوني أصيب بصداع عنيف . فأسرعت بالعودة الى المسكن فوجدته قد تناول « حبة كافيين » ثم اصيب بنوبة قيء شديدة وهو ما لم يحدث من قبل .

كان شاحبا جدا وقد أصبح جلده باردا رطبا ، فأستدعيت الطبيب ترايجر فحضر وأمضى فترة قصيرة مع جوني ... ثم انتحى بي جانبا وقد شحب وجهه وبدا عليه الالم ... وقال :

ـ انه يموت .

لقد اصيب بنزيف في المخ ... ونقلناه سريعا الى مستشفى قريب . وهناك اعطوه كل دواء معروف يمكن أن يساعده ، ولكنه غاب عن وعيه .. الى الابد !

لقد انتهت المعركة العظيمة ... وانتصر الموت على الفتى الأعزل .

مطلوب الجندي والطبيب

كان الجندي الذي يشرف على شئون الامن في قريتنا طبيبا بيطريا . وذات ليلة دق جرس التليفون في منزله ، فقامت زوجته لترد عليه ، فاذا بشخص يسأل عن زوجها . فقالت له : هل تريده كطبيب أو جندي ؟ فقال المتحدث : نريد الاثنين . فاننا لا نستطيع أن نفتح فم الكلب كما أن هناك لصا فيه !



ملخص عن كتاب "Twelve Walked Away"

بقلم مرجريت جايلورد

كانت الطائرة تحمل ١٢ شخصا بينهم أربع سيدات ، وطفلة فى الحادية عشرة وهى تحلق فوق جبال الالب السويسرية عندما اهتزت فجاة ، واصطدمت بجبل من جبال الثلج وهبطت فوق تلك المنطقة النائية البعيدة عن كل عمران ، والتى يبلغ ارتفاعها حوالى ١١ الف قدم .

وهذه هى القصة الرائعة لتجربة فاقت كل مايتصوره الانسان ، ترويها احدى راكبات الطائرة ، زوجة الجنرال رالف تيت ، وكان ولدها هو قائد الطائرة ، التى نجا ركابها بما يشبه المعجزة .. انها قصة البطولة والصبر والانقاذ المثير.



كنا نركب احدى طائرات النقل العسكرية فى طريقنا من فينا الىمطار « ايسترس » الفرنسى، وهو المطار الخاص بميناء مارسيليا، وقد رسم طريقنا من ميونخ ، بحيث نتفادى جبال الالب ، تلك الجبال العجيبة ، التى ليست لها سفوح متدرجة فى الانحدار، بلمجرد نتوءات برزت من هضبة مسطحة ، كصخرة فى منتصف مجرى الماء .

وكنا نسير والجبال على بعدبضعة أميال الى يسارنا ، وقد غمرها ذلك الفضاء اللانهائى الاشهب، الذى كان يمس نوافذ طائرتنا برفق .

كانت الطائرة تضم مجموعةتتكون منى أنا وآلبرتاسنيفلى زوجة القائد العام للقوات الجويةفىفينا ،والجنرال هاينز وزوجته ،والكولونيل مكماهون وقرينته ، وابنتهما أليس مارى التى لايتجاوز عمرها الحاديةعشرة،وجورج هارفى خبير وزارة الحربية الامريكية فى شئون البترول،وكان ابنالكابتن رالفتيت ، هوقائدطائرتنا وبصحبته ثلاثة من الملاحين .

كنا فى الساعات الاولى بعدالظهيرة وأغلبنا منهمك فى القراءة ،أوأخذته سنة من النوم،عندما استيقظنا فجأة من غفوتنا ، وبدأت الطائرةتتراقص حول نفسها .

وأبرز الجاويش « واينفولسوم» رأسه من باب غرفة القيادة وقال :

ـ أرجو أن تثبتوا أحزمتكم . ان الكابتن تيت يقول اننا نواجه بعض الاضطراب .

وماكدنا نفعل ماطلب منا ، حتى فوجئنا بالطائرة ترتفع الىأعلىوكأنها صاروخ ارتفع مسافةألفقدم تقريبا واستقامت الطائرة بعد ذلك ، ثم اهتزت لحظة ، وراحت تنحدر فجأة الى أسفل بسرعة بالغة،حتى أنجهاز قياس الارتفاع المعلق أمامناعلىالحائط أخذ يهبط بسرعة وكأنه أصيب بجنون .

وبدأت أشعر باضطراب فى معدتى،

وراح جسمي يضغط بقوة على ظهر المقعد ونحن نهبط حتى كادت أنفاسي تنقطع ، ثم اشتد التصاقي بحزام الامان ، بينما كانت الطائرة توالى انحدارها ، وكان احساسا مرعبا

لاريب ان ابني الطيار كان يدرك تماما ماذا يفعل ، ولكني ساءلت نفسي :

ـ ترى أهذا مجرد اضطراب صغير حقا كما يقول ؟

وسمعت صوت البرتا سنفلي تقول في هدوء :

ـ هدئي روعك ولاتحاولي المقاومة

ولم يكن هناك وقت نهدىء فيه من روعنا ، فقد قفزت الطائرة قفزة واحدة قصيرة ، كأنما هي جواد يقفز الحواجز ، وقبل أن أغمض عيني ، اصطدم وجهي بمؤخرة المقعد الامامي ، ووجدت نفسي أحاول ان أمسك به ، ولكني لم أجد شيئا أمسك به

وأحسست بظهري يلتوى في ألم شديد ، بينما كنت اتمايل في كل اتجاه وكادت طبلة أذني تنفجر ، عندما بدا أن العالم كله قد اشتعل كقطعة كبيرة من المفرقعات التي يلهو بها الاطفال • وقبل ذلك بثوان قليلة ، هاجمتنا رياح شديدة محملة بقطع الجليد من كل اتجاه ...

ووسط هذا الجو اللاشعوري ، عرفنا أن طائرتنا قد سقطت !

***

ومزقت هذه الصدمة المفاجئة قيود كل شيء •• المقاعد والاشخاص والقبعات والكتب ، فاذا بكل منها يذهب في كل اتجاه ، ولكن الصمت الذي تبع ذلك كان أكثر كتما للصوت من السقوط ، فلم تكن هناك صرخات أو نوبات هستيرية ، وانطلقت الكلمات الاولى من بين شفتي السكولونيل مكماهون موجهة الى ابنته الصغيرة « أليس ماري » • كان لايزال مقيدا في مقعده الذي قذفت به الصدمة الى نهاية الطائرة •

وانطلقت بأفكاري الى غرفة قائد الطائرة . حيث خطر السقوط أعظم وأكبر •••

ان ابني هناك ، ياالهي ، ابني !

وكاد قلبي يتوقف عن الخفقان ، عندما رأيته يتجه نحوى في بطء قادما من غرفة القيادة ، والدماء تسيل من ثغرة تمتد من بين عينيه الى قمة رأسه ، وقد مزقت فروة رأسه •

ومضت فترة بدا فيها أمامي أنه ليس الرجل الناضج الذي استطاع ان يهبط بنا بمهارة ، بل مجرد طفلي الصغير الذي تسيل الدماء من رأسه •

وانتابني احساس جارف بأن أضمه بين ذراعي ، ولكني لم أفعل ، ولاشك أن هذا العمل قد أسعده ، فانه لم يظهر اهتماما خاصا بوجودي أكثر من نظرة سريعة ، وأدركت انه يناشدني أن أمد اليه يد المعونة في محنته .. انه ليس في حاجة الى دموعي أو عطفي ..

وقال رالف متسائلا :

ـ هل الجميع بخير ؟

كان يحاول أن ينظر اليناً من خلال ستار الدماء ، التي كانت تتدفق على وجهه ، ثم ترنح قليلا ، وقال في لهجة تدل على الحيرة التامة .

ـ لست أعرف كيف اصطدمنا بالجبل ؟ .

كان صوته ينبعث في تأثر ، وكأنما المنظر الذي أمامه ليس الا حلما سيئا ..

***

لم نهبط الى الارض الا بعد أن استقامت الاشياء بعشر دقائق ، وعندما ترتد بي الذاكرة الآن ، يبدو مما يصعب على التصديق ، أن اثني عشر شخصا سقطوا مثل هذه السقطة ، يمكن أن يخرجوا من الصدمة ، ليركزوا أفكارهم وقواهم . كما فعلنا في ذلك اليوم .

ووجدنا الجاويش فولسوم وقد اختفى وجهه تحت بضعة مقاعد ، وبينما كان مساعد الطيار وعامل اللاسلكي يقومان باخراجه ، فتح جورج هارفي صندوق الاسعاف ، واستطاع أن يحقنه سريعا بالمورفين ، وأن يعالج ساقه التي أصيبت بكسر عنيف بحذق ومهارة

كان هارفي يتنقل بيننا من واحد الى آخر في هدوء عجيب ، واستخدم رباطا ضاغطا لاصبع ماثيوز الصغيرة التي كانت قد قطعت تقريبا وهي التي نزفت دماء غزيرة فوق رأسي ، وكان تجمد الدم بطيئا في هذا الارتفاع الذي يبلغ أحد عشر ألف قدم تقريبا .

وعندما اطمأن ابني الى أن كل شخص قد لقي الرعاية اللازمة ، استلقى هو على الارض ، ووضع رأسه في حجر هارفي ، وبينما كان هارفي يربط الفجوة التي في رأسه والتي يبلغ اتساعها حوالى عشر بوصات ، أمر رالف عامل اللاسلكي لويس هيل أن يحاول ارسال اشارة استغاثة للنجدة .

وشق الجاويش هيل طريقه وسط أكوام من الانقاض ، حتى وصل الى غرفة القيادة ..

كانت قلوبنا قد وصلت الى حلوقنا ونحن نسائل أنفسنا • • • ماذا سيحدث اذا كان جهاز اللاسلكى قد تحطم ؟

وانتظرنا ونحن نكتم أنفاسنا جميعا •• ثم سمعنا ذلك الازيز الجميل الذى لاتخطىء الاذن تمييزه ، وسمعنا بعده صوت هيل يقول :

ـ لقد اتصلت بهم ، اتصلت بهم • هاهو مطـار ايسترس ، انهـم يسمعوننى ••

وخفت حدة التوتر بيننا ، ولكن سرعان مابدأت بعض المخاوف الصغيرة تجتاح نفوسنا • فقد لطمت الطائرة ريح هوجاء ،فاذا بها تميل على جانبها الايسر بزاوية تبلغ حوالى ثلاثين درجة •

وساءلنا أنفسنا : ترى أنحن على حافة هاوية ، أم نحن على قمة جبل ؟

لقد ضاق عالمنا فجأة ،حتى أصبح لايتجاوز تلك المساحة الصغيرة داخل الطائرة ،

أما فى الخارج ، فهناك عالم آخر لانعرف عنه شيئا،يختفى خلف ستار من الجليد المنهمر،والصقيع الذى يتراكم على نوافذ الطائرة ، التى تلاشت منها كل حرارة

وهناك فى غرفة القيادة،كان ابنى وزميله ماثيوز يعقدان مؤتمرا • لقد حددا موقفنا على قدر ما استطاعا ، وبعثا به الى مطار ايسترس ، الذى رد قائلا ان طائرة بريطانية من طراز (لنكستر) سوف تبدأ البحث عنا خلال ساعة ، وان فرق الانقاذ التى تسير على الاقدام قد تم تنظيمها فعلا وستبدأ عملها فى الصباح •

وبدا أمامنـا وقتئذ أن النجدة أوشكت أن تقترب

لقد وقع حادث السقوط حوالى الثانية والنصف بعد ظهر الثلاثاء ١٩ نوفمبر ١٩٤٦ ، ونحن الآن فى الرابعة والنصف وبعد نصف ساعة سيغمرنا الظلام ، وليس فى الطائرة أى ضوء صناعى •

وعكف رالف وهارفى وماثيـوز وهيل على اعداد خطط عاجلة لقضاء الليلة ، فصنعوا سريرا لفولسوم من مقعدين محطمين، وجعلوه فى مستوى الارض المنحدرة •

لقد كان هناك كيس واحد للنوم، أصبح من حق فولسوم دون جدال ، فلا بد من الاحتفاظ بجسمه دافئا حتى لايصاب بالالتهاب الرئوى ، وهو يعقب غالبا كل كسر خطير •

أما الكولونيل مكماهون ، فقد أجلس فى وضع مريح قدر المستطاع على مقعد آخر

لم تكن هناك أغطية كافية حولنا، ومن ثم فقد بسط الفتيان أربعة من الباراشوت •وكانت محاولة التسرب تحت كتلتها الضخمة أشبه بمحاولة الزحف تحت كومةمن فقاقيع الصابون •

وكان من المستحيل الحصول على الراحة ، فاننا اذا رقدنا على جوانبنا ، تدحرجنا على هيل، واذا رقدنا بالعرض أصبحت ركبنا تحت أذقاننا ، ولكنا رتبنا أنفسنا قدر المستطاع، وسرعان ماتنبهنـــا الى شيء بعث الرعب فى قلوبنا •

لقد أخذ البرد يدب الينا ، البرد الذى تسلل الينا عبر عالم من الجليد الدائم ، وهو برد مريز مخيف يبعث الرعب • فقد زحف من خلال ثيابنا، وظل يغوص فى أعماق عظامنا شيئا فشيئا حتى أحسسنا ان عظامنـــا أصبحت هشة جوفاء

ولم يكن لدينا ماندفع به عن أنفسنا هذا العدو الرهيب •

وبدا أن تلك الليلة الاولى لانهاية لها .. • أربع عشرة ساعة من الظلام العميق•• لقد نمنا أول الامر بسبب الارهاق الشديد ، وما لبثت الارض أن أصبحت أكثر خشونة شيئافشيئا، فبدأنا نستيقظ واحدا بعد الآخر •

كان يبدو اننا نمنا ساعات ،ولكن عندما ســـأل أحدنا عن الوقت قال هارفى :

ـ انها الثامنة تماما !

***

كانت الطائرة ترتعش ، بينمـــا العواصف العاتية تزمجر من فوقنا، وكان ذيلها الثقيل يهتز وهو يضرب ويقرقع بشدة .. وكانت هناك أوقات يبدو خلالها ان الطائرة كلها تتحرك، وكانت كل هزة جـديدة من الرياح تزيد من البؤس الذى نعانيه ، فقد كنا نخشى أن تتحرك الطـــائرة وأن تنزلق بعيدا الى مكان لانعرفه • !

أما العدو رقم اثنـين ، فقد أخذ يظهر بسرعة ..وكان هوالظمأ ..

لقد حذرنا هارفى من أكل الجليد، قائلاان هذا العمل بمثابة دعوة للموت البطىء ، فان تجمد الرئةمرض مرعب، وهو نتيجة مؤكدة اذا أكل الانسان الجليد فى مناطق بالغة الارتفاع،وفى درجة حرارة تبلغ ٣٠ تحت الصفر •

وكانت الطائرة قد حملت معهامن ميونخ صـفيحة ماء تحوى خمســة جالونات، ولكن أكثر من نصف هذا الماء استخدم فى سخانات الطـــائرة قبل أن نسقط •

كانت الساعة قد أوشـكت عـلى السابعة قبل أن تظهر مربعات رمادية

خفيفة على نوافذ الطائرة ،فحل رالف نفسه من الاربطة الحريرية ، وخرج من الابواب •

كنت أشعر ببرد شديد ، لاأقوى معه على الحركة ، وبعد قليل ألصق رالف رأسه بالباب ونادانا قائلا :

ـ هيا جميعا . لقد توقف هطول الجليد ، وسترتفع الشمس

***

كان كل ماحولنا عبارة عن جبال• صفوف وصفوف من الجبـــال التى كساها الجليد ، أما الطائرة ، فكانت ترقد علىجانبها على قمة منحدرطويل يمتد الى الامام حوالى ميل •وعلىبعد أقل من خمسين ياردة الى يسارنا ، كانت هناك فجوةضخمةوسط الثلوج تتسع الى حد يكفى لابتلاعنا جميعا لو اننا كنا قد سقطنا قبل وقوعنا بلحظة واحدة •

وعلى بعد حوالى٧٥ياردة الىاليمين، كانت هناك فجوة أخرى بمثل ذلك الاتساع ••

كانت الفجوات كلها حولنا ، انها شبكة من الهوات الثلجية :••

لقد ســـقطنا فوق جبل ثلجي ، واستقرت الطائرة على منسف ثلج لاتزيد مساحته على عشرين قدما ، كانت هى الفضاء الوحيـــد البادى للانظار

وقال هيل : انك ساحر ياكابتن تيت ، كيف فعلتها ؟

فقال رالف : اننى لم أفعل شيئا • ولم ينطق أحـــدنا بكلمة • وقال ماثيوز بصوت رقيق :

ـ كان الله معنا •

كان افطارنا ضئيلا••مجرد قرص من الاقراص المعروفة باسم « منقــذ الارواح»فقد كان الطعام الوحيدالذى بقى لدينا هو الحلوى• ولحسنالحظ اننا جميعا كنا قد حصلنا على الحصة المقررة لنا من الحلوى من ميونـــخ ، وقد قدرنا اننا سنجد ما يكفينا للبقاء احياء بضعة أيام اذا راعينا العنايةفى الاستهلاك •

وفى الساعة الثامنة صباحا ،ذهب هيل الى جهاز اللاسلـــكى ، وسرعان ما اتصل بمطار ايسترس ، فقال لهم ان اية طائرة لا تســــتطيع الهبوط عـــلى مقربة منـــا ، وان ثمانية منـــا يحتاجون الى نقالات ،نظرا لاننا نحن النساء لانستطيع عبور هـــذه القفار الثلجية على الاقدام •

وأجاب مطار ايسترس بأنالطائرة اللانكستر وفرق الانقاذ الارضية قد بدأت عملها لمحاولة العثور علينا ، وطلب الينا أن نشعل نارا مستمرة

تسهيلا لمهمتهم ٠

وأشعل الفتيان نارا للاشارة في اناء كبير من الالومنيوم ، ولما كنا فى منطقة ليس بها أى خشب للوقود ، فقد أطعموا النار مزيجا من الزيت والبنزين ، وكان ابقاء هذه النار مشتعلة خلال الايام التالية مهمة استغرقت نصف وقتهم

وتناوب الفتيان الوصول الى خزان الزيت لجمع ما به من زيت لزج ، وكانت فوهة الخزان ضيقة مما اضطرهم الى مد أيديهم داخله واخراج ماتمسكه قبضاتهم منه مما أدى الى تقرح أيديهم وتورمها ، أما استخراج البنزين فقد كان عملية شاقة أيضا ، اذ كانوا يستخرجونه فى قدح صغير من الورق يدلى فى الخزان بقطعة من السلك ٠

وعند الظهر اتصل هيل مرة أخرى بمطار (ايسترس) وفقا لما اتفق عليه ، ثم عاد الينا بوجه مشرق وهو يقول :

= يقولون ان الطائرة اللانكستر ستحلق فوقنا بعد عشر دقائق ٠

وتدفقنا فى لهفة خارجين من الطائرة ، وكان خروجنا من البرودة القاتلة الى ضوء الشمس الساطع ، أشبه بالدخول فى غرفة شديدة الحرارة ، وقد انعكست فعلا موجات حارة من الجليد ٠

وقد صنعت السيدات جميعا أوشحة من حرير الباراشوت ، برزت منها رؤوس مشعثة مضطربة الشعور ٠ ولم تكن حال الرجال أحسن منا ، فقد كانت القذارة بادية على وجوههم ٠

ومرت الدقائق دون أن تظهر أية طائرة ، فبدأت آمالنا تتلاشى وتتبدد ٠

كانت كل العناصر تبدو كأنها تتآمر على انزال الهزيمة بنا ، فقد كانت الرياح تزمجر من فوقنا ، وكأنما هناك يد تحرك مروحة هائلة فوق رؤوسنا ٠

وضاعت كل الحرارة التى كانت تنبعث من أشعة الشمس ، فأسرعنا بالعودة الى الطائرة على أمل أن نحتفظ ببعض الدفء الذى امتصته أجسامنا!

وبينما كنا نختطف أغطيتنا لنعود بها الى الطائرة ، قال لى ولدى :

- انفضى بعيدا كل قطعة من الجليد ، فان الاغطية اذا ابتلت فلن تجف قط ولن نستطيع استخدامها ٠

وأمضينا نصف الساعة التالى ونحن نفتش كل غطاء بحثا عن أصغر قطعة من الجليد ٠

وبقي هيل ورالف خارج الطائرة ينظران ويصغيان ، دون أن يتخليا عن الامل ٠ وحوالى الساعة الثالثة

والنصف، هبطت الشمس خلف الجبل وراءنا . لقد أصبح الوقت متأخرا جدا لايسمح بتوقع ظهور الطائرة اللانكستر

ومع آخر خفقة من الضوء ،وزعوا علينا قطعا من الشيكولاته ، وكان هناك بعض الماء الذى ذاب من الجليد خلال النهار ،ولكنه كان ممتزجا بطعم الزيت والدخان .

وكانت الشيكولاته مبتلة بهذا الماء فاحسسنا بالغثيان بعد وجبة المساء

وأمضينا الليل على فراش الضنى ، فقد عاد البرد القاسى المميت مرة أخرى يلتهم ثيابنا كالاحماض ، بينما ظلت الريح تواصل لطماتها لطائرتنا بلا انقطاع .

وكان الجنرال هاينز يتنفس بصعوبة من انفه المحطم وبعد أن نام ظل شخيره يرتفع بين آونة واخرى ، وكان صوته أشبه بأزيز محركات الطائرة ، حتى كان يخيل الينا أحيانا أنه صوت طائرة تحلق فوقنا ،فيملأ الأمل قلوبنا ، ثم لانلبث أن نكتشف انه صوت شخير الجنرال هاينز. كما كان صارى اللاسلكى يهتز هو الآخر بسبب الرياح،محدثا صوتا يشبه صوت طائرة تقترب ، فنصغى كلنا فى أمل ، حتى اذا جاء الصباح كنا جميعا قد أصبحنا فى حال شديدة من الارهاق من فرط هذا الاصغاء !

وفى ظهر يوم الخميس ، اتصل هيل بمطار « ايسترس » ثم عاد الى الطائرة فى انفعال غير عادى . وقال ان رسالة المطار تفيد أن جماعات البحث قد بدأت مهمتها عند الفجر ، وان هناك طائرة سوف تحلق فوقنا فى خلال ساعة وطلبوا الينا مرة أخرى أن نبقى نارا مشتعلة لمساعدة الباحثين عنا .

ونهض الفتيان للعمل . كانوا قد جمعوا صفيحة من الزيت خلال الصباح ، فمزقوا الستائر من النوافذ، وغمسوها فى الزيت ، كما مزقوا قطعا من جلود المقاعد ووضعوها الى جوار النار ، حتى تكفل انتاج دخان اسود كثيف .

ولم يكن هناك وقود كاف لابقاء هذه النار مستمرة طويلا ، ومن ثم فقد قرروا الا يضيعوا شيئا منها ، فقد كانت هى كل مالدينا ، وكنا نغامر بكل مصيرنا من أجل هذه الفرصة الوحيدة .

ووسط هذا الهدوء الشامل ، كان فى استطاعتنا أن نستمع الى صوت الطائرة قبل ظهورها بوقت طويل .

وامضينا فترة طويلة جالسين فى هدوء ، بينما كان الشبان يتحدثون

ويتبادلون الضحكات ، وفجأة شاهدت رالف يمد رأسه ، وتبعه ماثيسون وهارفى وهيل ، وبحركة متفق عليها بينهم ، راحوا يلقون الستائر المبللة بالزيت على النار فى حماسة فاذا بعمود ضخم من الدخان الاسود يرتفع فى الهواء مسافة خمسين قدما .. ثم سمعنا صوتها ، ورأيناها ، وصاح الشبان قائلين :

ــ هاهى الطائرة ، لقد أتت الطائرة .

وانطلقت الطائرة عبر الافق على مسافة حوالى عشرين ميلا الى الجنوب والشرق ثم مالت عند حافة السحب عند الافق ، ولكنها بدلا من أن تستدير نحونا ، ظلت متجهة نحو الشرق ..

وراقبناها حتى اجهدت أعيننا وآلمتنا من وهج الشمس ..

وظللنا واقفين بضع دقائق محطمى القلوب ، دون أن ننبس ببنت شفة ، غير قادرين على أن نبعد اعيننا عن الاتجاه الذى اختفت فيه .

واعتقدنا أن الطائرة لم ترنا ....

ومن العجب ان الشمس مالبثت أن فقدت دفئها وبهجتها فى نظرنا . اننا لن نستطيع أن نعد نارا أخرى مثل هذه ، فلم يعد هنالك ما يصلح للحريق غير ثيابنا ...

وعدنا جميعا فى سكون الى الطائرة ، وكأننا صورة ثابتة دبت فيها الحياة ببطء ، فقد كانت خيبة الامل أكبر من أن نحتملها .

وأمر رالف هيل أن يتصل مرة أخرى بالمطار ، وأن يطلب اليهم تحديد المثلث الذى يبحثون فيه ، فقد يكون تقريرنا عن المكان الذى نوجد فيه غير صحيح .

وسرعان ما رد المطار علينا .. كانوا هم أيضا متلهفين على هذا التحديد . وتم الاتفاق على الساعة السادسة لاعادة الاتصال بهم . وفى السادسة تماما اتصل هيل مرة أخرى بمطار ايسترس .

وعلى هدى الضوء الخافت ، كان فى استطاعتنا أن نرى فتياننا وهم يتجمعون فى سكون حول جهاز اللاسلكى وقد بدت وجوههم كالاشباح

وضغط رالف على المفتاح ، ثم أمسكه حوالى دقيقتين ، ثم انتهت قوة البطارية .

لم يكن فى استطاعتنا أن نعرف أن كنا قد نجحنا فى ابلاغ رسالتنا أم لا فاننا لن نستطيع ابلاغ رسالة أخرى بعد ذلك .

واتجهنا فى تعب بالغ ننفذ برنامج المساء ..

كان النوم شيئا غير ذى موضوع ،

ومن ثم فقد جلسنا جميعا فى صمت ، ومسحت انا ثغرة فى الصقيع الذى غمر النافذة ، ورحت انظر الى الخارج

كانت القمم السوداء تبدو بوضوح ، منعكسة على هذا البساط الابيض من الجليد . . وفجأة كاد قلبى يتوقف عن الخفقان ، فقد رأيت شيئين اسودين يتحركان ببطء نحو السفوح السفلى للجبال .

وما لبثت البرتا أن وخزتنى فى جنبى قائلة :

ــ انظرى هناك الى الجزء الاسفل ، هل تشاهدين هذه الاضواء الخضراء الصغيرة ؟

ونظرت الى حيث اشارت ، وبدا لى ان هناك اضواء تومض ثم تختفى ، وكأنها موكب من الاشخاص الذين يحملون مصابيح ذات ضوء أخضر .

وذهب هارفى ورالف الى الخارج برهة ، ثم عادا يقولان فى لهفة انهما شاهدا ضوءا احمر للاشارة على بعد حوالى ميلين وراء احدى قمم الجبال

واستولى علينا الرعب بعد ذلك . .

لقد شاهدنا جميعا نفس الاشياء التى يراها البعض منا ، ولكنها لم تكن أشياء حقيقية ، بل كنا جميعا قد أصبنا بالهوس ، ومع أن ما أذكره الآن عن بقية ماوقع فى تلك الليلة قليل ، الا اننى استطيع أن اذكر انها كانت ليلة رهيبة طويلة وباردة جدا !.

واشرق فجر يوم الجمعة دون أن يشرق الامل علينا .

كان الجليد يهطل بشدة ، حتى كسا اجنحة الطائرة بغطاء كثيف منه ، وكانت السماء كلها متسربلة فى عباءة ذات لون اشهب .

ولم يغادر احدنا الطائرة ، فقد كنا فقدنا كثيرا من القوة والقدرة على الحركة بعد أن أمضينا يومين ونصف يوم بلا طعام أو ماء كاف ، وتوترت أعصابنا .

وحوالى الظهيرة ، صعد ماثيوز الى غرفة القيادة ، ثم مالبث أن خرج الى قاعة الطائرة وهو يسير مرنحا محاولا الاحتفاظ بتوازنه .

ومضت فترة كنا نغالب اليأس خلالها .

واخيرا رفع الفتيان رؤوسهم وكأنهم كلاب صيد تصغى الى الفريسة ثم دوى صوتها فى آذاننا جميعا . .

انها طائرة ، وهاهى تقترب منا شيئا فشيئا . .

وفتح فتياننا الابواب بشدة ، وكان رالف يمسك فى يده مسدس الاشارة أثناء خروجه . وقد سقطوا جميعا وهم يتدافعون للخروج . وزحفت انا

والبرتا نحو النوافذ ، حيث ازلنا بعض الصقيع عنها لنحدث ثغرة نطل منها الى الخارج .

ورأينا الطائرة التى برزت من الشرق بدت كأنها ملاك قادم توا من السماء .

وانقضت الطائرة الضخمة الى الوادى ، وراحت تزمجر فوق رؤوسنا .

ودارت الطائرة حولنا مرة أخرى ، ثم عادت ثانية ، وكادت تصطدم بالجبال .

ومالت الطائرة بجنون ، ثم اعتدلت وارتفعت مرة أخرى لتحلق فوق الجبال ، وفى خلال جولتها الثالثة ، بدأت أشياء كثيرة تسقط علينا من السماء .

اننا نستطيع الآن ان نأكل ، وربما كانت هناك أغطية وثياب دافئة .

***

وفى خلال ساعة بدأت طائرات أخرى تحلق فوقنا ، حتى امتلأت بها السماء كان من الواضح انها تطوف المناطق المجاورة فى انتظار ارسال الاشارة بانها اكتشفت مكاننا .

وراحت اكياس كبيرة من القماش السميك تتساقط علينا من السماء كما تسقط قطع النقود من اناء الساحر ، ولكنها كانت تغوص وتختفى عن الانظار فى أعماق الجليد .

كانت الطائرات التى تحلق امريكية ، وبريطانية ، وطائرات نقل فرنسية ، ثم جاءت طائرات سويسرية .

كانت السحب تكاد تختفى من السماء ، وهى تجر أذيالها نحو الشمال ، ككتاكيت صغيرة تنطلق مذعورة الى مساكنها .

انها معجزة اخرى ، فقد اصبحت السماء صافية رائعة كالبلور !

وشرع أولادنا فورا فى احضار مايستطيعون احضاره ، لم يكن باقيا من النهار غير ساعة واحدة ، بينما كانت الاكياس تسقط بقوة تجعلها تغوص فى الجليد الى اعماق تتراوح بين ستة أقدام وثمانية أقدام ، وكان اخراج كيس واحد أمرا يستدعى مجهود أربعة شبان فى وقت واحد ، فقد كان أحدهم يتدلى الى الحفرة ، ويسلم الكيس لآخر يعطيه لزميليه ، وهو عمل مرهق فى مثل هذه المنطقة المرتفعة ولكنهم كانوا سعداء رغم تعبهم ولهثهم .

وعندما احضروا الكيس الاول الى الطائرة ، لم نستطع الانتظار حتى يحلوا الحبل السميك الذى يربطه ، وسرعان ما تدفقت محتوياته على الارض ، ويعلم الله وحده ماالذى كنا ننتظره داخله .. ولهذا كانت خيبة

املنا عظيمة عندما وجدنا ان كل مايحتويه هو ١٢ زوجا من الاحذية السميكة . !

لم ندر ماذا نفعل . . . هل نضحك ام نبكي أمام هذا المنظر .

وقال هارفي وهو يفحص الاحذية :

ــ هيا يارفاق ، امضغوها حتى نعود ! .

واستطاع الفتيان ان يعودوا بخمسة اكياس أخرى ، كانت تحتوى طعاما وثيابا ، واغطية وادوات طبية .

وطلب الينا رالف أن نأكل ببطء شديد ، فقد كان هذا هو طعامنا الحقيقي الاول منذ أيام . . . لقد كنا أسعد مجموعة من الناس وقتئذ .

وقبل ان يسدل الليل استاره دلفت الى خارج الطائرة . . كان الليل هادئا ساكنا ، والنجوم تلمع في سماء صافية ، لاتعكرها الاالضجة والصخب الذي يحدثه الانسان بأعماله وحيله

ووسط هذا الجو الشاحب ، رحت اجيل النظر في كل مكان . كانت حولي الجبال والجليد والفجوات والهوات والمنحدرات نفسها . لقد تغير منظرنا نحن ، ولكنها بقيت خالدة على مر الزمن .

واستقرت عيني اخيرا على طائرتنا ، التي ترقد في الظلام كأنها نصب تذكاري للاقدار . في هذه الطائرة كان ولدي الذي انقذ روحي وارواح عشرة اشخاص آخرين ، ولكنه حطم قلبه . انه لم يبتسم مرة واحدة خلال الايام الماضية .

لقد تغير مرحه المعهود ، وطبيعته الباسمة ، الى هدوء ووعي جدي . . . ان الحرب لم تجعل منه رجلا كبيرا قبل اوانه فحسب ، بل انه سيجد في هذه المأساة ما يعكر صفو أيامه ولياليه

ورحت أبكي في مرارة وسكون من أجل كل الفتيان الذين حملوا عبء الحرب على أكتافهم الصغيرة .

وسالت العبرات حتى تجمدت الى نقط صغيرة على سترتي . واحسست ان هذه العبرات قد محت بعض آلامي النفسية والجسمانية ، فنهضت عائدة الى الطائرة .

وقبل أن نتمكن من الانتظام صباح السبت ، قدمت طائرتان سويسريتان صغيرتان . كانت الاولى تطير ببطء ، وهي تكاد تمس رؤوسنا تقريبا ، حتى ان الرسالة التي القتها في لفافة حمراء كادت تسقط في ايدينا الممتدة

وقالت الرسالة ان جماعة الانقاذ الارضي سوف تصل الينا قبل المساء ثم ظهرت طائرة اخرى ، واسقطت شيئا ضخما غريب الشكل على مسافة

قصيرة فاحضره شبابنا ، فاذا به (ترموس) ضخم يحتوى على خمسة جالونات من الشاى الساخن الممزوج بالسكر ، وشرائح من اللحم مع اربعة ارغفة ضخمة من الخبز الطازج المصنوع من القمح الخالص .

وبدأ اللعاب يتجمع فى فمى من رائحة هذا اللحم المغرى ، وأحسست بأمعائى تتلوى جوعا ، وهنا صاح رالف :

ــ تعالى وخذيها ..

والتهمنا اللحم اللذيذ بالخبز الطازج الناعم ، حتى تلوثت أفواهنا ووجوهنا بالشحم الذى كان يتساقط من اللحم ، وكنا ننظر الى وجوهنا ثم نغرق فى الضحك من غرابة المنظر .

وحملنا الخبز واللحم والشاى الدافىء الى فولسوم والكولونيل مكماهون ..

وحوالى الساعة الحادية عشرة ، بدات الطائرات الانجليزية والامريكية فى الوصول واحدة بعد الاخرى .

كانت تحلق فوقنا وتسقط كيسا وراء آخر ، وصندوقا بعد صندوق ، وكانوا يحكمون التصويب ، حتى كانت المواد كلها تسقط قريبا جدا منا .

وعندما عادت الطائرات مرة اخرى كان هديرها مروعا . وفجأة انهار جانب الجبل الذى فى مؤخرتنا محدثا زمجرة وضجة هائلة . وانزلقت الوف الاطنان من الجليد الى أسفل ، وهى تنثر غبار الجليد مئات من الامتار ، كانه قاع شلال مخيف .

واجتاحنا رعب شامل ... وراح الشبان يلعنون ويهزون قبضات ايديهم نحو الطائرات ، بينما اختطف هارفى « المكنسة » وهرع الى مكان منبسط وراح يكتب على الجليد كلمات بحروف ضخمة ليحذرهم .

كان من الواجب وقف هذه الطائرات ، والا فعلينا العفاء !

وانصرفت الطائرات ولم تعد .

واستطعنا فى النهاية أن نعد نارا قوية من الصناديق التى كانت تحوى المؤن ولم يعد للماء الآن طعم الزيت .

وقررت أن أغسل اسنانى لاول مرة ، وماكدت ارفع يدى ، حتى سمعت صوت هارفى وهو يصيح ، ويشير الى ناحية الغرب .

والتفت ، فاذابى ارى منظرا هائلا ! كان هناك رجلان يقفان فوق الجليد ، وقد رفعا أيديهما لنا بالتحية .. لقد وصلت الدفعة الاولى من منقذينا .

وهرعنا نعانق هذين السويسريين ، ونطبع قبلاتنا على وجهيهما .. كان

يبدو انهما لم يتوقعا قط العثور علينا جميعا احياء ، ولهذا كانت اعينهما تطوف بنا جميعا وقد بدت فيها نظرات الدهشة وعدم التصديق كانما كانا على ثقة من أن احدنا لابد ان يكون قد هلك .

وبينما كان السويسريان يرتشفان قطرات الويسكى التى ادخرناها لهذه المناسبة ، فتح الفتيان بسرعة بعض علب الطعام المحفوظ ، ووضعاها على النار .

لم يكن السويسريان قد تناولا طعاما منذ الرابعة صباحا عندما شرعا فى القيام بزحفهما الذى استغرق احدى عشرة ساعة ، اخترقا خلالها خمسة عشر ميلا فقط ! ولهذا كان التعب والارهاق باديين على وجهيهما تماما .

وقال الرجلان وهما ياكلان ، ان هناك ٨٠ رجلا آخرين فى طريقهم الينا .

ولم تمض فترة طويلة ، حتى أخذت فرق الانقاذ تتوالى ، وهى تتتبع آثار أدوات الانزلاق التى تركها الاثنان الاولان .

وكان كل واحد يبدو على وجهه نفس التعبير وهو يحيينا ويرحب بنا ، انهم لايصدقون اننا جميعا احياء .

وقال لنا طبيب سويسرى كان بينهم أن مثل هذه التجربة لم تمر بهم من قبل على الرغم من طول مامر بهم ، فهم لم يروا ركاب طائرة سقطت وكلهم أحياء ! —

ترى هل يدركون كيف امضيت الليالى والايام فى هذا البرد القاتل ؟ !

وامتدح الطبيب ماقام به هارفى من معالجة ساق فولسوم ، ثم قال لنا اننا سوف نغادر المكان فى الصباح التالى على زحافات .

***

وعج جبلنا الذى كان مهجورا بالنشاط والضوضاء ، فقد قام بعض السويسريين بابعاد الجليد عن جناح الطائرة الايسر ، وذهب آخرون الى مخزن الاثاث بالطائرة ، بينما بقى غيرهم فى العراء .

وانعكست اضواء النيران على المعاطف البيضاء السميكة التى يرتدونها فوق ثيابهم بينما تدلت « طراطيرها » فوق وجوههم فى تراخ ، وهى تبرق بوهج أحمر فى ضوء النار .

وعدنا الى الطائرة فى شبه ذهول لنقضى الليلة ، بينما كان الوهج المنبعث من النيران يتسلل الينا من النوافذ التى كساها الصقيع .

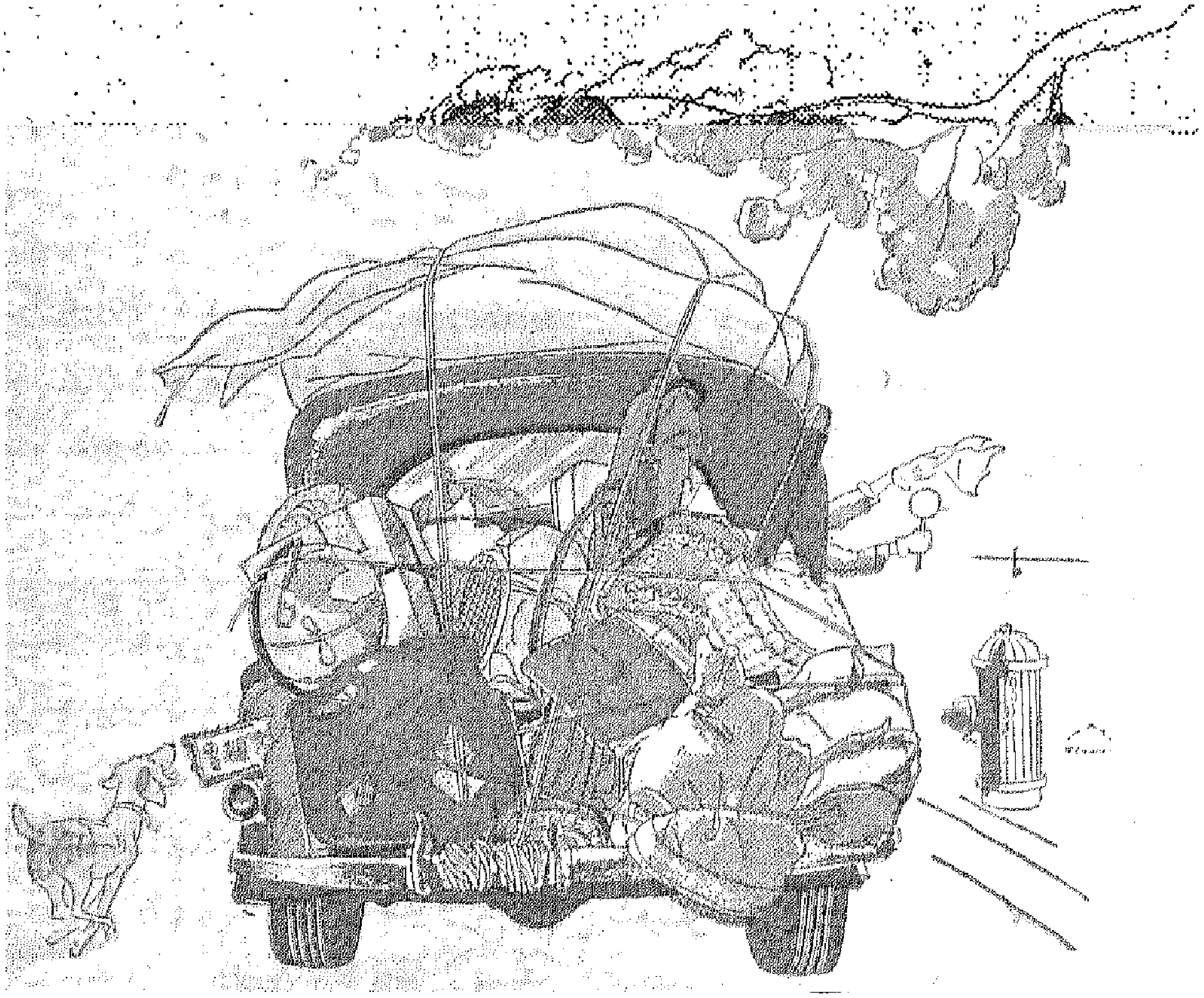
وتنبهت خلال الليل على صوت ابنى رالف ، وهو يتحدث الى ماثيوز

عن الخطط التى يعــدها للصــباح الطائرة .
وسمعته يقول :
ــ اننى سأبقى وراءكم وسأتبعكم بعد ذلك فى النزول
وتصـــاعدت ضربات قـلبى ، فتدحرجت من مكانى حتى اقتربت منه ، وقلت متسائلة :
ــ عم تتحدثان ؟ . ولماذا يجب ان تبقى وراءنا ؟
فقال فى هدوء : هــونى عليك يا أماه ، اننى لن اكون وحيدا هنا،بل سيبقى معى بعض الادلاء . انى اريد أن أفحص المكان بعد أن يغادره الجميع لاطمئن الى ان كل شيء على مايرام
وسكت . . . وانحــدرت دموعى المريرة ، وانا أذكر التقليد المعروف : ان الربان هو آخر من يبرح السفينة
وحوالى الساعة الخامسة صباحا ، وصل الطبيب يتبعه عدد من الرجال الذين يضعون أنوارا كاشــفة حول أحزمتهم . وسرعان مادبت الحياة فى الطائرة .
كان على ثمــانية منا أن يقــوموا برحلتهم على الزحافات ، على أن يلحق هيــل ورالف وهــارفى وماثيــوز بالسويسريين ويقومون بالرحلة على الاقدام .
وبدأ صــف الزحافات الطــويل يشق طريقه الى أسفل الجبل الثلجى كالثعبان .
كانت الجبــال تتســامى حولنــا شاهقة باردة فى انفة وشموخ ، بينما كانت اشعة الشمس تتسلل من وراء قمم الجليد ، كان يعكســها بدوره كلون الماس الازرق فى جمال لا تصدقه الانظار .
وكان بعض الســويسريين الذين بقوا فى الطائرة يغنون ويهزجون وقد ذوت اصواتهم تتردد فى هذا الجــو الساكن ، وهى تحمل لنــا ، ونحن نتحرك بعيدا ، رسالة البهجة والأمل السعيد ! . .

فمها الواسع !

روت بيرل ميستا ـ وكانت تشغل منصب وزير امريكا المفوض فى لوكسمبرج ـ هذه القصة : « قلت لاحد الصحفيين ذات مرة : « لقــد تعلمت أن أصمت وأصغى » . ونشر الصحفى هذه العبارة وتلقيت بعد ذلك خطابا من سيدة تقول فيه : « اشكرى الله على هــذه النعمة التى أتاحت لك ان تغلقى فمك الواسع »

(تيم)



هذا الفردوس المفقود .. لم أجده

كتاب الشهر : The Grass is Never Greener

بقلم روبرت توماس آلن

اين هو المكان الكامل الذى يجب أن يعيش فيه الانسان ...
أهو فى تورنتو ؟ أم فى مزرعة بأونتاريو ... أم هو فى فلوريدا أم نيومكسيكو أم فى كاليفورنيا .. ؟

هذا هو السؤال الذى ظل يدوى فى رأس ((روبرت توماس آلن)) الكاتب الكندى ، الذى ولد فى تورنتو وأمضى بها أكثر سنوات حياته ، بعد أن عانى من برودة الجو ، وسقوط الجليد وازدحام المواصلات ، ما جعله يفكر فى الرحيل سعيا وراء المكان النموذجى ، الذى تطيب فيه الحياة .

وباع روبرت منزله ، وتخلى عن عمله فى الشركة التى يعمل فيها ، وملأ سيارته القديمة بمتاعه وحقائبه ... وزوجته وطفلتيه ، ثم انطلق وراء الفردوس المفقود ...

فهل نجح روبرت فى تحقيق حلم حياته ..؟

فى هذه الخلاصة التى اخذت من كتابه The Grass is Never Greener صورة طريفة صادقة لهذا الكفاح فى سبيل المكان النموذجى !.

هذا الفردوس المفقود .. لم أجده

في ليلة من ليالي الشتاء ، قفلت عائدا الى داري بمدينة «تورنتو» بكندا ، وقد امتلأت نفسي حنقا من ذلك الصراع المرير ـ الذي دام ساعة ونصف ساعة ـ كنت أكافح خلالها الجليد ، وعجلات السيارة المنزلقة ، وحركة المرور المزدحمة ..

وقلت لزوجتي ليلتئذ :

ـ يكفي هذا .. اننا ذاهبان الى كاليفورنيا ، حيث الجو واحد لايتبدل طوال العام ، والبرتقال كل دستة بقرشين .. ماالذي يضطرنا الى العيش هنا كالاسكيمو ؟

وفي اليوم التالي ، صفا الجو وراق وهدأت حركة المرور ، فأحسست أنني على ما يرام ، وعندما عدت الى المنزل ، سألت زوجتي عما اذا كانت تحب الذهاب الى دار السينما ، فقالت :

ـ لا أستطيع .. انني مشغولة جدا في الاستعداد ، ان الثياب والحقائب ملقاة في كل مكان في المنزل ..

فقلت متسائلا : هل انت ذاهبة الى مكان ما ؟

فأتمت زوجتي طي سترة قديمة بين يديها ، وقالت :

ـ طبعا .. نحن ذاهبون الى كاليفورنيا

فنظرت اليها ، من زاوية عيني ، وقلت :

ـ هل أطلت الجلوس تحت آلة التجفيف عند الحلاق .. أو ماذا ؟

فنظرت زوجتي الى بعينين زرقاوين جريئتين .. وقالت :

ـ ألم تقل ليلة أمس أننا سنذهب لنعيش في كاليفورنيا ؟

فهتفت قائلا ، وقد تذكرت الامر :

ـ ياآلهي ، انني لم أقل الا أنني لا أحب المواصف الباردة ..

لقد قلت حقا اننا ذاهبان الى كاليفورنيا ، ولكن كيف أفسر لامرأة ان هذا النوع من الحديث هو من نوع الاحاديث التقليدية التي تتردد في مكاتب العمل ، فكلما أحس أحدنا بضيق ، أعلن انه سيترك عمله ، ويقترض عشرة آلاف دولار ، ليفتتح بها فندقا صغيرا في مكان ما .. ولكن أحدا لايأخذ منه هذا القول على محمل الجد ، اذ هو مجرد حديث مكتب !

ومع ذلك ، فقد بدأت أفكر في

الامر ثانية ..

لعله ينبغى أن ننتقل الى جو أكثر دفئا . وبعد بضع ليال ،عدت أتحدث فى الموضوع مرة أخرى ، فحدقت زوجتى النظر الى وقالت فى صبر :

ـ أعتقد انك ذكرت انك لم تكن تقصد ذلك ؟

أجبت :

لم أقل ذلك .. ولكن .. أعنى.. اننى أقصد ذلك او ما يشابهه ، قد لاتكون كاليفورنيا هى المكان المناسب ولكن ..

ثم جذبت بيدى خريطة جوية وقلت :

ـ انظرى .. هل تعرفين أى قدر ضئيل من اشعة الشمس نحصل عليه فى تورنتو كل سنة ؟

ومنذ ذلك الحين ،لم أعد أنا وزوجتى نجد ما نتحدث عنه الا الطقس ...
لقد أصبحنا مقتنعين ان هناك فى مكان ما عالما أفضل لم تكن ندرى أين هو ذلك المكان ، وكان كل مانعرفه عنه انه ليس المكان الذى نعيش فيه الآن .

كنت أعمل فى وظيفة ثابتة فى احدى شركات الاعلان ،وكانت لنا دار جميلة ، وابنتان احداهما فى الثانية والاخرى فى الخامسة ،ولنا شلة طيبة من الاصدقاء ، فضلا عن اننا نتمتع بصحة جيدة ، ولنا معاش معقول يكفل لنا حياة هادئة عندما نصل الى مرحلة الشيخوخة ..

كان كل شىء على مايرام بالنسبة لنا ،ومع ذلك فقد قررنا أن كل شىء يمكن أن يكون أفضل من ذلك فى مكان آخر ، مكان يمتاز بجو جميل .

وطرأت على ذهنى فكرة مدهشة .

اننى منذ غادرت المدرسة ،وأنا أود ان أصبح كاتبا ..وكنت أقضى الليالى وأيام العطلة فى البيت لاكتب ،وكنت أعتقد دائما أننى لو تفرغت لهذا العمل لمضيت فيه قدما ..وها هى الفرصة قد لاحت لتحقيق هذا الامل

وأخرجت قلما وورقة ، ولاشك أن كثيرا من النكبات تبدأ بورقة بيضاء وقلم حاد !

وقلت انني سوف أستطيع بيع منزلى بربح طيب يكفى لان نعيش به مدة عام ، حتى لو لم أبع شيئا من انتاجى الادبى .. وفى امكاننا أن نشاهد جزءا من العالم ، ثم نعود الى تورنتو فى الربيع لنفكر فى الامر مليا على ضوء رحلتنا هذه ، ونحزم أمرنا نهائيا بشأن المكان الذى سنمضى فيه بقية حياتنا .

وحتى لو انتهت الفكرة كلها الى فشل ، وعدنا الى بلدتنا ، واشترينا بيتا آخر ، وحصلت أنا على عمل

جديد ، فما الذى يكون قد حدث فى الواقع ؟

لاشيء .. سوى اننى سأكون قد استبدلت عملى ببساطة ، واشتريت منزلا جديدا ...

وبدأنا نجمع الكتيبات والنشرات من مختلف الغرف التجارية ، بحثا عن مكان ليس فيه جليد ولاثلوج ، ولاصقيع ولاضباب .. وازدادت حماستنا ، فقلنا أن هذا المكان يجب أن يكون خاليا من الازدحام ،والاشخاص الذين لا تستحب عشرتهم ، والكلاب النابحة .. والملل !

وكان بين المطبوعات التى تلقيناها خريطة تقسم القارة وفقا للساعات التى تسطع فيها الشمس ، بدلا من ولايات وأقاليم .. فكلما كان الجو زاخرا بأشعة الشمس ،كان ظله أكثر خفة على الخريطة ..

وهناك فى الركن الجنوبى الغربى للولايات المتحدة ، على خط الحدود الممتد بين كاليفورنيا وأريزونا ،كانت هناك بقعة ناصعة البياض ، تبلغ مساحتها جنة البازلاء تقريبا ، قيل إنه لامطر فيها قط ..فظننا فى غبطة ان هذا هو المكان المثالى .

وقررنا فى النهاية أن فلوريدا هى المكان النموذجى الذى يجب أن تعيش فيه ، وأننا سنكون أغبياء اذا تجاوزنا هذا المكان .. وقررنا السفر الى الجنوب !

وعرضت المنزل الذى أمتلكه فى تورنتو للبيع ، ونشرت عن ذلك اعلانا فى باب الاعلانات المبوبة فى احدى الصحف، ورحت أحسب الارباح التى سأجنيها من هذه العملية .

وظللت أنتظر وأنتظر دون جدوى . وكان الشيء الوحيد الذى حدث هو ان بقية الصحف الاخرى اتصلت بى تليفونيا ، لتقول لى اننى يجب أن أجرب النشر فى اعلاناتها المبوبة .

وبعد شهرين ، كففت عن التفكير فى الثمن المغرى الذى سأناله ، وان كنت قد تعلمت الكثير عن بيع المنازل، وانى على استعداد للافضاء بهذه المعلومات لكل من يهمه الامر ..

وفى غمرة اليأس ، قررت أن أتنازل عن ألف دولار من المبلغ الذى حددته للبيع به، وبعد أسبوعين بيع المنزل لرجل من (نورث باى) دفع المبلغ وهو كاره عابس ..

لقد بدأت الآن عملية البحث عن أشعة الشمس .. فقد تركت عملى، وبعت أثاث منزلى،وخزنت الذكريات التى أحرص عليها ، وانتهيت من فحص الارضيات والدواليب الخالية .

وتركنا المفاتيح مع أقرب جار ثم انطلقنا بسيارتنا العتيقة ، التى امتلأت حتى سقفها بالملابس والحقائب حتى برزت من كل جانب من جوانبها .

وتركت الطفلتان لعبتيهما ، وبدأتا تلوحان بأيديهما ، تودعان كل شيء ،



ولم نلبث أنا وزوجتى أن شاركناهما ذلك الوداع ونحن ننطلق بعيداً !.

وداعا أيها المنزل ..

وداعا أيتها الشرفة . وداعا أيها السور ..

وداعا ياتورنتو ، وداعا .

***

وفى أمسية ذلك اليوم ، كنا نعبر الجسر الدولى عند شلالات نياجرا ، حيث عاملنا موظفو الجمارك وادارة الهجرة كاننا من سقط المتاع .

كانت الطفلتان قد جمعتا كل عرائسهما فى صف واحد عبر المقعد الخلفى ، فلما انتهى مفتش الهجرة من سؤالى أنا وزوجتى عن المكان الذى ولدنا فيه ، التفت الى الطفلتين ، وراح يفتش عرائسهما بطريقة جدية .

وواصلنا سيرنا مرة أخرى .

كنت أنا أقود السيارة ، بينما أمسكت زوجتى الخريطة لتقرأها وترشدنى الى الطريق ، وقد أدى هذا الى أننا ضللنا الطريق عدة مرات ، وواجهنا متاعب عديدة ، حتى وصلنا فى النهاية الى واشنطون .

وواشنطون مدينة بنيت كالعجلات ولهذا سرعان ماوجدت نفسى وأنا أدور وأدور فى شوارعها ، حتى اننى كنت أقوم بدورة فلكية حول محورها مرة كل عشر دقائق تقريبا !

كانت زوجتى تطلب الى ان اتجه شرقا ، ثم لا تلبث ان تشير الى الغرب ، ولاحظ احد جنود البوليس اننى مررت به ثلاث مرات متتالية ، فأخذ يراقبنا فى فضول ودهشة ، واخيرا سألنا عن الطريق الذى نريد الذهاب اليه ..

***

وعلى الرغم من كل هذه المتاعب ، فقد وجدنا انفسنا فى الوقت المحدد

على ساحل فلوريدا ، نرفع وجوهنا في سعادة الى أشعة الشمس الدافئة ، وتستروح نسمات أمواج المحيط ، ونحن نأسف لكل اهالى كندا المساكين ، الذين يواجهون تسعة اشهر من الشتاء .. ولكننا لم نكد نصل الى شاطىء « دانبونا » ، حتى وجدنا ان أغلبهم قد سبقنا الى هناك ، وعلمنا ان حوالى ١٠٠ الف كندى من الذين يرتعشون من البرد ، يهرعون كل شتاء الى فلوريدا .

كانت هناك سيارات عديدة تحمل ارقاما من « اونتاريو » تقف متراصة على الشاطىء ، حتى اننا لكثرة مالقينا من الكنديين لم نعد نهتم بوجودهم .

وتابعنا السير على الساحل جنوبا ، وعبرنا كثيرا من الجسور الى الشواطىء ولكنا كنا نفاجأ بأسعار مرتفعة ، فتوغلنا في السير جنوبا ، ولكن الاسعار كانت اسرع تقدما منا ..

واخيرا وصلنا الى شاطىء « وست بالم » ، حيث ظننت انني سابذل محاولة جديدة للبحث عن كوخنا الصغير على الشاطىء ، ولكنى امضيت وقتا طويلا دون جدوى ، حتى استبد بى اليأس وفكرت فى العودة من حيث اتيت ..

ان فلوريدا لا تزال فى نظرى من اجمل الولايات الامريكية ، وانى لأكن حبا عميقا لاهلها ، ولكن الشىء الذى يثبط العزيمة ، هو محاولة التغلب على الاسعار فى اى مكان ..

واخيرا ، وبعد ان كدنا نستسلم لليأس ، وجدنا بقعة جميلة يمر بها اغلب زوار الشتاء ، فى طريقهم الى ارض « البشاروش » ، وتمتاز بفنادقها ذات اللون الوردى ، ولها شاطىء بديع ، حيث لا يفصل بيننا وبين افريقيا الا الرياح والامواج .. وشاطىء لم يتغير منذ قرون !

واخذنا نجمع القواقع والاصداف ، ونراقب « الكابوريا » وهى تسير عبر الرمال كالاطياف ، ثم نرقد تحت اشعة الشمس نرقب السلاحف وهى تلعب وتمرح !

كانت فلوريدا تبدو كأنها المكان الكامل الذى يصلح للحياة فيه ، ولكن كان هناك شىء واحد صغير ينقصنا ، هو اننا لم نعش هناك خلال فصل الصيف !

كان الجو رائعا ، حارا ، وان كان غير شديد الحرارة ، تهب عليه النسائم الرقيقة ، وتسطع فوقه الشمس بأشعتها الدافئة

واكتشفنا اننا انما نتمتع ببقية باقية من حرارة الصيف ، ولكن

الفرصة سنحت لنا بعد ذلك لنرى كيف تكون ، لانها لم تلبث ان عادت مرة اخرى خلال سبتمبر ، واشتدت موجة الحر ، حتى اننى اخذت ابادل زوجتى نظرات الشك ، وكأننا نتساءل ، من منا سوف ينفلق اولا .

وبدأت اكتفى بلبس سروال قصير طيلة الوقت ، وكان التغيير الوحيد الذى افعله فى الملابس خلال الليل ، هو اننى انزع هذه السراويل ، وفى الصباح أرتديها ثانية !

وليس هناك ما هو اسوأ لرجل من الشمال — مهما يكن كرهه للجليد — من ان يعانى الحرارة والعرق ولدغات الناموس والذباب . وعندما تشتد الحرارة حتى يلتصق الذباب بعرقه ، وقد نال منه الارهاق حتى لم يعد يستطيع ان ينزع اقدامه عنه ، فيموت فى نفس الحفرة التى حفرها بنفسه .. عندما يحدث ذلك ، يبدأ رجل الشمال فى التفكير فى شىء آخر غير الانزلاق على الجليد ، والرياح الباردة!

واستقر رأيى أنا وزوجتى على اننا لم نعثر تماما على المكان المثالى للحياة فيه ..

وبدأنا نتحدث فى هذا الامر من جديد ، متسائلين .. أين يا ترى هذا المكان ، ملتمسين النصيحة من كل شخص يستمع الينا

***

كان كل احد منهم سعيدا بالانضمام الى لعبة البحث عن مكان لنا ، بما فى ذلك بعض اهالى «دى لاند» بفلوريدا ، الذين قالوا لنا فى لهجة حالمة ، انهم يعتقدون ان المكان المثالى هو كندا ، فهناك لن نحتاج الا الى ملاءة اثناء الليل ، وهناك تستطيع ان تعيش فى كوخ خشبى الى جوار بحيرة صغيرة ، حيث تصيد غزالا او شيئا آخر للعشاء .. وحيث تستطيع ان تفعل كل ما تريد !

ولكن الشخص الذى فاز اخيرا فى مسابقة اختيار منزل المستقبل ، كان نجارا خجولا اشقر الشعر ، يعمل فى بناء جديد على مقربة منا .. فقد زعم الرجل ان افضل جو فى العالم هو جو (فلاجستاف) بولاية اريزونا حيث ولد وترعرع ! .

ولا ادرى لماذا رأينا ان نأخذ بنصيحته ، الا اذا كان ذلك بتأثير لغته الانجليزية . ولكن لا شك ان الرجل كان يشعر بالحنين الى مسقط رأسه ، لانه نسى ان يذكر لنا ان فلاجستاف هذه تعلو عن سطح البحر اكثر من ميل ، وانها مركز هام لرياضات الشتاء فى الجنوب الغربى

باريزونا ، وان الجليد يغمرها باستمرار ..

وتركناه يتجه بنا الى هذه المنطقة الجليدية ، ونحن نرتدى ملابس الشاطئ ، بعد ان بعنا كل ثيابنا الشتوية مع منزلنا وأدوات الانزلاق ، قبل ان نغادر كندا ..

ولم نعرف شيئا عن جليد اريزونا الا فيما بعد ، ولكن بعد فوات الوقت ، فقد كنا قد بعنا السيارة القديمة ، وشرعنا فعلا فى رحلة القطار الطويلة الى فلاجستاف ! .

***

ابتسمت ساخرا وانا ارى المسافرين وهم ينظرون من نافذة القطار ويقولون ان أجدادنا كانوا يكافحون كل بوصة فى الطريق عبر هذه البلاد .. فالواقع اننى ما زلت اسافر على هذا النمط ، فقد امضيت اغلب وقتى فى القطار محاولا معرفة الشخص الذى نقل متاعى .. ثم امضيت الباقى — كما فعل اجدادى تماما — محاولا العثور على طعام !

ولكن كان اكثر ما اثار متاعبى هو الحقائب .. فلا يكاد اى حمال يحملها ، حتى افقد أثر الاثنين معا . . وزاد هذا الارتباك سفر الاطفال معنا ، فهم أيضا متاع له سيقان ! .

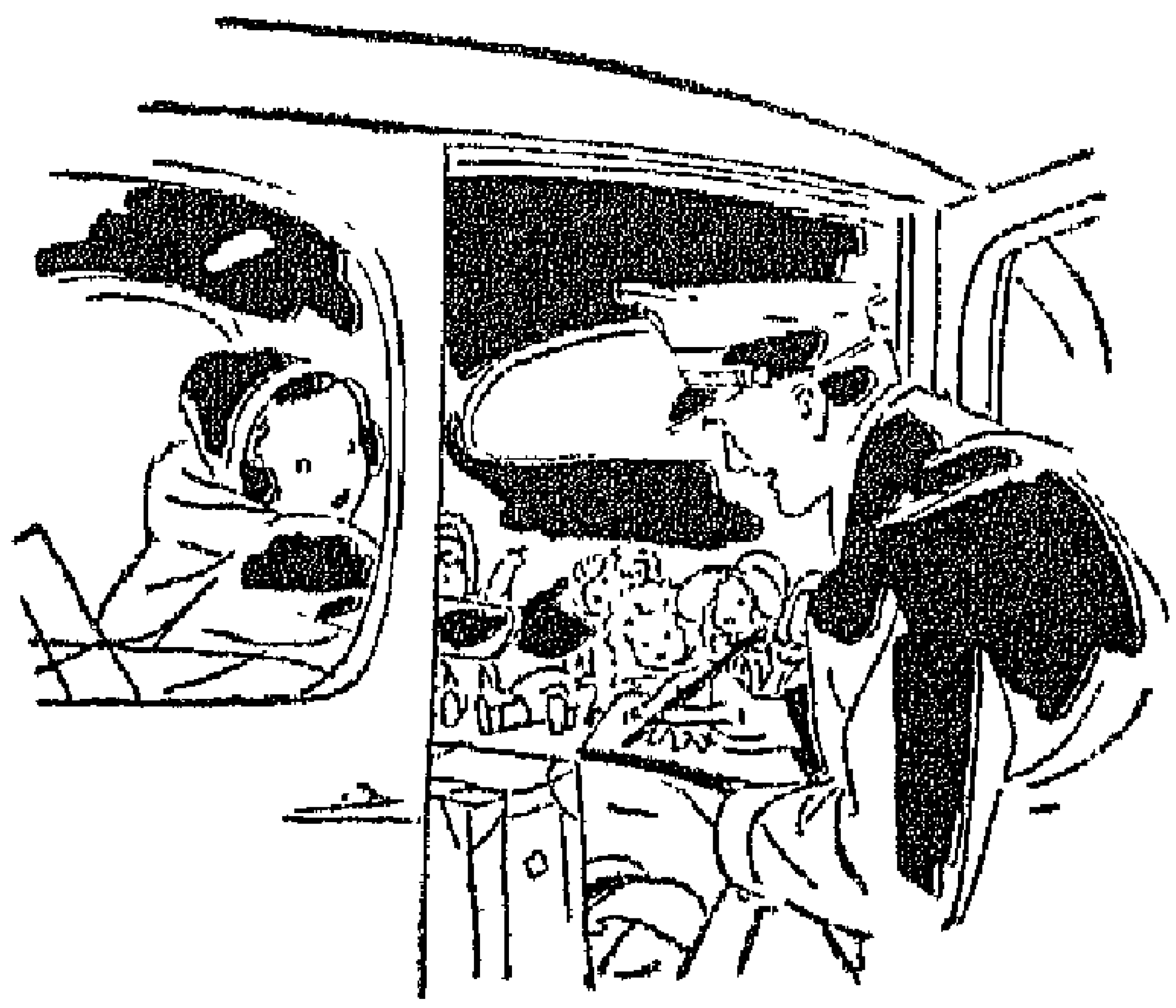
كان القطار منطلقا بنا فى مكان ما من نيو مكسيكو ، عندما سمعنا عن برودة الجو فى فلاجستاف من زوجة جندى ، كانت فى طريقها الى الساحل ، فقد قالت لنا وهى تهز طفلها : ان فلاجستاف رائعة اذا كنتم تحبون رياضة الشتاء ، فقد اعتدت ان اذهب الى هناك للانزلاق على الجليد ، حيث ترتفع عن سطح البحر ٦٨٩٥ قدما .

وتخيلت ساعتئذ كيف أحمل متاعى الى هذا الارتفاع فوق الثلوج والجليد ..

واخيرا رأيت انا وزوجتى انه من الافضل ان نغير مشروعنا ..

واقترحت سيدة من الركاب ان نذهب الى المدينة الصحراوية الصغيرة التى تبعد مائة ميل عن حدود المكسيك ، حيث ولدت هى وترعرعت . وبعد مشاورات قليلة مع مفتش التذاكر ، ابدلنا قطارنا فى الخامسة صباحا ..

واطلق القطار الذى كنا نركبه صفارة طويلة حزينة ، ثم اختفى فى جوف الصحراء ، تاركا ايانا بمفردنا — ما عدا هنديا أمريكيا — التف فى عباءة وراح يحدق الينا بنظرات غامضة ، حتى وصل قطارنا الجديد بعد نصف ساعة .



وفى عصر ذلك اليوم ، ألقينا اول نظرة على مقرنا الجديد .

كانت المنطقة ترقـد فى الصحراء ، وهى تنظـر فى صمت الى اشـعة الشمس ، وقد بدت كأنها اول قاعدة أرضية لعمليات الرحيل الى القمر . ولكننا عندما فحصنا البـلدة عن كثب ، بدت أكثر قبولا فى أعيننا ، فقد كان حولنا بعض العائلات الهندية ذات النظرات القاسـية ، وعمال المزارع الضـامرو الاجسام فى ثيابهم الزرقاء .

وقال بعض الاهلين ان المكان يصبح اكثر حرارة من وادى الموت ، عندما ترتفع الحرارة فى الصيف الى ١٣٠ درجة ، اما فى الشتاء ، فهو دافىء بهيج ، ساطع الضوء فى النهار ، يمتاز بسماء صافية الزرقة ، وان كان قارس البرد خلال الليل .

ولكننا ماكدنا نستقر هناك ، تحيط بنا الجبال والافاعى ، والهنود الحمر ورعاة البقر ، حتى اعترضتنى مشكلة من أكبر مشكلات التحرر والاستقلال .

لقد استأجرت منزلا ، وارسلت جين الى روضـة الاطفال ، ولكنها لم تكن تمكث هناك غير بضع ساعات كل يوم ، ولم تكن مارى قد بدأت دراستها بعد ، وهكذا كنا نقضى اغلب الوقت معا فى المنزل .

ولما كنت قد حررت نفسى من روتين الذهاب الى المكتب ، فقد وجدت اننى اصبحت كقطعـة الاثاث فى البيت ، وتعلمت كثيرا من الاشياء اثناء بقائى فى المنـزل مضطرا ، وهى اشـياء لا يعرفها الرجل عادة ..

***

ومكثنا فى الصحراء حتى ارتفعت الحرارة الى ١١٧ درجة فى الظل ، واصبح مزلاج الباب الخارجى ساخنا الى حد اننى كنت لا استطيع الدخول الى المنزل الااذا وضعت يدى فى جيبى ووقفت على اطراف اصابعى لامسكه بيدى وهى داخل سراويلى ..

واستقر رأينا على ان الوقت قد حان للعودة الى وطننا ، حيث نستعيد ذكرى ما شاهدنا ونقرر اين نذهب بعد ذلك .

ونظر كل منا الى الآخر بعينين تبرقان .. وقلنا معا :

ــ على اية حال .. لقد كانت تلك هى الفكرة الاصلية !

وكان هناك شيء آخر يضطرنا الى العودة ، هو اننى عندما جمعت ماربحته ككاتب متفرغ ، وجدت اننى ربحت فى تسعة اشهر ، أكثر قليلا مما تربحه جليسة الاطفال !

ولكنا كنا نريد ان نشاهد الساحل الغربى لامريكا قبل عودتنا ، ومن ثم فقد انتقلنا الى (باسادنيا) ، حيث أستأجرنا منزلا صغيرا انيقا وسط مزرعة جميلة ..

ووجدت كاليفورنيا كما قالوا عنها: ارض النخيل ، ذات الاسقف الحمراء واحواض السباحة ، والشقراوات ، والمظلات والزهور ..

وعندما شاهدتها زوجتى ، بدأت تتساءل : هل يجب ان نعود بعد ذلك الى وطننا ، ولو على سبيل الزيارة ؟

ها هى مدينة مشمسة بلا جليد ، ولا امسيات باردة ، بها احياء تزخر بالحوانيت والاسواق الكبيرة الممتازة

لعل هذا هوالمكان الذى كنا نبحث عنه ..

واصبحت زوجتى اكثر منى حماسة للبقاء ، فقد كنت اكره هذه الحدائق الكثيرة ، اذ اننى ما اعتدت ان احب الازهار المزروعة قط ، وكان اصطحابى الى معرض زهور اشبه بمن يعطى الكلب حماما ! .

وفى نهاية الشهر ، ركبنا القطار من (باسادنيا) الى شيكاغو . وفى اليوم التالى وصلنا الى تورنتو . بلا نقود ، ولا سيارة ، ولا عمل ولا ثياب للشتاء .. ولا منزل ولا اثاث ، بل لم تكن لدينا حتى فكرة عما سنفعله بعد ذلك لنعيش !

***

واقمنا فى مسكن صغير ، وحاولت انا ان استغل مواهبى ككاتب حر متفرغ ، ولكنى فشلت . وعندئذ اتخذت قرارا بارعا ، هو ان اذهب لارى ان كنت استطيع ان احصل على عملى السابق !

وهذا ما فعلته بالضبط .. وهكذا عدت اجيرا اعمل بالمرتب مرة اخرى

واقترضت مالا يكفى لدفع القسط الاول من ثمن الكوخ الذى اشتريته ، ثم فتحت حسابا آخر لشراء ملابس الشتاء ، كما وقعت عقدا مع شركة سيارات (الافق الازرق) لشراء سيارة مستعملة ، وجمعت المبالغ التى يجب ان اسددها ، ثم بدأت ابتاع كتبا عنوانها « كيف تتخلص من القلق »

وسرعان ما تبين لى انه من العسير على أن أجلس ساكنا أمام مكتبى ، بعد ان امضيت سنة فى الطواف مع العصافير ... وارتعشت عندما طافت بخيالى فكرة البقاء أمام هذا المكتب حتى أبلغ الخامسة والستين .

وكنت وانا أمارس عملى ، أغرق فى أحلام اليقظة ، أحلم بكل الاماكن التى رأيتها ، والاشياء التى كان يجب أن أراها .

وكادت أنفاسى تتمزق ، فقد أحسست اننى لم أتم البحث عن الجو الكامل ...

لقد أصبحنا نعيش فى منزل جديد نمتلكه ، أما من الناحية العقلية ، فقد كنا نعيش فى مكان آخر ، المكان الذى كنا نريد الذهاب اليه بعد ان نعرف أين هو وكيف السبيل اليه .

اننا لم نتوقف ، فقد كان محرك رؤوسنا لا يزال دائرا .

وكنت أنتهز فرصة كل عطلة ولو لبضعة أيام ، فأذهب مع زوجتى الى مكان ما .. حتى الاطفال ... كانوا لا يزالون مسافرين بأرواحهم ، تماما كما يشعر الانسان بعد نزوله من رحلة طويلة بالقطار ، انه لا يزال يتحرك .

وبمضى الوقت ، بدأت أوجه اهتماما أكثر الى كتاباتى فى المنزل بعد العشاء .. لقد أصبحت مدينا مرتبكا ، أعمل فى المكتب طوال النهار ، ثم أعود لاكتب فى الليل ، واستطعت أن أحصل على بعض المبالغ من الناشرين مقابل كتاباتى ...

وزادت أرباحى من الكتابة ، حتى استطعت أن احصل فى النهاية على مبالغ كافية لترك عملى فى الشركة ، وتجربة فرصة جديدة للتفرغ للكتابة .

***

والآن وقد أصبحت كاتبا حرا ، فاننى أستطيع أن أعيش فى مزرعة ؟ فلا شك انها ستكون مكانا مثاليا للاطفال .

وبعنا منزلنا الجديد ، ووقع اختيارى على مزرعة على مقربة من اونتاريو قررت استئجارها . وفى عصر يوم هادىء جميل من أيام الخريف ، انطلقت بسيارتى الى هناك .

وما كدنا نستقر فى المزرعة ، حتى بدأت جين ومارى تذهبان الى المدرسة الريفية ذات الغرفة الواحدة ، ولكن اكثر تعليمهما الريفى جاء نتيجة مجهودهما الشخصى ، فقد عقدت مارى صداقة وثيقة مع المزارع الذى أجر لنا الارض ، وأصبحت بارعة فى قيادة المحراث ، فكانت لا تكاد تعود من المدرسة ، حتى تحتل مكانها الى

جواره ..

كانت هذه المزرعة ولا ريب من أبدع الاماكن التى شاهدتها فى حياتى، وكان عيبها الوحيد من وجهة نظر أهل المدينة ، انها بعيدة جدا عن المدن .

وفعلنا كما يفعل أهل المدن عندما يذهبون للعيش فى المزارع ، فقد حاولنا أن نجلب المدينة الى الريف . كان لنا أصدقاء فى المدينة يحضرون الينا فى عطلة نهاية الاسبوع ، وكنا نذهب فى هذه العطلة عند أصدقاء آخرين فى مزارع أخرى .

وكان هناك عيب آخر فى حياة الريف ، هو اننى كنت اضطر أن انفق كثيرا من وقتى فى مكافحة بعض الحيوانات البرية ، حيث كنت أتسلح بمكنسة وأنا أرتدى ثيابى المنزلية بينما تقف زوجتى الى جوارى بوجهها الشاحب وقد أمسكت بيدها حجرا لاستخدامه فى حالة عدم اصابتى الهدف .

وقد ضايقتنى أيضا تلك الاصوات التى تنبعث من مختلف أنواع الحيوانات والحشرات فى الريف ، تلك الاصوات التى لا يعرفها ساكن المدينة ، فقد ولدت أنا مثلا فى مكان لا تنبعث فيه الا أصوات الآلات ، ولا يبرق الا وهج السيارات المرور . وعندما أطلقت الخفافيش أصواتها الرفيعة الى جوار نوافذ مخدعنا ليلا ، ثارت أعصابى ، كما أرعبنى صوت خوار الماشية وغيرها من الحيوانات الاخرى .

وكانت عجول مزارع مجاور تتسلل الى حديقتنا من آن لآخر ، فيأتى صاحبها لاعادتها ، ويقول لنا لاتدعها تشعر أنك تخاف منها ، وتذكر انها أكثر خوفا منك من خوفك منها !

وكان هناك أيضا الجليد .

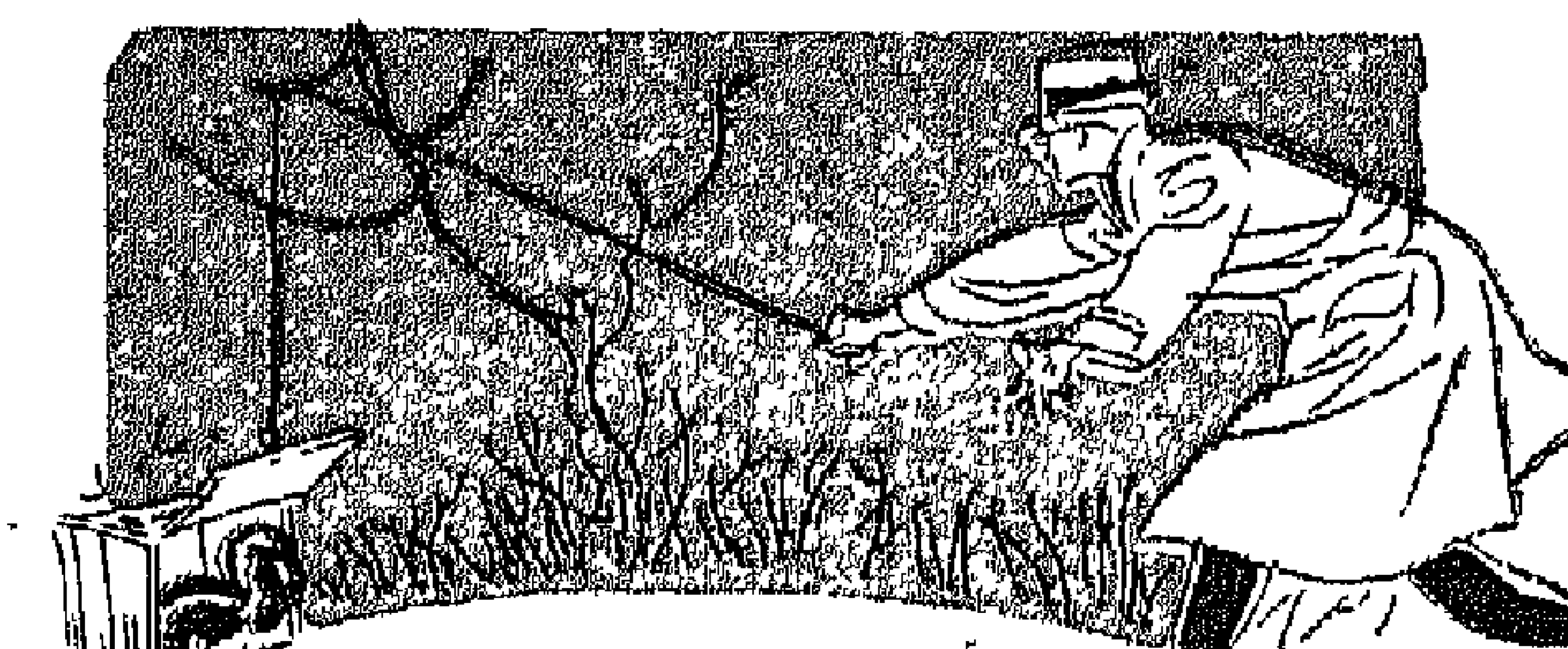
ولسبب لم أستطع معرفته بعد ، أصبحنا الآن محاطين بكميات من الجليد لم نر لها مثيلا من قبل ... وفى كل مرة يكون لدينا فيها موعد ، أو رغبة فى الخروج لشراء شىء أو لاداء عمل عاجل ، كنا نواجه متاعب جمة فى قيادة السيارة ، حتى اننى كلما ضغطت على مفتاح السرعة ، انزلقت السيارة الى حقل حنطة !

وكنت أخرج أنا وزوجتى — مرة على الاقل كل أسبوع — وقد ارتدينا أفخر ما لدينا من ثياب ، وتعطرنا بالروائح الجيدة ... فلا تلبث السيارة أن تغوص بنا شيئا فشيئا فى الجليد ! وبينما أحاول أن أدير عجلاتها ، تذهب زوجتى الى المنزل ، لتعود بعد قليل ، وهى تبدو كزعيمة من زعماء ثورة الفلاحين ، وقد حملت

بيدها جاروفا للفحم وآخر للجليد ..

ونبدأ فى احداث فراغ تمر منه السيارة، ولكننا لانكاد ننتهى ، وأعود الى عجلة القيادة ، حتى تسير السيارة قليلا ، لتقفز مزمجرة ، وتستقر مرة أخرى، كخرتيت عجوز وجد بركة ماء جديدة.

ونظل كذلك ، حتى يأتى الينـــا مزارع من الجيران بمحراثه ليجذب السيارة الى الوراء ، ويتركنا واقفين



وســــط أطلال من الوحل الممزوج بالجليد .. !

واختفى الجليد فى أواخر مارس، ولكنه لم يلبث ان عاد فى ابريل، فأحال كل شيء الى أرض شتوية عجيبة ، والتصق بكل شيء ، حتى جـــذوع الأشجار والعصافير ..

وعدت أبادل زوجتى النظرات ، وقد اختمرت نفس الفكرة فى رأسينا .. الجنوب .. !

ان ما نحتاج اليه هو جو مريح طيلة العام ، فيه كثير من الشمس وقليل من الرطوبة وقدر معقول من الحشرات!

وأدركت أننا نكاد نصف كاليفورنيا نفسها ...

وفى ذات يوم ، بينما كنا نتناول طعام الغداء فى حديقـــة المنزل ، اذ طرحت رأسى الى الوراء . ونظرت الى السماء قائلا :

ـــ هل تذكرين ، كيف كانت السماء زرقاء فى الصحراء !

فنظرت زوجتى صـــوب الجنوب الغربى .. وقالت بعد تفكير :

ـــ والزهور فى باسادنيا !

ـــ وكلاب البحر فى سانت مونيكا

ـــ والحديقة المملوءة بالمتشردين فى لوس انجيلوس ؟

ـــ واليوم الذى شاهدنا فيه جين راسل .. !

وبعد ستة أسابيع ، كنا فى طريقنا الى هناك .....

***

بلغت سن الاربعين خلال رحلتنا الى كاليفورنيا وقد صـــدمتنى تلك المفاجأة ، لا لاننى لم أتوقعها، فاننى على أية حال كنت فى التاسعة والثلاثين فى العام الماضى ، ولكن الفرق بين معرفة انك فى التاسعة والثلاثين وبين ادراكك فجأة انك بلغت الاربعين هو كالفرق بين اتصال طبيب الاسنان بك تليفونيا ليقول لك ان دورك لن يحل قبـــل

أسبوع وبين سماع صوته يقول لك ..

— هيا .. ان الدور عليك !

لهذا صدمتني هذه الحقيقة صدمة عنيفة ...

ان بلوغ الاربعين شيء يمكن أن يحدث لمدرسي المدارس ، والعمات ، والافيال ، وكبار الممثلين ، والآباء ، وسائقي العربات ... أما لي انا !

انني لم اتغير طوال السبعة والعشرين عاما الماضية ... بل الذي تغير هو تلك الشخصية التي كانت تحدق الى من المرايا اثناء حلاقتي لذقني !

ان كثيرين تركوا آثارهم للعالم في سن الاربعين ، ، اما أنا فانني لم أكد أجد المكان المثالي للعيش فيه .. ولو قدر لي أن أعيش حتى اجده ، فلن أجد الوقت الكافي للحياة فيه .

قد تبدأ الحياة حقا في الاربعين .. ولكن النكتة هنا ، هي انك ستكون في الاربعين ، عندما تكون هي لا تزال في البداية !

***

وبعد عيد الميلاد بيومين ، بلغنا ساحل الباسيفيك ، وبدأنا نبحث عن منزل نقيم فيه . اننا لم نقرر بعد أين سنعيش في كاليفورنيا !

انها ولاية تبلغ مساحتها ٩٠٠ميل طولا في ٣٠٠ ميل عرضا !.

وكانت معنا خريطة حصلنا عليها من محطة للبنزين ، فوقفنا أمام مخزن للادوية في (باسادنيا) وبدأنا نبحث عن منزل المستقبل .

كان في امكاننا أن نستبعد أجزاء كثيرة ، حتى قبل أن ننظر اليها على الخريطة . فسان فرنسسكو مثلاهي كما نعلم من أروع وأكبر المراكز في الولايات المتحدة ، ولكن الجميع يقولون أن فيها كثيرا من الضباب ... واستبعدنا ايضا مناطق اخرى كبيرة من كاليفورنيا لمجرد انها صحراء أو جبال ، فالاولى حارة جدا ، والثانية كثيرة الجليد ، كما اننا لا نريد الحياة في البراري .

ولكنك اذا استبعدت مناطق البراري في كاليفورنيا ، فلن يتبقى أمامك الا شريط رفيع من الساحل .

وفي خلال الايام الخمسة التالية ، أخذنا نطوف بأرجاء الساحل في خط متعرج بدأ من سانتا بربارا حتى الحدود المكسيكية ... وأخيرا ظننا أن سان ديجو هي المكان المريح الذي لا نزاع فيه .. ولكننا خشينا أن نغامر بقطع ٣٥٠٠ ميل لكي نختبر هذا المكان ..

وهكذا جربنا أخيرا منطقة لوس انجيلوس ، التي كنا نعرفها من قبل .

وفى ذات صباح وجدنا المكان المناسب، وهو مدينة صغيرة على الساحل ، لا تبعد أكثر من ساعة بالسيارة عن وسط لوس انجيلوس ، وهى تطل على مياه الباسيفيك الزرقاء ، وتقع على سفح تل صغير تحيط بها الاحراش، وحولها منظر جميل رائع ...

لقد كانت هى ما نبحث عنه حقا. واستأجرنا منزلا يبدو أشبه ما يكون بدار منتج سينمائى على الشاطىء، ثم أدخلنا الطفلتين فى مدرسة، وشرعنا فى الاستقرار .

لقد وجدنا المكان المثالى أخيرا . كانت هناك كمية كبيرة من أشعة الشمس ، والجو الجاف المنشط .. وهنا نستطيع أن نلبس ثياب الصيف طوال السنة ، ولا نشعر قط بالتعب، ويكفينا خلال الليل ملاءة خفيفة للغطاء .

لم يكن هناك ما يدعو للشكوى من هذا المكان ، ولم يعد فى استطاعتى أن أقول لزوجتى .. أنظرى الى هذا الجو السيىء فى الخارج ، ومن الغريب أن هذه الحالة نفسها ملأت نفسى مللا ..

اننا قبل أن نصل الى هنا كنا دائمى التنقل منذ سنوات ، لم نشعر قط باستقرار ، بل كنا متلهفين دائما لان نتبع الشمس وأحلامنا فى مسيرها أما الآن فقد انتهى البحث ووجدنا الاوانى الذهبية .

هذا المكان يقطنه أناس بحثوا عنه طويلا ووجدوه ... ليس هناك من ولد أو نشأ فيه . كل انسان انتقل الى هنا ولم تتح له الفرصة لكى يصبح منتميا اليه .. فالبعض يعود الى داره، والبعض يصل وقد تقطعت أنفاسه، ولهذا كانت تجارة البيوت رائجة فى المدينة الى حد بعيد ، فكل بيت فيها معروض للبيع .

ان عقيدة المكان الكامل قد جلبت كثيرين من الحجاج الى هذا المكان ، كلهم يعتنقون نفس المبدأ العجيب.. وفى هذا المكان النموذجى ، يجب أن يكون كل شىء نموذجيا ، وهكذا كان الساكنون فيه يصححون الاشياء التى لا يحبونها فى مسقط رأسهم ، كأسماء الحوانيت ، والاعمال وغيرها ...

حتى الكلاب التى تقطن المنطقة ، كانت كلها من النوع الفرنسى الارستقراطى الذى عنى أصحابه بنظافته وزينته ، وكل منها ينظر الى الآخر فى شموخ وكبرياء من وراء أشجار الكافور فاذا ظهر بينها كلب فقير يبحث عن العظام بين الفضلات، قاطعته الكلاب الاخرى !

ورغم الجمال الذى يسود هـــذا المكان ، فقـد كان الحنين الى الوطن يدفعنا أحيانا الى التفكير فى أماكن أخرى غير نظيفة كنا نعيش فيهـا ؛ حيث يتحدث النـــاس بعضهم الى بعض من وراء أسوارهم الخلفيـــة الكئيبة المنظر ..

والواقع اننا بعد عثورنا على المكان الكامل للعيش فيه ، لم نكن على ثقة تماما مما سوف نفعل فيه .

انك لا تستطيع أن تجلس على تل يطل على الباسيفيك ، لتشاهد المنظر الجميل طوال اليوم ، والا انتهى بك الامر الى الجنون ...

وبدأت مارى تفكر فى المزارع الذى اعتاد أن يركبهـــا الى جواره على المحراث ، بينما فكرت جين فى الليالى التى كانت تنزلق فيهـا على البركة الصغيرة فى المزرعة ، بينما فكرت انا وزوجتى فى أصدقائنا فى تورنتو .

ونســيت على الفور كل جمال فى اليوم المثالى الذى مر بنا .. !

ونسيت كل شىء عن الجو وتقلباته ، حتى خيل الى لو ان حياتى بدأت من جديد ، لما فكرت فيه قط ... لم أعد أنظر الى خريطة جوية ، أو أستمع الى التنبؤ الجوى ... والحقيقة انك اذا بدأت تفكر فى الجو ، فانه سيأخذ من حياتك الكثير ، وليس لديك مثل هذا الوقت لاضاعته فى مثل هـــذا التفكير .. !

قلب كبير ..

كنت فى ايام دراستى فقيرا لا استطيع شراء الكتب ، ولهذا كنت اطالعها فى محال بيع الكتب ، وكنت اضطر احيـــانا الى التردد عليها يوما بعد آخر حتى اتم قراءة الكتاب .

وحدث مرة انى ترددت على احد المحال خمسة ايام متتابعة لقراءة كتاب كنت مهتما بمطالعته ... ولما كنت تواقا لاقتناء هذا الكتاب ، فقد اقترضت مبلغا من صديق ، وذهبت الى المحل لشراء الكتاب .

وهناك وجدت الكتاب موضوعا على رف خاص وأمامه كلمة « محجوز » واحسست بخيبـــة أمل شديدة ، وشرحت ظروفى لصاحب الحانوت ، فاذا بالرجل يبتسم فى ود ... ويقول :

ـ لقد وضعت هذه الكلمة أمام الكتاب حتى لا يباع قبل ان تنتهى انت من قراءته .

« يوكيو تاناكا ـ اليابان »


هرب من الأسر ٤ مرات

كتاب الشهر

ملخص عن كتاب The One That Got Away

بقلم كندال برت وجيمس ليسر

كان فرانز فون فيرا من أكثر الطيارين الالمان حماسة وتهورا فى خلال الحرب العالمية الثانية ، وعندما وقع فى أسر البريطانيين قرر ان يهرب من معسكر الاعتقال .. وقد افلح فى ذلك ثلاث مرات أعيد بعدها الى الاسر .. ولكنه تمكن فى المرة الرابعة من الفرار والعودة الى وطنه ، حيث أصبح خطرا شديدا يهدد أمن بريطانيا وسلامتها

وكانت الخطط والوسائل التى اتبعها فون فيرا تشهد كلها بما يتمتع به هذا الشاب من براعة وذكاء وسلامة فى التفكير وسرعة فى البديهة ، مما جعل قصة فراره اسطورة يتحدث بها كل من عرفه او سمع به .. وقد قام اثنان من المؤلفين الانجليز بتقصى هذه القصة من مصادرها البريطانية والالمانية وضمناها كتابهما الذى اطلقا عليه اسم

هربت من الأسر ٤ مرات

سار الضابط الالمانى فرانز فون فيرا عبر الممرات الطويلة المؤدية الى مركز التحقيق التابع لسلاح الطيران البريطانى فى « كوك فوسترز » ، حتى أدخلوه غرفة مؤثثة بأثاث فاخر ..

كانت الغرفة تموج فى ظلام حالك ، لا يبدده الا مصباح قوى للقراءة ، يلقى دائرة من الضوء على مكتب ضخم ، قبع خلفه احد ضباط السلاح الجوى البريطانى ، بوجهه النحيل الذى تغمره التجاعيد ، وحاجبيه الكثين وشاربه الكثيف .

وتحدث الضابط الانجليزى بلغة المانية سلسة رغم ما شابها من لكنة اجنبية .. فقال :

ــ اننى قائد السرب هوكس .. اجلس ايها الملازم ..

وضرب الاسير كعبى حذائه وهو ينحنى فى جمود ، وقد لاحظ اذ ذاك عصا ذات قبضة فضية تستند الى المكتب ، اعادت الى ذاكرته الصورة الكاريكاتورية التى ترسمها الصحف الالمانية للضابط البريطانى المتأنق ..

وقال الضابط البريطانى : ان اسقاط ١٣ طائرة بريطانية وتدمير ست أخرى على الارض رقم محترم جدا ! ..

وكان يبدو أن فى عباراته سخرية باردة ، ولا سيما عندما اردف يقول :

ـ اننى كبطل صغير من ابطال الحرب العالمية الاولى ، ليسرنى بصفة خاصة ان التقى بواحد من كبار ابطال الحرب الثانية ..

وقلد فون فيرا لهجته الساخرة وهو يقول ببطء :

ـ اننى لم اطالع شيئا من اعمالك الباهرة اثناء دراستى لتاريخ السلاح الجوى الملكى وانا مضطر لمقابلتك ، ولكننى لن أكشف لكم عن أيةمعلومات عسكرية .

وامسك برهة . . ثم اردف يقول فى سخرية وقحة :

ـ ولكن ما اغبانى ايها الميجور .. كان يجب أن أعلم أنك أنت الذى أسقطت طائرتى

ولم يقل قائد السرب البريطانى شيئا ..

وساد بعدئذ صمت طويل ، مالبث أن قطعه عويل صفارات الانذار بغارة جوية .. وتوالت الصفارات واحدة بعد اخرى ، حتى ملأ عويلها منطقة لندن بأسرها ..

وابتسم فون فيرا .. وهو يسمع صوت القاذفات الالمانية الكثيرة وهى تملأ الجو ..

كان ذلك اليوم هو يوم ٧ سبتمبر ١٩٤٠ ، ومعركة بريطانيا الجوية على أشدها .

ونهض قائد السرب البريطانى من فوق مقعده ، وامسك عصاه ثم اطفأ نور مصباح المكتب ، فغرقت الغرفة فى ظلام دامس .. وسار بعد ذلك نحو النافذة .

ورغم عويل صفارات الانذار ، فقد استطاع فون فيرا أن يدرك أن الضابط البريطانى يعرج فى سيره بقوة ، وان احد حذائيه يحدث صريرا اثناء سيره ..

لقد كان الضابط الذى يستجوبه يرتدى ساقا صناعية !

وقال الطيار الالمانى : اعذرنى ايها الميجور .. اننى آسف أسفا شديدا .. لم تكن لدى اى فكرة .

ولكن الانجليزى لم ينطق بكلمة .. بل ازاح احدى الستائر التى تحجب النافذة ، وراح يحدق فى ظلام لندن .

كان صوت عويل الصفارات قد تلاشى واحدة بعد الاخرى .. فأعاد هوكس الستار الى موضعه ، وعاد الى مكتبه ، حيث اضاء المصباح الصغير ووجه ضوءه حيث يجلس فون فيرا .. وقال :

ـ قل لى ايها الضابط .. من

هو الصديق الذى سيعنى «بسيمبا» ـ الاسد الصغير الذى تقتنيه ـ من بين اصدقائك فى قيادة الفرقة الثانية من سرب المقاتلات الثالث ؟ .. هل هو صديقك سانى ؟

وفغر فون فيرا فمه دهشة . . فهو منذ وقع فى الاسر من يومين ، لم يقل شيئا غير اسمه ورتبته ورقمه المسلسل .. ومع ذلك فان المحقق البريطانى لا يعرف اسم وحدته فحسب ، بل انه يعرف ايضا اسم الشبل الذى يقتنيه ، واسم التدليل لاخلص اصدقائه ..

وتبين من الطريقة التى يسخر بها هوكس من لقب البارون الذى يحمله فون فيرا انه يعرف حقيقته الزائفة .

وفى خلال الساعتين التاليتين ، ظل قائد السرب هوكس يواصل هجومه الجارف ، وصوته الساخر يحاول ان يمزق كبرياء الطيار الالمانى .. ثم راح يحدثه عن النصر المزعوم الذى فاخربه عقب احدى غاراته على انجلترا وكيف انه اسقط خمس طائرات انجليزية من طراز «هاريكين» ودمر اربعا اخرى كانت على الارض .. وهو النصر الذى اعتبر فى المانيا اعظم انتصار احرزه طيار مقاتل فى الحرب .. ثم قال هوكس :

ـ انك تعرف كما اعرف انا ايها البارون الذى اشتهر باسم «الشيطان الاحمر» او « مرعب السلاح الجوى البريطانى » انه لم يحدث شىء قط مما زعمت .. فان السلاح الجوى البريطانى لا يمكن ان يعانى خسارة تفقده تسعا من طائراته دون أن يعرف ذلك .

وراح هوكس يعدد نقط الضعف والثغرات التى تشوب قصة الانتصار المزعوم . . بينما جلس فون فيرا صامتا ، وقد كسا الخجل صفحة وجهه .. وهنا قال هوكس :

ـ لنفرض الآن أن زملاءك الاسرى عرفوا حقيقة مغامرتك المشهورة .. فكيف تعيش بينهم بعد ذلك فى معسكر الاعتقال . . انك ستكون موضع سخرية كل انسان !

وابتسم فون فيرا بسمة واهنة .. ثم قال :

ـ اننى اعرف الثمن الذى تطلبونه لكتمان ما تعرفون . . انكم تريدون معلومات عسكرية . . ولكننى لن اقول لك شيئا .. لقد جعلت من المستحيل على ان اعيش بين زملائى، ولكن الحل البديل الذى تطلبه ، سيكون اشد سوءا ، فانه سيجعلنى لا استطيع ان اعيش مع نفسى ..

وانتهت المقابلة .. دون ان يستسلم فون فيرا تحت وقع هذه المطرقة العنيفة .

وقبل ان يدق هوكس الجرس للحارس ليصحب الاسير .. التفت اليه فون فيرا وقال :

— ايها الميجور .. انني اراهنك بزجاجة شمبانيا مقابل عشر سجائر ، على انني سوف اهرب من الاعتقال في خلال ستة اشهر .

ومن حسن حظ هوكس انه لم يقبل هذا الرهان .. لانه لو فعل لخسره ! ..

***

كان فرانز فون فيرا يومئذ شابا في السادسة والعشرين ، مليئا بالطموح ، وقد التحق بسلاح الطيران الالماني منذ تكوينه ، وسرعان ما ادرك ان الطريق الوحيد للتقدم ، هو أن يجعل الناس يتحدثون عنه .. وكان في الواقع يتمتع بروح جريئة مغامرة ، فحاول ان يتفوق على كل زملائه في معارك صورية ، وراح يقوم بحركات مختلفة بطائرته ، كالهبوط تحت الكباري والقيام بألعاب بهلوانية بطائرته فوق بيت فتاته .

وفي الوقت الذي كان فيه بقية زملائه يقتنون الكلاب الصغيرة او الصقور .. كان فون فيرا يقتني شبلا صغيرا ! .. ولكي يضيف الى عظمته سحرا جديدا ، اضفى على نفسه لقب البارون .

وفي الغارة العاشرة التي قام بها فون فيرا على بريطانيا — بعد مغامراته الاخيرة — أسقطت طائرته ، ولكنه كان قد احرق كل ما معه من اوراق عقب سقوطه مباشرة — على عكس ما كان يفعله زملاؤه الذين افادوا باهمالهم قلم المخابرات البريطاني بما كانوا يحملونه معهم من اوراق ووثائق وخرائط وغيرها

وبعد الاستجواب الاول .. اقتنع فون فيرا أن الزعماء الالمان كانوا على حق عندما قالوا له ان الانجليز أغبياء فقد أرسلوا اليه ضابطا برتبة (كابتن) قدم له سيجارة واخذ يحدثه عن السياسة الالمانية ومبادىء النازي ومطالب المانيا بشأن المستعمرات ؟ حتى ارتاح فون فيرا لانه لم يسأله شيئا عن المعلومات العسكرية ، فانطلق يحدث الضابط الانجليزي بحرية .. ولكنه ادرك في النهاية أن هذه المقابلة قد دبرت بدهاء ، وان هذا المحقق كان يختبر قدرته فقط ، ليقرر اى الوسائل الفنية التي تستخدم معه في التحقيق القادم للحصول على

افضل النتائج .

ولم ينته المحققون مع فون فيرا الا بعد ان واصلوا استجوابه ثلاثة اسابيع كاملة ، لم يدل خلالها بأية معلومات عسكرية من اى نوع ،بينما زوده الانجليز بصورة كاملة من وسائلهم وفنونهم ، مما كان له فيما بعد اثر هام جدا ، وكان لمعلوماته عن طرقهم وخدعهم نتائج بعيدة المدى لكل من سلاح الطيران الالمانى والبريطانى

***

وأرسل فون فيرا الى معسكر اعتقال الاسرى فى (جزيرة هشول) وكان يقع فى احراش بريةنامية تبعد ثلاثة كيلومترات عن البحر الايرلندى وكان المعسكر عبارة عن مبنى من الحجر الاصفر يحتوى على ٤٥ غرفة وقد فرضت عليه حراسة شديدة ، ولاسيما بعد ان حاول احد الاسرى من قواد الغواصات الالمانية الهرب فلم ينجح الا فى الوصول الى السور الداخلى من الاسلاك الشائكة .

وفى خلال عشرة ايام من وصوله الى جريز ديل هول ، كان قد أعد خطة للهرب ، أقرها زملاؤه الآخرون ، وتتلخص تلك الخطة فيما يلى :

كان ٢٤ اسيرا يخرجون الى الطريق للتنزه مرة كل يومين ، حيث يتجهون الى الشمال او الى الجنوب ، وفقا لاشارة الجاويش الذى كان يصحبهم ممتطيا صهوة جواده .. وكانوا يسيرون فى خطوات منتظمة مسافة ثلاثة كيلومترات ، ثم يستريحون عند منحنى فى الطريق مدة عشر دقائق يعودون بعدها الى المعسكر .

وكان النظام شديدا والرقابة قاسية اذ انه بالاضافة الى الجاويش الفارس كان هناك ضابط واربعة من الحراس يسيرون فى مقدمة طابور الاسرى ومثلهم عند المؤخرة .

وكانت المنطقة الشمالية مكشوفة لا تهيىء لمن يرغب فى الفرار فرصة طيبة للاختفاء ، بينما كان هناك سور حجرى فى الجزء الجنوبى ، يستطيع أن يخترقه ويزحف خلفه حتى يصل الى مكان لايمكن رؤيته منه من الطريق ، ثم يهرب الى الاحراش الكثيفة ،ومنها الى الساحل حيث يحاول ركوب سفينة محايدة .

ووافق اكبر الضباط الالمان الاسرى فى المعتقل وهو الماجور فانيلسا على هذه الخطة باعتبارها افضل ما عرض عليه من خطط الهرب ، واعد مع بعض زملائه خريطة كروكية للمنطقة وملابس ثقيلة لفون

فيرا ، الذى استطاع بدوره تدبير ثلاثة شلنات من النقود الانجليزية وبعض قطع الشيكولاته التى اقتصدها من نصيبه فى الطعام .. وبعد يومين ، خرج المشروع الى حيز التنفيذ .

طلب الميجور فانيلسا الالمانى الى قائد المعسكر أن يغير وقت النزهة اليومية من منتصف الحادية عشرة صباحا الى الساعة الثانية بعد الظهر بحجة ان وقت الصباح يتعارض مع فصول المعسكر التعليمية .. وقد اراد بذلك أن يتيح لفون فيرا الفرار فى وقت قريب من موعد انتشار الظلام .

وعندما بارح طابور الاسرى المعسكر اصدر احدهم امرا بالاتجاه جنوبا ، ولم يشعر احد من الحرس بما حدث اذ ظن الضابط أن الجاويش هو الذى أمرهم بذلك ، بينما ظن الجاويش ان الضابط هو صاحب الامر .

وعندما حان موعد الراحة المعتادة للاسرى ، وقف الحراس عند احد جانبى الطريق ، بينما تجمع الاسرى عند الجانب المضاد فى مواجهة السور الحجرى .. وبعد قليل ظهرت عربة يبيع صاحبها الخضر والفاكهة ، فشغلت الحراس قليلا اذ تجمعوا حولها وابتاعوا من صاحبها بعض التفاح .

وعندما انصرفت العربة تحرك فون فيرا وراء اطول زملائه ، ثم التصق بالحائط وبعد أن اشار له بعض زملائه اشارة تدل على أن الحراس غير منتبهين اليه ، القى بنفسه الى الحقل الذى يقع وراء السور الحجرى ، فسقط فيه متدحرجا دون أن يحدث صوتا .

وبينما كان الاسرى يعيدون تنظيم انفسهم فى طابور العودة ، شاهدت سيدتان تقفان على بعد نصف ميل ما ارتكبه الاسير الهارب ، فبدأتا بالصراخ والاشارة بأيديهن ، ولكن أحد الاسرى اخذ يصيح ويحرك يديه بسرعة ، فتبعه زملاؤه ، فأخفوا صراخ السيدتين ولم يفقه الجاويش معنى لاشاراتهما .

وما كاد الطابور يبتعد مسافة ٣٠٠ متر ، حتى انطلق الاسرى الالمان ينشدون اغنية خاصة اتفقوا على ترديدها ليدرك فون فيرا ان امره لم ينكشف بعد ..

ونهض فون فيرا من مكانه ، ثم انطلق بعيدا حيث اختفى فى دغل ملىء باشجار الصنوبر الكثيفة ، على الجانب الاخر من الطريق .

وحاول الجاويش ان يمنع الاسرى من الغناء ـ الذى كان محظورا عليهم ـ ولكنهم رفضوا الاستماع لامره ، فارتاب الرجل فى وقوع شىء ما ، فأخذ يطوف بالطابور ذهابا وايابا وهو يحاول ان يحصى عدد الاسرى ... ولكن هؤلاء اخذوا يتحركون من اماكنهم بطريقة جعلت من العسير عليه معرفة عددهم بالضبط ، وهى حركة اقترحها فون فيرا .

واضطر الجاويش ان يخرج مسدسه وان يأمرهم بالوقوف ، حيث اشترك مع الضابط فى احصائهم فتبين ان عددهم ٢٣ فقط ..

لقد اختفى احد الاسرى اذن !

***

لايزال سكان تلك المنطقة يذكرون الضجة التى تلت ذلك .. فقد اشترك كل جهاز مكافحة الهرب فى المنطقة فى البحث عن الاسير الهارب . وانطلقت السيارات الصغيرة والكبيرة وحاملات مدافع برن والدراجات البخارية ورجال الحرس الوطنى والبوليس فى البحث عن فون فيرا .. كما استدعيت ثلاثة كلاب بوليسية للاشتراك فى اقتفاء أثره ، ولكن المطر الذى هطل يومئذ جعل وجودها بلا جدوى .

ورغم كل هذا الجهد .. فقد ظل فون فيرا مختفيا تماما ثلاثة ايام بلياليها ..

وبينما كانت الايام تمر دون ان يبدو اى أثر له ، كانت قوات اكثر من الجيش والبوليس تستدعى للمساهمة فى البحث عنه ، حتى بلغ عددهم بضعة الاف ..

وكانت هناك اكواخ حجرية صغيرة فى المناطق النائية من منطقة البحيرة تستخدم لتخزين علف الماشية فأخذ رجال الحرس الوطنى يطوفون بها واحدا بعد اخر ..

واخيرا وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الرابع من هربه ، كان اثنان من الحرس الوطنى يتجولان فى منطقة (براوتون ميلز) التى لاتبعد عن الساحل الا سبعة او ثمانية اميال فلاحظا أن قفل أحد الأكواخ قد تحطم ..

وفى داخل هذا الكوخ عثرا على الاسير الهارب !

***

بعد ان امضى فون فيرا ٢١ يوما فى الحبس الانفرادى عقابا له على هربه ، أرسل الى معسكر آخر للمعتقلين فى (سوانويك) ..

ولما كان قد نجح فى الفرار مرة ،

فقد كان على ثقة من انه سيستطيع الفرار مرة اخرى ، ومن ثم فقد بدأ فورا فى دراسة وسائل الحراسة فى المعسكر الجديد بكل دقة ..

كان معسكر سوانويك محوطا بسورين كثيفين من الاسلاك الشائكة، بينهما منطقة ضيقة تحرس باستمرار، كما كانت هناك ابراج للحراسة بين كل منها ٥٠ مترا على طول السور الخارجى وقد جهزت بمدافع رشاشة واضواء كاشفة فى المساء ..

وقرر فون فيرا ان الطريق الوحيد للفرار من هذا المعسكر هو حفر نفق تحت الارض وكان المبنى الذى وضع فيه لا يبعد عن السور الداخلى الا مترا ، ولهذا قدر ان يكون طول النفق ١٣ مترا ، وان يبدأ من غرفة صغيرة مهجورة فى الطابق الارضى .

كان المشروع يبدو مستحيلا ، وفى خلال ايام قلائل ، انضم اليه خمسة اسرى آخرون بحماسة ، وسار العمل منذ البداية سيرا طيبا ، رغم العقبات الكثيرة التى واجهته . وكان فون فيرا يضحى بغدائه ليستطيع ان يخصص ٦ ساعات يوميا للحفر .

وقد تعاون كل الاسرى اثناء عملية الحفر ، فكان البعض يقف عند مواقع استراتيجية ويصيحون بتحذيرات خاصة عندما يشكون فى ان صوت الحفر ونزع الاحجار قد وصل الى آذان الحراس ، وعندما اصبح مستحيلا اخفاء الصوت ، اغرقه الاسرى وسط اغانيهم الجماعية والعزف على آلة الهارمونيكا ولعب الورق بصوت مرتفع .

وبعد شهر واحد . . تم حفر النفق الذى كان يشبه جحور الارانب، ولا يكاد يكفى الا للزحف خلاله وفى نفس الوقت كان الخمسة المشتركون فى الحفر — اذ تخلى السادس عن العمل لتشاؤمه من النجاح — قد اعدوا مشروعاتهم لمبارحة انجلترا ، فباعوا خاتما ماسيا لاحد الحراس بمبلغ جنيه ، وزعوه عليهم فنال كل منهم اربعة شلنات لركوب الاتوبيس، وكان اثنان يأملان فى الوصول الى ليفربول حيث يتسللان الى مركب محايد الى ارلندا .. بينما قرر اثنان آخران الذهاب الى جلاسجو لمحاولة ركوب سفينة محايدة .

أما فون فيرا فقرر ان يذهب وحده ..

وكانت تجاربه السابقة قد أقنعته أن أي أسير ألمانى فى بريطانيا لن يستطيع الفرار الا اذا تمكن من مبارحة البلاد قبل ان يبدأ البحث عنه .. والطريقة

الوحيدة لذلك هي .. الجو !

وهكذا قرر فون فيرا ان يتبع اجرأ وسيلة ممكنة فى الفرار ، وهي الذهاب الى اقرب مطار بريطانى حربى ، ومحاولة الاستيلاء على طائرة للفرار بها .. وقرر ان يزعم انه طيار هولندى سقطت طائرته وهو عائد من احدى المهام ..

وكان هذا امرا محتملا يومئذ لوجود عدد كبير من اللاجئين الاوربيين الذين يعملون فى سلاح الطيران البريطانى ، والذين يتكلمون الانجليزية قليلا ويرتدون ثيابا غير مألوفة نسبيا ، وسيزعم انه من سرب القاذفات المختلطة الخاص التابع للقيادة الساحلية فى ابردين .

وحلت مشكلة البدلة الرسمية عندما تبرع له احد زملائه الاسرى برداء طيار احتفظ به بطريقة ما داخل المعتقل ، بينما اعطاه آخر حذاء طيار ومنحه ثالث قفازات جلدية ، وكفلت له ادارة التزييف فى المعتقل الحصول على اوراق شخصية بريطانية ..

وفى الساعة التاسعة من مساء يوم ٢٠ ديسمبر ، تسلل فون فيرا من النفق وهو يرتدى بيجامة لوثها باللون الاسود فوق حلة الطيران لحمايتها .. وكانت الاحوال ملائمة تماما ، فقد كان الظلام حالكا ، وهناك انذار بغارة جوية ، جعل الاضواء الكاشفة تتجه نحو السماء . ورفع زملاؤه عقائرهم بالغناء لتغطية اى صوت قد يصدر اثناء الفرار ، وتبعه زملاؤه الاربعة ، واحدا بعد الآخر ، ثم التقوا فى مخزن يبعد حوالى ٢٠٠ متر ، وهناك ودعوا فون فيرا وانطلق كل منهم فى طريق منفصل

وزحف فون فيرا على مقربة من المخزن ، وظل ينتظر حتى الثالثة بعد الظهر ، ولكن صفارة الامان لم تطلق بعد ، فنفد صبره ، وبرز من مكمنه ، وانطلق يعبر الحقول . ولعله كان يسرع فى سيره لو ادرك ان امر الفرار قد اكتشف بعد ان ضبط احد زملائه الفارين وهو يحاول سرقة دراجة لأحد رجال البوليس

وسار فون فيرا بضعة اميال على طول الطريق الزراعية دون ان يلتقى بانسان ، وعند الساعة الرابعة والنصف ، سمع صوت قطار يسير فى منطقة قريبة ، فأسرع اليه وتسلق احدى عرباته ..

والتقى به سائق القطار فزعم له انه يدعى الكابتن (فون لوث) من الطيارين الهولنديين الذين يعملون بسلاح الطيران الانجليزى وانه اضطر للهبوط بطائرته فى ويلنجدون بعد

قيامه بغارة على الدانمرك ، وطلب مساعدته فى الوصول الى اقرب مطار بريطانى بسرعة .. او ارشاده عن اقرب تليفون ..

وبعث السائق مساعده هارولد مع فون فيرا الى اقرب محطة ، فبلغاها فى الساعة الخامسة والنصف صباحا، وهناك طلب التحدث بالتليفون لارسال سيارة من اقرب مطار وسأله عامل التذاكر المرتاب بضعة اسئلةعن الحادث ، ثم اتصل بالبوليس تليفونيا

وبينما جلس فون فيرا وبائع التذاكر والحمال يحتسون الشاى فى انتظار البوليس ، استطاع الالمانى العبقرى أن يؤثر فى عامل التذاكر بقوة منطقه ولباقته فى الحديث ، حتى اقنعه انه ينتمى الى سرب خاص يقوم بتجربة سرية ، وانه يجب ان يعود الى قاعدته سريعا . وعندئذ ابدى العامل اسفه ، واتصل على الفور بمطار (هاكنول) وشرح للضابط النوبتجى قصة فون فيرا باختصار ، ثم اعطى السماعة للالمانى الذى اجاب على اسئلة الضابط الكثيرة ، فوافق فى النهاية على ان يرسل سيارة لاحضاره .

وقبل السابعة ، وصل اثنان من رجال البوليس فى ثياب مدنية وجاويش فى ثوبه الرسمى ، وراحوا ينظرون الى فون فيرا فى سكون ، ثم سأله احدهم فجأة بالالمانية عما اذا كان يعرف الحديث بها ، فأجاب فون فيرا بالانجليزية قائلا :

ــ اجل اننى اتحدث الالمانية قليلا كأغلب الهولنديين .

وبعد قليل وصلت السيارة التى نقلته الى مطار (هاكنول) القريب

والواقع ان الضابط النوبتجى فى المطار لم يرسل السيارة الا لانه شك فى قصة الكابتن (فان لوث) وحقيقة شخصيته ، اذ وجد انه من العسير ان يصدق ان قاذفة قنابل يمكن ان تسقط فى الظلام دون ان يصاب أحد فيها بأذى ، ولذا قرر أن يبحث بنفسه قصة فون فيرا . وعندما وصل فون فيرا الى غرفة الضابط ، كان هذا قد اغلق كل الابواب عدا المدخل الرئيسى ، ثم اشعل نارا حامية فى الموقد ، حتى يضطر فان لوث الى خلع معطفه الثقيل فتبدو حلته الرسمية

ونظر الضابط النوبتجى امامه فرأى شابا طويل القامة اجعد الشعر ، له وجه طفل برىء وعلى شفتيه ابتسامة حلوة ، ولكن حلة الطيار التى كان يرتديها من نوع غريب .

وقال الضابط وهو يتظاهر بالانهماك فى اغلاق النوافذ :

ـ لن أؤخرك طويلا يافان لوث .. اذا وجدت المكان دافئا ينقصه الهواء المنعش فاخلع معطفك . . واجلس على حريتك .

ولكن فون فيرا تفادى هذه الخدعة اذ ابتعد عن النار ، وقال :

ـ لاداعى للازعاج .. سوف تصل طائرتى من ابردين فى اية لحظة .

وانتهى الضابط من اغلاق النوافذ فعاد الى مكتبه وصافح فون فيرا ، فقال له هذا :

ـ اننى آسف لازعاجك ، ولكنى سأذهب لانتظر الطائرة الى جوار برج المراقبة .

فأجابه الضابط :

ـ لا داعى لذلك .. ابق هنا فى الدفء ، وسوف يتصل بنا برج المراقبة بمجرد ظهور طائرتك

وطلب الضابط الى فون فيرا ان يعيد سرد قصة حادث سقوططائرته ليضمنه تقريره ، فراح فون فيرا يسرد التفاصيل بسرعة ، بينما كان الضابط يسجل بعض الملاحظات ويوجه بعض الاسئلة . وأخيرا قرر ان يتصل تليفونيا بالقاعدة الجوية فى ابردين ، ولكن الاتصال كان سيئا للغاية بسبب الاحوال الجوية ، مما اضطر الضابط الى اضاعة وقت كبير فى اعادة عباراته بصوت مرتفع .

واستأذن فون فيرا للذهاب الى دورة المياه ليغسل يديه ، وهناك اغلق الباب خلفه ، ثم تسلل من النافذة الى خارج المبنى ، وانطلق سريعا الى حظائر الطائرات فى المطار

كان الوقت الآن هو العامل الحاسم فى الموضوع ، ولاجزاء الثوانى قيمة كبرى

وشاهد فون فيرا فى مقدمة الحظيرة الثانية مجموعة من طائرات الهاريكين .

والتقى الاسير الهارب بعامل ميكانيكى ، فقال له انه يريد ان يرى كيف يحلق بطائرات الهاريكين .

فنظر اليه الميكانيكى ـ وهو عامل مدنى بمصانع رولز رويس ـ فى حيرة وقال :

ـ يبدو ياسيدى انك حضرت الى مكان غير الذى تريده . . فهنا مؤسسة خاصة ..

ولكن فون فيرا لم يضطرب . . بل قال :

ـ اعرف ذلك ، وقد ارسلنى الضابط النوبتجى اليك .. اننى فى عجلة شديدة .

وظن الميكانيكى ان فون فيرا من الطيارين المدنيين التابعين لقيادة النقل الجوى ، وانه حضر لتسلم

طائرة « هاريكين » ، فقال له :

ــ لن استطيع ان افعل لك شيئا ، حتى توقع على دفتر الزيارات . فانتظرني قليلا حتى احضر المدير .

وعاد الميكانيكي بعد برهة ومعه رجل يرتدي بذلة ذات لون خاكي ، ابتسم لفون فيرا وحياه في ابتهاج وقال له :

ــ لقد سمعت انك جئت لاخذ طائرة هاريكين ، فأرجو ان تصحبني لانهي اوراقك سريعا

فقال فون فيرا : انني في عجلة من امري ، وكل ما اريده الآن ، هو ان أتعلم طريقة قيادة طائرات الهاريكين .

فأجاب الرجل : يجب اولا ان توقع على دفتر الزيارات .

ثم سار وتبعه فون فيرا الى حظيرة المطار ، وعرف فون فيرا من دقات الساعة القريبة أنه أمضى وقتا كبيرا منذ ترك الضابط يتحدث الى مطار ابردين ، فكاد يفقد اعصابه ..

واخيرا وصلوا الى غرفة صغيرة ، قدم له فيها دفترا وطلب اليه أن يملأ بعض الخانات الموجودة به ، ثم طلب منه المدير الامر الكتابي بتسلم الطائرة ، فقال له انه في ملابسه وسوف تصل بعد قليل بالطائرة ، ولكنه توفيرا للوقت يريد تلقي بعض التعليمات عن كيفية التحليق بطائرات الهاريكين .. فوافق الرجل على ذلك .

وسار الميكانيكي نحو طائرة جديدة نزع عنها غطاءها ، وصعد فون فيرا اليها بينما راح الميكانيكي يشرح له عمل الآلات غير المألوفة في هذا الطراز وكيفية ادارتها ، وكان فون فيرا يصغي الى كل كلمة بدقة تامة ، ولا سيما الاشياء الجوهرية ..

وأدار فون فيرا مضخة للتزود بالوقود ، وبينما كانت الطائرة تهتز قليلا ، اذ سمع صوتا من فوقه يأمره في لهجة ثابتة : اهبط

ورفع عينيه الى اعلى ، فوجد نفسه يواجه فوهة مسدس اتوماتيكي وعينين زرقاوين باردتين .. وقال الضابط النوبتجي : لقد تحدثت الى ابردين ..

وادرك فون فيرا من لهجته .. ان امره قد انكشف ، فهبط في سكون .

وهكذا قبض على الاسرى الخمسة الهاربين جميعا في خلال ٢٤ ساعة من فرارهم ، وحكم على كل منهم بالسجن الانفرادي ١٤ يوما ، على ان يرحلوا بعد ذلك الى كندا مع مجموعة اخرى من الاسرى .

***

عندما ابحرت السفينة « دوقة

يورك » من ميناء جرينول باسكوتلندا يوم ١٠ يناير سنة ١٩٤١ ، كان على ظهرها ١٠٥٠ اسيرا ، وقد وضع فون فيرا تحت حراسة خاصة حتى ساعة رحيلها . . وعندما بلغت السفينة ميناء هاليفاكس الكندى ، نقل الاسرى بالقطار ، وكانت العربة التى وضع فيها فون فيرا تضم ٣٥ اسيرا و١٢ حارسا ، يتناوب الحراسة فى كل فترة ثلاثة منهم ، يقف احدهم فى اول العربة والثانى فى وسطها ، والثالث فى آخرها ، ولا يسمح للاسرى بالذهاب الى دورة المياه الا واحدا واحدا ، على ان يترك باب المغسل مفتوحا .

وكان الثلج قد اغلق النوافذ المزدوجة لعربات القطار ، ومع ذلك فقد حرم على الاسرى الاقتراب منها، وكانت وجبات الطعام تقدم لهم وهم على مقاعدهم .

ومع ان الطعام كان وفيرا وجيدا ، الا ان فون فيرا لم ينس رغبته فى الفرار ، وعندما علم ان القطار يسير على شواطىء بحيرة « سوبير يور » وهو فى طريقه الى المعتقل فى اونتاريو، ادرك انه سوف يمر على مقربة من الحدود ، فاذا استطاع الفرار فى مكان مناسب ، تمكن من الوصول الى الولايات المتحدة فى يوم عن طريق السيارات المارة .

وكانت الطريقة الوحيدة للفرار من القطار ، هى القفز من النوافذ الى الجليد فى الخارج ، وقد يكون هذا انتحارا اذا كان القطار سائرا بأقصى سرعة ، كما ان الاقدام على هذا العمل مستحيل اثناء وقوف القطار ، حيث يكون الحراس فى يقظة تامة . . ومن ثم فان افضل طريقة هى القفز بعد ان يبدأ القطار سيره بعد توقف ، وقبل ان ينطلق بأقصى سرعته ، على ان يكون ذلك قبل الفجر بقليل .

وركع فون فيرا تحت المقاعد ليرفع النافذة الداخلية مسافة قليلة تسمح لحرارة العربة بالوصول الى الثلج المتراكم على النافذة الخارجية ، وقد نجح فى عمل ذلك ، بينما كان زملاؤه الاسرى يراقبون الحراس . . وبدأ الجليد فى الذوبان ببطء شديد .

وبعد ٢٤ ساعة طلب فون فيرا الى الاسرى الباقين فتح اجهزة التدفئة فى القطار الى اقصى قوتها ، ليعجل بذوبان الجليد . . وكانت المشكلة التى تواجهه الآن هى كيفية فتح النافذة بعد ذوبان الثلج دون ان يراه الحراس . . وساعده الحظ على حل تلك المشكلة ، ففى خلال وجبة

العشاء ، اعطى الاسرى صندوقا كاملا من التفاح ، فأكلوه كله بشراهة ، مما ادى الى اضطراب فى جهازهم الهضمى ، دفعهم الى الوقوف صفا طويلا امام باب دورة المياه ، واضطر بعضهم الى الالتجاء الى دورة المياه الخاصة بالحراس ، مما حول انتباههم الى مراقبتهم فى مكان آخر ، ولم يبق فى العربة غير حارس واحد فى أكثر الاحيان .

وبينما كان القطار يبطىء فى سيره استعدادا للوقوف فى المحطة التالية ، وقف فون فيرا ونشر غطاءه الكبير ، ليخفى زميلا له انحنى على الارض وفتح النافذة الداخلية .. وما كاد القطار يتابع سيره بعد وقوفه ، حتى رفع كثيرون من الاسرى ايديهم طالبين الذهاب الى دورة المياه ، بينما اعاد احد الاسرى لعبة الغطاء المنشور ، وهكذا نهض فون فيرا ورفع مصراع النافذة الخارجية ..

وفى اللحظة التالية ، كان فون فيرا قد قفز من النافذة ، فسقط على الجليد مسرورا مبتهجا ، بينما اغلق زملاؤه النافذة دون ان يشعر احد من الحراس بما وقع !

ولم يكتشف امر فراره الا بعد ان قطع القطار مئات أخرى من الكيلو مترات !

***

وبعد ايام ، كان فون فيرا فى نيويورك ، يقص على الصحفيين انباء مغامرته العجيبة ، ويقول لهم انه قفز من القطار على بعد ١٦٠ كيلو مترا شمال اوتاوة ، بينما تقول السلطات الكندية انه فر على بعد ٥٠ كيلو مترا فقط من الحدود الامريكية !

وقد استخدم فون فيرا فى فراره قاربا وجده غارقا وسط الجليد ، فاستطاع ان يدفعه ببطء الى نهر سان لورنس شبه المتجمد ، وساعده الحظ ، فانطلق القارب به فى سهولة نحو الشاطىء الامريكى للنهر .

وما كاد يستقر هناك حتى وجد سيارة تحمل رقما من ارقام مدينة نيويورك بها ممرضة امريكية فسألها عما اذا كان فى ارض امريكية ، فقالت له انه فى اوجدنسبرج الامريكية ، وحينئذ ابتسم لها قائلا :

ــ انني ضابط فى سلاح الطيران الالمانى ، وانا .. كلا بل كنت اسيرا من اسرى الحرب !

واعتقلته ادارة الهجرة الامريكية بتهمة دخول البلاد بطريقة غير مشروعة ، ولكن الصحفيين تدفقوا على السجن الذى يقيم فيه ، حيث

وجـدوا مادة خصـيبة فى روايته للمغامرات العجيبة التى قام بها للفرار من الاسر ..

وطالبت كندا بتسليمه لها لمحاكمته بتهمة سرقة القارب الذى فر فيه ، بينما ادركت بريطانيا خطره على امنها بعـد ما عرفه من اسرار التحقيقات فيها ، فطالبت ايضا بتسليمه اليها .. وعلمت الدوائر القنصلية الالمانية أن هنـاك اتجاها فى واشنطون نحو تسليمه الى كندا ، فنصحته بالخروج من الولايات المتحدة سرا ..

ونجح فون فيرا فى اجتياز الحدود الامريكية عند « البازو » الى المكسيك متنكرا فى زى عامل مكسيكى ، حيث زودته السفارة الالمانية فى المكسـيك بجواز سفر تحت اسم مسـتعار ، وكفلت له العودة الى المانيا جوا بطريق ريو دى جانيرو وروما .

واخيرا وصل فون فيرا الى برلين يوم ١٨ ابريل ١٩٤١ ، حيث رقاه جورنج الى رتبة كابتن ، وهنأه هتلر بنفسه على فراره ، ومنحه وسـام صليب الفارس .

الاب فى الجامعة !

كنا اربعة نلعب البريدج عصر يوم من أيام الشتاء العاصفة حين دق جرس الباب . فقالت مضيفتنا : اغلب الظن أنه بائع الصحف ... ولكنها حين فتحت الباب وجدت فتاة صغيرة وصبيا يحملان الصحف على ذراعيهما .

وأوضحت الفتاة الصغيرة الأمر فقالت انها وشقيقها سينوبان عن أخيهما الاكبر فى توزيع الصحف ، لأنه يكسب مزيدا من المال فى ازاحة الثلوج التى تتراكم حول المنازل .

فقالت لهما ربة البيت : المؤكد أنكما أيها الطفلان شديدا الطموح الى هذه الدرجة التى تغريكما بالخروج فى مثل هذا الجو الردىء . ولكنكما على أية حال تستطيعـان شراء شىء من الحـلوى يعوضكما .. اليس كذلك ؟

فردت عليها الفتاة بلهجة جادة : لا يا سيدتى .. اننا نساعد والدتى على تدبير نفقات تعليم أبى فى الجامعة !!

(مسز بريزنر ـ مونتكلير)

كتاب الشهر

رسالة إلى إبنتى



بقلم كاترين جابرييلسون

The Story Of Gabrielle

انها عصارة قلب ام جمعت الى حنانها وعطفها قلبا شجاعا وروحا قويا . أم شاء القدر أن يمتحنهـا بأقسى ما يمتحن به الامهات من تجارب ، فقاومت في شجاعة، وواجهت الموقف العصيب بقلب عظيم ونفس رائعة .

انها قصة الأمومة والبنوة في اروع صورها ، وافجع مآسيها ، سطرها يراع الأم المنكوبة في صورة رسالة موجهة الى ابنتها المحبوبة ، التي هاجمتها المحنة فلم تفقد شيئا من هدوئها واتزانها، أو ابتسامتها الحلوة وشخصيتها الرائعة .

وسيرى القارىء في هذه السطور الصادقة ، ان الحياة لا تزال عامرة بالجمال والشجاعة ، رغم ما يكتنفها من فواجع ومحن ، وانه ليست هناك مشكلة لا يمكن مواجهتها بالصبر والهدوء والحكمة . مهما تكن ضخمة قاسية ..

وقد كتبت المؤلفة الامريكية الكبيرة بيرل باك تقول عن هذا الكتاب :

« انه اكثر الكتب الملهمة التي طالعتها في حياتي ، فقد ارتفعت بنا الكاتبة بايمانها الى حدود اللانهائية التي تكمن وراء هذا العالم ، وذلك في عبارات بسيطة ، يغذوها الحب الصادق ، دون أن تقضي عليها العاطفة » .

رسالة الى ابنتي

كنت في التاسعة من عمرك في ذلك الصيف ، فتاة صغيرة طويلة الساقين ، قبلت الشمس وجنتيها ، وتركت آثارا من أشعتها الذهبية على شعرها الطويل المسترسل

كنت قوية ، تتمتعين بصحة جيدة ، تفيضين بالحياة والروح التي لا تقهر ، وكانت لك مقدرة غير عادية على أن تتذوقي كل يوم من ايامك ، كأنما هو يومك الاول .. أو الاخير !

وكنت قد بعدت عنا شهرا في معسكر صيفي ، حيث كتبت الى بعد الاسبوع الثاني ، تلتمسين البقاء شهرا آخر ، ولم يكن في استطاعتنا ان تتحمل ذلك ، فضلا عن ان شقيقتك الصغرى « ديردر » كانت هي الاخرى بعيدة ، مما جعلني اشعر بألم الوحدة .

لقد كان البقاء بلا اطفال اربعة اسابيع كاملة امرا لا يطاق .

واستقبلناك يوم عودتك الى « ترورو » بولاية ماساشوسيت استقبال الضيف العزيز ، وجلسنا جميعا حولك ، نستمع اليك وانت منهمكة في سرد التجارب الجديدة التي مرت بك خلال هذا الشهر ، وكانت شقيقتك يومئذ في الثامنة من عمرها ، فوعدتها بأنها تستطيع ان تصحبك

فى الصيف التالى .

وعدنا ، وقد التأم شملنا مرة اخرى ، نقضى الايام الاولى من سبتمبر فى الطواف بشواطىء البحر ، نجمع محصولنا من القواقع والاصداف وقطع الاخشاب التى تقذفها الامواج ، والزجاجات المليئة بالرمال وقطع الفلين القديمة وكانت لك قدرة رائعة على القيام بهذا العمل ، دون ان تخفى عليك بارقة من الجمال العابر ، الذى لا تستطيعين العودة به الى المنزل .

وفى اواخر سبتمبر ، عدنا الى نيويورك ، حيث عدت انت وشقيقتك الى المدرسة ، وكنت انت فى السنة الرابعة ، وكانت المدرسات جميعا يعاملنك وكأنك فتاة ناضجة تماما .

ولقد كنت حقا فى نضج مستمر ، فقد كففت عن الحديث عن زيارة النجوم بعد منتصف الليالى ، وكنت تذهبين الى فراشك فى ثياب نوم انيقة كالكبار . واصبحت تكتبين شعرا بدلا من ان تلتقى بالاوشحة الملونة استعدادا لزيارة النجوم !

كانت كل التقارير المدرسية عنك طيبة للغاية ، وكنت أنا وأبوك سعيدين ، لان المدرسة كما يبدو كانت تدرك مدى ما تتمتعين به من طاقات متشعبة النواحى ، ومواهب مفرطة .

وقد كتبت مدرستك فى العام الماضى تقول : « ان جابى طفلة ذات كفاية وغيرة على العمل ، متلهفة على الاطلاع باهتمام بالغ ، لها قدرة غير عادية على تركيز افكارها ، وتستطيع ان تتابع كل وجوه النشاط المدرسى دون مساعدة من احد . وهى تحب التعلم ، وتسعى لمعرفة الاشياء الجديدة بلا انقطاع ، ولكن من الخطر ان نلقى عليها مسئولية اكثر مما يجب ، وينبغى ان نذكر انها ما زالت طفلة صغيرة ، يجب ان تتمتع بكل ما يتفق مع سنها من وسائل اللهو »

وكنت يا جابى انيسة المعشر ، ودودة بطبيعتك ، وان كنت تحبين احيانا ان تمضى وقتا كثيرا فى عزلة ، وكثيرا ما أمضيت ساعات طويلة ، قابعة فى المقعد الاحمر المريح ، تطالعين فى غرفة الجلوس بمفردك .

كان ديسمبر باردا رطبا . وقد شكوت انت بضع مرات من احساسك بالبرد ، داخل المعطف القديم ، ولكنى لم الق للامر بالا ، وكنت اظن انك انما تريدين شراء معطف ثقيل جديد ، كما فعلت اكثر تلميذات فصلك .

وفى يوم احد قبل عيد الميلاد بقليل ، أصابك المرض . ولم يكن مرضا مخيفا ، ولكنك تقيأت مرة ، واصابك

الالم فى معدتك . لم تكن حرارتك مرتفعة ، ولكنك امضيت اليوم فى الفراش . وفى صباح الاثنين التالى ، قلت ان صحتك تحسنت ، وانطلقت الى المدرسة .

وانتابنى احساس بالقلق بعد خروجك ، فقررت ان اذهب الى المدرسة عند الظهر لرؤيتك ، وكان فصلك يقوم يومئذ ببعض التدريبات الرياضية ، اما انت فقد اعتذرت عن الاشتراك فيها ، وجلست فى المكتب الصغير الملحق بالملعب ، لتقومى بأداء واجبك فى المنزل . ولكن عينيك اخبرتانى انك لست على ما يرام ، ولم تحاولى الاحتجاج ، عندما اقترحت عليك العودة معى الى المنزل .. وهكذا تركت انت مدرستك المحبوبة للمرة الاخيرة .. دون وداع !

* * *

قال الطبيب انه من المحتمل جدا أن يكون مرضك هذا ناشئا عن فيروس ما ، وامرنا الا نترك تبارحين الفراش ، وان نعطيك قرصا من الاسبيرين مرة كل ثلاث ساعات .

وفى مساء اليوم الثالث ، استيقظت من نومك على الم بالغ فى المعدة ، مع ضيق فى التنفس ، ثم ازداد الالم شدة ، فأخذت فى البكاء ، ولم يكن هذا شيئا عاديا بالنسبة لك ، ولهذا اسرعت الى الاتصال بالطبيب تليفونيا فاقترح أن أعطيك بعض «الكوديين» ، وبعد حوالى ساعة ذهب الالم فعلا .

كنا على ثقة من انك ستكونين على ما يرام فى عيد الميلاد ، ولكنى ابقيتك فى الفراش .

وحضر الطبيب مرة اخرى ، وكنت انت فى حالة منتعشة وهو فى غرفتك ، حتى انه قال انك ستصبحين على ما يرام سريعا .

ولكن الآلام بدأت تعود ثانية بعد ظهر احد الايام ، واخذت تتطور من سيىء الى أسوأ ، حتى لم يعد فى استطاعتك البقاء راقدة فى الفراش ، واخذت تلقين بنفسك فى انحاء الغرفة ، باكية مولولة ، بينما اقف انا بلا حول ولا قوة .

والتفت الى قائلة فجأة :

ــ لن يستطيع انسان فى العالم ان يشفينى من ذلك المرض ، وسأموت من هذا الالم .. فقلت لك فى غضب : ما هذا الكلام السخيف ؟ .

* * *

واحضر والدك واختك شجرة عيد الميلاد كالعادة ، ولكنك لم تستطيعى مساعدتهما فى تزيينها . كانت آلام المعدة التى تتكرر دائما تبدو غريبة ،

وبدأنا نشك فى انك ستستطيعين القيام من فراشك للاحتفال بعيد الميلاد .

وفى عشية العيد ، لم يكن هناك غير اربعتنا مع جدتك ، فتناولنا عشاءنا مبكرا ، ثم التففنا حول شجرة العيد ، بعد ان دبرنا لك مكانا مريحا على الاريكة ، وكانت هناك هدايا كثيرة وعرائس جميلة لك ولاختك الصغيرة . كانت «عروستك» ذات قبعة من القطيفة السوداء ومريلة وردية اللون ، ومع انك انت وشقيقتك قررتما قبل العيد انكما اصبحتما اكبر من ان تلعبا بالعرائس ، الا انني لم اصدق ذلك .

وفى صبيحة العيد ، نهضت انت واختك مبكرتين ، لترويا الكنوز المخبوءة فى جواربكما وكنت تشعرين يومئذ بتحسن ، ولهذا سمحت لك بالبقاء فترة قصيرة لفحص الاشياء الجديدة وعدها .

وفى ذلك الصباح لاحظت لاول مرة ان وجهك يبدو اصفر اللون بصورة عجيبة .. وظننت ان الامر مجرد وهم أو خيال ، ولكن أباك أكد لى ظنوني ، فأعدناك الى الفراش ، وقررنا ان نستدعى طبيبا آخر .

وهكذا اتصلنا بديف ، وهو صديق قديم ، يعمل بالمستشفى العام ، وشرحنا له الموقف ، وسألناه عن اسم طبيب ماهر ، فأشار علينا باستدعاء الدكتور ليند لرؤيتك

وحضر ليند بعد الظهر ، وكنت انت فى حالة روحية طيبة . وكان الطبيب لطيفا للغاية ، أنيس المعشر ، دقيقا فى فحصه .

وحدثته عن آلام معدتك الشديدة ، فلم يبد عليه انه دهش . وبعد الفحص ، قال لنا انك مصابة بالتهاب فى الصفراء ، ومن المحتمل ان يكون هناك التهاب فى الكبد نفسها . ثم ذكر لنا ان هذا المرض غير خطر ، ولكنه يستغرق وقتا طويلا فى علاجه ، وانك يجب ان تبقى فى فراشك وان تقلل من المواد الدهنية فى طعامك ما امكن .

واتصل الدكتور ليند بطبيبنا الخاص ، وشرح له تشخيصه للمرض

وأمضيت وقتك تحوكين ثيابا للعرائس فى فراشك ، وكنا احيانا نلعب معا بعض الالعاب ، ولكنك كنت تقضين اغلب الوقت فى القراءة .

واخذ القلق يزداد تسللا بين جوانحى . لقد امضيت حتى الآن ثلاثة اسابيع فى فراش المرض ، ولا تزال حالتك تبدو كما هى .

واتصلت ذات صباح بالدكتور ليند

الذى وعــد بالحضور بعــد الظهر لرؤيتك . وعندما وصل ، كنت انت تعانين آلاما لا تطاق فى معدتك جعلتك تنشجين وتتلوين .

وكان كل ما استطاع ان يقرره ان كبدك قد انتفخت قليلا .

وفجأة بدأ الالم يخمد ، فعدنا الى غــرفة الجلوس ، حيث قال لى ان حالتك تبدو محيرة الى حــد يدعو لنقلك الى المستشفى .

وعرضنا عليك الامر ، فوافقت على الفكرة باعتبارها رأى طبيب .. ان الناس يشفون سريعا فى المستشفى ، وكنت انت متلهفة للعودة الى المدرسة

وهكذا تقرر ادخالك فى نفس اليوم فى جناح الاطفال بالمستشفى العام .

* * *

وتركت مذكرة صغيرة لأبيك على مائدة المطبخ ، ثم جمعنا ملابسك فى حقيبــة ، وانطلقنا الى المستشفى فى سيارة تاكسى .

وحصل لك الدكتور ليند على غرفة صغيرة ذات فراش واحد ، وهنــاك خلعت كل ثيــابك ، وارتديت ثوب المستشفى . وجاءت ممرضة قامت بوزنك ، واخذ حرارتك ، التى كانت عادية ، ثم حضرت فتاة صغيرة من الاخصائيات واخذت عينة من الدم من اصبعك .

وحضر ابوك بعد ذلك ومعه الراديو الصغير الابيض ، ووضعه الى جوار فراشك ، كمــا احضرنا لك بعض الكتب .

واتصلت بى صديقتى لين تليفونيا فى المنزل وقالت لى ان زوجها الذى يعمل اخصائيا فى امراض القلب يريد التحدث الى ، وسألنى زوجها بضعة اسئلة عنك ، ثم قال :

ــ اعتقد أن ابنتك مريضة جدا . وارجو ان تسمحى لى بدعوة طبيب من احسن الاطباء فى امريكا للاستشارة وسيراها غدا .

وأجريت عليك تجارب كثيرة يوم الاثنين ، وامتلأ جسمك الصغير بآثار الحقن التى كانوا يعطونها لك ، والتى بلغ عددها فى الاسبوع الاول ١٧ حقنة !

وعندما وصلت بعد ظهر الثلاثاء ، كان قد تقرر بصورة نهائية انك مصابة بالتهــاب فى الكبد ، ووعدنا الطبيب بأنك لن تمكثى اكثر من اســبوع فى المستشفى .

ولكن الزمن راح يمتد بعد ذلك . كان الطبيب ينتظر اشارة تدل على ان الالتهاب قد بدأ يزول دون جدوى .

وكنت انت قد توقفت عن الاكل ، وقالت الممرضة انك كنت تبكين عندما

يحضرون طعامك ، فقــد كان طعاما خاليا من الدهنيات . كانوا يحضرون لك خضرا ولحوما بلا توابل ، وكان الطعام مطهوا بطريقــة رديئة ، وهو عادة بارد لامذاق له ، فكنت اذا رفعت الاغطية عن الاوانى ، انهمرت العبرات من عينيك .

وحللنا هذه المشكلة بموافقة الطبيب على أن نحضر لك طعاما من المنزل كل يوم ، فكنــا نحضر لك الانواع التى تحبينها .

وبدأت فعلا تستردين بعض وزنك ، حتى الاسبوع الذى أجريت لك فيه العملية .

***

كان وجهك لايزال شديد الاصفرار . ومع ذلك فان جاذبيتك لم تنقص ، بل كنت تبدين بعينيك الواســعتين أشبه بطفلة يابانية صغيرة ذات شعر أشــقر . وكان الطبيب يقيس كل صباح كمية الصفراء فى دمائك .

وبدأت الحيرة تغزو قلب الدكتور كيلون اخصــائى الكبــد ، والدكتور ليند ، حتى أنهما قررا عرض حالتك على المؤتمر الاسبوعى لاطباء المستشفى ، الذى تعرض فيــه الحالات الهــامة المحيرة . وبعد المؤتمر ، حضر كثيرون من الاطباء لرؤيتك ، وقراءة التقرير الطبى عن حالتك ، وهنا بدأت أدرك أنا وأبوك أن آراء الاطباء مختلفة كثيرا حول حقيقة مرضك .

***

وفى خلال الاســبوع الرابع ، بدأ دكتور ليند يتحدث عن اجراء عملية استكشافية ، بعد أن قرر بعض أطباء المستشفى ضرورة اجرائها . وقال ليند أن هناك احتمالا فى وجود ورم صغير فى الكبد ، وقد أظهرت الاشعة بقعة حالكة فى الجزء الخاص بالمعدة .

وأمر الدكتور ليند باجراء العملية صباح الاحد ، وقد أثارك هذا النبأ وأبكاك ، ولكنك وافقت أخــيرا على أنه قد يكون من الافضل معرفة سبب اضطراب كبــدك للقضــاء على هذا السبب .

وبعد ظهر الاربعاء نقلوا اليك بعض الدم ، ولكنــك أصبت أثنــاء النقل بقشعريرة شديدة ، فدققت الجرس للممرضة سريعا ، فحضرت واوقفت نقــل الدم ، ولففنــاك فى غطاء دافىء وأعطيناك بعض الشاي الساخن .

وحضرت مع أبيك الى المستشفى صباح اليوم المقرر لاجراء العملية ، وجلســنا فى غرفة الجلوس الكبرى القريبة من مكتب الاطباء الخاص ، ثم انتقلنا الى غرفة أخرى قريبة من

المصاعد الرئيسية ، وهناك وجدنا الدكتور لينـد ، الذى حضر الينا شاحب الوجه يرتعد ، وقال وهو يدخن سيجارته :

ـ ان الأمر أسوأ مما كنا نخاف .. لقد وجدنا ورما منبعثا من العمود الفقرى ، حيثما واكتسح كل شيء .. وهو بالتأكيد ورم خبيث ، ولكن علينا أن ننتظر نتيجة الفحص التفصيلي للأنسجة . ليس هناك مايمكننا عمله ، ونحن لانستطيع أن نبدأ فى استئصاله .

واحسست أن ألف سنة قد مرت علي ساعتئذ .

وقلت متوسلة : ولكن هذا الورم ممكن علاجه بكل تأكيد ، بالراديوم ، بالعقاقير الجديدة ..

ولكن الطبيب قضى على هذا البصيص من الامل عندما قال :

ـ اذا كان هذا الورم من النوع الذى نرتاب فيه ، فانه لايستجيب قط للعلاج بالاشعة ، وليست هناك عقاقير تفيد فى هذا النوع من السرطان !

وكان رد الفعل الاول منا عجيبا ، اذ قلت أنا ووالدك :

ـ لماذا لا تموت اذن خلال هذه العملية ؟ لقد كانت ليلة أمس سعيدة جدا لاتخاف شيئا ، ولم تعرف شيئا . ترى اي تفكير خاطيء ذلك الذى بدر منا ياعزيزتى جابى ..

لقد اكتشفت بعد ذلك أن الحياة ، بل كل دقيقة منها ، جميلة ثمينة مثيرة دائما ، مهما تكن حالة الجسم .

ولقد علمتنى أنت هذه الحقيقة مع أشياء أخرى كثيرة خلال الأسابيع التالية ، التى كانت أكثر الاسابيع نورا فى حياتى ..

كان علينا بعد ذلك أن نتصل بجدتك تليفونيا لنقول لها أن العملية انتهت بنجاح ، وأنك ستكونين على خير مايرام .

وأعادوك الى غرفتك وأنت لاتزالين تحت تأثير المخدر ، وجاء بعد ذلك صديقنا دكتور ديف الذى اشترك فى العملية بصفته رئيسا لقسم الاشعة فى المستشفى ، وقال لنا أن الورم قد اكتسح مساحة كبيرة مما يدل على أنه كان ينمو منذ شهور وشهور . وقال أنه من النوع الذى لايستجيب قط للعلاج بالاشعة ، وأنهم لايعرفون ماذا يعملون بعد ذلك .

وقال الصديق الحزين : نحن لانعرف كم من الوقت ستعيش جابى ، قد يكون أسابيع أو شهورا .. نحن لا نعرف !

وتسللت بعد دقائق الى غرفتك . كنت لاتزالين غائبة عن الوعي ، اقرب

الى الملائكة منك الى البشر .

كانت تلك أشق لحظة فى حياتى أنا وأبيك ، أن نراك راقدة هناك لاتعلمين شيئا ، ولا نستطيع نحن أن نقدم لك شيئا ، الا حبنا الذى نغمرك به ، لأننا لانستطيع حتى أن نكون أمناء صادقين معك ، فلعل الحب يستطيع أن يكون أكثر صدقا من الامانة .

وتوسلت اليهم أن يسمحوا لى بالنوم معك تلك الليلة ، ولكن هذا كان مستحيلا ، فقد كانت الغرفة صغيرة جدا ، ولم يكن يوجد فراش لى .

وعندما عدت اليك فى الصباح ، كنت لاتزالين غائبة فى نومك الرقيق ، ولكنك عندما استيقظت سألتنى عن العملية ، فقلت انهم لم يجدوا شيئا على الاطلاق ، وانه مجرد التهاب فى الكبد لن يلبث أن يزول سريعا .

كانت عمليتك صدمة كبرى لأطباء المستشفى ، حتى أن الدكتور هلدت جراح الامتياز الشاب الذى أحببته كثيرا ، لم يقدر على رؤيتك بعد ذلك فكان يتحاشى الالتقاء بى ، وقد اعترف لى أنه لايستطيع احتمال رؤيتك بعدما شاهده فى العملية

ونقلوك بعد ذلك الى غرفة أخرى أكثر بهجة ، تقع على الممر الرئيسى ، على مقربة من غرفة الممرضات ، وكانت لها نافذتان تطلان على الجهة الشرقية ، وقد رتبنا فيها كل لعبك وحاجاتك .

كان هذا الاسبوع مليئا بالمرح ، فقد كان يبدو أنك تشفين سريعا من العملية لان بنيانك كان قوى التاسيس كما قال الاطباء ، وقال دكتور ليند انك قد تستطيعين العودة الى المنزل قبل عيد ميلادك الذى يقع يوم ١٢ فبراير .

وبعد بضعة أيام ، كنت تجلسين على مقعد صغير متحرك ، وتتبادلين الزيارة مع الطفلة جين التى كانت تحتل الغرفة المجاورة لك ، بعد أن استأصلوا لها الزائدة الدودية .

وفى نفس الوقت ، دلت التحاليل على أن ورمك كان من النوع الخبيث فعلا ، الذى لاسبيل الى علاجه .

ومع أن الاطباء قالوا انه لا أمل هناك ، فقد قررنا أنا وأبوك أن نبذل كل شىء لانقاذك . ولكن ماذا نعمل ؟

لقد حصلت على موعد مع اخصائى فى علاج السرطان كنت قد التقيت به فى «تورونو» ذات صيف ، فنصحنى الرجل نصيحة طيبة ، اذ قال لى بحزم : انك تقيمين فى أفضل مستشفى فى البلاد ، وبه أفضل الاطباء الذين

يمكن الحصول عليهم ، وأن الطواف حول العالم للحصول على مساعدة لا فائدة منه غير الاجهاد وتحطيم الاعصاب والنفقات التى لاحصر لها.

ومع ذلك ، فقد كان من الصعب علينا أن ننزع من أذهاننا فكرة أن هناك فى مكان ما وسيلة ما أو شخصا ما يستطيع أن يفعل شيئا .

ومع ذلك لم نستطع أن نمضى فى هذا الطريق ، فاستبدلنا به الايمان العميق ، وبدأنا نعيش يوما بيوم ، مدركين أن كل يوم قد يكون يومك الاخير فى الحياة .

وهكذا أصبح لكل يوم معنى خاص ، يجدر بك أن تتمتعى به الى حده الاقصى .

***

وقال دكتور ليند أنك تستطيعين العودة نهائيا الى المنزل يوم الاثنين ، بعد أن مضى على اجراء العملية عشرة أيام ، لتكونى هناك يوم عيد ميلادك

وعدت الى المستشفى بعد عشرة أيام من مبارحتك له ، ليعيدوا فحصك .

وكنا جميعا نخشى هذه الزيارة التى عدت منها وأنت مجهدة جدا . وفى مساء ذلك اليوم ، أصابك أول ألم سيىء حقا . لقد كنت تصابين بآلام كثيرة كل يوم ، ولكنها كانت تنصرف بسرعة أو تزول بعد حقنة الكوديين ، أما هذا الالم فقد كان مختلفا .

وعند الثامنة مساء ، كانت الآلام قد بلغت أشدها عند قاعدة عمودك الفقرى ، وخلف ساقيك ، فأعطيتك حقنة من « الديمرول »

وتكرر هذا الالم فى اليوم التالى ولم يفلح الكوديين فى تخفيفه ، وشمل الالم جزءا من وجهك ، فاتصلت بالدكتور ليند تليفونيا الذى نصحنى باعطائك حقنة أخرى من الديمرول ، وعند منتصف الليل أعطيتك عقارا منوما ، فنمت ، وظللت نائمة حتى ظهر السبت

وعندما تكررت هذه الآلام العنيفة فى الايام التالية ، قال لى الدكتور ليند أننى يجب أن أزيد جرعة العقاقير التى أعطيك اياها ، لان تأثيرها يضعف تدريجا ، ولهذا يحتاج الجسم الى زيادة فى الجرعات ليؤدى العمل نفسه ، كما نبهنا الى تغيير العقاقير من وقت لآخر بعد أن تفقد مفعولها .

وبدأت تستغرقين فى النوم أكثر ساعات اليوم . كنت تستيقظين فى فترات قصيرة ، ثم تأخذين أقراصا منومة لتنامى ثانية . وفى خلال الليل

يتولى « السكوديين » تخفيف آلام معدتك .

ولكن الآلام عادت فى الساعة الرابعة من صباح أحد الايام . وفى هذه المرة لم تفلح العقاقير . وعندما وصل الدكتور ليند قال أن مفعول الديمرول قد ضعف ، واننا يجب أن ننتقل الى المورفين !

ونصحنا ليند مرة أخرى بنقلك الى المستشفى ، فوافقت بعد أن وجدت أننى لاأستطيع مساعدتك فى المنزل خلال الازمات .

وقبلت أنت بعد أن شرحت لك الامر ، وقلت لك أننى سأكون فى فراش مجاور لفراشك ، والواقع أن الآلام التى كانت تهاجمك فى قسوة جعلتك لاتكترثين لشىء .

وكان بقاؤك فى المستشفى أكثر راحة لك ولى ، فهناك كان فى الامكان حقنك بالمورفين بمجرد اصابتك بالالم الشديد ، ولم أعد فى لهفة للحصول على طبيب فى الحالات الطارئة ، كما أننى أصبحت معك طول الوقت .

وكان والدك يأتى لزيارتنا فى المساء ، وكنا نسمح أحيانا لشقيقتك بالحضور لزيارتك ، كما كانت بعض المرضات يحضرن معهن أطفالا صغارا لارضاعهم فى غرفتك ، فأحببت رؤية المواليد .

وكنت أستمع الى صلواتك وابتهالاتك قبل النوم ، حيث تبتهلين الى الله أن يمنح بركته لكل من تعرفين وتحبين ، وتدعين للاطفال المرضى بالشفاء ، وأن يعين الله كل من يحاول مساعدتك ، وأن يهبك الصحة والقوة !

***

واستمرت الآلام ، وبدا أنك فى حاجة الى بعض المورفين كل يوم ، وكان الطبيب حذرا جدا بالنسبة للمورفين ، فقد كان يجب الا تأخذى منه أكثر مما تحتاجين اليه فقط .

وكنت تكتمين آلامك بين جوانحك ، لاتفصحين عنها لاحد سواى ، عندما نكون على انفراد . كان يبدو أنك تخجلين من الالم ، ولا تحبين أن يبدى أحد عطفه عليك .

وقلت لى يوما : يبدو أننى سأصبح من المدمنات على المخدرات . لم يكن من الواجب اعطائى كل هذا المورفين .

وتورمت فخذاك وأصبحتا سوداوين زرقاوين ، مليئتين بالبقع والقروح من كثرة الحقن ، التى لم تقتصر على الدواء والعقاقير المخدرة وحدها ، بل شملت حقن البنسلين والفيتامين ، وأصبحت نحيلة جدا ، حتى أصبح من العسير العثور على مكان لحقنة جديدة لا يؤلمك كثيرا .

وأصبحت تحتاجين كل بضعة أيام الى نقل دم جديد ، وكان هذا اجراء طويلا مجهدا ، فلم يكن من اليسير أن يجد الطبيب مكان العروق فى ذراعك النحيلة ، ولم أعد أنا أطيق رؤية هذا المشهد كل مرة .

وفى خلال الاسبوع الثالث من مارس ، زادت نوبات القيء عن المعتاد ، وكنا نحاول أن نعلل ذلك بمختلف العلل ، فمرة تقول أنك شربت اللبن بسرعة . ومرة تقول أنك شربته ببطء .. الخ ...

وكانت هناك أشياء كثيرة لا يستطيع الاطباء شرحها ، فقد كانت الاعراض عندك تتبدل وتتغير من يوم الى يوم . كان الاطباء يحدسون مايجرى داخل جسمك ، ويقولون أنهم لا يعرفون شيئا عن سير المرض .

ولقد قال لى دكتور ليند يوما :

ــ لعل جابى تعرف عن مرضها أكثر مما نعلم نحن جميعاً !

***

وفى صباح الخميس ، بدا أن حالتك تزداد سوءا من كل ناحية ، فقد ازداد قلقك ، وانتابك الشرود خلال النهار ، حتى اذا جاء المساء ، أصبحت فى حالة هذيان عنيف . وبعد كفاح دام ١٢ ساعة استسلمت للغيبوبة ، والراحة التامة .

وقال الدكتور ليند اننا يجب أن نتوقع رحيلك فى أي وقت ، فاتصلت بشقيقتك تليفونيا واختليت بها فى غرفة بالمستشفى وشرحت لها مدى مرضك ، وكيف أن الاطباء يعتقدون أنك ستموتين .

وسقطت الطفلة على الارض باكية منتحبة ، دون أن تتمكن من السيطرة على شعورها ، وقالت :

ــ هذا لن يكون ياأماه .. ان الاطباء لايعرفون كل شيء .

ووافقتها أنا على أن الاطباء لا يعرفون كل شيء حقا ، وأن الحياة لا تخلو من أشياء لاتزال سرا غامضا .

واستيقظت فى صباح الاثنين وعلى شفتيك ابتسامة حلوة ، وقلت :

ــ انني جائعة .. ماذا حدث لى ؟

ماذا حدث لك ياحبيبتى ؟ لا أحد يعلم حقا ؟

وبدا أنك الآن أحسن مما كنت منذ أسابيع ، ولم يستطع دكتور ليند أن يشرح سبب هذا التحسن ولماذا لم ترحلى خلال عطلة الاسبوع ؟

ولكنك كنت تنامين قدرا كبيرا من الوقت ، وكان من النادر أن يمر يوم لا يصاب فيه جسمك بآلام لاتحتمل أو تأخذين بعض المورفين ، وأصبحت

عمليات نقل الدم اليك أمرا شائعا .
وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت هناك أوقات كنت تبدين خلالهـا متنبهة للحيـاة ، تواقة الى العيش فيها .
وكان فى استطاعتى أن أصحبـك فى مقعدك المتحرك فى رحلات قصيرة الى الشرفة المشمسة التى تقع فى نهاية الردهة ، حيث التقيت بصـديقة تماثلك سنا ، تدعى واندا ، فتصادقتما وقد ابتهجت أنت بهـذه الصـداقة الجديدة .

ومن العجيب أن عينيك الزرقاوين الكبيرتين ، كانتا تزدادان جمالا ، فى الوقت الذى يزداد فيـه جسـمك الصغير ضمورا ونحولا !

***

وبدأت الامسيات تتحول الى ليال معطرة كليـالى الربيع . كان الهواء الذى يهب على نافذتنا رقيقا ، مليئا بالوعود . وكنا أحيانا نشعر بقلوب سعيدة رغم كل شىء .. كنت اذا دخلت غرفتـك ياجابى ، أحسست بأريج البهجة الذى يجلب معه أعلى معانى الحياة لا الموت . وكنت أشعر دائما بالمعجزة الصغرى ، وهى أنك مازلت على قيد الحياة .

هاأنت أمامى أستطيـع أن ألمسك وأقبل جبهتك وأحدثك عن حبى .

وكانت هناك هالة من الضوء تحيط بك دائما .

كانت هناك أشياء كثيرة مؤلمة حقا ، ولكن الجو لم يكن قط كئيبا .

ولم أكن وحدى التى لاحظت هذا الجو الذى يحيط بغرفتك ، فقـد لاحظه الاطبـاء والممرضـات ، حتى الخادمة التى كانت تنظف الغرفة ، قالت أنها تحب أن تكون فيها دائما .

لقد كنت أنت مرشدتى ياجابى ، كراعية صـغيرة رقيقة حازمة ، لم تسمحى لى قط أن أشعر بالاسى على نفسى .

اننى أذكر ذات ليلة وقدكنا نستعد للنوم عندما سمعتك تقولين لى فجأة :

ـ أنت تبدين قلقة اليوم ؟

فأجبتك كمن أخذ بذنبه :

ـ أنا ... أبدا !

ولكنك عدت تقولين فى كبرياء :

ـ اننى لا أحب ذلك ، لقد كنت أتوقع منك أن تتحملى كل ذلك وألا تتغلب عليك عواطفك !

***

وفى اليوم الثالث من ابريل ، توقفت عن القىء ، وقلت حاجتك الى المورفين ، وبدا عليـك التحسن .. فاقتـرح الدكتور ليند أن أخرج من المستشفى قائلا انك قد تبقين هناك شـهورا ،

وإنه من الانصـــاف لبقية الاسرة أن نوفر كل هذه النفقات .

وبحثت الامر معك ، فوافقت قائلة انك ستكونين بخير في المساء وحدك .

ولكن كيف أستطيـــع أنا النوم في المنــزل ، وأنا أعرف أنك تستيقظين دائما أثناء الليل ؟

كان الامــل الذى أخفيـــه بين ضلوعي ، أن تتقهقر أعراض مرضك قليلا ، حتى تعودى معى الى المنزل ، ولكنى لم أبح بذلك لاحد ، فقد كان من الجنون أن تغادرى المستشفى اذ ذاك . ويبدو أنك كنت تدركين ذلك ، لانك لم تطلبى العودة الى المنزل قط ، بل انك امتنعت عن الحديث عن المدرسة والعودة اليها ، مع أنك كنت تتوقين الى ذلك ، وقد رأيتك تطالعين خطابا ذات صباح ، وقد دمعت عينـــاك ، وقلت لى :

ـ أنه من جين .. لقـــد تعلموا كتابة الاحرف المتشابكة في المدرسة ، أما أنا فقد ضاعت منى تلك الفرصة !

لم يبق على عيد الفصح غير أسبوع .. وكانت حرارتك مرتفعة جـدا ، ولم تعد العقاقير تفيد في انزالهـــا ، وكنت أغسل يديك وساقيك بالمـاء البارد كثيرا ، ولكن كل تخفيف للالم كان مؤقتا . ومع ذلك فقـــد كنت تتطلعين الى حفلات العيد . وقد اتفقت أنت وواندا على عمــل سـلال العيد للاطفــال الصـــغار في المستشفى ، فاشــتريت لك أدواتهــا وكل أنواع الحلوى من بيض وخضر وحلوى ، وقد أبهجك تلوين البيض ، وأحضرت لك الممرضات مائدة صغيرة من المطبخ ، ووضعنها الى جوار فراشــك ، وقد ظهرت مواهبــك الفنيـــة في ابتكار الالوان والرســوم على البيض . وفى يوم السبت السابق على العيـــد ، أحسست بقلق خفى عليك ، فقد كان يبدو عليك الانفعال ، ولـكنك ملأت الســلال مع صـــديقتك (واندا) ورفضت أن تنامى بعــد ذلك ، حتى تأتى الممرضة التى ستوزع السلال .

وانخفضت درجة الحرارة حتى بلغت ٣٨ عند الظهر ، ولكنك كنت لاتزالين غير راغبة فى النوم ، وكانت حالتــك لا تزال منفعلة . وعنـــد منتصف الليل ، سألت الممرضـــة عن دواء منوم ، ظنا منى أن هــذا قد يهدىء أعصابك حتى يمكنك التمتع بصبيحـــة العيد جيدا .

وبعد أن أخذت حقنة الدواء المنوم ، تلونا صـــلواتنا ، وأطفــات النور ، أملا فى أن تنامى سريعا ، ولــكن لم تكد تمضى بضع دقائق ، حتى أصابك

قىء مفاجىء لاول مرة منـذ ١٢ يوما وبعد أن غسلت وجهك وأبدلت ثيابك حاولت أن أجعلك تنـامين ، ولكنك أخـذت ترددين قولك : ان الدعوة قادمة ، الدعوة قادمة !

• واسـتولى على الخوف من هـذا المنظر ، فقرعت الجرس للممرضة ، التى ماكادت تصل الى جوار فراشك ، حتى اعترتك أول رجفة شديدة ••

وقالت لى المرضة : من الافضـل أن تبارحى الغرفة •• !

أخرج ••!ياله من طلبمستحيل!

أكدت لها اننى غير خائفة ، واننى لن أتركك فى مثل تلك اللحظة الحرجة

ولم تدم الرجفة أكثر من دقيقة ، وحاولنا أن نريحك ، ولـكن بعـد عشرين دقيقة أخرى ، أصابتك نوبة أخرى من التشنجات والتقلصات ، وتغضـن جلدك ، وتشوه وجهـك بصورة مفزعـة ، وأخـذت النوبات تتوالى كل ١٥ أو ٢٠ دقيقة .

وكان تنفسـك يضعف بعد كل نوبة ، حتى لنرتاب فى أنك ستعودين الى التنفس مرة أخرى • ولكن الفجر جاء ، وأنت لم تموتى بعد ، لقد أعطوك دواء جعلك تنامين نوما عميقـا •• وتوقفت الرجفة فى النهاية ••

وأخذنا نكرر الدواء المنوم ، كلما انتهى مفعوله ، حتى لا تتكرر الرجفة ، ولكن رغم كل هذه الاحتياطات ، فقد أصـابتك الرجفـة مرة أخرى يوم الاثنين ، وأصـابك القىء ثانيـة ، وكان هناك ما يدل على حدوث نزيف داخلى أيضا •

يارب •• كيف يمكن أن يحدث كل هذا لجسم صغير واحد ••!

لقد حمدت الله لانك كنت غائبة عن الوعى لا تشعرين بشىء •• فقد كنت لا تستيقظين أكثر من بضـع دقائق كل مرة ••

ولكن حرارتك بدأت تتنـاقص تدريجا فى اليوم التالى • وبعدالظهر، استيقظت ونظرت الينـا بابتسامة كبيرة ، ورحت تدورين بنظـرك فى أنحاء الغرفة باهتمام ، وكأنك عائدة لتوك من رحلة بعيدة •

ووقع نظرك على عرائسك ، فطلبت الدمية التى تمثل طفلا أسبانيا،وأخذت تلعبين به حوالى عشر دقائق قبـل أن تعودى للنوم ثانية •

وتكررت هذه الظاهرة يوم الاربعاء •• لم تتـكلمى كثيرا ، ولـكن كان هناك جو من الاسرار الهادئة يحيط بك ، وكانت كل كلماتك وحركاتك حلوة رقيقة •

وبينماكنت تبتسمين لنا وتصغين

فى أدب لما يقال لك ، كنت أحس أن أفكارك تتجه نحو شىء آخر ..

لقد كنا نمنع الناس من زيارتك ، فقد كان مرضك عنيفا . ولكن فجأة بدأ معارفنا جميعا يشعرون بالجزع عليك بعد العيد ..

لقد طال أمد مرضك الغامض ، وأخذ الناس يتصلون بنا تليفونيا فى المستشفى ، وهرع البعض لرؤيتك ، وحضرت أمهات صديقاتك فى المدرسة ليعرضن مساعداتهن المادية .

وسرعان ما نظم الاصدقاء بنكا للدم من أجلك ، تبرع له كثيرون ممن لا نعرفهم . كان الناس يسألون أسئلة كثيرة ، ولم يكن الكذب عليهم سهلا .

كيف أقول لهم الحقيقة ؟ ثم أستمع الى تعبيرات العطف والرثاء ، وأنت لا تزالين حية ؟

انهم لم يصدقونى اذا قلت لهم اننا ، أنا وأنت ، لسنا خائفتين ، واننا أمضينا معا أوقاتا رائعة ، وأن الطريق أمامنا لم تكن دائما كئيبة كما يتصورون !

لقد ساءلت نفسى أحيانا : هل يجب أن أبلغك حكم الاطباء .. ؟وهل كان ذلك يحدث فرقا فيما حدث ؟

اننى حاولت أن أبث فى قلبك شجاعة ، فأحضرت لك معطفا جديدا ، وضعته أمامك على المشجب فى المستشفى ، ولم أكد أستدير نحوك حتى قلت لى :

ـ أنت تعرفين أننى لن أستطيع الخروج من هنا ..

وحدث بعد ذلك تطور عجيب ..

لقد أصبحت حالة دمك عادية فجأة ، ولم يعد من الضرورى نقل أى دم اليك ، وانخفضت نسبة الرواسب فى الدم ـ وهى عالية عادة فى حالات الاورام الخبيثة ـ وقال أخصائى أمراض الكبد أن كبدك تؤدى عملها بطريقة أفضل مما كانت يوم دخلت المستشفى ..وأخذ الورم الذى انتفخ فوق بطنك يتقلص رويدا ..

كانت هذه التطورات مفاجأة لكل انسان .

أنا ووالدك أصبحنا متلهفين ، وقد ملأ الرجاء قلوبنا ، وظننا أن معجزة توشك أن تقع ، وانك ستبقين معنا على الرغم من كل ما حدث .

وهز الاطباء رؤوسهم ، دون أن يستطيعوا تفسير تلك الظاهرة العجيبة .

وكانت تلك فى الحقيقة صحوة الموت .

ففى ليلة الجمعة ، أطفأت النور ،

واستعددنا للنوم ، فقلت لى هامسة:

ـ أتمنى لك أحلاما حلوة •

وكانت تلك آخر كلمة سمعتها منك ••

ففى اليوم التالى ، رأيتك تنظرين الى بعينين واسعتين دون أن تتكلمى •

وجلست الى جوارك طيلة الصباح أغنى لك الاغنيات التى تحبينها ، وأدلك ساقيك النحيلتين ، ولكن نوبة أخرى من الرجفة والتقلصات ما لبثت أن أصابتك عند الظهر •

وكان واضحا الآن ، لكل انسان ، انك سترحلين بكل تأكيد ، ما عداى أنا ووالدك ••

لقد رأيناك تمرين بأزمات أخرى مماثلة •

واقترح الاطباء أن نغادر الغرفة وننتظر فى الخارج ، ولكننا رفضنا ، وجلسنا الى جوار فراشك ••

وكنت أنحنى على جبهتك كل هنيهة لاقبلها ••

وأخذت أنفاسك تبطىء وتضعف ثم توقف نفسك ، وسكن نبضك • وحاولت أن أصرخ •• ولكن الخجل تولانى •• لقد كانت العملية كلها تجرى فى سلام ، فخجلت أن أتدخل فيها •

ونظرت الى أبيك •• وقالت عيوننا انك لم تعودى معنا ••

وكان هذا لقاءنا الاخير ياصغيرتى جبرييل ••

الطفل قطعة فنية !

عندما عدت الى وطنى مع طفلى الذى يبلغ الشهر السادس من عمره ، هبط قلبى بين ضلوعى عندما وصلت الى الجمارك ، فقد كان موظف الجمرك شخصا عابسا تنذر ملامحه بالشر .وكان معى كومة ضخمة من الحقائب ..

وسالنا الرجل : ما هى الاشياء ذات القيمة التى حصلت عليها اثناء وجودك فى الخارج خلال الاثنى عشر شهرا الاخيرة؟

وبدأت أتكلم قائلة : هذا الطفل ..

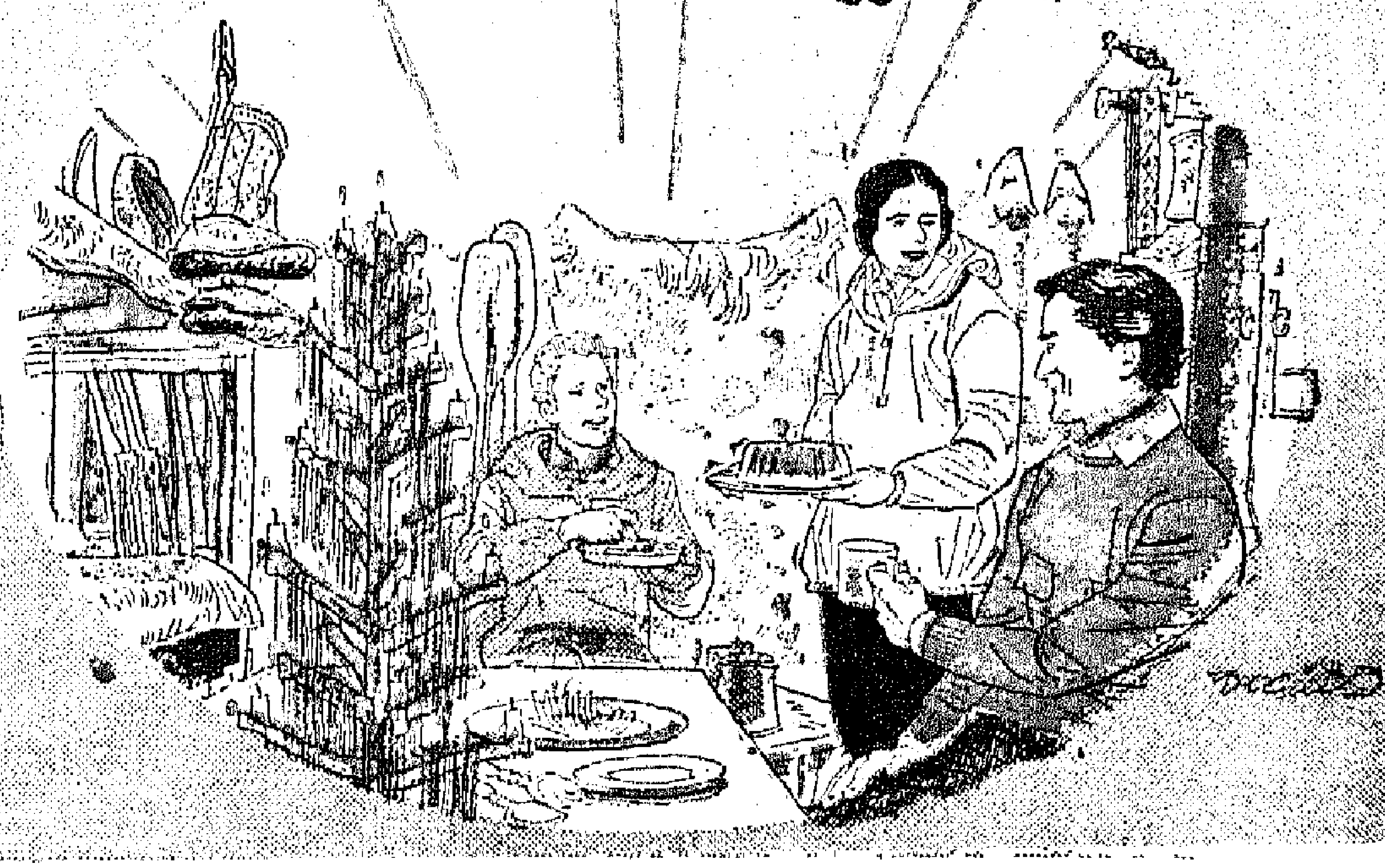
وعندئذ حدق الرجل برهة فى الطفل النائم بين ذراعى .. ثم قال فى حزم :

ـ ان القطع الفنية الاصلية معفاة من الرسوم يا سيدتى .

ثم سمح بمرورى مع جميع حقائبى بلا تفتيش !

(مسز فيرونيكا جالاجهر ـ سودى)

إمرأة في ليالى القطب



كتاب الشهر : بقلم كريستيان ريتر

A Woman in The Polar Night

قال لها زوجها : اتركى كل شيء ، والحقى بى فى مجاهل القطب ، فأطاعت ، ولم تبال أقوال الاقارب والاصدقاء الذين حاولوا أن يثنوها عن عزمها .

واستقبلتها هناك طبيعة قاسية موحشة فأصيبت بخيبة أمل لاول وهلة ، ولكن سحر الطبيعة ما لبث أن تغلب عليها ، فأصبحت أسيرة لهذا الجمال وتلك الروعة التى تنفرد بها ليالى القطب الشمالى

وباتت كريستيان ريتر ، الزوجة الالمانية الشابة ، من عشاق تلك المجاهل ، التى قل أن يرتادها انسان . وعندما حان وقت الرحيل للعودة الى الوطن ، رفضت السفر ، واضطر زوجها الى ان يبقى معها شهورا أخرى ، يجتليان خلالها عظمة هذا الجمال الطبيعى ، قبل ان يقفلا عائدين الى أرض الوطن .

وفى هذا الكتاب « امرأة فى ليالى القطب » رسمت كريستيان ريتر صورة فنية رائعة لهذه الحياة ، بريشة الفنان الملهم الذى تفيض مشاعره بالاحساس .

امرأة فى ليالى القطب



عندما قررت ان أقضى الشتاء مع زوجى فى المنطقة القطبيـــة ، قال لى الجميع ، من الاسرة والاصدقاء، بل حتى الغرباء « أن هذا القرار يدل على الغباء ورعونة التفكير »

قالوا لى «سوف تبردين حتى الموت ، سيصيبـــك مرض الاسقربوط • ستكونين بائسة شقية» وقد مرت على لحظات ، أحسست خـــلالها انهم قد يكونون على حق !

كانت الحياة فى كوخ صغير فى المنطقة القطبية هى الحلم الذى يداعب خيـال زوجى دائما ، على الرغم من اننا نشأنا فى وسط أوروبا • وقد تحقق هـذا الحلم أخيرا ، عنـدما اختـير زوجى للاشتراك فى احدى البعثات العلمية، فبقى فى أقصى الشمال ، يصيد السمك والحيوان ، وأخذت رسائله تترى الى قائلة : « اتركى كل شىء ، والحقى بى فى القطب • »

فى ذلك الحين ، لم يكن القطب يعنى بالنسبة لى غير شىء واحد ، بقعـــة متجمدة قاحلة ، ولكن المذكرات التى أخـــذت تصلنى منه بالبريد ، بدأت تثير اهتمامى رويدا رويدا •

كانت تحـــدثنى عن الحيوانات ، وسحر الحياة البرية ، والنور العجيب الذى ينعكس على الاراضى الشاسعة ، ولم يكن هنـــاك أى ذكر للبرد أو العواصف ، أو المشاق التى يعانيهـا هناك •

وأخذ الكوخ الصغير الذى وصفه لى فى « سبيتز برجن » يبـدو مقبولا كلما انعمت الفكر فيه ، فقد قال اننى كربة بيت ، لن اضطر الى الخروج فى رحلات خطرة ، بل اننى استطيع أن أبقى فى الكوخ الى جوار الموقد ، أغزل الصوف ، أو أرسم ، أو أقرأ وأنام كما أشاء ، وأستطيع أن أرقب هذا الجمال العجيب الذى تمتاز به ليالى القطب ، وهو يتكشـــف أمامى ، بينما أكون متمتعة بالدفء والحماية داخل الكوخ •

وقررت أن أذهب •

***

كان يوما من أيام يوليو الحارة ، عندما ارتديت ملابس الانزلاق ، والاحذية التى تمتلىءنعالها بالمسامير، وودعت اسرتى ، ثم ركبت سفينة متجهة فى رحلة الى القطب على مقربة من سواحل النرويج • وبينما كنا نشق طريقنا الى الشمال ، مارين بالخلجان (الفيوردات) الصغيرةالجميلة المشهورة ، لاحظت ان الدنيا تبدو أكثر نورا وأشد برودة وعزلة •

كانت قمم الجبال المليئة بالصخور الحادة ، تبرز من الماء ، أشبه بمنظر من مناظر الطبيعة البدائية ، لعلها الصورة التى كانت عليها الارض فى آخر أيام الطوفان •

وسرعان ما تحرك العلم الصغير الذى كان يرسم رحلتنا على الخريطة، فانتقل شمالا نحو المياه الواقعة بين النرويج وجزيرة الدب ، وأخذ الهواء يتحول تدريجا الى الخشونة والبرودة •

لقد مررنا الآن بالطرف الجنوبى لسبيتز برجن ، تلك الجزيرة الكبيرة المنعزلة ، الواقعة فى البحر القطبى ، والى الشرق منها ، بدت سلسلة من الجبال الزرقاء وراء ستار كثيف من الضباب •

وقال البعض « هناك تقع مدينة (لونجيكار) ، حيث يقع أحد مناجم الفحم النرويجية ، وهى آخر موقع أمامى للحضارة •

وظلت سفينتنا تتابع سيرها شمالا وسط الضباب الاشهب ،حتى وصلنا أخيرا الى خليج الملك « كنجز باى » حيث يوجد منجم مهجور للفحم • وهناك ، كان زوجى فى انتظارى •

وبينما كنت استقل الزورق الذى يقلنى الى الشاطىء من خلال الضباب، استطعت أن أميز صورته الطويلة النحيلة ، ووجهه الاسمر • كان هيرمان يرتدى سترة لوحتها الريح ، وحذاء جعلته مياه البحر أبيض اللون ،ولكن الشىء الذى أثر فى نفسى أكثر من سواه ، ذلك الهدوء الذى كان يبدو على وجهه •

لكم بدا هيرمان مختلفا عما أعرفه •!

وقال لى هيرمان على الفور : ان الحظ فى ركابنا ، فهناك باخرة نرويجية صغيرة ، تقوم برحلتها الاولى ، ستقوم بنقلنا الى مقرنا الشتوى ،فتوفر علينا الرحلة على الاقدام داخل الجزيرة • ثم راح زوجى يطوف بى انحاء الخليج فى مهابة وخشوع ، ولكنه كان لا يبدو فى نظرى لسوء الحظ غير منطقة كئيبة باردة ، ولو تذرعت بأعظم ارادة فى

العالم ، لما استطعت ان أجد فيه جمالا أو منظرا أخاذا •

وركبنـــا البـاخرة النرويجيـة الصغيرة ، وسرعان ما انطلقت بنا الى الشمال مرة أخرى •

وقال لى هيرمان فجأة ان هناك زميلا سيرافقنا خلال الشتاء ، يدعى كارل ، وهو شاب نرويجى يعمل فى صيـد الحيتان ، وقد تعرف به وصادقه منذ وقت بعيد ، وكان فى طريق عودته الى وطنـه خـلال هـذا الصيف ، ولكن هيرمان استطاع ان يقنعه بالبقاء معنا ، فقبل ، لانه مجنون يحب « سبيتز برجن »

وأقبل كارل نحونا وصافحنى فى ود • كان شابا مرحا أزرق العينين ، فى حوالى العشرين من عمره

وبدا لى أن كل ركاب السفينـــة الصغـــيرة من انصار سبيتز برجن المتحمسين ، فقد كان أحـــدهم وهو مليونير انجليزى ينتعل صندلا ويلبس سراويل قصيرة ومعطفا خفيفا واقيـا للمطر ، وقد روض نفسه على تحمل كل هذه المشاق فى سبيل سبيتز برجن التى أحبها وذهب اليها مرارا وتكرارا •

وقال لى آخر نرويجى ان الربيـع هناك هو اجمل الاوقات ، وان أحـدا لا يستطيع نسيان هذه الفترة

***

وبعد مسيرة أربع وعشرين ساعة ، توقفت سفينتنا فجأة ، وهتف زوجى :

ـ ها نحن قد وصلنا ••

ومن خلال الضباب ، استطعت أن أرى شريطا رماديا طويلا من الساحل ، وقد بدا فوقه شىء أشبـه بصندوق صغير ألقاه البحر هناك •

وكان هذا هو كوخنا •

وهبطنـــا فى الزورق الصغير ، وأخذنا نجدف ببطء نحو الشاطىء •

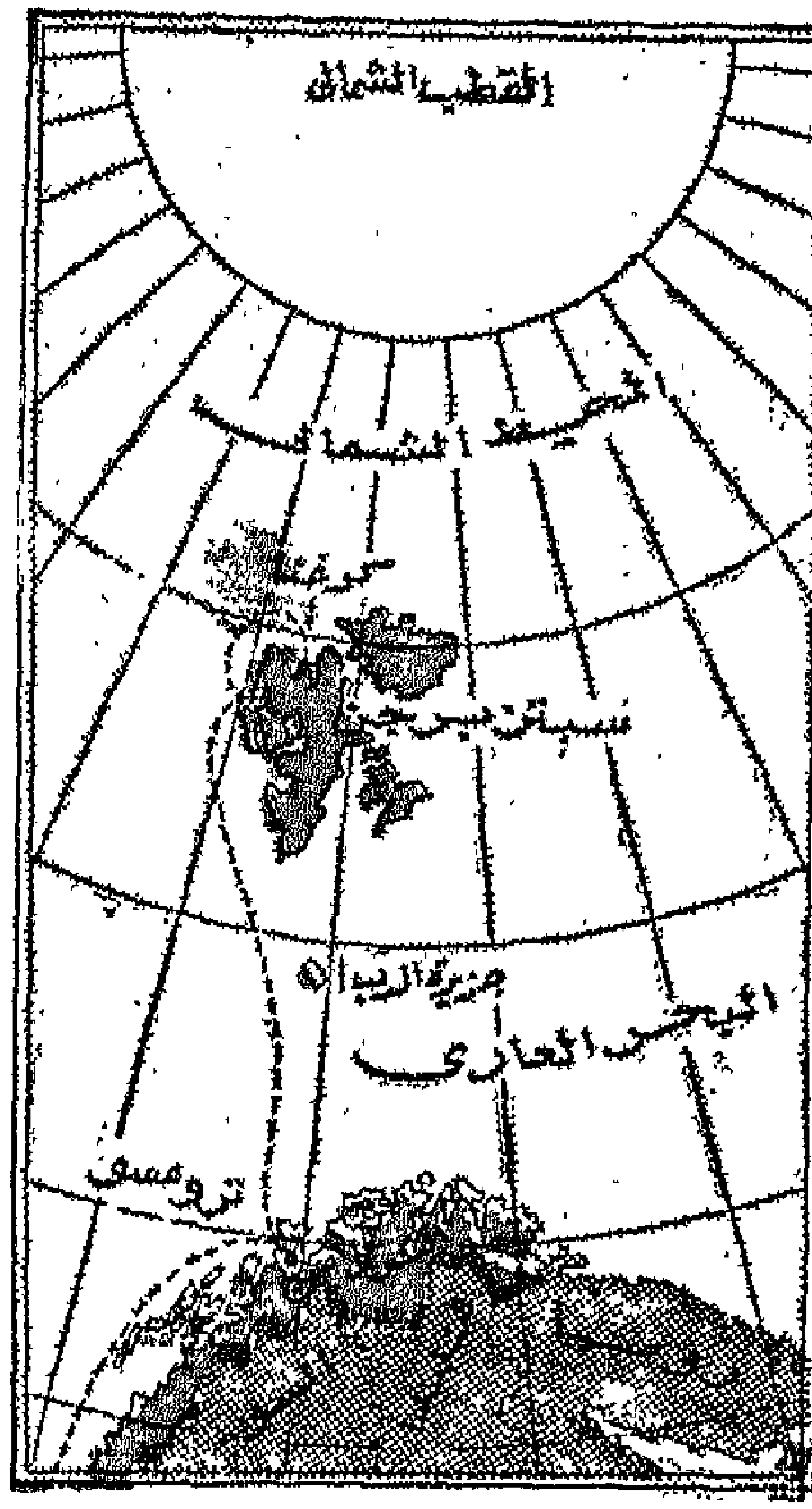
لم يكن فى الشاطىء عندما اقتربنا منه شىء مغر ، كان عبارة عن أرض منبسطة ، تبرز منها ثلاثة جبـــال سوداء ، كأنها أكوام كبيرة من الفحم • لم تكن هنـــاك شجرة واحدة يمكن رؤيتهـا ، بل كانت الارض كلهـا كبحر قاحل ملىء بالصخور •

أما الـكوخ الذى يقف فوق نتوء صغير ، فقد كان صغيرا مربع الشكل ، مغطى بالمشمع الاسود ، والى جواره بعض البراميل الفـارغة والزحافات والمجـاديف وأدوات الانزلاق ، كما تناثرت حوله عظام وهياكل لمختلف الحيوانات •

ودخلت الكوخ ، بينما أسرع هيرمان ليشعل النـــار فى الموقد ، ورحت أتفحص منزلى الجديد •

كان الكوخ عبارة عن غرفة واحـــدة لا تزيد مساحتهـا على عشرة أقدام طولا فى مثلها عرضـا ، وبه سـريران من الخشـب كـأسرة البواخر ، أحدهما فوق الآخر ، وهناك مائدة صغيرة تحت النـافذة ، ولوح خشبى يمتـد الى جوار الحائط .

وأخـذ هيرمان يتنقل فى أنحـاء الـكوخ كربة بيت تحاول أن تريح ضيوفها وترضيهم !



وقد بذلت كل ما فى وسعى حتى لا أكشف عن مدى الهلع الذى أحسست به لدى رؤيتى هذا الصندوق !

لقد كنت فى دهشة ، كيف يخيل لزوجى اننى سأشعر فى هذا الكوخ التعس اننى فى دارى ، هنـا حيث لا رفيق الا الوحوش المفترسة .!

***

وشرعنا نخرج الاشياء من الحقائب ، ومن العسـير علـى أن أذكر كم يوما استغرق هذا الامر ، فهنـا لا أيام ولا ليالى ، بل يذوب اليوم فى الآخر . وضوء النهار لا يكاد يختفى ، والبحر دائب عـلى تلك الهمهمة التى تنبعث من أمواجـه ، والضباب ساكن لا يتحرك ، وكأنه جدار ثابت حول الكوخ ... اننا نأكل عندما نجوع ، وننام عندما نحس بالتعب .

وانتهيت أخـيرا من ترتيب كل ما احضرناه معنـا ، وغسلت الارض والجدران بالماء المغلى والصابون ، حتى أصبح الكوخ نظيفا مرتبا .

وأقام لى الرجلان غرفة صغيرة فى الكوخ ذات جدران مزدوجة ، تغطيها من الداخل أوراق سـميكة ذات لون رمادى وردى ، وبها نافذة منخفضة تطل جنوبا نحو الجبال .

وعندئذ بدأ ضيقى يختفى رويدا رويدا ، ورأيت المكان لاول مرة بعيون الآخرين .

وفى ذات يوم ، صـحبت الرجلين لاحضار الماء اللازم للشرب ،

كان الطريق الى نبع الماء ، كالرحلة الى مكان مجهول ، فقد كان الضباب حولنا وفوقنا ، ولا شيء تحت أقدامنا غير الحجارة • احجار كبيرة ذات أطراف حادة ، كل خـطوة فوقها الى الامام تعيدك نصف خطوة الى الوراء ، وكان الرجلان يعرفان طريقهما فى الضباب بوساطة هذه الاحجار والاختـلاف الضئيل بين أشكالها وترتيبها ، أما أنا فلم أدر من هذه العلامات شيئا •

وكنت أشعر بالقلق فى أعماقى حول تموينا من الطعـام ، رغم صفوف الصناديق والاكياس والاوانى التى كانت تقف أمامى فى دولاب المؤونة ، ولكن أغلب هذا الطعام كان ينقصـه الفيتامينات •

وأخذت استعرض فى ذهنى قائمة ما لدينـا من طعام : فول جاف ، وفاصوليا ، وعدس ، وكلها خالية من الفيتـامين ، وزيت الكاكاو والارز المضروب ، والدقيـق الابيض ليست فيها فيتامينات أيضا ، وكذلك القهوة والشاى والسكر ، وبعض البصـل والبطاطس والفاكهة المجففة والاطعمة المملحة ••

وكانت كل مواردنا من الفيتـامين تنحصر فى صندوق صغير من الزبد، واناء من العسل ، وزجاجة من زيت كبد الحوت، وستة رؤوس من الكرنب•!

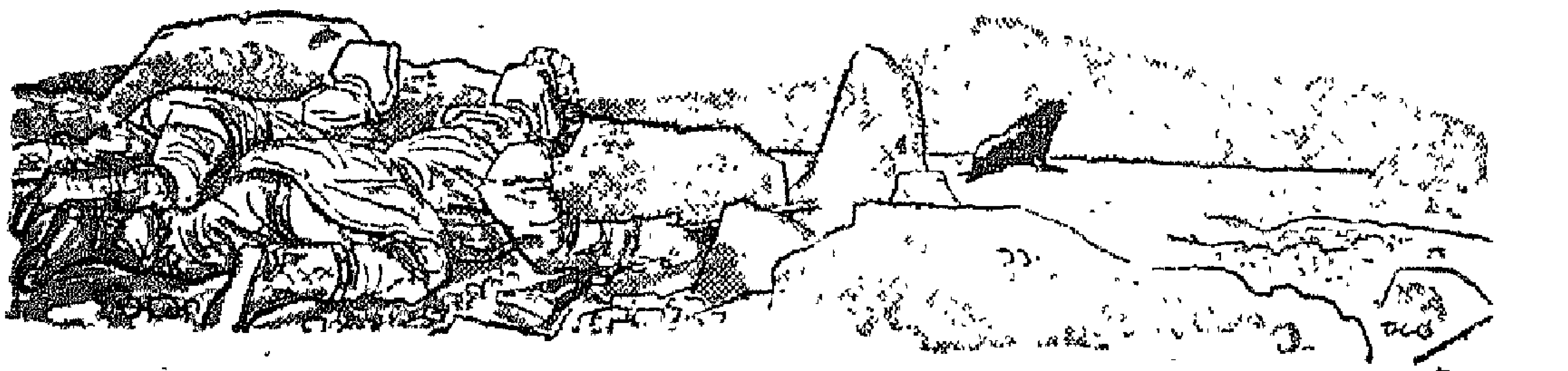
وعنـدما أفضيت لزوجى عن سر قلقى ، قال لى :

ـ لا تقلقى ••• ان كل شيء يبدو عسيرا من خلال الضبـاب ، ولكن سيكون لدينا كثير من اللحم الطازج الغنى بالفيتامينات قريبا •

وقد أحسست بالضيق عنـدما فكرت فى أن حياتنا سوف تعتمد على الصيد ••• أى ما يقدمه الينا القدر!

***

وفى تلك الامسية ، كنا نحن الثلاثة نقف أمام الكوخ ، نحدق عبر الضباب الاشهب ، عندما برز أمامنا فجأة رأس



عجل البحر وسط المياه القريبة ، وكان وجهه الاسود يبتسم لنا فى فضول • وتسلل كارل الى الكوخ ليحضر بندقيته ، بينما وقف الحيوان يحدق فى الكوخ وفى أشخاصنا الثلاثة كأنما هو واقع تحت تأثير التنويم المغناطيسى •

وأطلق كارل طلقة من بندقيته ، أصابت عجل البحر ، فاذا به يقع صريعا ، ويظل فى مكانه ، كأنما هو بالون أسود ضخم •

وبعد دقائق ، كان الحيوان قد سحب الى الشاطىء •

وفى تلك الليلة ، أعددت شرائح لاعداد لها من كبد الحيوان ، مع قطع البطاطس والبصل المقلى ، وأكل الرجلان كثيرا كأنهما قطط انقطعت عن الطعام أياما ثم التهمت كل شىء حتى لا تكاد تستطيع الحركة ونمنا نوما عميقا بعد تلك الاكلة الطيبة ، واستيقظنا فى اليوم التالى وقد أصبحنا فى قوة الدببة !

وشرعنا على الفور فى البحث عن عمل نستغل به تلك القوى ، فأخذ الرجلان فى ادخال التحسينات على الكوخ ، بينما خرجت أنا فى شجاعة أتعثر وسط الضباب لاحضر لهما الماء •

لم أكد أسير قليلا ، حتى تكاثف الضباب حول الجبال ، فأصبحت قممها مغطاة بالجليد ، ولكننى استطعت أن أصل سريعا الى النبع ، حيث ملأت الدلو ماء ، وبدأت رحلة العودة فى بهجة وحبور • ولكننى أمضيت وقتا طويلا فى السير دون أن أعثر على الكوخ •

سرت شمالا ، فلم أجد شيئا ، وعدت جنوبا ، دون جدوى ••• !

لم يكن هناك الا ذلك الشاطىء الاسود الزاخر بالاحجار ، بما فيه من ألسنة أرضية متشابهة ، لا تهدى الى شىء ولا توجه الى مكان •

وتبين لى اننى نسيت الدلو الذى ملأته بالماء فى مكان ما • وعندئذ بدأ عرق الخوف يتصبب باردا على جبهتى ليزيد رعبى !

ولم تطل محنتى ، اذ وجدت الكوخ أمامى فجأة !

وانفجر الرجلان ضاحكين عندما شاهدانى قادمة وقد ظهرت على بوادر الخيبة ، وليس معى ماء !

وانطلق كارل وحده ليبحث عن الدلو ، وسرعان ما عاد به ووضعه تحت قدمى وهو ينحنى فى احترام •

***

وهكذا كانت الأيام تمر من خلال الضباب • كان لدى الرجال دائما عمل يشغلهم ، أما أنا ، فقد كنت أبذل

كل ما أملك من براعة فى فنون الطهى على لحم عجل البحر • ولقد مللت لحم هـذا الحيوان ، الذى كان دائما أسود كالفحم ، وكان مذاقه واحدا ، سواء أكان مسلوقا أو مشويا أو محمرا •

ولكن الرجلين كانا من المتحمسين دائما لأكله !

وبعـد أن شهدت بنفسى كيف أن طلقة واحدة من بندقية ، كانت كفيلة بانتاج لحوم تكفى لملء حانوت القصاب ، قلت لهفتى على الفيتامينات الى حد كبير

***

شهدت اليوم سبيتز برجن للمرة الأولى ، ولابد أن الوقت كان حوالى نهاية أغسطس •• كنت قد استيقظت مبكرة جدا ولا أدرى لماذا ؟ •• لعله الهواء النقى المنعش ، الذى يبدو أشبه بأكسير الحياة • ونظرت وأنا جالسة فى فراشى عبر البـاب المفتوح ، فاذا بى أرى لأول مرة منذ قدومى بحرا أزرق ، يلتمع تحت ضوء الشمس ، فتسللت خارجة على أطراف أصابعى ••

أى جمال وأية روعة تلك التى نعيش فيها فى تلك البقعة الجميلة التى تجل عن الوصف !

كان أمامنا خليج بديع ينحنى فى أقواس عريضة ممتدة نحو الشمال ، حتى تنتهى فى البحر الكبير ، وعبر الماء جبال وعرة ، أصبحت الآن ذات لون أزرق داكن مشرب بالخضرة ، تتسامى شاهقة الى السماء التى اكتست بلون الفيروز ، ومن فوق قممهـا تتـدفق الأنهار الثلجية الى أسفل حتى تصل الى الفيوردات • والى الجنـوب يرقد صف من القمم ذات الأشكال المخروطية التى تبدو وكأنما أضيئت بنور أحمر عميق ••

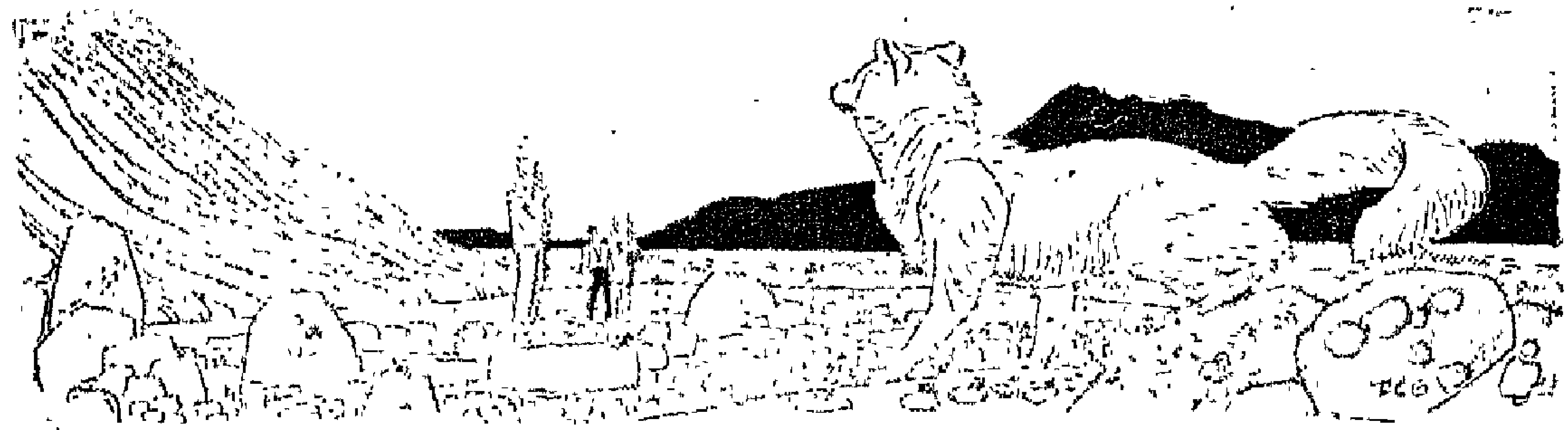
وعدت الى فراشى ، ولكننى لم أستطع النوم مرة أخرى ••

كنت أشعر كأنما رأيت لمحة من عالم آخر ••!

ونهضت من فراشى فى الخامسـة صباحا ، ولم يكن الرجلان قد استيقظا بعد • وفى ذلك اليوم ، استحممت فى العراء ، وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، فذهبت وراء الـكوخ ، حيث سرت أشعـة الشمس فى الجو فجعلته دافئا ، وملأت برميـلا بالماء العذب ، بينما ملأت ابريقا بماء البحر وأخذت بعد ذلك حماما رائعا ، تبعته بدش من ماء البحر !

ولم أشعر فى حياتى بمثل الانتعاش الذى أحسست به عقب هـذا الحمام الذى تم تحت شـمس القطب وبماء البحر الثلجى !

***



كان يقف فوق كومة النفايات ، يدور ببصره بين الصفائح الفارغة ، وقد اكتسى بفراء حريرى أبيض ، يشبه الجليد، من النوع الذى لاتراه عادة الا حول أعناق السيدات الأنيقات •
والصيادون يعدون اللحظة التى يقوم فيها الثعلب القطبى بأول زيارة لهم ، لحظة هامة ، فهذه الثعالب تظهر تعلقا كبيرا بالمخلوقات البشرية ، وهى تأتى الى الأكواخ كل يوم تقريبا •

وقال الرجلان انهذا الثعلب سوف يصبح من ضيوفنا المستديمين •

وتمتم له كارل بالنرويجية ، بعد أن أطلق عليه اسم « ميكل » ، وهو الاسم الذى يطلقه النرويجيون على كل ثعالب القطب ، ثم ألقى اليه ببعض قطع من الجبن ، بينما أخذ يتفرس فى فرائه بعين الخبير •

وقلت فى توسل : لا تقتلاه ، أتركا هذا المخلوق الجميل ليعيش •

وأصبح ميكل بعد ذلك زائرا دائما لنا ، وعندما كان كارل يقوم بسلخ جلد عجل البحر ، كان الثعلب الفضى يقف على كثب منه ، يتابع بعينيه كل حركة من سكينه ، بل لقد أصبح يصحبنا فى سيرنا كأنه كلب مخلص ، وكان أحيانا يلعب مع الصيادين لعبة « الاستغماية » فيقفز ويختفى وراء الأحجار الكبيرة ، ويسترق النظرات اليهم فى مرح وبهجة ، ثم ينهى اللعبة فجأة ، وينطلق بعيدا دون أن يلقى نظرة الى الوراء •

***

وأمضينا شهرا كاملا ، انتظم خلاله تعاقب الليل والنهار ، ولكن فى أواخر سبتمبر ، لم يعد اليوم أكثر من فجر وغسق • كانت الشمس تتدحرج ككرة من نار فوق قمم الجبال ، وازداد انشغالنا عندما أدركنا أن هذه هى الأشعة الأخيرة للشمس الراحلة •

وبدأت الطيور تهجر الجبال الى الأودية ، فلا يكاد الصيادون يلمحونها حتى يسرعوا الى بنادقهم ، فقد كنا فى حاجة الى مزيد من الطيور لتموين

الشتاء • وأخذ الرجلان فى نصب الشباك لصيد الثعالب ، وكان الشرك عبارة عن عصا فيها طعم ، حتى اذا ما تقدم الثعلب نحو الطعم ، انهار الشرك بما فيه من أحجار ثقيلة ، فتسقط على رأسه وتقتله •

***

وقفت اليوم على عتبة الباب ، ونظرت جنوبا حيث كانت السماء أكثر نورا • كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا ، والشمس تبرز بنصفها فوق الأفق ، ثم اختفت فجأة •

وأصابتنى رعشة قوية ، اذ أدركت أن هذه هى اللحظة التى نرى فيها الشمس لآخر مرة فى هذا العام •

وأسرعت الى الداخل أبلغ الأمر لزوجى ولكارل ، فقالا فى هدوء :

ــ هذا صحيح ، فاليوم ١٦ أكتوبر ولن تعود الشمس الا فى ٢٥ فبراير !

وحسبت الأيام ، فأدركت أن الليل سيستمر ١٣٢ يوما !

وفى يوم ٢٠ أكتوبر ، شرع الرجلان فى السير نحو الخليج الصغير لنصب الشراك ، فذهبت معهما وقد عولت على أن أجعلهما يتركان الأماكن التى أعتقد أنها ستكون خطرا على «ميكل»

ولكن الرجلين توقفا عند نبع الماء ، وهناك وضعا أول شراكهما •

وقررت أن أعود الى الكوخ ، فلوحا لى بأيديهما مودعين ، بعد أن طلبا الى أن أعود فى اليوم التالى لكى آخذ الثعلب الذى يقع فى الشرك •

وزمجرت العاصفة فى تلك الليلة ، وزأر البحر ، فأخذت أفكر فى ميكل وقد قتله الشرك •

وما كاد ضوء الغسق الحالك تخف حدته قليلا ، حتى انطلقت الى النبع •

كانت كتل الجليد تملأ الأرض ، وأمواج البحر تصطخب فى صوت مروع • ولم أكد أقترب من النبع ، حتى شاهدت فى الشرك ثعلبا أبيض اللون !

انه ميكل المسكين ، وظننت أنه ميت ، ولكن تبين لى أن الشرك لم يسقط فوقه كما يجب •

وكان الثعلب لايزال يجاهد محاولا الخلاص دون جدوى •

وأسرعت الى جواره ، ورفعت عنه الاطار الخشبى الثقيل ، فرفع رأسه ، ولم يكن قد أصابه أذى ، ولكنه نظر الى وفى عينيه لوم !

وكان يبدو ظمآن ، فأسرعت عائدة الى المنزل لأحضر له بعض اللبن الدافىء وأنا أكاد أطير من الفرح لان «ميكل» الصغير لا يزال حيا •

ولكنى ما أن عدت الى الشرك ،

حتى كان ميكل قد ذهب !

وفى اليوم التالى اعترفت لكارل بأننى أطلقت سراح الثعلب ، فضحك قائلا :

ــ هذا لا يهم ، فان فراءه لم يكن جيدا !

ولم نر ميكل بعد ذلك قط !

***

اننى وحيدة وسط تلك العاصفة المزمجرة • لقد بدأت وحدتى منذ تسعة أيام ، عندما رحل الرجلان لنصب شراكهما فى مكان بعيد •

وقال لى زوجى بعد أن أيقظنى قبل رحيله : سننطلق الآن ، وسنعود بعد ١٣ يوما ، ولكن لا تقلقى اذا تأخرنا أكثر من ذلك •

وعند الظهر ، هبت الريح بسرعة ، فى صفير حاد مرعب ، ولكن أذنى التقطت أصواتا جوفاء ، فأسرعت بالخروج من الكوخ • فشاهدت كتل الجليد تندفع فوق الأرض وحول الكوخ ، وتهطل فى سحب فوق البحر الأسود •

وازدادت حدة العاصفة ، وتضخم الزئير الأجوف حتى صار كالرعد المستمر ، وكان داخل الكوخ باردا على الرغم من اشتعال الموقد • ثم انطفأ المصباح ، فأخذت أبحث فى الظلام عن زجاجة الكيروسين ، ولكنها كانت خالية ، وكنت أعرف أن برميل الكيروسين محفوظ فى الخارج فى مكان ما بين الكوخ والشاطىء ، ولكننى لم أكن راغبة فى أن أبحث عنه فى الظلام حتى لا أضل طريقى عند العودة •

وتحسست طريقى فى الظلام نحو فراشى ، ولكنى لم أستطع النوم •

لقد أخذت أفكر فى الرجلين وهما يكافحان العاصفة الجائحة والظلام المخيف على طول شاطىء الخليج الصخرى

***

وفى الصباح عندما فتحت الباب ، وجدت أمامى حائطا ضخما •

ما هذا ؟ •• انه سد من الجليد • أغلق الطريق أمام الكوخ ••

وعدت الى الكوخ لأفكر ، ماذا أفعل ؟ اننى مضطرة للخروج لكى أحضر الفحم والكيروسين

وأخيرا استخدمت مجرفة الفحم لكى أحدث فجوة تكفى لخروجى ، وزحفت على يدى وقدمى حتى وصلت الى أكياس الفحم ، ثم عدت بكيس واحد منها ، كما أحضرت معى زجاجتين من الكيروسين •

وكان الليل قد أقبل ، فأسدلت الستائر على النافذة ، ولكن العاصفة كانت لا تزال تزمجر فى الخارج ••

ودام الأمر كذلك بضعة أيام ، كنت أستمع بلا انقطاع الى هذه الموسيقى المجنونة ، وكان الجليد يرتفع فى كل يوم حول الكوخ ، فاضطر الى أن أشق لنفسى طريقا جديدا ..

وجاءت ليلة هدأ فيها الجو تماما ..

وفتحت البـاب ، فلم أجد الجدار الأبيض المعهود ، بل كان الطريق الذى شققته فى اليوم السابق لا يزال مفتوحا أمامى ، ينتهى الى سكون شامل فى عالم من الروعة التى تجل عن الوصف .

كانت الأرض تبدو وكأنها تطفو فوق فضاء شفاف . وهناك فى الأفق البعيد شيء مستدير ينبعث منه ضوء وردى . انه انعكاس الشمس على مسرى الأفق !

كان كل شيء هادئا ، كأنما لم تكن هناك عاصفة بالأمس . وانعكس ضوء القمر على المياه كأنه قرص من الفضة .

ووقفت أتأمل هذه الروعة فى الطبيعة . وقد سحرتنى قوة ذلك السلام الذى يسود الدنيا كلها ..

أحسست فى هذا الفضاء الفسيح أننى ليس لى وجود . لقد ضاعت حدود وجودى وسط هذه الطبيعة الشاملة القوية .

وعدت الى الكوخ ، حيث أذكيت نار الموقد ، ونظفت الأرض .

لقد أعادتنى هذه الأعمال الى دنيا الواقع ، ولكننى أشعر أن كتابة مذكراتى اليوم أمر عسير !

لماذا هزنى سلام الطبيعة ؟ هل لأنه كان مسبوقا بهذه العاصفة الجبارة ؟

وهل نحن حقا فى حاجة الى قوة التناقض لكى نحس بحقيقة الحياة ؟

لقد فهمت الآن لماذا قال لى زوجى : يجب أن تعيشى بمفردك فى القطب ، لكى تدركى معنى الحياة حقا !

ومن يدرى ؟ لعل الناس فى القرون القادمة سوف يتجهون الى القطب ، كما انطلقوا الى الصحراء فى أيام الانجيل ليبحثوا عن الحقيقة مرة أخرى !

***

استيقظت فى هذا الصباح وبى يقين لا أدرى كيف أفسره ، أن الرجلين سيعودان اليوم على الرغم من هذا الجو السيىء . وبلغ يقينى حدا جعلنى أضع كثيرا من الحطب فى الموقد ، ونظفت كل شيء ليكون معدا للترحيب بهما ، وأعددت رغيفا كبيرا من الخبز وأطباقا من الطعام الشهى .

وعلى الرغم من أن الترمومتر كان ينخفض بسرعة ، فقد حفظت الكوخ

دافئا ، وأعددت خفى زوجى وثياب الرجلين الجافة •

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر ، جلست الى جوار الموقد أغزل الصوف •

كانت العاصفة قد عادت تدوى فى الخارج مرة أخرى ، والجليد يهطل من خلال الظلام ، حتى أننى تمنيت ألا يكون الرجلان فى طريق العودة •

وجاءت الساعة السادسة ، فالسابعة ثم الثامنة ، وعندئذ فقدت الأمل فى حضورهما •

وبقلب كسير ، قررت أن أتناول طعامى بمفردى ، فلم أكن قد تذوقت شيئا اليوم •

وبينما كنت أذكى نيران الموقد ، هبت ريح قوية ، فامتلأ الكوخ بالدخان الأسود ، وعندئذ فتحت الباب بقوة ، ووقفت حيث أستطيع أن أتنفس الهواء •

وفجأة سمعت رنينا عجيبا ، أشبه برنين الأجراس ، برز فوق زئير العاصفة •

ووقفت مرهفة الأذنين ، ان الأمر لا يمكن أن يكون مجرد وهم •

وسمعت صوتا ثانيا ، بدأ ناعما ، ثم أخذ يتزايد باطراد •

انه صوت أدوات الانزلاق وهي تضرب بسرعه في الجليد •

ودوى صوت ينادينى من خلال الظلام • وبدأت أستيقظ وكأننى كنت فى حلم •

لقد عاد الرجلان ، وقد وصل صدى صوتهما الى وسط العاصفة •

وبعد قليل ، كان هيرمان يقف أمامى وهو يتفرس فى وجهى ، وقال :

ـ لقد استولى علينا القلق عليك ، فتلك أول عاصفة ثلجية تمر بك وأنت بمفردك •

وسرعان ما امتلأ الكوخ بالثياب المبللة والجوارب والأحذية التى يغمرها الجليد ، وكوم من الثعالب البيضاء المتجمدة •

وأخذت أتنقل داخل الكوخ كالنحلة ، لقد عدت الى عالمى مرة أخرى !

***

وتلت ذلك أيام من الراحة والاسترخاء •

واستراح الرجلان من رحلتهما الطويلة ، فرقدا على فراشيهما يطالعان على ضوء المصباح الصغير ••

كان الظلام المتزايد يحبسنا بين جدران الكوخ أغلب الوقت ، وقد خلق كل منا لنفسه نوعا من العمل ، فزوجى يكتب ويدرس ويطالع ، وكارل يصلح ساعاتنا وبنادقنا ، أو

ينحت بسكينه مقابض من أسنان بقر البحر • أما أنا ، فكانت أمامي أكوام من الملابس التى تحتاج الى الاصلاح ، وكنا نتناوب ادارة المنزل ، حتى يجد كل منا ما يشغله يوما برمته ،

وفى ساعات المساء ، كنا نخرج أوراق اللعب ، ونمضى فى اللعب فى سكون •

أما الدنيا التى تقبع وراء بابنا ، فقد كانت غارقة فى ليل عميق ، فالجبال ليست الا ظلالا بيضاء ، والبحر ليس الا ظلا أسود كبيرا •

واقترب عيد الميلاد •••

وأخذنا جميعا فى اعداد أنواع الكعك اللازمة استعدادا للعيد ••

وقضينا أمسية جميلة عشية العيد ، اذ تناولنا العشاء ، وأشعلنا الشموع على الشجرة الصغيرة التى صنعها كارل

***

مر الآن ٧٨ يوما من الظلام ، ولم يزل باقيا ٥٤ يوما قبل أن تظهر الشمس مرة أخرى فى الأفق الجنوبى •

ان الحياة وسط هذا السكون اللانهائى ، تجعل حواس الانسان تشرد فى آفاق بعيدة ••

كانت تبدو أمامى مشاهد غريبة على هدى ضوء عجيب ينتشر أمام عينى الباطنة •• كنت أرى زهورا وأشجارا فى عالم بعيد ، تشرق عليه شمس تتوهج بألوانها وجمالها الأخاذ •

وكنا فى كل صباح ، نجلس فى سكون لنتناول الافطار ، وندفىء أيدينا المثلجة حول أقداح القهوة •• لقد أصبحنا فى حالة من الشحوب والارهاق وأصبحت جدران الكوخ مغطاة



بطبقة من الجليد يبلغ سمكها بوصة !

***

استيقظت هذا الصباح على صوتى الرجلين وهما يسرعان جيئة وذهابا •

وفتح باب غرفتى الصغيرة ، وهتف زوجى قائلا :

ـ لقد جاءت الثلوج ، لقد جاءت الثلوج •

وسرعان ما ارتديت ثيابى وانطلقت

الى الخارج ، وهناك شاهدت كتلا بيضاء ضخمة من الثلوج ، تمتد حتى أقصى ماتستطيع العين بلوغه ، وكانت كتل الثلج تبدو كالجبال التى جاءت فى جولة من الشمال ، وهى تهدر وتزمجر ويصطدم بعضها بالبعض الآخر •

كنا نحن الثلاثة نقف أمام هذا المنظر وقد استبدت بنا الفرحة والبهجة ، وكأنما رأينا شريان الحياة وقد تدفق أمامنا فجأة •

لم يفكر أحدنا فى طعام الافطار ، بل أسرع الرجلان الى تأبط بنادقهما واختفينا فى هذا الفضاء الثلجى الكبير •

أما أنا ، فقد اكتفيت بمراقبة هذه الكتل الثلجية من بعيد !

***

٦ فبراير : جاء اليوم أول دب الى منطقتنا ، ولكننا لم نكن فى الدار لسوء الحظ ، بل رأينا آثار أقدامه على مقربة من الكوخ • وسرعان ما أخذنا نعد الشراك المصنوعة من صناديق البرتقال الخالية ، وقد ربطت بالأسلاك ووضعنا فيها مسدسا صغيرا ينطلق بمجرد دخول الشرك ، ودسسنا فيها الطعم وهو عبارة عن قطعة من الدهن •

٢٥ فبراير : كنا جميعا فى حالة طيبة ، على الرغم من أن درجة الحرارة الآن ٣٥ تحت الصفر ، لأننا كنا سنرى الشمس مرة أخرى ، من تلك الفجوة التى شاهدناها منها لآخر مرة •

وحوالى نهاية فبراير ، انطلق كارل الى داخل الجزيرة ليجمع الثعالب من شراكها ، وصحبه هيرمان ، وعدت الى الكوخ فراعتنى قذارته والاهمال السائد فيه ، فلم أستطع أن أتمالك نفسى ، وسرعان ما ملأت الغرفة بالماء الساخن والصابون ، وأخذت أنظف كل قطعة فى الغرفة ، بنفس مبتهجة • وعندماعاد هيرمان ، كان الماء قد تجمد على الجدران وفوق الأرض ، وأصبح الكوخ يلمع كأنه قصر من البللور •

وفى أوائل ابريل ، عاد كارل ، وقد أصبح شديد النحول ، وقال انه وجد كل الثعالب ميتة ، ولم يستطع أن يصيد غير طائرين فقط • ومع أن الارهاق الجثمانى كان واضحا على صفحة وجهه ، فان عينيه كانتا تشعان ببريق السعادة لانه عاد مرة أخرى الى صحبتنا •

١٢ ابريل : كان هيرمان فى الخارج يعلق جلود الثعالب لتجف ، وفجأة ربت على النافذة ، ونادى كارل ليخرج اليه ، وكان وجهه يبرق بالفرح وهو يقول لى : انصتى

ووسط هذا السكون الشامل ،

استطعت أن أسمع صوتا بشريا على بعد كبير ، يهتف .. وما لبثت أن بدت أمامنا زحافة قادمة نحونا ، قال هيرمان أنها زحافة صديقه « نواز » الصياد الذى بنى الكوخ الذى نقيم فيه .

وسرت بيننا البهجة لرؤيتنا وجها جديدا ، كما ابتهج نواز لانه وجدنا نحن الثلاثة فى حالة طيبة .

وأخرج الرجل من جعبته مجموعة من الرسائل الواردة لنا ، فأخذنا نقرأها باهتمام بالغ ، ثم جلسنا نستمع الى أخباره .

ودهشت عندما علمت الآن أننا سوف نرحل جنوبا بعد يومين ، لنستقل أول سفينة عائدة الى الوطن ، وفقا للترتيب الذى أعده هيرمان فى الخريف الماضى .

ورغم أن حنينى كان شديدا الى الوطن ، فقد أحزننى أننا سنرحل عن هذه البلاد فجأة ، ولكنى لم أقل شيئا ، بل أخذت أستعد للرحلة .

وفى عشية اليوم المحدد لرحيلنا ، ذهبنا للنوم مبكرين ، وبعد أن هدأ كل شىء فى الكوخ ، تسللت الى الخارج لألقى نظرة وداع على تلك البلاد .

كانت ليلة رائعة هادئة ، تشوبها قدسية خاصة ، وبعد فترة من الوقت وسط تلك الروعة ، تسللت عائدة الى الكوخ فى سكون ، وقد أحسست أننى لن أرافقهم فى رحلة الغد .

أننى لن أستطيع أن أرحل من هنا ..

وفى اليوم التالى أخبرت الرجلين عن قرارى ، فهتف كارل قائلا : انه جنون سبيتز برجن .

لقد جنت السيدة !!

وظن نواز أننى خائفة من طول الرحلة ، فقال : تستطيعين أن تقومى بالرحلة كلها على زحافتى ..

وكان زوجى هو الوحيد الذى لم يقل شيئا .

لقد أدرك كل شىء ، اننا سنبقى معا .

وودعنا كارل فى اليوم التالى ، ذلك الصديق المحبوب المخلص الذى زاملنا طوال ليالى الشتاء بقلبه المخلص وروحه المرحة القوية ، وصافحناه هو ونواز ، ثم انطلقت بهما الكلاب بالزحافة بعيدا ، حتى اختفت عن الأنظار .

منتصف مايو : اننا نعيش فى عالم مجيد رائع يغمره ضوء الشمس الساطع الذى يملأ الكون ليلا ونهارا ، ووسط كل هذا الجمال والروعة ، لم نعد نفكر فى شىء آخر ، أو حتى فى أننا لم نذق اللحم الطازج منذ ثمانية أشهر وخرج هيرمان من تفكيره بنظريه جديدة تقول ان الشجاعة والمرح هما كل ما نحتاج اليه من فيتامينات !

نهاية مايو : ظهر اليوم أول عجل بحر فوق الثلوج ، رأيته وأنا فوق سطح الكوخ فى الصباح الباكر • ولكن هيرمان لم يستطع صيده بعد أن اختفى فجأة عن الانظار ، وأخيرا صاد هيرمان طائرا بحريا فنظفناه ووضعناه على النار • وكنا نرفع الغطاء بين لحظة وأخرى لنستنشق رائحة اللحم ، وقبل أن ينتهى طهوه ، كنا قد شربنا الحساء كله •

وفى اليوم التالى ، قدمت أسراب كثيرة من الطيور البحرية ، وكانت تطير على ارتفاع قليل حتى أن هيرمان صاد منها ستة عشر •

ومن سخرية القدر انه فى نفس الليلة ، ظهر أول دب فى شرك من الشراك التى نصبناها !

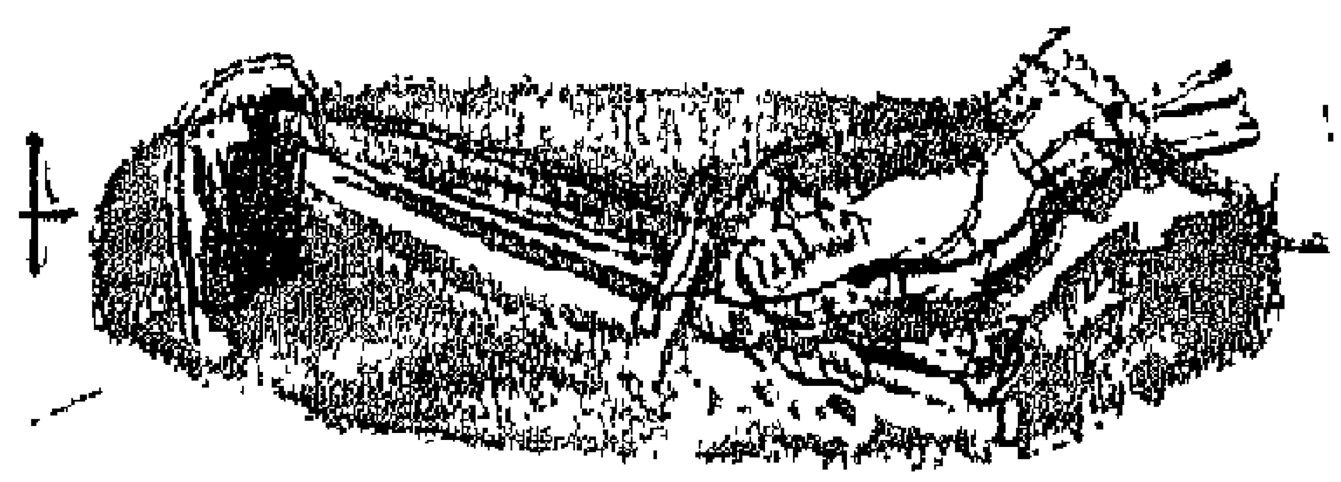
اول يونيو : كنا نجلس على سطح الكوخ ، الذى بدأ يبرز من وسط الجليد ، وكانت أشعة الشمس دافئة وقد بدا ربيع القطب حولنا ضاحكا مبتهجا فى روعة ونقاء ، واخذت افواج الطيور تأتى متتابعة الى شاطئنا ، وامتلأت صفحة البحر بالالوف من عجول البحر ، التى وفدت لتتمتع بالشمس بعد الظلام الطويل •

وأخذت الثلوج تتلاشى رويدا رويدا حتى بدت صفحة الخليج زرقاء لامعة •

وفى ذات صباح سمعنا صفارة سفينة فى البحر ، انها الباخرة النرويجية الصغيرة التى أحضرتنا فى الصيف الماضى ••

وأحسست أننى يجب أن أعود الآن الى الوطن بعد أن حققت رغبتى •

وبدأت السفينة تتحرك ، وأخذ كوخنا يتضاءل رويدا رويدا ، والركاب يحملقون فى وجوهنا ، وقد ادهشهم ذلك الحب الذى بدا فى عيوننا ، لهذه البلاد التى ترقد فى ظلام وبرودة ، بين الضباب والماء !



لاحظ رئيس زوجى فى العمل أثناء اصطيافه بمصيف راق جدا فى رست فرجينيا أحد البوابين ، وهو ينزل بعض الحقائب لرجل كبير فى السن ولكنه أنيق حسن الملبس ، ويضعها فى سيارته الكاديلاك الفاخرة . وبدا واضحا أن هذا الرجل الكبير كان يريد أن يعطى البواب منحة ، فسأله عما اذا كان يستطيع أن يستبدل بالدولارات عملات صغيرة ؟

فرد البواب قائلا : فى هذه الجهات يا سيدى ، يعتبر الدولار عملة صغيرة •

(ايفيلين هيفيلى)

العين المبصرة للملايين



كتاب الشهر : First Lady of the Seeing Eye

روى القصة موريس فرانك وكتبها بلاك كلارك

كانت بودى مهاجرة قادمة من سويسرا ، وان كانت تنتمى الى كلاب الرعاة الالمان ، ولكنها ما لبثت أن أصبحت من أشهر الكلاب واحبها الى قلوب الامريكيين .. وعاشت حياتها تنعم بالشهرة والاهتمام ، بعد أن تركزت حولها الاضواء والدعاية ، باعتبارها أول كلبة تقود العميان فى تلك البلاد ، وكانت هى الرائدة الاولى فى هذا الميدان ، الذى فتح آفاقا جديدة لمئات وآلاف ممن فقدوا نعمة البصر ، فأعادت اليهم الامل فى حياة حرة كريمة .

وكانت حياة بودى كلها زاخرة بآيات من الذكاء والعاطفة والاحساس المتدفق وكانت لصفاتها الممتازة الفضل فى كسب المعارك التى خاضها سيدها ، لينفذ برنامجه فى أنحاء الولايات المتحدة ، حتى يقدم لكل من فقد بصره رفيقا دائما ومعينا فى الحياة .

لقد أدت بودى للمكفوفين فى أمريكا خدمة لا تنسى .

العين المبصرة للملايين

كانت أخطر مرة واجهت فيها الموت ، عندما كنت أسير في ردهة أحد فنادق « دايتون » بولاية أوهايو ، وكادت الكارثة تقع لأنني مكفوف البصر ، وكان يمكن ألا يقع ذلك الحادث على الاطلاق لولا أنني أخطأت ، وكانت الغلطة غلطتي وحدي •

كان المتفق عليه أن ألقى خطابا في اجتماع كبير يعقد في دايتون تلك الليلة ، ولكن القطار الذى أقلني الى هناك وصل متأخرا ، مما دفعني الى الاسراع في سيرى مع كلبتي «بودى» التي تقوم بارشادى الى الطريق ، وانطلقت صوب غرفتي التي تقع في الطابق الرابع عشر من الفندق وماكدت أنتهى من ابدال ثيابى والاستعداد للذهاب الى الاجتماع ، حتى تبينت أنه لم يبق على موعد وصولى الى هناك أكثر من خمس عشرة دقيقة •

وكان على حينئذ أن أسرع بالنزول والبحث عن سيارة تقلني الى مكان الاجتماع • وهرولت أقطع الممر المؤدى الى المصعد ومعى رفيقتي الدائمة «بودى» وهناك توقفت الكلبة الالمانية ساكنة بلا حراك ، ولم تتقدم كعادتها الى المصعد وتشير بأنفها الى زر الاستدعاء ، بل أنها تجاهلت الامر الذى أصدرته لها بالتقدم •

وعندئذ فعلت ما لا يفعله قط أى شخص يملك كلبا مرشدا ، اذ أنني ــ بدافع من عجلتي ــ ألقيت زمام الكلبة من يدى وشرعت في السير الى الامام بمفردى •



وأسرعت «بودى» ورائى ، فألقت بنفسها أمام ساقى ، وهى تدفعني بقوة الى الوراء ، حتى لا أتمكن من التقدم

الى الامام ، وفى تلك اللحظـــة ، كانت احدى خدم الفندق تخرج من غرفة ، فمـا كادت ترى المنظر حتى أطلقت صرخة مرعبة وصاحت قائلة:

ـ لا تتحرك ، ان باب المصـعد مفتوح ، والمصعد غير موجود !

وارتعشت ركبتاى هلعا ، فلو أن بودى تركتنى أسير خطوتين أخريين، لابتلعتنى الهوة المخيفة ، واختفيت فيها نهائيا •

وفى تلك اللحظـة الخاطفـة التى أحسست فيهـا أننى مدين بحيـاتى لبودى ، مرت أمام خاطرى صــورة سريعة لكل ما أظهرته هذه الكلبـة الالمـانية الجميـلة من ولاء وذكـاء لا بالنسـبة لى فحسب ، بل لكل المكفوفين فى أنحاء أمريـكا ، الذين منحتهم الحرية والاستقلال ، بعد أن أتاحت لهم استخدام كلاب الارشاد المدربة ، فقدكانت «بودى» هى الرائدة الاولى فى هـذه الطريق ، وهى التى فتحت السبيل أمام الآخرين جميعا، اذ أحيطت أعمالها بدعاية واسعة ، وتابع الجميع حركاتها بفضول عجيب، كان يشوبه الشـك فى أول الامر ، ولو لم تكن أعمالهـا كلهـا صائبة لا يشوبها أى خطأ ، لكان من المحتمل ألا ينفذ برنامج تدريب الـكلاب التى ترشد العميان فى أمريكا •

***

منذ بضع سـنوات ، لم أكن قد سمعت قط عن مثل هذه الـكلاب ، ثم حـدث فى يوم ـ ما زلت أذكر تاريخه تماما ـ وهو ٥ نوفمبر١٩٢٧، أن كنت فى بلدة «ناشفيل» بولاية تنيس حيث ولدت ونشأت ، وكان هناك خادم خاص يتولى قيادتى أثناء سيرى فى الطريق ، وبينمـا كنت أتحسس طريقى بعصاى ، سـمعت صـوت بائع الصحف يهتف أمامى قائلا :

ـ فى مجلة (بوست) هذا الاسبوع مقال يجب أن تقرأه يا مستر فرانك، انه يتحدث عن فاقدى البصر •

وبحثت فى جيبى عن قطعة نقود ابتعت بها المجلة •

وفى ذلك المساء ، جلست أصغى بكل جوارحى ، بينما كان أبى يطالع لى هـذا المقـال الهام الذى نشرته صحيفة « ساترداى ايفننج بوست » وكان المقال يتحدث عن كيفية تدريب الالمان لبعض كلاب الرعاة لكى تحل محل عينى الاعمى ، وكيف أن هـذه الكلاب الذكية المدربة تدريبا عاليـا تستجيب لكل الاوامر التى تصدرها لها بدقة تامة ، وهى تقود من ترشده

خلال حركة المرور فى شوارع المدن بأمان وسلام ، وتتخطى به العقبات وتصعد الدرجات وتدخل المصاعد • ثم أكدت كاتبة المقال أن الاعمى يستطيع بمعونة هذه الكلاب المدهشة أن يذهب الى أى مكان يشاء ، وأن يعيش كالمبصرين تماما •

وأخذت أسائل نفسى ، وقد تأرجحت روحى بين الشك والامل وأنا أصغى لأبى :

ترى هل يكون هذا الكلام صادقا •؟

أنه لو صدق فسيعنى أننى ومئات مثلى سوف نتحرر من سجن رهيب ، وأن هذه الكلاب تستطيع أن تحررنا جميعا من القيود التى نرسف فيها •

كنت يومذاك فى العشرين من عمرى ، وقد أمضيت أربع سنوات فى ظلام تام ، فقد فقدت عينى اليمنى وأنا فى السادسة ، عندما أصابها غصن شجرة وأنا أمتطى صهوة جوادى ، وفقدت العين الاخرى وأنا فى السادسة عشرة ، نتيجة ضربة سيئة الحظ أصابتها أثناء مباراة للملاكمة •

ولم أكن أعتزم أن أصبح واحدا من هؤلاء العميان الذين يراهم المرء أحيانا يستدرون العطف والشفقة ، ويعتمدون على غيرهم فى أتفه الامور ، ولهذا أخذت أحضر الدروس التى تلقى فى جامعة (فاندربلت) وكنت أقوم ببيع بوالص التأمين بعد ساعات الدراسة ، ولهذا كنت أواجه مشقة كبيرة فى أثناء جولاتى • وحدث مرة بينما كنت أتحسس الطريق بعصاى ، أن وقعت فى حفرة كانت أمامى ، وأمضيت هناك ساعة مذلة ، قبل أن يرانى بعض الاشخاص ويخرجنى منها •

وحاولت تجربة أخرى ، فاستأجرت غلاما لارشادى فى الطريق ، ولكنه كان يتأخر كثيرا عن الحضور فى الصباح ، فتضيع على فرصة الدراسة ، كما كان الناس الذين أذهب اليهم معه لبيع بوالص التأمين ، يشيرون اليه من طرف خفى ، لكى يقول لى أنهم غير موجودين •

وهكذا فشلت التجربة واستبد بى اليأس الى حد أننى كنت على استعداد للاقدام على أى تجربة قد تتيح لى قدرا من الحرية والاستقلال !

***

بعد ليلة مؤرقة قضيتها فى التفكير فى هذا المقال الذى بعث الامل الى نفسى كتبت رسالة الى دوروتى هاريسون كاتبة المقال ، سألتها فيه أحقا ما تقولين؟

ذا كان الامر كذلك ، فانني أريد أحد
للابك هذه ، ولست وحدى فى ذلك ،
ل هناك الآلاف مثلى ، الذين يؤلمهم
لاعتماد على الآخرين ، فساعديني
ساعديهم ، وسأعود بكلبى لأرى
الناس هنا كيف يستطيع الأعمى
أن يعتمد على نفسه ، وأحسست
بالرعشة تسرى فى يدى وأنا أوقع
باسمى على هذا الخطاب ، الذى كان
أهم خطاب فى حياتى كلها • وبعد
شهر من الانتظار المؤلم ، وصل
الرد أخيرا •

كان على الخطاب طابع بريد
سويسرى يتميز بلونيه الاحمر
والازرق ، وقد بعثت به سيدة تدعى
مسز أوستس ، قالت انها أمريكية
من فيلادلفيا ، ولكنها تعيش الآن
على مقربة من بلدة « فيفى » بجبال
الألب السويسرية ، حيث تقوم
بتربية كلاب الرعاة الالمانية فى
ضيعتها الخاصة هناك التى أسمتها
« الحقول السعيدة الحظ » ثم تدرب
هذه الكلاب على أعمال البوليس
والصليب الاحمر •

وقالت السيدة فى خطابها أنها لم
يسبق لها أن دربت كلابا لارشاد
العميان ، ولكنها على استعداد
لمساعدتى فى ذلك ، لو أننى وجدت
فى نفسى الشجاعة على السفر اليها
فى جبال سويسرا

ولم يكن هناك شك فى أننى
سأستجيب لهذه الدعوة ، فقد كنت
على استعداد للذهاب الى أى مكان فى
العالم سعيا وراء الاستقلال •

وكانت ظروف أسرتى فى ذلك
الحين تضطرنى الى قطع هذه الرحلة
بمفردى ••

وهكذا سافرت الى سويسرا فى
أبريل ١٩٢٨ ، وكأننى طرد مشحون ،
فقد وضعت فى رعاية خادم ، كان
أقرب الى حرس السجون منه الى
الخدم ، فقد كان يحبسنى كل صباح
فى غرفتى ويغلقها من الخارج ، حتى
يعود الى لكى يقودنى لتناول طعام
الافطار ، ولا أكاد انتهى من احتساء
القهوة ، حتى يعود بى الى غرفتى
ليغلقها على مرة أخرى • وفى العاشرة
صباحا يقودنى الى نزهة كأننى جواد
ركوب ، ثم يجلسنى على مقعد ، فاذا
تكرم بعض الركاب بدعوتى للسير
معه ، سرنا قليلا ، وفجأة يهرع
حارسى وراءنا متقطع الانفاس ، حيث
يجذبنى من معصمى ويعود بى الى
مقعدى مرة أخرى ، ليستطيع أن
يراقبنى •

***

كانت أول كلمة سمعتها ، وأنا أخطو من القطار الى تلك البقعة التى تسطع فيها الشمس ويهب الهواء البارد المنعش ٠٠ هى :

ـ نحن هنا يا مستر فرانك

وكان هو صوت مسز أوستس المحبوب ، وصافحتنى السيدة بحرارة، ثم قدمتنى للآخرين قائلة :

ـ معى الآن جاك همفرى مدير المدربين ، وزوجته وابنهما الطفل جورج ٠

وأحسست أن هذه السيدة حازمة. رغم طيبتها البادية ، وهى تعرف تماما كيف تحصل على ما تريد ٠

وبعد الغداء فى الضيعة ، أخبرنى جاك همفرى أن مسز أوستس تهتم بتربية نوع من كلاب الرعاة الالمانية ذات القدرة العالية على التعليم ، وأغلبها تدرب لأعمال الحراسة والبوليس والانقاذ ، وقد اختارت واحدة من أحسن نتاجها لتكون مرشدا لى ، وتولى هو تدريبها بنفسه وقال جاك انه أمضى شهرا فى « بوتسدام » ليتعلم فن تدريب كلاب الارشاد ، ووسائل تعليم العميان كيف يستخدمونها ٠٠ واننى سأصبح تلميذه الاول ٠

وفى عصر اليوم التالى أحضر لى جاك الكلبة المختارة ٠ ووضع فى يدى قطعة من اللحم ، حتى تكون مفتاحا لصداقتنا ٠

وسمعت صوت الباب وهو يفتح وأقدام الكلبة وهى تدب فوق الارض بنعومة ٠ واقتربت الكلبة من يدى فأخذت قطعة اللحم فى أنفة وكبرياء فركعت الى جوارها وأخذت أمر بيدى على ظهرها الحريرى الناعم

وقالت مسز أوستس تصفها لى: انها كلبة جميلة ذات لون أشهب داكن، وهناك بقعة صفراء عند رقبتها ،ولها عينان عسليتان تبرقان ، ويبدو عليهما اليقظة والادراك التام ٠، وأحسست نحوها بحب جارف ، وخالجنى الرجاء فى أن يكون شعورها نحوى مماثلا ٠٠

كان اسمها الاصلى (قبلة)ولكنى قررت أن أسميها « بودى » حتى لاتحرجنى مناداتها باسمها الاصلى أمام الغرباء

وأمسكت بزمام بودى ، وقضيت معها طيلة فترة بعد الظهيرة ٠٠ وفى المساء ، أمضت الليل الى جوارى فى الفراش الدافىء بدلا من غرفة الكلاب

وفى ذلك الصباح بدأ تدريبى ٠ وظللت ممسكا بزمام الكلبة منذ أن التقيت بجاك أمام الباب الخارجى

وقال لى جاك بهدوء : أقبض على الزمام بيدك اليسرى ، فالكلبة تعمل دائما على يسارك حتى تكون بينك وبين المشاة فى الطريق • وألق كتفيك الى الوراء ، وسر فى خطوة ثابتة كالجندى •

وفعلت كما طلب منى ، وعندئذ استطرد يقول :

ـ والآن أصدر أمرك لها قائلا : «الى الامام » ولتكن نبراتك واضحة• وبمجرد اطاعة الكلبة للامر ، عليك أن تمتدحها •

وفعلت كما ذكر ، وانطلقنا نحو البوابة الرئيسية ، حيث توقفت بودى قليلا ، وراحت تهتز لحظة الى الوراء والامام دون توازن ، فقال جاك :

ـ انها تريك أين المزلاج •

ووضعت يدى على رأسها ، ثم هبطت بها الى أنفها ، فوجدت المزلاج ورفعته ، ثم بدأنا رحلتنا ، وقال جاك محذرا : اجعل ذراعك الخالية قريبة الى جانبك حتى لا تصطدم بعمود البوابة

وأخذت اتبع تعليمات جاك ، فأصدر أمرى للكلبة : الى اليمين ، الى الامام • وبدأ خجلى يزول • ثم انطلقنا فى الطريق بسرعة لم اندفع بمثلها منذ أعوام •

ورفعت رأسى ، وسرت فى خطوات عسكرية ثابتة ، وأنا أشعر بالفخر •

لقد أصبحت حياتى الآن مرتبطة بكلبة وشريط من الجلد !

وسرنا فى الطريق الى بلدة (فيفى) وهو طريق متعرج يهبط ويصعد وسط الجبال ، وكنت أحس بالناس والعربات والزحافات والخيل وهى تنطلق من حولنا ، وفجأة توقفت بودى • وظننت أننا وصلنا الى الدرجات المؤدية الى القطار المعلق •

وأخذت أحرك قدمى الى الامام • وكان هناك فعلا رصيف منخفض يؤدى الى المركبة التى تنطلق وسط الجبال معلقة على أسلاك قوية •

وقال جاك وهو يجلس الى جوارى :

ـ ضع الكلبة تحت قدميك حتى لا يخطو أحد فوقها •

ووصلنا أخيرا الى البلدة الصغيرة التى تقع أسفل الجبال • وبينما كنا نسير خلال شوارعها الضيقة كانت حركات الزمام تدلنى على أن بودى تنحنى يمينا أو يسارا فأنحنى معها •

وحدث مرة أن استدارت بودى بمهارة نحو اليسار ، ثم عادت الى الطريق مرة أخرى ، ولما لم أكن أشعر بأحد على مقربة منى ، فقد سألت جاك عن سبب عملها هذا ، فقال :

ـ ارفع يديك الى أعلى

ففعلت وعندئذ اصطدمت يداى بأنبوبة حديدية ترتفع الى مستوى وجهى ، كادت تصيبنى لولا مهارة بودى ، التى تصرفت من تلقاءنفسها، بعد أن قدرت بعقلها أن هذه الانبوبة خطر على •

كانت كل تجربة جديدة تدلنى على اننى أستطيع أن أثق فى الكلبة الذكية ثقة تامة ، وأن أسلمها مصيرى •

وظل جاك مدى ساعتين يفسر لى حركات الكلبة ، ويذكرنى أن أسير دائما منتصب القامة ، وألا أجذب الزمام بشدة •

***

ومضينا نقوم برحلة فى الصباح وأخرى فى المساء طوال خمسة أيام، ثم قال لى جاك :

ـ غدا ستسير بمفردك • وسأتابعك من بعيد ولكننى لن أتدخل

وفى صباح اليوم التالى ، عادجاك يستعرض معى بكل دقةمعالمالطريق الى البلدة • وانطلقت لاول مرة بمفردى مع بودى •

ورفعت المزلاج ، ثم سرنا فى الطريق ، حتى درجات القطار المعلق، حيث توقفت بودى كالعادة ، ولكننى كنت فى حالة عصبية ، ففشلت فى التوقف وراءها مباشرة ، وتعثرت ثم سقطت على الارض سقطة آلمت ركبتى •

وسمعت صوت جاك يضحك خلفى، بينما نهضت من سقطتى وأخذت أنظف ثيابى ، وأنا أشعر بالحنق على جاك ، لأنه يسخر من رجل أعمى مثلى •

وفى (فيفى) اخذت بودى ترشدنى الى الطريق ، وكان الغضب والحنق قد استوليا على ، فأخذت أصدر أوامرى اليها باندفاع ، وفجأة بينما كنا نعبر أحد الشوارع ، توقفت بودى ، ثم تراجعت الى الوراء بسرعة وهى تجذبنى معها • وفى تلك اللحظة أحسست بسيارة تمرق الى جوارى حتى كادت تلمس وجهى ، فأعادنى ذلك الى صوابى •

وبعد أن وصلنا فى سلام الى الجانب المقابل من الطريق ، شكرت بودى من أعماق قلبى على عملها •

وفى أثناء العودة الى (الحقول السعيدة) تحسن سلوكى معها ،وان كنت لم أنس بعد غضبى على جاك •

وبعد أن عدت الى غرفتى وألقيت نفسى على فراشى ، سمعت صوت الباب وهو يفتح ، ثم قال جاك :

ـ اسمع يابنى ، ان لك مطلق الخيار ، فأنت تستطيع أن تظل انسانا

أعمى تعتمد على الناس ، أو تصبح رجلا حرا مستقلا بمعاونة بودى . أما أنا فلن أكون الى جوارك دائما . ولن تجدنى معك فى أمريكا بعد أن تعود . ان مستقبلك بين يديك وحدك .

ثم خرج بعد أن أغلق الباب وراءه بهدوء .

وأحسست بالخجل من نفسى ، فقد كان على حق فى كل ماقاله .

***

فى تلك الليلة ذهبت الى فراشى وأنا أشعر بالعزلة والفشل .

ماذا يحدث اذا لم استطع تعلم كيفية استخدام كلاب الارشاد ؟ كيف أعود الى وطنى لاعترف بفشلى ؟

وأحسست بالتعاسة تغمر قلبى ، وكأنما أحست بودى بما ينتابنى من مرارة ويأس ، فزحفت فوق أغطية الفراش الى جوارى ، وراحت تلعق وجهى ، وتقترب منى قدر المستطاع فى ود واخلاص . وكان لعملها هذا رد فعل قوى فى نفسى ، فأخذت أستعرض فى خاطرى ماحدث فى الصباح . اننى لم أكن فاشلا تماما . لقد ارتكبت بعض الاخطاء حقا ، ولكنى تعلمت منها الكثير ، حتى اننى تصرفت بطريقة صائبة فى الجزء الاخير من الرحلة كما اعترف جاك بنفسه .

وذهب عنى الحزن ، وعاد الى الامل بعدما لمسته من حب هذه المخلوقة الكريمة ، واستغرقت فى النوم ، بعد أن اطمأننت الى وجود « بودى » الى جوارى .

وفى تلك الليلة ولدت الزمالة الحقة بيننا . وبدأت حياة جديدة لرجل وكلبة ، كلبة ستحرر هذا الرجل من الرق ، وتفتح أمامه الطريق الى عالم جديد ، بل عوالم كثيرة .

***

وأصبحت رحلات التدريب أكثر صعوبة ، فقد حرص جاك على أن يدربنى أنا وبودى على أن نجتاز كل المواقف والظروف معا . وازدادت قوتى على تركيز احساساتى ، حتى اننى أصبحت قادرا على استيعاب كل التوجيهات من المرة الاولى ، كما اصبحت أكثر احساسا بحركات بودى ، واستجابتها لاوامرى .

وبعد بضعة أسابيع أمضيتها فى (الحقول السعيدة) قلت ذات صباح لمسز أوستنس :

ــ أريد أن أقص شعرى عند الحلاق ، فهل أدعو جاك ليذهب بى الى هناك

ولكنها ردت قائلة : كلا ، اذهب بمفردك ، فان عندك كلبا !!

وكان هذا بمثابة تحد ظاهر لى ، فلم يسبق لى أن قمت بأية رحلة الى المدينة بمفردى •

وأحسست بالعرق يملأ يدى •

وأمسكت بزمام بودى ، ثم دوى صوتى قائلا لها :

ـ الى الامام ••

وأخذت أنا وهى نسلك الطرق المألوفة لنا ، ورحت أراجع فى ذهنى التوجيهات التى كان جاك يقولها لى دائما •

ورحت أحصى الدورات التى تقوم بها ونحن نمر بحوانيت القرية ، ودلتنى أصوات الدجاج على أننا وصلنا الى الركن الذى فيه متجر بائع الدجاج فانحنيت يسارا ، ثم عرفت من رائحة الخبز المنبعثة من حانوت الخباز أننا نسير فى الطريق الصحيح ، فأمرت بودى بالانحناء يمينا ، وبعد قليل سمعت صوت الحلاق يقول فى لهجة رقيقة :

ـ صباح الخير ياسيدى ••

ولم أشعر فى حياتى بلذة الحلاقة كما شعرت فى ذلك اليوم •

وعندما عدت الى الدار ، وجلست فى غرفة الجلوس ، ألقيت رأسى الى الوراء ، وضحكت ضحكا عاليا ، حتى انهمرت الدموع من عينى •

كنت أحس فى الواقع أننى كنسر أسير أطلق سراحه ، ليحلق مرة أخرى فى الفضاء •

وكانت تلك أول ضحكة صادقة تصدر من أعماقى منذ سنوات !

***

واقترب موعد تخرجى وعودتى الى الوطن ، فأخذت أتحدث مع مسز أوستس ، وجاك همفرى عن آمالى ومشروعاتى لاعداد كلاب لارشاد العميان فى أمريكا ، وكنت أريد أن أستعين بهما على تنظيم مركز للتعليم يستطيع العميان الآخرون أن يتدربوا فيه مثلما فعلت •

ولكن أين نبدأ ، ومن أين نأتى بالمال ؟ وهل نستطيع الحصول على العدد الكافى من الكلاب الذكية فى الولايات المتحدة ؟ ومن الذى سيقوم بتدريبها هناك ، وتعليم العميان طريقة استخدامها ؟

لقد كانت « ناشفيل » هى مسقط رأسى ، ومن ثم فقد قررنا أن نبدأ عملنا هناك ، على أن تزودنى مزرعة (الحقول السعيدة) بالكلاب الاولى والمدربين ، حتى اذا نجحت فى الحصول على معونة بعض المؤسسات الخيرية ، أمكننى أن أبدأ تدريب أكبر عدد ممكن من العميان فى أمريكا •

وقالت مسز أوستس أن نجاحى فى هذا العمل يرتكز على دعامتين : الاولى اقناع الناس بفائدة الكلاب فى مساعدة العميان ، وذلك عن طريق تنقلى مع بودى الى مختلف المدن •

أما الدعامة الثانية ، فهى تجاهل اللافتات التى توضع فى المطاعم والفنادق والمكاتب والقطارات وغيرها من الاماكن بمنع دخول الكلاب ، فلا فائدة من الكلب للاعمى اذا لم يلازمه كظله •

***

كانت رحلة العودة على النقيض تماما من رحلة القدوم ، فقد غدوت الآن رجلا حرا قادرا على حضور الحفلات والاستماع الى الموسيقى الراقصة ، والمشاركة فى الحفلات الاجتماعية. وهكذا أخذنا أنا وبودى نقضى اليوم كله وبعض الليل نذرع السفينة كلها ، وقد اجتذبت بودى بذكائها وطبيعتها التى تنطق بالود والمحبة قلوب ركاب السفينة ، وعن طريقها أصبح لى من الاصدقاء فى ساعة واحدة أكثر مما اكتسبت خلال رحلتى السابقة كلها •

وبينما كنا نقترب من نهاية الرحلة، ذهبت الى طرف الباخرة لاستبدل بالعملة الفرنسية التى أحملها عملة أمريكية ، وبعد أن أخذت النقود ، دسست الحافظة فى جيب معطفى ، وبدأت فى العودة الى مقصورتى ، وكانت الرحلة طويلة بين ممرات كثيرة متعرجة •• وماكدت أستلقى على فراشى ، حتى لمست بودى ذراعى بمخالبها ، ولكنى لم أعرها اهتماما، وبعد قليل أحسست بها تقترب منى مرة أخرى فتجاهلتها ،ولكنها وضعت يديها الاماميتين فوق صدرى وألقت عليه شيئا، ما أن مددت يدى لالتقطه حتى وجدته حافظتى التى تحوى كل نقودى !

لقد سقطت الحافظة منى بعد أن أخذت النقود من الصراف ، فالتقطتها بودى وظلت تحملها طوال الطريق حتى عدت الى غرفتى ••

***

وفى ميناء نيويورك واجهت الاختبار الأول مع بودى عندما تحدانى أحد الصحفيين أن أعبر شارع (وست) ولما لم أكن أعرف هذا الشارع من قبل ،فقد قبلت التحدى ، فان اتساع هذا الشارع يزيد على ٢٥٠ قدما ، وحركة المرور فيه مزدحمة بصورة ليس لها مثيل •

وأمرت بودى بالانطلاق الى الامام • ووصلنا الى شارع يمتلىء ضجيجا،

وكأننا نخترق حاجز الصوت . وما أن سارت بودى بضع خطوات حتى توقفت ، ودلنى الصوت الذى كاد يصم أذنى واندفاع الهواء الساخن الى وجهى على أن سيارة نقل ضخمة كانت منطلقة أمامى ، وراحت بودى تسير قليلا ثم تتوقف ، أما أنا فقد نسيت كل شىء ، وأسلمت نفسى لها تماما .

كانت السيارات تمضى من حولنا بسرعة خاطفة ، وأبواقها تصم الآذان ، وصوت سائقيها يصيح فى وجوهنا .

وأخيرا ، وصلنا الى الناحية الاخرى من الطريق ، حيث التقط مصورو الصحف هذا المنظر المثير .

وفى خلال الفترة التى أقمناها فى نيويورك ، كان رجال الصحف ومصوروها فى أثرنا باستمرار ، ونحن نعبر كل شوارع المدينة وميادينها الكبرى ، ذات المرور المحير المربك لذوى العيون المبصرة .

وأخذ الناس يتحدثون عن بودى فى كل مكان ، ولم يمض أسبوع واحد ، حتى كانت قد غزت أكبر مدينة فى العالم ، وأصبحت ذات شهرة طاغية . وقبل أن أغادر نيويورك ، قمت بزيارة وكالة هامة لرعاية العميان ، وأخذت أدلل لمديرها — وهو أيضا أعمى — على فائدة مشروعى ، وطلبت اعانتى على انشاء منظمة تورد كلاب الارشاد وتدربها ، ولكن الرجل اعتذر بكل أدب ، فلم يقتنع بجدوى هذا العمل .

وكانت هذه المقابلة الاولى فى سلسلة من المقابلات المخيبة للآمال فى نيويورك وغيرها من المدن الاخرى .

ويئست أخيرا من الحصول على أية معونة من المؤسسات الخيرية .

وكان علينا أن نبدأ من العدم !

***

كان الفندق الصغير الذى أقمت فيه بنيويورك قد رحب ببودى وقبل وجودها معى ، ولكننا ماكدنا نسافر الى فيلادلفيا ، حيث واجهتنا مشكلة لافتات « ممنوع دخول الكلاب » . فقد رفض كمسارى القطار السماح لها بركوب القطار معى ، ولكنى لم أعبأ به ، ودخلت العربة معها ، وجلست فى مقعدى بينما زحفت هى تحته .

وتبعنى الرجل محاولا إخراجى ، ولكن بودى كشرت له عن أنيابها ، فتردد ، ثم تراجع تاركا ايانا .!

وعدت أخيرا الى دارنا ، حيث رحبت أسرتى كلها ببودى ، وكانت أمى أول من أحبها ولا سيما وهى تلعق يديها فى اخلاص ، وكأنها تقول لها : لقد أحضرت لك ابنا جديدا !

وبللت الدموع عينى أمى •

وأصبحت الحياة فى ناشفيل مختلفة تماما بالنسبة لى بعد ذلك ، فقد أصبح فى امكانى أن أذهب الى أى مكان ، وأحبت بودى عملها ، فأخذنا تمضى ساعات سعيدة نطوف بشوارع البلدة ، التى كانت مألوفة لى ، حتى اننى كنت أراها بوضوح من الذاكرة •

وعدت أخرج لمقابلة أصدقائى وصديقاتى من أيام الدراسة ، وأخذت أساهم فى كثير من وجوه النشاط العادية ، واستطعت أن أتحدث مع الناس جميعا بحرية ، وكان الفضل فى ذلك لبودى ، فقد كان يكفى أن يقول لى أى انسان : ما أجمل هذه الكلبة ، حتى نبدأ الحديث •

وتقدمت أعمالى كثيرا فى بيع بوالص التأمين ، فلم يعد الزبائن يتهربون منى ، بل أخذوا يرحبون بى ، وكانوا تواقين الى سؤالى عن بودى ، ومراقبتها أثناء عملها •

وسرعان ما وافق الجميع على أن بودى يجب أن تذهب معى الى كل مكان ، وأن تركب معى فى السيارات العامة رغم أنف لافتات (ممنوع دخول الكلاب) • ولم يكد يمر وقت قصير ، حتى كانت البلدة كلها قد أحبت بودى • وعندما التقطت شركة براموننت فيلما سينمائيا لها ، أعلنت عنها بحروف ضخمة ، ضعف الحروف التى أعلنت بها عن رواية (غادة الكاميليا) لجريتا جاربو !

وراحت أنباء بودى وقصصهنا تملأ صفحات الجرائد والمجلات فى أنحاء أمريكا ، بينما أخذت الرسائل تنهال على من كثيرين من العميان ، وكان بينها رسالة مؤثرة من قس شاب فقد بصره منذ ثلاثة أعوام فلم يستطع الذهاب بنفسه لزيارة رواد كنيسته فى منازلهم ، وقد التمس منى أن أعاونه فى الحصول على كلب مثل بودى ، يساعده فى أداء عمله •

وأحسست أن الوقت قد حان أخيرا لفتح المدرسة • وعرضت الامر على مسز أوستس فوافقت سريعا ، وبعثت الى بكلبين مدربين ، كما أعد جاك همفرى بعض المدربين •

وفى يوم من أيام شهر يناير البادرة ، وصل جاك ، وكانت بودى أول من رحب بوصوله ، وكان منظر لقائهما مثيرا للغاية •

وبدأنا عملنا فى مكتب صغير ، واستأجرنا مبنى قديما لايواء الكلاب ، وشرعنا فى اعداد برامج الدراسة وأماكن لاسكان الطلبة • وساعدنا الحظ على الاتصال بشخص يدعى

ابلنج، كان يقوم بتربية كلاب الرعاة الالمانية ، وقد اهتم الرجل بمشروعنا اهتماما كبيرا ، حتى انه حضر بنفسه الى ناشفيل ، وأصبح واحدا من جماعتنا •

وفى أواخر يناير سنة ١٩٢٩ وصلت مسز أوستس من سويسرا ، حيث أنشأنا مؤسسة « العين المبصرة » التى قررنا جعلها مؤسسة لاتبغى الربح ، وعينت مسز أوستس رئيسة لها ، وأصبحت أنا المدير ووعدت السيدة الكريمة بأن تدفع كل نفقاتنا ، كما وعدنا ثلاثة من الاصدقاء بمبلغ ٢٥٠٠ دولار لمدة عام •

وهكذا فتحت مدرستنا أبوابها بعد عام وثلاثة أشهر من قراءة المقال المبارك الذى نشر فى صحيفة بوست!

***

وبدأنا العمل بفصل واحد يضم طالبين اثنين ، لاننا لم نكن نملك أكثر من كلبين مدربين ، وبعد شهر، افتتحنا الفصل الثانى بخمسة كلاب، تم تدريبها فى معهدنا •وكانت فترة تدريب العميان تستغرق أربعة أسابيع •

وفى نهاية العام الثالث ، بعد أن انتقلنا الى مقرنا الجديد على مقربة من (موريستاون) فى نيوجيرسى كانت مدرستنا قد أعادت الامل الى قلوب خمسين رجلا وسيدة ، لم يقع لاحد منهم أى حادث جدى •

ووجدت السيدة أوستس فى تلك المنطقة مزرعة نموذجية مساحتها حوالى ٥٦ فدانا ، فابتاعتها ووهبتها لمؤسسة « العين المبصرة » ، وقد ضمت الادارة ومساكن الطلبة ومأوى الكلاب •

وزاد عدد مدربينا ، فأحسست أن فى استطاعتنا الآن أن نتوسع فى أعمالنا ، لنستطيع مساعدة مئات الطالبين الذين كانوا ينتظرون دورهم بفارغ الصبر •

وذاع صيت مؤسسة « العين المبصرة »فى أنحاء الولايات المتحدة ، فتلقينا كثيرا من الهبات والتبرعات ورغب الكثيرون فى زيارة المؤسسة ومشاهدة (بودى) النجم الاول فيها •

وقررنا بعد ذلك أن أقوم بجولة فى أنحاء البلاد لالقاء محاضرات عن العمل الذى نقوم به ، وكانت أول محاضرة ألقيتها فى لويزفيل أثناء انعقاد المؤتمر الدولى لنوادى الليونز الذى شهده ٧٥٠٠ عضو• وأخرجنا فيلما لبودى وهى ترشدنى عبر حركة المرور المزدحمة ، والطرق الوعرة ، ولقى هذا

الفيلم نجاحا هائلا •

وطلبنا الى كل من يلتحق بمعهدنا أن يدفـع ثمن كلبه بعد أن خفضنـا سعره الى أقل من النصـف ، حتى يشعر كل منهم أنه غير مدين لأحد ، فيفقد احترامه لنفسه

وكان بين طلبتنا الذين نفخر بهم أم صـغيرة من ميـلووكى ، تدعى (مارى) كانت تعمل فى أحدالمصانع وكانت الكلبـة التى دربنـاها على ارشادها تسـاعدها فى الذهاب الى عملهـا والعودة منه ورعاية طفلهـا الصغير •

وكنت خلال جولاتى ، أحرص على أن أعود الى (موريستاون) مرة كل شهر على الاقل ، وهناك كانت بودى تجلس أمام النافذة لتتمتع بمراقبـة بقية الكلاب ، وهى تتلقى تدريباتها اليومية •

وقد أنقذتنى بودى من الموت مرارا، فقد حدث ذات مرة وكنت أسبح فى بحيرة متجها نحو طوف خشبى كبير يتوسطها ، أن فشلت فى معرفة مكان الطوف ، فأخذت أدور فى غير اتجاه ، حتى أحسست بالتعب الشـديد ، وأردت العودة، فلم أعرف أى طريق أسلك ،وعندئذ رفعت صـوتى مناديا بودى ، وبعد ثوان سمعت صوتهـا وهى تضرب الماء بقوة حتى أصبحت الى جوارى ، لتقودنى الى بر الامان !

وقد كافحت مسز أوستنس كفاحا نبيلا رائعـا حتى كسـبت معركة الدخول بالكلاب المرشدة الى المحـال العامة وركوب القطارات وسيـارات الاتوبيس • وصـدرت الاوامر الى موظفى السكك الحديدية فى بنسلفانيا بالسماح لـكلاب مؤسستنا بركوب القطارات ، وكانت تلك هى البداية ، اذ مالبثت كل الخطوط الاخـرى أن أصدرت أوامر مماثلة •

وحرصت مسز أوستنس على أن تدعونى مع بودى لقضاء عطلة نهاية الاسبوع فى ضيافتها أوضيافة بعض أصدقائها من عليـة القوم والاثرياء ، وهـكذا تعرفت الى فريق من الناس يستطيع أن يساعدنا ماليا ، ويعاون طلبتنـا على الحصول على أعمال فى المصـانع والشركات •

وفى خـلال اقامتى فى ديترويت ذات مرة ، تلقيت رسـالة من هنرى فورد ملك السيارات قال فيها :

« لقد قرأت كثيرا عن بودى ،وأود أن ألقاها •• »

وقد رحب بنا الرجل الكبير ترحيبا حارا ، وصافح بودى بيده بعد أن أعجب بذكائها وعبقريتها •

***

وبعد خمس سنوات من زمالتي لبودي، ظهر نتوء صغير تحت معدتها، ففحصها عدد من أعظم الاخصائيين بمستشفى فانديلت الشهير ، وتبين أن هذا الورم سرطاني . وقد قام الدكتور الفريد بلالوك الجراح الكبير باستئصال الورم بنفسه ، وأمضت بودي فترة النقاهة محاطة بأعظم رعاية ينالها مريض من بني البشر .

وظلت بودي تواصل عملها بعد ذلك طوال عامين آخرين ، وفي العام الثالث ، بدأ عليها التعب والارهاق . فأخذت تبطىء في حركاتها ، فقد أصبحت الآن في السنة الثانية عشرة من عمرها .

وحانت النهاية في ليلة من ليالي عام ١٩٣٨ ، حيث لفظت أنفاسها الاخيرة بين يدي .

وتلقيت يومئذ أكثر من ٣٤٠٠ رسالة وبرقية عزاء من كل مكان في العالم .

وفي ذلك الحين ، كنا قد أتممنا تدريب ٣٥٠ كلبا ، أعادت الامل الى كثيرين من الرجال والنساء الذين فقدوا نعمة البصر ، وانطلقت تقودهم في كل مكان في الحقل والمصنع ، في المدينة والقرية .

وهناك اليوم حوالي ٣٠٠٠ كلب مرشد ، تذهب بأصحابها لا الى أنحاء أمريكا فحسب ، بل الى هاواي والاسكا وبورتوريكو وكندا . . . والفضل في ذلك كله للصديقة المخلصة .. بودي !

الكلب لا يستلطفه !

اتصلت سيدة تليفونيا بالمسئولين في مركز ادارة البريد ، وشكت من ساعي البريد الذي عين أخيرا في منطقتها . وأخذت تشرح للمسئولين في حنق أن كلبها كان قد ألف ساعي البريد السابق واعتاد عليه ، ولكن الساعي الذي عين أخيرا يتسبب في مضايقة الكلب كلما مر من الطريق .

فقال لها أحد المسئولين في الادارة : وأين كلبك الآن ياسيدتي ؟

ـ انه تحت الشجرة !

ـ وأين ساعي البريد ؟

ـ أوه .. انه فوق الشجرة .. والكلب يضيق بذلك ولا يكف عن النباح !!

(أ . ب)